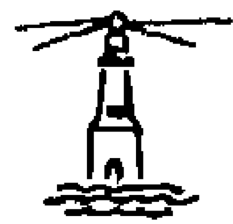
تاريخ
الأدب العربى
١

# العصر الجاهلى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية والعشرون



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة فى تاريخ الأدب العربى أدّتْ كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث فى أدبنا وأدبائنا على مرّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بَسْطاً مفصلا دقيقاً . وأغزرُ هذه الكتب وأحفلُها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربى» لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتّابنا ، بل تُفيض فى الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صِنْف وعلى كلّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة فى مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتب عنهم قديماً وحديثاً. وهذه العناية من وصف التراث العربى جميعه جعلتْ بروكلمان لا يُعْنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا ببحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخيّاً نقديّاً تحليليّاً ، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تُبْحَثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسْهباً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تامّاً ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملا ، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العبْء ، وأنا أعلم ثِقَلَ المئونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنْشَر ، وكثيراً مما نُشر فى حاجة إلى أن يعاد نشره نشراً علميّاً . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبى ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً

كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملا سهلا ، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهى لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه ، حقًّا تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربى تأريخاً مفصلا دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف فى الوقت نفسه لذّته فيه ، إذ يرى أمنيته فى إتقان عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيَجِدّ ويُلحّ ، ويمضى فى الجِدّ والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحثُ الأدبىّ لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربى الخاص بالعصر الجاهلى ــ والذى ستتلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ ــ لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعم أن هذه الصورة هى التى استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحرَّيت من دقّة ، وقد يأتى بعدى منْ يعدِّل فى جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابتْ عنى فى بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال فى نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والفكر والعمل ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

القاهرة فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠ — شوقى ضيف

# تمهيد

## ١

### كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التى تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائى البليغ الذى يُقْصَد به إلى التأثير فى عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلى تنقّب عن الكلمة فيه لم نجدها تجرى على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة آدب بمعنى الداعى إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد[1] :

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى  لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرْ[2]

ومن ذلك المأدُبة بمعنى الطعام الذى يُدْعَى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدُبَ يأدُب بمعنى صنع مأدُبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت فى العصر الجاهلى من هذا المعنى الحسى إلى معنى آخر ، غير أننا نجدها تُسْتَخْدم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معنى تهذيبى خلقى ، ففى الحديث النبوى : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »[3] ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

---

(١) انظر ديوان طرفة ( طبعة آلوارد ) القصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المشتاة : الشتاء ، الدعوة الجفلى : العامة ، الآدب : الداعى إلى الطعام ، لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ( طبع القاهرة ١٣١١ هـ ) ج ١ ص ٣ .

الغَنوى بنفس المعنى إذ يقول (١) :

لا يمنعُ الناسُ منِّى ما أردتُ ولا أعطيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذَا أدبا

وربما استُخدمت الكلمة فى العصر الجاهلى بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن . وذهب « نالينو » إلى أنها استخدمت فى الجاهلية بمعنى السنّة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب ، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آداباً جمع أدب ، فدارت فى لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة. ، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشِّيم (٢) . وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم ، شأنها فى ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التى تستخدم أولا فى معنى حسى حقيقى ، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى .

ولا نمضى فى عصر بنى أمية حتى نجد الكلمة تدور فى المعنى الخلقى التهذيبى ، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمى فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدِّبين ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم فى الجاهلية والإسلام . وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذى كان يُطلَق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوى وتفسير القرآن الكريم .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا المعنيين التهذيبى والتعليمى يتقابلان فى استخدام الكلمة ، فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروباً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

(١) انظر الأصمعيات (طبع دار المعارف) رقم ١٢ بيت ٣٠ .

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لكارلونالينو (طبع دار المعارف) ص ١٤ وما بعدها .

الحماسة الذى جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذى عقده البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠ م فى مؤلفه المشهور فى الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذى صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م. وفى هذه الأزمنة أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتبَ أدب مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل فى اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ هـ وقد وجّه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التى ارتقت صناعتها فى تلك العصور ، جاء فى مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ». ومما أُلّفَ فى الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وزهر الآداب للحصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمى الخاص بصناعتى النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى والثقافى ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ : « الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية[١] ، وثلاثة أنوشروانية[٢] ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس »[٣] . وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها فى رسائلهم إلى جانب

---

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهارجة أو الشهاريج وهم أشراف الفرس .
(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١-٥٧٩ م.
(٣) انظر زهر الآداب للحصرى (طبع مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات[١] . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهى تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[٢] .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل — فيما تدل عليه — على السنن التى ينبغى أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ ﻫ . وتوالت كتب مختلفة فى أدب القاضى وأدب الوزير وأخرى فى أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل معنى كلمة Littérature الفرنسية التى يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب فى اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذى لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعانى ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلا بحيث يؤثر فى عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف فى صناعتى الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

---

(١) راجع الرسالة السابعة من القسم الرياضى فى رسائل إخوان الصفا .

(٢) مقدمة ابن خلدون ( طبعة المطبعة البهية ) ص ٤٠٨ .

٢

# تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ فيه لأعلام الثقافة والفكر والأدب فى الأمة تاريخًا عامًّا ، وإما أن يلتزم فيه المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتَّاب تاريخًا خاصًّا بالأدب وتطوره وظواهره ، مع مقدمات تاريخية واجتماعية وثقافية عامة ، ومع بحث شخصيات الأدباء ومذاهبهم الفنية بحثًا تاريخيًّا نقديًّا تحليليًّا . ولعل أهم مَنْ أرَّخوا للأدب العربى بالمعنى الأول العام بروكلمان ، وكتابه : « تاريخ الأدب العربى » أشبه بدائرة معارف عامة تستقصى الآثار المطبوعة والمخطوطة فى مشارق الأرض ومغاربها للفلاسفة والعلماء العرب من كل صنف وللشعراء والكتاب من كل نوع ، بحيث يمكن أن يسمَّى تاريخه تاريخًا للتراث العربى ودراسة له ببليوجرافية . وعلى منوال بروكلمان نسج جرجى زيدان فى كتابه : « تاريخ آداب اللغة العربية » وفؤاد سزكين فى كتابه : « تاريخ التراث العربى » . وكتاب بروكلمان أغنى وأخصب مادة .

ومؤرخ الأدب العربى إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثانى الذى أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصِّلا الحديث فى شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً فى بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى شاعت فى كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربى بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع المونق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذى يُراعَى فيه الجمال الفنى والتأثير فى ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار فى نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخاً مفصلا لا يكتفى فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان فى تاريخه العام ، بل يكتب فى ذلك الفصول الواسعة مطبِّقاً المناهج الحديثة فى دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .

وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية فى القرن الماضى على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخى الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بيف ( Sainte-Beuve ) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقُّب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء فى فصائل وأسَر على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه فى أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه فى طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين ( Taine ) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب فى كل أمة وهى الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوِّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعى ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبريًّا ملزماً، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هى مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التى تطبع الأدباء بطوابعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقاده أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التى تجعل منه أديباً بعينه ، له مقوماته .

وبجانب هذين المنهجين فى دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونتيير ( Brunetière ) الذى فُتن بمذهب داروين المعروف فى التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقائها ،وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هى : المسرح والنقد الأدبى والشعر الغنائى ، فتتبع كلا فى نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائى الرومانسى فى القرن التاسع عشر من الوعظ الدينى الذى شاع بفرنسا فى القرن السابع عشر ، فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولّد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوى من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التى اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون فى القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعدها لم تلبث أن هدأت فى أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقاده يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردى وعُقَد الجنس ومكبوتاته واللاشعور الجماعى ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التى تتجلى فى الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص مفيدين من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التى فسح لها سانت بيف فى دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبى ، فما من شك فى أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبى جديد لا سابقة له فى الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا فى الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك مَنْ يدرس فن المقامة فى العصر العباسى ، فإنها فى رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه فى العصر الأموى عند رؤبة ونظرائه من تعليم الناشئة والموالى ألفاظ اللغة العربية الغريبة وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية فى المقامة عند بديع الزمان والحريرى وما بين الفنين من صلات وروابط . ولابد أن نستضىء فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . وبجانب ذلك لابد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولا بد من المقارنة بين السابق واللاحق فى التراث الأدبى العربى جميعه .

٣

## تقسيمات تاريخ الأدب العربى وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربى وزعوا حديثهم فى هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هى (١) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام (٢) والعصر الإسلامى من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذى تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموى . (٣) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسى ويستمر إلى سقوط بغداد فى يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسى الأول ويمتد نحو مائة عام، والعصر العباسى الثانى ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام، يبقى فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسى الثانى فيقف به عند سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ م وهى السنة التى استولى فيها بنو بويه على بغداد والتى أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسى الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسى الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ويستقل القسم الثانى أو العصر العباسى الرابع ببقية العصر . (٤) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨م (٥) ثم العصر الحديث الذى يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبقى فى كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسى فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبقى على قسمين منه : عصر عباسى أول ينتهى بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، وعصر عباسى ثان ينتهى باستيلاء

البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدئ عصراً رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس فى إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمدانى فى حلب والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين فى مصر والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفوهم فى الأندلس . وحريّ أن يبحث الأدب العربى فى هذا العصر الرابع ويؤرَّخ فى كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك فى أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربى أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التى أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .

## الفصل الأول

# الجزيرة العربية وتاريخها القديم

### ١

### صفة الجزيرة العربية[1]

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربى لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات فى جنوبيها وغربيها وشرقيها ، فهى شبه جزيرة ، وليس فى الأرض شبه جزيرة تضاهيها فى المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية فى الزمن المتعمق فى القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذى يمتد فى غربيها ، كما يرون أنه كان يغطى جزءاً منها فى العصر الجليدى مروج خضراء ،وكانت تجرى بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة. ويطلّ عليها فى الجنوب المحيط الهندى وفى الشرق بحر عُمان وخليج العرب. وتترامى متوغلة فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً .

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة ، أما العربية الصحراوية فلم يعيِّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التى تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع فى شماليها مملكة تدمر التى حكمتها أسرة الزبَّاء المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها فى شمالى الحجاز وجنوبى البحر الميت ، وهى التى أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع « بطرا »

---

(١) انظر فى صفة الجزيرة العربية كتب الجغرافية العربية و كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ( طبع بغداد ) ج ١ ص ٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب ( مطول ) لفيليب حتى ( الترجمة العربية ) ج ١ ص ١٥ ومابعدها وكتاب «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة فى عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبيها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثانى .وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هى : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتهامة هى المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القُلْزُم أو البحر الأحمر . وتسمى فى الجنوب باسم تهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها فى بعض الأمكنة خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها الغَوْر لانخفاض أرضها ، وهى أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرافئ والثغور مثل الحديِّدة فى اليمن ومثل جدة وينبع فى الحجاز . ويقع فى شماليهما ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْر المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفى جنوبى الوجه قرية الحوراء وربما كانت هى الموضع الذى أرسى فيه إليوس جالوس القائد الرومانى بجيوشه سنة ٢٤ ق .م وهى الغزوة التى أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباءت بالفشل الذريع .

وتمتد فى شرقى تهامة سلسلة جبال السَّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة إقليم الحجاز المعروف ،وتكثر فى هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والحرَّات وهى أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت فى هذه الأراضى آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادى القُرى فى شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادى قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة فى الجاهلية ومدينةُ الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادى مثل خَيْبر وفَدك ، وامتدوا إلى تَيْماء فى الشمال ويثرب فى الجنوب . وكان ينزل فى هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُذْرة وبَلِىّ وجُهَيْنة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء. وعثر المنقبون فى وادى القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللِّحْيانية. وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندى ، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتّجرون فى أسواقها ويبتاعون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف ، وقد أقيمت على ظهر جبل غَزْوان ، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أتاحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثر فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً فى هضبة نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العَروض وهى بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلى الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلى العراق فيسمونه السافلة ، بينما يسمون شرقيها إلى اليمامة باسم الوشوم وشماليَّها إلى جبلى طيئ : أجأ وسلمى باسم القَصيم ، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغَضا وهو ضرب من الأثْل ، وإليه يُنْسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا . وشمالى نجد صحراء النفود وهى تشغل مساحة واسعة ، إذ تبتدئ من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء ، تتخللها مراع فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب ، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهى منازل قبيلتى تميم وضبّة فى الجاهلية والإسلام ، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت فى الرُّبْع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع ، وهى تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومَهرة والشِّحْر وحضرموت من جهة ثانية ، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التى تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التى تطوق نجداً فى الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ، وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار فى الشتاء حلة قشيبة من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم فى الشمال بادية الشام وهى كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاهما[١] . وعَدّ ياقوت فى معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى ، مثل حَجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتى طَسْم وجديس البائدتين . وقد عُثر فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس فى الجاهلية ، وهى تشمل الآن الكويت والأحْساء وجزر البحرين وقطر ، وتكثر فى هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة فى الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجر وفى أمثالهم «كجالب التمر إلى هجر» ، والقَطيف وكانت تسمى أيضاً الخطّ وإليها تنسب الرماح الخطية . وفى جنوبى البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودَبا وكان بها سوق مشهورة فى الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج اللآلئ .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حَضْرموت ومَهْرة والشِّحْر ، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تِهامة اليمن وجبال موازية للساحل هى امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها «جنّتان عن يمين وشمال» . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولا وحضارة منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى . ويسمى قسمها الشمالى المجاور للحجاز باسم عَسير ، وكانت تنزله قبيلة بَجيلة فى الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبيد وظَفار وصنعاء وعدن ونَجْران . ومن أشهر وديانها تَبالة وبيشة وكانت به مأسدة . وتمتد شرقى اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، فإقليم مهرة ، والشِّحْر ومعناه فى اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو فى جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللُّبان الذى اشتهر به جنوبىّ بلاد العرب فى الجاهلية .

ومناخ الجزيرة فى جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر فى نجد رياح السموم التى تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيًّا ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا ، وأكثرَ شعراؤهم من ذكرها . أما ريح الشمال فباردة وخاصة فى الشرق إذ تتحول إلى صقيع فى كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا فى الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية فى الصيف ، وإلا فى الشمال الغربى حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة فى اليمن وشمالى الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس فى معلقته سيلا جارفاً حدث بالقرب من تيماء حيث كانت منازل بنى أسد . وتقل الأمطار فى الداخل ولقلتها سموها غَيْثاً وحَياً (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجدبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرِّعاء . ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجدب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة فى طلب العُشْب والكلأ ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراع جديدة . وليس فى الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة مالحة فى الرّبْع الخالى ، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفى الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ، كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشتهر الطائف بالكروم ، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها فى الخمر بل كانوا يعتمدون أيضًا على مدن الشام . والنخلة أهم الأشجار فى الجزيرة كلها . ويتردد على ألسنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العَرار والخُزَامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغَضا والأَثْل والأَرْطى والسِّدْر ( الطَّلح ) والحنظل والضَّال والسَّلَم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام ووحشيِّه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتُنه وثور الوحش وبقره ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر . ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغراب ، وقلما وصفوا منهلا دون أن يذكروا القَطا وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النَّحْل واشتهرت به هذيل التى كانت تعنى ببيوته وخلاياه . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والوَرَل والضبّ ، وفى أمثالهم : « أعقد من ذنب الضبِّ » .

## ٢

### الساميون(١)

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب فى الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت فى الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سمّيت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذى ورد ذكره فى التوراة، وهى تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوى واحد ، إذ تتشابه فى أصول أفعالها وأزمانها وفى كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكدية ( البابلية والأشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريتية ( لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية ( الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهى الفصحى وعربية جنوبية وهى لغة بلاد اليمن وما والاها فى الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتساءل العلماء عن المهد الأصلى لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم فى هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين فى موطن واحد ، لعله فى شمالى إفريقية أو فى ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين فى أواسط آسيا أو فى أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا فى شمالى سوريا ، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذى يتعمق فى عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم فى العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ، فقد نزلوا بها واستقروا فيها

---

(١) راجع فى الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب(مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة لطه باقر ( الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ – ٣٠٦ .

وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه فى لغاتهم .

ودفعهم جدْب الجزيرة وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى الهجرة فى موجات يتلو بعضها بعضاً فى فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله فى الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين ( البابليين والأشوريين ) خرجت من الجزيرة إلى العراق فى أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه فى الحضارة والعمران . ولا نمضى طويلا فى النصف الثانى من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أكّد كان أهم ملوكها سرجون الأول ( فى حدود ٢٣٥٠ ق.م ) الذى مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرفت فى الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل فى أوائل الألف الثانى ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابى الذى تولى الملك فى القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسيًّا ومشرعاً عظيماً ، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التى سجل عليها فى ثلاثمائة سطر شريعته ، وهى تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلى القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون فى عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصص . على أننا لا نمضى طويلا حتى تفد أمم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتخرّب بابل ؛ ولا يلبث الحيثيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها فى أوائل القرن السادس عشر ق.م . وبينما كانت بابل تعانى من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الأشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكدية . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى فى بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر ، ولغتهم الأشورية تخالف البابلية فى بعض خصائصها ، وقد ازدهرت فى عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب . ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تنهكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على حاضرتهم نينوى . فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيين ( ٦٢٦ — ٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدونى فى القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك ينتهى تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التى خرجت من الجزيرة العربية هى موجة الكنعانيين ، وقد بدأت فى خروجها منذ أوائل الألف الثانى ق. م ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صَيْدا وصور وجُبَيْل وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد أسسوا لهم مستعمرات فى إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدى وعنهم انتشر فى العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا فى شمالى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا فى شمالى اللاذقية وفيها شعر وحكم . ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا فى شرقى الأردن وأسسوا به مملكة فى القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق.م وقد استولى الأشوريون على مملكتهم الشمالية فى القرن السابع ق.م. وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م وأجْلَى سكانها إلى بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها فى تعاليمهم الدينية وفى بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التى خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق.م. والمظنون أنهم كانوا بدواً رحّلا يتنقلون شمالى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكوّنوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين . ونراهم فى القرن الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات فى الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم فى القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكونون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت فى حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم فى شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى ، وكانت تلتقى فى شمالى الحجاز بقوافل اليمن وقوافل الثموديين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الأشوريين ، فقضوا عليها واحدة بعد أخرى. وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم فى التجارة وكتبوا بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا فى ممالك غربى آسيا ، فكان ذلك سبباً فى انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم ، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة فى أبجديتهم ، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية ، وقد أصبحت اللغة اليومية للأشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب المهمة فى ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة فى هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والأشورية والفينيقية. وقد كُتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية فى مدارس الرُّها فيما بين النهرين ومدرسة جُنْدَيْسابور الفارسية وغيرهما . ومن لهجاتها أيضاً لهجة الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية فى الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغةُ القرآن الكريم ، وإن ظلت معروفة فى بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية ، وقد بدأت فى أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندى . ويظهر أن جماعات ممن نزلت في تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغلت فى هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم فى سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى .

## ٣

### العرب الجنوبيون[١]

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون فى الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا فى الجملة بدواً رُحَّلا ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشْب والكلأ. ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون فى الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة فى العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تامًّا . وقد استطاعوا أن يَشيدوا سدّ مأرب لحبس الماء فى فصل الأمطار ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصهاريج ، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الرى الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالا منذ الألف الثانى ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقية وأفاويه اليمن وعُروضها من اللُّبان والطيب والبخور وتعود محمَّلة بعُروض البلاد التى تتجر فيها .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلا ، فهو لا يتجاوز إشارات

---

(١) انظر فى أصل تسمية العرب باسمهم كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١٦٩/١ وراجع فى تاريخ العرب الجنوبيين كتاب التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين على (نشر وزارة التربية والتعليم) وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣٧٥/١ ، ٨/٢ - ٢٧٦ ، ١٣٦/٣ - ٢١٤ .

وردت عنهم فى العهد القديم وفى بعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفى كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضى ، فقد جد علماء الغرب فى قراءة نقوشهم المنثورة على الأبراج والهياكل والنُّصُب والأحجار ، وهى مكتوبة بخط يسمى الخط المُسْنَد ، وهو خط سامى قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التى كتبت به ولهجاتها ، فهى لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هى مملكة مَعين وكانت حاضرتها معين فى الجوف اليمنى ثم مملكة سبَأ فى جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتَبان فى الجنوب الغربى لسبأ وعاصمتها تِمْنَع ، والمملكة الأوْسانية جنوبى قتبان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شَبْوة . ويظهر أنه كان للمعينيين دولة قوية منذ القرن الثانى عشر ق . م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين ، أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا فى الجنوب فحسب ، بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال ، فقد وجدت نقوش معينية فى شمالى الحجاز بدادان فى منطقة العُلا الحالية وفى الحِجْر أو مدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا فى هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كى تحميها ، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائرهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم فى الشمال .

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعينين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبى كله ، كما يمدونه على مراكز المعينيين فى الشمال ، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سَدِّها وخرابه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالى سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثانى أسطولا بحريًّا فى البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُروض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً فى

شئون السبئيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك رَيْدان أصحاب ظَفارِ وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق. م حتى نجد إليوس جالوس والى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلا ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة فى البحر الأحمر، ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلّوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شئونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدبّ فى البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم فى منتصف القرن الرابع الميلادى وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتّها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفى نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادى واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب فى بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أعد لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية فى أواخر العصر الجاهلى .

وفى هذه الأثناء تغلغلت اليهودية فى الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود فى القرن الأول للميلاد ، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب ، واعتنقت مدينة نجران فى القرن الخامس هذا الدين الجديد ، وربما كان السبب فى هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفزع ملوك حمير تغلغل النصرانية فى ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين ، فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية ، ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين فى نجران ، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشى أن يغزو اليمن ، فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشى نحو خمسين عاماً، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة ، وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة ، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنق باذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينتهي التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً فى تاريخ الحضارة العربية القديمة ، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأتهم من الخارج ، بل نمت وتطورت فى الداخل ، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم ، وكان لهم قَدَمٌ راسخة فى عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود. وكانوا يؤلهون السيارات الفلكية والنجوم ، وأثرت دياناتهم الوثنية فى العرب الشماليين إذ يُظَنّ أنهم أخذوا عنهم – كما أخذوا عن الآراميين – عبادة الكواكب ، وكانت تقوم على أساس ثالوث هو القمر واسمه عند المعينيين وَدّ ، وكان إلههم الأكبر ، وتليه الشمس التى اعتبروها زوجه وهى اللات ، ومنهما ولد عثتر أو العُزّى أى الزهرة أو ڤينوس . وبجانب هذا الثالوث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب دينى كثير ، إلا أن الإسلام قضى عليه كما قضى على الأدب الوثنى فى الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين ، فأثروا فيهم آثاراً بعيدة . وظلوا حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مبايناً لهم ، على الأقل من حيث النَّسَب ، فكانوا يُدْعَوْن القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دُعى عرب الشمال باسم العدنانيين أو النزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت فى الأكثر جوار الأمم المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما فى الشام ونزلت لخم فى العراق . ومنهم من نزل فى داخل الجزيرة وأظهر ميلا إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج فى المدينة وكندة فى الشمال . على أن من تم منهم اندماجه فى البدو تلاشت فيه هذه النزعة مثل طيئ فى جبلى أجأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية فى الإسلام يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمقته النزاريون .

## ٤

### العرب الشماليون[1]

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون فى الحجاز ونجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد فى أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهيئ لهم هذه الحياة الاستقرار فى سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات فى الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا فى بعض الأزمنة مملكة لهم بالجوف ( دُومة الجندل ) فى أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الأشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها . كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين فى شمالى الحجاز حيث كانوا يقيمون فى العُلا والحِجْر (مدائن صالح ). وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد فى وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام ، ولم يهتدوا فى أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً فى التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية فى تيماء الواقعة شمالى مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية فى القرن الخامس ق.م . وكان للمعينيين مستعمرة فى ناحية « العُلا » شمالى الحجاز ، كُشفت فيها نقوش معينية كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب ، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة ، وما زالوا ناشطين فى التجارة ، حتى نشأت دولة النبط فى سلع «بطرا» ، فكانت هى التى تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم فى مستهل القرن الثانى الميلادى حملها اللِّحْيانيون الذين كانوا ينزلون فى دادان ( العلا الحالية ) .

---

(١) انظر فى تاريخ العرب الشماليين كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/٢٢٠– ٢٧٤ ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ، ٣/٥ ومابعدها ، ٣/٤٢٣ وما بعدها .

واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعينى المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب الثموديون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضًا فى شمالى الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبى ، الذى انتشر إلى منازل العرب فى الصفا بحوران جنوبى دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذى قامت فيه إمارة عربية فى شمالى الجزيرة هى إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذى جاء فى التوراة وهو « سلع »، وكانت الحِجْر ( مدائن صالح ) حاضرتهم فى الجنوب بينما كانت بُصْرى حاضرتهم فى الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالا ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية فى نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقى عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامى على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والثموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعينى المسند ، غير أن الخط الآرامى هو الذى انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربى الذى أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالى الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم فى بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ خالفاهم ولم يتعرضا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، فقضى الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور فى مملكة تدمر شمالى بادية الشام فى أثناء القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لخطة حياد التزمتها ، زادت فى قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكثوا عهودهم فى عهد زنوبيا ( الزّباء ) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة فى ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابتها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخى الصحيح .

٥

## النقوش ونشأة الكتابة العربية (١)

لا يكاد يخلو حجر فى جنوبى الجزيرة العربية وقلبها وشماليها من نقش تذكارى نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التى أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفة تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقوفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافاتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

---

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لخليل يحيى نامى ( بحث فى مجلة كلية الآداب المجلد الثالث ، العدد الأول ) وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٠ و ج ٣ ص ٤٢٣ وما بعدها ، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها وكتاب تاريخ الأدب العربى لبلاشير ( ترجمة إبراهيم الكيلانى — طبع دمشق ) ج ١ ص ٧٠ وما بعدها .

وقد عُرف الأكديون فى العراق بخطهم المسمارى أو الإسفينى ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند ، ومنه نشأ الخط الحبشى وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهى اللحيانية والثمودية والصفوية . واللحيانيون — كما قدمنا — قبيلة عربية شمالية ، كانت تسكن فى منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل ، وقد اختُلف فى تاريخهم ، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا فى قبيلة هذيل . وعدّهم الهمدانى من بقايا جُرْهم ، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا فى الحِجْر (مدائن صالح) وحولها ، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين ، وفى القرآن الكريم « فأخذتهم الرَّجْفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . وقد خلَّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعينى . وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها فى الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعنى شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هى اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التى عُثر عليها فى تلك الجهات . وقد عُرف من دراستها أنها كتبت بالخط المعينى وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد ، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى ومزارع ، وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعينى الجنوبى ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها فى أداة التعريف وفى بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية ، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطى ، وهى تنتشر فى بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفى الحِجْر حاضرتهم الجنوبية وبُصْرى بحوران فى الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات فى شرقى الأردن وجبل الدروز ، وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط ، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم ، فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم ، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادى ، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك فى العرب . وكانوا يتكلمون فى أحاديثهم اليومية العربية ، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم ، ولذلك قد يعدهم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا فى الحجاز ونجْد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم فى كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحيانى والثمودى والصفوى . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطى الآرامى إلى الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربى منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز . غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التى كشفت فى الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية ، فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامى إلى خط نبطى ، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية ، كما كانت تكتب بالخط السريانى قلم المسيحيين فى هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطى واشتقوا منه الخط العربى ، لأنه لم يشع فى ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين فى شمالى الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الوهم فى روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى وأنه نما وتطور فى الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور فى الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعينى أولا ، ويتطورون به إلى

خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامى وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها فى داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطى ، فهجر عرب الحجاز القلم المعينى وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطى إلى خطهم العربى الجديد متطورين به ضروباً من التطور حتى أخذ شكله النهائى .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال ، وإنما هى مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطوراً سريعاً إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَّىْ الذى كان مربياً لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عُثر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كُتب شاهداً لقبر ملك من الملوك اللخميين يسمى امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بُصْرى وهو يوافق شهر كانون الأول ( ديسمبر ) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرّب مذحجو عكدى وجا
بزَجَى فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه فى السطر الأول بكلمة تى الإشارية التى للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذى ، وهى لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيئ ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها فى المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يثبتونها حينئذ . وليس فى هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التى استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهى آرامية. ونراه فى السطر الثانى يضيف واواً إلى نزرو ومذحجو وفقاً لكتابة النبط التى تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف ، وفى المعاجم العكد : القوة . و يريد بالأسدين قبيلتى أسد . ونراه فى السطر الثالث يستخدم كلمة بزجى من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع ، ومعنى حبّج فى المعاجم أشرف وكأنها استعملت فى النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحمير يين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفى السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفى السطر الخامس بلسعد ذو ولده أى ليسعد الذى ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس ( قبر ) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذى عقد التاج
وملك قبيلتى أسد ونزاراً وملوكهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء
باندفاع ( بانتصار ) فى مشارف نجران مدينة شمر. وملك معدا وولى بنيه
الشعوبَ ، ووكّله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، ليسعد الذى ولده

ولعل فى هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التى سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالى بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادى . وتوجد الروابط بين الحروف فى هذا النص وتتخذ الحروف شكلا أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يحدثنا عن ثانى ملوك الحيرة جدود المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتى أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة مذحج ، وانتصر على جموع نجران . ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخيًّا لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثنا النص أيضاً أنه ملك معدًّا وولى بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقد المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه فى القوة . وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالته ، فوراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك — ولا ريب — أول محاولة فى إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتيهم فى بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الغساسنة فى الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال فى غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط .

ونمضى بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقى فى زبد الواقعة جنوبى شرق حلب بنقش وُجد على باب أحد المعابد هناك أُرِّخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدَّت لهذه الصيغة العربية الخالصة التى نجدها فيه أو بعبارة أدق فى خطِّه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان اللَّجا الذى عُثر عليه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربى نشأ وتطور شمالىّ الحجاز ، وأنه لا يرجع فى نشأته وتطوره إلى بلاد العراق ، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك فى أنه نشأ من الخط النبطى وتطور حتى أخذ صيغته النهائية فى أوائل القرن السادس الميلادى فى تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تامًّا عن الخط الكوفى ذى الزوايا الذى يُرْسَم فى أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذى نشره فى محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التى كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

الفصل الثانى

# العصر الجاهلى

## ١

### تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلى يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون فى الأدب الجاهلى لا يتسعون فى الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهى الحقبة التى تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصُها ، والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلى . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر ( العربى ) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نَهَجَ سبيله وسهَّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام »[1]. وهى ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ فى الشعر العربى مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتيهم فى بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة ومملكة كندة فى شمالى نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادى محدودة ، وهى إنما تتضح فى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه ، إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمرائها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حملوا إلينا كثيراً من

(١) الحيوان للجاحظ ( طبعة الحلبى ) ١ / ٧٤ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تامًّا كما قدمنا فى غير هذا الموضع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغى أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أُطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه [1] ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميّة والطيش والغضب ، ففى سورة البقرة : ( قالوا أتتخذنا هُزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ) وفى سورة الأعراف : ( خُذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرضْ عن الجاهلين ) وفى سورة الفرقان : ( وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذرّ وقد عيّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى :

أَلا لا يجهلنْ أَحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخْدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

---

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

## ٢
## الإمارات العربية فى الشمال ( الغساسنة ـ المناذرة ـ كندة )

ليس بين أيدينا وثائق توضح فى دقة نشأة هذه الإمارات ، التى ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلى أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادى يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة فى الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم فى حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة فى العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف فى صفوفهم فى أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة فى شمالى نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو لملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة[١] يعودون فى رأى نسّابى العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جُذام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم فى شرقى الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجَوْلان أو الجابية ، وتارة تكون جَلولاء أو جلّق بالقرب من دمشق . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان فى تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعمة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التى حلوا فيها ، وقرّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ولذلك

(١) انظر فى الغساسنة تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، وكتاب « أمراء غسان » لنولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندلى جوزى ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/١١٨ وما بعدها ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/٤٤ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى ( نشر دار الثقافة ببيروت ) ١/٤٤٦ .

يسمون آل جَفْنة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذى غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث ( ٥٢٨ — ٥٦٩ ) ويسمى أحياناً الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دوراً مهماً فى حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب فى الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب البطريق ، وهو أعظم الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة فى حروب طاحنة ، وقع فى أثنائها أحد أبنائه فى قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعُزّى . وثأر الحارث لنفسه فى يوم حَليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتل فيها ، وفى أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسرّ » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا فى المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالا حافلا ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية فنشر عقيدته فى سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر ( ٥٦٩ — ٥٨١ ) فسار سيرته فى تأييد العقيدة المونوفيستية التى لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته فى حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ فى سلسلة معارك أهمها معركة عَيْن أُباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلا . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيستية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما ثارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التى كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر المجنّ ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبناؤه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقى نفس المصير حوالى سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشتبك مع القبائل النجدية فى حروب دامية ، وقد أسَر فى إحداها شأساً أخا علقمة ابن عَبدة الشاعر التميمى المشهور ، فرحل إليه يمدحه[١] رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر فى مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كأنهمُ صابتْ عليهم سحابةٌ — صواعقُها لطَيْرهنَّ دَبيبُ[٢]
فلم تَنْجُ إلا شَطْبةٌ بلجامها — وإلا طِمِرٌّ كالقناة نَجيب[٣]
وإلا كَمِىٌّ ذو حِفاظ كأنَّه — بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّباتِ خضِيب[٤]
وأنت أزلتَ الخُنْزُوانةَ عنهمُ — بضرب له فوق الشُّؤون دَبيبُ[٥]
وأنتَ الذى آثارُه فى عـــدوِّه — من البؤس والنُّعْمَى لهن نُدوب[٦]

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت فى حروب مع بنى أسد وبنى فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين فى يد عمرو ، فقصده النابغة الذبيانى يمدحه متوسلا إليه فى فكاكهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبّج فيهما مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التى يقول فيها[٧] :

إذا ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقهم — عَصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ
ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم — بهن فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

---

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة ( انظر ديوان علقمة بشرح الشنتمرى طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة فى المفضليات. وقد دحض نولدكه هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة فى مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت، يقول أصابتها الصواعق فلم تقدر على الطيران فدبت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطمر : الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة فى الضمور .

(٤) الكمى : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهى حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتقى عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهلى لمصطفى السقا ( طبع الحلبى) ص ١٥٩ .

وعمرو وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به و بغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول فى تضاعيفها[١] :

أَولادِ جَفْنَةَ حول قَبْرِ أَبيهمُ ... قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ
بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأُنوف من الطِّراز الأَولِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبلة بن الأيهم الذى لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب فى صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصَّر فى عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة فى موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قُرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفى أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرِش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضُرِب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأُتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطِّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفنَك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع علىَّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم[٢] » .

ويقابل الغساسنة فى الشام المناذرة[٣] فى العراق ، وهم من لَخْم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمنى ، هى وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

---

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٤/١٦ .
(٣) انظر فى المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٥ — ١١٧ ، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) ١٠٧/١ ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١٥/١ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسةَ الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جَذيمة الأبرش أهم ملك أسطورى ظهر فى هذه الأنحاء قبل اللخميين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمى وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذه عنهم العرب ، على أن ابن الكلبى يزعم أنه استخرج تاريخهم من بِيَع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون فى الخيام أولا ، ثم تحولوا إلى قرية فى الجنوب الشرقى من النجف الحالية ، كانت تقع فى منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهى الحيرة ( تحريف لكلمة حرتا فى السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو وليساعدوهم فى حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور ( ٢٤١ — ٢٧٢ ) هو الذى نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذى عُثر على نقشه فى النمارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببنائه قصرى الخورنق والسّدير ، ونرى الملك الساسانى الذى كان يعاصره وهو يزدجرد الأول ( ٣٩٩ — ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ فى قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفى يزدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكنه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهيأ لها موقعها فى طرق القوافل أن كانت مركزاً مهمًّا للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التى كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة فى الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقيًّا .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء ( حوالى ٥١٤ — ٥٥٤ م ) وقد

ساءت العلاقات بينه وبين قُباذ ملك الفرس فى أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قباذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسميًّا للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفى قباذ، وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرقى الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانه إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر فى كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته فى هذه الحروب من معاهدة عُقدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان أول من يطلع عليه فى اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه فى اليوم الثانى يقتله ، وممن قتله فى هذا اليوم المشئوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قتل — وهو ثمل — نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغَرِيّان اللذان يذكران فى أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصْبين من الأنصاب التى كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل فى يوم حليمة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند ( ٥٥٤—٥٦٩م) وينسب إلى أمه فى بعض الروايات دير هند فى الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيًّا على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدًّا ، وفيه يقول أحد الشعراء[1] :

أَبَى القلبُ أَنْ يَهْوَى السَّديرَ وأَهله ... وإن قيل عيشٌ بالسَّدِيرِ غريرُ

(١) أغانى ( طبعة الساسى) ٢١/١٢٦ .

به البَقُّ والحُمَّى وأُسْدُ خَفِيَّةٍ    وعمرو بن هندٍ يَعْتَدى ويجورُ

ولقّبه العرب بالمحرّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبرّ بنذره فى يوم أوارة باليمامة . واشتبك مع تغلب وطيئ فى بعض معاركه ، ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة فى شرق نجد وشماليها وغربيها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة فى عهده مركزاً أدبيًّا مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميئة والمسيَّب بن عَلَس والحارث بن حِلِّزة وعمرو بن كلثوم التغلبى الذى يقال عنه إن ابن هند لقى مصرعه على يده ثأراً لكرامة أمه ليلى حين أهينت فى بيته .

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبى قابوس ( ٥٨٠ — ٦٠٢) وقد نشأ فى حِجْر أسرة مسيحية هى أسرة عدى بن زيد العِبادى ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصَّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعُمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند فى رعايته للشعراء ، فوفد على بابه منهم كثيرون مثل أوس بن حَجَر والمنخل اليشكرى ولبيد والمثقِّب العبدى وحجْر بن خالد الذى يقول فيه[1] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد    كمثل أَبى قابوسَ حزمًا ونائلا

وهو ممدوح النابغة الذبيانى ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهى من أجود ما خلَّف الجاهليون ، وفى إحداها يقول :

نُبِّئت أن أبا قابوسَ أوعدنى    ولا قرارَ على زأْرٍ من الأَسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الخذّاق الشنّى من بنى عبد القيس[2] وعبد قيس بن خُفاف البُرْجُمِىّ

(١) الحيوان ٣/٥٨ والمرزوقى على ديوان الحماسة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٦٤٠ .

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف) رقم ٧٨ ، ٧٩ .

التميمي[١] . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثاني ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن ، وألقاه فى غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً . ولم يولِّ الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، وثارت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتهما شر هزيمة فى يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً فى أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريين وقصرى الخورنق والسدير، وطالما قصوا عن أمرائهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جذيمة الأبرش. ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء فى مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعطافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم[٢] وقد يشكون من ثقل الضرائب ومما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات فى أسواق العراق وفى غير أسواق العراق [٣].

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة فى الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلاطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تمتهن بعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجاريًّا كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التى كانت تعم فى تلك الأنحاء .

---

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .

(٢) الأصمعيات ( طبعة دار المعارف ) رقم ٥٨ .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ — ١٧ وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة فى شمالى نجد كان أمراؤها يدينون — فيما يظهر — بالولاء لليمن ، وهى إمارة كندة[١] ، ويرجع النسابون بها — كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة — إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم فى مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية فى القرن الرابع الميلادى .

وأشهر ملوكها فى القرن الخامس حُجْر الملقب بآكل المُرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكراً وتغلب دانتا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون فى هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفى عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرتِ بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهى حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفى عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، ولجأت إليه بكرٌ وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْراً وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر فى غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفى ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقُتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة فى ميادين الحرب وجُنَّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبى امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباءت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به فى محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

---

(١) انظر فى كندة وأمرائها Olinder, The Kings of Kinda وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٢١٥ — ٢٧٣ ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/٦٨ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١/١١٤ وما بعدها .

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الحيريين ، بينما يفيض شعر عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

## مكة وغيرها من مدن الحجاز (١)

فى منتصف الطريق المعبَّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة فى واد من أودية جبال السَّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذى زرْع » . وهى تتراءى لنا فى العصر الجاهلى ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءى لنا أكبر مركز دينى للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها فى غابر الأزمنة قبائل من جُرْهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجارى المهم . ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصىّ ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هى من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرستقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباءت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك فى تقديس العرب لها وإعظامها وعدُّوها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدِنْ لأى ملك أجنبى ، وفى ذلك يقول حرب بن أمية (٢) :

أبا مَطَر هلمَّ إلى صلاحٍ فتكفيك النَّدامى من قريشٍ

(١) انظر فى هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٨١ وما بعدها وصالح أحمد العلى ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١/١٤٤ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابى مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .

(٢) الحيوان للجاحظ ٣/١٤١ وصلاح هنا : مكة .

أبا مطرٍ هُديتَ لخير عَيشٍ فتـأْمنَ وَسْطهم وتعيش فيهم
وتـأْمن أن يزورك ربُّ جَيش وتنزلَ بلدةً عزّتْ قديمًا

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلا ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب فى اليمن وحضرموت وإلى الشرق فى الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بُصْرى فى الشام وإلى غزة ومصر . وفى الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خُزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزّ العرب ، يتأمّرون عليهم قاطبة »[1] وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحريم إذا نزلوا فى بلدهم[2] كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة[3] يدل على ذلك الصحابيان الجليلان : صُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهى بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عُكاظ ومجنّة وذى المجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكّمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها فى أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل فى هذا كله ما يدل على عظم شأنها فى الجاهلية ، وقد زعم لامنس فى

(١) كتاب البلدان لابن الفقية ( طبعة أوربا ) ص ١٨ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار مكة للأزرق ( طبعة أوربا) ص ١٧٥ .

(٣) انظر O'leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) P. 184 وراجع مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ١٤٨/٢

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية[١] ، وقد وقف طويلا عند ملئها ونظامها التجارى المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملأ يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التى يؤدونها وهم سادة بطونها فى البطاح وكانوا ينظرون فى شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والمخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين وكان منهم من يسمى ربَّ مكة[٢] . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جُدْعان وهو من تَيْم ثرياً ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال[٣] :

يوم ابن جُدْعان بجنْب الحَزْوَرَه       كأنه قَيْصَرُ أو ذو الدَّسْكره

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أميه بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية فى الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وتيم وعدى وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها[٤] ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

---

(١) Lammens, LaMecque,P.175

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و٩٢ .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى ( طبعة السقا ) مادة حزورة ٢/٤٤٤ . والحزورة : الرابية .

(٤) المحاسن والأضداد ص٧٧ وقارن بالأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١ /٦٥ .

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون فى الطائف ويشتون فى جدة ، ونجد فى سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ فى الحلية والزينة[١] . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن فى حُلتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب[٢] . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة [٣]والنجاشيين والأكاسرة[٤] ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التى كانوا يمرون بها فى طرقهم التجارية[٥] .

ولكن هذا جميعه ينبغى أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قبليًّا ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض فى حِلْف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم فى مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف فى القبائل الجاهلية ، ووجود مَلأ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان فى كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر فى شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذى كان سائداً فى مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

وإلى الجنوب الشرقى من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلا تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الخمر الصافية . وكانت

---

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .
(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢ / ١٣ .
(٣) اليعقوبى ١ / ٢٨٠ والطبرى (طبعة أوربا) ١ / ١٠٨٩ .
(٤) اليعقوبى ١ / ٢٨٢ والطبرى نفس الصفحة السابقة .
(٥) اليعقوبى ١ / ٢٨٠ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن الثموديين حين تقوضت إمارتهم فى الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون فى أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية فى شىء سوى ما أتاحته لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش فى مكة .

ونمضى إلى شمالى مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى بيثرب التى ذكرها بطليموس فى جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهى تقوم فى واد خصب ، تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون فى هذا الوادى كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا فى بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية.

ويقال إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود فى القرن الثانى الميلادى على أثر اضطهاد الرومان لهم فى فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة ( مدينتا ) وهو اسم آرامى . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هدْىُ الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية فى حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية فى طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم[1] ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف[2].

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

---

(١) انظر البلاذرى (طبعة أوربا) ص ٤٧٤ .

(٢) راجع فى شعراء اليهود بالمدينة السيرة النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ، والأغانى ١٩/ ٩٧ ، ١٠٦ .

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك فى السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيفى خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح[١] .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف فى شىء عن حياة البدو فى الخيام ، مع أنهم سكنوا آطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلوهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التى استخدموها فى تلك الحروب الدامية. وفى كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السرارة ويوم فارع ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبّس ومضرّس ويوم الفِجار ويوم بُعاث .

وتحرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا فى دينه الحنيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاءت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود فى شمالى المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وتيماء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا فى هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثانى الميلادى ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على ألسنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السموءل صاحب حصن الأبلق بتيماء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذى أنطقه بالشعر العربى ، وكان أخوه شعية شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثروا فى حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/ ٢٣٤.

٤

## القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل، بل قبائل العرب الشمالية جميعها ، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى ، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان ( ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة ) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب ، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين .

وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة[١] ، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان ، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكّنت من انتشار فكرة هذا التقسيم ، كما مكّنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال ، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحقًّا اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُزاعة وقضاعة وخَثْعم ولكنه اختلاف محدود ، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لاشك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال ، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينيون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/٢٢٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/٢١ وما بعدها و الفصل الأول من كتاب سميث :
Kinship and Marriage in Early Arabia.

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سدّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة فى الجزيرة العربية ، فكندة التى هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة فى شمالى نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم فى حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد فى أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا فى الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل فى شمالى نجران بينما يممت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزد فقد توزعت عشائرها بين شمالى اليمن وعُمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالى الجزيرة فى الشام حيث نزل بنو غسان(١) . وفى هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعتريها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت فى جنوبى العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهى لخم ، دولة المناذرة فى الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيئ إلى الشمال واستقرت فى جبلى أجأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالى الحجاز وانتشرت فى بادية الشام وأهمها قضاعة وبَهْراء وجُهَيْنة وبَلِىّ التى نزلت فى مساكن ثمود وجُذام وكلب وعاملة اللائى نزلن فى حدود فلسطين وعُذْرة التى نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى . وممن هاجر من الجنوب أيضاً خُزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام فى منطقة مكة وَبجيلة وكانت تنزل جنوبى الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطانى اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش فى مكة ، وثَقيف فى الطائف ، وعبد القيس فى البحرين ، وبنو حنيفة فى اليمامة ، وتميم وضبّة فى صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التى تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عِجْل وشيبان وذُهْل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر فى شمالى الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد فى شمالى نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهُذَيْل بالقرب من مكة ،

---

(١) انظر مادة إياد والأزد فى دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة خثعم .

وقيس عيلان فى نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيان . وفى المفضليات قصيدة طريفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل[١] .

وهذه الأنساب التى قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان فى الإسلام ، فتكتلوا على أساسها فى مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرَّ إلى منازعات فى الكوفة والبصرة كما جر إلى حروب فى الجيوش المقاتلة فى أقصى الشرق بخراسان وفى أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشب بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التى أجملناها وعنهم ورثها أبناؤهم فى الإسلام ، وهى تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا فى النسب ما نراه نحن الآن فى الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهى من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللُّحْمة كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ.

وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة فى مدن كمكة والحيرة كانت تتحد فى نظمها السياسية ، وهى نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها فى أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها فى تقاليد وعُرْف تتمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذى يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهى عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربى العام ، وحقًّا تكونت عندهم إمارات فى الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا فى تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

---

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ٤١ .

شعوراً ضئيلا ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربى بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلى ، له رئيس .

ومن الاتحادات التى كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظَنّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً فى تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكرى : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس فى الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش فى المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم فى ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »[١] ومن القبائل التى تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ فى العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية[٢] .

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها فى نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل فى أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها فى الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك فى المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مَسِّها . وأصل الحِلْف والتحالف من كلمة الحَلِف بمعنى اليمين الذى كانوا يقسمونه فى عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم فى أثناء عقد أحلافهم فى طيب أو فى دم ، وكانوا يقولون[٣] : الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً وطول الليالى إلا مداً ، ما بَلَّ بحر صوفة وأقام رَضْوى فى مكانه ، إن كان جبلهم رضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ( طبعة السقا ) ٥٣/١ .

(٢) انظر مادة تنوخ فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمى حلفهم باسم المحاش. ومن الأحلاف المشهورة فى مكة حلف المطيِّبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تَيْم وبنو أسد ضد بنى عبد الدار وأحلافهم، ويقال إنهم غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة طيباً. وأكرمُ من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لايجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه وقاموا معه حتى تُردَّ عنه مظلمته. ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرِّباب، وهم خمس قبائل: ضبة وثور وعُكْل وتيم وعدى، وحلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحُمْس بين قريش وكنانة وخزاعة.

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها[١] وهو ندوتهم، التى ينظرون فيها شئون قبيلتهم. وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه، ولم يكن له موعد معين، وفى العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع، فيتناقشون ويتحاورون، وقد يخطبون، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم، وفى أثناء ذلك يدلى سادتهم بحِكَمهم وتجاربهم فى الحياة، وإلى ذلك يشير زهير بن أبى سُلْمى إذ يقول فى مديح هَرِم بن سنان وقومه[٢]:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم ... وأنديةٌ يَنْتَابُها القولُ والفعلُ

وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... مجالس قد يُشْفَى بأحلامها الجهل

وكانت قرارات هذه المجالس نافذة، فجميع أفراد القبيلة تذعن لها ولا تشذ عليها.

وغالباً ما يتقدم شيوخَ القبيلة شيخ كبير مجرب، هو سيدها، له حنكة وحكمة وسداد فى الرأى وسعة فى الثروة، وهو الذى يقود القبيلة فى حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى، ويعقد الصلح والمحالفات، ويقيم الضيافات، غير أنه ينبغى أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة،

(١) انظر فى مجالس القبيلة وحقوق سيدها وواجباته القسم الثالث من كتاب لامنس:
Le Berceau de l'Islam,

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كُليب التغلبي حين بغى وطغى على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً فى نشوب حرب البَسوس المشهورة .

فالسيد فى القبيلة إنما هو الشخص الألمعى الذى حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلابد فيه من الشجاعة والكرم والنَّجْدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات ، ولا بد أن يكون حليما متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بنى كلاب حين يقول[1] :

إنِّى امرؤٌ من عُصْبةٍ مشهورةٍ ... حُشُدٍ لهم مجدٌ أَشَمٌّ تَليدُ[2]
أَلفَوا أَباهم سيدًا وأَعانهم ... كرمٌ وأَعمامٌ لهم وجدود
إذ كل حىٍّ نابتٌ بأُرومةٍ ... نبتَ العِضاهِ فماجدٌ وكسيدُ[3]
نعطى العشيرة حقَّها وحقيقها ... فيها ونغفر ذنبها ونسود
وإذا تحمَّلنا العشيرةُ ثِقْلَها ... قمنا به وإذا تعود نعود[4]
وإذا نوافق جُرْأَة أَو نَجْدَةً ... كنا ، سُمَىَّ ، بها العدوَّ نكيد[5]
بل لا نقول إذا تبوَّأَ جيرةٌ ... إن المحَلَّة شِعْبُها مكدود[6]

وواضح أن السيد فى رأى معاوية لابد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس فى جنايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .
(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجتمعون للملمات ، والتليد : القديم .
(٣) الأرومة : الأصل ، العضاه : شجر ضخم من أشجار البادية ، الماجد : ذو المجد ، والكسيد : الدون .
(٤) الثقل : الغرم والدية .
(٥) سمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .
(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ، مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر لأضيافه بما يلم به من شدائد .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم مايقوم به السيد إصلاح ذات البَيْن فى القبيلة ولَمّ شعثها، مستعيناً فى ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون فى الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهى حق التوطن فى القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم فى خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحى لها بنفسه كما يضحى لها بماله ، فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحريته يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً فى ذلك بعصبية شديدة ، وهى عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم فى دينه ، إذ لم يكن يهمه فى كثير من الأحوال ، أما فى العصبية فإنه لا يتسامح فى أى واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصِّمَّة[1] :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَت ... غويتُ وإن تَرْشُدْ غزية أرشدِ

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزية ، فإن ضلت ضل معها وأمعن فى ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن فى هداه .

وكانت القبيلة من جانبها تعطى لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهى تنصرهم فى الملمات التى تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص١١٢
وانظر المرزوقى على الحماسة ٢/٨١٥ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ، وهى دائماً شاكية السلاح حتى تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فدائماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا فى حروبهم مما يدور فى أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ، ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبَيْضاتهم أو خوذاتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيل إشادة بالغة وسموها أسماء كثيرة .

٥

## حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب فى الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سُنَّة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهى شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرِّمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق فى نقض هذه الشريعة ولا فى الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هى إلا أن يُقْتَلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى فى قبيلته ، تؤازرها فى الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارث الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سُبَّة وعاراً ، وفى ذلك يقول عبد العُزَّى الطائى[1] :

---

(١) حماسة البحترى (طبع بيروت) ص ٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوقى على الحماسة ١/٢١٥ – ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصمعيات القصيدة رقم ٤٤ البيت ١ ، ٢ .

إذا ما طلبنا تَبْلَنا عند معشرٍ أبينا حِلاب الدَّرِّ أو نشربَ الدَّما[١]

فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها ، فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم ، فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شرًّا إذ يقول[٢] :

قليلُ غِرار النوم أكبر همِّه دَمُ الثأْر أو يلقى كَمِيًّا مُسَفَّعا

فأكبر ما يهتم به وينصب له طلبُ الثأر ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر. وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود ، وحينئذ تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها ، وقد تنضم أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة إذ يقول[٣] :

الشيء يبدؤه في الأَصل أَصغرهُ وليس يَصْلَى بكل الحرب جانيها

والحربُ يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصِّحاح إلى الجَرْبَى فتُعْديها

فهي تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون بنارها ، بل يترامون فيها ترامي الفراش ، فهي أمنيتهم ومبتغاهم ، يقول زهير[٤] :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْل[٥]

فإن يُقْتلوا فيُشْتَفَى بدمـائهم وكانوا قديمًا من مناياهمُ القتلُ

فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

(١) التبل : الثأر ، وحلاب الدر : كناية عن الإبل التي تحلب وتشرب ألبانها .

(٢) المرزوقي على حماسة أبي تمام ٢/٤٩٢ غرار النوم : قليله ، والكمي : الشجاع .

(٣) المرزوقي ١/٤٠٧ .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ، وفزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة[١] :

وإنا لَلَحْمُ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلْحمه حينًا وليس بذى نُكْرِ[٢]
يُغارُ علينا واترين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبْنا أو نُغير على وِتْرِ[٣]
قَسَمْنا بذاك الدهرشَطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطْر

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها فى غير نكران، فهم دائماً واترون موتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حَتْفَ الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى[٤] :

ولا تَقْبُرونى إنَّ قبرى محرَّمٌ عليكم ولكن أَبْشِرِى أُمَّ عامرِ

فهو يتمنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء فى ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهى الضبع بجسده ، حتى يخلد فى سجل قتلى الجاهلية المجيد .

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جنّهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهى تدور فى كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف فى ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم فى المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى منثورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن الأثير

---

(١) المرزوق ٢/٨٢٥ .
(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ، ونلحمه : نطعمه اللحم .
(٣) الوتر : الثأر ، واترين : قاتلين ومسببين الوتر .
(٤) المرزوق ٢/٤٨٧ .

فى الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى فى نهاية الأرب فصولا طويلة ، وكذلك صنع الميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التى اشتركت فى كل منها .

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التى نشبت بجانبها مثل يوم عَيْن أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْب جبلة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزاز وكان بين ربيعة واليمن من مَذْحج وغيرهم ، ويوم طَخْفة بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع ، ويوم أُوارة الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أوارة الثانى بين ابنه عمرو بن هند وبنى تيم ، ويوم ظهر الدَّهْناء بين بنى أسد وطيئ ، ويوم الكُلاب الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندى وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومرّ ذكرها فى غير هذا الموضع ، ويوم حَوْزة الأول بين سُلَيم وغطفان ، ويوم اللِّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثانى بين تميم وبنى عبد المدان النجرانيين ويوم الوَقيط بين تميم وربيعة وكذلك يوم جَدود وذى طُلوح والغبيط وزُبالة ومبايض والجفار ، ويوم الرَّحْرَحان بين قيس وتميم وكذلك الصرائم والمروت والنِّسار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيبان ، ويوم بُزاخة بين ضبة وإياد ؛ ويوم دارة مَأسَل بينها وبين بنى عامر . وكانوا لا يقتتلون فى الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثانى فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبعت ذلك أيام أخرى . وسنقف قليلا عند حرب البسوس وحرب داحس والغَبْراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتى بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسّاس بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كُلَيب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت — فيما يقال — أربعين سنة ، فكثرت أيامها مثل يوم عُنَيْزة وكان سجالا بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضَّة ( تحلاق اللمم ) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجآ إلى الحارث بن عمرو الكندى ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مرَّ بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت فى العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبى المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت فى أواخر العصر الجاهلى ، وكان السبب فى نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين ، فسميت باسميهما ، وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر . وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له : فاعترضه ونفَّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرِّى ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عبس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنترة بطل هذه الحرب ، وكان من عبس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسيتهم الرائعة .

## الفصل الثالث

# الحياة الجاهلية

## ١

## الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عُتَقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبنائها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم فى الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرى . على أن منهم من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الوَرْد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه(١) .

وهذا الخلع إنما كان يحدث فى حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هى كلمة المروءة التى تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء .

---

(١) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٣/ ٧٨ ومابعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغنى بينهم يتفضل على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكثبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص[١] :

ومستنبحٍ يخشى القَواء ودونه ... من الليل بابا ظُلمة وسُتورها[٢]
رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابى أن يَهِرَّ عَقورُها[٣]
فلا تسأليني واسألى عن خليقتى ... إذا ردَّ عافى القِدْر من يستعيرها[٤]
تَرَىْ أن قِدْرى لا تزال كأنها ... لذى الفَرْوَة المَقْرور أمٌّ يزورها[٥]
مبرَّزةٌ لا يُجْعَلُ السِّترُ دونها ... إذا أُخْمد النيرانُ لاح بَشيرها[٦]
إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمهَا ... بألْبانها ذاق السِّنانَ عَقِيرُها[٧]

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون[٨] ، مثل حاتم الطائى الذى ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله[٩] :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشقَّ على الضيف الغريب عَقورُها

---

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١٣٦/٥ .

(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .

(٣) يهر : ينبح نبحاً خفيفاً ، العقور : العاض .

(٤) عافى القدر : مستعيرها .

(٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور : الذى اشتد به البرد .

(٦) بشيرها هنا : ضوءها .

(٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان .

(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .

(٩) الحيوان ٣٨٣/١ .

فإني جبانُ الكلب بيتى موطَّأٌ   جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجاربهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوايرفعون لمن يغدر منهم لواءفى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبته سمية[1] :

أَسُمَيَّ ـ ويحك ـ هل سمعتِ بغَدْرَةٍ   رُفع اللواءُ لنا بها فى مَجْمَعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمس[2] :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهل يعـــرفه   والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به   إلا الأذلاَّن: عَيْرُ الأهل والوَتِدُ[4]

هذا على الخَسْفِ معقولٌ برُمَّتهِ   وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أحَدُ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه ، وكان نازلا معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها ، مضيفين إليها

---

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .

(٣) الرسلة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق.

(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة ،وقد اشتهر من بينهم حكّام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم[١] ، مثل عامر بن الظّرب وأكثم بن صيفى ، وكانت تفزع إليهم القبائل فى خلافاتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم ، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرّافين .

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى ، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار ، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان ، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العِبادى الحيرىّ ، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم . وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى ، وكانوا يجلبونها لهم من بُصْرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق ، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم ، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم . وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته ، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل ، على نحو ما يروى عن البرّاض ابن قيس الكنانى أحد أدلاّء القوافل فى الجاهلية ، إذ كان سكّيراً فاسقاً ، فخلعه قومه وتبرأوا منه[٢] . ويقول طرفة فى معلقته :

وما زال تَشْرابى الخمورَ ولذتى ... وبَيْعى وإنفاقى طريفى ومُتْلَدِى[٣]

إلى أن تحامتْنى العشيرةُ كلها ... وأُفْرِدْت إفرادَ البعير المعبَّد[٤]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أَحفل متى قام عُوَّدى[٥]

فمنهن سَبْقُ العاذلات بشَرْبةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ[٦]

---

(١) انظر فى حكام العرب كتاب المحبر ص ١٣٢ .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/٧٥ .

(٣) الطريف : المال الحديث ، والمتلد : المال القديم .

(٤) تحامتنى : تجنبتنى ، المعبد : الأجرب .

(٥) عود : جمع عائد أو عائدة ، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبكونه . والجد : الحظ والبخت .

(٦) الكميت : الخمر ، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل .

وكَرِّى إذا نادى المضافُ محنَّبًا كسِيدِ الغَضَا نبَّهْتَهُ المتورِّدِ[1]

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ ببَهْكَنَةٍ تحت الخِباء المعمَّدِ[2]

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء .على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غُرْمٌ إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلَّى . أما الأربعة الباقية فلاحظَّ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكفَّ العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : ( يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ) وقوله جلَّ وعز : ( إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ) وقد وصف الخمر بأنها ( رجس من عمل الشيطان ) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها [3]وقد جعل لها

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

(٢) الدجن : الغيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

الرسول صلى الله عليه وسلم حداً : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفى أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته[١] . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموى المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد، وأقام لهم نظاماً سماوياً رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحرائر ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره فى حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن فى منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[٢] . وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُّلَيْك بن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار[٣] . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢٦/٩.

(٢) انظر الأغانى ١٣/١٠ وما بعدها والأمالى ١٠٦/٢ والمحبر ص ٣٩٨ .

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٣٧/١٨

يثيرهم كتسبى نسائهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وَعْر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار .

وكانوا يصحبونهن معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حارًّا حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها[1] :

فإن أنتمُ لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ فمشُّوا بآذان النَّعَام المصلَّمِ[2]

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطتْ عن يد وهى صاغرة صَغار الأسرى الذين تُجدَعُ آذانهم ، بل صَغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وَقْدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته[3] :

إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ فذَروا السِّلاح ووحِّشوا بالأبْرَقِ
وخذوا المكاحل والمَجاسد والبسوا نُقَب النساء فبئس رهط المُرْهَقِ[4]

فهم إن لم يثأروا لأخيها حقٌّ عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزيوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الذَّماء الأخير[5] :

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

---

(١) المرزوقى ١/٢١٨ وقارن الأصمعيات ص ١٥٧ .

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وآذان النعام مصلمة خلقة .

(٣) المرزوقى ٣/١٥٤٦ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة.

(٥) المرزوقى ١/١٧٧ .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضْحى فَتيتُ المسك فوق فراشها   نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

ويقول المنخّل اليشكرى في فتاته[١] :

الكاعب الحَسْناء تَـرْ   فُلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحَرير

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرى في زوجته أميمة[٢] :

لقد أعجبتْنى لاسَقوطا قِناعُها   إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ

تبيت ـبُعَيْد النوم ـتُهدى غَبوقها   لجاراتها إذا الهديَّةُ قَلَّت[٣]

تحلّ بمنجاة من اللوم بيتَها   إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ

كأَن لها في الأَرض نِسْيًا تَقُصُّه   على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[٤]

أُميمةُ لا يُخْزى نَثاها حَليلَها   إذا ذُكرالنسوان عَفَّتْ وجَلَّتِ[٥]

إذا هو أَمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ   مآب السعيد لم يَسَلْ أَين ظَلَّتِ[٦]

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهي كريمة مؤثرة تؤثر جاراتها في الجدب بغَبوق اللبن ، وقد حصَّنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهي شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العـَطِر عنها في العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

---

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذى يشرب في العشى .

(٤) النسى : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة : قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل : الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .

وتدور فى كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهن ، وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن فى بعض المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فالمرأة لم تكن فى الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشِّغار ، وهو أن يتزوج شخصٌ أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه : وتلك كانت عادات عندهم ، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها ، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى : ( وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداًّ وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّةً ما بعدها سبة .

## ٢

### المعيشة

لم يكن العرب يعيشون فى الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرفت الزراعة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفى الطائف ووادى القُرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوباً فى طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً فى طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسى من شرقى مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خَيْبر ، ثم يخترقون الصحراء فى وادى الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم فى هذه القوافل أدلاء يحموبهم الضلال فى مجاهل الصحراء [1] ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب[2] ، وقد يبلغون ثلاثمائة عداً ، ومن أهم القبائل التى كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندى وإفريقية الشرقية اللُّبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بنى سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية[3] .

فمكة فى الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ [4]، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها فى نجد

---

(١) المغازى للواقدى ( طبع كلكتا ) ص٣٦، ١٩٦ ، والمحبر ص ١٨٩ :

(٢) المحبر ص ٢٦٤ .

(٣) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع فى تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام ( طبع دار المعارف ).

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوقَ تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُسِّ بن ساعدة وهو يخطب فى الناس . وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبَّة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر فى هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون فى خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دَوْمة الجندل فى شمالى نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودَبا بعمان وسوق المشقَّر بهَجر وسوق الشِّحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه[1] .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيعَ والشراء فإن قوافل عُروضها القرشية وغيرها كانت تجعل الكثيرين منهم جُعْلا نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغى أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقر المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

ووراء المجتمع المكى كان يعيش العرب فى تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التى

---

(١) انظر فى أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبى ١/٣١٣ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

لاتُحَدّ . ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوَّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شرًّا فى كلمة له ، فقال [1] :

يظلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغـيرها ... جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظهورَ المهالكِ [2]
ويَسْبِق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِى ... بِمُنْخَرِقٍ من شدِّهِ المتداركِ [3]
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئٌ من قلب شيحانَ فاتكِ [4]
ويجعل عينيـه رَبِيئَةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخضَرَ باتكِ [5]

(١) المرزوقى ١/٩٥ وأمالى القالى ٢/١٣٨ وزهر الآداب ٢/١٨ .

(٢) يظل هنا : يغدو ، الموماة : الفلاة ، جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ، منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ، الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالئ : الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيئة : الرقيب والديدبان ، والسلة : الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والباتك : القاطع .

إذا هزَّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلَّلَتْ نَواجِذُ أفواه المنايا الضَّواحِكِ [١]
يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأَنيسَ ويَهْتَدِى بحيثُ اهتدتْ أمُّ النجومِ الشَّوابكِ [٢]

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة فى النهار ، فإذا جَنَّهم الليل وجدتهم فى مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التى تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزَّعون حتى فى النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهى معلقة بسيوفهم التى لا تلبث أن تستقر فى صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم فى التفرد بالفلوات والقفار التى تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروبها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هى التى دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والجرأة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذى يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذى يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به فى شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التى تصادفهم من مثل أُتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس فى معلقته وزهير فى لاميته [٣].

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدربون الكلاب عليه ويضرُّونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفى شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التى كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

---

(١) القرن : الكفء والنظير ، تهللت : تلألأت وأشرقت .

(٢) أم النجوم : الشمس .

(٣) انظر ديوان زهير ص١٢٤ وما بعدها .

وفى معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ، ولما يئسوا أن يصيبوا منها مقتلا أرسلوا فى إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسابِ وسُخام ، يقول :

حتى إذا يئسَ الرماةُ وأرسلوا ... غُضْفًا دواجِنَ قافلا أعْصامها[1]

فلحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدْرِيَّةٌ ... كالسَّمْهريَّة حَدُّها وتمامها[2]

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تذد ... أن قد أَحَمَّ مع الحتوف حِمامُها[3]

فتقصَّدتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ ... بدمٍ وغودر فى المكَرِّ سُخامُها[4]

ولأوس بن حجر قصيدة فائية[5] وصَف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتى فى المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول[6] :

أَبنى زيادٍ أنتمُ فى قومكم ... ذَنَبٌ ونحن فُروعُ أصلٍ طَيِّبِ

نَصِلُ الخميسَ إلى الخميسِ وأنتمُ ... بالقَهْر بين مُرَبِّقٍ ومُكَلِّبِ[7]

حِيدٌ عن المعروف سعىُ أبيهمِ ... طلبُ الوعولِ بوَفْضَةٍ وبأَكْلُبِ[8]

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلى كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له فى أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ فى حيوانه سيولا

---

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ، الدواجن : الضاريات وقيل المعلمات ، وقافلا : يابساً ، والأعصام : قلائد من أدم تجعل فى أعناق الكلاب .

(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية القرون الحادة ، والسمهرية : الرماح .

(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .

(٤) تقصدت : قتلت من قولهم رماه فأقصده .

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر ببيروت) رقم ٣٠ .

(٦) حيوان ٢/٣٠٩ .

(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهى العروة فى الحبل ، والمكلب : الصائد بالكلاب .

(٨) الوفضة : جعبة للسهام من أدم .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأنعام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين فى هذا الرزق ، فقد كان فى كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شرًّا والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمّتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحِل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلا بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفّ بها المحل والجدب من كل جانب .

## ٣

## المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخْطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بينة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، ففى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب — بعد موقعة أحد — لغزو المدينة أشار سلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم مَنْ حوله بأساليب الحرب[١]. وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفَنْديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين[٢] .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهى مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمى دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضى من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان[٣] ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذى أحدث الحضارة ، وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهى نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التى تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل فى هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣/٢٣٥ .

(٢) السيرة النبوية ١/٣٢١ .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/١٦٨ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم[١] ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم فى الجاهلية ، أمّا فى الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا فى الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم فى عصوره الوسيطة . ويقول أوليرى : إن العربى مادى ، ضيق الخيال والعواطف[٢] ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب فى الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفّظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها و أمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٣] — حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه[٤] ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً[٥] ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسُئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً علىّ كل ليلة . ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عِبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابى

---

(١) المقدمة ( طبع المطبعة البهية ) ص ٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ( الطبعة الأولى ) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليرى : Arabia Before Muhammad.

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع [1] بيته [2] ؟ ! » . وهى معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ : « كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم [3] » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ فى المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرُّقى . فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيًّا على قواعد عقلية ، وحقًّا ما يقول ابن خلدون : « للبادية . . طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عندُ العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره [4] » . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به . وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية [5] ولا من جهة التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غَيْضة أو رملة أو رأس جبل ، وهى فى منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يُبْتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(٢) الحيوان ٦ / ٣٠ .
(٣) طبقات الأمم لصاعد ( طبع بيروت ) ص ٤٥ .
(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .
(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء[١] » .
وكانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل ، ولهم فى ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم فى الصحراء ، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم فى جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة ، ولهم فى الطيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مر بارحاً ( ميامناً ) وسانحاً ( مياسراً ) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك فى كل شىء . . وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطير به فى باب الشؤم »[٢]. ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهى سهام ، كانو يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهى والمتربص ، وهى غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقاً شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ .

(٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها .

الذى عُرفت به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحَكَم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكَر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْراء ( الفطنة ) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسَليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حِذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرب ولبيد بن ربيعة »[١] . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، فى أخبار سُوَيْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضْها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىَّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قتلُه يوم بُعاث[٢] » .

---

( ١ ) البيان والتبيين ( طبعة عبد السلام هارون ) . ٣٦٥/١

( ٢ ) أسد الغابة ٣٧٨/٢ .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكثم: « مقتلُ الرجل بين فكَّيه » وقول عامر بن الظرب : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » . وفى الشعر الجاهلى كثير من هذه الحكم ، وهى تُذْكَرُ فى ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة فى معلقته :

أَرى العَيْشَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ ... ومَا تَنْقُصِ الأيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعَبيد بن الأبرص ، وفى خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ

ومن لا يصانعْ فى أُمور كثيرة ... يضرَّس بأنيابٍ ويوطأْ بمنْسِمِ[(١)]

ومن لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِهِ ... يهدَّم ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَمِ

ومن هاب أسبابَ المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسُلَّم

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعْلم

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُنَنها التى وصفناها فيما مر من حديثنا ، وهى تجرى مجرى التعاليم التى ينبغى أن يأخذوا بها فى حياتهم . وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس ، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه ، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة ، وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظتهم ، يقول قُسّ بن ساعدة[(٢)] :

فى الذاهبين الأوَّ ... لين من الشعوب لنا بَصَائِرْ

لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قومى نحوها ... تسعى الأصاغرُ والأكابر

لا يرجعَنْ قومى إلـ ... ـىَّ ولا من الباقين غابر

---

(١) المصانعة : الترفق والمداراة ، يضرس : يعض ، المنسم : خف البعير .

(٢) حماسة البحترى ص ٩٩ وانظر البيان والتبيين ١/٣٠٩ .

أيقنتُ أنى لا محالة حيث صار القومُ صائرْ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائرهم وقبائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالى والدهر والأزمان فى كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذى سُخِّرت له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم[1] .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمَنُ فى صباحه ومسائه ، ولهم فى عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له[2] :

يا من لأقوامٍ فُجِعتُ بهم كانوا ملوك العُرْب والعُجْم
استأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهرُ يرمينى ولا أرمى
لو كان لى قِرْنًا أناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظةٍ سهمى[3]
أو كان يعطى النِّصْفَ قلت له أحرزْتَ قسمك فالْهُ عن قسمى[4]
يا دهر قد أكثرتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتنا ووقَرْتَ فى العظم[5]
وسلبتنا ما لستَ مُعْقِبنا يا دهر ما أنصفتَ فى الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير فى حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم . وليس فى ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

(١) حماسة البحترى ص ٨٣ وانظر المفضليات ص ٢١٧ .
(٢) حماسة البحترى ص ١٠٥ وانظر الديوان ( طبعة دار الكتب ) ص ٣٨٥ .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) النصف : العدل .
(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

## ٤

### الدين[١]

كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبثّ فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفى أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبى عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وثعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة فى بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين[٢] ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء فى القرآن الكريم ، وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبى فى بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو وَدّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العُزّى . ونراهم يقدسون النار ، ويظهر ذلك فى إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها[٣] ويقال إن المجوسية كانت متفشية فى تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية[٤] ، والمجوس كما نعرف ثَنَوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون فى بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففى أخبارهم أن العُزّى كانت لغطفان ، وهى شجرة بوادى نخلة شرقى مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

---

(١) انطر فى ديانات الجاهلين الجزءين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
وكتاب روبرتسن سميث :
Lectures on the Religion of the Semites.
وبقايا الوثنية العربية لولهوزن : — Reste Arabischen Heidentums. والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .

(٢) راجع جواد على ٥/٢٠ وما بعدها و٥/٥٣ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المستشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤/٤٦١ وما بعدها .

(٤) جواد على ٦/٢٨٤ وما بعدها .

يا عُزّ كُفْرانك لا سُبْحانكِ . إنى رأيت الله قد أهانك[١]

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : ( أفرأيتم اللاتوالعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى ) ويقول سبحانه وتعالى : (ولاتذَرُنّ وَدّاً ولاسُواعاً ولايغوثَ ويعوق ونَسْراً ) . وكانت عبادةاللات أوالشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز ، وكان معبدها فى الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه[٢] ، ويتردد فى أسمائهم وهباللات وعبد شمس، وعبد العزى ومثلها مثل اللات فى تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان فى اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهى إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هُذَيل وخُزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »[٣] . ووَدّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام[٤] . وكان سُواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر[٥] ، وربما كان فى اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن[٦] . وكان يعوق صنم هَمْدان وخولان وما والاهما من القبائل[٧] . وفى اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فمعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

( ١ ) الأصنام لابن الكلبى ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى فى معجم البلدان .

( ٢ ) الأصنام ص ١٦ والمحبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان فى اللات .

( ٣ ) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقى ( طبعة المطبعة الماجدية ) ١/٧٣ ومعجم البلدان فى مناة والمحبر ص ٣١٦ .

( ٤ ) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمحبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان فى « ود » .

( ٥ ) الأصنام ص ٥٧ ومجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادةرهاط، حيث أقاموه ، فى معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت .

( ٦ ) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمحبر ص ٣١٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومعجم البلدان فى يغوث .

( ٧ ) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ويعوق فى معجم البلدان .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير[١] ، وانتشرت عبادته فى الشمال ، ويشير اسمه فى وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفى الطبرسى : «كان وَدّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير » [٢] .

ووراء هذه الأصنام التى ذكرها القرآن الكريم أصنامٌ كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية فى الجاهلية ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنما[٣] ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب فى أحدها : « صريح » والآخر : « مُلْصَقٌ » . فإذا شكّوا فى مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقِدْحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله » [٤] . وباسمه كان ينادى أبو سفيان فى معركة أحد ويصيح : اعْلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالا سيئة فمُسخا حجرين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما فى موضع زمزم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليمانى[٥] . ومن أصنامهم مَناف وبه سمى عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتَيْم وشمس لتميم وذو الخَلَصَة وهو صنم خَثْعم وبَجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتَبالة وله بيت يحجون إليه[٦] . وذو الشَّرَى وكان له معبد ضخم فى

---

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادة نسر فى معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٣) انظر الجزء الثانى من ابن الأثير فى ذكر فتح مكة .

(٤) الأصنام ص٢٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمحبر ص ٣١٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرق ١/٢٥٦ والمحبر ص ٣١٧ .

سلع ( بطرا )[١] ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسيوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبّون عليها دماء الذبائح التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرًّا لبعض الأرواح . وفى القرآن الكريم : ( يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ) . والأزلام هى القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبى : « واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت . . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربًّا وجعل ثلاثة أثافىّ لقدْره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها »[٢] .

وهذه البيوت التى اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذى الخَلَصة وهى الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهى بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية فى الجاهلية ، وهى التى وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون فى حَجِّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنُّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم مِنى . وكانت إفاضتهم فى عرفة عند غروب الشمس ، أما فى المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولَّى الإجازة فى الأولى بعض التيميين . وفى الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون فى طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلة[٣] ، ومنهم من يطوف فى ثيابه وهم الحُمْس[٤] من قريش

---

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس واللسان فى مادة الشرى .
(٢) الأصنام ص ٣٣ .
(٣) المحبر ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) المحبر ص ١٧٩ والأزرقى ١/١١٤.

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرقى طواف العريان بقوله : « يبـدأ بإساف فيستلمه ( يعتنقه ) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن ( حيث الحجر أو الحطيم ) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عُرْياناً[1] » . وقد أبطل الإسلام العرى فى الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمْس[2] . وكان من تقاليدهم رمى الجمرات فى مِنى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفى القرآن الكريم : ( وجعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشُركائنا فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لآلهتهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام ، وأولاها الناقة أو الشاة يحرِّمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيَّب ( يترك ) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلأ ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحيوه ، وإن ولدت توأماً : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرَّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صُلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة فى نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدماً ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة فى الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحبَّنا إليك . وكانت تلبية من نسك للات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيَّة ، ليس بمهجور ولا بِلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لَوَدّ :

(١) الأزرقى ١/١١٤ .

(٢) الأزرقى ١/١١٦ وما بعدها .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لذى الخَلَصة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . .[١] » .

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة فى ثالثها ، وفى اسمه ما يدل على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدّت انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعيناً لبعدائهم عن الأماكن المقدسة فى الوصول إليها دون أن تُمَسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ، وكانت فى مكة لبنى عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السَّدَنة كهان كانوا يدّعون معرفة الغيب وأنه سُخّر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس فى ألواح الغد . وممن عُرف بذلك سَطيح الذئبى وشِق بن مصعب الأنمارى وعوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى وسواد بن قارب الدوسى وعُزّى سلمة[٢] . ونجد بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة ذى الخَلَصة[٣] . وفى أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً فى ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبى المهاجر لعهد أبى بكر الصديق[٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين . وفى القرآن الكريم : ( وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويسألون ) . فكانوا

---

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية ( طبع الحلبى ) ١/١٥ والكامل لابن الأثير ( طبع ليدن ) ١/٣٠١ وأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩/٨٤ وطبعة الساسى ١٥/٧٠ والسيرة الحلبية ( طبع بولاق ) ١/٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١ ، ١/٢٢٣ ، ٢/٥٤ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعدونها — كأصنامهم — من شفعائهم عند الله وشركائه ، وحكى القرآن اعتقادهم فى ذلك إذ يقول جلّ وعز : ( ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ) . وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسباً ، يقول جل وعز : ( وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ) . وفى أساطيرهم أو قل فى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه[1] ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحائهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصوّر فى صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم ، ويُسْمَع ليلا عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرَّئىّ ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شِقًّا ، ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهى من سباعهم ، ويزعم تأبط شرًّا فى شعر يضاف إليه أنه لقيها فى ليلة مظلمة وهو يسعى فى فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها ، يقول[2] — إن صح أنه قائله — :

فلم أنفكّ متكئًا عليهـا … لأَنظر مصبحًا ماذا أتانى

إذا عينـان فى رأْسٍ قبيحٍ … كرأْس الهِرِّ مشقوق اللسانِ

وساقا مُخْدَجٍ وشَـواة كلبٍ … وثوبٌ من عَباءٍ أَو شِنان[3]

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز : ( وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عُجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

(١) انظر الحيوان ١/١٨ وما بعدها .

(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٢١٢ .

(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة : الأطراف ، الشنان : جلد القربة البالى .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جل ذكره : ( وقالوا إنْ هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ) وقال : ( وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ) وقال : ( وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ) .

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحُنَفاء ، وكانت تشك فى الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها فى الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويَنْحرون له ويعكفون عنده ويديرون ( يطوفون ) به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتمْ بعضكم على بعض قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله ابن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميْتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان.. وقال أعبد ربَّ إبراهيم »[١] ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء فى مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين فى القبائل ، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبا ذَرٍّ الغفارى وصِرْمة

---

( ١ ) السيرة النبوية ١/٢٣٧ .

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العُدْواني وخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصَّلْت الثقفي وعمير بن جندب الجُهَني . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرَّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام [١] مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التيمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكًّا في حياتهم الدينية ، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً .

٥

## اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز [٢] ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس ( Titus ) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هدريان بهم سنة ١٣٢ في هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نُواس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : ( قُتل أصحاب الأخْدود النارِ ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ) .

---

(١) المحبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي الجزء السادس وكذلك كتاب مرجليوث : The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam.

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عامًا ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التي قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سببًا في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم في البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها في الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه ، ولهما في الإسرائيليات التي شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخَيْبَر ووادى القرى وتَيْماء ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النَّضير وبنو قريظة وبنو قَيْنُقاع وبنو بَهْدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمدًا إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكتا في حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخوانًا متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صوَّرها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشًا وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشْنة والزبور ( مزامير داود ) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعرا عربيًّا .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل أى دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به فى قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير [١] .

وقد انتشرت النصرانية فى اليمن وشمالى الجزيرة الغربى والشرقى [٢] ، ويُظَنّ أن انتشارها فى اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان من أهم الأسباب فى انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نرى النصرانية منتشرة فى نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فدُعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس فى غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفى السيرة النبوية أن وفداً منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحَبْرهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولّوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » [٣] . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى مدن اليمن ، واهتم بزينتها وزخرفتها ، أشهرها القليس فى صنعاء ، وهى تعريب لكلمة Ecclysia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » [٤] . ويظهر أنه استعان فى بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائما إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُذام وكلب وقضاعة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستيين ، وهم القائلون بأن

---

(١) انظر جواد على ٦ / ٩١ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ، والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

(٣) انظر وفد نجران فى سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٢ .

(٤) مادة القليس فى معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبرى ٣٠ / ١٩٣ .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعى المولود حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد دخل فى مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومَنْ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضا إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغلت فى الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس ( Nestorius ) المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى التنصر ، ويقال إن هندا أم عمرو بن المنذر ابتنت ديراً هناك ويقال بل بَنَتْه هِنْد بنت المنذر ، وقد دخل أخوها النعمان فى النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشى الذى تزخر به مكة نصرانيًّا ، ويظن أنه كان بها جالية من الروم النصارى[١] ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر[٢] وإنه كان بها جوار روميات[٣] ، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية[٤] ، وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى[٥] . ويزعم اليعقوبى أن قوما تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٦] . والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول[٧] :

فرحتْ نصارى يثربٍ ويهودُها ... لما تَوارى فى الضريح الملحَدِ

وكانت النصرانية منتشرة فى طيئ ودومة الجندل . وهى على هذا النحو كانت تختلف عن اليهودية التى لم تدع فى القبائل . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصّروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقا ،

---

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٠/٢٣٢ ، ٥/١٩٤ ، ٤٦٢ .

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان ( طبعة هرشفلد ) ص ٥٩ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون فى هذا الدين الجديد ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادى(١) :

سعى الأعداءُ لا يألون شرًّا      علىَّ وربِّ مكة والصَّليبِ

فهو يجمع فى قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون فى الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية .

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهرًا من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فمنذ امرئ القيس وقوله(٢) :

يضيئُ سَناه أو مصابيح راهبٍ      أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى(٣) :

كدُمْيَــــة صُوِّر محرابها      بمُذْهَبٍ ذى مَرْمَرٍ مائرِ

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقَرْعها فى أواخر الليل ، يقول المرقِّش الأكبر فى بعض شعره(٤) :

وتسمع تزقاءً من البوم حولنـــا      كما ضربتْ بعدالهدوِّ النواقسُ(٥)

وعرض النابغة الذبيانى فى مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السَّباسب إذ يقول فيهم(٦) :

رقاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ      يحيَّوْن بالريحان يوم السَّباسِبِ

(١) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٢/١١١ .

(٢) ديوان امرئ القيس ( طبعة دار المعارف ) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان ( طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨.

(٤) المفضليات ( طبعة دار المعارف ) ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح. والهدو : أوائل الليل.

(٦) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ١٦٢ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول(١) :

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه     لفِصْحٍ ويحشوه الذُّبالَ المفتَّلا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية،ومن ثَمّ يقول سلامة بن جندل فى وصف بعض الدروع(٢) :

مُدَاخَلةٍ من نسج داود شَكُّهـا     كحَبِّ الجَنا من أُبْلُمٍ متفلِّقِ(٣)

وقد يتحدثون عن ملكه فى صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر فى شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصَصُ عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظنًّا أنه موضوع . وهو إن قُبل من عدى النصرانى فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو فى شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير فى الحياة والموت على نحو ما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، كما يبدو فى شعر نفر منهم إيمان بالله ، كقول عَبيد بن الأبرص فى معلقته — إن صح أنه له — :

من يسألِ الناسَ يَحْرِمـوهُ     وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن(٤) . وفى معلقة زهير :

فلا تكتمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم     ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يعلم
يؤخَّر فيوضعْ فى كتاب فيُدَّخَرْ     ليوم الحساب أو يعجَّل فيُنْقَمِ

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .
(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٥٠ .
(٣) مداخلة: محكمة النسج، شكها: أحكمها، الأبلم: بقلة لها قرون بها حب يابس .
(٤) جواد على ٦/٣٠٥ .

فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يداه عاجلا أو آجلا فى يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلا على أنه ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية فى الجزيرة قد أثر فى الشعراء آثاراً مختلفة لا فى شعرائها الخاصين بل أيضًا فى بعض الشعراء الوثنيين ، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين .

الفصل الرابع

# اللغة العربية

## ١

### عناصر سامية مغرقة فى القدم[1]

أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه فى كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا فى معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت فى صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً فى الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات ، وهى دراسة تفيدنا فائدة جُلّى فى التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات فى ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذى كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه فى الظاهرة فى لغتين غير متجاورتين ، فإما أن يرجع إلى أصل قديم ، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخى فى كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى . ولعل فى هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغى حين درسوا الدخيل فى عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامى القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

---

(١) راجع فى هذه العناصر كتاب « التطور النحوى للغة العربية » لبرجشتراسر (طبع القاهرة ١٩٢٩) والجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومحاضرات خليل يحيى نامى بكلية الآداب فى جامعة القاهرة .

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه فولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعْرَب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة – فيما يزعم – كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية ؛ ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضا باتًّا[١] ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماءُ) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله بريء من المشركين ورسولُه ) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه ) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمةَ أولو القربى) فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًّا صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : (وهذا لسان عربي مبين) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أي قبائل البدو »[٢] .

ومما يثبت بطلان رأي فولرز أيضا أنه لم يُعْرَف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسي أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأي وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

---

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ القرآن لنولدكه وكتاب العربية ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

على صحته ، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحثّ على مراعاة الإعراب فى ترتيل القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قرّاء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم(١) ، وهو يستمد فى الشطر الثانى لقوله وزعمه من ڤولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء فى عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخى ، فإن الإعراب فى الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفى بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية ، كما تشترك فى بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث فى سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء فى رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وجدّوا فى حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتى الإعراب والمنع من الصرف قديمتان فى اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستا من الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم ڤولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه فى لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عامّاً بينهم جميعاً فى الشرق والغرب ، وفى الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فمن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملا فى لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حَدْس لا قيمة له .

---

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات فى كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التى أكدت اللغةُ الأوجريتية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهى تقابل حرف الهاء الذى كان يستخدمه العبريون والآراميون فى التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخيرون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين فى استخدام هذا الحرف فى التعريف ومثلهم الثموديون واللحيانيون . واستخدم النبط فى نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعُزَّى ، وقد تحذف الألف منها فى الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لهى وعبد لهى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزد يشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم فى العربية . ويدل حذف الألف فى مثل وهب لهى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز فى عدم تحقيق الهمزة لا فى أل وحدها بل فى كلمات كثيرة ، فيقولون فى اسأل : سَلْ . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف فى العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلى ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون فى غربى الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل فى العربية وصيغه فى اللغات السامية وجدنا همزة التعدية فى صيغة أفعل العربية تشيع فى اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبِّر العبرية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعل فى العربية ، وكان اللحيانيون والثموديون يستخدمون الصيغتين جميعا . وفى الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقتبانية والأوْسانية والحضرمية تعبِّر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكدية بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين فى وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليتمان إلى أن أداة التعدية كانت فى الأول سيناً ، ثم صارت شيناً فى الأكدية ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة فى العربية والسريانية والحبشية[1] . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعا كصيغة هراق

---

(١) انظر مقالة ليتمان عن « بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى » بالجزء الأول من المجلد العاشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهراق فمن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل فى أردت ونظائره »[١] وكأنه كان بينهم من يجمع فى التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفى بإحداهما فى مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح فى أراح وهنار فى أنار وهكذا . وفى القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغا احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهِجْزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذى استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به فى صيغة استفعل . وفى المزهر من مزيد الثلاثى هفعل فى مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل فى مثل سنبس بمعنى نبس[٢] . ويمكن أن يُرَدَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التى تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التى تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلا يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة ، ثم حذفت الألف . وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر فى بعض الكلمات المبدوءة بالشين فنردها إلى صيغة شفعل الأكدية ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوّش من وشّ وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم فى بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وآثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف فى النطق وأيسر .

ومن الظواهر التى تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ؛ إذ نرى مثلا : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية فى بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما فى الأكدية ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير[٣] :

يا بن الزبير طالما عصيكا     وطالما عَنَّيْتنا إليكا

فقال عصيك بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية فى الضمائر تتشابه فى

(١) شرح المفصل للزمخشرى ١٠/٥
(٢) المزهر للسيوطى ٢/٤٠ .
(٣) النوادر فى اللغة لأبى زيد (طبعة بيروت) ص١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذرى ١١/٤٨ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت فى الأصل أسماء إشارة ، وهو فى الحبشية « ذ » وفى السريانية « د » ، و « دى » فى النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه فى كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفى الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة فى الازدواج كما يتضح فى العدد ومخالفته للمعدود فى الجنس وفى تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكر .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية فى أن الأسماء الثنائية أقدم أسمائها ، وفى العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت — كأخواتها — تشتق منها الثلاثى وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته فى ذلك تضعيف الحرف الثانى أو زيادة واو أو ياء فى أوله أو زيادة حرف لين فى وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث فى الكلمات التى تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتى يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء : ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل نبح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها سمع وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق ولهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل ونقب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة(١)

(١) راجع فى ذلك كله برجشتراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم فى مثل هذه الكلمات مشكل، فإما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت فى زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ماتنفرد به العربية من كلمات لا توجد فى أخواتها السامية هو من السامى الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التى لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترقت رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفا من الكلمات الجديدة ولا عجب فى ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة »[١] ويضرب مثلين لذلك: كثرة ما اخترعته فى باب الإبل وأوصافها وشياتها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفى، إذ تشترك مع اللغات السامية فى أداته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها فى أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافت إلى ذلك أدوات جديدة هى ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفى ونوعتها .

ومعنى كل ماقدمنا أن هناك عناصر فى العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين[٢] بحث فيهما أسماء الأعلام فى اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولاحظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظه أن النبط كانوا يلحقون فى كتاباتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحيانا، يقول: والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو فى آخرها . وأخذ

(١) برجشتراسر ص ١٤٢ .

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد العاشر، العدد الثانى، والمجلد الحادى عشر، العدد الأول .

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطى فألحقوها بعمرو فرقاً بينه وبين عمر[١] وقارن مقارنات واسعة بين الأعلام فى العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى فى هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت فى نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة فى القدم ، والتى جدّت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هى والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هى والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، ومما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفى مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام فى بعض الكلمات .

## ٢

### لهجات عربية قديمة[٢]

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة ، منها ثلاث كُتبت بالخط المسند الجنوبى ، وهى اللهجة الثمودية واللّحيانية والصّفوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامى ، وهى اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود فى القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون فى مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلى أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفى كتابات أشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التى عُثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهى تنتشر فى كثير من البلاد ، فهى فضلا عن وجودها فى أماكن إقامتهم وسكناهم نجدها مبثوثة فى الطائف وطورسيناء ومصر بوادى الحمامات ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن أهلها

---

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ص ٤٣ .

(٢) انظر فى هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومقالة ليتمان فى العدد الثانى من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب ، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » فى الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لآلهتهم ، وهى صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبى ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . ومما يزيد فى صعوبته أيضاً ، أو بعبارة أدق مما يزيد فى صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كُتبت بالخط المسند الجنوبى نقوشٌ للعرب الشماليين ، فاللغة التى تعبّر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك فى تراكيبها الصرفية والنحوية وفى اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هى الهاء لا أل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهى أل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم فى ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند الثموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثى بالهاء بدلا من الهمزة ، مثلهم فى ذلك مثل العبريين والسبئيين ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هى اللهجة اللِّحْيانية نسبة إلى منازل أهلها من بنى لحيان الذين ذُكروا فى نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منثورة فى شمالى الحجاز بمنطقة العُلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون فى تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا فى نقوشهم نفس الصعوبات التى تلقانا فى نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرّفون بالهاء على شاكلة الثموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هلحمَى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتى هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضى تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسمائهم الموصولة من وما وذو المعروفة فى لهجة طيء . ومن آلهتهم التى يرددون ذكرها بعل والعُزّى ومناة ووَدّ وإلهة. ومن أسمائهم عبد وَدّ وعبد شمس وعبد مَناة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحرة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكنون وينسبون على نحو ما نعرف فى الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفى ومن ومع وقبل وبعد.وتحت ولدى وخلف ، ونراهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصَّفاة القائم فى شرقى حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت فى الحرَّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بحرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماً عليها ، وقد عثروا على نقوش منها فى مواضع أخرى كالحرة الواقعة فى جنوبى دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هى تسمية اصطلاحية . وخطّها مشتق من الخط المسند الجنوبى كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التى أشرنا إليها ، ومما يزيدها صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمنونها وثائق تمليك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بُصْرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهى تسبق الميلاد وتمتد بعده قرونا . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلا « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أو يكتبون « جو، ذ » أى هذا الوادى ، بالضبط

كما نصنع فى عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التى تُستخدم اسماً موصولاً فى مثالها المشهور « بئرى ذوحفرت وذو طويت » أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء فى الضمائر واستخدام العدد أو فى أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ، وهى تتشابه مع العربية الفصحى فى تصريف الأفعال ومصادرها ففعّل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فِعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعال وهلم جرًّا . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة فى العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهمزة فيها ، وخاصة فى أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من أدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع فى لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث فى الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما ننطق فى عاميتنا مادد بدلا من مادّ . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبنى وأتى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضأن » أى رعى الضأن و « هأبل » أى الإبل و « همعز » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفى نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق فى النقش مر ، وهى تستخدم بنفس هذا المعنى فى لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا واللات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين

واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، فى صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضروباً من نمو العربية وتطورها فى طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا فى شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع ( بطرا — Petra ) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى فى جنوبى فلسطين . وكان لهم فى الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم فى الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرى بحوران فى الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوَّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية فى تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشى الرومان من اتساع سلطان أمرائها ، فحاربوا ملكتها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرا . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً فى التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُروض من عرب الجنوب ومن الثموديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية فى أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت فى نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعيرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون فى خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت فى نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا فى إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط فى الأنحاء التى سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهى منثورة فى الحِجْر ووادى موسى وتيماء وشرقى الأردن وسيناء وحوران بُصْرى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات فى القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً مايؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين فى استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء فى التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة فى فصحانا ، على أنهم قد يجارون الآراميين فى تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف فى نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك فى كتابتهم فحسب ، مجاراة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم ، أما فى حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها فى كتابتهم . وقد ميزوا فى نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره فى الخط العربى فى مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل فى التعريف والواو فى آخر الأعلام المصروفة يقرّب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . ومما يلاحظ أنهم يكتفون أحيانا فى كتابة أل باللام وحدها فيقولون أو يكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعلى بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقاً شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهى لا تكاد تفترق عنها فى أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن فى التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور فى نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج ليتمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهى مدونة فى كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا ( يعنى عبد ذى الشرا ) جذيمة ، إجرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكينة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ، مغير ، فهر ، قصى ، كعب ، لخم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ، مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هانئ ، وائل ، وحش ، ورد ، وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب منها قرباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً فى القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطى مشتقين منه خطهم العربى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

٣

## نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذى اتخذتْ فيه لغتنا العربية شكلها النهائى الذى تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع فى الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفى والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظاً كاملا ، وهى الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور ، وقد رأينا نماذج منها فى نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبى ، وهى نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين ، وهى نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل الذى انتهت إليه الفصحى ، والذى تمثله نصوص العصر الجاهلى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائى مع ظهور الشعر الجاهلى أو أن ذلك تمّ فى حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعى ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذى يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا فى غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس، غير أنها قليلة ، ثم هى قصيرة ، وأكثرها فى أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبى أو نص طويل يمكن أن نتبين فى تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التى كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم، وهى تخلو خلوًّا تامًّا من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقترب اقتراباً شديداً من فصحانا ، وقد وقفنا فى الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثانى ملوك الحيرة ، وُضع على قبره فى النمارة شرقىّ جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام فى عروبته سواء من حيث الأسماء والأفعال، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطى يعد مقدمة للخط العربى . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بَدْءًا لتكون الفصحى، وقد لُقّب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهى أول مرة نعثر فيها على هذا اللقب ، وقد يكون فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون فى إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون فى هذه الوحدة ولا فى أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقا بوجوب اتحادهم إزاء الدول التى كانت تناهضهم فى الشمالين الغربى والشرقى ، ونقصد دولتى الروم والفرس، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط فى سَلْع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا فى الشمال ، أما فى الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها فى أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا فى سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذى لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون فى الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة فى الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفّت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكعبتهم الكبرى . وفى هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين فى مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحّبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد اليمنيين المهددين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهددين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون فى أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن الثموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانيون فتسقطوا إلى منازل هذيل .

وفى هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو فى سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربى الجاهلى تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة فى الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللّجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضى على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحبيل) بر ( بن ) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول ( المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيبر بعم (بعام) » . وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط فى كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهى نفس الصورة المألوفة فى الأقلام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربى تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائى بشهادة نصوص الشعر الجاهلى التى يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هى الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم. وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التى عاشت فى الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التى تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوى الشمالى ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزد فى جنوبى الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية فى الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ فى هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما فى داخل اليمن وفى ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخليين ومن يجرى مجراهم هو الذى يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخليين أنفسهم أخذوا فى التعرب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التى دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب[2] يلاحظ توًّا تقارباً فى الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقًّا تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد فى تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ( طبعة دار المعارف ) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة فى الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمى العراقى وتعليق جواد على عليها .

العربية شبهاً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفتن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعترف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى .

## ٤

### لهجات جاهلية[١]

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكسة ، وهما تخصان ضمير المخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف المخاطبة شيناً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

---

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليتمان بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لرابين .

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العنعنة، وهى فى تميم وبعض قيس وأسد، إذ يجعلون الهمزة عيناً فى بعض الكلمات، فيلفظون استعدى بدلا من استأدى، ويلفظون أعدى بدلاً من آدى، ويقال إن بعض بنى طيئ كان يقول دَأنى عوضًا عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضا نوناً ، وقالوا بدلا من أنْ وأنَّ عنْ وعنَّ .

وتقرب من العنعنة الفحفحة، وكانت فى هُذَيْل إذ تبدل الحاء عيناً، ويقال إن بنى ثَقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين فى ذلك فيقولون فى حتى عتى . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع فى بعض القبائل الشمالية المضرية ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عامًّا فى القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينْصِبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب فى لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر ( الإمالة ) فإذا رأيت عربيًّا كذلك فلا ترينه خلَّط فى لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التى حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر فى قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً فى الكشكشة مثلا هل كانت فى تميم أو كانت فى بكر أو كانت فى قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظه سيبويه فى الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً فى قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث فى اللهجات الشاذة التى رويت عن بعض القبائل المضرية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضرية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار فى يثرب تبدل العين نوناً فى مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالا كما لاحظ ليتمان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين ، من ذلك التلتلة فى قُضاعة و بَهْراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون: تِعلمون وتِكتبون وتِنجحون كما نصنع فى عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعجة فى قضاعة إذ يجعلون الياء المشددة جيما ، فيقولون تميمج فى تميمى ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيما وُجد عند بنى تميم ، وقال الزمخشرى إن بنى حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيما مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء فى ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون: منهِم وعنهِم وبينهِم . وسُمع عن قوم منهم ما سمى بالوكم إذ يكسرون الكاف فى ضمير المخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكِم وبكِم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيىء بالطمطمانية ، وهى إبدال لام التعريف ميما ، فيقولون فى السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالا ، وإنما هى لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرِّفون بالألف والميم ؛ ولعل فى ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيىء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية فى عاميتنا المصرية إذ نقول بدلا من البارحة إمبارح وأول امبارح . ومما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشَّنْشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شينا مطلقاً ، فيقولون بدلا من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم فى ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة فى بعض وجوهها من المضريين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء فى بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قبَّح الله بنى السِّعلاتِ ... عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ

ليسوا أَعِفَّاءَ ولا أَكياتِ

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميريًّا وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويِّها .

وفى كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التى كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطى فى المزهر فصلا لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية .

ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهّلونها فمثل سأل يسأل سؤالا عند الأولين يقابل سال يسلُ سوالا عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبئ عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبى عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد فى كل الكلمات ولا على جميع الألسنة فى الجانبين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثانى فى الثالث فى أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارْدُدْ ، وهذه أيضًا فيما نظن كانت مسألة حِسٍّ ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . ومما اشتهر بينهما من فروق إهمالُ ما عند التميميين فى نحو ما زيد قائمٌ وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائما ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجْرون « هلمّ » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريقاً واحداً فى مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنتين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا وهلممن يا نسوة ، وبلغة الحجازيين نزل القرآن الكريم فى قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمسُ فى الرفع وأمسَ بفتح السين فى الجر والنصب . ومن ذلك هيهات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيهات ، ورُوى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترنم فى قوافى الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذى يغنَّى والكلام المنثور ، وكان التميميون يبدلون المدّ فى القافية نونا ، على نحو ما عُرف عن جرير فى قصيدته :

أَقِلِّى اللوم عـــاذل والعِتابَنْ وقولى إن أَصبتُ لقد أَصابَنْ

فقد أبدل المدّ نوناً فى « العتابن » و « أصابن » وهو يحذف فى لغة الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقلى اللوم عــاذل والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيراً من اختلاف الفريقين فى همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمد الحجازيون الألف فى مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندَهُ ، وبذلك ننطق فى عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرةَ بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرها ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت ووخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقدالدراهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصحية) ويقول التميميون إضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء فى الفعل ويقول التميميون برئت بكسرها ، ويقول الحجازيون أنا منك َبراء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلوت القمح وأقلوه قلواً ويقول التميميون قليته وأقليه قِلّى ، ويقول الحجازيون لى بلك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو فى الوتر ، ويكسرها التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميميون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلا فى قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الظاء وهى لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الظاء وهى لغة تميم ، وقال جلّ ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهى لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهى لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهى لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهى لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهى لغة الحجازيين ، وقرأها السلمى وأبو حَيْوة بالضمة ، وهى لغة تميم ، وقال : ( إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما ) وقرأ الجمهور يستحيى بياءين ، وهى لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحى بياء واحدة ، وهى لغة تميم ، وقال : ( ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ) وقرئت الرسل بتسكين السين وهى لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهى لغة التميميين ، وقال : ( وإن أُحْصِرتم فما استيسَر من الهدى ) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهى لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء ، وهى لغة تميم ، وقال : ( وآتوا حقه يوم حَصاده ) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهى لغة الحجازيين وبفتحها وهى لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى: ( وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهى لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهى إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بنى مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة والبوباة بدلا من الموماة وهى الفلاة ، ويقال إن اطبأن بدلا من اطمأن لغة فى بنى أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع فى كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بنى تميم كان ينطق أثاثى بدلا من أثافى جمع أثفية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولا ثاء ثم أصبحت مع الزمن تاء تخفيفا . ويقال إن بنى عبد القيس فى البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص فى إجاص ، ويقال إن بعض بنى تميم كانوا يقولون فى أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار فى يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون تاء الجمع المؤنث هاء فى الوقف فيقولون البناه والأخواه فى البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون دكر فى ذكر ، على نحو ما نعرف فى عاميتنا ، ويقال أيضًا إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً فى مثل سوق وساق ، وفى عاميتنا راص بمعنى رأس . وتتبادل الضاد والظاء فى كثير من الكلمات ، ففى لغة تميم فاضت نفسه ، وفى لغة الحجازيين

والقيسيين والطائيين فاظت نفسه بالظاء . ومن هذه اللهجات أن طيئاً كانت تفتح الفعل اليائى فى مثل بقى ورضى فتقول بقَى ورضى ، وكانوا يقولون فى مثل توصية وجارية وناصية مما ياؤه مفتوحة توصاة وجاراة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعِم بكسر العين بدلا من نعَم وأنها كانت تكسر الباء فى ابن فتقول ابِن ، وأنها كانت تقول إشاح فى مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً فى مثل حتى ، فتقول عتى ، وأنها كانت تقول فى مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء فى مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصىّ وهوى وفتىّ وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً ، وكانت لا تشبع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء فى بعض القراءات : ( والليل إذا يَسْر ) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس فى كتابه « الصاحبى » فصلا حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف فى الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف فى الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف فى إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعنّ زيداً . ومن ذلك الاختلاف فى الهمز والتليين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو صاعقة ( فى لغة الحجازيين ) وصاقعة ( فى لغة التميميين ) . ومنها الاختلاف فى الحذف والإثبات نحوا ستحييت واستحيت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف فى الحرف الصحيح يُبْدَلُ حرفاً معتلا نحو أما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف فى الإمالة والتفخيم فى مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله ، فنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : ( اشترُوا الضلالة ) و ( اشترِو الضلالة ) . ومنها الاختلاف فى التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف فى الإدغام نحو مهتدون ومهدّون . ومنها الاختلاف فى الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبنى الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف فى صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف فى التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُنى له بتسكين الفاء وكسرها . ومنها الاختلاف فى الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمتْ . ومنها الاختلاف فى الزيادة نحو أنظرُ وأنظورُ » وقال ابن فارس إنه « يقع فى الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع فى الكلمة ثلاث لغات نحو الزُّجاج والزَّجاج والزِّجاج بضم الزاى وفتحها وكسرها ، ويقع فى الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمس لغات نحو الشِّمال والشَّمَل والشَّمْل والشَّمْأل والشَّيْمل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صادا مع ضم القاف وقُسْتاط وقِسّاط وقُسّاط .

ووراء هذه الاختلافات فى نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير فى التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثْرة المترادفات فى العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون فى تفسير قوله تبارك وتعالى : ( وفومها ) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف فى الأسماء يكون فى الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم فى حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وثابوت ومثل ادكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولفام فى لغة ومثل سجعت الحمامة وسجحت بالحاء ومثل حظوة وحظلة فى لغة .

والترادف فى العربية كثير كثْرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ فى جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعانى الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربى اتساعاً شديداً ، وهو فى حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت فى سلك واحد هو العربية ، وحقًّا ميَّز اللغويون فى مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا فى ذلك شواهد احتفظ السيوطى فى المزهر بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلا ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد فى ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية فى هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتى والترادف الموسيقى عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعدده بابُ الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جلل بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتى بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْن يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسْل بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكلة التضاد فى الأسماء قد يكون التضاد فى الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذى نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذى يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذى كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنبارى . ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة فى المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضا فإنهم أدخلوا فى الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلا . فهذا ونحوه لا يُعَدّ من الأضداد بمفهومها اللغوى الدقيق ، إنما الذى يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصَّريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع ولحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا فى الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة . قال أبو عبيد فى باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصارى

يقول : « السُّدْفة فى لغة تميم الظلمة والسدفة فى لغة قيس الضوء .. ولمقت الشىء ألمقه لمقاً إذا كتبته فى لغة بنى عقيل وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته »[١]. وعن ابن دريد : « خرج رجل من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة إلى ذى جَدَن ( من أقيال حمير ) فأطْلع إلى سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثبْ أى اقعد ، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللّعْن ! إن الوثب فى كلام نزار الطفر ( القفز ) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »[٢]. ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضًا فى كثير من الكلمات التى كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضى فى تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل فى الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعى وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها فى صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت فى الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم فى حد ذاتها ، إنما كان يعنيهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التى نُظم بها الشعر الجاهلى ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصُّوا فى أكثر الأحوال على القبيلة التى كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضًا فإنهم مع نَصِّهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل فى هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التى جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا فى نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يُشْركون بين قبائل متباعدة فى الظاهرة اللغوية الواحدة .

---

(١) المزهر ١/٣٨٩ .

(٢) المزهر ١/٣٩٦ .

٥

## سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة فى لهجتها فلم تتضح فى شعر شعرائهم إلا قليلا جدًّا.

وقد اختلفت آراء[1] المستشرقين فى هذه اللهجة التى كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات فى الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات، كانت قليلة، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى. وتبعه جويدى يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها، إنما هى مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم. وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل. وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التى اشتهرت بنظم الشعر والتى جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم، وهى قبائل معدّ التى جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادى. وفى رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية، وتهذبت فى زمن مملكة كندة، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب. ويرى هارتمان وڤولرز أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة، ومضى ڤولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة، ليصل إلى رأيه الذى سبق أن دحضناه، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح. وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعا[2].

---

(١) راجع فى هذه الآراء مقالة جواد على عن لهجات العرب قبل الإسلام فى كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة النهضة فى القاهرة).

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/٤٢.

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التى كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهى تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلْيا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطَّين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبى مكة متجها شرقا إلى الخليج العربى فى البحرين ويمتد ثانيهما فى الشمال من ضواحى يثرب إلى شمالى الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلى والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهى لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التى تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميها ، ومضى يشكك فى أن تكون لهجة قريش هى التى حققت لنفسها هذا التسامى[١] .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحَدْس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر فى نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هى لهجة قريش التى نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابى : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس »[٢] ويقول أحمد بن فارس نقلا عن إسماعيل بن أبى عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جلَّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبىّ الرحمة محمداً صلَّى الله عليه وسلم فجعل قريشا قُطَّان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية[٣] قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ٧٧/١ وما بعدها .

(٢) المزهر للسيوطى ٢١١/١ .

(٣) العجرفية : التقعر وطلب الغريب الوحشى من الكلام .

ولا كَشْكشة أسد ولا كسكسة ربيعة »[١] . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بُعْدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »[٢] .

وفى رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق فى الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب فى أن الفصحى هى عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها فى لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث فى حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية فى الذيوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التى تستخدم فى الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة فى نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك فى قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب فى الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الدينى الروحى والاقتصادى المادى ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها فى أعيادها الدينية وفى أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية فى الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثنى ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها فى الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هى اللغة الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(١) انظر الصاحبى فى فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص ٢٣ .

(٢) راجع الفصل الثانى والثلاثين من القسم السادس فى مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

الدلالة سوقُها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُرْوَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عَبَدة التميمى ، فأنشدهم قصيدته : " هل ما علمت وما استودعت مكتوم " فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : " طحابك قلبٌ فى الحسان طروب " فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[١] .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى كل القبائل العربية شمالا وغرباً وشرقاً ، وفى اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة فى التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة فى الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما فى الشمال فقد كانت الفصحى معروفة فى كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هى اللغة الأدبية التى كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجُز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُليا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك فى رأيى إنما هو تفسير منهم للحديث النبوى : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

(١) أغانى (ساسى) ٢١/١١٢ .

كثيرة ، فاختاروا منها سبعاً هى أفصحها ، وهى التى كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا فى بعضها . وفى رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مَدٍّ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلا عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلا فى نطق بعض ألفاظه . روى الرواة عن أبى حاتم السجستانى أنه قال فى كتابه الكبير فى القراءات : « قرأ علىّ أعرابىّ بالحرم ( الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبى لهم وحسن مآب ) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال علىّ قلت : طوطو قال : طى طى »[1]. فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية فى مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضمة فى أول الكلمة كسرة . ولم ينفع فى الأعرابى لَفْتُ أبى حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولمثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم فى تلاوته . وفعلا قرأوه بلهجاتهم ، المرخّص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التى دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هى أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التى عينها اللغويون هى أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التى أشار إليها الحديث النبوى . وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفى القرآن الكريم نفسه : ( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لفولرز وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هى نفس لغة قريش التى لم يكن بها عِوَج من لغات أو لهجات شاذة كالعنعنة والكشكشة وكسر أول المضارع .

(١) الخصائص لابن جنى بتحقيق محمد على النجار (طبع دار الكتب المصرية) ١/٧٥ – ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التى ضللت المستشرقين أيضًا ودفعتهم عن محجّة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون فى الإسلام وأن الفصحى فيها فى أثناء القرن الثانى قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالى الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التى كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عُلْيا هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابى السبب فى أنهم اقتصروا على تلك القبائل فى جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حَضرى قط ولا عن سُكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1] » .

فاللغويون فى القرن الثانى حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرّون الينابيع التى لا تزال نقية صافية ، وليس فى عملهم ما يشككك أى تشكيك فى لغة مكة فى أثناء العصر الجاهلى وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيتهم فى القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

---

(١) المزهر ١/٢١١ .

ومن المؤكد أن الفوارق فى الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالا . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلى على إذاعة اللهجة المكية فى قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب فى الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلى ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التى اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتى سُمِّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة فى الإسلام ، فقد أقبل العرب فى كل مكان شمالا وجنوباً على الارتشاف من أفاويق لغته ، وقد أخذ يعمّمها لا فى أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل فى كل بلد إسلامى شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسى .

الفصل الخامس

# رواية الشعر الجاهلى وتدوينه

## ١

### رواية العرب للشعر الجاهلى

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نموا الخط النبطى وتطوروا به إلى خطهم العربى منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وُجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقّش الأكبر [١] :

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما  رقَّشَ فى ظهر الأَديم قَلم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً فى يد بعض العرب [٢] ، ويقول سلامة بن جندل [٣] :

لمن طلَلٌ مثل الكتاب المنمَّقِ  خلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْب فمُطْرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها  بِمِنًى تـأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها [٤]

فمدافعُ الرَّيَّان عُرِّىَ رَسْمُها  خَلَقًا كما ضمِنَ الوُحِىَّ سِلامُها [٥]

وجلا السيولُ عن الطلول كأَنها  زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أَقلامُها [٦]

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ ، رقش : زين ونمق .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٣٠.

(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٤٦ والصليب ومطرق : موضعان .

(٤) عفت : درست وامحت ، تأبد : توحش ، والمحل : حيث يحل القوم . والمقام : المجلس ، ومنى : موضع بحمى ضرية ، والغول والرجام : جبلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم : آثار الديار ، وخلقا : دروسا، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة.

(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجد : تجدد .

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول ، حتى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وتُرك ما تبيّن منها ، فهى مختلفة . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى [١] :

لابنة حِطّان بن عَوْفٍ منازلٌ كما رقّش العنوانَ فى الرّقّ كاتبُ

ويقول الحارث بن حِلّزة اليشكرى البكرى [٢] :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبْس آياتُها كمهارق الفُرْسِ

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى [٣] . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الحواضر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلّم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة [٤] ، وكان مَنْ يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين [٥] . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورُويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعريّاً لقومه فى بعض ما حزَبه من الأمر [٦] . وغلاكرنكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن [٧] .

---

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .

(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .

(٣) أغانى ٢/١٠١ وطبعة الساسى ٢٠/٢٤ والشعر والشعراء ( طبعة دار المعارف ) ١/١٨٠

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ١٤ .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى ( طبعة الحلبى ) ص ١٢ .

(٦) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ( طبع دار المعارف ) .

(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold.

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ فى عصر التدوين أو بعبارة أخرى فى القرن الثانى للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعى ، وليس فنًّا بصريًّا .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة فى نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسَعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء فى حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك فى الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحوُّل جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلا فى العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار فى الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة فى البيئات الآخذة بشىء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتُّخذتْ أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كِتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا فى الدين ولا فى غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة فمن باب الأساطير ، وهو فى حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات ، فقد جاء فى العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدتْ إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهَّبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات »[١] ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها : المقلَّدات والمسمَّطات ، وكانوا يسمون فعلا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما[٢] ، وقد

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/١١٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٩ .

نفى ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[1] » .

ونستطيع أن ندخل فى هذا الباب باب الأساطير ما يُرْوَى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب فى الطنوج — الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبَيْد ( حوالى سنة ٦٧ هـ ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[2] » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ( من شعر العرب فى الجاهلية ) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه[3] » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم فى روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل فى أطوائه ما يجعلنا نتهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة فى الشعر القديم والعلم به ، والمنافسةُ بين البلدتين فى هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجْمَعْ فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية فى الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل فى أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عامًّا إلا بعد مرور

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت فى ترجمة حماد ٢٦٦/١٠ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار الكتب) ٣٩٢/١ ومعجم البلدان لياقوت فى القصر الأبيض .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ( طبعة دار المعارف ) ص ٢٣ .

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك فى الشعر الجاهلى ، ولم يكن ركناً فى الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومَنْ يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره فى القبائل ، فهى الوسيلة التى كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيَّب بن علس[١] :

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً   منى مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقاعِ[٢]
تَرِدُ المياه فما تزال غريبةً   فى القوم بين تمثُّل وسماعِ

فقصيدته تنتشر فى القبائل ، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول عَميرة بن جُعَل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه فى العرب وأنه لم تعد له حيلة فى رده[٣] :

نَدِمْتُ على شَتْم العشيرة بعدما   مضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ
فأصبحتُ لا أسطيع دَفْعًا لما مضى   كما لا يردُّ الدَّرَّ فى الضَّرْع حالبُهْ

فرواية الشعر فى العصر الجاهلى كانت هى الأداة الطيعة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هى طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفتق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن . ونصَّ صاحب الأغانى على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمى ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهيرُ بن أبى سلمى المزنى ، وكان له راويتان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثيِّر صاحب عزَّة[٤] .

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل مذهب ، مغلغلة : نافذة تنفذ فى الناس وتسلك إليهم السبل البعيدة .

(٣) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ وقارن مع المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩١/٨ .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل فى طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها ، ومن أهم ما يلاحظ فى هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة فى شرقى الجزيرة وغربيها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم ، ونص القدماء على ذلك فى غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيب بن علس وكان يأخذ منه[١] وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلى كان راوية لساعدة ابن جؤية الهذلى[٢]، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن طرفة كان يروى عن خاله المتلمس الذى ربى فى أخواله من بنى يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك فى الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شراً والشنفرى أو عند أبى دؤاد الإيادى وزيد الخيل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرقنا وغربنا فى الجزيرة ، وهى تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهى دائماً الإمام المتبع ، وهم كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم فى ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم فى حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بنى بكر معيراً تغلب لكثرة تردادها لقصيدة واحدة هى معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها ، يقول[٣] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح للمرزبانى ص ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥

(٣) أغانى ١١/٥٤ .

يروونها أبدًا مذ كان أولهم يا للرِّجال لشعرٍ غير مشئوم

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم فى إشاعته، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه فى محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، ومن ثَمَّ قال عمر بن الخطاب: « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »(١) فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبّوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبى الصَّلْت ، قال الشريد بن سُوَيد الثقفى : « استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه، هيه، حتى أنشدته مائة قافية »(٢) . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلى ، وكان يتمثل به أحياناً فى خطابته كخطبته المشهورة فى يوم السَّقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »(٣) .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤) .

ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلى كانت مستمرة فى صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشدّ من أزرها وتقوى من شأنها، فقد أخذت تنشأ منذ

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .
(٢) ابن سعد ٥/٣٧٦ وخزانة الأدب ١/٢٢٧ والمزهر ٢/٣٠٩ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ٩٥ وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهماً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطّطوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنَّخار بن أوس العذرى[١] .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالا لم تَخْبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموى ، وكان الشعر الوقودَ الجزل لهذه العصبيات ، فأخذت كل قبيلة تُعْنَى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه[٢] .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم[٣] ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً إلى العراق »[٤] يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُرْوَى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعى عُبيد بن شَرِيَّة الجرهمى من

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣/٩١ .

(٤) التصحيف والتحريف للعسكرى ص ٤

صنعاء اليمن ، ويتخذه سميراً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون فى دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها فى الجاهلية وأشعارها(١) .

ومنذ وقت مبكر فى صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة فى المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التى تتصل بوعظهم فى تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعْنَى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجرى على ألسنة شعرائهم . وفى أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يرويِّها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح(٢) . ولم يكن هنالك شاعر مبرز إلا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفى كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة من هذا الشعر(٣) ، وصوّر الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلى ، فقال فى بعض قصيده(٤) :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ(٥)
والفحلُ علقمةُ الذى كانتْ له ... حُلَلُ الملوك كلامُه لا يُنْتَحَلُ
وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَه ... ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأَوَّلُ(٦)
والأَعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضاعةَ قولهُ يُتَمَثَّلُ(٧)
وأخو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذ مضى ... وأبو دُوَادٍ قوله يتنخَّلُ

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٥١ ، ٢/٣٢٣ .
(٣) مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٢٥ وما بعدها .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان ( طبع القاهرة ) ص ٧٢٠ .
(٥) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .
(٦) أخو بنى قيس : طرفة ، وهن قتلنه : يريد القوافى ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .
(٧) الأعشيان : أعشى بنى قيس وأعشى باهلة . وأخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

وابنا أبي سُلْمَى زهيرٌ وابنُــه وابن الفُرَيْعَة حين جَدَّ المِقْوَلُ[1]
والجعفريُّ وكان بِشْرٌ قبلــه لي من قصائده الكتابُ المُجْمَل[2]
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقًا كالسُّمِّ خالط جانبيه الحَنْظَلُ[3]
والحارثيُّ أخو الحِماس ورِثْتُهُ صَدْعًا كما صَدَعَ الصَّفَاةَ المِعْوَل[4]

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما وليه من أوائل العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثُّل الحجاج بالشعر فى خطابته ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله فى وصف بعض قصائده[5] :

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قَرَا هُنْدُوانىٍّ إذا هُزَّ صَمَّما[6]

وفى أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقوِّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد »[7] . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلى كيونس بن متّى راوية الأعشى[8] .

---

(١) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .
(٢) الجعفرى : لبيد ، وبشر هو بشر بن أبى خازم .
(٣) أوس : أوس بن حجر .
(٤) الحارثى : النجاشى .
(٥) النقائض ص ٤٣٠ .
(٦) قرا : متن ، والهندوانى : السيف .
(٧) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٤/٢٥٦ وما بعدها .
(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلى إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »[1] .

## ٢

### رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسى حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلى عملا أساسيًّا لهم ، وتختلط فى هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرّاء للقرآن الكريم وغير قراء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً فى البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات فى المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفى أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهمُّ هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم مَنْ هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا فى عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك تفسير

---

(١) ابن سلام ص ٢٢ .

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلى فى شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت فى ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلى فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التى ينبغى أن تتبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر فى ذاته ومن أجل نفسه، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته فى أثناء العصر الإسلامى ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون مَنْ حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلا[١] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى يكوّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة فى الكوفة ومدرسة فى البصرة ، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون فى روايتهم تشدد الأخيرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضَّرْب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضْرَبُ الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بيِّن فى دواوينهم »[٢] . وندّد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكِّكُ فى الآخر[٣] ، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة فى جملتها أوثقُ من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى .

وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواة الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثَق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسى المدرسة النحوية فى البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أُخذتْ عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، ووُلد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٤ وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أى تنسك فأحرقها»[١] وهو إحراق لايغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقدوتهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدتُ فى شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعنى ما يُروَى للأعشى من قوله :

وأنكرتْنى وما كان الذى نكرتْ   من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَلَعا »[٢]

وحاول بعض الباحثين التشكيك فى روايته لهذا الاعتراف[٣] ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفى سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقيًّا صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أُخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليكَ واللصوص ، فنقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ »[٤] وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُروَى عن مروان بن أبى حفصة من قوله: « دخلت أنا وطُرَيْح ابن إسماعيل الثقفى والحسين بن مُطَيِّر الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد ( ١٢٥ — ١٢٦ ) ه وهو فى فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليدَ بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية[٥] » ويُروَى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد »[٦]. وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

---

( ١ ) انظر البيان والتبيين ١/٣٢١ .

( ٢ ) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٣/١٤٣.

( ٣ ) انظر مقالة مرجليوث TheOrigins of Arabic Poetry فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٩ وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/١١١ .

( ٤ ) الأغانى ٦/٨٧ .

( ٥ ) الأغانى ٦/٧١ .

( ٦ ) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٠/٢٦٥ .

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أُنْشَدُ شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكّل به مَن استحلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم »[١] . وقد يكون فى هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصورّ مدى ما استقر فى أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلى .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً[٢] ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه[٣] فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثُر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعى : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرْضَ روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبى بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية[٤] ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتنى شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة بمديح أبى موسى الأشعرى (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعرَ الحطيئة ! ولكن دعها تذهب فى الناس[٥] وقصته فى مجلس أمير المؤمنين المهدى مع المفضل الضبى مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات فى مطلع قصيدة زهير : ( دع

(١) الأغانى ٦/٧١ ومعجم الأدباء ١٠/٢٥٩.

(٢) الحيوان ٤/٤٤٧ والأغانى ٦/٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٣١ ولسان الميزان ٢/٣٥٣ ، ٣/١٧٣ .

(٣) المزهر ٢/٤٠٦ حيث يذكر أن الأصمعى روى شيئاً من شعره ، وانظر الأغانى ٥/٢٠٩ حيث يروى له أبياتاً محكمة الصنعة.

(٤) الأغانى ٦/٨٨ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ – ٤١ وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائنى ورواة ديوان الحطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكفى لصحة نسبها .

ذا وعد القول فى هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدى بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدى أن ينادَى فى الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل مواطنه[١]. وحاول بعض الباحثين التشكيك فى القصة[٢] ، لأن المهدى ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة فى تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت فى قصر عيساباذ الذى بناه المهدى فى سنة ١٦٤ بينما أرخوا لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لايدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سيئ السيرة خلقيًّا ودينيًّا ، وما كان ابن سلام البصرى ليقول فيه : «كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار »[٣] بعامل المنافسة والعصبية ، ونفسُ البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه ومعاصره المفضَّل الضبي . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هى حقيقة واقعة ، ونفسُ الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشركون البصريين فى نفس التهمة ، فابن الأعرابى الكوفى يروى عن المفضل أنه قال : « قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبدًا ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئُ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويُحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »[٤] .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحِّف ويكذب[٥] ، ولكن

---

(١) الأغانى ٦/٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مقدمة لايل للمفضليات ص ١٨ ومابعدها ومقالة برينلش فى مجلة O.L.Z. عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر الشعر الجاهلى ص ٤٤٢ .

(٣) ابن سلام ص ٤٠ .

(٤) الأغانى ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٥ .

(٥) الأغانى ٦/٨٩ وانظر ٨/٢٨٣ .

بعد تجريد التّهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغي أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغي أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه[١]، ويُرْوَى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه[٢] .

ومن رواة الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضي وكان من أكذب الناس فى الرواية[٣] ومثله جنّاد وكان يخلط فى الأشعار ويصحف ويلحن[٤] . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يَعْلى الضبي المتوفى حوالى سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويُجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هى الملقبة بلقب المفضليات ، وهى أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلى ووثائقه التى لا يَرْقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة فى الحقبة التى تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً الأحمر الذى تُسَدَّد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقل عن حماد فى معرفته بأشعار العرب وأخبارها، بل لعله يتقدمه ، إذ كان شاعراً مبرِّزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالى ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالى سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً ،وكنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألاّ نسمعه من صاحبه »[٥] غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التّهمة الشديدة التى سُلِّطت على روايته ، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه ، ويقال إنه هو الذى وضع اللامية المنسوبة إلى الشّنفرى[٦] :

---

(١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .
(٢) الأغانى ٦/٩٢ .
(٣) إنباه الرواة ١/٢٤٢ والفهرست (طبعة مصر) ص ١٠٧ .
(٤) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت وراجع الفهرست ص ١٣٥ .
(٥) ابن سلام ص ٢١ .
(٦) الأمالى ١/١٥٦ .

أقيموا بنى أُمِّى صُدورَ مَطِيِّكمْ فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ

كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تأبط شرًّا أو إلى ابن أخته[١] :

إنَّ بِالشِّعْب الذى دون سَلْعٍ لقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ

وتصدَّى له الأصمعى مرارًا يتهمه بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا ، وعلى غيرهم ، عبثًا بهم ، فأخذ ذلك عنه أهلُ البصرة وأهل الكوفة »[٢] وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يتقبلون كل ما يرد عليهم ، فقال : « رواة غير منقِّحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دُؤاد الإيادى قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون »[٣] . ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضحاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يُضْرَب المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبِّه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك ما لا عظيما خطيرًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرَّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم »[٤] .

وواضح من ذلك أن الكوفة هى التى حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعى رفضتها . والأصمعى يقوم فى البصرة مقام المفضل الضبى فى الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

(١) انظر العقد الفريد ١٥٧/٦ والحيوان ١٨٢/١ وانظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) الموشح للمرزبانى ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

وأشعارها وأخبارها ، ووثقوه وعدّلوه ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النّيْل منه ، ولكنه نيل مردود، فقد كان فى الذروة من الثقة والأمانة ، وهو عربى صليبة، ولد حوالى سنة ١٢٢ للهجرة وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جِنّى : « وهذا الأصمعى هو صَنّاجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حَدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه، وإما إسفافُ مَنْ لاعلم له وقول من لا مُسْكة به إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفوٌّ عليه غير معبوء به »[1] ويقول أبو الطيب اللغوى : « فأما ما يحكيه العوام وسُقّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون: هذا مما افتعله الأصمعى . . وأنى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوّز إلا أفصح اللغات ويلجّ فى دفع ما سواه[2]». وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هى الأصمعيات وهى كالمفضليات ثقة ودقة ، ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعْنَى بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربى أنصارى خزرجى ، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالى سنة ١١٠ وتوفى حوالى سنة ٢١١ وهو من الموالى وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه[3] وينبغى أن لا نتبعهم فى توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعى وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرَح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجريحاً مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التّهمة روايته، وأكثر منه تُهمة فى هذا الباب محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضاعين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

(١) الخصائص ٣١١/٣ .

(٢) مراتب النحويين ص٤٩ .

(٣) إنباه الرواة ٢٨٠/٣ .

أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ( المناذرة ) ومبالغ أعمار مَنْ ولى منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة »[١] . وينتظم فى سلك هؤلاء المؤرخين الواقدى والمدائنى .

وخلف بعد مَنْ قدَّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث ، وعلى رأسهم أبوعمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة فى بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالى سنة ٢٤٤ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ . وانتهت الرواية فى البصرة إلى أبى سعيد الحسن ابن الحسين السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل فى جمع كثير من الدواوين الجاهلية ، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية .

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلى أُحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص ، وأنه إن كان هناك رواة متهمون ، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفى والأصمعى البصرى ، وما مَثَلُ الشعر الجاهلى فى ذلك إلا مثل الحديث النبوى ، فقد دخله هو الآخر وضع كثير ، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه ، وقدَّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة ، وكذلك الشأن فى الشعر فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا — فى مهارة بالغة — أن يميزوا صحيحه من زائفه ، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء فى سَنَد الرواة أو فى المتن نفسه ، بل إن ابن سلام ليقدّمهم على علماء الحديث فى هذا الباب ، يقول : « حدثنى يحيى بن سعيد القطّان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع »[٢] .

فينبغى أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات فى بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن فى الشعر الجاهلى عامة ، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقًّا ، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه . أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعى صحيحة . وكانا يتحريان تحرياً شديداً .

---

( ١ ) تاريخ الطبرى ( طبعة ليدن ) القسم الأول ص ٧٧٠ .

( ٢ ) ذيل الأمالى ص ١٠٥ .

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلى ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عُبيد بن شَريَّة ومحمد بن السائب الكلبى وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة ، وأيضًا ينبغى أن نهمل ما اختلف فيه الرواة ، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغى أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ( من الشعر ) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »[١] ويقول : « قد اختلفت العلماء فى بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »[٢] . واحتفظ ابن سلام فى طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحةَ النسبةِ إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة ، فمن الضرب الأول قوله عن طرفة وعَبيد بن الأبرص : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحّ لهما قصائد بقدر عشر . . وترى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك ، فلما قلّ كلامهما حُمل عليهما حَمْل كثير »[٣] ثم عاد فوسّع الشك فى شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَــرَ من أهله ملحوبُ  فالقُطَبِيَّــاتُ فالذَّنوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك »[٤] . ومن الضرب الثانى إنكاره أن يكون النابغة هو الذى قال :

فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها  كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا[٥] ،

---

( ١ ) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .
( ٢ ) نفس المصدر والصفحة .
( ٣ ) ابن سلام ص ٢٣ .
( ٤ ) ابن سلام ص ١١٦ .
( ٥ ) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

وعلى هذا النحو صفّى علماءُ الرواية واللغة الشعرَ الجاهلى من شوائب كثيرة علقت به ، وإن كنا لا ننكر فى الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان فى حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانا أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية فى صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

## ٣

### التدوين

مرَّ بنا أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحَّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلا فى تدوين أشعارهم ، إنما هى قطع تكتب على رَحْل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث . وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات فى الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو وأهل بيته. ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة فى الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً فى الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومَنْ كان منهم يُعِدّ قصيدته فى حَوْل أو أقل من حول كان يعدها فى نفسه ، ويرددها فى ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويَحْملها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام . . فما هو إلا أن يصرف ( العربى ) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ( أفواجا ) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيّده على نفسه »[1] .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٨ .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيّدونه إلا قليلا وفى ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار ، وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفى تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتاباً فى المثالب ، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه ، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شريّة أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها ، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون فى تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق فى تدوين الشعر ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدويناً عاماً إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها فإنها لم تعمد إلى تدوين هذا الشعر إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدوّنات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد فى أول تعلقه بالشعر من أنه نقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل فى طلبه ، فقال فى نفسه : « لا يسألنى إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت فى كتابى قريش وثقيف »[١] ويُروَى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجنّاد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما »[٢] .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلا على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثانى مدونات تاريخية للقبائل لعلها هى التى أعدّت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التى نعرفها لديوان هذيل .

ونمضى بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيّد إلى جانبها كثيراً من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

---

(١) الأغانى ٦/٩٤ .
(٢) الفهرست ص ١٣٤ .

كتبه ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرأ ( تنسك ) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[١] » . وكان حماد على ما يظهر يُعْنَى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعنى بالكتابة ، إنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يُرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصُنِّفت الكتب بعده »[٢] . وتُرْوَى للمفضل الضبي كتب صنفها ، فيها أشعار وأخبار[٣] ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوّنوا ما رووه لطلابهم ، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذي حمل مادة أخباره ودوّنها في كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً في النحو ، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمسّ ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه مَنْ ينشده ، ولذلك كانوا ينبذون في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفي يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعّفوا مَنْ يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعّف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي » .

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوّنون لا يكتفون بالسماع من جِلَّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الفهرست ( طبعة المطبعة الرحمانية ) ص ١٣٥ .

(٣) إنباه الرواة ( طبعة دار الكتب المصرية ) ٣/٣٠٢ .

نفسه وعن أبى عمرو الشيبانى الذى يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتيجتان من حبر ، فما خرج حتى أفناهما بكتْب سماعه عن العرب(١) .

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدّ هذه الحاجة عند الرواة. والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيعَ الرواة من قبلهم ، بل كانوا يدوِّنون ما يسمعونه ويحتفظون به ويقرءون منه فى مجالسهم وينقله عنهم طلابهم . وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفى الذى لا يكاد يبلغه الحصر والعد ، فقد ترك هشام بن محمد الكلبى نحو مائة وأربعين كتاباً ، وكانت كتب المدائنى لا تقل عنها عدداً ، بينما خلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفاً ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائنى وأخبار طيئ للهيثم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبى وهو يمتلىء بالشعر الجاهلى مما يدل على أنه كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحَظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيراً منهم لم يكن دقيقاً فيما يجمع من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم فى هذا الباب ، وقد تصدّى له ابن سلام فى طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثاء منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسِّيَر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر أُوتَى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حَمَل هذا الشعر ومن أدّاه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : ( فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا ) أى لا بقية لهم ، وقال أيضاً : ( وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى ) وقال فى عاد : ( فهل ترى لهم من باقية ) وقال : ( وقروناً بين ذلك كثيراً ) وقال : ( ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قومِ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ) »(٢) .

---

(١) نزهة الألباء للأنبارى ص ٦٣ .

(٢) ابن سلام ص ٨ وما بعدها .

وقال ابن سلام أيضًا فى ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم »[١] وتعقب ابنُ هشام فى سيرته ابنَ إسحق وردّ كثيراً مما روى ، أو صحح نسبته .

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا فى الشعر الجاهلى عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُرْوى عن الجاهليين ، بل نحن نضيقها تضييقًا شديدًا ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقاة مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى ، فجملة ما رووه وثيق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غُفْلا لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلف من بعدهم خلفٌ أتموا تدوين الشعر الجاهلى وأشهرهم فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتبَ مصحفًا وجعله فى مسجد الكوفة ، وطبيعى أن يُخرج دواوين القبائل راوٍ كوفى لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا فى الكوفة ولم يكونوا فى البصرة ، ومن غير شكٍّ كانوا من أهم الأسباب التى أعانت على حفظ الشعر الجاهلى وروايته إلى أن دُوِّن فى القرن الثانى . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفى برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب فى أننا نرى مؤرخيهم ينثرون فى تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائنى والواقدى وابن الكلبى . وكان رواة الشعر يمزجون برواياتهم كثيرًا من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى فى شرح النقائض لأبى عبيدة . وقد بقى من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبى ذؤيب .

ويدل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى أنهم دونوا من هذه الأشعار

---

(١) ابن سلام ص ١١ .

والأخبار تراثًا كبيرًا ، ومعروف أنه يقع فى واحد وعشرين مجلدًا ضخمًا وأن للجاهليين فيه حظًا موفورًا . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ، تصور مصدرها ، محتاطًا إزاء رُواته أشد الحيطة ، فمن عُرف بكذبه نبّه عليه ، وحتّى من عُرف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة فى الدقة والتحرى . والكتاب مؤلف حقًا فى القرن الرابع الهجرى ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثانى والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلى الضخم ، وأتاحوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالى أو أخبارا وتراجم . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبى تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكرى أهم راوٍ ظهر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، فقد رُويت عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع فى روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشى وأبى حاتم السجستانى البصريين . ونمضى فى القرن الرابع الهجرى ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنبارى والقالى والمرزبانى ، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبى الفرج الأصبهانى فى أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالبًا بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتى نصل إلى أبى عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبى مثلا . وبذلك قدموا لنا — صنيعَ سابقيهم — مادة الشعر الجاهلى بكل ما تحمل من أسباب ضعف أوثقة ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيعِ الرواة المتقدمين.

## ٤

### قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلى دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضَّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم فى هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعى خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبى من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون فى التراث . ومن أهمهم فى هذا الجانب ابن سلام ، فقد دوّن فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية فى رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التى ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب فى الحقيقة هو أول كتاب أثار فى إسهاب مشكلة الانتحال فى الشعر الجاهلى ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التى كانت تتزيد فى شعرها لتتزيد فى مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا فى الأشعار »[١] .

فالقبائل كانت تتزيد فى أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قريش فى أشعار الشعراء ، فهى تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان[٢] « ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمم بن نُوَيْرة ، فقد استنشده أبوعبيدة شعر أبيه متمم ، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، وإذا كلامٌ دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله »[٣] .

ولعل فى هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبى عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه

---

(١) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .
(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ ومابعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكا فى قصيدة أبى طالب التى روتها قريش فى أشعارها والتى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[١] ، ومعنى ذلك أنهم نظروا فى شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا[٢] . وهم يفحصون ويحققون فى شعر المدينة كما فحصوا وحققوا فى شعر قريش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلا كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثّل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا أشباها له فى جَنّاد وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلى ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زَيْف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوى السيرة النبوية إذ كانت تُصْنَع له الأشعار ويُدخلها فى سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطقا بالشعر العربى من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعى وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئا مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدوه عند رواة أثبات ، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراءَ المدينة : إن شعره فى الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم[٣] » . فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عبيد بن شَرِيّة ويتحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشْكل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[٤] » مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غثّ « لا خير فيه ولا حجة فى عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .
(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف[١] » .

فني الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة[٢] ومنه ما رواه ثقات لا شك فى ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحلُ الموثوقَ به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلى عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية ، قضية انتحال الشعر الجاهلى أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها نولدكه[٣] سنة ١٨٦٤ وتلاه آلوَرْدْ حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك فى صحة الشعر الجاهلى عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة فى ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آلوارد فى موقفه الحذر من قبول كل ما يُرْوَى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية فى كتاباته إذ كتبَ فيها مقالا مفصلاً نشره فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مر بنا (أصول الشعر العربى : The origins of Arabic Poetry ) ونراه[٤] يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء فى ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينفى أن تكون الرواية الشفوية هى التى حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينفى كتابته فى الجاهلية ليؤكد أنه نُظم فى مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ! . ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجَنّاد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة فى بعض ، ليزعم أن الوضع فى هذا الشعر كان

---

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٢) ابن سلام ص ٦ .

(٣) انظر فى مناقشة المستشرقين لقضية الانتحال ، تاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/١٧٦ وما بعدها .

(٤) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى تلخيصاً دقيقاً ص ٣٥٣ وما بعدها .

مستمرًّا . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحى ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآنى وما فى الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفى كتاب الأصنام لابن الكلبى من الشعر الجاهلى ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحتة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهى نفس لغة القرآن الكريم التى أشاعها فى العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعددة فى الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية فى الجنوب . وأسلفنا فى غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة فى الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب فى عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلى لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعى لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[1] وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة فى الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعرى فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو[2] .

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب فى دعواه ، ولذلك هبّ كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير فى مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

---

(١) ابن سلام ص ١١ .

(٢) بلاشير ص ١٨٠ .

وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلى عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقًّا دخله انتحالُ أمثالِ حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغى أن نهتدى فى معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع فى مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّن نهائيًّا فى العصر العباسى ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التى تنفرد بها والتى تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله فى المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجرى تُلزم بوجود الشعر الجاهلى الذى يشترك معها فى نفس التقاليد ، وأيضا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدَم فى عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح فى جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن فى الشعر الجاهلى صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التى تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضاً فإن فيه صورة لتهتك خلقى لا يمكن أن تقوم إلا فى نفس وثنى ، على نحو ما يلقانا فى معلقة امرئ القيس وحديثه عن المرضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة .

ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون فى قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكًّا معتدلا أو متطرفاً ، وممن أدلى بدلوه منهم فى هذا الموضوع بلا شير فى الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربى ، إذ تحدث طويلا مبينا بل مجسما الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحيانا إذا به يهجم هجوماً عنيفاً(١) . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد فى النصوص المذكورة أن الشعراء أيا كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجى ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هى بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك فى أن القصائد الجاهلية جُرِّدت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابى بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب(٢) » ويقول : « كل شىء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا فى الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها .

(٢) بلاشير ص ١٨٨ .

جمالية(١) » ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب فى أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة فى أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلا منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات فى المترادفات . وما من شيء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه(٢) » وينتهى من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية ( يقصد الصحيحة ) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوى فى شكله الأصيل . . ونحن نعلم لكى تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن فى كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات(٣) » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلى اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطاً يتعذر معه أن تميَّز ، وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرقى إليها الشك . وهو يزعم أيضا أن الرواة ونحاة البصرة عدَّلوا فى هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليله على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدَّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلا تكاد تكون منعدمة فى الجاهلية نفسها لأن الشعراء فى القبائل المختلفة اصطلحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم فى أشعارهم إلا أشياء قليلة جدًّا ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا ففيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رُواة الكوفة ونُحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولا يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا فى الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون فى هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبثوثة فى هذا الشعر الجاهلى والتى تقوم على الرصانة والجزالة ،

---

(١) بلاشير ص ١٨٩ .
(٢) بلاشير ص ١٨٩ .
(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنقضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقاتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية. على أننا نسلّم بمايقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير فى أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف فى ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمله ورواه العلماء الثقات الذين نَصُّوا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعى يعرض هذه القضية قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى عرضًا مفصلا فى كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى نشره فى سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز فى عرضه — غالبا — سَرْدَ ما لاحظه القدماء[١] ، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعرَ من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه .

وخلفَ مصطفى الرافعى طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « فى الأدب الجاهلى » الذى نشره فى سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول فى القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلا ، إذ زودها ببراهين جديدة ، وقد خصص لها فى مصنفه أربعة كتب ، هى الكتاب الثانى والثالث والرابع والخامس ، ونراه يعنى فى الكتاب الثانى ببيان الأسباب التى تحمل على الشك فى الشعر الجاهلى ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهليًّا ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح

---

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٢٧٧ وما بعدها .

قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى[1] » .

وواضح أنه يُبقى فى الشعر الجاهلى على بقية صحيحة ، وإن كانت فى رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التى تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه ، وردّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلا قويًّا ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلعنا فى تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر — كما يقول — بريئا أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلى فى هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب دينى يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعى أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يَدْعُ لدين جديد ، ومع ذلك فإن فى كتاب الأصنام لابن الكلبى ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة فى الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، وكانوا فى جمهورهم بدْوًا لم يتحولوا إلى طور فكرى منظم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة فى شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح فى أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم فى سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيعتين : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا فى الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التى كانت تنزل فى بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع

(١) فى الأدب الجاهلى ( الطبعة الأولى ) ص ٦٤ .

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّدهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلا على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلا .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذى غناء فى شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس فى الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، إنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم فى ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضًا لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء[1] ، وأيضا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا فى مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا فى هجائهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل فى قريش التاجرة التى بلغ كثير منها مبلغاً عظيما فى الثراء والتى كان يشيع فيها الرِّبا أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلا إزاء لغة الشعر الجاهلى ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين فى الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقًّا أن ما يضاف إلى من كانوا فى أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا فى الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك فى شعراء القبائل اليمنية التى هاجرت من مواطنها الأصلية فى الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . ومما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلى وتعرَّبت ، فهى ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هى شمالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين فى الجاهلية ، تلك التى تمثِّلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلى لا يمثلها ، واتخذ من ذلك مطعناً فى صحته ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمَّت فى الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادى واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ليوسف خليف ( طبع دار المعارف ) ص١٣٢ وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

فيها أشعارهم مرتفعين غالبا عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات فى شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلا على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، واتهامها ينبغى أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلى عامة .

ويخرج طه حسين فى مصنفه من هذا الكتاب الثانى إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب نَحْل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دوراً واضحاً فى شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذى يهْجَى به الأنصار . وواضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام، فقد نص عليه وحذَّر منه كما أسلفنا، كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التى وقف طه حسين عندها ليست جاهلية، وإنما هى إسلامية .

وينتقل إلى الدين فيبين دوره فى هذا النحل متشككاً فى الأشعار التى يقال إنها نُظمت فى الجاهلية إرهاصًا ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام فى سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفْضُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادى ، ولم يكن القدماء فى غفلة عن ذلك[1] . ونراه يتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم فى وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحلّت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثالبهم التى تدعيها ، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم . وقد تشكك فى هذا الشعر الكثير الذى يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين فى مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم فى هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفى عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، وإنه إنما دار فى أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

فى ديارهم[١] . ويختم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه فى هذا الكتاب إنما يردّد ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقض الشعر الجاهلى جميعه ، وهى إنما تنقض جوانب منه ، وينبغى أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلى من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويمضى طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال فى شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ فى دراسته بامرئ القيس ويتشكك فى شعره ، لأنه يمنى وشعره قرشى اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرّ بنا أنه كان يمنى الجنس ، ولكنه كان قرشى اللغة ، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يُرْوى عن الأصمعى من أنه قال : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفاً سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[٢] . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك فى شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد[٣] . وشك فى شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته ( أقفر من أهله ملْحوب ) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك فى شعر عمرو ابن قميئة ومهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً فى تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضرى ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلا : « لكننا لا نشك أيضًا فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدًّا لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

(١) الحيوان ٦/٢٩ وما بعدها .
(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .
(٣) ابن سلام ١١٦

والنحل، حتى أصبح من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته[١]». ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفى فى الحكم على الشعر المضرى بالسند ومن يحمله من الرواة ، أو بالغرابة والسهولة ، ذاهباً إلى أن الباحث فى هذا الشعر ينبغى أن يحكِّم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التى تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحُطيئة ، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال . وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة فى الشعر الجاهلى ، فقد رجع أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه . على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس فى تلك المدرسة نفسها ، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شُرَيْح[٢] ، واختلف الرواة فى بعض ما نُسب إليه من شعر هل هو له أو لعَبيد ابن الأبرص الأسدى[٣] ، وسنرى فى درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه ، فقد حمّلت زيادات كثيرة ، شك القدماء فى أطراف منها ، ونفس الرواية البصرية سنرفض قطعا وأشعارا منها ، على الرغم من أنها جاءتنا عن الأصمعى بل سنرى الأصمعى نفسه يشك فى ثلاث قصائد مثبتة فى روايته .

والحق أن الشعر الجاهلى فيه موضوع كثير ، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلى وخارجى دقيق . ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحرى والتثبت ، فكان ينبغى أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين فى الشك فيه مبالغة تنتهى إلى رفضه ، إنما نشك حقًّا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى وأبى زيد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغى أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يُروَى لشاعر شعرٌ لا يتصل بظروفه التاريخية ، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف إليه شعر إسلامى النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٧٠ .
(٢) الحيوان ٦/٢٧٩ .
(٣) ابن سلام ص ٧٦ — ٧٧ .

٥

## أهم مصادر الشعر الجاهلى

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهما يجمعون مادة الشعر الجاهلى ، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها حماد الراوية[1] ، وهى عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة . ونراها عند صاحب الجمهرة سبعاً أيضاً ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة ، وربما أضاف حماد الحارث فى مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبى لأن ولاءه كان فى بكر . على أننا لا نمضى فى عصر التبريزى حتى نجده يجعلها فى شرحه لها عشراً جامعاً بين الروايتين ومضيفاً قصيدة عَبِيد بن الأبرص : ( أقفر من أهله ملحوب ) .

وقد عُنى الشرّاح بهذه المجموعة ، فشرحوها مراراً ، وطُبع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦هـ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ . وأكبر الظن أن حماداً لم يأخذ حريته كاملة فى قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغى مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والمجموعة الثانية فى المنتخبات هى المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضّل الضبى راوى الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنبارى ، وهى مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت فى بعض النسخ ، وفى مقدمة الشرح

---

(١) انظر ترجمة حماد فى معجم الأدباء ٢٦٦/١٠ .

سند كامل لها يرفعه ابن الأنبارى إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل ورَبيبه ، ويقول ابن النديم « هى مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التى رواها عنه ابن الأعرابى[1] » ومعنى ذلك أن فى أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلّق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها فى دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألقاها المفضل على المهدى ، وزاد فيها الأصمعى أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه[2] ، وربما جاء الأخفش اللبس[3] من أن الأصمعيات تلتقى معها فى تسع عشرة قصيدة ، وأيضًا فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بتثقيف ابنه المهدى بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات فى بعض القصائد ظن أن الأصمعى وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابى خصم الأصمعى لزايله هذا الوهم ، وكأن المفضل اختار أولا ثمانين ألقاها على المهدى ، ثم زادها إلى مائة وثمانٍ وعشرين كما جاءت فى رواية تلميذه ابن الأعرابى .

وهى موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهليًّا وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلّزة وعلقمة بن عبَدة والشّنفرى وبشر بن أبى خازم وتأبط شرًّا وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى والمسيَّب وبينهم امرأة من بنى حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عَسلة الشيبانى وتتضح مسيحيته فى اسمه ، ثم جابر بن حُنَى التغلبى ، ونراه يقول فى مفضليته :

وقد زعمتْ بَهْرَاءُ أن رماحنا   رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدَّمِ

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلى سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفًا دقيقاً ، فقد مثّلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

---

(١) الفهرست ص١٠٢ .

(٢) ذيل الأمالى ص١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس ، وربما كان بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش البصرى يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة فى عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت فى كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية[١] على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكدها .

والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راويها ، وقد نشرها آلورد ( Ahlwardt ) عن نسخة سقيمة فى برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطى نقلها عن أصل قديم وهى نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهى موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد ودريد بن الصِّمَّة وأبو دؤاد الإيادى وذو الإصبع العُدْوانى وسلامة بن جَندْل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعية بن الغريض والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها فى الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضاً كثير من الكلمات المهجورة التى لم تثبتها المعاجم[٢] ، غير أنها لم تلعب الدور الذى لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضاً فإن الأصمعى لم يَرْوِ كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثانى جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم فى السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة فى كتابه العمدة[٣] كما ذكره السيوطى فى المزهر[٤] والبغدادى فى الخزانة[٥] . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقتى الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة ، ويلى هذا القسم المجمهرات وهى

---

( ١ ) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات ( طبع دار المعارف ) .

( ٢ ) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات .

( ٣ ) العمدة ١/ ٦٠ .

( ٤ ) المزهر ٢/ ٤٨٠ .

( ٥ ) الخزانة ١/ ١٠ ، ٦١ ، ٢/ ٥٥ .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبى خازم وأمية بن أبى الصلت وخداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته فى النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلى ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المراثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابهم الكفر والإسلام ، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطبعت الجمهرة مرارًا فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم من فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتلمس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبى خازم وعبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد شرح مرارًا ، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقى وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونص المرزوقى على أن أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها[1] » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما روى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يعن القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ١٤ .

المختارات حماسة طُبعت فى حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلى . وطبعت أخيرًا حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدى المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى المتوفى فى القرن السابع غير مطبوعة ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان منها.

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ، إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعى التى احتفظ بها شرح الشنتمرى ، بل أضاف إليها زيادات هى فى الأكثر منحولات ، ولا نزال فى حاجة إلى نشر شرح الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته فى المجموعة التى سماها باسم مختار الشعر الجاهلى . وطُبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف ، وقد جَمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة . ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعى البصرية التى يحتفظ بها الشنتمرى فى شرحه . وطُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال فى حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر لايل ديوانى عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التى جمع منها الشيبانى نيفاً وثمانين ، وعُنى السكرى بكثير منها ، ففقدت فى الطريق[1] ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت فى خمس مجموعات ، أربع منها فى أوربا وهى من صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، طُبعت أولاها فى لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطبعت الثانية فى برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق ڤلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهى خاصة بديوان أبى ذؤيب فى هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفى سنة ١٩٣٣ نَشر القطعة

---

(١) انظر فى تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلى ص٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة فى ليبزج ، وهى تتداخل مع القطعة الخامسة التى نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعنى عبد الستار فراج —بمراجعة محمود شاكر— بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزءين . ومن الحق أن القطع التى وصلتنا من شرح السكرى غاية فى النفاسة لا لأنه يضمنها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفا دقيقا على مصادره ، إذ يذكر دائما الإسناد فى القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعى والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابى وأبو عمرو الشيبانى ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجمحى ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعى كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبى طرفة الهذلى . وبذلك كانت هذه القطع التى رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير شرح النقائض لأبى عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وحذا حذوه مَنْ كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله وابن عبد ربه فى عقده . ومن الكتب الجيدة أيضاً طبقات الشعراء لابن سلام ، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلى صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التى يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير فى تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتبُ أدب ألفت فى البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نردّ ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجرى مجراها ما فى أمالى اليزيدى ومجالس ثعلب من أشعار . وينبغى أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بحذر ، ومثلها أمالى أبى على القالى ففيها انتحال كثير . ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى وكتابه الموشّح نفيس فى التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبى هلال العسكرى والوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى والعمدة لابن رشيق، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة فى كتب اللغة والنحو ينبغى التوثق منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء فى كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومغازى الواقدى فينبغى أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة .

وإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى الذى ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ، سجل فيها كثيراً من المادة التى فُقدت، وكان له ذوق عالمٍ ناقد بصير ، فساق من الكتب التى سبقته أطرفَ ما فيها من أخبار وأشعار، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها بأسانيدها التى ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل مثل الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وأبى عمرو والشيبانى والهيثم بن عدى وخالد بن كلثوم وابن الكلبى وأضرابهم ، ومَنْ خلفوهم من جِلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات فى الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها ابن الكلبى أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين . وقد يشك فى مقطوعة أو قصيدة تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه فى رواياته المختلفة ، وينص على أنه وجدها أو لم يجدها . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفى تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد فى الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلى وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة فى الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله فى هذا الاتجاه شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام .

الفصل السادس

# خصائص الشعر الجاهلى

## ١

## نشأة الشعر الجاهلى وتفاوته فى القبائل

لا ريب فى أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى استوى فى صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة فى الوزن والقافية وفى المعانى والموضوعات وفى الأساليب والصياغات المحكمة ، وهى تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلا [١] تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء فى صياغة القصيدة العربية ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة فى الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفى ديوان امرئ القيس [٢] .

عُوجا على الطَّلل المُحيل لأَننـــا نبكى الديار كما بكى ابنُ خِذامِ

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التى قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف فى الأطلال .

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلى فى نظام معين من المعانى والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم فى الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة فى

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ١١٤ وعوجا : اعطفا . المحيل : الذى أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون فى تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت فى أوزانها وقوافيها ، فهى تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها وما تنتهى به من روىٍّ .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقًّا توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عَبيد بن الأبرص الأسدى[1] :

أَقْفَــر من أهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّــاتُ فالذَّنوبُ

فهى من مخلَّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف فى بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى فى الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها[2] :

عينــاك دمعهما سِجَالُ كأن شــأْنيهما أَوْشــالُ

ومثلهما فى هذا الاضطراب قصيدة المُرَقِّش الأكبر[3] :

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ لو كان رَسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

ما ذَنْبُنا فى أن غَزَا مَلِكٌ من آل جفنة حازمٌ مُرْغِم

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادى[4] :

تعرف أمسِ من لَميسَ الطَّلَلْ مثل الكتاب الدارس الأَحْوَلْ

(١) انظر القصيدة فى المعلقات العشر وفى ديوان عبيد . وملحوب والقطبيات والذنوب : أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجل أى صب بعد صب . شأنيهما : مثنى شأن وهو مجرى الدمع . أوشال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/١٥٣ . الأحول : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أَنعِمْ صباحًا عَلْقَمَ بنَ عَدِىْ أَثويتَ اليومَ أَمْ تَرْحَلْ

فإنه من وزن المديد . ويماثل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته[1] :

قد حان أَن تَصْحُوَ أَو تُقْصِرْ وقد أَتى لما عهدتَ عُصُرْ

ومن هذا الباب نونية سُلَمِىّ بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة[2] :

إن شِــوَاءً ونَشْــوَةً وخَببَ البــازِلِ الأَمونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوقى أنها خارجة عن العروض التى وضعها الخليل . واضطرابُ هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبث بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامة ، ومما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقِه كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مزمَّلُ[3]

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوِى عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالحُداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ .

(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٨٣/٣ والمرزوقى رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .

(٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . البجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

فى أثناء سيرها وسُرَاها فى الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى [(١)] ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعًا فى الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبيًّا لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون فى الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون فى الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم فى الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شىء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلى وحِقبه الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التى تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادى . ولم تكن تختص بهذا الشعر فى الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينتسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندى وعدىّ بن رَعْلاء الغسانى [(٢)] والحارث بن وَعْلة الجرمىّ القضاعى [(٣)] ومالك بن حَرِيم الهَمْدانىّ [(٤)] وعبد يغوث الحارثى النَّجْرانى [(٥)] والشَّنْفرى الأزدى [(٦)] وعمرو بن معد يكرب المَذْحجى [(٧)] ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين فى المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام فى طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم فى عشر طبقات وجعل فى كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

---

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات فى مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثى كما أضاف تسعة فى مكة وخمسة فى المدينة وخمسة فى الطائف وثلاثة فى البحرين، وعدّ لليهود ثمانية. ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوى والحضرى كما يجد بين البدو اليمنى والربعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج فى الأغانى لكثيرين منهم، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوّنت شهرتهم، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » [١] . ومن يقرأ فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً فى ديوان قبيلته [٢] . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الربعية والقحطانية ، واقرأ فى الأغانى والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها فى الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت فى العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت فى مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت فى جمهورها مضرية بينما كانت تلك فى معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فمكة كانت قليلة الشعر [٣]، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة[٤] . ووقف الجاحظ فى حيوانه عند جانب

---

(١) انظر مقدمته لكتابه الشعر والشعراء . (طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

من حظوظ القبائل وتفاوتها فى ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكثرتهم كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفى إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم فى الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف " سكان الطائف " أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب ( سكان نجران ) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان فى ولد زُرارة ( جد بطن من تميم ) لصُلْبه شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حِصْن ولا عُيينة بن حصن ولا لحمَل بن بدْر شعر مذكور »(١).

ومن المحقق أنه فُقد كثير من الشعر الجاهلى ، إذ عدتْ عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التى قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويُروَى عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير (٢) » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبى عمرو ، فقد بقى منه كثير ألِّفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدى رواة أمناء سجلوه ودونوه .

---

(١) الحيوان ٤/٣٨٠ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

## ٢

## الشعر الجاهلى شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكوّن من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام» التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلّم أو حين يمثّل ، فهو في كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصي تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويه أو تمثيلي مسرحي يؤدّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلي يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائي ، لأنه يجول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوّره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمّ سموه (Lyric) أي غنائي .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي ، إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث إنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي أو حين يعتذر ويعاتب ، أو حين يصف أي شيء مما ينبثّ حوله في جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث إنه كان يغنّى غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنّى في قصيدته :

طفلةٌ مـا ابنةُ المحلِّلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ في العناقِ(١)

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنّى ببعض شعره من مثل السُّليْك بن السُّلَكة (٢) وعلقمة بن عَبَدة الفحل والأعشى ، وكان يوقّع

(١) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥/٥١ وما في البيت زائدة ، وطفلة : رخصة ناعمة .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٨/١٣٤ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصَّنج ، ولعله من أجل ذلك سمى صنَّاجة العرب (١) . ويقول أبو النجم فى وصف قينة (٢) :

تَغَنَّىْ فإن اليوم يومٌ من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امروُّ القيس أو عمرو

وهو يقصد بعمرو ، عمرو بن قَميئة . ويقول حسان بن ثابت (٣) :

تَغَنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغنــاء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد ، ومنه الحُداء الذى كانوا يحدون به فى أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيًّا عامًّا .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمِزْهر والدفّ وكانا من جلد وكالصَّنْج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك ، وكالبَرْبط وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق ، ويقص علينا علقمة بن عَبَدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط (٤) وكانوا كذلك فى الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُليْدة وهُرَيْرة فى اليمامة (٥) والأخيرة هى صاحبة الأعشى التى ذكرها فى معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جُدْعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس (٦) وفى أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحر الجزُر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور وتعزف علينا القيانُ وتسمع بنا العرب (٧) . وفى السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خَطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

---

(١) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٠٩/٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢١٤/١ .

(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ .

(٣) العمدة لابن رشيق ( طبعة أمين هندية ) ٢٤١/٢ .

(٤) أغانى ( ساسى ) ١٤/١٦ .

(٥) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١١٣/٩ .

(٦) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٣٢٧/٨ .

(٧) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرّت الأخرى[١] . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا إحدى القيان أن تغني بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب [٢] .
ويكثر ذكر هؤلاء القيان فى شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كنّ يضربن عليه من آلات الطرب ، كقول علقمة فى ميميته [٣] :

قد أشهد الشَّرْب فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ والقوم تصرعهم صهْباء خُرْطومُ

ويقول الأعشى فى معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصَّنج يسمعه إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[٤]

ولطرفة فى معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الغناء فى الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين فى حفلاتهم لاعبات على المزاهر[٥] ، وفى الطبرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس[٦] ، وأكبر الظن أنهن كن يقرنّ هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن يؤلفن فى الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففى الطبرى والأغانى أن هنداً بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد وكانت هند تغنى فى تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها [٧] :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرشِ النَّمارِقْ[٨]
أو تدبِروا نفارق فراقَ غيرِ وامق[٩]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٥٣ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .
(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء : الخمر ، والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .
(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .
(٥) العمدة ١/٣٧ .
(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١/١١٢٦ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٦ وتاريخ الطبرى ١/١٤٠٠ .
(٨) النمارق : جمع نمرقة وهى الطنفسة والوسادة الصغيرة .
(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء دينى يرتلونه فى أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق ثَبير كيما نُغير » . وكانوا فى أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دمائها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذى شاع بينهم فى الجاهلية . وربما كان فى اسم الداجنة والمدجنة ، وهى القينة تغنى فى الدَّجْن وحين ظهور الغيم فى صفحة السماء[1] ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر فى الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائى تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلى : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزَجُ فالخفيف الذى يُرْقَصُ عليه ويُمْشَى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزّأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنَّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »[2] .

ولعل فى اقتران النصب بالمراثى ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينيًّا ، فهم يتغنون به فى الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذى كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذى يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة فى الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى مشبه لنفس الجو الذى نظم فيه اليونان شعرهم الغنائى فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

(١) انظر مادة دجن فى لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص١٣٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً ، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها ، فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قَرْع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع فى مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتى لأبياتهم كقول امرئ القيس فى معلقته يصف الفرس :

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبِلٍ ، مُدْبِرٍ ، معًا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ويكثر هذا التقطيع فى أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التى يستهلها بقوله :

عفتِ الديارُ محلُّهـا فمُقامها بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته فى كلمتين متتاليتين . ولا نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل فى الرجز لأنه كان وزناً شعبيًّا وكان كثير الدوران فى حُدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثر فيه الحذف وكثر التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر (١)، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُداءً وغير حداء أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز فى العمدة لابن رشيق .

٣

## الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربى جاهلياًّ وغير جاهلى إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبى ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تامًّا باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسى موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكرى : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه [١] » وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات فى الشعر الجاهلى ترتيباً تاريخيًّا ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا فى ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو فى أصله تعويذات للميت حتى يطمئن فى قبره ؛ وفى أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التى تكمن فيها آلهتهم والتى تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة [٢] .

ويظهر أنه كانت لا تزال فى نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء فى القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول فى بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر ( وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ) وردّ عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً فى مثل : ( وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من رب العالمين) . ويقول جلّ وعز فى سورة الشعراء : ( وما تنزلتْ به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ) وبعد ذلك : ( هل أنبّئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوُون ألم تر أنهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظَلموا أىّ منقلب ينقلبون ) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

(١) ديوان المعانى ١/٩١ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/٤٤ وما بعدها .

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث فى وعيه الشعر يسمَّى مِسْحلا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قَطن، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهُنَّام[١] .

وظل بعض الشعراء فى الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول[٢] :

إنى وكلُّ شاعرٍ من البشَرْ    شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ

وفى أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّة خاصة، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقّى رأسه وانتعل نعلا واحدة[٣] ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سنهم فى الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التى يصنعها فى حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء فى الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطرُّوا اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وَرْقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيها استاق إبلاً له وغلاماً، فنظم زهير أبياتاً يتوعده بالهجاء المقذع ، يقول فيها[٤] :

ليأتينَّك منى منطقٌ قَذعٌ    باقٍ كما دنَّس القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

(١) انظر المؤتلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة جهم فى لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦ والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ فى ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .

(٣) امالى المرتضى (طبعة عيسى الحلبى) ١٩١/١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٥٥ وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم .

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه [١] . وواضح أن زهيراً يستخدم فى وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرِّجْس والإثم . ويروى أن رجلا يسمى زُرْعة بن ثوب من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرّد بن ضِرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلا لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا ، وركب إلى مزرّد وقصّ عليه القصة ، فقال مزرّد : أنا ضامن لك أن تُردّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعوِّذها بهجائه ، فهى إن لم ترد ستكون ناراً تأتى على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول [٢] :

فيا آلَ ثَوْبٍ إنما ذَوْدُ خالد ... كنار اللّظَى، لا خير فى ذَوْدِ خالدِ [٣]

بهن دُروءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٌ ... لها ذَرِباتٌ كالثُّدِىِّ النواهدِ [٤]

جَرِبْنَ فما يُهْنَأْنَ إلا بغَلْقةٍ ... عَطِينٍ وأبوالِ النساء القواعدِ [٥]

وقد تحولوا يصبّون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد فى السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرتْ به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرَارةُ بن عُدَس وهجى عبد الله بن جُدْعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عُيَيْنة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون [٦] » وبمقدار ما

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .

(٢) المفضليات ص ٧٩ .

(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٤) دروء : جمع درء وهو النتوء . والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة : طاعون الإبل . الذربات : جمع ذربة وهى رأس الخراج ، النواهد : النواهض .

(٥) يهنأن : يطلين . الغلقة : شجر يدبغ به الجرب . عطين يريد أنه لا يدبغ بها إلا بعد العطن ، القواعد : العجائز .

(٦) الحيوان ٢/٩٣ .

كان فى القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذَّرْء ( النسل ) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء فى الأرحاء ( القبائل الكبيرة ) وكان الآخر قليل الذَّرْء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير خَمَلوا أو دخلوا فى غمار العرب وغرقوا فى معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَب بهم المثل فى قلة ونذالة ، إذ لم يكن ( منهم ) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالا فى العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولاسيما اذا [illegible] مما لقيت غنى أو باهلة . . فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خير كثير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عَيْلان ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عَبْس وعبد الله بن غطفان ثم غنىّ وباهلة واليَعْسوب والطفاوة ، فالشرف والخطر فى عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنىّ مما لقيتْ من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقوام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة وهاربة البَقْعاء (من ذبيان ) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ وثَوْر وعُكْل وتَيْم ومزينة ، ففى عكل وتيم ومُزَيْنة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشىء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيم . وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما فى ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن عُلاثة وكما بكى عبد الله بن جُدْعان من بيت لخداش بن زهير»[1] .

وفى السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه بأهاجيهم فى قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ فى هجاء القرشيين : «لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْل» وفى ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء فى نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم فى القتال ، ولذلك قرنه عبد قَيْس ابن خفاف البرجمى إلى ما يَلْتَقِى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول[2] :

فأَصبحتُ أعددتُ للنائبـــا ت عِرْضًا بريئًا وعَضْبا صَقيلا[3]
ووَقْعَ لسانٍ كحد السِّنـــانِ ورُمحًا طويل القنـــاة عَسُولا[4]
وسابغـــةً من جيـــادِ الدُّرو عِ تسمع للسيف فيها صَليلا
كماء الغَـــدِير زَفَتْـــه الدَّبُورُ يَجُرُّ المدجَّجُ منها فُضولا[5]

فاللسان كان يَنْكَأ بهجائه فى الأعداء نكأ السيوف والرماح. ويخيل إلى الإنسان [illegible] مشجعاتها فى صفوف ، وقد أخذ كل منهم يَريش سهام هجائه ويرمى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذَ السهام وأصماها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم فى الأسواق وخاصة سوق عُكاظ ، فينشدون أهاجيهم لتذيع ، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزى وعار ، وفى ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكرى لقيس بن مسعود الشيبانى[6] :

ولا تُوعِدنِّى إننى إن تُلاقنى معى مَشْرِفىٌّ فى مضاربه قَضَمْ[7]
وذمٌّ يُغَشِّى المرءَ خِزْيًا ورهطه لدى السَّرْحة العَشَّاء فى ظلها الأَدَمْ[8]

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

---

(١) الحيوان ١/٣٥٧ – ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦.

(٣) العضب : السيف القاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٤) العسول : اللين المصمى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر منها فضولا كناية عن أنها سابغة تفضل عن أطرافه.

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرفى : السيف ، وقضم : فلول من كثرة الطعن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون فى حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مُثلهم التى صورناها فى غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهى تعنى عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هى إلا أن يدخل الشاعر فى الهجاء فإذا هو يخلِّص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهى لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهى تفرّ فى الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفى الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، واقرأْ فى المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستراه يذكر أمجاد قبيلته فى أيام بزاخة والنِّسار وطَخْفة والكُلاب وذات السِّلَيم ْ ، واقرأ قصائد بشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر فى الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جَرْم والرباب وجُذام وبنى سليم وبنى كلاب وبنى أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون فى الأعراض ويطعنون فى الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدى فى هجاء بنى عامر وقد غدروا بأسدى منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدّياً أمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البِغاء (١) :

سائلْ معدًّا مَنِ الفوارسُ لا ... أَوْفَوْا بجيرانهم ولا غنِموا

فِدًى لسَلْمى ثوبايَ إذ دَنس الـ ... ـقومُ وإذ يَدْسَمون ما دَسِمُوا(٢)

أَنتم بنو المرأة التى زعم الـ ... ـنَّاسُ عليها فى الغَىِّ ما زعموا

واسترسل يَصِمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه فى الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعىٌّ فى قومه زَنيم . وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع فى الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

(١) المفضليات ص ٤١ .
(٢) ثوباى : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأمهم.

فى العصر الإسلامى ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعار ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثَمَّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قَيْس بن خُفاف البُرْجمى (١) :

لعنَ الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ ابنَ ذا الصائغ الظلومَ الجهولا
يجمع الجيشَ ذا الأُلوف ويغزو ثم لا يرزأُ العدوَّ فَتيلا(٢)

وكان النعمان كثير الوقائع فى قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الخذّاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول فى بعضه (٣) :

نعمانُ إنك خائنٌ خَدِعٌ يُخْفِى ضميرُك غير ما تُبْدِى

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمرو بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفْرَدُ بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً فى تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سعرتهم الحروب ، وأمدّها شعراؤهم بوقود جَزْل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح فى كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار مَنْ خلفوهم باسم الحماسة ، فهى التى تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهى ديوانهم الذى يسطّر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . واقرأْ فى المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصَبْرها فى

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .
(٢) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة فى شق النواة .
(٣) المفضليات ص ٢٩٦ .

الملمَّات وكرمها فى الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف ، وفى أثناء ذلك يصوِّب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً .

ونحس فى هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروِّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حدَّ له ، فإذا ثأرت لنفسها وشفتْ غلَّها وحقدها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصِّمَّة التى يتغنى فيها بأنه ثأر من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول [١] :

ويا راكباً إما عرَضْتَ فبلِّغَنْ ... أَبا غالبٍ أَن قد ثأَرْنا بغالبِ [٢]

قتلتُ بعبد الله خير لِدَاتِه ... ذُؤابَ بن أَسماء بن زيد بن قاربِ [٣]

فلليوم سُمِّيتُم فَزارةُ فاصبروا ... لوَقْع القَنَا تَنْزون نَزْوَ الجَنادبِ [٤]

تكُرُّ عليهم رَجْلَتِى وفوارسى ... وأُكْرِهُ فيهم صَعْدَتى غير ناكبِ [٥]

فإن تُدْبِرُوا يأْخذْنكم فى ظهوركم ... وإن تُقْبِلوا يأْخذْنكم فى التَّرائبِ [٦]

وإن تُسْهِلوا للخيل تُسْهِلْ عليكمُ ... بطعنٍ كإيزاغ المَخاض الضواربِ [٧]

ومُرَّةَ قد أَخرجْنَهم فتركْنَهم ... يروغون بالصَّلعاءِ روغَ الثعالبِ [٨]

وأَشجعَ قد أَدركْنهم فتركْنهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كل جانبِ

وثعلبةَ الخُنْثَى تركنا شريدهم ... تَعِلَّةَ لاهٍ فى البلاد ولاعبِ

فليت قبوراً بالمخاضة أَخبرَتْ ... فتُخبرَعنا الخُضْرَ خُضْرَ مُحاربِ [٩]

---

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .

(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .

(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكفء .

(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .

(٥) رجلتى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .

(٦) الترائب : عظام الصدر .

(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض . المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقح ، وإيزاغها أن ترمى ببولها شبه رشاش الطعنة من الدم ببولها ورشاشه .

(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلعاء موضع هو مكان معركته مع مرة .

(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْناهمُ بالخيل حتى تملَّأتْ عَوافى الضباع والذئاب السَّواغبِ[١]
ذرينى أَطوِّفْ فى البلاد لعلنى أُلاقى بإِثْرٍ ثُلَّةً من محاربِ[٢]

وواضح أنه يتشفى من قتلة أخيه ، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين فى الأرض . ويصور ما لقيته مُرَّة فى الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببنى ثعلبة وبنى محارب ، حتى شبعت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرَّة عليهم . وفى كل مكان يدوِّى مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم فى هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المُعْلمة المشهورة من مثل قوله :

متى ننقل إلى قومٍ رَحانا يكونوا فى اللِّقاء لها طَحِينا
يكون ثِفالُها شرقىَّ نجدٍ ولُهْوَتُها قضاعةَ أجمعينا[٣]
نُطاعن ما تراخى الناسُ عنا ونضرِبُ بالسيوف إذا غُشينا
بِسُمْرٍ من قَنَا الخَطِّىِّ لُدْنٍ ذوابلَ أو ببيضٍ يَعْتَلِينا[٤]
نشقُّ بها رءُوسَ القوم شَقًّا ونُخْليها الرِّقاب فَتختَلينا
كأَن جماجم الأَبطالِ فيها وُسوقٌ بالأَماعز يرتمينا[٥]
وَرِثنا المجد قد علمتْ مَعَدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا[٦]
ونحن إذا عمادُ الحىِّ خَرَّت على الأَحْفاض نمنع من يلينا[٧]
نجذُّ رءُوسهم فى غير وِتْرٍ فما يدرون ماذا يتَّقونَا[٨]

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافى : الجائعة ، وكذلك السواغب .
(٢) الثلة : الجماعة من الناس .
(٣) الثفال : خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال ما يطحن ، اللهوة : القبضة من الحب .
(٤) توصف الرماح بالسمرة لذبولها ، وقنا الخطى : نسبة إلى الخط وهى بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن : المرنة . البيض : السيوف .
(٥) الأماعز : الأراضى الصلبة ، الوسوق : جمع وسق وهو الحمل .
(٦) يبين : يتضح .
(٧) العماد : جمع عود ، خرت : سقطت ، الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة الحى للحرب .
(٧) الوتر : الثأر ، ونجذ : نقطع .

كأن سيوفنا فينا وفيهم        مخاريقٌ بأيدى لاعبينا[١]
كأن ثيابنا منا ومنهم        خُضِبْن بأُرْجوانٍ أو طُلينا[٢]

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذى يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها فى نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التى يذيقون بها أعداءهم كئوس الموت المرة ، ومدّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رءوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين ،وهم يقتلون فيهم ، كما يُقْتل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة ،من مثل قول المفضّل النُّكْرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول [٣] :

كأن هَزيزنا يوم التقينا        هَزيزُ أباءةٍ فيها حريقُ[٤]
وكم من سيدٍ منا ومنهم        بذى الطَّرْفاء منطقهُ شَهيقُ[٥]
فأشبعْنا السباع وأشبعوها        فراحتْ كلها تَئِقٌ يَفُوقُ[٦]
فأبكيْنا نساءهمُ وأبكوا        نساءً ما يسوغُ لهن رِيق
يُجاوبْنَ النِّياحَ بكل فَجْرٍ        فقد صَحِلَتْ من النَّوْحِ الحُلوقُ[٧]

وطبيعى وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم، وهناك كثيرون يطيلون فى وصفها ووصف الخيل التى يركبونها فى اللقاء . وممن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حَجر فى لامية له مشهورة أطال فيها فى تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً فى المفضليات

(١) المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها ، لعبة كانت عندهم .
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٣ وما بعدها .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباءة : أجمة الغاب.
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تئق : ممتلىء، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات[١] ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، وممن اشتهر فى هذا الوصف أبو دُؤاد الإيادى وزيد الخيل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفى الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلا رفيعاً لهم فى حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ فى ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول[٢] :

وإن تسأَلينى فإنى امرؤٌ أُهين اللئيمَ وأَحْبُو الكريما
وأَبنى المعالىَ بالمكرُماتِ وأُرْضى الخليل وأَرْوِى النديما
ويحمد بَذْلى له مُعْتفٍ إذا ذمَّ من يَعْتَفِيه اللئيما[٣]
وأَجْزى القُروضَ وفاءً بهـا ببُؤْسَى بَئيسى ونُعْمى نَعيما[٤]
وقومى فإنْ أَنت كذَّبْتنى بقولىَ فاسئلْ بقومى عليما
يُهينون فى الحق أَموالهم إذا اللَّزَباتُ انْتحَيْن المُسِيما[٥]
طوالُ الرماحِ غداة الصباحِ ذَوُو نَجْدَةٍ يمنعون الحريما

وهو يذكر فى البيت الثانى أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمر ، ويكثر فى حماستهم تمدحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر[٦] ، وكأن فى ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع عن طرفة وفترته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها فى الشعر الجاهلى على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .
(٢) المفضليات ص ١٨٣ .
(٣) المعتفى : السائل فى غير طلب .
(٤) البؤس والبئيسى بمعنى ، يقول يجزى بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .
(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ، المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من السائمة .
(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولا بها من هذا الباب إلى وصفها فى ذاتها وصفاً طريفاً .

ومن الموضوعات التى تتصل اتصالا واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم [١] ، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم . وكان يشرك الرجال فى ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن ينُحن على القتيل حتى تثأر القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من ( التعديد ) الذى نعرفه فى مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباها [٢] . وفى هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن ذلك على القبر وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل فى حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن فى لحده . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن فى فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحاً وندباً حارًّا . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك فى أن الصورة القديمة لهذا التأبين هى تلك النقوش التى عثروا عليها فى أنحاء مختلفة من الجزيرة ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذى نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مردّ لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهن

---

( ١ ) المفضليات رقم ١٠٩ .

( ٢ ) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٤ / ٢١٠ .

التى لا تنازَعُ هى الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية فى بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما ندبت به صخراً :

قَذًى بعينكَ أم بالعين عُوَّارُ ... أم ذرَّفَتْ أن خلتْ من أهلها الدارُ (١)
كأن عينى لذكراهُ إذا خَطرتْ ... فَيْضٌ يسيل على الخدَّين مِدْرارُ (٢)
فالعين تبكى على صَخْرٍ وحقٌّ لها ... ودونه من جديد الأرض أسْتارُ (٣)
تبكى خُناسُ وماتنفكُّ ماعَمَرَتْ ... لها عليه رنينٌ وهْى مِقْتَارُ (٤)
بكاءَ والهةٍ ضَلَّتْ أليفتَها ... لها حَنينان: إصْغارٌ وإكبارُ (٥)
ترْعَى إذا نَسِيَتْ حتى إذا ذكرتْ ... فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ
وإن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بهِ ... كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ (٦)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسّ داعى الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من تَرْجيل شعره ووضعه فى مدارج الكفن ، ثم لحْده ودفنه ، وتنسَبُ للممزّق العبدى أو ليزيد بن الخذّاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذى ينتظره ، يقول فيها (٧) :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ (٨)
قد رجَّلونى وما رُجِّلْتُ من شَعَثٍ ... وألبسونى ثيابًا غير أخْلاقِ (٩)
وأرسلوا فتيةً مِن خيرهم حسبًا ... ليُسْندوا فى ضريح التُّرْب أطْباقى (١٠)

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعا .
(٢) مدرار : كثير .
(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .
(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .
(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .
(٦) العلم : الجبل .
(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .
(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دنوه .
(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق : الممزقة .
(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد فى قصيدة المرقش[١] :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ    لو كان رسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فمديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين ، على نحو ما صنع دُرَيْد بن الصِّمة فى مرثية أخيه عبد الله [٢] .

أَرثَّ جَديدُ الحَبْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ    بعاقبةٍ وأَخلفتْ كلَّ موعِدِ

وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثى أخاه مصوراً مصرعه ووله به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا فى مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حَجر لفَضالة بن كَلَدَة الأسدى ، وفيها يقول [٣] :

أيَّتُها النفسُ أَجْمِلِى جَزَعَا    إن الذى تحذرينَ قد وقعا
إن الذى جمَّع السماحة والنَّـ    ـجْدةَ والحزمَ والقُوَى جُمَعا
الأَلمعىّ الذى يظنُّ لك الـ    ـظنَّ كأَنْ قد رأَى وقد سمعا[٤]
المخلفَ المتلفَ المرزَّأَ لم    يُمْتَعْ بضعفٍ ولم يَمُتْ طَبِعَا[٥]
أَوْدى وهل تنفع الإشاحةُ من    شىءٍ لمن قد يحاول البِدَعَا[٦]

---

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .

(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث : أخلق . بعاقبة : بآخرة .

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغانى ١١/٧٤ .

(٤) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور فلا يخطىء وأنه فطن صادق الظن جيد الفراسة .

(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، يمتع ، يصاب ، الطبع : اللئيم .

(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك (١) :

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبى دؤاد الإيادى يرثى فيها من أودَى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول فى مطلع رثائهم (٢) :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعْدامُ

ويستمر يبكى فيهم الرءوس العظام وخلالهم من التأنى والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسْد وما يخلط فرط حِدّتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصَدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصَدى ما يزال يقول اسقونى :

سُلِّطَ الدهرُ والمَنُونُ عليهم فلهم فى صَدَى المقابر هامُ

فعلى إثرهم تَسَاقَطُ نفسى حسراتٍ وذكرهم لى سَقام

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وسادتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التى يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم (٣) .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدّى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى أدّوها ، كأن يفتكّوا أسيراً، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها (٤) » :

---

(١) المفضليات ص ٢١٧ .
(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .
(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .
(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن . ربعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرته وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

مُتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدَى     حَسَنٌ مجلسُــه غيرُ لُطَمْ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يتَقَدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا فى أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير فى ممدوحيهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عَبَدة فيهم مفضلية بديعة نظّمها فى الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى يديه أسيراً [١] . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى فى أيدى الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً فى غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع ما دبَّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفى ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العَدْوانى [٢] والمتلمِّس [٣] .
ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بِجُجْر الحقائب . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم فى القبائل ، فكثر الشعراء حولهم وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، وممن رحل إليه المتلمس والممزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظم فيه قول حُجْر بن خالد [٤] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أَجِدْ     كفعل أَبى قابوسَ حزمًا ونائلا

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .
(٢) انظر قصيدته فى المفضليات برقمى ٢٩ ، ٣١ .
(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .
(٤) الحيوان ٣/ ٥٨ .

يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضْحى قلوصُ الحمدجَرْباءحائلا (١)
فلا ملكٌ ما يبلغنَّك سَعْيُه ولا سوقةٌ ما يمدحنَّك باطلا

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً فى أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ومرّ بنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خِذام ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق فى قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها (٢) ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهى مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخّل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى وهى تجرى على هذا النمط (٣) :

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليوم المَطيرِ
الكاعبِ الحسناءِ تَرْ فل فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتُهــا فتدافعتْ مَشْىَ القطاةِ إلى الغَدِيرِ

---

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم . القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التى حمل عليها فلم تلقح .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

ولثمتُهــا فتنفّسَتْ كتنفُّس الظَّبْى البَهِيرِ [١]
فدنتْ وقالت يا مُنَ خَلِّ ما بجسمك من حَرورِ
ما شفَّ جسمى غير حُبِّـ ـكِ فاهدئى عنى وسيرى

ووقف الشعراء طويلا يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبى خازم [٢] :

فظللتَ من فَرْط الصَّبابة والهوى طَرِفًا فؤادُك مثلَ فعل الأَيْهَمِ [٣]

وكانت ذكراها لاتزال تلم بهم ، ومن ثَمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره فى أنفسهم من تباريح الحب [٤] ولهم فى وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبابتهم على شاكلة قول المرقِّش الأصغر [٥] :

صحا قلبُه عنها ، على أن ذِكْرَةً إذا خطرتْ دارتْ به الأَرضُ قائما

وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعنها ، وهى ترحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً فى حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت ، وفى معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه فى هذا الوصف المثقِّب العبدى فى قصيدته [٦] :

أفاطمُ قبل بَيْنِكِ مَتِّعينى ومَنْعُكِ ما سأَلتُ كأَن تَبينى
فإنى لو تخالفنى شِـمالى خلافَكَ ما وصلتُ بها يَمينى

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هى وصواحبها فى قلوب الرجال وهن يظهرن بكلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهنّ على ظهورهن :

---

(١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .
(٢) المفضليات ص ٣٤٦ .
(٣) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم : المجنون .
(٤) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .
(٥) المفضليات ص ٢٤٥ .
(٦) المفضليات ص ٢٨٨ .

أَرَيْنَ محاسنًا وكَنَنَّ أُخرى      من الأَجْياد والبشَرِ المصونِ

ويقول إنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالا. وكن كطبيعة النساء فى كل عصر ينصرفن عن الشّيب ومن قلَّ ماله[1]. ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذى يذهب بأموالهم، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء فى بذله لا فى ثرائه[2]. وقد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى، على نحو ما يصور ذلك طرفة فى معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم يتمدحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم. على أن منهم من كان يتسامى فى غزله حتى ليمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول فى الجاهلية عند عنترة وأضرابه.

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم، بل كانت فى المكان المصون، وكان الشاعر يستلهمها شعره، ولذلك كان يضعها فى صدر قصيده، ونحس عند كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنترة، أنهم يقدمون مغامراتهم فى الكرم وفى الحرب لها لينالوا حبها، وكان أكثر ما يشجيهم ويبعث الموجدة فى قلوبهم أن تؤسر وتسبى، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم.

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف، وقد وصفوا كل شىء وقعت عليه أعينهم فى صحرائهم، وفى العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء، فيتحدثون عن قَطْعهم للمفاوز البعيدة، فوق إبلهم، ويأخذون فى وصفها وصفاً مسهبا على نحو ما هو معروف عن طرفة فى وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدى السابح، وصوتها

---

(١) المفضليات ص ٣٥، ١٨٦، ٤١٨.      بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت
(٢) المفضليات ص ١١٨، ص ١٢٥.      ١١، ١٢.

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق . وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد[١]، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلابُ هى المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأمافى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم » [٢]. وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب[٣] .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار . ولامرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذى اتخذه للصيد ، وفيها يقول :

له أَيطلا ظَبْيٍ وسـاقا نعامَةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريبُ تَتْفُلِ[٤]

يقول أبو عبيدة : « ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها [٥] وقصرُ ساقيها وعُرْى نِسْيِيها[٦] ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها، ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشى غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسَراته [٧] وتمحُّص[٨] عصبه وتمكن أرساغه[٩] وعرض صَهْوته[١٠] .. ومما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَتُ[١١] شِدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصّه[١٢] وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

(١) انظر فى ذلك معلقة لبيد والمفضليات رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد صائداً مسمياً كلابه الستة .
(٢) الحيوان ٢ / ٢٠ .
(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .
(٤) أيطلا الظبى : خاصرتاه ، الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ، وتقريبه : قفزه ووثبه .
(٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .
(٦) النسى : عرق فى الساق .
(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى كل عظمتين ، سراته : أعلاه .
(٨) تمحص : شدة .
(٩) الرسغ فى الحيوان : المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .
(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .
(١١) هرت : اتساع .
(١٢) قصه : صدره .

جلده وُحرق[١] بطنه »[٢] . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة . ولأبي زُبَيْد الطائي قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه الأسد حطماً[٣] ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل الغَنَوي وقد شبّه فرسه بذئب[٤] :

كسِيدِ الغَضا العادى أَضَلَّ جِراءَهُ على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الريح يَلْحَبُ[٥]

وذكروا الهر والديك والخنزير في وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر[٦] :

كأَنّ هِرًّا جَنيبًا عند مَغْرِضها والتفَّ ديكٌ برجليهـا وخِنْزيرُ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى[٧] كما ذكروا الُحبارى والضبّ واليربوع والجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعى ، ويشبه عنترة نفسه إزاء بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابه ، ويقول في بعض وصفه له[٨] :

رَقُود ضُحَيَّاتٍ كأَن لسـانه إذا سمع الأَجراسَ مكحالُ أَرْمَدَا[٩]

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها[١٠] ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به ، وفيه يقول عنترة[١١] :

ظعَنَ الذين فراقَهم أَتوقَّعُ وجرى بِبَيْنِهمُ الغرابُ الأَبْقَعُ[١٢]

---

(١) لحوق : ضمور .
(٢) الحيوان ١/٢٧٥ .
(٣) الحيوان ٢/٢٧٤ والأغانى ١١/١٣٢ .
(٤) الحيوان ٤/٤١٦ .
(٥) السيد : الذئب ، والغضا . نبت ، وذئاب الغضا أخبث الذئاب ، أضل جراءه : فقد أولاده فهو يسرع في عدوه ، يلحب : يمر مرا سريعاً .
(٦) الحيوان ١/٢٧٧ وديوان أوس ص٤٣ جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الحزام منها ، وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب ، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .
(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص ٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ والحيوان ٧/٢١ .
(٨) الحيوان ٤/٣٠٨ .
(٩) رقود الضحى ، ذاك من شأن الأفاعى تنام في الضحى وتستيقظ في الظلام ، والأجراس : الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ، جعل لسانه كالمكحال في دقته وسواده .
(١٠) الحيوان ٦/٣٣٩ وما بعدها .
(١١) الحيوان ٣/٤٤٢ ومختار الشعر الجاهلى ص ٣٩٢ .
(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأَنَّ لَحْيَيْ رأسه جَلمانِ بالأَخبار هَشٌّ مولع(١)

إن الذين نَعَبْتَ لى بفراقهم هم أسهروا ليلى التِّمامَ فأَوجعوا(٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوْحَه وما يهيج فيهم من شوق وشَجا . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره. وينبغى أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورى عن طوق الحمامة والديك والغراب والهدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبى الصلت ، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرةُ ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم(٣) ووصف البرد وقوارصه والحر وهواجره »(٤) وما يجرى فى ديارهم أحياناً من خصب بعد مطر غزير (٥) ، وفى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِماً نزل فى مواطن بنى أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف فى شعره وشعر شاعرهم عَبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجدب. وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم فى لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئاً يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانيها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يُقحمونها كما قدمنا فى حماستهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نَحْر الجزور ، يقول ثعلبة بن صُعَيْر فى حماسية له(٦) :

أَسُمَىَّ ما يُدْريكِ أَنْ رُبَّ فِتْيَةٍ بيض الوجوه ذوى نَدًى ومآثرِ

باكرتهم بسِباء جَوْنٍ ذارعٍ قبلَ الصباح وقبل لَغْوِ الطائرِ(٧)

---

(١) حرق : أسود ، وشبه لحييه بالجلمين لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقراضان.
(٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد الطول .
(٣) الحيوان ٦/٢٥٥ وانظر الأصمعيات رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥.
(٤) الحيوان ٥/٧٣ ، ٥/٧٨ وما بعدها وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١.
(٥) الحيوان ٣/١٢٠ والمفضليات ص ٣٣٥.
(٦) المفضليات ص ١٣٠ .
(٧) السباء : اشتراء الخمر، الجون : الزق الأسود. الذارع : المختلط بالماء .

فقَصَرْتُ يومهمُ برنَّةِ شارِفٍ وسماع مُدْجِنَةٍ وجَدْوى جازرِ[١]

وهذه الموضوعات التى قدمناها جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدْلى فى تضاعيف قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم فى وصيته لابنه التى يستهلها بقوله[٢] :

وإن المجد أوَّلهُ وعُورٌ ومصدر غِبِّه كرمٌ وخِيرُ[٣]

وممن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير والأفوه الأودى وعلقمة بن عبَدة ، وهى تكثر فى ميمية الأخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله[٤] :

الحمدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ مما يَضِنُّ به الأقوامُ معلومُ
والجود نافيةٌ للمال مَهْلَكَةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومذموم
وكلُّ حِصْن وإن طالتْ سلامته على دعائمــه لا بُدّ مهدوم

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول فى بائيته[٥] :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بَصيرٌ بأدْواء النساء طَبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ مالُه فليس له من وُدِّهن نَصِيبُ

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجدها فى معلقة عَبيد بن الأبرص، وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَــةٍ يَئُوبُ وغائبُ الموت لا يئوبُ

ويقول عبْدة بن الطبيب[٦] :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأْميلُ

---

(١) الشارف : الناقة ، ورنتها : صوتها عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم . وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم .

(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦.

(٣) غبه : عاقبته، الخير: الكرم .

(٤) المفضليات ص ٤٠١ .

(٥) المفضليات ص٣٩٢ .

(٦) المفضليات ص١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلاء الغسانى [1] :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْيَاء

وتلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية ، فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء ، وهى أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتناً فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

## الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحَظ على معانى الشاعر الجاهلى أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله فى الطبيعة ، فهولا يعرف الغلو ولاالمغالاة ، ولا المبالغة التى قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك فى رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أميناً، يُبْـقِى فيه على صورها الحقيقية دون أن يُـدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

---

(١) الأصمعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا[١] ، وبفراره إن ولّى الأدبار ونكص على أعقابه[٢] ، وفى أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم فى الحروب ، ولهم فى ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون فى الحقائق ولا يعدّلون فى علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتى شاذّاً ونادراً . ونظن ظنّاً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذى طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموّهها أو طلاء يزيفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها فى أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثَمَّ تبدو فى كثير من جوانبها كأنها شىء راسخ ثابت . ويتضح ذلك فى حِكمهم التى تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح فى جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم ، إذ يقدم الشاعر المعانى منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهى حقائق تُسْرَدُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء . واقرأْ فى أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعانى دائماً مجسمة فى أشخاص أو فى أشياء. وخُذْ فضائلهم التى طالما أشادوا بها فى حماستهم ومراثيهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق فى مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهنى عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها فى هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادىّ ، ولنرجعْ مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

---

(١) انظر مثلا المفضليات رقم ١٠٨ . (٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ — ٣ .

والبدر والبيضة والدرّة والدُّمْية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقْحوان وبنانها بالعَنَم وثغرها بالبلُّور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجيزتها بالكثيب وساقها بالبرْدية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية فى التشبيه الشعرُ الجاهلى جميعه ، فالشاعر يستقى فى أخيلته من العالم الحسى المترامى حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقّوا النظر فى أجزائه ، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلا شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالا ، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته فى معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفة فى الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك فى غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معانى واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثَمَّ تَبْدو فى أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنى عليهم ذلك ضيقا واضحا فى معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . واقرأْ فى المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعانى ، وستجد أيضاً براعة نادرة فى إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، وخُذْ مثلا تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عاديًّا ، وشاعر يشبهها بها وهى تمد عنقها إلى شجر السَّلم الناضر ، يريد أن يستتم بذلك منظراً بديعاً

للظبية ، يقول عِلباء بن أرقم(١) :

فيوما تُوافينـــا بوجهٍ مُقَسَّمٍ كأَنْ ظبيةٍ تَعْطُو إلى ناضِرِالسَّلَمْ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية فى استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة(٢) :

وتصدَّفتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ صَلْتٍ كمُنْتَصِب الغزال الأَتْلَعِ

ورابع يجعل وجه الشبه حَوَر العين ، وخامس يجعله فى التنفس كقول المنخّل اليشكرى :

ولثمتُهـــا فتنفَّسَتْ كتنفس الظبى البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلا جديداً. وخُذْ مثلا تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربى(٣) :

وكنا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأَقْتما

ويقول طُفَيل الغنوى فى مديح قوم(٤) :

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بَدا ساطعًا فى حِنْدس الليل كوكبُ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة(٥) :

وإنى من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأْوى إليه كواكبه

أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبه(٦)

وألمّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال فى النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة(٧) :

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من القسام وهو الجمال ، وأن فى كأن زائدة ، تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت : أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ، وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقتم : من القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٣/ ٩٤ .

(٥) الحيوان ٣/ ٩٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٣/ ٩٥ ومختار الشعر الجاهلى ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ        إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة فى معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنتشر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثَمَّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجعْ إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمونٍ كألْواح الإرَان نَسَأْتُها        على لاحبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[1]

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ، فيستمر فى وصفها وكأنه تدلّه بها حبًّا ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من يَنْصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما فى طريقها بكلابه أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبيعى أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يُدخلون هذه الحركة فى المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفى بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظُعن حبيبته وصواحبها فى القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلا بديعاً .

---

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران : تابوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق البين الواضح الذى أثر فيه المشى . البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

وهذه الحركة فى حياتهم التى تعنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالى تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك فى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة . ومن ثَمَّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذى جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى أن القصيدة الطويلة لا تلمّ بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هى كل روابطها ، أما بعد ذلك فهى مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس فى الشعر الجاهلى ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقًّا من حياته ، وهو التنقل السريع .

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذى يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامى من حولهم فى غير حدود هو الذى أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هى موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض فى انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر فى هذا الفضاء الصحراوى الواسع الذى لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد ، والذى تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة .

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلا فى وصفهم للحيوان الوحشى فحسب ، بل نراه أيضًا فى وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التى أنشدها المفضّل الضبّى والتى يستهلها بقوله[1] :

---

(١) المفضليات ص١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

أَلا أُمُّ عمرو أَجمعتْ فاستقلَّتِ ... وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقص علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها فى إجمال، بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدّوا العُدَّة للغزو والسلب، يحملون قسيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين: مِشْعَل والجَبَا راجلين، وقد حمَل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتِّر عليهم فى الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التى كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملون حُساماً صارماً، بل سيوفاً قاطعة كأنها قِطَع الماء فى الغدير لمعاناً، بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعَلَّتْ من دماء مُحْرِمٍ ساق هَدْيَه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن لم يُقتَل أخذوه أسيراً. ويُنهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

ويكثر الصعاليك من قَصَص مثل هذه المغامرة، ويلقانا فى حماسياتهم كثير من وصف معاركهم، وقد يحاولون سَرْدها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثِّل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبى خازم فى المفضليات، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلا عن يومى النِّسار والجفار، فالقَصَص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له فى مطوَّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى. ونراه ماثلا فى غزلهم على نحو ما مر بنا فى غزلية المنخَّل اليشكرى، وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل فى غزل المرقِّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها فى بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهى روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى، فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيباً دقيقاً، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله، إذ كان مشغولا بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

٥

## الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلى أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهى فى الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب فى الشعر الجاهلى يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقى لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة فى غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التى أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معانى بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعادًا من لفظنا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون فى ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقّح فيه ويهذب ويصفى جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة فى الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتى نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا فى ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته فى عام كامل ، يردّد نظره فى صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستويه فى بنائها[١] .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصْنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع فى طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والتبيين ٢/٩ وما بعدها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صَنع قطعة عَرضها على بعض شعراء قبيلته و بعض من يَلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يُعيد فيها النظر فيبدّل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدّت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقّها[١] ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقّش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه[٢] ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقّش الأصغر ، كما لقبوا طُفيْلاً بالمحبِّر لتزيينه شعره[٣] ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره[٤] ولقبوا غير شاعر بالنابغة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقِّب والمتنخّل . وقد استطاعوا حقًّا أن يبهروا العصور التالية بما وفّروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغه ، فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفّون فى نغم القصيدة ، حتّى استوى استواء كاملا ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها ، و برعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليَشْكرى السابقة . وحقًّا هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . واقرأْ فى حَوْليَّات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودُريد بن الصِّمّة وسلامة بن جَنْدل والحادرة والمثقب العبْدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمتْ صياغتها وضُبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥٧ .
(٢) انظر المفضليات (طبعة لايل) ١/٤١٠ ، ٤٨٥
(٣) المفضليات ١/٤١٠ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١١٢ .

فى هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جزُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير فى سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً فى أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلا يشبَّه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبَّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعَسيب والجِذْع وتشبَّه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعرْفه بالقصبة الرطبة وحافره بقَعْب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخباء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة فى المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس فى وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف فى التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليَشْكرى لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول[1] :

يَعكُفْنَ مثل أساودِ الـ ـتَّنُّوم لم تُعْكَفْ لزُورِ[2]

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمّ سُوَيد بن أبى كاهل بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجه إخراجاً جديداً فقال[3] :

حرّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضحًا كشعاع الشمس فى الغَيْم سَطَعْ[4]

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمّ عَميرة بن جُعْل بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال[5] :

---

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : الأفاعى ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتهن .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٤) الشتيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .

(٥) المفضليات ص٢٥٩ ،والرديني : الرمح.

جمعتُ رُدَيْنِيًّا كأَنَّ سِنانَهُ   سَنا لهب لم يَتَّصِلْ بدُخانِ

وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول(١) :

جادَت عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ   فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ (٢)
فترى الذبابَ بها يُغَنِّى وحده   هَزِجًا كفعل الشارب المترنِّم
غَرِدًا يَحُكُّ ذِراعَه بذراعِهِ   فعلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذم (٣)

فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرها بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب فى حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين أو زَنْدين فلا تقتدح ، فيستمر فى قدحه لا يفتر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التى تلقانا فى شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من التصريحية والمكنية ، وهى مبثوثة فى أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس تصويره طول الليل وفتوره وبطئه ببعير جاثم لا يريم ، إذ يقول فى معلقته مخاطباً الليل :

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلْبهِ   وأَردف أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ (٤)

وأنشد ابن المعتز فى كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن حَجر :

وإنى امرؤٌ أعددتُ للحرب بعدما   رأيتُ لها نابًا من الشرِّ أعْصَلا (٥)

وقول عَلقمة بن عَبدة :

بل كلُّ قوم وإن عَزُّوا وإن كرموا   عَريفُهم بأَثافى الشرِّ مَرْجُومُ (٦)

---

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٧١ .
(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ، وشبه الحديقة بالدرهم فى استدارته .
(٣) الأجذم : مقطوع اليدين .
(٤) الكلكل : الصدر .
(٥) الأعصل : المعوج فى صلابة .
(٦) العريف : الرئيس ، والأثافى : الحجارة التى تنصب عليها القدر ، استعارها لنوائب الدهر .

وقول طُفَيل الغَنَوى فى وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيـةٍ ... يقتاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ (١)

وقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

حتى إذا التفعَ الظِّبـاء بـأَطْـ ... راف الظِّلال وقِلْنَ فى الكُنُسِ (٢)

وفى شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات فى دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التى شاعت فى الشعر العباسى وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول فى الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس فى وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبِرٍ معًا ... كجلمود صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ ... كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزِّلِ (٣)

والطباق واضح فى البيت الأول ومثله الجناس فى البيت الثانى . وقد أنشد المفضل الضبى لعبد الله بن سلمة الغامدى قصيدة كَثُر فى آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بإزاء شاعر عباسى من شعراء البديع ، يقول عبد الله(٤) :

ولقد أصاحبُ صاحبًا ذا مَأْقَةٍ ... بِصِحاب مُطَّلِع الأَذَى نِقْرِيسِ (٥)
ولقد أُزاحم ذا الشَّذَاةِ بِمِزْحَمٍ ... صَعْبِ البُدَاهَةِ ذى شَذًا وشَرِيسِ (٦)

(١) الكور : الرحل ، ناجية : ناقة سريعة.

(٢) التفعت الظباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهى نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهى حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية فى أصل شجرة لتستتر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر فى سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له فى استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشذاة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أَداوى داءَ كلِّ مُعَبَّدٍ بِعَنِيَّةٍ غَلَبَتْ على النِّطِّيسِ[١]

فقد جانس فى البيت الأول بين أصاحب وصاحبا وصحاب، وجانس فى البيت الثانى بين أزاحم و بمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس فى البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلى يُعْنَى بها حتى يؤثر فى نفوس سامعيه ويخلب ألبابهم، وهى تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فنى ، وخاصة من حيث التصوير ودقته و براعته ، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتى فيه بالنادر الطريف .

---

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الجرب . النطيس كالنطاسى : الطبيب الماهر .

الفصل السابع

# امرؤ القيس

## ١

### قبيلته وأسرته[١]

امرؤالقيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهى قبيلة يمنية[٢] كانت تنزل فى غربى حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبى وادى الرُّمَّة الذى يمتد من شمالى المدينة إلى العراق . وقداحتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً فى نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجْراً آكل المُرار[٣] تعاقبت الإمارة فى بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين[٤] .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُرْوَى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك فى حروب مع الغساسنة[٥] . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفَّى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة[٦] مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

(١) راجع فى كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر فى ذلك الاشتقاق ( طبعة جوتنجن ) ٢١٨/٢ والأغانى ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية ( انظر الأغانى طبعة دار الكتب ٧٩/١٣ والمفضليات طبعة لايل ٤٢٧/١ ) ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد فى أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعديكرب ابنى الحارث .

(٣) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله فحل الإبل يأكل نبتاً مرا يسمى المرار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغانى ( طبع الساسى ) ٢٨/١٥ وابن خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٢٢٠/٣ .

(٥) الأغانى ٨٢/١٥ ومابعدها .

(٦) تاريخ الطبرى ( طبعة أوربا ) ٩٠٠/١ وحمزة الأصفهانى ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية فى عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد [١] .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه[٢] ، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل – كما تقول بعض الروايات – حُجْراً على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس[٣] .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معديكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أُوارة الأول[٤] ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحبيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكُلاب الأول[٥] .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد ، ويَرْوى صاحب الأغانى أربع روايات مختلفة فى قتله[٦] ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبى ( المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ) وهى تزعم أن حجراً كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جُباته فمنعوهم وضربوهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

---

( ١ ) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/ ٢٤٥ .
( ٢ ) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .
( ٣ ) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .
( ٤ ) نقائض جرير والفرزدق ( طبعة بيفان ) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١/ ٢٢٨ .
( ٥ ) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٢/ ٢٠٨ وما بعدها والمفضليات ( طبعة لايل ) ١/ ٤٢٨ وابن الأثير ١/ ٢٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٧/ ٢٦٩ .
( ٦ ) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩/ ٨٢ .

— فسمُّوا عبيدَ العصا — وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرُّمَّة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليكُ عليهمُ وهمُ العبيدُ إلى القيامه

فأثر ذلك فى نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمروا له الانتقام ، وأصابوا منه غِرّة ، فقتلوه فى قُبَّته ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبى عمرو الشيبانى ( المتوفى سنة٢١٣هـ) وهى تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بعُوَيْر بن شِجْنة التميمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْباء بن الحارث الأسدى ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى ( المتوفى سنة ٢٠٦ ) وهى تذكر أن حجراً لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وأهله تحول عن بنى أسد فأقام فى عشيرته كندة مدة ، وجمع لبنى أسد منهم جمعاً عظيما ، وأقبل مُدِلاًّ بمن معه من الجنود ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدّ العرب فموتوا كراماً . فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حُجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السِّكِّيت ( المتوفى سنة ٢٤٤ ) وهى تزعم أن حجراً أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بنى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه . وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده ثأر ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو متهم فيما يرويه ، فهي رواية ضعيفة ، ومما يدل على فسادها قصيدة عَبيد التي ذُكر في تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذى جاء فى القرآن الكريم وهو جاهلى وثنى ؟ . ومثلها الروايتان الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجراً يموت غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تثأر له أو تشتبك من أجله فى حرب مع بنى أسد . لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدى ، وهى تتفق مع ما ردده عبيد بن الأبرص فى شعره مراراً من أن قبيلته نكَّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله فى ذلك يخاطب امرأ القيس[1] :

ورَكْضُك لولاه لقيتَ الذى لَقُوا     فذاك الذى أنجاك مما هنالكا

وهو يشير بذلك فى وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التى قُتل فيها أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقَتْل حُجْر إذ يقول معرّضاً بامرئ القيس وساخراً من وعيده وتهديده لقومه[2] :

يا ذا المخوِّفنا بقتْـ     ـل أبيه إذلالاً وحَيْنا[3]
أزعمتَ أنك قد قتلـ     ـتَ سَرَاتنا كذباً ومَيْنا[4]
هـلاَّ على حُجْر ابن أمِّ     قَطام تبكى لا علينا
هلا سألت جموع كنـ     ـدةَ يوم ولَّوا أين أينا
أيام نضربُ هامهم     بَبواترٍ حتى انحنينا[5]

ويتكرر فى ديوان عبَيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة مراراً[6] مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قرباً إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل) ص ٥٣ .
(٢) الديوان ص ٢٧ .
(٣) الحين : الموت .
(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .
(٥) السيوف البواتر : القاطعة .
(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ، ١٧ ، ٢٦ .

## ٢

### حياته

تتردد فى كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدُجاً وعدياً ومُلَيْكة[١] ، ويُكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث ويلقَّب بذى القروح والملك الضِّليل[٢] ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم فى الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مر بنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[٣] . ووهم بعض الرواة فى نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السِّمْط بن امرئ القيس بن عمرو الكندى ، وإن أمه تَمْلِك بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَذْحِج من رهط عمرو بن معد يكرب[٤] . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان فى الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شىء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى فى شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك مارواه[٥] هشام الكلبى إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى ( أقسم ) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذَّاذ القبائل : من طيئ وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيَّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

---

( ١ ) انظر جواد على ٣/٢٥٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدى ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطى ٢/٤٢٢ وشرح شواهد المغنى له ص ٦ .

( ٢ ) الأغانى ٩/٧٨ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ( طبعة دار المعارف ) ١/٥٢ وما بعدها .

( ٣ ) أغانى ٩/٧٧ .

( ٤ ) أغانى ٩/٧٧ .

( ٥ ) أغانى ٩/٨٧ وما بعدها .

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدَمّون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بنى عِجْل يقال له عامر الأعور أخو الوصّاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ علىَّ دَمّونْ دَمُّونُ إنا معشرٌ يمانونْ

وإننا لأهلنا محبُّون

ثم قال : ضيَّعنى صغيراً وحمّلنى دمه كبيراً ، لا صَحْوَ اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلا ، ثم قال :

خليلىَّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً ، فلما صَحِيَ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدَّهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جَنَّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أَرِقتُ لبَرْقٍ بليلٍ أَهــلّْ يضىء سَناه بأعلى الجبَلْ

أتانى حديثٌ فكَذَّبْتُــهُ بأَمرٍ تزعزعُ منه القُلَلْ(١)

بقتل بنى أَسدٍ ربَّهم ألا كلُّ شىء سواه جَلَلْ(٢)

فأَين ربيعةُ عن ربِّها وأَين تميمٌ وأَين الخَوَل(٣)

ألا يحضرون لدى بابِه كما يحضرون إذا ما أَكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة فى مقتل حُجْر والتى تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه فى حربه لبنى أسد وأنه فرّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبى . ومثله الخبر الذى ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع فى الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرّة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلْجل ما كان فقال قصيدته : (قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ،

(١) القلل : قم الجبال .

(٢) جلل هنا : هين .

(٣) الخول : العبيد .

فذبح جُؤْذرا[١] ، فأتاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إنى لم أقتله ، قال : فأتنى به . . فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : ( ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى ) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدَمّون[٢] . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو منتحل ، صُنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التى يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلْجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هى وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبى وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صَبّاً بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش فى عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجن ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد فى سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بنى أسد قَتلة أبيه . ويظهر أن بنى أسد خافوا العاقبة ، فأرسلوا إليه — فى رواية للخليل بن أحمد — وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النَّظِرة ( الإمهال ) حتى تضع الحوامل ، فتُعْقَد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العربُ أن لا كفء لحُجْر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد ، وفَتّ العَضُد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حَنَقاً وفوق الأسنة علَقا ( دما ) ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه[٣] » وقد عرفوا أنه طالبهم .

---

( ١ ) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

( ٢ ) انظر الشعر والشعراء ١/٥٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٦ .

( ٣ ) الأغانى ٩/١٠٣ وما بعدها .

. ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي [١] ، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد ، وعلمت بنو أسد بما يدبِّرلهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بني كنانة ، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو يحسبهم بني أسد ، فوضع السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طَلِبَتَه . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقاتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحَجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ، فاستنصر أزْدَ شنوءة فأبوا أن ينصروه، فنزل بقَيْل (أمير ) يدعى مَرْثد الخير الحميرى فأمدَّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار بهم إلى بني أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكَّر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب . وفي رواية إن المنذر ألحَّ في طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بني آكل المُرار. فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضِّباب الإيادى فأجاره ، ثم تحول عنه إلى المعلَّى بن تَيم الطائى ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بني نَبْهان الطائية ، فبذلت له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جُوَيْن الطائى . وكان المنذر لا يزال يتبعه ، فتحول عن طيئ إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغسانى بالشام ليوصّله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى انتهى إلى قيصر في القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيفاً . ولما فصَل اندسّ إلى جوستنيان رجل من بني أسد يقال له الطمّاح فقال له : « إن امرأ القيس غَوِيّ عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

---

(١) الأغانى ٩/٩٠ وما بعدها .

كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهّرها بها فى العرب ، فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحُلّة وَشْي مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلتْ إليك فالبسْها باليمن والبركة ، واكتبْ إلىّ بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سُمّى ذا القُروح ، وقال فى ذلك :

لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ليُلْبسنى مما يلبّس أبؤسا[1]

فلو أنها نفسٌ تموت سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتُضر بها ، فقال :

رُبَّ خُطْبَةٍ مُسْحَنْفِرَهْ وطَعْنَةٍ مُثْعَنْجِرَهْ[2]

وجَفْنَةٍ مُتَحَيِّرَهْ حَلَّتْ بأرض أنقره[3]

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت فى سفح جبل يقال له عَسِيب فسأل عنها، فأُخْبِر بقصتها فقال :

أجارتَنا إن المزار قريبُ وإنى مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكلٌّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويتْ فى جملتها عن ابن الكلبى المتهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ، تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغسانى وأنه أوصله إلى جوستنيان فى القسطنطينية ، غير أنه مات فى الطريق . . ومن المحقق أن قصة ثأرَ جوستنيان لشرفه منه قصة منتحلة ، نسجها القصاص حين

(١) يريد بالأبؤس مالبسه من الحلة المسمومة.

(٢) مسحنفرة : مسهبة ، مثعنجرة : سائلة .

(٣) جفنة متحيرة : ممتلئة طعاماً ودسما .

وجدوه فى شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه فى القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه ، وإن ابنته نظرت إليه فعشقته وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً فى حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثَمَّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته فى رجوعه من عنده إنما هى تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى الذى ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق فى مسعاه(١) . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندى وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء ، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر « نونوسوس » أن جوستنيان كلفه بالسفارة لديه(٢) . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس(٣) ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه فى الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت فى صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل فى شمالى الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية فى مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم ، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر فى أن يعينه حاكماً على جنوبى الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف فى

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢١١ وما بعدها .
(٢) جواد على ٣/٢٦٥ وما بعدها .
(٣) انظر جواد على فى نفس الصفحة .

سفارته ، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ، وبالغ فى إكرامه ، وعاد إلى بلاده[١] .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، أنه كان من اللخميين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر فى كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ — ٤٨٣ م) هو الذى نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمى ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة فى هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفى ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً فى شمالى الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصفى ولاءه للروم . ومرّ بنا فى أخبار الحارث الكندى أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية فى الشمال ، ومر بنا أيضاً أنه كان يُغير فى أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابناه حُجر ومعد يكرب . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمى فى شمالى الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخميين فى غربى الجزيرة ، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم فى الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمده كسرى أنو شروان بجيوشه ، فقضى على خصمه الكندى ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها فى ملك الغساسنة .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندى اختلطت فى ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمى[٢] ، ومن هنا كنا نظن ظنـًّا أن امرأ القيس الشاعر الكندى لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

---

(١) انظر جواد على ٣ / ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغسانى والى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالى عام ٥٣٠ م ليستعين به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلا بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التى تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أى الوالى ولكنه توفى فى أنقرة بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ فى أثناء رحيله لتولى منصبه.

الطويلة التى نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب فى أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتى ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهى السنة التى توفّى فيها أو قُتل جده الحارث .

## ٣

### ديوانه

طُبع ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ فى شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعى ، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس » وجرّد نشرته من شرح الشنتمرى .

وعُنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة فى سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى فى ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه فى كتب الأدب والتاريخ . وطُبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبى بكر البطليوسى فى مصر والهند وإيران . وأخرجه حسن السندوبى فى نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه فى الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجه مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى فى مجموعته التى سماها « مختار الشعر الجاهلى ».

وفى سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف فى القاهرة ، واعتمد فى نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعى نقلا عن نسخة الشنتمرى التى تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتى تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعى ، فهى رواية موثقة ، وهى تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحث فى هذه الروايات لاحظنا توًّا أن أعلاها فى الثقة رواية الشنتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السند ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل.

وإذن فالرواية التى ينبغى أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشُّبَه العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ رُوى عنه أنه كان يقول: « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »(١) وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبى فى أخباره فأكثرها من منحوله . وفى الموشّح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »(٢) .

ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أديل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته ، فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

---

(١) مراتب النحويين ص ٧٢ . (٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهي بين المعلقات التي يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهي التي تبتدئ بقوله :

وقِرْبَةِ أَقوامٍ جعلت عصامَها على كاهل مني ذَلولٍ مُرَحَّلِ[١]

لأنها لا تشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثَمَّ نسبها بعض الرواة إلى تأبط شرًّا[٢] . وتليها قصيدته (ألا عِم صباحاً أيها الطلل البالى) وهي من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهي وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له . أما القصيدة الثالثة (خليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب[٣] على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة[٤] ، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصري امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة ( سمالك شوق بعد ما كان أقصرا ) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفي ذلك لردها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنّي على برْق أراه وميضِ) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دُؤَاد الايادي[٥] . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحيِّ بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتمُ أمس دونهم) وهي في مديح عُوَيْر بن

(١) عصام القربة : الحبل الذي تحمل به ، مرحل : تعود الرحلة .

(٢) انظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ٣٧٢ .

(٣) الموشح ص ٣٠ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر كتاب الخيل لأبي عبيدة ص ١٣٦ .

(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنة التيمى فلم يروها الطوسى بين ما رواه عن المفضل الضبى[١] ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة فى القصيدة الثامنة ( لمن طللٌ أبصرته فشجانى ) وقال إنها محمولة عليه[٢] . والقصيدة التاسعة ( قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ) تذكر خشبات كان يُحْمَلُ عليها فى مرضه، فهى تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهى لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة ( دع عنك نهباً صيح فى حَجَراته ) قيلت فى مديح نَبْهَانىٍّ أجاره فى أثناء طوافه فى القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة ( أرانا موضعين لأمر غيب ) جيدة ، وهى مما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء[٣] . أما القصيدة الثانية عشرة ( أماوىّ هل لى عندكم من معرّس ) فقد روى أبو عمرو الشيبانى أنها لبشر بن أبى خازم الأسدى[٤] . والقصيدة الثالثة عشرة ( ألما على الرّبع القديم بعسعسا ) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التى نظمها فى مديح سعد بن الضباب الإيادى حين أجاره والتى يستهلها بقوله ( لعمرك ما قلبى إلى أهله بحُرّ ) وهى مما أثبته له الأصمعى وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة ( لمن الديار غشيتها بسُحام ) وهى فى عتاب سُبَيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة ( يا دار ماويّة بالحائل ) فقد أنكرها الطوسى وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها[٥] . ولا ريب فى أن المقطوعة السابعة عشرة ( رب رام من بنى ثُعَلٍ ) محمولة عليه ، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائى ورميه للصيد ، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب[٦] . والمقطوعة الثامنة عشرة ( يا هند لا تَنْكحى بوهة ) أنكر الآمدى نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميرى[٧] . أما المقطوعة التاسعة عشرة ( ألا قبح الله البراجم كلها ) التى نظمها فى

---

( ١ ) الديوان ص ٣٩٧ .
( ٢ ) الديوان ص ٣٩٨ .
( ٣ ) الديوان ص ٤٠٢ .
( ٤ ) الديوان ص ٤٠٤ .
( ٥ ) الديوان ص ٤١١ .
( ٦ ) الاشتقاق لابن دريد ( طبعة جوتنجن ) ٢/ ٢٣٢ .
( ٧ ) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣

هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل فى يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابى لا يعرفها[١]. وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بنى عوف ابتنوا حَسَبًا) التى قالها فى مديح عُوَيْر بن شِجْنة فيمكن أن تكون صحيحة. وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومرَّ بنا فى رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله. وقد أنكر الأصمعى المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلا تكن إبلٌ فمعزى)[٢]. ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التى يقال إنه نظمها حين أخطأ بنى أسد وأوقع ببنى كنانة صحيحة، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التى يمدح فيها المعلّى الطائى والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون، وهما مما نظمه فى أثناء مطاردة المنذر له. أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هَطْلاء فيها وَطف) فمما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة[٣]، وهى لذلك من شعره الوثيق، أما الثامنة والعشرون التى تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوءم اليشكرى، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوءم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسى لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبى.

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعى سوى القصيدتين الأوليين، وهما مطولتان، ومثلهما فى الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رُويتا عن أبى عمرو بن العلاء، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦، ١٠، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة. على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبى فى أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغانى عن طلب امرئ القيس لبنى أسد واستعدائه القبائلَ عليهم، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة. وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى فى ديوانه، وتاليتها، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون.

(١) الديوان ص ٤١٤.
(٢) الديوان ص ١٣٧.
(٣) الديوان ص ١٤٤.

٤

## شعره

حاول طه حسين أن يردّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يمنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مر بنا أن لغة قريش هى التى سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلى على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهى بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْق منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية فى ديوانه ( ألا عِمْ صباحاً أيها الطالل البالى ) وهما جميعاً مما رواه الأصمعى والمفضل الضبى وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما فى طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصًّا بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع فى القطعة السابعة والعشرين التى رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل فى ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ فى ديار بنى أسد بالقرب من تيماء[1] ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[2] . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيِّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَلِ[3]

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التى يذكرها فى معلقته فجمعها من منازل بنى أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لاينزلون إلا فى صلابة من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيبَ والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق فى ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالا سريعاً يقصّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة فى قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائى أبكينه وبرّح به حبهن مثل أم الحُوَيْرث وأم الرَّباب ، ثم يفيض فى وصف يوم عُنَيْزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلّ عليه أحياناً ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمثلكِ حُبْلَى قد طرقتُ ومُــرْضِعاً ... فألْهَيْتها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ (١)

ثم يعود فيبثّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، فى تلك الأبيات البديعة :

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجْملى (٢)

وإن كنتِ قد ساءتْك منى خليقةٌ ... فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ (٣)

أغرَّكِ منى أن حبــك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذرفَتْ عيناك إلا لتقْدَحِى ... بِسَهْمَيْكِ فى أعْشار قلب مُقَتَّلِ (٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

---

(١) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة تعلق على الصبى ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدلل : أى كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت ، وأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٣) سلى ثيابى من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً مكسراً .

بها ناحية من الحي يتبادلان فيها الصبابة والغرام ، يقول :

وبَيْضة خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (١)

تجاوزتُ أحراساً وأهوال مَعْشرٍ ... علىَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلِي (٢)

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تعرَّضتْ ... تعرُّضَ أَثْناء الوشاحِ المفصَّل (٣)

فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها ... لَدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّل (٤)

فقالتْ يمينُ الله مالك حِيلَةٌ ... وما إنْ أرى عنك العَمايةَ تَنْجَلى (٥)

خرجتُ بها تمشى تجرُّ وراءنا ... على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّل (٦)

فلما أجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى ... بنابَطْنُ حِقْفٍ ذِى رُكام عَقَنْقَل (٧)

إذا التفتتْ نحوى تضوَّعَ ريحُها ... نسيمَ الصَّباجاءَتْ بريَّا القَرَنْفُلِ (٨)

إذا قلتُ هاتى نَوِّلينى تمايلتْ ... علىَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَل (٩)

فهو يذكر خِدْرها وأحراسها ومنعتها ، وكيف وصل إليها وقد استعدَّت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار ، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحي إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفّى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبي الرجال وتعبث بقلوبهم .

---

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

(٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة ، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلىء .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توًّا مغامرات ابن أبى ربيعة فى غزله ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ      غداةَ غَدٍ أَم رائحٌ فَمُهجِّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه فى غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتُحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبى ربيعة[1] . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبى ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعى الشاعرين فى وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقًّا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من لهو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً فى رقة النجوى وفى كلف صواحبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس فى وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيًّا حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى[2] ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبى ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس فى المعلقة وحدها ، فمثلها المطولة ( ألا عِمْ صباحاً أيها الطّلَلُ البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه فى المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض فى وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا فى المعلقة ، يقول :

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٢١ .
(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماء حالا على حالِ (١)
فقالتْ : سَباكَ اللهُ إنك فاضحى ... أَلستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالى (٢)
فقلتُ : يمينَ الله أبرحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا رأسى لديكِ وأوصالى
فلما تنازعْنــا الحديثَ وأسمحتْ ... هَصرتُ بغُصْنٍ ذى شماريخَ ميَّالِ (٣)
وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنــا ... ورُضْت فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلال (٤)
فأَصبحتُ معشوقاً وأَصبح بَعْلُها ... عليه القتامُ سَيِّئَ الظنِّ والبال (٥)
يَغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ ... ليقتلنى والمرءُ ليس بقتَّال (٦)
أَيقتلنى والمَشْرَفِىُّ مُضاجعى ... ومسنونةٌ زرْقٌ كأَنْياب أَغْوال (٧)

وكأن امرأ القيس هو الذى سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه فى تشبيبه الذى يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع فى معلقته بعد حديثه عن بَيْضة الخِدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح، ولا إلى عذْل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل فى وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدولَهُ ... علىَّ بأنواع الهموم ليَبْتَلِى (٨)
فقلت له لمــا تمطَّى بصُلْبهِ ... وأَردفَ أعجازًا وناءَ بكلْكَلِ (٩)

---

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضا فى رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبهه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته .

(٤) رضت : أذللت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل فى خناقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرفى : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفى رواية بجوزه والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

أَلا أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلاانْجَلِي    بِصُبْحٍ وماالإِصباحُ فيكَ بِأَمْثَلِ (١)
فيالكَ من ليلٍ كأَنَّ نجومه    بكلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ (٢)
كأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها    بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ (٣)

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهى ، ويحس كأنه طال وأسرف فى الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهى لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُمِّرَتْ فى مكانها ، فهى لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وقد أَغْتَدِى والطيرُ فى وُكُناتها    بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابدِ هَيْكَلِ (٤)
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً    كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ (٥)
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ    كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنَزِّلِ (٦)
مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى    أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (٧)

---

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم فى الليل وفى الصبح .

(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .

(٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .

(٤) الوكنات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .

(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه : أسقطه .

(٦) الكميت : الفرس الأحمر فى سواد . يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المسرعة . الونى : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَن اهتزامَهُ · إذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ(١)
يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِه · ويُلْوِى بأَثوابِ العنيفِ المُثَقَّلِ(٢)
دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمرَّه · تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ(٣)
له أَيطلا ظَبْيٍ وساقا نعـــامةٍ · وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ(٤)
كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منه إذا انْتَحَى · مَدَاكَ عَروسٍ أَو صَرَايةَ حَنْظَلِ(٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبْده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبًّا ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه فى سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التى يلعب بها الصبيان ، إذ يَصلونها بخيط ويسرعون فى إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى فى الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَداك عروس أو صَراية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عنّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذى لا يحسن الركوب .

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مداك العروس : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق، شبه به الفرس فى بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقة .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز ، يقول :

أحارِ ترَى برْقاً كأَنَّ وميضَه … كَلَمْعِ اليدين فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (١)
يضىءُ سَناهُ أَو مصابيحُ راهبٍ … أَهانَ السَّليطَ فى الذُّبالِ المفتَّلِ (٢)
قعدتُ له وصحبتى بين حامرٍ … وبين إكام بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ (٣)
وأَضحى يَسُحُّ الماءَ عن كل فِيقةٍ … يكبُّ على الأَذقان دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (٤)
وتَيْماءَ لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ … ولا أُطُماً إلا مَشِيدا بجَنْدَلِ (٥)
كأَن طَمِيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً … من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ (٦)
كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقِهِ … كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّلِ (٧)
وأَلقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ … نُزُولَ اليمانى ذى العِياب المخوَّلِ (٨)
كأَن سِباعا فيه غَرْقَى غُدَيَّةً … بأَرْجائه القصوى أَنابيشُ عُنْصلِ (٩)

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل ، وقيل الحبى : الدانى من الأرض .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .

(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ، الكنهبل : ماعظم من شجر العضاه ، والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان.

(٥) الأطم : البيت .

(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فتات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها .

(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

على قَطَنٍ بالشَّيْم أيمنُ صَوْبِهِ ... وأيْسَرُهُ على السِّتار فيَذْبُلِ[١]

ألْقى بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَهُ ... فأنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ[٢]

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ، وشبّه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحًّا ، حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار العضاه العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفًّا فى كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثقله فنشّر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل تلتقى فى كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهى ذات الرقم ٢٧ فى ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهى تمضى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلَاءُ فيهــا وَطَفٌ ... طَبَقُ الأرض تَحَرَّى وتَدُرّ[٣]

(١) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد ، التيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار و يذبل : جبلان .

(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تعمد إلى الأمكنة وتتبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درّها .

تخرجُ الوَدَّ إذا ما أشْجَذَتْ وتُواريه إذا مـا تَشْتكِرْ(١)

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهرا ثانيـا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِـرْ(٢)

وترى الشَّجْرَاءَ فى رَيِّقِهِ كرءوس قُطِّعتْ فيها الخُمُرْ(٣)

ســاعةً ثم انتحاها وابِلٌ ساقِطُ الأكناف واهٍ مُنْهَمِرْ(٤)

راحَ تَمْريه الصَّبا ثم انْتَحَى فيه شُؤْبوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ(٥)

ثَجَّ حتى ضــاق عن آذِيِّهِ عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسُرْ(٦)

قــد غدا يحملنى فى أنْفِهِ لاحقُ الإطْلَــيْنِ محبوكٌ مُمَرّ(٧)

وهو يصور فى هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُتْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت فى ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد ألقت السحب بوَبْلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْم

(١) الود : الوتد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .

(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً فى عدوه . ويرثن الضب :كالإصبع للإنسان . وماينعفر : لايصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاها: قصدها . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحى الأرض . واه: متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه : تحركه وتديره . الشؤبوب : دفعة المطر ، والجنوب: ريح . منفجر : سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر ،وأصله من الحبل الممر ، وهو المحكم الفتل .

وجُفاف ويُسر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) عند التشبيب والقصص المادى ، ووصف الوحش والفرس ،وهو فى أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو .

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذى يعد لاقتناص اللذات فى اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملِّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة فى الأخذ بثأر أبيه ورَجْع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال فى مطولته ( ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ) :

كأنِّىَ لم أركبْ جَوادا للذَّةٍ ولم أتبطَّن كاعبا ذاتَ خَلْخال

ولم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل لخيلىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفالِ[1]

ولعله نظم هذه القصيدة فى إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه فى هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجْر يُقْتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ،ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى فى سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقى فى أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصْلَتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعيًّا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء ،تصور حزنه على آبائه

---

(١) أسبأ : أشترى . الزق : دن الخمر . الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام فى سرعة.

وما تجمَّع عليه من البلاء، وهى ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعين لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشراب[١]
عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ وأَجْرَأ من مُجَلَّحَة الذئاب[٢]
وكلُّ مكارم الأَخلاق صارتْ إليه هِمَّتى وبه اكتسابى
فبعضَ اللوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجاربُ وانتسابى
إلى عِرق الثَّرَى وَشَجَتْ عروقى وهذا الموتُ يسلبنى شبابى[٣]
ونفسى سوف يَسْلبها وجِرْمى فيُلْحقنى وشيكا بالتُّرابِ
ألم أُنْضِ المَطِىَّ بكل خَرْقٍ أمقِّ الطول لمَّاع السَّراب[٤]
وأركب فى اللُّهام المَجْر حتى أنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب[٥]
وقد طوَّفْتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمة بالإِيابِ
أبعدَ الحارثِ الملك بن عمرو وبعد الخير حُجْرٍ ذى القِباب[٦]
أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيناً ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضاب[٧]
وأعلمُ أننى عمَّا قليــلٍ سأُنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب[٨]
كما لاقى أَبِى حُجْرٌ وجَدِّى ولا أَنْسى قتيلا بالكُلاب[٩]

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : نتلهى ونخدع .

(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .

(٤) أنض : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القحم : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٦) القباب : الخيام الكبيرة .

(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .

(٨) شبا كل شىء : حده . أنشب : أعلق .

(٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو فى انتظارهم ، وهم جادون فى المسير إليه . ويَصْغر الناس وتصغر أطماعهم فى عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذى كان يركب الخيل ويُنْضيها فى الفلاة الواسعة ، والذى كثيراً ما انتظم فى جيوش أبيه الكثيفة ، يغنم المغانم الكبيرة . وها هو اليوم يطوف فى الآفاق وراء مجده المضيَّع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكُلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه فى تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعى مع رواية هشام بن الكلبى ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهى شظايا صغيرة لا توضح منهجاً فى مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذى نَهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديثَ فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سُبق بأشعار فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى ، مظهراً فى ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب فى أحاديثهم عنه أو النقاد فى نقدهم للشعر الجاهلى ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبَّه النساء بالظباء والبيض وشبَّه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيَّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصَل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[١].

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصْف النساء والخيل، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لايشوبها عسر ولا صعوبة، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشىء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة فى يده ، وقليل جدًّا ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارِ ترى بَرْقًا كأن وميضَه　　　كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مُكلَّل
يضىء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ　　　أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حبى مكلل وسحاب متراكم وأنه يضيء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقًّا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تتراكم فى المعلقة وفى قصيدته ( ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى ) تراكماً يجعله حقًّا صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلا فى طبقاته[٢] ، استمده فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجعْ إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيْضَة فى بياضها ورقتها ، كما يشبهها بالدُّرَّة والبقرة الوحشية، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعِذْق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليِّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردىّ فى بياضه ،

---

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/٥٧ .

(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسْحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة فى المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخُذْروف الوليد ومَداك العروس وصَراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عْل ، كما يشبهه بالظبي فى خاصرتيه والنعامة فى ساقيه والذئب فى عَدْوه والثعلب فى تقريبه وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كأَنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ  عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ (١)

فدم الوحش الذى صاده امرؤ القيس يلطّخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حناء صُبغ بها شيب ، إذ لا يكاد يفترق عن الخضاب فى شيء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشّى به كل شيء يعرض له فى المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل ، وقد أبدع فى وصفه لقطعه وأجزائه ، فهى ماتنى تتدافع وتتلاحق غير منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فعنَّ لنا سِرْبٌ كأَن نِعَاجَه  عَذارَى دُوَارٍ فى المُلاءِ المذيَّلِ (٢)

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التى ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التى لقيتنا فى معلقته ، فهى كالظبية وبيضة النعامة ، بل هى كالتمثال الجميل يقول :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ  بآنسةٍ كأنها خطُّ تمثالِ

ويشبه وجهها فى إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحِقْف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن فى اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشماريخ النخل فى تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

(١) الهاديات : المتقدمات من بقر الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به فى الجاهلية . المذيل : الطويل السابغ .

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أيقتُلنى والمشرفىُّ مُضاجعى ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنْياب أغْوالِ

وهى صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخييل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا فى ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذَعر به قطيعَ بقر ، يجرى البياض والسواد فى سيقانه ، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعُقاب تنقضّ انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلوبه ، فمنها الطرى الغضّ ، ومنها الجاف المتقبض ، ويُعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كأَنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابِساً لدى وَكْرها العُنّابُ والحشَفُ البالى

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالى أو التمر الردىء الجاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويُرْوَى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جَمْعه فى هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كأَن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا وأَسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه (١)

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة (٢) .

ولعلنا لا نُبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه ، حتى عُدّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع (٣) . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتى بها فى قلة ، من ذلك قوله فى المعلقة يخاطب الليل :

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِهِ وأَردَف أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٩٦ .

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تفوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :

وقد أغْتدى والطيرُ فى وُكُناتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكلِ

وإذا صحت رواية[١] أمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناهُ أَو مصابيحُ راهبٍ أمال السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى أمال رعى ، وكأنه استعار صورة رعى الأنْعام للنبات لما يُفنيه الذبال من الزيت شيئاً فشيئاً . وإذا تركنا معلقته إلى مطولته( ألاانعم صباحاً ) وجدناه يستعير للحُلىّ على نَحْر صاحبته وتوهجه صورةَ الجَمْر ، يقول :

كأَنَّ على لبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصاب غَضاً جَزْلا وكُفَّ بـأَجْذالِ[٢]

ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها ، مثلها مثل لونى البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة يصف غدائر صاحبته :

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المَدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ[٣]

وقوله يصف فرسه :

مكرٍّ مفرٍّ مقبـــلٍ مدبرٍ معاً كجُلمود صَخْر حَطَّه السَّيل من علِ

ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ

وقوله :

أَلا أَيها الليلُ الطويلُ أَلا انْجَلِى بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بـأَمْثَلِ

(١) ابن المعتز ص ٧ .

(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل : الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول الشجر . يقول إنه جمر لايزال متقداً ، لأن بجواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .

(٣) مستشزرات : مفتولات ، المدارى : الأمشاط .

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية فى حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع فى المعلقة فقد صرّع فيها مراراً ، كما فى بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفى الحق أن الموسيقى تطّرد فى المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزحافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها     لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية فى حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا فى المعلقة قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معــًا     كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلُ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علُ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح فى البيت إقواء ، وهو يكثر فى الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان فى قوله :

كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقه     كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مــزَمَّلُ

بضم اللام فى كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح فى هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروىّ ، فأصبحت مرفوعة بينما هى فى بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده فى صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحُلًى معنوية ولفظية مختلفة .

الفصل الثامن

# النابغة الذبياني

## ١

### قبيلته

النابغة من قبيلة ذُبْيَان الغَطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلان ، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبْس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فَزارة وبنو مرَّة وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رياسة فزارة فى الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمَل . ومن بنى مرة بنو غيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمة وبنو خُصَيْلة وبنو نُشْبة وبنو يربوع عشيرة النابغة ، وسيدا بنى مرة غير مدافَعين هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبى سُلْمى .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغَبْراء التى نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ومرَّ بنا أن السبب فى نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمَل بن بدر سيد بنى فزارة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً فى نهاية الشوط نفَّره عن غايته ، فسبقته الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمَل ابنه يطلب منه الرهان المضروب — وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتَل عنترة ضمضما أبا حُصَين المرى والحارث بن بدر ، وممن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر ، ويوم ذى حسى وكان لذبيان على عبس ، ويوم جَفْر الهباءة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحَمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حارًّا ، يقول فى بعضه(١) :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ … وسيفى من حُذَيْفَةَ قد شفانى
شفيتُ بقتلهم لغليل صَـدْرى … ولكنى قطعتُ بهم بَنانى

وثأرتْ ذبيان لنفسها فى معركة الجراجر أو ذات الجراجر . ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان فى يوم شِعْب جبلة ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل فقُتل لَقيط بن زُرارة التميمى وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس وعامر فى يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التى أتت على الأبطال والرجال ، فأرسلتْ وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقى الوفد سيدى بنى مرة : الحارث بن عَوْف وهَرِم بن سنان ، فحملا قومهما على الصلح ، وتحمّلا ديات القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ، ويُظَنّ أنه لم يُكْتَبْ للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفّى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها فى وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلىء أيدى الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً فى رفاق ووئام ، فهى تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخليًّا ، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشَامة بن الغدير والحصين بن الُحمام المرى وزَبّان بن سيَّار الفزارى والنابغة ، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ، فمن ذلك قول الُحصَين بن الُحمام عقب معركة بين عشيرته بنى سهم وبين بنى صِرْمة ، وفيها انتصر الأولون(٢) :

(١) عيون الأخبار ٣/٨٨ والمرزوقى على الحماسة ١/٢٠٣ وسمط اللآلى للبكرى ٣٠٥ .

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥ والهام : الرءوس .

صَبرنا وكان الصبرُ فينا سجيَّةً ... بأسيافنا يقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصَما

يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ونجد يزيد بن سنان أخي هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ، ويثير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصيلة ونُشْبة ، عاقداً بينهما حلفاً سمى حلف المحاش ، وما يزال بيربوع حتى يجليها عن ديارها إلى ديار بنى عُذْرة ، وفى ذلك يقول النابغة :

جَمِّعْ مَحَاشَكَ يا يزيد فإننى ... أعددتُ يَرْبُوعاً لكم وتميما

حَدِبَتْ علىَّ بطونُ ضِنَّةَ كلها ... إنْ ظالما فيهم وإن مظلوماً[١]

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائمًا ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد تترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُذْرة وغير عذرة .

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العُزَّى وتتخذ لها كعبة تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت فى الإسلام الحنيف .

## ٢

### حياته

هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن جَناب[٢] بن يَرْبوع ، وأمه عاتكة بنت أنيس من بنى أشجع الذبيانيين ، فهو ذبيانى أباً وأمًّا ، وكان يكنى بأبى أمامة وأبى ثمامة[٣] ، وهما ابنتاه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله فى بعض شعره : ( فقد نبغتْ لنا منهم شئون ) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرتْ سنه ومات قبل أن يُهْتَر ويذهب عقله[٤] .

---

(١) ضنة : عشيرة من عذرة .

(٢) هكذا فى ترجمته بالأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١١/٣ وفى شرح التبريزى للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلا من جناب بن يربوع.

(٣) انظر الأغانى ١١/٣ وترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٠٨ وما بعدها .

(٤) الأغانى ١١/٤ وراجع الشعر والشعراء ١/١٠٨ وشرح المعلقات العشر للتبريزى .

ونظن ظنًّا أنه سمى بذلك لنبوغه فى شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى والنابغة التغلبى ، ويميَّز هو منهم باسم النابغة الذبيانى .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون فى مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن فى شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثانى من حياته ، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة[1] ولزومه له يمدحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان فى هذا الولاء ، فطبيعى أن يقصد شاعرها النابغةُ النعمانَ بن المنذر وأن يُضْفى عليه مدائحه . وسُرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه ونادمه ، وأجزل له فى العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفَذَّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَر التميمى والمثقِّب العبدى ولبيد العامرى ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك فى معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائةَ المِعْكاءَ زيَّنها ... سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدِ[2]

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلا مرافقُها ... مشدودةً برحال الحيرة الجُدُدِ[3]

والرَّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانقَها ... بَرْدُ الهواجرِ كالغِزْلانِ بالجرَدِ[4]

والخَيْلَ تَمْزَعُ غَرْباً فى أَعِنَّتِها ... كالطَّيْر تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَدِ[5]

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهى ليست على كل حال فى رواية الأصمعى للديوان ، وروى الشنتمرى عن أبى عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى .

(٢) المعكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضح : موضع . السعدان : مراع . لبد الشعر : ما تلبد منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذللت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزع غرباً : تسح سحا شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توًّا إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادى أُقر الخصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلا فظيعاً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نسائهما . فألم النابغة ألماً شديداً صوّره فى قوله :

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ　　وعن تربُّعِهم فى كل أصْفار[1]

وقلتُ يا قوم إن الليْثَ منقبضٌ　　على برائنه لوثْبـــة الضارِى[2]

لا أَعرفَنْ رَبْرَباً حُوراً مدامعُها　　كأَنَّ أبكارها نِعاجُ دُوَّارِ[3]

ينظرْنَ شَزْراً إلى من جاءَ عن عُرُضٍ　　بأَوجهٍ منكرات الرِّقِّ أَحرارِ[4]

يَنْذرين دَمعاً على الأَشفار منحدراً　　يأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّارِ[5]

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالا ، لعل بطلى قومهما حِصْن بن عيينة وزَبَّان بن سيار يقدمان بالجيوش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفى بعض الروايات أنه كان بينهن إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببنى أسد ، فقال فى قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ　　وموثَقٍ فى حِبال القِدِّ مسلوبِ[6]

أَو حُرَّة كمهاة الرَّمْل قد كُبِلتْ　　فوق المعاصم منها والعراقيب[7]

---

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البرائن : الأظفار . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطفن به فى الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض: جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هدب العين.

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

تدعو قُعَيْناً وقد عَضَّ الحديدُ بها عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيب[١]

ولم يجد النابغة بدًّا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتى يكفّوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فعفوا عمن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يبالغان فى إكرامه ويبالغ فى مديحهما ، محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً فى بنى ضنة العذريين وعشائرها من بنى حُنّ ، فتوسع لهم فى ديارها ومراعيها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوّفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بنى حُنّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفى ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيتُه يريد بنى حُنٍّ ببُرْقةِ صادرِ[٢]

تجنَّبْ بنى حُنٍّ فإن لقاءهم كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرِ[٣]

عظامُ اللُّهى أولادُ عُذْرةَ إنهم لَهاميمُ يَسْتَلْهونها بالحناجرِ[٤]

وهم منعُوا وادى القُرَى من عدوهم بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثرِ[٥]

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفِّى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذه داعية له فى قومه ، وكان يرى فى نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجُّ فى مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

---

(١) قعين : عشيرة من أسد . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كعوب الرماح .

(٢) برقة صادر : موضع .

(٣) صابر : شجاع فى الحرب .

(٤) اللهى هنا : المال . لهاميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلهونها : يبتلعونها ، يصفهم بعظم الحلوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .

(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيما ، وقد أخذ يدفع عن نفسه فى اعتذاراته المشهورة التى قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغَمْر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به فى غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة .

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات[١] التى رواها القدماء فى سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاه به هجاء مقذعاً ، وفى بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفى رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضاءها ، فغار منه المنخل اليشكرى وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرّب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسنرى فيما بعد أن قصيدته فى المتجردة موضوعة .

وفى الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التى تنبئ بأنه جَنَى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهمّ النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات[٢] .

ونعتقد أن سفارته لقومه فى بلاطى المناذرة والغساسنة هى التى أقلت الإشارات فى شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك فى وقائعها . ومع ذلك نراه فى بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أَبلغْ بنى ذُبْيانَ أَنْ لا أخاً لهم ... بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأَظْلَما[٣]

---

(١) الأغانى ١١/١٢ وما بعدها وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء .

(٢) أغانى ١١/٢٩ .

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع . يشير بهما إلى منازل بنى عامر .

هم يَردون الموتَ عند لقائه    إذا كان وِرْد الموت لابُدَّ أكْرَما

وكأنه يحرّض قومه أن يعودوا إلى السِّلْم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغَنَاء فى الحروب. وليس فى شعره أى إشارة لوعيد أو تهديد لعبس، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه و بينها، فهو لا يتوعدها غارة ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته. ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض لعامر حليفتها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرْعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تُسْبَى فيها الأطفال والنساء. وحاول زرعة وبعض بنى عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحْقَن الدماء، وعلم النابغة بذلك وأن عُيَيْنة بن حِصْن وبعض الذبيانيين يفكرون فى الأمر، فتولى غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد من العهود والعقود، وفى ذلك يقول قصيدته:

قالتْ بنو عامرٍ خالوا بنى أَسدٍ    يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّارًا لأقوامِ (١)

يَأْبى البلاءُ فلا نبْغى بهم بدلا    ولا نريد خِلاءً بعد إحكام (٢)

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى، يقول فى تضاعيفها:

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجورًا    فإنى لستُ منك ولستَ منى

وهو موقف يدل على نبله وحرصه على الوفاء، ويدخل فى ذلك مدحه لبنى أسد وإشادته بشجاعتهم وبلائهم فى الحروب.

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات قومه، فهو لا يتفتّى تفتى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما، بل يتراءى سيداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة، فهو لا يتدنى فى سفاهة ولا يتبذل فى مجون. وفى أشعاره بعض إشارات مسيحية، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأحبار والرهبان، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

---

(١) خالوا: من المخالاة وهى نقض العهد. الخلاء: نقض العهد كالمخالاة.

(٢) البلاء: يقصد بلاءهم معهم فى الحرب.

آبائه يتعبَّد العُزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة، وفى معلقته :

فلا لعمرُ الذى مسَّحْتُ كَعْبتَه  وما هُرِيقَ على الأَنْصاب من جَسدِ

فهو يقدس الدماء التى كانت تُصَبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهى مبثوثة فى شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرَّم الخمر والأزلام فى الجاهلية[1] . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال شهرة واسعة فى عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً فى داخل الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه فى المواسم والأسواق أشعارهم . قال صاحب الأغانى : «كان يُضْرَبُ للنابغة قُبَّة من أدَم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير ، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

وإن صَخْرًا لتأْتمُّ الهداةُ بهِ  كأنه علَمٌ فى رأْسه نارُ[2]

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مُدْركى  وإن خِلْتُ أن المنتأَى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ  تَمُدُّ بها أَيدٍ إليك نوازِعُ[3]

فخَنَس حسان لقوله[4] » . وفى رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلْمَعْن بالضُّحى  وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجــدةٍ دما

---

(١) المحبر لابن حبيب ( طبع حيدر آباد ) ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن : جمع حجناء وهى المعوجة. نوازع : جواذب . ويقصد قصائده التى يستعطفه بها .

(٤) أغانى ١١/٦ .

ولدنا بنى العَنْقاء وابنَىْ محرقٍ فأَكرِمْ بنا خالاً وأَكرمْ بنا ابْنَمَا[١]

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[٢] . وأكبر الظن أن هذه الزيادة فى تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال فى جمع التكسير يدلان على القلة . وفى الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبَّر بكلمة ولدنا ، فهى مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم فى الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعش طويلا ، فليس فى أشعاره أى شىء يتصلّ بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتّها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثَمّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤[٣] .

## ٣

### ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له فى المجلة الآسيوية ( ١٨٦٨ — ١٨٦٩ ) وقد استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج فى نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمرى وجدهما فى

( ١ ) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة الغسانى ، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

( ٢ ) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩/٣٤٠ والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

( ٣ ) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها فى فينا وهى بشرح البطليوسى . وقد نَشر فى سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان فى المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة فى مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلورد فى مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمرى ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوباً فى كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان فى القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان » وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر فى بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهى دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائى وعلقمة الفحل .وقد نشره لويس شيخو فى مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلوارد. ونشره مصطفى السقا فى مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هى نفسها مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التى بثها الشنتمرى فيه . وفى دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفى مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك فى مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعتمد فى دراستنا للشاعر على شرح الشنتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أوثق رواة الشعر الجاهلى ، وهى تنتهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمرى بعقبها : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيَّرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى » وهى سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين . وكأن الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها فى روايته ، ومن ثَمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها فى دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعى ، ونتخذه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضى فى رواية الأصمعى حتى نجدها فى حاجة إلى مناقشة ، فإن الأصمعى احتفظ فيها بقصيدته فى المتجردة : ( أمن آل ميّة رائحٌ أو مغتد ) مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمرى . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن لا نقرؤها حتى نجدها تتضمن غزلا مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً فى شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ، ولكنه يأتى شذوذاً فى هذه القصيدة ، ليدلل — كما مر فى غير هذا الموضع — على خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب فى غضب النعمان بن المنذر على النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزلَ الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين فى فهم العصر الجاهلى وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا فى درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزموهم هزيمةً منكرة . و بذلك فَقد النعمان داعيته فى ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفى خصما ذبيان من الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليبه القبائل على قبيلته . فالموقف كله كان موقفاً سياسيًّا ، ولم يكن موقفاً شخصيًّا ، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه ، ومن ثَمَّ كنا نشك فى قصيدته الرائية التى يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعْشُهُ على فتيةٍ قد جاوز الحىَّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلْدَه يردُّ لنا مَلْكًا وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلا ، ونفس أسلوبها وما فى نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثَمَّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التى

تتصل بمرض النعمان والتى يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلا فى مطلعها :

ألم أقسم عليك لتخبرنِّى أمحمولٌ على النَّعْش الهمامُ

وأيضاً فإننا نشك فى قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلَّلِ ما أتانى

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى حين أصاب إبلا للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بنى عامر ، وهى قيسية مضرية ، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمنيًّا إذ يقول فى نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمانى) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمنى ، وكأنما القافية أعوزت فى البيت منتحله ، بل منتحل القصيدة فدعاه يمانيًّا ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التى جاءت فى رواية الأصمعى ويملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانتْ سعاد وأمسى حَبْلُها انْجذَمَا واحتلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجزاعَ من إضَما

لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح فى قوله مخاطباً صاحبته :

حَيَّاك ربى فإنا لا يحلُّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزما[1]

مُشَمِّرين على خُوصٍ مزنَّمةٍ نرجو الإله ونرجو البِرَّ والطُّعمَا[2]

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد فى رواية الأصمعى ونبقى على سبع عشرة ، ومع إبقائنا عليها لا نُخْلِيها من بعض أبيات أدْخلت فى روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية التى يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو :

لعمرى وما عمرى علىَّ بهيِّنٍ لقد نطقتْ بُطْلاً علىَّ الأَقارعُ[3]

أَقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوهَ قرودٍ تبتغى من تُجادع[4]

أتاك امرؤٌ مستبطن لىَ بِغْضَةً له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

---

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب فى التعبير .

(٢) مشمرين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العيون . مزنمة : مشدودة بأزمتها ورحالها . الطعم هنا : الرزق .

(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .

(٤) تجادع : تشاتم . ولفظ وجوه منصوب على الذم .

أتاك بقولٍ هَلْهلِ النَّسْجِ كاذبٍ ولم يأْتِ بالحق الذى هو ناصعُ
أتاك بقولٍ لم أكن لأَقُوله ولو كُبِلتْ فى ساعدىَّ الجَوامع(١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب فى هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفاف نظما هجاء فى النعمان على لسانه ، فلما علم به فَرَّ على وجهه . ونحن ننفى هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التى جاءت فى معلقته والتى يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبهه ولا أحاشى من الأَقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم فى البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَد(٢)
وخَيِّس الجنَّ إنى قد أذنتُ لهم يَبْنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد(٣)
فمن أطاعك فانفعْه بطاعتِه كما أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَدِ
ومن عصاك فعاقِبْه معاقبةً تَنْهَى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ(٤)
إلا لمثلك أو من أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمد(٥)

وواضح أنه يسترسل فى الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنيًّا على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أُقحمت على المعلقة إقحاماً(٦) . وقد نسبت إلى النابغة أبيات فى غير رواية الأصمعى يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلقاً ثيابى على خَوْفٍ تُظَنُّ بىَ الظنونُ
فألفيتُ الأَمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

(١) كبلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احددها : امنعها . الفند : الخطأ فى القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء فى بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد : أساطين الرخام .
(٤) الضمد : الغيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التى تجرى إليها الخيل . والبيت معلق بما قبله أى لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك فى الناس أو قريب منك .
(٦) فى الأدب الجاهلى ص ٣٣٧ وما بعدها .

ونفى الجاحظ[١] وابن سلام[٢] أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسَّا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها فى المعلقة الأبيات التالية التى تصوِّر فطنة اليمامة وعدَّها الدقيق لحمام طائر فى مضيق من الهواء يجعله يشتد فى طيرانه ويسرع إسراعاً :

احْكُمْ كحكم فتاة الحىِّ إذنظرتْ • إلى حَمام شِرَاعٍ وارد الثَّمَدِ[٣]
يحفُّه جانبا نيقٍ وتُتْبعه مثلَ الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمدِ[٤]
قالتْ ألا ليتما هذا الحمامُ لنا إلى حمامتنا ونِصْفُه فقَدِ[٥]
فحسَّبوه فألفوه كما حسبتْ تسعاً وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ
فكمَّلتْ مائةً فيها حمامتُها وأسرعتْ حِسْبَةً فى ذلك العدد

وهى أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة ، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التى جاءت فى رواية الأصمعى باستثناء ما اتهمناه .

## ٤

### شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة فى رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء فى الجاهلية[٦] ، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقاً هم المجلّون السابقون فى اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم فى فنونه المختلفة .

---

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ — ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء اليمامة . شراع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل . وجعل الحمام يمر فى جانبى نيق لأنه إذا مر فى مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء . وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجة فى صفائها . لم تكحل من الرمد : لم يصبها رمد فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب فى ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التى اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش فى بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرقّ ذوقه وسهل منطقه ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلا عند إجادته لفنى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان فى غنى عن هذا القبول . « قيل لأبى عمرو بن العلاء : أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره ( إبله ) وكان النابغة يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك[١] » .

ويبعد فى رأينا أن يكون قد وفد على أبى النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعى يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غضّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها فى بلاطهما . وحقًّا إنه يبالغ فى مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهى إلى ذلة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغسانى ، وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان فى الصحراء وصيده . وأيضاً فى شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

---

( ١ ) أغانى ٢٩/١١ وما بعدها .

وأحلافها من بنى أسد وأعدائها من بنى عامر ، وبعبارة أخرى فى شعره فخر وهجاء ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقًّا بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع فى معانيه وكيف يستتم صوره . وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلِينِى لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ (١)

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ (٢)

وصَدْرٍ أراح الليلُ عازبَ هَمِّهِ ... تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ (٣)

فهو محزون فى أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع فى قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمّه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يردّ عليه من موجات الهم والحزن . وهى براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيما بالصور . وقد خرج من ذلك توًّا إلى مدح عمرو بن الحارث الغسانى وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلا عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال فى هذا التصوير قائلا :

إذا ماغَزَوا بالجيش حَلَّق فوقهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ (٤)

يُصاحِبْنَهم حتى يُغِرْنَ مُغارَهم ... من الضَّاريات بالدماء الدوارب (٥)

(١) كلينى : دعينى . ناصب : متعب . بطىء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم الصباح .

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعودات . الدوارب : المدربة .

تراهن خَلْفَ القوم خُزْرًا عيونُها | جلوسَ الشيوخ فى ثياب المَرانبِ (١)
جوانحَ قد أيقنَّ أنَّ قبيله | إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ (٢)
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنها | إذا عُرِّض الخَطِّىُّ فوق الكواثبِ (٣)
على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ | بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ (٤)
إذا استُنْزلوا عنهن للطَّعن أرْقَلُوا | إلى الموت إرقالَ الجمال المَصاعبِ (٥)
فهم يتساقون المنية بينهم | بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضاربِ (٦)
يَطير فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ | ويتبعها منهم فَراشُ الحواجبِ (٧)
ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم | بهن فلولٌ من قِراع الكتائبِ (٨)
تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومِ حليمةٍ | إلى اليوم قد جُرِّبن كلَّ التجاربِ (٩)
تَقُدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ | وتوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحبِ (١٠)
بضربٍ يُزيل الهام عن سَكناته | وطَعْنٍ كإيزاغ المخاض الضواربِ (١١)

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ، تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفْوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا | رأْىَ عينٍ ثِقَةً أن ستُمارْ (١٢)

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .
(٢) جوانح : مائلات للوقوع .
(٣) الخطى : الرماح . الكواثب : القربوس .
(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح . دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .
(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .
(٦) بيض : سيوف .
(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجب : عظامها .
(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .
(٩) يوم حليمة : معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغسانى على المنذر بن ماء السماء .
(١٠) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. تقد: تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحباحب : ذباب له شعاع بالليل .
(١١) الهام : جمع هامة وهى الرأس . سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .
(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار : تعطى الميرة من لحوم القتلى .

غير أن النابغة فصَّل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهي تشبه في ألوانها ثياب المرانب السوداء التي يلبسها الشيوخ ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهي لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتْها فيهم لا يخلفونها ولا يمطلونها . وقد أعجب القدماء طويلا بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته[1].
ويمضي النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة في الوصف ، وهي دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كئوس المنية ، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يثخنون في أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس في حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حليمة الذي هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفللة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل يصورهم في سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم ... من الجود ،والأَحلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ[2]

محلَّتُهم ذاتُ الإله ، ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب[3]

---

(١) انظر الصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجانى (طبعة الحلبى) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عوازب : جمع عازب وهو الغائب .

(٣) محلتهم : منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

رقاقُ النِّعـال طيبٌ حُجُزاتُهمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ[١]
تحيِّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهم وأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فوق المَشاجب[٢]
يصونون أجسادًا قديماً نَعيمُها بخالصة الأَرْدَانِ خُضْرِ المناكب[٣]
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازب[٤]
حَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً بقومى وإذ أَعْيَتْ علىَّ مذاهبى[٥]

وهو فى أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ فى وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحوَّل يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيَّون بالأزهار فى عيد السَّباسب أو يوم الشَّعانين ،وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرًّا وبلاء فإن فى الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ بسبب من أُسِرَ منهم عند ممدوحيه ،وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع .

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها فى معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ فى أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو فى ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير فى مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعانى ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه فى الحيرة وفى بلاط الغساسنة ،

---

(١) الحجزات : معاقد الثياب . طيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم .

(٢) الولائد : الجوارى والإماء . الإضريج : الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان : الأكمام . وخلوصها : نصوع بياضها .

(٤) لازب : لازم .

(٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبه عليه : ضاقت وسدت .

فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتى بمثل هذه المعانى التى تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق فى المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق فى الاعتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة فى اللهجة وإلحاحاً فى التلطف محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه. وقد استعان بموهبته فى اختراع الصور والمعانى والتدقيق فيها ، مدبجاً فى ذلك قصائد طوالا تُعَدّ من أروع ما خلّفه العصر الجاهلى لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى الذى خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة ، فإذا ذنبه يكبر فى نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فإنى يقدّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍّ لا لصغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضارى الذى اكتسبه النابغة والذى جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون فى التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجعْ إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دار مية ، ثم وصف ناقته التى قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتنًّا فى تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجوارى المنعّمات ، ثم مضى يستعطفه قائلا :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ ... وما هُريقَ على الأَنصابِ من جَسَدِ(١)

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحها ... رُكْبانُ مكّةَ بين الغَيْلِ والسَّعَدِ(٢)

---

(١) مسحت : لمست ألتمس البركة . هريق : سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة التى كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة .

(٢) المؤمن : الذى آمنها من الخوف . العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى.

ما قلتُ من سَيِّئٍ مما أُتيتَ بهِ إذنْ فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ يَدى
إلا مقــالةَ أقوامٍ شقيتُ بها كانت مقالتهمْ قَرْعاً على الكَبِدِ[1]
إذنْ فعاقبنى ربى معــاقبةً قَرَّتْ بها عَيْنُ من يـأتيك بالفَنَدِ[2]
أُنبئتُ أن أبا قابوسَ أوعــدنى ولا قَرَارَ على زَأْرٍ من الأسدِ[3]
مهلا فــداءٌ لك الأقوامُ كلُّهمُ وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ[4]
لا تَقْذِفَنِّى برُكْنٍ لا كِفاءَ له وَإنْ تَأثَّفكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ[5]

وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتَّهم به من غدر ، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلّ يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ، فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله وولده ، ويقول له لا ترمنى بما لا أطيق منك ، وأنت الذى لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه فيقول :

فما الفُرات إذا هبَّ الرياحُ لَهُ تَرْمى أَواذيُّه العِبْرين بالزَّبَدِ[6]
يمـدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ[7]
يَظَلُّ من خَوْفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً بالخَيْزُرانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ[8]
يوماً بأَجْوَدَ منه سَيْبَ نافلة ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غَدِ[9]

(١) القرع : الضرب .
(٢) الفند : الكذب .
(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
(٤) أثمر : أنمى وأجمع .
(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأثف : تجمع . الرفد : الجماعات من الناس .
(٦) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .
(٧) مترع : مملوء . لجب : ذو صوت شديد . الينبوت : شجر . الخضد : المحطم من الأشجار .
(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : التعب . النجد : الكرب .
(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة . يريد أن عطاءه وفر .

هذا الثناءُ فإن تسمعْ به حَسَناً ... فلم أُعَرِّضْ-أبيتَ اللَّعْنَ-بالصَّفَدِ[1]

ها إنَّ ذِى عِذْرَةٌ إلا تكنْ نَفَعَتْ ... فإن صاحبها مشارِكُ النَّكَدِ[2]

وقد بدأ فشبهه بالفرات فى كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات فى ارتفاع فيضانه ، وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية فى دقة التصوير ، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملا ما يقتلعه من الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصما فى مركبه بسُكّانها يخشى الغرق . وقد نفى أن يكون الفرات فى فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سَيْباً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لايبغى به نواله ، وإنما يبغى رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به فى مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وَعِيدُ أَبِى قابوسَ فى غير كُنْهِه ... أتانى ودونى راكسٌ فالضواجعُ[3]

فبِتُّ كأنى ساورتْنى ضَئيـلَةٌ ... من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقع[4]

يسهَّد من ليل التِّمامِ سَلِيمُها ... لحَلْىِ النساءِ فى يديه قَعاقعُ[5]

تناذرها الرّاقون من سوءِ سَمِّها ... تُطلِّقه طورًا ، وطورًا تُراجعُ[6]

أتانى - أبيتَ اللعْن - أنك لُمْتَنى ... وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامع[7]

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد : حليف نكد وهم .

(٣) فى غير كنهه : كنهه : حقيقته ، يريد على غير ذنب منه . راكس : واد فى منازل بنى أسد . الضواجع : منحنى الوادى .

(٤) ساورتنى : لدغتنى . ضئيلة : أفعى دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهى المنقطة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء. السليم : الملدوغ . قعاقع : أصوات . كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراقى . بل مرة تجيب ومرة لا تجيب . تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تضيق .

مقالةَ أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تلقـاء مثلك رائعُ
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائع(١)
بمصطَحبات من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ ... يَزُرْنَ إلالاً ، سَيْرُهُنَّ التَّدَافُع(٢)
سَمَاماً تُباري الرِّيح خُوصاً عيونُها ... لهن رَذايا بالطريق ودائعُ(٣)
عليهنَّ شُعْثٌ عامدون لِحَجِّهم ... فهنَّ كأطراف الحَنِيِّ خَوَاضع(٤)
لكلَّفتني ذنب امرئٍ وتركْتَـهُ ... كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيره وهْو راتع(٥)
فإن كنتَ لاذو الضِّغْنِ عنى مكذِّبٌ ... ولا حَلِفِى على البراءة نافع
ولا أنا مأمونٌ بشىءٍ أقولُه ... وأنت بأمرٍ لا محـالة واقع
فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خِلتُ أن المُنْتَأى عنك واسع(٦)
خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بهـا أيْدٍ إليك نوازع(٧)
أتوعِد عَبدًا لم يَخُنكَ أمانةً ... وتترك عَبدًا ظالماً وهو ضالع(٨)
وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيْبُهُ ... وسَيْفٌ أُعيرتْه المنيـةُ قاطع(٩)
أبى الله إلا عَدْله ووفـاءه ... فلا النكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ(١٠)

---

(١) أمة هنا : دين .

(٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التى تصطحب فى المسير إلى الحج . لصاف وثبرة : موضعان فى ديار تميم . إلال : جبل بعرفة . التدافع : العجلة .

(٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به الإبل فى سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهى الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات فى الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .

(٤) شعث : جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع : المتطامنة رءوسها من الأرض .

(٥) العر : الجرب . وكانوا يداوون الإبل منه بكيها .

(٦) المنتأى : المكان النائى البعيد .

(٧) مر شرحه .

(٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى طالع وهو الجائر المذنب .

(٩) الربيع هنا : الغيث . السيب : العطاء .

(١٠) النكر : المنكر . العرف : المعروف .

وتُسْقَى إذا ما شئتَ غَيرَ مُصَرَّدِ بزوراء فى حافاتها المسك كانع[1]

وهو فى أول هذه الأبيات يقول له: إن وعيدك أتانى وأنا آمن فى قومى وبينى وبينك منازل بنى أسد ومَنْ وراءهم، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً، كأنما لدغتنى أفعى، وهى صورة بارعة، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه، فهى أفعى من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة، فمن عضَّتْه لم يطف به النوم من شدة الألم، وعلق عليه أهله الحلى والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ. وهى من الأفاعى الخبيثة التى قلما أجابت الرقى، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حِماها. ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه، ويحلف له بأيمانه الوثنية، ويختار هنا الحلف بالإبل التى كانوا ينذرونها لآلهتهم، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام، حتى لكأنها تبارى الريح، وقد أُجهدت من السير وطول السفر، حتى إن بعضها سقط فى الطريق إعياء، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً. وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسى الضَامرة. وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلا مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه، وكان حرياً به أن ينزل سخطه لا عليه، وإنما على هذا الواشى وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الجرب، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كىّ ولا أذى. وهى صورة أخرى بارعة. ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن علىّ ولا تصدق يمينى ولا حلفى فما أحرانى بالرهبة منك والخوف من بطشك، ويودع ذلك صورة رائعة، إذ يتخيل النعمان كالليل، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه. وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التى يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثُبِّتت فى حبال متينة، وأيدى النابغة تمد بها إليه، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه. ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده، بينما من يختانون هذا العهد يقرِّبهم ويرعاهم، ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه، وقد

(١) مصرد: من التصريد وهو الشرب دون الرى: زوراء: كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها. كانع: لاصق.

براه الله لرعيته عادلا وفيًّا ، لايلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب فى كأس مفضضة مُزِج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى – أبيتَ اللَّعْنَ – أنك لُمْتَنى ... وتلك التى أهتمُّ منها وأَنْصَبُ(١)
فبِتُّ كأن العائداتِ فَرَشْنَنِى ... هَرَاساً به يُعْلَى فِراشى ويُقْشَب(٢)
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبـــةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانةً ... لمبلغك الواشى أَغَشُّ وأَكْذَبُ
ولكننى كنت امرأً لىَ جانِبٌ ... من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ(٣)
ملوكٌ وإخوانٌ إذا مـــا أتيتُهم ... أحكَّم فى أمـــوالهم وأقرَّبُ
كفعلك فى قومٍ أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ
فلا تتركنِّى بالوعيـــد كأنَّنى ... إلى الناس مَطْلِىٌّ به القارُ أجْرَبُ(٤)
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ(٥)
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّــه ... على شَعَثٍ ،أىُّ الرجال المهذَّب(٦)
فإن أكُ مظلوماً فعبدًا ظلمتَـــه ... وإن تك ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ(٧)

وواضح أنه يصور نفسه فى أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

---

(١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .

(٢) الهراس : شجر كثير الشوك . العائدات : الزائرات فى المرض . فرشننى : بسطن لى . يقشب : يجدد .

(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام الغساسنة له فى ديارهم .

(٤) القار : القطران ، وكانوا يداوون به الإبل الجربى .

(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .

(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه بريء مما اتهمه به الواشي ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هنالك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ماصبَّه عليه من غضب بالقار يُصَبُّ على الأجرب فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعْفُ عنى ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت علىّ عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوِّع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصَب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرماً لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هَدْيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قُدْوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعى النعمان وإن كان سَرَّ قيساً لما أثخن فيها بحروبه . وهو يعبِّر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثَمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهنئوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها فى القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضن بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثى النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال فى فؤاده ، ونحس أنه سَعّر قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الغَيْثُ قبرًا بين بُصْرَى وجاسِمٍ ... بغَيْثٍ من الوَسْمِيِّ قطرٌ ووابلُ(١)

ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ ... على منتهاه دِيمَةٌ ثم هاطِلُ(٢)

ويُنْبِتُ حَوْذاناً وعَوْفاً مُنَوِّرا ... سأُتْبِعُهُ من خير ما قال قائلُ(٣)

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنْبِت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقًّا كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور مَنْ يفقدونهم ، ولكنه مدّ أطناب الصورة بذوقه الحضرى وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهى صورة حضارية تقابل أختها التى مرت فى مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسياً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً فى مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله فى فاتحة معلقته التى أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ(٤)

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أسائلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ(٥)

(١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام . الوسمى : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلانا : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

إلا الأوارىَّ لَأْياً ما أُبيِّنها والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجلَدِ(١)
رُدَّتْ عليه أقاصيــه ولبَّدَهُ ضَرْبُ الوليدة بالمِسْحاة فى الثَّأَدِ(٢)
خَلَّتْ سبيلَ أَتِيٍّ كان يحبسهُ ورفَّعته إلى السَّجْفين فالنَّضَدِ(٣)
أَمستْ خلاءً وأَمسى أَهلُها احْتَملوا أَخْنَى عليها الذى أخنى على لُبَدِ(٤)

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعاً لندائه ولا رداًّ عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل فى وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرته جارية فى أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع فى تسمية الأرض التى لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذى لا يُحرَثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التى رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرَّت الأيام عليها أذيال البِلى والعفاء، كما جرَّتها من قبل على لُبد نَسْر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حبًّا ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك فى مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول :

فكفكفتُ منى عبرةً فَرَدَدْتُها على النَّحْر منها مُستَهِلٌّ ودامعُ(٥)

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر . الجلد : الصلبة .
(٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة . الثأد : الثرى الندى .
(٣) خلت : شقت . الأتى : السيل . رفعته : أعلته . السجفان : مصراعا الستر فى الخيمة . النضد : المتاع .
(٤) أخنى عليها : أصابها بآفات الدهر . لبد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويلا .
(٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذى يترقرق فى العين قبل أن يسقط .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه فى معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ فى تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِىٍّ أَكارِعُهُ ... طاوى المَصِيرِ كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ(١)

أَسْرَتْ عليه من الجوزاءِ سَارِيَةٌ ... تُزْجِى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ(٢)

فارتاع من صَوْتِ كَلَّابٍ فبات ،له ... طَوْعُ الشَّوامِتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ(٣)

فبثَّهنَّ عليـــهِ واستمرَّ بهِ ... صُمْعَ الكعوب بَرِيَّاتٍ من الحَرَدِ(٤)

وكان ضُمْرَانُ منه حيث يُوزِعُهُ ... طَعْنَ المُعارك عند المُحْجَرِ النَّجُدِ(٥)

شَكَّ الفَرِيصةَ بالمِدْرى فأَنفذها ... طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذ يَشْفِى من العَضَدِ(٦)

كأَنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحتهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ(٧)

فظلَّ يَعْجُمُ أعلى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً ... فى حالكِ اللَّوْنِ صَدْقٍ غير ذى أَوَدِ(٨)

لما رأى واشِقٌ إِقْعَاصَ صاحبهِ ... ولا سبيل إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ(٩)

قالتْ له النفسُ إنى لا أرى طمعاً ... وإنَّ مولاكَ لم يسلم ولم يَصِدِ(١٠)

---

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمه بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج فى السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد بطوعها إسراعها به . والصرد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يغريه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) الفريصة : لحم الكتف . المدرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العضد : داء يلم بكتفها .

(٧) السفود : الحديدة التى يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه .

(٨) يعجم : يعلك . صدق : صادق فى الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأسر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى فى الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماءُ من بَرَد لا ينقطع . ولم يلبث أن ذُعر ذعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع فى جَرْيه ، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان يبغى ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق ، لما بثَّ النابغة فى الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع فى غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به فى مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته فى التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات .

وفى ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بنى أسد من حِلْف وبينها وبين بنى عامر من حرب ، وهو فى هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه فى المديح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتمادى فيه ، وخاصة فى الهجاء ، واقرأ له هذه الأبيات فى عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوه :

فإن يك عامرٌ قد قال جَهْلا  فإن مَطِيَّةَ الجهل السِّبابُ

فَكُنْ كأَبيك أَو كأَبي بَرَاءٍ تُوافِقْكَ الحكومةُ والصوابُ[١]
ولا تذهبْ بحلمِك طامياتٌ من الخُيَلاءِ ليس لهنَّ باب[٢]
وإنك سوف تَحْلُمُ أو تناهَى إذا ما شِبْتَ أَو شاب الغُراب[٣]

وهى أبيات تخلو من الإقذاع فى الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضرى إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغّر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله فى أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثانى فى البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتى بها فى ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ على شَعَثٍ ، أَىُّ الرجال المهذَّبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حِسِّه .

وجوانب كثيرة فى شعر النابغة تفصح عن مهارته فى صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة فى دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشى ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسى يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً[٤] » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقْوِى فى شعره محتجين على ذلك ببيت فى قصيدة المتجردة التى وُضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروى ، بينما رويها المطَّرد مكسور ، ورووا فى ذلك قصة ، هى أن النابغة قدم

---

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لهن باب : لا مخرج منهن .
(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .
(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١ / ١٠٨ .

يثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك فى قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه فى غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك[١] . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر فى اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك فى تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجعْ إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له　　　فضلاعلى الناس فى الأدنى وفى البعَدِ

وكذلك صنع فى اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلا ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ　　　مكان الشّغاف تبتغيه الأصابعُ[٢]
وعيدُ أبى قابوس فى غير كُنْهِهِ　　　أتانى ودونى راكسٌ فالضّواجع

وهذه العناية البالغة بالمعانى والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يُطوَى فيها من تشبيهات واستعارات؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لُبّه ، وخاصة حين يتنصّل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد فى اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نَعِمَ بها فى الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى فى مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هى صفحة

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/ ١٠ .

(٢) الشغاف : حجاب القلب .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ، وتسربت من ذلك أسراب فى جميع موضوعات شعره ، حتّى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التى تتمثل فى وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحِفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التى احتلها فى العصر الجاهلى وأسبابها ، إذ جعلوه محكَّماً بين الشعراء فى عُكاظ كما قدمنا ، وكأنه فى رأيهم الشاعر الفذّ الذى لا يُشَقّ غباره والذى لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثَمّ كان حكمه قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

الفصل التاسع

# زهير بن أبى سلمى

## ١

### قبيلته

هو زهير بن أبى سُلْمى ربيعة بن رياح المُزَنىّ ، فأبوه من قبيلة مُزَيْنة، وكانت تجاور فى الجاهلية بنى عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون فى الحاجر بنجد شرقى المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوالُ أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيئ وأصابوا نعَماً كثيراً وأموالا ، ولما رجعوا لم يفردوا له سهماً فى غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل فى جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل فى أخواله ، ولم يزل فيهم حتى توفى ومن ثَمَّ وُلد له زهير وأولاده فى منازل بنى مرة وبنى عبد الله بن غطفان[1] . وكان ذلك سبباً فى أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفانى القبيلة[2] ، وهو فى الحقيقة مزنى النسب غطفانى النشأة والمَرْبَى ، وقد صرَّح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول فى بعض شعره ردًّا على مزرِّد بن ضِرار وقد عزاه إلى مزينة[3] :

همُ الأَصل منى حيث كنتُ وإننى  من المُزَنيِّين المصفَّيْنَ بالكرمْ

ويظهر أن ربيعة لم يعش طويلا فى عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حَجَر الشاعر التميمى المشهور . وهنا يلمع فى حياة زهير اسم خاله بَشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٩١ وما بعدها .
(٢) انظر ترجمة زهير فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ .
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٨٨ وما بعدها .

وقد عاش زهير فى خلال هذه الحروب التى نشبت بين عَبْس وذُبْيان، حروب داحس والغبراء التى سبق أن تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وقد أسهمت عشيرة أخواله ، فى تلك الحروب وصليت نارها . وأيضاً فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذبيانية ، وفى شعر خاله بَشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة ، فقد روَى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحُرَقة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بنى سعد بن ذبيان . ومعنى ذلك أن الأيام التى عاشها زهير فى عشيرة أخواله الذبيانيين لم تكن أيام استقرار وأمن ، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائماً تُشَنّ الغارات، ودائماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسَلّ السيوف وتُقْطَع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان ، شأن القبائل النجدية فى العصر الجاهلى .

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبّد فى الجاهلية العُزَّى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، وتُهدِى القرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان فى الكعبة وثن . وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزَّى ، وكان من حوله شجرات يقدسونها[١] . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين ، وظلوا على وثنيتهم إلى ظهور الدين الحنيف .

## ٢

### حياته

ليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش فى منازل بنى عبد الله ابن غطفان وأخواله من بنى مرة الذبيانيين ، وفى كنف خاله بَشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثريًّا ، يقول ابن سلام: « وكان كثير المال ، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٥/٩٧ وما بعدها .

ممن فقأ عينَ بعير فى الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فَحْلها[١] » . وكان بَشامة من أحزم الناس رأياً فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه ، ولم يكن له ولد ، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله فى أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه ، ويُرْوَى أنه قال له إنى أعطيتك ما هو أفضل من المال ، فقال زهير : ما هو ؟ فقال له : شعرى[٢] ، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط ، بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم . وفى أخباره أنه تزوج من امرأتين : أم أوفى وهى التى يذكرها كثيراً فى شعره ، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما ، فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً . والثانية التى تزوجها من بعدها هى كبشة بنت عمار الغطفانية ، وهى أم أولاده : كعب وبُجَيْر وسالم ، ومات سالم فى حياته ورثاه ببعض شعره[٣] .

وهو يتحدث فى شعره طويلا عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عَوْف سيدى بنى مرة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد فى تلك الحروب ، إذ تحمّلا ديات القتلى ، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدّياها فى ثلاث سنين[٤] . واعتدّ زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها فى معلقته ، وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجده ، وهرم يُغْدق عليه[٥] . وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خير ما يملك ، وقد ذهب ما أعطاه هرم لزهير مع الزمن ، أما ما أعطاه زهير هرماً فخلد على الأيام . ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن هرماً « حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه فى ملأ قال : عِموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت[٦] » . ونراه يشيد بحصن بن حذيفة سيد بنى فزارة الغطفانيين ، وخاصة بحروبه مع أحلافه بنى أسد ضد النعمان بن الحارث الغسانى وما أنزلوا بجيوشه من هزائم منكرة[٧] . وليس فى ديوانه وراء حروب حِصْن وحروب داحس والغبراء إشارة إلى غارات سوى ما كان من غارة الحارث بن وَرْقاء الأسدى فى جماعة من قومه على عشيرته ، وقد أخذ فيما أخذ

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٣ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٣١٢/١٠
(٣) أغانى ٣١٣/١٠ .
(٤) أغانى ٢٩٧/١٠ .
(٥) أغانى ٣٠٥/١٠ .
(٦) أغانى ٣٠٥/١٠ .
(٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ١٤٣ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٤٥ .

إبلاً وغلاماً لزهير يسمى يَساراً . وغضب زهير غضباً شديداً ، وهدده إن لم يردّ عليه إبله أن يهجوه هجاء مقذعاً ، مذكراً له بما بين عشيرتيهما من مواثيق وعهود نقضها نقضاً ، وخشى الحارث معرة لسانه وما يصبُّ عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلامه[١] .

وتدل الدلائل على أنه عاش فى سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدّم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثنياً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول فى معلقته :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يُكْتَم اللهُ يعلمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فيُدَّخَر ... ليوم الحساب أو يعجَّلْ فيُنْقَم

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلا على أنه أحد من تحنفوا فى الجاهلية وشكوا فى دينهم الوثنى[٢] وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هى خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً ، وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبُجَيْر ، واستمر الشعر فى بيته أجيالا ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً[٣] ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام فى البصرة .

فنحن بإزاء شاعر اتصل الشعر فى بيته اتصالا لم يعرف لشاعر جاهلى ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنيه بُجَيْراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .
(٢) انظر فى ذلك المحبر لابن حبيب ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم فى الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .
(٣) مقدمة ديوان زهير ( طبعة دار الكتب ) ص ٩ وقارن بالأغانى ١٠/٣١٤ والشعر والشعراء ١/٩٢ .

وفى أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التى كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلقّنهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه ، حتى تنطبع فى أنفسهم طريقة نَظْم الشعر وصوغه ، وهو فى أثناء ذلك يمتحن قدرتهم، بما يلقى عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها، بنظم بيت على غرار البيت الذى ينشده فى الوزن والقافية[١]. ويظهر أنه عُمّر طويلا إذ يقال فى بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم[٢] ، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذى أدرك الإسلام حقًّا ابناه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، ولكعب قصيدة معروفة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى ذائعة مشهورة .

## ٣

### ديوانه

طُبع ديوان زهير طبعات مختلفة، لعل أقدمها طبعة ألوارد فى مجموعة العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرَّ بنا — فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس — أنه استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، وهى برواية الأصمعى غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها فى كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدى بشرح الشنتمرى سنة ١٨٨٩ فى سلسلته التى سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبع بعد ذلك فى مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج؛ ونشره مصطفى السقا فى مجموعته مختار الشعر الجاهلى ، وهى تتضمن كما مرَّ بنا نفس الدواوين الستة التى شرحها الشنتمرى ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمرى . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلم البطليوسى ، وهى تلتقى برواية الشنتمرى عنده ، وكأنه هو الآخر عُنى فى عمله برواية الأصمعى .

---

(١) ديوان زهير ص ٢٥٦ . (٢) أغانى ١٠/٢٩١ .

وواضح أن هذه الطبعات تعتمد على رواية الأصمعي البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية فى هلة ، وظهر الديوان بهذه الرواية فى سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعي البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالتشدد ، فهى لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله : « كمل جميع ما رواه الأصمعي من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة فى ثانيتهما[١] . وإذا نظرنا فى رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبي المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثمّ كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشنتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعي أساساً لبحثنا فى زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهى القصيدة التى تليها فى رواية الشنتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير[٢] . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعي أن الشعر كما قدمنا اتصل فى ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوّام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعي التى تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشنتمرى[٣] ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هى : ( أبلغ بنى نوفل عنى وقد بلغوا ) و ( أبلغ لديك بنى الصَّيْداء كلهم ) و ( ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى ) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته : ( إن الرزيّة لا رزية مثلها )

---

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص١٩٣ .

(٢) أغانى ١٠/٢٨٩ وفى الديوان ص٢١٩ أن المفضل الضبى كان يرويها .

(٣) راجع مخطوطة الشنتمرى بدار الكتب المصرية رقم ٨١ أدب ش وفى الخزانة التيمورية بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب — شعر تيمور .

ويقول إنها لقُراد بن حَنَش من شعراء غطفان[١]. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعى سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التى رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمرى ، وهى : (غَشيتُ دياراً بالبقيع وثَهمد). على أنه ينبغى أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقُنَّة الحَجْر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا فى حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعى فى الحِكم الملحقة بالمعلقة وقال إنها لِصرْمة بن أبى أنس[٢] الأنصارى ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نَظمها صرمة ، وسنرى أن زهيراً كان يكثر من الحِكم فى شعره .

## ٤

## شعره

لعل الشعر الجاهلى لم يعرف شاعراً عُنى بتنقيحه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرْوى شعر زوج أمه أوس بن حَجر الشاعر التميمى المشهور ، كما كان يروى شعر طُفَيْل الغنوى[٣] المعروف ببراعته فى وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروى شعر خاله بَشامة بن الغدير[٤] . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خَرَّجَ ابنه كعباً فى الشعر كما خرج الحطيئة[٥] .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلِّمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقى تأثره فى شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره فى جميع جوانب فنّه ، يتأثره فى الموضوعات التى عالجها وفى طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معان وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .
(٢) المعمرين للسجستانى ص ٦٦ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .
(٤) أغانى ٣١٢/١٠ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ ، ٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه ينتظم فى المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء ، وفى تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هى نفسها التى يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قطعة فى غير هذا الموضع ، وهو يلتقى فيه بزهير حين يشيد بفضائل فَضالة بن كَلَدَة ومناقبه ، التى يعود بها إلى المثل العربى الكريم للمروءة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بهَرِم بن سنان والحارث بن عوف حين سعيا بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف فى أثناء ذلك أن قتل الحُصَيْن بن ضَمْضَم عبسيًّا ثأراً لأخيه هَرِم بن ضَمْضَم ، وكان قتله وَرْد بن حابس العبسى ، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جَذَعَة ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا فى الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التى كادت تودى بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السيدين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجِدْتُما ... على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ (١)
تداركتما عَبْساً وذُبْيانَ بعد ما ... تفانوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ (٢)
وقد قلتما إن نُدْرِك السِّلْمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَمِ
فأصبحتما منها على خير مَوْطنٍ ... بعيدين فيها من عُقوق ومَأْثَمِ (٣)
عظيمين فى عُلْيا مَعَدٍّ وغيرها ... ومن يَسْتَبِح كَنْزاً من المجد يَعْظُمِ (٤)

---

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير عشيرتهما فى كل أمر ، أبرماه أو لم يبرماه .
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت فى مكة ، غمس قوم أيديهم فى عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى فنوا عن آخرهم . يشبه قبيلتى عبس وذبيان بهم .
(٣) يريد أنهما لم يشتركا فى تلك الحروب ، فهما يؤديان عن غيرهما الديات .
(٤) يريد بعليا معد رؤساءها وأشرافها . يعظم : يصبح عظيما .

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التى تدوّى بفكرة الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامى الفراش على النار . وقد مضى يصور الحرب فى صورة بشعة ، فيقول :

وما الحرب إلَّا مَا علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المرجَّمِ (١)
متى تبعثوها تبعثــوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا أَضْرَيْتُموهافتَضْرَمِ (٢)
فتعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحَى بثِفالها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تَحْمِلْ فتُتْئِمِ (٣)
فتنتجْ لكم غلمانَ أَشْأَمَ ، كلُّهم ... كأَحمر عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ (٤)
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأَهلها ... قُرًى بالعراق من قَفِيزٍ ودرْهَمِ (٥)

وأنت تراه يصور الحرب فى صور مخيفة قبيحة ، فهى تارة أسد ضار ، وتارة ثانية نار مشتعلة، وتارة ثالثة رَحًى تطحن الناس، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذرارىّ شؤم . ووسع التهكم، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدراهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التى تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة . ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رَعَوْا ما رعوا من ظِمْئهم ثم أوردوا ... غِمارًا تسيل بالرِّماحِ وبالدَّمِ (٦)
فقضَّوْا منايا بينهم ثم أَصدروا ... إلى كَلَأٍ مُسْتوبَلٍ مُتَوَخَّمِ (٧)

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مراعى وخيمة وبيلة فى سلمهم . وسرعان ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

---

(١) المرجم : المظنون .
(٢) تبعثوها : تهيجوها ، تضر : من ضرى الأسد إذا تهيأ للفريسة، وأضرى: درب وعود ، وتضرم : تشتعل .
(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن ، ومن أجل ذلك ذكره، يريد أنها طاحنة. وتلقح كشافاً : تحمل كل عام، وذلك أردأ النتاج . تتئم : تلد توءماً .
(٤) أشأم : مشئوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ، وكان شؤماً لقومه .
(٥) القفيز : مكيال فى العراق .
(٦) الظمأ : ما بين الوردين أو الشربتين، والغمار : المياه الكثيرة .
(٧) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ، مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخم أى إنه كريه تعافه الإبل .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلى شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص فى مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التى تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه فى قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

إذا فَزِعُوا طاروا إلى مُسْتغيثهم ... طوالَ الرِّماح لاضعافٌ ولاعُزْلُ (١)
بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عبْقَرِيَّةٌ ... جديرون يوماً أن ينالوا فيَسْتَعْلوا
وإن يُقْتَلوا فيُشْتَفَى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ
عليها أُسودٌ ضارياتٌ لَبُوسهم ... سَوَابغُ بِيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبْلُ (٢)
إذا لَقِحتْ حربٌ عوانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ تُهِرُّ الناسَ أنْيابُها عُصْلُ (٣)
قُضاعيَّةٌ أو أُختُها مُضرِيَّةٌ ... يُحَرِّقُ فى حافاتِها الحطبُ الجَزْلُ (٤)
همُ خيرُ حيٍّ من مَعَدٍّ علمتُهم ... لهم نائلٌ فى قومهم ولهم فَضْلُ (٥)

وهو يصف سيدى بنى مرة وعشيرتهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطيرون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جِنَّة . وانظرْ إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعض الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون فى كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاعة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرماً مفرطاً ، وفى كل قبيل منهم ثأر ، ومن ثم كانوا يُشْتَفَى بدمائهم ، إنهم خير معد شجاعة وكرماً فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

---

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه.
(٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع تامة .
(٣) لقحت : حملت ، يريد اشتدت. حرب عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة. ضروس : شديدة . تهر الناس : تخيفهم. عصل : قوية تطحن طحناً .
(٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .
(٥) النائل : العطاء .

إذا السَّنَةُ الشهباءُ بالناس أجحفتْ ... ونال كرامَ المال فى الحَجْرَةِ الأَكْلُ[١]
رأيتَ ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قَطِيناً بها حتى إذا نبَتَ البقْلُ[٢]
هنالك إن يُسْتَخْبَلوا المال يُخْبِلوا ... وإن يُسْأَلوا يُعْطُوا وإن يَيْسِرُوا يُغْلُوا[٣]
وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم ... وأَندِيةٌ ينتابُها القول والفعل[٤]
على مُكْثِريهم رِزْقُ من يعْتريهمُ ... وعند المُقِلِّين السَّماحَةُ والبذْلُ[٥]
وإن جئتهم أَلفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يُشْفَى بأَحلامها الجهل[٦]
وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعدٌ ... رَشَدْتَ ؛ فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ[٧]
وما يَكُ من خَيْرٍ أتوه فإنما ... توارثَه آباءُ آبائهم قَبْلُ
وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلَّا وَشِيجُه ... وتُغْرَسُ إلَّا فى منَابتها النَّخْلُ[٨]

وهو يستمر هنا فى مديحه لهم بالكرم فى السنين المجدبة ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم فى أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام فى مجالسهم ، ولم يُخْلِ مكثِراً ولا مقلا منهم من سماحة وفضل وبِرّ . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلماء يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال إنهم ورثة مجد قديم تتوارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلا على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا فى البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائحه فى هرم بن سنان ،

---

(١) السنة الشهباء : المجدبة ، الحجرة : السنة شديدة البرد .
(٢) قطينا : ساكنين .
(٣) استخبال المال : أن يسألوهم شيئاً فيعطوهم إياه. ييسروا : يتقامروا . يغلوا : يختاروا سمان الإبل :
(٤) المقامات والأندية : المجالس .
(٥) يعتريهم : ينزل بهم .
(٦) الجهل : الحمق .
(٧) الحامل : الذى يحمل الحمالة ، وهى الدية ، ويريد أى مغرم .
(٨) الخطى : الرماح ، ووشيجه : أغصانه .

ومن أروعها داليته التى رواها المفضل الضبى والتى يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته وفصاحته وسَبْقه إلى المآثر المحمودة :

سواءٌ عليه أىَّ حِينٍ أتيتَه    أساعَةَ نَحسٍ تُتَّقَى أم بأَسْعُدِ(١)
ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى به    شديدُ الرِّجام باللسان وباليد(٢)
إذا ابتدرتْ قَيْسُ بن عيلانَ غاية    من المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ
سبقتَ إليها كل طَلْقٍ مُبَرِّزٍ    سبوقٍ إلى الغايات غيرِ مُجلَّدِ(٣)
فلو كان حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تَمُتْ    ولكنَّ حَمْد الناس ليس بمُخْلِدِ

فهو يعطى فى السعة وفى القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه ، وإذا تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلى ، ولو أن حمداً يخلد به مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائية بديعة يقول فى تضاعيفها :

دَعْ ذا وعَدِّ القولَ فى هَرِمٍ    خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضَرِ
ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنت إذا    دُعِيَتْ نزالِ وَلُجَّ فى الذُّعْرِ(٤)
حَدِبٌ على المَوْلى الضَّرِيكِ إذا    نابتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ(٥)
ويَقِيكَ ماوقَّى الأكارمَ من    حُوبٍ تُسَبُّ به ومن غَدْرِ(٦)
ولأنت تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ    ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يفرِى(٧)
والسِّتْرُ دون الفاحشات وما    يلقاك دون الخير من سِتْرِ
أثنى عليك بما علمتُ وما    سَلَّفْتَ فى النَّجَدَاتِ والذِّكْرِ

(١) يريد بساعتى النحس والسعد أوقات القلة والكثرة فى المال .
(٢) المدره : المدافع عن قومه . وحمى الحرب : شدتها . والرجام : المراماة فى الحرب وفى الخطب والكلام .
(٣) الطلق هنا : المعطاء، وأصله الفرس السابق الذى لا يلوى على شىء . المجلد : الذى يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .
(٤) الدعاء فى الحرب نزال : حين تشتد فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع بالسيوف . ولج فى الذعر : اشتد الخوف .
(٥) الضريك : الفقير المجهد .
(٦) الحوب : الإثم .
(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر . يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

وعلى هذا النحو يبدئ ويعيد فى هـرم ، وقد تراءى له فى الصورة المثالية للسيد البدوى الجاهلى ، فهو شجاع فى معترك الحرب وهو كريم فى معترك المسغبة والجوع ، وليس بفحاش ولا غادر ، وإذا صمم اندفع يُمْضى ما صمم عليه ، لا يستره عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثنى عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء. ودائماً تلقانا فى مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوهجة ،ومن رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسـائلون إلى أبوابه طُرُقا
إن تلْقَ يوماً على عِلاَّته هرماً ... تَلْقَ السماحة منه والنَّدَى خُلقا
ليْثٌ بِعثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ... ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صَدقا[1]
يطعنهم ما ارْتَموْا حتى إذا اطَّعنوا ... ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا[2]
هذا وليس كمن يَعْيَا بخُطَّتهِ ... وَسْطَ النَّدِىِّ إذا ما ناطقٌ نطَقَا

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حـدَب ، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق ، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مذللة ممهدة ، وهو يجزل لهم فى العطاء حتى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ، حتى ليتفوق على الليث فى جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ، وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأيته وسط الندىّ يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاله .

وقد أضفى حُللا من هذا المديح الرائع على سيد بنى فزارة حِصْن بن حُذَيْفة ، وكانت له مواقع مأثورة فى حروب قومه مع عَبْس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

---

(١) عثّر : موضع . كذب الليث : نكل عن لقاء أقرانه .

(٢) ارتموا : تراموا بالنبل ، اطعنوا : تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه فى الحرب : أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا ترامى المتحاربون بالنبال أبى هرم إلا أن يطعن بسيفه ، وإذا تطاعنوا ضرب بسيفه ضربات مميتة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو سابق فى كل حال .

وأبيضَ فياضٍ يداه غمـــامةٌ ... على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ فواضِلُهْ(١)
بكَرْتُ عليـــه غُدْوَةً فرأيته ... قُعُودًا لديه بالصَّرِيم عَوَاذِلُهْ(٢)
فأَقْصَرْنَ منه عن كريمٍ مرزَّأٍ ... عَزومٍ على الأمر الذى هو فاعِلُه(٣)
أخى ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ(٤)
تراه إذا ما جئته متهـــلِّلاً ... كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ(٥)

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط فى كرمه حتى لتشبه يداه سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكفّ عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذى لا ينفق أمواله فى لهو إنما ينفقها فى الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب ، كما أشار إلى بلائه فى حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التى أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد كان يحسن التعبير عما فى نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد فى القول فلا يسرف ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التى كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمارة السيادة والشرف . ولاحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب ، فقال : « كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه(٦) » فهو يعتدل فى الثناء ، وهو يمثل شخصية البدوى الحقيقى الذى يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحس إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعانى بأنه يكاد يخرج عن حدّه أحاطه بما يجعل قوله مقبولا فيقدم لفظة « لو » ونحوها حتى لا يتجاوز القصد ، كما نرى فى قوله يصف هرما وأجداده :

---

(١) المعتفون : السائلون . الفواضل : العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ . وتغب : تنقطع .
(٢) الصريم : الصباح . عواذله : لائموه .
(٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب فى ما له لكثرة ما يبذل منه .
(٤) النائل : العطاء .
(٥) متهللا : طلق الوجه .
(٦) أغانى ١٠/٢٩٠ .

لو نال حَيٌّ من الدنيا بمكرُمةٍ أُفُقَ السماء لنالتْ كَفُّه الأُفقا

وقوله :

لو كنتَ من شَيْءٍ سوى بشَرٍ كنتَ المنوِّرَ ليلةَ البدْرِ

فهو لا يطلق القول فى مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما فى حيز « لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذى أوشك على الدخول فيه .

وكان يقدِّم لقصائده بالغزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين فى الوقوف بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف الحبُّ قلوبهم ، فهو يتغزل ،كي يرضى سامعيه ، لا لكي يرضى نفسه ، وبعبارة أخرى هويتغزلأخذاً بتقليد متَّبع ،ولذلك نراه يختم غزلهأحياناً بقوله : « فعد عما ترى » أو «دعْ ذا» كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذى لا يتلاءم مع وقاره . وقد يعلن فى أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبته على شاكلة قوله :

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسْلو وأقْفَرَ من سَلْمَى التَّعانيقُ فالثِّقلُ(١)

ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه فى هذا الجانب ، فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التقاليد . وقد يلم زهير بأثر الحب فى النفس فيبدع فى تصويره ، وهو فى هذا التصوير لا يمثل عاطفة ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله فى وصف دموعه :

كأَنَّ عينى وقد سَال السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أَنهم أَمَمُ(٢)
غرْبٌ على بَكْرةٍ أَو لؤلؤٌ قَلِقٌ فى السِّلك خان به رَبَّاتِه النُّظُمُ(٣)

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة ، وإن دموعه لتتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

(١) التعانيق والثقل : موضعان .
(٢) سال السليل بهم : السليل : واد . وسال بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما فى قوله ما هم زائدة . وأمم : قريبون يزارون .
(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر لانقطاع الخيط . رباته : صواحبه . النظم : جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صوّر زهير الدموع ، وهى ليست دموع حب ، وإنما كل مافى الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء فى قوله :

قامتْ تَراءَى بذى ضَالٍ لتحزُننى ولا محالةَ أن يشتاق من عَشِقا[1]
بجيد مُغْزِلةٍ أدماءَ خاذلة من الظباء تُراعى شادنا خَرِقا[2]
كأَن ريقتَها بعد الكَرى اغتبقتْ من طيِّب الرَّاحِ لما يَعْدُ أن عَتُقا[3]
شَجَّ السُّقاةُ على ناجودها شَبِماً من ماء لِينةَ لا طَرْقاً ولا رَنقا[4]

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلأ قلبها بحب ابنها ، فهى عاكفة عليه ، كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء اشدّتها وحدّتها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما ، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته فى التصوير ، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حبّ حقيقى ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه ، وأنه راجَع نفسه فكفَّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتُها ولكل شىءٍ وإن طالتْ لجاجَتُه انتهاءُ

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث فى ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفنى . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفى الوقت نفسه يريد أن يدلّ على براعته فى الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات فى نجد مع عشيرتهن من واد إلى

---

(١) تراءى : تتبدى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السدر .

(٢) الجيد : المنق ، مغزلة : الظبية التى معها غزال . أدماء: بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذى شدن أى تحرك ولم يقو بعد . الخرق : الضعيف .

(٣) الكرى : النوم . اغتبقت : من الغبوق وهو شرب الليل ، لما يعد أن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .

(٤) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشبم : الماء البارد . لينة : اسم بئر . الطرق والرنق : الكدر .

واد ، محاولا أن يحفر الصورة فى أذهاننا حَفْراً على نحو ما نجد فى معلقته إذ يقول :

تبصَّرْ خليلى هل ترى من ظَعائنٍ ... تحمَّلْن بالعَلْياء من فوق جُرْثُمِ[1]
عَلوْن بأنمـاطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ ... ورادٍ حواشيها مشاكهة الدَّم[2]
ووَرَّكن فى السُّوبان يعلون مَتْنَهُ ... عليهن دلُّ النـاعم المتنعِّمِ[3]
وفيهن مَلْهًى للصديق ومنظرٌ ... أنيقٌ لعَيْنِ الناظر المتوسِّم[4]
بكرْنَ بكُوراً واسْتحَرْنَ بِسُحْرةٍ ... فهنَّ لوادى الرَّس كاليَدِ للفمِ[5]
جعلْنَ القَنان عن يمين وحَزْنَهُ ... ومَنْ بالقَنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ[6]
ظَهَرْنَ من السُّوبان ثم جَزَعْنَهُ ... على كل قَيْنِىٍّ قَشِيبٍ ومُفْأَم[7]
كأن فُتَاتَ العِهْنِ فى كل منزلٍ ... نزلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ[8]
فلما وَرَدْن الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْن عِصِىَّ الحاضر المتخيِّمِ[9]

وواضح أنه يصور الرحلة التى سلكتها ظعن صاحبته ، وهن يعلون الروابى ويهبطن الوديان ، وعلى هوادجهن الكلل والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليملئوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ، وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن فى طريق ويعدلن عن طريق ، وفى أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتات

(١) الظعائن : النساء الراحلات فى الهوادج . العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبنى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهوادج . وراد : حمراء . مشاكهة : مشابهة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان : واد فى ديار بنى تميم . متنه : ظهره . دل الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . استحرن : رحلن سحراً . كاليد للفم أى إن ما يقصدنه لا يخطئنه كما لا تخطئ اليد الفم .
(٦) القنان : جبل لبنى أسد. حزنه : أرضه . الصعبة الغليظة . المحل : الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعنه . القينى : الرحل . قشيب : جديد. مفأم : واسع رحب .
(٨) العهن : الصوف . حب الفنا : عنب الثعلب .
(٩) جمامه : سطحه ومجتمعه . ووضع العصى كناية عن الإقامة .

الصوف المتساقط من هوادجهن ورِحالهن كأنه حَبُّ الفَنا ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه والمرعى الذى يلتمسنه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع فى مثل هذا التصوير الذى يعرض به عرضاً حيًّا مليئاً بالحركة ظُعن صواحبه ، وهى ترحل فى الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلأ . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتى عفواً أو عرضاً كالبيت الرابع من هذه القطعة ، وكان حريًّا به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره فى نفسه وفى الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصوِّر قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء فى بعض القبائل التى كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة فى الحارث بن وَرْقاء أحد بنى أسد الذى أغار على قبيلته ونهب غلامه يَساراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحَّ من هذا الهجاء لا يوغل فى الإقذاع وهتك الأعراض إيغال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبْقِى على مهجوِّه وعلى نفسه، عامداً إلى السخرية كقوله فى عشيرة حِصْن من بنى عُلَيْم الكلبيين :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ
فإن تكُنِ النساءُ مخبَّآتٍ ... فحُقَّ لكل مُحْصَنَةٍ هِدَاءُ[1]

فهن نساء خُبِّئْن فى الخدور ، وينبغى أن يزوَّجن . وهى سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن . وكان يجد فى مثلها ما يكفيه عن الإقذاع المفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الحطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها فى أهاجيه على شاكلة قوله المشهور فى الزبرقان ابن بدر :

---

(١) الهداء : الزفاف .

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتهـــا　　واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فجعل مروءته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس . وليس بين أيدينا رثاء مأثور صحيح لزهير .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التى تتجلّى فيها براعة زهير ودقة فنه فى التصوير ، ونقصد وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة أستاذه أوس فى هذا الباب[1] ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن من الحق أنه نمّى هذا الموضوع ، بحيث يعد فى الطليعة من شعراء الجاهلية فى وصف الوحش والصيد . وكأنى به كان يخبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة فى بيت أو أبيات قليلة ، وتارة فى قطع كبيرة ، وكأننا إزاء شريط يُعْرَض فى دار من دور الخيالة ، واقرأ له هذا البيت فى معلقته يصف رسوم دار صاحبته ، وقد ألمّ بها بعد عشرين عاماً ، فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفَةً　　وأطلاؤُها يَنهَضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ[2]

وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء فى بعض مواضع البادية عرضاً كاملا إذ نتمثلها وهى تمشى فى جهات متضادة ، وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور ناقته بظليم فى بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر فى الصحراء كأنه مجنون لا يلوى على شىء ، يقول :

كأنَّ الرَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ　　من الظِّلْمان جُؤْجُؤُه هـواءُ[3]
أَصَكَّ مُصلَّمِ الأُذُنَيْنِ أَجْنَى　　له بالسِّىِّ تَنُّومٌ وآءُ[4]

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .

(٢) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء البيض. خلفة : من جهات متضادة . الأطلاء: أولاد الوحش . مجثم : مربض .

(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان : جمع ظليم . الجؤجؤ : الصدر . هواء : فارغ .

(٤) أصك : مقارب العرقوبين . مصلم : مقطوع . أجنى من الجنا ، وهو إدراك الثمار ونضجها . السى : موضع . التنوم والآء من أشجار البادية .

وتلك صورة كاملة للظليم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هناك يرعى فى السِّيِّ بعض أشجار البادية . وماذا بقى من هيئة الظليم ؟ إنه لم يبق شىء إلا سرعته وحركته الدائبة ، وهو يصورها تصويراً دقيقاً فى قوله «جؤجؤه هواء» فصدره فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع فى العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته فى سرعتها بحمار وحش يسوق أتنه سوقاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهى خاضعة لمشيئته ، يدعوها فى كل فجر فتجيب ، وصوّر هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كأَنَّ سَحِيله فى كلِّ فجرٍ على أَحْساءِ يَمْئُودٍ دُعــاءُ[1]

فهو ينادى أتنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل ، وهى تلبِّيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . واقرأ له هذه القطعة الطويلة فى وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلقاك خصائصه فى التصوير مجتمعة :

وغيْثٍ من الوسمِيِّ حُوٌّ تِلاعُهُ أجابت رَوَابيه النِّجاءَ هوَاطِلُهْ[2]

هبطتُ بمَمْسودِ النواشرِ سابحٍ ممَرٍّ أسيلِ الخَد نَهْدٍ مرَاكِلُهْ[3]

تميمٍ فَلَوْنَاهُ فأُكْمِل صُنْعُه فتمَّ وعزَّتْه يداه وكاهله[4]

أمينٍ شَظاه لم يُخَرَّق صِفاقُه بِمنقبةٍ ولم تقطَّع أَباجِلُه[5]

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرَّةً متى نَرَهُ فإننا لا نُخاتِلُهْ[6]

---

(١) السحيل : نهيق الحمار . يمئود : موضع . الأحساء : جمع حسى ، وهو الموضع كثير المياه .

(٢) الغيث : المطر . الوسمى : أول الغيث . حو : سوداء . تلاعه : مسايله ، وهى سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .

(٣) النواشر : عصب الذراع . ممسود : مفتول . ممر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهد : ضخم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس يريد أنه ضخم الجوف .

(٤) تميم : تام الخلقة . فلوناه : فطمناه . عزته : قوته .

(٥) أمين : قوى . شظاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الجلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يداو بآلة بيطار . الأباجل : عروق فى اليد .

(٦) لا نخاتله : لا نأخذه بالخديعة .

فبينـــا نُبَغى الصَّيْدَ جاء غلامنا ... يَدِبُّ ويُخْفى شَخْصَه ويُضائلُه[١]
فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بقَفْرَةٍ ... بمُسْتأسِدِ القُرْيان حُوٌّ مَسايلُه[٢]
ثلاثٌ كأقواس السَّرَاءِ ومِسْحَلٌ ... قد اخضرَّ من لَسِّ الغَميرِ جَحافله[٣]
وقد خَرَّم الطُّرَّادُ عنه جِحاشَهُ ... فلم تبق إلَّا نفسُه وحَـلائله[٤]
فقال : أميرى ما ترى رأىَ ما نرى ... أنخْتِلُهُ عن نفسِه أم نُصاوله[٥]
فبِتْنا عُراةً عند رأس جَوادنا ... يُزاولنـــا عن نفسه ونزاولُه[٦]
ونضربه حتى اطمأَنَّ قَـذَالُهُ ... ولم يطمئنَّ قلبـــه وخَصائله[٧]
ومُلْجِمُنا ما إن ينالُ قَذَالَهُ ... ولا قدماه الأَرْضَ إلَّا أناملُه
فلَأْياً بلأْيٍ ما حملنـــا وَليدنا ... على ظهر محبوكٍ ظِمـــاءٍ مفاصِلُه[٨]
فقلت له : سَدِّدْ وأبْصِرْ طـريقَه ... وما هو فيه عن وصاتىَ شاغلُه
وقلت : تعلَّمْ أن للصيد غِرَّةً ... وإلَّا تُضيِّعها فإنك قاتلُه[٩]
فتبَّع آثارَ الشياهِ وليـــدُنا ... كشؤبوب غَيْثٍ يَحْفِشُ الأُكْمَ وابلُه[١٠]
نظرتُ إليـــه نظرةً فرأيتُه ... على كل حالٍ مرةً هو حاملُه[١١]
يُثِرْن الحَصَا فى وجهه وهْو لاحقٌ ... سِراعٌ تَواليه صِيابٌ أوائلُه[١٢]

---

(١) نبغى : نبتغى ونطلب . يدب : يمشى راجلا ببطء . يضائل : يصغر .
(٢) الشياه هنا : الأتن . القريان : مجارى الماء . مستأسد النبت : ما طال منه . حو : سوداء .
(٣) السراء : شجر تصنع منه القسى . المسحل : حمار الوحش . جحافله : شفاهه . الغمير : نبت . لسه : أكله .
(٤) خرم : نفر وأبعد . حلائله : زوجاته من الأتن .
(٥) نختله : نخادعه . نصاوله : نجاهره .
(٦) عراة : فى أرض عارية من الشجر . وقيل عراة من العرواء : وهى الرعدة عند الحرص . يزاولنا : يدفعنا لشدة نشاطه .
(٧) القذال : مؤخر الرأس . خصائله : لحم العصب .
(٨) محبوك : متين . ظماء مفاصله : قليلة اللحم لا تترهل .
(٩) الغرة : الغفلة .
(١٠) الشؤبوب : الدفعة من المطر . يحفش يملأ .
(١١) يقول إن الفرس كان يحمل فى كل حال الغلام ، يحمله على الطمع وعلى اليأس .
(١٢) التوالى : الأواخر يريد الرجلين والعجز . ويقصد بأوائله يديه وصدره . وصياب : سراع .

فردَّ علينا العَيْرَ من دون إِلْفِهِ على رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وفائلُه[١]

وهو فى مستهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، فُطم منذ عهد قريب ، فهو أشد ما يكون قوة ، لم يصبه مرض ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة . وسنراه بعد قليل يصور أحاسيسه وهواجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء جاء يدبّ ويخفى شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتُنٍ وحشية ، وهى ضامرة كأقواس السِّراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذى كان يبتغى الدقة فى التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يرّوضون الجواد ، حتى كان الصباح ، فألجمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته . ويبدع زهير فى هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد مفزّعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحسّ الجواد ما هم فيه وما ينتظره فى الصباح الباكر ، فأخذه الخوف من جميع أطرافه ، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو فى شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره فى تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوّراً بارعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسمات الجسد وسرائر النفس ، لانفس الإنسان وحده بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للأتن وحمارها وكيف انصبّ عليها كأنه شؤبوب

(١) العير : حمار الوحش . والنسا والفائل : عرقان .

أو صاعقة من السماء ، وهى تثير الحصى فى وجه فرسه ، والفرس لا ينثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام ، وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .

وواضح أن زهيراً استتم فى هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالا وروعة فى قصيدته الدالية التى رواها المفضل الضبى ، وفيها يصف بقرة وحشية شبَّه بها ناقته فى سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفترس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخَنْساءَ سَفْعاءِ الملاَطِمِ حُرَّةٍ ... مُسافرةٍ مَزْءودةٍ أمِّ فَرْقَدِ[1]
غدتْ بسلاحٍ مثلُه يُتَّقَى به ... ويُؤْمِنُ جَأْشَ الخائفِ المتوحِّدِ[2]
وسامعتين تعــرف العِتْق فيهما ... إلى جِذْرِ مَدْلوكِ الكعوب محدَّدِ[3]
وناظرتين تَطْحَران قَــذاهما ... كأنهمــا مكحولتان بإِثْمِدِ[4]
طَباها ضَحاءٌ أو خلاَءٌ فخالفتْ ... إليه السِّباعُ فى كِناسٍ ومرْقَدِ[5]
أضاعتْ فلم تُغْفَرْ لها غَفلاتُها ... فلاقتْ بياناً عند آخر معْهدِ[6]
دَماً عند شِلْوٍ تَحْجِلُ الطيرُ حوله ... وبَضْعَ لِحَامٍ فى إهابٍ مقــدَّدِ[7]

---

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم: السفع سواد فى حمرة . والملاطم : الخدان . مزءودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد زهير بالسلاح قرنى البقرة. الجأش: الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .

(٣) سامعتين: أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان منتصبتان. إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل . مدلوك : أملس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين العقدتين فى القرن . وزهير يريد بالشطر الثانى وصف قرنيها بأنهما أملسان محددا الرأس .

(٤) ناظرتين : عينين . تطحران قذاهما : ترميان به وتنفيانه . الإثمد : كحل أسود .

(٥) طباها: دعاها. ضحاء: رعى الضحى . خلاء : خلو المكان . فخالفت إليه السباع : أى اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس: بيت فى الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد .

(٦) أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه . البيان : ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولدها من بعض الجلود واللحم والدماء . آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .

(٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهى القطعة . اللحام : جمع لحم . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق المخرق .

وتنفضُ عنها غيبَ كلِّ خميلةٍ … وتخشى رُماةَ الغَوْثِ من كل مَرْصَدِ[١]

فجالتْ على وحْشِيِّها وكأنَّها … مُسرْبَلَةٌ فى رازقِيٍّ مُعضَّدِ[٢]

ولم تدر وشْكَ البَيْنِ حتى رأتهمُ … وقد قعدوا أنفاقَها كل مقْعدِ[٣]

وثاروا بها من جانبيها كليهما … وجالتْ وإن يُجْشِمْنها الشَّدَّ تَجْهَدِ[٤]

تَبذُّ الأُلى يأْتينها من ورائها … وإن تتقدَّمها السوابقُ تَصْطَدِ[٥]

فأَنقذها من غَمْرَةِ الموتِ أنها … رأَتْ أنها إن تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ[٦]

نجَاءٌ مُجِدٌّ ليس فيه وتيرةٌ … وتَذْبِيبُها عنها بأَسْحَمَ مِذْوَدِ[٧]

وجَدَّتْ فأَلقتْ بينهنَّ وبينها … غُبارًا كما فارتْ دواخِنُ غَرْقَدِ[٨]

بملتئِماتٍ كالخَذاريفِ قُوبلتْ … إلى جَوْشَنٍ خاظِي الطريقةِ مُسْنَدِ[٩]

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدى والنفسى فهى خنساء فى خدودها حمرة مشربة بسواد ، وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولداً لها فى كناس ، وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . وإنها لشاكية السلاح ، كأنها معدَّة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمِّنا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة ، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

---

(١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكره . الخميلة : الرملة بها شجر . الغوث : قبيلة من طيئ تشتهر برماتها وقناصها .

(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى : الجانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربلة : لابسة سربالا وهو القميص . الرازقى : ثوب أبيض . معضد : مخطط .

(٣) وشك البين : سرعته ، والبين هنا : فقدها لولدها . الأنفاق : الطرق والمسالك .

(٤) يجشمنها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها عليه . تجهد : تسرع وتجتهد .

(٥) تبذ : تسبق . تصطد : تضرب بقرنيها ما يتقدمها من الكلاب .

(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .

(٧) النجاء : سرعة العدو . الوتيرة : التلبث والانتظار . تذبيبها : دفاعها . الأسحم : الأسود . المذود : قرنها الذى تذود به عن نفسها .

(٨) جدت : أسرعت فى العدو . الدواخن : جمع دخان . الغرقد : شجر .

(٩) الملتئمات هنا : القوائم شبهها بالخذاريف . إلى جوشن : مع صدر . خاظى الطريقة : مكتنز اللحم فى أعلى الصدر . مسند : مرتفع .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدّ بهما النظر إلى ما حولها .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ، لنستعد إلى ماسيفجؤها من كوارث . وهو يثبت هيئتها فى نفوسنا بما يصوره من تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعتها فى ولدها ، وقد أعدّنا لذلك منذ البيت الأول ، فهى مسافرة ، مسرعة فى العودة ، وقد أخذها الذعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعاودها الحنين إلى ولدها ، بل عاودها الخوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت ويالهول ما رأت ، لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن الشديد . إن أملها فى الحياة فقدته . وقد عادت تجرى فى الصحراء مذعورة تتلفت يميناً وشمالا تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغَوْث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبها الأيمن ، كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهى تتراءى فى لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل ، ولم تكن تدرى أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة الغوث ، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ، فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهى تارة تسبق أوائلها ، وتارة تلحقها الكلاب فتنوشها بقرنيها ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنها الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التى يديرونها دوراناً سريعاً بخيوط يشدونها إلى أيديهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه ، إذ قال فيه كما مرّ فى غير هذا الموضع :

دريرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّهُ ... تقلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ

وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتئمات متناسقات كما جعلها متقابلات ، فهى كخذاريف لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً.

والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من براعة فى التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح فى مدائحه وأهاجيه وغزلياته جميعاً ، فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الخمر والميسر كما قدمنا فى غير هذا الموضع . واقرأ مدائحه وأنعم النظر فيها فستراه يمثل لك فى هَرِمٍ والحارث بن أبي عَوْف وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ، لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والعفو عن المسيء فى العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحدب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام . واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل فى شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وقد ذيَّل المعلقة بطائفة من الأبيات التى تذهب هذا المذهب ، وقدمنا أن الأصمعى كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصارى يسمى صِرْمَة ، ويظهر أن حِكماً له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفرد منها له مثل قوله :

وَمَنْ يَعْصِ أَطرافَ الزِّجاج فإنه ... يطيع العَوالى رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ (١)

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه فى صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبىَ الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم يقل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان ما لمعت فى خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهى أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا الصلح بأزجة الرماح ، ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثِّل الدخول فى الحرب بإطاعة أسنة الرماح والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة إلى الصلح. وقد تكون الأبيات التى تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ من تُصِبْ ... تُمِتْه ومن تُخْطِئْ يعمَّر فيهرمِ

وفى البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ، فهى تخبط الطريق خبطاً أعمَى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير فى الحياة والموت يكثر عند زهير كقوله فى إحدى قصائده لهرم :

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديدة فى أسفل الرمح . والعوالى : سنان السيوف والرماح . اللهذم : السنان القاطع . وواضح أنه جعل رفع كعوب الرماح كناية عن الصلح والمسالمة إذ كانت تلك عادتهم فى الجاهلية .

تزوَّدْ إلى يوم المماتِ فإنَّه ولو كرهتْه النفسُ آخرُ موْعِدِ

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعاره لقيتنا فيها حِكم كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال الموضوعات المختلفة التى يلم بها ، فمن ذلك قوله :

وكنتُ إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأَجَمَّتْ ، حاجةُ الغدِ ما تَخلُو[١]

وقوله الذى أنشدناه :

وهل يُنبِت الخَطِّىَّ إلا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلا فى مَنابتِها النَّخْلُ

وقوله :

كذلك خِيمُهُم ، ولكلِّ قومٍ إذا مسَّتهم الضَّرَّاءُ خِيمُ[٢]

وقوله الذى أنشدناه :

فلو كان حَمْدٌ يُخلد الناسَ لم تَمُتْ ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليس بمُخْلِدِ

وقوله :

فإن الحقَّ مقْطعُــهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِــلاءُ[٣]

وكان عمر بن الخطاب يُعْجَبُ بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ، ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه[٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح مكانة زهير فى الشعر الجاهلى ، فقد كان شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته فى الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرَّس بنماذج أوْسٍ وغيره من فحول الجاهلية ، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه فى القبائل ، فالتمسه بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التى يحسنها إلى أبعد حدّ ، ونبغ

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأمس ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو المرء من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضى .

(٢) الخيم : الشيمة والخلق .

(٣) النفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل للحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .

(٤) الصناعتين للعسكرى ( طبعة عيسى الحلبى ) ص ٣٤٢ .

منهم الحطيئة ، ولقَّن الشعر ولديه بُجَيْرًا وكعباً ، وطار صيت الأخير فى العصر التالى عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خَبَرَ صناعة الشعر الجاهلى وعرف أساليبها ، واستطاع أن يؤدِّى أجمل صورة لها فى لفظه وقوالبه وصيغه ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة فى حول كامل وإنه صنع سبع حَوْلِيَّات[1] ، ويَنْسُبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولىّ المحكك ( يقصد شعر أستاذه وشعره ) وقال الأصمعى : زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جوّد فى شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة[2] » . ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره فى موضع آخر ، فيقول : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ( كاملا ) وزمناً طويلا يردِّد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلِّب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوَّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خِنْذِيذًا ( تامًّا ) وشاعراً مفلقاً[3] » .

وسواء سمَّى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيلوها حولا كاملا ، ومضوا يسمون زهيراً والحطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثِّقاف والتنقيح والتجويد والتحبير ، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ، فهم عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطْوَى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعْرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل فى

---

( ١ ) الخصائص لابن جنى ( طبع دار الكتب المصرية ) ١/٣٢٤ .

( ٢ ) البيان والتبيين ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ٢/١٣ .

( ٣ ) المصدر نفسه ٢/٩ .

الكلام، وكان يتجنب وحشيَّ الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه[1]» . والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضِّد نضداً مستوياً . والحق أن صياغة زهير تستوفى حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التى قد تؤذيه، وارجعْ إلى القِطَع التى أنشدناها له فى المديح ،فإنك ستجدها متوهجة ، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصَقْله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلى ، والذى لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات ، وما يزال ينسِّقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر . وعلى نحو ما كان يستوفى حظوظاً مختلفة من الجمال فى عباراته وصيغه كان يستوفى ضروباً من الإتقان والكمال فى موسيقاه ، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها فى أماكنها ، فقوافيه تتمكن فى مواضعها ، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة ، وانظر إلى قوله فى معلقته :

وأعلمُ ما فى اليوم والأَمس قبله ولكننى عن عِلْمِ ما فى غَدٍ عَمِى

فقد وصل إلى القافية ، فوجد نفسه مضيَّقاً عليه ، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة « عمى » فتمَّم البيت فى غير عسر ولا مشقة . ومن ذلك قوله :

هم يضربون حَبِيكَ البَيْض إذ لَحِقُوا لا ينكصون إذا ما استُلْحِمُوا وحَمُوا[2]

فقد نفذ من الدرب الضيق فى القافية ، بما جاء به من كلمة « حموا » ولم ينفذ فحسب ، فقد استخدم كلمة تتناسق فى حروفها مع الفعل السابق لها ، فهى كلمة من نفس أسرتها ، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربى باسم الجناس ، وله أمثلة مختلفة فى شعره كقوله الذى أنشدناه :

كأَن عينى وقد سال السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أنهم أَمَمُ

فقد جانس بين سال والسليل ، وتعلق بحرف الميم فى ألفاظ الشطر الثانى ، فأحدث بينها تلاؤماً واضحاً . ومن أمثلة الجناس عنده :

وقد قلتما إن ندْرِكِ السِّلْمَ واسعاً بمالٍ ومعروف من القول نَسْلَمِ

(١) أغانى ١٠/٢٨٩ .
(٢) حبيك البيض : طرائقه . البيض : خوذهم فى الحرب . استلحموا : من التلاحم والمخالطة فى القتال . حموا : اشتد غضبهم .

وقوله :

تقِيٌّ نقِيٌّ لم يُكثِّر غنيمةً بنهكة ذى القُرْبى ولا بِحَقَلَّدِ[1]

وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن :

جعلنَ القَنانَ عن يمين وحَزْنه ومَنْ بالقنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

وقوله :

يمينا لنعم السيدان وُجدتُما على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

وقوله :

وقد كنت من سَلمى سِنيناً ثمانياً على صِيرِ أمرٍ ما يَمُرُّ وما يَحْلُو[2]

وقوله الذى أنشدناه :

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد الرجالَ إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صَدقا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا لونين فاقعين فى شعره، إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير، إذ كان يودعه كل مهارته، وكان يأبى أن يُخْرِج كثيراً من أبياته إلا ويوشّيها به ، بحيث لا نبعد إذا قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية ، ومن ثَمَّ كثرت عنده التشبيهات والاستعارات كثرة مفرطة ، وكان يسعفه بها خيال متوثب متهيئ ليخرج من جديد ما سمعه من أستاذه أوس وغيره ، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تنعقد فيها مشابهات كثيرة بين الأشياء ، وهى مشابهات من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا ندخل معه فى عالم خيالى حالم ، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح، فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، كما نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

---

(١) النهكة : الإضرار . الحقلد : البخيل السيئ الخلق ، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم أقربائه ، وليس ببخيل لئيم .

(٢) صير أمر : منتهاه وما يصير إليه .

وارجعْ إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تتراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر فى شيء يلمع فى ذهنه نظيره ، محاولا أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهى علاقات ننتقل بينها معجبين ، بل هى مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة ، إذ كان يعرف كيف يأتى منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن وقَصْدها إلى غايتها :

بكرْنَ بُكورًا واسْتَحَرْنَ بسُحْرَةٍ  فهنَّ لوادى الرَّسِّ كاليد للفَمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثْرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلحّ على الصورة التى يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاء ، كقوله فى وصف بعض صواحبه :

تنازعها المَها شَبَهاً ودُرُّ النُّـ  ـحُورِ وشاكهتْ فيها الظِّباءُ(١)

فأمَّا ما فُوَيْقَ العِقْد منها  فمن أَدْماءَ، مَرْتَعُها الخَلاءُ(٢)

وأَما المُقْلَتان فمن مهاةٍ  وللدُّرِّ المـــلاحةُ والصفاءُ

فهو لا يشبه صاحبته ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عامًّا ويمضى ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهى تشبه الظباء فى جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش فى سواد عينيها الفاتنتين والدر فى ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثْرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً جاهليًّا لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجعْ إلى معلقته وإلى صور الحرب التى أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق ، فالحرب أسد ضار ، بل هى نار مشتعلة ، بل هى رحى تطحن الناس ، بل هى ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هى أرض مغلة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثَّل — كما مرَّ بنا — حياة العرب فى حروبهم الدائرة وما يتخللهـــا من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

---

(١) المها : بقر الوحش . شاكهت : شابهت .

(٢) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالى .

إذا أخذهم الظمأ الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه فى نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره فى صورة أسد فيقول :

لدى أَسدٍ شاكى السِّلاحِ مقذَّفٍ  له لِبَدٌ أظفــارُه لم تُقَلَّمِ[1]

وواضح أنه استتم فى استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التى لم تقلَّم يوماً والتى إن نشبت فى شىء أتت عليه .

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة فى شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتى فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله فى أحد مطالعه :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وأَقْصَر باطلُه  وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ[2]

وهو فى الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التى كان دائماً يلازمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبته ، وكان طريقه إليها مشغولا دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شىء ، فقد انصرف عن سلمى وحبها ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهى صورة بعيدة لا تقع إلا فى ذهن يكثر من التخيل والإغراق فى التصور ، ذهن يتعمق فى الأشياء والمعانى ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه ، وكأنما تحوَّل عقله إلى آلة لاقطة ، وهى ليست آلة فوتوغرافية ، بل هى آلة خالقة ، آلة تفكر فى الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطيافاً تتراءى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا فى هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفِّى زهيراً حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرةَ النهائية للجهود الفنية التى أودعها الجاهليون أشعارهم ، فهو من جهة قد صَقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل ، ومن جهة ثانية

---

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقذف : غليظ اللحم . لبدة الأسد : ما تلبد على كتفيه من شعره .

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

عُنى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ، ومن جهة ثالثة استتمّ فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال نُعْجَبُ بها عند زهير ، فهو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحِكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مُثل فيمن مدحهم ، حتى ليُرْوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة فى مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

والحق أنه يصور مثلا جيداً من أمثلة الشعر الجاهلى ، فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال ، وكان ما يزال يجهد نفسه فى رسم خطوط هذه الصورة إجهاداً عَبَّرَ عنه القدماء بأنه حَوْلِىّ صاحب حوليات ، وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التى وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب فى شعره يدفعنا دفعاً إلى الإيمان بأنه كان يعانى طويلا فى صنع قصائده وما يتخذه لها من هذا الإطار الفنى الدقيق .

(١) أغانى ١٠/٣٠٤ .

الفصل العاشر

# الأعشى

## ١

### قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التى كانت تمتد فروعها وبطونها فى شرقى الجزيرة من وادى الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويَشْكُر وجُشَم وعِجْل، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان فى اليمامة، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضُبَيْعة ومن عشائرهم بنو عَبْدان وبنو كعب، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جَحْدَر ، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمى الأعشى .

وتاريخ عشيرة بنى سعد بن ضبيعة فى العصر الجاهلى يندمج فى تاريخ قبيلتها الكبيرة، فقد وقفت معها فى حروب البسوس التى ظلت أربعين عاماً ، كما وقفت معها فى يوم الكُلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم فى حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمانَ بن المنذر احتمى هو وأسرته ببنى شيبان إحدى قبائل بكر وخلّف عند سيدهم هانئ بن قبيصة الشيبانى أولاده وسلاحه الذى يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ فى غير هذا الموضع وولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر فى يوم ذى قار المشهور الذى انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون فى توقيت تاريخه[١] .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة فى هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بنى حنيفة

---

(١) انظر فى يوم ذى قار الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٢ والطبرى (طبعة دى غويه) ١/١٠١٥ ، ١/١٠٢٨ وما بعدها ، وابن الأثير ١/٢٩٠ والعقد الفريد ٦/١١١ . وراجع معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت فى « ذى قار » .

وغيرها من البكريين فى حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر فى الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدى إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها فى اليمامة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعى الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً فى بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول[(١)]:

لسنا كمن جعلتْ إيَادُ دارها ... تَكْرِيتَ تنظر حَبَّها أن يُحْصَدَا

جعــل الإلهُ طعامنا فى مالنا ... رزقاً تضمَّنه لنا لن يَنْفَدَا[(٢)]

مثلَ الهضاب جِزارةً لسيوفنا ... فإذا تُرَاع فإنها لن تُطْرَدا[(٣)]

ضَمِنتْ لنا أعجازُهن قُدورنا ... وضُروعُهنَّ لنا الصَّريحَ الأَجْرَدَا[(٤)]

وواضح أنه يصرِّح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبلُ التى لا تنفد ، وهى إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بَسالتهم ، وهى تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بنى حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحِجْر قصبةً لهم ، وكان سيدهم فى أواخر العصر الجاهلى هَوْذَة بن على ، وكان يحمى القوافل الفارسية فى طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذى قار ، فلم تشترك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعى وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حَضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت فى جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينا حنيفة لا يُعْرَفُ

---

(١) ديوان الأعشى طبعة جاير . القصيدة رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد : الصافى .

لها شاعر مذكور فى الجاهلية[١] إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بداوة قيس وكثرة الحروب التى عانتها ، يقول ابن سلام : «وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلّل شعر عُمان[٢]» ونقول أيضاً إنه الذى قلل شعر حنيفة فى اليمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ، وفى أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد المحمِّسة ، فنما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقِّش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمِّس وابن أخته طرَفة والمسيَّب بن علَس . وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع قطعة طرفة فى المعلقة التى يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته فى الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح فى شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفاً رقيقاً ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

## ٢

### حياته

عاش الأعشى فى أواخر العصر الجاهلى ، وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة فى اليمامة وأن أباه كان يلقَّب بقتيل الجوع «لأنه دخل غاراً يستظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدّت فم الغار ، فمات فيه جوعاً ، وفى ذلك يقول جُهُنَّام يهجوه ، وكانا يتهاجيان :

أبوكَ قَتيلُ الجوعِ قَيْسُ بنُ جَنْدَلٍ وخالُكَ عَبْدٌ من خُماعةَ راضعُ[٣]

وخُماعة — فيما يظهر — جدٌّ بعيد لأمه ، وهى أخت المسيَّب بن علَس ، وعنه حمَل الشعرَ الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك فى أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٠٨ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبى بصير[١] . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صَنَّاجة[٢] العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلى نقلة ، فإن كلمة صنَّاجة تعنى أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون فى ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه[٣] ! !

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة فى أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها ، وفى ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائى والى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندى ولسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المَدَان بن الديّان سادة نجران ولهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به فى طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم[٤] .

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة فى حضرموت ونَجْران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعُمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشى الحبشة ، ويُجْرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول[٥] :

وقد طُفْتُ للمـال آفاقَه ... عُمـانَ فَحِمصَ فأورِيشَلِيمْ
أَتيتُ النجاشىَّ فى أرضِهِ ... وأَرض النَّبيط وأَرضَ العجمْ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر فى أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — فى بعض رحلاته بديار بنى عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشى على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن عُلاثة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

---

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى . انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢١٢.

(٢) أغانى ٩/١٠٩ .

(٣) أغانى ٩/١١٥ والشعر والشعراء ١/٢١٤.

(٤) أغانى ٩/١١٣ وما بعدها .

(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطُّفَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجِرْنى قال : قد أجرتك ، قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة[1] .

والأعشى فى شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففى ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد[2] ، وهو يعيش كذلك فى منازعات قبيلته مع بنى شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومتهم من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى فى قصائده التى وجهها إلى بنى جَحْدَر وبنى عَبْدان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهُنَّام ، فتهاجيا طويلا .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب فى الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرِّمها عليك ، وكُلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هنّ ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحةَ رمى به بعيره ، فقتله[3] سنة ٦٢٩ للميلاد .

وهذه الخلال التى ذكرها أبو سفيان والتى جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيًّا مغرقاً فى وثنيته ، وفى شعره نفسه ما يصوِّر معالم هذه الوثنية ،

(١) انظر فى هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٣) أغانى ٩/١٢٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢١٢ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرة وقُتَيْلة وجُبَيْرة ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائى يبعن أعراضهن[١] ، ويقرنه ابن سلام فى هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتألّه فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستهر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهّر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى[٢] » . وقد تمدح فى شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته[٣] :

من شبابٍ تراهمُ غير مِيلٍ وكهـولاً مَراجِحاً أحْلاما[٤]
ولقد تُصْلَقُ القِدَاحُ على النِّيب إذا كان يَسْرُهُنَّ غَرامـا[٥]

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التى يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها فى الجاهلية .

وطبيعى لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًّا متعمقاً فى وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًّا ، وشاركه فى هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية فى الحيرة وبمثل قوله فى القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّى كريمٌ لايكدِّر نعمةً وإذا يناشَدُ بالمهارق أنْشَدَا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصرانى ، ترتّل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلا على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوى ديوانه كان مسيحيًّا ، وأغلب الظن أنه هو الذى أدخل هذا البيت فى القصيدة ، كما أدخل فى قصيدة أخرى قَسمه بالمسيح فى قوله[٦] :

---

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستهر فى الفواحش : يتبجح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتم .
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً : راجحى العقول .
(٥) تصلق : تضرب. النيب : الإبل الكبيرة. اليسر : القمار .
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦ .

وإنى وربِّ الساجدين عَشِيَّةً وما صَكَّ ناقوسَ النصارى أَبِيلُها[١]

وقد جعله فى قصيدة ثالثة يقسم براهب اللُّجِّ ، بل بثوبه[٢]. وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيًّا غالياً فى وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التى وصفناها فى شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التى رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم[٣] ، كما يقسم بالكعبة التى يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين فى مثل قوله[٤] :

إنى لعمرُ الذى خطَّت مَناسِمُها تَخْدِى وسِيق إليه البَاقِرُ الغُيُلُ[٥]

والحق أنه لم يكن نصرانيًّا ، إنما كان وثنيًّا على دين آبائه ، وقد احتفظ فى وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

## ٣

### ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير فى لندن[٦] سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة فى الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نُقلتا عنها فى استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة فى باريس وأخرى فى ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى فى كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقِّبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق فى رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق فى أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

(١) صك : ضرب . الأبيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف . تخدى : تسرع فى السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع للبقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير .
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها فى فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهى لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهى مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة فى رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أنها لم تشتق من روايته ، فروايته التى نشرها جاير كما قدمنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد فى شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ٦ ، ١١ فقد نصّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبى عمرو بن العلاء وأن الأصمعى سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبى عمرو ، وظن جاير — كما ذكر فى مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيبانى ، فهو الذى كانت تُرْوَى عنه الدواوين ، وهو راوية كوفى ينقل عنه السكرى وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصّ فى القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبى عبيدة البصرى ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا فى القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب[1] . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلى غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً فى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها لديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن راويته الذى حمله عنه وأذاعه فى الناس كان نصرانيًّا معمَّراً هو يحيى[2] أو يونس بن متّى وأن هذا الراوى من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعانى المسيحية ، وقد رُوِىَ عنه أنه كان يقول : «كان الأعشى قَدَرِيًّا إذ يقول :

استأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْلِ وولَّى الملامةَ الرجُلا

(١) الديوان ص ٢٠٧ .
(٢) الأغانى ٩/١١٢ ومصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قِبَل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر ، فلقّنوه ذلك[١] » . ويبعد أن يكون الأعشى حقًّا قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ فى تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول[٢] . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدّته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوّدا
نَدِمتَ على أن لا تكون كمثلِهِ ... وأنك لم تُرْصِدْ لما كان أَرْصَدَا[٣]
فإياك والمَيْتَـاتِ لا تأكلنَّها ... ولاتأخذَنْ سهماً حديدًا لِتَفْصِدَا[٤]
وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكنَّه ... ولا تَعْبُدِ الأوثانَ والله فاعبُدَا[٥]
وصَلِّ على حينِ العشيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تحمَدِ الشيطانَ والله فاحْمَدَا
ولا السائلَ المحرومَ لا تتركنَّهُ ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدا
ولا تَسْخَرَنْ من بائسٍ ذى ضرارةٍ ... ولا تحسبنَّ المرء يوماً مخلَّدَا[٦]
ولا تقربنَّ جارةً إنَّ سِرَّها ... عليك حرامٌ فانكِحَنْ أوتأبَّدَا[٧]

---

(١) الأغانى ٩/١١٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء ( طبعة دار المعارف ) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهيأ .
(٤) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة ويقدسونها أو هى الأوثان .
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى الأنفس والأموال .
(٧) السر هنا : البضع . النكاح : الزواج . التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

نعرف توًّا أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم فى البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به) أما فى البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسَبِّحْ بالعشى والإبكار) . ونظم فى البيت السادس قوله جلَّ وعز : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفى البيت السابع نظم قوله جلَّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تَقْرَبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله : (ولْيَسْتَعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغْنِيَهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهى لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط فى هذه القصيدة ، بل نشك كذلك فى القصائد الأخرى التى تردِّدُ معانى الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعانى المسيحية . وبهذا القياس نتهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندى :

وما أَيْبُلِىٌّ على هَيْكَلٍ ... بناه وصلَّبَ فيه وصارا(١)

يُراوِحُ من صَلَوات المليـ ... ـك طورًا سجودًا وطورًا جُؤَّارا(٢)

بأَعظم منه تُقًى فى الحساب ... إذا النَّسَماتُ نَفَضْنَ الغُبارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذى يصلِّب له فى هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرَّ وأخفى » فقال :

عطاءَ الإلهِ فإن الإلـ ... ـه يسمع فى الغامضاتِ السِّرارا

(١) أيبلى : راهب . الهيكل : موضع فى صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب : صور الصليب بيده . صار : سكن .

(٢) الجؤار : التضرع بالدعاء .

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التى أنشد فيها منتحلها قسمه بثوبى راهب اللج فقال :

وإنى وثَوْبَىْ راهبِ اللُّجِّ والتى ... بناها قُصَىٌّ والمُضاضُ بن جُرْهُمِ (١)

وحقًّا أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة فى القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمنُ بيتك فى العُلا ... بأَجْيـادِ غربىِّ الفِناءِ المحرَّمِ (٢)

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا فى الإسلام أخذاً من قوله تعالى : ( بسم الله الرحمن الرحيم ) ، وقد دارت فى القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذى مر بنا والذى يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب للناقوس ، ومما لا شك فيه أن قوله فى قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبنِّى كافرًا لك نعمةً ... علىَّ شهيدٌ شاهدُ اللهِ فاشْهَدِ

مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة فى الإسلام . وقد شك ابن قتيبة فى القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذى أنشده يحيى بن متى فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ فى كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على هذه الشاكلة :

ورَبَّك لا تشركْ به إن شِرْكَهُ ... يَحُطُّ من الخيرات تلك البواقيا

بل اللهَ فاعبدْ لا شريك لوجهه ... يكنْ لك فيما تكدحُ اليوم راعيا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم وردّ الأمانات إلى أهلها والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذاك ناهياً » . فلا شك فى أن هذه القصيدة إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شىء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب فى أن يحيى بن متى لعب فى ذلك

---

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد بثوبيه أعماله الصالحة . ومعروف أن أمر الكعبة كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

(٢) أجياد : موضع فى بطحاء مكة ، والفناء المحرم : حرم مكة .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والوعاظ المسلمون يزيدون فى النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتى على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك فى قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى فى قصائد كثيرة ، واقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقى فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويسترسل فى الحديث عن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة[1]. ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه فى البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أوريشليم والنجاشى فى أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذى نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضْر وتخريب سابور له بجنوده ، ويُنْهِى قصته تلك بقوله

وفى ذاك للمُؤْتسِى أســوةٌ ومَأْرِبُ قَفَّى عليها رِمْ[2]

ويمضى فى هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير فى البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفتهم جيوشاً قادمة ، هى جيوش حسان تُبَّع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء فى القصيدة وأنكروها[3] . وليس فى القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسبَ ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقًّا ولا ذا نميمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعانى تجعلنا نشك فيها كما نشك فى القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شىء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

---

(١) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

(٣) الموشح ص ٤٩ .

ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيماء الذى بناه سليمان ، ويسهب فى وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم تنفعه أمواله ولا ما كان يُجبى إليه ، فلم يَنْجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إنما نحن كشىء فاسدٍ فإذا أصلحه الله صَلحْ

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ، فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع فى قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣ أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦ [1] إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هى الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بنى شيبان [2] . ونراه فى القصيدة رقم ٧٩ يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان . ونلتقى فى نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى فى بعض أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبى فى المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها فى الحيوان إلى مضرِّس [3] بن زرارة ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها فى الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما يداخلها من الوعظ والمعانى الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه فى مطولاته التى لا يعتورها الشك . وقد تأخذ القصيدة شكلا قصصيًّا غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ فى الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماه وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٦ وانظر الديوان ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٥/٧٨ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه فى القصيدة رقم ٢٥ يسوق فى تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى له حتى يأخذها وتحصُّنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدراع إلىّ وإما أن أقتل ابنك ، وأبى السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهى قصة مشكوك فى أصلها ، ويزيدها شكًّا فى قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل فى الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك فى القطعة رقم ٢٤ التى تقدَّم لها . وإذا تقدمنا فى الديوان وأعدنا النظر فى القصيدة رقم ٣٩ التى اتّهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن فى نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبته رسولا شيطاناً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضى فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب فى أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغى أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك فى القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ومما يزيدنا شكًّا فيها استرساله فى الخيال مع كل ما يشبِّه صاحبته به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ فى وصف من يشتار العسل ويجنيه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعْرَفُ به قيس بن ثعلبة فى الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجروا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة فى الشام وبنى الجُلَنْداء

فى عُمان وغيرهم . وليس فى القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك فى القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواتها فى مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات فى مطلعها ثم تمضى القصيدة فى الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل فى المدح . ونحن نشك أيضاً فى القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة فى ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه فى ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لممدوحه ٥أبيات. ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع فى أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلاثة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه فى قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له فى العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقى له دراسة نطمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبى عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على رواية الكوفة فى التوثيق. على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جاير ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى فى بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

٤

## شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه فى فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض[١] واتخذه متْجراً يطوف به البلاد[٢] ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف فى أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج ، منوهاً فى أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْقٍ على شىء من نفسه . ومعانى المديح عنده لا تفترق عن المعانى العامة فى مدائح الجاهليين ، فهو ما ينى يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْن الضعفاء فى القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل فى وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفى تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف فى الأوصاف من حيث هى وإنما نقصد الغلوّ فيها والإفراط ، بحيث يُعَدّ مقدمة لمبالغات العباسيين فى مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة فى العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه فى المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلوّ دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباعث الذى بعث الأعشى على إفراطه فى مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . واقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وسَعَى لِكِنْدَةَ سَعْىَ غيرِ مُواكلٍ ... قَيْسٌ فَضَرَّ عــدوَّها وبنَى لها

(١) ابن سلام ص ٥٤ .

(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/٤٩ .

وأهـــان صالحَ مالهِ لفقيرها ... وأَسَى وأصلحَ بينها وسعى لها[1]
فترى له ضُرًّا على أعــدائِه ... وترى لنعمته على مَنْ نالها
أثرًا من الخَيْر المزيِّن أهــلَهُ ... كالغيث صابَ ببلدةٍ فأَسالها[2]
وإذا تجىء كتيبـــة ملمومةٌ ... خَرْساءُ يخشى الدَّارعون نِزالها[3]
كنتَ المقدَّم غير لابسٍ جُنَّة ... بالسيف تضرب مُعْلِماً أبطالها[4]
وعلمتَ أن النفسَ تَلْقَى حَتْفَها ... ما كان خالقُها المليكُ قضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسى ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ، ولا من حيث المقابلة بين المعانى فحسب ، بل من حيث ما يجرى فى ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهى رقة دفعته إلى الغلو فى وصف شجاعة ممدوحه ، فإذا هو بجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترس يحميه ، وبيده سيفه يضرب به فى الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لابد أن سيموت ، فلا داعى للخوف ، فلكل امرئ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم . واقرأ له هذه القطعة فى مديحه لهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة :

إلى هَوْذَةَ الوهَّابِ أهديتُ مِدْحَتِى ... أُرَجِّى نوالاً فاضلاً من عَطائكا
سمعتُ برَحْبِ الباع والجود والنَّدَى ... فأَدْلَيْتُ دَلْوِى فاستقتْ برِشائكا[5]
فَتًى يحمل الأعباءَ لو كان غيرُهُ ... من الناسِ لم يَنْهَضْ بها متماسكا
وأنت الذى عوَّدْتنى أن تَرِيشنى ... وأنت الذى آويْتَنى فى ظِلالكا[6]
وإنك فيما نابنى بىَ موزَعٌ ... بخيرٍ وإنى مولَعٌ بثَنائكا[7]

(١) أسى : داوى .
(٢) صاب المطر : سقط وانصب .
(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها قعقعة .
(٤) الجنة : الترس .
(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء : حبل الدلو .
(٦) تريشنى : تعيننى وتغنينى .
(٧) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وهو مضطرب فى الديوان . موزع : مولع .

وجدتَ عليًا بانياً فوَرِثْتَــهُ　　وطَلْقاً وشيبانَ الجوادَ ومالكا(١)

بحورٌ تَفُوتُ الناسَ فى كل لَزْبَةٍ　　أبوك وأعمــامٌ همُ هؤلائكا(٢)

وما ذاك إلا أن كفَّيْك بالنَّدَى　　تجــودان بالإعطاء قبل سؤالكا

يقولون فى الأَكفاء أكبرُ هَمِّه　　ألا رُبَّ منهم من يعيش بمالكا(٣)

وجــدتَ انْهدامَ ثَلْمَةٍ فبنيتَها　　فأنعمتَ إذ ألحقتَها ببنائكا(٤)

ورَبَّيْتَ أيتاماً وأنعشْتَ صِبْيَةً　　وأدْرَكْتَ شأْوَ السَّبْقِ دون عنائكا(٥)

ولم يَسْعَ فى العلياء سَعْيَك ماجدٌ　　ولاذو إنًى فى الحىِّ مثلَ إنائكا(٦)

فإنك تحس المبالغة فى المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل فى السؤال تبذلا لم يعرف فى عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر .

ولا نشك فى أن هذا الذوق هو الذى جعله فى أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوِّه فى كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع ، واقرأْ معلقته أو قصيدته السادسة فى الديوان التى وجّه بها إلى يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، وكان قد قتل أحدُ بنى قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمَّسهم للثأر لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوه مستهلا تهديده وهجاءه بقوله :

أَبْلِغْ يزيدَ بنى شيبانَ مَأْلُكَةً　　أبا ثُبَيْتٍ أما تنفكُّ تَأْتَكِلُ(٧)

أَلَستَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا　　ولستَ ضائرَها ما أَطَّتِ الإبِلُ(٨)

(١) واضح من الشطر الثانى أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هوذة .

(٢) لزبة : شدة وأزمة .

(٣) يريد بالشطر الأول أن ممدوحه يتهم بأنه يظلم أكفاءه .

(٤) الثلمة : فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق .

(٥) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وبه بعض الاضطراب فى الديوان .

(٦) إنى : مقصور إناء .

(٧) مألكة : رسالة . تأتكل : تسعى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلته : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأبيد .

كناطحٍ صخرةً يوماً ليُوهِنَها فلم يَضِرْها وأَوهى قَرْنَهُ الوَعِلُ[1]

وواضح أنه يوبّخه ساخراً منه مزدرياً له، إذ يقول: يا أبا ثُبَيْتٍ أما تنفك تسعى بالشر والفساد وتقع فى أعراضنا بالذم والقدح ؟ ألست منتهياً عن ذمنا وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ، وما مثلك إلا كمثل وَعْل ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلاثة ، فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له فى أولاهما موازناً بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنت إلى عامرٍ الناقضِ الأَوتارَ والواترِ[2]
يا عَجبَ الدَّهْرِ متى سُوِّيا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
ولستَ بالأكثر منهم حَصىً وإنما العِزَّة للكاثرِ[3]
علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلَنْ عِرْضَك للوارد والصادرِ
ولستَ فى السِّلْم بذى نائلٍ ولستَ فى الهيجاء بالجاسرِ[4]

وهذا من أشد الهجاء وأمضّه ، ولو أنه شتّم وأفحش لعُدّ سفيهاً، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه وتُكثر من تأويله . وهو يشير فى الأبيات إلى حكم هرم بن قُطْبة حين تنافر إليه علقمة وعامر ، فسوَّى بينهما فى عبارته المأثورة : « إنكما كَرُكْبَتَى البعير الأدْرَم ( الفحل ) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه قائلا: أين الثَّرَى من الثُّرَيَّا . وقد مضى فى القصيدة الثانية يذمه، ولم يكن من أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْن خَمائصا[5]

---

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلى .
(٢) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر . وناقضها : الآخذ بثأره . الواتر : الذى يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .
(٣) الحصى هنا : العدد .
(٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجرىء .
(٥) المشتى : زمن الشتاء . غرثى : جائعة . خمائص : ضامرات البطون .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلا فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُتْخَمون فى ليالى الشتاء الباردة على حين يشتد كَلَبُ الجوع والمسغبة على جاراتهم . واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمعْ إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعُدْ عليك التاجُ مُعْتصباً بهِ لا تطلبنَّ سوامَنا فتُعَبَّدَا[1]

وفى كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخفّ به وبجيوشه التى يعدّها لقتالهم وقتال شيبان ، وكأنه يلوّح له أنه إن هاجمهم مُنِىَ بهزيمة تطيح بتاجه. ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه «إذا مدح رفع وإذا هجا وضع» ، فهو إذا مدح غالى فى مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر فى شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التى كانوا يعتزون بها فى الجاهلية من الجود فى الجدب والشجاعة فى الحرب والرعى فى المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله فى معلقته التى أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أثخنتْ فى القبائل من جراح :

سائلْ بنى أسد عنّا فقد علموا أَنْ سوف يأتيك من أنبائنا شَكَلُ[2]
واسألْ قُشَيْراً وعبد الله كلَّهمُ واسألْ ربيعةَ عنا كيف نَفْتَعِلُ[3]
إنا نقاتلهم حتى نقتِّلَهم عند اللقاءِ وهم جاروا وهم جَهِلُوا
لئنْ مُنِيتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ لم تُلفِنا من دماءِ القوم نَنْتَفِلُ[4]

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .

(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .

(٣) نفتعل هنا : نفعل العظائم .

(٤) غب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء. ننتفل : ننتفى ، ويروى ننتقل .

قد نَخْضِبُ العَيْرَ من مكنون فائِلِه وقد يَشيط على أرماحنا البَطلُ[١]
نحن الفوارسُ يومَ العَيْن ضاحيةً جَنْبَىْ فُطَيْمَةَ لا مِيل ولا عُزُلُ[٢]
قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإنا مَعشَرٌ نُزُلُ[٣]

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صوَّر فيه الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن تلك سجية لهم دَرَج عليها شيوخهم وشبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعى لكثرة رحلاته وأسفاره ، وهو فى هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجرى فيها من ظلام أو سَموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول فى معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهر التُّرْسِ موحشةٍ للجنِّ بالليل فى حافاتها زجَلُ[٤]
لا يَتَنَمَّى لها بالقيْظِ يركبُها إلا الذين لهم فيما أَتَوْا مَهَلُ[٥]
جاوزْتُها بطَليحٍ جَسْرةٍ سُرُحٍ فى مِرْفَقَيْها إذا استعرضتَها فَتَلُ[٦]

وواضح أنه فى هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر فى مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التى لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتى لا يركبها فى حمارّة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره ، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوِ أسفار ضامرة موثّقة الخلق صلبة قوية . وهو

---

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن: الفائل : القناة الدموية كالشريان . يشيط : يهلك .
(٢) يوم العين : يوم كان بين بنى قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع فى البحرين يسمى قطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .
(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .
(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل: صوت. حافاتها : نواحيها .
(٥) يتنمى: يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .
(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسرة : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة .

لا يطيل فى وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل فى وصف ما يلمُّ به منها على عادة الجاهليين. واقرأْ هذه القطعة :

وفلاةٍ كأنهــا ظَهْرُ تُرْسٍ ... ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ(١)
قد تجاوزتُها وتَحْتِى مَرُوحٌ ... عنتريسٌ نَعَّابةٌ مِعْنَاقُ(٢)
عِرْمِسٌ تَرْجُمُ الإِكامَ بأَخْفا ... فِ صِلابٍ منها الحصى أَفْلاق(٣)
وكأَن القُتود والعِجْلَةَ الوَفْـ ... ـراءَ لمَّا تَواهقَ السُّوَّاق(٤)
فوق مُسْتَبقِلٍ أَضرَّ به الصَّيْـ ... ـفُ وزَرُّ الفُحولِ والتَّنْهاق(٥)
أَو فريدٍ طاوٍ تضيَّف أَرْطَا ... ةً عليه من الغصونِ رُوَاق(٦)
أَخرجتْه شَهْباءُ مُسْبِلَةُ الوَدْ ... قِ رجوسٌ قُدَّامها فُرَّاقُ(٧)
وتعادَى عنــه النهارُ تُواريـ ... ـه عِراضُ الرِّمال والدَّرْداق(٨)
وتَلَتْه غُضْفٌ طوارِدُ كالنَّحْـ ... ـلِ مغاريثُ همُّهن اللَّحاق(٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شقًّا وسرعان ما يشبهها فى سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

---

(١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق : ما تطعمه الإبل من الشجر .

(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة . نعابة : تمد عنقها فى سيرها . معناق : من العنق وهو سير واسع للإبل .

(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .

(٤) القتود : الرحل بأدواته . العجلة : المزادة ، وهى قربة الماء . الوفراء : كثيرة المياه . السواق : طويل الساق . تواهق : مد عنقه فى السير. وتلك رواية المخطوطة اليمنية ، والبيت فى الديوان مضطرب .

(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ، زر : طرد وعض .

(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش . طاو : جائع . الأرطاة : من أشجار البادية . رواق البيت : شقته التى دون شقته العليا . وتلك رواية المخطوطة اليمنية .

(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد . مسبلة : مرسلة . الودق : المطر . رجوس : مرعدة . فراق : جمع فارق وهى السحابة المنفردة .

(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : دك متلبد من الرمال .

(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية الآذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته ، ويصوره طاوياً فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فَوْتَها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شىء يطلبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل فى تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبيد أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز فى وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع فى الحديث عن الخمر والغزل .

وحقًّا نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى فى معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها فى فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها فى نفوس شاربيها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهى وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكد يسمع من قريش — كما أسلفنا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب[1] ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسِّم فيه بيئتها ومجالسها وما يُنْثَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائى يَلْبَسْنَ الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصَّنْج والعود ، واستمعْ إليه يقول فى معلقته :

---

(١) أغانى ٩/١٠٨ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى | شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ(١)
فى فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا | أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِيَل
نازعْتُهم قُضُبَ الرَّيْحان مُتَّكئاً | وقهوةً مُزَّةً راووُقُها خَضِلُ(٢)
لا يَسْتفيقون منها وهْى راهنةٌ | إلا بهاتِ وإن عَلُّوا وإن نَهِلُوا(٣)
يَسْعى بها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَفٌ | مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ(٤)
ومستجيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يَسْمعُهُ | إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ(٥)
والساحِباتِ ذيولَ الخَزِّ آونَةً | والرّافلاتِ على أعْجازها العِجَلُ(٦)
من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ | وفى التجارب طولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ

وهو يصف فى الأبيات يوماً من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشط خفيف الحركة طيب النفس فى فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق فى أذنه قُرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة فى ثوب واحد رقيق ، ومن ورائها نساء ترفل فى ثياب الخز والحرير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهى تهتز وترتجّ . ويختم أبياته بأنه تمتع بكل ذلك

---

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم . ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط .

(٢) قضب : جمع قضيب وهو الغصن ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .

(٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب . إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

(٤) ذو زجاجات : يريد الساقى . نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية . مقلص أسفل السربال : قصير القميص . معتمل : مطبوع على العمل والنشاط .

(٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى قربة الماء .

ولّهتا به وجرّبه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها وما تُحْدث فى قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغوفاً بها مفتوناً ، بل سكِّيراً مغرقاً فى السكر ، وهو فى ذلك يقترب من ذوق جماعة المجّان فى العصر العباسى أمثال أبى نواس ، وفى الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه فى اللهو والمجون . ولا نشك فى أن هذا جاءه من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فينهلون ويَعلُّون ولا يفيقون ، وهو فى أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضْفى عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتانى يُؤَامِرُنى فى الشَّمو ... ل ليلا فقلتُ له : غَادِها[(١)]

أَرِحْنا نباكرُ جِدَّ الصَّبو ... حِ قبل النفوس وحُسَّادها[(٢)]

فَقُمْنَا ولما يَصِحْ دِيكُنا ... إلى جَوْنَةٍ عند حدَّادها[(٣)]

تنخَّلها من بِكارِ القِطـافِ ... أُزَيْرِقُ آمِنُ إكْسادها[(٤)]

فقلتُ له : هٰذه هاتِها ... بأَدْماءَ فى حَبْلِ مُقْتَادِها[(٥)]

فقال : تزيدونى تسعةً ... وما ذاك عَدْلاً لأَندادها[(٦)]

فقلتُ لِمنْصَفِنا : أَعْطِهِ ... فلما رأى حَضْرَ شُهَّادهـا[(٧)]

أضاءَ مِظَلَّتَه بالسِّرا ... جِ والليلُ غامِرُ جُدَّادِها[(٨)]

(١) يؤامرنى : يشاورنى . الشمول : الخمر . غادها : انطلق بنا إليها .

(٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة الصباح .

(٣) جونة : جرة وخابية. حدادها : خمارها.

(٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين . آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذى يرعاها .

(٦) أندادها : أمثالها .

(٧) منصف : خادم . حضر : حضور . شهادها هنا : الدراهم .

(٨) مظلته : حانوته أو خباءه . الجداد : الأهداب والأستار .

دَراهمُنا كُلُّها جَيِّـدٌ ... فلا تحبِسنَّا بِتَنْقَادِهـا[١]
فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً ... تُسَكِننا بعد إرْعادها[٢]
كُمَيْتاً تكشَّفُ عن حُمْرةٍ ... إذا صرَّحتْ بعد إزْبادها[٣]
كحَوْصَلة الرَّأْلِ فى جَرْيها ... إذا جُلِيَتْ بعد إقْعادها[٤]
وجال علينـا بإبريقهِ ... مخضَّبُ كفٍّ بِفرْصادها[٥]
فباتتْ رِكابٌ بأَكْوارِها ... لدينـا وخيلٌ بِأَلْبادها[٦]
ورُحْنـا تنعِّمنا نشوةٌ ... تجورُ بنا بعد إقْصَادِها[٧]

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة فى الديوان عن خمريات أبى نواس وأضرابه فى شىء ، لولا ذكره للأكوار والألباد فى نهايتها ، ولوحذفنا بيتهما لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو فى أولها يذكر أن فتى طرقه قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهبا معاً لتناول الخمر . وذهبا فى هزيع الليل الأخير –قبل أن تصيح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود– إلى حانوت خمار أعجمى ، كنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعته ، استخلص خمره من بكار القطاف ، وهى خمر معتقة ومثلها لا يكسد ولا يبور . وطلبا إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه ، وهى واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها ، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفؤاً لها ، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضىء الخمار خباءه أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام ، فناولهم خمراً تمشت فى أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهى خمر حمراء

(١) تنقادها : نقدها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها .
(٢) تسكننا : نسكن إليها .
(٣) كيتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بحوصلته فى الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ من جلوة العروس. القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ٤/١٤ .
(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .
(٦) الأكوار : الرحّال . الألباد : جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج
(٧) إقصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه فى صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنَّها ولونها وخمَّارها وحانوتها وتعرَّض لصياح الديكة فى السحر ومساومة صاحبها فى ثمنها وأثرها فى النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى فى المفاصل . وهذه المعانى جميعها تدور فيها وفى أفلاكها خمريات العباسيين . واستمعْ إليه يقول :

وأدْكنَ عاتقٍ جَحْلٍ سِبَحْلٍ ... صَبحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِرَامَا[1]
من اللاتى حُمِلْن على الرَّوايا ... كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما[2]
مُشَعْشَعةً كأنَّ على قَرَاها ... إذا ما صَرَّحتْ قِطَعاً سَهاما[3]
تـخيَّرها أخو عاناتَ شهرًا ... ورَجَّى أَوْلَها عاماً فعاما[4]
يؤمِّل أن تكون له ثراءً ... فأغلق دونها وغَلا سِواما[5]
فأعطينا الوفاءَ بهـا وكُنَّا ... نُهين لمثلها فينا السَّواما[6]
كأنَّ شُعاعَ قَرْنِ الشمسِ فيها ... إذا ما فُتَّ عنْ فيها الختاما[7]

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صَبَحَ به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التى تجتلب من البلاد البعيدة والتى تنفذ رائحة خمرها بطيبها إلى الأنف ، فتستلُّ منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروَّقة ، صافية كأنها بياض الحرِّ أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها فى «عانات» ، وظل

---

(١) أدكن : هو الدن لأنه يطلى بالقطران . عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القربة الكبيرة . سبحل : ضخم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .
(٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .
(٣) مشعشعة : مروقة . قراها : ظهرها . صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف وما يكون معه من البياض .
(٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تؤول إليه من ثمن غال .
(٥) السوام : بكسر السين المساومة فى البيع والمغالاة .
(٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .
(٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها فى الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً فى ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهى تسقط من دنها بشعاع الشمس الوهاج ، وهى من الصور التى أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دنانها ، ومن قوله فى كأس من كئوسها :

وكأْسٍ كَعيْنِ الديكِ باكرتُ حَدَّها　　　بفتيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تضربُ[1]

سُلافٍ كأَنَّ الزعفران وعَنْدَماً　　　يصفَّق فى ناجودها ثم تُقْطَبُ[2]

وهو يشبهها بعين الديك فى صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه فى الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها فى نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُلط بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهى كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأْسٍ شربتُ على لذَّةٍ　　　وأُخرى تداويتُ منها بها

لكى يعلم الناسُ أنى امرؤٌ　　　أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما ينى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التى تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون فى العصر العباسى . ونحن إنما سقنا ما وثّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسى أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربى فى العصر العباسى وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفترق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبى نواس وأضرابه فى شىء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلاتَ الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر فى تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبى نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

---

(١) باكر : شربها فى الصباح الباكر . حدها : سورتها وحدتها .

(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم : شجر عروقه حمراء يصبغ به . يصفق : يروق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .

ويزمزم . فماذا بقى لحجان الفرس فى العصر العباسى . وقُلْ ذلك نفسه فى قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهى ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبو على ذوق الجاهليين ، إذ يوصَف زقُّها الأسود وقد طُلى بالقار وطُرح على الثرى بحبشى نام وانبطح ، كما يوصَف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسَحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلا عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ فى وصف صاحبته ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبثوثة فى معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فظلِلْتُ أرعاها وظلَّ يَحُوطُها ... حتى دنوتُ إذا الظلامُ دَنا لَهَا

فرميتُ غفلةَ عَيْنِهِ عن شاتِه ... فأصبتُ حَبَّةَ قلبه وطِحالَها(١)

حَفِظَ النهارَ وبات عنها غافلاً ... فَخلتْ لصاحبِ لَذَّةٍ وخلا لها

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعى أن يكون غزله ماديًّا صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة فى الغزل وشدة فى الوله والتعلق بالمحبوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمعْ إليه يقول فى فاتحة معلقته :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهل تطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهى صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذى أثرت فيه الحضارة ، وحوّلته دقيقَ الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل فى حبه ويخضع ، وامْضِ معه فى المعلقة فستجده يشبِّب بصاحبته منحرفاً عن طريقة الجاهليين فى بكاء آثار الديار والأطلال ، فهى موضوع حبه وغزله ، ولا داعى لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

---

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ فى وصفها مفتنًّا فى ذلك افتناناً ، فتارة يصف بَشرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحَلْيها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا غيرى وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهى تعرض عنه ، وتحب رجلا آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قالتْ هُرَيْرَةُ لما جئتُ زائرَها وَيْلِي عليك ووَيْلِي منك يا رَجُلُ

فقد بالغ فى وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل فى هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسى مادى ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التى يبوحون بها ولا يستطيعون كَظْمها ولا كتمها ، بل يندفعون فى تصويرها معبرين عن ولهم وعشقهم .

والحق أن الأعشى فى شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضرى الذى ظهر من بعده ، سواء فى غزله وخمره أو فى هجائه ومديحه ، فهو فى هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء فى خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو فى خطاب النساء والتذلل لهن أو فى اللعب بمهجوِّيه والاستهزاء بهم والاستخفاف ، أو فى وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين فى مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم فى تصوير ممدوحيه ، فإذا هو يقول فى هَوْذة بن على الحنفى :

فَتًى لو يُبارى الشمسَ ألقتْ قناعَها أو القمرَ السَّارِى لألْقَى المقالِدَا[1]

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلا ولو بارى القمر لذلَّ له وانقاد صَغاراً . وهى مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلا :

(١) ألقى المقالد : ذل وانقاد ، وفى رواية ينادى بدلا من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها     عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابِرِ
حتى يقولَ الناسُ مما رأوا     يا عجباً للميِّتِ الناشرِ(١)

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه فى صنع الأخيلة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا فى موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الخمر ، وإنما فى أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا فى البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول فى بعض شعره إنها تجترع الآكام اجتراعاً ، لما تَطْوى منها ، يقول :

إذا ما الآثماتُ وَنَيْنَ حطَّتْ     على العِلاَّتِ تَجْتَرِعُ الإكاما(٢)

ويقول مصوراً سرعة ناقته فى الهاجرة :

بِجُلالةٍ سُرُحٍ كأنَّ بِدَفِّها     هِرًّا إذا انتعلَ المَطِيُّ ظِلالَها(٣)

فهى تجرى مذعورة كأن هِرًّا يخدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال فى الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله فى خُطاها. وتكثر عنده الصور المخترعة فى الخمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة ، وما نشك فى أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقَّت معانيه ، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلى ، وليس لفظه وحده الذى رَقَّ ، بل إن نفسه رقَّت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقًّا تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكنا نحس عنده أنه يُبْقى على كثير من بداوته ، ولذلك

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .
(٢) الآثمات هنا : الوانيات . العلات : الحالات المختلفة . حطت : أسرعت . الإكام : المرتفعات .
(٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح : سهلة . الدف : الجانب .

لم يرقّ غزله ولا خاض فى الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعيًّا أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة فى سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً فى خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحيل شعره ألحاناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنويع فى أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافى المتمكنة .

على أنه ينبغى أن نلاحظ شيئين ،هما كثرة ما نُحِلَ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية فى بعض قصائده ، حَمل عليه من أجلها المرزبانى فى كتاب الموشح ، والذى لا شك فيه أن هذا من صُنْع المنتحلين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحِّى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشىء الثانى فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلا عن صورة الأسلوب الجاهلى ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التى تدور فى الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة فى التركيز وحشد المعانى فى الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين فى أشعاره كقوله فى مطلع قصيدته الأولى فى ديوانه :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأَطلالِ وسؤالى فهل تردُّ سؤالى
دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاورها الصَّيْـ ـفُ بريحين من صَباً وشَمال(١)

فقد جاء بفاعل تردّ فى أول البيت الثانى ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس فى يوم ذى قار :

ولله عَيْنا مَنْ رأَى من عِصابة أَشدّ على أيدى السُّعاة من التى(٢)

(١) الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية لينة . تعاورها : تتداولها .

(٢) السعاة : الذين يسعون فى الحرب ويهيجونها .

أَتَتْنَا من البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيْضُها          وقد رُفعتْ راياتُها فاستقلَّتِ(١)

وهو يوازن فى البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنها لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التى أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول فى البيتين ، وكأنه لم يعترف بأن للبيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين فى شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه فى البيت ، بل يتمه فى بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التى اشتهر بها فى شعره ، وذلك أنه حين يبتغى تفضيل شىء على شىء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًّا بما ، ثم يسترسل فى وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ ، على شاكلة قوله فى المعلقة يصف صاحبته وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ          خَضْراءُ جادَ عليها مُسْبلٌ هَطِلُ(٢)

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ          مؤزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ(٣)

يوماً بأَطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ          ولا بأَحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ(٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها فى بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمسَ أزهارُها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبته شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ماقدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلى ، وهى حلقة تضيف جديداً واضحًا إلى هذا الشعر سواء فى موضوعاته أو فى معانيه أو فى أحاسيسه أو فى سهولة ألفاظه أو فى خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

---

(١) البطحاء : موضع بقرب ذى قار . البيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت وعلت .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع . وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات . شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة تفتح الأزهار . مؤزر : لابس إزارا . عميم النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .

(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت قبل الغروب .

## الفصل الحادى عشر
# طوائف من الشعراء

## ١

### الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تتجهز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها ، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطِّراد والإغارة ، فأحبوها وعُنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما ، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم ، وممن اشتهر بوصفها أبو دُؤاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جَنْدل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلا وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوّحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البَسُوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه[1] . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

(١) انظر أخباره فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٤ والشعر والشعراء ١/٢٥٦ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٣٠٢ .

سِجالا ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا ينى يحمِّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً فى أثناء ذلك عن رغبة حارة فى الانتقام ، واسمعْه يقول : [١]

وإنى قد تركتُ بوارداتٍ ... بُجَيْرًا فى دَمٍ مثلِ العَبيرِ[٢]
وهمّام بن مرَّةَ قد تركنا ... عليه القَشْعمان من النُّسورِ[٣]
وصبَّحنا الوُخومَ بيومِ سَوْءٍ ... يُدافعْن الأَسنَّةَ بالنُّحورِ[٤]
كأنَّا غُدْوَةً وبَنى أبينا ... بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ[٥]
فلولا الريحُ أُسْمِعَ أهلُ حِجْرٍ ... صَليلَ البَيْضِ يُقْرَع بالذكورِ[٦]

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر فى موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قَتَل فى الأولى بجير بن الحارث بن عُبَاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حَرِّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيل[٧] فارس بنى عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون فى أواسط نجد شرقى الحجاز ، وجنوبى منازل عبس وذبيان ، وغربى منازل بنى تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بنى حنيفة فى اليمامة وبنى الحارث بن كعب فى نجران ومذحج فى شمالى اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها . وقد جعلهم انتشارهم فى أواسط نجد يحاربون

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغانى ٥/٥٣ .
(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب فى حرب البسوس . العبير : الزعفران .
(٣) القشعم من النسور : الضخم ، وهمام : أخو جساس قاتل كليب .
(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .
(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما فى الأخرى ، والصورة واضحة .
(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض : خُوَذُ الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها .
(٧) انظر أخبار عامر فى الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٠ ، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١/٢٩٣ وانظر الخزانة ١/٤٧٢ ، ٣/٤٩٢ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض فى يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص ٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥/٥٦ والسيرة النبوية ٤/٢١٣ .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل مع ديوان عبيد بن الأبرص فى سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه فى حروب قومه مع ذبيان فى يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة فى يوم فيف الريح وكان لقومه على بنى الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنىّ به طويلا فى شعره على شاكلة قوله (١) :

لقد علمتْ عُلْيا هوازنَ أننى ... أنا الفارسُ الحامى حقيقةَ جعفرِ (٢)
وقد علم المزنوقُ أنى أَكُرُّهُ ... على جَمْعهم كرَّ المَنيحِ المشهَّرِ (٣)
إذا ازورَّ من وَقْع الرماح زَجَرْتُهُ ... وقلتُ له : ارجعْ مقبلاً غير مُدْبرِ (٤)
وأنبأْتُه أن الفِرار خَــزَايةٌ ... على المرء ما لم يُبْلِ جهدًا ويُعْذِرِ (٥)
أَلستَ ترى أرماحهم فىَّ شُرَّعا ... وأنت حِصانٌ ماجدُ العِرْق فاصبرِ (٦)
وقد علموا أنى أَكُرُّ عليهمُ ... عشية فَيْفِ الريح كَرَّ المدوِّرِ (٧)
وما رِمْتُ حتى بَلَّ نحْرِى وصدْرَه ... نجيعٌ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُسَيَّرِ (٨)

وهو يصور فى هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتخلىَّ عن بسالته الحربية ، حتى يحمى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يردّ إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفْعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

---

(١) المفضليات ص ٣٦١ .

(٢) عليا هوازن : مجموعة من قبائلها هى سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه فى القداح . فكلما خرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزى . يعذر : يأتى بعذر .

(٦) شرعاً : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) ما رمت : ما برحت . النجيع : الدم . الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه فى ميدان القتال ، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن علاثة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هرم بن قطبة الفزارى ، فسوّى بينهما — كما مر بنا — فى عبارته المأثورة إذ قال لهما : « أنتما كركبتى البعير الأدرم ( الفحل ) تقعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا فى صف عامر ضد علقمة . وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوفقه للإسلام ، فمضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب فى أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنترة بن شداد [1] ( وقيل ابن عمرو بن شداد ) العبسى ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة الفلحاء . وكان من عادة العرب فى الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقّوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنترة ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة فى حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذى أصابه فى الصميم ، وفى ذلك يقول [2] :

إنى امرؤٌ من خير عَبْس مَنْصِباً ... شَطْرى ، وأَحْمى سائرى بالمُنْصُلِ [3]
وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظتْ ... أُلفيتُ خيْرًا من مُعَمٍّ مُخْوَلِ [4]

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوى أو شطره الأول ، أما شطره الثانى من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتى غدا فى قومه خيراً ممن

(١) انظر فى عنترة الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٨/٢٣٧ والشعر والشعراء ١/٢٠٤ وما بعدها والخزانة ١/٥٩ وراجع ديوانه برواية الأصمعى ، فى مخطوطة الشنتمرى « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر فى مجموعة « مختار الشعر الجاهلى » . وطبع الديوان طبعات أخرى فى بيروت والقاهرة وليدن .

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٣٨٨ .

(٣) منصباً : أصلا . المنصل : السيف .

(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

عمه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يذود عن حماها ذياده ، ويصور لنا فى نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بكَرت تخوِّفنى الحُتوفَ كأننى ... أصبحتُ عن غَرض الحتوفِ بِمَعْزِلِ(١)

فأجبتُها إن المنيَّـة مَنْهَلٌ ... لا بد أن أُسقَى بكأسِ المنْهَلِ(٢)

فاقْنىْ حياءكِ لا أباللكِ واعلمى ... أنى امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ(٣)

إن المنيَّـةَ لو تمثَّلُ مُثِّلَتْ ... مِثْلى إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ(٤)

والخيلُ ساهمـةُ الوجوه كأنما ... تُسْقَى فوارسُها نقيعَ الحَنْظَلِ(٥)

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب ، بل إنه ليصم أذنيه عن ندائها قائلا لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً فى ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلا عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم فى نفسه ، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت فى مثال لكانت فى مثل صورته وخلقته ، وهو يقتحم الصفوف ، والخيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربية ، وقد اتُّخذت من أخباره نواةٌ للملحمة المعروفة باسمه والتى يمكن أن تعد إلياذةَ العرب ، وهو فيها يحارب فى الجزيرة العربية وخارجها فى الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقية والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم فى الجاهلية وفى الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح فى حروبهم مع الروم والصليبيين فى الشرق والغرب .

ونحن لا نُعْنَى الآن بعنترة الأسطورة ، إنما نعنى بعنترة الفارس الجاهلى الذى

---

(١) الحتوف : المتالف .
(٢) منهل : مورد .
(٣) اقنى : احفظى وصونى .
(٤) الضنك : الضيق .
(٥) ساهمة : متغيرة .

دوّخ الأقران والأبطال فى حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلّحَ شفتيه ، والذى لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت فى نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح فى أشعار عنترة ، ونظن ظناً أنه نمّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عَبْلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثَمّ كان يمكن أن يُعَدّ أباً لشعر الحب العذرى عند العرب ، كما يعد فعلا أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التى استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عُذْرى(1) .

وَرِدِّد البَصَر فى أشعار عنترة فستجده يأسر لبّك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه فى سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظُلم تحوّل كالإعصار العاصف حتى يأتى على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ، وإذا دعاه داعى المكرمات لبّى باذلا كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول — فى معلقته — مخاطباً ابنة عمه عبلة التى شُغف قلبه بها حبّاً :

أَثْنِى علىَّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مُخالقتى إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلمتُ فإن ظُلمىَ باسلٌ ... مُرٌّ مَذاقتهُ كطعم العَلْقَمِ(2)

(1) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .
(2) باسل : كريه .

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعِرْضى وافرٌ لمْ يكْلَمِ (١)
وإذا صحوتُ فما أقصِّرعن نَدًى وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصْمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرْك من شَهد الوقائع أننى أغْشى الوَغَى وأعفُّ عند المغْنَمِ (٢)

فهو يتَقدَّم فى أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته (٣) :

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظَلُّه حتى أنال به كريمَ المأكَلِ

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنىء . وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقى ، حتى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته — وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرُّمْحِ الطويل ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّمِ (٤)

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية :

---

(١) يكلم : يجرح .
(٢) الوغى : الحرب .
(٣) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٨٧ ، والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع الشديد .
(٤) يريد بالثياب جسده وبدنه .

فازورَّ من وَقْـع القَنا بِلبَانهِ      وشكا إلىَّ بعَـبْرةٍ وتَحَمْحُمِ[1]

او كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى      ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِى

وكأنما فرسه بضْعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات، وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية حُرْمتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يغض طرفه عنها ولا يُتْبعها قلبه وهواه ، يقول[2] :

ما استمتُ أنثى نفسَها فى موطنٍ      حتى أوفِّىَ مَهرَها مولاها[3]

أَغْشَى فتاةَ الحىِّ عند حَليلها      وإذا غَزَا فى الحرب لا أغشاها[4]

وأَغضُّ طَرْفى ما بدتْ لى جارتى      حتى يوارِى جـارتى مأْواها

إنى امرؤٌ سَمْحُ الخليقة ماجِدٌ      لا أُتْبِعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهى مروءة طرَّزها حب عذرى عفيف لابنة عمه عبلة ،وحقًّا إن هذا الحب إنما شاع فى بوادى نجد فى أثناء العصر الأموى ، بسبب المعانى الروحية التى بثَّها الإسلام فى نفوس العرب ، وهو لم يشع فى الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة ، فقد كان يتسامى لا فى خلقه فحسب ، بل أيضاً فى حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها حبًّا عنيفاً ، أو قل حبًّا يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملذَّع الذى يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول[5] :

أفمن بكاءِ حمامةٍ فى أيْكةٍ      ذرفت دموعُك فوق ظهر المِحْمَلِ[6]

---

(١) ازور : مال وانحرف . اللبان : الصدر . التحمحم . صهيل فيه شبه الأنين

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٤٠٩ .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها . الموطن هنا : موطن القتال .

(٤) أغشى : أزور .

(٥) مختار الشعر الجاهلى ٣٨٧ .

(٦) أيكة : شجرة . ذرفت : سالت . المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادمَ عهدهُ أقْوَى وأقفرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ (١)
ولقد نزلتِ ــ فلا تَظُنِّى غيره ــ منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

ودائماً نراه يعبِّر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكِ والرِّماحُ نواهلٌ منِّى وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دمى
فوَدِدْتُ تقبيل السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثَغْرِك المتبسِّمِ

فهو دائم الذكر لها فى وغَى الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتل فى غارة له على بنى نَبْهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه (٢) .

(١) أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه .
(٢) انظر الأغانى ٨/٢٤٥ .

## ٢

### الصعاليك (١)

الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحَدَّادية وأبى الطمحان القَيْنى ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وتأبَّط شرًّا والشَّنْفَرى ، وكانوا يَشْركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الوَرْد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هُذَيل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدَّائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم فى شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُّلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرى » وتُرْوى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًّا من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله (٢) » . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَّحَّام (٣) ،

(١) راجع بحثاً فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف) .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٨٨ .

وللشنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم[1]، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل[2]. وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية ففى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصوّر لنا ذلك أبو خِراش الهُذَلِىّ فيقول[3] :

| | |
|---|---|
| وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يملّنى | فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى[4] |
| وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى | إذا الزادُ أمسَى للمُزَلَّجِ ذا طعمِ[5] |
| أردُّ شُجاعَ البطنِ قد تعلمينه | وأوثرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ |
| مخافةَ أن أحْيَا بِرغْمٍ وذلَّةٍ | وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ |

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم ، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم مِن حوله أشحاء النفوس بالطعام ، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبّر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهى حقّاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً ، واقرأْ فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شرّاً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .
(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .
(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/ ١٢٧ والأغانى ٢١/ ٤٢ .
(٤) أثوى : أطيل حبسه .
(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصافى . المزلج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيًّا رفيعاً من البرّ ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفّاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . ونقف قليلا عند أكثرهم دوراناً على الألسنة ، وهم تأبط شرًّا والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرًّا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت [١] بن جابر بن سفيان ويعد فى أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فَهْم تسمى أميمة . واختلف القدماء فى تعليل لقبه «تأبط شرًّا» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئلت عنه قالت : تأبط شرًّا ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هى التى لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر ، أى إنه يحمل دائماً فى أطوائه شرًّا يريد أن ينفذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبى كبير الهذلى ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر فى تصعلكه . وكان يرافق الشَّنْفَرى فى كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برّاق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة منثورة فى كتب الأدب ، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة ، وهى مطبوعة بطابع القصص الشعبى ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار ، فمن ذلك لاميته التى أنشدها أبو تمام فى حماسته يرثى بها خاله والتى تستهل بقوله : « إن بالشِّعْب الذى دون سَلْع » فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر [٢]. ويمكن أن نُدْخل فى هذا الباب من الانتحال ما يُرْوَى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بَجيلة فى الطائف ، إذا أرْصَدُوا لهم كميناً على ماء أوثقهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة ، نجوا بها عَدْواً على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشدّه السريع حينئذ فيقول :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٨/٢٠٩ والشعر والشعراء ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٩ ، ٤٣ والخزانة ١/٦٦ .

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة فى شرحه لديوان الحماسة .

لیلةَ صاحوا وأَغْرَوْا بى سِراعَهُمُ ... بالعَيْكَتين لدى مَعْدَى ابنِ برّاقِ[١]
كأنَّما حثْحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ ... أو أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وطُبَّاقِ[٢]
لا شىءَ أَسرعُ منى ليس ذا عُذَرٍ ... وذا جناحٍ بجنْب الرَّيْدِ خَفَّاقِ[٣]
حتى نجوتُ ولما ينْزِعوا سلَبِى ... بِوالِهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْداقِ[٤]

وواضح أنه يذكر كيف فات عَدّائى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عَدْوه ، وكأنما جُنَّ جنونه . ويمضى فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويجله ، قائلا :

لكنما عِوَلى إن كنتُ ذا عِوَلٍ ... على بَصِيرٍ بكسبِ الحمدِ سَبَّاقِ[٥]
سبَّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرتهِ ... مُرجِّعِ الصَّوْتِ هدًّا بين أَرْفاقِ[٦]
عارى الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ ... مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهى الماء غَسَّاقِ[٧]
حَمَّالِ ألويةٍ شَهَّادِ أَنْدِيةٍ ... قَوَّالِ مُحْكَمَةٍ جوَّابِ آفاقِ[٨]
فذاك هَمِّى وغَزْوِى أَستغيثُ بهِ ... إذا استغثتَ بضافى الرأس نَعَّاقِ[٩]

---

(١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .

(٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : من نباتات الصحراء .

(٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .

(٤) السلب : ما يسلب فى الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .

(٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت كالعويل .

(٦) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .

(٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنبوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .

(٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .

(٩) غزوى هنا : مقصدى . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعوّل على هذا الصعلوك المثالى الذى يشركه فى غزواته والذى يتصف بسبقه إلى المحامد فى عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته فى اقتحام الليالى المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذى يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد فى مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شىء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بلْ مَنْ لعَذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللوم جِلْدى أىَّ تَحْرَاقِ[1]

يقول أَهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ ... من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأَعْلاقِ[2]

عاذلتى إن بعضَ اللَّوْم مَعْنَفَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ[3]

ولعل فى هذه الأبيات وما سبقها ما يدل فى وضوح على أن الصعلوك الذى كان يقطع الطريق فى الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعثت لعصره من سمو فى الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتل فى إحدى غاراته بمنازل هُذَيْل .

أما الشَّنْفَرى فكان من عشيرة الإواس[4] بن الحجْر الأزدية اليمنية، فهو قحطانى النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه[5]، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهى أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدَّ فى أغربة العرب. ولا نراه ينشأ فى قبيلة الأزد ، إنما ينشأ فى قبيلة فَهْم ، ويضطرب الرواة فى سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بنى فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بنى سلامان الأزديين معلناً فى أشعاره أنه يقتصّ لنفسه منهم . ويقال

---

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعيننى على هذا العذالة .

(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .

(٣) معنفة : عنف .

(٤) انظر فى ترجمة الشنفرى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/٨٧ وخزانة الأدب ٢/١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .

(٥) خزانة الأدب ٢/١٦ .

إن الذى روّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله[١]. وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه . وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثّلون به تمثيلا فظيعاً ، يقطّعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع . ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة فى مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط فى أخباره جميعاً كما تلعب فى أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، ومما اشتهر له لامية العرب ، وهى مما نُحل عليه ، فقد نصّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[٢] ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع فى جنوبى اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول فى هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حيًّا حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلا نحيلا يلبس ثياباً بالية ونعالا ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيابين ولا وَجِلين ، يقول :

وباضعة حُمْرِ القِسِىِّ بعثتُها ... ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ[٣]
خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَلٍ ... وبين الجَبَا ، هيهات ، أَنشأتُ سُرْبَتى[٤]

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .
(٢) الأمالى للقالى (الطبعة الأولى) ١/١٥٧ .
(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسى ، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .
(٤) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

أُمَشِّى على الأرض التى لن تضرَّنى ‌‌ لأُنْكِىَ قوماً أو أصادف حُمَّتى(١)
أُمَشِّى على أَيْنِ الغَزاةِ وبُعْدها ‌‌ يقرِّبنى منها رَوَاحِى وغُدْوَتى(٢)

وهو يعترف فى البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزوتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتّر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغـَزاة بهم فيموتوا جوعاً . ويقص علينا ذلك فى مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وأُمُّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتَهم ‌‌ إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتحَتْ وأَقلَّتِ(٣)
تخاف علينا العيْلَ إنْ هى أكثرتْ ‌‌ ونحن جياعٌ ، أَىَّ آلٍ تَأَلَّتِ(٤)
مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُر السِّتْرُ دونها ‌‌ ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إن لم تُبَيِّتِ(٥)
لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً ‌‌ إذا آنَسَتْ أولى العَدِىِّ اقْشَعَرَّتِ(٦)
وتأتى العَدِىَّ بارزا نِصْفُ ساقها ‌‌ تَجُولُ كعَيْرِ العانةِ المتلفِّتِ(٧)
إذا فزعوا طارتْ بأبيضَ صارمٍ ‌‌ ورامتْ بما فى جَفْرِها ثم سَلَّتِ(٨)
حُسامٍ كلون المِلْحِ صافٍ حَدِيدُهُ ‌‌ جُرازٍ كأَقْطاعِ الغَدِيرِ المنعَّتِ(٩)
تراها كأَذْنابِ الحَسِيلِ صَوَادِرًا ‌‌ وقد نَهِلَتْ من الدِّماءِ وعَلَّتِ(١٠)

---

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شىء . أنكى العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها .

(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم . أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة . رامت بما فيه أى بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

وواضح أنه ينتقل من تصوير شحّ هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًّا حقيقية ، فهى صاحبة صعاليك ، لا تتخذ السّتر ولا تبيت فى الخيام ، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هى ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التى تنهل من دمائهم وتعل ، فترى وكأنها أذناب الحسيل ، وهى أولاد البقر المستأنسة . ووقف لايل فى ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يمنى حقًّا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا فى بلاد اليمن (١) .

ونمضى مع الشنفرى فى القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقده وغليله ، يقول :

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَها  بما قَدَّمت أيديهمُ وأَزَلَّت (٢)
وهُنِّئَ بى قومٌ وما إن هَنَأْتُهمْ  وأصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمَنْبتى (٣)
شفينا بعبد الله بعضَ غَليلِنا  وعوفٍ لدى المعْدَى أوانَ استهلَّتِ (٤)
وإنى لحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتى  ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ استمرَّتِ (٥)

وهو يصرح بأنه جزى بنى سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الوَرْد العبسى (٦) ، وكان أبوه

---

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٦٨/٢

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنه منهم وفى الوقت نفسه هو لا يهنئهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير فى وضوح إلى أنه ينزل فى بنى فهم وليس منهم .

(٤) الغليل فى أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء . استمرت : من المرارة .

(٦) راجع فى ترجمة عروة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٧٣/٣ والشعر والشعراء ٦٥٧/٢ والخزانة ١٩٤/٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠.

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثَمَّ كان له دور بارز فى حرب داحس والغبراء[١] . أما أمه فكانت من نَهْد من قضاعة ، وهى عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه ، إذ أحس فى أعماقه من قِبَلها بعار لا يُمْحى ، يقول[٢] :

وما بىَ من عارٍ إخالُ علمتُه سوى أن أخوالى – إذا نُسبوا – نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم وضاقت بهم الدنيا . وفى الأغانى « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة ( أزمة جدب ) شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يَحْفر لهم الأسراب ، ويَكْنُفُ عليهم الكُنُفَ (الحظائر) ويكْسبهم. ومن قَوِىَ منهم – إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيبًا . حتى إذا أخصب الناس وألْبَنُوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك[٣] » . وفى خبر آخر أن عبسًا كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم[٤] .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهُلَّاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

---

(١) أغانى ٣/٨٨ .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) أغانى ٣/٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ .
(٤) أغانى ٣/٨١ .

لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقًّا من حقوق أقوامهم[١] . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صِنْواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين فى قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشىء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعاً فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، فى جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردَّد أشعاره فيه هذه المعانى الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به فى خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الوَرْد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[٢] » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »[٣] وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤٌ عافى إنائىَ شِرْكةٌ ... وأنت امرؤٌ عافى إنائِك واحدُ[٤]
أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمى شحوبَ الحق ، والحقُّ جاهدُ
أفرِّق جِسْمى فى جسوم كثيرةٍ ... وأحْسُو قَراحَ الماء ، والماءُ بارد[٥]

وعروة يعبِّر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنًى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلا ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

(١) أغانى ٣/٨١ .
(٢) أغانى ٣/٧٣ .
(٣) أغانى ٣/٧٤ .
(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعد شىء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

البَطين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذى لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل فى البِرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعى فى أصمعياته[1] ، وهى بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التى تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه فى المهالك من أجلها ، حتى يغنيها ؛ وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهى تماريه شفقة عليه :

تقول : لكَ الويلاتُ هل أنت تاركٌ ... ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تارة وبِمَنْسِرِ[2]

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أَبَى الخَفْضَ من يَغْشاكِ من ذى قرابةٍ ... ومن كلِّ سوداءِ المعاصم تَعْترى[3]

ومُسْتَهْنِىءٍ ، زيدٌ أبوه ، فلا أرى ... له مَدْفَعاً ، فاقْنَىْ حياءكِ واصْبِرِى[4]

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعُفاة ، طلاّب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كمجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد بسوداء المعاصم التى أجهدها الجوع والهزال . تعترى : تغشى .

(٤) مستهنئ : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظيه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلُه ... مُصَافِى المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ (١)
يَعُدُّ الغِنَى من دهره كلَّ ليلـةٍ ... أَصاب قِراها من صديق ميسَّرِ (٢)
ينامُ عِشـاءً ثم يُصْبِح قاعِدًا ... يَحُثُّ الحصَا عن جنْبِه المتعفِّرِ (٣)
يُعين نسـاءَ الحيِّ ما يستعنَّه ... فيُضْحى طَلِيحاً كالبعير المحسَّرِ (٤)

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو فى النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه . ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَا حياة وضيعة . أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ، يقول فى وصفه :

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهـهِ ... كضَوْءِ شِهاب القابسِ المتنوِّرِ (٥)
مُطِـلاًّ على أعدائهِ يَزْجُرونه ... بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ (٦)
وإن بَعُدُوا لا يأْمنون اقترابَهُ ... تشوُّف أَهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٧)
فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَهـا ... حَميدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذى يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة ، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

---

(١) لحى : قبح ولعن . المشاش : رءوس العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .
(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى كثرت إبله .
(٣) يحث : يحرك .
(٤) الطليح : المعيى ، ومثله المحسر .
(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة ساطعة من النار . القابس : الذى يقبس النار أو يأخذها . المتنور : المضيء .
(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر : المشهور .
(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر قدومه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرىء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أَيهلك مُعْتَمٌ وزيدٌ ولم أَقُمْ ... على نَدَبٍ يوماًولى نفسُ مُخْطِرِ (١)

ستُفْزِعُ بعد اليَأْسِ منْ لا يخافنا ... كواسِعُ فى أُخْرَى السَّوام المُنفَّرِ (٢)

نُطاعِنُ عنها أَولَ القوم بالقَنَا ... وبيِضٍ خِفافٍ وقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ (٣)

ويوماً على غاراتِ نَجْد وأَهلِه ... ويوماً بأَرضٍ ذات شَثٍّ وعَرْعَرِ (٤)

يُريح علىَّ الليلُ أَضيافَ ماجدٍ ... كريمٍ ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ (٥)

وهو فى أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد ، وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلق لرعاية الضعفاء والهلاَّك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حمَى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة فى نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدِّمه لضيفانه ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْقى على شىء فى يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شىء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسعها . السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المذعور .

(٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء . ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء .

(٤) الشث والعرعر : من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً فى المرعى . مقتر : فقير مقل .

## ٣

## شعراء آخرون

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت فى أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثانى بالمدينة والواحات المنثورة فى شمالها بالحجاز مثل فدك وخيبر ووادى القُرَى وتيماء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية، وإن ظلوا على دينهم ؛ ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عنى هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم فى الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرّ — لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً — إلى إجلائهم عن المدينة ، وأتمّ عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة ، من يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا فى الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم ، فلم يؤثّروا فيهم شيئاً ، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية ، وينفذ بعضهم إلى النّظْم بها .

على أنه ينبغى أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما رووه فى هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلا[1] فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالى السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبى الحُقَيْق ، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح بن عمران ، وشعية بن الغريض أخو السموأل ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذّيال ، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج فى الأغانى[2] وابن هشام فى السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دنىّ وسمّاك والغريض بن السموأل .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ٩٤ وما بعدها .

وأشهرهم جميعاً السموأل[١] صاحب حصن الأبلق بتيماء ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المرى على اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ، وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه السلاح قَتَل ابنه ، فقال له: اقتله، فلن أعطيه لك . وبذلك وفّى على غير عادة قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التى عرضت لهذه القصة فى إسهاب . ومما نُسب إلى السموأل خطأً القصيدةُ المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤْم عِرْضُه ... فكلُّ رداءٍ يَرْتديه جميلُ

وهى لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[٢] ، وهو شاعر إسلامى . وقد نشر لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه فى مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهى رواية ضعيفة ، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى الأصمعى تائية له[٣] ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ، وهى تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةً ما مُنِيتُ يومَ مُنِيتُ ... أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيتُ[٤]

كنَّها اللهُ فى مكانٍ خَفِيٍّ ... وخَفِيٌّ مكانُهـا لو خَفِيتُ

أنا مَيْتٌ إذ ذاك ثُمّتَ حَيٌّ ... ثم بعدَ الحياة للبعْثِ مَيْتُ

وصلة هذه الأبيات بما جاء فى القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ يُمْنَى وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة، وما حياته الثانية فى الآخرة بمستغربة ، إنها تلى موته وحياته الأولى التى تحوَّل إليها من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ويقول جلّ وعز : (أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٩/ ٩٨ .

(٢) شرح المرزوقى على ديوان الحماسة لأبى تمام (طبع لجنة التأليف) ١/ ١١٠ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت وخلقت . وبيت : هيئت .

من نُطْفَة فإذا هو خَصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيِي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ) . وترددُ هذا المعنى فى الذكر الحكيم هو الذى يجعلنا نشك فى هذه القصيدة ، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت فى العصور الإسلامية على هَدى التنزيل العزيز ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آى القرآن الكريم مثل :

ليت شعرى ! وأشعرنَّ إذا ما  قِيل إقرأْ عُنْوانها وقريتُ[١]

وأصل هذا البيت قوله تعالى فى سورة الإسراء : ( وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابكَ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ) وعلى هذه الشاكلة :

مَيْتَ دَهْرٍ قد كنتُ ثم حييتُ  وحياتى رَهْنٌ بأن سأموتُ

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : ( كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرْجَعُون ) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغى أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج فى بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبى فى مفضلياته شعراً ليهودى ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون فى الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا فى الجملة يحتفظون بدينهم الوثنى ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغى أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم فى الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون فى أواخر القرن

---

(١) رواية هذا الشطر فى ابن سلام : « قربوها منشورة فقريت» . وقريت : لغة فى قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها فى جمهور عربى من سكان الحيرة سمى بالعِباديين ، وتشير الكلمة التى سُمّوا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت فى الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهمًّا من مراكزها ، كما عُرفت فى بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاعة وكلب وطيئ وبكر وتغلب وتنوخ وتميم ، ويزعم اليعقوبى أن نفراً من مكة تنصروا قبيل الإسلام[1] . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة فى الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحى ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية فى الجاهلية عَدِىُّ بن زيد[2] شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العِباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه فى دواوين الفرس وفى دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدى عُنى بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحْسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلَّم الرمى بالنشَّاب ولعب العجم على الخيل بالصَّوالجة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز ( ٥٩٠ — ٦٢٨ م ) وعُهد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم فى بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفى أثناء عودته مرَّ بدمشق وهنالك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى . وظل مدة متنقلا بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبى قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً فى توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذى أفسد ما بينهما بعض بنى مَرِينا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذى ولاه ما ولاّه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجْده عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار فى مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

---

(١) تاريخ اليعقوبى ( طبعة أوربا ) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر فى عدى بن زيد الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزبانى ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

بإطلاقه ، غير أن الرسول وجد عديًّا قد مات فى سجنه مختنقاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب فى قضائه عليه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التى يدور فيها شعر عَدِىّ الخمرُ ، وذكرُ الموت والفناء، وهو فى الموضوع الأول يعد أباً لشعراء الخمر فى الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا فى العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبى نواس. وفى أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العِبادى ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظنًّا أنه هو الذى وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغنِّى فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت[1] :

بَكَرَ العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ح يقولون لى ألا تَسْتفيقُ
لستُ أدرى وقد جفانى خليلى أعدوٌّ يلومنى أم صديقُ
ثم قالوا ألا اصْبَحُونا فقامتْ قَيْنَةٌ فى يَمينها إبْريقُ[2]
قدَّمتْه على عُقارٍ كعين الـ ـدِّيك صَفَّى سُلافَها الرَّاووق[3]

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومَنْ جاءوا بعده من شعراء الخمريات ، وكأن القاسم العبادى هو الذى وجه الوليد ليحتذى فى خمرياته على أسلوب عدى ويجرى فى طريقته .

ويروى الرواة لعدى بجانب شعره فى الخمر أشعاراً فى الفناء وزوال الحياة ، وهى تجرى فى أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصى يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر[4] :

من رآنا فليحدِّثْ نفسَه أنه موفٍ على قَرْنِ زوالِ[5]
وصروف الدَّهر لا يبْقَى لها ولما تأتى به صُمُّ الجِبالِ

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٦٥ .
(٢) اصبحونا : اسقونا خمر الصباح .
(٣) الراووق : الدن .
(٤) الأغانى ٢/١٣٤ .
(٥) قرن : طرف .

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا　　يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ[1]
عُمِّرُوا دهرًا بعيشٍ حَسَنٍ　　آمِنِى دَهْرِهِمُ غيرَ عِجالِ
ثم أضْحَوْا عَصَف الدهرُ بهم　　وكذاك الدهرُ يُودى بالرجـالِ
وكذاك الدهرُ يرمى بالفتَى　　فى طِلاب العيش حالا بعد حالِ

فالدنيا إلى زوال وكلٌ من عليها فان، حتى صُمُّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعمّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم . ومن الأسلوب الثانى قوله[2] :

أيُّها الشامتُ المعيِّرُ بالدَّهْـ　　ـرِ أأنتَ المبرَّأُ الموفـورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيَّـ　　ـام بل أنت جاهلٌ مغرورُ
من رأيت المَنون خَلَّدْن أم مَنْ　　ذا عليه من أن يضام خفير[3]
أين كسرى :كسرى الملوك أنوشِرْ　　وانُ أم أينَ قبله سابورُ
وبنو الأصْفر الكرامُ ملوكُ الـ　　ـرّوم لم يبق منهمُ مذكور

ويستمر فى ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحُفَر والقبور كأن لم يكونوا شيئاً مذكورا ، إلى أن يقول :

ثم بعد الفلاح والملك والإمَّـ　　ـةِ وارتْهمُ هناك القبورُ[4]
ثم صاروا كأنهم ورَقٌ جَـ　　ـفَّ فألْوتْ به الصَّبا والدَّبورُ[5]

ويكثر البحترى فى حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التى يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى كل هذه الأشعار، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ، فإن القُصَّاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى ليمكن القول بأن أكثر ماروى له من أشعار منحول عليه ، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

(١) الزلال : الصافى العذب .
(٢) الأغانى ١٣٨/٢ .
(٣) المنون : الموت، وأعاد عليه الضمير مجموعاً.
(٤) الإمة : النعمة .
(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور : ريحان .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه ، فحُمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد(١) » وأكبر الظن أن هذا هو السبب فى أن المفضل والأصمعى لم يُثبتا له فى مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا فى غير هذا الموضع إنه لا يفصح فى شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغى أن لا نغلو فى فهم مسيحية أمثال عدى فى الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم ، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية فى النصرانية ، وهو مخطئٌ فى ذلك خطأ بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلى وثنى ظهر عنده واضحاً التأثر بأهل الكتاب أمية(٢) ابن أبى الصلت الثقفى ، وهو من الطائف ويقال إنه اتصل بالأحبار وتحنّف ولبس المسوح وتنسّك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح فى سيد من سادتها المشهورين هو عبد الله بن جُدْعان ، الذى يقول له فى بعض مديحه(٣) :

أأذكرُ حاجتى أم قد كفانى ... حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ ... عن الخُلُقِ الكريم ولامساءُ
وأرضُك كلُّ مكرمةٍ بنَتْهـا ... بنو تَيْمٍ وأنتَ لهم سماءُ(٤)

ويقول أيضاً (٥) :

عطاؤك زَيْنٌ لامرئٍ قد حبَوْتَهُ ... بخيرٍ ، وما كل العطاء يَزِينُ
وليسَ بشَيْنٍ لامرئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشِينُ

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلّه الله فعاداه ، وزيّن له

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .

(٢) انظر فى أمية الأغانى (طبعة الساسى) ٦٩/١٦ وطبعة دار الكتب ٣٢٧/٨ وما بعدها وابن سلام ص٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١٣٠/١ وحياة الحيوان للدميرى ١٥٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٩/١ .

(٣) ابن سلام ص٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨.

(٤) بنو تيم : عشيرة عبد الله بن جدعان .

(٥) ابن سلام ص٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨.

الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يُسْلِم، بل أخذ فى معاندة الرسول ومحادّته بلسانه، ولما هُزِمَتْ قريش فى موقعة بدر هزيمتها المشهورة، فقُتل كثير من رجالها وسادتها حزّ ذلك فى نفسه، فناح على قَتْلاها بقصيدة طويلة يقول فيها[1]:

مــاذا ببَدْرٍ فالعَقَنْـ ـقَلِ من مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ[2]
هلّا بكيتَ على الكِرا م بنى الكرام أُولى الممادِحْ

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فى ليبزج سنة ١٩١١ وفى سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت فى بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية. وتدور هذه الأشعار فى موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلا بذلك على وجود الله، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله[3]:

إلهُ العــالمين وكل أَرضٍ وربُّ الراسياتِ من الجبالِ
بناها وابْتَنَى سَبْعاً شِداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رِجالِ[4]
وسوّاها وزيّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شُهبٍ تَلألأُ فى دُجاهــا مراميها أشدّ من النِّصالِ[5]
وشقَّ الأَرض فانبجستْ عيوناً وأَنهاراً من العَذْب الزُّلالِ[6]
وكلُّ معمَّرٍ لا بُدَّ يوماً وذى دُنيا يصير إلى زوالِ
ويَفْنَى بعد جِدَّتِه ويَبْلَى سوى الباقى المقدّسِ ذى الجلال
وسِيق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنَّكالِ[7]
فنادوا وَيْلَنا وَيْلاً طويلا وعَجُّوا فى سلاسلها الطِّوَالِ[8]

(١) ابن سلام ص ٢٢١.
(٢) العقنقل: كثيب رمل ببدر. المرازبة: جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم. الجحاجح: جمع جحجاح وهو السيد الكريم.
(٣) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص ٣٠.
(٤) السبع الشداد: السموات السبع.
(٥) النصال: جمع نصل وهو حد السيف.
(٦) انبجست: انفجرت.
(٧) المقامع: محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس.
(٨) عجوا: صاحوا ورفعوا أصواتهم.

فليسوا ميِّتين فيستريحوا وكلهمُ بحرِّ النــارِ صالِ
وحَلَّ المتقون بدارِ صِدْقٍ وعَيْشٍ ناعمٍ تحت الظلال

وهذه المعانى تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأساوبها ضعيف واهن ، ولذلك كنا نظن ظنًّا أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثانى الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاتهام فيه أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قَصَصاً لا يكاد يفترق فى شىء عما جاء فى القرآن الكريم كقوله فى رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من افتدائه بِذبح عظيم[1] :

ولإبراهيمَ الموفِّىَ بالنَّــذْ رِ احتساباً وحامل الأَجْزالِ[2]
بِكْرَهُ لم يكن ليَصْبِرَ عَنْهُ أو يراه فى معشرٍ أَقْتَالِ
يا بُنَىَّ أنِّنِى نذرتك لِلَّـ ـهِ شحيطا فاصْبِرْ فِدًى لك حالى[3]
فأَجاب الغلامُ : أنْ قال فوهُ كلُّ شىءٍ لله غيرَ انتحال
فاقْضِ ما قد نذرتَ لله واكْفُفْ عن دمى أن يمسّه سرْبالى[4]
بينما يخلع السَّرابيل عنه فكَّه ربُّه بكَبْشٍ جُلال[5]
قال : خُذْهُ وأرسل ابنك إنِّى للذى إن فعلتما غــيرُ قالِ

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم[6] ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط فى هذا الخطأ البيِّن، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين[7] . ويظهر

---

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .
(٢) الأجزال : العظائم .
(٣) شحيطاً : ذبيحا .
(٤) سربالى : ثوبى .
(٥) جلال : عظيم .
(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١/١١٣ ودائرة المعارف الإسلامية فى «أمية» .

أن الانتحال على أمية قديم ، فنى ابن سلام أن الحسن بن على بن أبى طالب استنشد النابغة الجعدىّ بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريكَ لَهُ  من لم يَقُلها فنفسَه ظَلَما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قالها[١] » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدى وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة فى قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى فى بعض هذه الجوانب ، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذى أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوهما ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة فى هذا الاتجاه[٢].

وواضح مما قدمناه أن ما رُوى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصّر من العرب فى الجاهلية وكذلك من تحنّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغى أن نحترس منه وأن لا نتسع فى الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغُثاء والإسفاف فى اللفظ والتعبير .

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها .
(٢) انظر مثلا الحيوان ٢/٢٢٠ وما بعدها ، ٣/٥١١ ، ٤/١٩٦ وما بعدها .

الفصل الثانى عشر

# النثر الجاهلى

## ١

### صور النثر الجاهلى

حين نتحدث عن النثر الجاهلى ننحّى النثر العادىّ الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شىء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذى يُعَدُّ أدباً حقًّا هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قَصصا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبَّرة . ويسمِّى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثَمَّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية (١) . ولا ينقض ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجًّا أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله و إلى الإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعْرِضْها علىّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حسن (٢) .. »

---

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص ١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٢/٦٨ .

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة فى التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية فى العصر الجاهلى فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة رسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشْغَفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القَصَّاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجدّ ، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمْر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شىء من أصول هذا القَصَص الذى كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه، وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصص الذى كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصُّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثانى للهجرة ورُواته، فدونوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبى عبيدة فى شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبَّاء ، مما نجده مبثوثاً فى تاريخ الطبرى وفى السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج فى أغانيه ، ومن المحقق أن كثيرا من هذا القَصص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء ، فإنها لا تتفق فى شىء و وثائق التاريخ الرومانى الصحيحة [1] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزباء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يُدْعى زباى ، فنسبوها إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشُجْعانهم ، يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكَّر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسْتم وإسْفنديار [2] . . »

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيرًا عن كُهَّانهم وشعرائهم وسادتهم ، وهو قَصَص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب مَعِينًا لا ينضب من الأخبار ، وارجعْ إلى تراجم صاحب الأغانى فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصَص الهوى ، كقصة المرقِّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها ، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يُعْرفْ بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقِّش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمنًا ، وفى هذه الأثناء أصاب عَوْفًا زمان شديد،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٩٩ وما بعدها .

(٢) السيرة النبوية ( طبعة الحلبى ) ١/٣٢١

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه في المال ، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله . وقال إخوة المرقَّش لا تخبروه بخبرها حين يرجع ، بل قولوا له إنها ماتت ، وذبحوا لذلك كبشاً ، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه ، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت ، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره .

وخرج المرقش يطلب أسماء ، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها ، ويترسل إليه أن يحدثها عنه ، فيقول له : إني لا أستطيع أن أدنو منها ، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة ، فأحلب لها عَنْزاً ، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا ، فإذا حلبتَ فألقه في اللبن ، فإنها ستعرفه ، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك ، فأخذ الراعي الخاتم . ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرَّغْوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع ، فقرع الخاتم ثَنِيَّتَها، فأخذته واستضاءتْ بالنار ، فعرفته ، فقالت للجارية : ما هذا الخاتم ؟ قالت : مالي به علم . فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران ، فأقبل فزعاً، فقال لها : لم دعوتني ؟ قالت له : ادْعُ عبدك راعيَ غنمك ، فدعاه، فقالت : سَلْه أين وجد هذا الخاتم ، قال : وجدته مع رجل في كَهْف خُبَّان، فقال لي : اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني مَنْ هو، ولقد تركته بآخر رمَقٍ . فقال له زوجها : وما هذا الخاتم؟ قالت : خاتم مرقَّش، فأعْجِل الساعة في طلبه . فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طَرَقاه من ليلتهما ، فاحتملاه إلى أهلهما ، فمات عند أسماء وقال : قبل أن يموت :

سَرَى ليلا خيالٌ من سُلَيْمى ... فأرَّقني وأصحابي هجودُ
فبِتُّ أُدِير أمري كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلها وهمُ بَعيد
سكنَّ بِبلدةٍ وسكنتُ أخرى ... وقُطِّعتِ المواثقُ والعهودُ
فما بالي أَفِي ويُخَانُ عَهْدِي ... وما بالي أُصادُ ولا أَصيدُ

ثم مات فدفن في أرض مُراد(١).

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٩/٦ وما بعدها .

ولم نَسُقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التى دارت فى الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكنا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها فى الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاص لمثلها من عناصر التشويق، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله،وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا،على نحو ما نعرف فى قصة الزبَّاء، وهى تتضمن عند الضَّبِّى اثنى عشر مثلا[1] .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع فى كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى فى الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل فى هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التى يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3]، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبى على هذه الشاكلة[4] :

« زعموا أن أخوين كانا فيا مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريباً منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِئَ ، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطنَّ . فهبط ذلك الوادى ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعنَّ أخى . فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيتَ ديناراً فى كل يوم . قال : أفاعلة أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : فإنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدَّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ،

(١) أمثال العرب للمفضل الضبى (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/١٠٢ .

(٣) انظر كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

(٤) أمثال العرب للضبى ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ( نتعاهد ) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان ( من قصيدة يعاتب بها بنى مرة ) :

وإنى لألقى من ذوى الضِّغْن منهمُ بلا عَثْرة ، والنفس لا بُدَّ عَاثِره
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفَا من حليفها وما انفكَّتِ الأمثالُ فى الناس سَائره

ويُنْشِـدُ الضبي بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظَنًّا أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود ، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى ، وبين قصصه الزارع والحية[1] ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعًا .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قَصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عدا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تتراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَبْرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئا من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوبًا ، ولذلك كنا نتهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

---

( ١ ) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٤٣ .

## ٢

## الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تغيَّر ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ،إذ ألف فيها صُحار العَبْدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١—٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر ،ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[١] . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عُبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتاباً .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل، وقد تتمخضُ عن أمثال أخرى فترْوَى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة أكثر ما رواه عُبيد ابن شَرِيَّة، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ درّج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الاولى على نحو ما ترتِّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهى تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزبّاء من مثل : « لايطاع لقصير أمرٌ » و« لأمرٍ ما جدَعَ قصيرٌ أنفه » و« بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميدانى ثمانية عشر مثلا . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصراً له يسمى الخوَرْنق ، بناه له رومى يسمى سنِمَّار ،فلما أتمه قال له سنمار : إنى أعرف موضع آجرّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا، فقال : لا جرم لأدَعنّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سِنِمَّار .

وأما الطريق الثانى فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغْرِق فى القدم مثل لُقمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ولم تبق منها باقية فى الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم [1] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُذْكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم [2] كما ينص على ذلك المفسرون [3] . ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قويًّا قوة

(١) البيان والتبيين ١٨٣/١ وما بعدها و ٣/٤ : ٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٨٤ .

(٣) قصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ١٨٦/٧ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٧٧/٢ .

خارقة حكما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَد آخرها، وبه ضربوا المثل فى طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »[1]. ونُسبت إلى لقمان فى عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهى مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هلر « Heller » كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطورى الذى يقال إنه عاش عمر سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لُبَد الذى ذكره شعراؤهم كثيراً. (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به فى الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور[2] بن ناحور ابن تارخ. (جـ) مرحلة متأخرة، وهى مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان ».

ومن المحقق أن « هلر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرّقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان. وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثانى تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبى حيان، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه، وهى تَطْبَعُ بطابع دينى[3].

واشتهر فى الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولَبيد بن ربيعة »[4] وأحكمهم أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظَّرِب العدْوانى، فأما أكثم فكان من المعمَّرين[5]،

(١) انظر المعمرين للسجستانى ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٧٧/٢ والميدانى ٣٧٥/١.

(٢) انظر الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ١٨٦/٧.

(٣) البيان والتبيين ١٤٩/٢.

(٤) البيان والتبيين ٣٦٥/١.

(٥) انظر فى أكثم المعمرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٧٠/١٥ ومجمع الأمثال ١٤٥/٢ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١٢٠/١.

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد فى أماليه، وهى تجرى على هذا النسق[١] :

« رُبَّ عُجلةٍ تهب رَيْثا[٢]. ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفَى للوَيْل . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغْى . شر النُّصْرة التعدِّى . آلم الأخلاق أضيقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل[٣] . الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدّ[٤] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو فى الحريق . ليس من العدل سرعة العذل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت فى النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملُوم . قد يبلغ الخَضْمَ بالقَضْم[٥] . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْل ستَئِيم[٦] . الحرّ عزوف . لا تطمع فى كل ما تسمع » .

وعامر مثل أكثم يدخل فى المعمرين[٧] ، ويقال إنه « لما أسنَّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تَقْرَع بالعصا إذا هو فَهَّ[٨] عن الحكم وجارَ عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صُحَر بنت لقمان وهند بنت الخُسّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس فى ذلك :

لذى الحِلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليعلما[٩] »

وكان مثل أكثم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره فقال[١٠] :

---

(١) المزهر للسيوطى ( طبعة الحلبى ) ١/١

(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوّت على صاحبها حاجته

(٣) الصول : الاستطالة فى الحرب .

(٤) الجد : الحظ .

(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .

(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميدانى فى المثل : إن العصا قرعت لذى الحلم .

(٨) فه : حاد وجار وانحرف .

(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .

(١٠) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٣/٩٠ .

ومنا حَـكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضُ ما يقْضِى

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه[١] .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيِّنون قائلها ، وهذا طبيعى لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجِّدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: « بِعَيْنٍ ما أرينَّك » فإن معناه : أسرعْ ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علّق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه[٢] » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعتِ اللبن» [٣] بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون فى المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . فى أمثالهم : « أعط القوسَ باريها[٤] » بتسكين الياء فى باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضا : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُناتها بُناتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم رفصحائهم من أمثال أكثم بن صَيْفى وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباؤهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها فى خطابتهم، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثّلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع [٥]» وتبع شعراؤهم خطباءَهم يودعونها أشعارهم. ومن ثَمَّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقى ، فإذا هو شطر

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١، ٢/١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها .

(٤) أى استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ فى بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهى بها إلى السجع كما نلاحظ فى بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النَّظَّام إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[١] »

واقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها[٢] — المقدرة تُذْهِب الحفيظة — مقتلُ الرجل بين فكَّيه[٣] — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — فى الجريرة تشترك العشيرة[٤] — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[٥] — كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع[٦] — اسْتَنْوَق الجمل[٧] — كالمستجير من الرَّمضاء بالنار[٨] — حَلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَه[٩] — يَخْبِط خَبْط عَشْواء[١٠] — المنيَّة ولا الدنيَّة[١١] — تحت الرَّغوة اللبنُ الصَّريح[١٢] — هُدْنَةٌ على دَخن[١٣] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة. والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جلَّ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفَنَّهم فى لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس مَن يُعْجِبك قوله فى الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من ْسلائقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هى القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥ .

(٢) يضرب فى صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٣) بين فكيه : أى لسانه ومايتكلم به .

(٤) الجريرة : الجناية .

(٥) شطر بيت لطرفة .

(٦) شطر بيت للنابغة .

(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .

(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلا لمن عرك الدهر .

(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلا فى التعثر .

(١١) الدنية : العمل الدنىء .

(١٢) الصريح : الخالص .

(١٣) دخن : حقد .

## ٣

## الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلتْ فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين [١] ، فقد كان كل شىء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شىء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم فى المقال وحَوْك الكلام ، وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلابة ولَسَن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب [٢] » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هَرِم بن قُطْبة الفَزارى [٣] ومنافرة

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص ٣٧٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢٨/٣ .
(٣) أغانى (ساسى) ٥١/١٥ .

القعقاع بن معبد التميمى وخالد بن مالك النهشلى إلى ربيعة بن حُذار الأسَدى[١] . واستخدموها فى الحض على القتال وبعث الموجدة فى نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وترامیهم فى أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائى[٢] :

وخطيبٍ إذا تمعّرتِ الأَوْ جهُ يوماً فى مأْقِطٍ مشهودِ[٣]

ويقول عامر المحاربى فى مديح قومه[٤] :

وهم يَدْعَمُونَ القولَ فى كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٥]
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنــا إذا الكربُ أنْسى الجِبْسَ أن يتكلما[٦]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البَيْن وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبى[٧] :

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون فى وفادتهم على الأمراء ، إذ يقف رئيس الوفد بين يدى الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحييه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفى السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخُطْبة عُطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه[٨] . وكان ذلك سنة شائعة بينهم فى الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة . يقول أوس بن حجر فى رثاء فضَالة بن كَلَدة[٩] :

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ يكْفِى العشيرةَ إذ أمسوا من الخَطْبِ فى نارٍ وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفَلوا لدى الملوك ذوى أَيْد وأَفْضال[١٠]

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت . المأقط : موضع القتال .
(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .
(٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
(٦) الجبس : اللئيم المنقطع .
(٧) أغانى (ساسى) ٩/١٣١ .
(٨) تاريخ الطبرى ، القسم الأول ص١٧١١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
(٩) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣
(١٠) أيد : قوة .

وقد يتنبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قُس وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يُروَى عن عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفى . وكان من عادتهم فى الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التى يريد الاقتران بها ، وخطبْة أبى طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش فى الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »[١] . ويقول كان من عادة العرب فى هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصّر المجيب[٢] ، ويتحدث عن خطابتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المَدَر والوَبَر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكانٌ يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنُّتف الجياد . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع[٣]» .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخَوْضها فى أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكفّ عن القتال أو فى المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر فى نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق فى البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُورداً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم فى كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثَمّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التى تصور بيانهم وبراعتهم فى هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع فى صُورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم ، من مثل قيس بن شمّاس فى يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذى اعترضت ابنتُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع (١) . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية (٢). ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهى تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون (٣) ، وممن عُرف فيها بالخطابة عُتْبة بن ربيعة وسُهَيل بن عمرو الأعلم ، وهو الذى قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيْه (٤) السُّفليين حتى يَدْلع (٥) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثِّل فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده (٦) »

وممن اشتهروا بالخطابة فى القبائل عامر بن الظَّرِب فى عَدْوان وربيعة (٧) بن حُذار فى أسَد وحنظلة بن ضرار فى ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل (٨) ، وعمرو ابن كلثوم فى تغلب (٩) وهانئ بن قبيصة فى شيبان ، وهو خطيب يوم ذى قار (١٠) ، وزهير بن جَناب فى كَلْب وقُضاعة (١١) ، وابن عمار فى طيئ ، وهو خطيب مَذْحِج كلها (١٢) . ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامرى ، ومن قوله (١٣) :

وأَخْلُفُ قُسًّا ليتنى ولو أننى ... وأُعْيِى على لقمانَ حكمَ التدبُّر

وهَيْذان بن شَيْخ الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : ربَّ خطيب من عَبْس (١٤) ، وخُوَيْلد بن عمرو والعُشَراء بن جابر الغطفانيان (١٥) ، ومن خطباء

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٨ — ٣٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤
(٤) الثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .
(٥) يدلع : يسترخى ، فلا يحسن النطق .
(٦) البيان والتبيين ١/٣١٧ .
(٧) نفس المصدر ١/٣٦٥ والأغانى (ساسى) ١٠/٦١ .
(٨) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٩) نفس المصدر ٢/١٤١ .
(١٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣٧ .
(١١) نفس المصدر ٢١/٦٥ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(١٣) البيان والبيين ١/١٨٩ .
(١٤) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(١٥) نفس المصدر ١/٣٥٠ .

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذى خطب فى حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل[١] وهرم بن قطبة الفزارى[٢] الذى احتكم إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما – كما مربنا –: « أنتما كركبتى البعير الأدرم ( الفحل ) تقعان على الأرض معاً[٣] » .

ومن خطباء تميم المفوهين أكثم بن صيفى وضمرة بن ضمرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان : « تسمع بالمعيدى لا أن تراه » فقال : أبيت اللعن! « إن الرجال لا تكال بالقفزان[٤] ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك[٥] يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بجنان، وإن قال قال ببيان[٦] » . ومن خطباء تميم أيضاً عطارد بن حاجب بن زرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقرى ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٧] ، ويروى أن الرسول سأله عن الزبرقان بن بدر فقال « مانع لحوزته ، مطاع فى أدنيه » فقال الزبرقان : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فو الله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر[٨] المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار فى عينى رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً[٩] » . ومن خطباء بنى منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيد أهل الوبر[١٠] ، وهو الذى قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات[١١] :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .
(٤) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراقى .
(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد .
(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(٨) زمر : قليل .
(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .
(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ .
(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

ومن خطباء إياد قُس بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وَعُوا ، من عاش مات، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت[١] . ويقول الجاحظ : « وللإياد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُس بن ساعدة وموقفَه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب، وهو الذى عجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال[٢] » . على أن ابن حَجر اتهم هذا الإسناد[٣] ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، ومما لا ريب فيه أن لها أصلا صحيحاً تزيَّد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللَّسَن والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيِّد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومَنْ غزاهم ، ويهيِّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٤] » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[٥] » .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .

(٢) نفس المصدر ١/٥٢ .

(٣) السيرة الحلبية ( طبعة مصر ) ١/٢١٠ وقارن باللآلئ المصنوعة للسيوطى ١/٩٥ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر — إذا استثنينا زهيراً — كان هو الذى يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد فى خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رواحلهم فى الأسواق العظام والمجامع الكبار[١] ، وقد لاثوا العمائم على رءوسهم ، وفى أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعِصِىّ والمخاصر والقضبان والقَنا والقِسِىّ راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول[٢] :

ما إنْ أهابُ إذا السُّرادِقُ غَمَّهُ ... قَرْعُ القِسِىِّ وأُرْعِشَ الرِّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصى والمخاصر ، وردّ عليهم الجاحظ فى بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله فى تلك العادة : « إن حَمْل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شىء خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون فى حوائجهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها[٣] »

وكانوا يمدحون فى الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحَصَرَ والتعثر فى الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوْلَب[٤] :

أَعِذْنِى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ... ومن نَفْسٍ أعالجُها علاجـا

ويقول أبو العِيال الهذلى :

ولا حَصِرٌ بخُطْبَتِهِ ... إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وذموا فى الخطيب أن يُكثر من مَسِّه لذقنه وشوار به ولحيته ، وكأنما رأوا فى ذلك

---

(١) البيان والتبيين ٣/٧ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ ، ٣/٩ .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٧ .

(٤) انظر فى هذا البيت وتاليه البيان والتبيين ١/٣ .

ضرباً من الخرق فى استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزنى فى بعض هجائه [١] :

إِذا اجتمع القبائلُ جئتَ رِدْفاً وراءَ الماسحين لك السِّبالا [٢]

فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباء فيهم وقد تُكْفَى المقادةَ والمقـالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون فى جهارة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهَدَل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياى والتشادق ، وقال : أبغضكم إلىّ الثرثارون المتَفَيْهِقون [٣] .

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطابتهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجَّع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متَّهم لا يمكن الاعتماد عليه فى الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقباً متطاولة تفصل بين العصر الذى دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذى قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِيَ مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْل بن عبد العُزّى فى تاريخ الطبرى [٤] فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرْطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت فى شرح نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، وهى مسجوعة [٥] ، ومثلهما منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل المروية فى كتاب الأغانى ، فهى الأخرى مبنية على السجع [٦] . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرة بن ضمرة وهَرِم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزّى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار [٧] »

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٢ .
(٢) السبال : مقدم اللحية . يهجوه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفيهق : الذى يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .
(٤) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٥) النقائض ١/١٤١ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

كما يقول فى موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل فى خطب الصلح وسَلّ السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا فى الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلا . ولا تظن أنهم فى خطابتهم المرسلة لم يكونوا يروّون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم ، يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمّات الأمور ميّثوه[(١)] فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه الثِّقاف ، وأُدْخِلَ الكِير ، وقام على الخلاص أبرزوه محكّكاً منقحاً ومُصَفّى من الأدْناس مهذباً[(٢)] » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التى بقيت من تراثهم ، تلك التى يرويها الجاحظ ، يشعر حقّاً أنهم كانوا يبتغون التجويد فى كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصوّر أشعارهم جوانبَ من ذلك كقول لَبيد لهرم بن قُطْبة حين احتكم إليه عامر بن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة[(٣)] :

إنك قد أوتيت حُكْماً معجِبا     فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلا قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصلَ العظمين . ومن ذلك قولهم فلان يفلّ المحزّ ويصيب المَفْصِل ويضع الهِناء مواضع النُّقَب[(٤)]. والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الجرب بإبله فيضع دواءه فى مواضعه الدقيقة ، يمثّلون بذلك للمصيب الموجز فى خطابته وبيانه ، كما مثلوه فى التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذى يصيب عين الموضع من جَزوره سواء فى العظم أو فى اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهام المصمية ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْره للشجاع والخطيب المفلق فى الوقت نفسه ، وأصل معناها المِرامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

(١) ميثوه : ذللوه .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٤ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٠٩ .
(٤) نفس المصدر ١/١٠٧. الهناء : القطران . والنقب : أول ما يبدو من الجرب فى الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكاية به ، يقول زهير بن أبى سلمى (١) :

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بِهِ    شديدُ الرِّجام باللسان وباليَدِ

ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسْن، وافتخروا بذلك طويلا على نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِى يصف ما فيه وفى عشيرته بنى مِنْقَر من الخطابة والفصاحة (٢) :

إنى امرؤٌ لا يَعْترِى خُلُقِى    دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أَفَنُ (٣)

من «مِنْقَرٍ» فى بيت مكرُمةٍ    والأَصلُ ينبت حوله الغُصْنُ

خطباءُ حين يقوم قائلهم    بيض الوجوه مصاقعٌ لُسْن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد وإنه عضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة (٤) :

بِحُسام سيفك أو لسانك وال    كَلِمُ الأَصيلُ كأَرْغَب الكَلْمِ

ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشَّاة وبالحلل والدِّيباج وأشباه ذلك ، يقول أبو قُرْدودة الطائى فى رثاء ابن عَمَّار خطيب مَذْحِج وقد مات مقتولا (٥) :

ومنطقٍ خُرِّق بالعَواسلِ    لَذٍّ كَوَشْى اليُمْنَةِ المَرَاحلِ (٦)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة فى الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل موقف : فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصح والإرشاد وفى الصهر والزواج . وابتغوا دائماً فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب بيان وبلاغة .

---

(١) ديوان زهير ( طبعة دار الكتب ) ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢١٩ .

(٣) يفند : ينقص ويضعف . الأفن : ضعف الرأى .

(٤) البيان والتبيين ١/ ١٥٦ . أرغب : أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٤٩ .

(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

## ٤

## سجع الكهان

كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يُلْقى إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم «الرَّئِىِّ». وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم، وقد يتخذونهم حُكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى، وقد نفَّر هاشماً على أمية[1]. وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة[2]، أو قعود عن نُصْرة أحلاف[3]، أو نهوض لحرب، ففى أخبار بنى أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبنى أسد: «يا عبادى! قالوا لبيك ربَّنا، قال: من الملك الأصهب، الغلَّاب غير المغلَّب، فى الإبل كأنها الرَّبْرب[4]، لا يعلق رأسه الصَّخَب، هذا دمه يَنْثعِب[5]، وهذا غداً أولُ من يُسْلَبُ، قالوا: من هو يا ربَّنا؟ قال: لولا أن تجيش نفسٌ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية. فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّته» وقتلوه[6]. وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر[7]، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رُؤاهم وأحلامهم[8].

فمنزلة كهَّانهم فى الجاهلية كانت كبيرة، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحَى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها،

---

(١) السيرة الحلبية ١/٤.
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١١٨
(٣) أغانى ١١/١٤٠.
(٤) الربرب: القطيع من الظباء.
(٥) ينثعب: يسيل.
(٦) أغانى ٩/٨٤.
(٧) الأمالى للقالى ١/١٢٦ والسيرة النبوية ١/٤٣، ٢٢١.
(٨) السيرة النبوية ١/١٥ وما بعدها.

ومن ثَمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة ، ومما يلاحَظ أنهم كانوا يَكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية ، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم ، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال . وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص ، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية ، فمن ذلك أن شِقّ بن الصَّعْب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق[1] ، وربما كان أحدب . ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سَوَاد بن قارب الدَّوْسِىّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[2] ، ومنهم المأمور الحارثى ، كاهن بنى الحارث بن كعب[3] ، وخُنافر الحميرى ، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه « شِصار[4] » . وأكهنهم عُزَّى سَلِمة ، يقول الجاحظ : « أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبى حَيَّة وهو الذى يقال له عزَّى سَلِمة[5] » . ومن قوله[6] : « والأرض والسماء ، والعُقاب والصَّقْعاء ، واقعةً ببَقْعاء ، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء[7] » . ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات ، وربما كنَّ فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها ، ومن أشهرهن الشَّعْثاء[8] وكاهنة ذى الخَلَصة[9] والكاهنة السَّعْدية[10] والزرقاء[11] بنت زهير والغَيْطلة القرشية[12] وزَبْراء كاهنة بنى رِئام ، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت : « واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا ، ويَحْرُق أنياباً عُصْلا ، وإن صخر الطَّوْد لينذِر ثُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلا[13] » .

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ١/١٧١ .
(٢) السيرة النبوية ١/٢٣٣ .
(٣) الأمالى ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون ، وانظر ٣/١٥١ والأغانى ١٥/٧٠ .
(٤) الأمالى ١/١٣٣ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٨ .
(٦) نفس المصدر ١/٢٩٠ .
(٧) الصقعاء : الشمس ، بقعاء : ماء أو موضع . نفر : حكم بالغلبة . بنو العشراء : عشيرة من فزارة . السناء : الرفعة .
(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١ .
(٩) نفس المصدر ١/٢٢٣ .
(١٠) نفس المصدر ٢/٥٤ .
(١١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨١ .
(١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢١ .
(١٣) اللوح هنا : الريح . الوادق : الممطر . يأدو : يختل . يحرق أنياباً عصلا : كناية عن الغضب والشر . عصلا : معوجة . الطود : الجبل . المعل : الملجأ . انظر الأمالى ١/١٢٦ .

ونحن لا نطمئن إلى ما يُرْوَى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرتْ على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بُعْد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلى يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تُرْوى بنصّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت فى أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات فى الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم . ومعنى ذلك أنه وُجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم ، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جَلّ وعز : (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : (فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ) .

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع ، الحديثُ المرويُّ عن أبى هريرة، فقد حدّث أنه « اقتتلت امرأتان من هُذَيل ، فرمتْ إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما فى بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسولُ الله أن دِيَةَ جَنينها غُرَّة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها[1] . . . فقال حمل بن النابغة الهُذَلى : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ[2] ، فمثل ذلك يُطَلّ[3]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكُهّان، من أجل سجعه الذى سجع[4] » . ويقول الجاحظ : « كان حازى ( كاهن ) جُهَينة وشِقّ وسطيح وعُزَّى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[5] » .

وإذا صح أن ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب ،

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية .
(٢) استهل : صاح .
(٣) يطل : يهدر دمه .
(٤) صحيح مسلم ( طبعة الآستانة ) ٥/١١٠ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/١٩٢ .
(٥) البيان والتبيين ١/٢٨٩ وما بعدها .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز فى كثير من أقوالهم ، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعانى من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا فى وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخُدَع ، ومن ثَمَّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحَظُ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفى ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الدينى كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر فى خطابتهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

# خاتمة

## خلاصة

حاولتُ فى الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربى فى العصر الجاهلى ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة فى إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمّموا حوض المحيط الهندى آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم فى لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم فى حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا فى آخر الأمر إلى صورة خطّهم العربى المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلى وحدّدته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ فى أول هذا العصر باكتمال الخط العربى ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذى يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم فى الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهى بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهى مركز تجارتهم وقوافلهم التى تربط بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهى وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطْلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربيًّا كبيراً ، ففى كل مكان عراك وقتال وفى كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجَّلها علماء اللغة والأدب فى العصر العباسى كحرب البَسُوس وحرب داحس والغبْراء .

وانتقلتُ من ذلك أبحث فى حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هى أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم شىء يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم ، وتخلَّلت ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طَرَفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة فى الجنوب والشرق و واحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان البدو يعيشون على رَعْى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبَّد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت الكعبة فى مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها فى أشهر معلومات . على أن نفراً منهم شكُّوا فى أواخر هذا العصر فى دينهم الوثنى والتمسوا دين إبراهيم ويسمَّون المتحنِّفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاصاً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت النصرانية فى أثناء ذلك تنتشر فى القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون فى واحات الحجاز وفى اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم وينفرون من دينهم .

ولما تمَّ لى بيان هذه الجوانب أخذت أبحث فى اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة فى النقوش ، وهى الثمودية واللِّحيانية والصَّفوية ، تلك التى كتبتْ نقوشها بالخط المُسند الجنوبى ، ثم اللهجة النبطية ، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامى ، ومنه نشأ تطور الخط العربى فى الحجاز . وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت فى الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى حتى تتكامل تكاملا تامًّا وتعمّ بين القبائل النجدية وفى الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هى اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً فى المجال الأدبى ، بحيث كان الشعراء فى كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلا فى معرفة اللهجة التى سادت بين القبائل فى الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبتُّ أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلى .

وبحثتُ عقب ذلك فى رواية الشعر الجاهلى وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالاتها وشعرائها على حَمْله جيلاً بعد جيل ، حتى تسلَّمه منهم طبقة من الرواة المحترفين فى البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذى لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبى والأصمعى والمتهم الذى يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفى تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلى يدوَّن ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذى لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصّوا على كل ما شكّوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضى يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث فى هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلى جميعه منحول على أهله ، وهبَّ كثير من المستشرقين يردُّون عليه ، وممن ذهب مذهبه فى تعميم الحكم على الشعر الجاهلى بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هَدْى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . وقد ناقشتُ آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلا كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكنْ بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبى

والأصمعي ، وهو الذى نستند عليه فى دراسة الأدب الجاهلى ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلى دقيق . ومن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى توثقها .

ومضيت أبحث فى خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت فى ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية شيئاً نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيدة الجاهلية ، وهى صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التى كانوا يرتلونها لآلهتهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة .

وأفردتُ بعد ذلك فصولا لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلّين فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدت فى دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعى لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعى ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها فى ديوانه صحيحتين فى جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبى عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزّع شعره على دورتين فى حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث،ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورّتُ خصائصه الفنية مبيناً منزلته فى الشعر الجاهلى وكيف عُدّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبيانى ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها فى بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة فى داخل الجزيرة وفى مكة وسوق عُكاظ . وبحثتُ فى ديوانه على ضوء رواية

الأصمعى ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته فى المتجردة .وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة فى حياته ولا فى شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبينًا قدرته على الوصف ورَصْف الموضوعات وتنسيق المعانى وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه فى ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التى نعم بها فى الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبى سُلمى المزنى ، وقد نشأ فى بنى مرة الذبيانيين بحيث عُدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حَجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحَمَل عنهما جميعًا الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً لمدرسة عُرفت به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعى . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحبير فى قوالبه وصيغه تحبيراً لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته، فقالوا إنه يصنع القصيدة فى حول كامل وإن له سبع حوليَّات . وهو يضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعَدّ حقًّا شاعر التصوير فى العصر الجاهلى وكان يكثر من الحِكم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التى كان ينفقها متنقلا فى أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطربت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راويةُ شعره مسيحيًّا ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القُصَّاصُ والوعَّاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التى تحكى قصة وفاء السموأل . وجَعَلنا هذا كلّه نشك فى كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبْقى له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوًّا فى المديح وتأثراً دقيقًا بالحضارة التى عاصرته فى الحيرة ، حتى ليقترب شعره من شعر العباسيين لا فى معانيه فحسب ، بل أيضًا فى سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

فى شىء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلهه فيه وما قد يلاحَظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا فى اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولا الفرسان وما يصوِّرون فى أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه فى أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحثت فى شعراء اليهود مبينًا كثرة ما نُحل عليهم . ووقفت عند النصارى من الشعراء أمثال عدىّ بن زيد العِبادى ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيِّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبى الصَّلْت ، إن لم يكن كله ، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه فى موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلى وشعرائه انتقلت أبحث فى النثر الجاهلى ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوِّنوا شيئًا من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصوِّر غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ فى نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا فى نثرهم ما حاولوه فى شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

## تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلى إنما تُعْنَى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطًا صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلا إنما تحدثنا عن الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً فى بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد فى كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولنقفْ قليلا عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حلِّزة وعَبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولبيد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقِلاَّن ، وقد تشكك ابن سلام فى شعر عَبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب[١]. أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة[٢] ، وهى قوله :

لخَوْلَةَ أَطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ وقفتُ بها أَبكى وأَبْكى إلى الغَد[٣]

وفيها أبدع فى وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان فى شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل والأسطورة تجرى فى أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه فى تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولبيد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلا فى الإسلام ، فأولى أن يدرس فى المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجر لأن فنه يندمج فى فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح[٤] وعَبيد[٥] بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه فى طبقته — وهى الثانية — بشر بن أبى خازم الأسدى وهو مقل ، وفى شعره مصنوع كثير[٦] . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرَّ رأينا فى أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدىَّ بن زيد العبادى ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عَبدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد ، ويقول : لا شيء له بعدهن يُذْكَرْ[٧] .

(١) ابن سلام ص ١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ١١٥ .

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثانى فى البيت :
« تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » .

(٤) الحيوان ٦/٢٧٩ .

(٥) ابن سلام ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) الحيوان ٦/٢٧٩ .

(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظّليم ونعامته (١) . وممن ذكرهم ابن سلام فى الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النّهشلى التميمى ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته (٢) » . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَين ابن الحُمام المرىّ والمتلمس (خال طرفة) والمسيّب بن علَس (خال الأعشى) وسلامة بن جندل السّعْدى التميمى . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخَرِع ، وهما مقلان . وجعل فى الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة ، وقصيدته (٣) :

بكرتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتَّعِ ... وغَدَتْ غدوّ مفارقٍ لم يَرْبَعِ

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثى فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبى الصّلت شاعر الطائف ، ومرّ بنا فى حديثنا عن أصحاب الديانات كثرةُ ما وضع عليه من أشعار . وفى قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقِّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسْلك فى المقلين .

وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَناء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . ومما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم فى القصص الشعبى ، ويشبههم فى هذا الجانب حاتم الطائى الذى طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع فى الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثَمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التى عُنى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارَى فى حسن الدّيباجة ورونق الكلام .

---

(١) الحيوان ٤/٣٦٦ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان : يقيم .

# فهرس الموضوعات

صفحة

# كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

## فى الدراسات القرآنية

• الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ١٠٥٢ صفحة

• سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

• عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة

• الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

## فى تاريخ الأدب العربى

• العصر الجاهلى
الطبعة الحادية والعشرون ٤٣٦ صفحة

• العصر الإسلامى
الطبعة الثامنة عشرة ٤٦١ صفحة

• العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٧٦ صفحة

• العصر العباسى الثانى
الطبعة الحادية عشرة ٦٥٧ صفحة

• عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة

• عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

• عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة

• عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة

• عصر الدول والإمارات
ليبيا – تونس – صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة

• عصر الدول والإمارات
الجزائر– المغرب الأقصى– موريتانيا – السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

## فى مكتبة الدراسات الأدبية

• الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

• الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

• التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

• دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

• شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

• الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣٠٨ صفحة

• البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحة

• الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

• البحث الأدبى :
طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره
الطبعة الثامنة ٢٧٨ صفحة

• الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

• فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

• فى الشعر والفكاهة فى مصر
الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

**فى الدراسات النقدية**

• فى النقد الأدبى
الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة
• فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
• فى الأدب والنقد
الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

**فى الدراسات البلاغية واللغوية**

• البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة
• المدارس النحوية
الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة
• تجديد النحو
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
• تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة
• تيسيرات لغوية
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة
• تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

**فى مجموعة نوابغ الفكر العربى**

• ابن زيدون
الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

**فى مجموعة فنون الأدب العربى**

• الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
• المقامة
الطبعة السابعة ١٠٨ صفحات
• النقد
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة
• الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
• الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

**فى التراث المحقق**

• المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة
• كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
• كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
• الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

**السيرة النبوية**

• محمد خاتم المرسلين
الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

## فى سلسلة اقرأ

• العقاد — الطبعة الخامسة
• البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية
• الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية
• معى ( ١ ) — الطبعة الثانية
• معى ( ٢ ) — الطبعة الأولى


| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٢٠٠٠/١٠٢٤٤ |
| الترقيم الدولى | ISBN 977-02-6025-8 |

١/٢٠٠٠/٣٧ طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )

تاريخ
الأدب العربى
٢

# العصر الإسلامى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بالعصر الإسلامى ، وقد وزّعته على كتابين ، جعلتُ أوّلهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بنى أمية، وكل كتاب ينقسم فصولا تُبْحَثُ فيها جوانب الحياة فى العصر بحثاً ترتّب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص، كما يُبْحَث فيها الأعلام النابهون فى الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرْسَمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتْنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام إلى نقْض الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق : فقد أتمّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح . وهم فى ذلك كله يستلهمون الإسلام، ويعيشون له، ويعيشون به، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض ،وقد مضوا يَصْدرون عنه فى أشعارهم صدور الشذَى عن الأزهار الأرِجة . وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاء إذ أنشأوا — على هدى القرآن الكريم — آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بنى أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها، مما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر، فإذا هو يَحْيَى فى

أوطان جديدة حياة خصبة ، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب ، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا ، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً . وقد أخذ الشعراء يخضعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة : بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية . وفي هذه الأثناء كان الموالي يتعربون ، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعربوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم . وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي ، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بر وتعاون وإخاء .

والكتاب الثاني يَبْسُط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه ، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية ، كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة . ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخوارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين ، ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طوابع تميزه ، فبينما يتميز مثلا شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهافتهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غزار ، مطالبين برد السلطان إلى أصحابه الشرعيين . وقد اضطرمت فنون الشعر اضطراماً لا في المديح والهجاء والفخر فحسب ، بل أيضاً في الغزل ، فظهر فيه الغزل العُذري بجانب الغزل الصريح ، وزكا شعر الزهد ، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة ، ومد الرُّجَّاز طاقة أراجيزهم ، وسلكوا فيها الطَّرديَّات ، فهي ليست عباسية — كما كان يُظن — إنما هي أموية . وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها ، حتى غدت — في بعض جوانبها — كأنها متون للاستظهار والحفظ . وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء .

ولعل عصراً عربياً لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية ، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يذُودون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصومهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعّاظ والقُصّاص احتداماً ، استطاعوا فى أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات فى المراكز المتحضرة التى يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعانى وفتْق الحِيَل للتعبير عن خفيّاتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهّد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونمّا تدوين المعارف فى عصر بنى أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوىّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون فى المغازى والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفى المثالب والأمثال والمواعظ ، وفى مسائل العقيدة من قَدَر وغير قَدَر ، وفى الأغانى والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل فى الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتّاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعيرون من الوعاظ أسلوبهم الذى وصفناه ، وما زالوا يَرْقَوْن بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهدينى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٥ من يوليه سنة ١٩٦٣ — شوقى ضيف

## الكتاب الأول

# فى عصر صدر الإسلام

# الفصل الأول

# الإسلام

## ١

### قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوى على معنى الخضوع والانقياد ، وقد تردّدت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مثل : ( وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ) ( وأمِرْتُ أن أُسْلِم لرب العالمين ) . ومن ثَمَّ أُطْلقت علماً على ديننا الحنيف فى قوله تبارك وتعالى : ( اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جَلّ شأنه : ( وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ) ، ويقول : ( شَرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ) ويقول : ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه) ويقول : ( وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ) .

فالإســـلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التى تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل فى العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدانية الله، يقول سبحانه وتعالى: (قل هو الله أحدٌ الله الصَّمَدُ لم يَلِدْ ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو ( رَبُّ العالمين ) رب كل شىء فى الكون وخالقه ( ليس كمثله شىء) ( لا تُدْركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما فى الكون (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تَسْقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم وتقبض على زمامه (وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرض) (والله على كل شىء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتى وسعتْ كل شىء) (وقد كتب ربُّكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة فى القرآن الكريم المحبة التى يُفيضها على عباده مستشعرين بجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يُحْبِبْكم الله ويَغْفِر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوةُ إلى العمل الصالح والنهى عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم فى الدارين الأولى والآخرة (رُسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أُنْزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غَيْبِىٌّ ، به نوعان من الأرواح خيِّر وشرير ، والخيِّر هو الملائكة الذين يتنزَّلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفَّونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهى الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم يَنْفثون غَوايتهم فيمن ضلُّوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا فى السماء بُروجاً وزيَّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رَجيم) .

ويُكثر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد ، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم ( ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبْعثون ) وهو يوم الحساب ، كل يحاسب على أعماله ( فمن يعمل مثقال ذَرَّةٍ خيراً يَرهُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) ( من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ) ( للذين أحسنوا الُحسْنى وزيادة ولا يَرْهَقُ وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغْشِيت وجوههم قِطَعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) ( لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرابا إلا حَميماً وغَسَّاقاً جزاءً وِفاقاً ) .

ودائما يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيئته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه فى كل ما يأتى ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هى مشيئة الله التى تسيطر على كل ما فى الكون ( وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ) وبجانبها مشيئة الإنسان التى تجعله مسئولا أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يداه ( وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ ) ( إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ) ( كلُّ نفس بما كسبت رهينة ) ( لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ) ( ومن يكسبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه ) .

وتلك هى أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها ، وهى ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار ، وقد بَيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها ، وفى القرآن الكريم ( قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ) ( إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتُّلا إلى الله ( يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفُرْقان فمن شهد منكم الشهر فليصُمْه .. وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيْطُ الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا ) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيَّنَ الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهي أن يُرَدَّ من مال الغني على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذْكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثًّا عليها في مثل ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلَّوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : ( وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قواما .. ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يَزْنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويَخْلد فيه مُهانا .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مَرُّوا باللَّغْو مروا كراما ) ( ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهْناً على وهن . . وَأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس ولا تَمْشِ في الأرض مَرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقْصِدْ في مشيك واغْضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ) . ويقول جَلَّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : ( إنما المؤمنون إخوة . . يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضًا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميْتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّاب رحيم ) .

وقد حرَّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر ( قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن). ومما حرمه تحريماً باتًّا آفة الخمر وآفة القمار ( إنما الخمر والمَيْسر .. رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا فى الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنايا والنقائص ( ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونبذ كل الفواحش والرذائل، ومراقبة الإنسان لربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجزَى كلُّ إنسان بما قدَّمت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه فى سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاء فى نعيمه ورضوانه .

## ٢

### قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طُوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه فى معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه، داعياً له إلى أن يتأمل فى ملكوت السموات والأرض، فإن من ينعم النظر فى هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخْلَق عبثاً وأن له صانعاً سوّى كل شىء فيه وقدَّره، يقول جلَّ ذكره: ( إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقِنا عذابَ النار ) ( الشمسُ والقمر بحُسْبان) ( والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون ) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن فى الإيمان بوحدانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته ( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ) وما كان لهذا الذى

فضّله على كل ما فى الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخّرها لفائدته (قل أغيرَ الله أبغي ربّاً وهو ربُّ كل شيء ) (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تَسْجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ ).وهو إله واحد يدبّر السموات والأرض ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) ( وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) . وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل فى الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة فى الكائنات قادر على أن يردّها إليها ( كما بدأنا أولَ خَلْق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين) ( وضرب لنا مثلا ونسى خَلْقه قال من يُحيي العظام وهى رَميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ( وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) .

ويُنْحي الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم ، فيشبههم بالأنعام التي لا تَعْقل، ويقول إنهم لا يمتازون فى شيء عن الصمِّ البُكْم العُمْي ( لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعْينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ) ( أم تحسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ). وكثيراً ما تُخْتَمُ الآيات بمثل ( أفلا تتذكّرون ) ( إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) ( إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ) .

ودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خُلق له من التدبر ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة ، ومن ثَمّ كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسيًّا فى الإسلام، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً ، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاقتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف .

ويشير القرآن مراراً إلى ما وُهب الإنسان من فضيلة العقل ، وأن الله أودع فى هذه الفضيلة خواص تمكّنه من السيطرة على جميع المخلوقات، يقول جَلّ شأنه : ( الله الذى سخّر لكم البحر لتجرى الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) ( وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) ( هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ) . فكلٌّ ما فى الوجود مسخّر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : ( اقرأْ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علَق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : ( وقل ربّ زدنى علماً ) ( إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ) ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاونّا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على العلم والتعلم من مثل : « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثةُ الأنبياء » .

وقد حمّل الإسلام هؤلاء العلماء أمانةَ الدين الحنيف، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما يُطْوَى فيه من استنباط للأحكام يقول جلّ ذكره : ( فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين ) ويقول : ( وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) . ويقول للرسول الكريم : ( وشاورْهم فى الأمر ) . وفعلا كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويَصْدر عن رأيهم[1] . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الإسلام حين لا يوجد نَصٌّ فى كتاب أو سُنّة ؛ رَوى الرواة عن مُعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرَض لك قضاءٌ ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله

( ١ ) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » لمصطفى عبد الرازق ( الطبعة الأولى ) ص ١٤٣ وما بعدها .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن فى سُنَّة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو . قال : فضرب بيده فى صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله»[1]. وقد نَما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم يكن الخلفاء يُفتون بآرائهم إلا بعد استشارة الصحابة[2]. ومُصِّرت الأمصار وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء فى كل مصر إسلامى تحمل للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه فى القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفَع من شأن العقل الإنسانى إذ جعله الحَكَم فى فروع الشريعة وحثّه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتَح الأبواب واسعة أمامه كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى . وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصّله الإسلام من حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقًّا أصوله العقيدية زمنية أبدية . ولكنها أصولٌ أُسِّسَتْ على العقل الصحيح وفسحتْ له فى التشريع .

## ٣

### قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً شديداً ، فإذا جنَى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ( طبع القاهرة ) ٢/٥٥

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

أحد أبنائها هبّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمةٌ واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس) وهى أمة يعلو فيها السلطان الإلهى على السلطان القبلى وعلى كل شىء ، ومن ثمّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هى التى توحّد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن فى الجاهلية — يجرّ ثأراً فى سلسلة لا تنتهى ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه . وقد مضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول فى خطبة حجّة الوداع : «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .»[1]

وأخذ الإسلام يُرْسى القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء فى الصلاة وجميع المناسك وفى الحقوق والواجبات ، وينبغى أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلا له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع . فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يفْديها بروحه وبماله وبكل ما أوتى من قوة . ومن ثمّ وُضع نظام الزكاة وعُدّتْ — كما قدمنا — ركناً أساسيًّا فى الدين ، فواجبُ كل شخص أن يقدم من ماله سنويًّا فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

---

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٣٣ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق فى سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة فى حسن المثوبة ، يقول جلّ وعزّ : (من ذا الذى يُقرض الله قرْضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرة . . مثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة أنبتتْ سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربْوة أصابها وابلٌ فآتت أكُلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطَلٌّ والله بما تعملون بصير . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية فى محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردّ الغنى بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقًّا دينيًّا . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويترابط معها ترابطاً اقتصاديًّا كما يترابط فى وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها فى سبيل الله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما نفعنى مالٌ ما نفعنى مالُ أبى بكر»[1] وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهَّز عثمان جيش العُسْرة فى غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمّ الألف بخمسين فرساً[2] ، وكَثُرَ مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قَدِم عليه فى إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها فى سبيل الله[3] . ولم يُعْنَ الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ .
(٢) الاستيعاب ص ٤٨٨ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ١/ ٥٠ .

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه ، سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه : ( وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ) ( ولا تَبْخسوا الناس أشياءهم) ( الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المَسّ .. وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا ) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : ( ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السّعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : ( للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسَبْنَ ) . وكان كثير من غلاظ القلوب يئدون بناتهم خشية العار ، فحرّم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : ( وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمْسِكُه على هُون أم يدسُّه فى التُّراب ألا ساء مايحكمون ) . وحرّم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محبّبة إلى الله ونعمةً من نعمه ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقّاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرشكم غيركم وأن لا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعْضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهنَ ضرباً غير مبرّح ، فإن انتهين وأطعْنكم فعليكم رزقهن وكُسْوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ( أسيرات ) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : ( فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ) ( وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تنفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يسرحها بإحسان وأن لا يمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جل وعز : ( وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ) .

وبكل ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذى شاع فى العصر العباسى ، فإن الإسلام يجل المرأة ويرفع قدرها ، حتى لنراها فى الصدر الأول من العصر الإسلامى تشارك فى الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فى حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هى نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوى وهدى الرسول الكريم .

## ٤

### قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته . إذ حرره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلا من أن يشعر أنه مسخر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نبهه إلى أنها مسخرة له ولمنفعته ، ودعاه لأن يستخدم فى معرفة قوانينها عقله ويعمل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهيأه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هيأه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة فى الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه فى المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يَفْضُلُ سائر المخلوقات فقد خُلق فى ( أحسن تقويم ) ، وُسوّى وعُدّل ورُكّب فى أروع صورة ، ووُهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر فى الطبيعة إلى خدمته ، يقول جَلّ شأنه : ( ولقد كرّمنا بنى آدم وحَملْناهم فى البرّ والبحْر ورزَقْناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممنْ خلقْنَا تفْضيلا ) . ويذكر القرآن فى غير موضع أن الإنسان خليفة الله فى الأرض ( وإذْ قال ربُّك للملائِكَةَ إنى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفة ) ( وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض ) فالإنسان خليفة الله فى أرضه ووكيله فيها ، خلَقه ليسودها ، ويُخْضع كل ما فى الوجود لسيطرته .

وقد مضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل فى جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب فى ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل فى أن يكاتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه ( والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . وآتُوهم من مالِ الله الذى آتاكم ) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها ، حتى إذا مات رُدّت إليها حريتها . وكانوا فى الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كآبائهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها فى الدين نفسه إذ نصّتْ آية كريمة على أن ( لا إكْراهَ فى الدّين ) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول فى الإسلام ، بل يُتْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الدينى ، يقول تبارك وتعالى : ( ولو شاء ربُّك لآمَنَ منْ فى الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مُؤْمنين ) . وحقّاً اضطُرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : ( وقاتلُوا فى سبيل الله الّذِين يقاتِلونكُم ولا تعتَدُوا إنّ الله لا يُحب

المعتَدين ) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلا إلى السلم والسلام فى مثل قوله تعالى : ( وإن جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكَّل على الله ) ( يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافة ولا تتَّبِعوا خُطوات الشَّيطان إنه لكم عدوٌّ مبين ) لذلك لا نعجب إذا كانت تحية الإسلام هى « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة، ومن تتمة ذلك ما وضعه من قوانين فى معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً ، فقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين فى حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلا ولا امرأة ، وعَهْده[1] لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن المعاملة لأهل الذمة، فقد أمر أن لا تُمَسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُتْرَك لهم الحرية فى ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به فى معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلْبانهم . . . لا تُسْكَن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتقَص منها ولا من حَيِّزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يُكْرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم»[2] . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التى عُقِدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هى التى فتحت الشام ومصر إلى الأندلس، والعراق إلى خراسان والهند . فقد كَفَل للناس حريتهم لا لأتباعه وحدهم ، بل لكل من عاشوا فى ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة النوع الإنسانى، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

---

( ١ ) انظر السيرة النبوية ( طبعة الحلبى ) ٤ / ٢٣٩ وما بعدها و ٤ / ٢٤١ وما بعدها ، وقارن بفتوح البلدان للبلاذرى ( طبع المطبعة المصرية بالأزهر ) ص ٧٦ .

( ٢ ) تاريخ الطبرى ( طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٣٩ ) ٣ / ١٠٥ .

## الفصل الثانى

# القرآن والحديث

## ١

### نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنْزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنجَّماً فى ثلاث وعشرين سنة . حتى تتهيأ النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهى ( وقرآناً فرقْناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزّلناه تنزيلا ) . وكان أول نزوله فى شهر رمضان وفى ليلة معلومة منه هى ليلة القدر ( شهر رمضان الذى أُنْزل فيه القرآن ) ( إنّا أنزلناه فى ليلة القَدْر ) وظلّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربى بليغ ( وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ) ( من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله ) ( نزَّله روح القُدس من ربك بالحق ) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذى اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافّة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل على وعثمان وزيد بن ثابت وأُبىّ بن كعب . ومضى كثير من كَتَبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولا على حفظه وأخْذه شفاهاً عن الرسول الأمى ، الذى كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنّته يتحفّظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتّلين له ترتيلا .

ونصوصُ القرآن صريحة فى أن سوره وآياته جميعاً رُتّبت بوحى من الله إلى رسوله ، يقول جلّ شأنه : ( وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلْناه ترتيلا ) ( إن علينا جَمْعَه وقُرْآنه ) . فالرسول لم

يُرْفَعْ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملا. وتلقّاه عنه الصحابة بهذا الترتيب، وكان حَفَظته يسمّون بالقُرّاء. ولما استحرّ القتل بهم في يوم اليمامة لعهد أبي بكر خشي عمر بن الخطاب أن يستحرّ بهم في مواطن أخرى، فيذهب قرآن كثير، فدخل على أبي بكر لسنتين من خلافته، فقال له: إن أصحاب رسول الله يتهافتون في المعارك، وإني أخشى أن تأتى عليهم. وهم حَمَلة القرآن فيضيع ويُنْسَى، فلو جمعته! ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدره للفكرة ورأى رأيه، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت – أحد كتبة الوحى الأبرار – بجمعه، فجمعه من العُسب واللّخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان من مثل أُبيّ بن كعب وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبي هُرَيْرَة وأبي الدَّرْداء وأبي موسى الأشعرى وتحريا في الدقة ومبالغة في الحيطة أمر أبو بكر أن لا يُقْبَل من حافظ شيء حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كُتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما جُمع المصحف حُفظ في بيت أبي بكر، ولما توفى وخلفه عمر انتقل المصحف إليه، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته أم المؤمنين.

وحدث في عهد عثمان أن أخذ القُرّاء في الأمصار البعيدة يختلفون في بعض الأداء، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه، فأفزع ذلك حذيفة بن اليمان الذى كان يغزو في فتح أرمينية وأذربيجان فهُرع إلى عثمان قائلا: إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف. فهَمّ عثمان الأمر، وأجمع رأيه على أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه. وبعث إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخ منه نسخاً، ثم نرده إليك، فأرسلت به إليه، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عثمان للرهط القرشيين، وهم الثلاثة الأخيرون: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فصدعوا بأمره. وردّ عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة وطابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقْرِئوا الناس على حَرْفها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحَرْق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقْرِئون الناس القرآن على حَرْف هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف ، وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلا ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبوبكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعثَ بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولا وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمت تسهيلا لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلتْ كثرة السور بمكة ، ومن ثَم كانت السور إمامكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحُنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبَّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جَلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهى لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً فى المعانى التى تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونَبْذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر فى خَلْق السموات والأرض ، فإن من تدبر فى هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصِّل القول فى العمل الصالح الذى ينبغى على المسلم أن يقوم به ، ومن ثَمَّ كان يكثر فيها التشريع الدينى وكذلك التشريع الاجتماعى بكل مايتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبِرّ الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفى تضاعيف ذلك تُذْكَرُ العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقّفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبيِّن لهم بعض الآيات ، يقول جَلَّ ذكره : ( وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ) ويقول : ( هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هُنَّ أم الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكَّر إلا أولو الألباب ) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن فى القرآن آيات تحتاج تأويلا ، وهى تصرِّح بذلك فى وضوح .

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسّروا للناس آى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسمّيهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم . ويحدثنا السيوطى فى كتابه « الإتقان[١] » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدوّنها فى كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سمّاه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وابن عباس[٢] ، ويصرّح بأن الرواية عن أبى بكر وعمر وعثمان نَزْرة ، أما على فقد رُوى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير . أما أُبَىّ فله سند فى الطبرى عن طريق أبى العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن فى أثنائها مدرسة فى الكوفة حَملت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنده الجيّد هو السُّدّى الكبير عن مرّة الهمدانى . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لعلم التفسير فهو الذى نَهجه ووضع أصوله ؛ واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم فى تفسير بعض الألفاظ[٣] . وقد حَمل ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير ما أُثر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة فى تفسير هذا النبع الإلهى الذى لا تفنى كنوزه .

---

(١) انظر النوع الثامن والسبعين فى هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

(٣) انظر فى ابن عباس ودوره فى التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر ( ترجمة عبد الحليم النجار ) ص ٨٣ وما بعدها .

# ٣

## أثر القرآن فى اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب فى لغتهم، إذ لم يُتَحْ لأمة من الأمم كتاب مثله لا دينى ولا دنيوى من حيث البلاغة والتأثير فى النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خلْقه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرِّع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة فى الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضى فى تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم: سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذى كان من ألدّ خصومه سمعه يتلو بعض آى الذكر الحكيم، فتوجَّه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدق»[1]. وواضح أنه أحسّ فى دقة أن آى القرآن تباين كلام الإنس من فصحائهم كما تباين كلام الجنّ الذى كان ينطق به كُهَّانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فُصِّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس، وتجد فيها وفى كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعذوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جلّ ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلا عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً، فمضوا يجرِّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر. مغدق: كثير المياه.

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت فى الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيأ لانقلاب واسع فى تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجْمل ذلك إجمالا . فإن تفصيله لايتسع له كتاب فضلا عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جَمع العرب على لهجة قريش ، وحقًّا كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية فى الجاهلية ، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجاتٍ تختلف عن اللهجة القرشية قليلا أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعَمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة فى الأنحاء الداخلية التى كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيله . يقول عزّ شأنه : ( ورتِّل القرآن ترتيلا ) ( ومَنْ أعرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى ) . وبذلك تحول المسلمون فى جمهورهم إلى حَفَظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورءوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر فى العالم الإسلامى فحسب ، بل أن تُحْفَظ أيضاً وتظل على مَرِّ العصور جديدة غَضَّةً لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانَها . فأصبح هو اللسان الأدبى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى . فكل من عاشوا فى هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذحلَّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبِّرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذى حفظ العربية من الضياع ، ونشرها فى أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثانى آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد . له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خَلْق السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عبر ، ومن تقرير البعث والنشور وبَسْط صُوَر الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن يتهيأ لها من صواب الرأى . وإنه ليترقّى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرِّع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أُسَرِهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يَبْذُل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ؛ أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدُّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ؛ إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غَرَس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامّه وخاصّه مما هيأ لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذّب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها فى هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقًّا اختطّ أسلوباً جزلا ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوبَ المحكم ، بل هذا الأسلوبَ السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفّافة . واقرأْ فى قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفى ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطردا فى جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُون : ( ونُفخ فى الصور فَصعِقَ مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربّها ووُضع الكتاب وجِىء بالنبيين والشهداء وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لا يُظْلَمون. ووفِّيت كلُّ نفس ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون . وسِيق الذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزَنَتُها ألم يأتكم رُسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم ويُنْذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مَثْوَى المتكبرين). وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعز لرسوله فى سورة الضحى : ( والضحى والليل إذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فَهَدَى ووَجَدك عائلا فأغنى فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ وأما السّائل فلا تنهر وأما بنعمة ربِّك فحدّثْ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعرة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة فى الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التى تغذى العقول برحيقها الصافى وتشفى القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ولا لاحقة فى العربية هو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هَدْيه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحُسْن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفّظونه ، فهو معجمهم اللغوى والأدبى الذى ساروا على هُداه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفْل وفى الكلام يوم الجُمَع آىٌ من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسَلَس الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأُعْجب بها الناس وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن »[1] . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى فى سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يَسْتقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوّم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

## الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالا له ، بل منه ما يسمّى باسم

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

الآثار وهى ما رواه الرواة حكاية عن خُلقه أو عمله أو فى شأن من شئونه . وضم إليه الرواة كثيراً مما حُكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ كانوا يقتدون به فى أقوالهم وأفعالهم عملا بقوله تعالى : ( لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسَنة ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّة أبى بكر وعمر ، بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »[١]. وفى ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : « اجتمعت أنا والزُّهْرى ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السُّنَن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنّة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيَّعت[٢] » .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامى وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذى يفصِّلها ، فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله تعالى ( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) وفصَّل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ، كما فصل القواعد والأسس التى يجب اتباعها فى جَمْع الزكاة وتوزيعها . وهذان أمران من مئات الأوامر التى تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذى بيَّن أحكام الشريعة وصوَّرها عمليا كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التى جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملا للقرآن، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه أو يَنْبهم المراد من معنى بعض آياته، فقد رُوى عن على بن أبى طالب أنه لما أرسل ابنَ عباس ليحاجَّ بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه حمّالُ أوجه ، ويحتمل معانى مختلفة، وبأن يكون عماده السُّنّة فلا يجدوا منها مخرجاً[٣] .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته وكان هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائى قلنا

(١) الحيوان للجاحظ ( طبعة الحلبى ) ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ( طبعة أوربا ) ٣٣٦/١ .

(٣) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ١٤٦/٢ .

يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس[١] » . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتتكرر فى خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يُرْسل فى القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومرّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تَقْضى ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولا فى حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته فى الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفّى الرسول وانتشر الصحابة فى الأمصار الإسلامية أخذوا يبلّغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثْرة ما رُوى عنهم فى هذا الباب مثل أبى هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالمحدّث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثنى أو أخبرنى أو أنبأنى . ومن ثمّ تكوّن سَنَد الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رُواته ، تلك السلاسل التى تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدّث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرّق الصحابة فى الأرض ، وبذلك تعددتْ طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعى أن يسمّى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوى ، وهو يسمّى أيضاً السنة ، وهى فى اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التى رُويت عن النبى وصحابته ، وهى تُسْتَعْمل فى القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التى حُكيت عن الرسول وصحبه .

ومما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُوِّن فى حياته ، وخاصة تلك

---

(١) انظر فى هذا الحديث مقدمة القسطلانى على البخارى .

التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك فى بعض كتبه المأثورة[١] . ورخص النبي فى بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكا إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه[٢] ، وعن رافع بن خديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج[٣] » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له[٤] ، وكان يسمى صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة[٥] . وفى بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يمنى خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية[٦] . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول فى حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أثر عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمحه »[٧] .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة فى كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنن وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبداً »[٨] . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأبى موسى الأشعرى ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون فى القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

(١) انظر فى ذلك مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة لحميد الله (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى (طبعة يوسف العش) ص ٦٥ .
(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .
(٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها .
(٥) تقييد العلم ص ٨٤ .
(٦) نفس المصدر ص ٨٦ .
(٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها .
(٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

الخلافة ( ٩٩ — ١٠١ هـ ) فأمر بتدوينه . جاء فى حاشية[١] الزرقانى على موطأ مالك: « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع فى العلماء ( من حفّاظها ) الموت، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمى ( والى المدينة ) فيما كتب إليه : أن انظرْ ما كان من سُنّة أو حديث فاكتبه . وقال مالك فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظرْ ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سُنّته أو نحو هذا فاكتبه لى فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علّقه البخارى فى صحيحه، وأخرجه أبو نُعَيْم فى تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » . وتوفّى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم فى هذا الصدد . وأول مدوِّن للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهرى[٢] المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف فى الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم .

وإنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا فى عبارته وقدموا فى كلماتها وأخّروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث فى إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التى دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُرْوَى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت — تُرْوَى غالباً — بمعانيها، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

---

(١) انظر الحاشية ١/١٠ .

(٢) انظر فى ترجمته كتاب الأنساب للسمعانى ٢٨١ وابن خلكان ( طبعة بولاق ) ١/٥٧١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٠٢ والمعارف لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

على أن طائفة من الأحاديث رُويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصّ عليه العلماء بأنه رُوِيَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم، وحقًّا ما يقوله الجاحظ من أنه «لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق»[1] ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه، فمن ذلك قوله للأنصار: «أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع» وقوله «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم»، وقوله: «لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصَّدَقة مغرماً»، وقوله «المستشار مؤتمن»، وقوله: «إن أحبَّكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يألفون ويُؤْلفون. وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيْهقون»، وقوله «لا تَجِنّ يمينك على شمالك» وقوله: «ما أملقَ تاجر صَدوق» وقوله: «رَحِمَ الله عبدًا قال خيرا فغنمَ أو سكت فسلمَ» وقوله: «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا: يرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرّقوا وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال» وقوله: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأمضيتَ» وقوله: «إن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فصار لكل رجل موضع، فنقَر رجل موضعه بفأس، فقالوا: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع به ما شئتُ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا» وقوله: «حصِّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة» وقوله: «من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله أن يحرِّم لحمه على النار» وقوله: «أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، وبالعدل في الرّضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً» وقوله: «إن الأحاديث ستكثر

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٧.

بعدى كما كثرت على الأنبياء من قبلى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله » . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التى دارت بين الناس دوران الأمثال والتى تُعَدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم [١] :

يا خيلَ الله اركبى — مات حَتْفَ أنفه [٢] — لا تنتطح فيه عَنْزان — الآن حَمِىَ الوطيس [٣] — كل الصَّيْد فى جوف الفَرَا [٤] — هُدْنة على دَخَن وجماعة على أقذاء [٥] — لا يُلْسَع المؤمن من جُحْر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع ولا ظهرا أبقى [٦] — إياكم وخضراءَ الدِّمن [٧] — الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة [٨] .

وإذا كنا قد عرضنا فى غير هذا الموضع لأثر القرآن فى اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه فى البلاغة، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره فى أنه عاون القرآن الكريم فى انتشار العربية ، وفى حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً فى توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُسْتَخْدم من قبل هذا الاستخدامَ الخاص . وقد أقبل العلماء فى مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقًّا أن كثرته رُويت بالمعنى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور فى عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهى من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالى هى كنز ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكنز فى رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها — على مر العصور — رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٥ وراجع كتب الأمثال .

(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .

(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلا فى اشتداد الحرب .

(٤) الفرا : حمار الوحش . يضرب مثلا فى نفاسة الشىء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى هلكت فلم يقض ما يبغى من حاجة أو من سفر . والظهر : الناقة التى يركبها .

(٧) الدمن : البعر المتلبد . يضرب مثلا للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ فى منبت سيىء .

(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذى أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من امْبِرِّ امْصِيام فى امْسَفَر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء فى غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا فى السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً فى تراجم المحدِّثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب فى أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف فى مثل طبقات ابن سعد وأُسْد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبى . فالحديث هو الذى فتح باب الكتابة التاريخية وهيَّأ لظهور كتب الطبقات فى كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته فى علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

## الفصل الثالث

# الشعر

## ١

### كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار فى صدر الإسلام ، وهى أشعار كثيرة ، نلقاها فى كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهى دعوة اضطرته إلى حَمْل السيف للذياد عنها ، وانقسمَ العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحَسُنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدّون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلا على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام فى الجزيرة ، غير أن أقواماً ارتدوا لعهد أبى بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنْشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فَعلَتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم فى كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون فى هذا العصر لا مع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهَدْيه الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله فى الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَة لسانهم وعبّروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه. واقرأ فى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، واقرأ فى

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوّديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر فى نفسه أن الشعر ظل مزدهراً فى صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول فى مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه فأخْرِسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ، ثم استقرَّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه[1] » . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشْغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل فى الإسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرافهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة . وحتى فى العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يتقدم ومعه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يَمْثُلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم ويُنْشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه[2] .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلّام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلتْ عن الشعر العربُ وتشاغلوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ( طبعة المطبعة البهية ) . ص ٤٢٧ .

(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٤/١٤٦ وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير»[١].
وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفيه ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشُغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر فى صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء فى قوله تعالى: ( والشعراءُ يتّبعهم الغاوون ألم تَر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ). وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويثبّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذى قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحاً خير له من أن يمتلىء شعراً »[٢] أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكْماً أو حكمة »[٣] ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذى أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قَدِمَ عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه بُرْدته[٤] .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ( طبع دار المعارف ) ص ٢٢ .
(٢) العمدة لابن رشيق ( الطبعة الأولى ) ١/١٢ .
(٣) العمدة ١/٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٤٢ ومابعدها

والحق أن الإسلام لم يردّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذه سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وَقْع نبْله عليهم أشد من وقع الحسام[١]. وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم[٢] ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه فى المسجد[٣]. وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبـــائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً[٤] ، ويقال إنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قِبَلَك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب »[٥] ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٦] .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الحطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع فى هجائه للزِّبْرِقان بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء[٧] . واتبع عثمان سنة عمر فى التشديد على من يَسْلُقون المسلمين بألسنة حداد ، وقصته مع ضابئ بن الحارث البُرْجمى مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل فى حبسه حتى مات[٨] .

---

(١) العمدة ١/١٢ .

(٢) راجع خطبة أبى بكر فى السقيفة وكتاب عثمان إلى على حين حوصر ، وانظر ابن سعد ٦/٥٧ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج١ ق٢ ص ٩٥ – ٩٦ والفائق للزمخشرى ١/٢٥٧ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨/١٩٩ ، ١٠/٢٨٨ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٥/٢٧٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٩٢ .

(٥) العمدة ١/١٠ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/١٨٥ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر فى ترجمة ضابئ أيضاً الشعر والشعراء ١/٣٠٩ والإصابة ٣/٢٦٧ والخزانة ٤/٨٠ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢١٩ .

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة فى هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفّ العرب عن الشعر ووقفَ نشاطه ، فقد كان يُنْشَدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معركة على مع خصومه فى العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلّت من عُقَد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التى لم تُعْرَف فى الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء فى الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهى الاختلاط لأنهم خلطوا فى حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا فى العصرين معاً .

## ٢

## الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا فى الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا فى غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصِّمَّة والأعشى وأمية ابن أبى الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشلى وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين وننظمهم فى سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادَّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفّوا حوله فى المدينة فى جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة فى الجاهلية — كما قدمنا — تُعْرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنْسَبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نُبيّه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزِّبَعْرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عَزَّة الجمحى وهُبَيْرة بن أبى وهب المخزومى ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدُّون عن سبيل الله بما يَذيع من شعرهم فى القبائل العربية ، فقال للأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرُّنى به مِقْوَلٌ بين بُصْرى وصنعاء»[١] وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . واقرأ فى سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد فى السنة الثالثة وغزوة الخندق فى السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك فى فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغى أن نشك فى كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق — كما يقول ابن سلام — كان يَحْمل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه[٢] ، ونرى ابن سلام يقول فى ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يَرْوى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأَنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[٣] . على أن ابن سلام نفسه يُثْبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر[٤] ، وقد

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التي قالها فى نفس اليوم[١]، والتي يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]
حين ألقتْ بقُباءٍ بَرْكَهَا ... واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلْ[٣]
فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم ... وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن ... عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]
قالت كنانةُ : أنَّى تذهبون بنا ... قلنا : النَّخيلَ، فأمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبياتِ يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجَـزَاءُ
فإن أبى ووالده وعِرْضِى ... لِعرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفْءٍ ... فشَرُّكما لخيركما الفِـدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .
(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .
(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتلى بدر .
(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .
(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق ويدفع .
(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .
(٩) أغانى ٤/١٣٩ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحُد في كلمة :

فجئْنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ(١)
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع (٢)
فراحــوا سراعاً مُوجِفين كأنَّهم جَهَامٌ هَرَاقتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ(٣)
ورُحْنــا وأُخْرَانا بِطاءٌ كأنَّنا أسودٌ على لَحْمٍ ببِيشَةَ ظُلَّعُ(٤)

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ بعضاً كمَعْمَعَةِ الأَباءِ المُحْرَقِ(٥)
فَلْيَأْتِ مأْسدةً تُسَلُّ سيوفُهــا بين المَذادِ وبين جِزْعِ الخَنْدَقِ(٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله(٧) :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فَنأْسرهم فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ(٨)
وقــد علمتم بأَنا ليس غالبَنا حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ(٩)
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذي نُصِروا(١٠)

---

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا. الحاسر : الذي لا بيضة له عكس المقنع .

(٢) النصية : الخيار والأشراف .

(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه .

(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج . يكنى بذلك عن سيرهم البطيء المطمئن .

(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار في القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

وفى الأغانى أن حساناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[1] . ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبتْ على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة ، لأنها هى التى كانت تؤذى نفوس القرشيين المكيّين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم ، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزّون بها ، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا فى الأحساب والأنساب ، وعيّرا سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير . وطبيعى لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم فى ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن فى الأعراض والأحساب ، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتى على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار ، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون فى دينه الحنيف .

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش فى التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار[2] وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم فى هذا الفساد كعب بن الأشرف[3] ، وقد بلغ من سوء فعله أنْ كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين ، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله فى رهط من الأنصار[4] . غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سرّاً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة ، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة .

---

(١) أغانى ٤/١٣٨ .
(٢) السيرة النبوية ( طبع الحلبى ) ٢/١٤٧ .
(٣) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٩/١٠٦ .
(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية ٣/٥٤ وما بعدها .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرّضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبى الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور[١] ومثل الأسود بن يَعْفُر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد[٢]، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر[٣]:

قَضَيْنَا من تِهامةَ كلَّ وِتْرٍ ... وخَيْبَرَ ثم أَجمَمْنا السيوفا[٤]
نخيِّرهــا ولو نطقتْ لقالتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْساً أو ثَقِيفا[٥]
فلستُ لحاصنٍ إن لم تروها ... بساحة داركم منا أُلُوفَا[٦]
فننتزعَ العروش بِبَطْنِ وَجٍّ ... ونترك داركم منا خُلوفا[٧]
ونُرْدِى اللّاتَ والعُزَّى ووَدًّا ... ونَسْلُبُها القلائد والشُّنُوفا[٨]

وتُفْتَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هُذَيْل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهُذَلى فى بكائه لدُبَيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد[٩]. وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حُنَيْن. على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدينَ الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

(١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣١/٣.
(٢) ابن سلام ص ١٢٣.
(٣) ابن سلام ص ١٨٤.
(٤) الوتر: الثأر.
(٥) دوس وثقيف: قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف.
(٦) الحاصن: المرأة العفيفة.
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم. وج: الطائف ونواحيها. والحى الخلوف: الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم.
(٨) نردى: نهدم. اللات والعزى وود: أصنام. القلائد: السموط. الشنوف: جمع شنف وهو القرط.
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٢٤ وما بعدها.

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم ثاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول فى تضاعيفها[١] :

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها     أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمَّدِ

ونَظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسَى فيها على مافرَّط فى جَنْب الله ورسوله على شاكلة قوله[٢] :

لعمْرُك إنى يوم أحمل رايةً     لتغلبَ خَيْلُ اللَّات خَيْلَ محمدِ
لكالمُدْلجِ الحَيْران أظلم ليلـه     فهذا أوانُ حين أهدِى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم فى ذلك شعراء المدينة ، وتُنْسَبُ إلى الأعشى قصيدة فى مديحه[٣] لا شك أنها منحولة ، وتُنسَب لأبى طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه     ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

ويقول ابن سلام : «قد زِيد فيها وطُوِّلت»[٤] وتُنْسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله[٥] :

نبيٌّ أتانا بعد عيسى بناطقٍ     من الحق فيه الفَصْلُ منه كذلكا
أميناً على الفُرْقان أول شافعٍ     وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونُظم كثير من المراثى فى قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قُتَيْلة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُثى به قصيدة حسان التى يستهلها بقوله[٦] :

ما بالُ عينى لا تنام كأنما     كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأَرْمَدِ

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/٦٩ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٣) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩/١٢٥ .
(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٥) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٤/٣٠٥ .
(٦) ديوان حسان ( طبعة هرشفيلد ) ص٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون فى صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

## ٣

### الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّت أضواء الإسلام فى الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن فى الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضى على الوثنية فى أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر فى نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلَّم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصدِّيق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيى هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجَّه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حَسُنَ إسلامهم فى القبيلتين أن يردوهما عن غيِّهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَاخة ، فنكَّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد توًّا إلى تميم ومتنبئتها سَجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتل حينئذ مالك بن نُوَيْرة سيد بنى يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة[1] . واتجه خالد بجيوشه نحو بنى حنيفة فى اليمامة ومتنبئها مُسَيْلمة ، فالتقى بها فى « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بنى حنيفة ، فسقط متنبئها فى ميدان المعارك ، وأعلنت استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله، وسرعان ما دانت «البحرين» بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن، حيث التفّ الناس هناك حول متنبئ يسمى الأسود العنسى ومتنبئ آخر يسمى قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هى الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة فى وعظه لبنى عامر[2] :

بنى عامرٍ إن تَنْصُرُوا الله تُنْصَرُوا ... وإن تَنْصبوا لله والدين تُخْذَلُوا
وإن تُهْزَموا لا يُنْجِكمْ منه مهربٌ ... وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن بُجَيْر الطائى فى موقعة بُزاخة[3] :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنــا ... وما تَختلى من أذْرُعٍ ورقابِ[4]
ألم تر أن الله لا ربَّ غــيره ... يصبُّ على الكفار سَوْط عذابِ

وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم[5] .

---

(١) انظر فى متمم ورثائه لأخيه الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/٦٣ والشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢٩٦ والخزانة ١/٢٣٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .

(٢) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥ وراجع فى أشعار أخرى الإصابة ١/٢٧٤ ، ٢/٣ ، ٢/١٥٢ ، ٥/١٢٢ .

(٣) الإصابة ٢/٥٥ .

(٤) تختلى : تقطع .

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٤٩٤ والإصابة ٣/١٢٥ .

ورُئِبَ الصَّدْع وعاد الحق إلى نصابه، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام فى آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون فى سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبى العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان فى فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون فى موقعة أجنادين كما انتصر فى موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوفَّى أبو بكر فى السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به «رَبِّ توفَّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين»[1]، وبكاه كثير من الشعراء[2] ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت[3] :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ — فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالىَ الثانىَ المحمودَ سيرتَه — وأوَّلَ الناس منهم صدَّق الرسلا
وثانىَ اثنين فى الغار المُنيف وقد — طاف العدوّ به إذ صعَّد الجَبلا
وكان حِبَّ رسولِ الله قد علموا — خَيْرِ البريَّة لم يعْدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . وهو أول من دوَّن الدواوين ورتَّب الناس فيها على سوابقهم، وأول من رتَّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمير المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولَّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمَّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما فى الشرق فكانت المعركة

---

(١) الطبرى ٢/٦١٥ .
(٢) الطبرى ٢/٦١٧ والاستيعاب ص٣٤٢.
(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين ٣/٣٦٢ .

حامية الوطيس . وقد أمدّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفّى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومُنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة. وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرّن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان مَنْ قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البُرَيْق بن عياض الهذلى ، إذ يقول [1] :

وإن أُمْسِ شيخًا بالرجيع ووِلْدَةً ... وتصبحُ قومى دون دارهمُ مِصْرُ [2]
أسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ ... مقيما بأملاحٍ كما رُبِط اليَعْرُ [3]
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم ... بستة أبيات كما نَبتَ العِتْرُ [4]

وكان عمر يَنْهَى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برًّا بهم ، ويُرْوَى أن المخبَّل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

---

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٣/٥٨ وانظر أيضاً ٢/١٩٧ ، ٢/١٩٩ حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً ماثلة .

(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .

(٣) أملاح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .

(٤) العتر : شجر له ورق صغار . خلافهم : بعدهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

ويخبرني شيبان أن لن يعقّني تعقٌّ إذا فارقتني وتَحُوبُ[١]

فرقّ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل عنده حتى مات[٢]. وليس المخبّل وحده الذى فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد فزع إليه أيضاً أمية بن حُرْثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشَدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا[٣]

إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وَجٍّ على بَيْضاتِها ذكرَا كلابا

تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه وأمّك ما تُسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه[٤]. وممن فزع إلى عمر أيضاً فى ذلك أبو خراش الهذلى حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته[٥].

ولعل فى هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد فى سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم[٦] لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدى لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته فى فتوح فارس[٧]:

يا ابنةَ عمى كتابُ الله أخرجنى طوعاً وهل أمنعنَّ الله ما فعلا

فإن رجعتُ فربُّ الناس يرجعنى وإن لحقتُ بربِّى فابتغى بدلا

ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرَنى أو ضارعاً من ضَنًى لم يستطع حِوَلا[٨]

---

(١) تحوب : تأثم .

(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٣/١٩٠ .

(٣) يقصد ما فى كتاب الله من رعاية الآباء والبر بهم .

(٤) ابن سلام ص١٦٠ والخزانة ٢/٥٠٥ .

(٥) أغانى( ساسى )٢١/٦٩ وديوان الهذليين ٢/١٧٠ وانظر فى حالات مشابهة الأمالى ٢/٣٠٩ وذيله ص ١٠٩ .

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص٢٥ والعقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ١٣٧ .

(٧) الشعر والشعراء ١/٢٥١ وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الفاتحين فى العصر الأموى ، انظر الطبرى ٥/٤١٣ .

(٨) ضارعا : ضاويا نحيلا . ضنى : مرض .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعاً للعدل والتقوى والزهد فى الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثمة فى الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين ونشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جَزْء بن ضِرار أخى الشماخ (١) :

جَزَى اللهُ خيرًا من أميرٍ وباركتْ　　يَدُ اللهِ فى ذاك الأديم المُمزَّقِ (٢)
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ　　لِيُدْرِك ما حاولتَ بالأمسِ يُسْبَقِ
قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها　　بَوائقَ فى أكمامها لم تفتَّقِ (٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى فى ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فمضى ينفذ سياسة عمر فى إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان فى الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفى مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامُه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملأهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خُمْس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالفَىْء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تُركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسْلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

---

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ٩/١٥٩ والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .

(٢) الأديم : الجلد .

(٣) البوائق : الدواهى . تفتق : تنشق عن ثمرها . والاستعارة واضحة .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْركوا الدولة فى الفىء ، ولكن صوتهم لم يرتفع فى عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التذمر يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدَّى إلى قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة[١] ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيم[٢] :

ضحَّوا بعثمان فى الشهر الحرام ضُحًى ... وأىُّ ذَبْحٍ حرامٍ لهمُ ذبحوا

إن الذين تولَّوا قتله سَفَهاً ... لاقوا أثاماً وخُسْراناً فما ربحوا

ماذا أرادوا أَضلَّ الله سَعْيَهُمُ ... بسَفْحهم للدَّم الزَّاكى الذى سَفحوا

وكان علىٌّ يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرْضِ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل فى الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على فى موقعة الجَمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان علىٌّ قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولىَّ دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه علىٌّ بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية فى صِفِّين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَبَ لعلىّ ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده تَرْفع المصاحف على أسنَّة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووَقْف هذه الحرب المبيرة للمسلمين ، وتنبه علىٌّ للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وَقْف القتال والدخول مع معاوية فى مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبى موسى الأشعرى عن على ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنع أبا موسى بخلع على ومعاوية

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل للمبرد ( طبعة رايت ) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبرى ٤٤٧/٣ وما بعدها .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣ .

معاً . ولم يلبث مركز علي أن تزعزع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حَرُوراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع علي . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النَّهْروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيَّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه[١] ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول[٢] :

أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينا
قتلتم خَيْرَ من ركب المطايا ... وخيَّسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلتَ وجه أبي حسين ... رأيت البدر راقَ الناظرينا
لقد علمتْ قريشٌ حيث حلَّتْ ... بأنك خَيْرُها حسباً ودينا

وقد كَثُرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة[٣] ، ويُبكي مقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون عليًّا ويتهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم[٤] :

وإنا وإياكم وما كان منكمُ ... كصَدْعِ الصَّفَا لا يَرْأَبُ الصدعَ شاعبُه
همُ قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازِبُهْ

وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة[٥] . وتطورت

---

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ — ٤٨٦ والطبري ١١٦/٤ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢ والطبري ١١٦/٤ وخيسها في البيت الثاني : ذللها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(٥) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبري ٤٤٩/٣ .

الأمور ، ونشبت وقعة الجمل بين على وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوّنت فى هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة[١] من مثل قول القائل[٢] :

نحن بنو ضَبَّةَ أَصحابُ الجمَلْ    نَنْعَى ابن عفَّان بأَطراف الأَسَلْ
ننازل الموتَ إذا الموت نَزَلْ    والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلْ

والتقى على بمعاوية فى صفّين ، وحمى وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلٌّ يعتقد أن الحق فى جانبه ، من مثل قول أبى الطُّفَيْل عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علىٍّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ    على الخَيْل فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سيما النبيِّ ورايــةٌ    بها انتقم الرحمنُ ممن يَكيدها

وردَّ عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية[٣] :

ثمــانون أَلفاً دينُ عثمان دينهم    كتائبُ فيها جِبْرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمتْ    ففى النار سُقْياه هناك صَديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبيات القبيلية[٤] ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن فى تاريخ الطبرى وفى كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفى لبيان ما انزلق على الألسنة من أشعار ملتهبة[٥] . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين على والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يَخْمد له أُوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربى إذكاء وأشعلتها إشعالا .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٢ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٣/٥٢٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/ ١٤٩ .
(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون) نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر الطبرى ٤/١٦ وما بعدها

## ٤

### شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدون لله ودينه . ومن الصعب أن نتعرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى مِحْجَن الثقفى[1] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه — على أن يعود إلى قيده — ليُسْهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[2] :

لقد علمتْ ثَقِيفٌ غير فَخْرٍ ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرِّعْهم حُتوفا

وكان حول أبى مِحْجَن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[3] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[4] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنَّ كالأشطان[5]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأَضْغَان[6]

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى ( طبع الساسى ) ٢١ / ١٣٧ والشعر والشعراء ١ / ٣٨٧ والإصابة ٧ / ١٧٠ والخزانة ٣ / ٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١ / ١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥ / ٢٠٨ والشعر والشعراء ١ / ٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١ / ٤٢٢ ، ٣ / ٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ( طبعة الحلبى ) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٤٠ والعينى ١ / ٣٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١] :

تذكَّرْ ـ هداك الله ـ وَقْعَ سيوفنا ببابِ قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]

عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعـار جَنـاحَىْ طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]

ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

وممن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب ، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاء تَرْدِى بكل مـدجَّجٍ كالليث سامى[٦]

إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ إلى اليَرْمـوك فالبلد الشآمى

وجِئْن القادسيَّة بعد شَهْرٍ مسوَّمـةً ، دوابرُهـا دوامى[٧]

فناهضنا هنالك جَمْع كسرى وأبنـاء المـرازبة الكرام[٨]

فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ قصدتُ لموقف الملكِ الهمام

فأضربُ رأسه فهوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]

وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا وفعـلُ الخير عند الله نامى

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة، وله فيها أشعار كثيرة[١٠]، وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٢٤٣ .
(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها.
(٣) دلفنا : تقدمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدم .
(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .
(١٠) الإصابة ١/١٠٨ .

شأس الأسدى (١)، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم (٢) :

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْراً   تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا (٣)

وفرَّ الْهُرمُزَان ولم يحامى   وكان على كتيبته وبالا (٤)

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله (٥) :

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً   وما كلُّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي (٦)، وقد ختم الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها (٧) :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها   أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل (٨)

مُتَسَرْبِلِى حلقِ الحديد كأنهم   جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةٌ مُهْمِل (٩)

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لعَبْدة (١٠) بن الطبيب ، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، ونراه يستهلها بقوله (١١) :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ٣/٥٠ .

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .

(٥) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/٥١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى) ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦ .

(٧) الحيوان (طبعة الحلبى) ٧/٢٦٣ .

(٨) البيض: الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل : الذى يهمل الإبل فى المرعى .

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والموشح ص ٧٥ .

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥ .

هل حبلُ خَوْلَةَ بعد الهجر موصولُ    أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوسَ العُجْمِ ضاحيةً    منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[1]

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ    وكل خيرٍ لديه فهو مقبـــول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلا قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثِير بن الغَرِيزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول[2] :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ    مصارعَ فتيةٍ بالجُـــوزَجانِ

وما بى أن أكون جَزِعْتُ إلا    حنينَ القَلْبِ للبَرْقِ اليمانى

ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلى    بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/٢٧٨ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٥/٣١٨ والخزانة ٤/١١٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

ما نجد عند زياد بن حنظلة فى وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[1] ويروون أنه كان لأوس[2] بن مَغْراء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم فى الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ　　وكان صافيةً لله خُلْصانا

ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما ائتُمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أثْرَوْا ثراء غير مشروع من أعمالهم التى يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول[3] :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا　　فأنَّى لهم وَفْرٌ وليس لنا وَفْرُ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه فى فتوحهم من المعاقل والحصون والحيوان كالفيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين[4] .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها فى هذه الأشعار الكثيرة التى رُويت عنهم فى مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نُسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجوِّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثَمَّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسل الراوى الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق فى الجزيرة العربية ولا يُعْرَفُ من نظمهما ، ويعقِّب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

(١) طبرى ٢/١٠٨ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٨ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤ ، ٥/٦٠

ذلك فى عامة بلاد العرب[١] » . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجَّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود فى هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهى أن قَصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القُصَّاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه فى كل موقف وكل معترك ، مقصِّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعى أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلا الوزن الشعبى الذى ينْظم فيه عامة العرب .

---

(١) طبرى ٣/٨٣ .

## الفصل الرابع

# الشعراء المخضرمون
# ومدى تأثرهم بالإسلام

## ١

### كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ فى شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر فى كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المعلَّى فى هذا الميدان، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهدْيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه فى هجائه للمشركين وفى كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله[1] :

شهدتُ بأن وعد الله حَقٌّ ... وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة الشعرية، وقد رُويت لهم أشعار تنمّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبى قيس صِرْمة بن أبى أنس الأنصارى فى قصيدة بديعة [2] :

ونعلم أن الله لا شىءَ غيرُه ... وأن كتاب اللهِ أصبحَ هاديا

وقول أبى الدَّرْداء[3] :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأبى اللهُ إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .
(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .
(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

وتحوَّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا فى دين الله يكفّرون عما قدَّمَتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزِّبَعْرى (١) :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى     راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور (٢)

إذ أجارى الشيطان فى سَنَنِ الغَ     ىِّ ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُـورُ (٣)

آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْ     تَ فنفسى الفِدَا وأنت النَّذِيرُ

وقد حَسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه فى أشعارهم ، حتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول أبى سفيان بن الحارث (٤) :

لقد عظمتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ     عشيَّةَ قِيل : قد قُبِضَ الرسولُ

نبيٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عنـا     بمـا يوحَى إليه وما يقـولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادى وجدنا بينهم كثيرين يَقْبسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا فى الجزيرة ولم يُتِحْ لهم تقدم سنهم شرف الاشتراك فى هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عَبْدة بن الطبيب الذى تحدثنا عنه فى شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه فى شطر كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبِرِّ الوالد والحذر من النمَّام الذى يزْرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً فى ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول (٥) :

أوصيكمُ بتُقَى الإلٰه فإنـه     يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ

وبِبِرِّ والدكم وطـاعةِ أمره     إن الأَبَرَّ من البنين الأَطْـوَعُ

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سَنَن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذى يُزْجِى النَّمائم بينكم ... متنصِّحا ذاك السِّمام المُنْقَعُ[1]
يُزْجى عقاربَهُ ليبعث بينكم ... حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَع[2]

وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم[3] :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمته ما شاء أن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ... ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد[4] بن أبى كاهل اليشكرى فسترى المفضل الضبى يروى له قصيدة[5] يفخر فيها فخراً جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربَّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدَ لهُ ... سعَةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ[6]
وإباءً للدنيَّاتِ إذا ... أُعْطِيَ المكثورُ ضَيْماً فكَنَع[7]
وبناءً للمعالى إنما ... يرفع اللهُ ومن شاء وَضَعْ
نِعَمٌ لله فينا رَبُّها ... وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَع[8]

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة ( ولا يغتَبْ بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ) يقول :

---

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السمام : السم . المنقع : القاتل .

(٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .

(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٣٨٤ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٣/١٠٢ وابن سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة ٢/٥٤٦ وحديث الأربعاء لطه حسين ( طبعة الحلبى ) ١/١٩٠ .

(٥) المفضليات ص ١٩٠ .

(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .

(٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .

(٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لا فعل ، أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ ما يجمع أن يَغْتابنى مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرَعْ[١]
ويحيِّينى إذا لاقيتُـــهُ وإذا يخلو له لَحْمِى رَتَعْ[٢]

وممن أسلم وهو فى سن كبيرة الُحصين[٣] بن الحُمام سيد بنى مرّة الذبيانيين ، وله أبيات تطرد على هذا النحو[٤] :

ويوم تسعَّر فيــه الحروبُ لبسْتُ إلى الرَّوْعِ سِرْبالها[٥]
فلم يبق من ذاك إلا التُّقَى ونَفْسٌ تعــالج آجــالها
أمورٌ من الله فوق السماء مقــاديرُ تنزلُ أنْزَالها[٦]
أَعــوذ بربى من المُخْزيــا تِ يوم ترى النفسُ أعمالها
وخَفَّ المــوازينُ بالكافرين وزُلْزِلتِ الأرض زِلْزالَهـــا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : ( واتقوا الله ) ( فإن الله يحب المتقين ) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ( إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) ( هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون ) ( وإنْ من شىء إلاعندنا خزائنهُ وما ننزِّله إلابقدَرٍ معلوم ) وقوله عزَّ شأنه : (إذا زُلزلت الأرض زلزالها ) ( فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاويةٌ وما أدراك ماهيه نار حامية ) ( ووفّيتْ كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ) .

واقرأ فى النَّمِر[٧] بن تَوْلب ،وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علَت سنُّهم ،

---

( ١ ) وخم : غير مرىء . يدرع : يلبس .
( ٢ ) رتع : أكل بنهم .
( ٣ ) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٤/ ١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد الغابة ٢/ ٢٤ والإصابة ٢/ ١٨ والخزانة ٢/ ٧
( ٤ ) أغانى ١٤/ ١٤ .
( ٥ ) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
( ٦ ) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها .
( ٧ ) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/ ٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/ ١٥٧ والموشح ٧٨ والخزانة ١/ ١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/ ٢٥٣ .

فسترى فى شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله[١] :

ومتى تُصِبكَ خَصاصةٌ فارْجُ الغِنَى وإلى الذى يُعْطى الرَّغائبَ فارغبِ

وهو القائل[٢] :

أَعِذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ومن نَفْسٍ أعالجُها عِلاجا
ومن حاجات نفسى فاعْصِمَنِّى فإنَّ لمُضْمَرات النفس حاجا[٣]
وأنت وَلِيُّها فبرئتُ منها إليك وما قضيتَ فلا خِلاجا[٤]

ويُرْوَى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها[٥] :

لله من آياتــهِ هذا القَمَــرْ والشمسُ والشِّعْرَى وآياتٌ أُخَرْ

ومرتْ بنا استجارةُ المخبّل[٦] السّعْدى بعمر بن الخطاب حين هاجرابنه للغزو وكيف ردّه عليه ، ومن قوله فى نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبى[٧] :

إنى وجدتُ الأَمر أَرشدُه تقوى الإلٰهِ وشَرُّهُ الإِثْمُ

وكان فى الشّماخ[٨] شر كثير ، وهو ممن شاركوا فى معركة القادسية ومعارك أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد فى ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده فى سبيل الله ، وكأنما عُنى الرواة بشعره البدوى وإحسانه فيه لوصف القَوْس وحمار الوحش[٩] ، ومما يتمثّل به من شعره[١٠] :

ليس بما ليس به بأْسٌ باْسْ ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٦٩ والأغانى ١٩/١٦١ .
(٢) الأغانى١٩/١٦٢ والحيوان٢/٢٠٥.
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغانى ١٩/١٥٩ .
(٦) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء١/٣٨٣ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٣/١٨٩ والإصابة ٢/٢١٨ والخزانة٢/٥٣٦ والموشح ص ٧٥ .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٤ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٩/١٥٨ والخزانة ١/٥٢٦ والإصابة ٣/٢١٠ والموشح ص ٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى المراجع السابقة وراجع الحيوان ٥/٧٩ .
(١٠) الشعر والشعراء١/٢٧٧ و بأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا فى الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جَزْء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرِّد[١] بهجائه وخاصة للأضياف. ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء، كما يدل على ذلك قوله[٢] :

تنزَّلتُ من شَتْم الرجال بتَـوْبةٍ إلى الله منى لا ينادَى وليـدها

ومن شعراء هُذَيْل البارعين فى هذا العصر أبو ذُؤَيْب[٣] الهُذَلى. وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[٤] :

كُسِفَتْ لمصرعِه النجومُ وبَدْرهـا وتزعزعتْ آطامُ بَطْنِ الأَبْطحِ
وتزعزعتْ أجبالُ يَثْرِبَ كلُّهـا ونَخِيلُها لحلول خَطْبٍ مُفْدِحِ

وهو فى ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْل، مثله فى ذلك مثل شعراء هذيل. وقد خرج يغزو فى سبيل الله، ونراه فى جنود عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفِّى له — قبل وفاته بعام — خمس بنين فى وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد فى قوله[٥] :

أَوْدَى بنىَّ وأعقبونى غُصَّةً بعد الـرُّقاد وعبرةً لا تُقْلِعُ
فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ[٦]

---

(١) راجع فى ترجمة مزرد الشعر والشعراء ١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥ ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢ .

(٢) الإصابة ٦/٨٥ .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤ والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣ والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨ ومعاهد التنصيص ١/١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/٨٣ وشرح شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجى) ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١ وما بعدها .

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب . مستتبع : تابع .

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظْفَـارَها ألفيتَ كل تَميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

ورَوى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى أبا عبيد[١] :

أبا عُبَيْدٍ وقــع الكتابُ واقترب الوعيــد والحسابُ

وأشاع الإسلامُ فى نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم. ويشتهر فى هذا الصدد عمرو بن شأس الذى سبق أن عرضنا له فى شعر الفتوح، فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها بقطعته المعروفة[٢] :

أردتِ عِراراً بالهوان ومَنْ يُرِدْ عِراراً لعَمْرى بالهوان فقد ظَلَمْ

وكان ينحو هذا المنحى مَعْن[٣] بن أوس المُزَنى فى عتابه لابن عمه الذى أساء إليه إساءة كبيرة. وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره فى صَفْحه عن زلاته براً به وبقرابته مع تجنّيه عليه وتجرّمه، يقول[٤] :

وذى رَحِمٍ قلَّمت أظفار ضِغْنِهِ بحلمىَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فما زلتُ فى لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأُمُّ

ومن غير شك كان يستهدى فى ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو[٥] بن أحمر الباهلى فيتوجه إلى ربه داعياً[٦] :

(١) أغانى ٦/٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١/٨٩ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ .
(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٥٤ والإصابة ٦/١٧٩ والخزانة ٣/٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوقى ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره فى ليبزج .
(٤) أغانى ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج) ص ٥، ٣٦ .
(٥) راجع ترجمته فى ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١/٣١٥ والإصابة ٥/١١٤ والخزانة ٣/٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠ .
(٦) الشعر والشعراء ١/٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكمية يقول فيها :
والحى كالميت ويبقى التقى
والعيش فنان فحلو ومـر

إليك إلهَ الحق أرفع رغبتى عِياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانيا[١]
فإن كان بُرْءًا فاجعل البُرْءَ نعمةً وإن كان فَيْضاً فاقض ما أنت قاضيا[٢]

وممن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل[٣] بن حرِّى فى مراثيه لأخيه مالك ، وكان قد قُتل بصفِّين ، ومن قوله فى إحداها[٤] :

أُناسٌ صالحون نشأْت فيهم فأَوْدَوْا بعد إلفٍ واتساقِ
أرى الدنيا ونحن نعيثُ فيها مُوَلِّيَةً تهيَّا لانطلاق
أَعاذلَ قد بقيتُ بقاءَ قيسٍ وما حىٌّ على الدنيا بباق

وكان بجانب من قدَّمنا شعراء عُرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجه من حين إلى حين ، منهم عَبْد[٥] بنى الحَسْحاس ، وكان يتغزل غزلا مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول :

عُمَيْرَةُ وَدِّعْ إن تجهَّزتَ غازيا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشى[٦] قيس بن عمرو ، الذى حَدَّه على بن أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد هاجى مع كثير من الشعراء وعلى رأسهم تميم بن أُبَىّ بن مقبل العَجْلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ودقَّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهطَ ابن مُقْبلِ[٧]
قبيِّلةٌ لا يغدرون بذمَّةٍ ولا يظلمون الناس حبَّةَ خرْدَلِ

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥ والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠ والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى أغانى (ساسى) ٢٠/٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص١٥٦ والإصابة ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .

(٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق لابن دريد (نشرة الخانجى) ص٤٠٠ والشعر والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح أن النجاشى يرميهم بأن أحسابهم لئيمة خسيسة .

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثانى ، فإن الإسلام يُجِل الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية . وكان ابن[١] مقبل على شاكلته ، يقول ابن سلام : «إنه كان جافياً فى الدين وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية»[٢] ومع ذلك ندَّتْ على لسانه أبيات فيها ما يدل فى وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[٣] :

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمنهما ... أموت وأُخرى أبتغى العيش أكْدَحُ

وكلتاهما قد خُطَّ لى فى صحيفة ... فلا الموتُ أهْوَى لى ولا العيش أرْوَحُ

وهو يَصْدر فى البيتين عن الآية الكريمة : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها) ومما يُرْوَى له قوله[٤] :

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خَبالِ

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخْرًا يكون كصالح الأَعمالِ

وممن يُسْلك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرفوا برقة دينهم الحطيئة ، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين ، وخاصة أهل البادية[٥] ، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً . ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدى ، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان ، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمَّقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدى .

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء ٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة ١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب ١٩/١ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣ .

(٤) طبرى ٢٩/٥ .

(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥ .

## ٢

### حسان[١] بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي «من سادة قومه وأشرافهم»، وكانت أمه «الفُرَيعة» خزرجية مثل أبيه، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله[٢]. وهو يُسلك في المعمَّرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى، وهي سنٌّ تقريبية، فقد قيل إنه توفيٌ قبل الأربعين، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجيًّا فحسب، بل هو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فله به صلة قرابة ورحم.

ونراه قُبَيل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين: قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت[٣]. ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقدَّم عليه الأعشى، فأثار موجدته[٤].

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فيدخل حسان في الإسلام، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه، وكان رسول الله يحثّه على ذلك ويدعو له بمثل: «اللهم أيِّده بروح القدس» واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال: «لهذا أشدُّ عليهم من

---

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٥٧/١٤ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد المغني ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوقي وفي تونس والهند وبيروت، وسنعتمد في المراجعة على طبعة ليدن.

(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨.

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة.

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩.

وقع النَّبْل » ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة ( بهجاء قريش ) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التى هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعى لأنهم كانوا مشركين فعلا، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُرْوَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثْك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُم وجبريل معك »[1] .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض فى حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصْبِح غَرْثَى من لحوم الغوافِلِ[2]

فإن كان ما قد قيل عنِّىَ قُلْتُه فلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطَّل أثاروه فى هذا الحادث ، حتى وجد وجْداً شديداً ، فقال :

أَمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثروا وابنُ الفُرَيْعة أمسى بَيْضَةَ البلدِ[3]

على أنه مضى فى نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر فى ذَبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره فى المسجد ، والذى لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له فى الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

---

( ١ ) انظر فى هذا الحديث وما قبله ترجمته فى كتب الصحابة والأغانى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

( ٢ ) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .

( ٣ ) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفى المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له فى العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عَمِيَ بأخرة .

ويحقّ سُمِّيَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركى العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمِية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرّى حين قُتل فى جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفى عشيرته :

إن تَغْدِروا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ والغَدْرُ يَنْبُتُ فى أُصول السَّخْبَرِ [١]

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بنى تميم يردّ على شاعر هذا الوفد الزِّبْرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول فى تضاعيفه :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ [٢]
يَرْضَى بها كل من كانتْ سريرتُه تَقْوى الإلٰهِ وبالأمر الذى شرعوا
إن كان فى الناس سبَّاقون بعدهمُ فكلُّ سَبْقٍ لأدْنى سبقهم تَبَعُ
أَهْدَى لهم مِدَحِى قلبٌ يؤازره فيما أراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر فى عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعى : «تُنْسَب إليه أشياء لا تصحّ عنه »[٣] ويقول ابن سلام : « قد حُمل عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاتمت) قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنَقَّى »[٤] . وكان ممن حمل عليه غُثاء كثيراً ابنُ إسحق فى المغازى، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروى عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصارى راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

---

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر إذا غدر .

(٢) الذوائب : الأعالى فى الشرف . فهر : قريش، يريد المهاجرين .

(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .

(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عندابن إسحق فكانوا يُثْبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا فى رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليُعْلَم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »[1] ومن ذلك أنه نَسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك[2] ونسب ثالثة إلى عبدِ الله[3] بن الحارث السَّهْمى ورابعة إلى معقل[4] بن خويلد الهُذَلى وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدِّيلى وقيل بل هى لأبى أسامة الجُشَمى[5] . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن[6] . وإذا مضينا نبحث فى مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهى فى رثاء نافع بن بُدَيل[7] ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهى فى رثاء عثمان[8] ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة بائية فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصِرْمة[9] بن أبى أنس الأنصارى ، ونُسب له بيتان فى الفخر بالأزد وهما لسعد[10] بن الحصين الأنصارى ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهى لبشير[11] بن سعد بن الحصين .

ونظن ظنًّا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه فى هجاء قريش ،

---

(١) انظر ابن هشام فى مقطوعة عينية ٣/٥٦ وفى قصيدة عينية ٣/١٤٩ وما بعدها وقابل بالديوان ص٧٦ وهى فى رثاء حمزة ، وانظر حائية فى رثاء حمزة ٣/١٥٩ ومقطوعتين فى رثاء خبيب ٣/١٨٦ وقابل بالديوان ص٤٦ ، ٨٤ وكذلك مقطوعة بائية فى ٣/١٩٢ وقابل بالديوان ص٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية فى عمرو بن ود فى ٣/٢٨١ وقابل بالديوان ص٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣/٣٦٢ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٣/٢٠ والديوان ص٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٣/٨١ والديوان ص٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٣/٢٨٢ والديوان ٥١ .

(٦) السيرة النبوية ٤/١٩٩ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ٣/١٠٨ حيث تشكك الجاحظ فى مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ٣/١٩٨ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص٤٠ وقارن بالأغانى (طبع الساسى) ١٤/١٢٠ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢ - ٤٣ وقارن بالأغانى ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فعروف أنه كان يهاجي النجاشي الحارثي ويذم قومه بني الحارث بن كعب وعشيرته بني الحماس ذماً قبيحاً[١] ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه[٢] . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتَلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون[٣] ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير[٤] بن العوام وعبد الله[٥] بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامي كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثّق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[٦] ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأسيافُنا يَقْطُرْن من نَجْدَةٍ دَما

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغي أن نُبْعد منه ما اتهمه الرواة وأن لا نقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثَمَّ كنا نرتضي ميميته ( تَبَلَتْ فؤادَكَ في المنام خريدةٌ ) التي يعيِّر فيها الحارث بن هشام المخزومي بفراره في يوم

( ١ ) ابن سلام ص ١٢٥ .
( ٢ ) انظر الديوان في هجاء بني الحماس الحارثيين قوم النجاشي ص ٤٧ ، ٨١ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .
( ٣ ) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .
( ٤ ) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .
( ٥ ) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٠ .
( ٦ ) انظر الأغاني (ساسي) ١٤ / ١٢٥ – ١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية ( منع النومَ بالعشاء الهمومُ ) التي يهجو فيها ابن الزِّبَعْرَى ويفتخر بقومه فخراً عنيفا ، ومن نمطهما لاميته ( أهاجك بالبَيْداء رَسْمُ المنازل ) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام[1] . ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدُك العَبْدُ[2]

ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلَّك من قريشٍ كإل السَّقْبِ من رَأْل النَّعام[3]

وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمداً فأَجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجــزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبته مشَبِّباً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام[4] . وهو يمضي في الجزء الثاني متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يَعْرِض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبــريلٌ أمينُ الله فينـــا وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[5]

وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيِّرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبَعه حتى الممات ونصْرٌ غير محدودِ
مستعصمين بحَبْلٍ غير مُنْجذمٍ مُسْتحكمٍ من حبالِ الله ممدودِ[6]

---

( ١ ) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

( ٢ ) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي وهي أم عبد الله وأبي طالب والزبير بني عبد المطلب.

( ٣ ) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . الإل : القرابة .

( ٤ ) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

( ٥ ) كفاء : كفء ونظير .

( ٦ ) منجذم : منقطع .

وهو يشير فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : ( واعتصموا بحبل الله جميعاً ) .
وله مراثٍ فى الرسول الكريم تتضح فيها المعانى الإسلامية اتضاحاً على نحو ما يلقانا فى مرثيته التى رواها أبو زيد الأنصارى والتى يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد

وقد مرت بنا فى الفصل السابق مرثيته البديعة لأبى بكر الصديق ، ومن قوله فى عمر حين توفى على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجّعنا فَيْروزُ لا دَرَّ درُّهُ بأبيض يتلو المُحْكمات منيبِ (١)

وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين الحنيف وهديه الكريم .

## ٣

### كعب (٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبى سُلْمى من فحول الشعر فى الجاهلية . وهما من قبيلة مزينة ، ولكنهما يوضعان فى عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بنى مُرَّة الذُّبيانيين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله فى ذلك مثل أخيه بُجَيْر ومثل الحُطَيئة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرّج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفّظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ، فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه (٣) تمريناً له وتدريباً على صَوْغ

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات الذكر الحكيم . وكنى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .

(٢) راجع فى ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغانى ( طبعة الساسى ) ١٥/١٤٠ وابن هشام ٤/١٤٤ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤/٢٤٠ والإصابة ٥/٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٠ والخزانة ١/٣٧٥ ، ٤/١١ . وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .

(٣) أغانى ( طبع الساسى ) ١٥/١٤١ وأمالى المرتضى ( طبع الحلبى ) ١/٩٧ .

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر فى الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروَى وإليها أسرع »[1] ، فقال كعب قطعته التى يقول فيها :

فمَنْ للقوافى شانَها من يَحُوكها ... إذا ما ثَوَى كعبٌ وفوَّز جَرْوَلُ[2]

ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْر ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله[3] :

ألا أبلغا عنى بُجَيْراً رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ـ ويحك ـ هل لكا
شربتَ مع المأمون كأساً رَوِيَّةً ... فأنْهَلَكَ المأمونُ منها وعلَّكا[4]
وخالفتَ أسباب الهُدَى وتبعتَه ... على أى شىء ـ ويْبَ غيرك ـ دَلَّكا[5]
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمَّا ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْر فيما أجابه به بقوله[6] :

من مبلغٌ كَعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلا وهى أحزمُ
إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحده ... فتنجو إذا كان النَّجاءُ وتسلمُ
لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلم

وما زال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه سلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبى صلى الله عليه سلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٦٥ .
(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .
(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغانى (ساسى) ١٥/١٤٢ والسيرة ٤/١٤٤ والاستيعاب ص ٢٢٦ .
(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبابكر . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثانى .
(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ، وويب بالنصب على إضمار فعل .
(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ٤/١٤٥ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم ،ودعاه أن يَقْدم على رسول الله تائباً . وشرح الله صدره للإسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبى بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلَّم النبى صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسَط النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، يده ، فحسَر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير . فتجهَّمته الأنصار وغلَّظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسْلم ويؤمِّنه النبى صلى الله عليه وسلم ،فأمَّنه رسول الله»[1] ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانتْ سُعاد فقلبى اليوم مَتْبُولُ     متيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ[2]

فكساه النبى صلى الله عليه وسلم بُرْدة اشتَراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية فى العيدين[3] . وقد اكتسى بها كعب حُلَّة مجد لا تبلى ، ولقِّبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يستهلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتَهن عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه فى بعض غزله إذ يقول فى إحدى قصائده[4] :

وفارقتْك برَهنٍ لا فِكاكَ له     يوم الوداع فأمسى الرَّهْنُ قد غَلِقَا[5]

ويُلِحُّ فى وصف سعاد ويشبهها بالظبى ويشبه ريقها بالخمر ، متأثراً فى ذلك أباه فى نفس القصيدة ، كما تأثره فى الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه فى هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصوِّر خوفه وفزعه من رسول الله :

---

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١/١٠٤ وانظر الأغانى ١٤/١٤٢ .

(٢) انظر القصيدة فى ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية ) ص٦ . ومتبول : مغرم . وبانت : فارقت . ومكبول : مقيد .

(٣) ابن سلام ص٨٧ والشعر والشعراء ١/١٠٦ والإصابة ٥/٣٠٢ .

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب ) ص٣٣ .

(٥) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وقلت خَلُّوا طريقى – لا أبا لكمُ –      فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالتْ سلامتهُ      يوما على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ

أُنبئتُ أَنَّ رسول الله أَوعدنى      والعَفْوُ عند رسول الله مأْمول

مَهْلاً هداك الذى أَعطاك نافلةَ ال      قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأْخذنِّى بأَقوال الوشاة ولم      أذنبْ ولو كثُرتْ عنى الأَقاويل

إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاءُ به      مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول(١)

فى عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم      ببطن مكة لما أَسْلَمُوا زُولُوا(٢)

زالوا فما زال أَنكاسٌ ولا كُشُفٌ      عند اللِّقاء ولا مِيلٌ مَعَازيلُ(٣)

ومضى يمدح المهاجرين حتّى قال :

يمشون مشى الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصمهم      ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التنابيلُ(٤)

يعرِّض بالأنصار لغلظتهم – كانت عليه – فأنكرت قريش ما قال ، وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتّى قال يذكر الأنصارَ :

من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ      فى مِقْنَبٍ من صالحى الأَنصارَ(٥)

الباذلين نفوسهم لنبيِّهم      يوم الهياج وسطوة الجَبَّارِ

يتطهَّرون – كأَنه نُسُكٌ لهم –      بدماءِ مَنْ عَلِقُوا من الكُفَّار(٦)

صدموا عَلِيًّا يوم بَدْرٍ صَدْمةً      دَانَتْ لوقْعَتِها جميعُ نزار(٧)

---

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .

(٢) زولوا : هاجروا .

(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف الذليل. كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال و ينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان. معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل فى الحرب عن صحبه ومن يستغيث به .

(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل و جبن . التنابيل : القصار .

(٥) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٦) علقوا : قتلوا .

(٧) يريد بعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

ورثوا السيادة كابرًا عن كابرٍ إن الكرام همُ بنو الأَخيـار

وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر فى شعره عن مواعظ وحكم يستهدى فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أَعجبُ من شيءٍ لأَعجبنى سَعْىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأُمورٍ ليس يُدْركها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشِرُ
والمرْءُ ما عاش ممدودٌ له أَملٌ لا تنتهى العيْنُ حتى ينتهى الأَثرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم الذى يَتَفَضَّل عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعلمُ أَنى متى ما يـأتنى قَدَرى فليس يَحْبِسُه شُحٌّ ولا شَفَقُ(١)
والمرء والمال يَنْمِى ثم يُذْهِبُـهُ مَرُّ الدهور ويُفْنيه فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى فَضْلَ الذى بالغِنى من عنده نَثِقُ
إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا ومَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم فى رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر . وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأَقسمتُ بالرحمن لا شىء غيره يمينَ امرىءٍ بَرٍّ ولا أَتحلَّلُ(٢)
لأَستشعرنْ أَعلى دَرِيسَىَّ مسلما لوجه الذى يُحْيِى الأَنام ويقتل(٣)
هو الحافظُ الوَسْنانَ بالليل مَيِّتاً على أَنه حَىٌّ من النوم مُثْقَلُ(٤)
من الأَسودِ السارى وإن كان ثائرا على حَدِّ نابيه السِّمامُ المُثَمَّلُ(٥)

(١) شفق : خوف .
(٢) لا أتحلل : لا أستثنى .
(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى و يميت .
(٤) الوسنان : النائم .
(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير ليلا . الثائر : الطالب بثأر . المثمل: المجمّع

وهى تنم عن ولائه لدينه الحنيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذى يكلأ عباده ويقيهم الأذى ، ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام فى نفسه وفى شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره فى إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً فى شعره الجاهلى مفاخراً متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معانى الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لنراه فى الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكف أذاه عنه ، يقول[1] :

إن كنت لا ترهب ذَمِّى لما ... تعرف من صَفْحِى عن الجاهل
فاخْشَ سكوتى إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموع خَنَا القائل
فالسامع الذامٌ شريكٌ له ... ومطعمُ المـأكول كالآكل
مقـالةُ السُّوءِ إلى أهلهـا ... أَسرع من مُنْحَدرٍ سائل
ومَنْ دعا الناس إلى ذَمِّهِ ... ذَمـوه بالحق وبالباطـل
ولا تَهِجْ إن كنت ذا إرْبَةٍ ... حَرْبَ أَخى التجربة العاقل[2]
فإنَّ ذا العَقْل إذا هجتَهُ ... هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابِلِ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول . حتى لا يجنى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسماً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو فى ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التقريع لمن يهجوه بدلا من الطعن فى الأعراض سنتهم القديمة .

---

(١) الخزانة ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧ والحيوان ١٥/١ .

(٢) الإربة : الدهاء .

## ٤

### لبيد[١]

من عشيرة ذات سيادة وشرف فى بنى كلاب العامريين ، هى عشيرة بنى جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو بَراء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثَمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتِرين » وقد قتلته بنو أسد فى بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقِّب بمعوِّذ الحكماء . وأم لبيد تامرة بنت زنباع العَبْسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك فى حروبها وغاراتها ووفاداتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صَحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثاً ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بنى عَبْس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبسيين وبنى عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بنى عبس فى بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدى النعمان يهجو الربيع برجز

(١) انظر فى ترجمة لبيد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١ / ٢٣١ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٥ / ٣٦١ وطبعة الساسى ١٥ / ١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٠ وأسد الغابة ٤ / ٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ١ / ١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦ / ٤ والمعمرين ص ٦٠ والخزانة ١ / ٣٣٤ وقد طبع الخالدى جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعت فى ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت فى الكويت سنة ١٩٦٢ .

مقذع ؛ فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل فى إكرامه للعامريين . وسواء أصحَّ هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه فى الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه فى أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَت الديار محلُّها فمقامها » أخذ يظهره . وأخذ اسمه يطير فى القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول فى المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه[1] ، فوقع الإيمان فى قلبه ، إلا أنه لم يُعْلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته؛ حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم فى دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون فى عنقه فقتله ؛ أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حارًّا .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفَّاه الله فى صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغَل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلا . ويصوِّرون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعْبة واليه على الكوفة : أن استنشدْ من قِبَلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام . فلما سأل لبيدًا عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة . ثم أتاه بها . وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . وبعض الرواة فيزعمون إنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه[2] . فمن قائلٍ هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأْتنى أجَــلِى حتى كسانى من الإسلام سِرْ بالا

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٣١ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٢٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦٩ وانظر الاستيعاب ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

ومن قائل ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرْءُ يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعانى الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو فى القسم الجاهلى لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضى مفاخراً فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتداً اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثَمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطْبة الفزارى[١] واقرأ فيه فستجده دائماً فى هذا القسم مفاخراً بقومه وشجاعتهم وبلائهم فى الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشُّمه لسُرَى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم فى قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع فى معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل فى الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل فى وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُهــا[٢]

ومقسِّمٌ يُعْطى العشيرة حَقَّها ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضَّامها[٣]

فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على النَّدَى سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غَنَّامها

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٥٢ .

(٢) اللزاز : الملازم للشئ ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

(٣) مغذمر : لايعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها
فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمْكُهُ فسما إليه كهْلها وغلامهـا
فاقْنَعْ بما قسمَ المليكُ فإنَّما قسمَ الخلائقَ بيننا عَلاَّمهـا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ، وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه، حتى ليمسّ قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيّها . واقرأ ما لم نَرْوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرَغاً فى ألفاظ متناهية فى الإغراب ، ومن ثمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال : إنه رحى بـَزْرٍ[١] ، يريد أنه خشن لا يَحْسن فى السمع ، وقال الأصمعى ،شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانىّ أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذّب من لفظه وتُدْخل عليه غير قليل من الطُّلاوة ، ومن ثَمّ يقول فيه ابن سَلاّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » ويتضح ذلك فى مراثيه المشهورة لأخيه أرْبد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجعْ إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[٢] :

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالعُ وتَبْقَى الجبالُ بعدنا والمصانعُ[٣]
فَلا جَزِعٌ إن فَرَّق الدهرُ بيننا وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ
وما الناسُ إلا كالديار وأهلهـا بها يومَ حَلُّوها ، وغَدْوًا بَلاقِعُ[٤]

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .
(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .
(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .
(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر . وغدوا : غدا .

وما المَرْءُ إلا كالشهاب وضَوْئه　　يَحُورُ رَمادًا بعد إذ هو ساطع[١]
وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقَى　　وما المال إلا عارياتٌ ودائعُ

وليس كل ما حدث من انقلاب فى شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام فى ضميره . فاتجه فى أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ، يقول فى قصيدة له[٢] :

إنما يحفظ التُّقَى الأَبرارُ　　وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله تَرْجعون وعند الل　　ه وِرْدُ الأمور والإصدارُ
كلَّ شىءٍ أَحصى كِتاباً وعِلْماً　　ولديه تجلَّتِ الأَسرارُ
إن يكن فى الحياة خيرٌ فقد أُنْ　　ظِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ[٣]
عشتُ دهرا ولا يدوم على الأَيَّـ　　ـام إلا يَرَمْرَمٌ وتِعَـارُ[٤]

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحْصِىَ كل شىء فى كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر فى مصيره . وتمضى فى طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوِّفا من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى فى لاميته التى نؤمن بأنه نظمها فى الإسلام ، وفيها يقول[٥] :

أَلا كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ　　وكلُّ نَعيمٍ لا محالَةَ زائلُ
وكلُّ أُنَاسٍ سوف تدخل بينهم　　دُوَيْهِيَـةٌ تصفرُّ منها الأَنامل[٦]

---

(١) يحور : يصير .
(٢) ديوان لبيد ص٤١ والحيوان ٧/١٦٣ .
(٣) الإنظار : التأخير .
(٤) يرمرم وتعار : جبلان فى نجد .
(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء ١/٢٣٧ والطبرى ٥/٢٨ .
(٦) يريد بالدويهية الموت .

وهو فى البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : ( كلٌّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام ) ويستمد فى البيت الثانى من مثل قوله جلَّ وعز : ( كلُّ نفس ذائقةُ الموت ) أما البيت الثالث فاستمدَّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : ( أفلا يعلم إذا بُعْثِر ما فى القبور وحُصِّل ما فى الصدور ) . واسترسل فى القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها فى رثائه[١] وفى الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والأمم ، ومن ثَمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرَّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[٢] :

لله نافلةُ الأَجلِّ الأَفضـــلِ    وله العُلا وأثيثُ كل مُؤَثَّل[٣]
لا يستطيع الناسُ مَحْوَ كتابهِ    أَنَّى وليس قضاؤه بمبدَّل

وهو فى هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجرى فى الكون بقضائه وأن كل ما يأتى من عمل فى كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : ( وكلَّ شىء أحصيناه كتاباً ) ( وكان أمر الله قدَراً مقدوراً ) ( وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ) . ويمضى لبيد فى القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونَسْره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[٤] :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعا    بالخيرِ والشر بأىٍّ أُولعا[٥]
يملأْ له منه ذَنوباً مُتْرَعَا    وقد أباد إرَمــاً وتُبَّعا[٦]

والحق أن تلاوته للقرآن التى اشتهر بها أثَّرت فى نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا فى بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسَبُ إليه منها يدل على أن

---

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيث : موطأ عظيم . مؤثل : مؤصل ، ويوصف به الملك والمجد .
(٤) الديوان ص ٣٣٧ .
(٥) الإصبع : الأثر الحسن .
(٦) ذنوباً مترعاً : دلواً مملوءاً .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها(١) :

إن تَقْوَى ربِّنـا خيرُ نَفَلْ ‏ ‏ ‏ وبإذن الله رَيْثى وعَجَـلْ(٢)
أَحْمدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ ‏ ‏ ‏ بيديه الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ
من هداه سُبُلَ الخَير اهتدى ‏ ‏ ‏ ناعمَ البال ومن شاءَ أَضلّ
فاكذبِ النفس إذَا حدَّثتها ‏ ‏ ‏ إنَّ صدْق النفس يُزْرى بالأَمل
غير أن لا تَكْذِبَنْها فى التُّقَى ‏ ‏ ‏ واخْـزُها بالبِرِّ ، لله الأَجلّ(٣)

ونراه يذكر فى هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامى مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغِّباً له فى الباقيات الصالحات حتى يختم بقية أجله بخير عمله .

٥

الحطيئة (٤)

اسمه جرْول. ولُقِّب بالحطيئة لقصره أو لدمامته، وقد ولد لأمة تسمى الضَّراء ، كانت لأوس بن مالك العَبْسى . ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد فى اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون . ولم يكن فيه

(١) الشعر والشعراء ١/٢٣٨ والديوان ص١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .
(٣) اخزها : سسها واقهرها .
(٤) انظر فى ترجمة الحطيئة ابن سلام ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٥٧ والإصابة ٢/٦٣ والخزانة ١/٤٠٨ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/٥٣ وما بعدها. ونشر ديوانه فى إستانبول ، ونشره جولد تسيهر والشنقيطى ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة الحلبى ، وسنعتمد على نشرته .

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه فى « عبس » على نحو ما صنع عنترة من قبله . ومن ثَمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة، ولعل هذا هو السبب فى غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت فى نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبى سُلْمى يعلمه إحكام صنْعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يَرْوى شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوِّه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التى كانت تُعْنَى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنَى بالمعانى ودقتها .

ويضيء الإسلام فى الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخرَّ فى اعتناقه الإسلام ، حتى توفِّى الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الرِّدَّة ، مُعينا بشعره المرتدِّين ضد أبى بكر وخلافته ، حتى ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فيا لعبادِ الله ما لأبى بكر

أيُورِثها بكراً ، إذا مات ، بعده ... فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره(١) . وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور فى المديح والهجاء ، ويقول الأصمعى : «كان الحطيئة جشعاً سَؤولا ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك فى شعره »(٢) . وقد يكون الأصمعى بالغ فى نعته بهذه الصفات ، وحقًّا كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ فى الجاهلية من أمثال عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى وزيد الخيل، وكان يتورط فيما

---

(١) انظر الطبرى ٤٧٧/٢ حيث نسب البيتين إلى أخيه الحطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغانى ١٥٧/٢ . (٢) أغانى (دار الكتب) ١٦٣/٢ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف فى صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف فى صف علْقمة بن عُلاثة حين نافر عامر بن الطفيل[١]. وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان فى صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزِّبْرقان بن بدر هى التى شوهته ، ذلك أنه لقيه فى عهد عمربن الخطاب يؤمُّ المدينة ؛ وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت فى استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا فى إكرامه ، وانطلق يُثْنى عليهم ثناء رائعاً معرِّضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لبُغْيتهـا ... واقْعُد فإنك أنت الطاعمُ الكاسى[٢]

ورَفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ ... زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجرُ[٣]

ألقيتَ كاسِبَهم فى قَعْر مُظْلِمَةٍ ... فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَر

ولان له قلب عمر ، فعفاعنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[٤].

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التى عرض فيها للزِّبْرقان وجدناه لا يُقْذع فى هجائه ؛ إنما يمسُّه على نحو ما رأينا فى بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك فى أن الإسلام هو الذى خفَّف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول[٥] :

---

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المطعوم المكسو .

(٣) ذومرخ : واد بالحجاز . الأفراخ : صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل : لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .

(٤) انظر فى القصة الأغانى ٢ / ١٧٩ ومابعدها.

(٥) الديوان ص ٩٨ .

ولما أن مدحتُ القوم قلتم ... هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ

ألم أكُ مسلماً فيكون بيني ... وبينكمُ المودَّةُ والإخـاء

ولم أشْتُمْ لكم حسبا ولكن ... حَدَوْتُ بحيث يُسْتَمَعُ الحُدَاءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذمم بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحَدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء ، لمدحه خصومهم. ونراه يولِّى وجهه نحو علقمة بن عُلاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجْزِل له ابنه فى العطاء . ويتجه نحو العراق فى عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات فى ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذى خلفه فى تلك الولاية ، كما يمدحه فى ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ — ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجْمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمظنون أنه توفِّى فى ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعْنَى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أُثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولىُّ المحكَّك » فهو ممن كان يتأنَّون فى شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية فى الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطَّعات ، ونراه فى مطوَّلاته يشبِّب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشى والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله فى بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها ... وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجدُّ

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقدوا شدُّوا

وكانوا يعيَّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرِّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ... ومن يُسَوِّى بأنف الناقة الذَّنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُرْوَى له أهاج فى زوج أمه وفى أمه وفى ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لىَ وجها شوّه الله خَلْقَــهُ فقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ، وبقصيدته « وطاوى ثلاث »[1] وفيها يصور أعرابياً فقيرا نزل به ضيف ، وعياله من حوله يتضوّرون جوعاً ، فهمّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتان وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة فى وصف غريزة الكرم العربية .

والحق أن الرواة بالغوا فى اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا فى اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره فى الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه فى مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه على ما يقدم له من برّه على شاكلة قوله فى بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ الله خيراً من أخى ثقةٍ وليَهْدِهِ بِهُدَى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله فى مثل قوله :

الحمد لله إنى فى جوار فَتًى حامى الحقيقة نَفَّاعٍ وضَرَّار

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة[2] :

من يَفْعَلِ الخير لا يعْدَمْ جوازيَه لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

ولعل فى ذلك ما يدل على أنه حَسُنَ إسلامه ، وأبلغ فى الدلالة على ذلك قوله فى وصف التقى والعمل الصالح[3] :

ولستُ أرى السعادةَ جمع مالٍ ولكن التقىَّ هــو السعيدُ
وتقوى الله خَيْرُ الزاد ذُخْراً وعنــد الله للأتقى مــزيد

(١) الديوان ص ٢٩٥ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢/١٧٣ .
(٣) أغانى ٢/١٧٥ والديوان ص ٢٩٣ .

فالسعادة فى رأيه ليست فى الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هى فى الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذى لا يُنال إلا بالتقوى ، فهى السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة ، بل أخذ يُرْسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

## ٦

### النابغة[١] الجعْدىّ

هو عبدالله[٢] بن قيس من بنى جَعْدة العامريين ، ولد بالفَلْج جنوبى نجد ، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً فى الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجَّر على لسانه ، فسُمِّى النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان فى الإسلام .

والنابغة الجعدى فى جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم فى حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له فى بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبِّنه فيها بقوله[٣] :

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ غير أنه ... جوادٌ فما يُبْقِى من المال باقيا

فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقه ... على أَنَّ فيه ما يسوءُ الأَعاديا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخميين فى الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

---

(١) انظر فى ترجمة النابغة : الشعر والشعراء ١/٢٤٧ وابن سلام ص١٠٣ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١ وما بعدها وأسد الغابة ٥/٢ والاستيعاب ص٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمالى المرتضى ١/٢٦٣ والمعمرين ص٦٤ والخزانة ١/٥١٢ والموشح ص ٦٤ .وقد جمعت ماريا نالينو أشعاره ونشرتها فى روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون فى اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس.

(٣) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وجدودُنا  وإنا لنَبْغى فوق ذلك مظهــرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهريا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وأعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْضُضِ الله فاك[١] .

ويُظَنُّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام فى المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحوالشرق والفُرْس مجاهداً فى سبيل الله ونَشْر الدعوة المحمدية. وقد أخذ يضيف إلى رائعته التى أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته فى الإسلام وابتغاءه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول[٢] :

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهُدَى  ويتلو كتابًا كالمجرَّة نَيِّرَا[٣]
وجاهدتُ حتى ما أَحِسُّ ومَنْ معى  سُهَيْلاً إذا مالاح ثُمَّتَ غَوَّرا[٤]
أُقيم على التقوى وأرضى بِفِعْلِها  وكنتُ من النار المَخُوفةِ أَوْجَرَا[٥]

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه فى البادية ، فاستأذن عثمان فى الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين على ومعاوية وجدناه فى صفوف على بصِفِّين ، يَرْجُز بخصومه وينظم الأشعار فى مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله[٦] :

قد علِم المِصْرانِ والعِراقُ  أن عَلِيًّا فَحْلُها العُتَاقُ[٧]
إن الأُلى جَارَوْك لا أفاقوا  لهم سياقٌ ولكم سِياق
قد علمتْ ذلكم الرِّفاق  سُقتم إلى نَهْج الهدى وساقوا
إلى التى ليس لها عِــراقُ  فى مِلَّةٍ عــادَتُها النِّفــاقُ[٨]

---

(١) أغانى ٥/٨
(٢) أغانى ٥/٩ والديوان ص٣٣ وما بعدها.
(٣) المجرة: مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء .
(٤) غور النجم : غاب .
(٥) أوجر : خائف .
(٦) أغانى ٥/٣١ والديوان ص ١٣٣.
(٧) المصران: الكوفة والبصرة. العتاق: الكريم.
(٨) التى ليس لها عراق: التى لا تعرف لها غاية.

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية . ويُرْوَى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى ليَضْطَرّ أبو موسى الأشعرى والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبيته الجاهلية . ولا نشك فى أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مَغْراء ، ويقول ابن سلَّام إنه غلب عليه ولم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً . ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوّار بن أوفى القشيرى ، وتتصدى له زوجه ليلى الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا إليه فى الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام فى نفسه أثر فى تلك الهزائم ، إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم عليه فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها[1] :

حَكيتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وَلِيتَنا وعثمانَ والفاروقَ فارتاح معدمُ

وسوَّيت بين الناس فى العدل فاسْتَوَوا فعادَ صباحا حالكُ الليل مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلا . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن الرواة بالغوا فى ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبيانى وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله[2] :

تذكَّرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ومن عادة المحزون أن يتذكَّرا

نَداماى عند المنذر بن محرِّقٍ أرى اليوم منهم ظاهرَ الأرض مُقْفِرا

والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذى قُتل فى بعض حروبه مع الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك فى أن هذا الشعر مصنوع عليه .

---

(١) الكامل للمبرد ( طبعة رايت ) ص ٧٠٤ والديوان ص ١٣٧ .

(٢) أغانى ٥/٦

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد فى سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعيًّا أن يستلهمه فى شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام فى شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبَّر فى غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله[١] :

منعَ الغَدْرَ فلم أَهْمُمْ بهِ ... وأخو الغَدْرِ إذا هَمَّ فَعَلْ
خشيةُ اللهِ وأنِّى رجلٌ ... إنمـا ذِكْرِى كنـارٍ بقَبَلْ[٢]

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول[٣] :

عُمِّرْتُ حَتَّى جاءَ أَحْمَدُ بالهُدَى ... وقـوارعٍ تُتْلَى من القُـرْآنِ
ولبستُ مِلْ الإسلام ثَوْباً وَاسِعاً ... من سَيْبِ لا حَرِمٍ ولا مَنَّـانِ[٤]

وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهى تطَّرد على هذا النمط[٥] :

الحمدُ للهِ لا شَريكَ لَهُ ... من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلَما
المُولِج الليلَ فى النهار وفى اللَّيْـ ... ـلِ نَهارًا يُفَرِّجُ الظُّلَما
الخافضِ الرَّافعِ السماءَ على الْـ ... أَرْضِ ولم يَبْنِ تحتها دِعَما[٦]
الخالقِ البارئِ المصوِّر فى الْـ ... أَرْحامِ ماءً حتى يصيرَ دَمَا
من نُطْفَةٍ قَدَّها مقدِّرُهـا ... يَخْلُقُ مِنها الأَبْشارَ والنَّسما
ثُمَّ عِظاماً أقامها عَصَبٌ ... ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فالْتَأَما
ثم كَسَا الرَّأْسَ والعَوَاتِقَ أَبْـ ... ـشارًا وجِلْدًا تخاله أَدَما[٧]

---

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣ / ٥٠٤ .
(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .
(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمالى المرتضى ١ / ٢٦٦ .
(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب : عطاء . حرم : مناع .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٣ وانظر الديوان ص ١٠٢ .
(٦) دعم : دعائم وعمد .
(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

والصَّوْتَ واللَّوْنَ والمَعايِشَ والْـ ... أخلاقَ شَتَّى وفَرَّق الكَلِمَا
ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمعكم ... واللهِ ، جَهْـرًا ، شهادةً قَسَما
فائْتَمِرُوا الآنَ ما بدا لكمُ ... واعتصموا إن وجدتمُ عِصَما
فى هذه الأرض والسماء ، ولا ... عِصْمَةَ منه إلا لمن رَحِمَا
يا أيها الناسُ هل ترونَ إلى ... فارسَ بَادَتْ ، وخَدُّها رَغِما[١]
أمسوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شاءَ كُمُ ... كأنمـا كان مُلْكُهُمْ حُلُما
أو سَبَأَ الحاضرين مَأْرِبَ إذ ... يَبْنُون من دون سَيْله العَرِما
فمُزِّقوا فى البلاد واعترفوا الْـ ... هُونَ وذاقوا البأْساء والعَدَما[٢]
وبُدِّلوا السِّدْرَ والأَراكَ به الْـ ... خَمْطَ وأضحى البُنْيانُ مُنْهَدِما[٣]

والنابغة فى مطلع هذه العظة يُثْنِى على الله بما هو أهله ، مقرراً إيمانه بوحدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى: « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون» . ويتحدث فى البيت الثانى عن نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القرآن نفس لفظه فى قوله جلّ وعز : ( قل اللهم مالك الملك . . . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ) . وفى البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى: ( الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها ). وخرج فى البيت الرابع من خَلْقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جلّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثم جعلناه نُطْفةً فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة عَلَقَةً فخلقنا العلقة مُضْغَةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين ) . وهو يمضى فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

---

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .
(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .
(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الخمط : ثمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة مكملا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ فى القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسَبَأٍ فى مَسْكنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال .. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْل العَرِمِ وبدَّلناهم بجنتيهم جنَّتين ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل ذلك جزيْنَاهم بما كفروا . . وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزَّقناهم كلَّ ممزَّق) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة فى أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادى كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا فى الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه فى صدورهم وفى أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفِّرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفانى ، حاثِّين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

# النثر وتطوره

## ١

### تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع فى الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكلٍّ من يلقاه فى الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو فى أثناء ذلك يخطب فى الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولا بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصوِّر لهم من قوة الكائن الأعلى مدبِّر الكون ومنظمه ، الذى لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنَباتها ، بما أخذ يشرِّع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التى ينبغى أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون فى سبيل الحق والخير ، وهو فى تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التى تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراءهذه الحياة حياة أخرى يحاسَبُ فيها الإنسان على ما قدَّمت يداه ولو كان مثقال ذرَّة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثَمّ كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد[١] ثبتتْ إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجُمَع كانت الصلاة تسبقها فى الأعياد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نَشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا . ويُقْبل على الناس مسلّماً . وتبدأ الخطبة الأولى فى الجُمَع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يُضْلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[٢] . وعادة يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى فى غَمْرة ، ولا تأخذنى فى غِرّة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »[٣] . ولا تُفْتَتَحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبّر الخطيب فى أولاهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سَجْع الكُهّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تَفِدُ عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عُطارِد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخراً بقومه ،

---

(١) انظر فى صلاة الجمع والعيدين كتب الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢

وقد نَدب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله(١) .

ونمضى فى عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التى تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبى بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ فى الموقفين جميعاً الشَّعَث الذى كاد يؤدى بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدَّمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين فى كل مكان يحلّونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر فى الجيوش الغازية يحضّ على الجهاد ونَشْر الدين الحنيف فى أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة فى كل قطر حاثّين الجنود على الصبر فى القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بحذافيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس فى العراق وإيران وبلدان الروم فى الشام ومصر لم يُفْتَتَح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شُعْبة فى القادسية(٢) وخالد بن الوليد فى اليرْموك(٣) ، وعتبة بن غَزْوان فى فتح الأبلّة ، ونحن نكتفى بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول(٤) :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولّتْ حذّاء(٥) مدبرة ، وقد آذنتْ أهلها بصُرْم ، وإنما بقى منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبّها(٦) صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبى بكر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧٨ .
(٢) الطبرى ٣/٣٧ .
(٣) الطبرى ٢/٥٩٢ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٥٧ .
(٥) حذاء : سريعة الإدبار .
(٦) يصطبها : يشربها . والصبابة . بقية الماء .

فى استشارة أصحابه فى كل مهم ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطيًّا ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصورًا وجهة نظره ، وفسح عمر لخطابة الوفود فى مجالسه ، تستميح لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه[1].

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل مع المسلمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يرددونها ومن يحسنون حوكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أُثر عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة[2] :

« أصدقُ الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السُّنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمَّاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سِباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب فى ديوان المحسنين من عفا عُفى عنه . السعيد من وُعظ بغيره ... أحسن الهدْى هدْى الأنبياء » .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه فى الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضطر على إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ٢ / ١٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ .

المشهورة ، وفيها ينتصر علىٌّ ، وتتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفى أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ؛ فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، وممن يذكرهم بين من ثبَّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى[1] ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صُوحان وأخوه سَيْحان .

وانتدب علىٌّ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفى هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوَّهاً . وكان بجيشه غيرُ خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عُبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن رِبْعِىٍّ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لمَّ الشعث ، ويُقْضَى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنَّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكَّمين يستهدون بآيه . ويُغْمِد القُرَّاء فى جيش علىٍّ سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على : فيهددونه بأن يُصْبِح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُختار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتلوَّمون علياً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبِّذ للتحكيم ومنفِّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم فى حَرَوراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

---

(١) الطبرى ٣/٥٠١ .

ويحاول عليٌّ وعبد الله بن العباس أن يردّاهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمدّ من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يَعْرف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجّر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى، وهو يجرى على هذه الصورة[1]:

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال الله عزّ وجل: ( إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما )[2] فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ . فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جعل حُكْمه إلى الناس وأمرَ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: ( يَحْكُم به ذَوَا عدلٍ منكم )[3]. فقالوا له: أو تجعل الحكم فى الصيد والحدثِ يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين؟! . وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعَدْلٌ عندك ابنُ العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حَرْبه، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حُكْمه فى معاوية وحِزْبه أنْ يُقْتَلوا أو يرجعوا[4] وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجل فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة[5]. وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقرّ بالجزية » .

ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضْطُرّ عليٌّ إلى حربهم، وفتك بهم فتكاً ذَريعاً فى موقعة النهروان. وكانوا يظهرون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

---

(١) الطبرى ٤٧/٤ .

(٢) الآية فى الصلح بين الزوجين وتمامها: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما).

(٣) الآية فى حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتمامها: « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ) .

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: ( وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: الموادعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير السعدى والمستورد بن علّفة، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تتقد حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه[١] :

« أما بعد فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبار[٢] — آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وإن مُنّ[٣] وضُرّ، فإنه من يُمَنّ ويُضَرّ فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود فى جناته » .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدى الخوارج إليه فى الظلام ، فتطعنه طعنة نجلاء ، ويسلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نمواً واسعاً، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد : معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذى مرّنها وذلّلها لكى تؤدى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضىء به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنَّة فى كل خطبة . حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسَمّون كل خطبة تخلو منه بتراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شوهاء[٤] .

---

(١) الطبرى ٤/٥٤ .

(٢) تبار : هلاك .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٢/٦ .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزوّرون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلا ، ثم يلقونه على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب[١] . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه فى نفوس سامعيه صبًّا ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الأنصار[٢] .

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تَقْدَمُ على الخلفاء . يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة »[٣] ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عَمَدَ إلى القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه »[٤] . ومما يُرْوَى له — إن صَحَّ — قوله[٥] :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سَرَّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحيَّاكم ، ومن وحشة خَلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشرٍ أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، ربِّ الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى خطابته ، وكان ينْفِر منه حين يلهج به أحد محدثيه[٦] ، كراهية للتشبه بالكهّان فى سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُرْوَى من أن عمر بن الخطاب سأل صحارًا العبْدى حين قدم عليه من غزْو مكْران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سَهْلُها جَبَل ، وماؤها وشَل[٧]

(١) الطبرى ٢/٤٥٦ وقارن بكلمة لعثمان ابن عفان فى البيان والتبيين ١/٣٤٥ وعيون الأخبار ٢/٢٣٥ .

(٢) زهر الآداب ١/٣٢

(٣) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٤) الحيوان ٤/٨٩

(٥) الطبرى ٢/٤٩٨ .

(٦) صحيح مسلم ( طبع الآستانة ) ٥/١١١ وموطأ مالك ( طبع حجر بالقاهرة ) ٢/١٩٢ .

(٧) وشل : قليل .

وثمرها دَقَل(١) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلّوا بها ضاعوا » . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجّاع أنت أم مخبر (٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنْكرون السجع على محدِّثيهم . وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلو خلوًّا تامًّا من السجع إلا ما جاء عفواً فى الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان هَمّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحَظُ على الخطابة فى هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدِّث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفاصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحمّلونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولّدون ويفرّعون . ونحن نقف قليلا عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسّعت جنبات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

## ٢

### خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتى من اللَّسَن

---

(١) دقل : ردىء . والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(٢) انظر فى هذا الخبر الطبرى ٣/٢٥٧

والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب ، وكأنما كانت المعانى والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغى له الأفئدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة — كما قدمنا — فى صلاة الجمع والأعياد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تلم . وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات[1] غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[2] :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٣ . (٢) الطبرى ٢/ ١١٥ .

أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكنْ له ذكراً فى عاجل أمره وذُخْراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذّركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذى صَدق قولُه، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عزّ وجل : (ما يُبدّل القول لدىّ وما أنا بظلاّم للعبيد) . فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية (ومن يتّق الله يكفّرْ عنه سيئاته ويُعْظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقّى مقته ويوقّى عقوبته ويوقّى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرّطوا فى جَنْب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحْسِنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجْتباكم )[1] وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حىّ عن بينة ) ولا قوة إلا بالله . فأكْثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يُصْلح ما بينه وبين الله يكْفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتمّ نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدْخلوا فى رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملا بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشفى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنّ فى الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفّرون به عن سيئاتهم وتبيضّ به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعتب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

---

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات فى موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضىء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التى تفجرت منها ، إذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمعانى نورها ، كما يشع نور الشمس فى السماء . وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله . تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً فى سبيل الخير . وهو خير تَطْبَعُ عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام فى حجة الوداع ، وهى تجرى على هذا النمط [١] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْد الله فلا مُضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عبادَ الله — بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا منى أُبيِّنْ لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع [٢] ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دَم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السِّدانة [٣] والسِّقاية [٤] . والعَمْدُ قَوَدٌ [٥] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقرون

(١) البيان والتبين ٢/٣١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/٥٧ .

(٢) موضوع : ساقط ومحرم .

(٣) السدانة : خدمة الكعبة .

(٤) السقاية : سقاية الحجاج .

(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل عن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس! (إنما النَّسيء[١] زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيحلّوا ما حرّم الله). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فَرْدٌ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جُمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرشكم غيركم ، ولا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضلوهن[٢] وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[٣] . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عَوان[٤] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحلّ لامرىء مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعُنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله ، ألا هل بلّغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلّغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصيةٌ لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجَرُ[٥] ، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

---

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .

(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٤) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة ، أى هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أى أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها .

لا يُقْبَل ُ منه صَرْف(١) ولا عَدْل(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد يُلِم ّ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبيّن طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغي بعضها على بعض . ولكي يقضي على كل سبب للحرب بينهم ردّ دم القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يَرْعَى أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حَرّم الربا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباه . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج . وأوجب في قتل العمد القَوَد ، ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمريًّا يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

---

(١) صرف : توبة .	(٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحابّ ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ مَنْ نَقَضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر . فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عَدنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى ، فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرَّره القرآن فى الميراث وأنصبته ، وأن للمورِّث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرْسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرَّم ذلك تحريماً باتًّا . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيِّن فى خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برَّأه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : ( وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعَفْوه وقُوَى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابته أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقعيب[1] ، واستعمل المبسوط فى موضع البَسْط والمقصور فى موضع القَصْر ، وهجر الغريبَ الوحشىّ ،

(١) التقعيب : التقعير وهو التكلم بأقصى قعر الفم .

ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارتْ له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القِصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلْج[1] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبْين في فَحْوى[2] ، من كلامه صلى الله عليه وسلم »[3] . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رَسمها ، وفجَّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمَّته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحسٌّ دقيق تتبينهما فيما رُوِى عنه من قوله : « لا يقولنّ أحدكم خَبُثَتْ نفسي ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي »[4] كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُسْتَكره ، اللفظ الذي يحبَّب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه .

## ٣

### خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سَرَى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(١) الفلج : الفوز .
(٢) فحوى : دلالة .
(٣) البيان والتبيين ٢ /١٧ .
(٤) الحيوان ١ /٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصقَ أصحابه به ،وقد نوَّه القرآن بذكره . فقال جَلَّ شأنه : ( فأمّا من أعطى واتقى وصَدَّق بالحُسنى فسنيسِّره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثِّل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ؛ فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معانى الإسلام وقيمه الروحية . وقد أُثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته فى الدين ويقظته وصدق حسِّه ، وأنه حقًّا كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبى أنت وأمى طِبْتَ حيًّا وطبت ميتاً . وخرج من عنده فبَدرَ الصحابة بخطبته المشهورة[١] التى قال فيها : « من كان يَعْبُد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حَىٌّ لا يموت » ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا موته محتجًّا عليهم بمثل قوله تعالى: ( إنك ميِّتٌ وإنهم ميتون ) ، وتلا : ( وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ) ، ثم تلا : ( كلُّ نفس ذائقة الموت ) ، ثم تلا : ( كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَه ) . فثابَ من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عُبادة فى سَقيفة[٢] بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطبَ فى الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب فى الناس بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وقال[٣] :

« أيها الناس ! إنى قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ

(١) الطبرى ٢ / ٤٤٤ وزهر الآداب ١ / ٣٠ .
(٢) الطبرى ٢ / ٤٤٥ وما بعدها .
(٣) عيون الأخبار ٢ / ٢٣٤ والطبرى ٢ / ٤٥٠ .

الحق له ؛ وأضعفكم عند القوىُّ حتى آخذ الحق منه ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأخذت تتجلّى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بَعْثُ أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قِبَلَ لنا بحرب العرب ، فاقبَل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعونى عِقالا[1] مما أعطوه النبى لجاهدتهم عليه » . وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردَّتهم . وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله فى خطبة له[2] :

« إن الله عز وجل لا يتقبل من الأعمال إلا ما أُرِيد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدَّيتموها ، وسَلَف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عبادَ الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبَّارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً[3] . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مَدينون ، وأن ما عنده لا يُدْرَكُ إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شر بشرٍّ بعده الجنة » .

واستنَّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو فى وصاياه يَصْدُر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثّلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلّوا مالا إلا

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .
(٢) الطبرى ٢/٤٦٠ .
(٣) الركز : الصوت الخفى .

للأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيّره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول[١] :

« أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغُلّوا[٢] ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا[٣] نَخْلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخيّر لفظه ؛ وربما كان من الأدلة على ذلك ما يُرْوَى من أنه عرض لرجل معه ثوب ؛ فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظَنّ أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله »[٤] .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختيارُه عمر خليفةً من بعده ، وكان على شاكلته نفاذَ بصيرة وصدقَ عزم وبلاغةَ لسان ، كما كان صفيَّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّبه منه ويتخذه موضع مشورته ، حتى توفّي وخلفه أبو بكر ؛ فكان له نعم الظّهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملا واحداً ، وما زال يوطّئ الأمر بسعة حلم وشدّة عزم ، مجنداً للأجناد ، حتى فُتحت فارس وتمّ فتح الشام وفُتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالئ والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوةً وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أي شدقيه شاء[٥] ؛ فما هو إلا

(١) الطبرى ٢ / ٤٦٣ .
(٢) تغلوا : تخونوا في الفيء .
(٣) تعقروا : تستأصلوا وتقطعوا .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٦١ .
(٥) البيان والتبيين ١ / ٦٢ .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم فى الجنود ناصحاً حتى يَهْدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله فى إحدى مواعظه[١] :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى، ولم تكونوا شيئاً، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسْبَغَ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم فى البر والبحر ، وزرقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عمَّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصُّها وعوامُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرئٍ خاصةً إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقُّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مُسْتَخْلَفُون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتوح العظام فى كل بلد . . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبى بكر فى تشييع الجيوش بالخطابة محرِّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الحنيف فى أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التى تُعزُّ الحق وتُعْلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التى وعدها الله أن ترث الأرضَ ومن عليها . وما زال عمر يُبْرِز هذه المعانى محاولا أن يرتفع العرب فى جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول فى بعض هذه الخطب[٢] :

« أين الطُّرَّاء[٣] المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ( ليُظْهره على الدين كله ) والله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ ناصره، ومُولى أهله مواريثَ الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟ ».

ولما اجتمع الجيش أمّر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمعْ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشْركهم

---

(١) الطبرى ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبرى ٦٣١/٢ .

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكيث (١) الذى يعرف الفرصة والكفّ » .

وتوفّى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبى بكر فى الفصاحة والبيان . ويُروَى أنه أُرْتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة فى الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتَجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس (٢) :

« إنكم فى دار قُلْعَة (٣) وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبِّحتم أو مُسِّيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنّكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جِدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمروها ومُتّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، فقال عزّ وجل : ( واضربْ لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نباتُ الأرض ، فأصبح هَشيماً تَذْروه الرياح وكان الله على كلّ شيء مُقْتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخير أملا) » .

وامتُحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدثوا فَتْق هذه الفرقة ، وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولىَ علىّ الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحار بهم .

---

(١) المكيث : الرزين المتبصر فى الأمور .
(٢) الطبرى ٣/٣٠٥ .
(٣) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية فى حروب صفّين . ثم كانت خُدْعة التحكيم ، وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو فى كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوّهاً لا يُشَقّ غُباره ، ومن مواعظه قوله[1] :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار[2] اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يَضْره أمله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضَرَّه أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرَّهْبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعى أن تكثُر خطبه فى حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب فى أصحابه حاثًّا لهم على الجهاد ، ومن قوله فى خطبة[3] له بأخَرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق :

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصَّغار ، وسِيم الخسْفَ ، ومُنع النَّصَف[4]. ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسرًّا وإعلاناً ، وقلت لكم : اغْزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِى قوم قط فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثَقُل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جدّ هؤلاء القوم فى باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . . . حتى صرتم هدفاً يُرْمى وفَيْئاً يُنْتَهَبُ ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْن ولا تَغْزُون .. قد وَرَيْتم[5] صدرى غيظاً ، وجرَّعتمونى الموت أنفاساً[6] ، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخِذلان » .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٥٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذى تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٢/٥٣ .

(٤) النصف : الإنصاف .

(٥) وريتم : ملأتم ، وأصله من ورى القيح جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك وهو الجرعة من الماء ونحوه .

وقد خلّف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما يُنْسَبُ إليه من خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون[١] ، واختلفوا فى واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفّى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثانى سنة ٤٠٦ . وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان[٢] الاعتدال وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان[٣] . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى[٤] ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه وسمّه باسمه : نهج البلاغة[٥] ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه « مجازات[٦] الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على على قديم . فقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس[٧] .

ولعل فى ذلك ما يدل على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعوّل على شىء منها إلا إذا جاء فى المصادر القديمة التى أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف فى تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة فى هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

---

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى فى ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان اليافعى ٣/٥٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٥٧ .

(٢) ميزان الاعتدال ( طبعة لكهنو ) ٢/٢٠١ .

(٣) لسان الميزان ( طبعة حيدر آباد ) ٤/٢٢٣ .

(٤) كتاب الرجال ( طبعة بومباى ) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى ( طبعة النجف ) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية ( طبع بغداد ) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١ .

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة فى الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

## ٤

### الكتابة

نوّه الإسلام بالكتابة وفضّلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلّ شأنه : ( اقرأْ باسم ربّك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربّك الأكرم الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ) . ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم فى قوله تعالى : ( ن والقلم وما يسْطرون ) وبالكتاب فى قوله سبحانه : ( والطّور وكتاب مسطور فى رقّ منشور ) . وتتردّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : ( بل هو قرآن مجيد فى لوْح محفوظ ) ، وقوله : ( قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس ) وقوله : ( رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهّرة ) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة[1] ، وقد حثّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : ( يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُبَ كما علّمه الله فليكتبْ وليُمْلِل الذى عليه الحقّ ) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفّظوه .

---

( ١ ) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته — كما قدّمنا — بين يدى الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأُبَىّ بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له فى حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبى سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم فى قبائلهم ومياههم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحَضْرمى . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُسْتَخْدم على نطاق واسع لا فى كتابة القرآن فحسب ، بل فى كتابة كل ما يهمّ المسلمين فى معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها فى جميع مواثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتحتفظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادى أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورُها مما لا يرْقَى إليه الشك . وهى تفتتح بالكتاب الذى كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطويرها للنثر الكتابى عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يَنْطوى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأولُ ما يلقانا فى هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهى أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة فى القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يَبْغى عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل فى داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهى أمة

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

يعلوها سلطان الله الذى يُردّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شرُّه .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التى تربط بين أفرادها ، وهو يوضّح هذه العلاقات فى داخل العشائر كدفع الدّية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التى يُشرف عليها الله ورسوله ، وهى علاقات وثّقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردُّه إلى هذا الدستور الدينى الجديد ، الذى يُلْغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل فى القتل وغير القتل .

ونمضى فى تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التى كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحُدَيْبية[١] والتى نَصّت على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبَّ أن يدخل فى عقْد محمد وعَهْده دخله ومن أحبَّ أن يدخل فى عَقْد قريش وعَهْدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، وممن دعاه النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرقى الجزيرة من قِبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدته مع أهل نجران[٢] ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيَّر أُسْقف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ... ومن سأل منهم حقّاً فبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبى بكر وعمر التى كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم فى

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ١٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفى اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرْسل بهم لتعليم الناس فى آفاق الجزيرة شئونَ دينهم ، وما ينبغى أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصوِّر هذه العهود كتابه[١] إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدَّس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحتْ تؤدِّى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية فى معاملة من يدخلون فى لوائه وفى ذمة الله وعَقْده .

ويتولَّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتدُّ كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفَّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعْجز الله وقوتل حتى يُقرَّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمَّنه نفس هذه المعانى وأن يستوصوا بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد[٢] . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد فى البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بَرَّ وعَدَل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدَّل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنْقلب ينقلبون » .

ووَلِىَ عمر ، فتمت فى عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفْتَحُ كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا ينى

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

عن مراسلتهم فى كل ما يهمّ من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطَى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا ( بيت المقدس ) الذى أشرنا إليه فى غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول[(١)] :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلْبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها : أنه لاتُسكَن كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُنتقَص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسَّم فى هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول فى عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته فى سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه فى هذا الجانب رسالته إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة ، وهى تمضى فى البيان والتبيين على هذا النحو[(٢)] :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متَّبعة ، فافهم إذا أُدْلِى إليك، فإنه لاينفع تكلُّم بحق لانفاذ له . آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لايطمع شريف فى حَيْفك ، ولا يخاف ضعيف من جَوْرك . البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر. والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرَّم حلالا أو أحلّ حراماً . ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعتَ فيه نفسك ، وهُديتَ فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ عند ما يتلجلج فى صدرك ، مما لم يَبْلغك فى كتاب الله ولا فى سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرِف الأمثالَ والأشباه، وقِسِ الأمور عند ذلك، ثم اعمِدْ إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعلْ للمدعى حقًّا غائباً أو بينةً أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجَّهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٨ وما بعدها .

وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عُدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حدّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور أو ظَنِيناً(١) فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم بالبيِّنات والأيْمان . ثم إياك والقلقَ والضجر والتأذّيَ بالناس والتنكرَ للخصوم فى مواطن الحق ، التى يُوجب الله بها الأجْرُ ، ويُحْسن بها الذُّخْر ، فإنه من يُخْلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستْره وأبدى فعله . والسلام عليك » .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغى أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر فى الادعاء وفى الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى فى شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التى يصدر عنها فى أحكامه ، وهى الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه . ويقول إن الأصل فى المسلم أن يكون عدلا ، إلا أن تَنْتفى عدالته فلا تصح شهادته . ويوضِّح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية(٢) للخليفة من بعده تُعَدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغى أن يُؤْخَذوا به من الرفق .

وفى الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسيًّا فى أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية فى الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة فى الشعوب المفتوحة . وعمر فى ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه فى كل ما يأخذ من أمر ويَدع ، وهو فى ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت فى العصر رقيًّا بعيداً لم نكن مغالين . إذ وَسِعَتْ كل الحاجات السياسية التى جدَّت ،

---

(١) ظنينا : متهماً .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٦ .

وكل ما أُعْطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور فى عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون فى طاعتهم دون حرب مقتدين بما رَسمت العهود فى عهد عمر وأبى بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته فى الحرب والسلم . وخلَفه علىٌّ فكثُرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة[1] التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً فى هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التى تناولتها والتى لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالةِ صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التى قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عليه السلام هو الذى ذَلّلها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش فى عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصّلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى، ولعمرَ من بينهم فى ذلك القِدْحُ المعلّى إذ ساعدتْ كتبه الكثيرة فى الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابى كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

## الكتاب الثانى

# فى عصر بنى أمية

الفصل الأول

# مراكز الشعر الأموى

## ١

### المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بنى أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت فى هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة فى عهد على ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الدينى ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربى رقة ودماثة . وهيأت لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع ومما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا فى تجميلها وزخرفتها[١] ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبي الذى اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليُروى عن الزبير بن العوَّام مثلا أنه خلَّف وحده ألف عبد وأمة[٢] . ومنذ أن دوّن عمر الدواوين كان يُفرَض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً[٣] ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير فى الخلافة .

كل ذلك أعدّ لأن تعيش المدينة فى هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هى الفترة التى انقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ٤/٢٥٤ .

(٢) نفس المصدر ٤/٢٥٤ .

(٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبى ٢/٣٥٨ والأغانى ٧/٢٢ .

الانتقاض باهظاً فى موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة فى سمائها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ فى أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة[١] رافلين رجالا ونساء فى الثياب الحريرية[٢] وأنواع الطيب والعطور[٣]، وبالغ النساء خاصة فى اتخاذ صنوف الحلى والجواهر[٤] .

وطبيعى أن يكثر فى هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل فى لهو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبى ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت فى أثنائها نظرية الغناء العربية التى نقرأ رُقمها فى كتاب الأغانى تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هى الثقيل الأول والثقيل الثانى وخفيف الثقيل والرَّمَل وخفيف الرمل والهَزَج ، وميّزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلا : ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبّابة وخفيف رمل بالبِنْصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدى الرقيق الأجنبى يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين فى المدينة يُؤْثَرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسى بجانب غنائهم العربى[٥] ،وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم[٦] . على أنه ينبغى أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلا عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت فى صورة عربية مستقلة . ومما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبى وُلدوا فى بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسى . وكانت العادة أن يبدأوا

---

(١) ابن سعد ( طبعة أوربا ) ٤/١٢٦ .
(٢) ابن سعد ٨/٣٥٢ والأغانى ٦/١٣ والمعارف ص ٢٧٤ والأغانى ١/٣١٠ .
(٣) أغانى ٩/٢٦٢ .
(٤) ابن سعد ٨/٣٤٣ وأغانى ٨/٢٧٣ ، ٢٧٨ .
(٥) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١/٣٨ ، ٨/٣٢١ .
(٦) أغانى ١/٣٧٨ .

بالغناء العربى ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدْخلوا ألحانه فى غناء العرب . ومما يدل على ما نزعم أن أكثر الآلات الموسيقية التى يتردد ذكرها فى هذا العصر قديم مثل الصَّنْج والمِزْهر والقضيب والدف والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرِفت فى العصر الجاهلى .

على كل حال نهضت المدينة فى هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها فى ذلك مكة كما سنرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدتين جميعاً لم تُبْقيا إلا قليلا للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التى استحدثتاها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك فى ذلك عامتهم وخاصتهم وعُبَّادهم وزهادهم[(١)] وقضاتهم[(٢)] ، حتى لتُؤْثَرُ عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنَّى بها فى إمارته لهم[(٣)] . وكان من أشرافهم مَنْ جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقَصْد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء[(٤)] ، وقد تخرج فى هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة فى هذا العصر طُوَيْس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن[(٥)] وأول من صنع الهزج والرَّمَل فى الإسلام[(٦)] ، وسائب خاثِر مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربى[(٧)] ومَعْبد وهو إمامهم فى الغناء غير منازَع ، وابن عائشة ومالك الطائى وعطرَّد ويونس الكاتب ويُنْسَبُ إليه أول كتاب فى الغناء والأغانى ونِسْبتها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة المَيْلاء وجميلة وسَلاَّمة القَسّ وحَبابة وسلاَّمة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسماع يفِد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

---

(١) أغانى ٢/٢٣٨ ، ٤/٢٢٢ ، ٨/٢٢٤ .
(٢) أغانى ٨/٢٧٧ .
(٣) أغانى ٩/٢٥٠ .
(٤) المسعودى ٥/٣٨٥ .
(٥) أغانى ٣/٢٩ .
(٦) أغانى ٤/٢١٩ .
(٧) أغانى ٨/٣٢١ .

بالمغنين والمغنيات ، ويعدُّ أبوالفرج منهم فى أغانيه عشرات[١] ، ويقص علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء فى المدينة من رقى وازدهار ، إذكانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة[٢] والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة[٣] . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا فى المدينة فقط ، بل أيضاً فى مكة[٤]، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت فى مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة[٥].

وعلى هذا النحو عاشت المدينة فى هذا العصر لفن الغناء تنمّيه وترقيه ، ورقيُّه إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرَّفه والنعيم . وكان يلتقى فى هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشْعب ، وكان ماهراً فى إضحاك معاصريه لابنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتَطفّح كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته[٦].

ولع فى هذا المجتمع كثيرات من النساء قُدْنَ المرح فيه والظَّرْف وعملن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْنة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج فى أغانيه ترجمة[٧]، صور فيها جمالها وبهاءها ووقارها وأخْذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرفت بتصفيف لجُمَّة شعرها كانت النساء يقلِّدْنها فيه، بل كان من الرجال من يحاكيها فى جُمَّتها . وكانت ظريفة مزاحة، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تَفْسحَ فى مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كى يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

---

(١) أغانى ٨/١٨٦ وما بعدها .
(٢) أغانى ٨/٢١٨ ، ٨/٢٢٧ .
(٣) أغانى ٨/٢٢٦ .
(٤) أغانى ٨/١٨٨ ، ٨/٢١١ .
(٥) أغانى ٨/٢٠٩ .
(٦) انظر ترجمته فى الأغانى ( طبعة الساسى ) ١٧/٨٣ .
(٧) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٤/١٥٧ وما بعدها .

حزن أبي قَطيفة الأموى على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكى بلدته فى شعر مؤثِّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضى ، يقول(١) :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَّاءُ بينهما    أَشْهَى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ

ويقول(٢) :

أَقطعُ الليلَ كلَّه باكتئابٍ    وزَفيرٍ فما أكاد أنامُ

إلى أشعار كثيرة(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة فى مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له فى الرجوع .

وفى هذا الجو الرقيق الذى زخر بالغناء والمرح نهض الشعر فى المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرَّب فى بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تامًّا . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغانى حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسَّرِىّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيهين المشهورين عروة ابن أُذَيْنَة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرْطاة وابن هَرْمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النِّسائى ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١/ ١١ ، والقصر الذى عناه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ، الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

(٢) أغانى ١/ ٢٩ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى ١/ ١٢ ومابعدها .

وإذا أخذنا نقرأ فى شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرى فى الحب والغزل ، وهو شىء طبيعى ، دفعت إليه حياة الشباب المترف فى المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقًّا بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد ارحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة[1] ، ولكن هذه المعركة تنتهى بهما ، ولا تَبْقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلبا لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحوص[2] وموسى شهوات[3] ، وأخيه إسماعيل بن يسار[4] . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفى الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغى أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما فى المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذى كان يتفق وترف البيئة والذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثَمَّ طُبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان فى حقيقته أغانىَ تُصْحَبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع فى جوانب كثيرة من حيث الكمّ ومن حيث الكَيْف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو فى مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحمّلوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعرٍ أغْنيةً يوقّعها عليه[5] ، وكان بين الشعراء من يُحْسن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذَينة[6] ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبى سعيد مولى فائد وسَلاّمة القَسّ ؛ وقد ترجم لهما صاحب الأغانى .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها فى كل ما وصفناه من

(١) أغانى (ساسى) ١٣/١٤٤ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ .
(٣) أغانى ٣/٢٦٥ .
(٤) أغانى ٤/٤٠٨ .
(٥) أغانى ٢/٢٣٨ وطبعة الساسى ٢١/١٠٧ .
(٦) أغانى (ساسى) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل. وكانت مثلها تغرق فى ثراء واسع ورثه الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان فى حجورهم من أموال التجارة فى العصر الجاهلى، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس فى عصرنا ، إذ كانت تنقل السِّلَع بين حوض المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرِض لأهلها من أعطيات ورواتب فى دواوين الخلافة وما قَسم فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يَفِىء عليهم كل سنة بما يسدُّ خَلَّة كل محتاج .

فمكة لم تكن تقلُّ فى هذا العصر ثراء عن المدينة، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التى تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبت « بالرُّقْط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنَّائين من الفرس[١] ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى[٢]. ومعروف أنه اتسع فيها بناءُ القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقرًّا لخلافته[٣]. وقد عُنى كثير من الخلفاء ومن وُلاتها الذين أثْرَوْا فى الفتوح باستنباط العيون فيها وغَرْس النخيل والأشجار فى ضواحيها[٤] من ذلك ما يُرْوَى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسرى عامله عليها أن يُجْرِى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة فى أصل « ثَبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام فى قَصب من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء فى نافورة رخام بين الركن وزمزم[٥].

ولم تَغْرق مكة فى دور وقصور وعيون فحسب، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها فى الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون فى صحاف الذهب والفضة[٦] ، ونفر يلبسون مقطعات الخزِّ والسندس والديباج والحلل الموشاة

---

(١) أغانى ٢٨١/٣ .
(٢) أغانى ٢١١/١ .
(٣) الأزرق ٣٩٢/١ .
(٤) المعارف لابن قتيبة ( طبعة جوتنجن ) ص ١٦٤ و الأزرق ٤٤١/١ وما بعدها .
(٥) اليعقوبى ( طبعة أوربا ) ٢٥١/٢ .
(٦) أغانى ٦٦/٥ .

على كل لون[١] ، والطيبُ وأنواع العطور تفوح منهم[٢]. وبالغ النساء فى ذلك كله وفى اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر[٣].

واكتظت مكة — كما اكتظت المدينة — بالرقيق الأجنبي الذى نهض بحاجات أهلها فى مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن فى مكة وأصحابه فى المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدَّميهم وكبارهم فى مكة ابن مِسْجح الذى اشتهر بأنه أول من غنَّى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبطيَّة والأسطوخوسيَّة ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلَّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنَّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحَّنه وتبعه الناس بعدُ »[٤] . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات فى مكة ، ومن أنبههم وأشهرهم ابن مُحْرِز ، وهو أول من غنى الرَّمَل[٥] ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيْس وغيره من مغنيها[٦] ، وكان أول من ضرب على العود الفارسى بالغناء العربى ، والغَرِيض وكان لا يُلْحَق فى الندب والنياحة ، والأبجر ، والهُذَلى . ومن مغنيات مكة سُمَيَّة ، وبَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبى ربيعة . ومكة إن لم تُعْرَف بدار كبيرة كدار جميلة فى المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادى الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشْغَفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

---

(١) أغانى ٥/٦٤ .
(٢) أغانى ٢/٣٩٩ ، ٣/٤٧ .
(٣) أغانى ٨/٢٧٣ ، ٨/٢٧٨ وانظر ابن سعد ( طبعة أوربا ) ٨/٣٤٣ .
(٤) أغانى ٣/٢٧٦ .
(٥) أغانى ١/٣٧٩ .
(٦) أغانى ٨/٣٢١ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء[١] بن أبي رباح وابن[٢] جُرَيْج وقضاتهم من مثل الأوْقَص[٣] المخزومي . وتبعت ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح . وفي كتاب الأغاني ترجمة[٤] طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس، مثل الثُّرَيَّا[٥] بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعْقَدُ فيه ندوات يؤمُّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلا ، إذ كانت الثريا مولاةً للغَرِيض ويحيى قَيْل وسميَّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كلَّ ليلة على أوتار العيدان والطنابير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدَّ هذا كله شعراء مكة لأن يجرى جمهور شعرهم في الغزل والحب ، وربما كان أهم شاعر مكيّ تعلق بالهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات، إذ اتخذه مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدَّاحيه ومداحي أخيه عبد العزيز والي مصر . ولكنْ حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره العَرْجي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة . ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطْرِب القرشيَّ فغنِّه غناء ابن سُرَيْج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرْقصه[٦] » .

وكلُّ ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبُّ انصباباً على غزل أهل مكة . وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غَلَب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

---

(١) أغاني ١/٢٥٧ .
(٢) أغاني ١/٤٠٨ .
(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .
(٤) أغاني ٣/٤٥ .
(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ١/٢٠٩ ومابعدها وفي مواضع متفرقة .
(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

استولى عليه استيلاء بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تمادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونُظَرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أُذَيْنة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجُشَمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

ومما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن العَرْجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفِنْد[1] . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميري ويزيد بن ضَبَّة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يفدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر[2] الوادي .

## ٢

### نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرَّعْي وطلب الكلأ ، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشَّظَف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربُّص القبائل

(١) أغاني ١/٣٩٣ .

(٢) أغاني ٧/٨٥ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحادّ الذى كان عليه القوم فى الجاهلية ، بسبب نَهْى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحوُّل حقه من أيدى الأفراد إلى أيدى الدولة ، وكان ولاة بنى أمية فى نجد وبوادى الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زَجّوا به فى السجون . غير أن بقية من الشر والشِّجار بقيت ، وهى بقية استتبعت ظهور بعض قُطَّاع الطرق من أمثال طَهْمان[1] بن عمرو الكلابى الشاعر ، كما استتبعت غير قليل من شعر الفخر والهجاء ، على نحو ما نجد فى مهاجاة[2] شبيب بن البَرْصاء الذُّبْيانى لعقيل بن عُلَّفة وأرْطاة بن سُهَيَّة ، ومهاجاة[3] ابن مَيَّادة الذبيانى للحكم الخُضْرى .

ودفع شظف المعيشة فى هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء فى دمشق والولاة فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثَمَّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبْعد إذا قلنا إن شعراء شرقىّ الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تَقَذَّف به رحلاته إلى خراسان .

ومرَّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرِّدَّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الدينى راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُمَّال الصدقات كان يقسو فى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات فى هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة[4].

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر فى نجد وبوادى الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه فى الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التى سَعَّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقًّا هو لم يُمت ذلك نهائيًّا ولكنه قلل من حِدَّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجروا فى الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

---

(١) انظره فى أخبار اللصوص للسكرى ١٠٠ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢ / ٢٧١ وما بعدها .

(٣) أغانى ٢ / ٢٩٨ .

(٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٠٥ .

برُمّتها . على أن هذا أحدث حزناً فى نفوس كثيرين سبق أن وصفناه فى عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن فى هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعف فى مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة فى مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة فى بنى عُذْرة وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج فى أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوة بن حزام وقيس ابن ذَريح ، ووقف طويلا عند مجنون ليلى وشكّ فى حقيقته ، وهو يصوِّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيًّا ، وكأن عرب نجد وبوادى الحجاز أفرغوا فيه وفى أفراده صور البطولة التى فقدوها فى حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربى ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسبه الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُذْرة ، لكثرة ما أنتجتْ فيه ، فيقولون غزل عُذْرى وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأةَ من جلال ووقار وما حرَّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرهم وأهليهم ، ودائماً يُصَفِّى الحزن النفس وينقيها ويعدُّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجَى حقًّا وأن تؤثر فى النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادى الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية فى الشام وقبيلة تغلب فى الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلى واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية فى الرَّعْى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعيًّا أن تقف قيس فى الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حَطَبَت قيس فى حَبْله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس فى الشام وزُفَر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا بالجزيرة . وتوالت الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامة ابن بَحْدل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارت قيسُ الشامِ ، وأوقعتْ بها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة فى مَرْج راهط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان فى الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرةِ ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْر بن الُحباب السُّلمى ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب فى أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَير ويوم الهيل ويوم كَآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان[١] . ووالت قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير فى غير موقعة ، وخاصة يوم ماكَسِين[٢] وكان بين مَنْ أسرته قيس فيه القطامى ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامى ينوه بمأثرته عليه طويلا[٣] ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ فى إحدى غاراته عليها بالحشَّاك إلى جانب نهر الثرثار . ويثأر له زفر فى موقعة مَرْج الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك فى هذه الأثناء يَده عن قيسِ الجزيرةِ رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفى ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبدالملك أن ينتظر رجاءَ أن يُفْنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح فى جَذْب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمنا اقتحم بجيوشه العراق وقتل مصعبا سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة فقضى عليه . وبذلك أُنْقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبدالملك وعنده الجحَّاف بن حكيم السُّلَمِيّ فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذى أقول فيه :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ ... بقتلى أُصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ[٤]

---

(١) انظر الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٢١ وما بعدها .

(٢) أغانى ٢٠/١٢٧ .

(٣) أغانى ٢٠/١٢٨ .

(٤) يريد الأخطل اليوم الذى قتلت فيه بنو تغلب عمير بن الحباب السلمى .

وكان الجحّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الُحباب . وقد ظل يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سوف نبكيهم بكل مهنّــدٍ ونبكى عُمَيْرًا بالرماح الخواطرِ (١)

ومضى الجحاف ، فأغار بقومه بنى سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع يسمى البِشْر ، فنكّل بها تنكيلا فظيعاً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَر بطون حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل ، أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير أنه موّه على بنى سُلَيم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه . ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمّنه ، غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّه الجحّاف بعد ذلك ونَسَكَ(٢) .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جذَعة بين قيس من جهة وكلب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح فوق كل شىء ، وحتى أصبحنا نسمع فى كل مكان النار ولا العار ، واشتطّوا فى القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت فى قوة لعودة أشعار الفخر والهجاء ، ففى كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْل والثبور ، ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى بأشعارهم ، ونجد من ذلك آثاراً فى الطبرى يُنْشدها مع الأحداث فى موقعة مرج راهط (٣) وغيرها ، وآثاراً أخرى كثيرة فى كتاب الأغانى (٤) . فقد تراصّ شعراء كلب من أمثال جوّاس ابن القَعْطل وعمرو بن المِخْلاة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ، كما تراصّ شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجَهْم

---

(١) خطر الرمح : اهتز فى يد فارسه .
(٢) أغانى ١٢/١٩٨ وما بعدها .
(٣) الطبرى ٤/٤١٨ .
(٤) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٢/١٩٨ وما بعدها و ( طبعة الساسى ) ١٧/١١١ وما بعدها ، ٢٠/١٢١ وما بعدها .

القشيرى وابن الصفّار المحاربى . وأخذ كل فريق يَريش سهامه من الوعيد والتّهديد والتخويف الشديد ، فالتّهب الهجاء والفخر التّهابا .

ومضى كثير من شعراء القبائل فى هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم فى ذلك الأخطل والقطامى وأعشى تغلب وأعشى بنى شيبان ونابغتهم ، وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يُبْنَى لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا فى البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى جميعاً سواء فى فارس أو فى خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطّطت الكوفة فى سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية فى شرقيّها والعدنانية فى غربيها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها فى سبع خطط ، خطة أو سُبْع لكنانة وحلفائها وجَديلة ، وخطة أو سبع لقضاعة وغَسّان وبَجيلة وخَثْعم وكِنْدة وحضرموت والأزد، وخطة أو سبع لمَذْحج وحمير وهَمْدان وحلفائهم ، وخطة أوسبع لتميم وسائر الرِّباب وهوازن ، وخطة أوسبع لأسد وغطفان ومحارب والنَّمِر وضبيعة وتَغْلب ، وخطة أو سبع لإياد وعَكّ وعبد القيس وأهل هَجَر الحمراء. ولم يذكر الطبرى السبع السابع [1]

(١) طبرى ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون فى كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طيئ ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هى الأخرى ذكراً فى الأسباع السالفة. وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدْخل القبائل بعضها فى بعض .

وكان يَكْتَنِفُ الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات، وكان فى ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخَوَرْنق والسَّدير والغَرِيَّان ومتنزهات ودِ يَرة كثيرة[١] وبمجرد أن نزلها العرب نزلتها معهم بقايا الجيوش الساسانية التى انضمت إليهم ؛ ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَم، فنُسبوا إليه، وسُمُّوا حمراء ديلم[٢]، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التى خاضوها، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبى طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ؛ بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير فى البصرة ، ووقعت بين البلدتين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة فى طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ فى صدورهم إِحَنٌ لأهل الكوفة . ويخرج على بجيوشه إلى لقاء معاوية فى صِفِّين، وتحتدم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفئتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولِّى على الكوفة المغيرة بن شعبة. ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ،وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُسْتورد ابن عُلَّفة الخارجى حين ثار عليه، فانبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته[٣] به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضَيَّق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة، واضطُرَّ حجر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ( طبعة المطبعة المصرية بالأزهر ) ص ٢٧٩ .

(٣) طبرى ١٤٣/٤ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر[١] ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله فى نفر منهم إلى معاوية ، فقتله فى ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس فى الكوفة ضد الحكم الأموى ، واعتبر الشيعة حُجْرًا وأصحابه شهداء، وأخذوا يتفجعون عليهم[٢]. وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضة شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة التشيع لِعلىّ وبنيه . ويتوفَّى زياد فى سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهرى ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى ثم النعمان بن بشير ، ويتوفَّى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمّها إلى عبيد الله بن زياد والى البصرة . ويأبى الحسين بن على وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بابن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم فى الطريق أن ابن عمه اضطُرَّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلَّوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبنى هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضى إلى غايته فيُقْتَلُ وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكَرْبلاء على نهر الفرات فى العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفَّى يزيد بن معاوية ويُضْطَرُّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم فى حق الحسين ونفورهم عن نُصْرته ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربُ مَنْ قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسمُّوا التَّوابين ، وولَّوا أمرهم سليمان ابن صُرَد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا فى عَيْن الوردة ( رأس العين ) فى وسط الجزيرة بجيش أموى على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان فى المعركة ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعى إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفى الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من والى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

---

(١) طبرى ١٩٣/٤ .

(٢) طبرى ٢٠٩/٤ .

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همّام السلولى[١] :

دَعَا يا لثارات الحسين فأقبلتْ كتائبُ من هَمْدان بعد هَزيعِ[٢]

وآب الهُدَى حَقًّا إلى مستقرِّهِ بخير إيابٍ آبَهُ ورجـــوع

إلى الهاشميِّ المهتدِى المهتدَى به فنحن له من سامعٍ ومطيـــع

ولما استجمع الأمرُ للمختار أعدّ جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام ، فالتقى فى سنة ٦٦ بجيش عليه عبيد الله بن زياد فى «خازر» بين الموصل وإربل ، ودارت الدوائر على جيش عبيد الله وسقط فى المعركة . ويولّى ابن الزبير على البصرة أخاه مصعباً سنة ٦٧ وتنشب الحرب بينه وبين المختار ، وتعلو كفة مصعب ، فيُقْتَلُ المختار وتدخل الكوفة فى طاعة ابن الزبير .

ونمضى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك فى ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج وهى ليست ثورة شيعية ، وإنما هى ثورة أهل السيادة والشرف فى الكوفة على بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية[٣]. وكان سادة هذه البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولاة بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة وخاصة الحجاج . وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه كثير من الموالى والقُرّاء . ونازله الحجاج فى وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل فى هروبه ، حتى وصل إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوى الذى يخلّصهم من الأمويين وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن على بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة منشئاً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هى نظرية الزيدية . وما زال به شيعته يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج فى سنة ١٢١ وما كاد

---

(١) طبرى ٤/٥١٠ .

(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العريقة فى الكوفة بيت زرارة بن عدس التميمى وبيت الأشعث بن قيس الكندى وبيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت ذى الجدين الشيبانى .

القتال يستحرّ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضّوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد، وصُلب بسوق الكُناسة فى الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى فى سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة فى هذا العصر وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكنّون بغضاً لبنى أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور فى الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطِّرِمَّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان بجوارهم من يُقْبلون على اللهو والخمر ، أمثال الأُقَيْشر الأسدى ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إياس وحَلْبته .

ولم تتورط الكوفة فى العصبيات القبلية ، ولذلك كان حظها فى شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر الهجائين فى العصر هو الحكم بن عَبْدل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعْنَى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبنى أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزَّبير الأسدى .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطَّط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة فى الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى فى الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعتها القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق المِرْبد ، وقد تحولت فى هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقته .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسى الذى جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل فى حلف تميم ، ودخل أيضاً فى حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزّط والسيابجة والإندغار . ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش[١] . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيئاً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيئاً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هى الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهيرات الكثيرة التى اشْتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهرى الأبلّة ومعقل .

وأخذ نزلتها من العرب المجاهدين فى سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشْحنون بقيادة الأحنف بن قيس التميمى لعهد عمر بن الخطاب فى أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان[٢] . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان[٣] . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم[٤] ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلى ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفّين ، وظلت موالية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة فى العصر الأموى ، ونراها تُذْعن لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ فى اجترار العصبيات القبلية القديمة ، وكان مماهيّأ لذلك قيام حلفين كبيرين بها : هما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها فى حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزْد عُمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغلّ هذه العصبيات فى توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشْغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغلت الكوفة ،

---

(١) انظر فى تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٤١ وما بعدها والطبرى ٤/ ٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٥٩٩ ونقائض جرير والفرزدق ٧٣٧ .

(٢) طبرى ٣/ ١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبرى ٣/ ٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبرى ٣/ ٥١٠ - ٥١١ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الخصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بِأُسَرِهم إلى غزو خراسان[١] ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدتين.

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج. ويتوفى يزيد بن معاوية، وتضطرب البصرة، ويبايع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضْطَرُّ عبيد الله أن يبرحها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة، يشدُّ من أَزْره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنْزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد وتميم طلباً للثأر ،ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُنْكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته،ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتَتْبَعُ البصرة ابن الزبير ، ويولِّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجِّه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تَغْلى بالعصبيات القبلية. ووَلِيَها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده علا شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها . فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يَعْزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

(١) طبرى ٤/١٧٠ .

ابن مسلم الباهلي. ونراه يولّي على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي. ومعروف أنه كان يُنيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي. وولّى على أصبهان ختنه مالك بن أسماء الفزاري. ومعنى ذلك أن قيساً قوي أمرها في البصرة لعهد الحجاج. ويتوفّى سنة ٩٥ ويتوفّى بعده الوليد بن عبد الملك، ويخلفه سليمان أخوه، فيولّي على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب، فيعظم شأن قبيلة الأزد.

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص منها، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبيات بينها، لما يستتبع من المغانم السياسية في تولي الوظائف وغيرها. وولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب، وولّى عليها عديّ بن أرطاة الفزاري، فعادت إلى قيس مكانتها. ويتوفّى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك، فيثور عليه يزيد بن المهلب، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعة بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة. ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح، ويقضي على ابن المهلب، ويتبع فلول جيشه هلال بن أحوز المازني التميمي فيقضي عليها وعلى من بقي من المهالبة قضاء مبرماً. ويولّي يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة الفزاري، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً، ولم يُثر عليه الأزد وربيعة وحدهما، فقد أثار عليه أيضاً تميماً وشاعرها الفرزدق. ويلي الخلافة هشام ابن عبد الملك، فيعزل ابن هبيرة، ويولّي خالداً القسري لنحو خمسة عشر عاماً، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً، فاضطرّ الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولّي مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وبذلك رفعت قيس رأسها، وعادت إلى سابق مكانتها. وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولاتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي.

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبيات القبلية، ومن ثمّ كانت المحور الذي دار عليه شعرها، إذ تحوّل كل شاعر يفخر بقبيلته مصوّباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل. ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحلفين اللذين تحدثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنَمِّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج فى البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كى تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوى وبيان حقه فى الخلافة . وإذا كنا لاحظنا فى الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون فى صفوف بنى أمية ضد معارضيهم من الشيعة فإن البصرة هى الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموى وعلى رأسهم جرير .

ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعى أن ينتظموا فى صورة الشعر البصرى العامة من الفخر والهجاء والمديح ، وممن اشتهروا منهم يزيد بن مفرّغ الحميرى . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمر مثل حارثة بن بدر الغُدانى التميمى ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع فى البصرة اتساعها فى الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمَّ فَسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبى الأسود الدؤلى .

## ٤

### خراسان

مرَّ بنا أن جُنْد البصرة هم الذين مضوا شرقاً فى عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان . فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبيات القديمة . وكان مما زادها

ضراوة فى نفوسهم أن قوّاد الجيوش المحاربة كانوا يكافئون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التى يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسْنَدُ إليه ولاية يخص قبيلته بالغُنْم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهى موجدة أدّت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلو فيها القبيلة كما كان يعلو الثأر على كل شىء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان فى نفس الموقف الذى كان عليه أسلافهم فى الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقًّا كانوا يُشْغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلا عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهى حرب عادت فيها العصبيات جَذَعةً .

وقد بدأت هذه العصبيات تَسْتَعِر هناك فى نفس الوقت الذى بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزد وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعامة عبد الله ابن خازم السُّلَمى القيسى . واستطاع أن يجمع السلطان فى يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخل فى طاعته على أن يُطْعمه خراسان سبع سنين ، وأبَى ابن خازم ، غير أن نائبه فى مرو : بكير بن وشاح التميمى ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية فى طاعة بنى أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى . وضمَّها إلى الحجاج ، فولّى عليها فى سنة ٧٨ المهلَّب الأزدى بعد قضائه على الأزارقة ، فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذى طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبْناء التميمى ونهار بن تَوْسعة اليَشْكرى البكرى وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفّى المهلب سنة ٨٢ ، فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه فى فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويَعْزله الحجاج لعصبيته الشديدة للأزد

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلى فى سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فمضى يفتح فى طخارستان وأرض السُّغْد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو فى أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وَلِىَ الخلافة بعد أخيه الوليد، وكان حانقاً على الحجاج وعُمَّاله، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضَّت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعتهم تميم ، لأنه كان قَتَل منها نفراً من آل الأهتم ، وأساء معاملة بطلها وكيع بن أبى سُود . وتزعَّم وكيع حربه ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغيظة منذ عزْل المهالبة وانضمَّت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حَيَّان النبطى ، وأخيراً خذلته قيس إلا نفراً من عشيرته باهلة ، فلقِىَ حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولَّى سليمان مكانه وكيع بن أبى سُود ، فأخذ الناس بالعنف، فعزله ، وولَّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق، وقد مضى يتَّبع سياسةً قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر فى الغنائم . وتوفِّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره فى أداء الفَىْء ، وكان قد بالغ لسليمان فى بعض كتبه ، فقال إن الفىء فى بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خُمْسه بعد أن أخذ كل محارب حقَّه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفى رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سَقط أو هوى نَجْمُ الأزد، وقد ولى عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . ودخلت فى عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُظِلَّها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسرى والى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه فى سياسته ، فالتهبت العصبيات القبلية التهاباً، وامتشقت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُّلَمي القيسي ، وخلفه عليها الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها فى سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالى. وفى عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بنَ صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمى هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل فى سنة ١١٧ وَولِى مكانه أسد القَسْرى للمرة الثانية فضيَّق الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد فى العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفى ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفى عهده اشتدت العصبيات اشتداداً مروِّعاً واشتد معها الشجار والقتال فى كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراسانى . وعبثا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر[1] وتكون نهاية بنى أمية .

ويفيض تاريخ الطبرى بأشعار الشعراء فى هذه العصبيات التى احتدمت هناك وفى وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط فى خراسان نشاطاً عظيما ، إذ كانت الكثْرة من العرب هناك مضرية : وحيثما وجدتَ المضريين وجدتَ الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمتْ غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن مَعْدان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قُطْنة والمغيرة بن حَبْناء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مِنْ هؤلاء الشعراء مَنْ كان فارساً مقداماً مثل ثابت قطنة وكعب بن مَعْدان ، وكان من هولاء الشعراء الفرسان من يقع فى حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبى جلدة اليشكرى[2] ، وأعشى همدان[3] . وكان بين المحاربين كثيرون يحنّون إلى ديار

---

(١) طبرى ٦ / ٣٦ وما بعدها والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٦٠ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١١ / ٣١٩ ، ٣٢٥ .

(٣) أغانى ٦ / ٣٤ وما بعدها .

قومهم فى الجزيرة ، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الريب فى مرضهمشهورة[١] . وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية فى حُبِّهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليائس ، وهو شعر يفيض باللوعة الممضَّة على نحو ما نجد عند الصِّمَّة القُشَيرى[٢] الذى مات غازيا بطبرستان .

## ٥

### الشام

لا يكاد يُقاس الشعر فى الشام لهذا العصر إلى ما انبثَّ منه فى خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت فى جمهورها قبائل يمنية ، وهى لا تبلغ فى الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبتته بيئة الشام فى هذا العصر هو عدىّ بن الرقاع العاملى ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرِّزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة .

على أنه ينبغى أن يلاحَظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء فى موقعة مَرْج راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعده طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

ومما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعرُ الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين يمدحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابنُ قيس الرُّقيَّات ونُصَيْب والأحوص وكثيِّر وإسماعيل

(١) أغانى (ساسى) ١٦٢/١٩ وذيل الأمالى ص ١٢٦ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٢/٦ وما بعدها

ابن يسار النسائى وطُرَيح الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرّاعى والعُجَيْر السَّلولى وأرطاة بن سُهَيّة وعقيل بن عُلّفة وابن ميّادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبير الأسدى وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلمّون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهليهم يُجرّر الحقائب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفراً من المضريين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهُذَلى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم[1] واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً[2] .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

## ٦

### مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

---

(١) الإصابة لابن حجر ١٤٣/٧ .

(٢) ديوان الهذليين ( طبع دار الكتب ) ٢٤١/٢

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلّف عن العناصر المضرية وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر و بلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تَقْدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار ، فكان طبيعيًّا أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسةُ الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارةً للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تتنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تنهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقًّا نجد فيها أشعاراً كانت تُنْظَمُ من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبثوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى زمزمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر ( ٦٥ — ٨٥ هـ ) وأشعارُه المنسوبة إليه لا تَرْقَى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بحراً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوْب أمثال كثيِّر وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأيْمن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج الثعلبى . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فمصرُ لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسى ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها والٍ على شاكلة عبد العزيز بن مروان، يَرْحَل إليه الشعراء و يمدحونه . وكذلك الشأن فى الأندلس المفتوحة فى عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحها قبائل يمنية، ومن ثَمَّ لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاويا ذابلا إلى نهاية العصر .

وطبيعى أن يكون النشاط الشعرى فى اليمن خامداً ، لأنها لم تُجلِ فيه من قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبيات والثورات التى تَدْلع ألسنة الشعراء على نحو ما مرَّ بنا فى البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء لمديح ولاتها على شاكلة أبى دَهْبل الجمحى الذى اشتهر بمديحه ابنَ الأزرق المخزومى والى ابن الزبير[١] . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر هذا العصر أخذ الشعر يجرى على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدى الذى ترجم له ياقوت فى معجمه[٢] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٢٨/٧ .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١/١١ .

## الفصل الثانى

# مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء

## ١

### الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك فى اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة فى أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها فى الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه فى العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرّب الأقطار الأخرى التى لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يَعُد اللسان العربى خاصًّا بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع فى شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيأ لتعرُّبها نظام الولاء الذى أخذ به العرب أنفسهم فى فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب فى ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام منْ وراءه من الشعوب المفتوحة كى يدخلوا فى هذا الولاء وينتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمّت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى فى المدن التى اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط : فإن العرب اختلطوا فيها وفى غيرها من المدن بالأجانب الذين قدّموا لهم خدماتهم فى الحِرَف والزراعة والتجارة ، وغَصّت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم فى حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسَّرارى والجوارى . وظهر أثر ذلك فى أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالى زواجاً وولاء لم يكن تأثُّر الموالى به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا فى التعرُّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة فى المغرب والأندلس اللاتينية وفى مصر والشام اليونانية والسريانية وفى العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من ألسنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشيَّة وضُحاها ، فقد أخذ التعرب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفى أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن مُحيت إلى حد كبير – بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية – فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هى اللغة العامة التى يتخاطب بها العرب مضريين ويمنيين فى كل مكان ، وإن ظلت من الماضى آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالى تطورثان فى لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسَّطة ، حتى يفهم عنهم الموالى ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفى أثناء ذلك كانوا يستعيرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة فى الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرِّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويَعرِض علينا الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التى جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمُّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِثّاء «خياراً» والمجذوم «وَيْذى[١]» وكانت الفارسية شائعة فى البصرة ويتضح ذلك فى دخول مقطع «آن» الفارسى على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران[٢]» لعمر بن عبيد الله بن معمر و «سُوَيْدان» لسويد بن منجوف السَّدوسى و «خالدان» لخالد بن أسيد و «مهلّبان» لآل المهلب. ومما يدل على شيوع الفارسية فى البصرة ما يُرْوَى من أن يزيد بن مفرِّغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد فى ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة فى ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير، وأمر أن يطاف به فى الشوارع على هذه الصورة المُزْرية، فتجمَّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية إين جيست؟ أى ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم[٣]:

آبَ اسْتْ نَبِيذ اسْت عصــاراتِ زبيبَ اسْت
سُمَيَّهْ روسبىَ است

واست: من أفعال الكينونة، وآب: ماء. وسمية: أم زياد. وروسبى: الخنزيرة. أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة، ويريد البَغِىّ. ويلاحِظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة فى المدينة مع من نزلها من الفرس، ولذلك سمو البطيخ «الخِرْبز» والسميط «الرزدق»، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء[٤].

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجرير اللذين عاشا فى البصرة، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البيذق والبياذق» المعروفة فى لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْذق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً، يقول مخاطباً جريراً[٥]:

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩ وما بعدها.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٣.

(٤) البيان والتبيين ١/١٩.

(٥) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٧٨٧.

ونحن إذا عَدَّتْ تميمٌ قديمهـا … مكانُ النَّواصى من وجوه السوابق
منحتُك ميراث الملـوك وتاجهم … وأنت لِدرْعِى بَيْذَقٌ فى البياذق

فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم فى إحدى أهاجيه للفرزدق كلمة « الرَّوْذق » الفارسية بمعنى الحمَل المنتوف وَبره بعد سَلقه، ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول فى جِعثْنَ أخت الفرزدق[1] :

لا خير فى غضب الفرزدق بعدما … سلخوا عجانكِ سَلْخَ جلد الرَّوْذقِ
سبعون والوُصَفاء مهـر بناتنا … إذ مَهْرُ جِعْثِنَ مثل حُرِّ البَيْذَق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا كان ابن مفرِّغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه شعراء من الزنج مثل رباح[2] ومن الهند مثل أبى عطاء السندى .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكْنات هؤلاء الموالى ، فإن كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً فى نطق بعض حروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ فى البيان والتبيين صوراً مما كان يجرى على ألسنة عامتهم من هذه اللُّكْنات ،حتى لتُفْسد العبارة العربية إفساداً ، فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاساً :أتبيع الدواب المعيبة من جُنْد السلطان؟ فأجابه : « شر يكاننا فى هوازها وشر يكاننا فى مداينها ، وكما تجىء تكون » . ولم يفهم الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تَعْنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول :« شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدوابِّ ، فنحن نبيعها على وجوهها[3] » ومن ذلك أن أمَّ ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرْدان فى عِجان أمكم »

(١) النقائض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان للجاحظ وأمالى ابن الشجرى ( طبعة كرنكو ) ١/ ١٩٤ وقد اختلف فى اسمه هل هو رباح أو رياح أو سنيح بن رباح .انظر العربية ليوهان فك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٦١ .

فأبدلت الذال من الجرْذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لُكْنتها :

أوّلُ ما أسمع منها في السَّحَرْ　　تذكيرُها الأُنثى وتأنيث الذكرْ

والسوءة السوءاءُ في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر[١] . وكانت آثار من هذه اللكنات تَجْرى على ألسنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربى ، حتى أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلَّص ، نذكر من بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين همزة والطاء تاء والسين شيناً[٢] ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتًى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةً　　إذا غَيَّر السلطانُ كل خليلِ

فقال : « زاده الشلتان[٣] » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً ينشد شعره[٤] . وكان أبو عطاء السندى وهو ممن عاشوا فى العصرين : الأموى والعباسى يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره[٥] .

ولم تجْر هذه اللكنات على ألسنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء والقاف كافا . فإذا قال : أحَرَوَرِيٌّ أنت ؟ قال : أهرورى أنت؟ وإذا قال قلت لك قال : كلت لك[٦] . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلُّوا سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله[٧] :

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٧١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٩ .

(٣) البيان والتبيين ١/٧١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٨٩

(٥) الشعر والشعراء ٢/٢ ٧ وراجع الأغانى (طبعة الساسى) ١٦/٧٩ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢ .

(٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ .

ويوم فتحتَ سيفك من بعيدٍ　　أَضَعْتَ وكلُّ أمـرك للضَّياع

ويُرْوَى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكْنته: « إن ابنك كما وصفت ولكن قَوِّم من لسانه » [١]

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك فى مراكز الشعر الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث فى العراق من هذه اللكنات كان يحدث فى المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترنَ بهذه اللكنات لحنٌ كثير بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلتْ أدبرتْ　　كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائحاً [٢] » . ويظهر أن اللحن شاع على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عُنِى خلفاء بنى أمية بتأديب أولادهم ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، ومما يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لصّ » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين قُتل أبو فديك الخارجى : « يا أمير المؤمنين قُتل أبى فديك » وقال مرة : « يا غلام رُدَّ الفرسان الصادَّان عن الميدان [٣] » .

واتسع هذا اللحن فى الكوفة والبصرة حتى لنرى الحجاج المعروف بفصاحته ولَسَنه ونشأته فى البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يَعْمر : أتسمعنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أتسمعنى ألحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : فى القرآن ، فقال : ذلك أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : ( قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتُموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله ) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب . وكأنه لما طال عليه الكلام نسى ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع لى لحناً أبداً [٤] . وكان خالد القسرى مع ما اشتهر به من فصاحته لحَّاناً ، ويُرْوَى

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .
(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .
(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .
(٤) ابن سلام ص ١٣ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل[١] :

وألحنُ الناسِ كلِّ الناس قاطبةً    وكان يُولَعُ بالتَّشْديق فى الخُطَبِ

ويَرْوِى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبى بُرْدة والى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبَّع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقٍّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلْ به واقصد لحجّتك[٢]، وممن عُرف فى خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم[٣]، وكان سليمان بن عبد الملك فى دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب[٤].

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة فى البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد. وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحويًّا ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ، واشتهر فى هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحدثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعه حتى قال فيه بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولًى هجوتُه    ولكنَّ عبد الله مَوْلى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلا : كان يَحْسُن أن تقول : مولى موال[٥]. على أن الفرزدق لم يُعْرَفْ بضعف فى الحس اللغوى لأنه نشأ فى البادية ، إنما الذى عُرف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن مثل الطِّرِمّاح والكُمَيْت. ويسجِّل الرواة على الطرماح أنه كان يَسْتخدم الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق[٦] وأنه كان يَتَكَلَّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين فى شعره[٧]. ولم

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٧ .
(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .
(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٢/٣٦ .
(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك فى أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يَشرَكُ الطرماح فى ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية[1] ، ويُرْوَى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولا ما يَقْدر إنسان أن يقول لك فيه أصبتَ أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له[2] » ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح فى اللغة[3] .

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم فى الحضر ولم يتغذّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسى حتى يضع اللغويون خطًّا فاصلا بين الشعر القديم الجاهلى والإسلامى والشعر العباسى الحديث الذى سموه شعر المولّدين وهو خط فَصلوا به فصلا تامًّا بين الشعر الفصيح الذى يمكن الاستشهاد به فى اللغة والشعر الذى لا يُعتدّ به فى هذا الاستشهاد . وقد اعتدُّوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفراً من العرب أمثال الطرمّاح والكميت متخذين النشأة فى الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفّى والمعيب والسليم .

## ٢

### الإسلام وأثره فى موضوعات الشعر

طبيعى أن يؤثر الإسلام فى موضوعات الشعر الأموى ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون فى مختلف الأجواء عَبير وعظهم ونُسكهم ، سواء فى المساجد الجامعة أو فى مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

---

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) ٣٦/١٢

(٢) أغانى (ساسى) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد فى متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست فى أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزلَ بتأثير الإسلام من براءة وطُهْر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادى الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة . مما هيأ لظهور الغزل العذرى بل لشيوعه ، وكأنما أضْفَى الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا فى احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعاباً أى صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشفّ عن ألمه وعذابه فى حبه ، وهى شكوى يتضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جَميل[١] :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبَّها ... ولا بد من شكوى حبيبٍ يُرَوَّعُ

ألا تتقين الله فيمن قتلْتِهِ ... فأمسى إليكم خاشعاً يتضرَّعُ

فيارَبِّ حَبِّبْنِى إليها وأعْطِنى الـ ... ـمودَّة منهــا أنت تعطى وتمنع

ونرى الغزلين جميعا عُذْريين وغير عُذْريين يستلهمون فى غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران . يقول عمر بن أبى ربيعة[٢] :

فليتُكِ أطْلِقِى حَبْلى وجودى ... فإن الله ذو عَفْوٍ غَفورُ

وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم فى القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصِّل هذه الفكرة تفصيلا فى إحدى مقطوعاته ، فيقول[٣] :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةَ إننى ... أخشى عليك بَنِىَّ إن طلبوا دمى

فإذا حلفتِ هناك أنك من دمى ... لبريئــةٌ فتَحَلَّلى لا تَـأْثَمِى[٤]

فلئن سفكِت دما بغير جريرةٍ ... لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الألأمِ

---

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار ص ١١٧ .

(٢) ديوان عمر ( نشر شوارتز ) رقم ٤٠ بيت د .

(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى ) ٢/٧٧٨ .

(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

ولئن حملتِ دمى عليك لتَحْمِلنْ ثِقْلاً يكون عليك مثل يَلَمْلَمِ (١)

وإذا كان الفرزدق توسَّع فى فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل فى غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمن يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخص فى اللَّمَمِ ، يقول (٢) :

إذا قلتُ يوماً نَوِّلينى تبسَّمتْ وقالتْ معاذَ الله من فعل ما حَرُمْ
فما نوَّلتْ حتى تضرَّعتُ عندها وأعلمتُها مارخَّص الله فى اللَّمَم

وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذى كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تمتزج بمعانى الحب وألفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول فى كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية فى الممدوح ، ووثَّق هذا التصوير فى مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عُراه ، فمضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية فى الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغى أن يتحلَّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بنى أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار دينى لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثالا حقًّا للحاكم الأموى التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذى يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيِّر (٣) :

وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيتَ فأمسى راضيا كلُّ مسلمِ
وقد لبِسَتْ لِبْسَ الهَلُوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصَمِ
وتومض أحيانا بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنَظَّم

---

(١) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة .
(٢) أغانى ٦/٣٢٨ .
(٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ٢/١٢٣.

فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنّما سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَم[١]
تركتَ الذى يفنى وإن كان مونقا وآثرتَ ما يبقى برأيٍ مصمِّمٍ
وأضررتَ بالفانى وشمَّرتَ للذى أمامك فى يوم من الشر مُظْلِمِ

وهو لا يصور فى عمر التقوى فحسب ، بل يصور فيه أيضاً الزهد والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذى يغُرُّ الناس من حوله . وتتسع هذه الصورة فى مديح الشيعة لأئمتهم على نحو ما نجد فى هاشميات الكُمَيْت وفى شعر أيمن بن خُرَيم إذ يقول فى بنى هاشم[٢] :

نهارُكمُ مكابدةٌ وصومٌ وليلكمُ صلاةٌ واقْتراءُ
ولِيتم بالقُران وبالتزكِّى فأسرع فيكمُ ذاك البلاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا فى وصفهم بالفسوق والبغى والطغيان كقول جرير فى آل المهلب[٣] :

آلُ المهلب فرَّطوا فى دينهم وطغَـوْا كما فعلتْ ثمود فباروا

ودائماً يرمى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحُرمات وتعطيل أحكام الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سُنَّة من مثل قول الكميت[٤] :

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يحدثونهـا أزلّوا بها أتباعهم ثم أوْحَلُوا
كما ابتدع الرهبانُ ما لم يجئْ به كتابٌ ولا وَحْىٌ من الله مُنْزَلُ
تَحِلُّ دماءُ المسلمين لديهمُ ويَحْرُمُ طَلْعُ النَّخلة المتهدِّلُ

واشتد لهب الهجاء — كما قدمنا فى غير هذا الموضع — بتأثير العصبيات ، ولم يكد يَنْجُ منه خليفة ولا والٍ ولا شريف ، بل حتى القُرَّاء كان يتعرض لهم الشعراء ، وخاصة إذا رأوهم يداجون أولى الأمر ، فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

(١) مدوفاً : مزيجاً .
(٢) أغانى (ساسى) ٢١/٦ .
(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٢١٩ .
(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة ساخراً من إحدى طوائفهم (١) :

أما النبيذ فلا يَذْعَرْك شاربُهُ    واحفظْ ثيابك ممن يشرب الماءَ
قومٌ يُوَارُونَ عما فى صدورهمُ    حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداءَ
مشمِّرين إلى أنصاف سُوقِهِم    همُ اللصوص وهم يُدْعَوْن قُرَّاءَ

ولعلنا لا نُبْعِد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى فى تأثره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنْظَمُ أكثره فى الجهاد ، ومعروف أنه كان دائماً فى صفوف المحاربين قُصَّاصٌ ووعاظ يحثُّونهم على الاستشهاد فى سبيل الله ، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثَمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التى نُظمت فى خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصر بن سيَّار (٢) :

دَعْ عنك دُنْيا وأهْلاً أنت تاركهم    ما خَيْرُ دُنْيا وأهلٍ لا يدومونا
وأكثِرْ تُقَى الله فى الأسرار مجتهدا    إن التُّقَى خَيْرُهُ ما كان مكنونا
واعلمْ بأنك بالأعمال مُرْتَهَنٌ    فكُنْ لذاك كثير الهمِّ محزونا
وامنَحْ جهادَك من لم يَرْجُ آخرةً    وكُنْ عَدُوًّا لقومٍ لا يصلُّونا
فاقتلهمُ غضباً لله منتصرا    منهم به ، ودعِ المرتابَ مفتونا

وواضح أن نصراً يزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو إلى التقوى فى السر والخفاء مذكِّراً باليوم الآخر وما ينبغى أن يُتَّخذ له من ذخر الجهاد والذبِّ عن دين الله ، وبيع النفس فى محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة : أما هم فآمنوا بأنهم على الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغى جهادهم حتى يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تَغْمَسُ غمساً

---

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) ص ٦٦١ .
(٢) طبرى ٥/٤٣٣ .

فى العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفى سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجي أن يُقْتَل حتى يُكْتَب فى سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربوهم يسيل بالدعوة للاستبسال فى الحرب وجهاد هذه الفرقة التى زاغت فى رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى فى ملحمته الطويلة التى وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم (١) :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ الله إذ جَحَدُوا ... بالمُحْكَمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القَصْد والإسلام واتبعوا ... دينا يخالف ما جاءتْ به النُّذُرُ

وكان كثيرون يُقْتَلون فى هذه الحروب : فكان الشعراء يندبونهم ندباً حارًّا ، مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد : كقول الضحاك بن قيس يرثى بهلولا الصُّفْرِيَّ الذى خرج لعهد هشام بن عبدالملك وقُتل (٢) :

يا عَيْنُ أَذْرِى دموعاً منك تَهْتانا ... وابكى لنا صُحْبَةً بانوا وإخوانا
خَلُّوا لنا ظاهر الدنيا وباطنهـا ... وأصبحوا فى جِنان الخلد جيرانا

وتعمُّ هذه الروح الدينية فى مراثى من قُتلوا من العلويين منذ على بن أبى طالب ، وقد تحوَّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح فى مراثيهم ، كقول جرير فى عمر بن عبد العزيز (٣) :

حُمِّلْتَ أمرا عظيماً فاصطبرتَ له ... وقمتَ فيه بأمر الله يا عمرا

بل لقد طُبِع الرثاء عامة بطوابع هذه الروح وما يَنْطَوِى فيها من التسليم لله والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت : وهو حَتْمٌ فى رقاب العباد . وعليهم أن يتذرَّعوا إزاءه بالصبر الجميل .

---

(١) طبرى ٥/١٢٥ .
(٢) طبرى ٥/٤٦٠ .
(٣) الديوان ص ٣٠٤ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر فى نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التى نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسسنا أن قلبه يمتلىء بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثّر به الإسلام فى الشعر الأموى ، فإنه فجّر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على ألسنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه فى هذا العصر . ونقصد ينبوع الزهد وما ينطوى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسنرى فى غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا الينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة فى شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة فى إبليس الرجيم[1] . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جاراه الرجز فى هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدءون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثّر أثراً واسعاً فى نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكّرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم فى أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرّم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصوّرين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والخيانة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة .

## ٣

### السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهى عن

---
(١) الديوان ٢/٧٦٩ .

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك فى الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسى ، وهو نشاط ينبغى أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا – فى غير هذا الموضع – كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فولى على ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموى وأصبحت وراثية فى هذا البيت . وكان الأمويون فى نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عادَوا الإسلام فى أول ظهوره، وبذلك كانوا يُعَدّون مغتصبين للخلافة . وزاد فى الحُنْق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عُمّالهم ظلموا الناس. ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكوّن حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط فى الناس ، واشترك منه نفر فى بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغى أن نشير إلى ثورة المرجئة فى خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها فى حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التى نشأت فيها المعارضة لبنى أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذه البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن على وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدّد على هؤلاء الثلاثة فى أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخْصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفرّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة. ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته ، فخرج وقُتل بكربلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاذَ بالبلد الحرام الذى لا يحلُّ فيه القتل وسفك الدم ، ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلح هذا الجيش فى مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفى هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرافها ، ولما مثلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطنابير وتَضْرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان[1] » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّى ونشبت بين الفريقين معركة الحَرَّة المشهورة التى استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكاها من الشعراء كثيرون[2] . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفِّى مسلم فى طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَير السَّكونى ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءته بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيَّأ ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير : فإن الأمصار اضطربت على ولاة بنى أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولاتها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت فى طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفى دعا لابن الحنفية ( أحد أبناء على من سيدة من بنى حنيفة ) فى الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذى انتقم منه بحبس ابن الحنفية فى سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُباع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفى وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول فى طاعة ابن الزبير . وتلقانا فى هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة فى الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس فى موقعة مَرْج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

---

(١) طبرى ٣٦٨/٤ .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ وراجع كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت .

عبد الملك. فيتريث فى القدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفى . ويُشْغَلُ مصعب بعد المختار بالخوارج ، ويتقدمُ عبد الملك فيقضى عليه ، ويُرْسل الحجاجَ إلى ابن الزبير بمكة ، فيهزمه ويقتله فى سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فَضالة بن شريك هجاء مرًّا[١] . أما مصعب فكان جواداً مُمدَّحاً، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر [٢] :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير فى مكة دخل الحجاز فى طاعة بنى أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة فى البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة فى الكوفة ، وكان فيه كثير من أشراف العرب الذين كانوا يعدُّون بنى أمية غاصبين للخلافة. ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب. وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً، مرة فى عهد المغيرة بن شُعْبة والى الكوفة[٣]، ومرة ثانية فى عهد مصعب ، ومرة ثالثة فى عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجَّل ذلك بعض الشعراء فى أشعارهم[٤].

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس فى شىء إلى ثورات الخوارج التى امتدَّ لهبها إلى أركان كثيرة فى العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعُمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين على ومعاوية وما كان من رضا على به ، فقد تنادى فريقٌ من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقّوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلا هاجروا إلى حَرُوراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية. وسُمُّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سَمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

---

(١) أغانى ١/١٥ وانظر ١٢/٧١ وما بعدها.

(٢) انظر الأغانى ٦/٣٣ وابن سلام ٥٣٠ والطبرى ٤/٥٩٢ ، ٥/٩ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ٢/٢٦٢ .

(٤) طبرى ٥/٣٣٨ وما بعدها .

( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ). وسمَّوا أنفسهم الشُّراة أخذاً من قوله جلّ وعز : ( ومن الناس من يَشْرى نفسه ابتغاءَ مرضاة الله ). وكان الذى أثارهم أنهم رأوا عليًّا ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً فى سبيل الله وسبيل دينه الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا عليًّا ، ولكنه نكَّل بهم فى موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم[1] . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوَّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغى أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهى ليست حقًّا لقريش ، إنما هى حق لله وينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشيًّا . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التى ارتضت الأمويين وما ثبَّتوه من نظام الوراثة للخلافة فى بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السِّحْر فى كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . ونراهم يُغْمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج فى الكوفة بقيادة المستورد بن علّفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقْضَى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبْيان وينتظرهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور فى الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان فى البصرة ، وهى لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولَّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطُروا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله فمضى فى سياسته ، وعنُف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أُدَيَّة ومن نسائهم البَلْجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج فى أربعين رجلا إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمى عداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « آسك » فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة[2] :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٤/٢٢٢ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلهم بآسَكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
همُ الفِئَةُ القليلةُ قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنْصَرُونا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعة بن أسلم العامرى ، فلم يكن حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجى ونفر معه لقائده فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبى بلال فى خروجه شعراً[1] وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سَيُسَيَّر لابن الزبير فى مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام . وتوفِّى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ، إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفى مقدمتهم نَجْدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق وعبد الله بن الصفَّار وعبد الله بن إباض . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يَدْعون لمحاربة السلطان ، وساعدهم فى شَغَبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزد ومن آزرها . وانتهز نافع بن الأزرق الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمَّال ابن زياد ، وتخلَّف عنه نَجْدة بن عامر وابن الصفار وابن إباض ، إذ رأوه يغلو فى آرائه ، وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ، وسلك ابنُ الأزرق معهم القَعَدَةَ من الخوارج . وخالفه فى كل ذلك الثلاثة الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لتمسكهم بالتوحيد والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثَمَّ يحل التزوج منهم كما يحل التوارث بينهم وبين الخوارج ، وحقًّا يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

---

(١) الكامل ص ٥٩٠ ، ٥٩٥ .

على أن القَعَدة منهم ليسوا كفاراً(١). ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنَّجَدات نسبةً إليه فنزل اليمامة، وأعلن هناك الجهاد، أما عبد الله بن الصفَّار الذى تنسب إليه الصُّفْرية، لصفرة وجوههم من أثر العبادة(٢) فإنه لم يُعْلن الخروج، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره(٣).

وقد انضمَّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه، وهم يسمون الأزارقة نسبة إليه، وكان من بنى حنيفة، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بنى تميم، ولم يلبث أن جَهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْس فى جيش ضخم، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجَيل فى الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع. وتصدَّى لهم المهلب فى سولاف ثم فى سِلَّى وسِلَّبْرى، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتّاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزُّبير فولَّوا عليهم قَطَرِىَّ بن الفُجاءة وتقدَّم بهم إلى العراق، فوجَّه إليهم مصعب المهلبَ، فصدهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب، وتحوَّل الأمر إلى بنى أمية، فأرسلوا إليهم قواداً حالفتهم الهزائم، حينئذ وجَّه إليهم بشر بن مروان المهلبَ عدوَّهم اللدود، وما زال يخضد من شوكتهم فى رامهرمز وسابور وكرمان، وتعقبهم إلى جيرفت، ولم يلبث أن دبَّ الخلاف بينهم، وتحاربوا، إذ خرج على قطرىٍّ جماعةٌ كبيرة من صفوفه بزعامة ابن عبد ربّ، وكان أكثرهم من الموالى. ورأى قطرى أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاء مبرماً، وتعقبت جيوش أخرى قطريًّا وصاحبه عبيدة بن هلال، وكُللت جهودها بالنجاح،

---

(١) الكامل ص ٦١٠ – ٦١٥ وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستانى (طبعة لندن) ص ٩٠، ٩٣–١٠٠، ١٠٢ وما بعدها حيث تجد تفصيلا لآراء هذه الفرق.

(٢) الكامل ص ٦١٥.

(٣) نفس المصدر ص ٦١٥ والشهرستانى ص ١٠٢.

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ؛ وقد تطاير فيها شعر كثير [١].

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وعُمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة فى عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه فى اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره، فولّوا عليهم أبا فُدَيْك سنة٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً، غير أنه هُزم فى سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُّفْرية فى الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرِّح ، وكان من وعّاظهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون : فخرج بهم فى سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتل فى إحدى الوقائع : فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غَزَالة وأمه جَهيزة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسةَ قواد أرسلهم إليه واحدا بعد واحد . ودخل فى بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج فى الكوفة ، فهُرع إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جلّله بالعار . وفى إحدى حروبه نفرَ به فرسه فغرق فى نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكراه بقيت خالدة فى ذاكرة الخوارج . وظل صُفرية الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم فى عهد يزيد بن عبدالملك بقيادة شَوْذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده فى عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر ثُوّارهم الضحاك بن قيس الذى استولى على العراق فى سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلّيا خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى [٢] :

ألم تر أن الله أظهر دينَهُ     وصَلَّتْ قريشٌ خلف بكر بن وائلِ

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

---

( ١ ) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ - ٧٠٣ .

( ٢ ) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر فى الأحداث الطبرى فى مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباض المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه فى سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق فى حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجَهَّز جيشاً بقيادة أبى حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويًّا لقيه فى وادى القُرَى وهزمه هزيمة ماحقة فَرَّ على إثرها إلى مكة ، وهنالك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بنى أمية جهراً وسرًّا ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويُضْطَرُّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقْبِل الحسين فلا يخفُّوا إلى نجدته ، ويُقْتَل فى كربلاء ، ويتحوَّل قتله فى نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلا وحُرَقاً لاذعة[1]. ثم تكون حركة التوَّابين بزعامة سليمان بن صُرَد ، ويُقْضَى عليها ، ويبكيهم أعشى هَمْدان فى قصيدة طويلة كانت من المكتَّمات فى أيام بنى أمية[2] .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة فى الكوفة ، فيخرج عنها والى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلى بن أبى طالب من امرأة من بنى حَنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كَيْسان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية فى الأسس التى قام عليها التشيع ، وهى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى ، فهى ليست مفوَّضة للأمة ، بل هى تنتقل بالوصية فى على وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالا طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبرى فى حوادث سنة ٦١ ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبع الحلبى) ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٢٦ .

(٢) طبرى ٤/٤٧٢ .

يغلو فى تصور علىٍّ ، حتى لقد زعم أن به قبساً إلهيًّا ورثه عن الرسول ، وهو ينتقل من بعده فى الأئمة واحداً تلو الآخر ، وبذلك أشاع فكرتى الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن عليًّا سيعود فيملأ الأرض عدلا وعلماً ونوراً ، وبذلك وضع أسس فكرة الرَّجْعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلقت إلى الكيسانية(١) وزاد المختار عليها شعوذات(٢) كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبَداء على الله أى أن له أن يعدّل فى الأحكام كلما بدا له التعديل ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً . وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدّعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحَى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدوث شىء ، فإن حدث جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بَدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدى المنتظر الذى يخلّص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياعه كرسيًّا غشّاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو منكم بمنزلة التابوت فى بنى إسرائيل . وكان يُكْثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفى ذلك يقول سُراقة(٣) البارقى وقد فرّ عنه(٤) :

ألا أَبلغْ أَبا إسحاقَ أَنى  رأيت البُلْقَ دُهْمًا مصمتاتِ(٥)

كفرتُ بوَحْيكم وجعلتُ نَذْرًا  علىّ قتالكم حتى المماتِ

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ — ١١١ .

(٣) انظر فى ترجمة سراقة الطبرى ٤/٥٢٦ وما بعدها والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٨/١٣ ، ٩/١٣ ، ٦٨ وابن عساكر ٦/٦٩ والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه فى القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٤/٥٢٧ وأغانى ٩/١٣ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمتات : لا يخالط دهمتها لون آخر .

ويقول أعشى همْدان[١] .

شهدتُ عليكم أنكم سَبَئِيّةٌ وأنى بكم يا شُرْطةَ الكُفر عارفُ

وأقسم ماكرسيُّكم بسكينةٍ وإن كان قد لُفّتْ عليه اللفائف[٢]

وإن لُبْس التابوت فُتْناً وإن سمتْ حمامٌ حواليه وفيكم زخارف[٣]

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذى ثار فى الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرّ فى غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته فى الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص فى الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على ، وذهب إلى أن كل فاطمى عالم زاهد سخى شجاع قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية –فى نشأتها – من أكثر فرق الشيعة اعتدالا[٤] ، وشاعرها الأول الذى عاش يردّد نظريتها الكُمَيْت ، وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تَقْدم من خراسان ، وتكون نهاية بنى أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة فى صفوف الأمة العربية لعصر بنى أمية وما جرّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشْغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر فى سبيل

(١) الحيوان ٢/٢٧١ .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التى كان يقصدها المختار فى اتخاذ كرسيه : (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ) .

(٣) فتن : جمع فتان وهو الغشاء .

(٤) انظر فى الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل ص ١١٥ .

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمى أو من البيت الأموى أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حدَّاداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير فى المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون فى الخلافة ومن أحقُّ بها من سواه ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسْفَك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهما وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تَرْوى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

## ٤

### الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبى وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصّروا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون تأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلىء بأموال الفَىْء وغنائم الحرب وما رُسِم لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما أُتْرِفوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطَعِموا فى أوانى الذهب والفضة مختلف الأطعمة ، ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعطَّروا بالمسك وغيره من أنواع الطِّيب . وكان الموالى من ورائهم يهيِّئون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، إذ اكتظَّت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون :

« لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة . فقد حُكى أنه قُدِّم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رِقاعا ، وعثروا

على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مِهَنِهِم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المَهرة فى أمثال ذلك والقَوَمة عليه، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فى أحواله، فبلغوا الغاية من ذلك، وتطوّروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفُرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثِيّ[١] فأتوا من ذلك وراء الغاية[٢]» .

وقد ورث العرب فى الشام المدنَ هناك ولم يمصّروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا فى نفس المدن والدور والقصور التى كانت قبل الفتوح تتنفّس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً فى سرعة تحضرهم، إلا من آثر منهم العيش فى البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التى أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطْر ، ثم توزّعها فى الناس من أهل الشام أولا ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنّ لهم ذلك معاوية الذى كان يَرِدُ بالناس على أرجاء وادِ رَحْب[٣] ، ويؤْثَرعنه أنه كان يقول إننا تمرغنا فى نعيم الدنيا تمرغاً[٤]. ويظهر إثم هذا النعيم فى ابنه يزيد الذى عُرِف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويَعْزِف بالطنابير وتَضْرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا فى قصورهم التى كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفُسَيْفساء وصفائح الذهب وتترامى فى أفنيتها النافورات فحسب ، بل أيضاً فى بيوت الله ، وعنايةُ عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبّته التى تُعَدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموى فى دمشق وزخرفته بالرخام والفُسَيْفساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها[٥]، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسَط هذه العناية على المسجد الحرام فى مكة ، فأحاله تحفة رائعة[٦]. ومما يُذْكَرُ له من مآثر أنه عَمّ بعطائه المجذّمين وقال لهم: لا تسألوا

(١) الخرثى : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون ( طبعة المطبعة البهية بمصر ) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٢٩٨/٤ .

(٤) طبرى ٢٤٧/٤

(٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبى ٣٤٠/١ .

الناس، وأعطى كل مُقْعَد خادماً وكل ضرير قائداً[١]. وتفنَّن الناس لعهده فى بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثَّره الناس لعهده تأثراً واسعاً[٢]. وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه «يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمت بألف دينار... حَبابة عن يمينه وسَلاَّمة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير»[٣] وقد أرسل فى طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر واللآلىء كما يحدثنا الجهشيارى[٤]، ويَرْوِى الطبرى أن يوسف بن عمر حَمل إلى هشام بن عبد الملك لآلئ حَبِّها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُوِّم بثلاثة وسبعين ألف دينار[٥]. وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحوَّل قصر الخلافة فى عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنه «كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصَّعة بالأحجار الكريمة، ويغيِّرها فى اليوم مراراً كما تغيَّر الثياب شغفاً[٦]».

ومن المؤكد أن أفراد العرب فى الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه فى هذا الترف الآثم، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتْرِفوا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضَّر من نزلوا فى الفسطاط والقَيْروان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظًّا من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً فى تلك البيئة المتحضرة.

---

(١) طبرى ٥/٢٦٥.
(٢) طبرى ٥/٢٦٦.
(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٣.
(٤) نظر الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٧، ٣٤.
(٥) طبرى ٥/٥١٩.
(٦) أغانى ٧/٥٩.

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحوّلت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسَّم للفارس الواحد فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذرى فى فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة تهوله كثرة القطائع التى تملّكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفَيْروز حصين وحسّان النبطى . وكانت الحمامات تدرّ فى البصرة لهذا العصر أموالا كثيرة ، حتى ليُرْوَى أن بعضها كان يُغِلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يتملكها العرب وحدهم ، بل كان يتملكها أيضاً الموالى . ومما يذكره البلاذرى من حماماتهم حمام أَعْيَن مولى سعد بن أبى وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسوارى .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة فى بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذرى منها قصر زربى مولى عبد الله بن عامر وقصر أبى نافع مولى عبد الرحمن بن أبى بَكْرة وقصر ابن الأصبهانى وقصر شيرويه الأسوارى الذى سُمّى «هزاردر» لأنه اتخذ فيه ألف باب . ومما يدلّ على مبلغ التأنق فى بناء هذه القصور ما يُرْوَى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعينه فى بناء داره باثنى عشر ألف جِذْع(٢) ، وكذلك ما يُرْوى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التى سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات(٣) ، وفى نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين(٤) .

وتبع ذلك كله الرَّفَه والترف فى المطعم والملبس ، حتى لنرى نفراً من الأتقياء يلبس الديباج والقلانس(٥) ، ونراهم يَكْنُون عن هذا التحول فى حياتهم بأنهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .

(٢) طبرى ٤/٢٤٦ .

(٣) راجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة البيضاء وانظر الطبرى ٤/٤٠٢ .

(٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان والتبيين ٢/٨٢ .

(٥) ابن سعد ٥/١٣٩ ، ٦/٢٠٢ ، ٧ ق ١/١٥٣ .

طعموا الجَرْدق ولبسوا النُّمْرُق(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَل إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُرْوَى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس وابعث إلى بعسل من عسل خُلاّر(٢)، من النَّحْل الأبكار، من الدَّسْتفشار(٣)، الذى لم تمسَّه النار(٤). ومما يصور هذا الرفه فى العيش والتنعم مايُرْوَى من أن عبيد الله بن زياد هيأ لأبيه حين توفِّى ستين ثوباً ليكفنه فيها(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبيعى أن يُعْنَوْا فى ثنايا هذه الحياة الرَّغْدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل(٦) والصيد(٧) والقَنْص ولعبى(٨) الشطرنج والنردوسنرى أن كثيرين تورطوا فى إثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعْنَى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُنَين(٩) الحيرى وأحمد(١٠) النَّصْبى ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار(١١) ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى، إذ نجد فى الفسطاط ابن أبْجر(١٢) مغنى المدينة .

وتَنعم العرب فى خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفَيْءِ الغنائم، وفى كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِل فى أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إنى قدَّرت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ فى كل يوم ألف درهم(١٣)، ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير فى ولايته على العراق جاءه من هناك نخلةٌ مصنوعة من الذهب، عَثا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

(١) طبرى ٥/٢٨٠ . والنمرق : مفرد نمارق وهى الطنافس

(٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل .

(٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٠٣ .

(٥) طبرى ٤/٤١٥ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٢٥٧ .

(٧) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٦١ والشعر والشعراء ٢/٥٨٨ .

(٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٨٧ .

(٩) أغانى ( دار الكتب) ٢/٣٤١ .

(١٠) أغانى ٦/٣٣ .

(١١) أغانى ( دار الكتب ) ١٥/٦٠ .

(١٢) أغانى ٣/٣٤٦ .

(١٣) الجهشيارى ص ٢٩ .

وأخضر ، وقد قوِّمت بألفى ألف دينار[١]. ويُروَى أن الإصبهبذ فى طبرستان صالح يزيد بن المهلب فى بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتى ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْنس ، وعلى البرنس طيلسان وجام من فضة وسرقة (شُقّة) من حرير[٢]. ويُقال إن الجراح الحكمى واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقَراً يملؤها ذهباً وفضة ويوزِّعها على من يدخل عليه من أصحابه[٣] . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاة خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قوِّمت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسرى بألف ألف ، وكانت قصرين : قصراً من فضة وقصراً من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة[٤]. وكان الولاة بدَوْرهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُرْوى أن نصر بن سيار أعدَّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارهة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب[٥].

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضَّر العرب فى خراسان ، بل أُتْرفوا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاة يقول إن فَيْىء خراسان لا يفى بمطبخى[٦]! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطْعم عليها الناس[٧]. وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلانس القصيرة والطويلة[٨] ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير[٩] ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضطُرَّ بعض الولاة لتفشيه فى الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل[١٠] .

وفى كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفى كتاب الأغانى تراجم كثيرة لمن كانوا يُسْرفون على أنفسهم فى شراب الخمر لا فى خراسان فقط ، بل أيضاً

---

(١) الجهشيارى ص ٤٤ .
(٢) طبرى ٥/٢٩٥ .
(٣) بلاذرى ص ٤١٥ .
(٤) طبرى ٥/٤٦٥ .
(٥) طبرى ٥/٥٣٣ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٨١ وطبرى ٥/١٣٢ .
(٧) طبرى ٥/٢٨٨ .
(٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ، فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن سعد ٥/١٣٩ ، ٥/٣٩٢ ، ٦/٢٠٢ ، ٦/٢٥٥ .
(٩) طبرى ٥/٤٣٧ .
(١٠) طبرى ٥/٢٨٣ .

فى العراق وفى الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت فى المدينة طائفة من المخنّثين ، كانوا يتشبّهون بالنساء فى ثيابهن وعاداتهن من مثل تضفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحنّاء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنْزل بهم عقاباً صارماً(١).

وطبيعى أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهنّ فى قلوب الرجال ، فتفننّ فى زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين . ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حبّات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة : لقد كان النوم أحبّ إلىّ(٢). ويَرْوِى الأغانى أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته فى الحج فقال لها : ارفعى حوائجك واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدتْ فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألتْ عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألتْ عنه ، فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سَنَنِها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى (٣).

## ٥

### الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية فى هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلى وجدول إسلامى وجدول أجنبى . فأما الجدول الجاهلى فيبدو فى الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغانى ( دار الكتب ) ٢٧١/٤ وما بعدها.
(٢) أغانى ١٨٢/١١ .
(٣) أغانى ١٨٨/١١ .

أقبل العرب يعبُّون من هذا الجدول عبًا ، وكأنما صُفُّوا عليه صفوفا ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْد بن شَرِيَّة راوية الأخبار اليمنية، ودَغْفل بن حنظلة النسَّابة والنخَّار بن أوس العُذْرى وزيد بن الكيِّس النمَرى وشهاب بن مذعور وبنى الكَوَّاء وغيرهم كثيرون . وفى أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمى[1] :

وحكِّمْ دَغْفَلاً وارحلْ إليه ... ولا تَرِحِ المَطِيُّ من الكَلالِ
تعالَ إلى بنى الكَوَّاء يقضوا ... بِعِلْمِهِم بأنساب الرجال
هَلُمَّ إلى ابن مذعورٍ شِهابٍ ... يُنَبِّئُ بالسَّوافل والعوالى
وعند الكيِّس النَّمِرِىِّ علمٌ ... ولو أضحى بمُنْخَرَقِ الشَّمالِ

وأما الجدول الإسلامى فيبدو فى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم فى الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب على وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعْنَى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير فى اهتمامهما بمغازى الرسول ، وكان هناك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبِّه . وشعبة دينية تُعْنَى بقراءات القرآن وبالحديث النبوى وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد ألَّف أصحاب هذه الشعبة فى كل بلد إسلامى مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وعروة بن أُذَيْنَة والزُّهْرى وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعْبى وسعيد بن جُبَيْر وشُرَيْح بن الحارث القاضى وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصرى وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حَوْشب ومكحول والأوزاعى وبمصر الصابحى ويزيد بن عبد الله البزنى.

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥١ .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما . وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة[١] من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبدالصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلِّمين بالطائف. ومن هؤلاء المعلمين الكُمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة . وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرَّىِّ الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهدوه هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء[٢] » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبى جاء العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرَّفوا على تخطيط المدن وعمارة المبانى وطريقة استغلال الأرض وشق التُّرَع والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأولين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام . وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك . إذ عُرِّبت تلك الدواوين . وقد دفعتهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية . وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعْنَى بهذه الثقافة مدرسة جُنْدَيْسابور فى إيران ومدارس أخرى فى الرُّها ونَصيبين وأنطاكية وقِنَّسرين وحَرّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

---

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٢٢٣ .

فى هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، وممن اشتهر منهم فى هذا العصر «سويرس سيبوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوى وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعْنَوْنَ بالمنطق الأرسطاليسى والفلسفة اليونانية [١].

وطبيعى أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقى الذى كان يشرف على الشئون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثرون من جداله ؛ وله مصنفات مختلفة ، منها محاورة مع بعض المسلمين فى ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة [٢]. وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعند القوم من وجوه الاستدلال المنطقى ، حتى يستعينوا على دحض الشُّبَه ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغى أن نلاحظ أن كثيرين من حَمَلة هذه الثقافة الهيلينة المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلا هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُتَرْجَمَ ، فقد كان أهلها يعرِّبون تعريباً تامًّا ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك مايُرْوَى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومى يسمىماريانس ليعلمه الكيمياء [٣] ، كما استعان بأصطفن القديم ؛ ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء [٤] » ويذكر ابن النديم بعض كتبه فى ذلك [٥]. وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً فى الطب للقس أهْرَن بن أعين [٦] ، وقد ذكر الحكم بن

---

(١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » فى التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب ( مطول ) لفيليب حتى ( الطبعة العربية ) ٢/٣١٤ .

(٣) وفيات الأعيان ( طبعة ديسلان ) ١/٢٤٦ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) الفهرست لابن النديم ( طبعة القاهرة ) ص ٣٣٨ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١/١٦٣ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ وانظر نقولا عن ماسرجويه فى الحيوان ٣/٢٧٥ ، ٥/٣٦٤ .

عبدل الكوفى أهْرَن وطبّه فى بعض شعره[١]. ويُرْوَى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك تَرْجَم بعض رسائل لأرسطاليس[٢]. كما يُرْوَى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية.[٣]

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة فى عصر بنى أمية إنما هى رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يونانى ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسى كى يتم ، أو كى تتم دورته ، فقد كان كل شىء فى هذا العصر الأموى يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربى دُعم فى هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعْم نجد آثاره فى ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار فى كثرة المناظرات التى نشبت بين الآراء المختلفة فى السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجعْ إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدال فى كل مكان ، وجدالهم مع على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويُرْوَى أن عبد الملك بن مروان أُتى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طَلْق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجة وقرَّر فى قلبى من الحق[٤]. وهذا رجل من عامتهم فما بالنا بزعمائهم ، ويُشيد المبرد فى كتابه « الكامل » بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين[٥]، وقد جعلهم

---

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو المصرية) ص ٨١ .

(٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٥) الكامل ص ٥٦١ .

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْدية وصُفْرية وإباضية، وشكا زيد بن جُنْدب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال[١] :

كُنَّا أناساً على دينٍ ففرَّقنــا طولُ الجِدال وخلطُ الجِدِّ باللَّعِبِ
ما كان أغْنَى رجالا ضَلَّ سَعْيُهُمُ عن الجدال وأغناهم عن الخُطَبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التى عاصرتهم ، وممن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن على بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعى ، وقد تحول شاعره الكميت بأشعاره الملقَّبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة فى المذهب الزيدى تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلا فى مسائلهم الفقهية بين أيدى الخلفاء وفى مجالسهم العامة والخاصة ، وتُرْوَى من ذلك مناظرة[٢] بين قَتادة والزُّهْرى فى مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى[٣] بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويُرْوَى أن الشَّعْبى الكوفى كان يجلس فى مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه[٤]. وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أى اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّختيانى يقول: « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف[٥]» ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل فى آرائهم والتدقيق فى مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُّوا أهل الرأى لغلبة القياس على فقههم[٦].

وقد تجادلوا طويلا فى مسائل العقيدة، وسرعان ما أخذ علم الكلام فى الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجَبْرية والمُرْجِئة والمعتزلة، وكان من أهم المسائل التى أثيرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار فى أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ١/٤٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٩٨ .
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجبر مسيَّر ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصرى يدافعون عن الرأى الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيَّراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسَقط وَعْد الله ووعيده .

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجَبْر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر. وكان هذا المذهب يُرْضى الأمويين ، لأنه يَصْرف الناس عن التفكير فى ولايتهم وتدبيرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثَمّ نرى شعراءهم يردّدون هذه الفكرة طويلا على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان(١) :

اللهُ طوَّقك الخلافةَ والهُدَى والله ليس لما قَضَى تبديلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجئة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ، إذ المعوَّل فى الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جَلّ جلاله ، ومن ثَمّ رأوا إرجاء الحكم فى أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنتهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ فى نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب فى ثورته على الأمويين(٢). وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عَوْن بن عبدالله بن عتبة الهُذَلى ، وناظرَهم فى آرائهم(٣). ونرى عَوْناً يرجع من عنده ، فيبرأ منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك فى أبيات تُنْسَب إليه تجرى على هذا النمط (٤) :

وأولَ ما نفارقُ غير شَكٍّ نفارقُ ما يقول المُرْجئونـــا
وقالوا مؤمنٌ من أهل جَوْرٍ وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمنٌ دَمُهُ حلالٌ وقد حَرُمَتْ دماءُ المسلمينا

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٤٧٤ .
(٢) طبرى ٣٤٠/٥ .
(٣) ابن سعد ٢١٨/٦ .
(٤) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلُّون دماء المسلمين مما كان سبباً فى تعقب الأمويين لهم ، وقَتْلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغَيْلان(١) الدمشقى.

ولم يُعْرَفْ هذا المذهب فى العراق والشام فحسب، فقد كان له أنصار فى خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنة وهو من مُرْجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول فى تضاعيفها(٢) :

المسلمون على الإسلام كلُّهمُ  والمشركون أشَتُّوا دينهم قِدَدا(٣)
ولا أرى أن ذنبا بالغٌ أحدا  م الناس شِرْكا إذا ما وحَّدوا الصَّمَدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له  رَدٌّ وما يَقْضِ من شيء يكنْ رَشَدَا
كلُّ الخوارج مُخْطٍ فى مقالتهِ  ولو تعبَّد فيما قال واجتهدا
أمّا علىٌّ وعثمانٌ فإنهما  عبدان لم يُشْركا بالله مُذ عَبَدا

ويتوفَّى ثابت ، ويظهر هناك جَهْم بن صفوان أحد رءوس الإرجاء(٤) ويضع يده فى يد الحارث بن سُرَيج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقْضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التى انبثق عنها هذا المذهب هى مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصرى ومن تابعوه من القَدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالا عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسنُ عمرو بن عُبَيْد ليجادله فيه . فأقنعه واصل برأيه(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن، وسُمِّيا هما ومن

(١) انظر فى ترجمته لسان الميزان ٤/٤٢٤ والمعارف ص ٢٤٤ وفى هذين الكتابين أنه كان قدريا ولكن فى الفهرست ص١٧١ والملل والنحل (طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم فعداده فى مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٢) أغانى ١٤/٢٧٠ .

(٣) أشتوا : فرقوا . قددا : طرائق وفرقا .

(٤) انظر الملل والنحل ص٦٠ حيث يوضح كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية نبيناً بعض أصول مقالتها .

(٥) انظر فى ذلك أمالى المرتضى ١/١٦٥

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ، تَسْندهما فى ذلك دراسة مستفيضة لآى القرآن الكريم وعقلٌ دعماه بالمنطق وأدلته الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ؛ فازدهر الاعتزال وأصبح فى العصر العباسى الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

وإنما أطلنا فى هذا الجانب لندل على أن العقل العربى فى عصر بنى أمية أمدته روافد كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة فى أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين فى الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك مجادلة بين ذى الرُّمَّة ورُؤْبة فى القدر ، وكان أولهما قدريًّا وثانيهما جبريًّا[1] . وبتأثير هذه المجادلات تحوَّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالا عنيفاً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف فى نقائضهما ، وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل النِّحَل . وكلٌّ ذلك من آثار هذا التطور الذى أصاب العقل العربى ، والذى جعله يندفع فى البحث والمناظرة والتدرب على جَمْع البراهين والأدلة فى أى موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْت والطِّرِمَّاح يحشدون فى أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرُّجَّاز وعلى رأسهم العَجَّاج ورُؤْبة أن قدَّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

## الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب فى أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً فى حياة الإنسان ، وبالتالى فى كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذ أخذنا ننظر فى حياة الشعراء لهذا العصر وجدنا للاقتصاد أثره العميق فى اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩ .

الماذى الصريح فى مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف فى نجد وبيئات البوادى إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان يتنعم به سكان تلك المدن من ثراء عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادى من شظف العيش وخشونته ، ولا ننكر أثر الإسلام فى نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة الاقتصادى ومدى عمله فى النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح فى العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة فى الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من مديح ، يقول ذو الرُّمَّة[1] :

وما كان مالى من تُراثٍ وَرِثْتُـهُ ولا دِيَةٍ كانتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ
ولكنْ عطاءُ الله من كلِّ رحْلَـةٍ إلى كل محجوب السُّرادق خِضْرِمِ[2]

وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف مما أدى ، وخاصة فى أواخر العصر ، إلى ذيوع شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتعمق النزاع السياسى الحاد الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأيناه يعود فى كثير من جوانبه إلى بواعث اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التى جعل لها الأمويون معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أولياءه الصالحين ، ومضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً .

---

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجود .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاة بنى أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم فى جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين فى ذلك إلاًّ ولا ذمة ، فالمهلَّب مثلا حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم[١] ، بينما احتجن ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم[٢] ، ويقال إن راتب خالد القَسْرى فى ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفى لنفسه — بوسائل غير مشروعة — ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرجَ منه ومن موظفيه يوسفُ الثقفى حين ولِىَ بعده العراق سبعين ألف ألف[٣] . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبى أُناس يقول لحارثة بن بدر الغُدانى التميمى حين ولى على سُرَّق إحدى كور الأهواز[٤] :

أحارِ بنَ بَدْرٍ قد وليتَ إمــارةً ... فكن جُرَذًا فيها تخون وتَسْرقُ

وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمَّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة فى نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوِّر ذلك شكوى الراعى التى وجَّه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجدبة أصابت قومه بنى نُمَير . ومع ذلك فَرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبُّوا عليهم السِّياط وأرهقوهم من أمرهم عُسْرا ، ومن قوله فى تلك الشكوى المريرة[٥] :

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشَرٌ ... حُنَفَــاءُ نسجدُ بكْرَةً وأصيلا

إن السُّعَاة عصوكَ يوم أمرتَهم ... وأتوا دواهىَ لو علمت وغُولا

فادْفَعْ مظالمَ عيَّلتْ أبناءنا ... عنا وأنْقِذْ شِلْوَنا المأكولا[٦]

(١) طبرى ٥/١٣٥ .

(٢) طبرى ٥/٣٠٣ وانظر ٥/٣١٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢/٥٥ ، ٣٨٨ .

(٤) الحيوان ٣/١١٦ والشعر والشعراء ٢/٧١٥ .

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيلت : أفقرت . الشلو : العضو .

وإذا كان هذا يحدث فى نجد والبوادى فما كان يحدث فى العراق وخراسان أدهى وأمرّ ، فقد مضى الولاة وجُباة الخراج يعتصرون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقا والنفوس سخطا ووَجْدا ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة فى الحكم لا فى عهد بنى أمية فحسب ، بل أيضاً فى عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همّام السَّلولى وجّه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عُمّاله فى العراق ومن أقامهم هنالك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بنَ الزُّبير أميرَ المؤمنين ألم   يبلغك ما فعل العُمّال بالعمل
باعوا التُّجارَ طعامَ الأرض واقتسموا   صُلْبَ الخراج شِحاحاً قسمةَ النَّفَل (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لحيا نتهم فى الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحمِّلين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وَلِيَ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطِّ الجزية عمن أسلموا من الموالى . وبعث على العراق وخراسان عُمّالا جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثتَ فى أقْطارها   نبذوا كتابَك واستُحِلَّ المَحْرَمُ
طُلْسُ الثياب على منابر أرضنا   كلٌّ يجورُ وكلُّهم يتظلَّم (٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يَليك فإنما   عُمّال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذى تدعو له   حتى تجلَّد بالسيوف رقابُ

---

(١) أنساب الأشراف ٥/١٩١ وما بعدها .
(٢) النفل : غنائم الحروب .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .
(٤) طلس : غبر ، وهو يكنى بغبرة الثياب عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم حقه : يظلمه إياه .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

ويُتوفّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان فى العقد الثانى من القرن الثانى مطالباً برفع الجزية عمن أسلموا من الموالى ، ويتولّى هناك نصر بن سيار فى العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالى مثبّتا للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالى ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يَرْعون لهم أخوتهم فى الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلا قويّا على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث فى أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالى السّواد فى العراق إلى البصرة والكوفة، فأمر بردّهم إلى قُراهم ونَقْش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها [1] وظاهر الحادث عنف شديد فى الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضُطرّ إلى ذلك لتعطل الزراعة فى السواد وبالتالى تعطل الخراج الذى كان يُنفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التى كانت مفروضة على مسلمى الموالى ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرَّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح فى إنكارها إلحاحا حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصْلا فى العقد الفريد ، صوّر فيه العرب يسيئون فى المعاملة إلى الموالى لعصر بنى أمية إساءة بالغة [2] . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق فى الكوفة والبصرة نَبُهَ شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف [3] . أما ما يلاحظه ڤلهوزن من أنهم كانوا يحاربون فى جيش المختار رجالة لا فُرْسانا [4] فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد فى خراسان مثل حُرَيْث بن قُطْبة وأخيه ثابت وحيّان النبطى وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبرى ٥/١٨٢ وتاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٣/٤٠٣ وما بعدها .

(٣) المحبر ص ٣٤٠ .

(٤) تاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسْتَغَلّ فى البصرة . فهم لم يكونوا فى مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله[١] بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة[٢] ابن سنان مولى بنى مسمع وكثير[٣] بن سيار مولى بنى سعد ومسلم[٤] بن المسيب مولى بنى بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده فى إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قُضاعة كما يفتخر بالموالى ذاكراً أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول[٥] :

أنا ابنُ الثَّرَى أدعو قُضاعة ناصرى　　　وآل نزارٍ ما أعزَّ وأكثرا[٦]

وأبناء إسحاق الليوثَ إذا ارتدوا　　　مَحامل موتٍ لابسين السَّنَوَّرا[٧]

فيوما سرابيلُ الحديد عليهمُ　　　ويوما ترى خَزًّا وعَصْباً مُنَيَّرا[٨]

إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهمُ　　　وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا[٩]

ويصرّح بأن الموالى أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحٰقَ يجمع بيننـا　　　أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مُطَهَّرَا

ولا تهمنا صحة الأسطورة التى ردّدها جرير فى هذه الأبيات ، والتى تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالى شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص ٢ .

(٢) الديوان ص ١٠٦ .

(٣) الديوان ص ٢٨٧ .

(٤) الديوان ص ٨٨٧ .

(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٢٤٢ .

(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم عدد الثرى .

(٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك الفرس .

(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله أهداب ووشى .

(٩) الصبهبذ : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً فى نفس القصيدة ينوّه بمولى من البربر يسمى وضّاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعْلَماً فأَورث مجدا باقيا أهلَ بَرْبَرَا

والحق أن العرب اندمجوا فى الموالى منذ الأيام الأولى فى الفتوح . فقد ساكنوهم وتزوجوا منهم ؛ وعرّبوهم عن طريق نظام الولاء الذى شرعه الإسلام . إذ أدخلوهم فى عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلْغوا جنسياتهم إلغاء ، فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك فى عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظْمَ الشعر وجدناهم يقفون فى صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح أبنائها الأصيلين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول[1] ؛ ومثله هرون[2] مولى الأزْد وسَرْوان[3] مولى بنى عُذْرة وشُقْران[4] مولى بنى سَلامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس التعصب ، فإذا جَنَى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به فى السجن لم يقر قرار لقبيلته حتى تُرَدَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من ابن مفرِّغ حين زَجَّ به عبَّاد بن زياد فى سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند الخليفة وتتوسّل حتى أمر بإطلاق سراحه[5] .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ، أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائى شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس[6] فإنه يعد شذوذا فى العصر ؛ وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التى كان يفتخر فيها كل عربى بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولا الغضَّ من القبائل التى تعاديها ، وكأن ذلك نبَّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسى ، وقد لقى جزاءه عند هشام بن عبد الملك ؛ فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يفخر بأصله الفارسى .

(١) أغانى ( دار الكتب ) ١٣/٨٩ ، ١٥/٣٨٠ وما بعدها .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبى) ٧/٧٥ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٠٩ .
(٤) نفس المصدر ١/١٠٨ وأغانى (دار الكتب) ٢/٣٠٨ .
(٥) الشعر والشعراء ١/٣٢٢ .
(٦) انظر ترجمته فى أغانى دار الكتب ٤/٤١١ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم فى هذا العصر ، وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعوبية فى عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر فى هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً عنيفاً[١]. ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل ابن ميّادة[٢] ، ومثل أبى نُخَيْلة الذى يقول[٣] :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجمْ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعمْ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض فى هذا العصر[٤] ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولاتها من العرب ، ولكنها فسحت للموالى فى شئون الخراج وفى الدواوين حتى بعد أن تُرْجمت وعُرِّبت ، على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى لهذا العصر وأنها كانت تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها من وعظ وإمامة للمسلمين فى المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبزّونهم ، حتى لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله أن الموالى شاركوا فى الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا يُعَدّون فعلا عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجروا آدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبّرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة القرآن الكريم التى ملكت أزمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

---

(١) أغانى ٣/١٣٩ والديوان ١/٣١٦ ، ٢/٨ ، ٣/٢٥٠ .

(٢) أغانى ٢/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢٢٥ والشعر والشعراء ٢/٥٨٣ .

(٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفى مواضع متفرقة .

# الفصل الثالث

# شعراء المديح والهجاء

## ١

### شعراء المديح

تعوَّد العرب منذ العصر الجاهلى أن ينوِّهوا فى أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملا إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنَّة فى الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى لترى مصداق ذلك واضحا ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين فى الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم مَنْ لم يتعلق الشعراء بمديحه ونَشْر ورود الثناء فى طريقه .

وأولُ من يلقانا من الولاة البارزين فى العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة[1] بن بدر الغُدانى التميمى ومسكين[2] الدارمى ، وقد شُغف عبد الله بن الزَّبير الأسدى بمدح ابنه عبيد الله[3] . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولِّى عليه أخاه مصعبا ، وكان جوادا سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى[4] هَمْدان وُدكَيْن الفُقَيمى[5] . ويدخل العراق فى طاعة عبد الملك بن مروان فيولِّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين[6] ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشرا ، وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدَّحا ، مدحه جرير والفرزدق والأخطل

---

(١) أغانى ( ساسى ) ٢١/١٩ وطبرى ٤/١٦٨ والمبرد ص ١٧٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ .

(٤) أغانى ٦/٣٣ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .

(٥) معجم الأدباء ( طبع مصر ) ١١/١١٦ .

(٦) المحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ حيث يذكر أنه وزع على الناس فى يوم واحد ألف ألف .

وكثيِّر وأعشى بنى شيبان[١] ، كما مدحه نصيب[٢] والأقيشر[٣] الأسدى وأيمن[٤] بن خُرَيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفى ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابه من مثل جرير والفرزدق وأعشى[٥] بنى شيبان وحُمَيد[٦] الأرقط وليلى[٧] الأخيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون فى يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفرخ العِجْلىّ فيه[٨] :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه ... لكلِّ إمــامٍ مُصْطَفًى وخليلُ
بَنَى قُبَّةَ الإسلام حتى كأنّما ... هدَى الناسَ من بعد الضلال رسولُ

ولعل من الطريف أن تجد محمد بن عبد الله النميرى الثقفى[٩] يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلا كثيراً يعلوه موجدة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلا بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب . وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور فى عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو نُخَيْلة[١٠] وأعشى[١١] تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، وللفرزدق

---

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ .
(٣) أغانى ١١/٢٧٠ .
(٤) انظر ترجمة أيمن فى الشعر والشعراء ١/٥٢٦ والأغانى (طبع ساسى) ٢١/٢٥ والإصابة ١/٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧ والموشح ص ٢٢١ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٦ .
(٦) طبرى ٥/١٩٠ وانظر ترجمته فى معجم الأدباء ١١/١٣ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٩١ وانظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ٢٠/١١ والشعر والشعراء ١/٣٧٥ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٤ والخزانة ٢/٣٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ٦/١٩٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٤٢ .
(١٠) انظر الأغانى (ساسى) ١٨/١٤٠ .
(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٠ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١١/١٢٢ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح [١] ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ؛ ومثلها مدائحه فى خالد القسرى الذى ولى بعده [٢] ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . وممن مدحوا خالدا القسرى جرير [٣] ، وأبو الشَّغب وفيه يقول حين عُزل وسجن : [٤]

فإن تسجنوا القَسْرِىَّ لا تسجنوا اسمه ... ولا تسجنوا معروفه فى القبائلِ

وكان الذى وَلِىَ العراق بعده يوسف الثقفى . ونرى الكميت يمدحه تقية وخوفاً من بطشه [٥] . وآخر ولاة هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جوادا معْطاء ، وهو ممدوح أبى عطاء [٦] السِّنْدى وبشار [٧] بن بُرْد وخلف [٨] بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء فى العراق هؤلاء الولاة وحدهم ؛ فقد كانوا يمدحون أيضاً نُوَّابهم وأصحاب شُرْطتهم وعمالهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق [٩] وجرير [١٠] ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق [١١] ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة ؛ وهو ممدوح ذى الرمة [١٢] والفرزدق [١٣] وحمزة [١٤] بن بيض . وكان منقطعاً إليه ؛ ومثل أبان بن الوليد البجلى صاحب الخراج فى عهد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق [١٥] . ومثل قطَن بن مدركة الكلابى والى البحرين . وقد خصه الفرزدق

---

(١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ ، ٥٧٩ .

(٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .

(٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ .

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .

(٥) أغانى (ساسى) ١٥/١١٦ .

(٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ .

(٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ .

(٨) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ .

(٩) الديوان ص ٢٣ .

(١٠) أغانى (دار الكتب) ٨/١٣ وما بعدها .

(١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ .

(١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨ والمبرد ص ٢٥٩ .

(١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ .

(١٤) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٤ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ وراجع فهارس البيان والتبيين والحيوان .

(١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائحه[١] ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً ممدَّحا ، ومن مدَّاحه جرير[٢] وأبو نُخَيْلة[٣] وذو الرمة[٤]. ومن ولاة فارس الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر ، وله أحاديث كثيرة فى جوده[٥] وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم[٦] وأبو حُزابة[٧] ومن ولاة الرَّىّ الممدَّحين خالد بن عتَّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همْدان[٨] .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيْلا ، وهم بدورهم ينثرون عليهم رياحين مديحهم نثرا . ولعل أسرة لم تحظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى الذى قضى على الأزارقة فى فارس ، ثمّ ولىّ للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفّى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق. ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه فى أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه : غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أحْوز المازنى .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم فى عصر بنى أمية مقام أسرة البرامكة فى عصر بنى العباس ، إذ كان أفرادها بحورا فياضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلا فى خراسان والعراق جميعاً . ويُؤْثَر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه[٩] » ونرى الشعراء مصطفين

---

(١) الديوان ص ٧٠٠ .
(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ وما بعدها .
(٤) انظر فهرس ديوانه .
(٥) المحبر ص ١٥١ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٧٩، ٣٨٥ .
(٧) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة ساسى) ١٩/١٥٢ .
(٨) أغانى ( دار الكتب ) ٦/٥٦ .
(٩) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفى مقدمتهم كعب[١] الأشقرى وزياد[٢] الأعجم وحمزة[٣] بن بيض والمغيرة[٤] بن حَبَنْناء التميمى ونهار[٥] بن توسعة، وله يرثيه حين توفى بمَرْو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقرِّب للغِنى ... ومات النَّدَى والحزم بعد المهلَّبِ
أقاما بمَروِ الرُّوذ رهنَ ضريحهِ ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومغربِ

وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونَـوالا غَـمْرا ، وتوفِّى قبله بقليل ، فبكاه الشعراء طويلا على شاكلة قول زياد الأعجم فى مرثية بديعة له[٦] :

إن السماحةَ والمروءة ضُمِّنـا ... قَبْرًا بمَرْوَ على الطريق الواضحِ

ولا يكاد يوجد شاعر فى العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه به تنويهاً بعيداً ، ومن مُدّاحه الفرزدق[٧] ونهار[٨] بن توسعة وحمزة[٩] بن بيض وحاجب[١٠] الفيل والعُدَيْل بن الفرخ العِجْلىّ وفيه يقول[١١] :

يَداه :يَدٌ بالعُرْف تَنهب ماحَوَتْ ... وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنة لا يفارقان مجلسه[١٢]، وفيه يقول ثابت حين خذله أهل العراق فى ثورته على بنى أمية وفرّ واعنه ، فقُتل قَعْصاً بالرماح[١٣] :

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلك لم يكن ... عارًا عليك وبعضُ قَتْلٍ عارُ

---

(١) طبرى ٥/٢٣ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى ( دار الكتب ) ١٤/١٨٧ وما بعدها .
(٢) أغانى ( دار الكتب ) ١٥/٣٨٢ وما بعدها .
(٣) أغانى ( ساسى ) ١٥/٢٤ .
(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ وأغانى ( دار الكتب ) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر تميم فى عصره .
(٥) انظر فى ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ٢/١٩٨ وفهرس الطبرى والأغانى .
(٦) ذيل الأمالى ص ١٠ وأغانى ( دار الكتب ) ١٥/٣٨١ .
(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .
(٨) الشعر والشعراء ١/٥٢٢ .
(٩) أغانى ( ساسى ) ١٥/١٨ .
(١٠) أغانى ( دار الكتب ) ١٤/٢٦٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ وفهارس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ٢/١٠٥ .
(١١) أغانى ( ساسى ) ٢٠/١٣ .
(١٢) أغانى ( دار الكتب ) ١٤/٢٦٦ .
(١٣) أغانى ١٤/٢٧٩

وكان أخوه المفضل ممدَّحا وممن أشادوا به كعب[١] الأشقرى وثابت[٢] قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة[٣] بن بيض والكميت[٤]. وفى المهالبة وكرمهم الفياض يقولُ بُكَيْر بن الأخْنَس[٥] :

نزلتُ على آل المهلَّب شاتيا     فقيرًا بعيدَ الدار فى سنةٍ مَحْل[٦]
فما زال بى إلطافُهم وافتقــادهم     وإكرامُهم حتى حسبتهمُ أهلى[٧]

ومن ولاة خراسان الممدَّحين قتيبة بن مسلم الذى وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبنى أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنَّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة[٨] بن حَبَنْاء وكعب[٩] الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول[١٠] :

وما كان مذ كُنَّا ولا كان قبلنا     ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمِ
أعمَّ لأهل الشِّرك قَتْلاً بسيفه     وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغنم

ووليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجرّاحُ بن عبد الله الحكميّ ممدوح الفرزدق[١١]. ومن الأجواد الممدَّحين الذين ولوها لخالد القسرى الجُنَيْد بن عبد الرحمن المرّى ممدوح جرير[١٢]، وأسد القسرى وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

(١) طبرى ٥/١٩٤ .
(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغانى ٢٧٥/١٤ .
(٣) أغانى ( ساسى ) ١٩/١٥ .
(٤) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢٣٣/٣ .
(٦) محل : مجدبة .
(٧) الافتقاد : طلب الشىء عند غيبته كناية عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .
(٨) طبرى ٥/٢٤٠ .
(٩) طبرى ٥/٢٤٧ وأغانى ( دار الكتب ) ٢٩٩/١٤ .
(١٠) أمالى القالى ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء ٥٢٢/١ .
(١١) الديوان ص ٢٢٨ .
(١٢) الديوان ص ٥١ .

به الفرزدق طويلا[١] . وولها ليوسف بن عمر الثقفى نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغوارا وغيثاً مدراراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، وممن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق[٢] وثابت[٣] قُطْنة ومن مُدَّاحه فى ولايته أبو عطاء[٤] السِّنْدى . ومن قُوَّاد الجيوش فى خراسان هلال بن أحْوز المازنى الذى أبلى فى حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَهْم بن صفوان متكلم المرجئة فى ثورتهم بخراسان ، وممن أشادوا به طويلا الفرزدق[٥] وجرير.[٦]

ويلقانا فى سِجِسْتان من الممدَّحين عبدالله بن الحَشْرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم[٧] :

إن السَّماحة والشجاعة والنَّدَى     فى قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزاعى الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة فى عصره غير مدافَع ، وممن مدحوه أبو حُزابة[٨] وعُوَيْف[٩] القوافى والمغيرة[١٠] بن حَبْناء ، ونوَّه به ابن قيس الرقيات طويلا حتى إذا توفِّى رثاه بقصيدة بديعة[١١] ومنهم عبيد الله بن أبى بكرة ممدوح الفرزدق[١٢] وابن مفرِّغ[١٣] ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبى جِلدة اليشكرى ، وفيه يقول حين وافاه الموت[١٤] :

كنت الشهابَ الذى يُرْمَى العدوُّ به     والبحرَ منه سِجالَ الجود نغترفُ

ومن ولاة الحجاز الممدَّحين سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وكان يَتَنحر

---

(١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ .
(٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ .
(٣) طبرى ٥/٣٩٩ .
(٤) أغانى ( ساسى ) ١٦/٨١ .
(٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ .
(٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ .
(٧) أغانى ( دار الكتب ) ١٢/٢٢ .
(٨) أغانى ( ساسى ) ١٩/١٥٣ :
(٩) انظر فى ترجمة عويف أغانى ( ساسى ) ١٧/١٠٥ والخزانة ٣/٨٧ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ .
(١٠) أغانى ( دار الكتب ) ١٣/٨٥ .
(١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد يوسف نجم ( طبع بيروت ) ص ٢٠ .
(١٢) الديوان ص ٥٧ .
(١٣) أغانى ( ساسى ) ١٦/٧٠ وما بعدها .
(١٤) أغانى ( دار الكتب ) ١١/٣١٣ .

فى كل يوم جـَزوراً يطعمه الناس[١] ، وممن نوهوا به الحُطـَيئة[٢] والفرزدق[٣] .
وكان ابن الأزرق المخزومى والى ابن الزبير على اليمن جوادا معطاء ، وهو ممدوح أبى دَهْبل[٤] الجمحى . ولعل واليا لم يُمـْدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان فى ولايته على مصر ، وكان بحراً سيالا من بحور العرب ، ومن مدّاحه نُصـَيـْب[٥] وابن قيس[٦] الرقيات وكثيّر[٧] وعبد الله[٨] بن الحجاج والأحوص[٩] وأيمن[١٠] بن خـُرَيم وأمية[١١] بن أبى عائذ . ومن ولاتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الحَزين[١٢] الكنانى .

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد ، وفى مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عـَبـْدل[١٣] ، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامى[١٤] ، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عـُوَيف[١٥] القوافى ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير[١٦] ، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامى[١٧] وأعشى شيبان[١٨] ، وعكرمة بن رِبْعِىّ الفياض ممدوح الأخطل[١٩] والعُديـْل[٢٠] بن الفرخ العجلى ، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق[٢١] وأبى الأسود[٢٢] الدؤلى ، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر[٢٣] الأسدى . ومالك بن مسمع ممدوح العُديـْل[٢٤] ، وكانت قبائل ربيعة فى البصرة تجتمع عليه

---

(١) المحبر لابن حبيب ص ١١٥
(٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، ١٠١ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨ .
(٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ .
(٤) المحبر ص ١٥٢ .
(٥) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وما بعدها .
(٦) أغانى ٥/٨٧ .
(٧) البيان والتبيين ٣/١٢ وأغانى (دار الكتب) ٩/٣٣ .
(٨) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/١٥٨ والبيان والتبيين ١/٣٩٠ .
(٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ .
(١٠) أغانى (ساسى) ٢١/٧ .
(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٥ .
(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٢٣ .
(١٣) أغانى ٢/٤٢٥ .
(١٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٩ .
(١٥) أغانى (ساسى) ١٧/١١٧ .
(١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ .
(١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ .
(١٨) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٧ .
(١٩) ابن سلام ص ٤١٧ .
(٢٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٨ .
(٢١) الديوان ص ٢٢٠ .
(٢٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٣٣١ .
(٢٣) أغانى ١١/٢٥٥ .
(٢٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٧ ، ١٩ .

فى الإسلام اجتماعها على كُليب فى الجاهلية . وممن كان لا يبارَى فى جوده عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وله فى كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدّاحه ابن[1] قيس الرقيات. وكان يجرى على مثاله فى الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل[2] بن يسار النسائى ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى[3] شهوات ، وفيه يقول[4] :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثَّنَا ... ويرى فى بَيْعه أن قد غَبَنْ

وهو إنْ أعطى عطاءً فاضلا ... ذا إخاءٍ لم يكدِّره بِمَنْ

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ممدوح الحزين[5] الكنانى . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامى من الجزيرة وكعباً الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

## نُصَيْب[6]

شاعر حجازى نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه كثيراً على شاكلة قوله فى بعض شعره :

فإن يَكُ من لوْنى السَّوادُ فإننى ... لكالمسْك لا يَرْوَى من المسْكِ ذائقُهْ

وكان مُسْتَرقًّا لرجل من كنانة من أهل وَدّان بالقرب من مكة، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاه ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فردّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسه . فدبّج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

---

(١) اغانى (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .
(٢) أغانى ٤٠٨/٤ .
(٣) انظر ترجمة موسى شهوات فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء ٥٥٨/٢ والخزانة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٨٦ .
(٤) أغانى ٢٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ .
(٥) المحبر ص ١٥٢ .
(٦) انظر فى ترجمة نصيب أغانى (دار الكتب) ٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء ٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩ وشواهد العينى ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ .

فبشِّرْ أَهلَ مصرَ فقد أتاهم مع النِّيل الذى فى مصرَ نِيلُ
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلى ويفعل فوق أحسنِ ما يقول[1]

وقوله :

لعبد العزيز على قـومِهِ وغيرِهمُ مِنَنٌ غامره
فبابك أسهلُ أبوابهم ودارك مأهولةٌ عامره
وكفُّك حين ترى السائلـ ين أَنْدَى من الليلة الماطره

ومازال مع عبد العزيز حتى توفى سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حارًّا ، وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قِفُوا خبِّرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ
فعاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[2]

وله مدائح فى يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى أوائل القرن الثانى ، وله مدائح فى بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام المخزومى والى مكة وعبد الواحد النصرى والى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بثيابه وطيبه ، وكان كبير النفس ، فلم يتورط فى هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقى طاهر ، وهو لذلك يُسْلَكُ فى العذريين .

## القطامى [3]

لقبٌ غَلَبَ على عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبى ، وهو من بنى الفَدَوْكَس عشيرة الأخطل ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانيا ، غير أنه فيما يظهر دخل فى الإسلام . وقد اشترك فى الحروب التى نشبت بين قبيلته تغلب وقيس فى أثناء فتنة ابن الزبير ،

(١) ليلى : أم عبد العزيز بن مروان وهى بنت زبان بن الأصبغ الكلبية .

(٢) عاجوا : وقفوا .

(٣) راجع فى ترجمة القطامى أغانى ( ساسى ) ٢٠/١١٨ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء ٢/٧٠١ والخزانة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧ ومعاهد التنصيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد نشر ديوانه فى ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

وأسرَه أحد القيسيين فى يوم ماكَسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه افتكّه من الأسر ، وردّ عليه ما سُلب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوّه به وبصنيعه معه طويلا ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثَوِىٍّ  فقد أحسنتَ ، يا زُفَرُ ، المتاعا (١)
أأكفرُ بعد رَدِّ المــوت عنّى  وبعد عَطائك المائةَ الرِّتاعا (٢)
ولم أر مُنْعمين أقلَّ مَنًّــا  وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا (٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ  أبتْ أخلاقهم إلا اتساعا (٤)

وفى هذه القصيدة يتأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينهما من صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووَقْف هذه الحروب المُبيرة التى لا تتوقف رَحاها حينا إلا لتعود أشد التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنْك أن حِبال قيس  وتغلبَ قد تباينتِ انقطاعا
وكُنَّا كالحريق أصاب غاباً  فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمورٌ لو تدبَّرها حليمٌ  إذَنْ لنَهَى وهيَّب ما استطاعا

ووفدَ على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد(٥) بن سليمان سيُبرِّك إن مدحته ، فمدحه ، وأضفى عليه كثيراً من بِرِّه ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ  وإن بَليتَ وإن طالتْ بك الطِّيَلُ (٦)

---

(١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .
(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجحدها . الرتاع : جمع راتعة .
(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمنون بما يصنعون .
(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بنى عامر ابن صعصعة ، و يريد باتساع الخلق الكرم وغيره من الشيم الفاضلة .
(٥) انظر فى تحقيق نسب هذا الممدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الخزانة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامى فى الأغانى وبالقصيدة الأولى فى الديوان .
(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمنها نظرات فى الحياة وفى الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب فى ذلك من ذوق المتنبى فى مدائحه كما نرى فى مثل قوله :

والعيشُ لا عيش إلا ما تَقَرُّ بهِ    عَيْنٌ ، ولا حالَ إلا سوف تنتقلُ
والناسُ من يَلْقَ خيرًا قائلون له    ما يَشْتهى ولأُمِّ المخطىء الهَبَلُ
قد يُدْرِك المتأنى بعضَ حاجتهِ    وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

ويشيد فى القصيدة بقريش ونُصْرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام ، يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتوا الإسلام وامتنعوا    قومُ الرسول الذى ما بعده رُسُلُ

وممن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزارى ، وله فيه أمداحٌ رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ    فلا هطلتْ على الأَرض السماءُ
ولا رجع البريد بغُنْمِ خيرٍ    ولا حملتْ على الطُّهْر النِّساءُ

ومن أهم ما يميزه فى شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفّى فى أوائل القرن الثانى للهجرة .

## كعب[1] بن معدان الأشقرى الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا فى المديح ، وهو فارس شجاع له آثار فى حروب المهلّب للأزارقة فى فارس وللترك فى خراسان . وله فى المهلّب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة فى حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة . وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبرى ثلاثة وثمانين بيتاً[2] وهو فى شعره يحسن حَوْك اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

---

(١) انظر فى ترجمة كعب الأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٩٧ وما بعدها ومعجم المرزبانى ص ٢٣٦ وراجع الجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

(٢) طبرى ٥/١٢٢ .

برَاك الله حين بَراك بَحْرًا ... وفجَّر منك أنهارًا غِزارا[١]
بنوك السابقون إلى المعالى ... إذا ما أعظمَ الناسُ الخِطارا[٢]
كأنهمُ نجومٌ حول بَدْرٍ ... درارىٌّ تكمَّل فاستدارا[٣]
ملوكٌ ينزلون بكل ثَغْرٍ ... إذا ما الهامُ يوم الرَّوْع طارا[٤]
رِزانٌ فى الأُمور ترى عليهم ... من الشَّيْخِ الشَّمائلَ والنَّجارا[٥]
نجومٌ يُهْتَدَى بهمُ إذا ما ... أخو الظَّلماء فى الغمرات جارا

وتوفِّى المهلب : فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع التّرك وبرّه ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَداك إحداهما تَسْقى العدوَّ بها ... سُمًّا وأُخرى نَداها لم يزل دِيَمَا

ولما عُزِل يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلى وانتصر على التّرك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به وبانتصاراته بمثل قوله[٦] :

دوَّخ السُّغْدَ بالكتائب حتى ... ترك السُّغْدَ بالعَراءِ قعودا
فوليــدٌ يبكِى لفقد أبيهِ ... وأَبٌ موجَعٌ يبكّى الوليــدا

وجرّه ذلك إلى التخلص من عصبيته لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ؛ ويقال إنه نال منه وثلبه . وكان قبل هذه الفترة من حياته يستشعر عصبية حادة للأزد ، وهى عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريراً مع شعراء قبيلة عبد القيس وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة سبباً فى غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولى العراق وخراسان لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُمان ، وظلّ بها إلى أن ثار يزيد على الأمويين سنة ١٠٢ فأتبعه من قتله .

---

(١) براك : خلقك .
(٢) الخطار : المراهنة .
(٣) نجوم درارى : مضيئة .
(٤) الهام : الرءوس ، يوم الروع : يوم الحرب والخوف .
(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ المهلب . الشمائل : الطباع . النجار : الأصل والحسب .
(٦) طبرى ٥/٤٤٢ والسغد : جنس من الترك .

## زياد(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحْسن فنّ المديح إحساناً رائعاً ، وممن ظلّ يمدحهم طويلا عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فمَا تأبّى وأعطى فوق مُنْيتنا وزادا

وأحسنَ ثم أحسن ثم عُدْنا فأحسن ثم عُدْتُ له فعادا

أخٌ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلاّت بسّاماً جوادا

ويُرْوَى أن ابن معْمَر عدّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت ألفا . وما زال يلزمه حتى توفّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن الحشرج والى سجستان ، وتوفّى فرثاه رثاء حارًّا ، تمثلنا فيما سلف ببيت منه ، وحَدَّث أن مدح المهلّب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبناء ، فأمر لهم بجوائز ، وفضّل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنته فى قوله :

فَتًى زاده السُّلطان فى الخير رفعةً إذا غَيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلِ

إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيناً والطاء تاء ، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاظ صنيع المهلب بزياد المغيرةَ بن حَبْناء وكعباً ، وانتَدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلا . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق عليه فى عدة قصائد يقول فى إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيِّلة خَيْرُهــا شَرُّها وأصدقُها الكاذبُ الآثِمُ

وضيفهمُ وَسْط أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائمُ

وهاجى قتادة بن مغرِّب اليَشْكرى . وفى قبيلته هو الآخر يقول :

ويَشْكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تَغْدرا

(١) انظر فى ترجمة زياد أغانى ( دار الكتب ) ١٥/٣٨٠ وابن سلام ص ٥٥٧ والشعر والشعراء ١/٣٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٢١ والخزانة ٤/١٩٣ والاشتقاق ص٣٣٣ وراجع أغانى ( دار الكتب ) ١٣/٨٩ وما بعدها وذيل الأمالى ص ١٠ والجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

وكان مُغْرًى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق همّ بهجائه حين رآه يُكثر من هجاء المغيرة بن حَبْناء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لى إن هجوته مصَحًّا أراه فى أديم الفرزدقِ
وإنا وما تُهْدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَ فى البحر يَغْرَقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفّ عنه . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفّى فى حدود المائة الأولى للهجرة .

## ٢

### شعراء الهجاء

احتدم الهجاء فى هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبيات القبلية التى اشتعلت — كما مرّ بنا — نيرانُها فى كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبيات وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلا أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الرِّدَّة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يُرْوَى عن أبى شجرة السُّلمى وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش. وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرما على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين علىّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من اليمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان فى قيادة حربه بموقعة الجمَل ، كما تتنافسان فى موقعة صِفّين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه فى الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصواتٌ مضَرِيّة كثيرة . وحدث هذا نفسه فى صفوف خصومه ، مما نجد آثاره فى الطبرى وفى

وقعة صِفّين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علىٌّ أن يُعْلى كلمة الإسلام الذى حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبيات ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة فى جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت فى تولّى قريش تدبير الأمور فى الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان. وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشَهرت سيوفها فى وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة.

ومما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قويًّا من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبيلة ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية فى الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحيى قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التى كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهى التى تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد فى استشعار العصبية فى صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنائلة بنت الفُرافِصة . وتزوج معاوية من مَيْسون بنت بَحْدل ، وهى أم ابنه يزيد، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلى بنت زَبّان بن الأصبغ الكلبية ، وهى ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية فى حربه لعلى ذلك ، لأن الصِّهْر عند العرب كالنسب ، ووسَّع استغلاله ، إذ ضمَّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرى فى أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفِّى يزيد وجدنا العصبية تَستعر بين القبائل فى الشام والجزيرة وفى البصرة وخراسان . أما فى الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها فى أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفى ثانيتهما بتغلب الرَّبَعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيسٌ ابنَ الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروانَ بن الحكم ، وسلّ الطرفان سيوفهما فى معارك حامية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم فى الجاهلية ويهجون .

وفى نفس الوقت نجد الحِلْفين الكبيرين فى البصرة :حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمنية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حادًّا . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع كيف اصطدم الحِلْفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمرَ الأحنفُ بن قيس فرتَقَ الفَتْق . وقد ظلت نفوس الحلفين تَغْلى طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلى حتّى لنجد أبا نُخيلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حروب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخراً بانتصارهم على شاكلة قوله [1] :

نحن ضربنا الأَزْدَ بالعـراقِ والحيَّ من ربيعـةَ المُرَّاقِ

ضربًا يُقيم صَعَرَ الأَعنـاقِ بغير أَطمـاعٍ ولا أَرْزاقِ [2]

إلاَّ بقايا كرم الأَعْراقِ

ولم تحتدم العصبيات القبلية فى البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعى ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُنْد البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعيا أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولِّى عماله وقواده من قبيلته وأَحلافها ، فإذا تولَّى المهالبة مثلا قدَّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيسٌ وتميم ، وإذا تولى قتيبة بن مسلم الباهلى مثلا رفعتْ قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل فى الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحنت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً فى اكتنازها ، واقرأْ فى أى شاعر ممن عاشوا هناك وترْجمَ له صاحب الأغانى فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من مواليها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية عن الكبر والغطرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدى ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبْناء التميمى وقتادة بن مغرِّب اليشكرى وابن عمه أبا جِلدة[١]. وقد يرتفع صوت فى أثناء هذا الضجيج با عتزال هذه الحرب اللسانية وما تَطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نَهار بن تَوْسعة[٢]:

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا هتفــوا ببكر أو تميمِ

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع فى غمار هذه العصبيات التى استعلى سلطانها فى العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة فى جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شُغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميت بن زيد الأسدى يثير معركة حامية مع حَكيم[٣] بن عياش الكلبى وهرون[٤] مولى الأزد ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت فى خراسان والبصرة . وإذا ولَّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموى هجاء مريراً[٥] ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبَّب بأخته رملة تشبيبا أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف[٦] :

ويلقانا فى نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرَّار بن منقذ الأسدى ومُساور بن هند العبسى . ومن طريف ما للمرار قوله[٧] :

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٣٢١/١١ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٢/١٥ ومعجم الأدباء ٢٤٧/١٠ .
(٤) الحيوان ٧٥/٧ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٤١/١٣ والمبرد ص ٢٨٩ .
(٦) انظر فى ترجمة النعمان بن بشير أغانى (ساسى) ١٤٧/١٣ ، ١١٤/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٥٦/١ وقد طبع له ديوان على الحجر فى دهلى ونشره كرنكو مع ديوان أبى بكر بن العزيز .
(٧) أغانى (دار الكتب) ٣١٨/١٠ .

شقيتْ بنو عَبْسٍ بشعر مساورٍ     إن الشقيَّ بكل حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البَرْصاء الذبيانى وابنى عمه عقيل بن عُلّفة وأرطاة بن سُهَيَّة ومهاجاة ابن ميّادة والحكم الخُضْرى ؛ وكان فى ابن ميّادة[1] شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليمنى وشُقْران مولى بنى سلامان .

وعملتْ بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ؛ فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل فى تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير فى تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصبُّ عليهم شُواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً فى جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويَسْقط بغضبه على من فضّله كما مر بنا فى تهاجى المغيرة بن حَبْناء ، وزياد الأعجم . وقد يبطئُ الممدوح على مادحه بمكافأته ؛ فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحزين الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله[2] :

مواعِيدُ عمرو تُرَّهاتٌ ووجهــه     على كل ما قد قلتُ فيــه دليلُ

جبانٌ وفحَّاشٌ لئيمٌ مذمَّمٌ     وأكذبُ خلق الله حين يقــول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربعى مع المتوكل[3] الليثى ؛ وقد لا تقوم مكافأة الممدوح فى

(١) انظر فى ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧ والخزانة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥

(٣) انظر فى ترجمة المتوكل ابن سلام ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى ( دار الكتب ) ١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب البيت المشهور :

لاتنه عن خلق وتأتى مثــله     عار عليك إذا فعلت عظيم

رأى المادح بما قدَّم له من مديحه . فيهجوه ويسرف فى هجْوه على نحو ما صنع الشَّمَرْدَل بهلال[1] بن أحوز المازنى فارس تميم فى عصره غير مدافع . وقد يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له بلقائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو ما رَوى الرواة عن حجْب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبى جِلدة الشكرى ، فقد تولَّى يهجوه بمثل قوله[2] :

قَرَى ضَيْفَهُ الماءَ القَراح ابنُ مِسْمَع وكان لئيماً جارُه يتذلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ، وكان على شرطة القُباع والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورَّ عنه فهجاه وهجا عشيرته الحَبطات طويلا . وفيها يقول[3] :

رأيت الحُمْرَ من شَرِّ المطايا كما الحَبطات شَرُّ بنى تميم

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم والذين طالما مدحهم الشعراء يُهْجَوْن كثيراً أو قليلا ، فزياد وبنو زياد يهجوهم ابن مفرِّغ ، والحجاج يهجوه العُدَيْل[4] بن الفرخ العجلى ومالك[5] بن الريب التميمى . وفيه يقول[6] :

ولولا بنو مروانَ كان ابنُ يوسفٍ كما كان عبدًا من عبيد إيادِ

زمانَ هو العبد المقرُّ بذُلِّهِ يراوح صبيان القُرَى ويغادى

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّال عصبيةً لقبيلته تميم

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٨ .

(٢) أغانى ١١/٣٣١ .

(٣) البيان والتبيين ٤/٣٧ والخزانة ٤/٢٨٠ .

(٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٢ .

(٥) انظر فى ترجمة مالك الشعر والشعراء ١/٣١٢ وأغانى (ساسى) ١٩/١٦٣ والخزانة ١/٣١٧ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .

(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، وممن أكثرَ من هجائهم عمر[١] بن هبيرة الفَزارى وخالد القَسْرِىّ[٢] ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار[٣] :

بكتِ المنابرُ من فَزارة شَجْوَها فالآن من قَسْرٍ تضجُّ وتجزع

وكان المهالبة ممدَّحين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء وعلى رأسهم الفرزدق[٤] . ومن ولاة الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله العبشمى مهجوّ أبى حُزابة[٥] . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتّاب بن ورقاء والى الرّىّ وأصبهان حين جفاه بمثل قوله[٦] :

ويركب رأسَه فى كل وَحْلٍ ويَعْثُرُ فى الطريقِ المستقيمِ

ويهجو أبو نُخَيْلة المهاجر بن[٧] عبد الله والى اليمامة . وفى الحجاز نجد الأحوص مشغوفاً بهجاء ابن[٨] حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد العرجى مشغوفاً بهجاء محمد بن هشام المخزومى والى مكة لهشام بن عبد الملك . ونحن نقف قليلا عند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرّغ البصرى والحكم بن عَبْدل الكوفى وثابت قُطْنة الخراسانى .

## ابن[٩] مفرّغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترَقًّا للضحاك الهلالى فأعتقه . وكان يتقن الفارسية كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميرى فلعل منشأه أنه كان من حَفَدة الفرس الذى نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبّع .

(١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٢) أغانى ( ساسى ) ١٩/٢٣ .
(٣) أغانى ( دار الكتب ) ١١/٣٧٩ .
(٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ .
(٥) أغانى ( ساسى ) ١٩/١٥٢ .
(٦) البيان والتبيين ٤/٥٠ .
(٧) أغانى ( ساسى ) ١٨/١٤٥ .
(٨) أغانى ( دار الكتب ) ٤/٢٣٧ .
(٩) انظر فى ترجمة ابن مفرغ ابن سلام ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغانى ( ساسى ) ١٧/٥١ والطبرى ٤/٢٣٥ والاشتقاق ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة ٢/٢١٢ ، ٥١٤

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعى وهو قد نشأ فى البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذى غلب عليه ، وقد صبه صبًّا على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذى دلع لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فآثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان : وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابنُ مفرغ يسير معه فى موكبه ، فهبَّت ريح ، فنفشت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليتَ اللِّحَى كانت حشيشا ... فنعْلفهـــا دوابَّ المسلمينا

وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صُحْبته وترْكه لسعيد بن عثمان ، وفى ذلك يقول :

إنْ تَرْكى نَدَى سعيد بن عثما ... ن فتى الجود ناصرى وعَديدى
واتِّباعى أخا الوضاعة واللُّؤْ ... م لنقصٌ وفوْتُ شأوٍ بعيد

وكان على ابن مفرغ دَين ، فاستعدى عليه دائنوه عبَّادا ، فأمر ببيع ماله فى دَينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْد وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلا بمثل قوله :

وشريتُ بُرْدًا ليتنى ... من بعد بُرْدٍ كنت هامَه[1]
يا هامــةً تدعو صَدًى ... بين المُشَقَّر فاليمامه[2]
الريح تبكى شَجْوَهُ ... والبرق يلمع فى الغمامه[3]

وأخذ يهجو عَبَّادا وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد ، معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

---

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أى أنه يموت فى يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصدى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً فى الغمامة .

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ مُغَلغِلةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن إلَّك من زيادٍ كإلِّ الفيل من ولد الأتان[١]

وكان أهل البصرة يتغنَّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله، فطلبه وألحَّ فى طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها فى وفادة على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذر بن الجارود ، وكان عبيد الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرْعَ جوار المنذر ، وأخذ ابن مفرِّغ وسجنه . ورأى أن ينكِّل به ، فأمر — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن يُسقَى نبيذاً ويُحْمل على بعير مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ويُطاف به فى أزقة البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله فى طوافه يخاطبونه بالفارسية ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُميَّة هجاء مقذعاً . ورُدَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً أليما ، فألقى به فى غيابات السجون . وشفعتْ فيه اليمنية عند يزيد بن معاوية ، وألحت فى شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عبَّادا وأخاه عبيد الله، وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقط عليه بهجاء مرير . وقد توفِّى سنة تسع وستين .

### الحكم[٢] بن عَبْدل

من بنى أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بنى أمية ، فلما دخل العراقُ فى طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام، فقدمها على عبد الملك وحظىَ عنده ، وله فى تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعرى وليتٌ ربما نفعتْ هل أُبصرنَّ بنى العَوَّام قد شُمِلوا
بالذلِّ والأَسْر والتشريد إنهمُ على البريَّة حَتْفٌ حيثما نزلوا

(١) الإل : القرابة .
(٢) انظر فى ترجمة الحكم بن عبدل أغانى (دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان والتبيين والحيوان .

ولما دخلت العراق فى طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك فى بعض مدائحه ، إذ نراه يصف لمدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان[1] . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا فى العصر العباسى ، وكانوا سبباً فى نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريرى.

وكان هجّاء خبيث اللسان ، ومن هجاهم طويلا محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلمه فى شخص ليضع عنه ثلاثين درهما من خراجه فرده ردّا قبيحا جعله يَسُلُّ لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رأيت محمدا شَرِهــاً ظلوماً     وكنت أراه ذا ورعٍ وقَصْدِ

يقول : أماتنى ربِّى خِــداعاً     أمــاتَ الله حَسَّان بن سَعْدِ

وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين ، حتى كان المُكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدِّ ، أمات الله حسان بن سعد . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخِطْبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه     أبو المِسْك من أكفاءِ قيس بن عاصمِ[2]

خذى ديةً منه تكن لكِ عُدَّةً     وجِيئى إلى باب الأمير فخاصمى

وكان ذلك سبباً فى نَقْض هذا الصِّهْر ، إذ أنفت للفتاة عشيرتُها وردت ابن حسان ردّا قبيحاً . وممن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدى صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جئنا وبين يديه التَّمْرُ فى طَبَقٍ     فما دعانا أبو حَفْصٍ ولا كادا

وولى إمارةَ الكوفة لمسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق عبدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شُرْطته مثله أعرج ، فدخل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده فى أبيات :

---

(١) انظر الحيوان ٥ / ٢٩٧ وفى مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأبى المسك عن ذَنَّ ابن حسان.

أَلْقِ العَصا ودَعِ التخامُعَ والتمسْ عملا فهٰذى دولةُ العُرْجانِ[١]

فأعطاه عبد الحميد مائتى درهم وسأله أن يكفّ عنه ، ويقول الجاحظ : « لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتّقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْتَبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر وأوفر مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل[٢] :

عَصا حكمٍ فى الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نُقْصَى ونُحْجَبُ[٣]

وللحكم هجاء فكه فى زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفّى فى مطالع القرن الثانى للهجرة .

## ثابت[٤] قُطْنة

هو ثابت بن كعب من بنى العَتيك الأزديين ، وقيل بل هو مولى لهم ؛ ولقّب قُطْنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فى بعض حروب الترك ، فذهب بها ، فكان يجعل عليها قُطْنة . وهو من فرسان المهلب المبرّزين وقد علا نجمه فى ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يولّيه أعمالا فى الثغور ، فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون فمال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته فى الإرجاء فى تضاعيف حديثنا عن الثقافة .

---

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر فى ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء ٧١٧/٢ وأغانى ( دار الكتب ) ٢٧/٤ والطبرى ٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد . وكان مولعاً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن عمير قاضى الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع فى ترجمة ثابت الشعر والشعراء ٦١٢/٢ وأغانى ( دار الكتب ) ٢٦٣/١٤ والخزانة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم فى ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزْد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بنى الكوَّاء اليَشْكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبرى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدُّهم والَيشْكُرِيُّون منهم ألأمُ العربِ

ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً فى سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له وُدَّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد فى البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا فى البصرة فقط ، بل أيضاً فى خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيدَ فى بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشَغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تَنْزُو فى الفساد وفى الوَغَى إذا راعها رَوْعٌ جماميحُ بَرْوَقِ(١)
وأنتم على الأدنى أُسودُ خَفِيَّة وأنتم على الأعداء خِزَّانُ سَمْلَقِ(٢)

وحين ولى قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُّ عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت فى بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافتْ تميمٌ فى الطِّعان وعَرَّدتْ بُهَيْلَةُ لما عاينتْ معشرًا غُلْبَا(٣)
تسامون كعباً فى العُلا وكلابها وهيهات أن تلقوا كلابا ولا كعبا

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازنى التميمى ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه . فغبطه عليها ، وأساء له

---

(١) تنزو : تثب . الروع : الفزع . الجماميح : ما نبت على رءوس القصب مما إذا دق تطاير . بروق : نبت ضعيف .
(٢) خفية : أجمة فى سواد الكوفة . خزان : جمع خُزَز وهو ذكر الأرانب وهى معروفة بالجبن. والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .
(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقَّبه فى هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمّاه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول فى بعض أهاجيه :

أَحاجبُ ! لولا أَن أَصْلك زَيِّفٌ وأَنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأَنى لو أَكثرتُ فيك مقصِّرٌ رميتُك رمياً لا يَبِيد يَدَ الدهر

وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل فى معاركه مع بنى أمية طويلا ، وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قويًّا . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى .

## ٣

### شعراء النقائض

هيأ استعار العصبيات فى البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعاً ، وقد أعدّت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية. أما العوامل الاجتماعية فمردُّها إلى حاجة المجتمع العربى خاصة فى البصرة إلى ضرب من الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلا نهضت — كما رأينا فى غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقْبلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلهما من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديداً. حينئذ انبرى الهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد فى الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَوِيِّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعانى ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمَّع الناس من حوالبهما يصفِّقون ويهتفون ويصيحون[١] . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هى سدُّ حاجة الجماعة الحديثة فى البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهى .

وتدخلت فى صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة فى النِّحَل السياسية والعقيدية وفى الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون فى حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث فى أدلته ليوثِّقها وفى أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلَّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان[٢] . وكان أولهما من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، والثانى من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفا كثيرة جعلت جريراً يقف فى صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هَوَى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشعىٌّ الزبيرَ بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجوه[٣] .

---

(١) أغانى ( دار الكتب ) ١٠/١٥٢ وطبعة ساسى ١٩/١٠٣ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشاعرين ، وحقق الشرح ونشره بيفن سنة ١٩٠٥ فى ثلاثة أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوى سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤وما بعدها

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع والى ابن الز بير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين فى تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما فى نقيضتين لهما يُعْلنان نَكيرهما على هذا الوالى ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل[1] . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غسَّاناً هجا جريرا فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالبَعيث[2] المُجاشعى ، فأغاثه بمثل قوله فى جرير وعشيرته :

أترجو كُلَيْبٌ أن يجيء حديثها     بخيرٍ وقد أعْيَا كليبا قديمُها

فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شُواظ نار ، وأفحش بنسائهم إفحاشاً شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه فى الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْم التميميين معروفة ، ووَجَدْنه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة ، فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتَك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريرا ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء يتزلق فيها متحيزا للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوِى وجوههم ووجوه عشائرهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الرّاعى[3] ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيَّ دنا الرَّوَاحُ فسِيرا     غلب الفرزدقُ فى الهجاءِ جريرا

وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعيدُها حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

(١) شرح النقائض لأبى عبيدة ( طبعة بيفن ) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف البلاذرى ٥/٢٧٨ .

(٢) انظر فى ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٤٧٢ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن عساكر ٥/١٢٢ ومعجم الأدباء ١١/٥٢ .

(٣) انظر فى ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٣٧٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/١٦٨ وفى ترجمة جرير ، وفى الخزانة ١/٥٠٢ والموشح ص ١٥٧

بالمِرْبَد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهنْ (طيب) فادّهن وكفّ[١] رأسه ، وكان حسَن الشَّعْر ، ثم قال : يا غلام أسرجْ لى ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبَعَثْتك نِسْوتك تَكسبهن المال بالعراق ، أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بِمَيْر[٢] يسوءهن ولا يسرُّهن[٣] ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته المشهور :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخِزْى والصَّغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير فى نجد ، وهو يردِّد : فضَحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا فى هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائض فى المِرْبد ، وكيف كان يحتفل بثيابه وزينته . وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير فى الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط فى الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفا ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، وممن ثبت له قليلا ثم اندحر عمر بن لَجأ التَّيْمِي[٤] ؛ وله يقول :

أتوعدنا وتمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يُسْتأْذَنون وهم شهود
لئامُ العالمين كرامُ تَيْمٍ وسَيِّدهم — وإن رغموا — مَسُودُ

---

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر فى هذا الخبر أغانى ( دار الكتب ) ٨/٢٩ .
(٤) انظر فى ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغانى والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يبرى نبال الهجاء المصمية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلا سنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب فى نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبى عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التى يتحدثان عنها دون أن يذكراه . فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل. وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ؛ بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس فى خراسان ، إذ دفعت تميما الحوادثُ هناك لكى تنكّل بعبد الله بن خازم السُّلَمى والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ؛ كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلى حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ فى نقائضهما ، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعِّب عمل النقيضة ؛ لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضا دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التى كان يحامى عنها فحسب ؛ بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التى يهجوها ليقف على الأيام التى انهزمت فيها ؛ حتى ينشر مخازيها فى الناس .

وواضح أن أساس الهجاء فى النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية ، وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن هذه العصبيات اختلطت فى العصر الأموى بالسياسة ؛ وهيأ ذلك النقيضة لأن تخوض فى مديح الخلفاء والولاة ؛ بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ؛ بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسيباً وغزلا . والشاعر فى كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام فى معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربى الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ؛ وقدرته أيضاً على التوليد فى المعانى . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجرير عملا فنيًّا معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعانى ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراءِ المدينة ناقتى حَنِينَ عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائم [١]

وهو فى غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم ا لحساب . ونراه يعتذر مما قد بَدَرَ منه من أشعار تصوَّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بمأْخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تعمَّدْ عاقدات العزائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللَّغْو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأَهل الأَرض نورًا ورحمةً وعَدْلاً وغَيْث المُغْبَرات القواتمِ [٢]

وكان الحجاج لجّ فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفّى قبل خلافته ، فنكّل بمن لجُّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرًّا صوَّره فيه طاغياً باغياً ، لقى جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب الفيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . وممن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلى وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميما بزعامة وكيع بن أبى سُود هى التى قضت عليه . ومضى يكيل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس فى الجزيرة . ويتجسَّم له جرير كأنه قيسٌ نفسها فيقول :

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأمه أى تحن إليه ظنا منها أنه ولدها حقيقة .

(٢) المغبرات القواتم : السنوات المجدبة .

وألقيتَ من كفَّيْك حبـــل جماعةٍ وطاعةَ مهدىٍّ شديد النَّقائمِ (١)

ويسمِّى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذى ضرب الله به مشركى قريش فى يوم بدر . ويعيِّر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوٍّ السيف فى يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخرا عارماً بتميم وأيامها فى الجاهلية وأمجادها العريقة فى الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المرَاغة (الأتان) فهم ليسوا فرسانا ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائم

ودائماً يصف كليبَ باللؤم والدناءة ، ويُفْحش فى النَّيْل من نسائها ومن أم جرير خاصة . ولا يترك مذمة إلا وَيلْفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بنى كُلَيْبٍ نجومُ الليل ما وضحتْ لسارِ
ولو يُرْمَى بلؤمهمُ نهـــارٌ لدنَّس لؤْمُهم وضَحَ النهارِ
وما يغدو عزيزُ بنى كليبٍ ليطلب حاجــةً إلا بِجــارِ

ووقف جرير فى الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التى لخصناها آنفاً ؛ فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذى اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أُمّ الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزْوَازٍ قصير القوائم (٢)
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ ليأْمن قِرْدًا لَيْله غير نائم
أَتيتَ حدود الله مذ أنت يافعٌ وشبْتَ فما ينهاك شَيْبُ اللَّهازم (٣)
تتبَّع فى الماخور كلَّ مريبة ولستَ بـأَهل المُحْصَنات الكرائم (٤)

(١) المهدى هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدى كما يلقب الشيعة أئمتهم .
(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .
(٣) اللهازم : أصول اللحية .
(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يَصِمُه بأخته جِعْثِن. وكانت سيدة طاهرة، ولكنه الهجاء. كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن: فهو ليس شريف الأصل كما يزعم. وكان لجده قيون، فرمى جَدّته بهم: كي يغيظه ويُحْفظه. ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه فى أخته، وأيضاً فإنه كان يردد كما فى هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره، كل ذلك ليضرب من حواليه نطاقاً من الذل. وكان الذى قتل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيعُ بن أبى سُود اليربوعى. فهو ليس مجاشعيا: إنما هو من قوم جرير، ومن ثَمّ يقول له:

فَغَيْرُك أدّى للخليفــة عَهْده ... وغَيْرُك جلّى عن وجوه الأهاتم[١]

فإن وكيعاً حين خارتْ مجاشعٌ ... كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقم

لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا ... وريشُ الذُّنابى تابعٌ للقوادم[٢]

وبذلك استلّ منه الفخر بحادثة وكيع. وجعلها لقومه الـيَرْبوعيين، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق. وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيبة القيسية وأيامها فى الجاهلية. وعمّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب فى الجزيرة. وعيّر تغلب بمسيحيتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين. وكان عمر قَبِلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لا جزية، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمّى ما تدفعه جزية، ثَلْبا وتعييراً. ويعود إلى أيام قيس فى الجاهلية، يعددها. ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم.

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك فى أثناء حِجّة له.. وجاءوه بأسرى من الروم. فأمر بجزّ حلاقمهم. وأُعْطى لبعض من صحبوه أسيافٌ يضربون بها رءوس هؤلاء الروم. وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم، فدَسّوا له سيفاً كليلا لا يقطع. فلما ضرب به لم يصنع شيئاً فى الرومىّ. وانتهزها جرير: فكان يكرر له هذا

---

(١) الأهاتم: من أشراف تميم

(٢) القوادم: الريشات الطويلة فى مقدمة جناح الطائر، والذنابى ما خلفها من ريشات قصيرة.

الحادث ليضحك أهل المِرْبد عليه، بما يصور من خَوَره وجُبْنه، ومن ثَمَّ يقول له الفرزدق فى نقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم … أبًا عن كليبٍ أو أبا مثل دارمِ

ونرى جريرا يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أبى رَغْوَان سيف مجاشعٍ … ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ [(١)]
ضربتَ به عند الإمام فأُرْعِشَتْ … يداك وقالوا مُحْدَث غير صارم
ضربتَ به عُرْقوبَ ذابٍ بصَوْأَرٍ … ولا تضربون البَيْضَ تحت الغماغمِ [(٢)]
عنيفٌ بهزِّ السيف قَيْنُ مجاشعٍ … رفيقٌ بأَخْرات الفُئوس الكَرازمِ [(٣)]

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوْءر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فَجَلَّل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذى نبا فى يده، عراقيبَ الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتهلع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهى صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوِّ السيف فى يد الفرزدق وَوصْفه بأنه قين ابن قين عند حد الثَّلْب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربىّ عند جرير من قدرة على التوليد فى المعانى، كما نرى فى مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُــدُّوا … أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ [(٤)]
فأورثك العَــلاةَ وأورثونا … رباطَ الخيلِ أفنيةَ القِبابِ [(٥)]

---

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ المحاربين . الغماغم : أصوات الجيوش، جمع غمغمة .

(٣) أخراتْ : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس . الكرازم : الفئوس ضخمة الرءوس .

(٤) المقرفات : الهجينات التى لا يخلص نسبها . العراب : الأصيلات فى العروبة .

(٥) العلاة : سندان الحداد .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله　　لَفَطْحِ المساحى أو لِجَدْلِ الأداهِمِ (١)

وقوله :

ورقِّع لجَــدِّك أكْيــارَهُ　　وأَصلحْ متاعك لا تُفْسِدِ

وأَدْنِ العَلاة وأدْنِ القَدومَ　　ووسِّع لكِيرك فى المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شىء هذا العنصرَ من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصرانى ضده ، فأخذ يُضْحِك عليه سامعيه فى المِرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمــا　　على دين نصرانيةٍ لتنصَّرا

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى　　ويومَ السَّبْت شِيعتُك اليهودُ

ولعل فى هذا مايدل أكبر الدلالة على أن النقائض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شىء إلى تسلية الجماعة العاطلة التى تكونت فى المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهى مناظرة كانت تقاطَع بالتهليل والتصفيق . ومن ثَمَّ لم تأخذ شكلا جادًّا من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لَشُهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قَذْف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس فى البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية (٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

(١) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها　وهو القيد .
الجدل أيضاً : التسوية . الأداهم : جمع أدهم ،
(٢) أغانى ( طبع دار الكتب ) ٨/٣٧، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويًّا ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حزَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يدَ العون ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق [١] ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القَسْرِيَّ وحبسه تشفع له جرير عنده [٢] ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه [٣] . ونراه حين يُلْبِي القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتْ بعد الفرزدق حُـــرَّةٌ ولا ذاتُ حَمْلٍ من نِفاسٍ تعلَّتِ [٤]

هو الوافد المَجْبُورُ والراتق الثَّأَى إذا النَّعْل يوما بالعشيرة زلَّتِ [٥]

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر فى عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية فى آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم فى أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التى استضاءا فيهـــا بقدرة العقل العربى الحديثـــة على الجدال والتوليـــد فى المعانى . وارجعْ إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيْنٌ أو فكرة ذل بنى كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التى يقف عندها فى صور كثيرة ، إذ ما يزال يولِّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعِّب ، وكأنما يريد أن لا يُبْقِى فيها بقية . وانظر فى أى نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صُنْعَ المتناظرين من أهل اللَّدَد والخصومة فى المسائل العقيدية . فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه فى هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثَمَّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقتها مقدمات فى العصور

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩/٢٨ .

(٢) أغانى ١٩/٤٢ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

(٤) تعلت : تطهرت .

(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين فى صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ؛ إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى الهجاء القديم : وهى ظاهرة التندير على المهجوّ وقبيلته ، حتى تُضْحك المستمعين فى المربد ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التّهليل والصياح والصفير والتصفيق . ومن ثَمَّ لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ  كالكلب يَنْبَحُ من وراءِ الدار

أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم  وتنام أعينهم عن الأوتارِ (١)

أو يقول :

أتعدل أحسابا لئامًا أَدقَّةً  بأحسابنا إنى إلى الله راجعُ

وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زَعَمَ الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً  أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وقوله :

خذوا كُحْلا ومِجْمَرَةً وعِطْرا  فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ

وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثَم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها . وكان الأخطل — كما قدمنا — يهاجى قيساً فى الحروب التى

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فيُفْحمهم بأهاجيه المقذعة .

وشاءت المقادير أن يلمّ بالعراق فى ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه [١] وطبيعى أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجْلب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفنى من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . و إذا هما يخلّفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام [٢] . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفّ الأخطل حوالى سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر فى هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر مَنْ مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم . فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم . وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل » [٣]

وجميع الظواهر التى لاحظناها فى نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة فى نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَيان بتاريخ القبائل فى الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبيات بالسياسة . وقد ساقت الظروف تغلب لتقف فى صفوف بنى أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، كما ساقت الأخطل التغلبى ليكون شاعر بنى أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق فى الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستهلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتْبعهم طرفه مولَّها ، حتى ليشبِّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفًا قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدقُ يلمّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانيا ، فانفرد بهذا الموضوع فى شعره .

---

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .

(٢) نشر صالحانى هذه النقائض فى بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة فى الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .

(٣) البيان والتبيين ٨٣/٤ .

على أنه لم يُطْنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعُن الحبيبة : مستلهماً زهيراً فى هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوِّهاً بجوده ، ومشبهاً له فى هذا الجود بالفرات ، وهى صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر فى معلقته . ويمضى فيفصِّل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوها بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه فى صفوف بنى أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل فى طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغى أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بنى أميةَ إنى ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس فى حروبهما بالجزيرة : ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس فى طاعة بنى أمية ! وقد مرَّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحَشَّاك التى قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعْدَ نظر . ومضى الأخطل يهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع فى هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُلَيْبُ بن يربوعٍ فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَرُ (١)

مخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمْ بغيبٍ وفى عمياءَ ما شعروا (٢)

ملطَّمون بأعْقار الحِياض فما ... ينفكُّ من دارِمىٍّ فيهمُ أثَرُ (٣)

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مخزيةٍ ... وكل فاحشةٍ سُبَّتْ بها مُضَرُ (٤)

على العِيارَات هدَّاجون قد بلغتْ ... نَجْرَانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتُهم هَجَرُ (٥)

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبا بهم .

(٣) يقول إنهم يُلَطَّمون حيث يكونون فى مؤخرات الحياض ، تلطمهم دارم عشيرة الفرزدق لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناهت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ، يهجو بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل . الهدج : تقارب الخطو .

ويأخذ فى هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل فى نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسَّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس فى الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ،وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخراً بأيامها فى الجاهلية ، كما يضم انتصارا للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضُّ عليه كالصَّقْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازى تغلب وهزائمها فى حروبها مع قيس سواء فى يوم ماكَسِين الذى نكَّل بها فيه عمير بن الحُباب أو فى يوم الكُحَيْل الذى نكل بها فيه زفر بن الحارث أو فى يوم البِشْر الذى نكَّل بها فيه الجحَّاف السُّلَمِىّ ؛ ضاماً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع فى الجاهلية وملججا فى هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً ... من حَوْمةٍ لم يخالط صَفْوَها كدرُ (١)

لم يُخْزِ أولَ يربوعٍ فوارسُهم ... ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا ... يوم الهُذَيْل بأيدى القوم مُقْتَسَرُ (٢)

خابتْ بنو تغلبٍ إذ ضلَّ فارطُهم ... حَوْضَ المكارم إن المجد مُبْتَدر (٣)

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بِظَهْرِ الغيب ما الخبر (٤)

الآكلون خبيثَ الزاد وحدهمُ ... والنازلون إذا واراهم الخَمِرُ (٥)

إنى رأيتكمُ والحقُّ مغضبةٌ ... تَخْزَوْنَ أن يُذْكَرَ الجَحَّاف أو زُفَرُ

كانتْ وقائعَ قلنا لن تُرَى أبدا ... من تغلبٍ بعدها عَيْنٌ ولا أثَر

حتى سمعتُ بخنزيرٍ ضَغَا جَزَعاً ... منهم فقلت أرى الأموات قد نُشِروا (٦)

---

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذى يتقدم قبل الإبل ليملأ لها الحوض .

(٤) يريد أنهم لايعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم لا يُسْألون فى شىء وهم يَسْألون عن أخبار الناس.

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التى تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقبه فى البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصرانى ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً، وهو يمضى فى نفس هذه النقيضة ، فيقول .

رِجْسٌ يكون إذا صَلَّوْا ، أذانُهم — قَرْعُ النواقيسِ لا يدرون ما السُّوَرُ (١)
وما لتغلبَ إن عَدَّتْ مساعِيَها — نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ
الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه — يا قُبِّحَتْ تلك أفواها إذا كَشروا (٢)
والمُقْرعين على الخنزير مَيْسِرَهُمْ — بئس الجَزورُ وبئس القوم إذ يَسَروا (٣)
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا — وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْجَحَرَ ،ولم يستطع له جوابا، ومن ثم كان جرير يقول إننى أُعِنْت عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته فى التنديد على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله فى نقيضة ثانية :

قَبَح الإلٰهُ وجوه تغلبَ كلما — شَبَحَ الحجيجُ وكبَّروا إهــلالا (٤)
عَبدوا الصَّليب وكذَّبوا بمحمدٍ — وبجَبْرَئيل وكذَّبوا مِيــكالا
المُعْرسين إذا انْتَشَوْا ببناتهم — والدَّائبين إجــارةً وسؤالا (٥)
والتغلبىُّ إذا تَنَبَّح للقِرَى — حَكَّ اَسته وتمثَّلَ الأمثــالا (٦)
ولو اَنَّ تغلب جمَّعتْ أحسابها — يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا
نُبِّئْتُ تغلب يَنْكحون رِخالَهم — وترى نساؤهم الحَرام حلالا (٧)
لا تطلبنَّ خؤولةً فى تغلبٍ — فالزِّنْجُ أكرمُ منهمُ أخــوالا

---

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبح : كانوا ينبحون فى الظلام إذا ضلوا لتردَّ عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول فى نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرم المكارم تَغْلبــا  جعل الخلافة والنبوة فينــا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم  يا خُزْرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا [1]
هذا ابنُ عَمى فى دمشقَ خليفةٌ  لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينا [2]

وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟ فقال تَوًّا :

أوصِّى الفرزدقَ عند المماتِ  بأُمِّ جــريرٍ . عيــارها [3]

ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ  فأصبح ألأم زوَّارهــا [4]

والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرْوى الرواة : «إن جريرًا أُوتى من سير الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحدا قال أهْجى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمُ  قالوا لأُمهم بُولى على النار

فلم يَرْوِه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تُنُبِّحَ لِلقــرَى  حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَووه [5] » . ولعل من الخير أن نلمّ بحياة هؤلاء الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرِّزيه فى الهجاء والمديح جميعاً .

---

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى به جرير عن اللؤم .
(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .
(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .
(٥) أغانى ٨/٣١٨ .

## ٤

### الأخطل [١]

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهى إحدى القبائل العربية الكبيرة التى كانت تكوّن مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتدّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة ،غرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بكر جلّى فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها فى الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة ؛ ولما فتحت الفتوح لجّت فى أول الأمر مع الفرس والروم ؛ وسرعان ما اضطرت إلى الدخول فى طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبل منها أن تؤدّى الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها فى الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية فى حروبه مع على بصفّين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدّ الألسنة فى جيش معاوية على خصومه [٢] :

وقد مضت تغلب بعد صفّين تحطب فى حبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزحت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها فى

---

(١) انظر فى ترجمة الأخطل أغانى (دار الكتب) ٨/٢٨٠ وكذلك فى ترجمة جرير ٨/٣ وما بعدها وفى خبر الجحاف ويوم البشر ١٢/١٩٨ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ١/٤٥٥ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ١/٢٢٠ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بنى أمية للسيد مصطفى غازى وانظر فى أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحانى .

(٢) انظر فى أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفى مواضع متفرقة . وانظر فى ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٢/٦٣١ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ١/٤٥٧ وراجع فهرسى الطبرى والأغانى

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام فى أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سلاَّ سيوفهما . واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس فى طاعة عبد الملك وتكافَّت القبيلتان عن المغازى فى الجزيرة .

وفى هذه القبيلة وفى فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفى عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَوْكس وُلد الأخطل فى بادية الحيرة حوالى سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إياد . ومن ثَمَّ نشأ نصرانياً . وظل حياته على دينه ، فلم يدخل فى الإسلام . وفى أخباره أنه كان يُكثر الشِّجار فى صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبلا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوجُ أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلِّق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقترن بها سَفَهٌ شديد ، فكان يُكثر من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطلَ ومعناه السفيه . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرَّض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلا مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبنى أمية منذ وقوفهم مع على فى صِفِّين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابنُ حسان ، فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبْه عنى واهْجُه ، فقال : « أرادِّى أنت إلى الإشْراك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

فى الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ، فنظم فى هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُــلا    واللُّـؤْم تحت عمائم الأنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية فى حروبه ضد على وولاّه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك؟ قال لسانهُ ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إنى جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذ ردّ عنى ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل — كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغْدقون عليه . وليس فى ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى فى أماليه روى له فيه هذين البيتين [1] :

إذا متّ مات العزّ وانقطع الغِنَى    فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّدِ[2]

ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا    من الدين والدنيا بِخِلْفٍ مجدّد[3]

وفى ديوانه مدائح مختلَفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسُّ فى قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبنى أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية فى صِفّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تَمّتْ جُدودهم واللهُ فضّلهم    وجَــدُّ قوم سواهم خامِلٌ نَكِدُ

ويوم صِفّين والأبصارُ خاشعةٌ    أمدّهم — إذ دعوا من ربهم — مَدَدُ

وأنتم أهلُ بيتٍ لا يــوازنهم    بَيْتٌ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والعَدد

---

(١) أمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ٢/٢٤ .

(٢) مصرد : مقلل .

(٣) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلا ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه فى الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده فى الفترة التى احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً فى صفوف قومه يناضل عنهم الراعى وابن الصَّفَّار المحاربى وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس. ومرَّ بنا أن القبائل اليمنية فى الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نَشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان فى موقعة مَرْج راهط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها فى تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس فى الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِىَ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت أسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع فى تغلب على نحو ما أسلفنا فى الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُذْعنون ويدخلون فى طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفَّراً ، ويحاول فى سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل فى هذا الاختصام ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَّاف السُّلَمِىّ ، فينشد :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ  بقَتْلَى أصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ
أجحاف إن نَهبِطْ عليك فتلتقى  عليك بحورٌ طامياتُ الزواخــر

ووثب الجحاف يَجُرُّ مُطْرَفَهُ غضباً، وذهب توًّا إلى قومه فى الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة، وَبقَر من النساء من كانت حاملا. ومن كانت غير حامل قَتَلها . وتسمى تلك المعركة معركةِ« البشْر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضَلَّل من أسروه إذ قال لهم إنه عبد، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمّنه ، فعاد على أن يؤدّى الحمالات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتضوّر من هذه الوقعة تضورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بنى أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْر وقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ
فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذمَّةٍ ... وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصَّلُ
ألا تغيِّرها قريشٌ بملكها ... يَكنْ عن قريش مُسْتَرادٌ ومَزْحَلُ[1]

واستطاع عبد الملك أن يَرُمَّ الفتقَ ويُحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلا عليًّا ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يَتَمثَّلُ بين يديه « وعليه جُبَّة خَزٍّ وحِرْز خزّ ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفُض لحيته خمرا[2] »

وعصْرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبى للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمى للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفى الأغانى أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبنى أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهى دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قَيْس وشاعرهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطينُ » التى أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحكم نَسْجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله فى الأمويين :

حُشْدٌ على الحق عَيَّافو الخَنا أُنُفٌ ... إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجَّتْ على الآفاق مُظْلمةٌ ... كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصَرُ[3]

(١) بملكها : بقدرتها . مستراد : مرعى . مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .
(٢) أغانى ( دار الكتب ) ٨/٢٩٩ .
(٣) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أعطاهم اللهُ جَدًّا يُنْصَرون بهِ لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ(١)
شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم وأعظمُ الناسَ أحلاماً إذا قدروا(٢)

والأخطل فى مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير ، بل لا شك فى أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ،وكان يعتز بآبائه اعتزازاً شديداً ، فلم يبرع فى المديح ، إنما برع فى الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ، ومن ثَمَّ يُعَدُّ هو والأخطل فى المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً فى حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحه فى عبد الملك تُعَدُّ درره الشعرية ، وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله :

وقد جعل الله الخـلافة فيكمُ بـأبيض لا عارى الخِوان ولا جَدْبِ
ولكن رآه اللهُ موضعَ حقِّها على رغم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ(٣)

ونراهُ يلمُّ فى هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولاتهما وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى ، وبشر بن مروان والحجاج ، وسماك الأسدى ، وهو من أجواد الكوفة. ونراه ينوِّه بمصقلة بن هبيرة الشيبانى أحد قواد طبرستان، كما ينوه بعكرمة بن رِبْعى الفياض وجوده الغَمْر ، ومن قوله فيه :

إن ابن رِبْعِيٍّ كفـانى سَيْبُه ضِغْنَ العدوِّ وعِذْرَةَ المُحْتالِ(٤)
وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجدْ فَيْضَ الفُرات كراشح الأَوْشالِ(٥)

وممن نوَّه بهم جرير بن عبد الله البَجلى وجدار بن عتَّاب التغلبى وهمام بن مطرف .

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) شمس : جمع شموس وهو العسير فى عداوته . استقاد له : أعطاه مقادته وزمامه ، فخضع وذل .
(٣) كذب : جمع كذوب .
(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ، يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .
(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والراشح : الذى يسيل فى قلة .

وتُطْوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفىَّ عبد الملك، ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقْصيه عنه، ويقرِّب منه شاعراً شاميًّا مسلماً هو عدى بن الرِّقاع العاملى، وبذلك انزوى الأخطل، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد، ومدائحه فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودِنانها وندَاماها ، ويطيل المديح فى عِتْقها والسرور بشربها ، يقول :

صهباء قد كلفتْ من طول ماحُبِستْ فى مخدعٍ بين جنَّات وأنهارِ[1]

عذراء لم يَجْتَلِ الخُطَّاب بهجتها حتى اجتلاها عبادىٌّ بدينارِ[2]

واقرأ له القصيدة الأولى فى ديوانه ، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويرا بديعاً ، إذ يقول ،

أَناخوا فجَرُّوا شاصِياتٍ كأَنَّها رجالٌ من السُّودان لم يَتَسَرْبَلوا[3]

ويصف تمشيها فى دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدبُّ دبيبـــا فى العظام كأَنه دَبيبُ نِمالٍ فى نَقًا يتهيَّلُ[4]

ويرْسم صورة المنتشى بها نَشْوة تفقده حسه ووعيه ، على هذا النحو :

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأْسه لِيَحْيَا وقد ماتتْ عظامٌ ومَفْصِلُ

نُهاديه أَحيانا وحينًـــا نجرُّهُ وما كاد إلا بالحشاشة يَعْقِلُ[5]

إذا رفعوا صدْرا تحامل صدره وآخرُ مما نال منها مخبَّل

وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً ، حتى لنراه يذكر فى حديث له مع عبد الملك أنها هى التى تمنعه من إعلان إسلامه[6]. وفى أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا، فقد كان يتمسَّح بالقساوسة تبركاً، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . ونراه يذكر الصليب فى ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُقْسم بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفىِّ سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

---

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها .

(٢) عذراء : لم تفضّ . العبادى : . نسبة إلى قوم فى الحيرة كانوا يتجرون فى الخمر ، وهم نصارى ، سموا العباد .

(٣) الشاصيات : الممتلئة .

(٤) النقا : الكثيب من الرمل .

(٥) نهاديه : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٦) أغانى ( دار الكتب ) ٢٩٠/٨ .

## ٥

### الفرزدق (١)

شاعر تميمى ، وكانت تميم تنزل فى الجاهلية بشرقى الجزيرة، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل فى نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمضرية والربعية فى أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتُعَدّ أكبر القبائل المضرية،وهى فى حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض،ومن أشهر هذه القبائل دارم ويَرْبوع ومازن ومِنْقر وبنو الهُجَيْم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق فى الحديث عن أيامها وحروبها القديمة،ومن أهمها « أُوارة » بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرحان» بين دارم وعامر و « ذو نَجَب» بين يربوع وعامر و « النِّباج » بين مِنْقر وبكر و «إراب» بين يربوع وتغلب و«جَبَلة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طِخْفة» بين دارم ويربوع . وكانت وثنية إلا نفراً قليلا تنصروا ، وهم يسمَّون فى الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حَجَر وسلامة بن جَنْدل وعلقمة الفحل وعدى بن زيد العبادى ، ومن شعرائها فى صدر الإسلام عَبْدة بن الطبيب ومتمم

---

(١) انظر فى ترجمة الفرزدق الأغانى (طبع ساسى) ١٩/٢ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار فى أغانى ( دار الكتب ) ٣٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء ٤٤٢/١ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ ومرآة الجنان لليافعى ٢٣٨/١ وأمالى المرتضى ٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة فى الأغانى انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٦٢٠/٥ والطبرى ١٨٠/٤ وما بعدها و ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأمالى ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكمله هل . وطبع فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوى . ونشر بيفن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبى عبيدة ، والديوان والنقائض جميعا فى حاجة إلى نشرة علمية محققة .

ابن نويرة . وقد دخلت فى الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجَاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره، وشاركت مشاركة ضخمة فى فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة فى معارك صِفِّين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج فى زمن على بن أبى طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة فى صفوف الأزارقة . وقد مرَّ بنا أنها تحالفت فى البصرة مع قيس ضد الأزد وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا فى البصرة فحسب ، بل أيضاً فى خراسان .

وكانت دارم تتشعَّب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو نَهْشَل وبنو مُجاشع ، وفى بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة وُلد الفرزدق وهو لقبٌ لقِّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الخُبْزَة الغليظة التى يتخذ منها النساء الفَتوت . واسمه هَمَّام ابن غالب بن صَعْصعه بن ناجية بن عِقال ، وجميعهم فى ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فَدَى الموءودات فى الجاهلية ونَهى عن قتلهن ، ويقال إنه فَدَى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوَّه الفرزدق فى شعره بهذه المكرمة لجده طويلا ، من مثل قوله :

أَبِى أحدُ الغَيْثين صعصعةُ الذى  متى تُخْلف الجوزاءُ والنَّجْمُ يَمْطُرِ
أَجار بناتِ الوائدين ومن يُجِــرْ  على القَبْر يُعْلَمْ أنه غيرُ مُخْفَرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْر وَوَقْبان ودَيْسم ، ومن ثَمَّ جعل جرير مجاشعا قيونا كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر فى الجاهلية كان ابنه غالب فى الإسلام وأمه ليلى أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السَّيَّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جُودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويُرْوَى أن دارما ويربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحيم بن وَثيل فصنع صُنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرّ إبله كلها فى مكان يسمى صَوْءر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً فى شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثِن ، وتصادف أن أحد أشرار بنى مِنْقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد عيرّ جرير الفرزدق بذلك كثيرا حتى لنراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التى وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى سنة عشرين للهجرة ، ففى أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومى وأنا غلام فى خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفى أخباره أيضاً أن أباه قدّمه إلى على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابنى هذا شاعر ، فنصحه أن يعلّمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ فى بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسيته إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتدادا شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم فى هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجيرون . ولما توفِّى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التى حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثّل البدوى التميمى شديد الشكيمة الذى لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلا بعيداً عن قصر بنى أمية فى دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بنى أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمّ عم له يسمى الُحتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفِّى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكد يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة فى معاوية يقول فيها :

فما بالُ ميراث الحُتات أخلتَه ... وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ[١]

فلو كان هذا الأمرُ فى جــاهليَّةٍ ... علمتَ منِ المرءُ القليلُ حلائبه[٢]

ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه فى ذئبٍ ذهب بكبش من غنم لأهله ، وهو يستهلُّه بقوله :

تلوم على أن صَبَّح الذئب ضَأْنَها ... فألْوَى بكبْشٍ وهو فى الرَّعْيِ راتعُ

وهى أبيات جيدة الصياغة . وفى أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حَديد اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن هجاهم وأسرف فى هجائهم بنو فُقَيْم وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم فى قوم، فصالحوا منه على دية، فقال حين رجعوا :

لقد آبَتْ وفودُ بنى فُقَيْمٍ ... بِآلَمِ ما تؤوبُ به الوفودُ

ومضى يهجوهم هجاء كثيراً، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلَة النَّهْشلى، واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك فى سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ، وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قِبَل معاوية ، وكان سيداً ممدَّحا ، فأمَّنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغُرَّ الجَحاجحَ من قريشٍ ... إذا ما الأمرُ فى الحَدَثانِ غالا[٣]

قياماً ينظرون إلى سعيد ... كأنهمُ يرون بهِ هِــلالا

وسمعه الحطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ لا ما نُعلَّل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقَّ له وقال : لو أتانى لآمنته وأعطيته، فقال فى كلمة :

دعــانى زيادٌ للعطاءِ ولم أكنْ ... لآتيَهُ ، ما ساق ذو حَسَبٍ وَفْرا[٤]

---

(١) حرب : جد معاوية .

(٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم فى القبيلة.

(٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم . الحدثان : حوادث الدهر ونوائبه . وغال : أصاب بشر .

(٤) الوفر : المال الكثير . وأراد التأبيد أى لا آتيه أبداً .

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان، وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّاني من العاج قاصفٌ ... على مِعْصَمٍ رَيَّان لم يَتَخَدَّدِ(١)

وقوله :

هما دلَّتاني من ثمانينَ قــامةً ... كما انقضَّ بازٍ أقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُه

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغْرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم، فَوَلِيَ مروان ، وكانت فيه شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه مسكينا الدارميَّ يتفجَّع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةَ الإسلام ولَّتْ ... جِهــارا حين ودَّعها زيادُ

فحنق عليه حنقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أبكى اللهُ عينك إنما ... جَرَى في ضلالٍ دمعُها فتحدَّرا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهدم شطر حسبه . ونراه يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بني مِنْقَر ، ويغضب لهم مُرَّة بن مَحْكان (٢) شاعر بني رُبيع التميميين وسيدهم ، فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

تُرَجِّي رُبَيْعٌ أن يجيءَ صِغــارُها ... بخيرٍ وقد أعْيَا رُبَيْعاً كبارُهــا

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعبٌ ابنَ محكان. ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

---

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف : من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة الأساور . ريان : ممتلىء . يتخدد : يتجعد .

(٢) انظر في ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥ والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغاني ( ساسى ) ٩/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

يدخل - كما مر بنا - مع جرير فى معركة الهجاء التى استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتى أورثتنا نقائضهما آنفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النَّوَار وهى ابنة أعْين بن ضُبيعة المجاشعى ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليَّها ، فانتهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الحدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان الفزارى ، وتشفَّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقْبَلْ شفاعتهم  وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زَبَّانا

ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مُؤْتزرا  مثلَ الشفيع الذى يأْتيك عُرْيانا

وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله فى العراق فمضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا فى مكة ، غير أنها ظلت تشارُّه وتشاجره ، إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حَدْراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرِّض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، ومازالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول فى كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لما  غَدَتْ منى مطَلَّقةً نَوارُ(١)

وكانتْ جَنَّةً فخرجتُ منها  كآدم حين أَخرجه الضِّرار(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبَطة وسبَطة وخبَطة وركَضة من النوار ووُلد له أيضاً زَمْعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه فى الشعر . وفى تسميته

(١) الكسعى : شخص يضرب به المثل فى الندم. (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء مايدل من بعض الوجوه على غلَظ نفسه ولاشك فى أن فشله المبكّر فى حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتّى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به على العدو وغيثٌ يُنْبِت الشَّجَرا

ووَلِىَ العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلائقهُ سِيانِ معروفهُ فى الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذى يُرْمَى العدوُّ بهِ والمشرفىُّ الذى تَعْصَى به مُضَر (١)

ونوَّه طويلا بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل ؛ حتى إذا توفِّى رثاه رثاء حارًّا ، يقول فيه :

ومات الذى يَرْعَى على الناس دينَهم ويضربُ بالهندِىِّ رأْسَ المخالِف (٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التميمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، ولجَّ معه الحجاج وولاته فى المشرق ، وتصادف أن توفِّى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولِىَ لم يكن له هم إلا عُمَّال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى بخراسان ، فقتلته تميم وردَّت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع فى هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يُضْطرَّ اضطراراً للنزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدى السيد الجواد والفارس الشجاع الذى لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه فى جرجان ، ليُضْفِى عليه من نواله ؛ فيأبى قائلا :

---

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا . (٢) الهندى : السيف .

دعانى إلى جُرْجان والرَّىِّ دونه ، لآتيَهُ ، إنى إذنْ لزَءُورُ[1]
سآبى وتأبى لىَ تميمٌ وربما ، أبيتُ فلم يقدر علىَّ أمير

حتى إذا ولى يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً فى مديحه على شاكلة قوله :

إنى رأيتُ يزيدَ عند شبابِه ، لَبِسَ التُّقَى ومهـابةَ الجبَّارِ
وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم ، خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازنى الذى تعقب آل المهلب فى قندابيل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا[2].

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلا لا يفد على قصر بنى أمية فى دمشق ، وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بنى حَرْبٍ وكانوا أئمةً ، ومـروانَ لا آتيه والمتخيِّرا
أباك وقد كان الوليدُ أرادنى ، ليفعل خيرا أو ليُؤْمن أوْجَرا[3]
فما كنتُ عن نفسى لأرحل طائعا ، إلى الشام حتّى كنت أنت المُؤَمَّرا

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بنى أمية الذين يدعون لهم ويدافعون عن خلافتهم ، مضْفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبرّ : تحفُّها المبالغة المسرفة من مثل قوله فى سليمان :

أنت الذى نعت الكتابُ لنا ، فى ناطق التوراة والزُّبُرِ
كم كان من قَسٍّ يخبِّرنا ، بخلافة المهدىِّ أو حَبْر
جعل الإلهُ لنا خلافته ، بُرْءَ القروح وعصمةَ الجَبْر

(١) زءور : كثير الزيارة.
(٢) الديوان ص ٥٧٥ .
(٣) الأوجر : الخائف .

وقوله فى يزيد بن عبد الملك ، ولهوُه ومجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عبادهِ نبىٌّ لهم منهم لأَمر العزائمِ
لكنت الذى يختاره الله بعده لحَمْل الأَمانات الثِّقال العظائم
ورثتم خليلَ الله كل خِزانةٍ وكلٍّ كتابٍ بالنبـوة قائم

ولعل فى هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعيًّا مائلا إلى بنى هاشم وإنهم ليسترسلون فى ذلك فينسبون إليه قصيدة فى على بن الحسين وهى القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذى تعرف البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ والبيتُ يعـرفه والحِلُّ والحَرَمُ

وقد أنكر أبو الفرج الأصبهانى نسبة القصيدة إليه[1]، والذى لا شك فيه أنها تخالف نَسجَه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشىء سوى قبيلته وآبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرةٍ ، أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد تميم ، وممن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزارى والى يزيد بن عبد الملك ، وفيه يقول :

أميرَ المؤْمنين وأنت عَفٌّ كريمٌ لستَ بالطَّبِع الحَرِيصِ[2]
أوليتَ العِراقَ ورافِديْهِ فَزاريًّا أَحـذَّ يدِ القميصِ[3]

ووَلِىَ بعده خالد القسرى لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ، وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخَّر الناس فى شق نَهر المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوه بالعملين جميعاً ، يقول :

بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأُمِّه وهـدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجِد

ويقول

أَهلكتَ مالَ الله فى غير حقِّه على نَهْرك المشئوم غير المبارَكِ

(١) أغانى (ساسى) ١٤/٧٥ .
(٢) الطبع : اللئيم الدنىء .
(٣) أحذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به فى السجن ، فانقلب يستعطف مالكاً وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجّ خالد وأناب عنه أخاه أسدا ، فردّ إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه فى سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته فى إبليس ، وفيها يقول :

أَطعتك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً ... فلما انتهى شَيْبِى وتمَّ تمامى
فَرَرْتُ إلى ربى وأيقنت أننى ... مُـلاقٍ لأيام المَنون حِمامى

وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته فى المديح والهجاء ، وهو فى مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير فى الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحْتد ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع فى الغزل ، يقول الجاحظ : «وهذا الفرزدق وكان مستهتَراً بالنساء وكان زيرَ غـَوانٍ وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا »[١] . وكان جرير يتقدمه كذلك فى الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذى يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ فى الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صعَّرَ خَدَّه ... ضربناه حتى تستقيم الأَخادعُ[٢]

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٨ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وغطرسة . الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز فى صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

وقوله :

تری الناس ماسرْنا يسيرون خَلْفَنا　　　وإن نحن أوْمَأْنا إلى الناس وقَّفوا(١)

وقوله :

إن الذى سَمك السماء بنى لنـــا　　　بَيْتــاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ(٢)
حُلَلُ الملوك لِباسُنا فى أهلنا　　　والسَّابغاتِ إلى الوَغَى نتَسَرْبَلُ(٣)
أَحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً　　　وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهلُ(٤)
فادْفَعْ بكفِّك - إن أردت بناءنا -　　　ثَهلانَ ذَا الهضباتِ هل يتَحلْحَلُ(٥)

والحق أن الفرزدق كان نبعاً كبيراً من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صَلْبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك :

وما مثلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً　　　أبو أُمِّه حىٌّ أبوه يُقاربُهْ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعيًّا على هذا النحو : «وما مثله (الممدوح) فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضُّ زَمانٍ يابنَ مَرْوان لم يَدَعْ　　　من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفُ(٦)

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشيا مع رَوِىِّ قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرمى يراجعه فى ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخر منه . وقد عدَّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : «لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب» ومن ثَمَّ دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .
(٢) سمك : رفع .
(٣) السابغات : الدروع الكاملة . نتسربل : نلبس .
(٤) نجهل هنا : نغضب حمية .
(٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .
(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتّى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان . وله مدائح وأهاج مختلفة فى ولاتها وولاة فارس ، أمثال عبيدالله بن أبى بكْرة والجرّاح الحكمى وعمر بن عبيدالله بن معْمر والجُنَيْد ابن عبد الرحمن المُرِّىّ ، وقد نوّه طويلا بأسد بن عبد الله القسرى وهلال بن أحْوز المازنى . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائحه وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضِخَمٌ ناشىء من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التى قلما تعرف الرقة واللين

## ٦

### جرير (١)

شاعر تميمى من عشيرة كُلَيْب اليربوعية، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مُجاشع من المآثر والأمجاد، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير. وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة فى الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلا .

وكان أبوه عطية متخلفا فى المال مبخّلا ، أما جدّه الخَطَفَى فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قِبَله الشعر ، ومما يُرْوَى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراءِ العَيِىِّ بنفسهِ ... وصَمْتِ الذى قد كان بالقول أعْلَما

وفى الصمت سترٌ للعَيِىِّ وإنما ... صحيفةُ لُبِّ المرءِ أن يتكلما

(١) انظر فى ترجمة جرير الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموشح للمرزبانى ص ١١٨ وخزانة الأدب ٣٦/١ والعينى ٩١/١ وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين — وانظر ذيل الأمالى ص ٤٣ والطبرى ٢٦٧/٥، ٢٧٣ وراجع فهرس الأغانى فى مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه فى القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوى بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب. ونشر بيفن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبى عبيدة ، ونشر صالحانى نقائضه مع الأخطل برواية أبى تمام.

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهى من نفس عشيرته، وقد ولدتْ جريراً فى بادية اليمامة حوالى سنة ثلاثين للهجرة ، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد ، كانا ينظمان الشعر .

فجرير إن لم يكن نشأ فى بيت مجد فقد نشأ فى بيت شعر ، وظل الشعر يُتوارث فى أبنائه ، وأشعرهم بلال . وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين فى العصر العباسى، وعنه أخذ الرواة شعر جَدّه وأكثر أخباره ، ويقول ابن قتيبة كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور .

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة، وقد وَجَد فى جَدّه الخطَفَى خير من يلقّنه الشعر ، ويقال إن من أوائل ما نظمه مما رواه له الرواة أبياتاً عاتبه بها ، وذلك أنه كان ذا مال كثير ، وكان يَنْحلُ أبناءه وأحفاده من ماله، فاستنحله جرير ، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلا فاستزاده فلم يزده ، فتسخّطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها ، وقد وصلها بعد ذلك بسنوات بأبيات نظمها فى الفرزدق وغَسّان السليطى، وفيها يقول معاتباً جدّه :

وإنى لمغرورٌ أُعلَّلُ بالمُنَى ليالىَ أَرجو أَنَّ مالك مَاليا
وإنى لعَفٌّ الفقر مُشْتَرَكُ الغِنى سريعٌ– إذا لم أَرض دارى– انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال له : كذبت إنها لجرير ، فقال له : أنا جرير . ومن قوله فيها :

وليستْ لسيفى فى العظام بقيّةٌ وللسَّيْفُ أَشْوَى وقعةً من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف ، فالسيف إنما يقطع الشَّوَى أى الأطراف، فيُبْقى على من طعنه، أما لسانه فلا يُبْقى بقية فيمن يطعنه . وهو استهلال لحياته الشعرية ، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء ، وقد ظل يجول ويصول فى هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد الفرزدق بنحو ستة أشهر . ونراه يهاجى غَسّاناً السَّليطى، ويعينه البَعيث، فيطعنه ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء ، فيُضْطَرُّ الفرزدق أن ينازله ،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوه وهو مقيم بالمَرُّوت من بادية اليمامة بضع سنوات . فأرسلتْ بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروت ، ليس عندك أحد يَرْوِى عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فانحدرَ إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدتُ لثَغْرِ قومى مشهدًا  آثَرْتُ ذاك على بَنِىَّ ومــالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق فى طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ — ٦٦هـ) يأمر — حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمِرْبَدِ — صاحب شرْطته عَبَّاد بن الُحصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ دارى مَرَّتين هدمتهــا  وكنتَ ابن أُختٍ لا تُخاف غَوائله

ويقول جرير :

وما فى كتاب الله هَدْمُ بيوتنا  كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَداخِلُهْ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى — كما أسلفنا — مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغانى نقلا عن الأصمعى إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ويقول فى موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءوننى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إننى لا أبتدئ ولكن أعتدى ، ويُرْوَى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوٍ عَوَى من غير شىءٍ رميتُه  بقافية أَنْفاذُها تقطر الدِّما[1]
خَروجٍ بأفواه الرُّواة كأنها  قَرَا هُنْدُوَانىٌّ إذا هُزَّ صمَّما[2]

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذى تحدثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل ألام على أن يغلبنى مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة فى نساء عشائرهم ، كقوله فى نساء عشيرة سُراقة البارقى ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقَ مالهن مهورُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لجأ التَّيْمى إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبا تأديباً ، فضُربا وأقيما على البُلُس[1] مقرونين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حضَر الملوكَ وفودُهم نُتِفتْ شواربهم على الأبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلبَها وشاعرها ثلباً قبيحاً . وويل للعشيرة التى كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بنى الهُجَيْم فى مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلا له : اتَّق الله ، فإن هذا المسجد بُنى لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إن الهُجَيْمَ قبيلةٌ ملعــونةٌ حُصُّ اللِّحَى متشابهو الألوانِ[2]
لو يسمعون بـأكلةٍ أو شَرْبَةٍ بعُمان أَصبح جمعهم بعُمان
متــوركين بنيهمُ وبنــاتِهم صُعْرَ الأُنوفِ لريح كلِّ دُخانِ[3]

---

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ، كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر فى ذقنه وعارضيه .
(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم وبنيهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع أصعر وهو الذى ينظر بوجهه لاوياً عنقه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج ( ٧٥ — ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدّم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلّه هذا العصر ، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفى نائبه على البصرة ، فيمدحه برجز ، يقول فيه :

خليفة الحجّـاج غير المتَّهَمْ　　فى مَعْقِدِ العِزِّ وبُؤْبُؤِ الكَرمْ[1]

واستنطقه فأعجبه ظَرْفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعثْ به إلىَّ ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النفـاق عليكمُ　　أم مَنْ يصولُ كصولة الحَجَّاجِ[2]
أَم من يَغَارُ على النِّساءِ حفيظةً　　إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأَزواجِ[3]
إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا　　ماضى البصيرة واضحُ المِنْهاجِ
ماضٍ على الغَمرات يُمْضى همَّهُ　　والليلُ مختلفُ الطرائق داجى[4]
منع الرُّشا وأَراكمُ سُبُلَ الهُدَى　　واللِّصَّ نكَّله عن الإِدْلاجِ[5]
وإذا رأيتَ منافقين تخيَّروا　　سبلَ الضَّجاجِ أقمتَ كلَّ ضجاجِ[6]
داويتَهم وشفيتَهم من فتنةٍ　　غبراءَ ذاتِ دواخنٍ وأُجاجِ[7]
ولقد كسرتَ سِنانَ كلِّ منافقٍ　　ولقد منعتَ حقائبَ الحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التى يجلُّها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصوِّر كيف أقام العدل فى الناس ومنع

(١) بؤبؤ : أصل .
(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصعد .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) الغمرات : الشدائد . داجى : مظلم .
(٥) الإدلاج : السير ليلا .
(٦) الضجاج : الباطل .
(٧) الأجاج هنا: من أجة النار. والدواخن : جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقُطَّاع الطريق فى الليل المدلهم . ويقول إنه قوَّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيثون فى الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوِّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجَّاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ ... فأَسمع ذا المَعارج فاستجابا (١)

صبرتَ النفسَ يابن أَبى عَقيلٍ ... محافَظةً فكيف ترى الثَّوابا

ولو لم يَرْضَ ربُّك لم ينزِّلْ ... مع النَّصْر الملائكة الغِضابا

إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأَى الحجَّاجَ أَثْقَبَها شهابا

وكان عبد الملك بن مروان فى دمشق يفسح فى مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصرانى ، ويُنْقَلُ إليه شعر جرير فى الحجاج فيَغْبِطُه عليه لروعة شعره ومهارته فى المديح . ورأى الحجاج أن يُهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة فى أن يَمْثُلَ بمديحه بين يديه ، فصحبه معه فى وفادته التى وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له فى النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه فى الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التى يقول فى استهلالها :

تعزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ ... رأَيتُ المُوردين ذوى لِقاحِ (٢)

تعلِّل ، وهْىَ ساغبةٌ ، بَنيها ... بأَنْفاسٍ من الشَّبِمِ القَراحِ (٣)

سأَمتــاح البحورَ فجَنِّبينى ... أَذاةَ اللوم وانتظرى امتياحى (٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإنى قد رأَيتُ علىَّ حَقًّــا ... زِيارتىَ الخليفَــةَ وامتداحى

أَلستم خيْرَ من ركب المطايا ... وأَنْدَى العالمين بطونَ راحِ (٥)

---

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ذو المعارج : الله جل جلاله .

(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء . ولقاح : جمع لقحة وهى الناقة فى أول نتاجها . أم حزرة : إحدى زوجاته .

(٣) تعلل أبناءها : تشغلهم . ساغبة : جائعة . النفس من الماء : الجرعة . الشبم : البارد . القراح : الصافى .

(٤) أمتاح : أستقى من الميح وهو العطاء .

(٥) أندى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصوّر فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقــومٍ قد سموتَ لهم فدانوا ... بِدَهْمٍ فى مُلَمْلَمــةٍ رَدَاحِ [(١)]

أبحتَ حِمَى تهــامةَ بعد نَجْدٍ ... وما شىءٌ حميتَ بمستباحِ [(٢)]

دعــوتَ المُلْحدين أبا خُبَيْبٍ ... جِماحًا ، هل شفيتَ من الجماحِ [(٣)]

فقــد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا ... ألفَّ العِيصِ ليس من النواحِى [(٤)]

فما شجراتُ عِيصِك فى قُرَيْشٍ ... بِعَشَّاتِ الفروع ولا ضَواحِى [(٥)]

رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا ... وبَيَّنَتِ المِراضُ من الصِّحاحِ [(٦)]

وأُعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومِحْلباً من فضة . وجرير فى هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه فى الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر فى مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم فى الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعَدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين فى الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدِّد سهامه إلى خصومهم ، وهو فى تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقرراً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشِّيَع أهلُ باطل وضلال وأهواء وبِدَع ، يقول فى عبد الملك :

لولا الخليفةُ والقرآنُ نقرؤهُ ... ما قام للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ

---

(١) دانوا : أطاعوا . الدهم : الجيش الكثير . ململمة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يقصد من ثاروا عليه .

(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان فى يديه من نجد والحجاز .

(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح : العناد والخلاف .

(٤) هبرزيا : نافذاً فى الأمور ماضياً . ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه فى صميم العز وليس فى نواحيه .

(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان . والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .

(٦) بينت : تبينت .

أنت الأَمين أمينُ الله لا سَرِفٌ ... فيما وَليتَ ولا هَيَّابةٌ وَرَعُ[1]

أَنت المباركُ يَهدى اللهُ شِيعتَه ... إذا تفرَّقتِ الأَهواءُ والشِّيَعُ

فكلُّ أَمر على يُمْن أَمرتَ به ... فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُسْتَمع

يا آلَ مروان إن الله فَضَّلكم ... فَضْلاً عظيما على مَنْ دينُه البِدَع

وواضح أنه يُزْرى على أصحاب الأهواء الذين يحادّون بنى أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسميهم أهل بدع وضلالة . ويتوفَّى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه فى أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لجأ عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يَصْرِف جريرا عنه ، فقد كان يلمُّ به فى دمشق ، وكان يراه يقرِّب عدىَّ بن الرِّقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبَّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى ... بالنَّصْر هُـزَّ لواؤُه والـمغْنَم

ذو العرش قَدَّر أن تكون خليفةً ... مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَم

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليتها عبد العزيز رأيناه يَحْطب فى حبله بمثل قوله :

إذا قيل أىُّ الناس خيرٌ خليفةً ... أشارتْ إلى عبد العزيز الأَصابعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفَّى الوليـد ويتولى سليمان ، فيفـد عليه مادحاً ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصوِّر من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجَنهم الحجاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو فى تضاعيف ذلك ينوّه بأن الله اختاره للأمة ناعتاً له بأنه المهدى المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ المبارك قد علمتم هو المهدىُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نَفْس وأدَّيتَ الذى عَهِدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةٌ بثبات عَهْد فوَزْنُ العَدْلِ أصبح لا يميل
وتدعوك الأرامِلُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ (٢)
ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْدٍ وعانٍ قد أضرَّ به الكُبُول (٣)

ونراه يمدح ابنه أيوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله فى دينه ويزهد فى الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفتُه به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصوّر فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنت المبارك والمهدىُّ سِيرتُه تَعْصِى الهوى وتقوم الليل بالسُّوَرِ
نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَرًا كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر فى طرْح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجْبَىَ منها غير الخراج (٤) ، فيقول فى مدحة أخرى :

إن الذى بعث النبىَّ محمَّدًا جعل الخلافة فى الإمام العادلِ
ولقد نفعتَ بما منعتَ تحرُّجاً مَكْسَ العُشورِ على جسور الساحل (٥)

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولى الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبرى ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التى نظمها فى قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها فى الكلام على النقائض .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذى كلف فوق طاقته . والعانى هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا فى وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناوله بالهجاء على نحو ما صنع الفرزدق فى ميميته .

(٤) انظر الطبرى ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة فى قنطرة أو جسر .

وسرعان ما توفِّى عمر ، فندبه ندباً حارًّا ، يصور فجيعة الأمة فيه حتى ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنْعَى النُّعاةُ أَميرَ المؤمنين لنــا    يا خيرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلْتَ أمرًا عظيما فاصطبرتَ له    وقمتَ فيه بأَمر الله يا عُمَرَا
فالشمس كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ    تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا(١)

ويتولَّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه فى العراق يزيد بن المهلب ، ويَقْضى على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً فى قصائد مدح بها يزيد ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التى صور بها سابقيه من الخلفاء ، من مثل قوله :

زان المنابرَ واختالتْ بمنتجَبٍ    مثبَّتٍ بكتاب الله منصورِ

ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوِّه فى مديحه لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة فى الأمة ولا فى قريش ، بل هى وراثية فى بنى أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد الملك ، وفيه يقول فى آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :

إلى المهدىِّ نَفْزَع إن فزعنا    ونستسقى بغُــرَّته الغَماما
وحَبْــلُ الله يَعْصمكم قُوَاه    فلا نَخْشَى لعُرْوته انفصاما(٢)

ومدحَ جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبدالملك وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ، ودائماً ينوِّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ عرفَ عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له فى سواهم إلا مدائح قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالداً القسرى مستشفعا للفرزدق كى يُطْلقه ، ومدح بعض أشراف قيس وتميم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أبد الآبدين .

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلابى والجُنَيْد بن عبد الرحمن المُرِّى وهلال بن أحْوز المازنى الذى نكَّل بآل المهلب فى ثورتهم . ويظل أضخم صوت فى ديوانه تغنّى به مادحاً صوته فى الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفى رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسى رهان ، بل لقد كان يتقدمه فى كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطلَ والفرزدق جميعاً فى الموضوعات التى تتطلب دقة فى الإحساس ورقة فى الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ، وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق فى الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمِّرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شىء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صفَىٍّ جوهرها ، وزاد فى هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان دَيِّناً عفيفاً طاهر النفس . واقرأْ رثاءه لزوجته أم حَزْرة ، إذ يقول :

لولا الحَياءُ لعــادنى استعبارُ ولَزُرتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزَارُ
ولَّهْتِ قلبى إذ علتْنى كَبْرَةٌ وذوو التمائم من بَنيك صِغارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخُيِّروا والصالحون عليكِ والأَبْــرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيِّيا فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حَزْرة هذه وأمامة التى أهداها إليه الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات وُدٍّ ومحبة . ولم تَنْشز عليه سوى جارية اشتراها بأخَرة ، وقد عابت عليه عَيْشه وكَبْرةَ سنه ، ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكوراتُ فكن يبادلنه وداً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدّم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتاطف ويستعطف ويشكو ويتضرّع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنُّبُه عزيزٌ ... علىّ ومَنْ زيارته لمامُ(١)
ومن أُمْسى وأُصبح لا أراه ... ويَطْرُقنى إذا هجَع النِّيـام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيَّمنى ... لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيين قَتْلانا
يَصْرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لاحَراك به ... وهن أضعفُ خلق الله أركانا
أَتبعتهم مُقْلَةً إنسانُها غَـرِقٌ ... هل ما ترى تاركٌ للعَيْن إنْسانا(٢)

وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النَّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يَشْغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النَّوار :

وهنَّ كماءِ المُزْن يُشْفَى به الصَّدَى ... وكانت مِلاحاً غيرهن المشاربُ(٣)

ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صوّر ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تَشِنْه أُمُّهُ ... يَشْفِى الصُّداعَ ريحُه وشَمُّهُ(٤)
ويُذْهب الهمومَ عنى ضَمُّهُ ... ينفح ريحَ المسك مُسْتَحَمُّهُ
يُمْضى الأُمور وهو سامٍ هَمُّه ... بَحْرُ البحور واسعٌ مجَمُّهُ(٥)
يُفَرِّج الأَمرَ ولا يَغُمُّهُ ... فنَفْسُهُ نفسى وسمِّى سَمُّهُ(٦)

---

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .
(٢) إنسان العين ـ سواد حدقتها .
(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .
(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمتها .
(٥) المجم : الصدر .
(٦) يغمه : يبهمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارَى فى جميع الموضوعات التى تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق فى الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما فى الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يَريش سهامه ويسدّدها إلى نحور خصومه، محمِّلا لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تَنِدُّ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناس كلَّهمُ غِضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق فى هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نَبْعاً ثَرًّا من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتى دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه فى النُّدْرة من قطع مديح متوهجة . وساقَ نفسَ هذا الحكم عليهم قديما بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصَّبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريرا على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النَّوار ( زوجه ) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شىء لجرير من المراثى إلا التى رثى بها امرأته : أم حَزْرة، فأورد عليه بشار مرثيته فى ابنه سوادة التى يقول فيها :

فارقتَنى حين كفَّ الدَّهْرُ من بَصَرِى وحين صِرْتُ كعظم الرِّمَّة البالى

فاقتنع سائله[1] .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعْنَى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثَم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . ومما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة فى نقد الشعر وتمييز جيده من رديئه، حتى قالوا إنه كان يَسْطو على بعض أبيات معاصريه ، حين يبهره حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره بجزالة لفظه وشدة أَسْره . أما جرير فإنه لا يبارَى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ، فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرَت أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرْسها وتلذ النفوس والأفئدة .

# الفصل الرابع

# شعراء السياسة

## ١

### شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته، فخلا الجوّ لابن الزبير الذى عاذَ بمكة، وقد اتخذ من قَتْل الحسين أداة للتشنيع على يزيد وعُمّاله، وثارت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرّة المشهورة . فاتسعت الجروح في الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كَلْب وغيرها من قبائل الشام اليمنية، وكأنه لم يَعُدْ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقًّا أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكّمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يلُون الخلافة كما وليها يزيد، لا بسلطان شرعي ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولا بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يَفْضلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذى نكّبَ المدينة في وقعة الحرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهبَّ كثير من العرب حتى من الخوارج للذَّوْد عن البلد الحرام . وضُرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه . وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذى اختير للجماعة ، فأبوه من كبار الصحابة المقدَّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قويَّ الشخصية تقيا وشارك فى فتوح إفريقية ، وسرعان ما انضمت تحت لوائه قيس فى الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السُّلَمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية بعهد منه ، ولكنه توفِّى سريعاً ، وبدا كأن حكم بنى أمية قد انتهى ، حتى ليقول ابن عَرادة بخراسان[1] :

أبنى أُميَّةَ إنَّ آخر مُلْككم جَسَدٌ بحُوَّارين ثَمَّ مقيمُ[2]
طرقتْ منيَّتُهُ وعند وِسادِه كوبٌ وزِقٌّ راعفٌ مَرثوم[3]
ومُرِنَّةٌ تبكى على نَشْوانِهِ بالصَّنْج تقعد تارةً وتقوم[4]

وظل ابن الزبير يقود الولايات التى تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن الحكم أن ظهر بالشام تَسْنُده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقَيْس الشام وقعةَ مَرْج راهط المشهورة ، فخلصتْ له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ، وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفِّى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان سياسيًّا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله ، وكان فى ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويَضْرب الرواة لذلك مثلا هو أن فَضَالة بن شريك الأسدى ، وقيل بل ابنه ، وفَد عليه[5]

---

(١) طبرى ٤٢١/٤ .
(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها يزيد .
(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى تقطرت منه الخمر .
(٤) مرنة : مغنية .
(٥) انظر فى هذه الوفادة ترجمة فضالة بن شريك فى الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٧١/١٢ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٢٤/٧ والإصابة ٢٢٤/٣ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له: إن ناقتي قد نَقِبَتْ[1] ودَبِرَتْ[2]، فقال: ارْقَعْها بجلد[3]، واخْصِفْها بهُلْب[4]، وسِر البَرْدَيْن[5] بها تصحّ، فقال فضالة: إني أتيتك مُسْتحمِلاً ولم آتك مستوصفاً، فلعن الله ناقة حملتني إليك، فقال له ابن الزبير: إنّ[6] وراكبها. وانصرف فضالة من عنده، وهو يقول:

شكوتُ إليه أنْ نَقِبَتْ قَلوصي ... فردَّ جوابَ مشدودِ الصِّفاد[7]

يَضِنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكًا ... محالٌ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشيد ببني أمية وكرمهم الفياض، ويقول إنه صائر إليهم. ولعل في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم، وكأنما لم تكن تَعْنيه هذه النبال.

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير، وإنما معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه، ومع ذلك فقد وقف في صَفِّه كثير من الشعراء، لا في الحجاز حيث كان يدعو لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق. ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبيات والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية، وأن الشعراء في الطرفين جميعاً سلُّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين، أو بعبارة أخرى مفاخرين ومهاجين هجاء مريراً. ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبيلية فحسب، بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة، إذ كان هوى قيس مع ابن الزبير وهوى القبائل اليمنية وتغلب مع بني أمية، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة، ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطين» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

---

(١) نقبت: من نقب البعير إذا حفي ورقت أخفافه.

(٢) دبرت: أصابها جرح في ظهرها.

(٣) ارقعها بجلد: يريد أن يجعل لها خفا من جلد.

(٤) الهلب: الشعر. الخصف: الخرز. يريد أن يخرز الخف به ليقيه.

(٥) البردين: الغداة والعشي.

(٦) إن هنا بمعنى نعم.

(٧) القلوص: الناقة. الصفاد: ما يشد به الأسير من قيد ونحوه.

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية[١] عنيفة ، فهو دائماً يهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو فى تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدل الذى يناصر بنى أمية ، يقول[٢] :

أفى الله أما بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ  فيَحْيَى وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ

كذبتم وبيتِ الله لا تقتلونه  ولما يكن يومٌ أغرُّ محجَّلُ[٣]

ولما يكن للمشرفيَّة فوقكم  شعاعٌ كقَرْنِ الشمس حين ترجَّلُ[٤]

وعلى هذا النحو كانت تختلط فى أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترُّون ذلك طويلا ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحاميها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذى انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا فى النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلَّتْ غيوثه على الشعراء ، فمدحه منهم كثيرون مثل أعشَى همدان ودُكَيْن الفُقَيْمى ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، إنما يهمنا الشعر السياسى الذى كان يدافع عن نظرية ابن الزبير فى الخلافة ، هاجياً ابنى أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مُدافع ، ومن ثَمَّ ينبغى أن نقف عنده قليلا .

### ابن[٥] قيس الرقيات

اختلف الرواة فى اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن فى أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا فى اسمه اختلفوا فى

---

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف البلاذرى فى مواضع متفرقة والأغانى (ساسى) ١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبرى ٤١٩/٤ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبقى ولا يذر

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر فى ترجمة ابن قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٢٣/١ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب ٢٦٥/٣ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣١٦/١ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة ولعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وله ديوان نشره رودكناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه تحقيقا علميا وأعاد نشره فى بيروت محمد يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينوَّن قيس وإما مضافة . راجع فى ذلك الخزانة .

سبب نعته بالرُّقَيَّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبِّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤى ، وُلد بمكة فى العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شُرَيْح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُهَيْب بن ضِباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤى. وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء فى الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلا ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغانى أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيح وفِنْد ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر فى بعض شعره داراً له بها [1] ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفى اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية فى المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذى كان يُعقّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص فى حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت فى مروان شدة وغلظة فكان إذا وَلِىَ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد، ومن ثَمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته [2] ، وهو فى أثناء ذلك ينظم مقطوعاته فى الغزل ، ويترنَّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة فى أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة فى تلك الفترة التى ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرَّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، فهزته تلك الأنباء هزًّا عنيفاً، فإذا هو يبكى من ماتوا من أهله بكاء حارًّا ، يقطر بالثورة على يزيد وبنى أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد ... أَوْجَعْنَنى وقَرَعْنَ مَرْوَتِيَهْ [3]

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .

(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغانى ٥/٧٣ ومابعدها.

(٣) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْد وإخوتهم حــلَّ الهلاك على أقاربِيَه[١]
ونُعِى أسامةُ لى وإخوتُه فظللتْ مُسْتَكًّا مَسامعيــه[٢]
تبكى لهم أسماءُ مُعْــولةً وتقــول ليلى : وارَزِيَّتِيَــهْ
واللهِ أبرحُ فى مقــدِّمةٍ أَهْدِى الجيوشَ، علىَّ شِكَّتِيَهْ[٣]
حتى أفجِّعهم بإخــوتهم وأسوقَ نِسْوتهم بِنسْوَتِيَهْ

ولم يلبث يزيد أن توفى ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرَّبنا فى غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُباب بطل قيس فى بعض حروبه ، مما جعله يؤثرالتحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعيًّا أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرَّة، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغى أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا ، بحيث تكون حاضرتها فى الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كَلْبٍ وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرة المشئومة. وهو يصدر فى ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التى أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثَمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة فى أن ينقضَّ حكمهم فى الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التى يفتتحها بقوله :

أقفرتْ بعد عَبْد شَمْس كَداءُ فكُدَىٌّ فالرُّكْنُ فالبَطْحاءُ[٤]

ومضى يطيل فى ذكر الأماكن التى هجرها الأمويون إلى دمشق وربوع

---

(١) بنو عبد: عشيرته نسبها إلى جده السابع .
(٢) استكت المسامع : صمت وضاقت ، هو مثل يضرب للنبأ الشديد يصرك سامعه .
(٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة : السلاح التام .
(٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن : ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت فى الجاهلية .

الشام منوّهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بُلْداناً وشيَعاً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرّح بذلك فيقول :

حَبَّذا العيشُ حين قومى جميعٌ  لم تفرَّق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْ  لِك قريشٍ وتَشْمَتَ الأعداءُ

ويمضى فيرد على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تُنْزَعَ الخلافة من قريش وتُرَدّ إلى العرب ، بل إلى المسلمين جميعاً ، يقول :

أيها المُشْتَهِى فناءَ قريشٍ  بيَدِ الله عُمْرُها والفناءُ[1]
إن تودِّعْ من البلاد قريشٌ  لا يكنْ بعدهم لحىٍّ بقاءُ

فقريش هى عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجّه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قد عَمِرنا فَمُتْ بدائك غيظاً  لا تميتنَّ غيرَك الأدْواءُ[2]

ويأخذ فى الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفراً الطيار والزبير بن العوّام حوارىّ النبىّ وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفى ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحَى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إنما مصعب شهابٌ من الل  ـه تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
مُلْكهُ ملكُ قوّةٍ ليس فيه  جبروتٌ ولا بهِ كبْرياءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها فى الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يحجّ إليه الناس من كل فجّ عميق ، ويأسى لحَرْق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرَّة ، ويُشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

(١) عمرها : يريد بقاءها .
(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلا ، يشير إلى خلافة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين فى كربلاء يقول :

كيف نَوْمى على الفِراش ولمَّا   تَشْمَلِ الشَّامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهل الشَّيْخَ عن بَنِيه وتُبْـــدِى   عن بُراها العقيلةُ العَذْراءُ[١]
أنا عنكم بنى أميـــة مُزْوَ   رٌّ وأنتم فى نفسىَ الأَعداءُ
إنَّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أوجعتْنى   كان منكم لئن قُتِلْتُم شفاءُ[٢]

وهذه هى الأنغام السياسية التى كان يوقِّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشى بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْج راهط التى هُزِم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المُبيرة . ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه فى هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتَى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيباً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله فى عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهى غاضبة عليه ليترضَّاها [٣] :

جِنِّيَّةٌ برزتْ لتقتلنى   مطليَّـــةُ الأَصداغ بالمِسْكِ
عَجباً لمثلِك لا يكون له   خَرْجُ العِراقِ ومِنْبَرُ المُلْكِ[٤]
تَرْمى لتقتلنا بأَسهمها   ونزُنُّها بالحلم والنُّسْكِ[٥]

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .
(٢) الطف : من ضواحى الكوفة حيث كربلاء التى قتل فيها الحسين .
(٣) انظر الأغانى ( طبع دار الكتب ) ١١/١٧٦ وقارن بالديوان ص١٤١ وقد وصل القطعة بأبيات فى أم البنين لاشك فى أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .
(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة وكأنه يتمناها لمصعب .
(٥) نزنها : ننسبها إلى .

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرنْ هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذى كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما فى صورة تؤذيهما كقوله فى عاتكة :

بَدتْ لىَ فى أترابها فقَتَلْنَنى ... كذلك يقتلْن الرجال كذلكا
وقالتْ لو أنَّا نستطيع لزاركم ... طبيبان منا عالمانِ بدائكا[1]

ويتخيل أم البنين جاءته فى الُحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهى تمعن معه فى اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أتتْنى فى المنام فقُلْ ... تُ هذا حين أعْقَبُها[2]
فلما أنْ فَرِحْتُ بها ... ومال علىَّ أعْذَبُها[3]
شربتُ بريقها حتى ... نَهِلْتُ وبِتُّ أشْرِبها[4]
وبِتُّ ضجيعها جَذْلا ... نَ تعجبنى وأُعجبها[5]
وأيقظنا منادٍ فى ... صلاة الصبح يرْقُبها[6]

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذى يمثّل الحكم القرشى الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه فى دَيْر الجاثليق ، وقد انفضَّ عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقْتَل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجِّعاً على صاحبه آسياً لا نفضاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظنًّا

---

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء الحب الذى سرى فى نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقباها لى أى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فمها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة[١] على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثَمَّ رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمِّماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر فى المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبَّاه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يردُّ لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفى رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مَثَل بين يديه ينشده بائيته التى يقول فيها :

ما نقَموا من بنى أمية إ     لاَّ أنهم يَحْلُمون إن غضبوا
وأنهم مَعْدِن الملوك فلا     تصلحُ إلا عليهمُ العرَبُ
إن الفَنيقَ الذى أبوه أبوالـ     عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ[٢]
خليفةُ الله فوق منبرِهِ     جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب
يَعْتدل التاج فوق مفرقِهِ     على جَبينٍ كأنه الذَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِبْ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولِّى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشرا ، ويُعْطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش فى ظل ابن جعفر يُغْدق عليه من بِرِّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلا ، حتى إذا فكر عبد الملك فى صَرْف ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول فى بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتهْنهِ مصرُ والعراق وما     بالشام من بَزِّه ومن ذهبه[٣]
يَخْلُفك البِيضُ من بنيك كما     يَخْلُف عودُ النُّضار فى شُعَبه[٤]
نحن على بَيْعة الرسول وما     أعطىَ من عُجْمه ومن عَرَبه

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ( طبعة أوربا ) ص٤١٢ .
(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .
(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعَّده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقرَّ له قرار وضاقت الدنيا فى عينيه فنظم قصيدة بديعة يذمّ فيها من يغتابونه عند عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّر الظَّبْىُ والغُرابُ بسُعْدى مرحبــًا بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نَحْس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد على عبد الملك من حين إلى حين فى ديوانه مدائح له مختلفة ،والطريف أنه يستهلُّ بعضها بغزله بأم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف جمالها ووقارها متلطفاً . وليس فى ديوانه مدائح فى الوليد مما يدل على أنه إن كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلا . وفى ديوانه قصائد مختلفة مدح بها عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أتيناك نُثْنى بالذى أنت أهله عليك كما يُثْنى على الروض جارُها

إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنت مَنارُها

وممن مدحهم ونوَّه بهم طويلا طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيــه يقول حين توفِّى بيتــه المشهور من مرثيــة فيه بديعة :

نضَّر الله أَعْظُماً دفنوها بسِجِسْتانَ طلحةَ الطلحاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد حين هُزم فى حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجَّائين فى عصره .

وحتّى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو فى الطليعة من شعراء الغزل المكيين ، ولو أنه لم يَشْغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وتَخلَّص للغزل على شاكلة عمر بن أبى ربيعة لما قصَّر عنه فى هذا الفن ، وقد رأيناه فى مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع فى موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى فى مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطْبِع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقَىَّ بعيشِكم لا تَهْجُرينا وَمَنِّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا فى غَدٍ ما شئتِ إنَّا نُحِبُّ وإن مَطلتِ الواعدينا
فإما تُنْجِزِى عِلَّتى وإما نعيش بما نؤمل منك حِينا

وقوله :

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبى فواكبدى من الحبِّ
وقالوا اداوه طبٌّ ألا بل حبُّها طِبى

وقوله :

حبٌّ ذاك الدَّلُّ والغُنُجُ والتى فى عينها دَعَجُ (١)
والتى إن حدثتْ كذبتْ والتى فى وعدها خَلَجُ (٢)
خَبِّرونى هل على رجل عاشق فى قُبْلةٍ حَرَجِ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّين باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلا يملؤه بالصبابة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل والمزح . الدعج : شدة سواد العين .

(٢) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

## ٢

### شعراء الخوارج

رأينا فى غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وصُفْرية ونَجدات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد فى سبيل عقيدتها فى ولاية الأمة وأنه ينبغى أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الدينى الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج فى هذا العصر للحرب ، مستحلّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهى معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوّار ترافقهم السيوف فى غدوهم ورواحهم وفى استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثَمّ كان شعرهم فى جملته حماسياً ، وهى حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، عصبيات القبيلة التى كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التى تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا فى سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا فى معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالين فى نضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطّنين أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طُعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربِّ لترضى) [١] وكأنما وهبوا أنفسهم للموت . ولهم فى ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوّنون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدّمه الحجاج إلى القتل ، فأنشد [٢] :

ما رغبةُ النفس فى الحيـــاة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقُهـــا
وأيقنتْ أنهـــا تعود كما كان بَراها بالأمس خالقها [٣]
يوشك من فَرَّ من منيّتِهِ فى بعض غِـــرّاته يوافقها
من لم يمتْ عَبْطَةً يمتْ هـــرما والموت كأْسٌ والمرءُ ذائقها [٤]

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجى ، الموت قعْصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبْناء وكان من الأزارقة :

أَبيتُ وسِرْبالى دِلاصٌ حصينة ومِغْفَرُها والسيف فوق الحيازم [٥]
أُريد ثواب الله يوماً بطَعْنَـــةٍ غموسٍ كشِدْقِ العنبرىِّ بن سالم [٦]

فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة [٧] :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معـــاراتها تدعو إلىَّ حِماميا [٨]
أُنازعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّب الموتَ القِراعُ لقدأنَى لموتَى أن يدنو لطول قراعيا [٩]

---

(١) المبرد ص ٥٦٤ .
(٢) المبرد ص ٤٣ .
(٣) براها : خلقها .
(٤) عبطة : شابا .
(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح .
(٦) غموس : واسعة . العنبرى بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فمه .
(٧) انظر فى ترجمة قطرى وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمالى المرتضى ١/ ٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد والطبرى والبيان والتبيين .
(٨) تعاريني : تطلبنى عارية . الحمام : الموت .
(٩) القراع : مضاربة السيوف فى الحرب . أنى : آن .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويترح عنها إلى الحياة الباقية التى لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملّ دنياه . وتصوّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهى أم حكيم ، إذ تقول [١] :

أحمل رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مَلِلْتُ دَهْنه وغَسْله

ألا فتًى يحمل عنى ثِقْلَهْ

وكأنما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس فى خروجه [٢] :

أبعد ابن وهب ذى النّزاهة والتّقَى ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا

أُحبُّ بقاءً أو أُرجِّى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حِصْن ومالكا

فياربِّ سَلِّمْ نيتى وبصيرتى وهَبْ لى التُّقَى حتى ألاقى أولئكا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبى والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طَلِبته ، فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكأن الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم السعادة المنشودة ، وهى سعادة يطلبها كل خارجى لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الرّاسبى حين قُتل ابنها فى يوم دولاب [٣] :

اللهُ أيَّد عِمْرانًا وطهَّره وكان عمران يدعو الله فى السَّحَرِ

يدعوه سِرًّا وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدى مِلْحادَةٍ غُدَرِ [٤]

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء، إذ يصوِّرون استشهاد قتلاهم زُلْفَى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/ ١٥٠ وتريد أم حكيم بدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .

(٢) المبرد ص ٥٨٦ .

(٣) أغانى ٦/ ١٤٥ .

(٤) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين فى رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبى حمزة ومن قُتل من أصحابهما (١) :

يارِبِّ أَسْلكْنى سبيلهمُ ذا العَرْش واشْدُدْ بالتُّقَى أَزْرِى
فى فتيةٍ صبَروا نفوسهمُ للمشرفيَّة والقَنَا السُّمْر (٢)
متأَوِّهين لكل صالحةٍ ناهين من لاقوا عن النُّكر

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كم من أخٍ لك قد فُجِعْتَ بهِ قوَّامِ ليلته إلى الفَجْرِ
متأَوِّه يتلو قوارعَ من آى القُران مفزَّع الصَّدْر

ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرعت الرماح وسُلّت السيوف ورَعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب فى أن هذه صورة جديدة فى الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروءة ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذى يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذى يفتح لهم أبواب الفراديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسى ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قُدُماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعَدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب. ولكن نحسُّ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلَّحة إلى حين ، وبذلك نفسر كثرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١١ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفراً منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ فى أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يَقلّب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين فى رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد [1] من أن أبا خالد القنانى استحبَّ القعود ، فلامه قَطَرِىّ بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالد يا انفِرْ فلستَ بخالد     وما جعل الرَّحْمنُ عُذْرًا لقاعدِ [2]
أتزعم أَن الخارجىَّ على الهُدَى     وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ

فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلىَّ حُبًّا     بناتى إنهن من الضِّعافِ
أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعدى     وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافى [3]

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف فى الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقًّا بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الذَّماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً فى الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا فى مقالتهم دون رفق ودون تفكير عميق فى المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنابذ فرقاً وتتقطع شيَعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة فى أشعارهم ، هى أنهم يُبدئون ويعيدون فى معانيهم التى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا فى أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثَمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجى أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

---

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا انفر يا للتنبيه أو فى تقدير حذف منادى مثل يا أخى .

(٣) الرنق : الكدر .

فى الأغانى فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة فى ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطرى بن الفجاءة ، ونسبها المدائنى إلى صالح بن عبد الله العَبْشَمِىّ . وقال خالد بن خِداش : بل قائلها عمرو القَنا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم [١] . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح .

## عمران [٢] بن حِطّان

بَصْرِىٌّ سَدُوسِىٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج . ونلقاه فى عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه [٣] . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُرْوَى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت فى الجنة ، قال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : لأنك أُعطيتَ مثلى فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر فى الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحتْ جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول [٤] :

يا ضربةً من تَقِىٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأذكرهُ حيناً فأحسبه ... أوفى البَرِيَّة عند الله ميزانا

ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر فى الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

---

(١) أغانى ١٤٧/٦ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة عمران الأغانى (ساسى) ١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١١٨/١ .

(٤) انظر فى نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١ والخزانة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغضاً وحُبًّا للخروج أبو بلالِ
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى[1]
ولو أنى علمت بأن حَتْفى كحتف أبى بلالٍ لم أبال
فمن يكُ هَمُّهُ الدنيا فإنى لها والله ربِّ البيت قالى[2]

فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبى بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلا ، حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناسِ

وكأن الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ، ومن ثَمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرية ودعا إلى القعود ، حتى عُدَّ رئيس قَعَدَتهم . ولم تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبى خالد[3] ، إنما قعد به — فى أغلب الظن — حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشْغف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى الحروب ويُغْرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ، ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ، فهلع الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامةٌ رَبْداءُ تنفر من صَفير الصافرِ[4]
هلا برزتَ إلى غَزالة فى الضُّحَى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائرْ[5]

(١) العوالى : الرماح .
(٢) قالى : كاره .
(٣) نسبت أبيات أبى خالد إلى عمران فى ترجمته بالأغانى ، والأرجح أنها لأبى خالد كما جاء عند المبرد .
(٤) ربداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .
(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد فى طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرَّ منه على وجهه يتنقَّل فى القبائل منتسباً فى كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامى بالشام . فانتسب له أزديا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه ، وكان روح سميرا لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه فى أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإنى تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفًا لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلا ما تروِّعنى ... فيه روائع من إنسٍ ومن جانِ[1]
حتى أردتَ بىَ العظمى فأدركنى ... ما أدرك الناسَ من خوف ابن مَرْوان

ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث فى قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعيًّا ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَـرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزْدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزْدِ يًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبَرناك ، فلما أمسى هرب وخلَّف فى منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التى أصبحتْ يَعْيَى بها زُفَرُ ... أعيتْ عياءً على رَوْح بن زِنْباعِ

وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومًا من الأزد فى روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفى سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة ترويها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الحياة الكريهة التى يحياها

---

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفزع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة فى الموت ، وعبر عن ذلك فى صور مختلفة ، كأن يصوِّر تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُّ العيش فيها  وأولِعْنــا بحرصٍ وانتظارِ
ولا تَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها  ولا فى الأمر نأْخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ  حثيثٍ رائحٍ منهم وساري[1]

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعُراتهم فأفٍّ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السويّ . ولا يُخْفَى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأَمونها  على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها  سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ[2]

وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعْجز الموتَ شىءٌ دون خالقِه  والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَّضِعٌ  للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ[3]

فالموت سيموت فى النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدرى شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه ، فتعرض له يقول :

أيهــا المادح العبادَ لِيُعْطَى  إن لله ما بأيدى العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلا .
(٢) تقشع : تزول .
(٣) جلل : عظيم .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا فى عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته مقالته حتى الشغاف .

## الطِّرِمَّاح (١)

شاعر طائى نشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل فى بنى تَيْم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمْت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسَخ كلامه فى قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحَّه حتى مات عليه . واختلف الرواة فى الفرقة التى دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل فى فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يحرِّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمْض قعوده فى مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرِىٌّ مسالم . ويظهر أنه كان يمضى فى السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفِّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادُّهم ويصادقهم ، حتى لنراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : «لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْت والطِّرِمَّاح ، كان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرماح خارجيًّا من الصُّفْرِية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يَجْرِ بينهما صَرْمٌ ولا جَفْوةٌ ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه » . وأكبر الظن أن الذى وثَّق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هى تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُرْوَى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرَّى بفارس حيث عُنى بتأديب الناشئة

---

(١) انظر فى ترجمة الطرماح أغانى ( دار الكتب ) ١٢/ ٣٥ والشعر والشعراء ٢/ ٥٦٦ والعينى ٢/ ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ١/ ٤٦ ، ٢/ ٣٢٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٥٢ والخزانة ٣/ ٤١٨ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

فيها ، ويَـرْوي الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرَّيِّ فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّه عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحَّاه مخلد ، ودُعي الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحًّا في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبي صُفْرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومرَّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطْوَى فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ

أو أنزل الله وَحْياً أن يعذِّبهـا إن لم تَعُدْ لقتال الأَزد لم تَعُدِ

لا تـأْمنَنَّ تميميـًّا على جَسَدٍ قد مات ما لم تُزَايِل أَعْظُمُ الجسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه في الحروب على شاكلة قطري إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدًّا بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادنى حُبًّا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلِ[١]
وأنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل

والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادٌ جَوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
لأَكسبَ مالا أو أَؤُولَ إلى غِنىً من الله يكفينى عِداتِ الخلائف[٢]
فيارَبِّ إن حانتْ وفاتى فلا تكن على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضر المطارف[٣]
ولكن أَحِنْ يومى سعيدًا بعُصْبةٍ يصابون فى فَجٍّ من الأَرض خائفِ
فوارسُ من شيبان أَلَّف بينهم تُقَى الله نَزَّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأَذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح غنيًّا مثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّراةِ إنهمُ إذا الكَرى مال بالطُّلا أَرِقوا[٤]
يرجِّعـــون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصُّدورُ تَنْفَلِقُ

---

(١) غير طائل: خسيس .
(٢) عدات : جمع عدة ويريد بها الصلة . الخلائف: جمع خليفة .
(٣) الشرجع : النعش .
(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أُرجيِّ الحياة بعدهمُ وقد مضى مُؤْنِسِيٌ فانطلقوا
قومٌ شِحَاحٌ على اعتقادهمُ بالفَوْز مما يُخاف قد وَثِقوا

وعلى قبس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين والمساكين ، وما جاء فيه أيضًا من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت يداه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلُّ حَيٍّ مستكملٌ عِدَّةَ العُمْـ ـرِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهْ[1]
عجبًا ما عجبتُ للجامع الما ل يباهى به ويَرْتَفِدهْ[2]
وُيضيع الذى يصيِّره الله إليه فليس يعتقدهْ
يوم لا ينفع المخوَّل ذا الثر وة خِلاَّنُه ولا وَلَدُهْ[3]
يوم يُؤْتَى به وخصماه وسط الـ ـجنِّ والإِنْس رِجْلُه ويدهْ
خاشعَ الصَّوْت ليس ينفعه ثَـ ـمَّ أمانيهُ ولا لَدَدُهْ

وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ، فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ وحشيَّها ، وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد به أن يدور فى أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور فى أفواه المتأدبين حتّى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمى محض . ويصوِّر اللغويون مدى إغرابه فى شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور سُئل عن ثمانى عشرة كلمة آبدة فى أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن حِسَّه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغوفاً بإدخال الألفاظ النبطية فى كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

---

(١) مود : ميت .
(٢) يرتفده : يكتسبه .
(٣) المخول : الثرى .

## ٣

### شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو فى الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم، وينبغى أن تُرَدَّ عليهم . وتكوَّنت فى أثناء ذلك فرقة الكَيْسانية التى دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سَبَأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر ، وأنه ورث عن علىٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ،وهو قبس يتنقل فى أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملأ الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموى فتظهر فرقة الزَّيْدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك فى حديثنا عن السياسة .

وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج فى هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيِّر شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة فى أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف فى العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ،لا يَرْعَوْن فيهم إلاًّ ولا ذِمّة ،وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرْقأ ولا تجف . وربما كان هذا الطابع أهمَّ ما يميِّز الشعر الشيعىَّ فى هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولا ثم على زيد بن على وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قَتَّة يرثى الحسين [1] :

(١) مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ١٢١ وانظر أيضاً فى مراثى الحسين الطبرى ٤/ ٢٠٩ وما بعدها وأغانى (ساسى) ١٤/ ١٥٨ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

مررتُ على أبيات آلِ محمَّدٍ فلم أرها كعهدها يوم حُلَّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّـةً وقد عظمتْ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحتْ مريضةً لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرَّتِ
وقد أعولتْ تبكي السماءُ لفقـدهِ وأنجُمُها ناحتْ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء ، حتّى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير منْ يصورها عوف[١] بن عبد الله بن الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لِيَبْكِ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقٌ وعند غسوق الليل من كان باكيا
وياليتنى إذ كان كنتُ شهِدتُه فضاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهدًا وأعملتُ سَيْفِى فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون فى الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحُرّ ، ويروى أنه خرج فى جماعة من أصحابه حتى أتى كَرْبَلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو ينشد[٢] :

ويا ندمى أن لا أكون نصرتُه ألا كلُّ نفسٍ لا تسدِّد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حُماتهِ لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَلُ زيد بن على بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبنى أمية ومهددين من مثل قول المفضَّل المطَّلبى[٣] :

(١) انظر ترجمة عوف فى معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٢٦ .
(٢) طبرى ٤/٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

أَلا يا عينُ لا تَرْقَىْ وجُودى بدمعك ليس ذا حينَ الجمود[١]
وكيف تضنُّ بالعبَرات عينى وتطمــع بعد زيدٍ فى الهجودِ[٢]
وكيف لها الرُّقاد ولم ترائى جيادَ الخيل تَعْدُو بالأُسود
بأَيديهم صفــائحُ مرهفاتٌ صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ
بها نَسْقى النفوس إذا التقينا ونقتــل كلَّ جبارٍ عنيدِ
ونُحْكم فى بنى الحكَم العوالى ونجعلهم بها مثــل الحَصيد[٣]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يَنطْوى فى نفسه حزناً عميقاً على أئمته المستشهدين ورغبة عنيفة فى سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنّى ذلك وسيوف بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم ويعدُّون أنفاسهم عدًّا . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هى نظرية التقية ، فمن حق الشيعى أن يخفى عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرِّض نفسه للخطر بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سنرى عند كثيِّر والكميت عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكنَّان لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهى أحياناً إلى دعوة الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين ولىَّ خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرْو يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها [٤] :

أَلا أَبلغْ جماعةَ أهلِ مَرْو على ما كان من نَأْىٍ وبُعْــدِ
رسالةَ ناصحٍ يُهْدى سلاماً ويأْمر فى الذى ركبوا بجدٍّ
فلا تَهنوا ولا تَرْضوْا بخَسْفٍ ولا يَغْرُرْكُمُ أَسدٌ بعَهْــدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُودًا على أهل الضَّلالة والتعدِّى

(١) ترق : من رقأ الدمع إذا جف وسكن . جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) المجود : النوم .
(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالى : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٥/٤٣٢ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغيظ على بنى أمية فقد كانت تمتلىء بالحب لآل البيت حباً يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبى الأسود الدؤلى وقد عابه قوم بتشيعه : [١]

أُحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا　　وعبَّاسا وحمزة والوصيًّا [٢]
أُحبهمُ لحب الله حتى　　أجيء إذا بُعثتُ على هَوَيَّا [٣]
هَوًى أُعْطيته منذ استدارتْ　　رَحَى الإسلام لم يَعْدَلْ سَوِيًّا [٤]
بنو عَم النبيِّ وأقــربوه　　أحبُّ الناس كلُّهم إليَّـــا
فإن يك حبُّهم رُشْدًا أُصِبْهُ　　ولستُ بمخطئٍ إن كان غَيًّا

ويقول عبد الله بن كثيِّر السَّهمى فى نفس المعنى [٥] :

إن امرءًا أمستْ معايبهُ　　حبُّ النبيِّ لغيرُ ذى ذَنْبِ
وبنى أبى حسن ووالدِهم　　مَنْ طاب فى الأرحام والصُّلْبِ
أَيُعَدُّ ذنبًا أن أحبَّهُمُ　　بل حبُّهم كفَّارة الذنْبِ

فهم يحبون آل البيت بجدهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفراً منهم إلى الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبى الأسود الدؤلى فى حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، فى كلمة له [٦] :

فحسبى من الدنيا كَفافٌ يُقيمنى　　وأثوابُ كتَّان أزورُ بها قبرى [٧]
وحُبِّى ذوى قُرْبَى النبيِّ محمَّدٍ　　فما سَالَنا إلا المودَّةَ من أجْرِ [٨]

---

(١) المبرد ص ٥٥٤ .
(٢) يريد بالوصى على بن أبى طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبى أوصى له بالخلافة .
(٣) على هويا : على هواى .
(٤) لم يعدل سوياً : لا مثيل له .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٠ .
(٦) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .
(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .
(٨) سالنا بالتخفيف : لغة فى سأل . وهو يشير إلى الآية الكريمة : ( قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ) .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم فى عصر بنى أمية منازع قوية من حب آل البيت حبًّا قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بنى أمية ، ثورة تنطوى فى داخلها رغبة شديدة فى أن تُسفك دماؤهم كما سُفكت دماء شهد أئهم : الحسين وزيد بن على ، ومن قبلهما على نفسه . ودائماً يبكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شىء ، وإنهم ليدلعون فى قلوبهم ناراً لا تُطفأ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلا عند كثيِّر شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

### كُثَيِّر (١)

هو كثيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة ، شاعر حجازى من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمَّقاً وفى الأغانى أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لجميل بن معْمَر العذرى ، وهو فى جمهور غزله يترنَّم بعزَّة بنت حُميل الضَّمْرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّى كثير عزَّة ، وأروعُ أشعاره فيها تائيته التى يقول فى تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وهو يلتزم فى رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً فى غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفى لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكَيْسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

---

(١) انظر فى ترجمة كثير أغانى ( دار الكتب ) ٩/٢ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفى مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ و ما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢ والخزانة ٣٧٦/٢ ومرآة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعاء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه فى الجزائر .

قبس النبوة لا يزال يتنقل فى على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وفيه يقول :

هو المهدىُّ خبَّرَناه كعبٌ أخو الأَحبار فى الحِقَب الأَوالى(١)

ونراه يمتلىء حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفى له فى الكوفة و إخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيِّر يقول :

تخبَّر من لاقيت أنك عائذٌ بل العائذُ المظلومُ فى سجْن عارمِ
وصىُّ النبىِّ المصطفى وابنُ عمِّه وفكَّاكُ أغلال ونفَّاعُ غارمِ
أبىَ فهْو لا يَشْرى هُدًى بضلالةٍ ولا يتَّقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابَه حُلولا بهذا الخَيْف خيف المحارم(٢)
بحيث الحمامُ آمِنُ الرَّوْع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المُسالمِ
وما فَرَحُ الدنيا بباقٍ لأَهله ولا شِدَّةُ البَلْوَى بضَرْبة لازمِ

وواضح أنه يسجِّل على ابن الزبير خَرْقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذى يأخذ بأيدى العُناة ، والذى يتقى الله حق تقواه .

ويردُّ ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك فى دمشق ، وكثيِّر فى ركابه ، فيكرمه وينزله منزلا عليًّا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأحبار ، كان من يقصون فى العهد الأول .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ ارآه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ هَمَّهُ حَصانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُها[1]
نهتْه فلما لم تر النَّهْى عــاقَه بكتْ فبكا مما شَجاها قَطِينُها[2]

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليها وظن بعض المعاصرين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق[3] ، وهو لم يكن فى مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية فى بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهى تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمِّل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلِّب عَيْنَى حَيَّــةٍ بِمحَارةٍ إذا أمكنتْه شدَّةٌ لا يُقيلها[4]

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة على ، لأنها الخلافة الصحيحة فى رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

وكنت المُعَلَّى إذ أُجِيلَتْ قِدَاحُهم وجــال المَنِيحُ وسْطها يَتَقَلْقَلُ

والمعلَّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موَّه بذلك فى الظاهر ، وعنَى فى الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

---

(١) الحصان : العفيفة .
(٢) القطين : الخدم والوصفاء .
(٣) انظر حديث الأربعاء لطه حسين ( طبعة الحلبى ) ١/٢٦٣ .
(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة : المجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه يبرم عزيمته ولا يتردد .

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن ثَمَّ يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك فى مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ... ل لله كلهمُ تابعـا
شهيدان من بعد صِدّيقهم ... وكان ابنُ حَرْب لهم رابعا (١)
وكان ابنهُ بعده خامسا ... مطيعا لمن قبله سامعا
ومروان سادسُ مَنْ قد مضى ... وكان ابنُه بعده سابعا

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته فى مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له فى مديحه لبنى أمية ، وهو إخلاص مرجعه فى رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتًّا من سبِّهم على المنابر ، وكان صالحا تقيًّا ، وفيه يقول كثيِّر مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلِيتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولم تَقْبَلْ إشارةَ مجرمِ
وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى ... أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لُبْسَ الهَلوكِ ثيابها ... تراءى لك الدُّنْيا بكفٍّ ومِعْصَمِ (٢)
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ ... وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنظَّمِ (٣)
فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنما ... سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمام وعَلْقَمِ (٤)
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مونقًا ... وآثرتَ ما يَبْقَى برأيٍ مصمِّمِ
وأضررتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للذى ... أمامك فى يومٍ من الهَوْلِ مظلمِ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدىّ أو وصىّ ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) التهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السمام : جمع سم .

مماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم الحنفية حين لبىَّ نداء ربه :

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ ولاةَ الحق
علىٌّ والثلاثةُ من بنيهِ هم الأسباطُ
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرٍّ وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتى يقود الخَيْلَ يَقْدُمُها اللّواءُ
تغيَّب لا يُرَى عنهم زمانا بِرَضْوَى عنده عَسَلٌ وماءُ

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية ؛ وهم متساوون فى هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قَتْل الحسين فى كَرْبَلاء غيبة، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْعَم العسل والماء ، وسيعود فى جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِئْتُ إلى الإله من ابن أَرْوَى ومن دين الخوارج أجمعينا[1]
ومن عُمرٍ بَرِئْتُ ومن عتيقٍ غَداةَ دُعِى أمير المؤمنينا[2]

وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق فى لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم فى رأيه يُعَدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو فى تشيعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

## الكُمَيْت[3]

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة، ولم يكد

---

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه .
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
(٣) انظر فى ترجمة الكميت وأخباره أغانى (ساسى) ١٥/١٠٨ والشعر والشعراء ٢/٦٢٦ والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ١/٦٩ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ( انظر الفهرس ) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/٦٦ ، ٩٩ ؛ ٢/٨٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه فى بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات .

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقة والحديث النبوى وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة فى مسجد الكوفة . ونراه يَنْشُدو الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطِّرِمَّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً.

ولا يلبث أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففى أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا فى مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك . ويقال إنه لقى على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتَرْوى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه فى مطالع القرن الثانى يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففى أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفىّ سنة تسع وتسعين . ونمضى معه إلى ولاية خالد القسرى على العراق ( ١٠٥ — ١٢٠ هـ ) فنجده قد أصبح شيعيًّا خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن على بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع . ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبّه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ ... ولا لَعِباً منّى وذو الشَّيْب يلعبُ

ولم تُلْهنى دارٌ ولا رَسْم منزلٍ ... ولم يتطرَّبْنى بَنَانٌ مُخَضَّبُ

ولكنْ إلى أهل الفضائل والنُّهى ... وخيرِ بنى حَوَّاء والخيرُ يُطْلَبُ

بنى هاشمٍ رهطِ النبىِّ فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضبُ

فلم يعد فيه شىء للغزل ولا للحب سوى حب بنى هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوَفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى ، أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن فى نظمه . ونراه فى تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بنى أمية وواليهم خالد القسرى . إذ كان ما ينى يؤلّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة . حتى لنراه يكتب — كما أسلفنا — إلى أهل مرو أن يثوروا فى وجه أسد القسرى حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه فى غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرَّاس ، فدخلت فى غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتهيأ بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَّته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بثيابهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذى توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفى بنى أمية مدائح نظمها حينئذ : من مثل قوله :

الآن صرتُ إلى أميَّـ ـة والأُمــور لها مصائرْ
أهلِ التجاوب فى المحا فل والمقاولِ بالمخاصر[١]
أنتم معــادنُ للخلا فة كابرًا من بعد كابر

وهى مدائح تُحْمَلُ على التقيَّة، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسح لأشعار، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمن هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمنى هو حكيم بن عيَّاش الكلبى كان يتعصب للأمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن على هجاء[٢] مرًّا ، فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفتح معركة معه فى اليمنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بنى هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يمكر به فيفخر عليه ببنى أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهَر عليه فعلا لا بذلك فحسب ، بل بما نظم فى عصبيته لمضر وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهَّبته[٣] : (ألا حُيِّيت عنا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجَّلها ووصمه بها وصمًا .

---

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه . والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها فى الخطابة

(٢) انظر فى ذلك ترجمته فى الأغانى والإصابة ٢/ ٨٠ ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٤٨ .

(٣) فى خزانة الأدب ١/ ٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغانى (طبع الساسى) ١٥/ ١١٢ والمسعودى ( طبعة دار الرجاء بمصر) ٣/ ١٦٢ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشمين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثَمَّ قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشْفَعُ به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يُعَدّ صَدًى قويًّا لما شاع فى عصره من الجدال بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثّل هذا الجدال تمثيلا باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدال ، فقد كان إمامه زيد يتتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقّن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية : وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياته التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌّ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سُنَّةَ من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوق الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بخاتمكم غَصْباً تجوز أُمورهم ... فلم أَرَ غَصْباً مثْله يُتَغَصَّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم آيةً ... تأَوَّلها منا تَقِىٌّ ومُعْرِبُ
وفى غيرها آيًا وآيًا تتابعتْ ... لكم نَصَبٌ فيها لذى الشَّك مُنْصِبُ
وقالوا ورثناها أبانا وأُمَّنا ... وما ورَّثَتْهُمْ ذاك أُمٌّ ولا أَبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنةَ الذى ... بهِ دانَ شرقٌ لكم ومغرِّبُ
يقولون لم يُورَثْ ولولا تُراثُهُ ... لقد شَرِكتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحَبُ [1]

(١) بكيل وأرحب : عشيرتان من همدان .

وعَكٌّ ولَخْمٌ والسَّكون وحِمَيْرٌ وكِنْدَةُ والحَيَّان بكرٌ وتغلبُ
وما كانتِ الأنصارُ فيها أذلَّةً ولا غُيَّباً عنها إذ الناسُ غُيَّبُ
فإن هى لم تصلح لحىٍّ سواهمُ فإن ذوى القُرْبَى أحقُّ وأقرب

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن الحكيم فى سُوَر « حاميم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقرابتهم من الرسول ، مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : ( وآت ذا القربى حقَّه ) ومثل : ( قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُرْبى ) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا يُدْلون للرسول كما يدلى آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا اورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية تارة ويحكِّم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلا محاولا الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت — فى أصلها — من أكثر العقائد الشيعية اعتدالا وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا بَبداء ولا بَرجْعة على نحو ما كان يؤمن الكَيْسانية ، وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم غدير خُمٍّ ؛ وفى ذلك يقول الكميت :

ويومَ الدَّوْح دَوْحِ غَديرِ خُمٍّ أبانَ له الولايةَ لو أُطيعـا[1]

وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك صحَّح خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا أرضى بشَتْم أبى بكر ولا عمرا

ومعروف أن زيداً كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتِّم أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخيًّا[2] ، ويُرَدِّد الكميت فى هاشمياته هذه الصفات ؛ يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

---

(١) غدير خم : بين المدينة ومكة ؛ نزله الرسول وخطب فيه .

(٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُماة الكُفاة فى الحرب إن لُـ ـفَّ ضِرامــا وقــودُها بضِرامِ
والغيوثُ الذين إن أمْحَلَ النَّا س فمأْوى حواضن الأَيتــام
غالبيِّين هاشميين فى العِلْـ ـم رَبَوْا من عطية العَلاَّم (١)
وهمُ الآخذون من ثقة الأَمْـ ـرِ بتقواهم عُرًى لا انفصام (٢)

ويضيف الكميت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف فى تقريره لهذه الصفة عند جور بنى أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله فى رعايتهم لهم : بل يعاملونهم كأنهم أغنام ، مبتدعين دائماً بِدَعاً لم يجئْ بها الإسلام ، يقول

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يُحْدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أوْحَلُوا

ودائماً يجأر لربِّه أن يكشف غُمَّتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ، وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب . وإنه ليسأل الله أن يُحِلَّ الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجــاع الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ بِجَوْرِكمُ أُجيعا
بمرضِىٍّ السياسة هاشمىٍّ يكون حَيًا لأمته ربيعا (٣)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق المذهب الذى ذهب إليه الكميت فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السِّراج المنير أحمدَ لا تَعْدلنى رَغْبَةٌ ولا رَهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع الـ ـنَّاس إلىَّ العيونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ بل قصدتُ ولو عنَّفنى القائلون أو ثَلبوا

---

(١) ربوا : نموا من التربية .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

(٣) الحيا : المطر .

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه[١]» . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته[٢] . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فقعد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه ، من مثل قوله :

تجود لهم نفسي بما دون وَثْبَةٍ تظلُّ لها الغِرْبان حولِيَ تَحْجِلُ

وخرج زيد وقُتل ، فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمِّسا الناس أن ينفضُّوا عنه وعنهم. وضيّق عليه يوسف الخناق ، وظلّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلّ ضغنه دسّ إليه من قتله .

## ٤

## شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بني أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء .

وسلّط عليهم الأمويون ولاةً يَعْنُفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة ، ويُحسُّ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٩ . (٢) أمالي المرتضى ٢/٨٠ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى يرجع فى نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتيهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كى يقود هذه الثورة التى كانت تغلو بها نفوس الأشراف فى الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبى بكرة عامل سجستان أخفق فى حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمداً .

وفكر الحجاج فى قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهداه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان فى كَرْمان ، فأمده بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» لتمام أهبته وعُدّته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى — خشية على جيشه — أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبى بكرة . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهدّده إن لم يمض فى القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهليهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالى بموتنا ، ويريد أن يعرّضنا للخطر ، حتى نسوق له ولخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

وودع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه فى طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بحاميات الأمصار ، ولما صار فى فارس خلع عبدَ الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش « مثل السيل المنحطّ من عَلُ ، ليس يرده شىء حتى ينتهى إلى قراره » وأعشى همدان وأبو جِلْدَة اليشكرى فى مقدمته يثيران الناس ويحمّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينما أُخْرِجوا منها

للحرب والموت فى سجستان وخُراسان على نحو ما نرى فى قول أبى جلْدة[١] :

أيا لهفى ويا حُزْنى جميعاً ويا غَمَّ الفُؤادِ لما لقينا
تركنا الدِّين والدُّنيا جميعا وخلَّينا الحلائل والبنينا[٢]
فما كنا أناساً أهل دينٍ فنَصْبِرَ للبلاء إذا بُلينا
ولا كنا أناساً أهل دُنْيا فنَمْنَعها وإن لم نَرْجُ دينا
تركنا دورنا لطَغام عَكٍّ وأنباطِ القُرَى والأَشْعَرِينا[٣]

وتقدَّم الحجاج بجيشه ، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دُجَيْل فى ذى الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ، ومضى الحجاج فنزل بجيشه فى ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية ، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جلدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله[٤] :

نحن جلبنا الخَيْلَ من زَرَنْجا مالك ياحجَّاج منا مَنْجَى[٥]
لتُبْعَجَنَّ بالسيوف بَعْجَا أو لتَفِرَّنَّ فذاك أحْجَى[٦]

وما زال أبو جلدة يحمس الجنود ويبث الغَيْرة فيهم لنسائهم : حتى شَدُّوا على عسكر الحجاج شدة ضعضعته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ، فتراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه و بين الحجاج موقعة دير الجماجم ، وفيها هُزم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به فى « مَسْكِن » فحالفته الهزيمة ، فولَّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان : فالتجأ إلى زنبيل ، و بعد محاولات منه لرَجْع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقُطِعت رأسه ، وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبى جلدة شعراء كثيرون لجُّوا فى هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة .

(١) مرت فى الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر فى الأبيات أغانى ( دار الكتب ) ٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد . وعك : من قبائل الشام اليمنية . ومثلها الأشعر قبيلة يمنية . وسماهم أنباطا يريد أنهم ليسوا بدواً ، فهم فلاحون .

(٤) أغانى ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصبة سجستان

(٦) البعج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر

## أعشى (١) همْدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهَمْدانىّ القَحْطانىّ، نشأ فى الكوفة، وعُنى فى أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لنرى الشَّعْبى فقيه الكوفة المشهور يُصْهِر إليه، فيتزوج أخته ويزوِّجه أخته. وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوى، وأقبل عليه، وآخى أحمد النَّصْبى مغنى بلده، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه. وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصارى الذى ولى على الكوفة سنة تسع وخمسين، وفيه يقول:

متى أَكْفُرِ النعمانَ لم أُلفَ شاكرا ... وما خيرُ من لا يقتدى بشكورِ

وله أشعار ينزع فيها منزع زهد فى الدنيا، فهو ينفِّر منها ومن التعلق بمتاعها، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار فى أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبى وغيره من وعَّاظ الكوفة، ومن أطرفها قوله:

وبينما المرء أمسى ناعماً جَذِلاً ... فى أهله مُعْجَباً بالعَيْش ذا أَنَقِ (٢)

غِرًّا، أُتيح له من حَيْنه عَرَضٌ ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِقِ

فما تزوَّد مما كان يجمعــه ... إلا حَنوطاً وما واراه من خِرَقِ (٣)

وغيرَ نَفْحَة أعوادٍ تُشَبُّ له ... وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلق

ونراه حين هُزِم التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبكيهم بقصيدة كانت إحدى المكتَّمات التى كتمت فى ذلك الزمان (٤). ويتولَّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه فى سلمه وحربه للمختار الثقفى ناظماً أشعاراً كثيرة، رواها الطبرى، يصوِّر فيها شعوذة المختار الثقفى وما كان يتخذ من

---

(١) انظر فى ترجمة أعشى همدان الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٣٣ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبرى والجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى وله ديوان نشره جاير ملحقاً بديوان أعشى قيس.

(٢) أنق: فرح وسرور.

(٣) الحنوط: طيب يتخذ للميت خاصة.

(٤) طبرى ٤/٤٧٢.

كُرْسى وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده[١] . ويُدال للبصرة من الكوفة ، ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلا :

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكمُ يوم الجَملْ[٢]

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه فى موقعة جَلُولاء . وقد انتصر الخوارج ، فمضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه يجفوه ، فيهجوه . ونراه فى شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بَذائها . ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْران ، فيمرض هناك ، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغمه ، خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج فى بلاد الديلم ، فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعِلْج الذى أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ، وبذلك تخلّصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يُوَلّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبى بكرة زنبيل ملك الترك ، ولما دارت على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبى بكرة سواء فى قيادته غير الحكيمة أو فى إهداره لمسئولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه من ضيق ، فباع القفيز من الشعير بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرِم ، وهم يتساقطون جوعاً ، يقول :

أسمعتَ بالجيش الذين تمزّقوا وأصابهم رَيْبُ الزمان الأعوجِ

حُبسوا بكابُلَ يأكلون جيادهم بأضرِّ منزلةٍ وشرِّ مُعَرَّجِ[٣]

لم يلقَ جيشٌ فى البلاد كما لقوا فلمثلهم قُلْ للنوائح تَنْشِجِ

(١) انظر الطبرى ٤/ ٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وُلِّيتَ شأنَهُمُ وكنتَ أميرهم ... فأضعتهم والحرب ذاتُ توهُّجِ

وتَبيعهم فيها القفيزَ بدرهمٍ ... فيظلُّ جيشك بالملامة ينتجي[1]

ومَنعتهم ألبانَهم وشعيرهم ... وتَجِرْتَ بالعنب الذى لم ينْضَج

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فولِيَ سجستان ابن الأشعث، فسأله أن يزيد فى عطائه ، فلم يُلبِّ سؤاله ، فمضى يعاتبه فى قصيدة طويلة ، يقول له فى تضاعيفها :

مالك لا تعطى وأنت امرؤٌ ... مُثْرٍ مِن الطَّارفِ والتَّالدِ

تَجْبِي سجستانَ وما حولها ... متَّكِئاً فى عيشك الراغدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى يده فى يده وكأنه صَدَرَ فى ثورته عن أمنيته ؛ فقد وقف من قديم فى صفوف المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاة بنى أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها العذاب على نحو ما رأينا فى هجائه لابن أبي بكرة . وهذا الحجَّاج على العراق قد بغى وطغى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج فى بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَماً ، لا يعرف متى يأذن له فى العودة لتقرَّ عينه بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر محمِّسا لجنده ، فلما توجه مقبلا إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إنا سفَوْنا للكفور الفَتَّانْ ... حين طغى فى الكفر بعد الإيمانْ[2]

بالسيد الغِطْرِيف عبد الرحمن ... سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحطانْ[3]

أمكن ربِّى من ثقيفٍ هَمْدان ... يوماً إلى الليل يُسَلِّى ما كانْ

إن ثقيفا منهم الكذَّابان ... كَذَّابُها الماضى وكذابٌ ثانْ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهى السر .
(٢) سفا : خف وأسرع .
(٣) الدبى : الجراد .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرض في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ملك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضـ الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين اثـ النبيلة ، يقول :

يأبى الإله وعزةُ ابنِ محمَّد ... وجدود مَلْكٍ
أن تأنَسُوا بمُذَمَّمين عُـروقُهم ... في النا
كم من أب لك كان يَعقد تاجَه ... بجبين
ما قصرَّتْ بك أن تنال مدى العُلا ... أخلاقُ مكرمةٍ وإرث جدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأُتي إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أبَى اللهُ إلا أن يتمِّم نوره ... ويطفئَ نار الفاسقين فتَخْمُدَا
ويُنْزِل ذُلاًّ بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدَا
وما نكثُوا من بَيْعَةٍ بعد بيعةٍ ... إذا ضَمِنوها اليوم خاسوابها غَدَا[3]
وما أحدثوا من بِدْعَةٍ وعظيمـةٍ ... من القَول لم تَصْعَدْ إلى اللهِ مَصْعَدَا
وما زاحف الحَجَّاجُ إلا رأيته ... مُعَانًا مُلَقًّى للفتوح معوَّدا
ليهنئْ أميرَ المؤمنين ظهورُه ... على أمةٍ كانوا بُغاةً وحُسَّدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فاربدَّ وجهه واهتزَّ منكباه ، وأمر الحرسيَّ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

---

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بآل ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب . صنديد : الجواد الشجاع

(٣) خاس : غدر ونكث

٥

## شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بنى أمية ، فالمديح شىء والشعر السياسى شىء آخر. المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثَمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيَعاً ، وأخذت كل شيعة تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمَل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صِفِّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىٌّ انتصاراً حاسماً لولا ما لجأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبى :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق ... وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا عليٌّ إمامٌ لنـــا ... فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا

وردّ عليه بعض شعراء العراق، فقال ينقض ما زعمه، مشيراً إلى ما بين الطرفين من عداوات قديمة:

أتاكم عليٌّ بأهل العراقِ ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا[1]

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم، وبايع الناس معاوية، ودخلت العراق فى طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين، ولكنها ظلت تعارضهم خفية، وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج، وتارة مع الشيعة، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب. وعارضتهم الحجاز فى عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها فى عبد الله بن الزبير.

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون فى هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن نظرياتهم السياسية، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر. وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار حين اشتبك مع يزيد بن معاوية، وفى رواية مع عبد الرحمن بن الحكم، فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصرانى التغلبى، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويًّا يناضل عن السياسة الأموية. ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية فى بيته، وأن يأخذ البيعة لابنه يزيد فى حياته. وكان ذلك فى رأى كثيرين بدعة منكرة، إذ تَخْرُجُ الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه، على نحو ما هو معروف عند الروم وما كان معروفاً عند الفرس، وعرَف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك، فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته، كما دفع بعض الشعراء، وكان أسرع من لبّاه منهم مسكين الدارمى فأنشأ يقول فى كلمة له[2]:

---

(١) انظر الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ١٧٠.

(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٧١.

بني خُلفاء الله مهلا فإنما ... يُبَوِّئُها الرحمنُ حيث يريدُ[1]
إذا المِنْبَرُ الغَرْبيُّ خلَّى مكانه ... فإن أميرَ المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ ... لكلِّ أُناسٍ طائرٌ وجدودُ[2]

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل[3] الليثي وعبدالله[4] بن همّام السلولي « وكان مكينًا حظيًّا فيهم وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » في أشعار يرويها الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضه على البيعة لابنه من مثل قوله[5] :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ ... واشكر حباء الذي بالمُلْك حاباكا
لا رُزْءَ أعظمُ في الأقوام نعلمه ... كما رُزِئتَ ولا عُقْبى كعُقْباكا
أصبحتَ راعيَ أهل الدين كلِّهم ... فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا
وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ ... إذا نُعيتَ ولا نَسْمَعْ بِمَنْعاكا

ونمضي إلى عصر المروانيين ، وأول من نلقاه من شعرائهم أبو العباس[6] الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدُّئل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدَّمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم » ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حيًّا مثل حَيٍّ تحمَّلوا ... إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت[7]
أعزَّ وأمضى حين تَشْتجر القَنا ... وأعلمَ بالمسكين حيث يَبيت

---

(١) يبوئها : ينزلها .
(٢) الجد : الحظ .
(٣) انظر الأغاني ( طبع دار الكتب ) ١٥٩/١٢ .
(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ .
(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ ، والمبرد ص ٧٨٥ وراجع المصادر السابقة .
(٦) انظر في ترجمته الأغاني ( طبع الساسي ) ٥٧/١٥ ونكت الهميان للصفدي ص ١٥٣ ومعجم الأدباء ١٧٩/١١ والتهذيب ٤٤٩/٣ والبيان والتبيين ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .
(٧) تحملوا : ارتحلوا . بريت : خلقت .

إذا مات منهم سَيِّدٌ قام سيد بصيرٌ بعَوْرات الكلام زَميت (١)

وقوله :

ليت شعرى أفاح رائحة المِسْـ ـكِ وما إن أخال بالخَيْف أنْسِى (٢)

حين غابتْ بنو أميَّة عنه والبهَاليلُ من بنى عبد شَمْسِ

خطباءٌ على المنابر فُرْسا نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بِلَبْسِ

وبلغ ابن الزبير نُبَذٌ من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجوه وآله هجاء مرًّا ، محرضاً عبد الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن بنى هاشم ، وفى ذلك يقول لأبى الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًّا :

لعمرك إننى وأباطُفَيْلٍ لمختلفان واللهُ الشهيدُ

لقد ضَلُّوا بحب أبى تُرابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ

ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتُرْوَى له أشعار مختلفة — إن صحت — فى بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأسرَّة منهمُ فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

وممن كان يلهج بهم ويقف فى صفوفهم نابغة بنى شيبان (٣) عبد الله بن المخارق ، ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًّا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التى يحلف بها النصارى ، وفى ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل قوله :

ويَزْجرنى الإسلامُ والشَّيْبُ والتُّقى وفى الشَّيْبِ والإسلام للمرءِ زاجرُ

(١) زميت : وقور .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

(٣) انظر فى ترجمته الأغانى ( طبع دار الكتب ) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثَل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول فى تضاعيفها :

لَابْنُكَ أولى بمُلْكِ والده ونَجْمُ من قد عَصاك مطَّرَحُ

فعلم الناس أن هذا هو رأى عبد الملك . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه فى الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .

وعلى شاكلته فى الانتصار لبنى مروان أعشى قبيلته عبد[1] الله بن خارجة ، وكان شديد التعصب لهم ، وله فى عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجِلَ النِّتاجُ بِحَمْلها فأحالها[2]
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغواة أطلتمُ إمهالها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثِمالها[3]
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

ومن شعراء بنى أمية أبو عطاء[4] السِّنْدِىّ مولى بنى أسد ، وكانت فيه لُكْنة سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاة الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مراثى بديعة . وقد عاش إلى أيام المنصور ، ونراه يبكى بنى أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين فى أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت جَوْرَ بنى مروانَ عاد لنا وأنَّ عدل بنى العباس فى النار

وقوله :

بنى هاشمٍ عودوا إلى نَخَلاتكمْ فقد قام سِعْرُ التَّمْر صاعاً بدرهمِ
فإن قلتمُ رَهْطُ النبىِّ وقومُـهُ فإن النصارى رَهْطُ عيسى بن مريمِ

(١) انظر ترجمته فى الأغانى طبع (ساسى) ١٦/١٥٥ وقد نشر جاير ديوانه ملحقاً بديوان أعشى قيس .

(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) انظر فى ترجمة أبى عطاء أغانى (ساسى) ١٦/٧٨ والشعر والشعراء ٢/٧٤٢ والخزانة ٤/١٧٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦ والعينى ١/٥٦٠ .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك[1] :

تخيَّرهُ ربُّ العباد لخلقهِ وليًّا وكان الله بالناس أعلَما

وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان[2] :

سُمِّيتَ باسم امرئٍ أشبهتَ شِيمَتَه عَدْلًا وفضلا سليمانَ بنَ داودا
أَحْمِدْ به في الوَرَى الماضين من ملكٍ وأنت أصبحتَ في الباقين محمودا

وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثيِّر، ويقول العبْلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه[3] :

يَقْطعون النهارَ بالرأي والحـزم ويُحْيُون ليلهم بالسجودِ

والغريب أن نجد هذا التصوير يمتدُّ حتى إلى من عُرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبَّة[4] :

إمـامٌ يُوضِحُ الحقَّ له نـورٌ على نـورِ

ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يحتربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبَدَتْ في الأفق النُّذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة في دياره قائلا[5] :

أرى خَلل الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ فيوشك أن يكون له اضطرامُ
فقلتُ من التعجُّب ليتَ شعري أأيقاظٌ أميَّـةُ أم نيـامُ
فإن كانوا لحينهم نيـاماً فقل قوموا فقد طال المنام

---

(١) أغاني (دار الكتب) ١/ ٢٩٨ .
(٢) أغاني (دار الكتب) ١٢/ ٢٨٨ .
(٣) أغاني ١١/ ٣٠٦ .
(٤) انظر ترجمته في الأغاني ٧/ ٩٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/ ١٥٨ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضتْ حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبى عطاء السندى ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

### عبد الله(١) بن الزَّبِير

كوفى المنزل والمنشأ من بنى أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدرهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجوه ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراختْ منيَّتى ... أيادىَ لم تُمْنَنْ وإن هى جَلَّتِ
فتىً غير محجوبِ الغنى عن صديقه ... ولا مُظْهِر الشكوى إذا النَّعْلُ زَلَّت
رأى خَلَّتى من حيث يَخْفَى مكانُها ... فكانتْ قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ (٢)

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدَ إلا مَجْدُ أسماءَ فوقه ... ولا جَرْىَ إلا جَرْىُ أسماءَ فاضلُهْ
فَتًى لا يزال الدهرَ ما عاش مُخْصِباً ... ولو كان بالمَوْماة تَخْدِى رَواحلُه (٣)

وعُزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ اللهِ والمجدُ صفوة ال ... حليفين ما أرْسَى ثَبِيرٌ ويَثْرِبُ (٤)
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ ... فأَبْشِرْ فقد أدركتَ ما كنت تطلبُ

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٢١٧/١٤ وما بعدها والخزانة ٣٤٥/١ ومعاهد التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

(٣) الموماة : المفازة . تخدى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفى فيتحول إليه ابن الزّبير يتوعده ويتهدّده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمنُّ عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيهـا العائذُ فى مكةَ كمْ　　من دمٍ أهرقْتَه فى غير دَمْ
أيَدٌ عـائذةٌ معصمةٌ　　ويدٌ تقتل مَنْ حَلّ الحَرَمْ

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كأنى بعبد الله يركب رَدْعَـه　　وفيه سِنان زاعِبِيٌّ مُحَرَّبُ[1]
وقد فَرَّ عنه الملحدون وحلّقتْ　　بهِ وبمن آساه عَنْقاءُ مُغْرِب[2]
تولّوا فخلّوه فشالَ بشِلوهِ　　طويلٌ من الأجذاع عارٍ مشذَّبُ[3]
بكفَّى غلامٍ منْ ثَقيفٍ نَمَتْ به　　قريشٌ وذو المجد التّليد معتَّبُ

ويلزم بشر بن مروان فى ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفّى فى خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعش طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمىَ بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرْهَبُ شره .

## عدى[4] بن الرّقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسْلك فى حاضرة الشعراء . وكان مقدّماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدّاحاً

(١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلا يتشخب دمه . والزاعبية : ضرب من الرماح . محرب : محدد .

(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم .

(٤) انظر فى ترجمة عدى وأخباره وأشعاره أغانى ( طبع دار الكتب ) ٩ / ٢٩٩ وما بعدها و ٩ / ٣٠٧ وما بعدها و ( طبع الساسى ) ١٧ / ١٦٥ والطبرى ٥ / ٢ والشعر والشعراء ٢ / ٦٠٠ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٨٦ والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشح ص ١٩٠ والطرائف الأدبية ( طبع لجنة التأليف ) ص ٨١ .

لهم ، خاصًّا منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك فى مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس فى الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك فى حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له :

لعمرى لقد أصحرتْ خَيْلُنا  بأكنافِ دِجْلة للمُصْعَبِ[1]
يَهزُّون كلَّ طويل القنا  ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلَبِ[2]
تقدَّمَنا واضحٌ وجْهــه  كريمُ الضرائب والمَنْصِبِ[3]
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا بهِ  ومن يَنْصُرِ اللهُ لم يُغْلَبِ

ولا نكاد نمضى فى عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذه شاعره الرسمى ، حتى ليُـعْليه على جرير فى بعض مجالسه ، ويثور جرير ، ويهجوه ، فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل فى رعايته يصفّيه مدائحه ، ويتغنى له فيها المغنون ، ومما غنَّى له ابن سُرَيج فيه قوله :

صَلَّى الذى الصَّلواتُ الطيِّباتُ له  والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمَعا
هو الذى جَمع الرحمنُ أُمَّته  على يديه وكانوا قبله شِيَعَا
إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له  مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعَا

وقوله :

صَلَّى الإلهُ على امرىءٍ ودَّعتُه  وأتمَّ نعمتَــه عليه وزادها
أولا تَرى أن البَرِيَّة كلَّها  ألقتْ خــزائمَها إليه فقادها[4]
ولقد أراد الله إذ ولاَّكهـا  من أُمَّةٍ إصلاحَهـا ورشادها
أعْمَرْتَ أرضَ المسلمين فأقبلتْ  ونفيتَ عنها مَنْ يروم فسادَها

(١) أصحرت : برزت
(٢) الثعلب : رأس الرمح
(٣) الضرائب : الطباع
(٤) الخزائم : جمع خزامة . وهى البرة يخزم بها البعير فى أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

وأَصبتَ في أرض العدوّ مصيبةً    عَمّتْ أقاصيَ غَوْرِها ونِجادَها
ظَفَرًا ونصْرًا ما تناول مثلَه    أَحدٌ من الخلفاء كان أرادها
وإذا نَشَرْتُ له الثناء وجدتُه    جَمع المكارم طِرْفَهَا وتِلادهـــا[١]

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولا بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والتئام شَعْثها ، وقد انقادت إليه بأزمتها ، والله يتم عليه نعمته ، وهى تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله فى علاه ليصلى عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ، وكيف أعمر أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده منزلا على أعدائها صواعقه ، فتمحقهم محقاً .

وفى أشعاره ما يدل على أنه كان يُعْنَى بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصْقلها ويشذبها حتى تلين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلا عقله ، يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها    حتى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنادها[٢]
نظرَ المثقِّف فى كُعوب قَناته    حتى يُقيم ثِقافُه منآدَها[٣]

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ، ومن بديع وصفه لظبية ترتعى ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُزْجى أغَنَّ كأن إبرة رَوْقِهِ    قلمٌ أصابَ من الدواة مِدادها[٤]

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وكأنها وسْطَ النساءِ أعارها    عينيه أَحْورُ من جآذرِ جاسمِ[٥]
وَسْنانُ أقصَده النُّعاسُ فرنَّقتْ    فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم[٦]

---

(١) طرفها : حادثها . تلادها : قديمها .
(٢) السناد : من عيوب الروى .
(٣) المثقف : الذى يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منآدها : معوجها .
(٤) تزجى : تسوق . الأغن : الشادن فى صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه المحدد .
(٥) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . وجاسم : من قرى دمشق .
(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاءةً    غَبْراء محكمةً هما نسجاها
تُطْوَى إذا عَلَوا مكاناً ناشزاً    وإذ السنابكُ أسهلتْ نَشراها

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبيت يَدُ الفتاة وسادةً    لىَ جاعلا يُسْرَى يدىَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

# طوائف من الشعراء

## ١

### شعراء الغزل الصريح

رأينا فى حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما فى الرّفه والنعيم ، بتأثير ما صبّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبى ، وكيف أخذ هذا الرقيق يَسُدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربى القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التى وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربى قروناً طويلة .

ويخيّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان فى الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النُّسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه فى مجالسهن . وفى كتاب الأغانى أخبار كثيرة تصور كلفَ سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل[١] . وقد شاعت فى هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجةٌ واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناسَ من رجال ونساء .

وبذلك كادت تختفى من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذى عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعَدَلَ الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرّمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٩٤ ، ٢٢٧

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الهمس . وليس ذلك فقط ما أثّر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرْضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيباً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلقّى الرجال وتحادثهم ، وكانت — شأنَ المرأة في كل عصر — تُعْجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن تفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقّاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثُّرَيَّا بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنّى بأم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالا ونساء في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل ، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه فى نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقى طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبى عمّار الجُشَمىّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهى المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجىّ ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون فى الطلب ، وهم جميعاً يُلقون من حولها شباك الإغراء ، ولابأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون فى نفوسهم من ريبة ، وبلغ من تيه عمر فى ذلك أن رأيناه يصورها متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

## عمر[1] بن أبى ربيعة

فى بيت قرشى واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم ، ولد عمر فى سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبى ربيعة ، ولأم يمنية أوحضرمية تسمى مَجْدا . وكان أبوه فى الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجَنَد ، وظل عليه فى عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله فى مكة بعد هجرتهم[2] ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلا فدللته ، يؤازرها فى ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكى ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

(١) انظر فى ترجمة عمر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٦١ وما بعدها ، ٩/٢٢٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٥٣٥ والموشح ص ٢٠١ والخزانة ١/٢٣٨ ومرآة الجنان لليافعى ١/١٨٢ وابن خلكان وشذرات الذهب ١/٤٠ وأمالى القالى ٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبى) ١/٢٧٢ ومابعدها وشاعر الغزل ( فى سلسلة اقرأ ) لعباس محمود العقاد وكتابينا : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ( طبع دار المعارف ) ص ٢٣٩ والشعر والغناء فى المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفى بيروت .

(٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم[١] ، وفى الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً[٢] ومما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرارِ مكَّةَ مسْكنى ولها هوایَ فقد سَبَتْ قَلْبِی

وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسَّر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمة من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجح والغريض يلزمونه ويغنونه فى شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلا عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة[٣] . ويقول الرواة إنه كان ببيته مغنيتان تغنيانه فى أشعاره هما بَغوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل مَعْبد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبرَ غزِلٍ فى عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلِّف أضخم ديوان لا فى عصره فحسب ، بل فى جميع العصور العربية .

وهو فى غزله يُخْضع ملكاته لفن الغناء الذى عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحمِّلها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسح لهم فى روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهرنا على حقيقته فى غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة فى مكة ، وتحوَّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِد الناس للطواف احْتِسابا وذُنوبى مجمــوعةٌ فى الطَّوافِ

وتذهب مواسم الحج ، فيتصدَّى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سُكينة بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل فى فتيات قريش النبيلات ، ومن ثم وصفَ ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التى تصوِّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

---

(١) انظر عمر بن أبى ربيعة حياته وشعره لجبور طبع بيروت .

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع أخباره فى الأغانى مع مغنى مكة ومع الثريا .

(٣) انظر الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨ .

وحُلِيٌّ وطيب ، على نحو ما نرى فى قوله :

قالتْ ثُرَيَّا لأترابٍ لها قُطُف ... قُمْنَ نُحَيِّى أبا الخطَّاب من كَثَب[١]

فطِرْن طَيْرًا لما قالتْ وشايعها ... مثلُ التماثيل قد مُوِّهْنَ بالذهب

يرْفلن فى مُطْرَفات السُّوس آونةً ... وفى العتيق من الدِّيباج والقَصَب[٢]

ترى عليهن حَلْىَ الدُّرِّ متَّسِقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفاً لصاحبته ، ملحًّا على أن تواصله بودها ، مستعطفاً ، متضرعاً ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكمُ ... أن المضاجع تمسى تُنْبت الإبَرا

قد لمتُ قلبى وأعيانى بـــواحدةٍ ... فقال لى : لاتَلُمْنى وادْفَعِ القَدرا

ولكن هذا يأتى نادراً فى غزله ، إذ قلما يشكو من هَجْر أو يتألم لصَدٍّ ، فقد تحول بشعره يملؤه تيهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلا ، وكأنما انعكست فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هى التى تشكو من ذلك ، فهى التى تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهى التى ما تنى مسهَّدة تتعذب فى حبه وتتمنى لو تراه . واسمعْه يقول على لسان إحدى صواحبه :

تقول إذ أيقنتْ أنى مفارقُها ... ياليتنى مِتُّ قبلَ اليوم يا عمرا

ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفسَ من شىءٍ تُسَرُّ به ... وأعجبَ العينَ إلا فـــوقه عُمَرُ

ويقول عن ثالثة :

قد حلفتْ ليلة الصَّوْرَيْن جاهدةً ... وما على المرء إلا الحلْفُ مجتهداً[٣]

لأُختها ولأُخرى من مَناصفها ... لقد وجدتُ به فوق الذى وجدا[٤]

لو جُمِّع الناسُ ثم اختير صَفْوهمُ ... شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

(١) قطف : جمع قطوف وهى بطيئة الخطو . كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف كمنبر ، وهو الخادم .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكُبْرى أتعرفنَ الفتى ... قالت الوُسْطى نعم هذا عُمَرْ

قالت الصُّغْرَى وقد تَيَّمْتهَـا ... قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور كَلَفها به وتصدِّيها له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو فى أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ، وهى تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :

قالتْ لِتِرْبٍ لها تحدِّثها ... لنُفْسِدَنَّ الطَّواف فى عُمَرِ

قومى تصدَّىْ له ليعرفنـا ... ثم اغمِزِيه يا أختَ فى خَفَر

قالتْ لها قد غمزتُه فأبَى ... ثم اسبطرَّتْ تَسْعى على أثرى[1]

وعلى هذا النحو نراه فى غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة فى الغزل العربى ، إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا فى تصوير حبه هو وإنما فى تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقدُ به قلوبهن من العشق والصبابة .

فعمر فى غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل فى جمهور هذا الغزل ، ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل أيضاً بما يصفن من خطوب هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن مرارة الغيرة ويصطلين بنارها المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن لعطفه وأنهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصُّدوف ، يقول على لسان إحداهن :

أمن أجلِ واشٍ كاشحٍ بِنَمِيمَةٍ ... مَشَى بيننا صَدَّقْته لم تكذَّبِ

وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيتها وما يتعمقها من دقائق الحب وما يثير فى قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

---

(١) اسبطرت : أسرعت

قالتْ على رِقْبَةٍ يوماً لجارتِها ما تأمرين فإن القلبَ قد شُغِلا[١]
فجاوبتْها حصانٌ غير فاحشةٍ برَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطِلا
اقْنَيْ حياءكِ فى سِترٍ وفى كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلا[٢]
لا تظهرى حُبَّه حتى أراجعــه إنى سأكفيكه إن لم أمت عَجلا

وترضى خطتَّها وتوصيها أن تكذّب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف فى لومه وعذله :

فإن عهدى به واللهُ يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العَذلا

وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته فى ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ، على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليكِ من بلدى كتــاب مولَّهٍ كَمِــدِ
كئيبٍ واكفِ العيْـ ـنين بالحسرات منفــرد[٣]
يؤرِّقــه لَهِيبُ الشَّو قِ بين السَّحْرِ والكبدِ[٤]
فيمسكُ قلبــه بيــدٍ ويمسح عينــه بِيَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً[٥] ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من تبادل الرسائل بينه وبين صواحبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبع غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحبه على نحو ما نعرف فى قصيدته :

أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ غداة غَدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ[٦]

---

(١) رقبة : انتظار .
(٢) اقنى حياءك : احتفظى به .
(٣) واكف العينين : سائل الدموع .
(٤) السحر : الرئة .
(٥) أغانى ( دار الكتب ) ١ / ٢٣٥ ومابعدها .
(٦) غاد : من الغدوة وهى البكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهى نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

ويمضى فيصور قضاءه الليل فى الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه فى ذلك يحاكى امرأ القيس فى معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثمَّ كنا ننفى القصص التى تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظنًّا أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها[1] ، وإذا صح ذلك يكون قد توفّى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

## الأحوص[2]

أوْسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حَمِىّ الدَّبْر أى النَّحْل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لحْيان فى نفر ، فحاربوهم فى يوم يسمى يوم الرَّجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهاراً حتى إذا جَنّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السَّيْل ، فسمّى حمىّ الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبى عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَّلتْ خالىَ الملائكة الأبْـــرَارُ مَيْتاً طُوبىَ له من صَرِيعِ
وأنا ابن الذى حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْــرُ قتيلُ اللِّحْيَان يوم الرَّجيع

وإنما لقب الأحوص لحوَص كان فى عينيه ، وهو ضيق فى مؤْخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبى ربيعة عاش للحب

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر فى ترجمة الأحوص وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٤/٢٢٤ وما بعدها ، ٦/٢٥٤ وما بعدها ، ٩/٦٤ وما بعدها وابن سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩ والموشح ص١٨٧ والاشتقاق ص٤٣٧ والخزانة ١/٢٣١ وحديث الأربعاء ١/٢٢٩ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ١١٤ .

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثريًّا، ومن ثَمَّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بنى أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ ... وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ ... مَلاَ الأَرض معروفاً وجوداً وسُؤْددا

وله مدائح مختلفة فى الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه ويزيد بن عبد الملك. وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد، ولعله من أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه، فيهجوهم هجاء قبيحاً. وهو فى غزله شديد الصبابة، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شىء، حتّى ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى ... فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات، بل من الجماد، بل من الحجارة أو أشد قسوة. وهو يعلن حبه إعلاناً، يعلن صبوته وثورة نفسه. وكان فاسد الخلق، فانصرفت الفتيات والنساء عنه، إذ رأينه يذهب بعيداً فى التصريح، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلماك لما حرم ... تَ ضلَّ ضلالُك من مُحْرِمِ (١)
تريد به البِرَّ يا ليتَــهُ ... كفافاً من البِرِّ والمَأْثَمِ (٢)

وأشعاره فى أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً، وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن، حتى ليُرْوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية، وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أُمَّ جعفرٍ ... بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها ... وقلبى إلى البيت الذى لا أزورُ
وما كنتُ زَوَّاراً ولكن ذا الهَوى ... إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

---

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت.
(٢) يقول : ليتنى تعادل إثمى وبرى، فخرجت غير بار ولا آثم.

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهَت حتى ما أكاد أُجيبُ
لكِ اللهُ إنى واصلٌ ما وصلتِنى ومُثْنٍ بما أوليتِنى ومُثيبُ
أبثُّك ما ألقى وفى النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِى والعظام دَبِيبُ

ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغوفاً بجميلة المغنية وناديها المشهور فى المدينة ومن كنّ فيه من الإماء مثل الذَّلْفاء وَعقيلة وسَلاَّمة القس وله فيهن غزل كثير ؛ كن يغنين فيه ، من مثل قوله فى الذلفاء :

إنمــا الذَلْفــاءُ هَمِّى فليــدعْنى من يلومُ
حبِّبَ الذَّلفــاء عندى منطــقٌ منهــا رَخيمُ
حبُّها فى القلب داءٌ مستكنٌّ لا يَــريمُ[1]

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبراًّ به ، فنظم فيها غزلا كثيراً ، يصوِّر كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يا دِينَ قلبك منها لست ذاكرها إلا ترقرق ماءُ العين أو دمعــا[2]
لا أستطيع نزوعاً عن محبَّتها أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنعا
وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ وحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنعا

وهو فى هذا الغزل بالإماء والجوارى يختلف عن ابن أبى ربيعة الذى كان لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف عنه أيضاً فى بعده فى التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن ثَمَّ شكاه أهل المدينة لأبى بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على البُلُس للناس . ولما ولى عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سَلاَّمة — وقد صارت إليه — عنده فعفا عنه . ولما رُدَّت إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على ابن المهلب طويلا . ويقال إنه توفِّى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

(١) لا يريم : لا يبرح .
(٢) دين هنا : داء .

### العرجي (١)

لُقِّب هذا اللقب لضيعة له قرب الطائف تسمى العَرْج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالغزل ونَحا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغوفاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدَّ في الفرسان ، ومن ثَمَّ اجتذبته حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبْراهم لسَهْم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالتْ رضيتُ ولكن جئتَ في قمَر … هَلاَّ تلبَّثْتَ حتى تَدْخُلَ الظُّلَمُ

وقوله :

باتا بأَنعم ليلةٍ حتى بــدَا … صُبْحٌ تلوَّح كالأَغرِّ الأَشقرِ

فتلازما عند الفراق صَبابةً … أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعْسِر (٢)

وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرمى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سفرتْ عن وجه جميل :

أَماطتْ كساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهها … وأَدنتْ على الخدَّين بُرْدًا مُهَلْهلا

من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغينَ حِسْبَةً … ولكن ليقتلنَ البريءَ المغفَّلا

ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقْسم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويَشْفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

---

(١) انظر في ترجمة العرجي وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما بعدها ، ٨/١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر والشعراء ٢/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعاء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه في العراق .

(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن.

أَلا قاتل اللهُ الهوى كيف أَخْلَقَا فلم تُلْفه إلا مَشوباً ممذَّقا[١]
وما مِنْ حبيبٍ يستزير حبيبه يعــاتبه فى الودِّ إلا تفرَّقا
لقدسَنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأَعْنَقا[٢]

وكان يمضى فى التغنى بهذا الغزل لا يخجل ولا يستحيى من الجموح فيه ، إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه فى تتبعه للنساء المتزوجات يتغزل بهن ، كما نراه فى ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً فإننا نرى هذا العنف فى هجائه لمحمد بن هشام المخزومى ، إذ أخذ يتغزل بزوجه جَبْرة المخزومية وأمه جَيْداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى علىَّ فسَلِّمى جَبْرُ فيمَ الصُّدودُ وأَنْتُم سَفْرُ

وقوله :

عوجى علينا ربَّةَ الهَــوْدجِ إنك إن لا تفعلى تحْــرَجى
أَيْسَرُ ما نال محبٌّ لدى بَيْن حبيبٍ قولهُ عَرِّجِ
نَقْضِ إليكم حاجةً أَو نقل هلْ لىَ مما بىَ من مخْــرج

فلما ولى محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البُلُس وحبسه، وظل فى سجنه تسع سنوات إلى أن مات ،وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أَضاعونى وأَىَّ فتى أَضاعــوا ليــوم كريهةٍ وسِدَاد ثَغْرِ[٣]

ومما يستجاد له قوله :

ارْجِعْ إلى خُلْقك المعروف دَيْدَنُهُ إن التخلُّقَ يـأْتى دونه الخُلُقُ

ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجى من محمد بن هشام المخزومى حين صارت الخلافة إليه ، إذ لم يـرْعَ حرمة قرشيته ونسبه فى بنى أمية .

(١) أخلق : بلى . ممذقا : مشوباً ومخلوطاً.

(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن الصبا إذا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى فى ميدانه .

(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

٢

## شعراء الغزل العُذْرى

الغزل العذرى غزل نقى طاهر ممعن فى النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عُذرة إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القُرَى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنِّى به ونَظْمه ، ويُرْوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العُذْرى صاحب عَفْراء : أصحيح ما يُرْوَى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُذْرى لهذا العصر عند عُذْرة وحدها ، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك فى أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرّأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة والمدينة ولا ما يُطْوَى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديُّنها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يَصْلَى المحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغانى من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينى يتغنى بمعشوقته ، متذللا متضرعاً متوسلا ، فهى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية ، يصور فيها وَجْده الذى ليس بعده وَجْد وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها فى يقظته ويحلم بها فى نومه ، وقد يصبح كهلا أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً فى قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان ، حتى ليظل يُغْشَى عليه ، بل حتى ليُجَنّ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تخيَّلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعْرَف فى جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان فى الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعففين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرَّم القرآن الكريم والحديث النبوى قَتْلَ النفس بغير حق . ولا شك فى أن هذا كله قصص لفقه الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب فى أخبارهم فإنه لعب أيضاً فى أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طُوِىَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التى احتلت فى الجزء الثانى من كتاب الأغانى تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعى يقول : « رجلان ما عُرِفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القِرِّيَّة وإنما وضعهما الرواة » . ويقول ابن الكلبى : « حُدِّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التى يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقيًّا ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذَريح ، يقول أبو الفرج فى ترجمته لمجنون بنى عامر نقلا عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فى ليلى إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل فى لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَريح » . وقد تُفْصح القصةالمضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء، وخير ما يمثل ذلك قصة[١] وضَّاح اليمن التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق ، وعرَف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهيل عليه التراب وسوِّيت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وُجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوادى الحجاز ،وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتّى غدت لوناً شعبيًّا عامًّا ، ولعل شعبيّتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ،جعلوا منهم أبطالا ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحوما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى ،فإنهم أضافوها — كمالاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَريح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوة بن حزام العُذْرى وصاحبته عَفْراء ،وقد ترجم له صاحب[٢] الأغانى وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإنى لتَعْرونى لذكراك رِعْدَةٌ     لها بين جلدى والعظام دَبيبُ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا     ومـا أعقبتْها فى الرياح جَنوبُ

ومنهم الصِّمَّة[٣] القُشَيْرى، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى ريَّا ، وخطبها من أبيها فآثر عليه شابًّا موسراً ، فزاد

---

(١) انظرها بترجمته فى الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٥/٧ وحديث الأربعاء ٢٩٣/١ .

(٢) أغانى ( ساسى ) ١٥٢/٢٠ وانظر الشعر والشعراء ٦٠٤/٢ وذيل الأمالى ص١٥٧ والخزانة ٥٣٣/١ .

(٣) ترجمته فى الأغانى(طبع دار الكتب ) ٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته العينية فى الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها ، ثم رأى أن يغزو فى طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكراها لا تفارقه حتى قتل فى غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله فى عينية له بديعة :

وأذكر أيَّامَ الحِمىَ ثم أنثنى ... على كَبِدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

ومنهم كثيِّر عزَّة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له فى شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبى عمَّار الجُشَمِى وعروة بن أذَينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد[1] الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَس لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سَلاَّمة ، فشُغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القس ، وفيها يقول :

سلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرٌ ... أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ

قد سمع الناسُ بوَجْدى بكم ... فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وكان عروة[2] من فقهاء المدينة ومحدِّثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقِّع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى فى غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها ... جُعلتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوًى لها

فبِك الذى زعمتْ بها وكلاكما ... يُبْدى لصاحبه الصَّبابةَ كلها

بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها

مَنعتْ تحيَّتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

أما ابن[3] عُتْبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدَّمين فى المدينة الذين حُمل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر فى حبه لسلامة الأغانى (طبع دار الكتب) ٨ / ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمته الأغانى (طبعة ساسى) ٢١ / ١٠٥ والشعر والشعراء ٢ / ٥٦٠ والموشح ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٩ / ١٣٩ وما بعدها وصفة الصفوة ٢ / ٥١ وتهذيب التهذيب ونكت الهميان ١٩٧ .

غزل كثير فى زوجته عَشْمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمرى لئن شطَّتْ بعَثْمَةَ دارُها ... لقد كدتُ من وَشْكِ الفراق أَلِيحُ[١]

أروح بِهَمٍّ ثم أغدو بمثلهِ ... ويُحْسَبُ أنى فى الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا فى هذا الحب العذرى بكاء المعشوقات لمن حُرموا منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلى[٢] الأخْيَلية الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توْبة ابن الحُمَيِّر ، وشُغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أنَّ ليلى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمتْ ... علىّ ودونى تُرْبَةٌ وصَفائحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزَقَا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائح[٣]

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل فى بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلى بقصائد كثيرة تصوِّر ما أوقده فى فؤادها من جذوة الحب ، من مثل قولها :

أيا عَيْنُ بكِّى تَوْبَةَ بن حُمَيِّر ... بِسَحٍّ كَفَيْض الجَدْوَل المتفجِّرِ

لتَبْكِ عليه من خفاجةَ نِسْوَةٌ ... بمــاءِ شئون العَبْرَةِ المتحدِّر

وقولها :

وآليتُ لا أنفكّ أبكيك ما دعتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طار طائرُ

وكل شبابٍ أو جديدٍ إلى بِلًى ... وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائر

---

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر فى ليلى الأخيلية وأخبارها مع توبة ترجمتها فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٢٠٤/١١ وما بعدها والشعر والشعراء ٤١٦/١ والأمالى للقالى ٨٦/١ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

ويقال إنها ماتت فى إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جَنْبه. ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذَريح عاشق لُبْنى وجميل عاشق بثينة .

## قيس[1] بن ذَرِيح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن فى ضواحى المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن على ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هى كل حياته . وهى قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُرْوَى أنه مر فى رحلاته بديار لُبْنَى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت فى قلبه ووقع فى قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبَى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن على، فتوسط له عند أبيه وأبى لُبْنَى ،وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرْزقا الولد ، وداخلت أمَّ قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلِحَّان عليه بعد شفائه من علَّته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى َقبْلَ أنتبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعق غُراب قبل رحيلها ،فتشاءم تشاؤماً شديداً ، ونظم فى نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى ... فطــار القلبُ من حذر الغُرابِ
وقال : غَدًا تباعَدُ دارُ لُبْنَى ... وتنأى بعد وُدٍّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب ... وكان الدهرَ سعيُك فى تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطرمت جذوة الحب فى نفس قيس اضطراماً ، ووجد بلُبْنَى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

---

(١) انظر فى قصة قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/ ١٨٠ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/ ٦١٠ وأمالى القالى ٢/ ٣١٨ وراجع الموشح ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ١/ ٢٥٦ .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول فى غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلفى بلُبْنَى بلاءً ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبْنَى عَيِيتُ فما أُطيق له جـــوابا

وقوله :

وإنى لأهوى النومَ فى غير حِينه لعل لقاءً فى المنـــام يكونُ
تحدِّثنى الأحلامُ أنى أَراكمُ فياليت أحلام المنام يقين

وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنأ لها عيش ، وتبكى مصيرها ومصيره . ويُرْوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس فى غراب البَيْن ،وأخذت تنتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل قولها :

ألا يا غُرابَ البَيْن لونُك شاحبٌ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ كما ليس لى من ظالِمِىَّ نصير

ولما أضنى الحب قيساً رقّ له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فمضى معهم وهو ينشد :

لقد عذَّبتَنى يا حبَّ ليلى فقَـــعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموتَ أَروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشيًّا عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج ورآها هناك ، فعاوده فُتونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنْشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نِطافاً وفى المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا مِتْنا بمُنْصَرِم العَهْدِ
ولكنـــه باقٍ على كل حادث وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبته . وتمضى القصة فتزعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها مخايل صاحبته ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبته الأولى عاوده ، وكأنما لم يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباها شكاه إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ، ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنّى له ؟ لقد أمضه الغرام ، ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ، وبكى أحرّ بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها … حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا … ونُبْصر قَرْن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحَىِّ تلتقى … ونعلم أنا بالنهــار نَقِيل[1]
وتجمعنا الأَرضُ القَرارُ وفــوقنا … سماءٌ نرى فيها النجومَ تجــول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته تمعن فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أَشكو ما أُلاقى من الهوى … ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن أَلمٍ للحب فى باطن الحشَا … وليلٍ طــويل الحزن غير قصيرِ

وقوله :

وبين الحشَا والنَّحْر منى حرارةٌ … ولوعةُ وَجْــدٍ تترك القلَب ساهيا
تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى … ولوعى بهــا يزداد إلا تماديا

وقوله :

أَلا ليت أَياماً مَضَيْن تعــودُ … فإن عُدْن يوماً إننى لسعيدُ

---

(١) نقيل : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبته ، حتّى رأى رضيعه الحسين بن على ونفر من قريش تعمّقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبنى فى شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئتهم راضياً ، فعادت لبنى إلى قرة عينها وظلت عنده حتّى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلا إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جَنْبها .

## جميل[1] بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين . فقد نشأ فى منازل عُذْرة بوادى القُرَى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقى ابن أبى ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببنى أمية كثيراً ، ففى أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثيِّر عزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفى أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدْبة بن الخَشْرم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التى كانت تُعْنَى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحَزين الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما غنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضى جمهورها فى التغنى ببثينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحابّا صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حبّاً انتهى به إلى الهُيام بها ، وعرفت ذلك فمنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شبّا فى غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيّقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقى برىء ،

---

(١) انظر فى جميل وأخباره وأشعاره الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ١/٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١/١٩٠ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٤٩ ، ٢٨٧ .. وطبع ديوانه بشير يموت فى بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر فى بعض قصائده الأمالى ٢/٨٧ ، ٣٠٣ .

وأخذت الألسنة فى الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ؛ فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ؛ وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى لو أبصره الواشى لقرَّت بَلابلُه[1]
بلا وبأن لا أستطيعَ وبالمُنى وبالأمل المرجوِّ قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحَوْل تنقضى أواخــرُهُ لا نلتقى وأوائله

وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشْرق الدنيا فى عينه ، ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردَّه ، لكراهة العرب أن يزوِّجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى فى القبيلة يسمى نُبَيْهاً ، فتسودُّ الدنيا فى عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شىء ، ويأخذ عليه كل طريق ، يقول :

ولو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها ولكنْ طِلابيها لما فات من عقلى
خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلى
فلا تقتلينى يا بُثَيْنُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى

ويقول :

لها فى سَواد القلب بالحب مَيْعَةٌ هى الموتُ أو كادتْ على الموت تُشْرفُ[2]
وما ذكرتْكِ النَّفْسُ يا بَثْنَ مرَّةً من الدهر إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يَذْرِفُ[3]
وما استطرفتْ نفسى حديثاً لخلَّةٍ أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أَطْرفُ

ويمضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتُنيله فى بعض الأحايين أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشتى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوساوس . قرت : سكنت .
(٢) يقصد بالميعة حرارة الحب وقوته .
(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد فى عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكراها لا تبرح مخيلته ؛ بل تعيش فى قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يسود عها عبادته على شاكلة قوله :

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً — بوادى القُرَى إنى إذن لسعيدُ
وهل ألقيَنْ فَرْدًا بثينةَ مرة — تجود لنا من ودِّها ونجـود
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل — إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأفنيتُ عمرى فى انتظار نوالها — وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد
إذا قلتُ ما بى يابثينةُ قاتلى — من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّى بعضَ عقلى أعِشْ به — مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً — ولا حبُّها فيما يَبيد يَبيدُ
يموتُ الهوى منِّى إذا ما لقيتُها — ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

وشعرُ جميل كله فى بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به .

## ٣

### شعراء الزهد

تردَّد فى القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد فى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهى دعوة تحمل فى تضاعيفها الحثَّ على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أوده ، ويعدُّه للكفاح فى سبيل الله ، ومن ثَمَّ كان زهد

الإسلام لا يعني الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : ( وابْتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ) وهو نصيب ينبغي أن لا يصْرِف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُرْوَى أن رجلا جاءه فقال : يا رسول الله دُلَّني على عمل إذا عملته أحبَّني الله وأحبني الناس ، فقال : « ازْهَدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس[1] » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة[2] المسجد منزلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثرين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آيَ الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلي لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس[3] .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضِّياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القرّاء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنُّسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقي فيه بهؤلاء النُّسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبَّدون ، وكان الخوارج في

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٣١ في الأربعين النووية والبيان والتبيين ٣/١٦٦ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

(٣) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٦٠ وما بعدها .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلَّتْ فى اجتهادها وما زعمته من كفر الأمويين وجمهور المسلمين، ولكنها لم تضل يوماً فى تقواها .

لذلك كله عمَّت فى العراق موجة واسعة من التقوى والزهد فى الدنيا ونعيمها المادى زهداً كثيراً ما تطرَّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل فى ثنايا هذا الزهد تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل فى الإسلام من الموالى والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق . وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم، وهى لذلك ماتنى تحدثهم — مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله فى خلقه السموات والأرض ، وعن الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ وهو فى وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ، ويحض حضاً قوياً على الزهد فى الدنيا وحُطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ لا يزالون يستشهدون فى وعظهم بأشعار لَبيد والنابغة الجَعْدى وغيرهما تلك التى تدعو إلى خشية الله وتقواه، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ،وخاصة تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً فى نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى مجالسهم ، وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته الروحية فى الشعراء ، كما مرت بنا فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم العجلى والعَجَّاج يبدءون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته[١] :

يارَبِّ قد أَشرفتْ نفسى وقد علمتْ ... علماً يقيناً لقد أَحصيتَ آثارى

يامخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ ... وفارجَ الكَرْبِ زحزحْنى عن النار

(١) ديوان ذى الرمة ( طبعة كبريدج ) ص ٦٦٧ .

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا فى أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التى يدعو إليها الإسلام. وأول من نقف عنده عروة بن أُذَيْنَة فقيه المدينة الذى رُويت له - كما أسلفنا - مقطوعات فى الغزل العفيف، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد فى هذا العصر، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة فى أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه، وبلغ من مبالغة بعضهم فى هذا المبدأ أن رأوا فى السعى والكد نقصاً فى التوكل والثقة بربهم. ولا شك فى أن هذا المبدأ يفضى إلى طمأنينة نفسية قوية، كما يفضى إلى طرح الدنيا طرحاً تامًّا، وفى تقريره يقول عروة:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يَأْتينى
أَسْعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُــهُ ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى
خِيمى كريمٌ ونفسى لا تحدِّثنى ... إن الإله بلا رزقٍ يخلِّينى

وممن اشتهروا بكثرة أشعارهم فى الزهد عبد الله بن عبد الأعلى، ويظهر أنه كان يستمد فى زهده من منابع بعيدة عن الإسلام، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه فى دينه، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة[1]، وهو فى أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله:

يا وَيْحَ هذى الأرض ما تصنع ... أكلَّ حَىٍّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرعهم حتى إذا ما أتوا ... عــادتْ لهم تَحْصد ما تزرع

وقوله:

مَنْ كان حين تُصيب الشمسُ جَبْهته ... أو الغبارُ يخاف الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويألفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بَشاشتُه ... فسوف يسكن يومًا راغِمًا جَدَثا[2]

وفى تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضىء أصحابها بما جاء فى الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/ ٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ وما بعدها وانظر أمالى القالى ٢/ ٣٢٣.

(٢) الجدث: القبر.

الدعوة مسكين[١] الدارمى القائل :

وسُمِّيتُ مِسْكيناً وكانتْ لجاجةً ... وإنى لمسكين إلى الله راغبُ

ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ، ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد فى كتب الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قُدِّر له ، وأن الله لا بد أن يكشف غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرهه ... إلا سيجعل لى من بعده فرجا

ومن مستحسن شعره قوله :

ولستُ إذا ما سرَّنى الدهر ضاحكًا ... ولا خاشعًا ما عشتُ من حادث الدَّهْرِ

أَعِفُّ لدى عُسْرى وأُبْدى تجمُّلاً ... ولا خير فيمن لا يعفُّ لدى العُسْرِ

وإنى لأستحيى إذا كنت مُعْسرًا ... صديقى وإخوانى بأن يعلموا فَقْرى

ومن يفتقرْ يعلمْ مكان صديقهِ ... ومن يَغْنَ لا يَعْدَم بلاءً من الدَّهْرِ

وهو القائل :

أَخاك أخاك إن من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ

وله أشعار طريفة فى الغيرة[٢] وأن على الزوج أن لا يبالغ فى اتهام زوجته ، حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبيته القبلية فى فخره بخصاله ؛ وقد مرَّ بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه فى ذلك من شعر . وهو فى الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ، إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها فى إشادته بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى .

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (ساسى) ١٨/ ٦٨ والشعر والشعراء ١/ ٥٢٩ ، والخزانة ١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١١/ ١٢٦ وأمالى المرتضى ١/ ٤٧٢ وابن عساكر ٥/ ٣٠٠ .

(٢) أمالى المرتضى ١/ ٤٧٥ وما بعدها .

## أبو الأسود الدُّؤَلى (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بنى كنانة ، ولى قضاء البصرة فى ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعلى بن أبى طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه فى حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط فى المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدّثيهم . وله مدائح وأهاج فى معاصريه وأشعار فى أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلا شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيًّا صالحاً ، وله أشعار كثيرة فى الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً ... فادْعُ الإلٰه وأحسنِ الأعمالا
فليعطينَّك ما أراد بقُدْرةٍ ... فهـو اللطيف لما أراد فعالا
ودَعِ العبادَ ولا تكن بطلابهم ... لَهِجاً تضعضَعُ للعباد سؤالا (٢)
إن العباد وشأنَهم وأمورَهم ... بيدِ الإله يقلِّب الأحـوالا

وهو فى زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعى فى الدنيا والمشى فى مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنّى ... ولكن أَلْقِ دَلْوَك فى الدِّلاءِ
تَجِئْك بملئها يومًا ويومًـا ... تجئك بِحَمْأةٍ وقليلِ مـاءِ (٣)
ولا تقعد على كسلٍ تَمَنَّى ... تُحيل على المقادرِ والقضاءِ

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٢٩٧ والشعر والشعراء ٢/٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج٧ ق١ ص٧٠ وأسد الغابة ٣/٦٩ والإصابة ٣/٣٠٤ والخزانة ١/١٣٦ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٣٤٥ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباه الرواة على أنباه النحاة ١/١٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١٠٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى ببغداد .

(٢) تضعضع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم إن لم يُقْرَنْ بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه  بسوفٍ بميثاقٍ عليه ولا عَهْدِ

ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحْرَمُهُ  عمّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَربا[1]
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا  ولا يحاذرُ منه الفَوْتَ والسَّلبا

وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

## سابق[2] البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضى الرَّقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ  كأنك فيه ثابتُ الأَصل قاطِنُ
وتجمعُ ما لاتأْكل الدهرَ دائبًا  كأَنك فى الدنيا لغيرك خازنُ

ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها  ودورنا لخراب الدهر نَبْنيها
والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ  أن السلامةَ منها ترْك ما فيها

(١) الحرب : سلب المال .
(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر ٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين ٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغى لكل إنسان أن يعدّ العُدَّة للرحيل، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملا صالحاً ، ومن قوله فى ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زايلَ روحَه خَوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ آهِلُهْ
وقد كان فيه الروح حينًا يَزِينُه وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحمائله
إذا الأَرض خَمَّتْ بعدثِقْلٍ جبالُها وخَلَّى سبيلَ البحريا نفس ساحلُهْ
فلا يرتجى عَوْناً على حَمْل وِزْرِهِ مُسِيءٌ وأَولى الناس بالوِزْرِ حاملُه

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله، فلا مَعْدَى عنه، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك فى أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفْعَه فلا تَجْزعا مما قضى الله واصْبرَا

ويظهر أنه كان شاعراً مكثِراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع » .

## ٤

### شعراء اللهو والمجون

رأينا فى غير هذا الموضع كيف تحضر العرب فى هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أتْرفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم فى الترف يتورط كثير من أبنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد فى العصر كان لها آثار عميقة فى

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد فى الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرَّم الخمر ، وأن عمر شدَّد فى عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبى محْجن الثقفى ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبى محجن فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضى فى عصر بنى أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملتْ من أموال وحضارات وصورٍ من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أُتْرِفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا فى الفتوح واستقروا فى البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع فى الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر فى هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا فى العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة فى البيئات البعيدة التى رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرَّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطُرَّ حين وجد تفشى الخمر فى جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر فى كل البيئات ، وقلما نجدها فى مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين نهلوا من كئوسها فى هذه البيئة لعهد معاوية ابن أرْطاة[1] ، وعبثا حاول مروان بن الحكم والى المدينة أن يردَّه عنها ، وفيها يقول :

إنا لَنَشْرَبُها حتى تَمِيل بنا ... كما تمايلَ وَسْنَانٌ بوَسْنانِ

ومنهم عبد الرحمن بن الحكم[2] الذى كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

---

(١) راجع فى ابن أرطاة الأغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/٢٥٩ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣/٣٤٨ .

ترى شارِبَيْها حين يَعْتورانها   يَميلان أحيانًا ويعتدلان

وممن كانوا يحتسونها فى هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميَّادة[١] مادح الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتّقٍ حُرِمِ الوَقودَ كرامــةً   كدم الذَّبيح تمجُّه أَوْدَاجُهُ[٢]

ضمنَ الكرومُ له أوائلَ حَمْلِهِ   وعلى الدِّنان تمامُه ونِتاجه[٣]

ومثله ابن هَرْمة[٤] ، وكان مشغوفاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أسأَل الله سكرةً قبل مَوْتى   وصياحَ الصِّبْيان يا سَكْرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر فى غير حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حمَّلتهم من الخطوب باعثاً لهم على المجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرته لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَيم[٥] بن وثيل الرياحى التميمى ، وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرته لغالب أبى الفرزدق التى مرت بنا ، والتى مضى فيها ينافسه فى نحر إبله لقومه ، ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حَذْراء تراجعه وتكثر من مراجعته ، فقال :

تقول حَذْراء ليس فيك سوى الـ   ـخَمْر معيبٌ يعيبُـه أَحَـدُ

فقلت: أخطأْتِ بل مُعاقرتى الـ   ـخَمْرَ وبَذْلى فيها الذى أجِـدُ

---

(١) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزانة ٧٦/١ والبيان والتبيين ٣٤٣/٣.

(٢) المعتق : الشراب القديم. حرم الوقود : لم يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

(٤) راجع فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزانة ٢٠٣/١ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩ والإصابة ١٦٤/٣ والخزانة ١٢٣/١ والشعر والشعراء ٦٢٦/٢ .

هو الثناءُ الذى سمعتِ بهِ لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَدُ(١)
ويحكِ لولا الخمورُ لم أحْفِلِ الـ ـعيش ولا أن يَضُمَّنى لَحَدُ(٢)
هى الحَيا والحياةُ واللَّهو لا أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلَـدُ

ويقف السرادق الذُّهْلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه(٣). ويلقانا فى عهد زياد بن أبيه حارثة(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكفَّ عنها ، مهما أكثر لائموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ علىّ الرَّاحَ من لو يذوقها لجُنَّ بها حتى يغيَّب فى القَبْرِ
علامَ تذمُّ الراحَ والراحُ كاسمها تُريح الفتى من هَمِّه آخرَ الدهر
فَلُمْنى فإنَّ اللوم فيها يزيدنى غـراماً بها إن الملامة قد تُغْرِى

وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته(٥). ولعل عراقيًّا لم يشتهر بها كما اشتهر الأُقَيْشر(٦) الأسدى وكان كوفيًّا خليعاً ماجناً ، وفيها يقول :

أَفْنَى تِلادى وما جمَّعتُ من نَشَبٍ قَرْعُ القَواقيزِ أفْواهَ الأَباريق(٧)

ويقول :

كُمَيْتٌ إذا فُضَّتْ وفى الكأسِ وردةٌ لها فى عِظام الشاربين دبيبُ

---

(١) لا سبد ولا لبد : مثل أى لا قليل ولا كثير .

(٢) اللحد : شق للميت فى جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٦٧٠/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ١٣/٢١ وأمالى المرتضى ٣٨٠/١ وما بعدها وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين والطبرى .

(٥) انظر ترجمته فى الأغانى ( ساسى ) ٤٠/١٦ والخزانة ٤٨٥/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء ٧٥٦/٢ .

(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغانى (دار الكتب) ٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢٧٩/٢ والموشح ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم. النشب : العقار والضياع . القواقيز : الكئوس وأوانى الخمر التى تشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم فى الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان فى المجون والتحرر من قوانين الدين، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويَرْوِى البلاذرى أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجهه إلى الديلم، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحباه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثانى فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء[1]. ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمَرْدَل[2] بن شَرِيك، وكان قد خرج للغزو فى تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدة اليشكرى الذى سبق أن عرضنا له فى شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمنها إدماناً ثم تاب عنها، فقال[3] :

سأرْ؟ نس فى التقوى وفى العِلْم بعدما ركضتُ إلى أمر الغَوِيِّ المشهَّر

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون فى خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرد ويحيى بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا فى الدولتين الأموية والعباسية، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسى منهم بالعصر الأموى ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا فى قوة إلى تهالك الناس على المجون فى الكوفة فى أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلقى على الأقل عند بعض الأفراد فى هذا العصر أن بعض خلفاء بنى أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم فى ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذى أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندى شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ١٣/ ٣٥١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/ ٦٨٥

(٣) أغانى (دار الكتب) ١١/ ٢٣٠.

## الوليد[1] بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمر والغناء ، حتى فى خلافته ، إذ كان يستقدم مغنىَّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلاّمة القس وحبَابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقَصْف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف فى المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذى خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرقى الأردن مقصفاً كبيراً للخمر والعَزْف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً فى مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبُّ من كئوس المجون عبًّا ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ تؤازره اليمانية ثأراً لخالد القسرى وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، ومما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقَنْص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل فى نفس الجو الماجن ، الذى كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرقى الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما فى ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

---

(١) انظر فى ترجمة الوليد أغانى ( دار الكتب ) ٧ / ١ وما بعدها والطبرى فى سنتى ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٣١٨ وحديث الأربعاء ١ / ١٦٩ وقد نشر ديوانه فى مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا نمضى مع الرواة فى كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانويًّا زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً[1]، وفى الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول: يوم كيوم عثمان[2]. وفى الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ فى وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه فى التشنيع على خلفاء بنى أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرَّم الله ومن شُرْب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التى لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره فى الخمر ، وله أشعار فى الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر فى الإبداع والروعة، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى[3] بن زيد العبادى ، وقد مضى ينميه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع فى ثنايا قصيدة أو فى مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنْظَمُ فى مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور ، لسبب طبيعى ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها فى غمرة عشقه ، وكأنما تفجَّر له ينابيع الفرح تفجيراً . واقرأ له هذه الخمرية:

اصْدَعْ نَجِيَّ الهموم بالطَّرَب ... وانْعَمْ على الدَّهْر بابْنَةِ العِنَبِ
واستقبلِ العيشَ فى غضارتهِ ... لا تَقْفُ منه آثارَ مُعْتَقِبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها ... فَهْىَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ

---

(١) راجع الأغانى ٧/٤٦ومابعدها، ٧/٧٢ .
(٢) انظر الطبرى ٥/٥٥١ .
(٣) انظر الأغانى ٧/٦٥ .

أشهى إلى الشَّرْب يومَ جَلْوتها    من الفتاةِ الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلَّت ورقَّ جَوْهَرُها    حتى تبدَّتْ فى منظرٍ عجبِ
كأنها فى زُجاجها قَبَسٌ    تذكو ضياءً فى عَيْن مُرْتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة . واقرأ أيضاً هذه الخمرية :

عللانى    واسقيانى    من شرابٍ أصْبهانى
من شراب الشيخ كِسْرى    أو شرابِ القَيْروان
إن فى الكأسِ لِمْسكا    أو بكفَّىْ مَنْ سقانى
أو لقد غُودِرَ فيها    حين صُبَّتْ فى الدِّنانِ
كلِّلانى تَوِّجانى    وبِشعْرى غنِّيانى
إنما الكأسُ ربيعٌ    يُتعاطَى بالبَنَان
وحُميَّا الكأس دَبَّتْ    بين رِجْلى ولسانى

وهى تجرى أيضاً فى نطاق الفرحة العميقة بالخمر ، بل لعلها أقوى من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعه، وهو يتلظى بنشوتها التى تسرى فى جسده من فَرْعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستتم الخمرية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ، يحسن اللعب على أوتار العيدان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره[١] . ومن ثَمّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل الهزج والرَّمَل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتثّ ، فكان أول من نظم فيه[٢] . وإذا صحت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم جمعة — وهي موعظة[٣] طويلة — كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

## أبو الهندى [٤]

هو غالب بن عبد القدوس بن شبث بن رِبْعيّ الرياحي التميمي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فمرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندى ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : «كوى زيان» وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُقْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لنرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : «كان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفّان وطبقتهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندى وبما استنبطوا من معانيه» . وله في مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(١) الأغاني ٩/٢٧٤ و ٧/٣٢ ، ٤٤ .
(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٥٩ .
(٣) الأغاني ٧/٥٧ .
(٤) انظر في ترجمته أغاني (ساسي) ٢١/١٧٧ والشعر والشعراء ٢/٦٦٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرَّعون من الخمر ، فشرب ، حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ، يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم فى بعض شعره . إنه يعيش للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقاتها ودِنانها وأباريقها وزِقاقها مثل قوله :

يمجُّ سُلافًا من زِقَاقٍ كأنَّهـا    شيوخُ بنى حامٍ تحنَّتْ ظهورها

وقوله :

وإذا صُبَّت لشَرْبٍ خِلتها    حَبشيًّا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

ونراه يصف القيان اللائى يسمعهن فى أثناء شربها ، كما يصف من تَصْرعهم وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره فى قبره ، فلا تزايله حيًّا ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا ــ إن متُّ يومًا ــ كَفَنى    وَرَقَ الكَرْم وقبرى مَعْصَرَهْ

وادْفنونى وادفِنوا الـرَّاحَ معى    واجعلوا الأَقداحَ حول المَقْبَره

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندى فى سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته ، يَصْدَحُ بخمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير فى نفسية الشاعر العربى ، وقد مضى أسلافه فى الجاهلية يَصْدُرون عنها فى أشعارهم ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة فى صَمْتها ولا فى حركتها دون أن يرسموها فى أشعارهم ، فهم يصورون فَلَواتها بكُثْبانها ورمالها وغُدْرانها وغَيْثها وسيولها وخِصْبها وجَدْبها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموى — على سُنّة آبائهم — يستلهمون صحراءهم ، مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التى قضى بها شبابه مع بعض صواحبه ، ويسترسل فى الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته فى الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التى يُسْهب فى وصفها لما لها من جمال فى نفسه ، كما يُسْهب فى وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو فى ثنايا ذلك يحدّثنا عن كل ما تقع عليه عينه فى صحرائه ويخلّف أثراً فى ذهنه من طير وحيوان فى الأرض ونجوم وكواكب فى السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش فى بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ ينابيعها فى نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول فى أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهَيْر دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعْلى فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً ، يقول(١) :

لفَلْجٌ وصَحْراواه لو سرتُ فيهما ... أَحبُّ إلينا من دُجَيْلٍ وأفضلُ(٢)
وراحلة قد عوّدونى ركوبهـا ... وما كنتُ ركّابًا لها حين تُرحَلُ(٣)
قوائمُها أيدى الرجال إذا انتحتْ ... وتَحْمل مَنْ فيها قُعودًا وتُحْمَلُ(٤)
إذا ما تلقّتها الأواذىُّ شقّهـا ... لها جُؤْجُؤٌ لا يستريح وكَلْكَلُ(٥)
إذا رَفعوا فيها الشّراع كأنها ... قَلوصُ نَعام أو ظَليمٌ شَمَرْدَلُ(٦)

وواضح أنه يُؤْثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس فى رحلات نهرية ممتعة . وهو يعبّر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحمى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهيأ للرحيل .
(٤) القوائم هنا : المجاذيف بأيدى الملاحين .
(٥) الأواذى : الأمواج . الجؤجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
(٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل. وكان يعاصره العجّاج وغيره من الرجّاز. أمثال رُؤْبة الذى يقول (١) :

إن الرُّدافى والكَرِىَّ الأَرْقَبا   يكفيك دَرْءَ الفِيل حتى تَرْكبا (٢)

فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه.

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج. وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج. يقول (٣) :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْربهم   بحاصبٍ كنديف القُطْن منثورِ (٤)
على عَمائمنــا يُلْقَى، وأَرْحُلنا   على زواحفَ نُزْجيها محاسيرِ (٥)

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صوّر فيها نُهَيْرات شَقّها هشام بن عبد الملك من نهر الفرات، وخاصة نهير الهنىء، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات، وهى تطّرد على هذا النمط (٦) :

شققتَ من الفُرات مباركاتٍ   جــوارىَ قد بَلغْن كما تريدُ
وسخّرتَ الجبال وكُنَّ خُرْساً   يقطِّع فى مناكبها الحديدُ

---

(١) الحيوان ٧/٩٠.

(٢) الردافى : الحادى. الكرى : الذى يكرى دابته ويزجرها. والأرقب : غليظ الرقبة. درء الفيل : دفعه وكفه.

(٣) الديوان ص ٢٦٢.

(٤) شمال الشام : ريح شمالية. الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج. النديف : نثير الثلج والبرد.

(٥) نزجيها : نسوقها وندفعها، محاسير : كليلة.

(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠.

بلغت من الهَنِيءِ فقلتَ شكرا هناك ، وسُهِّل الجَبل الصَّلُوْد[1]
بها الزَّيتون فى غَلَلٍ ومالتْ عنــاقيد الكروم فهنَّ سود[2]
فتمَّتْ فى الهَنِيءِ جِنانُ دُنْيا فقــال الحاسدون هى الخلود
يَعضُّون الأنامل أنْ رأوهــا بساتينًا يؤازرهـا الحَصِيدُ[3]
ومن أزواجٍ فاكهةٍ ونَخْــلٍ يكون لحَمْله طَلْعٌ نَضيدُ[4]

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات فى الجبال وتحطيم ما يعترض من الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية فى تلك البيئة وما حفَّ بها من أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استغراق مناظر الصحراء له لم يُغْمض عينيه عن مناظر البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رُؤْبة يصفه[5] :

أجْرَدُ كالِحصْن طويلُ النَّابَيْنْ مشرَّفُ اللَّحْيِ صغيرُ الفَقْمَيْنْ[6]
عليه أُذْنان كفَضْل الثَّوْبَيْنْ

واشتهر فى هذا المجال هرون مولى الأزد[7] . فالطبيعة الجديدة المتحركة والصامتة ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية كانت ملهمهم الأول فى هذا العصر .

---

(١) الصلود : اليابس .
(٢) الغلل : الماء الجارى تحت الشجر على وجه الأرض . الكروم : الأعناب .
(٣) الحصيد : الزروع التى تحصد ثمارها كالقمح .
(٤) الطلع : ثمر النخل فى إبانه . نضيد : منتظم .
(٥) الحيوان ٧/٧٩ .
(٦) الفقمان : اللحيان .
(٧) الحيوان ٧/١١٤ وما بعدها .

## ذو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلان بن عقبة من بنى عدى بن عَبْد مَناة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله فى بعض شعره يصف الوَتِدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّب بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزَّع ، فأتت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له مَعاذة فى جلد غليظ ، وعلَّقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمِّى ذا الرمة . وقيل إن مية التى شغفت قلبه حبًّا هى التى لقَّبته بذلك حين ألمَّ بخبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لا تعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفى بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس .

وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقَّن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر فى خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طَرْثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله والى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة فى هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة ، فلم يكرموهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً فى اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرئى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدَّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطالع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

---

(١) انظر فى ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٥٠٦ وأغانى (ساسى) ١٦/١٠٦ وابن خلكان فى غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ١/٥٠ ومرآة الجنان اليافعى ١/٢٥٣ وفهارس الأغانى والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارتنى ديوانه فى كبريدج سنة ١٩١٩

لهلال بين أحوز المازنى فى انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقى منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق فى سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزارى فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسرى منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البَجلى ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبى بُرْدة الأشعرى الذى ولى شئون الشرطة لخالد فى البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولى منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفى الشاعر . وقدامتدت رحلاته فى طلب النوال إلى دمشق وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومى ، ولما ولى فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا فى بعض شعره حكيم بن عياش الكلبى الكوفى الذى كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة فى شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر فى رحلاته الصحراوية التيمم والقَصْر فى الصلاة وتلاوة آى الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعاظ والمتكلمين فى عصره ، حتى لنراه يعتنق مذهب القَدَرية فى العدل على الله جل جلاله وفى حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة فى ذلك ويعلو عليه فى نقاشه[1] ، ومما صدر فيه عن مذهبه قوله فى الغزل :

وعَيْنان قال اللهُ كونا فكانتا      فَعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العَدْل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجْمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعى ، حتى قالوا إنه كان راويته

(١) أمالى المرتضى ١/١٩

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى يتغناها إلى أن دُفن فى أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف فى المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية. ومُلْهمته الأولى فى الديوان مَيَّة بنت طُلْبة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها فى بعض رحلاته ، فشَغفت قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها فى كل مكان . وفى الديوان أخرى تسمى خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ من مثل قوله :

وقفتُ على رَبْعٍ لميَّة ناقتى     فمازلتُ أبكى عنده وأُخاطبه
وأُسْقيه حتى كاد مما أَبثُّهُ     تكلِّمنى أحجارُه وملاعبه[1]

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعدًا     كأنها النار تَخْبو ثم تلتهب

وقوله :

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ للعين عبرةً     فماءُ الهوى يرفضُّ أو يترقرقُ[2]

وقوله :

أَجَلْ عبرةً كادتْ لِعِرْفان منزلٍ     لميَّة لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبَحُ

ولعل شاعراً عربيًّا لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً كان يطفئ بها نيران الحب المندلعة فى قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بصحرابها الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقًّا كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

---

(١) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض : يسيل . يترقرق : يسكن فى العين جائلا .

وكل ما يُطْوَى فيها من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع فى سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيق فى الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره فى لوحات رائعة ، وارجعْ إلى القصيدة الأولى فى ديوانه التى يفتتحها بوصف دموعه التى تسيل دائماً ولا تفتر ، إذ يقول :

ما بالُ عينك منها الماءُ يَنْسكبُ

كأنه من كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ [1]

فإنك ستراه يخص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى فى نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التى كانت تبهج نفسه ، أولها مشهد أُتُن الوحش وحمارها ، وهو يقودها فى يوم حارٍّ إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غُلَّتها ، فيتعرض لها صائد مختف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ؛ ودائماً تطيش هذه السهام فى شعر ذى الرمة حبًّا للحيوان . والمشهد الثانى مشهد ثور الوحش فى كِناسه مكتنًّا من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ، وتنفلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم وصاحبته يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُّ الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها بَرَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة فى المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون فى لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسّم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغُدْرانها ، وهو إلى ذلك يبثُّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور فى الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثّل فيه البدوى وإحساسه بكرامته ، كما صور فى الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .

ولعل هذه أهم خاصة تميِّز وصف الحيوان الوحشى عند ذى الرمة إذ يحمّله

---

(١) الكلى : الرقع فى عروة المزادة . مفرية : مقطوعة ، يشبه عينه التى يسيل دمعها برقع المزادة البالية التى لا تنى ترسل الماء .

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله فى ظبية وابنها أو خِشْفها :

إذا استودعتْه صَفْصَفاً أو صَرِيمةً  تنحتْ ونَصَّتْ جِيدها بالمناظرِ[1]
حِذاراً على وَسْنانَ يَصْرعه الكَرَى  بكل مَقيلٍ عن ضِعافٍ فواترِ[2]
وتهجرُه إلا اختلاسًا نهارَها  وكم من محبٍ رَهْبةَ العين هاجر
حذارَ المنايا رهبةً أن يَفُتْنَها  به وهْى إلا ذاك أضعفُ ناصر[3]

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهى تبعد عنه حتى لا تدلهَّا عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبثّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة فى وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى فى وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتى بذلك فى خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان فى النهار بالسراب ، فإذا ذُرَى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل تُهدَى للنَّحْر عند البيت الحرام ، أو لعلها سفن تجرى فى الفرات ، أما إذا جنَّه الليل فحسبه النجوم التى يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى فى الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله فى وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنَّ بلادَهن سماءُ ليـلٍ  تُكَشَّفُ عن كواكبها الغُيومُ

وقوله فى ظباء أخرى :

كأن أُدْمانَها والشمسُ جانحةٌ  وَدْعٌ بـأرجـائها فَضٌّ ومنظومُ[4]

وقوله فى وصف الإبل ورحلتها فى الصحراء :

كأنَّ مَطايانا بكل مفـازةٍ  قراقيرُ فى صحراءِ دجْلةَ تَسْبَحُ[5]

---

(١) الصفصف : الأرض المستوية . صريمة : رملة . نصت : نصبت مستقصية .
(٢) الكرى : النوم. المقيل : وقت القيلولة .
(٣) يفتنها . يسبقنها .
(٤) الأدمان : الظباء، فض : متفرق .
(٥) القراقير : السفن .

وفي الحق أن مخيلته كانت حالمة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رُؤًى غريبة ، وهي رُؤًى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزامى رشَّها الطَّلُّ بعدما دَنا الليلُ حتى مسَّها بالقَوادمِ [١]

وقوله :

ألا طرقتْ مَيٌّ هَيُوماً بذكرهـا وأيدى الثُّريَّا جُنَّحٌ في المغاربِ [٢]

ومن صوره الطريفة صورته للحرْباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جعل الحِرْباءُ يَغْبَرُّ لـونه ويخضرُّ من لَفْح الهجيرِ غَباغِبُه [٣]

ويَشْبَحُ بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنَّه أخو فَجْرةٍ عالَى به الجِذْعَ صالبه [٤]

وعُنِي طويلا بوصف همس الفلوات وما يُسْمع في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن ، ونراه يشبِّهها بتراطن الروم وتضراب الطَّبْل وصياح الضرائر وأصوات السمر [٥]. ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صوره ، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض ،فنصبح وكأننا حقا في عالم من عوالم الرؤى والأحلام .

٦

## الرُّجَّاز

الرَّجَزُ من البحور القديمة في الشعر العربي ،فقد كان يُسْتَخْدَم بكثرة في العصر الجاهلي ، وهي كثرة تؤكد أنه كان الوزنَ الشعبيَّ العام الذي يدور على

(١) القوادم : الريش الطويل في جناح الطائر.

(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدى الثريا أوائلها .

(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك ، ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر.

(٤) يشبح : يمد يديه .

(٥) الحيوان ٦/ ١٧٥ومابعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثَمَّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ فى شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزِّحاف ، لا تلقانا فى أى وزن آخر ، فكثر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يَحْدُون ببعير وحين يجولون فى ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحَفْر بئر أو مَتْح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنْظَم بديهة وارتجالا مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثَمَّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم فى سيرها وسُراها ، وهيَّأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقترانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب[1] العِجْلِىّ ، ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يَقْصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد.

وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة فى الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهى لا تختلف غالباً عنها فى النظام وسَرْد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزاحمها حتى غلبتها فى باب الصَّيْد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم فى هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّمَرْدل بن شَريك التميمى الذى عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان الشَّمَرْدَلُ صاحب قَنْص وصيد بالجوارح وله فى الصَّقْر والكلب أراجيز كثيرة[2] » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

---

(١) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/ ٥٩٥ والأغانى ١٨/ ١٦٤ والخزانة ١/ ٣٣٢ وأسد الغابة ١/ ١٠٥ والإصابة ١/ ٥٦ وابن سلام ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغانى ( دار الكتب ) ١٣/ ٣٦١ .

قد أغتدى والصبحُ فى حِجابهِ   والليلُ لم يأوِ إلى مآبهِ
وقد بدا أبْلَقَ من مُنْجابه   بتوّجىٍّ صاد فى شبـابه[١]
مُعـاوِدٍ قد ذلَّ فى إصعابهِ   قد خَرّق الضِّفارَ من جذابه[٢]
وعرفَ الصوتَ الذى يُدْعَى بهِ   ولعـةَ المُلْمعِ فى أثـوابه[٣]

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلة[٤]، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد، ويقول ابن المعتز : « له فى الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه فى القَنْص وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز، ولعل فى هذا ما يصحح الفكرة التى كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهمّ من جمع بين الرجز والقصيد فى هذا العصر أبو النجم العجلى، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْن[٥] بن رجاء الفُقَيْمى ودكين[٦] بن سعيد الدارمى، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت فى معجمه، ومنهم الزَّفيان[٧] السعدى التميمى، وأبرزهم جميعاً العَجّاج وابنه رُؤْبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، ونقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية، فلم يعد يُقْصَد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها، بل أصبح يُقْصَد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة، وشركهما فى ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبْعد فى الإغراب إبعادهما .

---

(١) أبلق : فيه سواد وبياض . منجابه : مكان انكشافه . التوجى : الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .
(٢) خرق : شق . الضفار : الحبل يشد به .
(٣) الملمع : المشير بثوبه .
(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ والأغانى (ساسى) ١٨/١٣٩ والخزانة ١/٧٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩ .
(٥) انظره فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وتهذيب ابن عساكر ٥/٢٤٧ .
(٦) راجع معجم الأدباء ١١/١١٧ وابن عساكر ٥/٢٤٨ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وانظر الهامش .
(٧) راجع معجم المرزبانى ص١٦٩ وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب، الجزء الثانى .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب [1] . وهو اتجاه تعليمي نظن ظنًّا أن الذى دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُؤْبة يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هَيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذى صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقَصّوا وساقوا الحكم والأمثال [2] .

## أبو النجم [3] العِجْليّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول [4] :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرِفْ     تخُطُّ رِجلاى بخطٍّ مختلفْ
تكتُبان في الطريق لامَ ألفْ

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر كتاب المكاثرة عند المذاكرة للطيالسى (نشر جاير) ص٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص١٣٩ وما بعدها.

(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦ والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٨٤ وأغاني دار الكتب ١٠/١٥٠ والخزانة ١/٤٨ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها ومعجم الشعراء ص١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب) ٣/٢٩٧ .

يَسْتبقون فى موضوع يطرحه خليفة أو وال ، ويظفر بالجائزة من دونهم ، ويقول ابن سلام : إنه أبلغ فى النَّعْت من العجاج . وأمّ أراجيزه لاميته التى يستهلها بقوله[1] :

الحمدُ لله الوَهــوب المُجْزِلِ أَعْطى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّــلِ

والأرجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب فى وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤبة يسميها أمّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . ويُرْوَى أن العَجَّاج غدا على الناس بالمِرْبَد ينشدهم أرجوزته المشهورة «قد جبرَ الدينَ الإلهُ فجبر[2]» وقد ضمنها هجاءه لربيعة ، فاستعدتْ عليه راجزها أبا النجم ، فبادره ينشد أرجوزته « تذكَّر القلبُ وجَهْلا ما ذكَرْ» حتى إذا بلغ إلى قوله : « شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ» تعلّق الناس هذا الشَّطْر وهرب العجاج عنه . ومن طريف ما يُرْوَى من أراجيزه أرجوزته فى وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان ، وهو يستهلها بقوله :

إنا نزلنا خيرَ مَنْزِلاتِ بين الحُمَيْرات المباركاتِ
فى لحم وحش وحُبارَياتِ وإن أردنا الصيد ذا اللذّات[3]
جاء مُطيعًا لمطاوِعــاتِ عُلِّمْنَ أو قد كُنَّ عالماتِ
فَهْى ضوارٍ من مضرّياتِ تُريك آماقًا مخطَّطاتِ
سودًا على الأشداق سائلات تَلْوى بأذناب مــوقَّفاتِ

وكثير من رجزه على هذا النحو لا يُبْعد فيه ولا يغرب ، وإن كان من الحق أنه « كان يتوسع فى الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض[4]» ، ولكنه يظل قريباً منا فى جمهور رجزه ، وخاصة حين يعمد إلى التندر والدعابة ، على شاكلة قوله يوصى ابنته « برّة » عند زواجها :

---

(١) نشر هذه اللامية عبد العزيز الميمنى فى «الطرائف الأدبية» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٥ .

(٢) جبر الثانية بمعنى انجبر .

(٣) حباريات : جمع حبارى وهو طائر .

(٤) الخصائص ١ / ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبا حُرًّا بالكلب خيرًا والحماةِ شَرًّا
لا تسأمى ضَرْبًا لها وجرًّا حتى تَرىْ حُلْوَ الحياة مُرًّا
وإن كستْكِ ذهبًا ودُرًّا والحىَّ عُمَّيهم بشَرٍّ طُرًّا

وكان بمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له فى مجالسهم ويجزلون له العطاء .

## العجّاج(١)

هو عبد الله بن رُؤْبة التميمى ، نشأ فى البادية ونزل البصرة ، وكان دائب الرحلة إلى منازل قومه فى الصحراء ، وقد سخَّر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية فى مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه فى خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفى ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبى فُدَيْك زعيم النَّجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرَّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتصَّ منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسُئل فى ذلك فقال : هل فى الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التى ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، فى وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثْبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشى والأليف ، وكل ما يجرى فى أرضها من رياح وسموم وطير وفى

---

(١) انظر فى العجاج الشعر والشعراء ٢/٥٧٢ والموشح للمرزبانى ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب ، الجزء الثانى .

سماثها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض فى كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس فى اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف فى ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد يصرّف منها أفعالا ، على نحو ما صنع فى أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت فى الملاء البَرْدجَا » يريد الرقيق ، وقال : «كالحبشى التفّ أو تسبّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبى ، فعرّبه بسبيجة ، ثم صرّف منه فعلا فى بعض أبياته [1] .

ونراه يلتزم فى أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروىّ فى الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحَظ ذلك فى أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجَبر » ، وهى فى نحو مائتى بيت ، ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة [2] . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل فى ذلك استرسالا ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذى استقلَّتِ بإذنه السماءُ واطمأنَّتِ

وقد تحدّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه فى ثوابه . وهو فى ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصرى وغيره وقد توفى سنة ٩٧ للهجرة . وتُنْسَبُ له أرجوزة فى مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثانى حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٤٦١ وما بعدها .

(٢) انظر الأغانى (طبع ساسى) ١٨/٦٠ والخصائص ٢/٢٦٠ .

عالية . ونراه فى أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ، من مثل قوله :

إمَّا تريني أَصِلُ القُعَّادا ... وأتقى - أن أنهض - الإرْعادا[١]
من أن تبدلتُ بآدِى آدا ... لم يك يَنْآدُ فأمسى انآدا[٢]
وقَصبا حُنِّىَ حتى كادا ... يعود بعد أَعْظُمٍ أعوادا[٣]

والجناس واضح فى البيت الثانى ، وهو يشيع فى أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعْنَى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا فى الآد وانآد ، وقد جانس فى البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتى ببعض المزيدات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن فاته فى اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

## رُؤْبة[٤]

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عُنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ — ٩٦ هـ ) ، ونراه فى رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين[٥] . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

---

( ١ ) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

( ٢ ) الآد : القوة كالأيد . انآد : اعوج وانحنى .

( ٣ ) القصب : كل عظم ذى مخ . حنى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

( ٤ ) انظر فى ترجمة رؤبة الشعر والشعراء ٢/ ٥٧٥ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى ( ساسى ) ١٨/ ١٢٤ وما بعدها و ٢١/ ٥٧ والخزانة ١/ ٤٣ ومعجم الأدباء ١١/ ١٤٩ وابن خلكان وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٩٠ ولسان الميزان ٢/ ٤٦٤ والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/ ٣٢١ وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٣٤٠ . وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث من مجموع أشعار العرب .

( ٥ ) طبرى ٥/ ٣٠٥ .

ومنذ أوائل القرن الثانى يلزم ولاة العراق يمدحهم ، يمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترّ فى هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبى طحمة المجاشعى أحد قوادهم الذين أبلوا فى القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا فى ديوانه أراجيز كثيرة فى مديح خالد القسرى وولاته وفى مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والى اليمامة، وبلال بن أبى بردة الأشعرى نائب خالد على البصرة، وأبان بن الوليد البجلى نائبه فى شئون الخراج ثم والى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود، وعمرو بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويَقدُمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ فى هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذّره من أبى مسلم الخراسانى فى غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراسانى أن يُذهب عنه روْعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله فى مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو فى أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبّى نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرَّ بنا أنه كان جَبْريًّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة فى مذهبه القَدَرىّ على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية فى شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتألّه . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية . إذ تحوّل به يُرْضى اللغويين من حوله ويقدّم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية فى الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث فى بعض الحروف كالهمزة من إعلال ، وكأنما تحوّل معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثَمَّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبى عبيدة وخلف الأحمر وأبى عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأَعْماقِ خاوى المُخْتَرَقْ مُشْتَبِهِ الأعلام لَمَّاعِ الخفَقْ[1]

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيْعل بفتح العين فى قوله : «ما بال عينى كالشّعيب العيَّن » والقياس العيِّن بكسر الياء مع التشديد[2] . واقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلِّ ليلٍ يُحْسبُ السَّدوسا يَسْتسمع السَّارى به الجُروسا[3]
هَماهِماً يَسْهرنَ أورَسيسا علوتُ حين يخضع الرَّعوسا[4]
قَرْعَ يدِ اللعَّابة الطَّسيسا[5]

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعُنى بأن يلائم بين الرَّوِىِّ

(١) يتحدث رؤبة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبها . خواؤه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . الماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه.

(٢) راجع الخصائص ٣/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٢٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى . العين : سائل الماء .

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) هماهم : جمع همهمة وهى الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست.

والكلمات الداخلية فى البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً فى نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقرأْ فى أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعْكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر فى سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ فى شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذى فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذى انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة فى الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس فى اللغة والتصرُّف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولا أن يأتى بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنون بإدخال الغريب من مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشىء بعد الشىء ليدخلوه فى أشعارهم[1] . وتحوَّل إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجِّلون رجزه وما يأتى به من مستغلقات لغوية ، كان يحشدها فى أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرِّح بذلك ، إذ يقول فى أرجوزة له « يلتمس النحوىّ فيها قصدى » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤبة بغاية تعليمية واضحة ، وهى غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمى الذى أخذ ينظمه الشعراء فى العصر العباسى ، وكأنهم وجدوا فى وفرة موسيقاها ما يتلافون به نَقْص المعانى الشعرية فى هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولِّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والمخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافى يعتمدون فى هذا الصنيع على نظام الأرجوزة فى التصريع ، فيجعلون الشطر وحدة فى الموشحة ، على نحو ما صنع رُؤبة ورُجَّاز هذا العصر فى أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته فى تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذانى والحريرى صنع مقاماتهم المعروفة .

---

(١) الخصائص ٣/٢٩٧ .

# الفصل السادس

# الخطابة والخطباء

## ١

### ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يَبْلُغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوِّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلّفون عنهم وعن العرب جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعواملُ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان يُنْتَظَر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقْتَصَرُ على بنى أمية أو

تكون حقًّا شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُرَدّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ؛ أو تكون حقًّا للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرِّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاّها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجُّون فى أول الأمر عليًّا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجدات والصُّفْرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَل بكَرْبلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيَقْضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقْصَر على قريش وأن تُرَدَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدى يعبر عنه فى ثورته على الحجاج : تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشَغبهم وأنهم يَضِلون الطريق . وكل ذلك هيأ فى قوة لنشاط الخطابة السياسية . ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد فى البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقــدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفودَ من الأمصار حين تَعِنُّ له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

فى بيعة الخليفة الجديد وفى بَثّ شكواها حين يلمّ بها مايوجب الشكوى. وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية . وكانوا يُسَمّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه . ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق فى البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع فى الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين، فأيّان رَكَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسْهِم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة فى كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى . وكانوا يستهوون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[1] ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[2] . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثّون فى الجيوش لتحميس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عَتّاب بن وَرْقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقصّ على جنده محمساً لهم[3] كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدى الناسك المشهور[4] . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصّاصهم صالح بن مسرّح الصُّفْرىّ ،

---

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبرى ٨٩/٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢٧٣/٣ .

وفى الطبرى طَرف من قصصه[١] ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهْم بن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارث بن سريج بخراسان[٢] .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقىٌّ العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيَّر فى الحياة أو مسيَّر لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجَبْرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبى ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات : يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقيًّا بعيداً .

---

(١) طبرى ٥/٥٠ .

(٢) طبرى ٦/٣ وما بعدها .

## ٢

### خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيما ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصّين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجعْ إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطَب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم . وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلا شديدا . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم . ولم يَدْعوا لها سرًّا كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم[1] .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبْيان السُّلمى والمستورد بن عُلَّفة لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقى بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرَّ بنا — إلى أزارقة ونَجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاة بنى أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبى صُفْرة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شر ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن على الذى وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا فى خطابتهم نفس الروح التى وصفناها فى أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة فى الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون فى سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التى ضلت فى رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير فى بعض خطبه[١] : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجْر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْىٌ . وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض والعاقبة للمتقين » .

فهم فى رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلة ، وهم المؤمنون حقًّا وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم فى الجنة أما قتلى غيرهم ففى النار : وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العَجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون فى الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غَلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا فى شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن فى خطبهم ، على نحو ما يلقانا فى خطبة قَطَرِىّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلها على هذا النمط[٢] :

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

« أما بعد فإنى أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خَضِرَة[١] ، حُفّتْ بالشهوات... مع أن امرأً لم يكن منها فى حَبْرة[٢] ، إلا أعقبته بعدها عَبْرة ، ولم يلق من سَرّائها بطناً ، إلا منحته من ضَرّائها ظهراً ، ولم تَطُلّه غَبْيَة[٣] رخاء ، إلا هطلتْ عليه مُزْنة[٤] بلاء ، وحرىٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانبٌ منها اعذوذبَ واحلَوْلى[٥] أمرّ عليه منها جانب وأَوْبى[٦] ، وإن آتتْ امرءًا من غضارتها[٧] ورفاهتها نِعَماً أرهقته من نوائبها نِقَماً ، ولم يُمْس امرؤٌ منها فى جَناح أمن إلا أصبح منها على قَوادم[٨] خوف ، غرّارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى » .

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسْره ، وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . وممن اشتهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدة بن هلال اليَشْكرى وزيد بن جُنْدب الإيادى وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُّفْرية عمران بن حِطّان وصالح بن مسرّح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصا كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خرَج على الحجّاج ، وقُتل ، فخلفه شبيب الذى دوّخ بجيوش الحجاج طويلا ، ومن قول صالح فى بعض مواعظه[٩] :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد فى الدنيا والرّغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة فى الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

---

(١) خضرة : ناضرة .
(٢) حبرة : سرور .
(٣) الطل : المطر القليل . الغبية : المطرة القليلة .
(٤) الهطل : المطر الكثير . المزنة : السحابة الممطرة .
(٥) احلولى : صار حلواً .
(٦) أوبى : من الوباء .
(٧) الغضارة : النضارة والخصب .
(٨) القوادم : الريش فى مقدم جناح الطائر .
(٩) تاريخ الطبرى ٥ / ٥٠ .

يجأر[١] إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين : قال الله فى كتابه : (ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قَبْرِه إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وإن حبّ المؤمنين للسَّبَبُ الذى يُنال به كرامة الله ورحمته : جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين » .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظَّلَمة كما يقول ، حاثًّا لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . وممن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطِّرمّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى والضحاك بن قيس الذى خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النَّجدات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندى الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين فى سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبى حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبى حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التى ألقاها فى مكة ، ويقال بل ألقاها فى المدينة[٢] ، وهو يستهلها بالثناء على أبى بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن فى عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، منددا بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم فى الدنيا وجهادهم فى سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التى لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون[٣] فى شبابهم غَضيضةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

---

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/١٢٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٩ والعقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنْضَاء(١) عبادة وأطْلاح(٢) سَهر ، ينظر الله إليهم فى جَوْف الليل ، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مَرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شَهِق شهقةً كأنَّ زفير جهنم بين أذنيه . موصولٌ كَلالهم(٣) بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السِّهام قد فُوِّقت(٤) والرماح قد أُشْرِعت(٥) والسيوف قد انتُضيتْ(٦) ، ورَعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقتْ استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعْد الله ، ومضى الشباب منهم قُدُماً ، حتى اختلفتْ رجلاه على عنق فرسه ، وتخضَّبتْ بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعتْ إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عينٍ فى منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفٍّ زالتْ عن مِعْصَمِها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كلٌّ يودّ أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قَعْصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحقّ رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندّدون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يردّدون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتدور هذه الأفكار دائماً فى خطابتهم وخطابة أئمتهم : على نحو ما نجد عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

---

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاح : مكدودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمى .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له[١] .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنْ أرْضَى لله . ونحن — أهلَ البيت — أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجَوْر والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقْتَلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفَّى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صُرَد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناسَ على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صُرَد فى إحدى خطبه[٢] :

« قُتل فينا ولدنا ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبَضْعة[٣] من لحمه ودمه . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنَّبْل . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل[٤] والأبناء حتى يَرْضى الله . واللهُ ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله أو تَبيروا[٥] » .

وكان من زعماء التَّوابين معه عبيد الله بن عبد الله المُرِّى ، وكان خطيباً لا يبارَى ، فمضى يعظ الناس ويحرِّضهم على الانتقاض على الأمويين بمثل قوله[٦] :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمة من نبيِّها ؟ وهل ذُرِّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترُم[٧] إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم[٨] إياه بالدم وتجرارهم إياه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٤/٣٠٣ .
(٢) طبرى ٤/٤٢٨ .
(٣) بضعة : قطعة .
(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .
(٥) تبيروا : تهلكوا .
(٦) طبرى ٤/٤٣٣ .
(٧) اجترم : اقترف وارتكب .
(٨) ترميلهم : من رمله إذا لطخه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربّ العالمين ، قتله عدوه وخذله وليّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العثْرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلّين والمارقين » .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفى ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لفرقة الكَيْسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ، وقد مرّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعده وصيّه والإمام المهدى المنتظر . وكان المختار خارجيًّا ثم صار زبيريًّا ثم صار كيسانيًّا [١] وكان لسنا فصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم فى « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يُوحَى إليه ، مصوِّراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشّيها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله [٢] :

« أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه [٣] والقِفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفَيْن الأخيار ، لأقتلنَّ كل جبّار ، بكل لَدْن خطّار [٤] ، ومهنّد بتّار [٥] ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميلٍ أغمار [٦] ، ولا بعُزْل [٧] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمود الدين ورَأَبْتُ شَعْب [٨] صَدْع المسلمين ، وشفيت

---

( ١ ) الملل والنحل ص ١٠٩ .
( ٢ ) طبرى ٤ / ٤٥٠ .
( ٣ ) المهامه : الفيافى .
( ٤ ) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .
( ٥ ) المهند : السيف ، البتار : القاطع .
( ٦ ) الميل : جمع أميل وهو الجبان ، الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .
( ٧ ) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
( ٨ ) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر عليَّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعانى التى كان يردِّدها خطباء الشيعة ، وهى معان تُرَدُّ إلى بيان حقوق آل البيت فى الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتله الأمويون منهم . وفى تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بنى أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن على وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشىء من خطابتهما ، وكذلك هى لم تحتفظ بشىء من خطابة بنى صَوْحان : صَعْصعة وزيد وسَيْحان وكانوا شيعة وفى الذروة من البيان والفصاحة. وقد احتفظ ابن أبى الحديد بكثير من المخاصمات والمحاورات بين الحسن بن على وعمرو بن العاص وبعض بنى أمية ، وهى مخاصمات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التى دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبى الحديد والعقد الفريد والمسعودى .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو فى خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه [1] ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعى أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهى تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول [2] :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتل أبوه وعمه وابن عمه [3] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لانموت حَتْفَ أنوفنا [4] ، ولكن قَعْصاً [5] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

(١) طبرى ٤/٤٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/٤١٢ وعيون الأخبار ٢/٤٢٠ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة ٣/٢١٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش.

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عاريَة من الملك القهار الذى لايزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقبل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشِر[1] البطِر ، وإن تُدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِق المهين[2] » .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة[3] ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة[4] طريفة حين حاصره الحجاج فى مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرهاً مفوّهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شبث بن ربْعىّ . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضّاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسْف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفَىْء ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[5] .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

---

(١) الأشر : البطر .
(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ٤/١٣٥ .
(٤) طبرى ٥/٣٠ .
(٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية فى خطابته فقال[١] :

رَكوبُ المنابر وثَّابها مِعَنٌّ بخطبته مِجْهَرُ[٢]
تَريعُ إليه هَوادى الكلامِ إذا ضلَّ خُطْبتَه المِهْذَرُ[٣]

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو فى القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما فى يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثِّل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة[٤] . وهو فى القسم الثانى ينفِّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ[٥] ، وقد اتّهم نسبتَها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب . والجاحظ بهذا الاتّهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كُتَّاب الوحى وأنه من جِلَّة الصحابة . وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التّهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه[٦] ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسانَ من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدَّمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له[٧] :

« أيها الناس! إنكم لم تُخْلَقوا عَبَثاً ولن تُتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحكِّم الله نبيَّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعتْ كل شىء وحُرِم الجنة التى عَرْضُها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) معن : تعن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها.
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام : أوائله .
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٥٩ وما بعدها .
(٦) العقد الفريد ٤/١٠٤ والأمالى ١/١٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ .

بديعة[١] يصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلناً أنه إن وفّى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول[٢] :

« إنى لأرى رءوساً قد أينَعَتْ وحانَ قِطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرقُ بين العمائم واللِّحى . إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أُغْمَزُ تَغْماز التِّين ولا يُقَعْقَعُ لى بالشِّنان[٣] ، ولقد فُرِرْتُ[٤] عن ذكاء وفُتِّشْت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كَبَّ كِنانته[٥] ثم عَجَم[٦] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجَّهنى إليكم ، فإنكم طالما أوْضَعْتم[٧] فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسَنَنْتم سُنَنَ الغىِّ . أما والله لألْحُوَنَّكم[٨] لَحْوَ العصا ولأضربنَّكم ضربَ غرائبِ الإبل[٩] .. أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً فى جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرتْ خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يُعَدُّ فى الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه فى طبقة واحدة ، وإن فضّله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٤ .

(٣) القعقعة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع فى سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الورد وعند الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرْوَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويَبْطش بطشَ الجبَّارين»[١] ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرِنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى الغَىَّ غيًّا فأجتنبَه ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضلَّ ضلالا بعيداً[٢] » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظَنَّ الناس أنه يصنع كلامَه لجمال لفظه وبلاغة منطقه ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَنْ يَنْقض حَبْل الجماعة . وأكثرَ فى خطب الجُمَعِ من المواعظ ،حتى سُمِّى خطيبَ الله[٣] ،ويُرْوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطتْ جرادة على ثوبه ، فقال[٤] :

« سبحان مَن الجرادةُ من خلقه ، أدمجَ قوائمها، وطوّقها جناحها، ووشَّى جلدها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بنى أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحَرَّة :« يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعِزّوا به نَصْر إمامهم[٥]» وقول المهلب بن أبى صُفرة فى حثّ جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماءكم[٦]» . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق فى جانبهم وأن أعداءهم أهل غَىٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفى بلاد الروم لا يزالون يحثُّون جنودهم على الاستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يُشْعل حماستهم ،

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد ٤/١١٥ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .
(٥) طبرى ٤/٣٧٥ .
(٦) الكامل للمبرد ص٦٣٠ .

ويذكى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثّل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهيأ لغزو طُخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول[١] :

« وعَد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كلِّه ولو كَرِه المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ولا يَطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليَجْزِيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قُتل فى سبيله أنه حيٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ) فتنجَّزوا موعود ربكم » .

واشتهر فى خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسرى ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته فى جنده حين دخلها مشهورة[٢] ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثَّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية فى هذا العصر من نهوض ورقى .

## زياد[٣] بن أبيه

وُلد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّة جارية فارسية كانت للحارث بن كَلَدَة الثقفى المشهور بطبه ، ويقال إنه زوجها ثقفيًّا يسمى عُبَيْداً ، ومن ثم كان يسمَّى فى بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً روميًّا . ولم يكن ثقفيًّا ،

(١) طبرى ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفح الطيب ١ / ١١٢

(٣) انظر فى ترجمة زياد وتحقيق نسبته طبقات ابن سعد ج ٧ ق١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ / ٢٥٩ والأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٣ وما بعدها وابن عساكر ٥ / ٤٠٦ والعقد الفريد ٥ / ٤ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢ / ٥٥ والطبرى فى مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص١١٣ وما بعدها .

وما نتقدم معه إلى عهد عمر : حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنتْ أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غَزْوان قائد عمر فى فتوح الأبُلَّة تسجيل الغنائم وقَسْمها فى الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابةَ والحساب . ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم ، ويوفده واليها أبو موسى الأشعرى إلى عمر ، فيُعْجب بذكائه ولَسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعَنْ عجز أم عن خيانة صرفتنى . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك[1] .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر واليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأنابه عنه أحياناً ، وأظهر فى أثناء نيابته له حُنْكة . ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على علىّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على علىّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشَّعَث ورَأبَ الصَّدْع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد مَنْ نصره ومنّاه ، وخوّف قوماً وتوعّدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس فلم يلق فيها جَمْعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكَرْمان[2] . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة[3] » . ولما قُتِل علىّ ظل على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبة الثقفى ، ذاكراً ما بينهما من الرَّحِم . وما زال به ، حتى دخل فى طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق ، ولما صار إليه

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٢) طبرى ١٠٦/٤

(٣) طبرى ١٠٥/٤ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون فى هذا النسب ويتّهمونه. ولم يلبث معاوية أن ولاّه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة. فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتّى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعة وقصتُه مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية، وهناك لقى حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعْجزه الحيلة، وقد اتبع سياسة ضرْب القبائل بعضها ببعض حتّى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسيّاً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارَى فى جودة خطابته، يعرف كيف يصوغ كلِمه صوغاً تَهَشّ له الأسماع وتُصغى له القلوب والأفئدة، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشّعْبى : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً[1] ». وخطبُه مثل خطب الحجاج تدور فى موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هى أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهى الملقبة بالبَتْراء[2] ، سُمّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد[3] ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجَسِّم سياسة زياد التى اشتهر بها والتى ردّتْ إلى البصرة أمْنها بعد أن عاث فيها الفُسّاق واللصوص واضطرب حبْلُ النظام، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسَم الله للمسلمين فى كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) انظرها فى البيان والتبيين ٢/٦٢ وعيون الأخبار ١/٢٤١ والعقد الفريد ٤/١١٠ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦ وانظر ٢/٦٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجَهْلاء[1] والضلالة العَمْياء والغَيّ الموفَى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينْبت فيها الصغير ولا يَنْحاش[2] عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمد[3] الذى لا يزول . أتكونون كمن طَرَفتْ[4] عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الذى لم تُسْبَقوا إليه من ترككم الضعيف يُقْهَرُ ويُؤْخَذُ ماله وهذه المواخير[5] المنصوبة والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلَج[6] الليل وغارة النهار؟! قرّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضون على المختلس. أليس كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه صُنعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام » .

وعلى هذا النحو استهلّ خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتابَ الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانيةَ على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل يصور خطته فى حكمهم وما أعدّه لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذنَّ الولىَّ بالمولى[7] والمقيمَ بالظاعن والمقبلَ بالمدبر والمطيعَ بالعاصى والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: (انْجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْدُ) أو تستقيمَ لى قناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودَلَج الليل فإنى لا أوتَى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياى ودعوى[8] الجاهلية فإنى لا آخذ

---

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء.

(٢) ينحاش : ينفر .

(٣) السرمد : الدائم .

(٤) طرف عينه : أصابها بشىء فدمعت .

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت الريبة .

(٦) الدلج : السير فى الليل .

(٧) الولى : السيد ، المولى : العبد .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياتميم مثلا ، إثارة من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نَقَبَ بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حيًّا ، فكفُّوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفَّ عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهرُ على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ(١) جعلتها دبْرَ(٢) أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلُّ من بغضى لم أكشف له قِناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صَفْحته(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرْعوا(٤) على أنفسكم ، فربَّ مسوءٍ بقدومنا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءه » .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم البصرة ، وهو دستور أوضَح فيه موادَّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظِّنَّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّد سيفه لقتل من لا يَرْعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تَبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصًّا ، وكان الشيء يَسْقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفى نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجُرْم ، أما بعد ذلك فليِّن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخِّص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وأيضاً حين يجهر فى ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضى فى فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بِفَيْء(٥) الله الذى خَوَّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

---

(١) إحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والضغينة .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .
(٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
(٥) الفيء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ والإنصاف فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئَنَا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكَهْفُكُم الذى إليه تأوون، ومتى يَصْلحوا تَصْلحوا، ولا تُشْربوا قلوبكم بُغْضهم، فيشتدّ لذلك غيظكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يُعينَ كلاًّ على كلٍّ. وإذا رأيتمونى أُنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذْلاله⁽¹⁾، وأيمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة، فليحذرْ كل امرئٍ منكم أن يكون من صَرْعاى».

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوَّضون لحكمهم من قِبَل ربهم، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية. وهو يلوِّح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَثْراً، ولا يلبث أن يهدِّد من تحدِّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضَرْب الرقاب.

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما. وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقاً، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة، فلا توعُّر ولا تعقيد ولا كلم غريب.

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً، وهو فيه يُبْدع، كما يبدع فى خطبه السياسية، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده، وهى تطَّرد على هذا السياق⁽²⁾:

« إن الله عز وجلَّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه. ولله النعمةُ على المحسن والحجة على المسيء. فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

(١) اذلاله: وجوهه.

(٢) البيان والتبيين ١/٣٨٧.

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزّ وجل ، فأحذّركم الله الذى حذّركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجزة ، قبل أن تَصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوْبة » .

وواضح ما فى هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقًّا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حُسْنَ البيان وبراعة الخطاب .

## ٣

### خطباء المحافل

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللونَ من الخطابة ، إذ كانوا يَقْدُمون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون فى أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا فى الأسواق وفى عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زَرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدى الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كى يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمْثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدقون عليها إغداقاً واسعاً. ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تباعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضفى عليها من نواله الغَمْر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّته . وممن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهاء » التى خطب بها عنده ، فلم يُنْشد شاعر ولم يخطب خطيب[1] ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سلَف من منطقه[1] » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذى لا يدافَع وصُحار بن عَيَّاش العَبْدى ، الذى قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التى فيكم؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[2] » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومَصْقلة بن رَقَبة ورقبة بن مصقلة وكَرب بن مصقلة[3] ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها[4] ويقابل آل رَقبة وصُوحان فى بنى عبد القيس آل الأهتم فى تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهتم الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، له مقامات ووفادات[5] ، ومثله ابناه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشَبيب بن شَيْبة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابى ، وهو الذى خاطب معاوية بقوله[6] :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألْوَى[7] بى الليل فقَبِض البصر وعُفِّى الأثر أقام بدنى وسافر أملى ، والنفس تلوَّم والاجتهاد يَعْذِر ، وإذ قد بلغتك فقَطْنى[8] » .

وواضح ما فى هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروِّى فيها طويلا حتى يروق لفظه الخليفة ومَنْ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون فى خطابتهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتَّاب فى دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٩ .
(٢) البيان والتبيين ١/٩٦ .
(٣) نفس المصدر ١/٩٧ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .
(٥) نفس المصدر ١/٣٥٥ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٧٥ .
(٧) ألوى هنا : استأثر .
(٨) قطنى : يكفينى .

البيعة لابنه يزيد[١] ، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العَنَزِىّ فى خطبته التى صدر فيها عن رغبة عبد الملك فى خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد[٢] . ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية ، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخْلف والناس مجموعون على بابه يتهيَّبون القول ، فقال[٣] :

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرَّزِيَّة ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئت عظيماً ، وأُعْطيت جَسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبرْ له على ما رُزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووُهِبْتَ جزيلا » . .

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء . وتلقانا من هذا التأبين الممزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات المماثلة . وممن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان ، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر ، وكان الحجَّاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه . وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم[٤] ، ولم يكثر الوعاظ على بابٍ كثرتهم على باب عمر بن عبد العزيز[٥] ، منهم خالد بن صَفْوان وعبد[٦] الله بن الأهتم ومحمد[٧] بن كعب القُرَظى . وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن[٨] صفوان فى مجالسه ، ولما فرّ الكميت من سجن خالد القسرى وضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله ، حتى إذا مثَل بين يديه خطب خطبة طويلة[٩] يستنزل بها عطفه عليه ، فرقّ له وعفا عنه .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار ٢/٢١٠ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمالى ٢/٧٣ ، ٣/١٧٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٨ .
(٣) زهر الآداب ١/٤٩ .
(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .
(٥) زهر الآداب ١/٧ .
(٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ .
(٧) نفس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣ ، ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار ٢/٣٤١ .
(٩) أغانى ( ساسى ) ١٥/١١٣ .

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطّان بوفادة له على زياد بن أبيه، ألقى فيها خطبة رائعة[١] . ومَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخّطه ببعض قوله[٢] ، وكان قواده لا يَنْـُون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن مَعْدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة[٣] .

وتلقانا بجانب هذه الوِفادات أخبار عن خطبهم فى المصاهرات[٤] وفى إصلاح ذات البَيْن[٥]. وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهى تلك التى يقال إنها حدثت بين بعض بنى هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعّفناها ، ورجّحنا انتحالها ، ومثلُها ما يُرْوَى فى بعض كتب الأدب من خصومة أبى الأسود الدُّؤَلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر فى هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

## الأحْنَف[٦] بن قيس

اسمه صخر، وقيل الضحاك، من بنى سعد إحدى عشائر تميم لُقّب بالأحنف لحنَف[٧] كان فى رجليه جميعاً، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصالَ السيادة والشرف، من حُنْكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها فى وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال فى مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٢) نفس المصدر ٢/١٣٥ .
(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .
(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ وعيون الأخبار ٤/٧٢ والعقد الفريد ٤/١٤٩ .
(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ، ٢/١٣٥ .
(٦) انظر فى الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى (راجع فهرسيهما) .
(٧) الحنف : الاعوجاج فى الرجل .

الأرزاق ومن شقّ بعض القنوات والأنهار ،وتكلم الوفد، وهو ساكت ، فطلب إليه عمر أن يتكلم ، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ : « نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتفٌّ فى بتٍّ[1] له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تبعَّق[2] منه ما تبعق، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده فى علياء ، ثم صار إلى أن عقدالرياسة ثابتة له( فى تميم) إلى أن فارق الدنيا»[3]. ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبالغ فى تصفح حاله . وعاد إلى البصرة وأخذ يَفِدُ على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية فى فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان ، وأظهر براعة نادرة فى قيادة الكتائب والجيوش ، إذ كان النصر دائماً يرافقه .

ونراه فى وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة على والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أُغمدت استجابة لرأيه ، حتى إذا انتصر علىٌّ دخل هو ومشايعوه من تميم فى طاعته،وأصفاه ولاءه،حتى إذا كانت وقعة صفّين أبلَى فيها بلاءحسناً هو وقومه . وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علىٍّ أن يحكّم شخصاً آخر غير أبى موسى الأشعرى ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه . وما زال على ولائه لعلى إلى أن لبىّ ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يُكبرونه إكباراً عظيما،ونراه يُصْبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يَفِدُ عليه من حين إلى حين،ويوسع له فى مجالسه ، بل لقد كان يختصه بالجلوس فى جواره على سريره .

وفى هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية فى البصرة ، بعد ولاتها ، وفى الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة ، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب . وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدارى، وأنه كان يجهر برأيه

---

(١) البت : كساء صوفى غليظ .

(٢) تبعق المطر : تفجر وانسال .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٣٧ وانظر ١ / ٢٥٤ .

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله فى شىء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريده ، جاهره برأيه فى رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التى استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره فى الكلام قال[1] :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكأنه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفّى يزيد ، ويُضْطَرّ عبيدالله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسْلِم أمورها إلى الأزد و زعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزد ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويَحْقِن الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف فى طاعته ، ويقرّبه مصعب ويصبح من خُلَصائه ، فيقف معه فى حرب المختار الثقفى ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى فى أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكيّا من قومه وعارفيه ، ويُرْوَى أن فَرْغانة بنت أوس بن حَجر التميمية وقفت على قبره ، فأبَّنَتْه قائلة[2] :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر[3] من مُجَنّ[4] فى جَنَنٍ ، ومُدْرَج فى كفَنٍ ، فوالذى ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشتَ حميداً ، ومتّ فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السِّلْم ، رفيع العماد ، وارىَ الزّناد ، منيعَ الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت فى المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفا ، ومن الناس لقريبا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوّدا ، وإلى الخلفاء لموفَدًا ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعْجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنْف مُضَر الذى تَعْطس عنه وأبْيَنُ العرب والعجم

---

(١) العقد الفريد ٤/٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر فى الجنن أى وضع فى القبر .

قاطبة[١]» . ونحن لا نقرأ خطبه التى كان يلقيها بين أيدى الخلفاء، حتى يروعنا منطقه، لقدرته على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل فى هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقه ، فقد وفد على معاوية مرة، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه فى الخليفة من مَدِّ يد العون والمساعدة[٢] :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يَسير وعظم كَسير ، مع تتابع من المُحول واتصال من الذُّحول[٣] ، فالمكْثر فيها قد أطْرَق[٤] ، والمقِل قد أملق، وبلغ منه المخْنَق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعش الفقير ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذَّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء، ويزيل اللَّأْواء[٥] . وإن السيد من يعمّ ولايخص ومن يدعو الجَفَلَى[٦] ، ولا يدعو النَّقَرَى[٧] ، إن أُحسن إليه شكر وإن أسيء إليه غفر، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات » .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدِّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتِّيه فى تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة، فيُمْضونه فى التوِّ والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل، مستعطفاً ، ولكنه الاستعطاف الذى يُبْقى فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعانى التى يعبِّر عنها إحاطة تامة، وتصور ذلك كلمته الثانية التى أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفة ، وقد ألقى بها حين ادلهمّ الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه[٨] :

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٤٦
(٣) الذحول : الثارات .
(٤) أطرق : هزل وضعف .
(٥) اللأواء : الشدة .
(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .
(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .
(٨) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥ .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصِّهْر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار، ويَدُنا على العدو. والله لأزْدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرى[1] شَنَآنكم، وأبى حَسَكُ[2] صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سَعة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغْمِدت الأسنة وحُقنت الدماء . وعلى هذا النحو تُثْبِت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصْره .

## ٤

### خطباء الوعظ والقَصَص

نشط الوعظ والقَصَصُ الدينى فى هذا العصر نشاطاً عظيماً ، فقد كان الوعَّاظ والقُصَّاص فى كل بلدة إسلامية لا يَنُون عن وعظ المسلمين ، وقد أفرد لهم الجاحظ فى بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرِّزيهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قَصَّ بالبصرة[3] ، وكان يقابله فى الكوفة زيد[4] بن صُوحان وفى المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر[5] وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدة تأثره . ومن القُصَّاص أيضاً إبراهيم[6] التَّيمى الكوفى وسعيد بن جُبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر[7] ، ومسلم[8] بن جندب قاصُّ مسجد المدينة ، وذرٌ[9] بن عبد الله ، وكان بليغاً ، وهو الذى كان يقصُّ فى جند ابن الأشعث حاثًّا الناس على حرب الحجاج ، ومطرِّف

(١) استشرى : تفاقم . الشنآن : العداوة .
(٢) حسك الصدور : الحقد .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(٩) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ والعقد ٣/١٩٨ .

ابن عبدالله الشخير وكان يقص في مكان أبيه بمسجد البصرة [١] ، ومنهم وهب [٢] بن منبه ويزيد بن أبان الرقاشي ، ويذكر الجاحظ من وعظه [٣] . « ليتنا لم نُخلَق ، وليتنا إذ خُلقنا لم نعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبعث ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذَّب ، وليتنا إذ عُذبنا لم نخلَّد » .

فالقُصَّاص كانوا وعَّاظاً في الوقت نفسه ، بل هم لايقصُّون إلا من أجل الوعظ ، وممن اشتهروا بوعظهم عبد [٤] الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء [٥] ابن حَيْوة والأوزاعي [٦] في الشام وسعيد [٧] بن المسيَّب وأبي حازم الأعرج في المدينة ، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئل ما مالك ؟ قال : مالان : الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس [٨] . ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد [٩] بن كعب القُرَظي واعظ عمر بن عبد العزيز . وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً ، من مثل ابن [١٠] شُبْرُمة ومورِّق [١١] العِجْلي وبكر [١٢] بن عبد الله المُزَنيّ والشَّعبي [١٣] وأيوب [١٤] السَّخْتياني و محمد بن واسع الأزدي البصري ، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طَرير [١٥] . ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك [١٦] بن دينار ، وكان يقول في قصصه : ما أشد فِطام الكبير ، وينشد :

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتْ ومن العناء رياضةُ الهَرِمِ

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ٢/٢٨٩ .
(٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها ، ٢/٢٨١ ، ٣٢٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢ .
(٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .
(٥) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤/١٨٦ .
(٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .
(٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤ .
(٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩ .
(٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤ ، ٣/١٤٣ ، ١٧٠ .
(١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٣/١٥٠ ، ١٨٣ .
(١١) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨ .
(١٢) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١ .
(١٣) البيان والتبين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠ .
(١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢ .
(١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ٣/١٧٠ وطرير : محدد .
(١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ٣/١٩٧ .

ومنهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضْرَبُ به المثل في الذكاء وصدق الفراسة [١]، ومنهم خالد بن صفوان وشَبيب بن شيبة الأهتميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما [٢] » ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدَّمين في الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدى الورَّاقين [٣] » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمَّاره، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجانيق الضعفاء يعني الدعاء [٤] » ومن قوله: « بِتٌّ ليلتى كلها أتمنى فملأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذى يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران [٥] » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه [٦] .

ومن كبار وعَّاظ العصر وقُصَّاصه الحسن البصرى، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب ( الدينية ) فإنا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصرىّ فيها [٧] » وممن يأتى بعده في الوعظ عبد الله بن شداد ، وهو القائل : « أرى داعىَ الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع [٨] » . ومن كبار القُصَّاص والوعَّاظ الفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان يسجع في وعظه [٩] ، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصًّا مجيداً [١٠] » وهو الذى يقول في قصصه : « سَلِ الأرض فقُل من شَقّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً [١١] » . ومن أشهر الوعاظ وأنبههم واصل [١٢] بن عطاء رأس المعتزلة ، وكان أغزر خطباء عصره

---

( ١ ) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها .
( ٢ ) البيان والتبيين ١/٣١٧ .
( ٣ ) نفس المصدر ١/٣٣٩ – ٣٤٠ .
( ٤ ) البيان والتبيين ٣/٢٧٤ .
( ٥ ) نفس المصدر ٣/١٦٤ والطمر : الثوب البالى .
( ٦ ) عيون الأخبار ٢/٣٤١ .
( ٧ ) البيان والتبيين ١/٣٥٤ .
( ٨ ) نفس المصدر ٢/١١٣ .
( ٩ ) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
(١٠) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(١١) نفس المصدر ١/٣٠٨ .
(١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل للشهرستاني ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤ .

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرْوَى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فى إمارته على العراق (١٢٦ – ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى ، وتبارى الأربعة بين يديه فى الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التى جانب فيها الراء ، إذ كان يلثغ فيها لَثَغاً فاحشاً ، ونوّه بذلك بشار بن بُرْد طويلا ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله[1] :

أبا حُذَيْفَةَ قد أوتيتَ مُعْجِبَةً ... فى خطبةٍ بدَهتْ من غير تقدير

وقوله :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا ... وحبَّروا خُطَباً ناهيكَ من خُطَب

فقام مُرْتجلا تَغْلى بَداهتُــه ... كمِرْجَلِ القَيْن لما حُفَّ باللَّهبِ[2]

وجانبَ الراءَ لم يَشْعر بها أحــدٌ ... قبل التَّصفّح والإغراقِ فى الطلبِ

ولا نستطيع أن تزعم كما زعم بشار أن واصلا ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحس أثر التروية والتحضير وأنه تأنّى لها فى أناة حتى اتسقت فى نسقها البديع ، وهى من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط[3] :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوّه ، ودنا فى علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يَئُوده[4] حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شىء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب[5] لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضعَ كل شىء لعظمته ، وذلّ كل شىء لسلطانه ، ووسع كلَّ شىء فضلُه ، لا يعزُب عنه مثقال حبّة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّستْ أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

---

(١) انظر فى هذا البيت وما يليه البيان والتبيين ١/٢٤ .

(٢) القين : الحداد .

(٣) انظر فى هذه الخطبة الحلقة الثانية من الرسائل النادرة لعبد السلام هرون و جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٨٢ .

(٤) يئوده : يثقله .

(٥) لا معقب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعْصَى فيَحْلُم ، ويُدْعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

و واضح أن واصلا يستظهر فى هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم فى وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرِّره من نفى التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثله شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلا فى صلاته كما أطال فى حمده . وبِقَبَس من صنيعه أخذ الكُتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون فى تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك فى الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضُّكم على ما يُدْنيكم منه ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تُلهينَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عاينتم من أعاجيبها وكم نَصبتْ لكم من حبائلها ، وأهلكتْ من جنَح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حلواً ، ومزجت لهم سمًّا » .

و واصل فى هذه الفقرة يردِّد ما كان يَجْرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبَرْقها الخُلَّب وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم فى غوايات الشهوات ، والعاقل من ازورَّ عنها وكبح جماح نفسه وردَّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمًّا قليل لا يكون للمرء سوى ما قدَّم من عمل صالح ، فليتزودْ كلٌّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيَّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجَّاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التِّلاد ، قبضتهم بمَحْمِلها[1]

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنتهم بكَلْكلها[١] ، وعضّتهم بأنيابها ، وعاضتْهم من السَّعة ضيقاً ، ومن العزة ذُلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللَّحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا تُرَى إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تُحِس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نَبْساً » .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الداثرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقَصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم ، وما صبّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَلْب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء ، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته ، إذ كان فاحش اللُّثْغة في الراء ، فخلّص كلامه منها تخليصاً ، بحيث لم يكن أحد يفطن لذلك لبيانه الرائع ، يقول : إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لابد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتّى لستره والراحة من هُجْنته حتى انتظم له ما حاول واتّسق له ما أمّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجّة الخصوم ومناقلة[٢] الأكْفاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطُّروق الضّبي فقال

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقَّ باطلُه[٣] »

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الراء في جميع محاوراته آية بينة على تمام آلته في البلاغة وإحكام صنعته . وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق فى منزلة بين منزلتى المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول[1] :

له خلفَ شَعْبِ الصِّين فى كل ثُغْرةٍ … إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر[2]
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عــزيمَهُمْ … تهكُّمُ جبَّارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلــدةٍ … وموضعُ فُتْياها وعلم التشاجر[3]
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم … ولا الشُّدْقُ من حَيَّىْ هلالِ بن عامرِ[4]

وهو لا ينوِّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة فى عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل فى هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشُّبَه عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عصره … فَمَنْ لليتامى والقَبيل المُكاثرِ[5]
ومَنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ … وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ[6]
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ … وتحصين دين الله من كل كافرِ
يُصيبون فَصْلَ القول فى كل موطنٍ … كما طبَّقَتْ فى العظم مُدْيَةُ جازرِ
وسيماهمُ معــروفةٌ فى وجوههم … وفى المشى حُجَّاجاً وفوق الأباعرِ
وفى ركعةٍ تأْتى على الليل كلِّــهِ … وظاهرِ قولٍ فى مثالِ الضمائرِ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٥ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدال فى العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

(٥) خير الأقوال فى تلقيب واصل بالغزال أنه كان يجلس فى سوق الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجّة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحَرُورِيَّة ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل فى العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقى وغيره من دعاة هذا المذهب فى العراق وخراسان. وفى كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بنى أمية[1]. واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقا، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافر، لأنهم كما قدمنا كانوا يفصلون الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عُبَيْد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل ليناظره فى رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة[2]، ويقدم لها بأن واصلا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عُبَيد، فحاوره فى رأيه، وردّ عليه واصل ردًّا مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقى دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رءوس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات فى هذا العصر من دقة لا فى مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً فى آرائه، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التى وضع فيها مرتكبى الكبائر فكرة لا يُؤْتَاها إلا من استبصر المعانى وعرف حدودها ومقاديرها ومداخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة فى الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

---

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» (طبع دار المعارف) ص ٧٩.

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٥.

لا يأتى عفواً ، وإنما يأتى من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاًبتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقَّت المعانى ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التى كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثَمَّ فتحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم فى حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق ، وهيأ لهم ذلك شيئاً من التروِّى والتمهل كان له أثره فى روعة الأداء ، حتى لنرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع فى وعظه مثل أسرة الرقاشيين[1] ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى . ولكن هذا ليس الأسلوب الذى شاع فى تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح فى خطبة واصل التى مرَّت بنا ، وفى خطابة الحسن البصرى وغَيْلان[2] الدمشقى ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معانى الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذى نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومَنْ تلاه من كتاب العصر العباسى أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق فى كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعانى .

---

(١) انظر فى هذه الأسرة البيان والتبيين ١/٣٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدَوْا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، إذ تحولوا يعلّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابتهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعيهم وطبقاتهم، ومتى يُستحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعوّل دائماً على وضوح الدلالة حتى يَصْنع الكلام فى القلوب صنيعَ الغيث فى التربة الكريمة . وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية ، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعّاظهم ، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عُبَيْد ما البلاغة ؟ فأجاب[1] :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصّرك مواقعَ رشدك وعواقب غيِّك ، قال السائل : ليس هذا أريد، قال عمرو : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين وتخفيف المئونة على المستمعين وتزيينَ تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونَفْى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فَصْلَ الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » .

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة ، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق فى الخطابة وفى المحاورة والمناظرة ، ويُؤْثَرُ عن خالد بن صفوان أنه كان يقول : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[2] وكان شَبيب بن شَيبة يقول : « الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكَّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت[3] » . ولم يكونوا يتفقدون

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ وانظر العقد الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٣ .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٢ .

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلا عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

## الحسن (١) البَصْرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سَبْىِ ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيْرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هى الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة فى وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت ترْوى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق فى نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفى أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما فى المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة علىّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة فى الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك فى الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة فى خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر ( فهارس تلك الكتب ) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس ( طبع دار الفكر العربى ) .

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ فى مصره إذ كان لا يجارَى فى بلاغته وبيانه .

ويُكْبِره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمَّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية فى المدينة دار النبوة ، ومن ثَمَّ أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوَّغ آراءها فى عقول الناس ، فكل فرقة تَنْسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين روّادها الأولين ، فالجَبْرية يقولون إنه كان ينفى حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شىء بقضاء من الله ، ويقول القَدَرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار فى أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَريًّا ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسودًّا وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى نلقاه دائماً كلما ذكره فى صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر ، فكتب إليه رسالة ضمّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله[1] ، وتلتقى بهذه الرسالة فى نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك[2] .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد فى عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شىء والزهد شىء آخر ، حقًّا كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صوّر إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه فى مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر مصورة هذه الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢١٥ أدب .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً ، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقَبِلَ أن يتولى القضاء إلى فترة فى عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربى محكّك[١]» ويُؤْثَر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخْصاص[٢] البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت[٣]» وهو إنما يعْنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج[٤]». وكان يجمع إلى فصاحته حساً لغوياً دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُرْوَى عن رجل من بنى مجاشع قال : « جاء الحسن فى دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قُلْ : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله[٥] » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته فى الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وقد نوّه به الغزالى فى الإحياء مراراً . وهو فى مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته[٦] .

وهو فى وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكّراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثّاً على التقوى والعمل الصالح والتأسى بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكَرْمة التى حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التى رواها له الجاحظ قوله[٧] :

« يا بنَ آدم بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثَّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمةَ بعد أمتكم ولا نبىَّ بعد نبيكم ولا كتابَ بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناسَ

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .
(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان فى البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .
(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .
(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .
(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعةُ تسوقكم، وإنما يُنْتَظرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً (١) لم يضع لَبِنةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . ( لقد كان لكم فى رسول الله أسْوَةٌ حسنة ) . يابن آدمَ طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرك، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبرَ .. يابن آدم اذكرْ قوله: ( وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ) عدَلَ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذَرُوا كدَرها ، دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً (٢) ما كانت صحبتهم إلا قُرَّة العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُرَدَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم (٣) ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا . أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّى ولا بالتمنِّى ، ولكنه ما وَقَر فى القلوب وصدَّقته الأعمال» .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضىء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم » فى الحديث النبوى : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ) ثم عقَّب عليها بقوله (٤) :

---

(١) يريد أنه كان يغدو ويروح فى كسب عيشه الضرورى .

(٢) يريد صحابة الرسول .

(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستثقلتم المشى فى الجنائز .

(٤) أمالى المرتضى ١/ ١٥٤ .

« إن قوماً غدَوْا في المطارف[١] العتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية، حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العفّة وظلموا من تحتهم من أهل الذّمّة أهزلوا دينهم وأسمنوا براذينهم[٢] ووسعوا دورهم وضيّقوا قبورهم . ألم ترهم قد جدّدوا الثياب وأخلقوا الدين، يتكئ أحدهم على شماله : فيأكل من غير ماله .. يدعو بحُلْو بعد حامض وبحارّ بعد بارد وبرطب بعد يابس، حتى إذا أخذته الكظّة[٣] تجشّأ من البشم[٤]، ثم قال يا جارية هاتى حاطوماً[٥] يهضم الطعام، يا أحيمق لا والله لن تهضم إلا دينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعنّف بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله[٦] :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قصْداً ، وقدّم فضلا ، وجّهوا هذه الفضولَ حيث وجّهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤْثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرّ بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التي جماعها الضلالةُ وميعادها النار . أدركتُ مِنْ صدْرِ هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم[٧] . . يابن آدم إن كان لا يُغنيك

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
(٢) براذينهم : دوابهم
(٣) الكظة : الشبع .
(٤) البشم : الامتلاء .
(٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .
(٦) البيان والتبيين ٣/ ١٣٥ .
(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس‌ها هنا شيء يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك » .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر فى غدوه ورواحه المعاد ، وأعدّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدى الله ، وهو لا يدرى أيؤمَرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير فى ذلك حرىّ أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل فى هذا كله ما يوضح المعانى التى كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسْوة حسنة من هذا الأسلوب الذى يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لاتزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبّتوا فى هذا العصر ذلك الأسلوبَ المونق الذى تأثّر به عبد الحميد ومَنْ خلفوه من الكتّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع

# الكتابة والكتّاب

## ١

### التدوين

كان العرب فى الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءةَ والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضُّهم — كما مرّ بنا — على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيِّئاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكِتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض فى موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أُمِّية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة، تدوِّن معارفها العربية والإسلامية واضعةً بعض المصنَّفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبارُ آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثَمّ كثُر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار [١] ومن أشهرهم دَغْفل [٢] بن حنظلة السَّدوسى المتوفَّى سنة ٧٠ للهجرة، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت فى كتاب له اسمه « التضافر والتناصر » [٣] وهى تدور بينهما فى أسلوب حِوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها فى بيانه ببعض إجابات طريفة. [٤]

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ( طبعة جوتنجن ) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/٣١٨ وما بعدها

(٢) راجع فى ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميدانى ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .

(٣) انظر التحفة البهية ( طبعة إستانبول ) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢/٨٠ ، ٢٥٣ .

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعْنَى بأخبارها فى الجاهلية وأشعارها فتدّونها ، وتكاثر هذا التدوين فى الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلى وكل ما يتصل به من أخبار وأيام[١] . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامى كان يُكْتَبُ ويدوَّن ، من ذلك ما يَرْويه الجاحظ عن ذى الرُّمّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعرى فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ ، لأن الأعرابىَّ ينسى الكلمة وقد سَهِر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا ينَسى ولا يبدِّل كلاماً بكلام »[٢] ، وفى أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليُملى عليه بعض أشعاره[٣] وأنه كان يقول لسامعيه بالمِرْبد قيِّدوا قيّدوا أى اكتبوا[٤] ، وفى الأغانى أن خالد بن كلثوم الكلبى كان يدوّن شعره وشعر الفرزدق[٥] . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيلٌ من الرواة ، يُعْنَى بتدوين أخبار العرب فى الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثّله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتُبه التى كتبَ عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السَّقْف ، ثم إنه تقرّأ ( تنسَّك ) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حَفِظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »[٦] .

وعنايةُ العرب فى هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست فى كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوى وتلقين الناس الفقهَ وشئونَ التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين فى هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه . وقد اشتهر ابن عباس فى مكة بما كان يحاضر فى تفسير القرآن الكريم ، وحَمل عنه تفسيره نفرٌ من التابعين

---

(١) أغانى ( دار الكتب ) ٦/٩٤ .

(٢) الحيوان ١/٤١ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٤٣٠ وانظر أغانى (دار الكتب) ٨/٣٢ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٥) أغانى ( ساسى ) ١٩/١١ - ١٢ .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة فى التفسير عن ابن عباس رواها على بن أبى طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً [١] » .
ولا يحمل تفسير الطبرى تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب . وقد أخذت تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون. وما نشك فى أن كثيراً منها دون فى هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبرى . وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا فى غير هذا الموضع يترددون فى تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعملوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادى فى كتابه « تقييد العلم » . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث ، ويعنى بذلك كما مر بنا الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا فى تدوين الحديث والتفسير أخذوا فى تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرروا فتياه ومذهبه فى التشريع [٢] . ويذكر جولدتسيهر أن عروة [٣] بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة [٤]. ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم فى أئمتهم أنهم الهادون المهديون الذين ينبغى أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى على وأقضيته . ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالى معاصر الحجاج [٥]، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد فى المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر فى الفقه اسمه « مجموعة زيد بن على » [٦].

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم وممن عنوا

---

(١) انظر النوع التاسع والسبعين فى كتاب الإتقان للسيوطى .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر فى ترجمة عروة تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٤٧/٢ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) الفهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

بها عروة بن الزبير وأبان [١] بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب [٢] ابن منبه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا فى العصرين الأموى والعباسى كتبهم التاريخية التى يفيض الفهرست لابن النديم فى بيان أسمائها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ .وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية فى معاوية ، إذ استقدم عبيد [٣] بن شرية الجرهمى اليمنى ليحدثه فى مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولا فى عصر المسعودى [٤] . وقد طبع له فى « حيدر آباد » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور فى أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد ، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تبع إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولوهب كتاب يسمى « المبتدأ فى الأمم الخالية » ذكره المقدسى [٥] وقال السخاوى إنه كثير الخرافات [٦] . وله فى الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً ، وفى مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب ينسب إليه باسم « قصص الأنبياء » . ويلمع فى هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب [٧]

---

(١) انظر فى ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥ وابن سعد ٥ / ١١٢ والنووى (طبعة وستنفلد) ص ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب المعارف ص ٢٣٣ ، ٣٠١ وطبقات ابن سعد ٥ / ٣٩٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٢٧٨ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١ / ١٧ وشذرات ابن العماد ١ / ١٥٠ .

(٣) راجع فى ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعمرين لأبى حاتم السجستانى ومعجم الأدباء ١٢ / ٧٢ .

(٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٤ / ٨٩ .

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥ .

(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ .

(٧) انظر فى ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ .

الأحبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له فى القرن الماضى كتاب بمطبعة بولاق « فى حديث ذى الكِفْل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضْعُ زياد بن أبيه لكتاب فى المثالب [١] ووَضْعُ ابن مفرِّغ الشاعر قصة تُبَّع وأشعاره [٢] وتأليف كل من علاقة الكلابى[٣] معاصر يزيد بن معاوية وصُحار[٤] العَبْدى كتاباً فى الأمثال. ومن ذلك كتاب[٥] فى الوصايا والحِكم للمستورد بن عُلَّفة الخارجى . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبِّه لكتاب فى القَدَر[٦] ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان[٧] المرجىء رسائل فى ألفى ورقة[٨] ، ومع أنها كانت تدور فى المواعظ[٩] تؤمن بأنها حملت آراءه فى الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة.[١٠] ومرّ بنا فى الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصرى أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه فى القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمل عنه[١١] . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب فى الغناء[١٢] ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب[١٣].

وفى ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين فى عصر بنى أمية ، ولا نشك فى أن القوم دوّنوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قُلْ فى رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة .[١٤] وبالمثل كانوا يدوّنون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ .
(٢) أغانى ( ساسى ) ١٧/٥٢ .
(٣) الفهرست ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٥) المبرد ص ٥٧٨ .
(٦) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٥٩ .
(٧) مضت مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٨) الفهرست ص ١٧١ .
(٩) انظر عيون الأخبار ٢/٣٤٥ .
(١٠) البيان والتبيين ١/١٥ .
(١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ .
(١٢) انظر الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٤/٣٩٨ .
(١٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها .

الخلفاء والخطباء النابهين وعاظاً وغير وعاظ ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان[١] المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «ولكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين»[٢] ومرت بنا فى الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغوفاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : «رأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة»[٣] . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن فى الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم فى علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا[٤] وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسطاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية[٥] . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية .[٦] ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر فى جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لنتحدث عما خلّف العصر من رسائل مختلفة .

## ٢

### كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر .

---

(١) انظر فى خالد المعارف ص ٢٠٦ والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٢٤ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ .

(٣) الفهرست ص ٤٩٧ .

(٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١/١٢١ وابن القفطى ص ١٠٥ .

(٥) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١

وحقًّا هناك كتب تزيّدت فى هذه الرسائل ونقصد كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة.

ولكن إذا نحّينا هذين الكتابين وأضرابهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبرى والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة فى الطبرى سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومَنْ ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بنى أمية وولاتهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما رُوِى للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفى بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شَجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هى الأزارقة والنّجدية والصُّفْرية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق يحرِّمون القعود عن الخروج ويستحلُّون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفتهم فى ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد فى تصوير هذا الخلاف رسالتين[١] متبادلتين بين نَجْدة بن عامر الحنفى زعيم النَّجدات ونافع بن الأزرق ، فنجْدة يراجعه فى مقالته ، ونافع يحتج لها . والرسالتان وثيقتان طريفتان فى بيان مقالتَى النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع فى وقعة دولاب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق فى طاعة عبد الملك مضوا فى ثورتهم ، وظلت الجيوش توجَّه إليهم ، يوجّهها ولاة العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعهده قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يراسله مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قَطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعّد ، ونحن نسوق رسالتين[٢] لهما تصوّران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مَرقتَ من الدين مَروقَ السَّهم من الرَّمِيّة ، وقد علمت حيث تَجرْثمتَ ، [٣] ذاك أنك عاص لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابى

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وانظر المبرد ص ٢١٤ .

(٣) تجرثمت الشىء : أخذت معظمه .

جِلْفٌ(١) أمىٌّ تَسْتطعم (٢) الكِسْرة وتَسْتَشْفى (٣) بالتمرة، والأمور عليك حَسْرة، خرجتَ لتنال شُبْعة (٤) ، فلحق بك طَغَام(٥) صَلوا بما صَليت به من العيش فهم يهزّون الرماح ويَسْتَنشئون(٦) الرياح ، على خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بِنَزْحتين (٧). والسلام».

وأجابه قطرى :

«سلام على الهُداة من الولاة الذين يَرْعَوْنَ حريمَ الله ويرهبون نِقَمه، فالحمدُ لله على ما أظهر من دينه، وأطْلَعَ به أهل السِّفال (٨) وهَدى به من الضلال ونصَر به عند استخفافك بحقّه . كتبتَ إلىّ تذكر أنى أعرابىّ جِلْفٌ أمىّ أستطعم الكِسْرة، وأستشفى بالتمرة، ولَعَمْرى يا ابنَ أمِّ الحجاج (٩) إنك لمتَيَّهٌ فى جِبِلّتك(١٠)، مُطْلَخِمٌّ(١١) فى طريقتك، واهٍ فى وثيقتك(١٢)، لا تعرف الله ولا تَجْزع من خطيئتك، يئستَ واستيأست من ربك، فالشيطانُ قَرينك ، لا تجاذبه وثاقك ، ولا تنازعه خِناقك . فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صَفْحتك ، وأوضحَ لى صَلْعتك(١٣)، فوالذى نفسُ قطرىٍّ بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتَصْدير (١٤) المقال، مع أنى أرجو أن يَدْحَضَ الله حُجّتك ، وأن يمنحنى مُهْجتك » .

وواضح أن كلا منهما يرمى صاحبه بالضلالة والغواية ، وقد عُنيا جميعاً بالتأنق فى أسلوبهما . ومن ثَمَّ زيَّنا كلامهما بالسجع . وإذا تركنا الأزارقة إلى الصُّفرية وجدنا شبيباً يراسل صالح بن مسرِّح حاضًّا على الخروج(١٥). ولم تحتفظ المصادر برسائل للنجدات والإباضية .

---

(١) جلف : جاف .

(٢) تستطعم الناس : تسألهم أن يطعموك .

(٣) تستشفى : تطلب الشفاء .

(٤) الشبعة : ما يشبع من الطعام .

(٥) طغام الناس : أرذالهم .

(٦) يستنشئون الرياح : يتنسمونها ، كناية عن جوعهم .

(٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبى صفرة .

(٨) أطلع : من الطلع وهو العرج. السفال: سفول الخلق .

(٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن فى النسب.

(١٠) متيه : مضلل . الجبلة : السجية .

(١١) مطلخم : متعجرف .

(١٢) الوثيقة : الثقة .

(١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره .

(١٤) تصدير المقال : تسطيره وتحبيره .

(١٥) طبرى ٥/٥٢ .

ورسائلُ الشيعة فى هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات [١] تحضُّ على الثورة على بنى أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين. ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوّابين ، ويصوّر زعيمهم سليمان بن صُرَد فى مكاتبته لبعض أصحابه ندَمهم على خِذْلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه [٢] . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفى لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويُكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول [٣] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبى عُبَيْد إلى الأحنف بن قيس ومَنْ قِبَلَه ، فسِلْمٌ أنتم ، أما بعد فويل امّ ربيعة من مضر [٤] ، فإن الأحنف موردٌ قومه سقَر [٥] ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدر [٦] ، وإنى لا أملك ما خُطَّ فى القدر ، وقد بلغنى أنكم تسمُّوننى كذاباً ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبتْ رسلٌ من قبلى ، ولستُ بخير من كثير منهم » .

وفى الرسالة خصائصه التى مرت بنا فى خطابته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه والسجع فى كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفىّ إلى أنه يوحَى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً فى خطابته وأحاديثه كما استخدمه فى الرسالة الآنفة [٧] .

وأُثرت عن ابن الزبير وولاته فى العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبرى ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار [٨] الثقفى . ونرى ولاته يكاتبون من يوجّهونهم إلى الخوارج [٩] . ونلتقى فى عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القِرِّيَّة المشهور بسجعه .

(١) طبرى ٤/٢٥٧ وما بعدها .
(٢) طبرى ٤/٤٢٩ .
(٣) طبرى ٤/٥٣٩ .
(٤) يقولون ويل ام فلان إذا أرادوا التعجب منه. وكأن المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التى آزرته ، ويقول إنها ستنكل بتميم وغيرها من قبائل مضر .
(٥) سقر : جهنم .
(٦) الصدر : الرجوع .
(٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها .
(٨) طبرى ٤/٥٤١ .
(٩) طبرى ٤/٤٨١ وما بعدها .

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت فى البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم[١] ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بنى أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولّونهم على الولايات[٢] . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آيبة بينهم وبين ولاتهم فى كل كبيرة وصغيرة . وكان قوّادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولاتهم وقوادهم من مراسلات يتطفح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية فى شأن حُجْر بن عدىّ وأصحابه من الشيعة[٣] ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته فى الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن على[٤] ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد فى وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه .[٥]

ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولاتهم كما كثرت فى عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التى نشبت فى العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثرون من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التى أرسل بها إلى قطرى . ولابد أن نقف قليلا عنده إذ كان يُعْنَى بتحبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتحبير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحثّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة[٦] ، كما يكثر من مراسلة قواده فى حروب الخوارج الشبيبية[٧] وفى فتنة ابن الأشعث[٨] وحروب خراسان[٩] . ورسائله مثل سياسته التى اشتهر بها تقطر شدة وحدّة ، حتى فى مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال وليا للعهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٥/٣٠٧ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .
(٣) طبرى ٤/٢٠٢ وما بعدها .
(٤) طبرى ٤/٢٥٠ وما بعدها .
(٥) طبرى ٤/٢٦٥ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣١ .
(٦) طبرى ٥/١٢٠ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .
(٧) طبرى ٥/٧٩ وما بعدها .
(٨) طبرى ٥/١٤٩ وما بعدها .
(٩) طبرى ٥/١٤٠ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتُّك[١]» وكان الخلاف دبَّ بينهما ، ومن ثَمَّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعة عبد الملك ، فهو الذى أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاَّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأنَّق ما استطاع فى تعبيره ، ومن خير ما يصوِّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خِصْباً بعد جَدْب ومطراً بعد قَحْط ، وهى تجرى على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإنا نُخبر أميرَ المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضَنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقْيا الله إيانا إلا ما بَلَّ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ[٣] ، حتى دَقِعَت[٤] الأرض واقشعرَّت[٥] واغبرَّت[٦] وثارت فى نواحيها أعاصير تَذْرُو[٧] دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاَّحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٌ تغيُّرها ، وشيكٌ تنكُّرها ، سَيِّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبول[٩] يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجاً متقطعاً متمصِّراً[١٠] ، ثم أعقبته الشَّمال[١١] يوم السبت ، فطَحْطَحَتْ[١٢] عنه جَهامه[١٣] وألَّفت متقطِّعه ، وجمعت متمصِّره ، حتى انتضَد فاستوى ، وطَما وطَحا[١٤] ، وكان[١٥] جَوْناً[١٦] مُرْثَعِناً[١٧] ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

(١) البيان والتبيين ١/٣٩٧ .
(٢) البيان والتبيين ٤/٩٩ .
(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .
(٤) دقعت : خلت من النبات .
(٥) اقشعرت : تقبضت من الجدب .
(٦) اغبرت : تربت من الغبار .
(٧) تذرو : تسفى وتحمل .
(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهى الأرض الصلبة .
(٩) القبول : الريح الشرقية .
(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر : المتقطع .
(١١) الشمال : الريح الشمالية .
(١٢) طحطحت : بددت وفرقت .
(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملأ الأفق .
(١٥) كان هنا بمعنى صار .
(١٦) الجون : الضارب إلى السواد
(١٧) مرثعنا : سائلا .

مُنْسجل (١) ، يردف (٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب (٣) لشدة وقعه فى العِراض (٤) . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى ترى بمثل قِطَعِ القُطْن ، قد ملأ اليَبَاب (٥) . وسدَّ الشِّعاب (٦) ، وسَقَى منها كلَّ ساق . فالحمدُ لله الذى أنزل غَيْثَه ونشر رحمته من بعد ما قَنطوا (٧) ، وهو الولىُّ الحميد ، والسلام » .

ويتضح فى الرسالة ما اشتهر به الحجاج فى خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحتالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التنميق ، وسنرى عما قليل طبقةً من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تَشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ، ويُرْوَى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة استهلها بقوله (٨) .

«اعلمْ يا أميرَ المؤمنين أن الله جعل الإمام العادلَ قِوامَ كل مائلة وقَصْدَ (٩) كل جائرٍ ، وصلاحَ كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَةَ (١٠) كل مظلوم ، ومفزعَ كل ملهوف . والإمامُ العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيقِ بها ، الذى يرتاد لها أطيبَ المراعى ، ويذودها عن مَراتع المهلكة ، ويحميها من السِّباع ، ويكفيها من أذى الحَرّ والقُرّ . (١١) والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حمَلته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تَسْهر بسهره ،

---

(١) منسجل : منصب .

(٢) يردف : يتبع .

(٣) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .

(٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .

(٥) اليباب : الموضع الخالى لا نبات فيه .

(٦) الشعاب : المسالك والسبل .

(٧) قنطوا : يئسوا .

(٨) العقد الفريد ١/٣٤ .

(٩) قصد : هداية .

(١٠) نصفة : من الإنصاف .

(١١) القر : البرد ، مثلث القاف .

وتسكن بسكونه، تُرْضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته».

ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت والبعث والوقوف بين يدى الله وما ينبغى أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح. والحسن فى هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذى مرّ بنا وصفه، والذى يقوم على الازدواج وتزيين المعانى بالصور حتى تتمكن فى النفس، وكان يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة. وكان يجاريه — كما قدمنا — فى هذا الأسلوب كثير من الوعاظ، وعلى رأسهم غَيْلان الدمشقى، ويُرْوَى أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه فى رسالة طويلة، منها قوله[1]:

«اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَلَقاً بالياً، ورَسْماً عافياً، فياميّتُ بين الأموات لا ترى أثراً فتتّبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طَفِىَ أمر السنة، وظهرت البدعة، أُخيف العالم فلا يتكلم، ولا يُعطى الجاهل فيسأل».

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته[2]، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسى كانوا يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصرى، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية[3]. وما نشك كما أسلفنا — فى أن بلغاء الكتّاب فى عصرهما كانوا يجارونهما فى أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ، فنحن لا نقرأ فى سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذى يتحلى بالطباق والتصوير والذى يقوم على التوازن فى الكلام توازناً ينتهى به إلى الازدواج، حتى يؤثّرا فى أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم.

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت فى هذا العصر الكتابات الشخصية، بحكم تباعد العرب فى مواطنهم، وبتأثير بعض الظروف من موت يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنئة، أو شفاعة عند وال لقريب أو صديق، أو عتاب أو اعتذار. وطبيعى أن لا يُعْنَى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها، لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية قليلة، فمن ذلك رسالة عقال بن شَبّة إلى خالد القسرى فى شفاعة تجرى على هذه الصورة[4]:

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦.

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣.

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١.

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤١٦/٢.

« إن الله انتجبك(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية : وأعان خطرك بقدرة مقسومة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار(٣) الله لك، وليس كلهم أداله(٤) الزمان ولاساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهومن دنية(٥) قرابتي، وذوى الهيئة من أسرتي، عرف معروفك، وأحببت أن تلبسه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلا في الغب »(٦).

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقى في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى : والفقه الحسن بمداخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغى أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. وممن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لسناً بليغاً، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول(٧) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأى فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام » .

---

(١) انتجبك : اختارك .
(٢) خطرا : قدرا .
(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .
(٤) أداله : نصره وأعانه .
(٥) دنية : لاصق .
(٦) الغب : العاقبة .
(٧) البيان والتبيين ٢/٨٤

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعانى الطريفة ، التى تروع بما فيها من منطق عقلى دقيق ، وهو يعرضها فى أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات.

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة ترقى لا فى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحققون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحبير .

## ٣

### كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين فى الإسلام ، وتؤكد الروايات التى رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم[١] ، إذ أحس حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال الفئ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانى الخراج والجند ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل، وديوان الخاتم[٢] ، وفيه كانت تختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكتب فى الشام ومصر بالرومية وفى العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخشنى كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومى[٣] ، وفى الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

الفارسى [١] ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر [٢] هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نُظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس فى إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن فى الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل ؛ لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبِّجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللَّسَن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يُظهر براعته ومهارته وحذقه فى تصريف الألفاظ وصياغة المعانى ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتَّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مَرِّ الزمن فى هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسْلِم إلى خَلَفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل والٍ وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى فى العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتَّاب الولايات إلى أن يَلْفتوا ببلاغتهم مَنْ يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعيِّنوهم فى دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه [٣] ، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتَّابه ، على نحو ما صنع بمحمد [٤] بن يزيد الأنصارى .

ولم يعرض علينا الجَهْشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلا ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزَّعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفى عهد كل خليفة يَسْرُدُ أسماء

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٨٧ والطبرى ٥/١٨٧ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٥/٢٠٨ .

كتّاب الولاة . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقه وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارَى[١] . ولم يُؤْثَرْ عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو[٢] :

« أما بعد فإن استدراج النِّعَم إياك أفادك البَغْي ، ورائحة القدرة أورثتْك الغفلة . زجرتَ عما واقعتَ مثله ، وندبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضعفُ الأسباب يُؤيِس الطلابَ ما انتقل سلطان ولا ذلَّ عزيز . وعمّا قليلٍ تتبينّن مَنْ أسيرُ الغفلة ، وصريعُ الخُدع ، والرَّحِم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرُك أقْوَمُ به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولَّى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد[٣] الله بن أوس الغسَّاني ، وروى له الجهشياري رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العُدَّة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو[٤] :

« أما بعد فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميتَ إلى مَنْصِبٍ كما قال الأول :

رُفعتَ فجاورتَ السحابَ وفوقه    فما لك إلا مَرْقَبَ الشمس مرقبُ

وقد ابتُلي بحسينٍ زمانُك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكِبتَ به من بين العُمَّال ، فإما تُعْتَقُ أو تعود عبداً ، كما يُعَبَّد العَبْد ، والسلام » .

والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو[٥] بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع فهرسه .
(٢) البيان والتبيين ٤/٨٧ .
(٣) الجهشياري ص ٢٤ ، ٣١ .
(٤) الجهشياري ص ٣١ .
(٥) طبرى ٤/٢٨٥ .

ورياضة فى تنسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .

ونمضى إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه روْح بن زِنْباع الجُذامى ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسى [١] الكتابة ،وليس بين أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له[٢] :

« لاتُشْمِتَنّ بى عدوًّا أنت وقَمْتَه [٣]،ولا تسوءنّ بى صديقاً أنت سَررته، ولا تهدمنّ منى ركنا أنت بَنَيْتَه ، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلى وإساءتى ؟». فعفا معاوية عنه .

ورأس كُتّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنى كاتب رسائله الذى حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية، ولم تنص المصادر القديمة على ما كتبَ به بين يدى الخلفاء . ومما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة والبيان ، وفى الجَهْشيارى أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك قبل توليه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد والى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله [٤]: « لِمَ بعثَ أمير المؤمنين إلى أسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدرى ، قال : أفتدرى ما مَثَلك ومَثَل أسامة ؟ قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حيّة كانت فى ماء وطين وبَرْد ، فإن رفعتْ رأسها وقع عليها حافرُ دابّة ،وإن بقيت ماتت بَرْداً ، فمرّ بها رجل،فقالت : أدخلْنى فى كمّك حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفئت قال لها : اخرجى ، فقالت : إنى ما دخلت فى هذا المدخل قط فخرجت حتى أنقُرَ نقرةً ، إما أن تسلم منها ، وإما أن تموت ،ووالله لئن دخل أسامة لَيَنْقُرَنَّك نقرةً إما أن تَسْلَم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بينة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن فى نقله الدواوينَ ما يدل على سعة ثقافته وهى سعة كانت تقترن بعذوبة المنطق وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضحه كلمته .

---

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشيارى ص ٣٥ والأمالى ٢/٢٥٩ .

(٣) وقمه : قهره وأذله .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

وإذا ولّينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتّاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، ومما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القِرِّيَّة كاتبه حين ثار على الحجّاج : « إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجّعاً أعرِّفه فيه سوء فعاله وأبصِّره قبح سريرته » وينْفذ ابن القرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة (١) . ولا تهمنا الرسالتان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث فى أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته فى الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفى ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتى من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن يحيى بن يَعْمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب فى ولايته على خراسان للحجّاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك فى « باذغيس » انتصاراً حاسما أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب (٢) :

« إنا لقينا العدوَّ ، فمنَحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعَرائر (٣) الأودية وأهْضام (٤) الغِيطان ، وبتنا بعُرْعُرَة (٥) الجبل وبات العدو بحَضيضه (٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوى أدَّاه إلى أن يسوق رسالته فى هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدَّمنا فى غير هذا الموضع . وفعلا راعت الرسالةُ الحجَّاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبى عُذْرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنّى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبى (٧) .

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٧٧ والمبرد ص ١٥٨ والطبرى ٥/١٨٧ .

(٣) عرائر الأودية : أسافلها .

(٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان : جمع غائط وهو المستوى من الأرض .

(٥) عرعرة الجبل : أعلاه .

(٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٧) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

وعلى هذا النحو كان كتّاب الولاة والقواد فى الشرق يحبّرون رسائلهم، كلٌّ حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرَّج فيها الكتّاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذى نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهشيارى : « كان عامة كتّاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبى قُرّة كتب ليزيد بن المهلب (فى ولايته لسليمان بن عبد الملك ) ومنهم قُحذُم بن أبى سُليم وشيبة بن أيمن كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مرْوان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »[1] .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعْنَون بالطّوامير والقراطيس[2] التى كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفى الجهشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء فى الطوامير وأنه أمر بأن تعظَّم كتبه ويجلَّل[3] الخط الذى يُكتَبُ به ، وكان يقول : تكون كتبى والكتب إلىّ خلافَ كتب الناس بعضهم إلى بعض[4] . ويظهر أن الكتاب غالوا فى النفقة على كتبهم ، حتى لنرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد فى القراطيس ، طالباً من الكتّاب أن يوجزوا[5] ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ — ١٢٤ ) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهى مدرسة رَقِىَ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرّج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيْته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيته ، هو صهره وختَنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها — كما مر بنا — بعض رسائل لأرسطاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول[6] ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[7] . ومن يرجع إلى الجهشيارى

---

( ١ ) الجهشيارى ص ٣٩ .
( ٢ ) الطوامير والقراطيس : الصحف الكبيرة .
( ٣ ) يجلل : يعظم .
( ٤ ) الجهشيارى ص ٤٧ .
( ٥ ) الجهشيارى ص ٥٣ .
( ٦ ) الفهرست ص ١٨٢ .
( ٧ ) الفهرست ص ١٧١ .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته فى الشئون التى تعرض له (١) .

فالخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتّابه كما كان الشأن فى القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثَمّ لم يعد الضمير فى الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول فى مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنَص على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحوّل عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية.

ولعل من الطريف أن الرسائل التى صدرت عن ديوان هشام تُطْبَعُ بطوابع أسلوبية واحدة ، إذ تَجْرى فى أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله (٢) .

« حللت هضبة أصبحت تنحو (٣) بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يُدَهْدِه (٤) بك قلة شكرك متحطّماً وَقيذاً (٥) ، فهلا — يا بن مجرِّشة (٦) قومك — أعظمتَ رَجلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضته (٧) مقبلا عليه ببِشْرك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهى كلها من هذا النسيج الأنيق الذى يَزّينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أُثرتْ لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيعٍ قدّمه إليه ، وهى على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلىّ منك ، جسيمَ الرجاء فيما بقى لى عندك . قد جعل الله مستقبل رجائى منك عوناً لى على شكرك ، وجعل

---

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .
(٢) طبرى ٥/٦٨ وما بعدها .
(٣) تنحو : تشرف وتطل .
(٤) يدهده : يسقط .
(٥) وقيذا : صريعاً .
(٦) المجرشة : الماشطة .
(٧) فاوضته : حدثته .
(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٣١ .

ما سلف إلىّ منك عوناً على مؤتنف الرجاء فيك ».

وفى الرسالة ما يصوّر دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه، فهو يشكر ويرجو، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه. واحتفظ المبرد فى كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسعَ عشرة ومائة إلى خالد القَسْرى حين أخذ ابن حسان النبطى وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط. وهو يفتتحها بقوله[1]:

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك إلا لما أحبَّ من ربّ[2] الصنيعةِ قبلَك واستتمام معروفه عندك. وكان أمير المؤمنين أحقَّ من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تَعُدْ لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى فى معاجلتك بالعقوبة رأيه. إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدَّة أبطَرته، فأساء حَمْل الكرامة، واستقلَّ العافية، ونسب ما فى يديه إلى حيلته وحَسبه وبيته ورهطه وعشيرته، فإذا نزلتْ به الغِيَر[3]، وانكشطت[4] عنه عَماية الغَىّ والسلطان، ذلَّ منقاداً، وندم حسيراً، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له ... ».

وأطنبَ عبد الله فى الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سَلَفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يَعْلُوه ويَغْمُره. ويمضى يعدد عليه أخطاءه فى سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس فى أعماله، وكيف ضيَّع أموالا كثيرة، هى أموال المسلمين، فى حَفْر نهر المبارك، وكيف يبتزّ أموال رعاياه باسم هدايا النَّيْروز والمِهْرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان، ويسجِّل عليه نقص الخراج وأنه ولَّى أسداً أخاه خراسان، مظهراً بها العصبية اليمنية متحاملا على المضرية. وهو فى ثنايا ذلك يتهدده برواجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غَيِّه فقِبَل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبةً وعملا. وطالت الرسالة، حتى لكأنها تاريخ مختصر لخالد القسرى وولايته الطويلة

---

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها.

(٢) رب الصنيعة: إتمامها وتنميتها.

(٣) الغير: حوادث الدهر.

(٤) انكشطت: انكشفت.

على العراق . وهى جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ، والذى ثبّته سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

## عبد الحميد [١] الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسى الأصل . ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق [٢] وسكن الرَّقّة . وكان فى أول أمره يتنقل فى القُرى معلماً فى كتاتيبها ، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبدالملك ، وأُعْجب به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرّجه كاتباً لايبارَى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملا لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذه كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبته الطبرى من رسائل لمروان فى ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ — ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشَّعَثَ حين انقضّت جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هُزم مروان فى موقعة الزّاب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيًّا لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فرّ بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

---

(١) انظر فى عبد الحميد الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢وما بعدها وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ١/٣٠٧ والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان والتبيين ١/٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٣/٢٩ وعيون الأخبار ١/٢٢ والصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ وصبح الأعشى ١/٨٥ ، ١٠/١٩٥ واليتيمة للثعالبى (طبعة الصاوى) ٣/١٣٧ والجزء الثانى من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول إنه من أهل الشام .

على أنه قُتل فى مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة فى دواوينهم [١]

وعبدُ الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سماه الجاحظ فى بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونَصَح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم [٢] ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسّلون ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أولُ من استخدم التحميدات فى فصول الكتب ، وكأنه تأثر فى ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كمّاً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذى مرّ بنا فى أول خطبته المنزوعة الراء. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية فى صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً فى ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التى أُثرت عن الساسانيين والتى يُقال إنه كان أحدَ نَقَلتها إلى العربية [٣] . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكى هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التى تنتهى إلى التمثل وصُنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب [٤] وهى رسالة عامة ليست موجّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هى موجهة إلى هذه الطائفة التى أصبح لها كيان واضح فى حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب فى تدبير الحكم وما ينبغى أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية. ونحن لا نَقْرنها إلى ما استهلّ به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا فى رسالته التى تُعَدّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية فى سياستها

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .
(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .
(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصبح الأعشى ١/٨٥ .

وضبط شئونها فى الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغى أن يحسنه الكتّاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشرَ الكتاب ، فى صنوف العلم والأدب ، وتفقّهوا فى الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطّ فإنه حِلْية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسِيَرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإنه قِوام كتّاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجمّلوا بحُلى العلم والأدب ، ويصرّح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم فى الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم فى شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التى تعينهم على إحسان التعبير عما فى أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك فى كتاباتهم السياسية . ونراه فى تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتّاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النّقابة فى عصرنا ، فقد حضّهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرّفه فى العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة فى وصف الإخاء رواها ابن طيفور[1] وهى فى رأينا تكملها ، فقد عرض فى رسالة الكتّاب لأخوّتهم وما ينبغى أن يجمعهم من إلف الوداد والصداقة ، ومضى فى هذه الرسالة يفصّل الحديث فى معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائمه التى تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحبّاً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تَدْخل الرسالة فى هذا الضرب من الأدب الأخلاقى الذى شاع فى بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع فى كتابيه

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير (١) .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولي عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصُّفْري ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمُّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولا غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القَطْع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلِّين دماء المسلمين ، وأنه رأى أن يكتب إليه بِعَهْد يؤدى به حقَّ الله الواجب عليه في إرشاده . ويمضي العهد بعد ذلك موزَّعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُفيض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعه . وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب ، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يَقْسمه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنالات والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غُدُوِّه ورَواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

فيه عبد الحميد بما قرأه فى أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها فى كتبهم ، هى خلاصة تجاربهم فى حروبهم وسياسة حكامهم وملوكهم ، وقد شفعها بتعاليم الإسلام الزكية واطرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهى صياغة لا تكاد تفترق فى شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرنوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحول إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفترق عنهم فى شىء ، فهو يزاوج فى ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقتهم فى الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية[1] ، معتمداً فى ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ فى استخدام الحال ونشرها فى كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش فى الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فمعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهى شائعة فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مر بنا .

وليس من شك فى أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهى تتضح فى رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصل له ما ينبغى أن تكون عليه

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيْله من صفات ، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً . ومن هذا الباب رسالته (١) التي وصف بها الصيد ، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش ، وما وقعوا عليه من بعض الغُدْران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار ، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين .

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد ، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد . وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة ، فلم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تُسْنَد بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة : أجنبية وعربية . وأخذت تزْحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، إذ نرى عبد الحميد يُجْري قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد . ودائماً تروعنا براعته البيانية ، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة ، غير أنه ينبغي أن لا نمضي دون تقديم نموذج من كتابته ، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة (٢) التي كتبَ بها إلى أهله يعزِّيهم عن نفسه ، وهو منهزم مع مروان :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّت (٣) له بحَلاوتها ، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرَصته بأظفارها ، وعضّته بأنيابها ، وتوطأته بثِقلها ، قلاها (٤) نافراً عنها ، وذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرّها أفاويق (٥) استحلبناها ، ثم شَمَست (٦) منا نافرة ، وأعرضتْ عنا متنكرة ، ورمحتنا (٧) مولّية ، فملُح عذبها ، وأمرَّ

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤ .
(٢) الجهشياري ص ٧٢ .
(٣) درت : من الدر وهو اللبن .
(٤) قلاها : كرهها وأبغضها .
(٥) الأفاويق : ما يتجمع في الضرع من اللبن .
(٦) شمست : من شمس الفرس إذا جمح .
(٧) رمحتنا : من رمحه الفرس إذا ركله .

حلوها ، وخُشّن لينها ، ففرّقتنا عن الأوطان ، وقطّعتنا عن الإخوان ، فدارُنا نازحةٌ ، وطيرنا بارحة[١] ، قد أخذت كلّ ما أعطت ، وتباعدت مثلما تقرّبت ، وأعقبت بالراحة نصَباً[٢] ، وبالجذل[٣] هما ، وبالأمن خوفاً ، وبالعزّ ذُلاً ، وبالجدة[٤] حاجة ، وبالسرّاء ضراء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكةً بنا سبيل مَن لا أوبة له ، منفيّين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء » .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميّز بها في أسلوبه ومعانيه ، فالألفاظ منتخَبة وليس فيها توعّر ولا غريب وحشيّ ، وإنما فيها العذوبة والحلاوة . والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء ، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة . وهو يُعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به إلى ازدواج واضح ، ازدواج من شأنه أن يؤكّد المعاني بما يحمل من معادلات موسيقية تثبّتها في الذهن وتجلوها جلاء تامًّا . وهو يضيف إلى ذلك حلى من طباقات وتصويرات تُضفى على أسلوبه روعة بيانية خلابة ، بل إننا لا ندقق في القول حين نزعم أنه يضيف هذه الحلى ، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام ، وكأنها سَداه ولُحمته . والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر الأموي على كل ما كان يُنتَظر لها من رقى وإبداع فني .

---

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى اليسار ، والعرب القدماء كانوا يتشاءمون بها .

(٢) نصبا : تعبا

(٣) الجذل : السرور .

(٤) الجدة : الميسرة .

# خاتمة

## ١

### خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِه الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية، مبيّناً كيف أخرج العربَ من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً . وألمّتْ بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروبُ الردة تتبعها الفتوح وفتنةعثمان تتبعهُا حروب على . وتأثّر الشعراء بذلك كلهمستلهمين مثاليةَ الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا فى مدى تأثُّرهم واستلهامهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسَّ الدين روحه مسًّا عنيفاً ، ومنهم من مس روحه مسًّا خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحُطَيْئة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيقَ الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع فى الهجاء فحَسْبُه التهكم والسخرية. وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثّر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والنابغة الجعْدىّ فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواعظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض فى معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد و وَصْف الكون فى طرفيه من النَشْأة والدُثور ورَسْم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التى تحقّق للناس السعادةَ فى الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تَجْمع بين الطرفين. ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخطبون فى الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة فى معاملة الأمم المغلوبة . وسار فى نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبى طالب ، وكان خطيباً مفوّهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة فى صفوفه وفى الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة فى الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسَح طاقةَ النثر العربى فى صدر الإسلام ، ومدّ أطنابها مدّا واسعاً. وجَدّتْ بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذّكْر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة مواثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكرهم الجهشيارى وغيره . وتَحدْث الفتوح ، وتكثر الرسائل بين الخلفاء وقوّادهم وولاتهم ، كما تكثر المعاهدات ، وفى أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابى عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابى ، بما أخذ يحْمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثانى الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر فى هذا العصر ، ووقفت أولا عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع فى نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان. وكان سكان نجد وبوادى الحجاز يعيشون فى شظف من العيش هيأ بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العُذْرى العفيف وشيوعه . وحدثَ أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجاء . وكانت الكوفة مستقرّا للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطُبع شعرها فى جمهوره

بطابع شيعى حزين . وأخذت العصبيات تحتدم فى البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون فى خراسان ، فكثُر الشعر الذى ينطق عنها فى البيئتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفى الكوفة ، ومضت أسراب تتغنّى بالزهد أو بالمجون ، وأسراب أخرى تتغنى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة فى البصرة وبين جيوش الأزارقة فى فارس . ولم ينشط الشعر فى الشام إلا قليلا ، فإن أكثر ما أُنشد فيها وَفد عليها إما مع مُدَّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التى هاجرت إلى الشمال وإما مع بنى أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر فى المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تتقدَّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولاتها مادحين .

وكانت تؤثِّر فى الشعر الأموى مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب فى البلدان المفتوحة بالموالى ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبَّروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالى لُكْنات مختلفة وانتشر اللحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم فى الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام فى أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمِّسون للجهاد فى سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعِّمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعثت بينهم فرق الجَبْرية والمُرْجئة والقَدَرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه فى الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالى ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون فى قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكَثُرَ شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدَّاحون يَغْدون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمَّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْب والقطامى وكعب بن مَعْدان الأشقرى وزياد الأعجم . وسعرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرّغ والحكم بن عَبْدل وثابت قُطْنة . ومما لا ريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النقائض النابهون : الأخطل والفرزدق وجرير ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمِدْحة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء فى صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية فى الخلافة تدافع عنها وتذود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة فى حكمه إلى قريش لا إلى كَلْب وغيرها من القبائل اليمنية التى يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُّقَيَّات أهم من صدر فى شعره عن هذه النظرية. وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌّ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغى أن يتولاَّها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشيًّا ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين فى أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة فى الاستشهاد وزهداً قويًّا فى الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثّلهم عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌّ شرعى لأبناء على اغتصبه منهم الأمويون وينبغى أن يُرَدَّ عليهم ، وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فمضوا يبكونهم بدموع غزار ، مُحْفِظين الناسَ على أن يثأروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حَتْفهم ، كما مضوا يصوّرون عقيدتهم فيهم وما يكنُّون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتّلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثّلهم كثيّر والكُمَيْت. وكان كثير من أشراف العرب وخاصة فى الكوفة مَغيظين مُحْنَقين على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبّر عن ذلك ابن الأشعث فى ثورته وشاعره أعْشَى همْدان فى شعره واصطفَّ مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزَّبِير الأسدى الكوفى وعدىّ بن الرِّقاع الدمشقى .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها فى اتجاه واحد أو على الأقل

فى اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجى ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذَريح وجميل بُثَيْنة، وأصحاب الزهد من أمثال أبى الأسود الدُّؤَلى وسابق البربرى ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهندى ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرُّمَّة. ومن ذلك الرجَّاز، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطَّرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرَّوا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة فى العصر الأموى ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه فى أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب فى الخطابة حينئذ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌّ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن فى بيانه، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه. ونمتْ بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم ، وخيرُ من يمثّلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الدينى احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كى يؤثروا فى الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبَّتوه تثبيتاً قويًّا ، وهو أسلوب نهض على حُلّى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعانى . وقد مضوا يعلّمون الشباب فى البصرة والكوفة كيف يبرعون فى الخطابة والمناظرة، وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية، وخير من يمثّلهم الحسن البصرى .

ونَمَى التدوين فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، إذ دوّنوا معارفهم التى تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التى تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقه والمغازى وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات فى المثالب والأمثال والمواعظ والحِكم وفى مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة فى الكيمياء والطب والنجوم .

وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبدالملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الدينى الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعانى وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى يدبِّج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

## ٢

### تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم فى الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولا وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظَم ابن سلام المخضرمين منهم فى طبقات الجاهليين العَشْر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والحطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنابغة الجَعْدى وأبى ذؤيب الهُذَلى والشَّماخ ، وكلهم عاشوا فى العصرين الجاهلى والإسلامى. وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا فى الجاهلية . ثم مضى فى الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثى وشعراء القُرَى ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما فى الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والحطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنابغة الجعدى ، وترجمنا لحسان. ولم نترجم لأحد وراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعَدُّون فى الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثّر به الإسلام فى أشعارهم. ولم نُغْفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفى الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثّلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم فى الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بنى أمية وجدناه يسلكهم فى طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام، ومن يقرن مَنْ سمّاهم فى تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنينا بآخرين لم يجروا على لسانه ، لأنهم فعلا يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التى عاشوها ،ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثَمّ اهتمّ بجمهورهم صاحبُ الأغانى ، ففتح لهم فى كتابه فصولا طويلة ، وعُنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكمة . وكثرة من سمّاهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجّلة ، وهم غالباًمن نَجْد، وكأنه إنما عُنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثّلين بأشعارهم ومستشهدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بينة ، فقد سلك الراعى فى الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقل ، ويدنو عن طبقتهم درجات . وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به فى بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحَشْده فى هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخّره عن طبقته ووضع فيها بدلا منه ذا الرُّمّة الذى يتقدم جميع شعراء عصره فى وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُّمّة فى الطبقة الثانية وقَرن به فيها البَعيث والقطامى وكثيّراً ، والبعيث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جُعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وَثيل وأوس بن مَغْراء، ونَهْشل بن حرّى وحُمَيْد بن ثور الهلالى والأشهب بن رُميلة وعمر بن لَجأ التَّيْمى، وأبو زُبَيْد الطّائى والعُجَيْر وعبدالله بن همّام السَّلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدى، جميعهم مقلّون، ولا يمثّلون عصرهم لا فى أحداثه الجسام ولا فى تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل فى الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلا ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقَرَن بالمتوكل الليثى فى الطبقة السابعة ابن مفرّغ وزياداً الأعجم وعدىّ بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل فى الطبقة الثامنة عَقَيل بن عُلَّفة وشبيب بن البَرْصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك فى الطبقة التاسعة أربعة من الرجّاز هم : الأغلب العِجْلى وأبو النجم والعجّاج ورُؤْبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْلى ويزيد بن الطَّثْرِيَّة وأبى دُؤاد الرُّؤاسى والقُحَيْف العُقَيلى ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام فى طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا فى الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحّى كثيرين يُغنُّون فيه غناء محموداً ، مسوقاً فى ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثَمّ عُنى بشعراء نجد والبوادى ، ولم يكد يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يَفْضلونهم بما دفعوا إليه الشعرَ من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبى ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل فى عصره ، وأهمل معه العَرْجى وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بكُثَيِّر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى وشعراء المجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهِنْدى .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبة فى عهد بنى أمية . وقد ترجمتُ لكل من ذكرتهم آنفاً من أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثّل فى كل جانب من جوانب العصر وفى كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير مَنْ ترجمت لهم ناثراً فى الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع فى دراستهم . والذى لا شك فيه أن شعراء العصر الأموى تطوروا بالشعر فى جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نُطْقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

## فهرس الموضوعات

صفحة

# كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

## فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار
  عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

## فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى

الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة

- العصر الإسلامى

الطبعة الحادية عشرة ٤٩٦ صفحة

- العصر العباسى الأول

الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

- العصر العباسى الثانى

الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

- عصر الدول والإمارات (١)
  الجزيرة العربية-العراق-إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات (٢)
  مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات (٣)
  الأندلس

الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة

## فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى

الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة

- الفن ومذاهبه فى النثر العربى

الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

- التطور والتجديد فى الشعر الأموى

الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

- دراسات فى الشعر العربى المعاصر

الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة

- شوقى شاعر العصر الحديث

الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة

- الأدب العربى المعاصر فى مصر

الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات

- البارودى رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة

- الشعر والغناء فى المدينة ومكة
  لعصر بنى أمية

الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

- البحث الأدبى:
  طبيعته-ومناهجه-أصوله-مصادره

الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

- فى التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

## فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى

الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة

- فصول فى الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

## فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة السابعة ٣٨٠ صفحة

- المدارس النحوية

الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

## فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

## فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

## فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦

## فى سلسلة «اقرأ»

● العقاد — الطبعة الرابعة

● البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية

● معى (١) — الطبعة الثانية

● معى (٢) — الطبعة الأولى

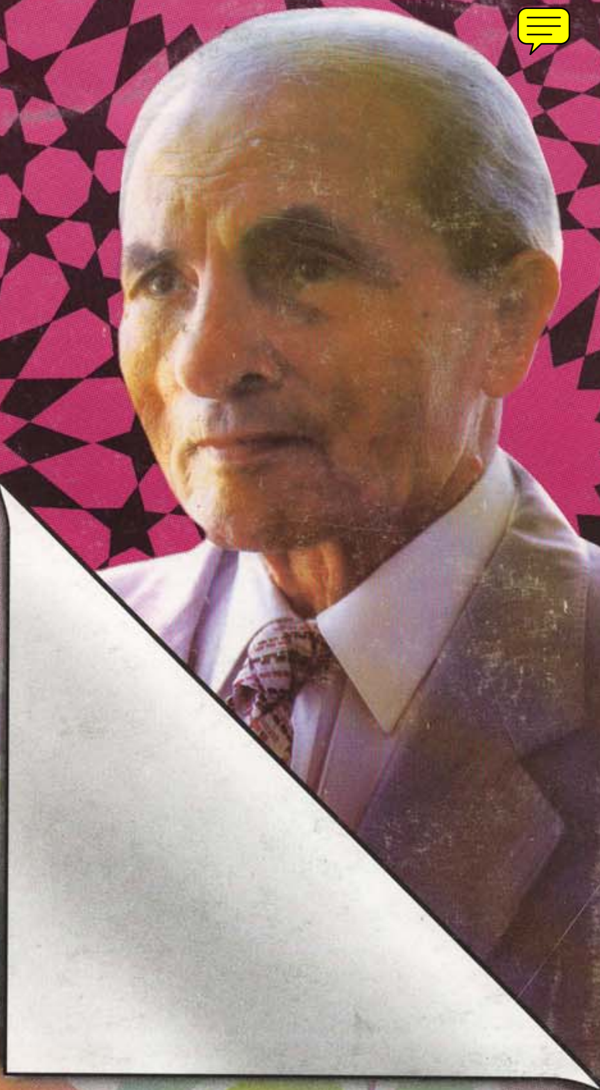
● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية

| | | |
|---|---|---|
| رقم الإيداع | | ١٩٨٩ / ٢٤٩٦ |
| الترقيم الدولى | ٩٧٧-٠٢-٢٦٢٦-٢ | ISBN |

١ / ٨٨ / ١٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





دكتور شوقي ضيف

# تاريخ الأدب العربي

# العصر العباسي الأول



دار المعارف

# العصرُ العبّاسىّ الأول

تاريخ
الأدب العربى
٣

# العصر العبّاسىّ الأول

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة السادسة عشرة



دار المعارف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا الجزءُ من تاريخ الأدب العربى خاصٌّ بالعصر العباسى الأول ، وكان طبيعيًّا أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التى فَرَضَتْ نفسها على الأدباءالعباسيين فَرْضًا ، سواء الحياة السياسية وما كان يَجْرى فيها من نُظم وظروف وأحداث مختلفة، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق فى المجون وزندقة وزهد ونسك ، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضْع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القولَ فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقًا ، نافذين بذوقهم المتحضِّر إلى أسلوب مصفًّى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحينًا يجمع بين الرقة والعذوبة . وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار فى عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التى لا تكاد تُحْصَى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعانى والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية. وفتحوا صفحة لم تكن تَخْطر لأسلافهم على بال ، هى صفحة الشعر التعليمى الذى صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر فى العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولتُ أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم فى تطور الشعر العربى وتجديده ، فأما بشار فسَنَّ للشعراء أن يزاوجوا مزاوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية. وكان تأثير هذه السيول فى أبى نواس أشد عمقًا وأكثر حِدَّة ، فتعمَّق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه فى اللهو والمجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفًا أفضى به إلى تنويع واسع فى أشعار الزهد والمواعظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشامخة مع التدقيق الشديد فى المعانى والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجًا رائعًا ، بحيث أصبح مَعْرِضًا باهراً لطرائف البديع وطرائف المعانى والأخيلة البارعة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور فى تطور الشعر فى العصر تطوراً يتفاوت قوة وضعفًا ، مما دفعنى إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووَضْعهم فى فصائل متقابلة ، والتمستُ لكل فصيلة صفوةَ مَنْ يمثِّلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاءِ والغزل والمجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلتُ أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثَقِفَهُ الوعَّاظ والمتكلمون والكتَّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعَّاظ وقَصص وقُصَّاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونمَّوه ورقوا به رقيًّا بعيداً . وازدهر النثر الديوانى وكلٌّ ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحبَّر الكتَّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراضَ التى كان ينظم فيها الشعراء والتى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبَّج نَفَرٌ منهم رسائلَ أدبية خالصة حلَّلوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حينًا ، وحينًا حاكوا قَصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُنيت برسم شخصيات أعلام الكتَّاب فى العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكَتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون فى كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرَع أحمد بن يوسف فى كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضْفياً على أساليبه كل ما يستطيع من صور التنميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنق والاقتصاد المسرف فى التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأنَّق فى كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القول وجزالة اللفظ ورصانته . واللهَ أسأل أن يُلْهِمنى السَّداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

شوقى ضيف

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م

# الفصل الأول

## الحياة السياسية

## ١

### الثورة العباسية

تُعَدُّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التى نشبت ضد بنى أمية ، وهى ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعى ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرِّفْق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محواً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح فى وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة ، فظلت تشتعل من حين إلى حين فى العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هَبَّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستيئسون أبداً ، وكان قد استقر فى نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغى أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذى لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصانعون فيه ولا يداهنون ، بل يشهرون سيوفهم باذلين أرواحهم فى سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الحنيف يقاتلون فى سبيله ، فيَقْتلون من خالفوا

الطريق السوىّ فى رأيهم ويُقتَلُون راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفى بالكوفة ، وقد تكفّل مصعب بن الزبير حين كان واليًا لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرمًا . ولم تقم للشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن على زين العابدين فى أول العقد الثالث من القرن الثانى ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتل على أثره ، كما قُتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب فى الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا فى ذلك ألوانًا من البؤس الذى يُطاق والذى لا يُطاق . فكان طبيعيًّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكّام جُدُدٍ يُقِرُّون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة فى جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها فى أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم ، غير أنهم فقدوا فى أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجرىء الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكْتَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضوون تحت ألوية أبناء علىٍّ وحدهم دون مَنْ سواهم من الهاشميين؟ لقد أخذوا يفكرون فى ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيتهم المبتغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التى تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم — الذى ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها — بلدة الحُمَيْمَة ببلقاء الشام ونزلها معه على بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبى هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها فى إثبات حقه فى الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَوًّا إلى تنظيم الدعوة العباسية سرًّا من مقرّه فى الحُمَيْمة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهداً لها ومركزاً[١] ، ووضع خطة تنظيمها هناك فى يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالى هناك يمتلئون سخطًا وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلمًا إلا ليقيموا مكانه ظلمًا أشد عنفًا . وقد اتخذ دعاته هناك من التجار وكانوا أخلاطًا من عرب وموال ، فمضوا يثيرون الناس هناك ضد بنى أمية مصورين ما ينبغى أن يسود فى الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن على مكانه بُكَيْر[٢] بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضًا بعظائم الأمور ، فوثّق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفى الإمام محمد بن على سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفّى على إثره بكير فخلفه على الدعوة صهره أبو سَلَمة[٣] الخلّال ، فجدّ فى الأمر وجدّ معه الدعاة .

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة ، وكان مدمنًا للخمر منادمًا للفُسّاق والمغانى ، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبى سلمة فى خراسان ، فقد بدا فى وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التى رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة . وتراءى حينئذ فى الأفق أن سلطان البيت الأموى يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضًا لما نشب من خلاف عنيف بين أفراده ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنًا مرًّا ، وتغلّب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهز الخوارج الفرصة ، فنازلوه فى الموصل وفى اليمن والحجاز .

وفى هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراسانى قيادة[٤] الدعوة فى موطنه ، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم فى النهوض بجلائل الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموى وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيملّكهم الأرض ويجعلهم

---

(١) انظر فى تنظيم الدعوة العباسية ڤلهوزن فى كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة أبى ريدة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبرى (طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٥/٣٧٦ .

(٣) ڤلهوزن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبرى ٥/٦٢٢ .

(٤) ڤلهوزن ص ٤٩١ .

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقّين والناس يسمعون له و يحفّون به و ينضمون إلى دعوته حتى كثف جمعهم وحتى غدا نزاله لنصر بن سيار والى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلا قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد — بدهائه — إلى الإيقاع بين الكرمانى ومَنْ معه من القبائل اليمنية و بين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسُفك فيها كثير من الدماء . حتى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى مَنْ وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط — واحدة إثر أخرى — فى يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة واليه على العراق أن يمداه بالنجدات ، ولكنهما كانا فى شُغل عنه بثورات الخوارج فى العراق وغير العراق ، ويموت كمداً بين الرى وهمذان . وتتقدم جيوش أبى مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصة المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهاً إلى الكوفة ، ثم يلتقى به فتدور عليه — كما دارت على نصر بن سيار من قبله — الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويُقْتَل قحطبة فى ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض — قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير — على إبراهم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذى يدبر هذه الثورة من مقره فى الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح . وقُتل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها فى أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون — طوال المدة السرية لدعوتهم — لا يذكرون للناس أنهم طُلاّب خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التى

طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لا اصلاح لها بعده إلا بمحوهم محواً . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقدموا القضية التى نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكى يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رضاً [١] من آل البيت النبوى ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوائهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كى يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذى لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبى العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلهم عزلا تامًّا عن جند خراسان ، غير أن أبا العباس استطاع الاتصال بأبى مسلم إذ وجَّه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبى سلمة ، فأرسل إليه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده [٢] له ، واتَّجه أبو العباس تَوًّا إلى المسجد الجامع فى الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشرأبَّت إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو يحتج بآى القرآن الكريم على أن بيته العباسى أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوعكًا فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثًا باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين فى تحرير الأمة من نير الأمويين [٣] ، ومن حكمهم الباغى الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه فى الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه إلى الحيرة وأخذ فى بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبا مسلم الخراسانى بأبى سلمة فدسَّ إليه مَنْ قتله [٤] .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن على عم السفاح ، فالتقت به على الزاب شمالى العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

---

(١) انظر الطبرى ٦/٢٧، ٧٩
(٢) الطبرى ٦/٨٥ ومروج الذهب للمسعودى (طبع دار الرجاء بالقاهرة) ٣/١٨٣ وتاريخ اليعقوبى (طبعة النجف) ٣/٨٦ .
(٣) طبرى ٦/٨١ وما بعدها .
(٤) طبرى ٦/١٠٣ والمسعودى ٣/١٩٩ واليعقوبى ٣/٨٩ .

ساحقة ، فولّى مع بعض فلول جيشه حتى حران وتركها إلى نهر أبى فُطْرس بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن على ، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبى فُطْرس ، فإذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحًا فما زال يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتى لقى حتفه فى بوصير من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ للهجرة . وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم فى واسط ، وقد ضُرِب من حوله الحصار ، حتى إذا جاءه نَعى مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين فى التسليم لهم ، وسرعان ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين ممن كانوا معه[١] .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموى فتكًا ذريعًا يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتى ليتخذ ذلك شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن على إذ دعا فى أبى فطرس نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتى انبرى بعض الشعراء يحرضونه على الفتك بهم ثأراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ، فأمر بهم جميعًا أن يُضْرَبوا بالعمد حتى يلقوا حتفهم[٢] نكالا لهم ولآبائهم . وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان[٣] ، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتى موتاهم لم يفلتوا من هذا العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبشت قبور خلفائهم — ما عدا قبرى معاوية وعمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحُرّقت بقايا جثثهم بالنار تحريقًا[٤] . وكان هذا البطش الذى لا يُبْقى ولا يذر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموى الذى كانت نفوس الرعية تمتلئ سخطًا وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرمهم من الإنصاف

---

(١) طبرى ٦/١٠٤ .
(٢) الطبرى ٦/٩٧ واليعقوبى ٣/٩٢ .
(٣) الطبرى ٦/٩٧ ، ١١١ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٤ .
(٤) المسعودى ٣/١٤١ واليعقوبى ٣/٩٣ .

والعدل الاجتماعى ، ولما ازدرى من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موئلا لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح – كما أسلفنا – الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هى بغداد .

## ٢

### بناء بغداد ثم سامرّاء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيبانى عنه وحسن بلائه [١] .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور – بثاقب نظره – أن يحوّل حاضرته من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذى يبتنى به مدينته المحصنة الجديدة ، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبته بقعة بغداد التى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورهبان ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فانبرى صاحبها يذكر له أنه يحفّ بها أربعة طساسيج [٢] : طَسّوجان فى الجانب الغربى هما قُطْرُبُّل وبادوريا ، وطسوجان فى الجانب الشرقى هما : نهر بوق وكَلْواذا ، فإن أجدب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحْمل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحمل فيه من متاجر البصرة التى

---

(١) الطبرى ١٤٧/٦ والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى ( طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة ) ص١١٦.

(٢) انظر الطبرى ٢٣٦/٦ وابن الطقطقى ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهوالناحية.

تأتيها من المحيط الهندى وأيضًا ما يحمل فيه من عروض أرمينية والجزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هى وسط فى سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسى وقال آخرون إنه اسم آرامى[١] ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله جلّ وعزّ ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تُضْرب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موئلا لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقى بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُّ حواليها أديرة كثيرة .

وعُنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته ، بل قلعته الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثَّل لهم صفتها التى فى نفسه ، وهى أن تكون مدوَّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لَبِنَة فيها بيده سنة ١٤٥ قائلا : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التى كانت لا تزال قائمة فى المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائمًا بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن إجمال وصفها فى أنه كان يستدير حولها خندق[٢] كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراءهما سور داخلى مبالغةً فى تحصينها . وفُتح فى كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام فى الشمال الغربى ويقابله باب البصرة فى الجنوب الشرقى على الصراة التى تأخذ من الفرات وتمضى حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان فى الشمال الشرقى بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة فى الجنوب

---

(١) راجع كتاب بغداد قديما وحديثا لمصطفى جواد وأحمد سوسة (طبع مطبعة المجمع العلمى العراقى) ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ومعجم ياقوت ومختصر البلدان لليعقوبى وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد فى عهد الخلافة العباسية لجى لسترانج ترجمة بشير يوسف فرنسيس (طبع المطبعة العربية ببغداد) وبغداد مدينة السلام لطه الراوى (طبع دار المعارف) .

الغربى . وكان على كل باب خارجى مجلس يُصْعد إليه على الخيل وقباب مذهبة فى رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجًا مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنى فى الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبنى بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم فى صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جُعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تمثال فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيرًا من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصراً صيفيًّا على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها فى قناتين بُطِّنتا وغُطِّيتا بخشب الساج حتى لا تلوِّثهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفى ضواحيها بعد ذلك القنوات. وفى سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدى أمامها شرقى دجلة ، جعل له سورًا وخندقًا ، ومن ورائهما قصر الرصافة بناه للمهدى . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرت الأبنية وضُمَّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرقى . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة فى الغرب والرصافة فى الشرق ، كما شملت أرباضًا ومحالّ كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرْخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاهى . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابتنى البرامكة كثيراً من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن اصبحت أهم مدينة فى العالم العربى ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصيارفة مستبدلى النقود وذاك سوق الورّاقين ، وهذا سوق بائعى الحلى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالجوارى من كل جنس . وأمَّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره ،

كما تزينها القوارب التى كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلالات وجعفريات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم فى عسكره من الترك وآذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم فى الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصدونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده فى موضع ناء عن بغداد ، حتى يبعد أذاهم عن العامة ، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرقى دجلة بين بغداد وتكريت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتراه من أصحابه ، وأخذ فى بنائها سنة ٢٢١ واختلف الباحثون فى اسمها ، كما اختلفوا فى بغداد ، فقيل هو اسم فارسى ، وقيل : بل هو آرامى[١] . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رأى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وابتدأ فيها ببناء قصره[٢] المسمى بالجوسق وابتنى بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابتنى دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابتنى لجنده قطائع فى المَطيرة جنوبيها ، واختطّ فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقًا خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربى ، وأنشأ بها كثيراً من المتنزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سببًا فى أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكد يتقدم القرن الرابع الهجرى حتى أصبحت أطلالا ورسومًا إلا ما كان من مسجدها الذى تأنق المعتصم فى بنائه حتى قال المقدسى إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق فى عمارته ، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

---

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص٧٦ ومادة سامراء فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) راجع فى تخطيط سامراء المرجعين السالفين والمسعودى ٤ / ٩ وكتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت .

## ٣

### النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذاناً بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت فى المجال الفارسى وعاشت تتنفّس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية فى تنظيم الحكم ، حتّى لنرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتدياً فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دَخْلهم وخَرْجهم مضبوط فيه لايشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صِفْه ، فوصفه المَرْزُبان . ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء[1] » .

وكان هذا الديوان الأصلَ الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولاته فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت فى أيدى هؤلاء الدهاقنة سجلاّت الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتّى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها فى العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية فى الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعرّبها ،

---

(١) ابن الطقطقى ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرَّب فى خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتوح فى العراق وخراسان بدهاقنة الفرس فى إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر فى الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدَّ فى اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعاً عند القوم فإنه لم يخطر بباله ، إذ أبقى الخلافة على أساس شورىّ انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام، فيجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك فى التأثر بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديواناً للخاتم وديواناً للرسائل محاكياً بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكاً ساسانياً ، فهو يحكم حكما مطلقاً وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى ، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحُماة له وحُرَّاساً . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة». وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً فى الأعيان والأموال فمنعه فى ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون — على شاكلة الساسانيين — فى وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم فهم « سلطان الله فى أرضه[١] » . وأحاطوا أنفسهم — على مثالهم — بنظام تشريفات معقد ، مختفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريفات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحجاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم. وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابه فى جانب ، وفى جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد[٢] والنِّطْع دائماً أمامه ، فمن غضب عليه أطاح برأسه توًّا .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحْسَبُ فيه أى حساب للرعية ، فهى أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أى شىء ، فى يده كل الأمر وكل السلطان، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالى غالباً من أهل بيته أو من أكفاء حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التى لمعت فى العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيبانى .

واتسع الخلفاء فى محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان فى كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقّى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولَّى عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند[٣] الذى كان يُعْنَى برواتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذى لعب دوراً خطيراً فى نهضة النثر العربى ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذى تُخْتَمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

---

(١) طبرى ٦/٣٣١ .

(٢) البيان والتبيين ( طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ٢/٣٢٩ .

(٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ( طبعة الحلبى ) ص٨٩ .

فى المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القِصص، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجرى فى الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون — فى عصرنا — أدق الشبه مراسلى الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحْصُون كل كبيرة وصغيرة للوالى ومَنْ وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة[1] . وقد أحكم هذا النظام للبريد إحكامًا دقيقًا ، فكان هناك رسل موقوفون على حَمْل تلك الأخبار فى سرعة شديدة على خيل مضمرات توجد فى عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد أُلِّفت من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهى كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة فى المشارق والمغارب .

وليس هذا كل ما أخذه العباسيون عن ملوك بنى ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضًا نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت فى القرآن الكريم يقول جَلَّ شأنه على لسان موسى : ( واجْعَلْ لى وزيراً من أهلى هرون أخى ) ومعناها فى الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطْلَقُ منذ فاتحة العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة فى إدارة شئون دولته . وهى وظيفة كانت معروفة فى الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون — لاحتجابهم عن الرعية — وسطاء يصرِّفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيِّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بُزُرْجِمِهْر وزير أنوشروان الذى عُرِف بحكمته وحنكته . وكأن العباسيين رأوا أن يجاروهم فى هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة فى تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ...

(١) انظر الطبرى ٦/٣٣٦ .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننَّة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحِجَى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمَّى كاتباً أو مشيراً »[١] .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسى ، وهو شىء طبيعى ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية .وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلاَّل حتى إذا قَضَى نَحْبه اتخذ السفاح بعده خالد بن بَرْمك ، وكان قد جَلَّى تحت لواء أبى مسلم فى حروبه ضد بنى أمية ، وأظهر بسالةً وحُنْكة حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد النوبهار البوذى فى بَلْخ . واتصلت وزارته فى عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووَلِيَ ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووَلِيَ المهدى بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفِّى المهدى وولىَ بعده ابنه الهادى ، فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن فى نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالا له قائلا : « يا أبتِ أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلَّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكمْ بما ترى واستعملْ مَنْ شئت واعزلْ من رأيتَ ، وافرضْ ( اعط راتباً ) لمن رأيت ، وأسقطْ من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شىء »[٢] ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحلُّ والعَقْد ، فقلَّد ابنه الفضل المشرق كله من النَّهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وقلَّد ابنه جعفراً المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية[٣] . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبنَى الحياض

---

(١) ابن الطقطقى ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ص١٧٧ والمسعودى ٣/٢٥٧ .

(٣) الجهشيارى ص ١٩٠ .

والمساجد وزاد فى عطاء القواد والجند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نُوّاباً عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه .

وظل يحيى البرمكى وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا هم المتصرفين أثناءها فى جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمداً ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير فى هذه النكبة ، فردّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقى يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوى ثائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفِّ أمانته[1] .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بنى سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية فى الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذى الرياستين : رياسة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكى يلى شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسيًّا وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبّر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهو لا يزال بمرو « يجلس على كرسى مجنّح ويُحْمَل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسى ونزل عنه ، فمشى . وحُمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلِّم ، ويعود فيقعد على الكرسى . وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحْمَل فى مثل ذلك الكرسى ويقعد بين أيديها عليه»[2].

فحتى تقاليد وزراء الساسانيين فى دخولهم على الأكاسرة وجلوسهم بين أيديهم كانت تُحاكَى محاكاة دقيقة . وكان من رَسْم ملوك الفُرْس أن يلبس أهل كل طبقة ممن فى خدمتهم لِبْسةً لا يلبسها أحد ممن فى غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

(١) انظر الطبرى ٦/٤٨٤ وما بعدها والمسعودى ٣/٢٨٤ والجهشيارى ص ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن الطقطقى ص ١٥٦ .

(٢) الجهشيارى ص ٣١٦ .

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو فيها» (١) . وطبق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاه الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زيٌّ ، فللقضاة زيٌّ ، ولأصحاب القضاة زيٌّ وللشرط زيٌّ ، وللكتّاب زيٌّ ، وللكتّاب الجند زيٌّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطّنة ، ومنهم من يلبس الدرّاعة(٢) ، ومنهم من يلبس القباء(٣) ، ومنهم من يلبس البازيكند(٤) ويعلق الخنجر ويأخذ الجرز(٥) ويتخذ الجمّة»(٦) . وكان الفقهاء يلبسون المبطّنة والطيلسان(٧) والقلانس (٨)

فتقاليد الساسانيين حوكيت حتى فى أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها فى شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التى تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع فى هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التى تتصل بالحكم الساسانى ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله فى هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل فى رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس فى السياسة والحكم على نحو ما يلقانا فى رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل — بعد ابن المقفع — المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التى تحمل تقاليد الساسانيين فى الحكم والسلطان وحقاً فُقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا فى حديث الطبرى عن الفرس فى أوائل تاريخه الكبير وفى مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى وفى عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية فى الدولة العباسية طُبعت بطوابع فارسية

(١) الجهشيارى ص ٣ .
(٢) الدراعة : جبة فارسية .
(٣) القباء : ثوب فارسى قصير .
(٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .
(٥) الجرز : آلة من حديد يضرب بها .
(٦) البيان والتبيين ٣/١١٤ والجمة : مايسقط على المنكبين من الشعر .
(٧) أغانى ( طبع دار الكتب ) ٥/٣٦٠ . والطيلسان : ثوب فارسى .
(٨) أغانى ٦/٢٩١ والقلانس : جمع قلنسوة وهى غطاء فارسى للرأس .

قوية ، تحولت فى أثنائها الخلافة ملكاً كسرويًّا يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذى لا يعرف رفقًا ولا لينًا .

## ٤

## العلويون والخوارج

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء عمهم العلويين ، وأيضًا فإنهم أرادوا أن يثبِّتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ، فهى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفًا عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن الرسول لا يورث فى ماله فضلا عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول : فاطمة ، وأبناء على ابن عمه. وردَّ عليهم العباسيون بأنه ينبغى أن يُرْجَع فى ذلك إلى أصل حكم الله فى المواريث ، وما فُرِض فيها من حَجْب العم لابن العم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه ، فهم يُدْلون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه ميراثه ، وهم لذلك أولو الأمر وأهله «خُصُّوا برحم رسول الله وقرابته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته »[1] . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نَصَّ على إمامة على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لجدهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك[2] .

وأخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمسّ به رحمًا وأيهما أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصد العلويين فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم. وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبث الدعاة له فى الحجاز والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجدَّ فى طلب العلويين ، وحجَّ ، فقبض على

---

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى ٨٢/٦ .

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

جماعة منهم، وأوثقهم بالحديد، وحملهم معه إلى الحيرة، وهناك ألقى بهم فى سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلا ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً. ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتى يعلن محمد بن عبد الله ثورته[١] ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن على زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده[٢]، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور، وهى أول ثورة للزيدية. ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم وينزل على أى بلد شاء. ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين فى رأيه قائلا: «إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا.. وإن أبانا علياً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء.. وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خُوَيْلد أول من آمن بالله وصلّى للقبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة». ولم يكد المنصور يقرأ هذا الكتاب حتى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلا: «بلغنى كلامك فإذا جُلُّ فخرك بالنساء لتُضِلّ به الجُفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة[٣].. وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقرابة قريبة، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤمّ (فى الصلاة) فكيف تورَث الإمامة من قِبَلها.. وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلّمه إلى معاوية بخِرَقٍ ودراهم، وأسلم فى يديه شيعته.. فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه.. ولقد خرج منكم غير واحد، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم، وأورثناكم أرضهم وديارهم.. ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

(١) انظر فى ثورة النفس الزكية الطبرى ١٨٣/٦ واليعقوبى ١١٠/٣ والمسعودى ٢٢١/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٠.

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧.

(٣) العصبة: الذين لا يرثون إلا مما بقى من أصحاب الفروض، يشير إلى أن جده العباس يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب.

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب»[١].

ولما لم تُجدْ المفاوضة أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشًا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل واحتُزّ رأسه وحُمل إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له فى البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند « باخَمْرَا » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقُتل ولاذت جموعه بالفرار ، وأُخذ كثير من العلويين فألقى بهم فى غياهب السجون[٢].

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين فى أيامه فإنه لم يقض على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سرًّا وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ، وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورثت ما كان فيها من تراث شيعى ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والاثناعشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى فى حياة أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتمًا إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه كما مات إسماعيل. ويتلو محمداً — عندهم — أربعة أئمة مستورون يعقبهم عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة القرامطة فى البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه موسى الكاظم الذى عاش بعده ، وسموا بالاثنى عشرية لأن الإمامة تتوالى — عندهم — فى اثنى عشر إمامًا هم : على فالحسن فالحسين فابنه على زين العابدين ، فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ فموسى الكاظم المتوفى فى سجن الرشيد سنة ١٨٣ فعلى الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ فعلى

(١) انظر فى هذين الكتابين المتبادلين بين المنصور والنفس الزكية الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٨٦ والطبرى ٦/١٩٥ .

(٢) راجع فى مقتل إبراهيم وحربه الطبرى ٦/٢٥٠ واليعقوبى ٣/١١٢ والمسعودى ٣/١٢٢ وابن الطقطقى ص ١٢٢ .

الهادى ، فالحسن العسكرى ، فمحمد المهدى المنتظر المتوفى حوالى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتنق — مثل فرقة الإسماعيلية — التقية ، فلم تجنحا إلى ثورة علنية ضد العباسيين فى هذا العصر ، وكأنما تركا ذلك لأبناء الحسن بن على بن أبى طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتنقون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين فى هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصبح حقاً للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمى وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آل إليهم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسى بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوى يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شُغلت بحروب وفتن داخلية ما زالت تنخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشْغل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم ولتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعى وأن حقه فى الخلافة مقدس ، ولو بغى وطغى وظلم ، وعليهم دائماً طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعة ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية فى الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية فى بنى هاشم بل يقيمها على الشورى ليتولاها الأجدر بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون فى تولية أبى بكر وعمر وعثمان، فأجدر المسلمين كفء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمى أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشىء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقاً إنهم عُنوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير فى المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرًّا وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعاً ، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة قُتل أو زُجَّ به

فى السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فما هى إلا أن تُعْرَف سريرته حتى يُنْكَبَ فتصادر أملاكه ويلقى به فى غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدى بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه — وكان زيدى الهوى — أحد العلويين من السجن وردّ حريته إليه ، فقد ألقى به فى السجن وظل سجيناً إلى أن شفع له يحيى البرمكى عند الرشيد فأمر بإطلاقه[١] .

وفى عصر الهادى خرج الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب فى مكة والحجاز ، فلقيه ومَنْ معه جيش عباسى بالقرب من مكة ، فى مكان يقال له « فخ » وقاتل قتالاً عنيفاً حتى قُتل ، وقُتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا فى العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان[٢] . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الأدارسة[٣] . وهرب أيضاً خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابه إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكى وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورقّ له فأطلقه دون إذن الرشيد[٤] مما كان سبباً فى نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى فى يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الاثنى عشرية ، وظل فى السجن إلى وفاته[٥] .

ونمضى إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن على بن أبى طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه[٦] . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعفو عنه المأمون[٧] . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعياً لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن على بن أبى طالب

(١) الجهشيارى ص١٥٩ والطبرى ٦/ ٣٨٤.
(٢) اليعقوبى ٣/ ١٣٧ والطبرى ٦/ ٤١٠ والمسعودى ٣/ ٢٤٨ والنجوم الزاهرة ٢/ ٥٩ .
(٣) اليعقوبى ٣/ ١٣٧ والطبرى ٦/ ٤١٦ والمسعودى ٣/ ٢٢٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ٤٠ ، ٥٩ .
(٤) اليعقوبى ٣/ ١٤٠ والجهشيارى ص١٩٠ والطبرى ٦/ ٤٥٠ ، ٤٨٥ والمسعودى ٣/ ٢٦٢ وابن الطقطقى ص١٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١١٥.
(٥) اليعقوبى ٣/ ١٤٥ والمسعودى ٣/ ٢٦٥ وابن الطقطقى ص١٤٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ٧٢.
(٦) الطبرى ٧/ ١٢٣ .
(٧) الطبرى ٧/ ١٢٥ وابن الطقطقى ص١٦٥ .

المعروف بابن طباطبا ويقضي على ثورته قضاء مبرماً[١] . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين فى دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيّن له — وهو بمرو — أن يعهد بالخلافة من بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن فى ترتيب الشيعة الاثنى عشرية وكان مثالا للتقوى والورع وكان المأمون يبجّله ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله ولىّ عهده من بعده ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبْس الخضرة شعار العلويين [٢] . ولم يكد يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعمه إبراهيم بن المهدى . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفى طريقه بطوس توفّى على الرضا ، فلم يتخذ وليّا لعهده من العلويين ، بل عاد إلى بنى العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل . وما إن وصل إلى بغداد حتى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفياً مدة حتى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مراراً[٣] ، وكان مما وثّق هذا العطف فى نفسه ثمامة بن أشرس النمرى مقدم المعتزلة فى مجالسه ، وكان شيعى الهوى ، ولعله هو الذى دفعه إلى أن يأمر منادياً ينادى فى الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من الصحابة ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه »[٤] وأيضًا لعله هو الذى دفعه إلى أن يكتب فى شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — على جميع الصحابة[٥] . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

---

(١) اليعقوبى ٣/١٧٥ والطبرى ٧/١١٧ والمسعودى ٣/٣٤٨ وابن الطقطقى ص ١٦٥ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٤ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) .

(٢) انظر فى بيعه المأمون لعلى الرضا كتاب اليعقوبى ٣/١٧٦ والطبرى ٧/١٣٩ والمسعودى ٣/٣٤٩ وابن الطقطقى ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٩ .

(٣) انظر الطبرى ٧/١٦٨ والنجوم الزاهرة ٢/١٨٣

(٤) الطبرى فى حوادث سنتى ٢١١ ، ٢١٢ وراجع النجوم الزاهرة ٢/٢٠١ .

(٥) الطبرى فى حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٣ وقد أوصى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتغاضى عن مسيئهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى . انظر الطبرى ٧/٢١٠ .

ثورة محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩ فقد خرج بالطَّالَقَان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ، وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر والى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على أثر ولا على خبر[١] .

وقد استأثر التشيع فى هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين . أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث لم يبق منهم إلى العصر العباسى سوى فلول فى أنحاء متفرقة بعُمان والجزيرة وخراسان وتونس . وكانت نظريتهم فى الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون أن تُرَدّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ، غير أنهم مضوا فكفَّروا المسلمين واستحلَّت بعض فرقهم لا دماءهم فحسب ، بل أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضَلُّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا السيوف متهمين إخوانهم فى الدين بالكفر والردة ، وبدلا من أن يتعاونوا معهم فى حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يمحوهم من الأرض محواً . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين فى حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التى لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم فى هذا العصر ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجُلُنْدى وقد جَرَّد له السفاح جيشاً جَرَّاراً بقيادة خازم بن خزيمة ، فقضى عليه[٢] . وفى عهد المنصور ثار ملبّد بن حرملة الشيبانى بالجزيرة فقضى عليه أيضاً خازم ابن خزيمة[٣] ، وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد[٤] بن حاتم المهلبى . وفى عهد المهدى ثار بخراسان فى طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم ، فتصدَّى له يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأسره فى جماعة من أصحابه ،

---

(١) اليعقوبى ٣/١٩٨ والطبرى ٧/٢٢٣ والمسعودى ٤/٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٠ .

(٢) طبرى ٦/١١٤ .

(٣) طبرى ٦/١٤١ .

(٤) اليعقوبى ٣/١٢٠ والطبرى ٦/٣٥٨ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدى ، فأمر بقتلهم وصلبهم[١] ، وثار بقنسرين عبد السلام الخارجى وقضى عليه بعض[٢] القواد . وفى عهد الرشيد ثار الوليد بن طريف الشيبانى بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمة ففتك به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرّد له الرشيد يزيد بن مزيد فى جيش كثيف ، فمحقه محقاً[٣] . وعاث حمزة الشارى فى خراسان ولقى حتفه[٤] ، كما عاث ثروان الحرورى فى ضواحى البصرة ولقى نفس المصير[٥] . وفى عهد المأمون خرج مهدى بن علوان الحرورى بسواد العراق وباءت ثورته بالفشل[٦] على نحو ما باءت ثورة بلال الشارى[٧] . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيبانى بديار ربيعة وقضاء أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى عليه[٨] . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون — حين يثورون — أن يُقْضَى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم فى هذا العصر وثوراتهم فى العصر الأموى ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ فى الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

## ٥

### أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبى العباس السفّاح إذ سرعان ما توفى سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فهو الذى أصّلها « وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس »[٩] ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله فى شمالىّ سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

(١) طبرى ٣٥٨/٦ واليعقوبى ١٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٢٧/٢ .
(٢) طبرى ٣٧٢/٦ وانظر النجوم الزاهرة ٤١/٢ ، ٤٢ .
(٣) طبرى ٤٦٥/٦ والنجوم الزاهرة ٩٢/٢ ، ٩٥ .
(٤) طبرى ٤٧٢/٦ .
(٥) طبرى ٤٢٥/٦ .
(٦) طبرى ١٤٢/٧ .
(٧) طبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة ٢٠٩/٢ .
(٨) اليعقوبى ٢٠٧/٣ .
(٩) انظر ابن الطقطقى ص ١١٦ .

فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فى جيش جرار ، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن على واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن على والى الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصورَ حتى أحفظه عليه . ومازال المنصور يمكر بعمه حتى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات فى حبسه [١] .

ولم يكن همّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبى مسلم الخراسانى وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علىّ أن يعود إلى خراسان ، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً داهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكراً خدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلا يزينون له المثول بين يديه ، فما زالوا به حتى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتقريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى مَنْ كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرّق فى جنده أموالا كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به [٢] .

وغضب أتباع أبى مسلم فى خراسان حين علموا بمصيره ، ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المُسْلمية أو الخرّمية [٣] ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلى فى جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته [٤] ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تسْرى فى نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدى وما زال به حتى خلع نفسه منها ، فصيّرها فى ابنه ،

---

(١) الجهشيارى ص ١٠٣ واليعقوبى ١٠٤/٣ والطبرى ١٢٤/٦ ، ١٤٥ ، ٢٦٩ والمسعودى ٢٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٧/٢ .

(٢) طبرى ١٣٠/٦ واليعقوبى ١٠٢/٣ والمسعودى ٢١٧/٣ .

(٣) انظر فى الخرمية وعقيدتهم المسعودى ٢٢٠/٣ والفرق بين الفرق (طبع مصر) ص ٢٥١ .

(٤) الطبرى ١٤٠/٦ والمسعودى ٢٢٠/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٥ .

وبايعه الناس(١) ، وأقرّت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادّعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفاقم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمة التميمى وفضّ جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيرًا ، فأمر بقتله(٢) .

وولى المهدى بعد أبيه سنة ١٥٨ وفى عهده تحركت الخُرَّمية حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبى مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته فى سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاًمن ذهب ركّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المقنّع الخراسانى . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبى وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبى مسلم . وبايعه خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، ووثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدى القواد وعلى رأسهم سعيد الحَرَسِىّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش على مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما فى القلعة من دواب وثياب ومتاع وألقى فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصّ سمًّا وأسقى نساءه وأولاده فتَلِفَ وتلفوا ، وبذلك خمدت حركته(٣) . أما الحركة الثانية فكانت فى سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الخرمية بجرجان تسمى المحمِّرة لحمرة راياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبدالقهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا فى الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمّر جنده(٤) .

وعظمت — فى عهد المهدى — حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدى فيها شرًّا مستطيراً يتهدّد كيان الدولة والإسلام جميعًا ، فجدّ فى طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦(٥) وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديوانًا يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكَلْواذانىّ(٦) ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالاً لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبى عبيد الله وبشار بن برد وتوفّى الكلواذانى سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حَمْدَوَيْه(٧) وهو محمد بن عيسى من أهل مَيْسان .

(١) اليعقوبى ٣/١١٥ والطبرى ٦/٢٧١ وابن الطقطقى ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٢/٧ ، ٥٣ .
(٢) اليعقوبى ٣/١١٥ .
(٣) طبرى ٦/٣٦٧ ، وابن الطقطقى ص ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣٨ ، ٤٥ .
(٤) اليعقوبى ٣/١٣٠ والطبرى ٦/٣٧٣ والنجوم الزاهرة ٢/٤٢ .
(٥) الجهشيارى ص ١٥٣ وقارن بالنجوم الزاهرة ٢/٤٥ .
(٦) الجهشيارى ص ١٥٦ والكلواذانى نسبة إلى كلواذا وهى قرية على بعد فرسخين من بغداد .
(٧) اليعقوبى ٣/١٣٣ والطبرى ٦/٣٩١ والنجوم الزاهرة ٢/٥٥ ، ٥٦ .

وفى عهد المهدى أغار الروم على سميساط (١) ونكّلوا بأهلها ، فجرّد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتوالى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلأ الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يؤدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون (٢) .

ومما يؤثر للمهدى إجراؤه الرواتب على المجذّمين . وتوفى سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادى ، وسار على سنته فى تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفى عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس فى صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه فى سنة ١٦٩ (٣) . واعتزم الهادى خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكى عرف — كما قدمنا — كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفى بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعَدُّ عصره العصر الذهبى للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة فى نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص المحكية عنه فى « ألف ليلة وليلة » أثر فى ذلك فإن مترجميها وواضعى بعض قصصها رأوا أن يدخلوه فى ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والترف والبذخ . وحفلت حينئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والجوارى من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كلِفاً بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقى : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحَجَّ ماشياً ، وكان إذا حجَّ حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

---

(١) سميساط : مدينة غربى الفرات فى طرف بلاد الروم .

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٥ والطبرى ٦/٣٧٩ والنجوم الزاهرة ٢/٤٧ .

(٣) اليعقوبى ٣/١٣٧ والنجوم الزاهرة ٢/٤٩ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه »[١] وكان إذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدّق من صُلْب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته[٢] ، وكانت أيامه تشبَّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفاً ما كان من حركات بعض العلويين والخوارج ، وفى عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمنية والمضرية وأطفأ نائرتها جعفر بن يحيى البرمكى[٣] ، وثار أهل الحوْف بمصر وقضى على ثورتهم هَرْثمة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية[٤] ، وثار المحمِّرة بجرجان وفضّ جموعهم على[٥] بن عيسى بن ماهان ، وانتقض الخزر فى القوقاز وأرمينية وقلم أظافرهم خازم[٦] بن خزيمة ويزيد بن مزيد الشيبانى ، وثار الخرّمية بأذربيجان وعصف بهم عبد الله[٧] بن مالك ، وثارت بلاد الزاب جنوبى الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك إبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنوياً ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له « العباسة » التى بناها جنوبى القيروان .

وامتنع نقفور إمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التى فُرضت على بلاده فى عهد المهدى ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه بردّ ما أدّوْه منها فى السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام[٨] » وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغانم كثيرة وافتتح هرقلة ، فارتاع نقفور وفزع فزعاً شديداً وتعهد بأداء الجزية صاغراً[٩] . ورأى الرشيد — فيما يقال — أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة فى غربى أوربا حتى يؤيده ضد إمبراطور

(١) ابن الطقطقى ص ١٤٣ .
(٢) طبرى ٦/٥٣٠ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ ، ٤٦٦ .
(٤) طبرى ٦/ ٤٦١ .
(٥) طبرى ٦/٤٦٦ .
(٦) طبرى ٦/٤٧١ .
(٧) طبرى ٦/٥٢٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٣٩ .
(٨) طبرى ٦/٥٠١ .
(٩) طبرى ٦/٥٠٩ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيده الرشيد ضد الأمويين فى الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة[١] .

وفى سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقمت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه فى سنة ١٩٢ . ولكنه توفى فى طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمّ إليه الولايات الشرقية ، وأكّد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسمهما على الوفاء به وتعليقه[٢] فى الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤتمن وضم إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسلطان حاكمين . فلم يكد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف[٣] بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق فى البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربى والفارسى ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثانى يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهى زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمّى مراجل . وما زال الحزب العربى — فيما يقال — يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيبه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه بخراسان ، وأخذا فى إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن (الترجمة العربية) ٢/ ٢١ وقصة الحضارة لول ديورانت ( الترجمة العربية ) ١٣/ ٩٤ .

(٢) الطبرى ٦/ ٤٧٥ والمسعودى ٣/ ٢٧٠ ، ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٢/ ١١٩ .

(٣) انظر فى هذا الخلاف الطبرى ٧/ ٢ والمسعودى ٣/ ٣٠٢ ، ٣٠٨ والجهشيارى ص ٢٨٩ وابن الطقطقى ص ١٥٩ .

ابن ماهان فى جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقى به فى الرىّ طاهر بن الحسين ، فقتله ومزّق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وحبسه ، غير أن بعض العسكر خلصوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويوليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل فى فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفى هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة فى طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالمجانيق فيكثر بها الحرق والهدم وتفضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترف المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصارى وابن الدريوش أن يقمعا الفساد وشذوذ الدُّعّار [1] ولكن أنّى لهما أن يدفعا ما تردّت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طوالا والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . ويبكى الشعراء من أمثال الخريمى بغداد بكاء مرًّا ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة فى يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرًّا من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل فى طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توافى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه على الرضا كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدى فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها فى شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكد يستقر فى بغداد حتى جعل من مجالسه ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفى مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسى يعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل فى عداد المشبِّهة ، وما توافى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

(١) طبرى ١٣٦/٧ وما بعدها .

بامتحان[١] الفقهاء فيها، فمن لم يقر بأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد. وتوفى ثمامة سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبى دؤاد أحد رءوس المعتزلة ، لا فى عهد المأمون فحسب ، بل أيضًا فى عهد المعتصم والواثق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفًا شديداً، فضُرب من لم يُقروا بأن القرآن مخلوق وأهينوا ورُدِعوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقيِّد وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحُملوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتى جاء الخبر بنعى المأمون ، فرُدُّوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت فى عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد فى إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولاَّه خراسان فى سنة ٢٠٥ فقضى على رءوس الفتن بها ، ويقال إنه فكر فى خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدَّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولاَّه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلى وضيق عليه الخناق حتى ألقى له عن يد طالباً الأمان[٢] لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة[٣] بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمنية المأمون ، واشتبكت الفئتان فى حروب دامية ظلت مضطرمة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس فى الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطْرهم فولَّوا وجوههم إليها واستولوا عليها. فرأى المأمون أن يولِّى على مصر عبد الله بن طاهر حتى يقمع ما بها من فتن وحتى يرد الأندلسيين

(١) انظر فى هذه المحنة الطبرى ١٩٥/٧ وما بعدها واليعقوبى ١٩٤/٣ وكتاب بغداد لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٢ ، ٢١٨ وما بعدها ، ٢٢٤ .

(٢) اليعقوبى ١٨٧/٣ والطبرى ١٧١/٧ ، وابن طيفور ص ٧٧ .

(٣) انظر فى أحداث مصر التالية الطبرى ١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة ٢١٠/٢–٢١٦ واليعقوبى ١٨٧/٣ – ١٩٢ .

عن الإسكندرية ، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش ( كريت ) فنزلوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد فى رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقرَّه المأمون على إمرتها ، وعزله فى السنة التالية وولَّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمنية ، وخرج لحربهم بالحَوْف فى ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل فى المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمنية والقيسية وهزموه هزيمة منكرة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه ، فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط فى مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لخمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فمهَّدها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يوماً .

وكانت قد اندلعت فى أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجَّه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسى سنة ٢١٢ فواقعه مراراً منكِّلا به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ فى بعض معاركه معه ، فخرَّ صريعاً[1] ، وكان لذلك رَنَّة حزن عميقة فى العالم العربى جعلت الشعراء يبكونه طويلا . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيبانى ، فاشتبكا معه فى غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن إمبراطور بيزنطة يعين بابك فى حروبه ، فاستشاط غضباً ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين[2] ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيبانى وجعفر الخياط ، ومضى فى بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل إمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان فى آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد، ولم يلبث أن لبَّى نداء ربه فى موضع يسمَّى «البُدَنْدون»

---

(١) اليعقوبى ٣/١٩٠ والطبرى ٧/١٨٩ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٩ .

(٢) انظر الطبرى ٧/١٨٩ وما بعدها واليعقوبى ٣/١٩٣ والنجوم الزاهرة فى السنوات ٢١٥–٢١٨ وكتاب العرب والروم لفازيلييف ( نشر دار الفكر العربى ) ص ٨٩ وما بعدها .

وقد حُمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل فى عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفَّف من حِدَّتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وآذوا العامة فى بغداد فبنى لهم سامرَّاء ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وفى أوائل عهده ثار الزُّطُّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف [١] بن عنبسة . وماتوافى سنة ٢٢٠ حتى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبى دُلَف العِجْلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً [٢] ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولا ، فتعالى التكبير ، وقُتل وعُلِّقت رأسه وأحْرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة — كما ذكرنا آنفاً — يضع يده فى يد بابك ، وحدث أن أغار على زِبَطْرة [٣] وأعالى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرَّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان [٤] الروم فى آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيبانى ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين ذُلاًّ وصغاراً ، وقد أخربوا فيما أخربوا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم فى عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامرته . وثار مازيار بطبرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التى حاربته مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقُتل وصُلب [٥] . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرًّا آملاً فى عودة دين آبائهما المجوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل فى سجنه حتى مات وصُلب بعد موته [٦] .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق ، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

---

(١) طبرى ٧/٢٢٥ واليعقوبى ٣/١٩٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٣ .

(٢) انظر الطبرى ٧/٢٢٦ وما بعدها واليعقوبى ٣/٢٠١ والمسعودى ٤/١٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٢ وما بعدها .

(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث فى الطريق إلى بلاد الروم .

(٤) انظر فى هذه الحملة الطبرى ٧/٢٦٣ واليعقوبى ٣/٢٠١ والمسعودى ٤/١٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٨ وفازيلييف ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٣/٢٠٢ والمسعودى ٤/١٦ والطبرى ٧/٣٠٢ والنجوم الزاهرة ٢/٢٤٠ .

(٦) اليعقوبى ٣/٢٠٣ والطبرى ٧/٣٠١ والمسعودى ٤/١٦ والنجوم الزاهرة ٢/٢٤٢ .

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون بأنه مخلوق . ولم تحدث فى سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب بعض الأعراب فى الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير [١] . وشَغب بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف [٢] التركى . وسرعان ما توفّى الواثق سنة ٢٣٢ للهجرة .

(١) طبرى ٣٢٢/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٧/٢ .

(٢) طبرى ٣٣١/٧ .

# الفصل الثانى

## الحياة الاجتماعية

١

### الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية ، وكان طبيعيًّا أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية ، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة .

وقد كشفت حفائر سامرّاء عن طريق بناء الدور والقصور لا فيها فحسب ، بل أيضًا فى بغداد ، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف[1] يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان ، وتتناثر فى الدهليز والفناء غُرَفٌ متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية ، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة . وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب ، وأكبرها جميعًا قبة الإيوان . وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب معدة للسكنى ، وتكثر الأساطين فى الأفنية ، وتكثر الشرفات وتلحق بها

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الحضارة الإسلامية لآدم ميتز ( الترجمة العربية ) ١٥١/٢ وما بعدها ، وراجع وصف إيوان قصر الأمين فى طبقات الشعراء لابن المعتز ( طبع دار المعارف ) ص ٢٠٩ ووصف إيوان قصر المعتصم فى الموشح للمرزبانى ص ٣٠١ .

بعض البساتين وبعض النافورات والبرك . وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوّن ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار ، وقد يذهّب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء ، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقبان والحامات المذهبة والأوانى المرصعة بالجواهر .

ولا ريب فى أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين ، وكأنما كُتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق . ومردُّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قُتِّر عليها فى الرزق ، فهى تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغَدِق الذى هيأ لكل هذا الترف ، فقد كانت تُحْمَل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفى أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم [1] وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير [2] . وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصَبُّ فى حجور الخلفاء ومن يحفّ بهم من بيْتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين . ونسوق من ذلك أطرافاً تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض فى الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها ، فقد رُوى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم فى كل عام [3] ، ويقال إن غَلّة

(١) المسعودى ٣/٢٣٢ .
(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢٧ والجهشيارى ص ٢٨١ وضحى الإسلام (الطبعة الأولى) ١/١١١ .
(٣) طبرى ٦/٣٢٧ .

الخيزران زوجة المهدى من إقطاعاتها كانت تبلغ سنويًّا مائة وستين مليونًا من الدراهم[١] ، وكانت إقطاعات محمد بن سليمان بن على العباسى والى البصرة تُدِرّ عليه كل يوم مائة ألف درهم[٢] ، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تُغِلّ له سنويًّا مليون درهم[٣] ، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلَّف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونُقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب ، بل قال : هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[٤].

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين ، ورَسْمُ المهدى لمروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور ، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين[٥] حين يطرب لبعض أصواتهم ، وتجاوز رسمه لمروان ابنهُ الهادى فأعطاه يومًا على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم[٦] ، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة[٧] ألف دينار . وكان الرشيد بحراً فياضاً ما ينى ينهلّ على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبى يوسف والأصمعى والكسائى ، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع ، ويقال إنه صار إليه فى عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم[٨] ، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله ، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار[٩] ، وطرب يومًا لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار[١٠] ، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلى فيقال إن صلاته له تجاوزت مائتى ألف دينار[١١] أما الأمين فقد تجاوز بصلاته كل حدٍّ حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمى الشاعر يوماً بمائتى ألف درهم[١٢] ، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلى ، فأعطاه ألف ألف درهم[١٣] ، وكان يعجب بمغنيةٍ تسمى بذلا ، فأنفق عليها أموالا طائلة ،

---

(١) المسعودى ٣/٢٥٧
(٢) الجهشيارى ص ٢٥٠
(٣) المسعودى ٣/٢٣٦
(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٧
(٥) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٦/٢٢ .
(٦) النجوم الزاهرة ٢/٦٤ والأغانى ١٠/٨٠ ويقال إن سلما الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشيارى ص ١٧٣ .
(٧) طبرى ٦/١٣٩ .
(٨) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ( طبعة دار الفكر ببيروت ) القسم الأول من الجزء الثانى ص ٥٨ .
(٩) أغانى طبعة ( الساسى ) ٢١/٧٧ .
(١٠) أغانى ٢١/١٤٤ .
(١١) أغانى طبعة ( دار الكتب ) ٥/١٩٢ .
(١٢) النجوم الزاهرة ٢/١٨٩ .
(١٣) أغانى ٥/٣٦٨ .

ويقال إنه أهداها من الجوهر ما لم تملك واحدة مثله[١] . وكان المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتى قالوا إنه فرق فى ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم[٢] ، ويروى ابن تغرى بردى أنه أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار ، وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة ، فعقب على ذلك بقوله : لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم[٣] وكأنما ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت فى أيدى المأمون وسابقيه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثراً .

ونافسهم الوزراء فى هذا البذل الواسع ، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد ، حتى ليقال إنه لم يكن يُرَى لجليس خالد البرمكى دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها[٤] ، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل فى هذا الباب فوق صنيعه درجات ، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد ، فملأوا منها أيدى العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال ، بل بالثروات الضخمة ، على نحو ما يُحْكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصلى يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً[٥] ، وأعطى يحيى البرمكى يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبتاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفُرشها ، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لزخرفتها ، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لنفقتها[٦] ، وبلغ — فيما يقال — ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار[٧] ، وكأنهم كانوا يبارون فيه الرشيد . وكان ينافسهم فى هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن مزيد الشيبانى وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسى وأبى دلف العجلى ، وآل طاهر وفى مقدمتهم طاهر نفسه ، ويقال إن صلاته بلغت يوماً ألفى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلاته يوماً هذا الرقم ، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف[٨] .

(١) أغانى (ساسى) ١٥/١٣٨ .
(٢) طبرى ٧/٢١٢ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٠٥ .
(٤) الجهشيارى ص ١٥٠ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٨ .
(٦) أغانى ٥/٣٠٨ وما بعدها .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/٧٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٢/١٩٥ .

وكان لهذه السيول التي كانت ما تني تسيل إلى حجور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون ، فقد كُفِي أصحابها مئونة العيش ، وكان منهم كثيرون يرتّب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة ، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثرى ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغني أربعة وعشرون مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجاري وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلاّت ضياعه[١] ، ويقال إن سلماً الخاسر خلّف حين توفي خمسين ألف دينار[٢] ، وما وصل الأصمعي من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد ، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضي من الرشيد ، ويقال إنه دخل عليه وفي يده درتان بديعتان يقلّبهما وينظر فيهما ، فقال له : هل رأيت أحسن منهما ؟ فأجابه : نعم الوعاء الذي هما فيه ، فألقى بهما إليه[٣] ، ويُرْوَى أن زُبَيْدة زوجة الرشيد سُرَّت بإحدى فتاواه فأهدته حقّاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً ، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثاني جام فضة مملوء ذهباً ، مع غلمان وتخوت من ثياب وبعض الدواب الفارهة[٤] . وسنعرض في الفصل التالي لما سكبه الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً .

وطبيعي أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب ، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة . ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن مجلس للمهدي كان يجلس فيه على فُرش موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية تلبس هي الأخرى ثياباً موردة[٥] ، وما يُرْوَى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعبق بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل[٦] ، وأيضاً ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد أنفِق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية ، إذ قيل إن أباها فرّق على حاشية المأمون رقاعا بأسماء كثير من الضياع وبدراً من

(١) أغاني ٥/١٦٣ .
(٢) أغاني (ساسي) ٢١/٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/١٨٢
(٤) المسعودي ٣/٢٦٠ .
(٥) الجهشياري ص ١٦٠ .
(٦) الطبري ٦/٥٣٧ .

الدنانير والدراهم كل بدرة عشرة آلاف ، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللا بالدر والياقوت ، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة[١] . وينوّه المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبَّه بالزُّهْرة لتألقها[٢] ، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات ، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة باليواقيت والأكاليل المرصعة بالدرر من كل لون[٣] ، ويصف بعض المغنين مجلس الواثق فيقول : « لم يزل الخدم يُسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رُواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الواثق في صدره على سرير مرصَّع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب »[٤] . وكان الوزراء وغير الوزراء من علية القوم يَحْيَوْن هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً ، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طُرَف ، ويصور ذلك — من بعض الوجوه — ما يُرْوَى عن الأصمعي من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكي في يوم بارد من أيام الشتاء « فإذا هو في بَهْوٍ قد فُرِش بالسَّمُّور ( ضرب من الفراء ) وهو في دَسْتٍ منه وعلى ظهره دُوَّاج ( ثوب ) سمّور أشهب مبطن بخزٍّ ، وبين يديه كانون فضة فوقه أثْفِيَّةُ ذهب في وسطها تمثال أسد رابض في عينيه ياقوتتان تتوقدان »[٥] .

وطبيعي أن يشيع في هذا الجو الزاخر بالترف التأنق في الملبس والثياب ، وقد عمَّ حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية ، ومرَّ بنا في الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زيًّا خاصًّا بها يميزها من الطوائف الأخرى . وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدُّرَّاعات والطيلسانات والشاشيات ، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبري ١٨٧/٧ واليعقوبي ١٨٦/٣ والمسعودي ٣٥١/٣ وابن طيفور ١١٤ وابن الطقطقي ص ١٦٧ .
(٢) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ٣٤٥/٥ .
(٣) المسعودي ٩/٤-١٢ .
(٤) أغاني ١١٦/٤ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف ) ص ٢١٤ .

مما جعل أبا دلامة مضحكه ينشده[١] :

وكنا نُرَجِّى من إمامٍ زيادةً ... فزاد الإمامُ المصطفى فى القَلانِس
تَراها على هامِ الرجال كأنّها ... دِنانُ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبرانِسَ[٢]

وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات الحريرية[٣] ، ويلبس المغنون قطوع الديباج والخزّ[٤] ، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتَّاب الخراج ألف دوَّاج من صوف وفراء[٥] .

واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر والروائح الأرجة التى كانت تستخلص من البنفسج والنرجس والنَّيْلوفر وغير ذلك من الأزهار ، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران .

وبالغ النساء حرائر وجوارى فى زينتهن وأناقتهن ، فكن يرفلن فى الثياب الحريرية ويختلن فى الحلى والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً وقلائد ، وقد ينظمنها على شعرهن[٦] أو على عصائبهن[٧] ، ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلَّى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار كان قد أهداه إليها الرشيد[٨] . وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن ، ويقال إن عَريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه فى كل غسلة بستين مثقالا مسكاً وعنبراً[٩] . وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصَّدف والصَّنْدل[١٠] ويعقصْنَه أو يُرْسلنه غدائر تنوس ، وقد يلوينه على أصداغهن فى هيئة النون أو هيئة العقرب ، وفى ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن[١١] :

أَصداغهنَّ مُعقْرَبا ... تٌ والشَّواربُ من عَبِيرْ

---

(١) أغانى ١٠/٢٣٦ .

(٢) الهام : الرءوس. جللت : غطيت . البرانس كالقلانس ، والشاشيات : أغطية للرأس .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٥ .

(٤) أغانى ٦/٢٩٣ وانظر ٥/٣١٧ .

(٥) الجهشيارى ص ١٤٩ . والدواج : من الملابس التى يلتحفُ بها .

(٦) طبرى ٦/٤٣٥ .

(٧) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٠/١٦٢

(٨) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٦/١٣٢ وانظر فى عقد آخر نفيس أعداه الواثق لفريدة الصغرى المغنية الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٤/١١٧ .

(٩) أغانى ( ساسى ) ١٨/١٨٧ .

(١٠) وكان الرجال يتخذون هذه الأمشاط أيضا . انظر كتاب البخلاء للجاحظ ( طبعة دار الكاتب المصرى ) ص ٥٣ .

(١١) ديوان أبى نواس ( طبعة آصاف ) ص ٨٣ .

وكنّ يلبسن جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج ، ويقول الجاحظ إن المرأة حين كانت تزوّج ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزىّ والوشى والقزّ والخزّ وتعلّق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظّم أمرها فى عين زوجها وأهله[١] . ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زُبَيْدة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودى إنها : « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصُنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوَشْى الذى اتُّخذ لها خمسين ألف دينار . . وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل . . ملبسة بالوشى والسمور ( الفراء ) والديباج وأنواع الحرير . . واتخذت الخفاف ( النعال ) المرصعة بالجوهر ، وشمع العنبر ، وتشبّه الناس بها »[٢] .

ولا ريب فى أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التى كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون[٣] . وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب فى الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش فى الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل فى القصور والضياع ، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء فى هذا النظام الذى كُفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى فى كثرة الثورات على العباسيين وخاصة فى إيران ، مما عرضنا له فى الفصل السابق ، وأيضاً لعله السبب الحقيقى فى تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى فى الأرض ، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها . غير أن المسألة لم توضع وضعاً سليماً صريحاً على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة

---

( ١ ) البخلاء ص ٢٥ . والمروزى نسبة إلى مرو . ويريد الجاحظ بالمعصفر الستور الحريرية التى كانت تعلق على الحيطان .

( ٢ ) المسعودى ٤/٢٤٤ .

( ٣ ) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .

باذخة مسرفة فى البذخ ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً ، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الخرمية التى استوحت آراء المزدكية والمانوية ، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية . وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً ، لأنها لم تضع للشعب اللافتات والشعارات الحقيقية التى يلتف حولها ويعمل من أجلها ،ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم فى البذخ والترف .

وقد هيأ هذا الترف لنشوء طبقة وسطى فى بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته ، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة فى البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم ، وأما الصناع فكانوا يتفننون فى صوغ التحف الثمينة . وكان مركزهم جميعاً فى الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم فى سوق أو شارع . وكانت رءوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقاً وسعة ، فنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار (١) ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وستمائة ألف من الدراهم (٢) ، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ فى صفقة واحدة مائة ألف دينار (٣) . وكان أكثرهم ثراءً البزّازين والعطّارين وتجار التحف النفيسة .

ومن أهم الجوانب التى يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة وصحاف الصينى المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة ، وتفنّن لهم الطهاة فى ألوان الطعام والشراب ، وكانوا يسمّون باسم ما يعدونه منها من خبّاز وشوّاء وطبّاخ وخبّاص وهو الذى يصنع الحلوى وشرابى وهو صانع الشراب وألوانه . وفى كتاب البخلاء للجاحظ حشد كبير من الأطعمة والمشارب وهى فى جمهورها فارسية ، فمنها السِّكباج وهو لحم يطبخ بخل مع شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطّباهج وهو طعام من لحم و بيض و بصل ، والشبّارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، ومنها الفانيذ وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن ، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر ، والفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، ومنها الجُلاّب وهو شراب من ماء الورد .

(١) البخلاء ص ١٠١ .
(٢) البخلاء ص ٣٤ .
(٣) الجهشيارى ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً فى إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيّات والمخلّلات الحرّيفة وصنوف النُّقْل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفستق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه من مثل التين والعنب والموز والكمثّرى والخوخ والرمان والإجّاص والسفرجل والتفاح ، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة ، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ .

ومما يدل على كثرة أفانين الطهاة فى الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون[1] ، وقد انبهر الأصمعى لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكى من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر[2] . ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبى خالد على طعامه يومياً ألف درهم[3] ، وهو نفس المبلغ الذى كان ينفقه إبراهيم الموصلى يومياً على طعامه وطيبه[4] .

ومن تتمة هذا الترف فى المطعم أن نراهم يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس[5] ، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه فى أثناء المضغ وأن لا يستأثر لنفسه بشىء من محاسن الطعام وأن لا يمسح فمه بكمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدى غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً .

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها ، وهى تعرف بآداب المسامرة[6] ، وكان لا بد للنديم من إحسانها ، حتى يخفّ على قلب منادمه ، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة فى الحديث فى ساعات صفوه وغضبه ، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة سالت عليه الصلات السنية ، ولذلك لا نعجب أن يصبح الحذق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطمحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهاء وكل من يريد الحظوة عند خليفة أو وزير . وتلمع فى هذا الجانب أسماء الأصمعى وأبى يوسف منادمى الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون .

---

(١) ابن طيفور ص ٣٦ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٤ .
(٣) ابن طيفور ص ١٢٣ .
(٤) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٥/١٦٤ .
(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ٣/٢١٤
(٦) المسعودى ٣/١٩٥ وما بعدها

وكان النديم يورد فى أحاديثه أخبار العامة ونوادرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية . وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة ، ومن أشهرهم أبو دلامة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى ، وله فكاهات كثيرة تدور فى كتب الأدب ، ومنهم ابن أبى مريم مضحك الرشيد « وكان محدثًا فكهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان» (١) ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافتون على جمع نوادره(٢) .

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة ، من ذلك سباق الخيل(٣) وسباق الحمام الزاجل(٤) ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل ، ومن ذلك المحاتة بين الديوك والكباش والكلاب ، ولعبُ أبى نواس بالكلاب هو الذى أتاح له التفوق فى وصفها بطردياته ، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجى ، ولعبة النَّرْد ( الطاولة ) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة ، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها ، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة ( حجارته ) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفَصَّاه ( الزهر ) يقابلان القضاء . ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل ، فقد هدَّد دِعْبِل ابناً لأحد طبَّاخى المأمون بأنه سيهجوه ، فقال له : والله إن فعلت لأخرجنَّ أمك فى الخيال (٥) .

ومن أسباب اللهو التى فُتن بها الخلفاء الصيد بالبُزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود ، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعاً ، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين بهرام جور(٦) ، وأولع به المهدى ، فكان يخرج إليه فى مواكب كبيرة ومعه الحرس والوُصفاء وبعض حاشيته ، ويروى أن على بن سليمان العباسى خرج معه يوماً فعرض لهما ظبى سانح ، فرماه هو والمهدى بسهمين ،

---

(١) طبرى ٦/٥٣١ .
(٢) الحيوان للجاحظ ( طبعة الحلبى ) ١/٦١ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٧ والمسعودى ٣/٢٧٩ .
(٤) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٤/٣٤ .
(٥) الديارات للشابشتى ص ١١٩ .
(٦) الحيوان ١/١٤٠ .

أما المهدى فأصابه وأما على بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أُرسل عليه وقتلاهما جميعاً ، فقال أبو دلامة متندراً (١) :

قد رمى المهدىُّ ظَبْياً شكَّ بالسهم فؤادَهْ
وعلىُّ بن سليما ن رمى كلباً فصادَه
فهنيئاً لهما كـ لُّ امرئٍ يأكل زادَه

وشُغِف بالصيد كل من جاء بعد المهدى من الخلفاء(٢) ، وكان يشغف به الفضل بن يحيى البرمكى شغفاً شديداً (٣) .

وكان للعامة ملاهيهم وفى مقدمتها الفرجة على القرَّادين والحوَّائين ، وكانوا يتجمعون حول قُصَّاص يطرفونهم بحكايات خيالية ، كما كانوا يتجمعون حول طائفة من الحكَّائين الذين كانوا يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب والنبط والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم ، ويصور الجاحظ عملهم ، فيقول : « إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخراسانى والأهوازى والزَّنْجى والسِّندى والأحباش وغير ذلك ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد ، وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طُرف حركات العميان فى أعمى واحد ، ولقد كان أبو دَبُّوبة الزنجى مولى آل زياد يقف بباب الكَرْخ بحضرة المُكارين ، فينهق ، فلا يبقى حمار مريض ولا هرِمٌ حسير ولا مُتْعَبٌ بَهِيرٌ إلا نهق ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دَبُّوبة فيحركها ، وقد كان جمع جميع

(١) أغانى ٦/٢٤٠ والمسعودى ٣/٢٩٧ وابن الطقطقى ص ١٣١ ، ١٣٣ .
(٢) انظر المصايد والمطارد لكشاجم ( طبع دار المعرفة ببغداد ) ص ٣ وما بعدها والجهشيارى ص ١٧٣ والطبرى ٦/٤٩٤ والأغانى ٥/٣٤٤ ، ٤١٨ ، ٧/١٥٨ .
(٣) المسعودى ٣/٢٨٤ .

الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد ، وكذلك كان فى نُباح الكلاب » [١] .

## ٢

### الرقيق والجوارى والغناء

كثُر الرقيق فى العصر العباسى كثْرة مفرطة بسبب كثْرة مَنْ كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب ، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة فى إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية ، وعظمت هذه التجارة فى الإسلام على مر السنين ، حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق[٢] ، وكان يقوم عليه موظف يسمَّى قيِّم الرقيق .

وكان الرقيق حينئذ يُجْلَبُ من بلاد الزَّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبى أوربا وكان الزنوج يعملون فى فلاحة الأرض غالبًا ، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة فى المنازل والقصور . وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحرَّرون ، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب فى الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره[٣] . وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قيل إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم[٤] ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى ، وما زال يشتريهم من أيدى مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضْطُرَّ أن يبنى لهم — كما أسلفنا — سُرَّ من رأى كى يجنِّب العامة شرهم وأذاهم .

وكان يَشيع بينهم الخِصْيان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خِصاء الإنسان احترامًا لآدميته ، ولكنه كان منتشراً فى العالم القديم بين البيزنطيين[٥] وغيرهم ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٩ .
(٢) المسعودى ٣/٣١٦ .
(٣) انظر الجهشيارى ص ١٢٥ وابن الطقطقى ص ١٢٩ .
(٤) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٥/٢١٨ .
(٥) انظر الحضارة البيزنطية لرنسيمان ( نشر مكتبة النهضة المصرية ) ص ٢٤٣ .

وما نصل إلى العصر العباسي حتى نجد القصور فى بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامى تكتظ بهم ، ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وزْرَه وإثمه. وقد اشتهر الأمين بكلفه بهم كلفاً شديداً حتى تندر عليه معاصروه[١] .

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور ، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والجوارى ماشاء، وبينما قيّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيّده بعدد منهن ، وإن كان قد حرم عليه بيع من يَستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم . وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل فى ذلك ، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر ، أما الجوارى فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم ، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم ، وصوّر ذلك الجاحظ فقال : « قال بعض من احتجّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهِيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شىء منها وعرفه ما خلا حُظْوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحُرّة إنما يُستَشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرْنَ من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيراً ، والرجالُ بالنساء أبصرُ ، وإنما تَعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تُحْسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة وكأن ساقها جُمّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخَر بها يكون الحب والبغض »[٢] .

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثّرن آثاراً واسعة فى أبنائهن ومحيطهن ، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملا بعيد الغور ، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، فالمنصور

(١) طبرى ٧/١٠١ ، ١١٠ .

(٢) رسائل الجاحظ (طبعة السندوبى) ص ٢٧٤ .

أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة ، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس . وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثّرن فى القصر منذ المهدى وكان بينهن من يعلقن الصُّلْبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم[١] . وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من الثياب والجوهر[٢] ، وكانت سِحْر وضياء وخُنْث من بينهن يشغفن قلبه ، وفيهن يقول ، وقيل : بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه[٣] :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِنانى ‏ وحَلَلْن من قَلْبى بكل مكانِ

مالى تطاوعنى البريَّة كلُّها ‏ وأَطيعهنَّ وهُنَّ فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوَى ‏ ـ وبه عَزَزْنَ ـ أَعزُّ من سلطانى

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللائى يلبسن لبس الغلمان[٤] ، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات[٥] ، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق[٦] .

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن ، حتى ليُرْوَى أنه كان لعتَّابة زوج يحيى بن خالد البرمكى مائة وصيفة ، لَبوسُ كل واحدة منهن وحليُّها خلاف لَبوس الأخرى وحليِّها[٧] . ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهن فى دور عِلْية القوم وفى دور النخاسة والقيان ويصوِّر كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجوارى يستصبين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية فى قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلا ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتوناً بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهى معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/١٦٢ .
(٢) أغانى ١٠/١٧٢ وانظر طبعة الساسى ١٦/١٣٢ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٣٤٥ .
(٤) المسعودى ٤/٢٤٤
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٣٨ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ٥/٢٨٨ ، ٧/٩٨ ، ١٢/٥١ ، ١٦/١٢ .
(٧) الجهشيارى ص ٢٤١ والمسعودى ٣/٢٩٧ .

الشعراء يتملّون بالجمال ومفاتنه ، وفى ذلك يقول أبو دلامة[١] :

إن كنت تبغى العيش حلوًا صافياً  فالشعرَ أَعْزِبْه وكُنْ نَخَّاسا
تَنَلِ الطرائفَ من ظِرافٍ نُهَّدٍ  يُحْدِثْنَ كل عَشِيَّةٍ أَعْراسا

وهى أعراس ظلت قائمة طوال العصر ، وظل الشعراء يختلفون إليها ، وكن أحيانًا يزرنهم فى دورهم ويبتْنَ عندهم ، وقد يشترى الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقًا بها وتظل تملك عليه كل شىء من أمره على نحو ما كانت تملك عُتْبة إحدى جوارى قصر المهدى قلب أبى العتاهية وجنان جارية الثقفيين قلب أبى نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف .

وكانت كثيرات منهن يثقّفن بفنون الآداب ، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث ، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم ، بل كان منهن من يتقنّ نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفى وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتى ألف درهم فأبى التفريط فيها[٢] لما كانت تَسْعر به قلبه من الحب المضطرم . وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجادة الغناء فكنّ فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت دنانير جارية البرامكة ومتيّم جارية على بن هشام أحد قواد المأمون وعَرِيب جارية الأمين والمأمون .

وكان للغناء فى الناس لهذا العصر أثر أى أثر ، فقد شغلوا به أى شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذى لا يؤثرون سواه لما يبعث فى نفوسهم من غبطة وابتهاج ، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بنى أمية ، إذ نرى ابن رامين الكوفى يستقدم مغنيات الحجاز[٣] ، ويقيم داراً واسعة يقصدها الناس . وما تنشأ بغداد ويُطلُّ عصر المهدى حتى تصبح داراً كبيرة للغناء ، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فجٍّ ، ونثرت الأموال عليهم نثراً ، بل كالتها كيلا . وأول من كالها من الخلفاء المهدى ، واقتدى به الهادى ، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين

---

(١) أغانى ١٠/٢٥٠ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ .
(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ١١/٣٦٤.

مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير[١] بن بابك ، وهو الذى طلب إلى إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن أبى العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهانى — فيما بعد — كتابه الأغانى عليها . وكان الأمين يعيش للسماع والقصف ، ويقال إنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم[٢] . وكان فى المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات ، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحق الموصلى ومخارق ، ويقال إنه اشترى عَرِيب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته[٣] ، وكان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته ، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغانى ، ويقال إنه اشتريت له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار[٤] .

ومن أبرز المغنين حينئذ إبراهيم الموصلى ، ويقال إنه خلَّف تسعمائة صوت صنعها ابتداء[٥] ، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزَمْر برصوما[٦] ، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات . ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال فيه إنه زِقُّ عسل حلو ، وطرب الهادى لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار[٧] . ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته ، وسمعه أبو العتاهية فقال له : يا دواء المجانين لقد رققت حتى كدت أن أحسوك ، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدْماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة[٨] . ومنهم عَلُّويه ، وكان يقول فيه الواثق : غناء عَلُّويه مثل نَقْر الطست يبقى فى السمع ساعة بعد سكوته[٩]

وأنبه المغنين فى العصر إسحق الموصلى ، وقد تلقن الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود عن زلزل ، وفى ترجمته بالأغانى أنه أعطاه على تعليمه له مائة ألف درهم . وكانت صنعته محكمة الأصول ، وكان يتصرف فى جميع بُسط الإيقاعات . ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير ، بل لعل

---

(١) كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ص ٣٧ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٣٨ .
(٣) أغانى ١٨/١٨٢ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٠ .
(٥) أغانى ٥/١٨٧ .
(٦) أغانى ٥/٢٤١ .
(٧) أغانى ٦/٣٠٣ .
(٨) أغانى (ساسى) ٢١/١٤٧ .
(٩) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٣٧ .

ذلك كان شأواً ارتفع إليه المغنون فى عصره ، فقد روى صاحب الأغانى أن مغنياً تغنى فى مجلس الواثق بصوت له ، فنظر إليه مخارق نظراً شَزْرًا حتى إذا خلا به قال له : « ويحك أتدرى أى صوت غنيت ؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمنزلة طريق ضيق وَعْر صعب المرتقى ، أحد جانبى ذلك الطريق حرف الجبل ، وعن جانبه الآخر الوادى ، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادى هَوَى ، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فتكسَّر »(١) . ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلَّم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار(٢) ، وكان سُراة بغداد يتهادونها كما يتهادون التحف الثمينة(٣) .

وبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه فى النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لنراهم يصنعون فيه ألحانًا وأصواتًا تنسب إليهم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك آنفًا عند الواثق ، وقد فتح أبو الفرج فى أغانيه فصلا بل فصولا طويلة(٤) لأبناء الخلفاء وما أُثر عنهم من أصوات ، وأشهرهم فى هذا الباب إبراهيم ابن المهدى وأخته عُليَّة وكان إبراهيم يُعَدّ فى كبار المغنين المحسنين ، وله أصوات(٥) كثيرة ، وكانت علية مثله تجيد الغناء وقد خلَّفت فيه ثلاثة وسبعين صوتاً(٦) . وممن برع فى الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله(٧) بن طاهر ، وأبو دُلف(٨) العجلى قائد المأمون المشهور .

وقد جعل هذا الغناء الذى ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجوارى المسمَّيْن بالقيان اللائى كن يتقنَّه ويدلعن ناره فى القلوب ونسيمه الحلو الصافى ، وقد مرَّ بنا ما بيعت به عريب مرارا وما بيعت به بَذْلُ وقلم الصالحية ، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان رُبَيْحة بمائة ألف والزرقاء بمائة ألف ثانية(٩) ، والثلاث

(١) أغانى ٥/٣٠٥ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٧/٣٠٠ .
(٣) أغانى ٥/٣٨٤ .
(٤) أغانى ١٠/٩٥ ، ١٦٢ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى ١٠/٩٥ .
(٦) أغانى ١٠/١٧٤ .
(٧) أغانى ١٢/١٠٦ .
(٨) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٩) أغانى ١٥/٦٢ وما بعدها .

من جوارى ابن رامين اللائى استقدمهن من الحجاز ، واشترى المهدى سرّا من أبيه المنصور بَصَبْص جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار[١] ، واشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم[٢] ، بينما اشترى على بن هشام أحد قواد المأمون متيَّم الهاشمية بعشرين ألف درهم[٣] .

وكانت هذه الأثمان الباهظة التى تدفع فى شراء الجوارى اللاتى يحسنَّ الغناء سببًا فى أن يُعْنَى المقيِّنين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة ، وجاراهم فى ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلى ، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء[٤]. وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجوارى والغلمان جميعًا ، ويقال إنه علم غلامين — لبعض أمراء البيت العباسى — الغناء نظير مائة ألف درهم[٥] . ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتثقيف ، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حَوْراء وبعض الجوارى المحسنات للغناء ، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغانى من نصه دائمًا على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى بغداد ولا فى الكوفة ولا فى البصرة سَرِىٌّ إلا عمل على أن يَقْتَنِى قينة أوقيانا يُشْعِنَّ المرح فى داره. وكان مَنْ لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقيِّنين إحدى قيانهم لتغنيه ليلة أو ليالى متصلة ، فالرواة يذكرون أنه كان لأبى النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة[٦] ، وكانت قيان بَرْبر فى الكوفة ما يزلن يختلفن إلى مطيع بن إياس ورفقته[٧] ، وبالمثل كانت قيان بغداد يُكْثِرْنَ من الاختلاف إلى دور الشعراء ، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن فى دور أصحابهن من المقيِّنين ، وكانت أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون ، وكثيراً

---

(١) أغانى ١٥/٢٧ .
(٢) أغانى ١٦/٣٤٢ .
(٣) أغانى ٧/٢٩٣ .
(٤) أغانى ٥/١٦٤ وانظر ٣/٢٥١ حيث اشترك مع يزيد بن حوراء فى تعليم طائفة من الجوارى فن الغناء .
(٥) أغانى ٥/٢٩٣ .
(٦) أغانى ( طبع الساسى ) ٢٠/٧٤ .
(٧) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٣/٣١١ ، ٣٢٢ .

ما كان يقع الشعراء فى حب بعض الجوارى المكتملات الخَلْق الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى على نحو استئثار ريم بقلب مطيع [١] بن إياس ، وعبادة بقلب عبد الله[٢] بن محمد البواب وعنان بقلب أبى النضير[٣]، وسلسل بقلب أبان[٤] بن عبد الحميد . وكن يتبارين فى جذب الشعراء بما يُشعن فى أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال .

وكثيرات من هؤلاء القيان والجوارى كن يحسن الرقص ، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظًّا واسعًا من الرقى على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورَسم من صفاته[٥] ، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة فى الملبس وما يستخدمن من قضبان مع ما يترنمن به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذن فيه آلات تسمى الكرَّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلَّقة بأطراف أقبية ، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن فى حرب[٦] ، وفى كتاب الأغانى أن الأمين كان يرتكض فى الكرَّج بصحن قصره ، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسُّرْنايات والمخنثون يَزْمرون ويُطْربون[٧] .

وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان فى المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظَّرْف ، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن ، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى وُدِّهم ، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذى يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان ، وكان لذلك أثره البالغ فى الشعر والشعراء ، فقد شاعت فى كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة فى الأزياء وفى العطور وآداب الطعام والسمر ، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها

---

(١) أغانى ١٣/٣٠٠ .
(٢) أغانى (ساسى) ٢٠/٤٤ .
(٣) أغانى ( طبع دار الكتب )١١/٢٨٦ .
(٤) أغانى ١٠/٤٨ .
(٥) المسعودى ٤/١٦١ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ( طبعة المطبعة البهية ) ص ٣٠٠ .
(٧) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٦/١٣٣ .

إلى معانى المودة والمحبة[١] ، وكان الجوارى والقيان يَكْلَفْنَ بالورود كلفاً شديداً ، ويروى أن متيم الهاشمية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها البنفسج جداً فكانت لا تخلى منه كمَّها[٢] . وكان لهذا الإعجاب والكلف أثره فى العناية بالأزهار والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً[٣] .

وكان الجوارى يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهم ، وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن ، وقد يفلِّجنه ويشقِّقْنَهُ بالمسك وغيره من أنواع الطيب ، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة ، تصور صبابتهن ، وفى أخبار المهدى أن جاريةً من جواريه أهدت إليه تفاحةً وطيَّبتها وكتبت عليها[٤] :

هَدِيَّةٌ منى إلى المَهْدِى تفاحةٌ تُقْطَفُ من خَدِّى
محمرَّةٌ مصفرَّةٌ طُيِّبَتْ كأنها من جنَّة الْخُلْدِ

واستغللن أبيات الحب والعشق كثيراً لا فى أحاديثهن فحسب ، بل فى كل ما يتصل بهن ، فكن يكتبنها على المناديل الحريرية التى يرسلْن بها تذكاراً إلى عاشقيهن ، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما يمسكن به من مراوح ، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى الوصائف من ورائه وقد تزينَّ بعصابات نُظمت فيها الدرر واليواقيت وكُتبت عليها أبيات فى صفائح الذهب ، مثل قول بعض الشعراء[٥] :

مالى رميتُ فلم تُصِبْكَ سِهامى ورميتَنى فأصبتَنى يا رامى

وقول آخر على لسان إحدى الجوارى :

أفلتٌ من حور الجِنانِ وخُلِقْتُ فِتْنة منْ يرانى

ويذكر إسحق الموصلى أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف

---

(١) أغانى ٧/١٧٠ .
(٢) أغانى ٧/٣٠٦ .
(٣) انظر على سبيل المثال وصف إبراهيم ابن المهدى للنرجس فى الأغانى ١٠/١١٥ .
(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٠٦ .
(٥) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .

يَتَخْتَلْنَ في حسنهن ، وبأيديهن مراوح نقشت عليها أبيات غزل مختلفة ، منها هذا البيت (١) :

أتهوون الحياةَ بلا جنونٍ فكُفُّوا عن ملاحظة العيون

وكن يتبارين فى التهادى بالتحف النفيسة ، من ذلك ما يُرْوَى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية على بن هشام فى يوم احتجمت فيه مِخْنَقَةً ( قلادة ) فى وسطها حَبَّةٌ — لها قيمة جليلة — كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب ، وغمستها فى الغالية (٢) .

وعلى هذا النحو كانت الجوارى والقيان فى هذا العصر من العوامل الفعالة فى انتشار الظرف والرقة فى المجتمع العباسى حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه ، وبذلك رقّت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهافاً شديداً .

٣

**المجون**

ورث المجتمع العباسى كل ما كان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون فى مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبًّا ويحتسون كئوسها حتى الثمالة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضّه على اجتنابها إذ يقول عزّ شأنه : ( إنما الخمر والميْسر والأنْصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ) . وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنبيذ التَّمْر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والبُرّ والتِّين (٣) . فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس ، وتهالك بعض الناس — إمعانًا فى

---

(١) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .
(٢) أغانى ٧/٣٠٦ .
(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١١٩.

المجون — على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء .

والمعروف أن الهادى أول خليفة عباسى أغْرِى بالخمر[١] ، وتبعه الرشيد[٢] ومن جاءوا بعده ، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحلَّلة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذى كان يعيش للخمر المسكرة يشربها أرطالا[٣] ، وكأنما كان فى قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشرابها متتابعاً ، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه ، حدَّث ابن المعتز أنه اصطبح بها يوماً مع أبى نواس وطائفة من ندمائه : « فأُتى بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب ، وقام سُقاة كالبدور بكئوسٍ كالنجوم فطافوا عليهم ، وضَربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها . فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره فى مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض ، ونشيد كالدرِّ المفصَّل بالعِقْيان ، وسماعٍ يحيى النفوس ويزيد فى الأعمار . فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار فى صوانىّ فأمر فنُثرت عليهم فانتهبوها والشرابُ — بَعْدُ — يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج » حتى إذا نام واستيقظ فى السحر طلب إلى أبى نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات ، فأنشده :

نَبِّهْ نديمك قد نَعَسْ ... يسقيك كَأْساً فى الغَلَسْ
صِرْفاً كأن شُعاعها ... فى كفِّ شاربها قَبَسْ
تَذَرُ الفتى وكأنَّمـا ... بلسانه منها خَرَسْ
يُدْعَى فيرفع رأسَهُ ... فإذا استقلَّ به نَكَسْ

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالى وينعم بنشوته[٤] ، غير مفكر فى وقار خلافة ولا فى دين ، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً .

والأمين فى خمره ومجونه ليس شذوذاً فى عصره بل هو امتداد لموجة حادَّة

---

(١) الجهشيارى ص ١٤٤ والطبرى ٦/٤٣٠ ، ٤٣٥ وقارن بالأغانى ٥/١٦٠ والطبرى ٦/٣٢٩ .
(٢) طبرى ٦/٤٨٩ وأغانى ٥/٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٩٩ وطبرى ٧/٢١٥ وأغانى ٥/٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٩٩ والمسعودى ٣/٣٠٥ .
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠ .

بدأها الوليد بن يزيد فى دمشق لآخر عصر بنى أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب فى الكوفة وبشار وأضرابه المُجّان فى البصرة . ومن الحق لو أن العصر العباسى لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولانحصرت فى حيز ضيق ، فقد أحسّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبُّون كئوس الخمر مترعة ، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة فى الشعر العباسى ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته ، على نحو ما هو معروف عن أبى نواس . ومن يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج يخيَّل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا فى إثمها تورطاً ، وكان منهم من يسرف فى شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة[1] أرطال دفعة واحدة . ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين اثنين ، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً ، ومن أجل ذلك استحبُّوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، بحيث لا يزيدون عن ذلك ، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب ، وفى ذلك يقول أبو نواس[2] :

ثلاثةٌ فى مجلسٍ طَيِّبٍ ... وصاحب الدعوة والضاربُ
فإن تجاوزتَ إلى سادسٍ ... أتاك منهم شغبٌ شاغبُ

وقد تفنن الشعراء فى وصف نشوتها وآثارها فى الجسد والعقل ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها ونُدْمانها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود ، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين ، وفى ذلك يقول أبو نواس خمريته[3] التى كان يعجب بها الجاحظ إعجاباً شديداً :

ودارِ نَدامى عطَّلوها وأدلجوا ... بها أَثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ[4]
مساحبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى ... وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابس[5]

---

(١) الحيوان ٢/٢٢٦ والأغانى ٥/٢٢٥.
(٢) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .
(٤) أدلجوا : ساروا الليل كله أو آخره . دارس : محو.
(٥) الزقاق: دنان الخمر. أضغاث: أخلاط .

حبستُ بها صحبي فجدَّدت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يومُ الترحُّل خامسُ
تُدار علينا الرَّاحُ فى عسجديَّة ... حَبَتْها بألوان التصاوير فارسُ[١]
قرارتُها كسرى وفى جَنَباتها ... مَهًى تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارس[٢]
فللخمر ما زُرَّت عليه جُيُوبها ... وللماءِ ما دارتْ عليه القلانس[٣]

وهى خمرية تقطر حنيناً وحبّاً للخمر ، فقد بثَّ فى مطلعها لوعة عشاق العرب إزاء الرسوم الدائرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيهم عندها وفاء لحق حبهم فيها ، حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبابته بتلك الدار وكيف حبس بها صحبه أياماً يتداولون كئوس الخمر التى كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادى وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب فى بطونهم من رحيق الخمر ومتاعها المتصل .

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص ، إذ تحول المقيِّنون فى كَرْخ بغداد وفى البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء ، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف ، ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقيِّن فى الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم الباهلى[٤] . وعلى شاكلتها دار إسماعيل القراطيسى المقيِّن فى بغداد ، وكانت مألفاً لأبى نواس والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية وغيرهم من الشعراء[٥] .

وكانت البساتين فى ضواحى بغداد تمتلىء بالحانات التى يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صَبَّاح التى وصفها مطيع بن إياس فى بعض شعره[٦] ، ويَرْوى الصولى أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشراب

(١) عسجدية : كأس ذهبية .
(٢) المها : البقر الوحشى . تدريها : تدفعها .
(٣) الجيوب : أطواق الثياب .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٣٦٤ ، ١٥/٦٧ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٩ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٢١ وانظر كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧ .

والمجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلو الخمر ، وغاب فيها طويلا ، فكتب إليه أبوه يتشوقه ، وما كان أشد عجبه حين أجابه بقوله[١] :

يا أَبي لا تَرْثِ لى من غيْبتى ... أنا فى خير ولهو ودَعَــهْ
ومعى فى كل يوم مُسْمِعٌ ... حاذقٌ يُطْربنى أو مُسْمعه
ونَدامى كمصابيح الدُّجَى ... كلهم يأْخذ كأْساً مُتْرعه
لا يبالى مَنْ لَحَا فى شُرْبِها ... أَبداً حتى يوارَى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان .

وكانت الأديرة تقدم لروَّادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والمجون من الشعراء وغيرهم ، وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وغيرها من مدن العراق ، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبى نواس[٢] :

يا دَيْرَ حنَّةَ من ذات الأُكَيْراحِ ... مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصاحى
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها ... يلعبْن منا بألبابٍ وأرواحِ

بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتى ، وفيه نراها تتحول فى العراق إلى دور واسعة للهو والعبث .

وكثير من دور الشعراء أنفسهم فى بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والمجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إياس ورفقائه فى الكوفة ودار بشار فى البصرة ودار أبى نواس فى بغداد . وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والمجون ، وهى أيام الأعياد : أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة ، يخرج فيها الناس للشراب

(١) الأوراق للصولى ، أخبار الشعراء ص٢٦ .
(٢) الديارات النصرانية فى الإسلام لحبيب زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ . وذات الأكيراح : موضع .

واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المساخر ، وكان منهم من يتهادون على صفحة دجلة فى القوارب الجميلة ومنهم من يبعد فى البساتين . أما أعياد الإسلام فهى عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة ، مثل عيد السَّدق وهو عيد مجوسى للنار وكانوا يوقدونها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين ، ومن أعيادهم عيد هرمزْد إله الخير ، وفيه يقول والبة بن الحباب(١) :

قد قابلتْنا الكئوسُ ودابرتْنـــا النحوسُ
واليوم هُرْمَزْدُ روزٍ قد عظَّمته المجوسُ

وأهم أعيادهم عيد النَّيْروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْجَ الحمل ، وفيه يقول أبو نواس(٢) :

أما ترى الشمس حلَّتِ الحمَلا وقام وَزْنُ الزمان فاعتدلا
وغنَّت الطير بعد عُجْمتها واستوفتِ الخمر حولَها كَمَلا
واكتستِ الأرضُ من زخارفها وَشْيَ نباتٍ تخاله حُلَلاَ
فاشربْ على جِدَّة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يومًا .

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضًا ، فمنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دَيْر الثعالب فى الجانب الغربى لبغداد وعيد دير أشمونى بـقُطْربُّل ، ومنها عيد الشَّعانين وكان عيداً قديمًا للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به فى قصر الخلافة ، إذ يَرْوِى أحمد بن صَدقة المغنى أنه دخل على المأمون فى هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزُنَّار حول أوساطهن وتزينَّ بالديباج وعلَّقن فى أعناقهن صُلبان الذهب وأمسكن فى أيديهن بالخوص والزيتون ، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه فى أبيات تصفهن ، تجرى على هذا النمط :

ظِبـــاءٌ كالدَّنانيرِ مِلاحٌ فى المقاصيرِ

---

(١) ابن المعتز ص ٨٨ وروز : يوم بالفارسية . (٢) ديوان أبى نواس ص ٣١٣ .

جلاهنّ الشَّعانينُ علينا فى الزَّنانيرِ[1]
وقد زرَّقن أصداغا كأذناب الزرازير[2]
وأقبلْن بأوساطٍ كأوساط الزَّنابيرِ[3]

وغناه فيها ابن صدقة ورقصت الوصائف فى أثناء الغناء ، وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتى تغشاه السكر[4] .

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية ، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية ، فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان فى ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين . وكان من أهم العوامل التى هيأت لذلك السلع التى كانت تباع وتشترى من الجوارى والقيان ، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة ، ولم يكن يشعرن إلا فى النادر بشىء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعَر ذلك فى قلوبهن النخاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والفتيان أموال السَّراة . وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفننَّ فى الحيل التى يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء ، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهن تكتفى برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : « ربما اجتمع عند القينة من معشوقيها ثلاثة أو أربعة . . فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سِرَّها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرُّمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ولا علم يدعو

---

(١) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كان يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزاً لهم .

(٢) الزرازير : جمع زرزور وهو طير مفوف الريش .

(٣) الزنابير : جمع زنبور وهو النحل .

(٤) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٩/ ١٣٨ .

إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه»(١) . ويمضى الجاحظ فيصور العلة التى جرّت إلى فُجْر القينة وتهالكها على الإثم وأوزاره، فيقول : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهى إنما تنشأ من لدنْ مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخُلعاء والمُجّان ومن لا يسمع منه كلمة جِدٍّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة، وتَرْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعدًا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة » .

وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذى كان يشيعه القيان والجوارى فى هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذى لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعًا ، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالا ،وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان ، بل مضى شعراء الفرس يستبدون به ، إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم ، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة والارتفاع عن الفجر الفاجر ، بل لعلهم كانوا يدفعونها إليه دفعًا ، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة ، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته فى الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه فى البصرة ، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية ، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكفّ عن غيّه، وتعالى صياحهم هم ونظرائهم حتى وصل سمع (٢) المهدى، فهدّده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يَرْعَوِ ، واضطرّ أن ينزل على مشيئته

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ .

(٢) انظر الأغانى ١٨٢/٣ وفى مواضع متفرقة من ترجمة بشار فى هذا الجزء .

وبكى ذلك طويلا فى أشعاره. على أن تدخل المهدى جاء متأخراً ، فقد عمَّ طوفان هذا الغزل لا فى البصرة والكوفة وحدهما بل أيضًا فى بغداد عند أبى نواس وأضرابه ، بحيث عُدَّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه .

وليس معنى ذلك أن الحياة فى بغداد كانت كلها مجوناً وتهالكاً على الفجر والعهر ، فإن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسرِّى الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها فى هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغى أن لا نبالغ فى تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نظن أن أهل بغداد جميعًا قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التى يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكَرْخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون فى غير استخفاء ولا حياء .

وقد أشاع هؤلاء المجان والخلعاء آفة مزرية هى آفة التعلق بالغلمان المُرْد ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وهو يصرح بذلك تصريحًا فى غير مواربة ولا استحياء[1] ، ويقال إنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس ، بل هو فى رأينا الذى يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقًا . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصيان فى بغداد وغيرها من مدن العراق ، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء . وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتاً للشباب والرجال ، ويُرْوَى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدَّم الخصيان وآثرهم ، فشاعت قالة السوء فيه ، ورأت أمه زُبَيْدة دَرْءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الخصيان فكن يختلفن بين يديه ، وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثيرون أن جاروه فى هذا الصنيع[2] ، وكن يسمَّين بالغلاميات ، وعمَّت هذه البدعة فى الساقيات[3] بالحانات ، ولعل ذلك هو السر فى أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٢٠ وانظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ١٦/ ١٤٢ .

(٢) المسعودى ٤/ ٢٤٤ .

(٣) أغانى ٥/ ٣٣٠ .

الجوارى بضمير المذكر . ومن تتمة هذا التبادل بين الجوارى والخصيان فى الزى والهيئة حينئذ كثْرة المخنثين بين المغنين والضاربين على الدفوف ، وكانوا يتشبهون بالنساء فى عاداتهن وثيابهن وضَفْرِ شعورهن وصبغ أظافرهن بالحناء[١] .

٤

**الشعوبية والزندقة**

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب ، حتّى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية ، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى ، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح ، يقول جلّ شأنه : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» [٢] .

وهذا بلا ريب مثلٌ أعلى أراده الإسلام لأمته ، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهده من حَرْب صِفِّين حتّى نرى العصبيات القبلية تعود جَذَعةً بين القبائل ، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة ، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية . وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادّة الدين فى معاملة الموالى ، فهم يرهقونهم بكثْرة الضرائب ، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، فلم يُؤْتِ عمله فى هذا الجانب أى ثمرة .

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً فى اضطغانهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية ، فشاركوا الخوارج والشيعة فى الثورة عليها ، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل[٣] بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها

---

( ١ ) أغانى ٤/٧ .
( ٢ ) البيان والتبيين ٢/٣٣ .
( ٣ ) أغانى ٤/٤١٠ وما بعدها .

الساسانيين الذين غلبوا على الأرض . وعظم حقد الموالى على الدولة ، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم ، والتفَّت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان ، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا ، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولى على أزمَّة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون .

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سبباً فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب — وفى مقدمتها الشعب الفارسى — للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة . وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواء وقد خُلقوا من تراب ويعودون إلى التراب .

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب ، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقَّصوا قدرهم وصغَّروا شأنهم ، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان ، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوَّضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة ، وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأىَ الشعوبية والتمادىَ فيه وطول الجدال المؤدِّى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وهى السلف والقدوة » [١] .

وكانت أهم مطاعنهم التى وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدوًا [٢] رعاةَ أغنام وإبل ، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم ، فأين هم قديمًا من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان ؟ وقد مضوا يُزْرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسىّ كما أزروا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة . وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصونها عليهم ويستقصونها ، وكان العرب بسبب أهاجيهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها فى ذمهم وأضافوا إليها مادة مُخْتَلَقَة صاغوها فى قصص وأشعار وأضافوها إليهم . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق فى السياسة وبين ما للعرب من حكم منثورة . وزعموا — فيما زعموا — أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله : « لأنا بهم أوثق منى بكم » [٣] والوضع فى هذا الحديث لا يحتاج دليلا . وحاولوا أن يستلُّوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم فى غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش ، فقال : نحن قوم من نبط كوثى [٤] .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يُذْكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس ، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوى الإخبارى المشهور ، وأصله من يهود فارس ، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب

---

(١) الحيوان ٧ / ٢٢٠ .

(٢) انظر فى هذه المطاعن البيان والتبيين ٣ / ٥ — ١٢٤ وكتاب العرب لابن قتيبة فى مجموعة رسائل البلغاء بتحقيق محمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والعقد الفريد ٣ / ٤٠١ وما بعدها .

(٣) انظر تيسير الوصول ٣ / ١١١ ، ١٢٧ .

(٤) انظر مادة كوثى فى معجم البلدان لياقوت .

وبلغ من فساد طويته أن طعن فى بعض أسباب[١] الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس من شك فى أن عنايته بتلك المثالب هى التى دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل ، وكان فى الوقت نفسه يُعْنَى بالكتابة فى فضائل الفرس[٢] . ومنهم عَلَّان الشعوبى الفارسى وكان منقطعاً إلى البرامكة ونَسَخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون ، وألَّف فى مثالب القبائل العربية كتاباً سماه الميدان[٣] . وكان يستشعر هذه النزعة فى أعماقه الكاتب الأديب سهل بن هرون الفارسى أحد صنائع البرامكة ، وقد أسْنَد إليه المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة ، وكان يتعصب على العرب تعصباً مسرفاً ، وصنف فى ذلك كتباً كثيرة[٤] ، وقد افتتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالة له أشاد فيها بالبخل وغضّ غضًّا شديداً من فضيلة الكرم العربية .

وأهم شاعر فى العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان فى عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس ، حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذى الجلال ، يقول[٥] :

أَصبحتُ مولى ذى الجلالِ وبعضهم ... مولى العُرَيْبِ فخُذْ بفضلك فافْخَرِ

وقد مضى يشنّ حرباً عنيفة على العرب ، وكان أبوه طيَّاناً يضرب اللَّبِن ، فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا — كما يقول الجاحظ — بذلك فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الرُّوم على نحو ما نجد فى قصيدته[٦] :

هل من رسولٍ مُخْبِرٍ ... عنى جميعَ العــربِ

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩ .
(٢) الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين ٣٠٨/١ والكامل للمبرد ص ٣٥١ .
(٣) الفهرست ص ١٥٣ .
(٤) الفهرست ص ١٧٤ .
(٥) أغانى ١٣٩/٣ .
(٦) ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٧٧/١ .

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم . وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدوًّا للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده .

وممن يُسْلَكُون فى شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمى ، ولم يكن جادًّا فى تعصبه على العرب وخصومتهم ، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغى أن ينحَّى عن جماعة الشعوبيين ، وأدخلُ منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية ، فهى شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات ، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا ، ويجعلها غاية الغايات من حياته ، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدِّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو فى الشراب والإغراق فى اللذات ، وله فى ذلك أشعار كثيرة . وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند ، من مثل قول أبى الأصلع الهندى يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند[1] :

لقد يَعْذلنى صَحْبِى وما ذلك بالأَمْثَلْ
وفى مِدْحَتِىَ الهِنْدُ وَسَهْمُ الهِنْدِ فى المَقْتَلْ
وفيه السَّاجُ والعاجُ وفيه الفيلُ والدَّغْفَلْ[2]

وينبغى أن نعرف أن الروح العربية — على الرغم من هذه الشعوبية — ظلت شامخة مسيطرة ، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشارى الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر . وقد ردَّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبى الأصبع الأموى فى تَصَدِّيه لعبد الله بن طاهر حين افتخر فى قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن

---

(١) الحيوان ٧/١٧١ .
(٢) الساج : نوع ثمين من الخشب ، والدغفل : ولد الفيل .

الحسين قاتل الأمين ، فقد نقضها نقضًا بقصيدته[١] :

لا يَرُعْكِ القَالُ والقِيلُ كلٌّ ما بُلِّغْتِ تضْلِيلُ

وتجرَّد نفر من الموالى أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة فى رسالته التى سماها « كتاب العرب» ومر بنا منذ قليل رأى الجاحظ فى أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعًا إلى الإلحاد فى الدين والزندقة .

وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هى تعريب لمصطلح إيرانى كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤوِّلون « الأفستا » كتاب داعيتهم زرادشت تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة مانى ومن فُتنوا بها من الفرس . وأخذ مدلول الكلمة يتسع فى العصر العباسى ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوسًا على دين زرادشت الذى ظهر فى ديارهم حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم[٢] ضمَّنها كتابه « الأفستا » وفيه زعم أن للعالم إلهين هما « أهورا مزد » إله النور خالق كل خير و « أهرمن » إله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم ، وأن النار مقدسة طاهرة مما جعلَ الإيرانيين يقيمون لها المعابد فى كل مكان . وظهر عندهم فى القرن الثالث الميلادى داعٍ يسمى مانى مزج فى تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية[٣] ، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهى النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات ، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنُّسك ، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠٤/١٢ وابن المعتز ص ٣٠٠ .

(٢) انظر فى تعاليم زرادشت الملل والنحل للشهرستانى (طبعة كيورتن) ص ١٨٥ وتراث فارس (الطبعة العربية) ص ٣٦ وفجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ١١٨ .

(٣) راجع فى مانى والمانوية الفهرست ص ٤٥٦ والشهرستانى ص١٨٨ ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى ص ١٢٢ وفجر الإسلام ص ١٢٤ .

كثيرة . وفى أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر فى إيران داع جديد هو مَزْدك وكان ثَنَوِيًّا(١) يؤمن بإلهى النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس ، وكان له — كما كان لمانى — أتباع كثيرون .

وقد عامل الإسلام والمسلمون المجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وبذلك ظلت المجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسى ، ومرَّ بنا ما كان من ثورات سنباذ والخرمية فى خراسان وأذربيجان وطبرستان ، وهى ثورات كانت تستوحى هذه الملل المجوسية السابقة ، وكانت تسرى فى نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سرًّا وجهراً ، وكانت المانوية أخطرها جميعًا لما كانت تأخذ به من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية ، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية فى السلوك وفى التخلق بالخلق الحسن ، وإن افترقت عنها بعد ذلك افتراقًا شديداً فى ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند .

وتنبه المهدى لانتشار هذه الملل المجوسية المارقة فى أمصار العراق ورأى فيها خطراً أى خطر على الدولة والإسلام ، فأمر — كما أسلفنا فى الفصل السابق — باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من تثبت عليه زندقته قُدِّم وقوداً لتلك الحرب التى ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد . ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطًا واسعًا فى نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنِّفون فى الدعوة لها وفى تعاليمها ، وأيضًا فهم وبعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملحدتهم مثل مَرْقيون(٢) وابن دَيصان(٣) ، يقول المسعودى : « أمعن المهدى فى قتل الملحدين والمداهنين فى الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومَرْقيون

(١) انظر فى مزدك والمزدكية الفهرست ص ٤٧٩ والشهرستانى ص ١٩٢ وفجر الإسلام ص ١٣٠ .

(٢) من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية وانحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلا كان فيه الملهم لابن ديصان ، وقد طردته الكنيسة سنة ١٤٤ م .

(٣) من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق المسيحية وشذ على تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة فطردته الكنيسة .

مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنَّف من ذلك ابن أبي العَوْجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المنانية[١] والديصانية والمرقيونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس» [٢] ويقول الجاحظ : « لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظُرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المنّانية والدَّيْصانية والمرقيونية .. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبَّأة في أيدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قِبَلهم كان أولها»[٣] .

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها ، فقد نصبوا لهم أيضًا حرب اللسان : لسان المتكلمين الذين مضوا يجادلونهم ويفحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع ، وصنفوا في ذلك الرسائل والكتب الطوال ، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليُورد رَدَّ النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسددون إليهم أدلة مصمية رادعة ، وكان للمعتزلة في ذلك القِدْحُ المعلَّى ، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما في شُبهِهم من زيف وتمويه وما في عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقي السليم .

وقد قُتل كثيرون من رءوس الزنادقة لهذا العصر ، يتقدمهم ابن المقفع الذي قُتل لعهد المنصور ، وفيه يقول المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[٤] » . وقُتل منهم كثيرون لعهد المهدي ، منهم — في بعض الروايات — صالح بن عبد القدوس[٥] ، وكان يعتنق المانوية ، ويحاضر فيها ويناظر فقُتل وصُلب على الجسر ببغداد[٦] نكالاً للناس وعظة ، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان ، وبلغ من تحمس المهدي لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله[٧] . وكانت

(١) النسبة إلى ماني إما مناني أو مانوي .
(٢) المسعودي ٤/٢٤٢ .
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .
(٤) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٣٤ .
(٥) يجزم ابن المعتز بأنه قتل في عهد الرشيد.
(٦) أمالي المرتضى ١/١٣٤ وانظر ترجمته في تاريخ بغداد ٩/٣٠٣ .
(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٤.

البصرة – فيما يظهر – أكبر وكْر حينئذ للزنادقة والملاحدة ، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس ، ونرى محمد بن سليمان العباسى واليها للمهدى يقتل من ملاحدتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم[١] بن أبى العوجاء وحماد[٢] عجرد « وكان عبد الكريم مانويًّا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة مانى وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس فى عقائدهم »[٣] ولما قُدم للقتل قال : « لئن قتلتمونى لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة »[٤] . وفى ذلك ما يصور جانبًا من دَسّ هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هديه الكريم . وقد تنبَّه لهم رواة الحديث النبوى فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلاقه . ومرَّ بنا آنفاً أن حماد عجرد كان ممن يؤلفون الكتب فى تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودى فى هذا الاتجاه يحيى بن زياد الحارثى ومطيع بن إياس ، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة ، وربما لم تثبت عليهما ثبوتًا قاطعًا .

واشتد الهادى مثل أبيه فى طلب الزنادقة حين ولى الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة[٥] من بينهم أحد أبناء عمه داود بن على ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب . وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة ، وممن تعقبهم يزيد[٦] بن الفيض ، ويونس بن أبى فروة وكان قد ألف كتابًا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام – بزعمه – وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالا كثيراً[٧] . وطلب الرشيد أيضًا على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرَّأ منها فأطلقه[٨] .

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعًا إلى المناظرة ، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة ، وكان يناظرهم هو نفسه أحيانًا[٩] ، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم

(١) لسان الميزان لابن حجر ٤/٥١ وما بعدها .
(٢) لسان الميزان ٢/٣٥٠ .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤٩ .
(٤) أمالى المرتضى ١/١٢٨ .
(٥) طبرى ٦/٤٠٨ وما بعدها .
(٦) طبرى ٦/٤٤٤ .
(٧) انظر أمالى المرتضى ١/١٣٢ والحيوان ٤/٤٤٨ والطبرى ٦/٤٤٤ .
(٨) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٤/١٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٤٦ .
(٩) الحيوان ٤/٤٤٢ .

أمر بقتلهم ، ويقال إنه بلغه خبر عشرة رجال فى البصرة يجتمعون على المانوية ، فأمر بحملهم إليه ، فلما أُدْخلوا عليه امتحنهم ، وحاول أن يردّهم عن ضلالهم ، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً(١) . ومرّ بنا فى الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التركى ، مما جعله يزج به فى غياهب السجن حتى مات وصُلب بعد موته .

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بنى العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة ، فكثرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية ، ويؤكد هذا تأكيداً قوياً وصية المهدى لابنه الهادى بتتبع الزنادقة ، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية(٢) . ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان فى المجون ولا كانوا يعاقبون عليهما عقاباً صارماً ، وكان حرياً بهم أن يشددوا فى ذلك حتى لا تؤول الحياة فى أمصار العراق إلى ما آلت إليه فى بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقى .

٥

### الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسى كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين . أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه ، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدى بأضوائه وتَجْرى على سَننه ، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا

---

(١) المسعودى ٣/٢٢٢.  (٢) طبرى ٦/٤٣٣ وما بعدها .

ثرية ، بل كانت تعيش على الكفاف ، بل كان كثير منها يعيش فى البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم . وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان فى المجون ، وهو سخط اتسع فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المُجَّان والعُهَّار ، وظلت من ذلك بقية فى سنتى ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوَّع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم[١] .

وإذا كانت حانات الكَرْخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجوارى والإماء والقيان والمغنين ، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعُبَّاد والنسَّاك وأهل التقوى والصلاح ،وكان فى كل ركن منها حلقة لواعظ يذكِّر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم. وكان من الوعَّاظ مَنْ يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد فى وعظه للمنصور[٢] وصالح بن عبد الجليل فى وعظه للمهدى[٣] وابن السماك فى وعظه لهرون الرشيد[٤] ومن كلامه : « الدنيا كلها قليل والذى بقى منها فى جَنْب الماضى قليل ، والذى لك من الباقى قليل ، ولم يبق من قليلك إلا القليل »[٥] .

وكان الوعظ فى هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة ، وهو التحام قديم منذ تميم الدارى وكعب الأحبار فى عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قُصَّاص الفتوح من أمثال أبى سفيان بن حرب . وقد ازدهر هذا الوعظ القصصى فى عصر بنى أمية عند الحسن البصرى وأضرابه ، وتكامل ازدهاره فى هذا العصر . وينبغى أن نميز بين هذا الضرب من القصص الدينى وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه فى طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلوهم بالنوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قُرنوا بأصحاب المساخر من مثل القَرَّادين[٦] . وقد كثُر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوى وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثْرة مفرطة[٧] .

---

(١) طبرى ١٣٦/٧ وما بعدها .

(٢) انظر عيون الاخبار ٣٣٧/٢ والعقد الفريد ١٦٤/٣ .

(٣) عيون الأخبار ٣٣٣/٢ والعقد الفريد ١٥٨/٣ .

(٤) طبرى ٥٣٨/٦ والعقد الفريد ١٦٤/٣ .

(٥) النجوم الزاهرة ١١٢/٢ .

(٦) انظر ما كتبه الجاحظ عن أبى كعب الصوفى فى كتابه الحيوان ٢٤/٣ وراجع التاج ص ٤٠ .

(٧) القصاص لابن الجوزى ص ١٨ .

وكان بجانب هؤلاء القُصَّاص الواعظون كثير من النساك ، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين فى كل الأمصار ، وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدى الذى لا يزول . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سُفْيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفُضَيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسُفْيان بن عُيَيْنة المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول : « فكرك فى رزق غَدٍ يكتب عليك خطيئة[١] » ويقول : « لا يمنعْ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله قد استجاب دعاء شَرِّ الخلق وهو إبليس ( قال رَب فأنْظِرْنى إلى يوم يُبْعَثُون قال فإنك من المُنْظَرِين ) » ، وكان يستحب أن يقال فى الدعاء : اللهم استُرْنى بستْرك الجميل[٢] . ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين فى عَبَّادان بالقرب من الكوفة ، وفيهم وفى رباطهم يقول أبو العتاهية[٣] :

سَقَى اللهُ عَبَّادان غَيْثاً مُجَلِّلاَ ... فإن لها فضلا جديدًا وأَوَّلا
وثَبَّتَ مَنْ فيها مُقِيماً مرابطًا ... فما إن أرى عنها له متحوَّلا
إذا جئتَها لم تَلْقَ إلا مكبِّرًا ... تخلَّى عن الدنيا وإلا مهلِّلا
فأَكرمْ بمن فيها على الله نازلا ... وأَكرمْ بعبَّادان دارًا ومنزلا

وقد أخذت تُقام فى هذا العصر رباطات أخرى فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت الدولة التى تقيمها أحيانًا ، ففى أخبار الفضل بن يحيى البرمكى أنه شخص إلى خراسان فى سنة ثمان وسبعين ومائة ، فبنى المساجد والرباطات[٤] .

ويدلُّ أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين

---

(١) عيون الأخبار ٢/٣١٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٥٨ .
(٣) ديوان أبى العتاهية ( طبع بيروت ) ص ٢١٨ .
(٤) الجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

النُّسَّاك مقدمات نزعة التصوف متمثلة فى شيوخ كثيرين ، فى مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البَلْخِيّ المتوفى سنة ١٦٠ ورابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخى تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم فى التصوف وعلوم الأحوال بكُورة خراسان وأن له يداً طولى فى إشاعة مبدأ التوكل[١] . ومن مشهوريهم معروف الكرخى من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مأثور كلامه : « مَنْ كابر اللهَ صرعه ، ومَنْ نازعه قَمعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ومن تواضع له رفعه »[٢] . ومن مشهوريهم أيضاً عَبْدك الكوفى وأبو سليمان الدارانى الشامى المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الحافى الخراسانى نزيل بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول : « الجوع يصفى الفؤاد ويُميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، والمتقلِّب فى جوعه كالمتشحط فى دمه فى سبيل الله ، وإذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلَّمْ[٣] » . وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين[٤] .

وينبغى أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج فى هذا العصر ، إنما أخذت مقدماته فى البروز والظهور ، أما تكونه التام فقد حدث فى العصر التالى ، أما فى هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النُّسَّاك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين فى العالم الإسلامى وخاصة فى العراق والشام ومصر[٥] ، ونحن لا نمنع التأثر العام ، ولكن ينبغى أن يستقر فى نفوسنا أن الزهد الإسلامى يختلف عن الزهد المسيحى فى جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لا يُقرُّ هذه الفكرة ولا ما تؤدى إليه من تعذيب الجسد ، فإن لبدن المسلم عليه حقاً ، ومن أجل ذلك نَهَى الإسلام عن العزوبة ، بينما دعت إليها المسيحية .

وقد حاول جولد تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ وانظر فى تاريخ وفاته ٢/١٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٦٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ .

(٤) كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ١٦٠ .

(٥) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣١ وما بعدها .

تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود[١] ، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند ، إذ رأى فى سيرة إبراهيم بن أدهم التى صوَّرها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا ، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلا مسكيناً فتدبر أمره ، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء سائحاً مطوِّفاً عابداً ربه[٢] . وهى سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة[٣] فلا يصح أن تُحْمل على العصر العباسى الأول ولا أن تتخذ دليلا على أن متصوفته كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك . وقد رأى جولد تسيهر الجاحظ يروى خبراً عن ناسكين سائحين[٤] فقال إنهما من ناسكى البوذية ، كى يدعم دعواه ، وهما من ناسكى المانوية .

والحق أن جولد تسيهر يبالغ فى كل ما رآه من هذا الربط بين مقدمات التصوف الإسلامى والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى . يمكن أن يكون قد حدث ذلك فى بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون[٥] ، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامى وما ارتبط به من نسك ، وآية ذلك القاطعة أن نظريتى الفيض ووحدة الوجود لم تمدا ظلالهما عليه حتى هذا التاريخ .

على أن هذا الزهد الإسلامى وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا فى أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهى تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له فى ذلك ما ليس لأحد[٦] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٣٦ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٤٣ .

(٣) قارن هذه السيرة التى حكاها جولدتسيهر بما قاله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢/٣٦ وهو من المصادر المتأخرة ، يقول : «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه شريفاً كثير المال والخدم والجنائب ( الدواب ) والبزاة ، فبينما إبراهيم يأخذ كلابه و بزاته للصيد وهو على فرسه يركضه إذ هو بصوت يناديه : يا إبراهيم ماهذا العبث ؟ ! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ورفض الدنيا . وانظر صفة الصفوة ٤/١٢٧ .

(٤) الحيوان ٤/٤٥٦ وما بعدها .

(٥) انظر كتاب فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ( طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٩١ .

ومعنى ذلك أن العصر العباسى الأول شهد لونين من الزهد : زهداً إسلاميًا خالصًا أعدَّ للنسك والتصوف ، وزهداً مانويًّا مارقًا ، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية ، إذ المانوية تتأثر بها — كما مر بنا — من قديم . وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس[١] .

(١) الحيوان ٤/٤٥٦ .

# الفصل الثالث

## الحياة العقلية

### ١

**الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي**

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا ومن المحيط الهندى والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالا ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجًا قويًّا ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التى هيَّأت لذلك نزول القبائل العربية فى الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها فى السكْنى وعن طريق المصاهرة وتسرِّى الإماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجوارى من كل جنس : سنديات وحبشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقلبيات ، وبحيث أصبح العربى خالص الدم فى بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجوارى والإماء ، وكذلك الشأن فى الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموى بين العنصر العربى والعناصر الأجنبية مزج روحى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسيًّا أو هنديًّا أو روميًّا أو قبطيًّا ويكون عربيًّا ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يحرّرون يجِدُّون ويعتلون المناصب الكبرى فى الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم فى الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يُكْفَلُ للناس من عدل ومساواة ، وحقًّا تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب فى تصريف شئون الدولة . وحتّى من لم يسلم من الموالى: من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج فى المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق — على مصاريعها — فى جميع شئون الحياة ، وحقًّا دخل جمهورهم الضخم فى الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام — بتعاليمه السمحة — أن يحدث امتزاجًا قويًّا بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تُسْلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعًا إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتّى أخذت العربية تسود فى كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضًا بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لا فى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب فى العصر الجاهلى: بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضًا فى البيئات النائية : فى إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرّب وتتعرّب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية فى الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففى إيران كانوا يتكلمون الفهلوية، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ،وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفى بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع — منذ غزو الإسكندر — فى الأوساط الثقافية بالشرق كله : فى إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع فى تلك الأوساط بشمالى إفريقية والأندلس .

ولا نكاد نتقدم فى كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم فى جميع أنحائها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ فى الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التى كانت تنتشر فى تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة فى حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور . وتتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبى حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى فى أكثر البيئات تعرباً أى فى العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية[١] . ولعل أهم لغة قديمة

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٧٦ وقد اشتهر فى أواخر عصر بنى أمية شاعر عربى بكثرة ما كان يدخل فى أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح : انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ .

ظلت حية هى الفارسية ، لا بين سكان إيران فحسب ، بل أيضًا بين سكان الأمصار فى العراق ، إذ زحفت إليها منذ عصر بنى أمية جموع كبيرة منهم ، وازداد زحفهم فى هذا العصر الذى علا فيه سلطانهم . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاصٍّ من قُصّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسْوارى إذ يقول : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين »(١) . وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها ، حتى لنراها تدور فى مجالسهم(٢) ، وحتى لنرى الأصمعى العربى القُحَّ يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس(٣) . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين فى الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة ، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة ، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس. ودخل العربية فى هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة فى أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والببغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج .

ولم تُفْسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتى على هامشها ، وكثيراً ما كانت تعرَّب بحيث تتفق واللسان العربى ، وقد ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفًا بها . ولم يكونوا يعمدون دائمًا إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التى لم يكونوا يعرفونها ، بل كانوا يحاولون فى أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع فى مدلولاتها ومعانيها القديمة . وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوِّماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٩ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/٧ .

وحقًّا أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدّون اللحن إحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجّلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحيانًا من بعض اللحن . وجمع من ذلك « يوهان فلك » فى كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومَن ْ ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشيًا فى أوساط المثقفين بل كان محدوداً جدًّا ، إذ مبلغ مايضاف إلى أى شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا فى النادر . وقد وقف يوهان فلك طويلا عندما ساقه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهى لكنات مردُّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة فى التكيف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غينًا والزاى والتاء والشين سينًا والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايًا أو ذالاً والحاء هاء والصاد سينًا والظاء زاياً واللام ياء. وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شىء إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى. وهذا نفسه يلاحظ فى اللحن فإنه إنما كان يشيع فى أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفى ذلك ألف الكسائى كتابه فى لحن العامة ، وهو مطبوع .

ومما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس فى هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا فى الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضًا فى أوساط العامة وبين العناصر التى لم تدخل فى الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات فى البيئات التى ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند ، وقد عُنى بنشر الثقافة الإغريقية فى كل البلدان التى افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية . وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة فى الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحَرّان وجُنْديسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأوائل وسنعرض لذلك فى موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه فى إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامى ، فاضطرمت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بتراثهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت مبثوثة فى البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعيًّا أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظَّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً فى الإسلام واندمجوا فى عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة[1] ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمَنية لايؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهم[2] ابن صفوان ، وظل المعتزلة —على نحو ما يصورهم الجاحظ فى كتابه الحيوان —

---

(١) انظر فى نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤ وما بعدها.
(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

يردون عليهم رداً عنيفاً[١] ، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتنق عقيدة السُّمَنِيَّة[٢] . وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها »[٣] إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفى شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعاقل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — إلى مانى والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهى فى الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت فى هذا العصر إلى الخرمية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً[٤] . وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد . وقد تأثرت المانوية — على نحو ما أشرنا فى الفصل السابق — بزهد البوذيين وطرقهم فى النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً فى المحيط العربى لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس فى الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم فى المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم . وكانت المجوسية لا تزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثَنَوية أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنوياً مانوياً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية فى المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع فى إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطى الذى كان يقع فى الأسر أو يباع فى أسواق النخاسة ، وكان تأثيره فى

---

(١) انظر مثلا الحيوان ٤/ ٧٠ وما بعدها .

(٢) أغانى ( طبع دار الكتب ) ٣/ ١٤٧ .

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .

(٤) الشهرستانى ص ٤٢ .

المجال العربى محدوداً ، وحقا أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضًا عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التى كانت سائدة فى المنطقة والتى حملت فى أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشآميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجرى فى كل ذلك من إيمان بالغيبيات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك فى الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ فى رسالته « الرد[1] على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيهم فى يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين فى حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فمن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة ، أما اليهود فمنهم الصباغون والدباغون والقصّابون والشعّابون ، وقد رسخ فى ذهن العرب أنهم أقذر الأمم . ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التى دخلت فى تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص فى وعظهم للعامة استغلالا واسعًا ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، فمضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدمًا بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعًا فى فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة فى الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقى فى روع بعض الضعفاء والعوامّ أن على بن أبى طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

---

(١) انظر هذه الرسالة فى ثلاث رسائل للجاحظ . نشر فنكل .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجهم وجادلهم المعتزلة فى هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب فى مجالسهم (١) ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية (٢) ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنى المعتزلة طويلا بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضًا . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفراً منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق (٣) . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى أنه كان من رءوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسى المتكلم ، وكان غياث يهوديًّا يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن (٤) وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جَرَّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرمًا على ما كان للأولين من مجد فى العصر العباسى الأول .

وقد شكا الجاحظ — على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق — من متكلمى النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديصانية والمرقيونة المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَبَرُّونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير فى الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريهم مما هيأ للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية فى المجتمع العباسى ، ولا نقصد اللقاح الدموى فحسب ، بل نقصد أيضًا اللقاح الثقافى ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعى أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٩ .

(٢) انظر الشهرستانى ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه فى اليهود طباع حتى قالوا فى الله : اشتكت عيناه فعادته ( فزارته ) الملائكة .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١ / ٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٢٨ وقارن ب ٢ / ١٨٧ .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجسد الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المجسدة[١] .

وكان للأناجيل تأثير — من بعض الوجوه — فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبثين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضًا فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . ومما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصارى لهذا العصر اندماجًا واسعًا ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتَّاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمنًا ورضًا دون أى عسف أو ظلم .

## ٢

### الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعًا قويًّا إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمُّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئًا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال[٢] ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضًا السنن والفرائض والنحو والعروض[٣] . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ١٨٠ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .

النور(١)، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمي الكتاتيب(٢) من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمي المقرئ وأبي صالح الإخباري. وخصّ الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم(٣)، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتّاب بين الشخصيات المضحكة في الأدب العربي، وممن كثر التندير عليه في هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوي الذي كان يتقعّر في كلامه مكثراً فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى في مكتبه بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات في خلافة المنصور(٤) وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره(٥)

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر. وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفي أخبار إبراهيم الموصلي أنه «أُسْلِم إلى الكُتَّاب فكان لا يتعلّم شيئاً، وكان لا يزال يُضْرَبُ ويُحْبَس ولا يَنْجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء»(٦) ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بني سُلَيم ابن رآه مسنّاً كان يدع الكُتَّاب ويلعب بالكلاب، فكتب أبوه إلى معلمه(٧):

تركَ الصلاة لأَكلبٍ يلهو بها ... طلبَ الهِراش مع الغُواةِ الرُّجَّسِ
فاذا خلوتَ فعَضَّه بملامة ... أو عِظْه موعظة الأديب الأَكْيَسِ
وإذا هممت بِضَرْبِهِ فبِدِرَّةٍ ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبِسِ

وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة، لا تتجاوز أحياناً بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً، حتى لقد ضُربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت.

وكان بجانب معلمي أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، كان منهم اللغوي والإخباري والفقيه والمحدث والمقرئ، وكانوا أحسن حالا من معلمي

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨١.
(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ٢٧١.
(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد.
(٤) المعارف ص٢٧٢.
(٥) الفهرست لابن النديم ص٤٣٥.
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/١٥٧.
(٧) الحيوان ٢/٨٤ وانظر عيون الأخبار ٢/١٦٧.

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول فى جمهورهم : « يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا وقَسَّامًا فَرْضِيًّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما »[١] . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسى والقواد والسَّراة فقد كانت تُفْرَض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون فى خَفْض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبى معلم المهدى وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، والكسائى معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبى الأمين ويقال إنه أعطاه يومًا ثلاثمائة ألف درهم[٢] ، ومنهم اليزيدى يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميرى خال المهدى ومن أجل ذلك لقب باليزيدى ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت فى هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المِرْبَد ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمرينًا لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفَّاة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب[٣] . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار[٤] .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتًا للعبادة فحسب ، بل كانت أيضًا معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلَّقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يأخذ فى إلقاء محاضرته أو إملائها ، وفى الحلقات الكبيرة كان يردّد مستملٍ كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه فى الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (نشر الخانجى) ص ١٤٧ .
(٣) الحيوان ٦/٢٣٩ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٥٠ .

الخاصة ، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلّق كثيرون فى حلقات اللغويين والنحاة ، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابى الكوفى زهاء مائة شخص[١] ، وكثيراً ما كانت تدور فى تلك الحلقات هى الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يُرْوى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائى فى حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة[٢] . وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم[٣] .

وهذه الحلقات الكثيرة التى لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع والتى كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاهما فكثرة العلماء المتخصصين فى كل علم وفن ، حتى ليُرْوَى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى[٤] ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة .

وتلك هى الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوّعوا معارفهم تنويعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً فى كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة فى البصرة

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/١٣٠
(٢) إنباه الرواة ٢/٣٧ ومعجم الأدباء ١١/٢٢٨.
(٣) الموشح ص ٢٨٩ .
(٤) معجم الأدباء ١٩/٢٣٨ .

اسم المسجديين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار فى أى شىء يعنّ لهم ، وقد عرض الجاحظ فى كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال[١] . وكانت لهم سوق نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويروّحوا عنهم فى ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به فى المجتمع العباسى هو الذى جعل الجاحظ وغيره يحوّلون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر فى الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم فى ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سنّ ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدى فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدّون إليه الرحال من كل بلدة[٢] ، واحتذاه فى ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعى يوماً بمائة ألف درهم[٣] وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفراً البرمكى وصله بخمسمائة ألف[٤] . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين ، وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم[٥] . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم فى كل شهر[٦] .

وليس من شك فى أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب فى ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبزغ نجمه فى حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تُسْبَغُ عليه وإذا الرواتب تُفْرَض له شهريًّا . وحقًّا كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٤ .
(٢) إنباه الرواة ٢/٣٤ .
(٣) طبرى ٦/٥٤١ .
(٤) إنباه الرواة ٢/١٩٩ - ٢٠١ .
(٥) إنباه الرواة ٣/٣٤٩ وما بعدها .
(٦) إنباه الرواة ٣/١٦ وما بعدها .

أو التجارة كأبى حنيفة وكان بـزَّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجراً ، بل لقد كان متجراً رابحاً .

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعمُّ منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ فى عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة فى الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فاتسعت صنعة الوراقة ، وهى تحل فى هذا العصر محل الطباعة فى عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم ورَّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها فى الناس مثل دماذ أبى غسان وراق[١] أبى عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب فى أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلىء بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر[٢] ، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ[٣] ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب[٤] وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً[٥] .

ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

---

(١) الفهرست ص ٨١ .
(٢) الحيوان ١/٦١ .
(٣) الحيوان ١/٦٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٨/٢٨١ .
(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

للمعرفة ، إذ كانت تسجِّل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عامًا ، وهو لا يُعَدّ فقيهًا ولا يُجْعَلُ قاضياً فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرَى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكمًا ( قاضياً ) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »(١) .

ولم تكن الكتب تُعدّ لهذا التحصيل السريع فى الفقه وحده ، بل كانت تعد لذلك فى جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعى أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم فى كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة الطيعة التى تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبُّون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن « من لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضيًّا ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله »(٢) .

وأنشأ بعض الورَّاقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشترى منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذّ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موّه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون فى كتبهم تأنقًا شديداً (٣) وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى فى كتب الهزل والفكاهة (٤) .

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هيأ لها أيضًا مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسَّراة ، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يُرْوَى من مناظرة

---

(١) الحيوان ١/٨٧ .
(٢) الحيوان ١/٥٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وما بعدها .
(٤) الحيوان ١/٦١ .

الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي[١] وما يُرْوَى من مناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي[٢] . وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون فى كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفى ذلك يقول المسعودى : « كان يحيى بن خالد البرمكى ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفى والحركة والسكون والمماسَّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنصٌّ هى أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنح له فيه وخطر بباله »[٣] ويورد المسعودى أطرافاً من كلامهم وحوارهم فى العشق تصور كيف كانوا يفرِّعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها فى الموضوعات المختلفة التى كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة فى الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحيى بن أكثم : « أمرنى المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم[٤] » ويمضى ابن أكثم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلىّ المأمون أن أنوِّع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور فى كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودى ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التى غدت كأنها مجمع علمى كبير ، فيقول : « قرَّب المأمون إليه كثيراً

---

(١) مجالس العلماء للزجاجى ص ٢٨٨.
(٢) إنباه الرواة ٢ / ٢٧١ .
(٣) مروج الذهب ٣ / ٢٨٦ .
(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

من الجدليين والنظّارين كأبى الهذيل العلاّف وأبى إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما ( يريد من المعتزلة وغيرهم ) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق ( الرواتب ) فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله »[١] .

وقد كُفلت الحرية العقلية فى هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعْرَض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة[٢] . ومما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً فى جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعثه الحقيقى رقى الحياة العقلية فى هذا العصر ، فإذا كل شىء يناقش فى حرية ، وإذا كل شىء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكى مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شَمِر المتكلم ، وكانت فى أبى شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين فى مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يحبو إليه حبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية[٣] ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون فى مجلس الأزدى ويختصمون عنده »[٤] ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر فى نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يُعْرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنّىٌّ ، والسيد ابن محمد الحميرى الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس ثَنَوى ، وسفيان بن

---

( ١ ) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .
( ٢ ) الحيوان ٤/٤٤٢ .
( ٣ ) البيان والتبيين ١/٩١ .
( ٤ ) أغانى ( طبع دار الكتب ) ٣/١٤٦ .

مجاشع صُفْرِىّ ، وبشار بن برد خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسى ، وابن سنان الحَرّانى الشاعر صابئى ، فتتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً»[١] .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقى أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة فى المجالس ، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التى تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلا . وكانت هناك مجالس أخرى للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه فى هذا المجلس كتب المنطق لأرسططاليس وكتب جالينوس فى الطب[٢] . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين[٣] ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً . وكانت لابن أبى دؤاد المعتزلى مستشار المأمون والمعتصم والواثق نَدْوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل[٤] .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة فى كل مكان بأمصار العراق وهى حقًّا كانت مطروحة فى الطرقات معرضة لكل الأيدى ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجانًا من حق الجميع . وكان لذلك آثار بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفى أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعًا من الطبقة الدنيا فى الشعب فبشار كان أبوه طيّانا يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان فى صغره يحمل الخزف والجِرار على ظهره فى شوارع الكوفة يبيعها للناس ، وكان أبو مسلم حائكًا ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً ، ومَنْ

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٩ .
(٢) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار الفكر العربى ببيروت) القسم الأول من الجزء الثانى ص ١٢٤ وابن القفطى فى أخبار الحكماء (طبعة الخانجى) ص ٢٤٩ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٣٩
(٤) الحيوان ٤ / ١٢٣ .

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء فى جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التى نشأ فيها مثل أبى أحمد التمّار وشعيب القلاّل الذى كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها فى المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلٌّ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصوِّر ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة[1] » وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه فى الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفى سنة ٢٢٠ ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم فى القدر ، فتبعه خلق[2] » . ونرى الجاحظ فى رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين فى آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضاً من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » . ويهمنا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظاً من طريقة المتكلمين فى حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك فى أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية فى العصر ، فقد تغلغلت المعرفة والثقافة فى جميع الأوساط حتى فى أوساط العامة ، وأصبحتا غذاء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

---

(١) الحيوان ٥/٣٠٤ . (٢) النجوم الزاهرة ٢/٣٣٤ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

## ٣

### علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التى دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثانى ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذْكَرُ من أنه تُرْجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب فى الصنعة والطب والنجوم[١] وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب فى الطب لأهرن[٢] بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرْجم لهشام[٣] بن عبد الملك . وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة فى جُنْديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحرَّان والرُّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادى فى ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم فى هذه الترجمة محتدما حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندرى المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش فى القرن السادس الميلادى ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة فى المنطق والطبّ والطبيعيات[٤] . ومن أبرزهم فى العصر الأموى سويرس سيبوخت

---

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (نشر المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦١ .

(٣) انظر صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبى أصيبعة فى الجزء الثانى من القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لأوليرى (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .

وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التى كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضًا فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندىّ الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نَقَلتهم[١] وسنرى عما قليل أن قومًا من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : « كان أول خليفة قرَّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب أوقليدس[٢] » .

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجمًا كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول[٣] الفلكية ، وكذلك كان صاحباه ولثانيهما وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب — وهو آلة فلكية لرصد الكواكب — وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندى وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

---

(١) كانت مدينة بلخ أهم مركز إيرانى امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد النوبهار البوذى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ٤ / ٢٤١ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

استمدوا فى هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضًا من الصابئة ورثة الكلدانيين فى الفلك والتنجيم .

وصوَّر نالينو أثر كتاب السندهند فى علم الفلك العربى وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَفْدًا من الهند وَفَد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصًا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه ( بـِراهـْمـَسـْبـُهـُطـْسـِدْهانـْت ) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكى الرياضى ( برهمكبت ) فكلف المنصور ذلك الهندى بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزارى وعمل منه زيجا[١] اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو ( سِدْهانت ) ثم حرَّفوه قليلا وسمَّوه السندهند[٢] » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندى يعقوب بن طارق وكان رياضيًّا ممتازاً وله مؤلفات قيمة فى الفلك[٣] .

ويذكر المسعودى أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقى فى الحساب وكتاب أقليدس وهو فى علم الأشكال الهندسية أمّهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودى عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى فى سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء فى بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتبًا كثيرة من اليونانية إلى العربية[٤] وأغلب الظن أنها كانت فى جمهورها كتبا طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

---

( ١ ) الزيج : علم الجداول الفلكية .

( ٢ ) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .

( ٣ ) نالينو ص ١٥٦ والفهرست ص٣٨٨ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٠٩ .

( ٤ ) ابن أبى أصيبعة ص ٣٧ والقفطى ص ١٠٩ .

والترجمة . وممن لمع اسمهم لعهد المنصور فى ترجمة كتب الطب اليونانى أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنى بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس[١] .

وتنشط الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجَلْب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيباً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جلجل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة ، ووضع له كتاباً حُذّاقاً يكتبون بين يديه[٢] » . وقد عاش ابن ماسويه طويلا إذ توفى سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية . وأسهم فى الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة فى الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

وللبرامكة فضل عظيم فى إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم فى الزراعة كتاباً عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه[٣] ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التى ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحّه[٤] . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسى ونرى جيلاً كبيراً ينهض فى عصرهم والعصر الذى تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذى أكثر من ترجمة كتب الفلك[٥] ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون فى حداثته بعض الكتب

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليرى أنه ترجم لبطليموس كتاباً فى التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جلجل ص٦٥ والقفطى ص٢٤٩ .

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

الفارسية ويعجب بترجمته[١] . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسى حينئذ محمد بن جهم البرمكى وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسروى وعمر بن الفـرّخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين[٢] . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بزرجمهر وعهد[٣] أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان[٤] خرد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، ويقال إنه نظمه فى أربعة عشر ألف بيت[٥] ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربى سيرة أردشير وسيرة أنو شروان[٦] . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسى واليونانى دفعوا أيضًا إلى الانتفاع بالتراث الهندى وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان » وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة فى الطب والعقاقير[٧] وشمل نقلهم صحيفة طويلة فى قواعد البلاغة سجلها الجاحظ فى بيانه[٨] ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة فى الخرافات والأسمار مما تولع به العامة[٩] .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها فى عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجد فى الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر ( غلب ) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

---

( ١ ) الجهشيارى ص ٢٣٢ .

( ٢ ) انظر فى هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/٢٩ .

( ٣ ) راجع فى هذا الكتاب وسابقه ثلاث رسائل للجاحظ ( نشر فنكل ) ص ٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ١٠٩ .

( ٤ ) انظر جمع الجواهر للحصرى ص ٧٤ وما بعدها .

( ٥ ) الجهشيارى ص ٢١١ .

( ٦ ) الفهرست ص ٢٣٢ .

( ٧ ) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

( ٨ ) البيان والتبيين ١/٩٢ .

( ٩ ) الفهرست ص ٤٢٤ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم[١] » ويقول ابن نباته فى ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتبًا على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها[٢] » .

ونحن نقف قليلا عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول فى الهندسة لأوقليدس[٣] وكتاب المجسطى لبطليموس[٤] . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعًا وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطاليس مختصراً فى النفس وكتبه فى الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم[٥] وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد فى السياسة وفى الصحة والتغذية ، وترجم أيضًا كتاب الترياق لجالينوس[٦] . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقحان فيه ، وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون فى الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقًا فى ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسى الثانى . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوى ( يوحنا فيلوبونوس ) على كتاب السماع الطبيعى له أيضًا ،

---

( ١ ) الفهرست ص ٣٣٩ .
( ٢ ) سرح العيون لابن نباته ( طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة ) ص ١٦٦ .
( ٣ ) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهارونى نسبة إلى هرون الرشيد والثانى بالمأمونى نسبة إلى المأمون ، انظر ابن أبى أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ ١ / ٨٠ والقفطى ص ٦٤ .
( ٤ ) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١٥ .
( ٥ ) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ( نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٢٢ .
( ٦ ) ابن جلجل ص ٦٧ وأوليرى ص ٢١٧ . والعلم عند العرب لألدو مييلى ( نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ) ص ١٢٧ وما بعدها

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندرى المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية[١] .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهى الفلكيين[٢] مثل على بن عيسى الإسطرلابى ومحمد بن موسى الخوارزْمى والعباس بن سعيد الجوهرى . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكى مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة[٣] .

ومحمد بن موسى الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشئ عصر جديد فى التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدومييلى : « وله فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولا فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصراً جديداً فى الرياضيات . وألف أيضًا كتباً فى الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

(١) انظر دى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢١٧ .
(٢) راجع فى الفلكيين لعهد المأمون الفهرست ص ٣٨٣ .
(٣) انظر فى بحوث هؤلاء الفلكيين ألدومييلى ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية[١] » .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابله » وهو يذكر فى مقدمته تشجيع المأمون له منوِّها به . ويظهر أنه نجح فى صنع الجداول الفلكية نجاحًا رائعًا ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجا سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس[٢] » .

والخوارزمى – بدون ريب – يفتتح افتتاحاً رائعًا سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ فى هذا العصر كثيرون فى الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب فى الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه – بما كان يعكف عليه من تشريح القردة[٣] – أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلّفه جالينوس فى علم التشريح ، وله فى طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوّت شهرتها فى عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية[٤] .

وقد مضى العرب يُعْنَوْن – منذ خالد بن يزيد بن معاوية – بعلم الصنعة ( الكيمياء ) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرْسَى هذا العلم على دعائم التجربة وخلّف فيه كثيراً من النظريات فى الإكسير وخواصّه ، وصوّر ذلك فى أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جُلّى مما كان له أكبر الأثر فى نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك فى شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين[٥] ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم ردًّا طويلا[٦] ، وهو – دون نزاع – المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

---

( ١ ) ألدوميلى ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
( ٢ ) نالينو ص ١٧٥ .
( ٣ ) ابن أبى أصيبعة ص ١٢٨ – ١٢٩ .
( ٤ ) علوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٤ .
( ٥ ) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود فى سلسلة أعلام العرب ص ١٩ وألدوميلى ص ٩٩ ومادة جابر فى دائرة المعارف الإسلامية .
( ٦ ) الفهرست ص ٤٩٩ .

العرب ، كما أن الخوارزمى المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره[١] ، وكان لها تأثير بعيد فى نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربى ، وأيضًا فإنه ألف كتابًا بديعًا فى علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلى قدوته فى كتبه الموسيقية[٢] .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شىء من هذا التراث لم ينتقل إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع فى دكاكين الوراقين ، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربى يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة ، والمتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التى لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربى فى العصر العباسى الأول عقلا متفلسفًا كما أصبح عقلا علميًّا ، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضًا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علومًا لأول مرة فى تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر . وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمى وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، مما نراه متجلياً فى العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

---

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٥/٢٧١ .

(٢) إنباه الرواة ١/٣٤٣ ومعجم الأدباء ١١/٧٣ والمزهر ( طبعة الحلبى ) ١/٨١ .

٤

## العلوم اللغوية والتاريخ

عُنى – منذ أواخر عصر بنى أمية – جمهور كبير من العلماء فى البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب فى هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا فى حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفشو فى كلامهم . وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين .

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُنْفَى عنها وتُطْرَحُ شوائب اللهجات القبلية . وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية ، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين ، أولاهما أن يقوّموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة، وثانيتهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التى يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد ، ويصوّر أبو نصر الفارابى صنيعهم فى هذا الجانب فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتُّكلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سُكّان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم

يؤخذ لا من لَخْم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قُضاعة وغَسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم [١] » .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون فى نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التى يجمعونها من هنا وهناك ويملئون بها حقائبهم ، وعن أبى عمرو بن العلاء شيخ البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يقصد الجزء الغربى من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز . وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذى أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة [٢] ، وأبى سَوَّار الغنوى أستاذ أبى عبيدة [٣] ، ويسوق ابن النديم أسماء [٤] طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت فى هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر ، ورأس الجيل الأول فى البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ وهو أحد القرّاء السبعة المقدَّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبتاً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس [٥] » . وأشهر أفراد الجيل التالى له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ وفى تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ . وكان الأصمعى ثقة ثبتاً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

---

(١) المزهر للسيوطى ( طبعة الحلبى ) ١ / ٢١١ .
(٢) الفهرست ص ٦٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١ / ٣٢١ .

ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصبَّ عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح فى كتابه « النوادر » فى اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعى درجات فى الثقة به إذ كان شعوبيًّا ذميماً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز فى القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّى البصرة محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية فى توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه فى طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنيـــة .

ورأس الجيل الأول من لغويى الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالمًا بالشعر والغريب غير أنه كان ماجنًا فاسقًا زنديقاً ، فشابَ روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبى معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة فى الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثانى فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَستيجان[1] حِبْرًا فما خرج حتّى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة. ولا يقلّ عنه شهرة معاصره ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون فى جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون فى جيلها الثانى . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْد القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا فى اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف فى موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتّى لتتحول إلى معاجم لغوية على

(١) الدستيج : إناء .

شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى فى العربية . وينبغى أن نعرف أن الطريقة الأولى التى تُعْنَى بالجزئيات المفردة ظلت غالبة على محاضرات اللغويين طوال القرون: الثانى والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالى القالى .

وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبْغها بالصبغة العلمية ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربى والنحو اليونانى أو السريانى ، محاولين أن يثبتوا وجوها من الصلة بينهما وبين النحو العربى ، وكأنه نشأ على هديهما [١] . وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمى العربى الذى استوى على سوقه فى القرن الثانى ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربية كبيرة ، منها اللغوى ومنها الدينى .

وجاء فى بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى المتوفَّى سنة ٦٩ وشُبِّه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئًا من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا ، إنما الذى وضعه حقًّا وكان أول واضعيه نَقْط المصحف نَقْطاً يعين حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب [٢] ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين . واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ . أما ابن أبى إسحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومدَّ القياس وشَرَح العلل ، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فى النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع ، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشاه . ويعد الخليل بن أحمد المتوفّى فى سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى أدَّاها عنه تلميذه سيبويه فى

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢ / ١٢٤ . وذولدكه فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

(٢) انظر المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى ( طبع دمشق ) ص ٤ وما بعدها .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو فى كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره فى نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً ، ويقول السيرافى : « كل ما قال سيبويه : سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[١] » ويقول إنه كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدى : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق[٢] » .

فالخليل هو المؤسس الحقيقى لصرح النحو العربى ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنيانه وأركانه ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما فى رفع هذا الصرح إلى عنان السماء — كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيبويه — القياس والعلل ، أما القياس فيتضح فى ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنْفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التى تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذى ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضاً فإنه كان يتقن العلوم الرياضية[٣] ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات فى مسائلهم الفَرْضية لترسخ ملكة هذه العلوم فى عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدّ القياس فى التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض فى الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهى ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلا دقيقاً فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التى هيأت عند الخوارزمى لنشأة علم الجبر ، وهى تلاحظ عنده فى الميزان الصرفى وفى الخطة التى وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نصه فى المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتب عند الهنود حروف السنسكريتية[٤] ، وفى ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية فى الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبعة كرنكو) ص ٤٠ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (نشر الخانجى) ص ٤٣ .
(٣) الزبيدى ص ٤٣ وإنباه الرواة ١ / ٣٤٦ .
(٤) انظر ترجمة الخليل فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام(١) . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية فى وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضًا من حيثُ ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التى استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كى يجدّدوا فى الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخلَفَه على تراثه النحوى سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره فى أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفًا إليه من أنظاره مايدل دلالة بينةعلى فطنته ونفاذبصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربى حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسى : « لا أعرف كتاباً ألِّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسطاليس فى علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له(٢) » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله فى النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة فى التكسب بها (٣) ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً فى الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا فى النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم فى البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح فى النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذى يعنى بالقياس مستمدًّا له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذى يُعْنَى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذًّا نادراً .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ( طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة ) ٢/١٧١ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٧ .

(٣) الحيوان ١/٩١ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرُّؤَاسي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وخلَفه معاذ بن مسلم الهَرَّاء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذى وضع علم الصرف غير أننا نشك فى ذلك لأن الصرف مندمج فى كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً فى الدراسات النحوية الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلا :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعْ وبه فى كل أمرٍ يُنْتَفَعْ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئًا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل [١] »

وأهم نحاة الكوفة فى العصر الفَرَّاء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائى يقدِّم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته فى بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه فى كتابه « معانى القرآن » مثل الجحد بدلا من النفى والتكرير بدلا من البدل والتفسير بدلا من التمييز [٢] . وهو الذى جسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم فى كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » فى النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود فى المنطق ، ومن أهم كتبه « معانى القرآن » وهو يكتظ بآرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسْهم مساهمة حقيقية فى وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس [٣] ، وإلى نظرية العامل التى ينفرد بها نحونا العربى والتى تُعَدُّ قوامه ، وهى تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبى ، فمحوره الذى تدور حوله بحوثه محور عربى خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الخصبة التى اكتسبها العرب فى العصر العباسى الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (نشر مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١/ ٥١ ، ٥٢ ، ٢٢٥ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح فى علل النحو للزجاجى (طبع القاهرة) .

ومما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التى تؤديها أشعارهم ، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبوتة فيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآنى وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُنوا أيضًا بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثه الحربية ، ويلمع فى هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هى المبتدأ والمبعث والمغازى . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول فى مكة ، وتتضمن المغازى حياته فى المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب[1] ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازى النبوية فى هذا العصر محمد بن عمر الواقدى قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة فى الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازى ، وقد ضمّن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة فى السيرة الزكية أن أخذت تُفرَد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذى خصه بها هو الأصل الذى ألهم العلماء بعده التأليف فى تاريخ المدن .

وعُنى كثير من المؤرخين بالكتابة فى أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة فى الفتوح وفى حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب فى مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له فى الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صِفّين .

وصبَّ هشام بن محمد الكلبى عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخم فى أخبار الخلفاء وآخر فى الدولة العباسية ومصنفات مختلفة فى السيرة النبوية وفى الفتوح وأيام الناس ، وهى تُعَدّ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تؤلف فى هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوى من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذى أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليحيي بن معين المتوفى فى سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسى الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب فى الجاهلية وفتوحهم ودولهم فى الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنى ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة فى سير ملوك العجم .

٥

## العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثر عن الصحابة لا فى تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضًا ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم فى تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوَّن تدوينًا عامًّا منذ أوائل القرن الثانى للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه فى

مصنفاته غالبًا على أبواب الفقه ، وأول جيل يلقانا لمصنفيه (١) فى هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفّى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبى عَروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صَبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثورى بالكوفة المتوفّى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفّى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعانى باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحى بن زكريا بن أبى زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفّى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب « الموطّأ » لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفى كل بابٍ أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل يمليه على طُلاَّبه نحو أربعين عامًا ، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفّى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقانى وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن فى أواخر القرن الثانى بالطريقة السالفة فى تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث فى مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهى الطريقة المعروفة باسم « المسانيد » إذ يُسْنِد المؤلف لكل صحابى ما رُوى عنه من الأحاديث ، وممن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفّى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسى المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

(١) انظر فى جيلى مصنفى الحديث المتتاليين خطط المقريزى ١٤٣/٤ وإحياء العلوم للغزالى ٧٩/١ وقوت القلوب ص ٢١٦ والفهرست ص ٣١٤ .

وأشهر المصنفات فى هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع فى ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين فى تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزّع فيها الأحاديث على المعانى والموضوعات التى تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبى شيبة المتوفّى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقريزى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف[١] » واتبع طريقته فى العصر العباسى الثانى البخارى وغيره من أصحاب الصّحاح الستة .

وأخذ المحدّثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدّى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم محّص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التى نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغويى[٢] هذا العصر وعلى رأسهم أبو عُبَيْد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف فى الحديث إلى التصنيف فى تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات[٣] ، وتولاّها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوّنه على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفى ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير ( عن ابن عباس ) رواها ابن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً »[٤] . ومن أهم المفسرين فى هذا العصر بتلك الطريقة التى تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عُيَيْنة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(١) خطط المقريزى ٤ / ١٤٣ .
(٢) الفهرست ص ١٢٩ .
(٣) الفهرست ص ٥٠ .
(٤) الإتقان للسيوطى ( طبع مطبعة حجازى ) ٢ / ١٨٨ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ فى تفسيره الكبير بكل هذه الثروة المأثورة الغنية.

وقد أخذ الشيعة يستقلون — منذ هذا العصر — بتفاسير للقرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير [1] جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صحت نسبته إليه . ونشط المعتزلة فى كتابة تصانيف عن المتشابه فى القرآن على نحو ما يروى عن بشر[2] بن المعتمر وأبى الهذيل[3] العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التى قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول[4] تفسير اعتزالى .

ونشأت بجانب التفسير — لهذا العصر — علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم إحصاء دقيقاً ، ذاكراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم[5] ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل فى العربية ، وقد أخذه من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه[6] . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء فى آياته ، وممن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه وممن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحى وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته وممن صنفوا فيه الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ، وعلم معانيه وممن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته وممن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه وممن صنفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه وممن صنفوا فيه الشافعى ويحيى بن أكثم صفىّ المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يهتدى به فى فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلى ، ومنهم من كان يتسع فى الاستنباط والقياس

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ( طبع دار المعارف ) ٣/٣٤٣ .
(٢) الفهرست ص ٥١ .
(٣) الفهرست ص ٥٥ .
(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر ( نشر الخانجى ) ص ١٣٥ .
(٥) الفهرست ص ٥١ — ٥٧ .
(٦) المحكم فى نقط المصاحف ص ٧ .

السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمُّوا أهل الرأى ، وسرعان ما تحول الاتجاهان فى هذا العصر إلى مذهبين واضحين فى الفقه والتشريع : مذهب أبى حنيفة فى الكوفة والعراق ومذهب مالك فى المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعى من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامَّة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسى ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتثقف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه فى الفقه والرأى ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلى اعتماداً واسعًا متخذاً منه حلولا للأحكام الكثيرة التى تطلبتها المشاكل التى نشأت فى حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى فى ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفًا فى العبادات والبقية فى المعاملات . وإلى دقته فى استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول(١) :

إذا ما الناسُ يوماً قايسونا ... بآبدةٍ من الفُتْيا ظريفهْ
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ ... مصيبٍ من قياس أبى حنيفهْ

ونهض من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذى انتشر به مذهب أبى حنيفة فى العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضى القضاة فى عهد الهادى والرشيد وكان لا يولى على أى بلد قاضيًا إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه(٢) ، وله فى الخراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف فى علم الحيل(٣) وهو علم يفتح بفتاويه المنثورة فيه المنافذ لكى يخرج منها من يقع فى حرج . وانتهت رياسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى الكوفى المتوفى سنة ١٨٩ وكان

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٦٣ . وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٧٧ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٤٠ .

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/١٦٤ .

(٣) الحيوان ٣/١١ .

قد سمع أبا حنيفة وتتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعى فقيه الشام ، وممن أخذ عنه الشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو الذى حرّر المذهب الحنفى بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جنى بدقة استخدامه للعلل فى كتبه[١] . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل فى صياغة الفقه الحنفى ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقى مذهب مالك بن أنس فى الحجاز ، على نحو ما يمثله كتابه « الموطأ » الذى تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذى تُعْرَض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوى والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أدّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم « المدونة الكبرى » ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضًا يحي بن يحي الليثى الأندلسى ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبى حنيفة إذ كان مقدّما عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضيًا إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعى محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفّى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفى سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكاً إلى أن توفى ، فرحل إلى اليمن واتُّهم باشتراكه فى ثورة لبعض العلويين ، فأُرسل به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتهز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيبانى وناظره طويلا ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذى يجمع بين طريقة الحجازيين فى الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين فى الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التى سادت فى مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع فى كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرّر المناهج فى استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً فى تاريخ الفقه الإسلامى ، يقول الرازى : « واعلم أن نسبة الشافعى

---

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية) ١٦٣/١ .

إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى — رحمه الله — علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يُرْجَعُ إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل[١] » . وعاد الشافعى إلى العراق فى سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه فى مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُوَيْطى المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه فى كثير من بلدان العالم الإسلامى .

وأكبر تلامذة الشافعى فى العراق أحمد بن حنبل المتوفَّى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهى جديد يُعلى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عُدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتب للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشيعة فى هذا العصر نشاط مستقل فى الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوى جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع فى طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلى الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

ولعل علماً لم يزدهر فى هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الدينى فى الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق[٢] ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين[٣] ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المنانية الثنويه القائلين بإلهى النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة[٤] . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

---

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص١٠٠ .
(٢) الفهرست ص ٢٩ — ٢٥٢ .
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .
(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

عقيدة فى هذا العصر يتسلّح فى دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة[١] » .

وأهم فرق المتكلمين فى هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة أمام المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمانويين الثَّنْويين . وقد ملئوا بجدالهم وحجاجهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم فى الإقناع وإفحام الخصوم الشبابَ شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثانى إلى بغداد ، فخلبوا الألباب هناك ببيانهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتنق عقيدتهم ، حتى شعبة خلق القرآن التى دلع شررها بشر المريسى كما مرّ بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجّهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً فى أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرّنها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة فى الاستنباط لخفيات المعانى ودقائقها والبراعة فى تفريعها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب فى جميع جوانب الفكر العباسى ، إذ أكبّ الناس على مناظراتهم وأكبّ معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهاً فى هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس وأبان اللاحقى والعتابى ومنصور النمرى وأبى تمام .

واختلف الباحثون فى سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصرى ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سَرَيان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نُعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة ، فقد وقفوا على الحياد لا ينصرون فريقاً على فريق[١] ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالا عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر فى زيد بن على بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التى يُفْهَمُ منها مشابهته للمخلوقات من مثل : ( يد الله فوق أيديهم ) فمعنى اليد فى الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدَّد القديم جَلَّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظَنَّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يُؤَصِّلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار فى إرادتهم ، وهى حرية ضرورية لكى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أوَّلوا الآيات التى تدلّ على الجبر من مثل : ( وما تشاءون إلا أن يشاء الله ) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأناب ، وهو لا بد مدخل

---

(١) انظر التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا — كما يقول نالينو — لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كلٌّ حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدى المجان والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أدّاهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجرّدوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالمجوس والصائبة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هو مؤسس فرقتهم كما قدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر [١] ، وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه ختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية [٢] الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرّعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثمامية والهذيلية والنظامية .

(١) انظر أمالى المرتضى ١ / ١٦٥ والشهرستانى ص ٣١ .

(٢) أمالى المرتضى ١ / ١٦٩ وضحى الإسلام ٣ / ٩٧ .

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال ، وكان يقول بتفضيل على بن أبى طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد ، وله أشعار كثيرة نظمها فى التاريخ الطبيعى وفى أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها . وهو أول[١] من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرْمَى فيحطِّم زجاجاً ، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً ، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً فى تحديد المسئولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره . وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة فى فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده ، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح ، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه ، وإنما الذى عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة .

والثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النُّمَيْرى البصرى المتوفَّى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد ، وكان يقول هو الآخر بتفضيل علىّ على الصحابة ، كما كان يقول بخلق القرآن ، وأكبر الظن أن بشراً المريسى هو الذى أقنعه بذلك . وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين فى مجالسه . وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها[٢] وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والقبح ذاتيان فى الأفعال ، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم فى الأوامر والنواهى الإلهية .

والهذيلية نسبة إلى أبى الهُذَيل العَلَّاف المتوفى بسامرَّاء لسنة ٢٢٧ وقيل : بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمِّر طويلا ، ويُعَدّ المؤسس الحقيقى للاعتزال . وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية[٣] . وفرّق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وتحدث فى مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزَّأ ومسألة الكمون ككمون النار فى الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية .

---

(١) الشهرستانى ص ٤٤ وضحى الإسلام ١٤١/٣ .

(٢) الشهرستانى ص ٤٩ وضحى الإسلام ٢٤٧/٣ .

(٣) الشهرستانى ص ٣٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٧٨ وضحى الإسلام ٣ / ٩٨ ودى بور ص ٥٧ .

والنظّامية نسبة إلى النظّام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستانى إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده ، وأن إرادته التى يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ[1] . وأعلى فى مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

(١) الشهرستانى ص ٣٧ وضحى الإسلام ١٠٦/٣ ودى بور ص٥٩ .

# الفصل الرابع

## ازدهار الشعر

## ١

### ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية فى هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبى البَيْداء وابن الدُّمَيْنة وابن ميَّادة وأبى حيَّة النُّمَيْرِىّ وأبى ضَمْضَم الكلابى وابن عمه أبى زياد والعُمانى وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِىّ وأبى العَمَيْثَل وعُمارة بن عَقِيل حفيد جرير . وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم[١] . وكان يقابلهم فى المدن شعراء لم ينشأوا فى البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت فى دخائلهم ، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبيانا .

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل السابق الفضل فى تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلى والإسلامى ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القُدْوة المُثْلَى . وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة ، نذكر من بينهم حمادا الراوية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعى .

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشىّ والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج[٢] » . ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم أُلِّفتا فى العصر هما المفضليات للمفضَّل

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

الضبى الكوفى والأصمعيات للأصمعى البصرى ، وهما تزخران بالغريب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودوّنوها ، وفسروها وشرحوها . وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء .

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتّى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، مما جعل الجاحظ يقول : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإراداتهم . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس[١] » . وانضم إلى ذلك باعث سياسى ، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها . وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، بل بإتقانها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكى يقفوهم على صياغاتها وأساليبها ، وتأليفُ المفضل الضبى للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئاً فى عهد أبيه ، ذائع مشهور . وبذلك سَرى فى القصر العباسى ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء ، إذ كانوا يَمْثُلون بين أيدى الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتّى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة . وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعى ، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتّى ينالوا استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم فى العطاء .

وبذلك أصبح اللغويون سَدَنَة الشعر فى هذا العصر وحُرّاسه ، فمن نوّهوا به طار اسمه ، ومن لوّحوا فى وجهه خَمَلَ وغَدَا نَسْيًا مَنْسِيًّا . ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل العظام ، فإن استحسنوها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسنوها ذهبوا يعاودون الكرّة بِصُنْع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن مَرْوَان بن أبى حَفْصة

(١) الحيوان ١/١٥٣ .

من أنه لما نظمَ قصيدته : ( طَرَقَتْكَ زائرةً فحَيِّ خيَالها ) وهي إحدى روائعه في المهدي ذهب إلى حلقة يونس النحوي فقال له : قد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئاً سترته . وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب[١] . حينئذ مضى فأنشدها المهدي ، فزحف من صدر مُصَلاَّه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال لمروان : كم هي ؟ قال مروان : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر في أيام بني العباس[٢] . ويسوق المرزباني في كتابه الموشح فصلا طويلاً[٣] ، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر : « إنما أنتم — معشرَ الشعراء — تَبَعٌ لي ، وأنا سُكَّان السفينة إن قَرَّظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم[٤] » .

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسي ، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً ، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يُسْقطون الشعراء العباسيين إسقاطاً حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذي الرُّمَّة والرَّجز برُؤبَةَ قائلا في المُحْدَثين : « إنهم كَلٌّ[٥] على غيرهم ، إن قالوا حَسَنًا فقد سُبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم[٦] » . وكان الأصمعي يختم الشعر بابن ميَّادة وابن هَرْمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية[٧] . وأنشده إسحق الموصلي بيتين من شعره دون أن يسمي قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلاً : أفسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبَيِّن[٨] . ويروي الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبي عبيدة : « اتَّق الله واحكُمْ بين شعري وشعر عَدِيّ بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلي وهذا عباسي ، وذاك قديم وهذا مُحْدَثٌ ، فتحكم بين العصرين ولكن احكمْ بين الشعرين ، ودَع العصبية[٩] » . وكان ابن الأعرابي يقول : إنما أشعار هؤلاء

---

(١) أغاني ( طبع دار الكتب ) ١٠/٨٢ .
(٢) أغاني ١٠/٨٨ .
(٣) الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها .
(٤) أغاني ( طبعة الساسي ) ١٧/١٦ .
(٥) كل : عالة .
(٦) أغاني ( ساسي ) ١٦/١٠٩ .
(٧) أغاني ( دار الكتب ) ٤/٢٧٣ .
(٨) أغاني ٥/٣١٨ .
(٩) أغاني ( ساسي ) ١٧/١٢ .

المحدثين — مثل أبي نواس وغيره — مثل الرَّيْحان يُشَمُّ يوما وَيذْوَى فيُرْمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حرَّكته ازداد طيبًا[١] » .

ولا شك فى أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان . ولكن من الحق أنهم — بهذا الموقف — جعلوا نماذج الشعر القديم ، بالقياس إلى العباسيين ، تصبح كالأمهات الغاذية ، فكلهم نهلوا من أثدائها وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم وتمكن من نفوسهم . ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء ، فنراهم عرباً تامين وكأنهم فصلوا تَوًّا من الجزيرة . ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم ، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة . وقد مضوا يعدُّون عليهم سقطاتهم ، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم ، فقاسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضًا فى هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها . واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى « الموشح » من هذه السقطات فستراه قلما يَعْدُو هذه الوجوه الثلاثة . ونضرب مثلا لذلك : ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى « الوَجَلَى ، والغَزَلى » من الوجل والغزل ظنًّا منه أن هذا من حقه وإن لم يُسْمَع عن العرب ، وكذلك جمعه لفظة « نون » بمعنى البحر على « نينان » ظنًّا منه أن الكلمة تدخل فى قياس هذا الجمع[٢] . وأبو نواس هو أكثر العباسيين مآخذ[٣] ، وهى تُرَدُّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات عربية ، وفى ذلك يقول ابن قتيبة : « وقد كان أبو نواس يُلَحَّنُ فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حُجَّة من الشعر المتقدم وعلى عِلَّة بَيِّنَةٍ من علل النحو ، منها قوله :

فَلَيْتَ ما أنت واطٍ من الثَّرَى لىَ رَمْسَا[٤]

---

(١) الموشح ص ٢٤٦ .
(٢) الموشح ص ٢٤٦ وما بعدها .
(٣) الموشح ص ٢٧٢ وما بعدها .
(٤) رمسا : قبرا .

أما تركه الهمز فى « واطئ » فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز وأن قريشاً تتركه وتبدل منه . وأما نصبه « رمسا » فعلى التمييز . ألا تراه قال : ( فليت ما أنت واط من الثرى لى ) فتمّ الكلام وصار جواب ليت فى « لى » ثم بيّن من أى وجه يكون ذلك ، فقال « رمسا » كما تقول فى الكلام : « ليت ثوبك هذا لى » ثم تقول « إزاراً » لأن جواب ليت صار فى قولك « لى » وصار الإزار تمييزاً[١] » . ومضى ابن قتيبة يوجّه له أبياتاً أخرى وقف اللغويون والنحاة عند حروف منها .

ولعل من الغريب أن يقف يوهان فك فى كتابه « العربية» عند هذه الأبيات[٢] وما يماثلها مما أُخذ على أبى نواس وعند أخرى تشبهها لشعراء آخرين متخذاً منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن ابن قتيبة . ولو أنه أنعم النظر فيما سجّله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ماهنالك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ ، وهم فى ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم .

ووقف يوهان فك عند استخدام نفر من الشعراء العباسيين لبعض الألفاظ والصيغ الفارسية فى أشعاره معتمداً على ما كتبه الجاحظ فى « البيان والتبيين » عن بعض الأعراب مثل العُمانى والعُذافر الكندى ذاكراً أنهما كانا يتملحان بإدخال بعض الألفاظ الفارسية فى أشعارهما ، وتمثّل للعمانى بلفظتين ، وساق لشاعر يسمّى أسود بن أبى كريمة قطعة اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية[٣] . وقد جعل ذلك يوهان فك يزعم أن الفارسية أدخلت فى هذا العصر ضَيْماً على العربية ، مبالغاً فى تصور هذا الضيم[٤] ، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص التى رواها الجاحظ ، إذ كان الشعراء يسوقون فى أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتظرفاً كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم كانوا يحافظون على ما استقر فى ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ( طبع دار المعارف ) ص ٧٩٤ .
(٢) كتاب العربية ص ٩١ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١٤١/١ وما بعدها .
(٤) كتاب العربية ص ١١٢ وما بعدها .

للألفاظ الفارسية فى شعره أبا نواس إذ كان يأتى بها فى بعض خمرياته تعابثا ومجانة ، وخاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المجوس مقسماً عليهم بآلهتهم وشعائرهم الدينية وأعيادهم المجوسية ، على شاكلة قوله[١] :

والمهرجانِ المُـدَارِ لوقتـه الكرَّارِ[٢]
والنوكروزِ الكبار[٣] وجَشْنَ جاهنْبـار[٤]
وآبِسال الوهـارِ[٥] وخُـرَّه إيران شمارِ[٦]

ولم يكن يصنع ذلك دائماً إنما كان يصنعه فى الحين بعد الحين تملحاً وتندراً . وقد تسقط على لسان بعض الشعراء لفظة نبطية ، من مثل قول إبراهيم الموصلى واصفاً وداعه لحمَّارٍ نبَطِىٍّ[٧] :

فقال : إزْل بِشين ، حين حدَّثنى وقد – لعمرك – زُلْنا عنه بالشَّيْن

وكلمة « إزْل بشين » نبطية ، ومعناها : امْضِ بسلام . غير أن ما قدمنا ومثله لم يتحول إلى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتى على ألسنة الشعراء فى الندرة ، وكثرتهم – على الرغم من أصولهم الفارسية – لم يتورطوا فى شىء منه . ومن أجل ذلك كان ينبغى أن لا يندفع باحث إلى القول بأن السليقة العربية انتُقصتْ فى نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى قوة من أن تنتقص ، حتى لـدَى مَنْ كانوا يحسنون الفارسية مثل أبى نواس . وقد كانت اللغة العربية تتعمق جوهر نفسه بفضل من زوَّدوه بها من اللغويين أمثال خلف الأحمر أستاذه ، ومضى ينهلها من ينابيعها الصافية فى البادية ، فأقام بها حولاً كاملا[٨] ، يعبُّ منها ويرتوى . وأكبَّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيد والرجز يستظهرها ، حتى قالوا إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال[٩] ، وإنه حفظ

---

(١) انظر أشعاراً مماثلة فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ( طبع دار المعارف ) ص١٢٣ .
(٢) المهرجان : من أعياد الفرس .
(٣) النوكروز : عيد النيروز .
(٤) جشن : من أعياد الفرس . جاهنبار : الدعوة العامة .
(٥) آبسال : ابتداء الربيع. الوهار : المشرق.
(٦) خره : موضع الشرب ، أو عيد ، إيران شار : إيران العزيزة .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب ) ٥/١٧٦ .
(٨) أخبار أبى نواس لابن منظور (طبع مصر ) ص ١٢ .
(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ( طبع دار المعارف ) ص ١٩٤ .

سبعمائة أرجوزة غير ما كان يحفظه من قصائد الجاهليين والمخضرمين والأمويين[١] ، وفيه يقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبى نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه[٢] » ويقول أبو عمرو الشَّيْبانى العالم اللغوى المشهور : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم القول[٣] » .

ولم يكن أبو نواس وحده الذى حذق العربية وبرع فيها ، فقد كان من سبقوه وعاصروه من الشعراء لا يقلُّون عنه براعة وحذقاً بأساليبها ، ويكفى أن نرجع إلى بشار الفارسى الأصيل زعيم المحدثين فسنراه يعلل لإتقانه العربية بنشأته فى بنى عُقَيْل وتبدِّيه أعواماً طويلة ، يقول : « وُلدت ههنا (فى البصرة) ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيْل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيْفَعْتُ فأبديتُ ( دخلت البادية ) إلى أن أدركت ( بلغت الحُلُم ) فمن أين يأتينى الخطأ »[٤] . ولم تكن المسألة مسألة خلو كلامه من الخطأ ، إنما كانت — فى حقيقتها اكتساب السليقة العربية ، حتى غدا كأنه عربى أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون به طويلا[٥] .

وبشار من خير الأمثلة على مدى استيعاب العباسيين ممن يرجعون إلى أصول غير عربية لصورة الشعر العربى بقصيده ورجزه ، وتُرْوَى له فى ذلك طرائف كثيرة ، منها ما رواه أبو الفرج من أنه استمع إلى عقبة بن رُؤْبة وهو ينشد عقبة ابن سلم والى البصرة أرجوزة يمدحه بها ، فلما فرغ منها قال له : هذا طراز لا تحسنه يا أبا مُعاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (يريد العَجَّاج) . ومضى إلى منزله فألَّف أرجوزة بديعة ، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤْبة ، وهى التى يستهلها بقوله :

يا طَلَلَ الحىِّ بذات الصَّمْدِ    بالله خَبِّر كيف كنت بعدى[٦]

فطرب عقبة بن سلم وكافأه مكافأة كبيرة ، وانكسر عقبة بن رؤبة انكساراً

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٢) أخبار أبى نواس ص ٦ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤٩/٣ وما بعدها .
(٥) أغانى ١٤٣/٣ وما بعدها .
(٦) ذات الصمد : موضع .

شديداً[١] ، ويُرْوَى أنه أُنشد فى شعر الأعشى الكبير :

وأَنكرتْنِى وما كان الذى نَكِرَتْ    من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى ، ولم يلبث الرواة أن تحققوا من قوله[٢] . وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته فى سلم بن قتيبة :

بَكِّرا صاحبىَّ قبل الهَجِيرِ    إن ذاك النجاح فى التَّبْكيرِ

فلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : بلغنى أن سلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . وقال له خلف : لو قلت مكان ( إن ذاك النجاح فى التبكير ) ( بكِّرا فالنجاح فى التبكير ) كان أحسن . فأجابه بشار : « إننى بنيتها أعرابية وحشية فقلت : ( إن ذاك النجاح ) كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت ( بكِّرا فالنجاح ) كان هذا من كلام المولَّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف ، فقبَّل بين عينيه[٣] » .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسى يحوِّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل خصائصها وكل شاراتها ، يعينه فى ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها تجاه سمعه وتحت بصره . وشركهم فى ذلك بعض الشعراء على نحو ما هو معروف عن أبى تمام ، ومجموعاته الشعرية التى انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ، وفى مقدمتها ديوان الحماسة . ولم يكتف اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا للشعراء أقيسة اللغة فى الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه . وبذلك وضعوا فى أيديهم جميع الآلات التى تعينهم لا على التثقف بالعربية والتدرب عليها فحسب ، بل أيضًا على أن يتقنوا التعبير بها والتصرف فيها حسب حاجاتهم الوجدانية والعقلية والحضارية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيَّئوا للشاعر العباسى من العلم بالشعر القديم

---

( ١ ) أغانى ٣ / ١٧٤ وانظر ابن المعتز ص ٢٥ والموشح ص ٣٦٦ .

( ٢ ) أغانى ٣ / ١٤٣ .

( ٣ ) أغانى ٣ / ١٩٠ .

ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعوه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها ، وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرف باسم أسلوب المولدين ، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعُدَّة من الذوق الحضري الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنْفَى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنْفَى عنه ألفاظ البدو الحوشيَّة . وكان من الشعراء نَفَرٌ يسرفون على أنفسهم فى النهج على أساليب الرُّجَّاز المحشوة بأوابد الألفاظ ، ولكنهم كانوا يُعَدُّون نابين على ذوق العصر ، ومن خير مَنْ يمثل ذلك ابن مناذر ، وقد تعرَّض له أبو العتاهية يوماً قائلاً : « إن كنت أردت بشعرك العَجَّاج ورؤبة فما صنعتَ شيئاً ، وإن كنت أردتَ أهل زمانك فما أخذت مآخذنا[١] » . وأبو العتاهية إنما يشير إلى ما حدث لأساليب اللغة فى عصره ، فقد تناولها فى الحاضرة صُنَّاع مَهَرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكَزَّة . وليس ذلك فحسب فإنهم أشاعوا فى هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر ، يهديهم فى ذلك ذوقهم المتحضر الدَّمِث الذى ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة .

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العباسى الأول إلى استحداث أسلوب مولَّد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، تُخْتار الكلمات فيه ، وكأنما هى جواهر تختار فى عقود ، إذ تحوَّل الشعراء إلى ما يشبه الصَّاغة ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته فى صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التى يحسن وقعها فى السمع والتى تصنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

وبشار فى طليعة من أرْسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب[٢] » . وأسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٩٠ والموشح ص ٢٩٥ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨ .

الشعراء توزَّعوا بين من يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذى عمَّم ذلك فى الشعر الرسمى : شعر المديح ، والشعر الشخصى : شعر الخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة فى الشعر الرسمى ، وفى بعض شعره الشخصى ، وكثيراً ما يعمد فى الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة . على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى إليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوة البناء والرصانة ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الأسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك رُدَّ الأسلوب المولد إلى قوة السبك وضخامة البناء . وحقًّا جمد بعض الشعراء وأسرفوا فى الاقتداء بأساليب القدماء من الرجاز وأضرابهم ، ولكنهم سقطوا صَرْعَى فى الميدان الفنى ، إذ ازورَّ عنهم جمهور الشعراء منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبي تمام . أو تحت لواء أبي العتاهية وأبي نواس ، بحيث ينتخب الشاعر أنصع الألفاظ وأجزلها وأرشقها وأعذبها مكوِّناً أصداف شعره وجواهره المتألقة .

٢

## طوابع عقلية دقيقة

رأينا فى الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية فى هذا العصر رقيًّا بعيداً . وهو رقى هيأتْ له الكتب الكثيرة التى ترجمت عن الهنود والفرس واليونان ، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء ، وهى مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل ، الذى ما ينى صاحبه يحاور ويناظر ، متناولا كل شىء ، حتى يصقل عقله ، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة . وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء ، ليصوروه له ، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه ، وفى ذلك يقول بشار [1] :

---

(١) عيون الأخبار ١٢٣/٢ وأدب الدنيا والدين للماوردى ( طبعة الحلبى ) ص ٥٠ .

شفاءُ العَمَى طولُ السؤال وإنما دوامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجَهْلِ
فكُن سائلا عما عَنَاك فإنما دُعِيتَ أخا عَقْلٍ لتبحثَ بالعَقْل

ولم يكن الشاعر العباسى يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه فى السؤال فحسب ، بل كان يلتمسها أيضًا فى الكتب المترجمة من كل صنف ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير ، يشرح فيها أنه فى بيت كتبه ، وكنوزُ الآداب من حوله ، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعاً ، يقول(١) :

هم مؤنسون وأُلاَّفٌ غَنِيتُ بهم فليس لى فى أَنيسٍ غيرهم أَربُ
فأَيما أَدبٍ منهم مددتُ يدى إليه فهْو قريبٌ من يدى كَثَبُ(٢)
حتى كأَنى قد شاهدت عَصْرهمُ وقد مضتْ دونهم من دهرهم حِقَبُ

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة فى عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة وما كانوا يجدون فى ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة . وقد مضوا يتمثلون كثيراً من هذه الألوان ويحيلونها غذاء شعريًّا بديعاً ، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى ، وما لم يحيلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد . ولنقف قليلا عند الثقافة الهندية ، فقد لاحظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها فى أشعاره ، من ذلك قوله فى الخمر :

تُخُيِّرَتْ والنجوم وُقْفٌ لم يتمكَّن بها المَدَارُ

يقول ابن قتيبة : « يريد أن الخمر تُخُيِّرَتْ حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفةً فى بُرْج ثم سيَّرها من هناك ، وأنها لا تزال جاريةً حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه ، وإذا عادتْ إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت(٣) » . وينشد ابن قتيبة قول أبى نواس فى بعض المغنين هاجياً :

---

(١) الحيوان ١/٩٥ .
(٢) كثب : قريب .
(٣) الشعر والشعراء ص ٧٧٤ .

قُلْ لزهيرٍ إذا حَدا شَدا أَقْلِلْ أَو أَكثِر فأَنت مِهْذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حَ تَّى صِرتَ عندى كأَنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثَّلْجُ باردٌ حارُ

ويعلق بقوله : « هذا الشعر يدلُّ على نظر أبى نواس فى علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذياً ، ووجدتُ فى بعض كتبهم : لا ينبغى للعاقل أن يغترَّ باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شَرِس الطبع بمنزلة الحية إن وُطِئَتْ فلم تَلْسَعْ لم يُغْتَرّ بها فيُعاد لَوْطئِها ، أو سمح الطبع بمنزلة الصَّنْدل الأبيض البارد إن أفرط فى حَكّه عاد حارًّا مؤذياً[١] » . وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه الفرس عن الهندية ، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعراً بكل ما فيه من قَصَصٍ وحكم . وكان أثره عميقاً فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال ، ونرى ابن عبد ربه فى العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هى : « إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة فى غيره من المال » ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال[٢] :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية فى الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية ، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية ، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبى نواس ، بل أيضًا بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتَّابى ، وكان يعكف على قراءة كتبها ، ورآه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها ، فسأله متعجباً : لِمَ تكتب كتب العجم ؟ فأجابه منكراً سؤاله : وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم[٣] . وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٧٧ .
(٢) العقد الفريد ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ١٤٢/١ .
(٣) كتاب بغداد لطيفور ص ٨٧ .

وحكمهم ووصاياهم فى الصداقة والمشورة وآداب السلوك والسياسة ، ومن يرجع إلى بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة فى إحدى مدائحه ، يقول فيها[١] :

إذا بَلَغَ الرَّأْىُ المَشُورَةَ فاستَعِنْ    برأىِ نَصيحٍ أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشُّورَى عليك غضاضةً    مكانُ الخَوافِى نافعٌ للقوادمِ[٢]

وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير الفارسى إلى العربية ودارت فى كتب الأدب ، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة ، من مثل قوله : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » وقد أخذه بعض الشعراء وزاد عليه قائلا[٣] :

فأَنفقْ إذا أَنفقتَ إن كنت موسِرًا    وأَنفق ــ على ماخيَّلتْ[٤] ــ حين تُعْسِرُ
فلا الجودُ يُفْنِى المال والجَدُّ مقبلٌ    ولا البخل يبقى المالَ والجَدُّ مُدبرُ[٥]

ويقال إنه كان فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم[٦] .

ولا ريب فى أن الثقافة اليونانية كان تأثيرها فى الشعر والشعراء أعمق وأبعد غوراً ، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفى وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته ، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعانى واستخراج دقائقها . وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة ، بل كان منهم من ألف فى المنطق[٧] ، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله . وكان مما تُرْجِمَ لهم من تلك الثقافة مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر المقدونى عند وفاته ، وقد نقل منها أبو العتاهية أطرافاً إلى مراثيه[٨] فى صديقه على بن ثابت ، من ذلك أن أحدهم وقف عند رأسه ، وقال : سكنت حركة الملك فى لذاته وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده ، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ وانظر ص ٢١٤ .
(٢) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر والخوافى : الريش القصير .
(٣) عيون الأخبار ٣/١٧٩ .
(٤) على ماخيلت : على أى حال .
(٥) الجد : الحظ .
(٦) التحفة البهية ص ٢١٧ .
(٧) معجم الأدباء ( طبعة القاهرة ) ١٧/٢٧ .
(٨) أغانى ( طبع دار الكتب ) ٤/٤٤ والبيان والتبيين ١/٤٠٧ وزهر الآداب للحصرى ٣/٩١ .

يا عليَّ بن ثابت بان مني صاحبٌ جَلَّ فَقْدُهُ يوم بِنْتَا
قد لعمري حَكَيتَ لى غُصَصَ المو ت وحرَّكتني لها وسكَنْتَا

وقال فيلسوف آخر : « الإسكندرُ كان أمس أنطقَ منه اليومَ ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس » . فتمثَّله أبو العتاهية فى مرثية أخرى لصديقه على هذا النمط :

بكيتك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاءُ عليك شَيَّا
كَفَى حُزْناً بِدَفْنِكَ ثم أنى نفضتُ تراب قبرك عن يدَيَّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيَّا

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن كثيراً من أقوال المسيح فى الأناجيل نقل إلى العربية وتداوله الوعاظ فى وعظهم كما تداوله شعراء الزهد ، واستوحوه فى كثير من أشعارهم ، من ذلك ما يروى عن المسيح من أن قومه عيَّروه بالفقر ، فقال : من الغِنَى أُتيتم ، واستوحى محمود الوراق هذا المعنى وزاد عليه إيضاحاً وتبييناً بقوله[١] :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغِنَى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضلهِ على الغِنى إن صحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصى كى تنال الغِنَى وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وسنعرض فى ترجمتنا لأبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس بعض ما دخل على الزهد من عناصر غريبة بوذية أو مانوية .

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة ، وكان لعنايتها بها أثر واسع فى الشعر والشعراء ، بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر العباسى فى هذا العصر مقام السكان والمجداف من السفينة ، فهى تثيره وتدفعه إلى أن يزيد محصوله من جميع المعارف والمعتقدات ، وأن يتمثلها إلى أبعد حد ممكن . وبدءوا بأنفسهم فتثقفوا أروع ما يكون التثقف بكل ما ترجم عن الهنود والفرس واليونان ، وعكفوا على الفلسفة اليونانية عكوفاً جعلهم يقفون على كل شعبها وكل مناحيها فى الفكر الدقيق ، ولم يلبثوا أن استكشفوا لأنفسهم عالمهم العقلى الذى يموج بطرائف الذهن فى جميع

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٩ .

المعانى الحسية والعقلية . وكانوا ما يزالون يحاورون أصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضًا فى غوامض الفلسفة ، محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط ، وكثيراً ما ردوا على فلاسفة اليونان واشتقوا لهم آراء جديدة ، يدعمها العقل الذى شغفوا به وبأدلته وبراهينه ، وهو شغفٌ صوره منهم بشر بن المعتمر تصويراً طريفاً ، إذ يقول(١) :

للّه درُّ العقل من رائدٍ وصاحبٍ فى العُسْر واليُسرِ
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ قضية الشاهد للأمْرِ
وإن شيئاً بعضُ أفعاله أَن يفصل الخَيرَ من الشَّرِّ
لذو قُوًى قد خصَّه ربُّهُ بخالص التقديس والطُّهْرِ

وقد سخَّر بشر عقله فى الرد على أصحاب المقالات والنِّحَل وفى نظم قصائد تدخل فى التاريخ الطبيعى يتحدث فيها عن مشاهد الطبيعة ودلالتها على قدرة الصانع الأكبر . وكان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبعدوا بشعرهم عن دوائر الشعر المألوفة من المديح والغزل والهجاء والرثاء والوصف ، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعانى ومن غرائب الأخيلة والصور ، على نحو ما يلقانا عند العتَّابى والنظَّام ، وسنخص كلاًّ منهما بحديث مستقل فى الفصل السابع .

وقد سرت هذه الطوابع فى شعر الشعراء ، وخاصة من التحموا منهم بالمعتزلة ومباحث المتكلمين ، ويكفى أن نصور ذلك عند ثلاثة من الشعراء النابهين هم : بشار وأبو نواس وأبو تمام . فأما بشار فكان يُعَدُّ من أصحاب الكلام ، وكان يكثر من الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويستمع إلى ما يجرى فيها من حوار بين أصحاب الملل والنحل سماوية وغير سماوية ، وتشوَّش عقله ، فإذا هو يصبح زنديقًا ، مما سنعرض له فى ترجمته . وكان من أهم المشاكل التى يحاور فيها واصل خصومه مشكلة الجبر والاختيار ، وكان يرفض فكرة الجبر وتعطيل إرادة الإنسان أمام إرادة الله المطلقة ، لما يؤدى إليه ذلك من فقدان الإنسان لحريته فى أعماله وأنه كتبها عليه القضاء المحتوم ، وأيضًا لما يؤدى إليه ذلك من

---

(١) الحيوان ٦/٢٩٢ .

ظلم الله للناس فهو يكتب عليهم الشقاء ويأخذهم به ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يأتون من أفعال وأقوال إنما يأتونه بإرادتهم وحريتهم ، وهم لذلك مسئولون عنه ومحاسَبون . وقد مضى بشار فى أشعاره يعارض واصلا فى هذه المشكلة الإنسانية الكبرى ، مصرًّا على أن الإنسان مسيَّر فى رحلته الدنيوية بقضاء يخطُّ له غده ومستقبله ، وفى ذلك يقول(١) :

طُبِعتُ على ما فىَّ غيرَ مُخَيَّرٍ هَوايَ ولو خُيِّرتُ كنت المهذَّبا
أُريد فلا أُعْطَى وأُعطى ولَم أُرِدْ ويَقْصُر علمى أن أَنالَ الْمُغَيَّبَا
فأُصْرَفُ عن قصدى وعلمى مقصِّر وأُمسِى وما أُعْقِبتُ إلا التعجُّبَا

وربما كان لفقده بصره أثر فى اعتناق هذا المذهب . وأهم من هذه المشكلة وأدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الطوابع العقلية الدقيقة التى تغلغلت فى الشعراء العباسيين وأشعارهم أننا نجد عنده استدلالات عقلية كثيرة على نحو ما مرَّ بنا فى أبيات الصداقة والصديق ، كما نجد عنده توليدات وتشعيبات للمعانى التى طرقها القدماء لا تكاد تحصى ، مع محاولة الإطراف والإتيان بالمعنى المبتكر والصورة البديعة . ولنقفْ قليلا عند معنى طول الليل الذى وقف عنده امرؤ القيس ، فى معلقته ، إذ يقول :

فيا لك من ليلٍ كأَن نجومه بكل مُغار الفتْل شُدَّتْ بِيَذْبُل(٢)

فهو يتصور نجوم الليل لطوله الشديد كأنما سُمِّرَتْ ، فهى لا تريم . وقد مضى الجاهليون والإسلاميون بعده يتناولون هذا المعنى ، وقلما أضافوا إليه إضافة جديدة ، حتى إذا كان بشار أخذ يتناوله بِطُرُقٍ مختلفة تدل دلالة بينة على دقة العقل العباسى وقدرته على التعليل والتحليل وأنه يستطيع أن يؤدى المعنى القديم فى معارض جديدة شديدة الروعة ، من ذلك قوله(٣) :

خليلىَّ ما بالُ الدُّجَى ليس يَبْرَحُ وما بالُ ضوءِ الصبح لا يتوضَّحُ
أَضلَّ الصَّباحُ المستنير طريقَهُ أَم الدَّهرُ ليلٌ كلُّه ليس يَبْرَحُ

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٣ / ٢٢٧ .
(٢) مغار : محكم . يذبل : جبل .
(٣) الديوان ٢ / ١٠٤ .

وهو خيال زاخر بالحركة ، وفيه تعميم ، فقد تحول الدهر ليلا مظلماً لا آخر له . ويعود إلى التفكير فى نفس المعنى ، وما يزال يلحُّ فى التفكير والتخيُّل حتى تتكوَّن له صورتان جديدتان لا تقلان طرافة عن الصورتين السابقتين ، إذ يقول عن نفسه وقد بات ليلة مسهَّدة إثر فراقه لإحدى صواحبه(١) :

كأَنَّ جفونه سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فليس لوَ سْنَةٍ فيها قَرارُ
أَقول وليلتى تزداد طولا أَما لليل بعدهمُ نهارُ
جَفَتْ عَيْنِى عن التغميض حتى كأَن جفونها عنها قِصارُ

ولكن أيكفيه أن يعلل لمعنى طول الليل القديم وما يُطْوَى فيه من السهر بهذه العلل البارعة ؟ أو لا ينبغى أن يسلك مسالك المتكلمين والمعتزلة لا فى الإتيان بالعلل الخفية المستورة وإنما فى الإتيان بما ينقض المعنى نقضاً من أساسه على شاكلتهم فى محاوراتهم ومداوراتهم ؟ وإذن فلينقض ما يقال من طول الليل ، إنما هو السهر والسهاد الطويل الذى يخيِّل إليه كأن الليل يطول ، والليل مظلوم ، وفى ذلك يقول : (٢)

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَم ونفَى عنى الكرَى طَيْفٌ أَلَمّ

وتشيع هذه القدرة على التعليل الطريف فى جميع جوانب شعر بشار ، كما تشيع معها قدرته على تقليب المعانى والاحتيال للتوليد فيها والتفريع ، على شاكلة قوله (٣) :

وعِىٌّ الفِعال كعىِّ المقالِ وفى الصَّمت عِىٌّ كعِىِّ الكَلِمْ

فقد جعل العِىَّ أقساما ، فهو لا يكون فى الكلام فحسب ، بل يكون أيضاً فى الصمت حين يكون واجباً ويكون الكلام ثرثرة ، بل إنه يكون أيضاً فى الفعال السقيمة .

ولعل فى ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة ومباحثهم بشاراً هذه الطوابع العقلية التى جعلته يمتاز فى شعره بشخصية قوية . ولم يكن ما مُنحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظّاً وقدراً ، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار ،

(١) الديوان ٣/٢٤٩ .
(٢) أغانى ٣/١٥١ .
(٣) البيان والتبيين ١/٤ .

إذ كان يغدو ويروح فى نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة ، وفى أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم ، من ذلك فكرة التولد ، وهى الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فقد صدر عنها فى قوله متغزِّلاً بجَنان [١] :

وذاتِ خَدٍّ مورَّدْ فَتَّــانة المتجرَّدْ
تـأَمَّلُ العين منها محاسناً ليس تنفَدْ
فبعضُها قد تناهى وبعضها يتــولَّدْ

ومن ذلك فكرة الجزء الذى لا يتجزَّأ أو فكرة الجوهر الفرد ، وكان النظَّام ينكره ، وتجادل فيه طويلا مع نظرائه من المعتزلة ، وقد ألمَّ بها أبو نواس فى قوله متغزلا[٢] :

يا عاقدَ القلب عنى هلا تذكرتَ حَلاَّ
تركتَ منى قليلا من القليل أَقَلاَّ
يكاد لا يتجــزَّا أَقلَّ فى اللفظ من لا

ويقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات ، فقال له : « أنت أشعر الناس فى فى هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ — منذ دهرنا الأطول — نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت فى بيت واحد[٣] » . ومن ذلك قوله فى شخص كان يبغضه[٤] :

كمنَ الشَّنـآنُ فيه لنا ككمُونِ النارِ فى حَجَرِهْ

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظَّام مع بعض معاصريه طويلا ، إذ كان يرى أن الله جَلَّ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم أكمن بعضها فى بعض على نحو ما أكمن فى آدم أبناءه . ومما كان يحاوره فيه أبو نواس فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهى إحدى الأفكار الأساسية فى عقيدة المعتزلة ،

(١) البيان والتبيين ١/١٤١ .
(٢) نفس المصدر والصفحة ، وانظر فى أشعار أخرى له تزخر بألفاظ المتكلمين أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٤) الديوان ( طبعة آصاف ) ص ٦٧ .

كما مر بنا فى الفصل السابق ، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التى قال بها المرجئة والتى تذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوه ، وكان أبو نواس يَصْدر عن فكرة المرجئة فى حواره للنظام بمثل قوله فى إحدى خمرياته(١) :

فَقُلْ لمن يَدَّعى فى العلم فلسفةً ... حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ
لاتَحْظَرِ العفو إن كنت امرءًا حَرِجاً ... فإن حَظْرَكه بالدين إزْراءُ

وقد فتقت مجالس المعتزلة والمتكلمين عقل أبى نواس ، فإذا هو يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالمعانى المبتكرة والأخيلة المبتدعة من مثل قوله (٢) :

لا أذود الطير عن شَجَرٍ ... قد بلوتُ المُرَّ من ثَمرِه
خِفْتَ مأْثور الحديث غَدًا ... وغَدٌ دانٍ لمنتظـرِه

وقوله (٣) :

وكأْسٍ كمصباح السماء شربتها ... على زَوْرَةٍ أو موعدٍ بلقاءِ
أتت دونها الأَيامُ حتى كأنَّها ... تساقطُ نُورٍ من فُتوق سماءِ

وتلقانا فى كثير من جوانب شعره طوابع المعتزلة فى لغتهم وفى حجاجهم وفى تفكيرهم المجرد من مثل قوله يصف الخمر (٤) :

توهمتُها فى كأسها فكأَنما ... توهمتُ شيئاً ليس يُدْرَكُ بالعَقْلِ
وصفراءَ أَبقى الدهرُ مكنونَ روحها ... وقد مات من مخبورها جوهر الكُلِّ
فما يرتقى التكييف منها إلى مَدًى ... تُحَدُّ به إلا ومن قبله قَبْلُ

وقوله (٥) :

وقد خَفِيَتْ من لُطْفها فكأَنها ... بقايا يقينٍ كاد يُذْهبه الشَّكُّ

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٥٨ .
(٣) الوساطة ص ٥٩ .
(٤) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٣٦٤ .
(٥) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ١٨٣ .

وواضح ما فى هذه الأبيات من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التى تبلغ حد الوهم ، فقد جعل الخمر لا تُدْرَكُ بالعقل كأنها معنى خفى لا ينكشف ، ودعاها : « جوهر الكل » وقال إنه لا يحيط بها كَيْفٌ أو تكييف تُحَدُّ به وتُعْرَف ، وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تَبين .

وكان أبو تمام — على شاكلة أبى نواس — يتعمق الاعتزال وعلم الكلام ، بل يظهر أنه مدّ تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، وقد ألمح إلى ذلك الآمدى فى فاتحة كتابه : « الموازنة بين الطائيين » فقال إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة . وتتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله فى هجاء بعض خصومه[(١)] :

هَبْ مَن له شىءٌ يريد حِجَابَهُ ما بالُ لا شىءٍ عليه حِجابُ

وكلمة لا شىء فى اصطلاح المتفلسفة تعنى العدم . ومن ذلك قوله [(٢)] :

لن ينال العُلا خصوصاً من الفِتْ يانِ من لم يكن نَداه عموما[(٣)]

والعموم والخصوص من كلام المناطقة . ومن ذلك قوله فى أحد ممدوحيه [(٤)] :

صاغهم ذو الجلال من جوهر المَجْ دِ وصاغ الأَنام من عَرَضِهْ

والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض . وفى أشعاره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية ، وعلى رأسها مذهبا الاعتزال والجهمية ، يقول فى أبى سعيد الثَّغْرى أحد القواد المشهورين فى عصره[(٥)] :

عَمْرِىُّ عُظْم الدين جَهْمِىُّ النَّدَى يَنْفى القُوَى ويُثَبِّتُ التكليفا

وهو فى أول البيت يجعله عمرى العقيدة ، يريد أنه على مذهب عمرو بن عُبَيْد إمام المعتزلة بعد واصل بن عطاء ، فهو يأخذ — كما يأخذ عمرو وأصحابه — بفكرة

---

(١) ديوان أبى تمام ( طبع المطبعة الأدبية ببيروت ) ص ٤٣٦ .

(٢) نفس الديوان ( طبعة دار المعارف ) ٢٢٥/٣ وانظر الطبعة السابقة ص ٢٥٩ .

(٣) الندى : الكرم .

(٤) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٣١٧/٢ وطبعة بيروت ص ١٦٨ .

(٥) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٣٨٧/٢ وطبعة بيروت ص ١٨٥ .

حرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان يتصرف كما يشاء له عقله ، ولا يلبث أن يجعله فى نداه وكرمه على مذهب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول — كما يقول المعتزلة — بوجوب التكاليف الشرعية بينما كان يؤمن بالجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية . وكل ذلك ليبالغ فى مدح أبى سعيد بالكرم وأنه قدر مقدور عليه ، لا يستطيع عنه حِوَلا . ويعود إلى مذهب جهم ، ولكن لا فى الجبر وإنما فى أسماء الله وصفاته ، فقد كان يمتنع عن تسميته باسم ، حتى لا يُثْبت عليه شيئًا من التشبيه بالمخلوقات . وقد استمد أبو تمام من هذه الفكرة الدقيقة فى نعته الخمر ، إذ يقول [1] :

جَهْمِيَّةُ الأَوْصاف إلا أنهم     قد لقَّبوها جَوْهَرَ الأَشياءِ

فالخمر فى رأيه رقَّت حتى كادت لا تَبِين ، بل حتى كادتْ لا تسمى — على مذهب جهم — باسم ، ولكنها لعظم شأنها لُقِّبَتْ جوهر الأشياء . ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل فى معرفة مذاهب المتكلمين ، وهو تغلغل التحم بتغلغله فى قراءة الفلسفة ، فإذا شعره يُطْبَعُ بطوابع الفكر الدقيق ، وهو فكر يجلِّله الغموض فى كثير من جوانبه ، ولكنه الغموض الزاهى الذى يلذ العقل والشعور ، والذى ما تزال توليداته واستنباطاته الخفية فيه تروع قارئه روعة شديدة ، وهى روعة جعلت القدماء يقولون إنه أكثر العباسيين اختراعاً وابتكاراً [2] . ولا تقف المسألة فى شعره عند اختراع بعض المعانى وابتكار بعض الصور ، فقد نشر فى صحف أشعاره التضاد الذى يقف عنده المناطقة واستخرج منه ما لا يحصى من المعانى والصور الجديدة ، كقوله يصور جمال إحدى صواحبه : [3]

بيضاءُ تَسْرِى فى الظلام فيكتسى     نوراً وتَسْرُبُ فى الضِّياء فيُظْلِمُ

فقد جعلها تكسف نور الشمس ببهائها ، وكأنها القمر يكسف ضوء الكواكب حتى ليصبح ضياء النهار مظلماً لشدة نورها . وهو تضاد بديع ، فالضياء يظلم . ويمكِّن لهذا المعنى ويزيده عمقاً فيقول واصفاً إحدى صواحبه فى ساعة الوداع [4] :

---

(١) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/٣٤ وطبعة بيروت ص ١٢ .

(٢) انظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١/١٧٧ ، ٢/١٨٩ .

(٣) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٣/٢١٣ وطبعة بيروت ص ٢٥٢ .

(٤) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٣/٢٤٩ وطبعة بيروت ص ٢٧٧ .

وَلِهَتْ فأَظلمَ كل شيءٍ دونها وأنار منها كلُّ شيءٍ مظلمِ

فهى تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ، وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً ما يمتدّ هذا التضاد فى وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول[1] :

لعابُ الأفاعى القاتلاتِ لُعَابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشتارَتْه أَيْدٍ عَواسِلُ[2]

له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وَقْعَها بآثاره فى الشرق والغرب وابِلُ[3]

فصيحٌ إذا استنطقته وهْو راكبٌ وأَعجمُ إن خاطبته وهْو راجل[4]

وكثير ممن كانوا وراء أبى تمام وأبى نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة فى الإتيان بطرائف المعانى والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكبُّون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم فى أشعارهم أن يشيعوا فيها المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة .

٣

### التجديد فى الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون فى الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربى على شخصيته الموروثة ، وقد مضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة ، فإذا هى تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل الوثيق .

---

(١) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١٢٣/٣ وطبعة بيروت ٢٢٩ .

(٢) لعاب الأفاعى : سمها . والأرى : العسل واشتاره : جناه .

(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوابل المطر الغزير .

(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه إمساك الأصابع به للكتابه .

وأول موضوع نقف عنده المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى والإسلامى كان يرسم فى ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو واليًا عرض لأعماله ، وللأحداث التى شارك فيها ، أما إذا كان بطلا يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة فى العصر العباسى ، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة فى السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيما قويًّا ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبث فى الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذى لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها فى النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحُكْم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتًا قويًّا لها ، صوتا ما ينى يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى مطلع قصيدة للمهدى (١) :

أَحْيَا أَميرُ المؤمنين محمدٌ  سُنَنَ النبيِّ : حَرَامَها وحلالَها

وفيه يقول الحسين بن مُطَيْر (٢) :

يعِفُّ ويَسْتحِيى إذا كان خاليا  كما عفَّ واستَحْيَا بحيث رَقيبُ

ويقول أبو العتاهية فى هرون الرشيد (٣) :

وراعٍ يُراعى الله فى حِفْظ أُمَّةٍ  يدافع عنها الشرَّ غير رَقُودِ

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٨٩ .
(٢) أغانى ١٦/٢٣ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليستْ بدار خلودِ

وفيه يقول منصور النَّمَرى[1] :

بُورِكَ هرونُ من إمامٍ بطاعة الله ذى اعتصامِ
له إلى ذى الجلال قُرْبَى ليست لِعَدْلٍ ولا إمام

وقد يكون الخليفة سيئ السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التى تطلبها الأمة فى خليفتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسى ، الذى يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب فى الحكم والخلافة ، وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين ، وهيأ لظهور أحزاب الخوارج والشيعة ، ومعروف أن حركة الأولين خمدت فى هذا العصر ، أما حركة الشيعة فظلت مضطرمة ، وسنعرض لشعرائها وأشعارهم السياسية فى الفصل السادس ، وأيضًا لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة فى مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضًا الأحداث التى وقعت فى عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح فى هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهى تسجل الأحداث التى عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التى ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية ، ومن أجل ذلك كنا نرى الطبرى فى تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء فى الحادث الذى يرويه ، وليجلوه جلاء تامًّا على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ ، وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميرى ، فإنه حوَّل أخبار على بن أبى طالب ومناقبه إلى مدائح بديعة ، وفى ترجمته بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى من ذلك طرائف كثيرة .

---

(١) أغانى ١٣/١٣٩ .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح فى هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم فى النفس العربية الاستبسال والمضاء وجِلاد الأعداء جلاداً عنيفا ، وكل كاتب فى هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن فى رسم بطولة القائد الذى يمدحه رسما يشعل الحماسة فى نفوس جنوده ونفوس الشباب العربى من ورائهم فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامى الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقًا . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التى كانت تمحق البيزنطيين محقًا ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرحة فى كل نفس ، لعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة فى آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة[1] ، وأكثر منه روعة غناء أبى تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية فى بائيته المشهورة ، وهى إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا فى حروب البيزنطيين فحسب ، بل أيضًا فى حروب الترك وبابك الخُرَّمى وغيره من الثائرين فى شرقى الدولة . ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مدحًا فحسب بل أصبحت أيضًا تاريخًا ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقًّا رسما باهراً سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم ، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دُلَف العِجْلىّ قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه[1] :

المنــايا فى مَقَانبِهِ والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ[2]

وزَحوفٍ فى صواهلــه كصياح الحَشْرِ فى أَمَرِه[3]

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٠٣ .

(٢) المقانب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر فناؤها .

(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

قُدتَه والموتُ مكتمنٌ في مذاكيه ومُشْتَجِرِه (١)
فرمتْ جِيلُوه منه يَدٌ طوتِ المنشور من بَطره (٢)
زُرتَهُ والخيل عابسةٌ تحمل البُؤْسى إلى عُقُره (٣)
فأبحتَ الخيــلَ عَقْوَته وقَرَيْتَ الطير من جَزَره (٤)
صاغك الله أبا دُلَفٍ صيغةً في الخَلْق في خِيَره
كلُّ من في الأرض من عَربٍ بين باديه إلى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرُمَةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحياناً وتضيق أحياناً ، ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد (٥) :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولا ترك الفؤادَ فراقُهم مخبولا
فإذا زجرتُ القلب زاد وَجيبُهُ وإذا حبستُ الدمع زاد هُمولا (٦)

(١) المذاكي : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .
(٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطغيان بالنعمة .
(٣) العقر : محلة القوم .
(٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى : الضيافة . والجزر : مايذبح .
(٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص٥٣ .
(٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والظعائن : النساء في الهوادج . والحمول : مايحملنه معهن .

وإذا كتمتُ جَوَى الأسى بعثَ الهوى نَفَساً يكون على الضمير دليلا[١]

واهاً لأيام الصِّبا وزمانِه لو كان أمتع بالمُقَام قليلا

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه ، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله[٢] :

قَصْرٌ عليه تَحيَّةٌ وسلامُ نشرتْ عليه جمالَها الأيامُ

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء ، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقداً ، على شاكلة قول مسلم[٣] :

ومَجْهلٍ كاطِّراد السيف مُحْتَجِزٍ عن الأدلَّاء مسجور الصياخيدِ[٤]

تمشى الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد[٥]

فالرياح من شدة الحر وما يجرى فى قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق . وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشى محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار فى بائيته[٦] ، يصور ما نال أُتن الوحش من حرقة العطش الشديد :

غدتْ عانةٌ تشكو بأبصارها الصَّدَى إلى الجَأْبِ إلا أنها لا تخاطبُهْ[٧]

وهى صورة تخفق بالحياة ، إذ مثَّل العطش فى غَوْر أحداقها ، حتى لتهمُّ بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنَّى لها ذلك وهى عجماء لا تُبين . وكان الشاعر القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة الكلال والإعياء ، حتى ليشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزالاً ، وردَّد الشاعر

---

(١) جوى الأسى : ناره وحرقته .

(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٥٤ .

(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع صيخود وهو اليوم اللافح الحر .

(٥) الجلاميد : الصخور .

(٦) انظر القصيدة فى الديوان ١ / ٣٠٥ .

(٧) العانة : القطيع من الأتن . الجأب : حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين فى أحداقها فغارت .

العباسى هذا المعنى طويلا محاولا الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبى الشيص مخاطباً أحد ممدوحيه وواصفاً نحول نوقه ونحول راكبيها[١] :

أَكل الوَجيفُ لحومَها ولحومَهم     فأَتوك أَنقاضاً على أَنقاضِ[٢]
ولقد أَتتْك على الزمان سواخطاً     فرجعن عنك وهُنَّ عنه رَواضى

وتحول الشاعر العباسى فى أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض فى الحاضرة ومناظرها البهيجة فى الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبى تمام فى مديح المعتصم التى يستهلها بقوله[٣] :

رَقَّت حواشى الدَّهر فهْى تَمَرْمَرُ     وغدا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يتكسَّرُ[٤]

وقد مضى يتحدث فى إسهاب عن جمال الطبيعة فى الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها فى الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير فى الصحراء ، مثل قول بشار فى إحدى مدائحه للمهدى[٥] :

وعذراءَ لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ     قليلة شكوى الأَيْنِ مُلْجَمةِ الدُّبْرِ[٦]
إذا ظَعَنَتْ فيها الفُلول تشَخَّصَتْ     بفُرسانها لا فى وُعوثٍ ولا وَعْرِ[٧]
تُلاعب تيَّارَ البحور وربما     رأَيتَ نفوس القوم من جَرْيِها تَجرِى

وجعلتهم موجة المجون الحادة فى العصر يصفون فى مقدمات مدائحهم الخمر أحيانا ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُنوا على نحو ما عنى الشاعر القديم ببثِّ الحكم فى قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه فى تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم فى الحياة والطباع ، من مثل قول أبى تمام فى فضل المحسود ونقص الحسود[٨] :

---

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .
(٢) الوجيف : السير السريع .
(٣) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٢/١٩١ وطبعة بيروت ص ١٣٩ .
(٤) تمرمر : تموج ليناً ونعومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتثنى .
(٥) أغانى طبعة دار الكتب ) ٣/٢٤٢ .
(٦) الأين : الإعياء .
(٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .
(٨) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/٤٠٢ وطبعة بيروت ص ٧٨ .

وإذا أَراد الله نَشْرَ فضيلةٍ  طُوِيَتْ أَتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ  ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْف العود (١)

وهو كثير الحكم فى مدائحه ، وقد صبَّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ، بحيث يعد مقدمة قوية لابن الرومى والمتنبى . وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر ونوازله ، وبذلك كانت مدائحه تسكب القوة فى نفس كل عربى ، لا بما يصور من بسالة الأبطال والقواد فى الحروب فحسب ، بل أيضًا بما يودعها من فتوة عارمة على شاكلة قوله (٢) :

أَعاذلتى ما أَخشنَ الليلَ مركبا (٣)  وأَخْشَنُ منه فى المُلِمَّات راكبُهْ
ذَرِينى وأَهوالَ الزمان أُفَانِها  فأَهوالُه العُظْمى تَليها رغائبه (٤)
أَلم تعلمى أَن الزَّماع على السُّرَى  أَخو النُّجح عند النائبات وصاحبه (٥)
دَعِينى على أَخلاقىَ الصُّمِّ للتى  هى الوَفْرُ أَو سِربٌ تَرنُّ نوادِبُهْ
فإِن الحُسام الهُنْدوانىّ إنما  خشونته ما لم تُفَلَّل مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسى لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصوَّر من البطولات العربية فحسب ، بل أيضًا بما تمثَّل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم وعدلهم فى الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا فى وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التى تخصه ، وهى أوصاف طلبوا فيها وفى كل مدائحهم الفكر الدقيق والتعبير الرشيق .

---

(١) العرف : الرائحة والشذى .
(٢) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/٢٢٦ وطبعة بيروت ص ٤٤ .
(٣) يقول إن السرى فى الليل صعب ولكنه أصعب منه الفتى من الرجال الصلب .
(٤) أفانها : تفنينى وأفنيها .
(٥) الزماع : المضاء فى الأمر ، يقول : من ترك الدعة ورحل فى طلب المجد نال طلبته .

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها فى المديح الخالص ، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالا لعله أدق من اتصال المديح ، وهى حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن فى العصر الأموى ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسرابا قليلة كانت تظهر من حين إلى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعف ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء ، وقد عمت فيه روح جديدة ، إذ أخذوا يَريشونه سهاماً مصمية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية ، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء فى رسم معانيه ، تارة يَخِزون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول بشار فى هجاء ابن قزعة بشُحِّه (١)

فلا تَبْخلا بُخْل ابن قزعةَ إنه مخافةَ أن يُرْجى نَداه حزينُ
إذا جئته للعُرْف أغلق بابه فلم تَلْقَه إلا وأنت كمين

وقول أبى تمام مصوراً غيرة شخص لا فى موضع الغيرة من نسائه ، وإنما فى الغيرة على طعامه ورُغْفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه ، بل لكأنه فتك به أشد الفتك ، يقول(٢) :

صَدِّقْ أَلِيَّتَهُ إن قال مجتهداً لا والرغيفِ ، فذاك البِرُّ من قَسَمِهْ(٣)
قد كان يعجبنى لو أنَّ غَيْرَتَه على جَراذقه كانتْ على حُرَمِه(٤)
إن رُمْتَ قِتْلَتَهُ فَافتِكْ بخُبْزَتِهِ فإنَّ موقعها من لحمه ودَمِهْ

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتهوين والتحقير ،

(١) ابن المعتز ص ٢٦ .
(٢) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٥٩ وقارن بعيون الأخبار ٣/٢٤٦ .
(٣) أليته : قسمه وحلفه .
(٤) الجراذق : جمع جرذق وهو الرغيف ، معرب كرده .

وقد استمد منها حماد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله[1] :

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عَمِىَ القِرْدُ
دَنِىءٌ لم يَرُحْ يوماً إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
ولم يَحْضُرْ مع الحُضَّا ر فى خَيْرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخْشَ له ذَمٌّ ولم يُرْجَ له حَمْدُ

ويقال إن بشارا حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه . وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر ، فوصفه بالقذارة والدنس فى أبيات لعلها كانت أشد إيلاما وأوجع وخزا لنفسه من الأبيات السابقة ، إذ يقول[2] :

نهارُهُ أَخبثُ من ليلهِ ويومُه أَخبث من أَمسهِ
وليس بالمُقْلع عن غَيِّه حتى يوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[3]
ما خلق الله شبيهاً له من جِنِّه طُرًّا ومن إنسهِ
والله ما الخنزيرُ فى نَتْنِهِ بِرُبْعه فى النَّتْنِ أَو خُمْسهِ
بل ريحُه أَطيب من ريحِه ومَسُّه أَلينُ من مَسِّهِ
ووَجهُه أَحسن من وجهه ونفسه أَنبلُ من نفسهِ
وعودُه أَكرمُ من عودِه وجِنْسُهُ أَكرمُ مَن جِنْسِهِ

يقول الجاحظ : « وأنا — حفظك الله تعالى — أستظرف وضعه الخنزير بهذا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٢٩ .
(٢) الحيوان ١/٢٤٠ وأغانى ١٤/٣٣٠ .
(٣) الرمس : القبر .

المكان فى هذا الموضع حين يقول : ( وعُوده أكرم من عوده ) وأى عود للخنزير قبَّحه الله تعالى وقبَّح من يشتهى أكله » . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة الخلق . ومع أن بشارا كان فى الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد فى السفح البعيد فإن حمادا كان يستعلى عليه فى الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من باب ضيق ، محاولا أن يضع أغلال أولى الأمر فى يديه ، إذ ادَّعى عليه أنه زنديق يؤمن بإلهى النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلا فى أبيات :

يا بن نِهْيا رأْسٌ علىَّ ثَقِيلُ ... واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جَلِيلُ
ادْعُ غَيرى إلى عبادة رَبَّيْـ ... ـنِ فإنى بواحدٍ مشغولُ

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار فى الناس وجعل فيها مكان ( فإنى بواحد مشغول ) : ( فإنى عن واحد مشغول ) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج : فما زالت الأبيات تدور فى أيدى الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها وتغيَّر وجَزِع ، وقال : عرَّضنى للقتل ، والله ما قلت إلا ( فإنى بواحد مشغول ) فغيَّرها حتى يشهرنى فى الناس بما يهلكنى »[١] . وكانا جميعا زنديقين مستترين ، وكأنما خافا أن يفتضحا ويحاكمهما المهدى . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقا ثالثا هو عمارة بن حربيَّة . وله يقول[٢] :

لو كنت زنديقاً ــ عمارُ ــ حَبَوْتَنى ... أو كنت أعبد غير ربٍّ محمَّدِ
لكننى وحَّدتُ رَبِّى مخلصاً ... فجفوتَنى بُغْضاً لكل موحِّدِ

ويكثر فى هجاء بشار وغيره هتك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر فى ذلك . وتشيع فى كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ، وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا فى هجاء أبى العتاهية لعبد الله[٣] بن معن وقد جعل منه فتاة تتزين لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشاراً شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تُعَدُّ وصمة فى جبينه . وعلى نحو ما لاءموا بين مدائحهم وممدوحيهم لاءموا بين أهاجيهم ومهجويهم ، فإذا كانوا قضاة وصفوهم بالظلم ، وإذا كانوا مغنين وصفوهم برداءة الصوت ودمامة المنظر . ولعل من الطريف

---

(١) أغانى ١٤ / ٣٢٥ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤ / ٤٤٣ .
(٣) أغانى ٤ / ٢٢ .

أن نجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعبذة والعزائم على الجن والشياطين[١] .

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلى ، على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بنى سعد العشيرة القحطانيين وينظم فى ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل ، وقد رد على مذهَّبة الكميت التى تشيَّع فيها للنزاريين على القحطانيين ردًّا عنيفاً ، مما جعل أبا سعد المخزومى يهاجيه طويلا[٢] . وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به فى معركة حامية من معارك الهجاء القبلى ، ولكن مسلما أخرسه[٣] . وكان بشار يتعصب فى عصر بنى أميَّة لمواليه القيسيين تعصباً حادًّا ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب ، وأخذ يعنف بهم عنفاً شديداً ، مصوراً البغض الذى كان يحرق كبده . والجديد حقًّا فى الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلّم الخُزاعى[٤] :

وإنى لذو حِلْمٍ على أن سَوْرتى ... إذا هزَّنى قومٌ حميتُ بها عِرْضى[٥]

وإنى لأَجزى بالكرامة أهلها ... وبالحقد حقداً فى الشدائد والخَفْض

وقول بكر بن النطَّاح[٦] :

ومَن يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامِه ... ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلِ

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهتْ ... فتاة بِعِقْدٍ أَو سِخَابِ قَرَنْفُلِ[٧]

ونشط الشعراء فى الرثاء نشاطاً واسعاً ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبَّنوه تأبيناً رائعاً ، وقد صوَّروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا . وحقًّا رثاؤهم لهم يفيض بالحزن

---

(١) الحيوان ٦/٢٣٢.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٩/١٨.

(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٦٢ وانظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٢ .

(٥) السورة : السطوة وشدة الغضب .

(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .

(٧) السخاب : قلادة ، وعادة تكون من القرنفل و بعض الطيب .

واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية فى نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت ، دفاعًا يقوم على البأس والبسالة والاستطالة . وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعًا فى بعض الميادين ، حينئذ ينظم فيه الشعراء مراثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة فى القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبًّا عن حرمات الوطن ، ومن خير ما يمثل ذلك مراثى أبى تمام فى محمد بن حُمَيْد الطوسى الطائى ، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعًا ورعبًا ، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميد فى مضيق حرج ، والتف به جنود بابك، فظل قائمًا يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل عزيزاً كريمًا . وحزنت الأمة حزنًا عميقًا لموته ، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعة تصور جلده فى القتال وصبره فى النضال حتى الموت الزؤام ، على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية ، التى استهلها استهلالا بديعًا بقوله (١) :

أَصَمَّ بك النَّاعى وإن كان أَسْمَعا ... وأَصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلْقَعَا (٢)

وفيها يقول :

فَتًى كلما ارتاد الشجاعُ من الرَّدَى ... مَفَرًّا غداة المأْزِقِ ارتاد مَصرعا (٣)
فإن تَرْمِ عن عُمْرٍ تدانى به المدى ... فخانك حتى لم تجد فيه منزعا (٤)
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبةً ... فقطَّعها ثم انثنى فتقطَّعا (٥)

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد فى القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التَّيْمِىُّ بقصيدة بديعة يقول فى تضاعيفها (٦) :

أَما القبورُ فإنهن أَوانِسٌ ... بجوار قبرك والديارُ قبورُ

---

(١) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٣٥ .
(٢) المغنى : المنزل . البلقع : الخالى .
(٣) ارتاد : طلب . الردى : الموت .
(٤) المنزع : مكان نزع السهام من القوس والتشبيه واضح .
(٥) الضريبة : الرجل المضروب بالسيف
(٦) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٩٥٠ .

والناس مأْتَمهُم عليهِ واحدٌ  في كل دارٍ رنَّةٌ وزَفيرُ
عجبا لأَربع أَذْرُعٍ في خمسةٍ  في جوفها جَبَلٌ أَشمُّ كبيرُ

ولعل بطلا لم تُذْرَفْ دموع الشعراء عليه كما ذُرفت على يزيد بن مزيد الذى فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وسنلتقى فى تراجم الشعر بمراث له مختلفة ، وفى تأبينه يقول منصور النَّمَرِى(١) :

وإن تَكُ أَفنتْه الليالى وأوشكتْ  فإن له ذكراً سيُفْنِى اللياليا

وواضح ما فى هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائما فى تأبيناتهم ، إذ كانوا يتنافسون فى استنباط المعانى النادرة ، ومن طريف ما لمسلم ابن الوليد من هذه المعانى قوله فى رثاء شخص (٢) :

أَرادوا ليخفوا قبره عن عدوه  فطِيبُ تُراب القبر دلَّ على القَبر

وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع إلى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس ، فردّد ذلك الشاعر العباسى فى مراثيه ، وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات فى حقائق الموت وسنن الوجود ، من مثل قول ابن مناذر فى تأبين عبد المجيد الثقفى(٣) :

كل حَيٍّ لاقى الحِمام فمُودِى  مالحيٍّ مُؤَمَّلٌ من خلود (٤)
لا تهاب المَنون شيئاً ولا تَرْ  عَى على والدٍ ولا مولودِ (٥)
يَقْدَحُ الدَّهر فى شماريخ رَضْوَى  ويحطُّ الصخورَ من هَبُّودِ (٦)
ولقد تترك الحوادث والأَيّا  مُ وَهْيًا فى الصخرة الجلْمود (٧)
يفعل اللهُ ما يشاء فيمضى  ما لفعل الإله من مردود (٨)
فكأَنا للموت رَكْبٌ مُحِثُّون  سراعٌ لمنهلٍ موردِ

(١) العقد الفريد ٣/٢٨٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢٠ .
(٣) ابن المعتز ص ١٢٢ .
(٤) الحمام : الموت . مودى : ميت .
(٥) المنون : الموت .
(٦) رضوى : جبل . وشماريخه : أعاليه . هبود : موضع .
(٧) وهيا : شقا .
(٨) محثون : مسرعون .

وشاع فى العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءٌ يفجر الحزن فى النفس ، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل قول بشار فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة [(١)] :

اشربْ على تَلفِ الأَحِبَّة إننا  جُزُرُ المنية ظاعنين وخُفَّضَا [(٢)]
ويلى عليه وويلتى من بَيْنِهِ  كان المحبَّ وكنت حِبًّا فانقضى
قد ذقتُ أُلفته وذقت فراقه  فوجدت ذا عَسَلاً وذا جَمْرَ الغَضَا [(٣)]

وكان إخوتهم وأبناؤهم يموتون تحت أعينهم ، فتدور بهم الأرض ويبكون بدموع غزار ، وينفِّسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم فى قلوبهم لا يبرح ، من مثل قول العُتْبِى فى ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد مات فى ريعان شبابه [(٤)] :

وقاسمنى دهرى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ  فلما تقضَّى شطره عاث فى شَطْرِى [(٥)]
ألا ليت أمى لم تَلِدنى وليتنى  سبقتك إذ كنا إلى غايةٍ نَجْرِى
وكنت به أُكْنَى فأَصبحت كلما  كُنيت به فاضتْ دموعى على نَحْرِى

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيات مراث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه ثراء الفكر العباسى بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحُزْنِ طِفْله الذى افتقد عَطْفَ الأم وحنانها ، من مثل قوله [(٦)] :

ألا مَنْ رأَى الطفلَ المفارقَ أُمَّهُ  بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تَبْتدرانِ [(٧)]

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين ( طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٢٥ .

(٢) جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح . ظاعنين : سائرين . خفضاً : جمع خافض وهو المقيم .

(٣) الغضا : من شجر البادية .

(٤) الحماسة بشرح المرزوقى ص ١٠٧١ وانظر زهر الآداب ٣ / ٢١٢ .

(٥) يريد أن الدهر قاسمه بنيه إذ أخذ نصفهم وأبقى له نصفاً ثم عاد يعيث فى نصفه ونصيبه .

(٦) ديوان ابن الزيات ( نشر جميل سعيد بمطبعة نهضة مصر بالفجالة ) ص ٦٧ وانظر العمدة لابن رشيق ٢ / ١٢٥ .

(٧) الكرى : النوم . تبتدران : تسحان وتهملان بالدموع .

رأى كلَّ أُمٍّ وابنهَا غير أُمِّهِ ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تُجِنُّهُ ... بلابلُ قلبٍ دائم الخفقان[١]
فلا تَلْحياني إن بكيتُ فإنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريان[٢]
وهَبْنِى عزمتُ الصبر عنها لأننى ... جَلِيدٌ فمن بالصَّبْر لابن ثمانِ
ضعيف القُوَى لايطلب الأَجر حِسْبَةً ... ولا يأْتسى بالناس فى الحدثان[٣]

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة فى العصر والعصور السابقة منذ قتل على بن أبى طالب ، فهم ينوحون عليهم نواحًا حارًا ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجفُّ ، وسنعرض لذلك فى الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر[٤] :

خَوَتْ أَنْجُمُ الجَدْوَى وشَلَّتْ يَدُ النَّدَى ... وغاضتْ بحارُ الجود بعد البرامكِ[٥]
هَوَتْ أَنجمٌ كانت لأَبناء بَرْمَكٍ ... بها يعرف الحادى طريقَ المسالك

وظهرت ضروب جديدة فى الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذى أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعمَّ فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم[٦] :

أَلا ابْكِ لإِحْراقٍ وهَدْم منازلٍ ... وقَتْلٍ وإِنهاب اللُّهى والذخائرِ[٧]
وإِبراز ربَّات الخدور حواسرًا ... خَرَجْنَ بلا خُمْرٍ ولا بمآزرِ
كأَن لم تكن بغدادُ أَحسن منظرًا ... ومَلْهًى رأَته عين لاهٍ وناظرِ

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثى الطير الصادح من مثل القُمْرِىّ والحيوانات

---

(١) تجنه : تلفه وتشتمل عليه .
(٢) لاتلحيانى : لاتلومانى .
(٣) حسبة الأجر : احتساب الثواب عند الله بالصبر على نزول الموت . الحدثان : نوائب الدهر .
(٤) مروج الذهب للمسعودى ( طبعة مصر ) ٢٩٦/٣ .
(٥) خوت : سقطت وخرت . الجدوى : العطاء . الندى : الكرم .
(٦) مروج الذهب ٣١٣/٣ .
(٧) اللهى والذخائر : الأموال .

المستأنسة ، وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وَكْده ، كما يقول أبو الفرج[١] الأصبهانى ، فاستغرق أكثر شعره فيه ، من مثل قوله يرثى شاة :

عَيْنُ إبْكِى لعنزنا السَّوْداء ... كالعروس الأَدْماء يوم الجِلاء[٢]

وكان لابن الزيات فرس أشهب لم يُرَ مثله فراهة وحسنا ، فوصفت للمعتصم فراهته ، فطلبه منه ، فلم يستطع رد طلبه ، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها[٣] :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيلِه ... عنا فودَّعنا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ[٤]
منع الرقادَ جَوًى تضمَّنه الحشَا ... وهَوًى أُكابده وهَمٌّ مُنْصِبُ[٥]

ومن المراثى الجديدة الموضوع مرثية[٦] محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت ، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يَنْدُبُ روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعًا إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن يَنْزل بها عقاب أليم .

وقد أكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن من مثل قول أبى دلف معاتبا[٧] :

ومَنْ لىَ بالعين التى كنت مَرَّةً ... إلىَّ بها فى سالف الدَّهرِ تنظرُ

وقول أبى تمام[٨] :

لئن كنت أَخطو ساحة المَحْل إننى ... لأترك روضاً من جَداك وجَدْولا[٩]

وستلقانا فى تراجمهم معاتبات كثيرة بين الأصدقاء ، تعبر عن عواطف

---

(١) أغانى ( طبع الساسى ) ٥٦/٢٠ وانظر الأوراق للصولى ( أخبار الشعراء ) ص ١٦٣ .
(٢) الأدماء : السوداء .
(٣) ديوان ابن الزيات ص ٦ .
(٤) الأحم : الأسود ، الأشهب : من الشهبة وهى سواد يصدعه بياض .
(٥) الجوى : حرقة الهوى . منصب : متعب.
(٦) انظر الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٢٠/١٤ وما بعدها. وانظر مرثيته للوح آبنوس فى الأغانى ٤٧/١٤ .
(٧) العقد الفريد ١٦٥/٢ .
(٨) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١٠٨/٣.
(٩) المحل : الجدب . الجدا : العطاء .

الصداقة الدقيقة ، وقد تفننوا فى صور اعتذاراتهم مستوحين قدرتهم العقلية فى الحجاج والمنطق ، من مثل قول إبراهيم بن سيَابة يعتذر للفضل بن الربيع ، وكان قد سخط عليه سخطًا شديداً[١] :

إن كان جُرْمى قد أحاط بحُرْمتى فأَحِطْ بجُرْمِى عَفْوَكَ المأْمولا
فكمِ ارتجيتك فى التى لا يُرْتجى فى مثلها أحدٌ فنِلْتُ السُّولا[٢]
وضللتُ عنك فلم أجدْ لى مذهبا ووجدت حلمك لى عليك دليلا
هبْنى أَسأْتُ ـ وما أَسأْتُ ـ أُقِرُّ كى يزداد عَفْوُك بعد طَوْلك طُولا[٣]
فالعفوُ أجملُ والتفضل بامرئٍ لم يَعْدم الراجون منه جميلا

وواضح أن هذا الاعتذار مكتوب بأقيسة منطقية سديدة .

ولعل الشاعر العباسى لم يُعْنَ بموضوع قديم كما عُنى بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التى كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدانُ والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين . وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثْن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء ، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا فى الفصل الثانى ، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر ، وبادلته حبًّا بحب وهيامًا بهيام . وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به ، وكان منهن كثيرات يحسنَّ نظم الشعر ، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن ، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة ، على نحو ما صوَّرنا من ذلك فى غير هذا الموضع .

ومن المحقق أن هؤلاء الجوارى والقيان هن اللائى دفعن المجتمع العباسى فى بعض جوانبه إلى الفساد الخلقى ، إذ كن يَعِشْنَ فى بيوت النخاسة ، وكانت دوراً كبيرة للعبث واللهو ، ولم يكنَّ يستمعن فيها إلى ما يعدل بهن إلى السيرة السوية ، إنما كن يستمعن إلى أحاديث العشق والصبوة ، ومن حولهن الشياطين الذين يستهينون

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٩١ .
(٢) السول : السؤل ، وهو ما يسأله ، وخففت الهمزة للشعر .
(٣) الطول بفتح الطاء : الفضل .

بكل شىء ، بل كان منهم من ينكر أصول الدين إنكاراً غارقاً فى اللذة والمجون من أمثال بشار وأبى نواس . فطبيعى أن تسوء سيرتهن ،أو على الأقل سيرة طائفة منهن ، وأن يفتح ذلك الأبواب للغزل الإباحى الذى يَدْفع إليه الجشع الجسدى والذى لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان ، وهو غزل لم يكن يعرفه العرب فى العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن دَرْك الغرائز النوعية . حقًّا عرفوا الغزل الصريح ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين فى الصراحة وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر من دين .

لذلك كان طبيعيًّا أن يشيع الغزل الماجن فى هذا العصر ، وبلغ من حدّته أن شاع الغزل الشاذ بالغلمان ، فحتّى هذا الغزل المزرى بكرامة الرجل دار على كثير من الألسنة الدنسة . وقد استطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح هذه الموجة المادية الحادة من بعض الوجوه ، فإن هؤلاء الشعراء الماجنين كانوا يستظهرونه ويتلونه ، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها ، بل كانوا يرون فيه حبًّا عذريًّا عفيفا ، كله تحفظ واحتشام ، وكله عذاب وآلام . فمزجوا ذلك بنداءات غرائزهم الجسدية . وأيضًا فإنه كان قد تُرجم — على ما يظهر — شىء من الحب الأفلاطونى اليونانى ، وأخذ مفكرو العرب ومتفلسفتهم يتحدثون عن العشق أحاديث فيها كثير من السمو والسعة والعمق ، على نحو ما يلقانا عند المسعودى ، إذ أورد مجلسا ليحيى البرمكى تناظر فيه نفر من المعتزلة والمتكلمين وبعض أهل الملل والنحل فى العشق وحقائقه وظواهره وعذابه وحرارته ولطافة صاحبه ورقته ورهافة شعوره[1] ، وهو حديث أوهى مناظرة دارت كلها حول العشق العفيف الطاهر الذى يستأثر بالقلوب ويملك عليها أهواءها وعواطفها ومشاعرها . وفى رأينا أن هذه المناظرة ترمز بوضوح إلى ما كان فى أيدى الشعراء من كلام عن الحب النقى البرىء بالإضافة إلى ما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العُذْريين من الحب السامى الذى يوقد فى القلوب جذوة لا تنطفئ والذى يدلع فيها جحيماً من العذاب لا يطاق . وكل ذلك سرى فى نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين ، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبة ما أذكى جذوته ، ومن أجل ذلك كنت تقرأ عند بشار وأبى نواس وغيرهما

---

(١) مروج الذهب ٢٨٦/٣ .

من المجان قطعا من الحب الأفلاطونى أو قل من الحب العفيف البرىء الذى يرتفع عن المادة والحس من مثل قول أولهما [١] :

دَعَا بفراق مَنْ تَهْوَى أَبانُ ففاض الدَّمْعُ واحترق الجَنَانُ
كأَن شرارةً وقعتْ بقلبي لها فى مقلتى ودمى اسْتِنانُ[٢]
إذا أَنشدتُ أَو نَسَمتْ عليها رياحُ الصَّيف هاجَ لها دُخَانُ

على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به هو العباس ابن الأحنف ، وسنفرد له فى الفصل السادس ترجمة خاصة . وكانوا فى غزلهم العفيف والصريح الماجن يحرصون دائمًا على أن يملأوا معاصريهم إعجابًا بدقائق معانيهم وطرائف أخيلتهم ، من مثل قول بشار[٣] :

أَتتنى الشمسُ زائرةً ولم تك تَبْرح الفَلَكا

وقول أبى نواس[٤] :

كأَن ثيــابه أَطلعْ نَ من أَزراره قَمرَا
يزيدك وجهه حُسْنا إذا ما زدته نظرا
بعينٍ خالطَ التَّفْتِ يرُ من أجفانها الحَورا
وخَــدٍّ سابرىٍّ لو تصوَّب ماؤُهُ قَطرا

وقول مسلم بن الوليد [٥] :

أُقِرُّ بالذَّنْبِ منى لست أَعرفهُ كيما أَقول كما قالتْ فنتَّفِقُ
حبستُ دمعى على ذَنْبٍ تجدِّده فكلَّ يوم دموعُ العين تَسْتَبِقُ

وقد اتسعت موجة المجون كما مرَّ بنا ، واتسع معها وصف الخمر ، وكان القدماء يصفونها على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد العِبادى ، وأخذ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢٠٦ .
(٢) استنان : جرى شديد .
(٣) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٦٤ .
(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ١٦٥ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٩ .

وصفها يكثر فى أواخر عصر بنى أمية عند الوليد بن يزيد وأبى الهندىّ وأضرابهما . ونرى مجالسها ، منذ مطالع هذا العصر ، معقودة فى البصرة والكوفة ، حتى إذا قامت بغداد نافستهما فى تلك المجالس . وكانت تنبثُ حاناتها فى الكرخ ببغداد وغير الكرخ وفيما وراءه من دور النخاسة والأديرة المنثورة فى ضواحى الكوفة وعلى الطريق منها ومن البصرة إلى بغداد ، فأمَّها جميعًا مجان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفساق ، وكانوا أخلاطا ، منهم الزنديق الثائر على الإسلام وتعاليمه ، ومنهم الحزين الذى لم تحقق له الدولة أحلامه ، فأكبَّ على الخمر يغرق فيها آلامه ، ومنهم المجوسى والدهرى الذى لا يؤمن بأى كتاب سماوى . وقد مضوا جميعًا يعُبّون من الخمر حتى الثُّمالة ، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر جماعات ألَّف المجون والعشق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد ويحيى بن زياد الحارثى فى الكوفة وكانوا يعبُّون الخمر أرطالاً ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجوارى والغزل الشاذ الدنس بالغلمان ، متحرّرين من كل خلق وعُرْف ودين ، وفى ذلك يقول مطيع (١) :

اخلعْ عذارك فى الهَوَى     واشربْ معتَّقَةَ الدِّنانِ
وصِلِ القبيحَ مجاهرًا     فالعَيْشُ فى وَصْلِ القيانِ
لا يُلْهينَّك غير مـا     تَهْوَى فإن العُمْرَ فانِ

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها فى عهد الأمين ، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفًا للخمور والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه ، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفًا يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالبًا إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة ، صائحًا بذلك صياحا كثيراً من مثل قوله (٢) :

قُلْ لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَسْ     واقفاً ما ضرَّ لو كان جَلَسْ (٣)
تصف الرَّبْعَ ومَنْ كان بهِ     مثل سَلْمَى ولُبَيْنَى وخَنَسْ (٤)

---

(١) الديارات للشابشتى ص ١٦٦ .
(٢) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .
(٣) درس : انمحى.
(٤) لبينى : تصغير لبنى . وخنس : الخنساء .

اتْرُكِ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جانباً واصْطَبِحْ كَرْخِيَّةً مثلَ القبَسْ [١]

وتتردد مع هذا الصياح فى خمرياته مجاهرة بأنه يقترف ما يقترف من آثامه دون تفكير فى جنة أو نار ، ولكن من الحق أنه لم يكن زنديقاً ولا شعوبياً ، إنما كان متحلل الأخلاق ساقط المرءوة ، وأكبر الظن أنه اندفع فى مجونه هروباً من واقع نشأته وواقع أمه على نحو ما سنوضح ذلك فى ترجمته ، وكأنه يريد أن ينسى ماضيه وذكرياته السيئة .

وقد انتشر فى العصر شعر الزهد ، وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون ، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف ، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع فى بعض جوانبها النسك والعبادة . وإذا كان كتاب الأغانى يفيض بالمجون فإن كتب الطبقات التى ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأخبار العبّاد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وشهواتها وملاذها وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو وال . ويشيع مع هذه الأخبار كثير من الأشعار التى تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع الدنيا الزائل والإقبال على الآخرة بالتقوى والتوكل على الله والعمل الصالح . وقد تبعهم كثير من الشعراء يردّدون نفس النغم ، حتى شعراء المجون أنفسهم فإن منهم من كان يثوب إلى نفسه فيعاف ما تردّى فيه من فسق ومجون ، وحينئذ إما أن يقلع عن غيه إلى الأبد على نحو ما أقلع محمد بن حازم الباهلى [٢] ، وإما أن يقلع إلى حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبى نواس مما جعل ديوانه يشتمل على مثل قوله [٣] :

أَلا ربَّ وجْهٍ فى التراب عتيق ويارُبَّ حُسْنٍ فى التراب رقيقِ [٤]
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ إلى منزلٍ نائى المحل سحيق
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ
إذا امتحن الدُّنْيا لبيبٌ تكشَّفَتْ له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

(١) كرخية : خمراً منسوبة إلى الكرخ ضاحية الملاهى ببغداد .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٠٥ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٢٩٩ .
(٤) عتيق : جميل .

وإذا كان أبو نواس شُغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثيرون ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله [١] :

اضْرَعْ إلى الله لاتَضْرَع إلى الناسِ ... واقنَعْ بيأْسٍ فإن العزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ ... إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر فى تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس ، وأيضًا سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثًا أكثر تفصيلا .

## ٤

### موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعًا فى معانيها ، فقد أخذت تُعْرَضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسى عند ذلك فقد أخذ ينمِّى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التى تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التى كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد ، يجردونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة فى تصوير الكرم ، وقطعة فى تصوير الحلم ، وقطعة فى تصوير الحياء ، وقطعة فى تصوير العفة ، وقطعة فى تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : [٢]

لا تيأَسنَّ وإن طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا
إن الأُمور إذا انسدَّتْ مسالكها ... فالصبر يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارتَتَجا [٣]

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) أغانى ١٤/٤٢ وقد نسبها ابن المعتز لابن حازم . انظر ص ٣٠٩ .
(٣) ارتتج : أغلق .

أخلقْ بذى الصبر أن يَحْظَى بحاجتِه ومدمن القَرْع للأبواب أن يَلِجَا[١]
فاطلبْ لرجلك قبل الخَطْوِ موضعَها فمن علا زَلَقاً عن غِرَّة زلَجا[٢]

وهيأ ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضًا فإنهم وسعوا معانى الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هى الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصدهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلا عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسَبْر أخلاقهم قبل اصطفائهم فهم طبقات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذى يشبه الثمرة المرّة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وازورّ عنك ، وفى ذلك يقول حماد عجرد[٣] :

كم من أخٍ لك لستَ تنكرهُ ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
متصنِّع لك فى مودَّتهِ يلقاك بالترحيب والبِشْرِ
يُطْرِى الوفاء وذا الوفاء ويَلْـ حَى الغَدْر مجتهداً وذا الغَدْرِ[٤]
فإذا عدا – والدَّهر ذو غِيَرٍ – دَهْرٌ عليك عَدَا مع الدَّهْر[٥]
فارفُضْ بإجمالٍ مودَّةَ منْ يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى[٦]
وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ فى العُسْرِ إما كنتَ واليُسْر
لا تخلطنَّهمُ بغيرهمُ من يَخْلِطُ العِقْيان بالصُّفْر[٧]

وحماد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة فى العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء ، أما فى الضراء فيزورُّ عنه ازوراراً . وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحبة الحمق لما تجرُّ من بلاء كثير ،

---

(١) يلج : يدخل .
(٢) زلقا : مكانا زلقاً . غرة غفلة زلج : زلق وزل .
(٣) ابن المعتز ص ٦٨ وأغانى ١٤/٣٥٩ .
(٤) يطرى : يمدح . يلحى : يذم .
(٥) عدا الأولى من العداء والثانية من العدو أى الجرى .
(٦) بإجمال : بأدب . يقلى : يكره .
(٧) العقيان : الذهب . الصفر : النحاس .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية :[١]

احْذرِ الأَحمقَ أَن تصحبه ... إنما الأَحمقُ كالثوب الخَلَق[٢]
كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعته الريح يوماً فانْخَرَقْ
أَو كصدعٍ – فى زجاجٍ–فاحش ... هل ترى صَدْعَ زجاجٍ يلتصق
فإذا عاتبته كى يرعوى ... زاد شرًّا وتمادى فى الحُمُقْ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حنين قوى لملاعب حبه فى صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات فى هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هى توحى للشاعر العباسى بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهى موضوعات نجد بذورها فى مدائحه ، فقد ذكرنا أنه عدل أحيانًا عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذى نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور فى الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير فى قصر خرب[٣] :

أَلا يا قصرُ قصرَ النُّوشَجانى ... أَرى بك بعد أَهلك ما شجانى[٤]
فلو أَعفى البلاءُ ديارَ قومٍ ... لفضلٍ منهمُ ولعُظْم شانى
لما كانتْ تُرى بك بيِّناتٍ ... تلوح عليك آثارُ الزمان

وهذا الموضوع الجديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة فى إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بَثّ حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الجديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعًا بديعة من مثل قول دعبل[٥] :

أَلمْ يأْنِ للسَّفْر الذين تحمَّلوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ[٦]

---

(١) العقد الفريد ٦/٣٥٧ .
(٢) الخلق : البالى .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٩ .
(٤) شجانى : أحزننى .
(٥) أغانى (ساسى) ١٨/٤٤ .
(٦) يأن : يحق . تحملوا : ارتحلوا .

فقلتُ ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ نَطقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضُلوعُ
تَبَيَّنْ ، فكم دارٍ تفرَّق شَمْلُها وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهْو جَميعُ
كذاك الليالى صَرْفُهنَّ كما ترى لكل أُناسٍ جَدْبَةٌ ورَبيع [١]

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسى كان يحتفظ أحيانًا فى مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحيانًا يتركها إلى وصف الطبيعة فى الحاضرة ببساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعًا جديداً واسعًا ، وكان يمزج نشوته بها فى بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفى كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدى فى النرجس[٢] :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرْجِسِ على قائمٍ أَخْضَرٍ أَمْلَسِ
يذكِّرْننى طِيب رَيَّا الحبيبِ فَيَمْنَعْنَنِى لذَّة المجلسِ [٣]

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسىّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة [٤] :

أَسْعِدانِى يا نَخلتَىْ حُلْوانِ وابْكيالى من ريْب هذا الزمان[٥]
واعلما أَن رَيْبه لم يزل يَفْ رُق بين الأُلَّاف والجيرانِ
ولعمرى لو ذقتما أَلم الفرْ قة أبْكا كما الذى أبْكانى
أَسعدانى وأَيْقِنا أَنَّ نَحْساً سوف يلقاكما فتَفْتَرِقانِ
كم رمتنى صروفُ هذى الليالى بفراق الأَحباب والخُلَّانِ

---

(١) جدبة : المرة من الجدب وهو القحط .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ١١٥
(٣) الريا : الرائحة الجميلة .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣ / ٣٣١ .
(٥) حلوان : من بلاد العراق فى طرفه الشمالى مما يلى إيران . أسعدانى أعينانى بالدموع .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف فى الطعام والتأنق فى الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجرى فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبى عيينة المهلبي فى وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلبي (١) :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصرًا ومنزلا ... بأَفْيَحَ (٢) سَهْلٍ غيرِ وَعْرٍ ولا ضَنْكِ
بِغَرْسٍ كأَبْكار الجوارى وتُرْبةٍ ... كأَن ثَراها ماءُ وَرْدٍ على مِسْكِ
وسِرْبٍ من الغِزْلانِ يَرْتَعْنَ حوله ... كمااستُلَّ منظومٌ من الدُّرِّ من سِلْكِ

وأكثروا من وصف الحيوان والطير والحشرات ، واشتهر بذلك خلف (٣) الأحمر وجهم (٤) بن خلف ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسى من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشى إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفًا دقيقًا الأمراض والآفات التى انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعذّل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول (٥) :

وبنتُ المنية تنتابنى ... هُدُوًّا (٦) وتطرقنى سُحْرَهْ
كأَن لها ضَرَماً فى الحشَا ... وفى كل عضوٍ لها جَمْرَهْ
لها قُدْرةٌ فى جسوم الأَنامِ ... حباها بها الله ذو القُدْرَهْ
وطورًا أَقبِّها سُخْنةً ... وطوراً أُلقِّبها فَتْرَه
وصِرْتُ إذا جُعْتُ يوماً ظَلِلْتُ ... كأَنَّ على كبدى شَفْرَه (٧)
ويربو الطحالُ إذا ما شَبِعْتُ ... فتعلو التَّرائِبُ والصُّدْرَه (٨)

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٤ .
(٢) أفيح : أوسع ، أولعله من فائحة الرائحة .
(٣) الحيوان ٤/٢٧٩ .
(٤) الحيوان ٣/٢٤٢ وانظر الهامش .
(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ .
(٦) الهدو : أوائل الليل . سحرة : وقت السحر .
(٧) الشفرة : حد السيف وجانب النصل .
(٨) الصدرة : الصدر .

وأُمسى كأَنىَ من معدتى لبستُ الثياب على زُكْرَهْ(١)
إذا ما رأَيت امرءًا مُطْلَقاً له الأَكلُ تخنقنى العَبْره(٢)
كأَنى فى منزلى مُخْصِباً بِبَلْقَعَةٍ جَدْبَةٍ قَفْرَه

وهو وصف دقيق لأثر الحمى فى الجسم وأوقاتها التى تفد فيها وآلامه مع الجوع والأكل وما يحس به فى جوفه من مرارة وحدة . وقد صور شعوره بالحرمان وغبطته الأصحاء على ما يطعمون ، وبيته حافل بألوان الغذاء ، ولكنه يشعر كأنما هو فى فلاة مجدبة .

وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها ببث شكواه من الدهر وهمومه (٣) ، وشركه فى ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية فى دواوين الشعراء ، وخاصة دواوين العصر التالى ، إذ ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالى على أشعارهم .

ومرَّ بنا اتساع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن ، وكان منهم من يبكى فى مقدمات مدائحه أحياناً الشباب فى بيت أو أبيات قليلة. وسرعان ما رأينا القصائد تستقل بهذا الموضوع ،ومن أروعها قصيدة محمد بن حازم، وفيها يقول(٤) :

سَقْياً ورَعْياً لأيام الشباب وإنْ لم يبق منه له رَسْمٌ ولا طَلَلُ
ليت المنايا أَصابتْنى بأَسْهُمِها فكنَّ يبكين عهدى قبلَ أَكْتهلُ
عهدَ الشباب لقد أَبقيت لى حَزَناً ما جَدَّ ذكرك إلا جَدَّ لى ثَكَلُ (٥)

ومما استحدثوه من المراثى محللين لمشاعرهم تحليلا دقيقاً بكاؤهم حين يخبو نور البصر ، وممن أكثروا من تصوير هذه المشاعر أبو يعقوب الخُرَيْمِىّ ، وكان قد أصبح ضريراً ، حين طعن فى السن ، فتحول يصور أحاسيسه ، متفجعا على عينيه

(١) الزكرة : زق الخل .
(٢) البلقعة : الفلاة .
(٣) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٧٥ ، ٣٨٠ .
(٤) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٤ / ٩٤ .
(٥) الثكل : الحزن على فقد الولد .

تفجعاً يبعث الأسى فى النفس من مثل قوله[١] :

أُصْغى إلى قائدى ليخبرنى     إذا التقينا عَمَّنْ يحيِّينى
أُريد أن أَعْدِلَ السَّلامَ وأن     أَفصلَ بين الشريف والدُّونِ
أَسمع مالا أرى فأَكره أن     أَخطِئَ والسمعُ غيرُ مأْمونِ
لِلّهِ عينى التى فُجِعْت بها     لو أن دهراً بها يواتينى
لو كنت خُيِّرتُ ما أَخذتُ بها     تعميرَ نوحٍ فى ملك قارون

وقد صوروا كثيراً من العواطف الدقيقة ، من ذلك التعاطف الرقيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، على نحو ما يلقانا عند ابن يسير مصوراً عطفه على بنيَّة له وكيف يستأثر به ويجشمه اقتحام المصاعب من أجل سعادتها ، وكيف يحبِّبه فى الحياة خَوْفاً عليها من ذل اليتم وجفوة الأهل ، وإنه ليشفق عليها حتى من الدموع التى سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة ، يقول[٢] :

لولا البُنيَّةُ لم أَجزع من العَدَمِ     ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُلَمِ[٣]
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى     ذُلَّ اليتيمة يجفوها ذَوُو الرَّحِمِ
أَخْشَى فظاظة عَمٍّ أَو جفاءَ أَخٍ     وكنت أخشى عليها من أَذَى الكَلِمِ
إذا تذكرتُ بِنْتِى حين تندبنى     جَرَتْ لِعبْرَة بنتى عَبْرَتى بِدَمِ

وحلَّلوا كثيراً من المشاعر ، من ذلك شعور الزوج بالغَيْرة الشديدة على زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء ، وللخريمى فى ذلك مقطوعة بديعة يفرق فيها بين الغيرة المطلوبة فى حينها وبين الغيرة التى تتحول إلى ما يشبه مرضا يعزّ دواؤه ، فإذا الزوج يشك فى زوجته ، حتى ليعصف بها شكه ، فإذا هى توشك أن تتردى فى مسالك الريبة . وينصحه أن يمنحها ثقته وأن لا يشوب سلوكه بريبة ، فتسير سيرته المعوجة ويَفْسد عليه كل شىء ، وفى ذلك كله يقول[٤] :

---

(١) الحيوان ٣/١١٣ والشعر والشعراء ص ٨٣٠ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨١
(٣) العدم هنا : الموت . الحندس شدة الظلمة .
(٤) عيون الأخبار ٤/٧٩ والشعر والشعراء ص ٨٣٤ .

ما أحسن الغَيْرَةَ في حِينها وأقْبَحَ الغَيْرَةَ فى كلِّ حينْ
من لم يزل متّهما عِرْسَهُ متّبعا فيها لقول الظّنون [١]
يوشك أن يُغْرِيَهــا بالذى يخاف أن يُبْرِزها للعيون
حسْبُكَ من تحصينها وَضْعُها منك إلى عِرْضٍ صحيحٍ ودينْ
لا تَطَّلِعْ منك على رِيبةٍ فيتبعَ المقرونُ حَبْلَ القَرينْ

وقد صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة التى كان يرزح تحت أثقالها جماهير الشعب ، ومن خير ما يمثل ذلك مقطوعة لأبى فرعون الساسى يصور فيها جوع عياله وكيف يبيتون فى الشتاء القارص عُراة لا يجدون ما يحميهم من هول البرد وزمهريره ، وهى تجرى على هذا النمط [٢] :

وصبْيَةٍ مثل صغار الذَّرّ سود الوجوه كسواد القِدْر [٣]
جــاءهمُ البَرْدُ وهم بِشَرّ بغير قُمْص وبغير أُزْرِ
تراهمُ بعد صلاة العَصْرِ وبعضهم ملتصقٌ بِصَدْرِى
وبعضهم ملتصق بظهــرى وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحِجْرِى
إذا بكوا عَلَّلْتهم بالفَجْرِ حتى إذا لاح عمود الفَجْر
ولاحت الشمس خرجتُ أَسْرِى عنهم وحَلُّوا بــأُصول الجُدْرِ
كأَنهم خنافسٌ فى جُحْر

وقد أسلفنا فى حديثنا عن الحياة الاجتماعية ولع الخلفاء بالصيد ، وكيف كانوا يخرجون إليه فى مواكب حافلة ، ومعهم البزاة والصقور والكلاب ، وتبعهم فى هذا الصنيع الوزراء وعِلْيَــةُ القوم . وقد نظم الشعراء فى هذه المتعة الرياضية أراجيز كثيرة سموها الطرديات ، وأكثر من النظم فيها أبو نواس ، وأحسن غاية الإحسان فى وصف الكلاب « لأنه كان قد لعب بها زمانًا وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب » . وحقا سبقه فى هذا الموضوع بعض شعراء العصر الأموى من مثل الشمردل

---

(١) الظنون : سيء الظن .
(٢) ابن المعتز ص ٣٧٧ وانظر كتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٥٤ .
(٣) الذر : النمل .

وأبي نُخَيْلة ، ولكنه هو الذى مدَّ طُنُبه وفتح أبوابه ، لا من حيث كثرة ما نظمه فيه فحسب ، بل أيضًا من حيث دقة وصفه لأدواته وجوارحه مما جعل الجاحظ ينوِّه بطردياته طويلا فى الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » وقد أنشد منها طائفة معجبًا ببراعته وحذقه ، من مثل قوله فى إحداها (١) :

ما البرقُ فى ذى عارضٍ لمَّاحِ ... ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصاحِ (٢)
ولا انبتاتُ الدَّلْوِ بالمتَّاحِ ... أجدُّ فى السُّرْعة من سِرْياحِ (٣)
يطير فى الجوِّ بلا جَناحِ ... يفترُّ عن مثل شَبَا الرِّماحِ (٤)
فكم وكم ذى جُدَّةٍ لَيَاحِ ... ونازبٍ أعْفَرَ ذى طِماحِ (٥)
غادره مضرَّجَ الصِّفاحِ (٦)

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وهيَّأ ذلك لشيوع روح الهزل فى بعض المقطوعات والقصائد ، وكانوا أحيانًا يختارون لذلك بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية مثلا ، فيقلبونها فى الدعوة إلى اللهو والتواصى بشرب الخمر (٧) ، وأحيانًا يختارون موضوعًا جادًّا ، كقصة العشق العذرى الذى كان يفضى بأصحابه — كما يقول القصاص — إلى الجنون أو الموت ، فيجرونه على لسان حمارٍ أحب ومات عشقًا ، مما نلقاه عند بشار ، فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار ، فانتظر حتى اجتمع إليه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون ، وألحوا عليه يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمه ، فقال لهم : إننى رأيت حلمًا مزعجًا : رأيت حمارى فى النوم فقلت له : ويلك ! مالك متَّ ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا فمررنا على باب

---

(١) الحيوان ٢ / ٦٨ .
(٢) العارض : السحاب . المنصاح : المضىء .
(٣) انبتات الدلو : انقطاعها وهويها . المتاح : الذى يستقى بالدلاء . وسرياح : اسم الكلب الذى يصفه .
(٤) شبا الرمح : حده .
(٥) ذو الجدة : حمار الوحش ، والجدة : الخطة السوداء فى ظهره . لياح : أبيض . النازب : الظبى . الأعفر : مايعلو بياضه حمرة . طماح : جماح .
(٦) الصفاح : الجوانب . يريد أنه تركه مضرجاً بدمائه .
(٧) ابن المعتز ص ٢٢٧ .

الأصبهانى فرأيت أتانا عند بابه ، فعشقتها فتّ . وزعم بشار أنه أنشده هذه المقطوعة :

سَيِّدى ! مِلْ بعِنانى نحو باب الأَصْبهانى
إنَّ بالباب أتاناً فضلتْ كلَّ أتانِ
تيَّمَتْنى يوم رُحْنا بثناياها الحِسان
تيَّمَتْنى ببَنَانٍ وبدَلٍّ قد شَجانى
وبحُسْنٍ ودَلالٍ سَلَّ جسمى وبَرانى
ولها خَدٌّ أَسِيلٌ مثلُ خَدِّ الشَّيْفَران
فبِها مِتٌّ ولو عِشْتُ إذن طال هَوانى

فقال له أحد جُلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدْرِينى هذا من غريب الحمير ! فإذا لقيتم حماراً فسلوه[١] . ولعلهم لم يكثروا من التندير على شيء كما أكثروا من التندير على اللِّحَى ، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويعرِّضونها جدًّا ، فتندَّر عليهم الشعراء طويلا من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى لحية شيخ يسمى رَباحا[٢] :

لقد كانت مجالسُنا فِساحاً فضيَّقها بِلحْيته رَباحُ
مبعثرةُ الأسافل والأعالى لها فى كلِّ زاويةٍ جَناحُ

ولم نتحدث حتى الآن عن فن استحدثه الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، ونقصد فن الشعر التعليمى الذى دفع إليه رقى الحياة العقلية فى العصر ، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار . ومن أوائل ما يلقانا من ذلك تحدث صفوان الأنصارى فى أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة[٣] . ولا ريب فى أن أبان ابن عبد الحميد هو الذى عمل على إشاعة هذا الفن الشعرى الجديد ، فقد نظم فيه

(١) أغانى ٣/٢٣١ والعقد الفريد ٦/٤٤٢ .
(٢) عيون الأخبار ٤/٥٦ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٧ وما بعدها .

تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيراً[١] ، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتى أردشير وأنوشروان ، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وصنع قصيدة فى مبدأ الخلق وضمنها شيئاً من المنطق . وأهم من ذلك كله أنه نظم فى القصص كتاب كليلة ودمنة فى أربعة عشر ألف بيت . وفى كتاب الأوراق للصولى قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلة ودمنة ، ونراه يستهلها بقوله[٢] :

هذا كتابُ أَدَبٍ ومِحْنَهْ ... وهْو الذى يُدْعَى كليله دِمْنَهْ
فيه دلالاتٌ وفيه رُشْدُ ... وهْو كتابٌ وضعتْه الهِنْدُ
فوصفوا آداب كلِّ عالَمِ ... حكايةً عن أَلْسُنِ البهائمِ
فالحكماءُ يعرفون فَضْلَهُ ... والسخفاءُ يشتهون هَزْلَهُ
وهْو على ذاك يسيرُ الحفظِ ... لذٌّ على اللسان عند اللَّفْظ

ويتأثره ابنه حمدان فى هذا الضرب من الشعر التعليمى فينظم مزدوجة طويلة مسرفة فى الطول يصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره المختلفة. وعلى قَبَسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التى سماها « ذات الأمثال » وهى — كما يتضح من اسمها — حكم وأمثال ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت . وقد أنشد أبو الفرج فى ترجمته قطعة منها ، ومن قوله فى تضاعيفها[٣] :

حَسْبُك مما تَبْتغيه القوتُ ... ما أَكثر القوتَ لمن يموتُ
لكل ما يُؤْذى — وإن قَلَّ — أَلَمْ ... ما أَطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ
ما انتفع المَرْءُ بمثل عقلهِ ... وخيرُ ذُخْر المرءِ حُسْنُ فعلهِ
إن الفساد ضِدُّه الصلاحُ ... وربَّ جِدٍّ جَرَّه المُزَاحُ

واقتفى محمد بن إبراهيم الفزارى أثر أبان ، فنظم فى علم النجوم مزدوجة طويلة ، يقول ياقوت إنها كانت تدخل فى عشرة مجلدات ، وقد بناها من ثلاثة أقفال أو

(١) انظر ترجمة أبان فى كتاب الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) وفى الأغانى (طبع الساسى) ٢٠/٧٣ .

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٤٦ .

(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٦ .

ثلاثة شطور ، ثلاثة شطور ، على هذا النمط[١] :

الحمد لله العليِّ الأَعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأَكرم
الواحدِ الفَرْدِ الجواد المنعمِ

الخالقِ السَّبْعَ العُلا طِباقا والشَّمْسَ يجلو ضَوْءُها الإغساقا[٢]
والبَدْرَ يملأُ نورهُ الآفاقا

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمى الجديد إلى بيئات الأخباريين ، فإذا الأصمعى ينظم قصيدة طويلة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم الخالية البائدة[٣] وتتكاثر هذه الشعاعات فى بيئات المتكلمين ، فإذا مَعْدان الأعمى الشيعى الشُّمَيْطِىُّ أحد متكلمى الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة فى أصناف الشيعة وعقائدهم ، مقدماً عليهم فرق الشميطية الغالية[٤] . ولعل متكلماً لم ينظم فى هذا الفن كما نظم بشر بن المعتمر المعتزلىّ المشهور ، فقد أكثر من النظم فى الردّ على أصحاب المقالات والنحل المختلفة ، وقد ساق له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين[٥] يمكن أن يدخلا من بعض الوجوه فى علم التاريخ الطبيعى إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات ، وما يتجلَّى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة فى خلقه العجيب . ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البَهْرانىّ فى غرائب الخلق[٦] وقصيدة هرون مولى الأزد فى وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه[٧] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلى والفنى للشاعر العباسى وكيف كان يحرص على التجديد ، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولا يكتفى بها ، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى ، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمى ، فسجَّل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة .

---

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/١١٨
(٢) السبع : هى السموات السبع . طباقاً : متطابقة بعضها بعضاً . الإغساق : الظلام .
(٣) الحيوان ٦/١٤٩ .
(٤) الحيوان ٢/٢٦٨ والبيان والتبيين ١/٢٣ ، ٣/٧٥ ، ٣٥٦ .
(٥) الحيوان ٦/٢٨٤ ، ٢٩١ .
(٦) الحيوان ٦/٨٠ .
(٧) الحيوان ٧/٧٦ .

## ٥

### التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب « العصر الإسلامى » عن مدى ما أثَّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْم المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفُّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغامًا خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يَعْدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة ، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزَّءوها غالبًا حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الحروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتثّ وصُنْع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة ، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيَتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا فى أوائل هذا الفصل ، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء ، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى : شعر المديح والرثاء ، بينما تشيع المقطَّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم . ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد ، ومِنْ خير مَنْ يمثِّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله[1] :

ويلىَ ممَّن جَفَانى وحبُّــه قد بَرانى

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٩٢ .

وَطيْفُـــهُ يلقـــانى وشَخْصُـــهُ غيرُ دانى
أغرُّ كالبدر تَغْشَى بحسنـــه العَيْنانِ

ولم يلبث الشاعر العباسي أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائمًا تُحذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبي العتاهية [١] :

أيا عُتْبَ ما يضرُّ ك أن تطلقى صِفادى [٢]

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتُحذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضًا ، كما يلقانا عند أبي نواس فى مقطوعته [٣] :

حاملُ الهوَى تَعِبُ يستخفُّـــه الطَّربُ
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع . واكتشف الشـــاعر العباسى أيضًا وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش [٤] ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارًا مختلفة [٥] ، من مثل :

أبكيتَ على طَلَلٍ طَرَباً فشَجاك وأَحزنك الطَّلَلُ

ومثل :

ليس المرءُ الحامى أَنْفاً مثلَ المرء الضَّيمْ ِ الراضى [٦]

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص١٣٢ .
(٢) الصفاد : القيد .
(٣) الديوان ص ٣١٦ .
(٤) شرح الدمنهورى على الكافية (طبع مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .
(٥) إنباه الرواة ٣٤٢/١ وانظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٣٢ .
(٦) الحامى أنفا : العزيز الأبى . الضيم : الذليل .

وبذلك وضع للشاعر العباسى منه نماذج كى يحاكيها ، وكان أولَ مَن بادر إلى محاكاته — فيما نظن — أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما فى بعض القضاة على هذه الشاكلة(١) :

همَّ القاضى بَيْتٌ يُطْرِبْ    قال القاضى لما طولبْ
ما فى الدنيا إلا مُذْنِبْ    هذا عُذْر القاضى واقلبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — استضاء بفكرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور فى خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التى استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها فى أشعارهم ، كى ينفذ منها الشاعر العباسى إلى ما يريد من تجديد فى أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعه تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدَّما فيه وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وأدَّب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة فى شعره ، ثم أخذ ذلك عنه ونَحا نحوه فيه رُزَيْن العَرُوضى ، فأتى فيه ببدائع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »(٢) . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه ، وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبوا جمالهمُ للرحيل    غُدْوَةً أحبَّتك الأَقربوك
خَلَّفوك ثم مضوا مدلجين    مفرداً بهمِّك ما ودَّعوك(٣)

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

(١) المسعودى ٣ / ٣٦٠ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٦٦ / ١٦٠ .
(٣) مدلجين : سائرين ليلا .

نابه عُنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله [(١)] :

للمنون دائراتٌ يُدِرْن صَرْفَها هُنَّ ينْتَقِيننا واحداً فواحدا

وقوله :

عُتْبَ ما للخيال خَبِّرينى ومالى لا أراه أتانى زائرًا مُذْ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعًا من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التى استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبى هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجرءوا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكته فى أشعار نظمتها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختمها بكلمة « يامواليه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضًا أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتَّابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط [(٢)] :

يا ساقياً خُصَّنى بما تهواهُ لا تمزج أقداحى رعاك اللهُ

دَعْها صِرْفاً فإننى أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

وكأن المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورَّ عنها شعراء الفصحى كما ازورُّوا عن الأوزان المهملة السابقة .

وعلى نحو ما جدّدوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدّدوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنْظم من

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٦ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢ / ١٨٦

بحر الرجز . وتُنْسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة[١] ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفى مقدمتهم بشار ، إذ نعته الجاحظ بأنه صاحب مزدوج[٢] ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبع من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمى ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزارى فى مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتاً . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقْوَى على النظم فى المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد[٣] ، وقد روى له فى الحيوان مزدوجة طويلة ، فى تفضيل على بن أبى طالب والرد على الخوارج[٤] . وللرقاشى مزدوجة طويلة فى المجون والخلاعة[٥] وكذلك لبكر بن خارجة مزدوجة فى أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم[٦] . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى ، وهى تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحاً مع جاريته ربابة[٧] :

رَبابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ ... تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ

لها عَشْرُ دَجاجاتٍ ... وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعاراً مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم[٨] ، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٧/٥٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٩ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .
(٤) الحيوان ٦/٤٥٥ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى ٢٠/٨٧ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٦٣ .
(٨) أغانى ١٤/٣٢٤ .

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذّل ، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة[١] :

ظهر الأمير عليك يا غَيْلانُ    إذ خُنْتَهُ إن الأَمير مُعانُ
أمع الدمامةِ قد جمعتَ خيانةً    قَبُحَ الدميمُ الفاجر الخَوَّان

وتكثر الرباعيات فى ديوان أبى نواس وخاصة فى الخمريات والغزل[٢] ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت ، لكثرتها عنده ، ومن أمثلتها الطريفة قوله[٣] :

أدرِ الكأْسَ وأَعْجِلْ مَنْ حَبَسْ    واسْقِنا مالاح نَجْمٌ فى الغَلَسْ[٤]
قَهْوَةً كَرْخِيَّــةً مشمولةً    تنفض الوحشةَ عنا بالأَنَسْ[٥]

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء فى الأغانى يجد منها أمثلة كثيرة ، وممن كان يكثر منها — فيما يظهر — أبو العتاهية سواء فى الغزل أو فى الزهد ، من مثل قوله فى الموت الدائر على جميع الناس[٦] :

الموتُ بين الخلق مُشْتَرَكُ    لا سوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضَرَّ أَصحابَ القليل ومــا    أغنى عن الأَملاك ما ملكوا

والمسمَّطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة ، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه . وإنما سُمِّى مسمطا من السمط وهو قلادة تُنْظَم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر

---

(١) أغانى ١٤/٣٦٢ .
(٢) راجع الديوان ص ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ٢٤٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ .
(٣) الديوان ص ٢٩٩ .
(٤) حبس : انتظر وتلبث . الغلس : الظلام .
(٥) كرخية : نسبة إلى الكرخ ضاحية اللهو والمجون ببغداد . مشمولة : فائحة الرائحة .
(٦) أغانى ٤/٩٨ وانظر فى رباعيات له أخرى الأغانى ٤/٢٠ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٠ .

الأخير . ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نُواس تتوالى على هذا النمط [١] :

سُلافُ دَنٍّ كشمسِ دَجْنِ [٢]
كدَمْع جَفْنِ كخمر عَدْنِ
طبيخ شَمْسِ كلون وَرْسِ [٣]
رَبيبُ فُرْسِ حليف سِجْنِ
يا من لحانى على زمانى
اللهو شانى فلا تَلُمْنِى

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة . وكان شيوع المسمطات المخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة ، واشتهر بشار بنظمه لبعض المخمسات [٤] ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر [٥] ، وقد أنشد الدميرى لأبى نواس مخمسا ختمه بهذا الدور [٦] :

ياليلةً قضيتها حُلْوَهْ مرتشفاً من ريقها قَهْوَهْ
تُسْكر مَنْ قد يبتغى سَكْرَهْ ظننتها من طِيبها لَحْظَهْ
يا ليت لا كان لها آخِرْ

وقد اختار لآخر المخمس — كما هو واضح — صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية ، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية . ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقتراباً شديداً سواءمن حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال ، إذ يُنْسَبُ لديك الجن صُنْعه لمنظومة على هذا النحو [٧] :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى عند المنامْ

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) دجن : غيم .
(٣) الورس : نبات زهره أصفر .
(٤) العمدة لابن رشيق ١/١٢٠ .
(٥) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .
(٦) حياة الحيوان الكبرى للدميرى (طبعة بولاق) ١/٩٦ .
(٧) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٩٧ .

عند الرَّقادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوسنْ
فعسى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ
فى الفوادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البدنْ
جسدٌ تُقلِّبه الأكُفُّ على فراش من سقام
من قتادْ من دموعْ من وقودْ من حزنْ
أما أنا فكما علمـ ـتِ فهل لوصلك من دوامْ
من مَعادْ من رجوعْ من وجودْ من ثمنْ

وواضح أن هذه المنظومة نشأت من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروى جديد ، وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معافى القبرى الأندلسى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى ( ٢٧٥ – ٣٠٠ هـ ) فنظم على نمطها بعض منظوماته إعجابا بها ، واستحسانًا لها . وكُتب لهذا النمط أن يشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات وأن يسكب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتع الأسماع والأفئدة .

# الفصل الخامس

## أعلام الشعراء

## ١

### بشار [١]

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجوخ[٢] بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجَدُّه يرجوخ من طُخارُسْتان ممن سَبَاهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان ( ٧٩ – ٨١ هـ ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرقّ . وكان أولا فى عداد رقيق خيرَة القُشَيْرية امرأة المهلب ، ثم وهبته لامرأة من بنى عُقَيْل ، وفى ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلية أنْ أعتقت بُرْداً . وبذلك عُدَّ هو وابنه فى موالى بنى عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول[٣] :

وقيصرٌ خالى إذا عددتُ يوماً نَسَبى

وإن صح ذلك كان فارسىّ الأب رومى الأم ، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة[٤] ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفى ذلك يقول[٥] :

---

( ١ ) انظر فى بشار وترجمته الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٣/١٣٥ ، ٦/٢٤٢ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالديين ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) والموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ ونكت الهميان ( طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة ) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربي ( طبع دار المعارف ) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازنى ( طبع عيسى الحلبى ) وبشار ابن برد لعمر فروخ ( طبعة بيروت ) وبشار بن برد لطه الحاجرى ( طبع دار المعارف ) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

( ٢ ) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغانى ٣/١٣٥ .

( ٣ ) الديوان ١/٣٧٧ .

( ٤ ) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤/٤٥٣ .

( ٥ ) أغانى ٣/١٤٢ .

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى  فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلم موئلا

وكان أبوه طَيَّانا يعيش من ضَرْبِ اللَّبِنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابين يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْن إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبْتَر اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عُقَيْل على أن يتمثل السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل بين جميع الشعراء ، فكان طبيعياً أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضرباً مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : ( ليس على الأعمى حَرَجٌ ) . وعادوا إلى برد يرددون شكواهم ، فتَلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فِقْهُ بُرْدٍ أغْيَظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة[١] . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا[٢] ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الثَّنَوِيَّة المجوسية والدهرية الهندية[٣] ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

---

(١) الديوان ٣/١٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجْعة أو عودة الإمام المختفي ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين [١] :

الأَرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ    والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا [٢] :

إبليسُ أَفضلُ من أَبيكم آدمٍ    فتنبَّهـوا يا معشرَ الفُجَّارِ
النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طينةٌ    والطينُ لا يَسْمو سموَّ النارِ

وتصدّى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما رمى إليه من تصويب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، فى رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقدسونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان فى تفضيل الأرض وذكر له العلة التى بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقده وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا [٣] :

كأَنك غضبانٌ على الدين كلِّه    وطالبُ ذَحْلٍ لايبيت على حِقْدِ [٤]

غير أن بشارا مضى يُعْلن زندقته لا يزدجر مصرحًا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس [٥] . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جبْرِىٌّ ، بل لا شىء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية [٦] .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراما أن رآه يكثر من غزل مادىٍّ آثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها [٧] ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعيًا إلى قتله

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٥.
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء (نشر كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .
(٤) ذحل : ثأر.
(٥) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أغانى ٣/١٨٢ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنَّف[١] المكنَّى بأبى معاذ من يقتله[٢] ؟ ! » وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ، وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائبًا عنها حتّى توفى عمرو[٣] ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حـَرَّان فى سنة ١٢٧ فيمدح سليمان[٤] بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله[٥] ، فيتجه إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويُغْدِق عليه من بِرّه وصلاته السنية[٦] ، ويُغْدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصبًا قويًّا ، وصادف ذلك هوى فى نفس بشار إذ كان ولاؤه لبنى عُقَيل القيسيين ، وكان مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها فى حروبه مع الثوار من بنى عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه القيسيين فخراً عارما .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان، وطوَّحت جيوشهم ببنى أمية وواليهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ،وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانيًّا مثله ، فوفد عليه يمـدحه ، وخالد يجزل له فى العطاء والإكرام[٧]. ويحسُّ بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنَّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتّى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

(١) المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يلبس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث وهو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغانى ١٤٠/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٦ والأغانى ٣/ ١٤٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٥ .

(٤) الديوان ١/ ٢٩١ والأغانى ٣/ ٢١٧ .

(٥) أغانى ٣/ ٢١٨ .

(٦) أغانى ٣/ ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٧) أغانى ٣/ ١٩٢ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويسارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة ، ويجعلها فى مديحه[١] ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة ، وخاصة سلم[٢] بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة[٣] بن سلم الهُنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضى بشار فى غزله الفاجر ، وكان كل شئ فيه ينفّر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشّاهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يُقْبلن عليه ويتغنين فى شعره . وفى هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوفّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوّفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرّع بذكره للمهدى متلطفاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبداً وقينة وخلع عليه خِلَعاً كثيرة[٤] ، وجعله من سُمّاره ومن يحضرون مجالسه[٥] . وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفّ عن ذلك ، وكفّ بشار على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله[٦] :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦—١٥٨ .
(٢) أغانى ٣/١٩٠ والديوان ٢/٣٢٦—٣٣٨ ، ٣/٢٠٣ .
(٣) أغانى ٣/١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٩ والديوان ١/١٠٧ ، ١٤٠ ، ٢/٢١٩ .
(٤) أغانى ٣/٢١٣ .
(٥) ابن المعتز ص ٢١ وما بعدها .
(٦) أغانى ٣/٢٣٩ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

يا منظَرًا حسناً رأيتُه ... من وجه جاريةٍ فديتُه
بعثتْ إلىَّ تَسُومنى ... بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
والله ربِّ محمَّــدٍ ... ما إن غدرتُ ولا نويتُه
أمسكتُ عنك وربما ... عرض البلاءُ وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبَى ... وإذا أَبى شيئاً أَبيتُه
ونهانىَ الملك الهما ... مُ عن النَّسِيب وماعصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرِق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتّى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلون على الزندقة[١] ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا[٢] ويَقْدُم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتّى التلف ، فيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به فى البَطيحة ، ويجىء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار فى أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرد له أنه كان له امرأة تسمَّى أمامة[٣] ، وهو يُكْثِر فى أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتّى يضاعفوا له الجائزة[٤] ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا[٥] ، واختطف منه بنتاً صغيرة[٦] . ومر بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى رَبابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول[٧] :

وغادةٍ سوداءَ بَرَّاقةٍ ... كالماء فى طيبٍ وفى لينِ

---

(١) أغانى ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمالى المرتضى ٢/١٣٣ .
(٢) أغانى ٣/٢٤٣ .
(٣) أغانى ١٤/٣٦٥ .
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ١/٢٥٦ .
(٦) أغانى ٣/٢٢٩ .
(٧) أغانى ٣/١٩٣ .

كأنها صِيغتْ لمن نالها من عَنْبَرٍ بالمسك معجونِ

ولعلها السندية العَجْماء التى لم يتبع جنازته سواها[1] . وذكر فى غزله كثيرات من القِيان والجوارى ، وفُتن فتونا بعَبْدة ، وقد أفرد صاحب الأغانى لأخباره معها فصلاً خاصاً [2].

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ، فقد كان فارسى الأصل ، وورث عن الفرس حدة فى المزاج ، ونشأ قِنًّا ابن قِنّ ، ووُلد أعمى لا يُبْصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها فى نفسه فقرأسرته وتخلفها فى المجتمع . وقد رُبِّىَ فى مهد عربى ، فأتقن العربية وتمثَّل سليقتها بكل مقوِّماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من ريب فى أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية. وكان ذلك كله سبباً فى أن يحدث تشويش فى فكره وأن تمتلىء نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً يبغض الدين الحنيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوَّل شعوبيًّا يبغض العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف ، فاختلط بهن ، وتغزل فيهن غزلا حسيًّا ، وربما دفعه فقد بصره إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتى ليصبح غزله ، فى بعض جوانبه ضربا من صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت فى طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ، ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة تُرَدُّ إلى أنه استطاع أن ينهج لهم فى قوة السبيلَ التى ترسَّمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهى سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ،ومن جهة ثانية تفسح لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشته الحضارية . وبذلك ازدهر الماضى فى الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ

(١) أغانى ٣/٢٤٨ . (٢) أغانى ٦/٢٤٢ وما بعدها .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه — مهما لانت ورقّت — مطبوعة بطوابع النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التى تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقًّا حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلْقه بحس متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائمًا بين الشعر العباسى والشعر القديم .

وعجيبٌ حقًّا أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بيِّنًا على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التى يظل فيها الماضى الفنى ماثلا ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات فى الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا فى العروبة والدين . وما من شك فى أن بشاراً كان ملحداً زنديقًا يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطُرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثَّل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقا فى تمثله حجب الزمان والمكان مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضى والحاضر ، يتلقَّى الماضى ويحياه ، وأيضًا يتلقَّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضى برقيه العقلى وحياته الحضارية وصلا خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه جميع شعراء عصره إلا نفراً قليلا ، إذ مثَل الشعر القديم أمامهم كالأم الغاذية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوِّم به عمله ، حتى إذا مَرَنَ عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهى موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يَحْظَى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظًّا من هذه الموازنة ، ومما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطوِّر فى أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثْرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته[١] : ( يا طلل الحىّ بذات الصَّمْد ) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب[٢] .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشِّيم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحيهم من الكرم والمرءوة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشارا يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى[٣] ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولا بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعيًّا لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطلاية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحىِّ بذات الصَّمْدِ » . وحرى بنا أن نقف

---

(١) الديوان ٢ / ٢١٩ والأغانى ٣ / ١٧٤ وراجع فى أراجيز له أخرى الديوان ١ / ١٣٤ ، ١ / ١٤٠ .

(٢) الأغانى ٣ / ١٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣ / ٣٢١ ، ٢ / ٢٧٧ وما بعدها ، ٢ / ٢٩٧ .

قليلا عند قصيدته البائية التى مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفى رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهى تلك التى يستهلها بقوله :

جفا ودَّه فازورَّ أو ملَّ صاحبُهْ  وأَزْرَى به أَنْ لايزالُ يُعاتِبُهْ

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرَى الليل على بعيره وسط الفيافى المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتنه وما مرَّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التى أوقدت العطش فى صدورالأتن وحمارها ، فإذا هى تطلب الماء تريد أن تشفى غلّتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضى إلى مديح يزيد فيوغل فى فخر شديد بقيس قبيلته التى كان لها ولاؤه ، ويطيل فى وصف بلائها فى حروب مروان بن محمد وقَمْع الثائرين عليه . وبشار فى كل ذلك ينزع منزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرهم فيفخرون بمآثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل فى نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة فى نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول[١] :

إذا كنتَ فى كل الأُمورِ معاتباً  صديقَكَ لم تلق الذى لا تعاتبهْ
فعِشْ واحداً أَوصِلْ أَخاك فإنه  مقارفُ ذَنْبٍ مرةً ومجانبُهْ [٢]
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَذَى  ظمئتَ وأَىُّ الناس تَصْفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيّاً ، حتى إذا انتهى منه فخرَ بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجبَّارُ صعَّر خَدَّه  مشينا إليه بالسيوف نعاتبه [٣]

---

(١) أغانى ٣/١٩٧ وانظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .
(٢) مقارف : مرتكب .
(٣) صعر خده : تكبر وعتا وبغى .

وكنا إذا دبَّ العدوُّ لسُخطنا ... وراقَبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُهْ(١)
ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَّفٍ ... وأبيضَ تَسْتسقى الدِّماءَ مضاربُه(٢)
وجيشٍ كجُنْح الليل يزحف بالحَصَى ... وبالشَّوْك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثَعالبُه(٣)
غدونا له والشمسُ فى خِدْر أُمِّها ... تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبه
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتدرك من نجَّى الفرارُ مثالبه(٤)
كأَن مُثَارَ النَّقْع فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبه(٥)
بعثنا لهم موتَ الفُجاءَة إننا ... بنو المُلْك خفَّاقٌ علينا سبائبُهْ(٦)

والفخر بالبلاء فى الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معانى هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدَّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يُعَدُّ من مميزات الطبع العربى الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع فى التصوير ، ويُرْوَى أن الأصمعى وقف متعجباً إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله »(٧) . وكان يعتمد فى ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالا فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعيناً بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع فى تأليفها . على أن من يمعن النظر فى تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثل الدقائق التى لا تُرَى إلا بحاسّة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

---

(١) دب : مشى فى استخفاء .
(٢) المثقف : الرمح المقوم . الأبيض : السيف .
(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطى : الرمح . ثعالبه : أطرافه .
(٤) مثالبه : معايبه .
(٥) النقع : غبار الحرب .
(٦) سبائبه : أعلامه وراياته .
(٧) أغانى ٣/١٤٢ .

المقدمات الطللية مكتفياً بالغزل . ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد — كما أسلفنا — فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفُّ عن الغزل نزولا على مشيئته . وكان قد وصف السفينة فى إحدى(١) مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً فى بعض مدائحه(٢) للمهدى ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر(٣) :

إذا جئتَه للحَمْد أشرقَ وَجْهُــهُ إليك وأعطاك الكرامةَ بالحَمْدِ
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تُراثه إذا ما غدا أوراحَ كالجَزْر والمَدِّ(٤)

وقوله فى عمر بن العلاء قائد المهدى الذى قضى على ثورة الخرّمية بجرجان(٥)

فَتًى لا ينام على دِمْنَةٍ ولا يَشْرب الماءَ إلا بِدمْ
يَلَذُّ العطاء وسفكَ الدِّماء وَيغْدُو على نِعَمٍ أو نِقمْ

ويقرن دائماً فى مديحه للقواد والولاة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهماً لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله فى مديح عقبة بن سلم والى البصرة(٦) :

إنما لذَّةُ الجواد بنِ سَلْمٍ فى عطاءٍ ومَرْكَبٍ للقاء
كخَراج السماء سَيْبُ يديهِ لقريبٍ ونازح الدار نائى(٧)
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكنْ يَلَذُّ طعم العطاء
يسقط الطيرُ حيث يَنْتثر الحبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء
لا يهاب الوَغَى ولا يعبدُ الما لَ ولكنْ يهينه للثناء

(١) الديوان ١/١٤٧ .
(٢) الديوان ٢/٢٨٣ ، ٣/٢٨٠ .
(٣) أغانى ٣/١٩٢ والديوان ٣/١٢٥ .
(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .
(٥) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٧٧ .
(٦) الديوان ١/١١١ والأغانى ٣/١٨٩ .
(٧) خراج السماء : الغيث. السيب : العطاء.

أَرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمْطِرُ النَّيْـ ... لَ وأخرى سُمٌّ على الأعداء [(١)]

وواضح أنه يجعل لذته فى الكرم والشجاعة ،ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذى لا مفر من سقوطه على القريبين والنائين . ويجرِّد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطى خوفًا من هجاء ولا رجاء فى مديح ، وإنما يعطى لأنه يجد لذة فى العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابه بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لايهاب الموت ،وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مرسلا نَدَاه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح فى هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعانى عارضًا لها فى وجوه شتّى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعينًا بالمقابلة والطباق وببعض الحكم كما فى البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة [(٢)] .

ولم تُؤْثَرْ لبشار مراث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمسًا فى اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزًّا حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول [(٣)] :

أُصِيبَ بُنَيِّ حين أَورق غُصْنُهُ ... وأَلقى علىَّ الهمَّ كلُّ قريبِ

وكان كرَيْحان العَروس تخالُهُ ... ذَوَى بعد إشراق الغصون وطِيبِ

وما نحن إلا كالخليط الذى مضَى ... فرائسُ دهر مخطىءٍ ومصيب

نؤمِّل عيشاً فى حياةٍ ذميمــة ... أَضرَّتْ بأَبدانٍ لنا وقلوبِ

ونراه يحزن حزنًا عميقًا على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدى فتكًا ذريعًا ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره ، وقد مرت فى الفصل السابق قطعة يرثى بها صديقًا منهم ، وكأنه يرثيهم جميعًا وقد ندبه بها أحرَّ ندب وأشجاه . وروى له أبو الفرج ميمية رَثَى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا ،ولا نشك

---

(١) أريحى : كريم يهتز للندى . النيل : العطاء .

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢٥٤ والأغانى ٣/١٦١ .

فى أنهم جميعًا قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعا أشد الجزع ، مُلْتاعًا أشدّ الالتياع على شاكلة قوله[١] :

كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا والأخلاَّءُ فى المقابر هامُ[٢]
نَفِسَتْهم علىَّ أُمُّ المنايا فأنامتْهمُ بعنفٍ فناموا
لا يَغيض انسجامُ عينى عليهم إنما غاية الحزين السِّجامُ[٣]

والرثاء عنده — على كل حال فن طارىء ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخراً هاجياً ، مستلهمًا ما شاع فى بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن كان حولهما من الشعراء . وحاول أن يدخل فى معاركهما ، وهو لا يزال غَضّ العود ، فهجا جريراً مؤملا أن يردّ عليه فيطير اسمه فى الناس ، ولكن جريراً لم يحفل به لأنه كان لا يزال فتى ناشئًا ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ، فقد أخذ يصول ويجول فى هجاء الناس ، ودخل فى الخصومات القبلية بين عشيرته من بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ، ولكنه ازداد شرًّا وإيذاء ، كما مر بنا فى صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشارًا يسرف فى هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد أن يشتهر فى هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوى كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقده لبصره ، وهى مرارة زادها اضطراماً فى نفسه أنه كان مولى ، والموالى كانوا متخلفين فى المجتمع الأموى ، وكان فقيراً بائسًا ، فاندلع ينفِّس بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما فى العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا الفخر فى نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ، وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان يتعصب لأصوله من قيس تعصبًا شديداً ، وكان بشار يعيش فى كنفه ، فمضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

---

(١) أغانى ٣/٢٣٦ .
(٢) هام هنا : أموات .
(٣) يغيض : يجف . السجام : سيلان الدمع .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله[١] :

إذا ما غَضبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجابَ الشَّمس أو تُمْطِرَ الدَّما

إذا ما أَعَرْنا سَيِّدًا من قَبيلةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى علينا وسَلَّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضي قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبيًّا مارقًا يتغنَّى بأمجاد قومه الحضارية كافراً بالعرب والعروبة ، وتصوِّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته[٢] :

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبَّهة الملك الفارسي وأيضًا الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفًا هتافًا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة .

واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الوَعْلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُسْتَخْدَمُ فيها غالبًا مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهامًا مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة . ومما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد[٣]

إذا سُئِلَتْ لم تكن كَزَّةً ولكنْ تذوب ولا تَجْمُدُ

ووراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفُجْرها وغوايتها تصريحًا تتقزَّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتفنن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظم في هذا الفن قديمًا من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادي عند عمر بن

(١) أغاني ٣/١٦٢ .
(٢) الديوان ١/٣٧٧ وانظر ٣/٢٢٩ .
(٣) الديوان ٣/١٢٣ .

أبى ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العُذْرى عند جميل وأمثاله من النجديين والنازلين ببوادى الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفَّس فيها ، ونراه أحيانًا يقترب اقترابًا شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله (١) :

لعَبْدَةَ دارٌ ما تكَلِّمنا الدَّارُ ... تلوح مغانيها كما لاح أسْطارُ (٢)
أُسائلُ أحجارًا ونُؤْياً مهدَّماً ... وكيف يجيب القولَ نُؤْىٌ وأحجارُ (٣)
وما كلَّمتْنى دارُها إذ سألْتُها ... وفى كبدى، كالنِّفْط شُبَّت به النَّارُ
وعند مَغانى دارها لو تكلَّمتْ ... لمكتئبٍ بادِى الصبابة أخبارُ

ويقترب أيضًا حين يستغل عناصر النسيب والغزل القديم وما يجرى فيه من وصف لوعة الحب والسهاد الطويل، وما صوَّر عشاق العرب من إذعانهم لمعشوقاتهم وما يسكبن فى قلوبهم من سحر وفتنة،وما يبعث نسيمُ الصبا الحلو المار بديارهن فى أنفسهم من بَرْد وأمن وغبطة وما ينصبون حولهن من شباك التضرع والتذلل والاستعطاف، حتى ليخيِّلون إليهن أنهم قتلى حبهن وسهام عيونهن، يقول من قصيدة فى معشوقته عَبْدة (٤) :

أَبِيتُ أَرْمَدَ ما لم أكتحِلْ بكمُ ... وفى اكتحالى بكم شافٍ من الرَّمَدِ
رَقَّتْ لكم كبدى حتى لو انكمُ ... تهوون أن لا أُريد العيش لم أُرِدِ
كأن قلبى إذا ذكراكمُ عَرضتْ ... من سحرهاروتَ أو ماروتَ فى عُقَدِ (٥)
ما هَبَّت الريحُ من تلْقاء أرضكمُ ... إلا وجدتُ لها بَرْدًا على كَبِدِى
يرقُّ قَلْبى وتزدادين لى غِلَظاً ... ما ذاك فيما أُرَجِّى منك بالسَّدَدِ (٦)
تحرَّجى بالهوى إن كنتِ مومنةً ... بالله أن تقتلى نَفْساً بلا قَوَدِ (٧)

---

(١) أغانى ٦/٢٤٦ .

(٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار : جمع سطر ، يشبه المغانى بسطور الكتابة .

(٣) النؤى : حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار.

(٤) انظر الديوان ٢/٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٨٢ .

(٥) العقد : ماينفثه الساحر بزمزمته لغرض السحر .

(٦) السدد : السداد والصواب .

(٧) القود : القصاص .

وقد رققت الحضارة حسَّه وفتحت له فى الغزل أبوابًا من المعانى والصور التى تنمّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادى وشعور رقيق حاد ، ومما يمثل ذلك عنده من بعض الوجوه قوله (١) :

يا ليلتى تزداد نُكْرًا ... من حُبِّ مَنْ أحببتُ بِكْرًا
حَوْراءُ إن نظرتْ إليْـ ... ـك سَقَتْكَ بالعينين خَمْرًا
وكأنَّ رَجْعَ حديثها ... قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهرا
وكأن تحت لسانها ... هاروتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جمعتْ عليـ ... ـه ثيابُها ذهباً وعِطْرا
وكأنها بَرْدُ الشرا ... ب صَفَا ووافق منك فِطْرَا
جِنِّيَّـةٌ إنْسِيَّةٌ ... أو بين ذاك أَجلُّ أمرا

وواضح فى هذه القطعة أثر فقده لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحسّ ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ،ويصور جسدها ذهبا وعطرا ، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائمًا يتحرق عطشا . وقلما ارتفع فى غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوَّه بذلك كثيراً فى شعره ، محاولا أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثَمَّ مضى يردد فى أشعاره أن السمع يحلّ محل العين فى تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله (٢) :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحَىِّ عاشقةٌ ... والأُذْن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تَهْذِى؟فقلت لهم ... الأُذْن كالعين تُوفِى القلب ما كانا

وكان لذلك أثر عميق فى غزله إذ طبعه بطوابع الحس ، وليس ذلك فحسب ، فقد أماله بشار — كما أسلفنا — نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرَّج ولا يرعى ديناً ولا خلقاً ،

---

(١) أغانى ٣/١٥٥ .
(٢) أغانى ٣/٢٣٨ .

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

## ٢

### أبو نواس[1]

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضاً ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغانى ( طبع الساسى ) ١٨ / ٢ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبا ص ٩٩ وشذرات الذهب ١ / ٣٤٥ ومرآة الجنان ١ / ٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدقى وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هانىء » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة(١) . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى(٢) والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة(٣) ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد ( ١٢٧-١٣١ هـ ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلَّبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدة أولاد(٤) ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة(٥) ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا(٦) ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات(٧) :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها　　　إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر(٨) وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه(٩) ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣.
(٢) الاشتقاق لابن دريد ( نشر الخانجى ) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .
(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .
(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .
(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان ص ١٠٩ .
(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٤٨٧/١٣ . وأبو هفان ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـــا حُبٌّ كأَطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢]، فارتحل معه، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرد، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره. وثاب قليلا إلى رشده، فخرج إلى بادية بنى أسد، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣]، وعاد، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤]، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعًا، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أَوْدَى جِماعُ العلم إذ أَوْدَى خَلَفْ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: «كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[٦]. وطلب أيضًا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلمًا ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧]. وقد وصله هذا العلم

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨.
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها.
(٣) ابن منظور ص ١٢.
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩.
(٥) الديوان ص ١٣٣.
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١.
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسى الأصل، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة، وأيضاً لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره «حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة»[١]. وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم[٢]. وتفرَّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئاً كثيراً[٣]، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً[٤]، مما أعدَّه لتكثر مطايباته ومداعباته، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكى، فيقول:[٥]

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا | لو قد نبذتُ به إليك لسرَّكا
إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه | ويزيد فى علمى حكاية من حكى
أتتبَّع الظرفاء أكتب عنهمُ | كيما أحدِّث من أحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التى عاصرته، فقد كانت تَزْدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة، وكانت أول امرأة شغفته حبا، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء؛ جنان جارية الثقفيين، وعقد أبو الفرج فصلا فى أغانيه[٦] لأشعاره فيها وأخباره معها، ونراه يرسل لها بغزلياته، وترسل له بسبِّها وشتمها، وهو يزداد بها شغفاً، حتى ليقول[٧]:

أتانى عنك سَبُّكِ لى فسُبِّى | أليس جرى بِفيك اسمى فحَسْبى
وقُولى ما بدالكِ أن تقولى | فما ذا كلُّه إلا لحُبِّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه. وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤.
(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١.
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١.
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤.
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢.
(٦) أغانى (طبع الساسى) ١٨/٢ وما بعدها.
(٧) الديوان ص ٣٦٢.

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكياً عليه ولا آسفاً ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول[١] :

أيا من كنت بالبَصْر ة أصفى لهم الوُدَّا
ومن كانوا موالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا!
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صَدَّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنسانا كم جِدَّا
فلا تَرْعَوْا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدَّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملماً من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثَّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذَّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر[٢] ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه[٣] ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من بِرِّهم ونوالهم الغَمْر ، ونراه يحزن عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله[٤] :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيباتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منه فعاداهمُ لذاكا

ويولِّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول(١) :

أَنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ　　فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ
النيلُ يُنْعش ماؤه مصراً　　ونداك ينعش أهلَه الغَمْرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حنيناً شديداً إلى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوَّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله(٢) :

كفى حَزَناً أَنى بفسطاط نازحٌ　　ولى نحو أَكناف العراق حَنينُ

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوَّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديمًا له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلَّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبا بعيوبه تُقْرَأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

أَلا فاسْقِنِى خمراً وقل لى هى الخَمْرُ　　ولا تَسْقنى سرًّا إذا أَمكن الجَهْرُ
وبُحْ باسْم من تَهْوَى ودَعْنى من الكُنَى　　فلا خَيْرَ فى اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون » . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعًا فيها روحه الفكهة بما يُصَوِّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبح فى ذراعه وللمصحف فى لَبَّته .(٣) وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

(١) الديوان ص ١٠٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٨ .

حريته[١] . وكانت قد تقدمت به السنُّ وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة فى الزهد ، وفى أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غَيِّه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به فى السجن ، إذ يقال إنه حجَّ سنة ١٩٠ للهجرة[٢] ، وكأنما هى صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفى من بعده ، وقد اختلف الرواة فى تاريخ وفاته[٣] ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفى ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً فى سبب وفاته[٤] ، فقيل إنه توفىَّ وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فدسَّ له شربة من سَمٍّ قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دسَّ له مَنْ ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت فى تكوين طبيعة أبى نواس ، فقد كان فارسيًّا حاد المزاج وثقف كل الثقافات التى عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق فى حضارة عصره المادية وفى آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المجون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردَّى فى أسْوأ صور المجون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً فى الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة إنما كان يعتنق المجون ، ويتعبد لملاذِّ الحضارة التى عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

(١) زهر الآداب ٢/١١١ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبو هفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/١٥٦ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء ص ٧٨٣ .

(٤) أبو هفان ص ٣٤ .

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور [١] وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السابق وحواره للنظام فى فكرة العفو التى قال بها المرجئة [٢] .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً فى مزاجه هو عنصر التندير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذى جرّه إلى صياح كثير فى وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَـزَا بى المجون حتى أتناول العظائم » [٣] وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه فى أثناء معاقرته للخمر هزلا وتعابثا ومجانة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته فى خمرياته ، إذ نراه فى ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونَعْت رحلته فى الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره فى الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس » [٤] وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلى والإسلامى وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو فى اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط فى التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد فى معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك فى الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك فى الاتجاه الثانى أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه . أما المديح

---

(١) أبو هفان ص ٣٧ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .

(٣) أبو هفان ص٣٨ .

(٤) تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٧ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله فى ذلك قلائد بديعة مثل رائيته فى الخصيب[١] :

أجارة بَيْتينا أبوكِ غَيورُ     وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

وميميته فى الأمين[٢] :

يا دارُ ما فعلتْ بك الأَيَّامُ     لم تُبْق فيكِ بشاشةً تُسْتامُ[٣]

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد[٤] :

وأخفتَ أهل الشِّرْك حتى إنه     لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقوله أيضًا فيه[٥] :

ملكٌ تصوَّر فى القلوب مثالُهُ     فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وقوله فى الأمين مخاطبًا ناقته[٦] :

يا ناقُ لا تَسْأَمى أوتبلغى ملكا     تقبيلُ راحته والرُّكْنِ سيَّانِ

محمدٌ خير من يَمْشِى على قَدَمٍ     مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنْس ومن جانِ

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردَّى فيه من لهو ومجون ، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادًّا ردًّا عنيفًا على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله فى بعض ممدوحيه[٧] :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِه     فعَيْنى ترى دَهْرى وليس يرانى

فلو تُسْأَل الأَيامُ ما اسمى لمادرتْ     وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وجانب آخر فى بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التى تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائحه على شاكلة سينيته فى الأمين وفيها يقول[١] :

أَضحى الإمام محمدٌ للدين نورًا يُقْتَبَسْ
تبكى البدورُ لضِحْكهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسْ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفـَّها فى النطق وأحلاها فى السمع ، وكان يدنو فى ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى فى المديح ، أو قل فى كثير منه ، فإنه كان يبتغى فيه أو على الأقل فى بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكًا بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أبو نُخَيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشَّمَرْدَل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقَرَنَ بهذه المحاكاة الشديدة ضروباً من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[٢] :

لما تبدَّى الصُّبْح من حجابهِ كطلعة الأَشْمَط من جلبابهِ[٣]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ كالحبشىِّ افترَّ عن أنيابه
هِجْنا بكلب طالما هِجْنا بهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلاَّبه[٤]
كأَن مَتْنَيه لدى انْسِرابهِ مَتْنا شجاعٍ لَجَّ فى انسيابه[٥]

---

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٢ / ٤٠ .
(٣) الأشمط : الذى يخالط سواد شعره بياض الشيب .
(٤) ينتسف : ينتزع بقوة .
(٥) انسرابه : انسيابه وإسراعه . الشجاع هنا : الأفعى ، متناه : مكتنف صلبه .

كأنما الأظفورُ فى قِنابهِ ... مُوسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابهِ[١]
كأَن نَسْرًا ما توكَّلْنا بهِ ... يعفو على ما جَرَّ من ثيابهِ[٢]
ترى سَموام الوحش يُحْتَوى بِهِ ... يَرُحْنَ أَسْرَى ظُفْرِه ونابه[٣]

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدُّ ركنا هامًّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله[٤] :

طوى الموْتُ ما بينى وبين محمَّدٍ ... وليس لما تَطْوى المنِيَّةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها ... أَحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرَ ذاكر
وكنت عليه أَحذر الموت وحده ... فلم يبق لى شىءٌ عليه أحاذر
لئن عَمرتْ دورٌ بمن لا أَوَدُّهُ ... لقد عَمرتْ ممن أُحبُّ المقابرُ

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع[٥] .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يجدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين[٦] وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

---

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه . صناع : ماهر . نصابه : قرابه ومقبضه .
(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعفو : يمحو .
(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفيافى .
(٤) الديوان ص ١٢٩ .
(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .
(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التى عرفها فى نقائضهما والتى طالما سمعها من أبى عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجرى فيه فى نفس الدروب التى مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التى كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته — إن صح هذا التعبير — من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفًا ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[1] :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أَسأَلُ عن خمَّارة البلدِ[2]

يبكى على طَلل الماضين من أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى من بنو أَسدِ؟

كم بين ناعتِ خمرٍ فى دَساكرِها ... وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتضَدِ[3]

دَعْ ذا ، عَدِمتك ، واشربْها معتَّقَةً ... صفراءَ تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك — كما ذهب بعض المعاصرين[4] — شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء وممن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله[5] :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـيِ إذا ما انشقَّ يُرْفَا

عجبًا من أثر الصَّنْـ ... ـعَةِ فيه كيف يخفى

(١) الديوان ص ٢٦٦ .
(٢) عاج : عطف .
(٣) الدساكر : جمع دسكرة وهى القرية العظيمة . النؤى : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ، منتضد : مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .
(٤) حديث الأربعاء (طبعة سنة ١٩٣٧) ص ١١٣ — ١١٤ .
(٥) الديوان ص ١٧٢ .

إن رقَّاءك هذا ألطفُ الأمّـة كَفَّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبَخَسَه جائزته[1] ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يجشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستعفى منه ، وتخلَّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة[2] ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام[3] ، وكان من أشد ماهجاه به على نفسه نعته له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول فى إحدى أهاجيه مصورا ثقله[4] :

فيك ما يَحْمل الملوكَ على الخُرْ ... قِ ويُزْرى بالسيد الجَحْجاحِ[5]
فيك تِيهٌ وفيك عُجْبٌ شَديدٌ ... وطِماحٌ يفوق كلَّ طِماحِ
باردُ الظَّرف مظلم الكذب تيَّا ... هُ مُعيد الحديث غَثُّ المزاح

وكانت هذه الأبيات سببًا فى سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْد لا يلقاه ولا يُذْكر له إلا بجلُّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعًا ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول[6] :

واللهِ لو كنتُ جريرًا لمـا ... كنت بأَهْجَى لك من أَصْلكا

وله أهاج كثيرة فى القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائمًا يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضى إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبى نواس غزل كثير فى المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل فى المرأة ما نظمه فى جِنان ، إذ يعبِّر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .
(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .
(٥) الخرق : الحمق . الجحجاح : الجواد .
(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردُّه ردًّا منكراً عنيفًا ، وهو كلما ردّته ازداد بها غرامًا وعليها تهالكاً ،وكلف بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب فى بعض المآتم (١) :

يا قمرًا أَبصرتُ فى مأْتمٍ        يَنْدب شَجْوًا بين أَتْرابِ
أَبرزه المأتَمُ لى كارها        برغم داياتٍ وحُجَّاب
يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نرجسٍ        ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ (٢)
لا تَبْكِ مَيْتًا حلَّ فى حُفْرَةٍ        وابْكِ قتيلا لك بالباب
لا زال موتاً دَأْبُ أَحبابه        وكان أَنْ أُبْصِره دابى (٣)

وعبثا استطاع يومًا أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقًّا بحبها وناره المحرقة ، ويتعذب عذابًا طويلا ، بثَّه فى كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التى استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شىء من أمره . ونراه فى بغداد يسوق غزلا كثيراً فى إمائها وجواريها ، يشوبه بكثير من الفحش الذى ينبو عنه الذوق ، حتى مع عنان جارية الناطفى ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم الشعر ، ممعنة معهم فى كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعابثة (٤) . وديوانه من هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائى كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ، وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عـرَفْنَ شيئًا من العفة والطهارة .

ويتسع الفحش فى غزل أبى نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة فى جبين عصره ،وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستَّر بذلك عن فسقه الحقيقى بالجوارى الخليعات (٥) . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسَّر نفسية أبى نواس على أساس هذه الآفة الشاذة التى كان يتظاهر بها ليخفى حقيقة سريرته وحياته الماجنة . وينبغى أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه فى حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً من غزله المفحش فى الغلمان والنساء جميعًا كان ينظمه فى مجالس الخمر تعابثًا

(١) أغانى ١٨/ ٦ والديوان ص ٣٦١ .
(٢) استعار الدر للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب لأطراف الأصابع .
(٣) الدأب : الشأن والعادة .
(٤) العقد الفريد ٦/ ٥٧ .
(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع فى ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله [١] :

يا مَنْ له فى عَيْنه عَقْرَبُ  فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ  طالعــةٌ بالسَّعْد ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى غير مدافَع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنَّى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شيء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان فى البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الخمرية تتكامل صورتها وتُفْرَدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنًّا مستقلا ، له وحدته الموضوعية ، مستعينًا فى ذلك بملكاته العقلية الخصبة التى أمدته بكثير من المعانى الدقيقة ومستعيناً أيضًا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التى رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحيانًا فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كئوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدى سقاتها بين آلات الطرب ورنَّات القيان ، يقول [٢] :

إنما العيشُ سماعٌ ومُـدامٌ ونِـدامُ
فإذا فاتك هــذا فعلى الدنيــا سلام

فلا حياة فى رأيه سوى حياة الخمر والمجون فى بيوت القيان وفى الحانات ، ومن ثَمَّ مضى يدعو فى خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك فى قوله [٣] :

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربْ إلى هِنْدِ  واشْرَبْ على الورد من حمراء كالوردِ
كأْساً إذا انحدرتْ فى حَلْق شاربها  أَجْدَتْه حُمْرتَها فى العين والخدِّ [٤]

(١) الديوان ص ٤٠٧ .
(٢) العقد الفريد ٦ / ٢٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأْسُ لؤلؤةٌ   في كفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها   خمرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ

وأخذ يجدِّف كثيراً ضد الدين الحنيف الذى يحرم الخمر وجملة الآثام التى كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلانًا صريحًا بمثل قوله[١] :

ترى عندنا ما يُسْخط. الله كلَّه   من العمل المُرْدي الفتى ماعدا الشِّرْكا

وقد يتمادى فى ذلك حتى ليعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة ولا نار ، وهو فى ذلك كله إنما يتماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرته الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان والراهبات ، وقد يلمُّ بحانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه الناحية ملىء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفى خمرياته فحش كثير ،وكأنما وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياه . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر فى هذا الباب ، إذ تحول إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل فى قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا هو توضع فى فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان فى كتابه « أخبار أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار المجّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعرَف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيقَ النفس من حكم » تُنْسَبُ إليه وهى لوالبة[٢] ، ويقول أبو الفرج فى ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر نادر فى الخمر نسبه الناس إلى أبى نواس »[٣] ويقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون »[٤] ولم تقف المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضًا لم تقف عند شعر الخمر والمجون

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .
(٣) أغانى ٧/١٤٦ .
(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه فى جميع الموضوعات، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة النظام فى ابن المعتز ، فسنراه ينشد له فى الخمر بيتين وردا فى ديوان أبى نواس[١]، وينشد له قطعة فى مديح الأمين جاءت أيضًا فى ديوان أبى نواس[٢]، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالى المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية فى الغزل إلى النظام وهى مبثوثة فى الديوان[٣] وكأن الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعانى وبعد فى الخيال والوهم . وكان حَمْلهم عليه لأشعار المجّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبى العتاهية[٤]

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حُمل عليه كثير فى هذا الباب،ومن ثَمَّ ينبغى أن لا نتسع فى أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهانى ، فإنها تمتلىء بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتّخذ أساسا لدرسه وبحثه . وهو يعتدُّ فى كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضًا وراء ذلك كثيرا من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة »[٥] . وكان كثيراً ما يُدْخل ألفاظًا فارسية فى خمرياته بحكم شيوع الفارسية فى الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المجوس الذين كان يتغزل بهم،وَدفَعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثّة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم. وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجرى فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سنُّ أبى نواس ووخَطه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

---

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٨ والديوان ص ٤١٩ .
(٤) انظر الأغانى ٤/١١ ، ٢٩ ، ٧٠ والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

فى الحياة وعواقبها وفى البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغامًا مختلفة فى الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح من مثل قوله[1] :

يا طالبَ الدنيا ليجمعها    جمحتْ بك الآمال فاقتصِدِ
والقَصْد أحسنُ ما عملتَ له    فاسلكْ سبيل الخير واجتهد
واعملْ لدارٍ أنت جاعلُها    دارَ المقامة آخرَ الأَبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير فى الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلا حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياما آخر ولوَجَد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقح مع الغلمان والجوارى . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه عُنى فى بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفَّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

## ٣

### أبو العتاهية[2]

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان فى « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطيًّا من موالى بنى عَنَزة ، أما

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) راجع فى ذى العتاهية وأخباره وأشعاره أغانى ( طبع دار الكتب ) ٤/١ وطبعة الساسى فى ترجمة والبة ١٦/١٤٢ وترجمة سلم الخاسر ٢١/٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ بغداد ٦/٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤ ومرآة الجنان ٢/٤٩ وشذرات الذهب ٢/٢٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٢٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٨ وزهر الآداب للحصرى ٢/٣٤ وما بعدها وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق ( نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة ) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٦ م .

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابناه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم[١] . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شىء فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر[٢] ، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فماذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنَّثين ، وبذلك كُتب عليه أن يكون سيِّئ السيرة فى مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردَّى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته ، وكان نَبْع الشعر قد أخذ يتدفَّق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسَّر من الخزف وما يشترونه من الجرار[٣] .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجَّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو فى أثناء ذلك يُكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ والرواح إلى نوادى القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النَّبَط دوَّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد[٤] ، لعل بضاعتهما تروج فيها ، وفُتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدَّت فى وجه أبى العتاهية ، فصمَّم على العودة إلى الكوفة ، وعرَّج فى طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سُعْدى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفتْ قلبه حبًّا ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدَّى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقْذعًا ، فأنزل به

---

(١) أغانى ٤/٧ .
(٢) أغانى ٤/٧٥ وانظر المسعودى ٣/٣٦٠.
(٣) أغانى ٤/٩ .
(٤) أغانى ٤/٤ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عَنَزة ، وكفَّ أبو العتاهية لسانه[١] .

ويمَّم الكوفة غير أن مقامه لم يَطُلْ بها ، فإن إبراهيم الموصلى صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى ( ١٥٨ — ١٦٩ هـ ) وقرَّبه مع من قرَّب من المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحق به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ، وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزه[٢] ، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيراً عنده مقدَّما له على كثير من الشعراء ، وحتّى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه[٣] . ويعظم شأن أبى العتاهية ويتهاداه كبار رجال الدولة ووجوهها وفى مقدمتهم خال المهدى يزيد بن منصور الحميرى وقائده وواليه على طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إنى أَمنتُ من الزمان ورَيْبِهِ لما علقتُ من الأَمير حِبالا

ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم[٤] .

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة ، غير أن سحابة لاتلبث أن تنعقد فى سمائها ، فقدتعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح ، وهى عُتْبَة ،وكانت تزدريه كما ازدرته سُعْدى من قبل ، ومضى لا يكفُّ عن غزله بها ولا يرعوى ، فعرَّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه ، فحدَّثت المهدى بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمه وجوارى قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبًّا صادقاً إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا[٥] ،وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا ، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه[٦] .

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

---

( ١ ) انظر القصة فى الأغانى ٤ / ٢٢ ومابعدها .
( ٢ ) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودى ٣ / ٢٤٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٨ .
( ٣ ) أغانى ٤ / ٥٦ .
( ٤ ) زهر الآداب ٢ / ٣٤ وانظر الأغانى ٤ / ٣٨ .
( ٥ ) انظر فى قصته مع عتبة ابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٥ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٤ وما بعدها .
( ٦ ) أغانى ٤ / ٢ .

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبي نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبُّ معهم من كئوس الخمر واللهو في دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسي [١] وفي الأديرة من مثل دير أشموني [٢] . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصليه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرِّض باعتزائه المزيف للعرب، إذ كان ينسب نفسه في بني أسد [٣] :

أوالبُ أنت في العَربِ ... كمثل الشِّيصِ في الرُّطَبِ

هلمَّ إلى الموالي الصِّيـ ... ـدِ في سَعةٍ وفي رَحَبِ

فأَنت بنا لعمر اللـ ... ـه أَشبه منك بالعرب

وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة كالهارب وخمل ذكره [٤] .

ويتوفَّى المهدي فيخلفه الهادي ( ١٦٩ — ١٧٠ هـ ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه في كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلي الرشيد أريكة الخلافة ( ١٧٠ — ١٩٣ هـ ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدي ، فاتصل ما انقطع في مدة الهادي القصيرة ، وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر « وكان يُجْرى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية » [٥] وكثيراً ما كانت تبلغ في المرة الواحدة مائة ألف درهم [٦] . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن مزيد الشيباني ، ويقال إنه أجازه في إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم [٧] ويظهر أنه دقَّ أبواب البرامكة طويلا ، ولكنهم لم يفتحوها له، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السُّلَمِيّ .

وظل يعيش للهو والقَصْف ، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهي السنة التي نزل فيها الرشيد الرَّقَّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبْس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى مديحه الرائع له وإلى ما كان يضفيه عليه من بديع الثناء ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحبسه

---

( ١ ) أغاني ( ساسي ) ٢٠/٨٨ .

( ٢ ) الديارات للشابشتي ص ٣١ .

( ٣ ) أغاني ( ساسي ) ١٦/١٤٣ والشيص : أردأ التمر .

( ٤ ) أغاني ١٦/١٤٢ .

( ٥ ) أغاني ( دار الكتب ) ٤/٦٣ .

( ٦ ) أغاني ٤/٧٤ .

( ٧ ) أغاني ٤/١٠٠ .

فى دار موسَّعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قولــه[١] :

إنما أَنت رحمةٌ وسَلامَهْ زادكَ اللهُ غبطةً وكرامَهْ

لو توجَّعتَ لى فروَّحتَ عنى روَّح اللهُ عنكَ يوم القيامهْ

ويرقّ له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه فى هذا الزهد الذى طرأ عليه ، وردَّته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حَمْدُويْه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنْزل به العقاب الصارم الذى كان يُنْزله بأمثاله ، لولا أن موَّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين[٢] ، ويقال إن منصور بن عمَّار هتف به فى بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار[٣]. وهى ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة حقاً ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش[٤] ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبى العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق فى هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولا بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفى كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله فى الحواس الأخرى[٥] ، وفى ذلك يقول أبو العتاهية[٦] :

لكل شئٍ معْدِنٌ وجَوْهَرُ وأَوسطٌ وأَصغرٌ وأَكبَرُ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .

(٢) أغانى ٤/٧ .

(٣) أغانى ٤/٣٤ .

(٤) طبرى ٦/٤٣٣ .

(٥) انظر الحيوان ٤/٤٤١ والشهرستانى ص ١٨٨ .

(٦) أغانى ٤/٣٧ .

وكلٌّ شيءٍ لاحِقٌ بجوهره أصغره متصلٌ بأكبره
الخير والشرُّ هما أزواج لذا نِتَاجٌ ولذا نتاجُ
لكل إنسانٍ طبيعتان خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدَّان
والخير والشر إذا ما عُدَّا بينهما بونٌ بعيد جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله (١):

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفى كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحِدُ

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفى ذلك يقول أحمد بن حرب : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردُّ كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعًا (٢) » وهو يقصد بالجوهرين طبعًا النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع فى يدنا المفتاح لحل مشكلة أبى العتاهية ، فهو ليس مانويًّا ثَنَوِيا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز (٣) وبعض معاصريه ، إنما هو مانوى من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موَّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا فى الفصل الثانى أن تعاليم مانى كانت مزيجًا من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا فى بعض شعره الزاهدَ الناسكَ فى صورة بوذا المشهورة إذ يقول (٤) :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرُّف رفْعَ الطِّين بالطين
إذا أردت شريفَ الناس كلِّهم فانظرْ إلى ملكٍ فى زيٍّ مسكين

---

(١) أغانى ٤/٣٥ .
(٢) أغانى ٤/٥ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .
(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

ومعروف أن بوذا – عند الهنود – كان ملكا أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح فى العالم عابداً ناسكاً . وخصلة عند أبى العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعته المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحا شُحًّا شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتُروَى فى شحه نوادر كثيرة[١] ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدانق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغى أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسْب غيره الذى عليه غُرْمه ومأثمه[٢]، فهو يحرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء. وفعلا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة[٣] سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقلة[٤] سنة ١٩١ . وحين يتوفَّى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله[٥] :

يا عمودَ الإسلام خير عَمودِ والذى صِيغ من حياءٍ وجودِ
إن يوماً أراك فيهِ ليومٌ طلعتْ شَمْسه بِسَعْدِ السُّعودِ

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقلَّدَ المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم[٦] ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله[٧] :

لخَيْرُ إمامٍ قام من خير عُنْصُر وأَفْضلُ راقٍ فوق أَعواد مِنْبَرِ

ويقول الرواة إنه كان يجرى عليه فى كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يغدق عليه من جوائزه فى الحين بعد الحين[٨] . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً فى الظاهر ، أما فى الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلح فى الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك فى بعض أشعاره[٩]

---

(١) أغانى ٤/٦ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤/٤٥٩ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى (طبع الساسى) ١٧/٤٦ .
(٥) أغانى (طبع الساسى) ٢١/١١ .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٨٩ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/١٣ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٥٣ .
(٩) أغانى (ساسى) ٢١/٧٦ وانظر أغانى (دار الكتب) ٤/٧٦ .

وهكذا ظلَّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبي العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسَّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولا إلى أن يصبح مخنثًا ، ثم ماجنًا ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُتْرية [١] ، ونؤمن ـ مع نيكلسون [٢] ـ بأنه لم يعش هذا المذهب حقًّا ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان [٣] ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونَقَل كثيراً من حكمها إلى أشعاره ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرْجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثَمَّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم [٤] ، ومرَّ بنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس [٥] الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفًا ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضًا مثقفًا ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويبرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعًا .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الخمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الخمر

---

(١) أغانى ٤ / ٦ .
(٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون ص ٢٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٤ .
(٤) أغانى ٤ / ٢ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

مستبدلا بهما الزهد ونشر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبي نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير في مدائحها على الأوضاع والتقاليد الموروثة في الصياغة وفي التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحه إذ يتنحّى عن الصحراء والأطلال إلا ما قد يأتي عرضاً ، وأيضًا فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثّل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول[١] :

أَتَتْه الخلافةُ منقادةً إليه تُـجَرِّرُ أذيالهـا
ولم تَكُ تَصْلُحُ إلا له ولم يَكُ يَصْلُحُ إلا لها
ولورامها أحدٌ غيرهُ لزُلْزِلَتِ الأَرضُ زلزالها
ولو لم تطعْهُ بناتُ القلوبِ لمـا قَبِلَ اللهُ أعمالها[٢]
وإن الخليفة من بُغْض لا إليه ليُبْغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة . وأكبر خليفة عُنى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه في سلمه وحربه وفي كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفي هذه التولية يقول[٣] :

وشدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عهودِ

وكان يحرص دائمًا على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعرضًا لوصف جيوشه وذَبّه عن حمى الإسلام وما يُنْزل بأعدائه من موت يَمْحَقُهم مَحْقًا ، على شاكلة قوله[٤] :

وهرونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى إذا ما الصَّدِى بالرِّيق غَصَّتْ حناجِرُهْ[٥]
وأَوسطُ بيتٍ في قريشٍ لَبَيْتُهُ وأَوَّلُ عِزٍّ في قريشٍ وآخره

(١) أغانى ٤/ ٣٣ .
(٢) بنات القلوب : النيات .
(٣) أغانى ٤/ ١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/ ١٥ .
(٥) المزن : السحاب الممطر . الصدى : بفتح الدال : العطش وبكسرها العطشان .

وزَحْفٍ له تحكى البروقَ سيوفُه ... وتحكى الرعودَ القاصفات حَوافره
إذا نُكب الإسلامُ يوما بِنَكْبَةٍ ... فهرونُ من بين البريَّة ثائرُهْ
ومن ذا يفوت الموتَ ، والموتُ مدركٌ ... كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ يُنافِرُهْ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعد فى جزالته ورصانته ، إذ كان يُعْنى باختيار ألفاظه من المعجم اليومى أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه ، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله(١) :

أنا اليومَ لى ، والحمد لله ، أَشْهُرُ ... يروح علىَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تذكَّرْ أمينَ الله حَقِّى وحُرْمتى ... وما كنت تُوليني لعلك تَذْكُرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلَّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سُعْدى النائحة ، وقد صَوَّره فى بعض هذه الأشعار صورةً نَدِىَ لها وجهه طويلا ، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضًا من الرجولة ، حتى ليقول على لسانه(٢) :

أنا فتاةُ الحَىِّ من وائلٍ ... فى الشَّرف الشامخ والنُّبْلِ
ما فى بنى شَيْبان أهلِ الحِجَى ... جاريةٌ واحدةٌ مِثْلى
قد نَقَّطت فى وجهها نَقْطَةً ... مخافةَ العَيْن من الكُحْل
إن زُرْتموها قال حُجَّابها ... نحن عن الزُّوَّارِ فى شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلْم الخاسر ، فما هو إلا أن قال فيه :

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو ... أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

(١) أغانى ٤/٦٣ .
(٢) أغانى ٤/٢٢ .

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أنّ منه سلم طويلا[١] . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحُجِبَ عنه ، فقال :

متى يظفرُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُك محجوبٌ ونصفك نائم

فسار بيته هذا فى الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف[٢] » وَجِلاً من أن يتمادى فى هجائه .

وبين أيدينا له مراث مختلفة ، لعل أحرَّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فى الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله[٣] :

فَتًى لم يملَّ النَّدَى ساعةً على عُسْرِهِ كانَ أو يُسْرِهِ
أَتتْه المنيَّةُ مغتالــةً رُوَيْدًا تَخلَّل من سِتْرِهِ
فخلَّى القصور لمن شادها وحلَّ من القبر فى قَعْرِهِ
وأَصبح يُهْدَى إلى منزلٍ عميقٍ تُؤنَّق فى حَفْــرِهِ
أَشدُّ الجماعة وَجْدًا بهِ أَشدُّ الجماعة فى طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقصٍ للخمر ونُدْمانها وساقيها ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة[٤] :

لهفى على الزَّمن القصِيرِ بين الخَورْنَقِ والسَّدِيرِ[٥]
إذ نحن فى غُرَف الجنَا ن نعومُ فى بحر السُّرور
فى فتيةٍ مــلكوا عِنا ن الدهر أَمثالِ الصقور

(١) أغانى ٤/٧٥ وطبعته الساسى ٢١/٧٦.
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٤ .
(٤) أغانى ٤/٦٠ .
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

وَمُقَرْطَقٍ يمشى أَما م القوم كالرَّشإِ الغَرِيرِ[١]
بزجاجةٍ تَسْتخرج السِّـ رَّ الدفين من الضمير
زهراءَ مثل الكوكب الـ دُّرِّىِّ فى كفِّ المُدِير
ومخصَّرات زُرْنَنَـا بعد الهدوِّ من الخدورِ[٢]
يَرْفُلْنَ فى حُلَل المحا سنِ والمجاسدِ والحريرِ[٣]

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .

وقد مرَّ بنا تدلهه بعُتْبة ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ، وأكبر الظن أن رقته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَتْ فيه مشاعرهن ، وهى مشاعر تقترن عنده بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّى نحوكم سائلا ماذا تردُّون على السائلِ
إن لم تُنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدَلَ النائلِ
أَو كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ وَيْلِى فمنُّوه إلى قابل

ويقول ابن المعتز معلقًا على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته[٤] » . وعلى نفس هذا المثال قوله فى عُتْبة أيضا[٥] :

كأَنها من حُسْنها دُرَّةٌ أَخرجها اليَمُّ إلى السَّاحلِ
كأَن فى فِيها وفى طَرْفها سِواحرًا أَقبلْنَ من بابلِ
لم يُبْقِ منى حُبُّها ما خلا حُشَاشةً فى بدنٍ ناحلِ
يا مَنْ رأَى قبلى قتيلاً بكى من شِدَّةِ الوَجْد على القاتلِ

---

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الخصور . الهدو من الليل : أوائله .

(٣) يرفلن : يتبخترن . المجاسد : القمصان الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغانى ٤/٤٥ .

ودائماً يشكو مسكنته وأن صاحبته لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه حريته ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذى يرسل الدموع مِدْراراً على من ظلمتْه ، وإنه ليستجير ولا مجير ويتصبَّر ولا صبر إلا النواح الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً فى حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً فى تراب ، يقول[١] :

لِدُوا للموت وابنوا للخَراب فكلُّكمُ يصير إلى تَبابِ[٢]

ويقول[٣] :

الناس فى غَفَلاتهم ورَحَى المنيَّـة تَطْحَنُ

ويقول[٤] :

كل حَيٍّ عند مِيتَتِه حظُّه من ماله الكَفَنُ

ويقول[٥] :

بين عَيْنَى كلِّ حَيٍّ عَلَمُ المـوت يلوحُ
نُحْ على نفسك يامِسْـ كين إن كنت تنوحُ

وهكذا يمضى ينعى الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رقدة الموت الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا راصدة ، والقدر أزلى ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن بالجبر والاضطرار[٦] ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا الأسى والكآبة ، وهى نظرة سوداء جاءته من مانويته ، إذ الإسلام لا يَنْعَى إلى

(١) الديوان ص ٢٣ .
(٢) تباب : هلاك .
(٣) الديوان ص ٢٦٧ .
(٤) الديوان ص ٢٥٢ .
(٥) أغانى ٤/١٠٣ .
(٦) أغانى ٤/٦ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم فى كروب أبى العتاهية التى تخنق الأنفاس والتى تجعله يقف طويلا عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبورِ نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجّلا أن ذوى السلطان يستوون مع السوقة فى الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول[١] :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إلماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله[٢] :

فلو أنا إذا مُتْنا تُرِكْنا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ
ولكنا إذا مُتْنا بُعثنا ونُسْأَل بعده عن كل شَيٍّ

ويتسع أبو العتاهية فى أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملا ، وفعلا جمع منها ابن عبد البَرّ النَّمرى الأندلسى ديواناً مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبى العتاهية باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده .

وأبو العتاهية فى زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو فى عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوى ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصرى ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب وإلى معانى بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد[٣] . وهو فى جوانب من مواعظه يلتقى بآى الذكر الحكيم فى اتخاذ العبرة من الأمم الداثرة والقرون الخالية

---

(١) الديوان ( طبعة سنة ١٩٠٩ ) ص ١٨ .
(٢) الديوان ص ٣٠٢ .
(٣) الكامل للمبرد ( طبعة رايت ) ص ٢٣٠ وما بعدها .

وفى تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله(١) :

يا عجبا كلُّنَا يَحيد عن الْ ... حَيْنِ وكلٌّ لحَيْنه لا قى
كأَن حَيًّا قد قام نادبُه ... والتفَّت الساق منه بالساق(٢)
واستلَّ منه حياته مَلَك الْ ... موتِ خَفيًا وقيل : مَنْ راق(٣)

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قولــه(٤) :

سبحان من لاشىءَ يحجبُ علمه ... فالسِّرُّ أَجمع عنده إعــلانُ
سبحان من هو لا يزال مُسَبَّحا ... أَبدًا وليس لغيره السُّبْحان

وقوله(٥) :

إلهى لا تُعَذِّبْنى فإنِّى ... مُقِرٌّ بالذى قد كان منِّى
ومالى حِيلةٌ إلا رجائى ... لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّى

وبجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكما وأمثالا كثيرة مقتبسًا لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا ، ومما رُوِىَ عن حكماء العرب مثل لقمان(٦) ، وأفرد لها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — قصيدته « ذات الأمثال » التى يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفى أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد فى إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته(٧) ، وفى ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق فى نفوس الطبقة

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .
(٢) الشطر الثانى اقتباس من الآية رقم ٢٩ من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدهما للحركة .
(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين ييأسون منه ويطلبون له الراقى أو الطبيب ، وإما الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب .
(٤) الديوان ص ٢٥٨ .
(٥) الديوان ص ٢٦٣ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .
(٧) أغانى ٤/١٠٢ وما بعدها .

العامة التى لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيماً ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ، وكأنما أحست عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . ونراه يتعمقه الشعور بما هى فيه من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول فى تضاعيفها[١] :

من مبلغٌ عنى الإما م نصائحًا متتاليَهْ
أنى أرى الأسعار أسْـ عارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَةً وأرى الضرورةَ فاشيه
مَنْ يُرْتَجى للناس غَيْـ رُك للعيون الباكيه
مِنْ مُصْبِياتٍ جُوَّعٍ تمسى وتصبح طاويه
مَنْ يُرْتَجى لدفاع كَرْ بِ ملمَّةٍ هى ماهيه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه
أَلقيتُ أخبارا إليـ ـك من الرعية شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقترب من العامة بزهده وما صوّر فيه من بؤسها وأوصا بها فحسب ، بل كان يقترب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشتقه اشتقاقًا من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد منهم أن يفهمه ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تَخْفَى على جمْهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاّب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . . والعامة ، وأعجبُ الأشياء إليهم ما فهموه[٢] » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكّدها تأكيداً شديداً

---

(١) الديوان ص ٣٠٣ .
(٢) أغانى ٤ / ٧٠ .

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغانى إنه كثير الساقط المرذول[١] . وينبغى أن لا نبالغ مبالغة أبى الفرج ، فقد كانت لأبى العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة فى موضعها أو كلمة لم تحلّ فى نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع[٢] ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتى يبادر بصنع الشطر الثانى تَوًّا على البديهة[٣] . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا فى الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل فى بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع فى ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل فى عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض[٤] يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسنُّ منه ، ولا نشك فى أن ديوانه لو وصلنا كاملا لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبْعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثُر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تامًّا لكثرته .

## ٤

### مسلم[٥] بن الوليد

وُلد فى الكوفة حوالى سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة فى تصحيح نسبته ، فقيل إنه خزرجى من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقْبِلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفى أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالى الفرس ، ووُلد قبل

---

(١) أغانى ٤/٢ وانظر رأى الأصمعى ص ٤٠ .
(٢) أغانى ٤/١٣ والبيان والتبيين ١/١١٥ .
(٣) أغانى ٤/٣٩ والحيوان ٥/١٣٧ .
(٤) أغانى ( دار الكتب ) ٤/١٣ .
(٥) انظر فى أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ١٣/٩٦ وترجمته بالأغانى الملحقة بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقة بنشرة سامى الدهان للديوان ( طبع دار المعارف ) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد ترزى ( طبع بيروت ) .

مسلم ابنٌ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفاً ، كما كان شاعراً مُجيداً ، ويُجْمع الرواة على أنه كان زنديقاً وأن الذى لقّنه زندقته بشار[١] ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجيبى بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِل عنه ذلك الدين[٢] » . وفى اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويَعُوله ، وفى ديوان مسلم قصيدة طويلة[٣] يذكر فيها مقامه أولا بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهو .

وفى ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب فى أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعْرف عنه شىء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ على عَيْبها الدُّنيا وصدَّقها ... ما استرجع الدهرُ مما كان أعطانى

قد أخذ معناه من التوراة[٤] . وفى أشعاره من التعمق فى الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمى البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعانى والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضًا فى أشعاره ما يدل دلالة بينة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلى والإسلامى ، فقد أُشْرِبَتْه روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضًا بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت فى نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجيل العباسى الأول التحاماً قوياً خصباً .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

---

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٥٥ ونكت الهميان ص ١٦١ وفى الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٣/٢٠٢ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ٤/١٩٥ .

(٣) راجع الديوان ( طبع دار المعارف ) ص ٢٢٥ .

(٤) انظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته فى موطنه الأول الكوفة ولا فى البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصرى يسمى ابن قُنْبُر ، عُنِى بأن يَرُدَّ على الطرماح الشاعر الأموى الخارجى أهاجيه فى قبيلته تميم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى انتصر لها الطرماح ، وامتعض مسلم لمواليه من الأنصار الأزديين اليمنيين ، وزجَّ بنفسه معه فى معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجذبت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويَحْظَى بما حظى به أعلام الشعراء فى عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعْرَف بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن فى أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا لمديح يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفى سليمان سنة ١٧٩ للهجرة . وفى أخبار مسلم أنه كان يمدح مَنْ دون الخليفة ولا يطمح إليه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَنْ لا يوازينى فى أدب . ويدل ذلك على أنه ظل فى بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه . وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن مزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف الخارجى فى سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفى ديوانه قصائد أربع فى مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله فى مقدمتها :

هل العَيْشُ إلا أَن أَروح مع الصِّبا ... وأَغدو صَرِيعَ الرَّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ [١]

قال له : أنت صريع الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا يُعْرَفُ إلا به [٢] . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله [٣] :

---

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح : الخمر .

(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥٤ .

خليفةَ اللهِ إن النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ عليكَ مُذْ أنت مَبْلُوٌّ ومُخْتَبَرُ
أَعددتَ للحرب سيفًا من بَنى مطرٍ يمضى بـأَمرك مخلوعًا له العُذُرُ[1]
لاقى بنو قَيْصَرٍ لما هممتَ بهم مثل الذى سوف تلقى مثلَه الخَزرُ
لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً خَرْقاءَ حصَّاءَ لا تبقى ولا تَذَرُ
أَظلَّهم منك رُعْبٌ واقفٌ بهِمُ حتى يوافق فيهم رَأْيَكَ القَدَرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن مزيد الشيبانى ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله[٢] . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلات كثيرة ، حتى ليقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم[٣] . وتقرن أخباره إعجابَ الرشيد به بإعجابه بمديحه لقائده يزيد ابن مزيد الشيبانى ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم إكبابًا جعل الخليفة يـَنْفس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخلَّص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضْطَرّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن مزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجب برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحَقِّ أمير المؤمنين لأصيِّفَنَّ وأشْتُوَنَّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسُرَّ وأقبل يصيح : مرحبًا بالأعرابى ، حتى دخل وأجْلس وأكرم[٤] » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة[٥] :

---

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .
(٣) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان (طبع دار المعارف) ص ٣٦٩ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٢/٩٦ وما بعدها .
(٥) هى أولى قصائد الديوان .

أُجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِل   وشمَّرتْ هِمَمُ العُذّال فى العَذَلِ[1]

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغْدق عليه نواله الغَمْر ، حتى ليقال إنه أعطاه فى إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعه إقطاعات تُغِل مائتى ألف درهم . ولما ولَّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفى سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو فى القصيدة الأولى ينوِّه بانتصاراته فى حروب الروم وظفره بيوسف البَرْم الثائر فى خراسان لعهد المهدى ثم الوليد بن طريف الخارجى الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه فى القصيدة الثانية وهى التى يستهلها بقوله[2] :

طَيْفَ الخيالِ حَمِدْنا منك إلماما   داويتَ سُقْماً وقد هَيَّجْتَ أَسْقاما

يتغنَّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكى بباب الرشيد ، وكان يسمى فتى العسكر لبلائه فى الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات منثورة فى ديوانه ، وهو فى إحدى قصيدتيه ، وهى التى افتتحها بقوله[3] :

عاصَى الشبابَ فراحَ غيرَ مفنَّدِ   وأَقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ[4]

يشيد طويلا بانتصاره فى بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوِّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان فى عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكًا ذريعًا لعهد الخليفة المنصور[5] . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفى ديوانه بيتان فى مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة فى مديح ابنه جعفر ، وهو فى القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

---

(١) أجررت حبل خليع كناية عن تركه يصنع ما يشاء .
(٢) الديوان ص ٦١ .
(٣) الديوان ص ٢٣٠ .
(٤) مفند : ملوم .
(٥) النجوم الزاهرة ٢ / ٢١ .

بالشام سيَّره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة(١) ، يقول(٢) :

أعطى المقادةَ أهلُ الشام حين غُشُوا    من جَعْفرٍ بِهَنات مالها حِوَلُ

وأبدع قصائده فى البرامكة لاميته فى الفضل بن جعفر ، وهى تُعَدُّ من روائعه(٣) وإذا صح أن من سماه إسماعيل فى قصيدته : « وإنى وإسماعيل يوم وداعه »(٤) من البرامكة كانت هى الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن مزيد يتصل بداود بن يزيد المهلبى أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند سنة ١٨٤ فرمَّ ما فيها من شعث بين اليمنية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ، ويقال إنه «كان يجلس للشعراء فى السنة مجلساً واحداً فيقصدونه ذلك اليوم وينشدونه مدائحه ، فوجَّه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه(٥) :

لا تَدْعُ بى الشَّوْقَ إنى غير معمودِ    نَهَى النُّهَى عن هَوَى البِيض الرَّعاديدِ(٦)

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهى إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته فى « كِرْمان » وسجستان ومن فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير استقامة .

ونرى مسلما يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة فى عهد الرشيد ، وفى مقدمتهم يعقوب(٧) بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدَة(٨) زوج الرشيد ، وسهل(٩) بن الصباح المدائنى ، وكان من مقدَّمى رجال الدولة وأجوادهم(١٠) ، والحسن(١١) بن عمران الطائى والى الرشيد على دمشق(١٢) ، وزيد ابن مسلم الحنفى أحد قواده ، وقد نوَّه به وبكرمه وشجاعته وبلائه فى الحروب فى الأكفال .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ و٤٦٦ .
(٢) الديوان ص ٢٥٠ .
(٣) الديوان ص ٢٦٠ .
(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسمط اللآلىء ٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٨٠ .
(٥) الديوان ص ١٥١ .
(٦) معمود : عاشق . الرعاديد : المرتجات
(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٥٦ .
(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
(١٠) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها
(١١) الديوان ص ٢٥٧ .
(١٢) زهر الآداب ٤/٨٢ .

قصيدتين[١] بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين فنراه يمدحه بقصيدته[٢] :

شُغْلى عن الدار أبكيها وأَرْثيها إذا خلتْ من حبيبٍ لى مَغانيها

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه فى الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤[٣] . ولا يلبث الأمين أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مَرْو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل . وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون[٤] ، ونظن ظنًّا أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة على الفضل بن جعفر البرمكى فقد كان ابن سهل يخدمه أولا ثم التحق بخدمة المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أو أَنْبَوْا بعلمهمِ ونبَّأَتْ عن معالى دهرك الكتبُ
لم يبلغوا منك أدنى ما تَمتُّ به إذا تفاخرتِ الأَملاكُ وانتسبوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم[٥] ، وقد سقطت من ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له فى المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان[٦] :

وردتْ على خاقان خَيْلُك بعدما كرِهَ الطِّعان وقد أَطَلْنَ عِراكا
حتى وَرَدْن وراءَ « شاشَ » بِمَنْزِلٍ تَركتْ به نَفَلاً له الأتراكا

وأيضًا فقد سقطت له قصيدة ثالثة فى الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت واحد[٧] ، وحظى عنده حُظْوَة كبيرة جعلته يولّيه جرجان أو بعض ضياعها أو بريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف فى الروايات[٨] . ولعل

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢١٦ .
(٣) اليعقوبى ٣/١٦٥ .
(٤) ابن الطقطقى ص ١٦٦ .
(٥) ترجمة مسلم فى الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٨٠ .
(٦) الديوان ص ٣٣١ .
(٧) الديوان ص ٣٠٧ .
(٨) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم فى العام، وما زال بجرجان حتى لبَّى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلما أخذ يعيش فى هناءة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثانى ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولَّى جُرْجان . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفْسَحُ فى حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس فى ذلك انغماس أبى نواس وأخدانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شىء يؤكد أن حياته فى أسرته كانت تجرى رُخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل فى حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفيما قدمنا ما يدل دلالة بيِّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره فى المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطتْ من يد الزمن . ومما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التى أنشدها الرشيد والتى لقَّبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغوانى » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب[١] ، ومع ذلك لم يبق منها فى الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوما وبيده دفتر ديوانه ، فقذف به فى بحر ! ولهذا قلَّ شعره ولم يبق منه بأيدى الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان فى أيدى الممدوحين من مدائحه[٢] . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حوَّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له فى أيدى الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثانى للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه فى صنع الشعر ، كما

---

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .
(٢) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلا لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والجديد فى نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية فى المزج بينهما ، مفكراً فى كل التراث الشعرى الذى سبقه وناقداً ومحللا مستنبطاً . وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف فى وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً فى صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعــروف بالبديع ، وهو الذى أعطاه لقبه[١] » . وحقًّا نجده مبثوثاً فى أشعار بشار وأبى نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتى عندهم فى الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذه وكْده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز فى كتابه « البديع » أن يردّ البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربى الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع فى شعره لم يعتمد على أصول تزكّيه ، فقد كان منبثًّا فى العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به فى خفة ، ثم عُنى به العباسيون منذ بشار ، حتى ليجعله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه[٢] . ولا نستطيع أن نجرى مع الجاحظ فى ردِّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذه مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذه مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضًا منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلا معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أُشْرِبت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجرى فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليبث فيه مسلم بديعه ، ولينميه مع روح عصره ، وليصبَّ فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو فى ذلك يتكلف

---

(١) ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٥١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . ولعله لم يمنح موضوعا عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الخمر، أو وصف السفن فى طريقهم إلى ممدوحيهم. حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصوِّر زاده الأصيل من التراث الفنِّى مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، واقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيدُ لأَضحى الملكُ مطَّرَحاً … أَو مائلَ السَّمْك أَو مُسْتَرْخِىَ الطِّوَلِ (١)
يَغْشَى الوَغَى وشهابُ الموت فى يدِهِ … يَرْمِى الفوارسَ والأَبطال بالشُّعَلِ (٢)
موفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ … كأَنه أَجَلٌ يسْعَى إلى أَمَلِ (٣)
لا يَرْحَلُ الناس إلا نَحو حُجْرتِه … كالبيت يُفْضِى إليه مُلْتَقَى السُّبُلِ (٤)
يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به … ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُلِ (٥)
قد عَوَّد الطَّيْرَ عادات وَثِقْنَ بها … فهنَّ يَتْبَعْنه فى كل مُرْتَحَل
تراه فى الأَمن فى دِرْعٍ مضاعفةٍ … لا يأْمن الدهرَ أَن يُدْعَى على عجل
لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خدَّيْه ومَفْرِقَه … ولا يُمَسِّح عينيه من الكُحُلِ (٦)

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوٌّ ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

---

(١) مطرحاً : مخذولا . الطول : الحبال . وقد ضرب السمك والطول مثلا لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد حبالها.
(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل اللهيب المتساقط من الشهاب .
(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار الحرب .
(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكبيها عند الممدوح لجوده الغمر .
(٥) الهام : الرءوس . الذبل : الرقيقة الحادة.
(٦) لا يمسح عينيه من الكحل : لا يكتحل .

الأول من البادية وخيامها وما يُطْوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهي فى يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالا . ومضى فى البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير فى بيته الرابع ، إذ يقول فى مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرقا

ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً فى بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك فى بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً فى رحلاته واثقة بما سيُميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهى دائماً مرفرفة فوقه . ومثَّله فى البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه فى أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال. واقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها لبسالته و بطولته :

موحَّدُ الرأْى تنشقُّ الظنون له عن كل ملتبسٍ منها ومعقودِ (١)

كالَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَصُور إذا غَنَّى الحديد غناءً غيرَ تغريد

يلقى المنيَّةَ فى أمثال عُدَّتِها كالسَّيْل يقذف جُلمودًا بجلمود

يجود بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر فى شىء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث فى انقضاضه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذه قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة فى إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

---

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مديحه قوله فى الفضل بن جعفر البرمكى :

تُساقط يُمْناه النَّدَى وشماله الـ ... رَّدَى وعيونُ القول مَنْطقه الفَصْلُ (١)
عَجولٌ إلى مايُودِعُ الحَمْدَ مالهُ ... يَعُدُّ النَّدَى غُنْماً إذا اغتُنم البُخْل
بكفِّ أَبى العباس يُسْتَمْطَرُ الغِنَى ... وتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى ويَسْتَرعِفُ النَّصْلُ (٢)

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهى متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظرْ فى البيت الأول كيف صوَّر تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق فى البيت الثانى بين الكرم والبخل ، وعاد فى البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله فى إسماعيل البرمكى :

وإنى وإسماعيلَ يوم وداعهِ ... لكالغِمْد يوم الرَّوْع فارقه النَّصْلُ
فإنْ أَغْشَ قوماً بعده أَو أَزُرْهمُ ... فكالوحش يُدْنيها من الأَنَسِ المَحْلُ (٣)

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله فى ألف سنة (٤) » . وفى نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مراثيه على شاكلة قوله فى رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضَتْ بك الآمالُ أَحْلاسَ الغِنَى ... واسترجعتْ نُزَّاعَها الأَمصارُ (٥)
أَجَلٌ تنافسه الحِمامُ وحفرةٌ ... نَفِسَتْ عليها وجهك الأَحْفَارُ (٦)
فاذْهَبْ كما ذهبتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ ... أَثْنَى عليها السَّهْل والأَوعارُ (٧)

والصورة فى البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة فى طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

---

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .
(٢) يسترعف : يقطر دماً . النصل حد السيف.
(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ، المحل : الجدب .
(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .
(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . نزاعها : الذين ينزعون إليه و يغتربون عن أوطانهم .
(٦) الحمام : الموت .
(٧) المزنة : السحابة الممطرة .

تهيِّئ الإبل للارتحال نحوه . وجعل فى البيت الثانى الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالى . ودعا له متمثلا جوده الذى عَمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه فى الرثاء قوله :

ومخادعِ السمع النَّعِىّ ودونه خَطْبٌ أَلمَّ بصادقٍ لا يَخْدَعُ

وهو يصور فى البيت ذهول الصديق حين يأتيه نعى صديقه فيفزع إلى تكذيبه ، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائض فى الهجاء ناقض بها ابن قنبر ، وهو فى هذه النقائض يصدر عن روح النقائض القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطْوَى فيها من عصبيات ، ويتكافَّان فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ فى النمط المستحدث الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجرى فى أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله فى دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أَما الهجاءُ فدقَّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهَبْ فأَنت طليقُ عِرْضك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأَنت ذليل

وتُرْوَى له أبيات فى هجاء يزيد بن مزيد ، وأكبر الظن أنها منتحلة أو لعلها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمة وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يَبَرَّاه ، واستشاط غضبًا ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله فى موسى :

لو أَنَّ كَنْزَ البلاد فى يَدِهِ لم يَدَعِ الإعتذار بالعُدْمِ(١)

وقوله فى سعيد :

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها الباخلـ ين حتى وَمِقْتُ ابنَ سَلْمٍ سعيدا(٢)
إذا سِيل عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثياباً من اللُّوم صُفْرًا وسودا(٣)

وكان لا يزال يدقق فى معانى الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

(١) العدم : فقدان المال . (٢) ومقت : أحببت .
(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخُلُقه :

قَبُحَتْ مَناظره فحين خَبَرْتُهُ حَسُنَتْ مَناظِرُهُ لقُبْحِ المَخْبَر

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة فى المعانى والصور كان مسلم ينظم فى الحب والخمر ، سواء أودعهمامقدمات مدائحه أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور منزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسَّدًا ــ صريعَ مُدامٍ ــ كفَّ أَحْورَأَكْحَل (١)

وكان لا يزال يبقى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو فى غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحبه الذى يلذع فؤاده من مثل قولــه :

إن كنتِ تَسْقين غير الرَّاح فاسقينى كأْساً أَلذُّ بها من فيكِ تَشْفينى
عيناكِ راحى ، وريحانى حديثُك لى ولونُ خَدَّيك لونُ الورد يكفينى

وقوله :

ولما تلاقينا قضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بوجهٍ كوجه الشمس ما إنْ له مِثْلُ
وخالٍ كخال البَدْر فى وجه مِثْلهِ لَقِينا المُنَى فيه فحاجَزنا البَذْل

وقوله :

وأَقسمتُ أَنسى الداعياتِ إلى الصِّبا وقد فاجأَتْها العَيْنُ والسِّتْرُ واقعُ
فغطَّتْ بأَيديها ثِمارَ نُحورها كأَيدى الأَسارَى أَثْقَلَتْها الجَوامع (٢)

والخمر عند مسلم تأتى غالبًا فى مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ مجوسيَّةِ الأَنساب مسلمة البَعْل

---

(١) المدام : الخمر.

(٢) الجوامع : الأغلال والقيود .

قد استُودِعتْ دَنًّا لها فهْو قائمٌ    بها شَفَقًا بين الكروم على رِجْل
شَقَقْنا لها فى الدَّنِّ عَيْنًا فأَسْبَلَتْ    كأَلسنة الحَيَّاتِ خافتْ من القَتْلِ[١]

وقد جعلها فى البيت الأول من بنات المجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماه بَعْلا أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما فى البيت الثانى فقال إنها ظلت طويلا فى شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنواً عليها . وقال فى البيت الثالث إنهم شَقُّوا لها فى دَنّها ثُقْبًا وهى تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها ألسنة حيَّات ترتجف من القتل ، فهى لا تكف عن إرسالها لها خوفًا وفزعًا . ومسلم من أمهر الشعراء وأدقهم فى التصوير ، وهى دقة تتراءى فى جميع جوانب ديوانه من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحولها لطول السَّفر :

إلى الإمام تهادانا بأَرْحُلِنا    خَلْقٌ من الرِّيح فى أَشباح ظِلْمانِ[٢]
كأَن إفلاتَها والفجرُ يأخذها    إفلاتُ صادرةٍ عن قَوْس حُسْبانِ[٣]

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصوَّرها فى ضمورها كأنها ذكور نعام وهى تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهى لا تنى عن الانطلاق والعَدْو الشديد . وقد نوَّه القدماء طويلا بتصويره للسفينة بمثل قولـــه :

إذا أَقبلتْ راعتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ    وإن أَدبرتْ راقتْ بقادِمَتَىْ نَسْرِ[٤]
أُقِلَّتْ بِمجدافين يعتورانها    وقَوَّمها كَبْحُ اللِّجام من الدُّبْرِ[٥]
كأَن الصَّبا تحكى بها حين واجهتْ    نسيمَ الصَّبا مَشْيَ العروس إلى الخِدْرِ[٦]

وهو يشبه فى البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيها بجناحى نَسْر ، ويرسم صورتها فى البيت الثانى بمجدافيها وسُكّانها الذى يقوِّم جموحها .

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت
(٢) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص . ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .
(٣) إفلاتها سرعتها وانبعاثها فى السير . صادرة راجعة . قوس حسبان : ضرب مشهور فى عصرهم من القسى .
(٤) راعت : أفزعت . قنة قرهب : رأس ثور وحشى . قادمتا النسر : جناحاه ، أراد بها المجدافين .
(٥) أقلت : ارتحلت وسارت .
(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

أما فى البيت الثالث فيشبهها فى سيرها الوئيد بالعروس فى سيرها الرفيق إلى خِدْرها .

وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعانى والصور ، مضيفًا إلى ذلك حُلِيًّا كثيرة من وَشْى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو فى ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاوجا بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التى تلذ الأسماع العربية ، وإذا هى تفسح لمذهب البديع الجديد بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

## ٥

### أبو تمام [١]

هو حبيب بن أوس الطائى ، وُلد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ [٢] . والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى [٣] ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيًّا [٤] يسمَّى تدوس وأنه حرَّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ . وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبَنَى

---

(١) انظر فى أبى تمام وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٨٣ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ١٦ / ٣٨٣ وتاريخ بغداد ٨ / ٢٤٨ والموشح ص ٣٠٣ وابن خلكان ( طبعة سنة ١٢٩٩ هـ ) ١ / ١٥٠ وتهذيب ابن عساكر ٤ / ١٨ وشذرات الذهب ٢ / ٧٢ ومرآة الجنان ٢ / ١٠٢ وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى وأخبار أبى تمام للصولى وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى تمام ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف )ص ٢١٩ « وأبو تمام الطائى : حياته وحياة شعره » لنجيب محمد البهبيتى « وأبو تمام » لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح التبريزى وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ، وسنرجع إلى هذه الطبعات ، وما ليس فيها سنرجع فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر فى ميلاده وفيات الأعيان وأخبار أبى تمام للصولى ص ٢٧٢ .

(٣) الصولى ص ٢٣٥ .

(٤) الصولى ص ٢٤٦ وانظر النجوم الزاهرة ٢ / ٢٦١ .

طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل[١] ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان[٢] . ونصرانية أبيه — إن صحت — لا تنفيه من العرب ولا من طيئ ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهورُ من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صَلِيبة[٣] ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجّلوا لها فى عصره أمجاداً حربية ، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضًا فى نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يسقى الناس فى مسجدها الكبير ، وأكثرُ المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنيين والطائيين فى بلدته وفى حمص مثل نوح بن عمرو السَّكْسَكِىّ وبنى عبد الكريم الطائيين . ونراه يولّى وجهه نحو مصر قاصداً عَيَّاش بن لهيعة الحضرمى الذى كان يقوم أحيانًا على شرطتها وخراجها ، وله يقول فى إحدى مدائحه[٤] :

وأَنت بمصر غايتى وقرابتى ... بها وبنو الآباء فيها بنو أَبى

وهو يشير دائمًا فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله ، ويلجّج فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازورّ عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش ، غير أن فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة ، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر فى ولايته على مصر ( ٢١١ — ٢١٣ هـ ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفى ديوانه بيتان هجا بهما

---

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩ وانظر مقالته عنه فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ( طبع دار المعارف ) ٢/٧٢ .

(٣) الأغانى ١٦/٣٨٣ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ( الطبعة الثانية بدار المعارف ) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/١٦٢

المطلب بن عبد الله الخزاعى معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك ، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحاً مريراً ، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حارًّا أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلُّ به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردَّد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى ، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له[1] :

بالشام أَهلى وبغدادُ الهوى وأَنا ... بِالرَّقَّتَيْن وبالفُسْطاط إخوانى

وما أَظن النَّوَى ترضى بما صنعتْ ... حتى تشافه بى أَقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية فى نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره فى خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمرأى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها فى صحبة محمد بن حسان الضبى إلماما قصيراً[2] ، وفى ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذى كان جوده الغَدِق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول[3] :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأَتبعها ... إلى المشيب ولم تظلم ولم تَحُب[4]

فإذا صح أنه مدحه بها فى بغداد فإنه يكون قد زارها وهو فى السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلا بينه وبين موطنه ،

---

(١) الديوان ( طبعة دار المعارف ) ٣/٣٠٩.

(٢) ابن المعتز ص ٢٨٣ .

(٣) الديوان ( طبعة دار المعارف ) ١/١١٥ .

(٤) لم تحب : من الحوب، وهو الإثم .

وربما بدأ مديحه لمالك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المثول بين يدى المأمون فى إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كُشِفَ الغطاء فأوقدى أو أخمدى) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول[١] :

وانتاش مصر من اللُّتَيَّا والتى ... بتجاوزٍ وتعطُّفٍ وتعمُّدِ

والمعروف أن المأمون زار مصر فى أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم فى غير جبهة ، وتقدَّم بنفسه إلى حصن « لؤلؤة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح فى آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات فى ميميته للمأمون تغنيا بديعاً بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها فى القتال[٢] :

مُسْترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحامُ

آسادُ موتٍ مُخْدراتٌ مالها ... إلا الصَّوارمَ والقنا آجام[٣]

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجَّل له انتصاراً حربيًّا ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولَّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول[٤] :

ولما رأى تُوفِيلُ راياتك التى ... إذا ما اتلأَبَّت لا يقاومها الصُّلْبُ[٥]

تولَّى ولم يأْلُ الرَّدَى فى اتِّباعه ... كأَن الرَّدَى فى قصدهِ هائمٌ صَبُّ

كأَن بلاد الروم عُمَّتْ بصيحةٍ ... فضمَّتْ حَشَاها أورَغا وسْطها السَّقْبُ[٦]

---

(١) الديوان ٢/٤٨ . انتاش : خلص .

(٢) الديوان ٣/١٥٦ .

(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها . آجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف .

(٤) الديوان ١/١٩٧ .

(٥) اتلأبت : تتابع هزها . الصلب : جمع صليب ، ويريد النصارى .

(٦) السقب : ولد الناقة التى عقرتها ثمود فصارت شؤماً عليهم وهلاكاً لهم .

وأما القائد الثانى فجعفر الخياط ، على أنه لم يتوسع فى تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظناً أنه لقى فى هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء فى بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان فى المَصيصة إحدى ثغور الشام(١) ، وفى بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحه لعمورية فى سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه فى إحدى مدائحه له يقول(٢) :

أَربيعَنا فى تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً  حَقًّا لَهِنَّكَ للرَّبِيعُ الأَزْهَرُ(٣)

وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، ونراه يشيد بانتصاراته على المحمِّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨ ، ٢١٩ إشادات رائعة(٤) . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر والى خراسان ، واستقبله هو ومن حوله من الكُتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هُنَّ عوادى يوسف وصواحبه) نَثَرَ عليه ألف دينار . وقد دبَّج قصائد كثيرة فى رئيس ديوانه وكُتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبانة وأيضًا فى كثير من العُمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدى وعلى بن مرّ ، ونوَّه فى طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء والى فارس . وفى عودته نزل بهمذان على أبى الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنِّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبع له شرحان : شرح التبريزى وشرح المرزوقى ، وهو يصوِّر لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبى تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربى ودرره النفيسة فى القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرّمى وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قُوَّاد المأمون ، وما توافى

---

(١) الصولى ص ١٤٤ .
(٢) الديوان ٢/١٩٣ .
(٣) لهنك : لغة فى لإنك .
(٤) الديوان ٣/١٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التى تنازل أتباعه من الخرَّمية فى الجبال وأرمينية وأذْرَبيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حينئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيِّى فيه قبيلته طيِّئاً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثَمَّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله فى ملحمة رائعة . ومجّد بجانبه بطلاً عربيًّا ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دُلَف العجلى ، وكان فارسًا مغواراً ، وغَيْثًا مدراراً ، فنوَّه به تنويهًا رائعًا . وأخيراً فى أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرَّ مَنْ رَأىَ ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقُتل وقُطِّع جسده وصُلب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكثه بالعهود . وأخذ الشعراء وفى مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هى : (غدا الملك معمور الحمى والمنازل) و(آلت أمور الشرك شر مآل) و (بَذَّ الجِلادُ البَذَّ(١) فهْو دفين) . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زِبَطْرة بالقرب من سُمَيْساط والحدث فى طرف بلاده، واستشاط المعتصم غضبًا ، فجهّز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه فى آسيا الصغرى تمحق الروم محقًا ، وتوطئهم صَغارا وذلا . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى فى تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنَّى به وبانتصاراته طويلا على نحو ما تصور ذلك قصيدتاه : (لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ) و (ما عهدنا كذا نحيبَ المشوق) وهو فيهما يسمِّى كثيراً من الحصون الرومية التى افتتح أقفالها، مصورا كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة. ودُرَّة تلك الحروب قصيدته فى عمورية التى امتدح بها المعتصم : (السيف أصدق أنباء من الكتب) وهى ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبى تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبى دؤاد مستشار المعتصم وقاضى قضاته ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيَّار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرَّ من رأى » فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويُصْلب

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون ، ويموت ، فيُصْلب بجانب بابك ، ثم يُحْرَقُ بالنار التى كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة[١] :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِى فحذارِ من أَسَدِ العَرِين حذار

وقد صوَّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعهِ حتى اصطلى سِرَّ الزِّناد الوارى[٢]
نارًا يُساور جسمه من حَرِّها لهبٌ كما عَصْفرتَ شِقَّ إزارِ[٣]
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَها مَيْتاً ويدخلها مع الفُجَّارِ
ولقد شَفَى الأَحشاءَ من بُرَحائها أَن صار بابَكُ جارَ مازيَّار
سودُ الثيابِ كأَنما نسجتْ لهم أَيدى السَّموم مَدارعًا من قارِ[٤]
كادوا النبوَّة والهدى فتقطَّعتْ أَعناقُهم فى ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥ وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغرى وخالد بن يزيد والى أرمينية ومالك بن طوق التغلبى والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم الرافقى والى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزّاه بقصيدته البديعة : ( ما للدموع تروم كلَّ مرام ) ويُضْنى عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ ملله

---

(١) الديوان ٢/١٩٨ .
(٢) يشير بسر الزناد الوارى إلى حرقه بالنار .
(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على الجذع ، ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفر نصفه طولا .
(٤) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك ومازيار ، وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار الرياح .

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقى ، فتمنىّ لو صار له عمل فى الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مئونته ، وسرعان ما حقّق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعيّنه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فبكاه وبكى بطولته بكاء حارًّا ، ولا يدور العام حتى يلبى داعى ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول[١] :

فُجع القريضُ بخاتم الشعراءِ وغَديرِ روضتها حبيبِ الطائى

ماتا معاً فتجاورا فى حُفْرَةٍ وكذاك كانا قَبْلُ فى الأَحياء

ويقال إن بنى حُميد الطوسى بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق[٢].

وأخبار أبى تمام فى أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية فى زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف[٣] . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثرا. ويقول الصولى إنه كان أسمر طُوالا ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدى المعتصم وغيره[٤] . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً[٥] تسعفه فى ذلك بديهة حاضرة . وفى ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه فى عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعًا ، أما هذه القصيدة فنظن ظنًّا أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق فى سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفى القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول فى مطالعها[٦] :

وإن نَكِيرًا أَنْ يضيق بمن له عشيرةُ مثلى أَو وسيلتُه مِصْرُ

---

(١) الصولى ص ٢٧٧ .
(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٤٩ .
(٣) الصولى ص ١٤٤ .
(٤) الصولى ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٦) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ١٤٣ .

ونراه فى أول قصيدة لتى فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقربـًا إليه وزُلْفـَى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثا عن قصيدته[(١)] :

ووسيلتى فيها إليك طريفةٌ  شام ٍ يدين بحبٍّ آل محمَّدِ
نِيطتْ قلائدُ عزمه بمحَبِّرٍ  متكوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْددِ[(٢)]
حتى لقد ظن الغُواة ـوباطلٌـ  أن قد تجسَّم فىَّ روح السيِّدِ[(٣)]

ومعنى ذلك أن تشيعه فى القصيدتين جميعـًا إنما كان فى سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفى أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها[(٤)] ، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية[(٥)] . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضًا ففيه قصيدة وصَف بها حـِجـَّةً حجـَّها[(٦)] . وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا . يلهو ولكن بقسطاس وكأن خصومه حاولوا أن يغضُّوا منه فزيـَّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذى يـُذ ْكـَرُ فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خـَزَرىّ وكل منهما يتعشق غلام صاحبه[(٧)] ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنايا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبته .

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثَّلها تمثلا دقيقـًا ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده[(٨)] لخالد بن

---

(١) الديوان ( طبع دار المعارف ) ٢/٥٥ .
(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه يحبر القصائد ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفى تشيعاً . متبغدد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .
(٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور بتشيعه .
(٤) الصولى ص ١٧٢ .
(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٧٩ .
(٧) الصولى ص ١٩٤ .
(٨) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/١٩٤ وانظر ١/٨٧ وما بعدها .

يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويّها فى الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى فى تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبى على المحمِّرة بالجبل[١] ، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله فى إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيبانى وانتصار قومه فى يوم ذى قار المشهور على الفرس[٢] :

لهم يومُ ذى قار مَضَى وهْوَ مُفْرَدٌ ... وحيدٌ من الأَشباه ليس له صَحْبُ
به علمتْ صُهْبُ الأعاجم أنه ... بهِ أعربتْ عن ذات أنفسها العُرْبُ[٣]
هو المشهد الفَصْل الذى ما نَجا بهِ ... لكسرى بنِ كسرى لا سَنامٌ ولا صُلْبُ[٤]

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جدب شديد ، فابتغت الرَّعْىَ فى أرض العراق ، وكاتب والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم فى الرعى ؟ فاشترط أن يقدِّموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معى إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفَى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً فى مناقب بنى تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام فى قصيدة يمدح بها أبا دُلَف متحدثا عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذى قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميما منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقى على التاريخ ، يقول[٥] :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسها ... وزادتْ على ما وطَّدَتْ من مناقبِ
فأَنتم بذى قارٍ أَمالتْ سيوفكم ... عروشَ الذين اسْترْهَنُوا قوس حاجبِ
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوابها ... محاسنَ أقوامٍ تَكُنْ كالمعايبِ
مكارمُ لَجَّتْ فى عُلُوٍّ كأَنما ... تحاول ثَأْرًا عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن تعمقه فى مذاهب المتكلمين وفى الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر فى معانيه الأضداد المتنافرة نشراً يدخل البهجة على

---

(١) الديوان ٣ / ٣٠٠ وما بعدها .
(٢) الديوان ١ / ١٩٥ .
(٣) صهب : شقر شعر الرأس ، ويوصف الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .
(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب هنا : كناية عن الخيل .
(٥) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١ / ٢١٥ .

النفس بما يصور من تعانقها فى الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره فى الإحساس بحقائق الكون ، وبترابط جواهرها ، حتى الجواهر التى تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقى التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله[١] :

رُبَّ خَفْضٍ تحت السُّرَى وغناءٍ      من عَناءٍ ونُضْرةٍ من شُحوبِ[٢]

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهى عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عذلته على ضيق ذات يده[٣] :

لا تُنْكرى عَطَل الكريم من الغنَى      فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وقوله فى تحبيب الرحلة عن الأوطان[٤] :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مخلقٌ      لديباجتيه فاغتربْ تتجدَّدِ[٥]

فإنى رأيت الشمس زيدتْ محبَّةً      إلى الناس أن ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ[٦]

ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله[٧] ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع[٨] ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربى فى عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح فى دقة معانيه وغوصه على طرائفها

---

(١) الديوان ١/١٢٦ .

(٢) الخفض : سعة العيش . السرى : السير ليلا ، غناء : نفع .

(٣) الديوان ٣/٧٧ .

(٤) الديوان ٢/٢٣ .

(٥) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .

(٦) سرمد : دائم .

(٧) انظر مناقشتنا لهم فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة السادسة بدار المعارف ) ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

النادرة ، محتكماً إلى قانونى التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح فى روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملا عقليا والعمل العقلى زخرفاً نادراً لا يكاد يتعلق به أحد .

والمديح أهم الأغراض التى تتجلى فيها خصائصه ، وهو فى كثير منه ، بل فى جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التى تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يُخْضِع التفكير للشعر ، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب فى شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلا ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها فى معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله فى تصوير أيام عشقه الماضية[(١)] :

أَعوامُ وَصْلٍ كاد يُنْسِي طولَها ... ذكرُ النَّوَى فكأَنَّها أَيامُ
ثم انبرتْ أَيام هجرٍ أَردفتْ ... بِجَوًى أَسىً فكأَنها أَعوام
ثم انقضتْ تلك السنون وأَهلها ... فكأَنهـــا وكأَنهم أَحلام

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية فى هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه فى الغزل والنسيب قوله[(٢)] :

أَجدرْ بجمرةِ لوعةٍ إِطفاؤُهـــا ... بالدَّمع أَن تزداد طولَ وقودِ

وقوله[(٣)] :

أَحْلَى الرجال من النساء مواقعا ... من كان أَشبههم بهنَّ خُدودا

وقد ردّد كثيراً فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضجراً متأففاً منه ومن سياسته الخرقاء[(٤)] :

(١) الديوان ٣/١٥١ .
(٢) الديوان ١/٣٩٢ .
(٣) الديوان ١/٤١٥ .
(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

لقد ساسنا هذا الزمانُ سياسةً ... سُدًى لم يَسُسْها قَطُّ عَبْدٌ مجدَّعُ
تروحُ علينا كلَّ يوم وتغتدى ... خطوبٌ كأَن الدهر منهن يُصْرَعُ

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبي الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضًا فإنه هو الذى ألهم المتنبي اعتداده بنفسه وما طُوِىَ فى ذلك عنده من فخر محتدم ، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل[١] :

وغَرَّبْتُ حتى لم أَجد ذكرَ مشرقٍ ... وشرَّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ رَدَدْنني ... جريحاً كأَنى قد لقيتُ الكتائبا
وقد يَكْهَمُ السيف المسمَّى منيَّةً ... وقد يرجع المرءُ المظفَّر خائبا[٢]
وكنت امرءًا أَلقى الزمان مسالماً ... فآليتُ لا أَلقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبي مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحيانًا وصفًا لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمداًّ من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفًا طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر[٣] :

رعَتْه الفيافى بعد ما كان حِقْبةً ... رعاها وماءُ الروض ينهلُّ ساكبُهْ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنما هى التى رعته إذ أضمرته وأنحلته ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع ، فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله[٤] :

(١) الديوان ١ /١٤٧ .
(٢) يكهم : لايقطع .
(٣) الديوان١ /٢٣٠ .
(٤) الديوان ١ /٣٤

وضعيفة فإذا أصابتْ فُرصةً قتلتْ كذلك قدرةُ الضعفاءِ
وكأَنَّ بَهْجتها وبهجةَ كأْسها نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوِعاءِ

وقد فسح فى مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه فى سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة فى عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله(١) :

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلا جاورتْه الأَبْرارُ فى الخلد شيبًا

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو لا يبارَى فى تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره لقُمْرية وقمرىّ وهما يرشفان رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترثى له السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع ، يقول(٢) :

غَنَّى فشاقك طائرٌ غِرِّيدُ لما ترنَّم والغصونُ تَميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً فدعتْ تقاسمه الهوى وتَصيد(٣)
إلفان فى ظلِّ الغصون تألَّفا والتفَّ بينهما هَوًى معقودُ
يتطعَّمان بريق هذا هذه مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد(٤)
يا طائران تمتَّعا هُنِّيتُما وعِما الصباحَ فإننى مجهودُ
أَبكى وقد تلتِ البروقَ مضيئةً من كل أَقطار السماء رُعود
واهتزَّ رَيْعانُ الشباب فأَشرقتْ لتهلُّلِ الشجر القرى والبيد(٥)
وَمَضَتْ طواويسُ العراق فأَشرقتْ أَذنابُ مُشْرقةٍ وهنَّ حُفود(٦)

(١) الديوان ١/١٦٨ .
(٢) الديوان ٢/١٤٨ .
(٣) الساق الأولى : القمرى أو ذكر الحمام ؛ والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده وتوقعه فى شباكها .
(٤) مجعاً : حسواً .
(٥) يريد بريعان الشباب الربيع .
(٦) ومضت : لمعت وتلألأت . وحفود ، جمع حافد ؛ وهو الخادم .

يَرْفُلْنَ أمثال العَذَارى طُوَّفاً حول الدَّوار وقد تدانى العِيدُ (١)

وهى قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبى تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحب والطواويس المبتهجة بالربيع . ونراه فى إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم فى هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يتراءى فى طقسه والشتاء يتراءى فى زهره(٢) ، بل إن المطر فى الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يذوب الصَّحْوُ منه وبعده صَحْوٌ يكاد من النضارة يمطر

ويتسع به الخيال فإذا الندى الذى تترقرق حبّاته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لمم الثَّرَى وِلحاه ، يقول :

ونَدًى إذا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثَّرَى خاتَ السحاب أتاه وهْو مُعَذَّرُ

ويمضى فى حُلْمه ، فإذا هو يرى نفسه فى رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه فى ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفد عليه من كل صَوْب ، يقول :

ياصاحبىّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تريا وجوه الأَرض كيف تَصَوَّرُ
تريا نهارًا مُشْمِساً قد شابه زَهْرُ الرُّبىٰ فكأَنما هو مُقْمِرُ

وله بائية(٣) فى مديح ابن الزيات استهلّها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلاله وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء فى هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة ، وكأنها بمقدماتها عمل فنّىٌّ نامٍ لا يزال بعضه يتولد من بعض .

---

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يطفن حوله فى الجاهلية .
(٢) انظر القصيدة فى الديوان ٢ /١٩١ .
(٣) الديوان ١ /٢٩٦ وانظر هبة الأيام ص٣٧ حيث نص على أنها فى ابن الزيات .

وإذا أخذنا ننظر فى معانى مديحه وجدناه يحاول دائمًا أن يستنبط منها مبتكرات طريفة مستمدًّا من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التى تحفل دائمًا بما يملأ النفس إعجابًا به وبشعره ، كقوله يصف جود أبى دُلَف (١) :

تكاد مغانيه تَهَشُّ عِرَاصُها فتركب من شوقٍ إلى كل راكبِ (٢)

وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله (٣) :

تعوَّد بَسْطَ الكفِّ حتى لو انَّهُ ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجبْه أنامِلُهْ
ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ روحِه لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمديحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسَّم فيها بطولتهم تجسيماً يدلع الحماسة فى قلب كل عربى ، ويضرمها إضراماً . ونراه يتغنى طويلا ببطولة محمد بن يوسف الثغرى الطائى وما أنزله من صواعق الموت على رءوس الخُرَّمية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون العدو فى الشمال ، والثلوج تغطى الطرق والآفاق (٤) :

لقد انْصَعْتَ والشتاء له وَجْ ـهٌ يراه الرجالُ جَهْماً قَطُوبَا (٥)
طاعنا مَنْحَرَ الشمال مُتِيحاً لبلاد العدوِّ موتًا جنوبا
فى ليالٍ تكاد تُبْقِى بِخَدِّ الشَّـ ـمْس من ريحها البَليل شحوبا
فضربتَ الشتاءَ فى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غادرتْه عودًا رَكوبا (٦)
لو أَصَخْنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأَيام منك وجيبا (٧)

وأمَّ ملاحمه قصيدته فى عَمُّورية التى مدح بها المعتصم مسجلا انتصاره العظيم على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجًا لا حدَّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

---

(١) الديوان ١ /٢١٢ .
(٢) العراص : الساحات .
(٣) الديوان ٣ /٢٩ .
(٤) الديوان ١ /١٧٣ وما بعدها .
(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ، القطوب : العبوس .
(٦) الأخدعان : العرقان البارزان فى العنق . العود : البعير المسن . ركوب : مذلل .
(٧) أصخنا : أرهفنا السمع . الوجيب : الخفقان .

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هى تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول[١] :

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به ... نَظْمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ
فَتْحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتَبْرُزُ الأَرض فى أثوابها القُشُبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد ، بينما هوت بالروم وديارهم فى الحضيض . ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأنما كان نصر جنود المعتصم فى يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هى تركع صاغرة تحت قدمى المعتصم وقد لطّخ الدم ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمتها النيران التهاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب فى نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُذْكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التى تغنتْ بحبه لها الأحياء والبِيد ، يقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرْتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضُحًى ... يَشُلُّه وَسْطها صُبْحٌ من اللَّهَبِ[٢]
حتى كأَن جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ ... عن لونها أو كأَن الشمس لم تغبِ
ضَوْءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ فى ضُحًى شحِبِ
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أَفَلَتْ ... والشمس واجبةٌ فى ذا ولم تجبِ[٣]
ما رَبْعُ مَيَّةَ معموراً يُطيف به ... غَيْلان أَبْهَى رُبًى من رَبْعها الخربِ[٤]
ولا الخدودُ وقد أُدْمِين من خَجَلٍ ... أَشْهَى إلى ناظرى من خَدِّها التَّرِبِ

---

(١) انظر القصيدة فى الديوان ١/٤٥ .
(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .
(٣) واجبة ، آفلة : غاربة .
(٤) غيلان : ذو الرمة .

وواضح استمداده من قانون الأضداد فى وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق فى تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو فى الليل البهيم ويتصور كأنه فى الصبح المضىء ، بل هو فى الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت فى ربوع عمورية . فيا للحلم ويالروعته ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها فى نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التى شغفت قلبه حبًّا . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتّى قال والجذل يغمره :

خليفةَ الله ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جُرْثومة الدين والإسلام والحَسبِ[١]

بَصُرْتَ بالرَّاحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

إن كان بين صُروف الدَّهْرِ من رَحِمٍ ... موصولة أو ذِمامٍ غير مُنْقَضِبِ[٢]

فبين أَيامك اللاّتى نُصِرْتَ بها ... وبين أَيام بَدْرٍ أَقربُ النَّسَبِ

أَبقتْ بنى الأَصفر المِراض كاسمهم ... صُفْرَ الوجوه وجَلَّتْ أَوجهُ العربِ[٣]

وعواطفه الدينية والقومية بارزة فى هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها لتبرز فى جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذى تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحلت مكانها أضواء النصر فى كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلائم دائمًا بين مدحه وممدوحه ، فإذا مدح كاتبًا شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن فى مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتبًا شاعراً ، وجلّى فى وصفه لقلمه الذى أنشدنا منه قطعة فى الفصل الرابع والذى استهلّه بقوله[٤] :

---

(١) جرثومة : أصل .

(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .

(٣) بنو الأصفر : الروم .

(٤) الديوان ١٢٢/٣ وما بعدها .

لك القَلَمُ الأعلى الذى بِشَباتِه    تُصابُ من الأَمرِ الكُلَى والمفاصلُ[١]

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطاً كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحس فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعاً فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف[٢] :

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاء فإننا    نَغْدو ونَسْرِى فى إخاءٍ تالدِ[٣]
أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا    عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بيننا    أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ومراثى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى ، وكان قد سقط — كما أسلفنا — فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمس — كما يقول الرواة — طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره[٤] وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله[٥] :

فَتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ    دَماً ضحكتْ عنه الأَحاديث والذِّكْر
فتى مات بين الطَّعْن والضَّرْب ميتةً    تقوم مقام النصر إن فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مَضْرب سيفه    من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوت الموت سهلا فردَّه    إليه الحِفاظ المُرُّ والخلق الوَعْرُ[٦]
ونَفْسٌ تعاف العارَ حتى كأَنما    هو الكفر يوم الرَّوْع إن فاته الكُفْر[٧]
فأَثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ    وقال لها من تحت أَخْمَصِك الحَشْرُ[٨]

---

(١) الشباة : الحد .
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .
(٣) يكدى : لايثمر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .
(٥) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٣٠ .
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والمحارم . الوعر : الصعب .
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفزع .
(٨) الأخمص : باطن القدم .

تَردَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما دَجَى      لها الليلُ إلا وهْى من سُنْدُسٍ خُضْر [١]
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ      غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْر [٢]

وحقًّا قال أبو دُلف له : لم يمتْ من رُثى بمثل هذا الشعر [٣] ، فقد جسَّم فيه بطولة ابن حميد تجسيما رائعاً ، وما زال يتغنى ببطولته واستبساله فى قتال الأعداء حتى أبدله من كسوة الدم الزكى كسوة الفردوس السندسية . وجاءه نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وهو على بريد الموصل فبكاه بكاء حارًّا ،ونراه يتفجع تفجعاً كله حزن وأسًى على ابنيه محمد وأبى على وعلى أخ له حضَر وفاته وفيه يقول واصفاً لحظة النزع الأخير [٤] :

لله مقلتُه والموت يَكْسرها      كأنَّ أجفانه سَكْرى من الوَسَنِ [٥]
يردُّ أنفاسه كَرْهاً وتَعْطفها      يَدُ المنية عَطْفَ الرِّيح لِلغُصُنِ

ويقال إنه مات لعبد الله بن طاهر ابنان صغيران فى يوم واحد، وهزَّه الخبر ، وحرَّك شاعريته ، فدخل عليه وأنشده مرثية بديعة يقول فى تضاعيفها [٦] :

نجمان شاء الله أن لا يَطْلُعا      إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يَأْفِلا

وكان يجيد العتاب والاعتذار ، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مُضَر فى إحدى قصائده لأبى سعيد [٧] الثغرى الطائى ، فقد أحسَّ أنه أذنب ذنباً عظيماً وأخذ يستعطفه بمثل قوله [٨] :

أتانى عائرُ الأنباءِ تَسْرى      عَقاربُه بداهيةٍ نآدِ [٩]
نَثَا خبَرٍ كأن القلب أمسى      يُجَرُّ به على شَوْك القتادِ [١٠]
كأن الشمسَ جَلَّلها كسوفٌ      أَو استترتْ برِجْلٍ من جَرادِ [١١]

---

(١) دجى : أظلم .
(٢) ثوى : مات .
(٣) الأغانى ١٦ / ٣٩٠ والصولى ص١٢٥ .
(٤) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٥١ .
(٥) الوسن : النعاس .
(٦) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٤٠ والصولى ص ٢١٧ .
(٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .
(٨) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١ / ٣٧٨ .
(٩) عائر : سائر وذائع . نآد : عظيمة .
(١٠) نثا : ذائع ومنتشر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .
(١١) رجل هنا : طائفة .

بأنى نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ    إليك شَكِيَّتى خَبَبَ الجواد[١]
لقد جازيتُ بالإحسان سُوءًا    إذن وصَبَغْتُ عُرْفك بالسَّواد[٢]
وما سافرتُ فى الآفاق إلا    ومن جَدْواك راحلتى وزادى[٣]

ولم يَقْبل ابن أبى دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ودبّج فيه قصيدة يستدرُّ عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديمًا بسليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . ونراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرِف به وأنه كيدُ حاسد لعل له فضلا إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول[٤] :

لولا التخوُّف للعواقبِ لم تَزَلْ    للحاسد النُّعْمَى على المحسودِ[٥]

ولأبى تمام أوصاف كثيرة فى المطر والسحاب والشتاء وفى بعض الخلع التى كانت تُهْدَى إليه وبعض الحيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه فى تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد فى الهجاء ، ويقول الصولى إنه كان لا يجيب هاجيًا له حتى لا يَسْتَدِرَّ سبَّه[٦] . أما الفخر فله فيه قصائد ينوِّه فيها بقومه من طيئ تنويهاً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم[٧] :

أنا ابن الذين استُرضع الجود فيهمُ    وسُمِّىَ فيهم وهْو كهلٌ ويافعُ
مضوا وكأن المكرمات لديهمُ    لكثرة ما أوصوا بهنَّ شرائع
بهاليلُ لو عاينتَ فَيضَ أَكُفِّهم    لأَيقنت أن الرزق فى الأَرض واسع[٨]

وتتوهج فى مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التى تسعى إلى الكمال واجدة لذتها فى هذا السعى

---

(١) خبت : من الخبب وهو ضرب من عدو الفرس .
(٢) العرف : الجود .
(٣) جدواك : عطاؤك .
(٤) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١ /٤٠٢
(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله و ينشر محامده .
(٦) الصولى ص ٢٤١ .
(٧) الديوان (طبعة بيروت ) ص ٤٢٧ .
(٨) بها ليل : سادة .

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك فى ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذُّ كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله فى ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحبه ، وقد تعمقها الأسى لشيبه المبكر (١) :

يومى من الدهر مثلُ الدهر مشتهرٌ　　عَزْماً وحَزْماً وساعِى منه كالحِقَبِ
فأَصْغِرِى أنَّ شَيْباً لاحَ بى حَدَثاً　　وأَكْبِرِى أننى فى المَهْدِ لم أَشِبِ
ولا يؤرِّقْك إيماضُ القَتير بهِ　　فإن ذاك ابتسامُ الرأى والأَدبِ (٢)
لا تنكرى منه تخديدًا تَجَلَّلَهُ　　فالسَّيْفُ لا يُزْدَرَى أن كان ذا شُطَبِ (٣)

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضًا بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلئ الفريدة ، يقول (٤) :

مُفَصَّلَةٌ باللؤلؤ المُنْتَقَى لها　　من الشِّعر إلا أنه اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ

وهى حقًا لآلئ تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلئ سوَّى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

(١) الديوان ١/١١٦ .
(٢) يؤرقك : يسهدك . إيماض : لمعان . القتير : ابتداء الشيب وأوائله .
(٣) التخديد : الطرائق التى تبدو فى الخد والجبين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه التى تظهر فيه بسبب شحذه .
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

# الفصل السادس

## شعراء السياسة والمديح والهجاء

### ١

**شعراء الدعوة العباسية**

رأينا فى الجزء الثانى من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضًا، وكيف استقرت على أصول ثابتة فى نظرية الخلافة، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة فى أبناء على من بنى هاشم، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَته وقد أوصى لأبيهم — فيما يذكرون — بالخلافة، وكان حزب الخوارج يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى الأمة لتولّى عليها الخليفة التقى الصالح من أعلامها، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز، حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التى تؤازر الأمويين. بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبى المتوارث عند القياصرة والأكاسرة. ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضًا، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم فى الكوفة لعهد المختار الثقفى الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء على والذى أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعى، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت، غير أن التشيع ظل ملتهبًا سرًّا، وتكوّن مذهب الزيدية، وقُضِىَ على صاحبه، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة. وامتشق الخوارج الحسام فى غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوّخوهم، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا. ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالا عنيفًا،

مما هيأ لازدهار الشعر السياسي .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسي وجدنا هذا الشعر يأخذ فى الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التى يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائيًّا منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحنًا ولم تُبْق منه إلا بقايا ضعيفة ،كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسى قضاء مبرمًا، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحربها فحسب ، بل أيضًا من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حيًّا فى كثير من النفوس، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقْتَلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون،وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصابًا . وكان العباسيون كما أسلفنا فى غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بنى أمية ، حتى قوّضوا حكمهم، وأصبحوا ولاة الأمر وأصحاب السلطان، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوى هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطُرّ إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة فى العصر العباسى الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم فى تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينْظمون ما ينظمون سِرًّا وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيّةً ويبالغ فى مديحه ، حتى ليصبح كأنه من دعاتهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة فى حجورهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين فى الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتى عرضنا لها فى الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع فى هذه الأثناء صوت ثالث يقرّر أن

الخلافة فى منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة فى تولية الصالح من زعمائها، فهى ليست لُقْمة تستأثر بها أسرة خاصة، بل هى نظام يقوم على الشورى، هدفه الأساسى مصلحة الجماعة، وهى شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمى أم لم يكن، وسواء أكان قرشياً أم كان غير قرشى. وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة، فمضوا يصانعون العباسيين مُذْعنين لهم خاضعين.

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحْصوا ويستقصوا، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميرى يكثر من مديحه لهم، وقد مدح طويلا أبا العباس السفاح والمنصور والمهدى[1]. ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعاً، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديماً، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلة، وهو من مخضرمى الدولتين: الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول[2]:

حتى إذا ما الأَوصياءُ عسكروا ... وقام من تِبْرِ النبىِّ الجَوْهَرُ

أقبل بالناس الهوى المشهَّرُ ... وصاحَ فى الليل نهارٌ أَنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استُخْلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصورَ كثيرون فى مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميرى، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلا، وقد رُوِىَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعَقْد العهد لابنه محمد المهدى، وفيها يقول[3]:

(١) انظر ترجمته فى الجزء السابع من الأغانى طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٤٩ وما بعدها.

(٣) أغانى ١٨/١٥٠.

ليس ولىُّ عَهْدِنا بالأَسْعَدِ عيسى فَزَحْلِفْها إلى محمَّدِ(١)

من عند عيسى معهدًا عن معهدِ حتى تؤدَّى من يدٍ إلى يَدِ

فنادِ للبَيْعةِ جمعًا نَحْشُدِ فى يومنا الحاضر هذا أو غَدِ

ويُعَدُّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء ، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء ، وفيه يقول ابن الخياط ، إن صح أنها له (٢) :

لمستُ بكفى كفَّه أَبتغى الغِنَى ولم أدر أن الجود من كفِّه يُعْدِى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونُصَيْب الأصغر والعُمانى الراجز ، وقد روى له ابن المعتز أرجوزة يستحثه فيها على توليته العهد من بعده ابنيه الرشيد والهادى(٣) ، ومن مُدَّاحه الحسين بن مُطَيْر مولى بنى أسد ، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديداً حتى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله(٤) :

لو يعبدُ الناسُ يا مهدىُّ أَفْضَلَهم ما كان فى الناس إلا أنت معبودُ

أضحتْ يمينكُ من جودٍ مصَوَّرَةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

لو أن من نوره مِثْقالَ خَرْدَلةٍ فى السود طُرًّا إذنْ لابيضَّت السودُ

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها ، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون ، وفى ذلك يقول ابن المولى(٥) :

وإن أميرَ المؤمنين ورَهْطَهُ لأَهلُ المعالى من لُؤَىِّ بن غالِبِ

أُولئك أَوتادُ البلاد ووارِثو النَّ بِىِّ بأمر الحقِّ غير التكاذبِ

(١) زحلف : دحرج ودفع .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٩٤ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار المعارف) ص ١١١ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦/٢٣١ .
(٥) أغانى ٣/٢٩٣ .

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تقويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى ، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه[(١)] ، وفى مقدمتهم مروان ابن أبى حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البَهْدَلِىُّ . وخلفه سريعًا هرون الرشيد ، وظل فى الخلافة نحو اثنين وعشرين عامًا ، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء[(٢)] ، ومن مدّاحه أبو الشّيص والعُمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمى والسيد الحميرى ومنصور النَّمرى وأبو الغول الطُّهَوى ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون[(٣)] :

بنيتَ لعبد الله بعد محمَّدٍ ذُرَا قُبَّة الإسلام فاخضرَّ عودها
هما طُنُباها – بارك الله فيهما – وأنت – أميرَ المؤمنين – عَمودها

ومن مُدّاحه أيضًا ربيعة الرَّقِّىُّ ونُصَيْب الأصغر ، ونراه يردّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٤)] ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمرى[(٥)] :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلَّك الله منها حيث تتسعُ
إذا رفعتَ امرءًا فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأقوام متَّضعُ

ويقال إنه كان لا يرى بأسًا فى أن يمدح بما تمدح به الأنبياء[(٦)] ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلا .

وولى بعده الأمين ، وكان فيه لهو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدّاحه أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمى ، وكان يكثر فى مديحه له من التنديد بأخيه

---

(١) أغانى ١٣/٣٢٦ .
(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٤/٣٨٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٢٥ وما بعدها .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧
(٦) أغانى ١٣/١٤٤ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله(١) :

خلافةُ الله قد توارثها آباؤه فى سوالف الكتُبِ
فهْى له دونكم مورَّثَةٌ عن خاتم الأَنبياء فى الحِقَبِ

وقوله(٢) :

مَنْ رأى الناسُ له الفَضْ لَ عليهم حَسَدُوهُ
مثلَ ما قد حَسَدَ القا ئمَ بالمُلْك أخـوه

وكان المأمون ممدَّحًا مثل أبيه الرشيد ، ومن مُدَّاحه — وهو لا يزال ولىَّ عهد — منصور النَّمرِى وأشجع السُّلَمِىّ وأبو محمد اليزيدى مؤدبه ، وممن تغنَّوا بمديحه فى خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدى عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التَّيْمى ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب ، ومدائحهم فيه مبثوثة فى أخبارهم بكتاب الأغانى . ومرَّ بنا فى الفصل السالف تنويه أبى تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية ، ومن مدَّاحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومخلد بن بكار الموصلى وخالد الكاتب . وممن نوهوا بالواثق أبو تمام وله فيه قصائد بديعة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء ، هم أبو دلامة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر .

## أبو دلامة(٣)

هو زَنْد بن الجَوْن ، كوفى أسود ، من موالى بنى أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له فى أيام الدولة الأولى شأن يذكر ، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه

(١) أغانى (ساسى) ١٨/١٢٠ .
(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/١٦١ .
(٣) انظر فى ترجمة أبى دلامة وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٣٥ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/٤٨٨ وشذرات الذهب ١/٢٤٩ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٤١ والمؤتلف ١٣١ ومعجم الأدباء ١١/١٦٥ وذيل زهر الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما بعدها . وقد طبع ديوانه بالجزائر .

يتألَّق إذ قرَّبه منه السفَّاح . وكانت فيه دعابة جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذه هو ومن وليه من الخلفاء نديمًا لهم يُطْرفهم بنوادره . و يقول أبو الفرج : « كان فاسد الدين ردىء المذهب مرتكبًا للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يُعْلَمُ هذا منه ويُعْرَفُ به فيُتَجافى عنه للطف محله » . ولعل أبا الفرج بنى هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الخمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً ، فأمره بلزوم الجماعة فى مسجد قصره ، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزَّنى بمسجده والقصْرِ مالى وللقَصْرِ !
وما ضرَّه والله يغفر ذَنْبَهُ لو آنَّ ذنوب العالمين على ظهرى

وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه . وروى أبوالفرج فى موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه فى ليالى شهر رمضان ، وأنه شَقَّ عليه ذلك فكتب إلى رَيْطة زوجة ابنه المهدى شعراً يُضْحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور . وفى خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره . وقد يكون فيه لهو وميل للمجون ، أما أن يكون فاسد الدين مخلا بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغة فى الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعابة شأنه فى دعاباته الأخرى التى رواها أبو الفرج وغيره .

ويُرْوَى أنه انقطع فى بعض أيامه إلى رَوْح بن حاتم بن قبيصة المهلبى ، أما فى عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديمًا لهم يضحكهم بنوادره ، ويُقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة ، وكان أول ما جعله يُسْنى له الجوائز داليَّته التى مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراسانى وفيها يقول :

أبا مجرمٍ ما غيَّر الله نعمةً على عبده حتى يغيِّرها العَبْدُ
أفى دولة المهدىِّ حاولتَ غدرةً ألا إن أهل الغَدْر آباؤك الكُرْدُ

وواضح أنه يلقب المنصور فى البيت الأخير بالمهدى ، مستعيراً ذلك من الشيعة وما يردِّدونه فى آثارهم عن صفاته وأنه المنقذ الذى يخلِّص الناس من بلاياهم

ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلماً ويهدى الناس إلى الطريق السَّوِىِّ المستقيم ، وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقى للمهدى إنما هو محمد ، ولعل المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدى ، وكأنه كان يريد أن يوحى للناس بأنه المهدى المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبى دلامة يلقبه هو نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ لِقيلَ اقْعُدُوا يا آل عَبَّاسِ
ثم ارْتَقُوا فى شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادةُ الناسِ

وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلا . ولما توفى المنصور رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدى ، والطريف أنه جمع المعنيين فى كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى فى قوله :

عينان : واحدة تُرَى مسرورةً بإمامها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءُها ما أبصرتْ ويسرُّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة ترويها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ، ومنها ما يتصل بزوجته وبأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً ، ويُرْوَى أنه بُشِّر ببنت له ، فقال تَوًّا مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتْك مريم أمُّ عيسى ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمُّكِ أمُّ سوءٍ إلى لَبَّاتِها وأبٌ لئيم

وله بجانب ذلك أشعار فى وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور إلى المهدى فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة ١٦١ للهجرة .

## مروان[١] بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه أبلى فى الدفاع عنه حين حوصر فى داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولى المدينة لمعاوية ولاَّه على خراج اليمامة ، واقترن هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوذة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى فى أعراقه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا فى العصر العباسى ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيبانى ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أُسودٌ لها فى بَطْن خَفَّانَ أَشْبُلُ[٢]

هُمُ يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهمُ بين السِّماكين مَنْزِلُ

بَهَا لِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأَولهم فى الجاهليةُ أَولُ

همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأَجْزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالَهم ... وإن أَحسنوا فى النائبات وأَجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حِجْره من الأموال، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

---

(١) انظر فى ترجمة مروان وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٠/٧١ والموشح للمرزبانى ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة ( طبعة دار الكتب ) ٢/١٠٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٢ وشذرات الذهب ١/٣٠١ وابن خلكان ٢/١١٧ والوزراء والكتاب للجهشيارى ، انظر الفهرس ، وكذلك فهرس الأغانى ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٨٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ( طبعة الحلبى ) ٢/٢٨٦ .

(٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة . ومطر اسم جد معن ، وهو مطر بن شريك الشيبانى .

مَعنُ بن زائدة الذى زيدت بهِ شرفاً إلى شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيّامُ الفعَال فإنما يوماه يوم نَدًى ويوم طِعانِ

وما زال يوالى مديحه له حتّى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبنّه تأبينًا حارًّا ، ومن رائع تأبينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نُريد له زِيالا
وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ وقد ذهب النَّوال فلا نوالا

ويقول من أخرى :

قُلْ للمنيةِ لا تُبْقِى على أحدٍ إذ مات مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور وَفَدَ عليه ، ولم يكد يلقى بين يديه أولى قصائده فيه حتّى بهره بمديحه ، ولم يكن مديحًا عاديًّا بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التّى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضًا مديحاً سياسيًّا ، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ، ولعل شاعراً لم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينقضُ على العلويين بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمسون من السماء نجومَها بأَكُفِّكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالها
شهِدتْ من «الأنفال» آخرُ آيةٍ بتُراثهم فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : ( والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم ) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدى بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أولَ مائة ألف درهم أخذها شاعر فى أيام بنى العباس . ومضى مروان يردد فى مديحه للمهدى هذا الدفاع السياسى عن حق العباسيين فى وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياه الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التى يخاطب بها المهدى :

يا بن الذى ورث النبيَّ محمَّدًا ... دون الأَقارب من ذوى الأَرحامِ
الوَحْىُ بين بنى البنات وبينكم ... قطَع الخِصام فلاتَ حينَ خِصام
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ ... نزلتْ بذلك سورة الأنعام
أَنَّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ ... لبنى البنات وراثةُ الأَعمام

وما زال يفد على المهدى حتى توفِّى وخلفه ابنه الهادى فوفد عليه مع من وفدوا يهنئونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتى الباب ، ثم قال :

لقد أَصبحتْ تختالُ فى كل بلدةٍ ... بقبر أَمير المؤمنين المقابِرُ
ولو لم تسكَّن بابنه فى مكانه ... لما برحتْ تبكى عليه المنابرُ

ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له فى الصلات السنية ، ووَفَدَ على البرامكة — شأنه فى ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم — وله فى يحيى بن خالد البرمكى من قصيدة :

إذا بلَّغَتْنا العِيسُ يحيى بن خالدٍ ... أَخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ
فإن نشكر النُّعْمَى التى عمَّنا بها ... فحقٌّ علينا — ما بقينا — له الشكر

ومن رائع قوله فى الفضل ابنه :

إذا أمُّ طفلٍ رَاعَها جوعُ طفلها ... غَذَتْه بذكر الفضل فاستعصَم الطِّفْلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عِزُّه ... وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ

وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعًا إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية

وما تُرْجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً، ويُرْوَى عنه أنه كان يحوك القصيدة فى سنة ، أما فى الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها ، وكان فى الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها ، أما فى الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدها ممدوحيه ، وما زال فى المحل المرموق من الشعر حتى توفى سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولا بيد شيعى انتقاماً منه للعلويين .

## سلم[١] الخاسر

من موالى تَيْم عشيرة أبى بكر الصديق ، وُلد بالبصرة وبها نشأ، واختلف الرواة فى سبب تلقيبه بالخاسر ، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلّف له مالا كثيراً أنفقه على الشعر وفى اللهو فلقّب بذلك ، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طُنْبورا، وقيل أيضًا إنه إنما لُقّب بذلك لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه دفتر شعر . ويقول أبو الفرج : « هو راوية بشار بن بُرْد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ورَوَى عنه أنه قال : « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقه . . إنى لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيرى منها شيئًا » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية. ونراه فى مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء والى طبرستان وممدوح أستاذه بشار ، وله يقول :

كم كربةٍ قد مسَّنى ضُرُّها     ناديتُ فيها عمر بن العلاء

ورثى معنا حين توفى رثاء حارًّا ، وبنفس اللوعة رثى أبا جعفر المنصور ، وفيه يقول :

عجباً للذى نعى الناعيانِ     كيف فاهتْ بموته الشفتانِ

(١) انظر فى سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٩ والأغانى (طبعة الساسى) ٢١/٧٣ وتاريخ بغداد ٩/١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١١/٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى انظر الفهرس .

ليتَ كفًّا حَثَتْ عليه تُرَاباً لم تَعُدْ فى يمينها بِبَنانِ

وتُفْتَحُ له أبواب الخلافة منذ عصر المهدى ، إذ كان يعطيه هو ومروانَ بن أبى حفصة عطية واحدة . ويقول ابن المعتز إنه كان يذهب به فى مديحه إلى أنه المهدى الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض ما نُسب إليه من آثار ، وله يقول فى بعض قصائده :

وإلى أمير المؤمنـ ـين محمدٍ خير الأنامِ
فَضَلَ الملوكَ محمدٌ فَضْلَ الحلال على الحرامِ

ويقول :

ومهدىّ أُمَّتنا والذى حماها وأدرك أوتارهـا
له شيمةٌ عند بذل العطا ء لا يعرف الناسُ مقدارها

وكان يقف بجانبه فى كل مناسبة ، من ذلك أن نراه ينبرى حين اتخذ يعقوب ابن داود وزيراً له قائلا منوهاً به وبوزيره :

قُلْ للإمام الذى جاءتْ خلافتُه تُهْدَى إليه بحقٍّ غير مردودِ
نعْمَ المعينُ على التقوى أُعِنْتَ بهِ أخوك فى الله يعقوب بن داودِ

ولما ماتت ابنته « البانوكة » حزن عليها هو وأمها الخيزران حزنًا شديداً ، وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادبًا باكيا بمثل قوله :

أَوْدَى ببانوكةَ رَيْبُ الزمانْ مُؤْنِسةِ المهدىِّ والخيزرانْ
بانوكَ يا بنتَ إمام الهُدَى أصبحتِ من زينة أهل الجنانْ
بكتْ لكِ الأرضُ وسُكَّانُها فى كلِّ أُفْقٍ بين إنْسٍ وجانْ

ويقال إنه بلغ المهدى أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهمّ به ، ولكنـه استطاع أن يسلّ منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها فى تصوير اعتذاره بمثل قوله :

وأنت كالدهر مبثوثاً حَبائِلُهُ والدهر لا ملجأٌ منه ولا هَرَبُ

والحق أنه كان خالصًا للعباسيين ، وقد مضى يمدح الهادى بعد المهدى مُضْفيا عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك فى كتب الأوَّلِيـ ن محيي النفوس وقتَّالها
لقد جعل الله فى راحتيك حياةَ النفوس وآجالهـا

وله يقول من أخرى :

لولا هُداكم وفضل أولكم لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ

ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه ، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد فى ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان فى مَهْدى الهدى لمحمد بن زُبَيْدة ابنة جعفرِ

ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم . ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوَّه به كما نوَّه بأخيه . وجذبه البرامكة إليهم ، فأشاد بهم طويلا ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التى مدح بها يحيى ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ الناسَ من عُجْمٍ وعُرْبٍ فمـا أحدٌ يسير كما تسيرُ
فكلُّ الأمر من قولٍ وفعل إذا عَلِقَتْ يداك به صغير
وفى كفَّيك مَدْرَجَةُ المنايا ومن جَدْواهما الغيث المطيرُ

وأكثر من مديح الفضل بن يحيى ، حتى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومُ نَدًى وبَأْسٍ كأن الدهر بينهما أسيرُ

وقوله :

أقام الندى والجود فى كل منزلٍ أقام به الفضل بن يحيى بن خالدِ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكى أكثر من بِرِّه ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفى مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلمز صاحبه بعض اللَّمْز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح فى بيته الذى أنشدناه فى الفصل السابق :

تعالى الله يا سَلْم بن عمرو　　أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق فى زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدى وفى ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهيدَ من واعظٍ　　يُزَهِّدُ الناسَ ولا يزهـــدُ
لو كان فى تزهيده صادقاً　　أضحى وأمسى بَيْتُه المسجد

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشىء من اللهو والمجون فى مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السِّنُّ حتى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفى أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً فى ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة ، وله فى الهادى مدحة اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطَرْ　　عَدْلُ السِّيَرْ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهى تفيض بالخفة والرشاقة ، ومن حكمه البديعـــة :

لا تَسْأَلِ المرءَ عن خلائقهِ　　فى وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبَرِ

وما زالت حياته تجرى رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

## ٢

### شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد فى ذلك غضاضة هى فرقة الكيسانية من أصحاب أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميرى ، يقفون فى صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين فى الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كى ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذى كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثنى عشرية وإسماعيلية ، ومن ثَمَّ رأيناهم يمدحون خلفاء بنى العباس ، يستّرون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النَّمرى . وخير من يمثل شعراء الزيدية فى أوائل هذا العصر سُدَيْف وهرون بن سعد العِجْلىّ . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بنى أمية بمثل قوله[1] :

أصبح الملك ثابت الآساسِ بالبَهاليل من بنى العبـاسِ
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا واقْطَعَنْ كل رَقْلَةٍ وغِراسِ[2]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيئوا للطعام وقف سديف ينشده[3] :

لا يَغُرَّنْك ما ترى من رجالٍ إن تحت الضلوع داءً دَوِيًّا
فضَعِ السيف وارْفَع السَّوْط حتى لا ترى فوقَ ظهرها أَمَوِيًّا

---

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٣٤٥/٤ .

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تفوت اليد .

(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٣٤٨/٤ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل شُدخوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجموعهم فى الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر فى نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما تُوافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا فى الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله فى بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية[١] :

إنا لنأْمل أن ترتدَّ أُلْفَتُنَا ... بعد التباعد والشحناء والإِحَنِ
وتنقضى دولةٌ أَحكامُ قادتها ... فينا كأَحكام قومٍ عابدى وَثَنِ
فانهضْ ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا ... إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حيًّا . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العِجْلى ، وقد ولاَّه إبراهيم ابن عبد الله فى أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[٢] ، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية رَدًّا عنيفاً ، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو فى تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى ليجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دَوَّنَ كل ما يحتاج إليه من هذا العلم فى جلد يسمونه جَفْراً ، يقول فى تضاعيف قصيدته[٣] :

أَلم تَر أن الرَّافضين تفرَّقوا ... فكلُّهمُ فى جعفرٍ قال مُنْكَرَا
فطائفةٌ قالوا إلٰهٌ ومنهمُ ... طوائف سمَّتْه النبيَّ المطهَّرا
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرٌ ... فإنى إلى رَبِّى أُفارقُ جَعْفَرَا

---

(١) مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبى) ص٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١/٤٥ .
(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .
(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

## ٢

### شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التى لم تجد فى ذلك غضاضة هى فرقة الكيسانية من أصحاب أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميرى ، يقفون فى صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين فى الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كى ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذى كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثنى عشرية وإسماعيلية ، ومن ثَمَّ رأيناهم يمدحون خلفاء بنى العباس ، يسترون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النَّمَرى . وخير من يمثل شعراء الزيدية فى أوائل هذا العصر سُدَيْف وهرون بن سعد العِجْلىّ . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بنى أمية بمثل قوله[1] :

أصبح الملك ثابت الآساسِ ... بالبَهاليل من بنى العبـاسِ
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا ... واقْطَعَنْ كل رَقْلَةٍ وغِراسِ[2]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيئوا للطعام وقف سديف ينشده[3] :

لا يَغُرَّنْك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داءً دَوِيًّا
فضَعِ السيف وارْفَعِ السَّوْط حتى ... لا ترى فوقَ ظهرها أُمَوِيًّا

---

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٣٤٥/٤ .

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تفوت اليد .

(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٣٤٨/٤ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل شُدخوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجموعهم فى الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر فى نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئًا . وما توافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا فى الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظمًا كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله فى بعض تلك الأشعار ، مخاطبًا النفس الزكية[١] :

إنا لنأمل أن ترتدَّ أُلْفَتُنَا بعد التباعد والشحناء والإِحَنِ
وتنقضى دولةٌ أَحكامُ قادتها فينا كأَحكام قومٍ عابدى وَثَنِ
فانهضْ ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حيًّا . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العِجْلى ، وقد ولاَّه إبراهيم ابن عبد الله فى أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[٢] ، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية رَدًّا عنيفًا ، ناقضًا ما زعمه رافضتهم من غلو فى تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى ليجعله بعضهم إلهًا وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دَوَّنَ كل ما يحتاج إليه من هذا العلم فى جلد يسمونه جَفْراً ، يقول فى تضاعيف قصيدته[٣] :

أَلم تَر أن الرَّافضين تفرَّقوا فكلُّهمُ فى جعفرٍ قال مُنْكَرَا
فطائفةٌ قالوا إِلهٌ ومنهمُ طوائف سمَّتْه النبيَّ المطهَّرا
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرٌ فإنى إلى رَبِّى أُفارقُ جَعْفَرا

---

(١) مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبى) ص٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١ / ٤٥ .

(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٤٥ .

ومن عجبٍ لم أَقْضهِ جِلْدُ جَفْرِهم　　بَرِئْتُ إلى الرحمن ممن تجفَّرَا

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ، من مثل بشر بن المعتمر ، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلى[١]. ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمدانى ، وله مراث فى النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً[٢] . وثار ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، لعهد الهادى الحسين بن على الحسنى فى مكة ونازله جيش عباسى فى « فخ » فقُتل هو وكثيرون من أهله وتُركوا فى العراء للسباع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحرَّ ندب وأشجاه[٣] . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان[٤] ، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها فى تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة[٥] ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعى أن يكثر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين فى هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه فى كتاب مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى مفصلا أوسع تفصيل .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف فى وجوه بنى العباس ، فقد جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً فى نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم فى جمع الناس من حولهم بالكوفة ، واجتمع حولهم فعلا خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومرَّ بنا فى الفصل السابق أن لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقته الشُّمَيْطية الغالية ، ونراه يلوم زيد بن على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سَنَّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام فى وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(١) الحيوان ٦/٢٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٤) الملل والنحل للشهرستانى ( طبع لندن ) ص ١١٧ .

(٥) انظر فى هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول فى قصيدته[١] :

سَنَّ ظُلْمَ الإمام فى القوم زَيْدٌ      إن ظُلْمَ الإمام ذو عُقَّالِ[٢]

والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبنى العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سخّر شعره للدفاع عن حقهم فى الخلافة مبالغة فى الستر والتقية على نحو ما سنرى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر الإمامىُّ الوحيد الذى جاهر بنحلته دعبلا ، إن صح أنه كان متشيعًا حقًّا فضلا عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مرَّ بنا فى الفصل السابق أنه سخَّر كثيراً من شعره فى رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل فى خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولى يروى له فى كتاب الأوراق أشعاراً شيعية مختلفة فى مديح بنى هاشم وبيان فضائل على بن أبى طالب وفى رثاء الحسين وندبه ندبا حارًّا ، ملوحا بيده فى وجه أبى بكر وعمر وفى وجوه خصوم الإمامية ، مشيراً إلى مهديِّهم الذى سيأخذ بثأرهم ، يقول[٣] :

إنى لأرجو أن تنالهمُ      منى يَدٌ تشفى جوَى الصَّدْر
بالقائم المهدىّ إن عاجلا      أو آجلا إن مُدَّ فى عُمْرى

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بنى العباس وخلفائهم ، وهو غال فى تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردَّد على مجالس تُذْكَرُ فيها فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذْكَرُ فيها شىء من فضائل على ، فتولَّى حنقا ، وهو يقول[٤] :

أغدو إلى عُصْبَةٍ صُمَّتْ مسامعهم      عن الهُدَى بين زنديقٍ ومأفونِ
لا يذكرون عليًّا فى مشاهدهم      ولا بنيهِ بنى البِيض الميامينِ
لو يستطيعون من ذكرى أبا حَسَنٍ      وفضله قطَّعونى بالسَّكاكينِ

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤١٩ والبيان والتبيين ٣٥٧/٣ .
(٢) عقال : من العقل وهو مغرم الجناية .
(٣) كتاب الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٨٢ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٤٦/١٧ .

ولستُ أتركُ تفضيلى له أبدًا     حتى المماتِ على رَغْمِ الملاعينِ

وكثُر فى هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن على بن أبى طالب وفضائله ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صوَّر فيها منزلته وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغى أن نشير هنا إلى ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلى الرضا الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه فى بغداد ، وأن عليًّا الرضا توفِّى سريعاً ، فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات فى خلافته ، إذ نراه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — يكتب إلى الآفاق فى سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء الشيعة يطمئنون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبى تمام إلى النظم فى فضائل على إرضاء للدولة . وأيضًا ينبغى أن نشير هنا إلى كثْرة الانقسامات بين الشيعة وما جرَّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى منثورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة فى العصر ، وهم السيد الحميرى ومنصور النَّمَرِى ودعبل وديك الجن .

## السيد [1] الحميرى

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الذى ترجمنا له فى الجزء الثانى من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هناك فى نسبه من حمير واستظهرنا أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

---

(١) انظر فى ترجمة السيد الحميرى وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين ٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستانى (طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤ وفوات الوفيات فى إسماعيل وفرق الشيعة للنوبختى (طبعة ريتر) ص ٢٦ ، ومعرفة أخبار الرجال للكشى ١٨٤ وترجمة جده يزيد بن مفرغ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٣٠٥ .

يفتخر بحميريته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين ، ومن ثَمَّ يقول :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ غيرُ مُؤْتَشبٍ جَدِّى رُعَيْنٌ وأخوالى ذَوو يَزَنِ[1]

وقد وُلد لأبويه فى البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضيّة الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سَبَّ على بن أبى طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يلبث أن أوغل فى التشيع لعلى وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنيفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانياً لحماً وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك فى البصرة أو حدث فى الكوفة فقد أقام بها ردحاً من الزمن . وأيًّا كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بنى أمية ، حتى إذا أظلّه العصر العباسى تمشت فى نفسه الفرحة لانتصار الهاشميين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعى ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مرَّ بنا ، لمحمد بن على العباسى ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثَمَّ كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة فى نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذى كان يتبع فرقة أبى هاشم . وطبيعى لذلك أن نجد السيد الحميرى الكيسانى يهلل لانتصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب فى الكوفة خطبته المشهورة التى أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلا :

دونكموهـــا يا بنى هاشمٍ فجدِّدوا من عهدها الدَّارِسَا
قد ساسها قبلكمُ ساسةٌ لم يتركوا رَطْباً ولا يابِسَا
ولستُ من أن تملكوها إلى مَهْبِط عيسى فيكمُ آيِسَا

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لامزاً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلماً وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر فى زوالها عنهم ، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفنى الأرض ومن عليها ، وتوفّى السفاح

---

(١) المؤتشب : غير الصريح فى نسبه . وذو رعين : من ملوك اليمن ، وذو و يزن : أبناء ذى يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السَّنية وأغدق عليه السيد الحميرى من مدحه بمثل قوله :

إن الإله الذى لاشىءَ يشبهه ... أعطاكم الملكَ للدُّنيا وللدِّينِ
أَعطاكُم الله ملكاً لا زوال له ... حتى يقادَ إليكم صاحبُ الصين
وصاحبُ الهند مأخوذًا برُمَّتِهِ ... وصاحب التُّرْك محبوساً على هُونِ

ومدح من بعده ابنه المهدى وظن طه حسين أن السيد الحميرى كان فى هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُ أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه ، فيظفر بمالهم ويتقى شرهم ، كان يستحلُ ذلك كما كانت تستحلُه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية[1]» . ولا تقية ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بنى أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص فى كيسانيته إخلاصًا بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفيةحَىٌ وأنه راجع يومًا يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدى؟ ... يا بن الوصىِّ وأنت حَىٌّ تُرْزَقُ

ويُرْوَى أن شيطان الطاق محمد بن على بن النعمان أحد متكلمى مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً فى عقيدتهالكيسانية يريد أن يجذبه إلىعقيدته ،وغلبه فى مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيِّر سلفه الكيسانى فى العصر الأموى التى تجرى على هذا النمط :

أَلا إن الأَئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيه ... همُ أَسْباطه والأَوصياء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحلم ... وسبطٌ غيَّبَتْه كَرْبَلاءُ
وسبْطٌ لا يذوق الموت حتى ... يقودَ الخيلَ يَقْدُمها اللِّواء

والسبط الأول الحسن والثانى الحسين المقتول بكربلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيِّر يقول إنه لا يزال حَيًّا لم يذق الموت وأنه سيعود فى جيش لَجِبٍ

(١) حديث الأربعاء ٢/٣٠٧ .

وكان السيد الحميرى فى القرن الثانى لا يزال يؤمن مثله برجعته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تجعفرتُ باسم اللهِ واللهُ أكبرُ　　　وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفرُ

غير أن أبا الفرج ردّ ذلك قائلا هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثانى تمجيداً لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته فى نظم أخبارهم ومناقبهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبى طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرّر طويلا ما تدّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أقسم باللهِ وآلائـــهِ　　　والمـــرءُ عما قال مسئولُ

إن على بن أَبى طالبٍ　　　على التُّقَى والبرِّ مَجْبُولُ

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التى تسمى المذهبة ، وقد عُنى بها الشيعة وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير ، يقول :

أين التطرُّف بالولاء وبالهوى　　　أ إلى الكواذب من بروق الخُلَّبِ

أإلى أمية أم إلى الشِّيع التى　　　جاءت على الجمل الخِدَبِّ الشَّوْقَبِ[1]

تَهْوِى من البلد الحرام فنبَّهت　　　بعد الهدوِّ كلاب أهل الحَوْأَبِ

وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوأب ، وكان يفرط فى سبِّها وسب طلحة والزبير وأبى بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يَرْعوى ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجِّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزج بنفسه فى هذه المضايق الوعرة غير مراع لجلة الصحابة وأمهات المؤمنين أى حرمة ، ولبئس ما قال فى عائشة وصاحبيها :

---

(١) الخدب : البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءَتْ مع الأَشْقَيْن فى هودجٍ تُزْجى إلى البصرة أَجْنادها
كأنها فى فعلها هِرَّةٌ تريد أن تأْكل أولادها

ويروى أن المهدى جلس يومًا يعطى قريشاً صلاتها وهو ولى عهد ، فبدأ ببنى هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتى عمر وأبى بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، ولبَّاه المهدى. وقد روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبِّ والشتم .

ولعل فى ذلك ما يدلُّ على أن السيد الحميرى كان غالياً فى تشيعه غلوًّا قبيحاً ، ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السبِّ المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان شاعراً بارعًا ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما رُوِى من أن الحسن والحسين،أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطىُّ مطيكما :

أَتى حسنًا والحسينَ الرسولُ وقد برزا ضَحْوَةً يلعبانِ
فضمَّهما ثم فدَّاهما وكانا لديه بذاك المكانِ
وراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطيَّة والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستنزف الدمع ويذيب القلب حسرات ، ويقال إنه استأذن يوما على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حُرَمَه خلف سِتْر ، فدخل ، فأنشده قوله :

امْرُرْ على جَدَثِ الحُسَـ يْنِ فقُلْ لأَعْظُمه الزَّكِيَّهْ
آ أعظمًا لا زلتِ من وَطْفاءَ ساكبةٍ رَوِيَّهْ(١)
و إذا مررتَ بقبرِهِ فأَطِلْ به وقْفَ المَطِيَّهْ
وابكِ المطهَّر للمطهَّـ ـرِ والمطهَّرة النَّقِيَّهْ

(١) الوطفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغزيرة .

كبُكاءِ مُعْوِلةٍ أَتَتْ يومـاً لواحدها المنيَّه

فسالت دموع جعفر على خديه مدراراً وارتفع النشيج والصراخ فى داره فأمره بالإمساك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح فى بعض ولاة البصرة والأهواز ، وله أهاج فى المرجئة وفى عبد الله بن سوار قاضى البصرة الذى ردّ شهادته لقذفه فى الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفى الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزالته وعذوبته ، مع الرونق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلذّ الأسماع والأفئدة وحتى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتى توفى سنة ١٧٣ للهجرة .

## منصور[١] النَّمَرِى

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة[٢] من قبيلة النَّمِر بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابى المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبَّه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وَصَفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ونوَّه به وقرَّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحَظِىَ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبى حفصة بِنَفْى الإمامة عن أبناء على بن أبى طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوِّقون رقابهم بالمنن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفى ذلك يقول :

بنى حَسَنٍ وقُلْ لبنى حُسَيْنٍ عليكم بالسداد من الأمورِ

---

(١) انظر فى أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣ / ٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٧٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٦٨ .

(٢) فى بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

أميطوا عنكمُ كذبَ الأماني وأحلامًا يَعِدْنَ عِداتِ زُورِ
مننتَ على ابن عبد الله يحيى وكان من الحتوفِ على شَفيرِ
يَدٌ لك فى رقاب بنى علىٍّ ومَنٌّ ليس بالمَنِّ الصغير
وإنك حين تُبْلغهم أذاةً – وإن ظلموا – لمحزونُ الضمير
فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم وإلا فالنَّدامة للكَفُــورِ
وإن قالوا بنو بنتٍ فحقٌّ ورُدُّوا ما يناسبُ للذكور
وما لبنى بناتٍ من تُراثٍ مع الأَعمام فى ورق الزَّبور

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعاً وعشرين بَدْرَة . ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه فى مطلعها عن الشباب إذ يقول :

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ
بان الشبابُ وفاتتنى بلذَّتِهِ صروفُ دَهْرٍ وأيامٍ لها خُدَعُ
ما كنت أُوفى شبابى كُنْهَ غِرَّتِهِ حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ
إن كنتِ لم تطعمى ثُكْلَ الشباب ولم تَشجَىْ بغصته فالعذر لا يقع

ويُقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له : أحسنت والله ، لا يتهنَّأ أحد بعيش حتى يخطر فى رداء الشباب ، وخرج إلى المديح ملوحا فى وجه العلويين بمثل قوله :

ياابن الأَئمة من بعد النبىِّ ويااب نَ الأَوصياء أقرَّ الناسُ أو دفعوا
وما لآل علىٍّ فى إمارتكم حَقٌّ وما لهمُ فى إرْثكم طَمَعُ
العمُّ أَولى من ابن العمِّ فاستمعوا قولَ النَّصيح فإن الحقَّ يُسْتَمَعُ

وهو يشير إلى أن العباس عمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبى طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث فى الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعًا ، وحتى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول فى القصيدة السالفة :

أىّ امرىء بات من هرون فى سَخَطٍ  فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ  بعد النبيين فى الأَنامِ

ومن قصيدة له ثالثة :

آلُ الرسول خيارُ الناس كلِّهمِ  وخيرُ آلِ رسول الله هرونُ

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصًا ، بل كان يظهر غير ما يضمر ، إذ كان شيعيًّا إماميًّا ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية . وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه أنه من وجوه شيعته وباطنُه ومرادُه بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لقول النبى ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى » ونراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور ذلك لاميته وفيها يقول :

شاءٌ من الناس راتعٌ هامِلْ  يعلِّلون النفوسَ بالباطِلْ[1]

تُقْتَلُ ذريَّةُ النبيِّ ويَرْ  جون جِنانَ الخلود للقاتلْ

ويلك ياقاتلَ الحسين لقد  بُؤْتَ بحمْلٍ يَنُوءُ بالحامل

ما الشكُّ عندى فى كُفْر قاتلهِ  لكننى قد أَشك فى الخاذِلْ

وعاذلى أننى أُحبُّ بنى  أحمد فالتُّرْبُ فى فم العاذل

قد دِنْتُ ما دينكم عليه فما  وصلتُ من دينكم إلى طائلْ

دينكمُ جَفْوَةُ النبيِّ وما الـ  ـجافى لآل النبيِّ كالواصل

(١) هامل : المتروك ليلا ونهاراً .

وقد مضى فى القصيدة ينكر موقف أبى بكر وعمر من دعوى فاطمة إرث « فدك » زاعماً أنهما ظلماها ، ومطالباً بمن يثأر لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبيُّ والدُها تدير أَرجاءَ مُقْلَةٍ حافلْ
أَلاَ مَساعيرُ يغضبون لها بسَلَّة البِيض والقَنا الذابل (١)

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابى ، فأسخط الرشيد عليه ، غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له فى مجالسه ، وانتهز العتابى منه يوماً فرصة ، فذكر له حقيقة النمرى وأنه شيعى غال فى تشيعه ، وأنشده اللامية الآنفة وأشعاراً أخرى من مثل قوله :

آلُ الرسول ومن يحِبُّهُمُ يتطامنون مخافة القَتْلِ
أَمِنَ النصارى واليهودُ وهم من أُمَّةِ التوحيد فى أَزْلِ (٢)

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرَّقة ، وكان مقيماً بها ، مَنْ يقتله ، غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفأ راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

وممن مدحهم وأشاد بهم يزيد بن مَزْيد الشيبانى ، وكان من مُدَّاح الفضل ابن يحيي البرمكى كما مرَّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفراً لسنة ١٨٧ ، وفى ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتى بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبيت أناملى يَجْنِين رُمَّـانَ النُّحُورْ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه ، وأنه كان يكتفى من ملاهى عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

---

(١) مساعير : جمع مسعار ، وهو موقد الحرب البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .

(٢) أزل : ضيق وشدة .

## دعبل (١)

هو دعبل بن على بن رَزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن، وهو من خزاعة صليبة لاولاءً (٢)، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطًا ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين وولداه الحسين وعلى وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبى الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكرًا إلى حلقات الدرس . على أننا نجده فى شبابه يصحب الشُّطَّار ويشترك معهم فى مغامراتهم، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء فى عصره ، وأن يعمَّ بهجائه الخلفاء وكل من قدَّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فمضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق فى شعره إذ عنى فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكى على دِمْنَةٍ ورأسُه يضحك فيه المَشِيبْ

فما زال دعبل يدير البيت فى نفسه ، محاولا أن يبنى على معناه قطعة فى الغزل حتى صنع قطعته التى فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال فى بكاء الشباب ووقوعه فى شباك الهوى :

أَين الشبابُ ؟ وأَيَّةً سَلكا ؟ لا، أَين يُطْلَبُ ؟ ضَلَّ بل هلكا

(١) انظر فى دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص٨٢٥ والأغانى ( طبعة الساسى ) ١٨/ ٢٩ وتاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢ والموشح ص ٢٩٩ وابن خلكان ١/ ١٧٨ ومعجم الأدباء ١١/ ٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٢٢٧ وشذرات الذهب ٢/ ١١١ ومعرفة أخبار الرجال للكشى ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشى ١١٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٤٥ ولسان الميزان ٢/ ٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببيروت وعبد الصاحب الدجيلى فى النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر فى دمشق .

(٢) ممن زعموا أنه خزاعى ولاء عبد الله بن طاهر ( انظر ترجمته فى الأغانى ) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير فى البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٨ .

لا تعجبى يا سَلْمَ من رَجُل ضحك المشيبُ برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف نَوْمكما يا صاحبىَّ إذا دمى سُفِكا
لا تأْخذا بظُلامتى أحدًا قلبى وطرفى فى دمى اشتَركا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ، فقيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنياً ، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان وواليها العباس بن جعفر الخزاعى ( ١٧٣ — ١٧٥ هـ ) فأكرمه وولاه على سِمِنْجان إحدى بلاد طَبَرِسْتان. وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالٌ خمسةٌ حَبَّذا تلك خلالا حبَّذا
خدمةُ الضيف وكأْسٌ لذَّةٌ ونديمٌ وفتاةٌ وغِنـا

وتُؤْثَـرُ له فى الخمر بعض الأشعار ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقًا :

دموعُ عينى لها انبساطُ ونومُ عينى به انقباضُ

وليس فى ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه، وحقًّا تُرْوَى له بعض أبيات فى البرامكة حين نكبهم الرشيد ، ولكنها لا تدخل فى باب الرثاء إنما تدخل فى باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم بالقصر فى عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج فى سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر وواليها المطلب بن عبد الله الخزاعى ( ١٩٨ — ٢٠٠ هـ ) وفيه يقول :

زمنى بمُطَّلِبٍ سُقيتَ زماناً ما كنت إلا روضةً وجنانا
كلُّ النَّدَى إلا نداك تكلُّفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا
أَصْلَحْتَنى بالبِرِّ بل أفسدتنى وتركتنى أتسخَّط الإِحسانا

ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البِر والنوال ، فقد ولاَّه على أسوان ،

وسرعان ما شعر فى هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة فى الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها فى الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجوه هجاء مقذعاً، كافراً يده عنده ، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال فى بعض هجائه له :

تعلّق مصرُ بك المخزياتِ ونبصق فى وجهك المَوْصِلُ

وأخذ يكثّر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولا عن مصر ، وتَلَطّف له فكفَّ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكد يمثل بين أيديهما حتى أنشد تائيته المشهورة.

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العرصاتِ

وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث فى « كربلاء » و « فخ » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض فى حرمانهم من الاستمتاع بحقهم فى الخلافة آملا فى خروج مهديهم المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلماً وجَوْراً ، وفيها يقول :

ملامَك فى آلِ النبىِّ فإنهم أَحِبَّایَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فياربِّ زدنى من يقينى بصيرةً وزِدْ حُبَّهم يارب فى حسناتى
ألم تر أنى من ثلاثين حِجَّةً أروح وأغدو دائمَ الحسرات
أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقَسَّماً وأيديَهم من فَيْئهم صَفِراتِ[1]
ولولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد تقَطَّع قلبى إثرهم حَسَراتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ يقوم على اسم الله والبركاتِ

---

(١) الفىء : الخراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم فى سياسة الدولة والقيام على شئون المال . صفرات : خالية .

يميِّز فينا كلَّ حَقٍّ وباطلٍ ويَجْزِى على النَّعْماء والنَّقماتِ

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حُلَّة من ثيابه ، ويقال إن أهل مدينة « قُم » الشيعية اشتروا منه الحلة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكد النعى يبلغ دعبلا ، حتى قال :

قبران فى طوسَ خير الناس كلِّهمِ وقبرُ شَرِّهمِ هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرِّجْس من قُرْب الزكيِّ ولا على الزَّكِيِّ بقرب الرِّجْس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف فى تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ، وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنيًّا كما مرَّ بنا ، ولكن كأنما ينطوى دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعى كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل على بن أبى طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه بمثل قوله :

رأْسُ ابن بنتِ محمدٍ ووصيِّه يا للرِّجال على قناةٍ يُرْفَعُ
والمسلمون بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّع

وهو يبدو فى شعره الشيعى إماميًّا وقد تشكك أبو العلاء فى تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به[1] ، ولعله محق فى تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوى على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده ، وكأن أموال «قم» هى التى دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

(١) رسالة الغفران ( طبعة أمين هندية ) ص ١٣٤ .

ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو فى بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى التمادى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إنى من القوم الذين سيوفُهم قتلتْ أخاك وشرَّفَتْك بمقعدِ

وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التى كان ما ينى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ، ويلقب بذى اليمينين ، فقال :

وذى يمينين وعَيْنٍ واحـــدهْ نقصان عينٍ ويمين زائده

وولىّ وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاّه بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثّر ذلك فى نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع فى هجائه وكيف كان يريشه سهاماً مصمية ، وكأنما خشى دعبل معرة هجائه إن هو عرض له بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة :

أَبا مَخْلَدٍ كُنَّا عَقِيدىْ مودَّةٍ هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
غَشَشْتَ الهوَى حتى تداعَتْ أصوله بنا وابتذلتَ الوصل حتى تقطَّعا
فلا تَعْذُلنِّى ليس لى فيك مطمعٌ تخرَّقْتَ حتى لم أَجد لك مرقعاً
فهَبْكَ يمينى استأْكلتْ فقطعتُها وجشَّمتُ قلبى صبرةً فتشجَّعا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر فى ولايته لخراسان ( ٢١٤ — ٢٣٠ هـ ) فكان يصله فى الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه . ولعله لم يتعرض لخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صبَّ عليه شُواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله :

ملوكُ بنى العباس فى الكُتْب سَبْعَةٌ ولم تأْتنا عن ثامنٍ لهمُ الكُتْبُ
كذلك أَهلُ الكَهْف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كَلْبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفى ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً فى هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفةٌ مات لم يحزنْ له أحدٌ وآخَرٌ قام لم يفرح به أحَـــدُ

وروى الرواة له فى المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوه باستيلاء مواليه من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة فى أيديهم ، بل أصبح لهم عبداً ، يقول :

ولستُ بقائلٍ قذَعاً ولكن لأمرٍ مَّا تعبَّدك العَبِيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم ، وكانت قصيدة الكميت الشيعى فى هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصاً فى تشيعه حقًّا لأعلَى صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد المخزومى فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركِّب فى نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كل من أسدى إليه صنيعة زوجتَه وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعاً ، يقول :

ما أكثر الناسَ ، لا ، بل ما أقلَّهمُ والله يعلم أنى لم أقل فَنَـــدَا
إنى لأَفتحُ عينى حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وممن هجاهم فأقذع فى هجائه مالك بن طوق التغلبى ممدوح أبى تمام ، ويقال إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله فى بعض قرى الأهواز . واختلف الرواة فى سنة وفاته ، فمنهم من جعلها فى عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفى لأوائل عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته وكان لا يزال يغوص على المعانى الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إن الكرامَ إذا ما أَسْهَلُوا ذكروا ... مَنْ كان يـأْلفهم فى المنزل الخشِن

وهو أحد مَـنْ برعوا لعصره فى علم الشعر ونقده ، مما جعله يؤلف فى أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء فى كتاباتهم .

## ديك (١) الجن

هو عبد السلام بن رَغْبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميما من أهل مُؤْتَـة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفِهْرى صاحب معاوية . ويقول الجهشيارى إن جَدّ ديك الجن حبيب ابن عبد الله كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور . ووُلد ديك الجن لأبيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَـبْـرَحْ نواحىَ الشام ولا وَفَد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعًا بشعره ولا متصدياً لأحد ، وكان يتشيع تشيعًا حسناً ، وله مراث كثيرة فى الحسين بن على منها قصيدته :

يا عَيْنُ لا للغَضا ولا الكثُبِ ... بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَب

وهى مشهورة عند الخاص والعام ويُناح بها » ، وله عدة أشعار فى هذا المعنى . ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن على الهاشمى وأخيه جعفر فى سَلَمْيَة ( من أعمال حمص ) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد برَّح به الحزن حين توفى أحمد وأبنَه فى قصيدة طويلة معزّيا بها أخاه جعفراً ، وقيل بل معزياً له عن زوجته ، وهى تصور غلوه فى التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة ، ومن ثَمّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسية فى رأى شيعتهم من مثل قوله :

نحن نعزّيك ومنك الهُدَى ... مُسْتَخْرَجٌ والنورُ مُسْتَقْبَلُ

نقول بالعَقْل وأنت الذى ... نـأْوِى إليه وبه نعقِلُ

---

(١) انظر فى ترجمة ديك الجن وأخبار وأشعاره الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٤/٥١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى بدار الثقافة ببيروت ، وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحى والدرويش طبع حمص وما نقلاه فى مقدمته عن كتابى الكشكول للعاملى وتزيين الأسواق للأنطاكى .

وأنت علاَّمُ غيوبِ النَّثَا يوماً إذا نَسْأَل أَو نُسْأَلُ[١]
نَحن فداءٌ لك من أُمَّةٍ والأَرضُ والآخر والأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفى فبكاه بكاء حاراً . وكان يضمُّ إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً فى الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاكًّا فى البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله فى شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إن كان عُرْفُك مذخوراً لذى نَسَبٍ فَاضْمُمْ يديك فإنى لست بالعربى[٢]
إنى امروٌ بازِلٌ فى ذِرْوَتَىْ شَرَفٍ لقيصرٍ ولكسرى مَحْتِدى وأَبى[٣]

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان فى أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تَقْوَى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يَرْعَوِى ولا يَزْدَجِر ، ومن طريف نعته للخمر وساقيتها قوله :

تسقيك كأْسَ مُدامةٍ من كفِّها ورديَّةٍ ومدامةً من ثَغْرِها

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشُغِف بها حُبًّا ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حبًّا بحب ، وأسلمت واقترنت به ، وعاشا مدة هانئين ، وهو سادر فى مجونه وغَوايته . وكان ذلك — فيما يقال — يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسولت له نفسه أن يرصد له فى إحدى أوباته من سَلَمْيَة مَنْ يرمى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندرى كيف صَدَّق ذلك ، وقد مضى قالةُ السوء يزيدون فى وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقضت نَحْبها ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، نَدْبَ قلبٍ مزَّقه الألم والندم ، بمثل قوله :

رَوَّيْتُ من دمها الثَّرَى ولطالما رَوَّى الهوى شَفَتَىَّ من شفتيها

---

(١) النثا : الخبر .
(٢) العرف : المعروف .
(٣) البازل : الكامل فى التجربة . المحتد : الأصل .

وقوله :

كنتِ زَيْنَ الأَحياء إذ كنت فيهمْ ثم قد صِرْتِ زين أهل القبورِ

وقوله :

قَمَرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ لبَلِيَّتى وجَلوتُه من خِدْرِهِ
عهدى به مَيْتاً كأَحسن نائمٍ والحُزْنُ يَسْفَحُ عبرتى فى نَحْرِهِ

وكان يتعلّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكه واتهامه ، ثم توسعت فى القصة ، فجعلته يراهما فجأة فى بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلهما وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ فى الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبّلا لهما ، ثم أخذ يصبُّ الخمر وهو يصبُّ دموعه منشداً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزنًا وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُعْنَى بشعره ويروِّى فيه ، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين فى أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبى تمام والبحترى ومَنْ كانوا يُعْنَوْن فى شعرهم بالبديع . وليس من شك فى أن أروع أشعاره ما نظمه فى بكاء صاحبته ، متفجعاً متحسراً نادمًا كما لم يندم أحد ، وما زال يردِّد ذلك حتى توفّى سنة ٢٣٥ للهجرة .

## ٣

### شعراء البرامكة

مرَّ بنا فى الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذى فى بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك فى قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التى قوّضت حكم بنى أمية . ونرى السفاح يتخذه وزيرا له ويقيمه على بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدى يقربانه منهما ويولِّيانه الولايات والأعمال الجليلة . وما زال عندهما فى حظوة حتى توفِّى سنة ١٦٦ للهجرة . وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة فى إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدى ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل فى ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد فى شهر المحرم التالى أرضعت كل منهما ابن صاحبتها ، فكانا أخوين فى الرضاع . ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدى أى سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدِّباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شئونه ، حتى إذا توفى المهدى وخلفه الهادى وفكر فى تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعًا ، فتوفى الهادى وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده فى جميع شئون الدولة وسلّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقى ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقية .

وكان يحيى عاقلا حصيفاً يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة، فمضى كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع يَصْبغ نظم الدولة السياسية والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يُعْنَى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتى لتُرْوَى فى ذلك روايات تشبه الأقاصيص ، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثا منهلّة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يَشْركون الرشيد فى جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم فى بغداد إلا ودبّج فيهم بعض مدائحه ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، وممن كان يختص بهم نُصَيْب الأصغر ، وله فى يحيى كلمة طارت أبياتها فى الآفاق من مثل قوله (١) :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغانى (ساسى) ٣٤/٢٠ والجهشيارى ص ٢٠٣ .

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهةَ أهل الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر [١] :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ  فياطيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رحلةٌ فى كل عامٍ إلى العِدا  وأخرى إلى البيت العتيقِ المُستّرِ
إذا نزلوا بَطْحاءَ مكة أشرقتْ  بيحيي وبالفضل بن يحيي وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلا لجودٍ أكفُّهم  وأقدامُهم إلا لأعوادِ مِنْبَرِ
إذا رامَ يحيي الأمرَ ذلَّتْ صِعابُه  وناهيك من داعٍ له ومدبِّرِ

وممن لهج بمديح يحيي وابنيه أبو قابوس الحِيرى النصرانى ، وفى يحيي يقول مصوراً بِرَّه وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده [٢] :

رأيت يحيي أتمَّ اللهُ نعمتَهُ  عليه يأتى الذى لم يأته أحَدُ
ينسى الذى كان من معروفه أبدًا  إلى الرجال ولا ينسى الذى يَعِدُ

وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيي ويُخَصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة وتقريظ وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه [٣] :

إذا قِيلَ : مَنْ للنَّدَى والعُلا  مِنَ الناس قيل الفتى جعْفَرُ
ومـا إن مدحتُ فَتًى قبله  ولكنْ بنو بَرْمكٍ جَوْهَرُ

وفيه تقول عنان جارية الناطفى [٤] :

بديهتُهُ وفـكرتُهُ سواءٌ  إذا التبست على الناس الأُمورُ

وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ، وتكاثرت مدائحهم فيه ، وصوَّر ذلك بعض الشعراء فقال [٥] :

ما لقينا من جود فَضْل بن يحيي  ترك الناسَ كلَّهم شعراءَ

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .
(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .
(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤
(٥) الجهشيارى ص ١٩٥ .

علَّم المُفْحَمِين أَن ينظموا الأَشْـ عارَ منَّا والباخلين السَّخَاءَ

وممن أكثر من مديحه نُصَيْب الأصغر وفيه يقول واصفاً جوده الغَدِق[١] :

جادَ الربيعُ الذى كُنَّا نؤمِّلُهُ فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِعُ

وفيه يقول سعيد بن وهب[٢] :

مَدَحَ الفضلُ نفسه بالفعالِ فعَلا عن مديحنا بالمقالِ

ويقول إسحق الموصلى من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغنَّاه بها ، فطرب طرباً شديداً[٣] :

لو كان بينى وبين الفضل معرفةٌ فضل بن يحيى لأَعدانى على الزَّمَنِ

هُو الفتى الماجدُ الميمونُ طائرهُ والمشترى الحمدَ بالغالى من الثمن

وكان أخوه جعفر يجفو أبا نواس فصبَّ عليه شواظا من هجائه ، أما هو فأدناه منه وعظم نائله إليه ، مما جعله يلهج بالثناء عليه ، وفيه يقول[٤] :

أَوْحَدَهُ اللهُ فما مِثْلُهُ لطالبٍ ذاك ولا ناشدِ

ليس على الله بمستنكَرٍ أَن يجمع العالَم فى واحد

وممن كان ينقطعُ إليه أبو النَّضير أحد الشعراء المغنين ، وفيه وفى آ له يقول[٥] :

إذا كنتَ من بغداد منقطع النَّدَى وجدتَ نسيمَ الجود من آل بَرْمَكِ

وما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة فى سنة ١٧٠ حتى أول صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحَبْس أبيه وأخيه ، وظلا فى الحبس إلى أن ماتا ، أما يحيى فمات فى سنة ١٩٠ ومات الفضل فى سنة ١٩٢ . وكان طبيعيًّا أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً ، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنية ، ومن طرائف مراثيهم قول منصور النمرى[٦] :

---

(١) أغانى ( ساسى ) ٢٠ / ٣١ .
(٢) أغانى ( ساسى ) ٢١ / ٧١ .
(٣) الجهشيارى ص ١٩١ .
(٤) الحيوان للجاحظ ٣ / ٦٣ .
(٥) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١١ / ٢٨٦ .
(٦) مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٤٩٦ .

أيدى بنى برمكٍ لدينا ... تبكى عليهم بكلِّ وادِ
كانتْ بهم بُرْهةً عروسا ... فأَضحتِ الأَرض فى حِدادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرَّقاشى منقطعاً إليهم ، وطالما نوَّهوا باسمه وأجزلوا فى عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجِذْع فوقف يبكى أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول[١] :

أَما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعَيْنٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنا حول جِذْعك واستلمنا ... كما للناسِ بالحَجَرِ استلام
وما أَبصرتُ قبلك يابن يحيي ... حُساماً حَتْفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ... ودولة آل برمكٍ السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع فى مراث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأشجع بن عمرو السُّلَمِىّ .

## أبان[٢] بن عبد الحميد[٣] اللاحقى

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعذَّل بن غَيْلان ، واستطار بينهما الشَّرُّ ، ونرى المعذَّل فى هجائه يتهمه بأنه مانوى[٤] زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساساً فى حياته ، وسنرى الجاحظ لا ينفيها عنه ، بل يثبتها متعجباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئاً من العكوف على اللهو والمجون شأن أخدانه من الشعراء . وممن هجاهم أيضاً فى باكورة حياته بعض

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٣٤ وانظر له مرثية أخرى فى غرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبان وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٧٣ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوى ص ١ – ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٧/٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٧

(٣) فى الفهرست لابن النديم : حميد . انظر ص ١٦٣ .

(٤) الصولى ص ٧ .

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يُرْوَى من هجائه أنه كان فى جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقفية يقال لها عَمَّارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرها منه :

لما رأيتُ البَزَّ والشَّارَهْ والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّر يُرْمَى بهِ من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا طَبْلاً ولا صاحبَ زمَّارَه
قلت لماذا ؟ قيل أعجوبةٌ محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَه
لا عمرَّ الله بها بيته ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأتْ فيه ؟ وماذا رجت ؟ وهْى من النسوان مختاره
أَسْوَدُ كالسُّفُّود يُنْسَى لدى التَّـ نُّور بل مِحْراكُ قَيَّارَه
يُجْرِى على أولاده خمسةً أرْغفةً كالرِّيش طيَّارَه
وأهله — فى الأرض من خوفه إن أفرطوا فى الأكل — سيَّاره

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فـرَّت على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولا يكاد يُظلّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تـوّاً إلى الفضل[1] بن يحيى ، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صوَّر فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التى كانت تُشْتَـرَطُ لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغْية الأَمير وكنزٌ من كنوز الأَمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ ناصحٌ راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعرٌ مفلقٌ أخفُّ من الريـ شةِ مما تكون تحت الجناحِ
وظريفُ الحديث من كلِّ فَنٍّ وبصيرٌ بترَّهات المـلاحِ
كم وكم قد خَبأْتُ عندى حديثًا هُوَ عند الملوك كالتُّفَّاحِ

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى فى القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشئونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل وخفَّ على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعًا حتى صار صاحبهم وحظيَّهم . وقد نوَّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوى بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفى ذلك يقول أبان مخاطبًا الرشيد :

هنيئا أميرَ المؤمنين لك الظَّفَرْ فقد تَمَّتِ النُّعْمَى وقد ساعد القَدَرْ
أتاك بيحيى الفضلُ سلمًا يقوده مُقِرًّا ولولا يُمْنُ جَدِّك ما أَقَرّْ

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يستره ولا يظهره ، فى أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته فى أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسى فى الخلافة ورده على العلويين ردًّا عنيفاً ، فاسْلُكْ طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحلُّ ذلك . ثم حَليت فى عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه مدحة طويلة يقول فى تضاعيفها :

نشدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مسلمًا أَعُمُّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمٌّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً لديه أم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَبْ
وأيهما أولى به وبعهدِهِ ومن ذا له حَقٌّ التراث بما وجب؟
فإن كان عباسٌ أَحقَّ بتلكمُ وكان عليٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأَبْناء عباسٍ همُ يرثونه كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قد حَجَبْ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدى الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مَدْحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلَّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره فى البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التى يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء،فأمر له بدرهم ناقص ، وفى روايةأنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلا . ويُقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيي بن خالد كان قد تقدَّم إلى أبى نواس بنظم كليلة ودمنة فزيَّن له أبان أن يستعفى يحيي من النهوض بهذا العمل المضنى ، ثم حبس نفسه فى بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر فى أربعة أشهر بالغا بها أربعة[1] عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيي بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفى رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصُّ منه بهجاء مرير ، وردَّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائمًا هو الذى يكثر فيها من السهام المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ فى حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد وغيرهم من المجان ، ولا ينفى الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفى أن يوضع مع مطيع وأمثاله فى كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحَّ عقلا من هؤلاء وهم صحاة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبى نواس : « كان فى جميع أحواله أرفع طبقة من أبى نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شىء على شهرة شعره ، ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أبو نواس بن هانى ... وأُمُّه جُلُّبانِ[2]

والناسُ أفطنُ شىء ... إلى حروف المعانى

إن زدت بيتا على ذى ... ما عشتُ فاقطعْ لسانى

وهى أبيات لاذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلَّ علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحَّ من علته ، وخرج فجلس على بابه ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

---

(١) فى ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .

(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم أم أبى نواس ، وكأن أبانا يتخذ من ذلك مغمزاً له .

مات . وكان يحسن الرثاء ، ومرثيته التى رواها الصولى فى سوار بن عبد الله قاضى البصرة من أجود المراثى ، وهى طويلة طولا مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان فى الشعر نظمه لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — أرجوزة مزدوجة فى الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى فى التاريخ الفارسى وقصيدة فى نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكّن لشيوع الشعر التعليمى فى العربية ، ونكتفى هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور فى كليلة ودمنة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَنِئَ النَّفْسِ — يَرْضَى من الأَرفع بالأَخَسِّ
كمثل الكلب الشقىِّ البائس — يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهل الفضل لايرضيهمُ — شىء إذا ما كان لا يَغْنيهمُ
كالأَسد الذى يصيد الأَرْنَبا — ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَبَا[1]
فيُرْسِلُ الأَرْنَبَ من أَظفارهِ — ويتبع العَيْرَ على أدبارهِ

وتطّرد أرجوزته فى كليلة ودمنة وفى كثير من الموضوعات التعليمية التى عُنى بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذى اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومَنْ تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز فى التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالمًا ظريفاً ، مِنْطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه . . وهو الذى نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولى لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظنًّا أنه ظل مشغولا بعد البرامكة بشعره التعليمى ، حتى توفى سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يُؤْثَرْ له شعر فى مديح الأمين ولا فى مديح المأمون وقواده ووزرائه .

---

(١) العير : حمار الوحش .

## أشجع [1] بن عمرو السُّلمى

من بنى الشريد السُّلَمِيِّين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضًا ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومَرْباه بالبصرة ، وتفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتْ قيسٌ بطيبِ العناصِر ... على الناس طاطا رَأسَه كلُّ فاخرِ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور ( ١٣٦ – ١٥٨ هـ ) فمدح ابنه جعفراً ، ويقال إن الذى وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمى ، وله فيه وفى أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكد يبزغ عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زُبَيْدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسْنَى جوائزه ، ويقال : بل الذى وصله به جعفر بن يحيى البرمكى . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان فى الرَّقَّة حين انتقل اليها من بغداد سنة ١٨٠ لينفر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعى ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغانى عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين ، وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكٌ أَبوه وأُمُّه من نَبْعَةٍ ... منها سراجُ الأمة الوَهَّاجُ [2]

---

( ١ ) انظر فى أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٨٥٧ والأغانى ( طبعة الساسى ) ١٧ / ٣٠ والأوراق للصولى( قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٥ والمرشح للمرزبانى ص ٢٩٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٩٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٥ والمرزوقى على الحماسة ص ٨٥٦ .

( ٢ ) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسى والسهام ، والاستعارة واضحة .

شربتْ بمكة فى رُبَى بَطْحائها ماءَ النبوة ليس فيه مِزاجُ(١)

فأمرتْ له أمه زُبَيْدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه وأمه من بنى هاشم إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين » . ومعروف أن الأمين ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا فى سنة ١٧٤ وفى ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من مدحه فى حربه لنقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعةُ المأمونِ آخذةٌ بعِنان الحقِّ فى أُفقِهْ
لن يفكَّ المرء رِبْقَتَها أو يفك الدين من عُنقه
وله من وجـه والدهِ صورةٌ تَمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلّقه فى سقف الكعبة سنة ١٨٢ فانبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكّده فى قصيدة طرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت فى ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحي البرمكى وأبيه وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنَس بن أبى شيخ كاتب جعفر هو الذى وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحي وكان أول ما أنشده :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعاله فى الناس مثل مذاهب الشَّمْسِ
ملكٌ تسوس له المعالى نَفْسُه والعقلُ خيرُ سياسة النَّفْس

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلس فى أحد قصورهم بحى الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصورُ الصالحيَّة كالعَذَارى لَبِسْنَ ثيابهن ليوم عُرْسِ
مطلاَّتٌ على روضٍ كستْه أيادى الماء وشياً نَسْجَ غَرْسِ
إذا ما الطَّلُّ أثَّر فى ثَراه تنفَّس نَوْرُهُ من غير نفسِ(٢)

(١) بطحاء مكة : واديها بين الربى والجبال . وكانت تنزله فى الجاهلية عشائرها الشريفة .

(٢) الطل : الندى والمطر الخفيف .

فتَغْبقه السماءُ بصِبْغ وَرْسٍ وتَصْبحه بأَكؤس عَيْن شمسٍ (١)

وأعجب جعفر بحسن بديهته . وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه يحيى وأخاه الفضل ، ويغدقون جميعًا عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله فى يحيى :

كفانى صروفَ الدهر يحيى بن خالدٍ فأَصبحتُ لا أرتاع للحدثانِ
كفانى ـ كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ ـ طِلابَ فلانٍ مرَّة وفلان
فأَصبحتُ فى رَغْدٍ من العيش واسعٍ أقلِّب فيه ناظرى ولسانى

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية فى الشام لسنة ١٨٠ وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرَّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجْرى عليه فى كل يوم جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أَصلحتَ أمر الشام محتسبًا ورتقت ما فيها من الفَتْقِ
ما كان يُدْرَكُ بالقتال ولا بالمال ما أدركت بالرِّفْقِ

وعزم الرشيد فى نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبَّج فيه إحدى روائعه وفيها يقول :

يريد الملوك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ
وليس بأَوسعهم فى الغنى ولكنَّ معروفَه أَوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع
بديهتُه مثلُ تدبيره متى رُمْتَهُ فهْو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع فى أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن الرشيد رأى حاجته إليه أمسّ من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

---

(١) تغبقه : من الغبوق وهو شرب الخمر فى المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبحه : من الصبوح وهو شرب الخمر فى الصباح .

ولا يلمُّ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفى يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أَخطأَه فلسنا نبالى الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيي فما أرى أحدًا يَأْنَسُ إلا بذكره الحَسنِ
أَوحشتِ الأَرض حين فارقها من الأَيادى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإِياب لانصدعتْ قلوبنا بعده من الحَزَنِ

ويروى صاحب الأغانى أن جعفرا ولاه عملا ، فرفع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مثَل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزَّتْ سنانَ القول منى رجالُ وقيعةٍ لم يعرفونى
أطافوا بى لديك وغبْتُ عنهم ولو أَدنيتنى لتجنَّبونى

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأَنما أَيامهم كلها كانتْ لأَهل الأَرض أَعيادا

وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتَّابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صَبيح ، ومن جيد قوله فيه :

له نظرٌ لا يغْمض الأَمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمزَّقُ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء » وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حارًّا ، من مثل قوله :

برقتْ سماؤك فى العدوِّ وأمطرتْ هَاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ(١)
وعلا عدوَّك يا بن عمِّ محمد رَصَدان : ضوء الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غَفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الأَحلام

ولما بلغ هذا البيت فى القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح فى يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أَعيادًا وتطويها تَمْضى بها لك أَيَّامٌ وتُمْضيها
ولْيَهْنك الفتح والأَيامُ مقبلة بالنصر والعزِّ معقودًا نواصيها
أَمستْ هرقلة تهوى من جوانبها وناصرُ الله والإسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ، قاسماً سنيه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً فى قصيدة استقبله بها فى يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحجَّ والجهاد فمايَنْ ـفكُّ من سَفْرتين فى كل عامِ
سَفَرٌ للجهاد نحو عدوٍّ والمطايا لِسَفْرة الإحـــرام(٢)
طَلَبَ الله فهْو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السَّوَام
فيداه يَدٌ بمكة تدعو ه وأُخرى فى دعوة الإسلام

وله مدائح مختلفة فى الفضل بن الربيع . وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح ، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن فى الصدور ، على نحو ما يلقانا فى رثائه لمحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

---

(١) الهام : الرءوس .
(٢) جعل المطايا أى الإبل رمزاً للحج والجياد رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح : إذا مرت واستمرت .

أَنْعَى فتى الجود إلى الجود ... ما مثلُ مَنْ أنعى بموجود

أَنْعَى فَتًى مصَّ الثرى بعده ... بقيَّةَ الماء من العـود

فالأرض يَبِسَتْ أشجارها بموته . ومن مراثيه الرائعة التى رواها أبو تمام فى حماسته مرثيته فيمن يسمى ابن سعيد وفيها يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مَشْرقٌ ... ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ

وما كنت أدرى ما فواضلُ كفِّه ... على الناس حتى غَيَّبَتْه الصَّفائح (١)

فأَصبح فى لَحْدٍ من الأَرض مَيِّتاً ... وكانتْ به حَيًّا تضيق الصحاصِحُ (٢)

سأَبكيك ما فاضتْ دموعى فإن تَغِضْ ... فحسبك منى ما تُجِنُّ الجوانح (٣)

وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعد موتك فارح

كأَن لم يمتْ حَىٌّ سواك ولم تقم ... على أَحدٍ إلا عليك النوائح

لئن حسنتْ فيك المراثى وذكرُها ... لقد حَسُنَتْ من قبل فيك المدائحُ

وغزله رقيق وله خمريات قليلة . وواضح مما أنشدناه له أنه كان غزير المعانى رشيق الأسلوب وأن قصائده الجياد تعد من عيون الشعر فى هذا العصر ودرره النفيسة ، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين فى سنة ١٩٨ إذ روى له الصولى قصيدة فى مديح طاهر بن الحسين الذى حاصره إلى أن ظُفِر به وقُتِل صَبْراً ، وفى ذلك يقول مخاطباً له :

سلبتَ رِدَاءَ الملك ظالمَ نفسِه ... وصنتَ الذى ولَّاك قَصْمَ الجبابرِ

وأكبر الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل .

---

(١) الصفائح : الحجارة العراض فى سقف القبر .

(٢) الصحاصح : الأرض الواسعة المستوية .

(٣) تجن : تضمر . الجوانح : الضلوع .

## ٤

### شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد فى هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفى بأكثرهم تداولا على ألسنة الشعراء ، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدى ومهجو بشار ممدَّحا لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدى ، وصوّروا ذلك فى أشعارهم من مثل قولى أبى حنش النُّمَيْرى[1] :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وجُنِّبْتَ الرَّدَى فلنبكينَّ زمانك الرَّطْبَ الثَّرَى

وقول أبى الشِّيص مخاطباً المهدى[2] :

أَبلغْ إمام الهُدَى أَن لستَ مصْطنعًا للنائبات كيعقوبَ بن داودِ
لو تبتغى مثله فى الناسِ كلِّهم طلبتَ ما ليس فى الدُّنْيا بموجود

واستوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح ، وكان غيثاً مدراراً ، وممن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحِمَّانى التميمى وفيه يقول[3] :

ولائمةٍ لامتك ـ يا فَيْضُ ـ فى النَّدَى فقلتُ لها لن يَقْدَحَ اللَّوْمُ فى البَحْر
أَرادتْ لِتَنْهَى الفيضَ عن عادة النَّدَى ومن ذا الذى يَثْنِى السحابَ عن القَطْرِ
مواقعُ جود الفَيْض فى كل بَلْدَةٍ مواقعُ ماءِ المُزْن فى البلد القَفْر
كأَنَّ وفودَ الفيض لما تحمَّلوا إلى الفيض لاقَوْا عنده ليلةَ القَدْرِ

ومرَّت بنا مدائح الشعراء فى البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد فى وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوَّه

(١) المرزوقى على الحماسة ص ٩٤٦ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦٣ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ١٣٤ .

به كثيرون وفى مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول[١] :

إذا ما كنت متخذًا خليلا فمثل الفَضل فاتَّخِذِ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيماً ويُعْطى من مواهبِه الجزيلا
أرانى حيثما يَمَّمتُ طرفى وجدتُ على مكارمه دليلا

ولإسحق الموصلى أشعار فيه لحَّنها وغنَّى فيها ، وممن يُسْلك فى مُدَّاحه أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السُّلَمى ، ومنصور النَّمَرِى ، وفيه يقول[٢] :

هو الأَوْحَدُ فى الفَضْل فمـا يُعْرَفُ ثانيـهِ

ونلتقى بعده بالفضل والحسن ابنى سهل وزيرى المأمون ، وكانا جوادين ممدَّحين ، وقد نوَّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلا ، وفيه يقول مشيراً إلى تدبيره الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين[٣] :

أَقمتَ خلافةً وأَزلْتَ أخرى جليلٌ ما أَقمتَ وما أَزلتا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلا ، فكثرت أمداح الشعراء فيه ، وفى مقدمتهم أبو تمام وأبو العَمَيْثَل وأبو فرعون الساسى ومحمد بن عبدالملك الزيات ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول[٤] :

به تُجْتَدَى النعْمَى وتُستدرك المنى وتُسْتكمل الحسنى وتُرْعَى الأَواصِرُ
ولما رأَى الله الخلافة قد وهتْ دعائمها والله بالأَمر خابِرُ
بنى بك أَركانًا عليها محيطةً فأَنت لها دون الحوادث ساتِرُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمْدَحْ كما مُدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوَّه أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد الممدَّحين

(١) أغانى ٤/٦٧ .
(٢) أغانى ١٣/١٥٠ .
(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٧/١٤٤ .

وفى طليعتهم مَعْن بن زائدة الشيبانى والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبى حفصة كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، ومن مدّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مرثية بديعة أنشدنا قطعة منها فى غير هذا الموضع . وطبيعى أن يكثر فى هذا العصر مديح ولاة البصرة والكوفة . ويتردّد مديح الأولين فى ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردّد الثانون فى أشعار الكوفيين ترددا أوسع من أن يُحْصَى ويستقصى . وكان فى كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكفى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . وقد رحل إليها غير شاعر مقدِّمًا مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بجودهم ، ظافراً منهم بالصلات السنية ، ومن ولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرَّقِّى ، وقد قدم عليه فى ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذى أَضحْىَ وليس له نظيرُ

لو كان مثلَك آخَرٌ ما كان فى الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه فى هذه القصيدة عشرين ألف دينار[1] . غير ما أعطاه فى قصائده الأخرى . وقد عرضنا فى حديثنا عن أبى نواس لرحلته إلى الخصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من بِرِّه . كما عرضنا فى حديثنا عن أبى تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحَضْرمى . وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصوّرنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاة دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرّت بنا أيضًا مدائح دعبل للمطلب الخزاعى حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك فى أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاة تغنّى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما فى خراسان غير شاعر ، ومن مدّاح طاهر الرقاشى وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصينى ، على نحو ما يصوِّر لنا ذلك ابن المعتز ،

(١) أغانى (دار الكتب) ٣ / ٢٨٩ وما بعدها .

ويقول فى ترجمة عوف بن محلِّم الخزاعى : «كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدّثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصَّه واختاره لمنادمته ، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حَضَر . . ومما سار له فى الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر فى حرّاقة(١) يَنْحدر إلى دار الخليفة ، فقال رافعًا صوته :

عجبت لحرَّاقة ابن الحُسَيْنِ كيف تسير ولا تَغْرَقُ
وبحران : من تحتها واحدٌ وآخَرُ من فوقها مُطْبِقُ
وأعجب من ذاك عيدانُها وقد مسَّها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجَها وضياعها ، فوهبه كله وفرّقه فى الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدّمتهم مُعَلَّى الطائى وله يقول(٢) :

لو أصبح النِّيلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثقالِ
تَفُكُّ باليُسْر كفَّ العُسْرِ من زمنٍ إذا استطال على قومٍ بإقلالِ
وما بثثتَ رَعِيلَ الخَيْل فى بلدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجالِ

وقد لزمه فى ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبى العَمَيْثَل وعوف بن محلم الخزاعى شاعرى أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة(٣) :

يا بنَ الذى دان له المشرقانْ وأُلبِسَ الأَمنَ به المغربانْ

وهو ممدوح على بن جبلة وأبى تمام والعتَّابى ، وله يقول(٤):

ودُّك يكفينيك فى حاجتى ورؤْيتى كافيةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كَفَّاك لى بيتُ مالْ

وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوّهوا بهم طويلا مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبى العتاهية فى عمر بن العلاء الذى قضى على المحمرة بجرجان لعهد المهدى

---

(١) الحراقة : ضرب من السفن .
(٢) أغانى ( دار الكتب ) ١٢/١٠٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .
(٤) أغانى ١٣/١١٧ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمْدَحْ فى عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن مزيد الشيبانى ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرىّ (١) :

لا تقربنَّ يزيدًا عند صَوْلتِهِ ... لكنْ إذا ما احْتَبَى للجود فاقترب

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمى . ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتصم أبو دُلَف العِجْلى ، يقول أبو الفرج فى ترجمته له : « محله فى الشجاعة وعلوّ المحل عند الخلفاء وعظم الغَناء فى المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه (٢) » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُّ على الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحه ، وممن كان ينقطع إليه على بن جبلة وأبو الأسد الحِمَّانى التميمى وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوّراً شجاعته (٣) :

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ ... يومَ اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو أن طول قناتهِ ... ميلٌ إذن نظمَ الفوارسَ ميلا

وله يقول (٤) :

فكَفُّك قوسٌ والنَّدَى وَتَرٌ لها ... وسَهمك فيه اليُسْر فارْمِ به عُسْرِى

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا فى البلاد فلم نجدْ ... أحدًا سواك إلى المكارم يُنْسَبُ

وهو من مدَّاح أبى تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جلَّى فى حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون فى مقدمتهم الأفشين وخالد ابن يزيد بن مزيد وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ولأبى تمام فيهم أمداح رائعة صوَّرنا أطرافًا منها فى ترجمته . ونحن نقف قليلا عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم: أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التَّيْمى وعلى ابن جبلة والخُرَيْمى .

---

(١) أغانى ١٣/١٥٥ .
(٢) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .
(٤) ابن المعتز ص ٢١٩ .

## أبو الشيِّص[١]

غلبَ عليه لقبه أبو الشيِّص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزين وهو ابن عم دِعْبل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل فى شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس ، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعى أمير الرَّقَّة فمدحه بأكثر شعره ، فقلما يُرْوَى له فى غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

يا عُقْبَ شَطًّا بَحْرك الفَيَّاضِ ... إن الأَمانَ من الزمان ورَيْبهِ
فَعْم الجداول مُتْرَع الأَحواض[٢] ... بَحْرٌ يلوذ المعتفون بِنَيْلهِ
لم يَخْشَ من زَلَلٍ ولا إدْحاضِ[٣] ... ثَبْتُ المقام إذا التوى بعدِّوه
لَيْثٌ يطوف بغابةٍ وغِياضِ[٤] ... غَيْثٌ توشحتِ الرياضُ عِهادَهُ
قانى القناة إلى الرَّدَى خَوَّاض ... ومشمرٌ للموت ذَيْلَ قميصِهِ

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومَدْح الأمين وله فى ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جوارٍ بالسَّعْد والنَّحْس ... فنحن فى وَحْشَةٍ وفى أُنْسِ
العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ ... فنحن فى مأْتمٍ وفى عُرْسِ
يضحكنا القائم الأَمين وتُبْ ... كينا وفاةُ الإِمام بالأَمسِ
بدران : بدرٌ أَضْحَى ببغداد فى الْ ... خُلْدِ وبَدْرٌ بطوسَ فى الرَّمْسِ[٥]

(١) انظر فى أبى الشيص وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦ / ٤٠٠ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٥/ ٤٠١ وفوات الوفيات ٢ / ٢٢٥ .

(٢) فعم : مملوء .

(٣) إدحاض : انزلاق .

(٤) العهاد : أول مطر الربيع . غياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف .

(٥) الخلد : قصر بناه المنصور ببغداد . الرمس : القبر .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس فى المشرق :

غَرُبَتْ فى المشرق الشمـ ـسُ فقُلْ للعَيْن تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شمسًا غربتْ من حيث تَطْلُعْ

ومن رائع مراثيه قوله يبكى بعض الأبطال وقد سقط صريعًا فى ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

ختلتْه المنون بعد اختيالٍ بين صَفَّين من قَناً ونِصالِ
فى رداءٍ من الصفيح صقيلٍ وقميصٍ من الحديد مُذَالِ(١)

وهو أحد من برعوا فى الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت فى الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله فى الغزل :

مهاةٌ ترتمى الأَلبا بَ عن قوسٍ من السِّحْرِ
لها طَرْفٌ يشوب الخَمْرَ للنُّدْمان بالخَمْرِ
عفيفُ اللَّحْظِ والإغضا ءِ فى الصَّحْوِ وفى السُّكْرِ

وقوله فى الخمر :

وعذراءَ لم تفترعها السُّقَاةُ ولا استامها الشَّرْبُ فى بَيْت حانى(٢)
ولم تزلِ الشمسُ مشغولةً بصَنْعتها فى بطون الدِّنانِ
ترشِّحها لأَثام الرِّجال إلى أَن تصدَّى لها الساقيانِ
عجوزٍ غَذَا المِسْكُ أَصداغها مضمَّخة الجلْدِ بالزَّعْفَرَانِ
يطوف علينا بها أَحْوَرٌ يداه من الكأْس مخضوبتانِ

وله فى المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التى يُطْرِف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعانى التى تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

---

(١) مذال : طويل الذيل .

(٢) استامها : ساوم على شرائها .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضِ ورمى سوادَ قرونه ببياضِ[١]

وقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيبُ وطوى الذوائبَ رأسُه المخضوبُ
نَشَر البِلى فى عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبيب

وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقات الحِسانِ
وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلات الدَّوانى
لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صَدْعَ الرِّداءِ اليَمانى

وعَمِيَ بأخرة من حياته ، فحزن حزنًا عميقًا ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما بأبيات مؤثرة ، تصور التياعه التياعًا شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّى بأدمعٍ هُتُنِ وواكفٍ كالجُمان فى سَنَنِ[٢]
على دليلى وقائدى ويدى ونور وجهى وسائِس البَدَنِ
أبكى عليها بها مخافةَ أَنْ تَقْرنَنى والظلامَ فى قَرَنِ

ولعل فى ذلك كله ما يصور براعته فى الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً إلى كثير من دقائق المعانى وروائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله وهو ثَمِل بالخمر سنة ١٩٦ للهجرة .

### عبد الله[٣] بن أيوب التيمى

كان يُكْنَى أبا محمد وهو من موالى بنى تَيْم ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى بغداد طلبًا لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

---

(١) الندوب : الكلوم والجراح .
(٢) هتن : غزيرة . واكف : سائل لاينقطع .
(٣) انظر فى عبد الله بن أيوب وأخباره وأشعاره الأغانى ( طبعة الساسى ) ١١٥/١٨ وانظر ٣١/١٧ و ٤٥ والحيوان ٥٠٥/٦ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٢ .

إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعًا ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكى وبنيه مائة ألف درهم ، وقد جلّى فى حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التى افترضها صاغرًا . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغْزَى نقض الصلح المعقود ، وحار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبَّج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمَّنها الخبر ، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقْفُورُ　　فعليه دائرةُ البَوَارِ تَدورُ
أَبْشِرْ أَمير المؤمنين فإنَّه　　فَتْحٌ أَتاك به الإِلٰهُ كَبِيرُ
نقفورُ ! إنك حين تَغْدر أن نأَى　　عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ　　هَبِلَتْك أُمُّك ما ظننت غرورُ
أبقاك حَيْنُك فى زواخر بحرِهِ　　فَطمَتْ عليك من الإمام بحورُ[(١)]

واهتز الرشيد طربا بشعره ونَثَر عليه الدُّرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقلة ، فافتتحها عنوة ، وذلّ نقفور وذلّت الروم .

ويقول صاحب الأغانى إن التيمى اتصل بيزيد بن مزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصوِّر مدائحه له ، وقد بكى فيه بطولته وذياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكًا ذريعًا حين اختطفه الموت ، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مراثى العصر :

أَحقٌّ أنه أَوْدَى يزيدُ　　تبيَّنْ أيها الناعى المشيدُ[(٢)]
أَتدرى مَنْ نعيتَ وكيف فاهتْ　　به شفتاك؟! كان بك الصَّعيدُ[(٣)]
أَحامى المجد والإسلام أَوْدَى　　فما للأَرض ويحك لا تَميدُ[(٤)]
تأَمَّلْ هل ترى الإسلامَ مالتْ　　دعائمُه وهل شاب الوليدُ

---

(١) الحين : الموت والهلاك .
(٢) أودى : مات .
(٣) الصعيد هنا : القبر .
(٤) تميد : تتحرّك وتهتز.

وهل شِيمَتْ سيوفُ بنى نِزارٍ  وهل وُضِعتْ عن الخيل اللُّبودُ(١)
وهل تَسْقى البلادَ عِشارُ مُزْنٍ  بِدِرَّتِها وهل يَخْضَرُّ عود(٢)
أَبَعْدَ يزيد تختزن البواكى  دموعـا أو تُصان لها خُدودُ
ومن عجبٍ قَصَدْنَ له المنايا  على عَمْدٍ وهنَّ له جنود
لقد عَزَّى ربيعةَ أَنَّ يومًا  عليها مثل يومك لا يعود

ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية فى قائده يبكى بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه .

ونرى التيمى بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجّج معه فى نقضه لعهد أخيه المأمون ، وله فى ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم . ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه فى الأمين بمثل قولـه :

نُصِرَ المأْمون عبد اللّـ  ـهِ لمـا ظلموهُ
نقضوا العهد الذى كا  نوا قـديماً أكَّدوه
لم يعامله أخـوهُ  بالذى أوصى أَبوه

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل ، وفيه يقول(٣) :

لَعَمْرُك ما الأَشرافُ فى كل بلدةٍ  وإن عظموا إلا لفَضْلٍ صَنائعُ
تَرى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعًا  إذا ما دَنا والفضل لله خاشع

وهو يُعَدُّ فى الخلعاء المُجَّان ، غير أن أشعاره فى الخمر متوسطة ، ويظهر أنه كفَّ عنها بأخرة من حياته ، وحَسُن سيرته ، وحَسُن إيمانه ، يشهد لذلك مثل قوله :

---

(١) شيمت السيوف : أغمدت .

(٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، يريد المزن المحملة بالأمطار ، الدرة : أصلها كثرة اللبن ويريد المطر الغزير .

(٣) قارن الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٢٠ بالأغانى ١٨ / ١٩٩ حيث ذكر أبوالفرج أن البيتين فى مديح الفضل بن الربيع .

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدينِ
وارغبْ إلى الله مما فى خزائنِه فإنما هو بين الكاف والنُّونِ

و واضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطفى اللفظ ، سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفى سنة ٢٠٩ للهجرة .

## على[١] بن جَبَلة

اشتهر بلقبه العَكَوَّك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحىّ الحربية فى بغداد ، وكان ضريراً ، وفى بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفى روايات أخرى أنه فقد بصره فى صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان ما استبانت فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس بين أيدينا شىء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أعطيتَنى يا ولىَّ الحق مبتدئاً عطيَّةً كافأَتْ مَدْحى ولم ترنى
ماشِمْتُ بَرْقك حتى نِلْتُ رَيِّقه كأنما كنتَ بالجَدْوَى تبادرنى[٢]

وأهم ممدوحيه حُمَيد بن عبد الحميد الطوسى وأبو دُلف العِجْلى ، وله فى أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه فى كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولاهما فى يوم عيد والثانية فى يوم نيروز ، وفيها يقول :

حُمَيْدُ ياقاسم الدنيا بنائلهِ وسَيْفِه بين أهل النَّكْث والدينِ

---

(١) انظر فى على بن جبلة وأخباره وأشعاره ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ، ٤٣٣ والأغانى ( طبع الساسى ) ١٨/١٠٠ وكتاب الورقة لابن الجراح ( طبع دار المعارف ) ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٩ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٠٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢/٥٣ وشذرات الذهب ٢/٣٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والريق : أول الغيث . الجدوى : العطاء .

أنت الزمان الذى يجرى تصرُّفه ... على الأَنام بتشديدٍ وتليينِ
لو لم تكن كانت الأَيام قد فنيتْ ... بالمكرمات ومات المجد مُذْ حينِ
صوَّرك الله من مجد ومن كرمٍ ... وصوَّر الناس من ماءٍ ومن طين

وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبى غانم كناية عن بطولاته وانتصاراته المدوية فى الحروب :

دِجْلَةُ تَسْقِى وأَبو غانمٍ ... يُطْعم مَنْ تَسْقِى من الناسِ
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهُدَى ... رَأْسٌ وأَنت العين فى الرَّاس

وقولــه :

إنمـا الدُّنْيا حُمَيْدٌ ... وأَياديــه الجِسامُ
فإذا ولَّى حُمَيْدٌ ... فَعلى الدنيا السلام

وعثَّر القدر بمحمد بن حميد فى حروبه مع بابك ، فخرَّ صريعًا فى ساحة البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامى وجداً شديداً ، ورثاه أبو تمام بمراثٍ رائعة عرضنا لها فى حديثنا عنه ، ولعلى بن جبلة مرثية بديعة فيه ويقال بل هى فى أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحترى وأبا تمام سلخا فى مراثيهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تَجْزَعُ ... وما صاحبُ الأَيام إلا مفجَّعُ
أُصِبْنا بيومٍ فى حُمَيْد لو انَّهُ ... أَصاب عروش الدهر ظلتْ تضعضع
وكنت أَراه كالرزايا رُزِئْتُها ... ولم أدر أَن الخلق تبكيه أَجمع
نعــاءِ حميدًا للسرايا إذ غدتْ ... تُذاد بأَطراف الرماح وتوزَعُ[1]
كأَن حميدًا لم يقد جيش عسكرٍ ... إلى عسكر أَشياعُه لا تروَّع
ولم يبعث الخيلَ المغيرةَ بالضحى ... مِراحا ولم يرجع بها وهْى ظُلَّعُ[2]

---

(١) نعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع : تكف .

(٢) ظلع : من الظلع وهو العرج .

رواجـــع يحملْنَ النِّهابَ ولم تكن　　كتائبه إلا على النهب ترجعُ
هوى جَبل الدنيا المنيعُ وَغَيْثُها الـ　　ـمَرِيع وحاميها الكميُّ المشيَّع[١]

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكد يبقى فيه شيئًا لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسى ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنْدَى أناملُهُ　　كانبلاج النَّوْء عن مَطرهْ[٢]
مُسْتَهلٌّ عن مواهبِهِ　　كابتسام الروض عن زَهَرِهْ
إنمـــا الدُّنيا أَبو دُلَفٍ　　بين مَغْزاه ومُحْتَضَرِه[٣]
فإذا ولَّى أَبو دلف　　ولَّتِ الدنيا على أَثَرهْ

وقوله وقد أسرف فى المبالغة :

أنت الذى تُنْزلُ الأَيَّامَ منزلها　　وتنقل الدَّهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أَحَدٍ　　إلا قضيتَ بأَرزاقٍ وآجالِ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر فى أبى دلف وشعره الآخر فى ابن حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِل إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف باتساع أفقه وسماحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفى أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر فى ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه فى الرجوع ، فسأله أن يقيم واتصل بِرُّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة مستأذنا فى القفول إلى موطنه :

ملكٌ عَزْمه الزمـــا　　نُ وأفعـــالهُ الدُّوَلْ

---

(١) المريع : الخصيب . الكمى : الشجاع.　　(٢) النوء : نجوم تظهر قبل المطر.

ليتَه حين جاد لى بالغِنَى جاد بالقَفَلْ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام فى خراسان منذ سنة ٢١٤ . وفى ذلك دليل على أن وفاة على بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة ، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد ، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه ، مع الألفاظ الرشيقة العذبة ، ومن طريف معانيه قوله :

يأْسو الذى يجرح أَعداؤهُ وما لما يَجْرحه آسِ

وقوله :

كأَنهم والرمـــاح شابكةٌ أُسْدٌ عليها أَظلَّتِ الأَجَمُ

وقوله فى مديح أبى دلف :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها وهمَّتُه الصغرى أَجلُّ من الدهرِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور براعته فى صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة مونقة ، ودفعه مزاجه الفارسى الحاد إلى الإكثار من المبالغة فى نعت ممدوحيه ، حتى ليفرط فى ذلك إفراطًا شديداً .

## الخُرَيْمِىّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهى الخُرَيْمى ، من صُغْد الترك من مرو ، وهو جزرى نزل بغداد ، وكان له ولاء فى غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيم المُرِّى الغطفانى فى ولايته على أرمينية ، وظلّ وفيًّا له ، فنُسب إليه ، وفيه يقول :

جَزَى اللهُ عثمانَ الخُرَيمىَّ خير ما جَزَى صاحبًا جَزْلَ المواهب مُفْضِلا

(١) انظر فى الخريمى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٦/٣٢٦ و زهر الآداب ٤/٢٠١ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشيارى والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ وكذلك الطبرى ٦/٤٥٨ و٧/٥٢ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص٧٠٣ ومعجم البلدان ٥/٣٦٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢ .

كفى جَفْوَةَ الإِخوان طول حياتهِ وأورث مما كان أعطى وخَوَّلا (١)

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف فى بغداد إلى مجالس الأدب ، ويظهر أيضًا أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ فى بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره فى يحيى البرمكى :

يا راعِيَ السلطان غير مفرِّطٍ فى لين مختبَطٍ وطيب شِمام (٢)

حتّى تَنَخْنخ ضاربًا بِجرانِه ورَستْ مراسيهِ بدار سلام (٣)

وأكثر مدائحه فى صاحبه عثمان المرى وفى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفَك عندى عِظَماً أنه عندك مستورٌ حقيرْ

تتناساهُ كأَن لم تأْتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطير

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْباح البَلْخِيّ كاتب الفضل بن يحيى البرمكى ، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخلق النَّأْىُ عهده لناءٍ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُهْ (٤)

هو الشهدُ سِلْمًا والذُّعافُ عداوةً وبحرٌ على الوُرَّاد تجرى غَواربه (٥)

فيا حسن الحُسْنِ الذى عمَّ فضله وتمَّتْ أَياديه وجَمَّتْ مناقبه (٦)

إليك على بُعْدِ المزار وصعبهِ نوازعُ شوقٍ ما تُرَدُّ عَوازبه (٧)

---

(١) خول : أنعم .
(٢) مختبط : من اختبطه إذا سأله بدون قرابة أو معرفة . شمام : دنو وقرب .
(٣) تنخنخ : من تنخنخ البعير إذا برك وجثم على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجرانه : استقر واستقام .
(٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .
(٥) غواربه : أعالى موجه .
(٦) جمت : كثرت .
(٧) عوازبه : جمع عازب وهو البعيد .

فهل يرجعنْ عيشى وعيشُك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه
عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمتْ صَدْعَ الإناء مشاعبه

ومن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعرًا بليغًا محكم القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له فى بعض مديحه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاءَ القلوب كَرَكْبٍ وقوفْ

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التى دبَّجها فى ممدوحيه أحسن من مراثيهم فيهم وأجود ، وسأله فى ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعْددته ذُخْرًا لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولَعُ
ولو شئت أن أبكى دمًا لبكيته عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع

وله فى بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق فى فتنة الأمين ، فأحرق كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة وثلاثين بيتًا ، بكاها فيها ، وندبها نَدْبًا حارًّا ، موازنًا ماضيها وحاضرها ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحياؤها من هذا الدمار الذى صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بُوسَ بغدادَ دار مملكةٍ دارتْ على أهلها دوائرُها
أَمْهلها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرها
رَقَّ بها الدِّين واستُخِفَّ بذى الـ ـفَضْلِ وعزَّ النُّسَّاكَ فاجرها
وصار ربَّ الجيران فاسقهُم وابتزَّ أمرَ الدروب شاطِرُها

وهو فى القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبى دُلف العجلى ، ويظهر أنه لم يثبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجوه بمثل قوله :

إنى وجدت أخى أبادُلف عند الفَعال مولَّد الشَّرَفِ

وممن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر فى كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لا تشادَقْ إذا تكلمتَ واعلمْ ... أن للناس كلِّهم أشْداقا

وحدث فى أثناء رفقته لعثمان بن خريم فى ولايته على أرمينية أن عقد له فى بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، فكرهوا ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغْد ، وفيها يقول :

أبِالصُّغْدِ بَأْسٌ إذ تُعَيِّرنى جُمْلُ ... سَفَاهاً ومن أخلاق جارتىَ الجهلُ

فإن تفخرى يا جُمْلُ أو تتجمَّلى ... فلا فَخْرَ إلا فوقه الدينُ والعقل

أرى الناس شَرْعًا فى الحياة ولا يُرَى ... لقبرٍ على قبر عَلاءٌ ولا فَضْلُ[1]

وما ضرَّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِرٌ ... ولم تشتمل جَرْمٌ علىَّ ولا عُكْلُ[2]

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين فى أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التى تسوى بين الناس عربًا وموالى ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وفى أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعياً إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تزوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها ... فقد شمَّرتْ حَذَّاءَ وانْصَرَمَ الحَبْلُ[3]

وهل أنتَ إلا هامةُ اليوم أو غدٍ ... لكل أُناسٍ من طوارقِها الثُّكْلُ

وفى الأغانى بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة فى الغزل ، وقيل إن أول ما نظمه قوله :

بقلبى سقامٌ لست أحسن وَصْفه ... على أنه ما كان فهْو شديدُ

تمرُّ به الأيام تسحب ذيلها ... فتَبْلى به الأيامُ وهْو جديدُ

(١) شرعاً : متساوين لافضل لأحدهم على الآخر .

(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .

(٣) حذاء : سريعة الإدبار .

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة فى الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُك فابْكِ بعضاً فإن البعضِ من بعضٍ قريبُ
يمنِّينى الطبيبُ شفاء عَيْنى وهل غَيرُ الإله لها طبيبُ

وقوله :

كفى حزنًا أن لا أَزورَ أَحبَّتى من القُرب إلا بالتكلف والجَهْدِ
وأنى إذا حُيِّيت ناجيتُ قائدى ليَعْدِلنى قبل الإجابة فى الرَّدِّ

وفى أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق فى المعانى ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه فى ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية فى الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

الناسُ أخلاقُهم شَتَّى وإن جُبِلوا على تشابه أرواحٍ وأجسادِ
للخير والشر أهلٌ وكِّلوا بهما كلٌّ له من دواعى نفسه هادِ

وقوله :

ودون النَّدَى فى كلِّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزْن ومنحدَرٌ سَهْلُ
وودَّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلهُ إذا ما انقضى لو أن نائِلَهُ جَزْلُ

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعاً ، إذ يجعله فى بِشْر المُضيف وحسن استقباله لا فى طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أضاحِكُ ضَيْفى قبل إنزال رَحْلِه ويُخْصِبُ عندى والمحلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأَضياف أن يكثر القِرَى ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

ومما يجرى هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر فى الآفاق :

ولستُ بنظَّار إلى جانبِ الغِنى إذا كانتِ العلياءُ فى جانب الفَقْرْ

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائمًا معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجًا ولا انحرافًا ، بل تجد دائمًا المتانة والسهولة ، ويُرْوَى أنه سُئل : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته ؟ قال : لأنى أجاذب الكلام إلى أن يساهلنى عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفى سنة ٢١٤ للهجرة .

## ٥

### شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حِدَّته فى هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة ، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى ، مما دفع إلى ظهور الشعوبية ، وحقًّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر (١) :

وَمَنْ يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامهِ ومَنْ يفتقر من سائر الناس يسألِ

وكان أبو نواس — كما مرَّ بنا — يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حادًّا ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكراً وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات وبالتالى خَبَتْ نار النقائض التى كانت مشتعلة فى عصر بنى أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطرمت اضطرامًا ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قصَّر فى عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن تهاجى الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار

---

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغانى.

(٢) (طبعة الساسى) ١٧/١٥٤.

وكانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتّى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهْجَ فى هذا العصر كما هُجى أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس ، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذّل بن غيلان ، وفيه يقول(١) :

صحَّفتْ أمُّك إذ سَمَّ تْك بالمَهْد أبانا
قد علمنا ما أرادتْ لم تُرِدْ إلا أتانا
صيَّرتْ باءً مكان التَّ اء واللهِ عِيانا
قطع الله وشيكا من مسمِّيك اللِّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بألسنة حداد ، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، وكان كثيراً ما يهجوه بأنه ليس عربيًّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قولـه(٢) .

وجدنا الفضل أبعد من رقاشٍ من الأُتُن ادَّعتْ فيها الفيولُ
وجدنا الفضل أكرم من رقاشٍ لأَن الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » . وقد مرّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسمًا حتى فرّ منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشُحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل . وممن اصطدم به مروانُ بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنِّىَّ وله يقول(٣) :

غَدا اللُّؤْمُ يبغى مَطْرَحًا لِرحالهِ فنقَّب فى بَرِّ البلاد وفى البَحْر

---

(١) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٣ / ٢٢٧ .
(٢) ديوان أبى نواس . وأغانى ( ساسى ) ١٥ / ٣٤ .
(٣) أغانى ١٠ / ٩٢ وما بعدها .

فلما أتى مروانَ خيَّم عنده ... وقال رضينا بالمقام إلى الحَشْرِ
وليستْ لمروانٍ على العِرْسِ غَيْرَةٌ ... ولكنَّ مروانًا يغار على القِدْرِ

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، ور بما كان أهمّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى كان لا يكتفي بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول(١) :

أَدعبلُ إن تطاولتِ الليالى ... عليك فإن شعرى سمٌّ ساعه
وما وفد المشيبُ عليك إلا ... بأَخلاق الدناءةِ والوضاعه
ووجهك إن رضيت به نديماً ... فأَنت نسيجُ وحدك فى الرَّقاعه
ولو بُدِّلته وجهاً بوجه ... لما صلَّيت يوماً فى جماعه

وكانت صِلاتُ أبى تمام فى كل بيئة ينزل بها سبباً فى كثرة مَنْ هجوه ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هَجَّاءين كبيرين هما أبو عُيَيْنَة المهلَّبى وعبد الصمد بن المعذَّل .

## أبو عيينة(٢) المهلبى

هو أبو عيينة بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ ، من سلالة المهلب بن أبى صفرة ، مولده ومنشؤه وحياته فى البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولَّى الرى لأبى جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وحبسه وغرَّمه . وكان لأبى عيينة أخوان شاعران هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعًا كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصد ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرًّا ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن على والى البصرة ، وقد تولاها من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أَخفوا كلامهمُ ... واستوثقوا من رِتاج الباب فى الدارِ

---

(١) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٨ / ٣٤ .
(٢) انظر فى أشعار أبى عيينة وأخباره ابن المعتز ص٢٨٨ وابن قتيبة ص٨٤٧ ومابعدها والأغانى ( طبعة الساسى ) ١٨ / ١١ وما بعدها .

لا يَقْبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارهمُ ولا تكفُّ يَدٌ عن حُرْمة الجارِ

وأبو عيينة أشعر الثلاثة ، ويقول ابن المعتز إنه « أحد المطبوعين الذين لم يُرَ فى الجاهلية والإسلام أطبع منهم ، وهم بَشّار وأبو العتاهية والسيد الحميرى وأبو عيينة » .

وقد استغل موهبته فى فنين هما الهجاء والغزل ، وأكثر هجائه فى ابن عمه خالد ابن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه فى جنده حين توجَّه إلى جرجان والياً عليها للمهدى وكان خالد قد أوسع له فى الأمانى وأنه سيغدق عليه ويوليه بعض الولايات ، ولما نزل جرجان جفاه وتنكَّر له ، فبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته . وعبثاً حاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن الجندية ، فشكاه إلى الهادى وكان قد ولى الخلافة بعد أبيه ، فأمر له بصلة وأقفله من جيش خالد، فعاد وهو يهتف بهجائه، وأكثر منه كثرة تدل على قوة طبعه وخصبه ، ومن قوله فيه :

لقد خَزِيَتْ قحطان طُرًّا بخالدٍ فهل لكِ فيه ـ يُخْزِك الله ـ يا مُضَرْ

لكلِّ قبيحٍ عن كل خيرٍ بلادةٌ دنىء به عن ذراعيه قد حَسَرْ

له منظرٌ يُعْمى العيونَ سماجةً وإن يُخْتَبَرْ يوماً فيا سوءَ مُخْتَبَرْ

أبوك لنا غَيْثٌ نَعيشُ بِوَبْلِه وأنت جَرادٌ ليس يبقى ولا يَذَرْ

له أثَرٌ فى المكرمات يسرُّنا وأنت تعفِّى دائماً ذلك الأَثَرْ

تسيءُ وتمضى فى الإساءة دائباً فلا أنت تستحيى ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول ، فقال : بل الخزى موفَّر على قحطان . وقد عرف كيف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذى عمَّ به عشيرته وأخلاقه السيئة وغباوته ، بل أيضاً بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً فى البيت الواحد بين المديح والهجاء . وهو يكثر فى هجائه من الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة ، مع الإقذاع ومع الغمز واللمز ، ومن طريف ماله فيه قوله :

خالدٌ لولا أبوهُ كان والكلبَ سواءَ

لو كما ينقصُ يزدا دُ إذن نال السماءَ

وقوله :

وإذا تطاولت الرءُو سُ فغَطِّ رأسك ثم طَاطِهْ

ويروى أنه(١) قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحه فلم يجد عنده ما قدَّره فيه ، فولَّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبي ، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحاً رائعاً هاجياً في تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ عجبًا لذاك وأنتما من عودِ
ولرُبَّ عودٍ قد يُشَقُّ ، لمسجدٍ نصفٌ ، وسائرُه لحُشِّ يهود
فالحُشُّ أنت له وذاك لمسجدٍ كم بين موضعِ مَسْلَحٍ وسجودِ
داود يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقٍ بِنَدَى يديه وأنت قُفْلُ حديد

وكأنما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضًا ببناتهم ، فقد روى صاحب الأغاني أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنِّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رأيتَ أثاثَها فطمعتَ فيه وكم نَصَبَتْ لغيرك من أثاثِ
فَصَيِّرْ أمرها بيدَيْ أبيها وسَرِّحْ من حِبالك بالثَّلاث(٢)
وإلا فالسلامُ عليك منى سأبدأ من غَدٍ لك بالمراثى

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبي قد شغفته حبًّا ، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن على العباسي ، فكاد يُجَنُّ جنونه ويطير صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وكتمتُ اسمها حِذارًا من النا س ومن شرهم وفى الناس شَرُّ

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ، ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى أخيه أبي عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .
(٢) سرح : طلق .

ويقولون بُحْ لنا باسم دُنْيا      واسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ

وهو يكثر فى أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التى كانت متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وُدًّا بود وحبًّا بحب ، وكيف كانا يجتمعان فى قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان منذ صغرهما ، يقول :

ومَلْعبنا فى النهر والماءُ زاخرٌ      قرينين كالغصنين فرعين فى أصْلِ
ومن حولنا الريحانُ غَضًّا وفوقنا      ظلالٌ من الكَرْم المعرَّش والنَّخْل
إذا شئت مالتْ بى إليها كأننى      إلى غُصْنِ بانٍ بين دِعْصَيْن من رَمْل(١)
فيا طِيبَ طعم العيش إذ هى جارةٌ      وإذ نفسها نفسى وإذ أهلها أهلى
وإذ هى لا تعتلُّ عنى برِقْبةٍ      ولا خوف عَيْنٍ من وشاةٍ ولا بَعْلِ
فقد عفَّت الآثار بينى وبينها      وقد أوحشتْ منى إلى دارها سُبْلى

وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما هو يصطلى بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوِّحاً لها بأنه سيموت فى سبيلها وأن أحدًا لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

ولأنت إن متُّ المصابةُ بى      فتجنَّبى قتلى بلا وِتْرِ
فلئن هلكتُ لتلطِمِنْ جزعاً      خَدَّيك قائمةً على قَبْرِى

وعلى هذا النحو ظل حبها قويًّا حارًّا فى قلبه ، وظلت ترده عنها فى عنف تارة وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكِّرها عهودهما القديمة وكيف أنه يفى لها وفاء شديداً ، بينما هى تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد بها كلفاً وغراماً وحبًّا ما فوقه حب ، وفى ذلك يقول :

أرى عَهْدَها كالوَرْدِ ليس بدائمٍ      ولا خير فيمن لا يدوم له عَهْدُ
وعهدى لها كالآسِ حُسْناً وبهجةً      له نُضْرةٌ تَبْقَى إذا ما انقضَى الوَرْدُ

---

(١) الدعص : كثيب الرمل .

وما وَجدَ العُذْرِىُّ إذ طال وَجْدُهُ ... بعفراءَ حتى سَلّ مهجته الوَجْدُ
كوجدى غداة البين عند التفاتها ... وقد شفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ
فقلت لأَصحابى هى الشمسُ ضوءُها ... قريبٌ ولكنْ فى تناولها بُعْدُ

وفى أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسَّلْوَى عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به وبها ، وعاد يدور حول بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعْنَى به ولا تكترث ، وهو يزداد بها شغفاً وهياماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

ضيَّعتِ عهد فتى لعهدك حافِظٍ ... فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
ونأَيتِ عنه فماله من حيلةٍ ... إلا الوقوفُ إلى أَوان رجوعِكِ
متخشِّعاً يُذرى عليكِ دموعَهُ ... أَسفاً ويعجب من جمود دموعكِ
إن تَفْتنيه وتذهبى بفؤاده ... فبِحُسْنِ وجهكِ لا بحُسْن صَنيعكِ

وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ، وقد جرَّته غيرته من زوجها إلى لمزه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات دقيقة فى الحياة جعلت الحكمة تجرى أحياناً على لسانه ، ومن رائع ما يروى له فى تصوير القدر والحظوظ :

ما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ ... أَبدًا وما هو كائنٌ فيكونُ
سيكون ما هو كائنٌ فى وقته ... وأَخو الجهالة مُتْعَبٌ محزونُ
يسعى القوىُّ فلا ينال بسعيهِ ... حَظًّا ويحظى عاجزٌ ومَهِينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسى ، ويقول ابن المعتز إن « شعره أنقى من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » . ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً . . وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلّ التكلف » . وفى حديث ابن المعتز عنه ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون ويظهر أنها لم تظله طويلا .

## عبد الصمد[١] بن المعذّل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويـُرْوَى أن محمد بن سليمان العباسى كان يستخدمه فى ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه ،

فقال حماد عَجْرد يهجوه بهذين البيتين اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع :

ظهرَ الأَميرُ عليك يا غَيْلانُ      إذ خُنْته إن الأَمير مُعانُ
أَمعِ الدَّمامة قد جمعتَ خيانةً      قَبُحَ الدَّميم الفاجرُ الخوَّانُ

وكان ابنه المعذل شاعراً مُجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنْسب إليه من شعر قوله :

وإنى لصبَّارٌ على ما ينوبنى      وحسبك أن الله أَثْنَى على الصَّبْر

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضًا ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة » . وفى أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لن تَلْبسُوا منطقى بمشكلة      إلا عن الأَصمعىِّ أَو خَلفِ[٢]

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهو ومجون وتعابث ، وكان هَجَّاء خبيث اللسان حتى ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع فى بلدته وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

(١) انظر فى عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٢٢٦/١٣ وما بعدها و ٣٦١/١٤ وما بعدها وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وفوات الوفيات والأوراق للصولى ( قسم أخبار الشعراء ) ص ٣٩ ، ٥٣ ، ١٣٦ والوساطة بين المتنبى وخصومه ( طبعة الحلبى ) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .

(٢) لبس الأمر : خلطه .

فيه فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جِلّتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أتته دُرَيْهِمَاتٌ من السلطان باع بهنَّ ربَّهْ
كسبتَ أبا الفضولِ لنا مَعاباً وعارًا قد شُمِلْتَ بهِ وسُبَّهْ

وفكر أحمد فى أن يجاور فى الثغور ويجاهد فى جيش إسحق بن إبراهيم المصعبى صاحب بغداد وحاكمها ولم يكد يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلقاه عبد الصمد بقوله :

يُرِى الغُزَاةَ بأَن الله هِمَّتُه وإنما كان يغزو كِيسَ إسحاق
فباع زهدًا ثواباً لا نفادله وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباقى[1]

وكان لا يخفُّ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله :

يا أَبغضَ الناسِ فى عُسْرٍ وميسرةٍ وأَقذرَ الناسِ فى دُنْيا وفى دينِ
لو شاءَ ربى لأَضحى واهباً لأَخى بمُرِّ ثُكْلك أجرًا غير مَمْنونِ
إن القلوب لتُطْوَى منك يابن أخى إذا رأَتْك على مثل السَّكاكين

وطبيعى وهذا شأنه فى أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد فى أهاجى حمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلا ، وكان كثيراً ما يأتى هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورَّع ، من مثل قوله فى أبى رِهْم :

لو جاد بالمال أَبو رِهْمٍ كجوده بالأُخت والأُمِّ
أَضحى وما يُعْرَفُ مِثْلٌ له وقيل أَسْخَى العُرْب والعُجْمِ

واشتبك مع الجمّاز ابن أخت سلم الخاسر ، وكان لا يقلّ عنه خبثًا فى

(١) الرفد : العطاء .

هجائه ولا شرًّا ، وكان مما صَبَّه الجماز على رأسه قوله :

ابنُ المعذَّل مَنْ هُو ومن أبوه المعذَّلْ
سألتُ وَهْبَانَ عنه فقال : بَيْضٌ محوَّلْ[1]

وكان وهبان رجلا يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْشَى المجالس ويحلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محوَّل ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌّ ولا عام إلا رواهما ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلا :

نَسَبُ الجمَّاز مقصو رٌ إليه منتهاهُ
ليس يدرى من أبو الجَمَّ از إلا مَنْ يراهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شىء من الفطنة . ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبى الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشؤم، فكال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبى تمام حين اجتمع به فى مجلس مزرياً على تكسبه بشعره ، قائلا له :

أنت بين اثنتين تَبْرُزُ للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذَالِ[2]
لست تنفكُّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوالِ
أَىُّ ماءٍ لحُرٍّ وجهك يبقى بين ذُلِّ الهوى وذُلِّ السُّؤال

وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أَفِىَّ تنظمُ قول الزُّورِ والفَنَدِ وأنت أَنْزَرُ من لاشىءَ فى العَدَدِ[3]
أَشْرَجْتَ قلبك من بُغْضى على حُرَقٍ كأَنها حركاتُ الروح فى الجَسَدِ[4]

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومَنْ يختلط بهم من القيان اللائى يُعْرِضن عنه وأصحابهم من المقينين ، وله مرثية كلها هجو فى أحد الطفيليين وقد صوَّر فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

---

(١) محول : حضنه غير أبويه .
(٢) مذال : مهان .
(٣) الفند : الكذب .
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

أَحزانُ نفسى عليه غير مُنْصَرِمَهْ وأَدمعى من جفونى الدهرَ مُنْسجمه

وله أشعار مختلفة فى الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهرى وكان شيخاً هِمّاً قبيح الوجه ، وكيف أنها هربت إليه فى جُنْح الليل ، وفيها يقول :

خرجتْ والليلُ معتكرٌ لم يَهُلْها أَيَّةً سلكتْ
وعيونُ الناس قد هجعتْ ودُجى الظلماء قد حَلكتْ
لم تَخَفْ وجدًا بعاشقها حُرْمَةَ الشَّهْرِ الذى انتهكتْ
ورأَتْ لما شَفَتْ كمدًا أنها فى دينها نَسَكتْ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع فى تصوير الطبيعة ، ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى فى تصويره لبستانه ، وكان بستاناً غاصًّا بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إذا لم يَزُرْنِىَ نَدْمَانِيَــهْ خلوتُ فنادمتُ بُسْتانِيَهْ
فنادمتُه خَضِرًا مُونِقــاً يُهَيِّجُ لى ذكرَ أَشْجانِيَهْ
يقرِّب لى فَرْحةَ المُسْتَلِذِّ ويُبْعد هَمِّى وأَحْزانِيَــهْ
أَرى فيه مثلَ مدارى الظِّباءِ تظلُّ لأَطْلائها حانِيهْ[1]
ونَوْرَ أَقاحٍ شَتيتِ النباتِ كما ابتسمتْ عَجَباً غانِيَهْ
ونرجِسُهُ مثلُ عين الفتاةِ إلى وَجْد عاشقها رانِيَه

وقد مرت بنا فى حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة فى تصوير حُمّى أصابته تصويراً يدل على دقته فى الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه . ومما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

---

(١) المدارى : القرون . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستعارة واضحة .

# الفصل السابع

## طوائف من الشعراء

### ١

### شعراء الغزل

كثر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنوا بالنظم فيه ، وهى عناية أعدّته لكى يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُشيعْن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدلات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح فى هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبى نواس وأضرابهما وبينه فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون فى غزلهم عن غرائزهم

النوعية فى غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثيرون منهم — باستثناء بشار — ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون .

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشَمىّ الملقب بالقَسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذَريح وجميل بن معمر العُذْرى ، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى . وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بِعْنَ وضُرِب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب فى قلوبهم قوياً حاداً ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله[1] :

صاحوا الرحيلُ وحثَّنى صَحْبى قالوا الرواح فطيَّروا لُبِّى
لا صَبْرَ لى عند الفِراق على فَقْد الحبيب ولوعةِ الحبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرهما متعا لَمٌ عند العامة » وفيها يقول[2] :

يا نُصْبَ عينىَ لا أرى حيث التفتُّ سواكِ شَيْا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٥/٢٦٧.
(٢) أغانى ١٥/٢٦٥ .

إنى لمَيْتٌ إن صَدَدْ تِ وإن وصلتِ رجعتُ حَيَّـا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدَاع رآها تغنِّى ببعض دور النخاسة ، فشُغف بها شغفاً شديداً واتصلت زياراته لها ، وبادلته حباًّ بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إنى أحبك إنى أنتظرك ، من مثل قوله[1] :

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لى أَوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلى

أَقطعُ الدهرَ بظَنٍّ حَسَنٍ وأُجَلِّى غَمْرَةً ما تَنْجَلِى

كلما أَمَّلْتُ يوماً صالحاً عرضَ المكروهُ لى فى أملى

وأرى الأَيام لا تُدْنِى الذى أرتجى منكِ وتُدْنِى أَجلى

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى ، فحُجِبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلةً . واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شىء من أمره ، فمضى يتغنى بها طويلا ، وكان خُلاَّنه يلومونه ويقولون له : إنها تبخل عليك بودِّها ، فَدعْها إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله[2] :

أَأَنْ حُجِبَتْ عنى أَجود لغيرها بودِّى وهل يُغْرى المحبَّ سوى البُخْلِ

أُسَرُّ بـأَن قالوا تَضِنُّ بودِّها عليك ومن ذا سُرَّ بالبُخْل من قبلى

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له فى عصر بنى أمية الذى نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلهم يصور حبًّا جامحًا ، وكأن فى صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتماله ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذى لا يترك لهم رويَّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حدًّا فاصلاً فى هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

---

(١) أغانى ١٢/١٤٤ .

(٢) أغانى ١٢/١٥٣ .

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقَّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرِّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه لوعة ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عَبْدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفيين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يضنيه ويبرِّح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانًا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقًا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعًا ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبة له [(1)] :

أُحبُّكِ حُبَّيْنِ : لى واحدٌ    وآخَرُ أنَّكِ أهلٌ لذاكِ
فأَما الذى هو حبُّ الطِّباعِ    فشَئٌ خُصِصْتِ به عن سواكِ
وأَما الذى هو حبُّ الجمالِ    فلستُ أرى ذاك حتى أراكِ
ولستُ أمنُّ بهذا عليكِ    لك المَنُّ فى ذا وهذا وذاكِ

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلا على هذه القطعة ، فأصبحت أمًّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومرَّ بنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضًا حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

(١) أغانى ١٥/٢٨٩ .

فى غزلهم ، وهى شىء طبيعى مردّه إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكنّ متبدّيات إنما كن متحضّرات ، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعه بحيث يؤدّى ما يريدونه من مدٍّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبّه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عَريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصولاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجالس للشعراء ويجتمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعانى النادرة فتجيبه بديها[1] » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال :

---

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتْ عنانٌ فجرى دَمْعُها ... كالدرِّ قد تُوبِع فى خيطهِ

فقالت ، والعبرة فى حَلْقها :

فليت من يضربها ظالماً ... تجفُّ يمناه على سَوْطهِ

ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً فى كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجيزه وعزّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعتُه ... تنفَّس من أَحشائهِ أَو تكلَّما

فما لبثت أن قالت :

ويبكى فأَبكى رحمةً لبكائهِ ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقة فى الغزل العباسى ، إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم فى تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسنّ منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرّ بنا فى الفصل الثانى . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل فى هذا العصر ازدهاراً واسعاً ، ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرَّقِّى .

### العباس بن الأحنف [1]

عربى من بنى حنيفة ، كان آباؤه ينزلون فى خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومَرْباه ببغداد ، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

---

(١) انظر فى العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٨/٣٥٢ و ١٦/٣٤٣ — ٣٤٥ و ( طبعة الساسى ) ١٥/١٣٥ وتاريخ بغداد ١٢/١٢٧ وشذرات الذهب ١/٣٣٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٤٠ وقد نشرت ديوانه وحققته عاتكة الخزرجى وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية .

أمثال أبى نواس وغير أبى نواس ، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُليق درهما ولا يحبس ما يملك » . وفى أشعاره وصف للكرة والصوبلجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره فى ذوقه المصفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه ، وفى ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلا ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى ، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلعَاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد الترف ، وذلك بيِّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولا غَزِلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلّت عليه أمره بصُنْع أبيات يغنِّى فيها إبراهيم الموصلى ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقلقته وأرّقته ، وصار بأمرِّ عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكى ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول فى ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنِّبُ ... وكلاهما مُتَعَتِّبٌ متغضِّبُ

صدَّتْ مغاضبةً وصدَّ مغاضباً ... وكلاهما مما يعالجُ مُتْعَبُ

راجعْ أَحبَّتك الذين هجرتهم  إن المتيَّم قلما يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إن تطاول منكما  دَبَّ السُّلُوُّله فعَزَّ المَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضّاها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، فوقعت فى قلبه ، وأخذ يكثر من زياراته ، وهو إنما يريدها ، وعرفت حبه ، فكانت تصدّ عنه ، وهو يزداد حبًّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله :

قالتْ ظلومُ سميَّة الظُّلْم  مالى رأيتك ناحلَ الجِسْمِ
يا مَنْ رَمَى قلبى فأَقْصَده  أنت العليم بموضع السَّهْمِ (١)

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه ، وغدا مستهاماً بها يحبها كل الحب ويُفْتَنُ بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون ، فهو دائماً يصف صبابته بها ووجده وجداً لم يجده أحد ، وجداً يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة ، وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيًّا ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد أواره ، من مثل قوله :

الحبُّ أول ما يكون لجاجة  تأتى به وتسوقه الأَقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى  جاءتْ أمورٌ لا تُطاق كِبارُ
نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاستَعِرْ  عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يُعيرك عَيْنه تبكى بها  أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

---

(١) أقصده : أصابه .

وقوله :

أُحْرَمُ منكم بما أقولُ وقد     نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صرتُ كأَنى ذُبالةٌ نُصِبَتْ     تضيءُ للناس وهْى تحترقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ، مخلِّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيراً أو أن تزورَّ عنه فى بعض زياراته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله :

أبكى الذين أذاقونى مودَّتهم     حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا
جاروا علىَّ ولم يوفوا بعهدهمُ     قد كنت أحسبهم يوفون إن عَهِدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ     بين الجوانح لم يشعر به أَحَدُ

وقوله :

لما رأيت الليل سَدَّ طريقَهُ     عنى وعذَّبنى الظلامُ الرَّاكِدُ
والنَّجْمُ فى كبدِ السماء كأنه     أعمى تحيَّر ماله قائدُ
ناديتُ مَنْ طرد الرقادَ بصَدِّه     مما أُعالج وهْو خِلْوٌ هاجد
أَلقيتَ بين جفون عينى حرقةً     فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقد

وفى قصيدة هذه المقطوعة يقول :

والله لو أن القلوبَ كقلبها     مارقَّ للولد الصغير الوالِدُ

وخرجتْ من مِلْك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجَّ بها ، فمضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أزينَ نساء العالمين أجيبى     دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبتُ كتابى ما أُقيم حروفَه     لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرةٍ تسحُّ على القِرْطاس سَحَّ ذَنوب(١)
أيا فوزُ لو أبصَرْتِنِي ما عرفتني لطول نحولي بعدكم وشحوبي
وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمت فليتكِ من حُور الجنان نصيبي
أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم فيارب قرِّبْ دارَ كلِّ حبيب

وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا ، وأنشأ يقول :

ياسقيمَ الجسم من مِحَنِهْ مُفْردًا يبكى على شَجَنِهْ
كلما جَدَّ البكاءُ به دَبَّتِ الأَسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرِّد ، فسمع تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤَادَ شَجًى طائرٌ يبكى على فَنَنِه
شَفَّه ما شفَّنى فبكى كلُّنا يبكى على سَكَنه

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه .

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع ، غير أنها تأتى عفواً ، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع .

### ربيعة الرَّقّى(٢)

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرَّقّة ، بها مولده ومنشؤه ، وكان ضريراً ، وتفتحت شاعريته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رنّ إلى سمع المهدى ،

---

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .
(٢) انظر فى ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٥٧ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/١٣٤ ونكت الهميان ص ١٥١ .

فأشخصه إليه ، فمدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلا . غير أنه حنَّ إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلا ، مما كان سبباً فى إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء فى بغداد . ولم تَرْوِ له كتب الأدب شيئاً من مديحه فى المهدى إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها فى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صَفِىِّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قِيل للعباس يا بن محمدٍ    قل : لا ، وأنت مخلَّدٌ ، ما قالها
ما إنْ أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً    إلا وجدتك عَمَّها أو خالَها
وإذا الملوك تسايروا فى بلدةٍ    كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجُنَّ غيظا ، وهجاه هجاء مريرا . وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة . وممن صَلِىَ هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسَيْد السُّلَمى ، وكان قد ردَّه ردًّا غير جميل ، بينما أوسع له فى العطاء يزيد بن حاتم المهلبى ، فمضى يقول أبياته السائرة :

لشتَّان ما بين اليزيدين فى النَّدَى    يزيد سُلَيْمٍ والأغرّ ابن حاتمِ
يزيد سُلَيمٍ سالم المال والفتى    أخو الأزْد للأموال غير مسالمِ
فهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ ماله    وهَمُّ الفتى القيسىِّ جَمْعُ الدراهمِ
فلا يحسب التَّمْتامُ أنى هجوتُه    ولكننى فضَّلتُ أهل المكارم

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلا كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره فى الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعاً ، وما أجد أطبع ولا أصحَّ غزلا منه ، ويقول أيضًا : « كان ربيعة أشعر غزلا من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس بَرْداً كثيرا وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسْلَك فى الغزل الصريح إذ كان فيه لهو حتى لُقِّب بالغاوى ، وممن كان يهواهن جارية يقال لها « عَثْمة » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت فى قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعَثْمَةُ أَطْلِقِي العَلَقَ الرَّهينا بعيشِك وارْحَمِي الصَّبَّ الحزينا[1]
تعلَّق زائرًا لكِ فارْحميهِ فقد أورثتِ زائرَكِ الجُنونا
ولما أنْ رآك الناسُ قالوا تعالى الله ربُّ العالمينا
فقد أعطاكِ ربُّك فاشكُريه جمالاً فوق وَصْفِ الواصفينا
إذا أقبلْتِ رُعْتِ الناس حُسْنا وإن أدبرتِ قَيَّدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية شُغف بها ، وقد شُغف من بعدها بجارية من جوارى الكَرْخ ببغداد تسمَّى « رُخاص » كما شُغف بأخرى تسمَّى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إنى غيرُ صَاحى أبداً من حُبِّ داحِ
أنا والله قتيلٌ لكِ من غير جِراحِ
لا بسيفٍ قتَلتنى لا ، ولا سُمْرِ الرِّماحِ
أنتِ للناسِ قتولٌ بالهوى لا بالسِّلاح
وبشكلٍ وبِدَلٍّ وبحُسْنٍ ومُزَاحِ
وبعينين صَيُوديْنِ وثَغْرٍ كالأقاحِي
ليتنى كنتُ حَماماً لكِ مقصوصَ الجناحِ

وله فى جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل ، وفى إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عَياءٌ لا دواءَ لَهُ إلا نَسيمُ حبيبٍ طَيِّب النَّسَمِ
أو قبلةٌ من فَمٍ نِيلَتْ مُخالَسَةً وما حرامٌ فَمٌ ألصقته بفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع فى عصره وينتشر على كل لسان ، حتى ليقال إن جوارى المهدى هن اللائى دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره . ويتصل بهذا الانتشار ما يُرْوَى من أن صانعى البُسط كانوا يكتبون أشعاره

(١) يريد بالعلق المعلق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى فى دَوْر بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدَّلتُ خُلَّةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ
لحا اللهُ من باع الصديقَ بغيرِهِ فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صَرَمْتَنِي يحبك فانظرْ بعده من تبدَّلُ

وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفى سنة ١٩٨ للهجرة .

## ٢

### شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور — عند أبى نواس وأضرابه — انحطاطاً خلقياً شنيعاً . وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدَّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِّئْن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصَنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدى عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديوانًا للزنادقة وكان حريًّا به أن يتخذ ديوانًا آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكنًا لا هو ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهامًا واسعاً ، حتى غدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشْغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم فى الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون فى المجون والفجور ، وحقًّا صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار فى وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدى ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت. ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش فى غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعًا لهذا العصر فى الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدّ لذلك دار نِخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدة ورُبَيْحة وسلاّمة الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُراعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش[١] . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مَرِيدا ، فهو يسرف فى المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب فى قبيلة أسد [٢] ، وهى والعرب جميعًا بُرَآءُ منه ومن فحشه

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/٣٦٤ وما بعدها و١٥/٥٦ وما بعدها .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٤٢ وانظر فى والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد ١٣/٥١٨ .

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه فى الروم(١) ، وهو الذى أدَّب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافًا رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . وممن خلفوا أبانًا وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خارجة مولى بنى أسد ، وكان ورّاقا ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاما نصرانيًّا يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول(٢) :

زُنَّارُهُ فى خَصْرِه معقودُ كأنَّه من كبِدى مقدودُ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الخارَكِىُّ ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيالٌ عليه »(٣) . وكان طبيعيًّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن مجّانها المشهورين الرَّقاشى ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس ، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها :

أَوصَى الرقاشىُّ إلى إخوانِه وصيَّـــةَ المحمودِ فى نُدْمانِه »(٤)

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب(٥) . وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونَفْحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم .

ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينصُّ على

(١) أغانى ١٦/١٤٣ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٧ .
(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

خبث دينهم أو على زندقتهم ومروقهم من الإسلام وشريعته الغرّاء على نحو مانرى فى حديثه عن حماد الراوية وحماد عَجْرد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذى يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر أشربوا حبَّ مذهب مانى وما فيه من الزهد والانصراف عن مُتَع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدى .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ فى الخمر والمجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان فى أول أمره خليعاً ماجناً منهمكا فى الشراب ، ثم نَسَك بعد ماعُمِّر ومات على طريقة محمودة » ويروى أن المهدى شك فى أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سَوْط على أن يقرَّ بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طَرْفة عين ، فقال له المهدى : فأين قولك :

اسْقِنى واسْقِ خليلى فى مَدى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظــل كَرْمٍ سُبِيَتْ من نهر بِيل[1]
فى لسان المرء منهــا مثلُ طعم الزَّنْجَبيل
قُلْ لمن يلحاك فيها من فقيهٍ أَو نبيل[2]
أنت دَعْها وارْجُ أُخرى من رَحيق السَّلْسبيل[3]
تعطش اليومَ وتُسْقَى فى غَدٍ نَعْتَ الطُّلول

فقال للمهدى : كنت فتى من فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلَّى سبيله ورقَّ له[4] . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عَجْرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

---

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق. سبى الخمر : حملها من بلد إلى بلد .
(٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .
(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .
(٤) أغانى ١٥/٢٨٥ وما بعدها .

**حماد [1] عجرد**

من الموالى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبَّالا يَبْرِى النَّبْل ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُقب بعَجْرد لأن أعرابيًّا مرَّ به فى يوم شديد البرد وهو عُرْيان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجردت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفا على التعلم والتأدب ، حتى أتقن العربية وانتظم فى سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يُرْمَوْن بالزندقة » . فهو لم يكن ماجنًا فحسب ، بل أشربتْ روحه الزندقة كما أشْربت المجون ، وقد مر بنا فى الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمى بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتى إذا حُبِس فى سجن الزنادقة وجدهم يقرءون فى صلاتهم شعراً مزاوجا له ، فعرف أنه كان إمامًا من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد . وهو يُسْلَك فى مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحًا عاريًا مكشوفا ، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أنَّ مانى ودَيْصانا وعُصْبتهم ... جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

---

(١) انظر فى حماد وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ٣٢١ وابن المعتز ص ٦٧ — ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ١٠ / ٢٤٩ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨ / ١٤٨ والحيوان للجاحظ ٤ / ٤٤٧ وفى مواضع أخرى ( انظر الفهرس ) وأمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ١ / ١٢٨ — ١٣٤ . ولسان الميزان ٢ / ٣٤٩

أَنت العبادةُ والتوحيدُ مذ خُلقا     وذا التزندقُ نَيْرنجٌ مخاريقُ

فهويفوق — فى رأيه — مانى وديصان وأضرابهما من رءوس الزنادقة . ويعابثه صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نِعم الفتى لو كان يعرف قَدْره     ويقيم وقتَ صلاته حَمَّادُ

هَدَلَتْ مشافرَه الدِّنانُ فأَنفُه     مثل القَــدوم يسنُّها الحَدَّادُ

وابيضَّ من شرب المُدامة وجهه     فبيــاضُه يوم الحساب سوادُ

وكأنما كان عُرْيه فى صباه ولقبه عجرد الذى لزمه إرهاصًا لما أخذ فيه بعدُ من الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وفى البساتين ، متغزلا فى الإماء والغلمان غزلا مكشوفًا كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن كانوا يمعنون معه فى المجون هازئين بالإسلام ودعوته التى تحرم الإباحة واقتراف المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التى تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنَّيْل من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط فى أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدى ، ذلك أنه كان قد اتصل به من قبلُ وأدَّبه ، وترك فيه أثراً سيئًا ، إذ جعله يميل إلى اللهو وشىء من المجون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحبه حماداً ، فأكمل إغواءه له ، وكشف للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أَرجوك بعد أَبى العباس إذ بانا     يا أَكرمَ الناسِ أَعْراقا وأَغصانا

لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه     لمجَّ عودك فينا المِسْكَ والبَانا

وحدث أن خطب محمد حين ولى البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسى وكان يهواها ، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه فى عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفى لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حارًّا بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكينا بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا
ليتنى متُّ حين موتك ، لا بل ليتنى كنت قبلك المقبورا

ولم يجرّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرَّ عليه أيضًا معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه ، فهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله فى صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدْم ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار — مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى لم تكن أقل إيذاء ، إذ كان يهجوه بعماه وقبح خلقته ودنسه وقذارته مهوّنا منه أشد التهوين ومستخفًّا به أشد الاستخفاف ، وقد أنشدنا فى الفصل الرابع أطرافا من هذا الهجاء المُصْمى ، وأكثرا جميعًا من هجو الأمهات والزوجات . ومن المحقق أن حماداً كان يستعلى عليه فى تلك المعركة ، إذ كان يُشيع فى هجائه له سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشارا من التيهِ
وذاك إذ سمَّيتُه باسمهِ ولم يكن حرٌّ يسمِّيه
لم أَهْجُ بشاراً ولكننى هجوتُ نفسى بهجائِيهِ

ونراه فى بعض عبثه ولهوه مع مطيع بن إياس يلمزه بعض اللمز ، ولكنهما لا يندفعان فى الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادّين . واتصلت صداقته مع يحيى ابن زياد ، وكان مثله خليعًا ماجنا متّهما بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسْكك لا يتـ ـمُّ بغير شَتْمى وانتقاصى
فعليك فاشتُمْ آمنـاً كلَّ الأَمان من القِصاصِ

فلطالما زكَّيتنى وأنا المقيمُ على المعاصى
أيام أنت إذا ذُكر تُ مناضلٌ عنى مُناصى[١]
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثًا كله بِرٌّ وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزْتَ من قلبى مكانا ممنَّعا أَرى لك فيه أن أُريق لك الدَّما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتنى وإن كانتا واللهِ صَاباً وعَلْقَما
وأُدْخل كفِّى إثْر كفِّكَ فى الذى عراك ولو أَدخلتَها ثُقْبَ أَرقما[٢]

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسى بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردِّده من الغزل بلسان ابن عمه فى أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحا مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقا عليه وجَدَّ فى طلبه ، فمضى إلى قبر أبيه سليمان بن على فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبلُّنَّ قبر أبى من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاه هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمُ بُرْغُوث وعقل مكاتَبٍ وغُلْمَةُ سِنَّوْرٍ بليلٍ تُوَلْوِلُ[٣]

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتنى أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

## مطيع[٤] بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدَّ بهم

(١) مناصى : مدافع .
(٢) الأرقم : الثعبان .
(٣) تولول : تعول .
(٤) انظر فى مطيع وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٢٧٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٦ وعيون الاخبار ٢ / ١٨٢ وأمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ١ / ١٤٢ والديارات للشابشتى ص ١٥٩ وما بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٦ / ٥١ .

عبد الملك بن مروان الحجاجَ بن يوسف فى حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوَّج بها فوُلد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسبه أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك فى هذا النسب مُحسًّا أنه من صنع الرواة . وكل شىء فيه يؤكد أنه لم يكن عربيًّا إنما كان من الموالى ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى فى مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائزه السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه فى ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا فى اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ونادمه ، ورافقه فى ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتسى كئوس الخمر حتى الثمالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبَّبا إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوما : انطلقْ بنا إلى فلانة المغنية صديقتى فإن بينى وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلا :

أنت معْتَلَّةٌ عليه ومــازا ل مُهينا لنفسه فى رضاكِ

فأعجب يحيى ما سمع ، وهَشَّ له مطيع ، ثم قال :

فدَعيه وواصلى ابنَ إياسٍ جُعِلَتْ نفسىَ الغداةَ فِداكِ

وأغربت الجارية فى الضحك . وفى كتاب الأغانى أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف فى داره وفى البساتين والأديار . وغزله فى الغلمان قليل ، ولكن لا شك فى أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير فى القيان الكوفيات وخاصة فى جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوْهره فى قياس الدُّررِ المشتهره
أو كشمسٍ أشرقتْ فى بيتها قَذفتْ فى كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الرَّىّ للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلا بجوار دارها، ولم يلبث المنصور أن استدعى سلما فى نفس السنة ، فاضطُرّ مطيع إلى الرحيل معه، وألمّ فى طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التى أنشدناها فى الفصل الرابع والتى يخاطب فيها نخلتى حلوان خطابا مؤثراً شاكيًا لهما فراقه الأحباء والخلان .

ومن الأجواد الذين فزع إليهم فى تلك الفترة يستميحهم بمدائحه معن بن زائدة الشيبانى ، ويُرْوى أنه لما أنشده مدحته التى يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته :

فتى نزارٍ وكهلُها وأخو الـ جود حَوَى غايتيه من كَثَبِ
تَرَى له الحلْم والنُّهَى خُلقا فى صولةٍ مثل جاحم اللَّهَبِ

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبناك ، فاستحيى مطيع من إيثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول بديهـــة :

ثنـــاءٌ من أميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ لصاحبِ فاقةٍ وأَخى ثراء
ولكن الزمان بَرَى عِظامى وما مثلُ الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لطفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمرى ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبته بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولّى وجهه نحوها ، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقيه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزّ عليه فى أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمانُ عسرًا وشرًّا عندنا إذ أحلَّنا بغداذا
بلدةٌ تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماءُ الرَّذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسى ، فتحها له جعفر بن المنصور . وكان فيه خبث ، فانتهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدى بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدى ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوِّه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما مُلئت جوراً» . وسُرَّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدى . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمَّ بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدى تشفع فيه فعفا عنه، وبذل له المهدى مائتى دينار ، وأوصى به والى البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدى ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذى جعله يفلت من عقابه حين شدَّد فى تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برءوس كثيرين منهم . ومما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أُتى ببنت له فى الزنادقة ، فأقرت بزندقتها وتوبتها قائلة : هذا دين علَّمنيه أبى وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردَّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدى منهمكاً فى المجون والخلاعة والشراب والانطراح فى مواضع اللذات ، ونظم فى تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حنانا وعطفا وبِراًّ ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد، ويقول ابن المعتز : «كان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كَيَدَىْ واحدٍ ... نَرْمى جميعاً وتَرَيْنَا معاً
إن عضَّنى الدهرُ فقد عضَّه ... يوجعنا ما بَعْضَنَا أوجعا
أو نام نامتْ أعينٌ أربعٌ ... منا وإن أَسْهَرْ فلن يَهْجَعا
حتى إذا ما الشيبُ فى مَفْرِقى ... لاح وفى عارضه أسرعا
سَعَى وُشاةٌ فمشوا بيننا ... فكاد حَبْلُ الوُدِّ أن يُقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَشْرَةٍ        أَوْقَدَ نيرانَ القِلَى مُسْرِعا
فلم أَلُمْ يحيي على فعلهِ        ولم أقل مَلَّ ولا ضيَّعا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا يعبّان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيي بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفى فبكاه مطيع بكاء حارًا ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أَهليَ ابْكُوا لقلبيَ القَرِحِ        وللدُّمـــوع السواكب السُّفُحِ (١)
راحوا بيحيي ولو تطاوعني الْ        أَقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرُحِ (٢)
ياخير مَنْ يحسن البكاء له الـ        يوم ومن كان أمسِ للمِدَحِ
قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد        أُديل مكروهنا من الفرح (٣)

وواضح أن مطيعا كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز فى أشعاره بالسلاسة والعذوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل فى كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ، حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تتلذّذ آذانهم ، ويقول صاحب الأغانى إن حكما الوادى المغنى تغنّى فى قطعة له ، فلم يبق سقّاء ولا طحّان ولا مكار إلا غنّى فيها . وقد ظل مطيع سادراً فى غيه ومجونه حتى توفى سنة ١٦٩ وقيل بل فى سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

### صالح (٤) بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل ، وكان فى صدر

---

(١) السواكب السفح : المنهمرة .
(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح وهو وقت العشى .
(٣) أديل : أصبحت له دولة وصولة .
(٤) انظر فى صالح وأخباره وأشعاره أمالى المرتضى ( طبعة الحلبى ) ١ / ١٤٤ وما بعدها وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة الغفران ( طبعة أمين هندية ) ص ١٤٢ وتاريخ بغداد ٩ / ٣٠٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٢ / ٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦ / ٣٧١ وفوات الوفيات ١ / ١٩١ ونكت الهميان للصفدى ص ١٧١،١٧١ ولسان الميزان لابن حجر ٣ / ١٧٢ وفهارس كتابى البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٧ .

نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد فى الحياة ونعيمها الزائل . ونراه فى عصر بنى أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركا فيما كان يدور فى مجلسه من مخاصمات كلاميَّة ودينية[1] ، ونظن ظنًّا أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهتف به واصل ، كما هتف ببشار طالبًا من أصحابه قتله[2] ، وفى بعض شعره أنه كان يستّر نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأَنى أَخْرَسٌ أو ثنى لسانىَ خَبْلُ
ولو أنى أبديت للناس علمى لم يكن لى فى غير حَبْسِىَ أَكْلُ

وتوفِّى واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة واتته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حينًا ، وحينا يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلى صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله فى ذلك متعجبًا ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى فى العصر العباسى ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يواريها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف — كما يقول ابن النديم — كتبًا فى نصرة عقيدته[3] . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره فى الامتزاج الذى يدعيه المانوية بين النور والظلمة فى الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .
(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٦ .
(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

أَبا الهُذَيْلِ هداك الله يا رجلُ فأَنت حقًّا لعمرى مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى فى أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهى النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أى شىء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكأن المسألة تحوّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا فى الديانات فحسب ، بل فى حقيقة كل شىء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها فى نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتابا سماه كتاب الشكوك ، ويُرْوَى إنه مات له ولد ، فلقيه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جَزِعًا على ابنه ، فقال له : لا أعرف لجزعك وجهًا إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، منْ قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشُكَّ أنت فى موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكَّ أيضًا فى أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فَحصِر صالح . وفى أشعاره ما يدل على أنه عَمِىَ فى آخر عمره ، إذ يقول :

عـزاءَكِ أيهـا العَيْنُ السَّكوبُ ودَمْعَكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ
على الدُّنيـا السلامُ فما لشيخٍ ضرير العين فى الدُّنْيا نصيبُ
إذا ما مات بَعْضُكَ فابْكِ بَعْضاً فإن البعض من بعضٍ قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدى فى تعقب الزنادقة وينصب لهم ديوانا لمحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقى به فى غياهب السجون ببغداد انتظاراً لمحاكمته ، ويصور مشاعره وهو فى السجن تصويراً دقيقًا بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأَحياء فيها ولا الموتى
طَوى دوننا الأَخبارَ سِجْنٌ ممنَّعٌ له حارسٌ تَهْدا العيون ولا يَهْدَا

قُبِرْنا ولم نُدْفَنْ فنحن بمعزلٍ ... من الناس لا نُخْشَى فنُغْشَى ولانَغْشَى
ألا أحدٌ يأْوى لأهل مَحِلَّةٍ ... مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهمُ لم يعرفوا غير دارهمْ ... ولم يعرفوا غير التضايق والبَلْوى

ويختلف الرواة فى زمن هذه المحاكمة والخليفة الذى تولاها ، فمن قائل إنه المهدى ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعّف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذى حاكمه وناظره فى زندقته الرشيد، وكان قد أُنْهِيَ إليه أبيات يهجو بها الرسول — كبرت كلمة تخرج من فمه — لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها[1] ، وهى طعن صريح فى الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شيء عن زندقته وإثنينيته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ، وزُج به فى السجن ، ثم عُقد له يوم لمحاكمته، وتولّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلا حتى رقّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التى يقول فيها :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغ الجاهلُ من نفسهِ
والشيخُ لا يترك أخلاقه ... حتى يُوارَى فى ثرَى رَمْسِهِ[2]
إذا ارعوى عاد إلى جهلهِ ... كذى الضَّنَا عاد إلى نُكْسه[3]
وإن من أدَّبْته فى الصِّبا ... كالعود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ
حتى تراه مورِقاً ناضرا ... من بعد ما أبصرتَ من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثانى ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضُربتْ عنقه وصُلب على الجسر ببغداد عقابًا له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

---

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .
(٢) الرمس : القبر .
(٣) الضنا هنا : المرض ، والنكس : الانتكاس أى رجوع الناقه إلى مرضه .

شيوعُ ذلك فى أشعاره ابنَ المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقولـــه :

وليس بعجزِ المرء إخطاؤه الغِنى ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسبُهْ
ولكنه قبْضُ الإله وبَسْطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبـــه

يقول ابن المعتز : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟ ». وكأنما أحس أنه يصدر فى البيت الثانى عما جاء فى الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل فى شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله فى عَرْض السموات جَنَّةٌ ولكنهـــا محفوفةٌ بالمكارهِ

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثانى فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكارة وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوى أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصرى لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا فى ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد فى الدنيا الفانية فهى دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عنهم وعن أبى العتاهية فى غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون فى زندقة أبى العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن فى زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانويًّا كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم فى البصرة حقباً متطاولة .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله فى تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن فى ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم[1] ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر فى الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

قصيدته الزينبية التى تغزل فى مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه يُعْدِى كما يعدى الصحيحَ الأَجربُ
يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ وإذا توارى عنك فهْو العَقْرَبُ
يعطيك من طَرَف اللسان حلاوةً ويَروغُ منك كما يروغُ الثَّعْلَبُ
واخْتَرْ قرينك واصطفيه تفاخراً إن القَرين إلى المقارن يُنْسَبُ
واحفظْ لسانك واحترسْ من لفظهِ فالمرء يسلم باللسان ويَعْطَبُ
والسِّرَّ فاكتُمْه ولا تنطقْ بهِ إن الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَبُ (١)

ومن نمط هذه القصيدة الحكمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية، وفيها يقول :

المرءُ يجمع والزمانُ يفرِّقُ ويظل يَرْقَعُ والخطوبُ تمزِّقُ
ولأَنْ يعادِىَ عاقلا خيرٌ له من أن يكون له صديقٌ أحمق
فارْبَأْ بنفسك أن تصادق أحمقاً إن الصديق على الصديق مصدَّق
وزنِ الكلام إذا نطقتَ فإنما يُبْدِى عقولَ ذوى العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره فى صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدى الأجيال التالية، إلا قليلا ، وتنبَّه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة فى قصائد مختلفة لسارت فى الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تَسِرْ ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع (٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكمية وظلت تدور فيها من مثل قوله فى العزاء :

إن يكن ما به أُصِبْتَ جَليلا فلفقدُ العزاء فيهِ أَجَلُّ

(١) يشعب : يصلح .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦ .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَكَ بعد ما هَرِمَتْ ومن العَناء رياضةُ الهَرِمِ[1]

وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

## ٣

### شعراء الزهد

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما ينى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سَفْرٌ وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتًا وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها ما ينشئونه إنشاء ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاصّ العابد من أنه كان كثيراً ما ينشد فى قصصه ومواعظه :

---

(١) العرس : الزوجة .

فبات يرَوِّى أصولَ الفَسيل     فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ [١]

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود ، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر ، يقول[٢] :

أَتيت القبورَ فناديتها     نَ أَين المعظَّم والمحتقَرْ
وأَين المدِلُّ بسلطانهِ     وأَين المزكَّى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبرٌ     وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرَى     فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَرْ
فيا سائلى عن أُناسٍ مضوا     أَمالك فيما ترى مُعْتَبَرْ

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثورى . وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح فى نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد ، حتى بين المجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجناً هجاء خبيثا ، فقد ألم يوماً بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفُضَيْل بن عياض ، فأنشد[٣] :

وَيْلٌ لمن لم يرحم اللهُ     ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
واغَفْلَتَا فى كل يومٍ مضى     يُذْكرنى الموتَ وأنساه
من طال فى الدنيا به عُمْرُهُ     وعاش فالموت قُصاراه
كأَنه قد قيل فى مجلسٍ     قد كنت آتيهِ وأَغشاه
محمدٌ صار إلى ربِّهِ     يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ والفسيل : صغار النخل .
(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٩.

الزهدمكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس فى اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير فى طريق غواية ، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضاً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله[١] :

ومنتظرٍ للموت فى كل ساعةٍ يَشيد ويبنى دائماً ويحصِّنُ
له حين تبلوه حقيقةُ موقنٍ وأفعاله أَفعالُ من ليس يوقن

وقوله الذى مرّ بنا فى الفصل الرابع :

اضرَعْ إلى اللهلا تَضْرَعِ إلى الناسِ واقْنَعْ بيأْسٍ فإنالعزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رحمٍ إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم ، وممن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله[٢] :

عِشْ ما بدالك ، قَصْرُك الموتُ لا مهربٌ منهُ ولا فَوْتُ
بَيْنَا غِنَى بيتٍ وبَهْجَتُـــه زال الغِنَى وتقوَّض البَيْتُ

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما فى أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان واليًا على السِّند ، وجّه إليه يستزيره فكتب إليه[٣] :

أَبْلِغْ سليمان أَنى عنه فى دعَةٍ وفى غِنًى غير أنى لست ذا مالِ
سَخًّى بنفسىَ أَنى لا أَرى أحداً يموت هَزْلا ولا يبقى على حالِ

(١) انظر فى هذين البيتين وتاليهما العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) البيان والتبيين ٣/١٨٣ .
(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

الرِّزْق عن قَدَرٍ ، لا الضعفُ ينقصه ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتالِ
والفقرُ فى النفس لا فى المال تعرفه ومثلُ ذاك الغِنَى فى النفس لا المالِ

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسٍّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصوِّر ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة(١) :

أحبُّك حُبَّيْن : حُبَّ الهوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأَما الذى هو حبُّ الهوى فشُغْلى بذكرك عمن سواكا
وأَما الذى أنت أَهلٌ له فكَشْفُك لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه ، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفى المجرد الذى يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتتضح لنا المعانى التى كانوا يرددونها فى أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

### عبد الله (٢) بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمى ولاءً ، التركى

(١) قوت القلوب للمكى ٣ / ٨٤ وإحياء علوم الدين للغزالى ٤ /٢٦٧ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن المبارك وأشعاره الأنساب للسمعانى ١٧٩ ا وتاريخ بغداد برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ٤ /١٠٩ وتذكرة الحفاظ للذهبى ( طبع حيدر أباد ) ١ / ٣٥٤ والتهذيب لابن حجر ٥ / ٣٨٤ والنجوم الزاهرة ٢ /١٠٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨ /٢٧٩ ومختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ( طبعة الموسوعات ) ص ٨٥ .

المروزى أباً ، الخوارزمى أمًّا ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفيان الثورى : « لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويُلقى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طَرسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية ، وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فتات الموائد ، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفا كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء ، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائمًا نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلبًا للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك ، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريفة توضح ذلك أتم توضيح ، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجَّهَ بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعهِ ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يُتْعِب خَيْله فى باطلٍ ... فخيولُنا يوم الصَّبيحة تَتْعَبُ
رِيحُ العِبيرِ لكم ونحن عَبيرُنا ... وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبيِّنا　　قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ
لا تستوى أَغْبارُ خَيْل الله فى　　أَنْفِ امرىءٍ ودخان نارٍ تَلْهَبُ(١)
هذا كتاب الله ينطق بيننا　　ليس الشهيد بميِّتٍ لا يَكْذِبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب. وهو يصور الهوة التى تفصل بينهما، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماءه، متخذاً الخيل العاديات لا فى لهو وإنما فى التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيبا بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقى، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهى تقدح الأرضَ قدحاً. ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا» كما يشير إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت، بل يظل حيا عند ربه حيَّاة خالدة: (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يُرْزَقُون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفى موضع آخر من التنزيل: (ولا تقولوا لمن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون). وهى ميزة خصّ بها الله سبحانه المستشهدين فى سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك، إذ جعلهم يحيون فى قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه.

ولابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون فى مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادَّة، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيَّة وَلِى الصدقات بالبصرة، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له: أحب أن تبعث إلىَّ إخواننا من القُرّاء لنَشْغَلَهُمْ، فأجابه: القُرَّاء ضربان: قوم طلبوا هذا الأمر (أى قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم فى لقائك، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضرُّ على الناس من الشُّرَط، وألحق بجوابه هذه الأبيات:

---

(١) الأغبار: جمع غبرة، وهى الغبار.

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا ... يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدين
وصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواءً للمجانين
أَين رواياتُك فيما مضى ... عن ابن عَوْنٍ وابن سِيرينِ
أَين رواياتك فى سَرْدها ... فى ترك أَبواب السَّلاطين
إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ ... زلَّ حِمَارُ العلم فى الطِّين

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : «كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا» ونظم ذلك شعراً قائلا :

أَرى أُناساً بأَدنى الدينِ قدقنعوا ... ولا أَراهم رضوا بالعَيْش بالدُّونِ
فاسْتَغْنِ بالدِّين عن دنيا الملوك كما اسـ ... تغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طيِّاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حَيَّة لينًا مسُّها قاتلا سَمُّها :

حلاوةُ دنياك مسمومةٌ ... فما تأكل الشَّهْدَ إلا بِسَمّْ

وهى خَدّاعة غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أو مصيبة موجعة ، فمن جرَّعته يوما حلاوتها جرَّعته أياما مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً ... شِيبَتْ بأَكْرَهَ من نقيع الحَنْظَلِ
وبناتُ دهرٍ لا تزال مُلمَّةً ... فيها فجائعُ مثل وَقْع الجَنْدلِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب ... ويَخْترمُ العقلَ إدمانُها
يبيع الفتى نفسَه فى رَداه ... وأَسْلَمُ للنفس عصيانُها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم فى الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترح ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

## محمد[1] بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بنى أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة فى بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماؤهم فى نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافًا أتاح له أن يُحمَل الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ فى رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان — كما يقول أبو الفرج — امرءًا صالحًا فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والانعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمها دائمًا زائلة ونقمها نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بِلًى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهى عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حريًّا به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدُّنْيَا تُبَقِّيكَ لِلبِلَى ... وأنك فيها للبقاء مريدُ
وأَىُّ بنى الأَيام إلا وعنده ... من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتَليدُ
ومن يأمن الأَيامَ أَما اتّساعها ... فَخَطْرٌ وأَما فَجْعُها فَعتيد[2]
إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوى ... فإن فِطامَ النفس عنه شديد

---

(١) انظر فى ابن كناسة وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٣٣٧ ، والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٢ / ١٨٥ .

(٢) اتساعها : نعيمها . خطر هنا : متقطع . عتيد : مهيء حاضر .

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه فى طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث فى عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل فى قلبه ، أو كأنه يَعِظُ ولا يتعظ ، وفى ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أدباً ولم يعمل بهِ ... ويكفَّ عن زَيْغ الهوى بأَديبِ
حتّى يكون بما تعلَّم عاملا ... من صالحٍ فيكونُ غير معيب
ولقلما تُغْنِى إصابةُ قائلٍ ... أَفعاله أفعالُ غيرِ مصيب

فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير فى القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضئ الدار ويحرق نفسه .

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة ، وهو يعيش فى كفاف وبُلْغَ وصُبابة ، فكان يردهم ردًّا منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمما ، غير راغب فى متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذى ينتظره والذى يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلا عن أن يمدحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغى أن لا يتجاوز فى طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيبًا بعض لائميه :

تؤنّبنى ــ أن صُنْتُ عِرْضى ــ عصابةٌ ... لها بين أَطنابِ اللئام بَصِيصُ (١)
يقولون لو غمَّضْتَ لازددتَ رِفْعَةً ... فقلتُ لهم إنى إذنْ لحَرِيصُ (٢)
أَتَكْلِمُ وجهى ــ لا أَباً لأَبيكمُ ــ ... مطامعُ عنها للكرام مَحِيصُ (٣)
معاشى دُوَيْنَ القوت ، والعِرْضُ وافرٌ ... وبَطْنِىَ عن جَدْوى اللئام خَمِيصُ (٤)

---

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستعارة واضحة . بصيص : بريق .
(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع
(٣) تكلم : تجرح .
(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

سأَلْقى المنايا لم أُخالط دَنِيَّةً ولم تَسْرِ بى فى المخزيات قَلُوص(١)

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة فى الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزناً عميقاً ، صوَّره فى قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمدُ لله لا شريكَ له ياليت ما كان منكِ لم يكن
إن يكن القول قَلَّ فيك فما أَفْحَمَنى غيرُ شدَّة الحَزَن

وله مرثية طريفة فى خاله إبراهيم بن أدهم ، وهى ترسم صورة العابد الناسك فى العصر العباسى الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلا على عبادة ربه ، قامعا لدواعى الهوى فى نفسه ، متحليا بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً فى ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائماً مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذى لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفى ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغِنى والثراء :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغِنَى وقد كان يكفِى دون ذاك ابنَ أدْهما
وكان يرى الدنيا صغيرا عظيمُها وكان لحقِّ الله فيها معظِّما
أمات الهوى حتى تجنَّبه الهَوَى كما اجتنب الجانى الدَّم الطالب الدَّما
وللحلم سلطانٌ على الجهل عنده فما يستطيع الجهل أن يَتَرَمْرَمَا(٢)
وأَكثر ما تلقاه فى القوم صامتاً وإن قال بَذَّ القائلين وأَحكما
يُرَى مستكيناً خاضعاً متواضعاً ولَيْثاً إذا لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما

---

(١) القلوص من النوق : الشابة .

(٢) يترمرم : لا يتحرك للكلام .

سلامٌ وبِرٌّ ، ما أَبَرَّ وأكرما[١] على الجَدَثِ الغربىِّ من آل وائلٍ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصْفِى قلبه وعقله للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمنًا بأنه الغاية العليا التى ينبغى أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ، وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

**محمود[٢] الوراق**

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان فى فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفى أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواريه وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحدا ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها وجهًا ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فملكت عليه لُبَّه وقلبه ، وحدث أن رقّت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفرَّ لها خفض العيش عند غيره ، وتنافس الناس فى اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم ، فمال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى أختار عيشة الفقر معك ، فرقَّ لها وحرَّرها وأصدقها داره ، وكانت كل ما يملك . ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللائى كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض له فى إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها فى ميراثه بخمسة آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربص بلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت.

ولعل العصر العباسى الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغى أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب معصية ، وإلا أوثقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحرى

---

(١) الجدث : القبر .

(٢) انظر فى محمود وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ١٣/٨٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٧، ٤٢٢ والبيان والتبيين ٣/١٩٧ وما بعدها والعقد الفريد ١/٢٢٨ ، ٢/٢٨٥ ، ٣/١٧٩ ، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٥ وما بعدها ، ٦/٤٠٤ وفوات الوفيات ٢/٢٨٥ وعيون الأخبار ٣/٥٣ .

بمن ألهته الدنيا ، وتراكمت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل فى جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا ترنو بعينى راقدٍ ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهدِ
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابدِ
ونسيتَ أن الله أخرج آدماً منها إلى الدُّنْيا بذنبٍ واحدِ

لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجافى الذنوب والآثام حتى يكون حقًّا مطيعاً لربه ، وهى طاعة لا تتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لا تتم محبته محبة صحيحة إلا إذا ألحَّ الإنسان فى التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً المعاصى وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعًا إلى الله متبتلا له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّه هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كنت تضمر حبَّه لأَطعته إن المحبَّ لمن أَحبَّ مُطيع
فى كل يومٍ يَبْتَليك بنعمةٍ منه وأنت لشكرِ ذاك مُضيع

وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة ، بل تفاؤلا وأمنا ، فلا يخشى شيئًا ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَرُ الله كائنٌ حين يُقْضَى وُرُودُهُ
قد مضى فيك عِلْمه وانتهى ما يريده

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدِّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده المقدور ولو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أتطلب رزق الله من عند غيرهِ وتصبحُ من خوف العواقب آمنا
وترضى بعرَّافٍ[1] وإن كان مُشْركا ضَمينا ولا ترضى بربِّك ضامنا

(١) العراف : المنجم والناظر فى الغد .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفيُّ بعهدهِ فلم يُرْضَ والإنسان فيهِ عجائبُ
عليمٌ بأن الله موفٍ بوعدهِ وفى قلبه شكٌّ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أدَّاه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عندالله وما ادَّخره له فى يومه وغده ، وأن يُقلع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لايكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، بل إن شدةالطمع تؤدى بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ،والغنى الحقيقى هو غنىُّ النفس القانع لا غنىّ الثراء الجشع ، وفى ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإنْ كان مُقِلاًّ فهو المُكْثِرُ
الفقرُ فى النفس وفيها الغِنى وفى غنَى النفس الغِنى الأكبر

ويكثر محمود من تقريع غنىِّ المال فقير النفس ، مصوراً جشعه فى جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه فى طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذى لا يقف عند حد، إذ فتَنَته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شىء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصَلُّوا وله حَجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثُّرَيَّا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماًيقول ألا تبَّاً للغنى الذى يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التى يعيشها الزهاد ، غير ملتمسين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ،ويكفى فقر الزهادسمواً أنك لا تجدفقيراً يعصى اللهليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحيانًا أبواب المعاصى ومن ورائها أبواب سقر ، وفى ذلك يقول هذه الأبيات التى أنشدناها فى الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ     عَيْبُ الغِنى أكثر لو تَعْتَبِرْ

من شرف الفقر ومن فضلهِ     على الغِنى إن صَحَّ منك النَّظَرْ

أنك تعصى كى تنال الغِنى     وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرَّع بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها همٌّ تِلْو همٍّ وأن كل شىء فيها إلى فناء ، يقول :

يمثِّل ذو اللُّبِّ فى نفسهِ     مصائبَه قبل أن تنزلا

فإن نزلتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ     لما كان فى نفسه مثَّلا

رأى الهمَّ يفضى إلى آخرٍ     فصيَّر آخِرَه أوّلا

وذو الجهل يأْمن أيَّامه     ويَنْسَى مصارعَ من قد خلا

فإن بَدَهْتُه صروفُ الزمان     ببعض مصائبِه أعْوَلا

ولو قدَّم الحزمَ فى أمرِهِ     لعلَّمه الصَّبْرَ عند البَلا (١)

وموقف سادس هو اتخاذه من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد خلال البياض كان حريًّا بالإنسان أن يقلع عن غَيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكى ويتفجع على نفسه ، فالحياة توشك أن تنقضى ويوشك ظِلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر عن الأفراد والأمم ، يقول :

بكيتَ لقُرْب الأَجَلْ     وبُعْد فوات الأَمَلْ

(١) البلا : مقصور البلاء .

ووافدِ شَيْبٍ طَرَا بِعقْبِ شبابٍ رَحَلْ
شبابٌ كأن لم يكن وشيبٌ كأَنْ لم يَزَل
طواك بَشِيرُ البقاء وحَـلَّ بشير الأَجَلْ
طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّولْ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد فى ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهى خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله : ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى ) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البِرَّ والمحبة فى قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والمثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود فى تصوير عفوه عن بعض ظالميه قائلا :

إنى وهبتُ لظالمى ظُلْمى وغفرتُ ذاك له على علْمِ
ورأيتُه أَسْدى إلىَّ يَدًا لما أَبان بجهله حِلْمى
رجعتْ إساءتُه عليه وإحْ سانى إلىَّ مضاعَف الغُنْمِ
وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدةٍ وغدا بكسْب الظلم والإِثْمِ
وكأنما الإِحسان كان لَهُ وأنا المسىءُ إليه فى الحكمِ
ما زال يظلمنى وأَرحمه حتّى رثيتُ له من الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحى لا ينضب ، فهو تارة يرغب فى محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثّاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى فى حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

٤

## شعراء الاعتزال

تحدثنا فى الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية فى هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملئوا مساجد البصرة بجدالهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم فى أن القرآن مخلوق عقيدةً رسمية للدولة. وكانوا — كما أسلفنا — يعلون النظر العقلى إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل — كما مرَّ بنا فى الفصل الرابع — بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره ، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدَّاهم ذلك إلى البحث فى العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضًا بين الله والطبيعة ، ففيها علل ثانوية فعّالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان ، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثَّه حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلها واحداً خالقا حكيما ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة فى الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا فى هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك فى الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارىء بآرائهم ومذاهبهم فى كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادىء الموجودات والجسمانيات والروحانيات التى وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات فى الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال فى هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلا ما يزال يرفد الفكر العربى بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا فى مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون فى الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث فى الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا فى فاتحة هذا العصر صفوان الأنصارى تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى فى الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالى إبليس على آدم معتذراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان فى تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلا ويتحدث عن أتباعه وذبّهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد فى الخصومة ، وكيف يضربون فى أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيمائهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفى أستاذهم يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عَصْرِهِ ... فمَنْ لليتامى والقبيل المكاثرِ [1]
ومنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كلِّ كافر
له خَلْفَ شِعْبِ الصِّين فى كل ثُغْرَةٍ ... إلى سُوسها الأَقْصَى وخلفَ البرابر

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعففات من النساء ليصرف صدقته إليهن . وانظر فى الأبيات البيان والتبيين ١ / ٢٥ وما بعدها .

رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكرِ
وأَوتادُ أرض الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمِ التشاجُرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له فى ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس فى رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه فى الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليته التى أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب فى بيان فضائل الأرض ، بادئًا بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف فى الحجارة والزند ، ثم يفيض فى بيان طرائفها المبثوثة فى البحار من لآلىء وغير لآلىء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى فى الجبال والحرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله فى ذلك (١) :

زعمتَ بأَن النارَ أكرمُ عُنْصُرًا وفى الأَرض تَحْيَا بالحجارة والزَّنْد
وتُخْلَقُ فى أرحامها وأَرومها أَعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْدِ (٢)
وفى القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤْلؤْ المكنون والعنبر الوَرْد (٣)
وفى قُلَلِ الأَجْبال خلف مقطَّمٍ زبرجدُ أَملاك الورى ساعةَ الحَشْد (٤)
وفى الحرَّة الرَّجْلاء تُلْفَى معادنٌ لهنَّ مغاراتٌ تبجَّسُ بالنَّقْد (٥)
من الذهبِ الإبريز والفضة التى تروق وتُصْبِى ذا القناعة والزُّهد
وكل فِلِزٍّ من نحاسٍ وآنُكٍ ومن زئبقٍ حَىٍّ ونوشاذُرٍ يُسْدِى (٦)
وكلٌّ يواقيتِ الأَنام وحلْيها من الأَرض والأَحجار فاخرةِ المجد

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٧ .
(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطىء الشرقى للنيل .
(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة . الرجلاء : الوعرة الخشنة . تبجس : تتفجر .
(٦) آنك : رصاص . النوشاذر بالذال والدال : حجر أبيض صاف كالبلور .

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكْنُ والصَّفَا ... ومُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلْدِ

ويأخذ صفوان بعد ذلك فى بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردد آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع الصحابة لتركهم بيعة على وطعن فى على لقبوله التحكيم ولأنه قعد فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص . ويظهر أيضًا أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان ومانى عن النور والظلمة وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلى الناعظية وأبى منصور العجلى وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أتجعلُ عَمْرا والنِّطاسِيَّ واصلا ... كأتباعِ دَيْصانٍ وهُمْ قُمُشُ المدِّ(١)

فيا ابنَ حليفِ الطِّين واللؤم والعمى ... وأبْعدَ خَلْقِ اللهِ من طُرُقِ الرُّشْدِ(٢)

أتهجو أبا بكرٍ وتخلع بعده ... عليًّا وتَعْزُو كلَّ ذاك إلى بُرْد(٣)

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه ... وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيت على حقْدِ

أتجعل ليلى الناعظيَّةَ نِحْلَةً ... وكلَّ عريقٍ فى التناسخ والرَّدِّ

وقد خلص بشار بعد ذلك للمذاهب المجوسية وعبادة إلهى النور والظلمة . ولم يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده . وسنرى بشر بن المعتمر يسير على هديه فى هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذى نلقاه بأخرة من هذا العصر ، وقد أنشد له القالى قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضى أحد متكلمى الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه فى صورة إنسان وله نفس الحواس الخمس ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً ، وله يقول العطوى فى بعض رَدِّه (٤) :

جلَّ رَبُّ الأَعراض والأَجسامِ ... عن صفات الأَعراض والأَجسامِ

---

(١) قمش : أراذل .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً يضرب اللبن .

(٣) ذحل : ثأر . لايبيت على حقد : يريد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمالى القالى ٢/٢٣٦ .

جلَّ ربِّى عن كل ما اكتنفتْه لحَظاتُ الأَبصار والأَوهـام
بَرِئَ اللهُ من هشامٍ وممن قال فى الله مثلَ قول هشامِ
قُلْ لمن قال قوله ورآه خيرَ مسترشَدٍ وخير إمامِ
لمَ أنكرتَ قول من عبد الشَّمْـ سَ وصلَّى للأَنْجُم الأَعلامِ
ما الدليلُ المبِينُ عن حَدَث العا لم أَفْصِحْ به لَدَى الأَقوامِ
لا دليلٌ فلا تَرُمْهُ وقد قُلْـ تَ كبعض الأَنام ربُّ الأَنامِ
لم تُرِدْ غير قِدْمَةِ الخَلْق فاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعْ مناقَضات الكلامِ

وواضح أن العطوى يرى فى التشبيه على الذات الإلهية تعطيلا للألوهية ، فالله بنصِّ القرآن ليس كمثله شىء وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديما مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بغض المتكلمين أمثال هشام حربا عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحادث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقه قائمة فى بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم فى أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفى ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسْبَقْ إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفَّ شعره على كل لسان ورُوِىَ واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إماما » . وقد أنشد له أبو الفرج فى أغانيه طائفة من الأشعار فى أغراض مختلفة ، وهى تصور كيف كان يطلب الإطراف فى المعنى والخيال من مثل قوله يرثى أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة فى عصره ومقدَّمهم عند المعتصم والواثق[١] :

أَحْنَطتهُ يا نَصْرُ بالكافورِ وزَفَفْتَهُ للمنزل المهجورِ [٢]

(١) الأغانى ٢٠/٥٨ .
(٢) أحنطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حَنَّطته  فيَضُوع أُفْقُ منازلٍ وقبور[١]

وقوله فى رثائه أيضًا[٢]:

وليس نسيم المسك ريًّا حَنوطِه  ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ[٣]

وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله فى وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أشعار كثيرة نقع فيها على المعانى النادرة من مثل قوله: [٤]

فكم قالوا تَمنَّ فقلت كأْسٌ  يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ

ونَدْمانٌ تساقطنى حديثاً  كلحظ الحبِّ أو غَضِّ الرَّقيب

وعلى هذا النحو كان العطوى يتأتى لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشىء من التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم فى هذا العصر وهم العتابى وبشر بن المعتمر والنظام .

## العتَّابى [٥]

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التَّغْلِبِيّ ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات السبع ، وُلد ونشأ فى قِنَّسْرين بالشام ، ثم سكن الرَّقَّة بالموصل ، وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شُغف بالمعتزلة والاعتزال ، كما شُغف بالآداب الفارسية شغفًا أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسى ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع إكبابه على هذه الكتب ونسخه

(١) يضوع : يفوح .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٥٩ .
(٣) ريا : شذى ورائحة .
(٤) أغانى ٢٠/٥٩ .
(٥) انظر فى العتابى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص٢٦١ والشعر والشعراء ص٨٣٩ والبيان والتبيين ١١/٥،١٢٠ ، ٢٢٠ ، ٥٣/٣ ، ٥٦/٤ والحيوان ٦٢/٣ ، ٤٨٣ والأغانى ١٣/١٠٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء ١٧/٢٦ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٣٣٧ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٤٨٨ والفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/١٨٦ .

لكثير من صحفها ومعانيها ، مما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها ، وقد ابتدره قائلا : هل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم . وكان طبيعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلسفة ، بل يظهر أنه تعمق فى قراءتها ، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف فى علم المنطق كتاباً اشتهر فى عصره ، وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم ، وفيه يقول المسعودى : « كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس فى عصره مثله » وكان إلى ذلك يتزهد فى متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين . وسمع يحيى ابن خالد البرمكى وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه، وأخذ يضفى عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نوالهم ، وهو يضفى عليهم من مدائحه ، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد ، فمدحه ونال جوائزه السنية ، مع انقطاعه لهم . ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله ، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة ، فطلبه ، وخشى البرامكة مغبة طلبه ، فستروه عنه مدة ، وقيل إنه هرب إلى اليمن ، وما زال يحيى بن خالد — وقيل ابنه جعفر — يستعطف الرشيد عليه ، حتى استل ما فى نفسه وأمّنه . ويُرْوَى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريف الخارجى الشيبانى ، لاشتراك بعض أفراد قبيلته معه، غير أنه مثل بين يديه يتنصّل من الجرم الذى جناه بعض قومه، وكان يزيد بن مزيد الشيبانى قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها ، فرضى عنه ووصله .

وما زال العتابى منقطعاً إلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلا أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد فى العصر . ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين فى ديار الجزيرة شمالى العراق . ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلّة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابى إليه ، ووالى بره ونواله عليه .

وقد أشاد القدماء بشعر العتابى وبراعته فى الحوار فى كل ما كتب من رسائل ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان العتابى مجيداً مقتدراً على الشعر عذب الكلام

وكاتبا جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرِّف فى فنون الشعر ومقدَّم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتَّابى ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحَذْوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولَّدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع » . ويقول فى موضع آخر من بيانه : « العتابى يذهب شعره فى البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب ، بل يقصد أيضًا المعانى الطريفة النادرة التى أتاحت للعتابى ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها فى معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب. وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة فى الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بِحُوَّارين من طللٍ ... ودِمْنَةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ (١)

شجاك حتى ضميرُ القلبِ مشتَرِكٌ ... والعينُ إنسانها بالماءِ مغمور (٢)

فى ناظرىّ انقباضٌ عن جفونهما ... وفى الجفون عن الآماق تقصير

لبِسْتَ أَرْدِيَةَ النُّوَّار من طللٍ ... وزِلْتَ أخضرَ تعلوك الأزاهير (٣)

وواضح ما فى هذا المطلع من دقة فى التفكير ، فهو يصور شجوَ نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل فى هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح فى البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضًا بدقة الحسِّ على نحو ما نرى فى دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسوًّا

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمنة : آثار الديار .

(٢) مشترك : مهموم .

(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله فى الرشيد :

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ    ما بينهنَّ وبين الله معمورُ
فُتّ المدائح إلا أن أنفسنا    مستنطَقاتٌ بما تحوى الضّمائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد    ناداك فى الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائمًا فى مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها    عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها    سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها
وأَصْمَعُ يقظانٌ يبيت مناجياً    له فى الحَشَا مستودَعاتٌ يكيدها
سميعٌ إذا ناداه فى قَعْر كُرْبَةٍ    منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدها

ونحس فى هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف فى تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى فى معارض مختلفة ، يرفده فى ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذى لا يزال يثير فى نفسه الخواطر التى تبهر السامعين من مثل قوله فى الرشيد ، معيدا للمعانى السابقة فى هيآت جديدة :

رَعى أمَّةَ الإسلام فهْو إمامها    وأدَّى إليها الحقَّ فهْو أمينُها
ويستنتج العَقْماءَ حتى كأنما    تغلغل فى حيث استقرَّ جَنينُها(٢)
وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى    ولا كلُّ من أَمَّ الصُّوَى يستبينها(٣)
مقيمٌ بمُسْتَنِّ العُلا حيث تلتقى    طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونُها(٤)

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه فى حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته فى حلّ المشاكل

(١) أصمع : يقظ القلب فطن حاذق . يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .
(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكتنّ فى أعماقها وأرحامها من حلول خفية، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب. وواضح ما يُعْنَى به العتّابى من دقة فى معانيه وطرافة، ويُرْوَى أنه دخل سرًّا مع المتظلمين إلى الرشيد فى بعض سخطاته عليه، فأنشده:

أَخِضْنِى المُقَامَ الغَمْرَ إن كان غَرَّنى ... سنَا خُلَّبٍ أو زلَّتِ القدمان(١)

أتتركنى جَدْبَ المعيشة مُقْتِرًا ... وكفَّاك من ماءِ النَّدَى تَكِفَان(٢)

وتجعلنى سَهْمَ المطامع بعد ما ... بَلَلْتَ يمينى بالنَّدَى ولِسَانى

فأعجب الرشيد قوله، وأجازه جائزة سنية. وكان جعفر البرمكى أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد فى موجدة له أخرى عليه، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فقال يمدحه:

ما زلتُ فى غَمرات الموت مطَّرَحاً ... قد ضاق عنى فَسِيحُ الأَرض من حِيَلى(٣)

ولم تزل دائباً تَسْعَى بلطفك لى ... حتى اختلستَ حياتى من يَدَىْ أجلى

وهذا البحث عن المعانى النادرة أشاع فى شعر العتابى ظاهرة لم تكن مألوفة هى قِصَرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة فى كثير من الأحيان، وكأنما يتشبه فى ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التى كان يعكف عليها والتى يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع، ومما يصوِّر ذلك عنده أجمل تصوير ما يُرْوَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوما فأنشده مادحًا:

حُسْنُ ظَنِّى وحُسْنُ ما عوَّد اللَّـ ... ـهُ سواىَ منك الغداةَ أَتى بِى

أىُّ شىءٍ يكونُ أحسنَ من حُسْـ ... ـنِ يقينٍ حَدَا إليك رِكابِى

ثم دخل عليه من الغد، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما فى الفصل السادس:

---

(١) المقام الغمر: المقام الشديد. سنا خلب: ضوء البرق الذى لا يعقبه مطر.

(٢) مقترا: ضيق الرزق. الندى: الجود. تكفان: تهملان وتسيلان.

(٣) غمرات: شدائد.

وُدُّك يكفينيك فى حـاجتى ورؤيتى كافيـةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كفَّاك لى بيت مال

ثم دخل فى اليوم الثالث ، فأنشده :

بَهجاتُ الثيابِ يُخْلِقها الدَّهْـ ـرُ وثوبُ الثناء غَضٌّ جديدُ
فاكْسُنى ما يَبيدُ أصْلَحَكَ اللـ ـهُ فيكسوك اللهُ ما لا يَبيدُ

وواضح أنه حول قصيدة المديح إلى بيتين قصيرين ، يحملان معنى طريفا ، وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير ، بل بعد التوقف وطول التنقيب . وعلى نحو ما يلقانا ذلك فى مديحه يلقانا فى عتابه من مثل قوله :

رَحَلَ الرَّجاءُ إليك مُغْتَرِباً حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّتْ إليك ندامتى أملى وثَنَى إليك عِنانَه شُكْرى
وجعلتُ عَتْبَكَ عَتْبَ موعظةٍ ورجاءَ عفوك مُنْتَهى عُذْرِى

وله غزليات تُطْبَع بنفس الطوابع العقلية والخيالية ، فهو ما يزال يحاول فيها استنباط المعانى والصور الدقيقة على شاكلة قوله :

رُسُلُ الضمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالعةٌ وحَسْرَى[١]
ما جفَّ للعينين بَعْـ ـدك يا قريرَ العَيْن مَجْرى
إن الصبابة لم تَدَعْ منى سوى عظمٍ مُبَرَّى[٢]
ومدامعٍ عَبْرَى على كبدٍ عليك الدَّهْرَ حَرَّى[٣]

وأدَّاه طول نظره وفحصه للمعانى إلى أن يجردها ويجسمها أحيانا ، وأحيانا أخرى يتعمق فيها ويتغلغل إلى لبها ، مستخرجًا بعض الصور أو بعض الحكم ، من مثل قوله مجسداً لشكره :

---

(١) ظالعة : من الظلع وهو العرج من كثرة السير . حسرى : متعبة .
(٢) مبرى : مهزول .
(٣) حرى : محترقة .

فلو كان للشكر شَخْصٌ يَبِينُ   إذا ما تـأَمَّله الناظرُ
لمَثَّلْتُهُ لك حتّى تراه   لتعلم أنى امرؤٌ شاكرُ

وقوله فى ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لومٌ يُعيذك من سوءٍ تُقارفهُ   أَبقى لعِرْضك من قوْلٍ يُداجيكا[١]
وقد رمى بك فى تَيْهاءَ مهلكةٍ   من بات يكتمك العيبَ الذى فيكا[٢]

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعًا ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجّة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذى وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعى نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنّى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وكم نعمةٍ آتاكها الله جَزْلَةٍ   مبرَّأَةٍ من كلِّ خُلْقٍ يَذيمُها[٣]
فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً   تعاورْنها حتى تفرَّى أديمُها[٤]
وكنت امرءًا لوشئتَ أن تبلغ المَدَى   بلغتَ بأدنى نعمةٍ تستديمها
ولكنْ فِطامُ النفس أعْسَرُ محملا   من الصخرة الصَّمَّاء حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعانى محتالا لذلك متلطفًا له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته فى معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه فى سنة ثمان ومائتين .

---

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك: ينافقك .
(٢) تيهاء : فلاة مضلة .
(٣) يذيمها : يعيبها .
(٤) تفرى : تقطع .

## بشر [1] بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفى الأصل ولعله تحوّل منها أولا إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله فى ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضًا مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكى ، وربما كان السبب الحقيقى فى توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرًّا ، ففسحوا له فى مجالسهم ، ونصّ كثيرون على هذه النزعة ، يقول النوبختى إنه كان يوافق الشيعة فى الحكم على علىّ بأنه كان مصيباً فى حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضًا كان مصيبًا فى قبوله التحكيم . ويقول ابن أبى الحديد: « كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل على عليه السلام (أى على أبى بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفى كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتًا من أرجوزة يقول فى بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على فى صِفّين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا فى الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التى تكونت حول آرائه ، والتى سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التى كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضًا أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذى يجب عليه

---

(١) انظر فى بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٤/٢٣٩ و ٦/٦٢ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و ٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها وأمالى المرتضى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٣٣ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلى والأنساب للسمعانى فى البشرى وفرق الشيعة للنوبختى ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبعة الحلبى) ٣/٣١٦ والملل والنحل للشهرستانى ص ٤٤ والمواقف للإيجى (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ٣/١٤١ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١.

حقًّا هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلى نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالا بعيداً حتّى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا فى الفصل الرابع أبياته التى يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التى تجعل الإنسان يميز الشر من الخير ، ويدرك الحسن فيعتنقه والقبيح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم فى فهرسته .

وكان حسن الجدال قوى الحجة ، وهو يُعَدّ فى الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه فى بيانه صحيفة طويلة فى البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى فى صورتها الدقيقة ، وقد حللناها فى كتابنا « البلاغة [1] : تطور وتاريخ » . وهى تشهد له ببصره النافذ فى معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضًا بارعاً فى نظمه ، غير أنه لم ينظمه فى الأغراض الغنائية التى تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه فى الاتجاه التعليمى الذى كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله فى صنوف خَلْقه ، مما يمكن أن يدخل فى التاريخ الطبيعى ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى منه على المخمَّس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شىء من مخمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّ فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التى أنشدها له صاحب الانتصار فى التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جَهم مقتبسة هى الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ... ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

---

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

إمامُهم جَهْمٌ وما لجهْم وصَحْبِ عمرو ذى التقى والعلم

ومعروف أن جهما كان يؤمن بالجبر وينفى استطاعة الإنسان وحرية إرادته مما كان يعتنقه المعتزلة وأساتذتهم أمثال عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وروى الجاحظ فى الجزء الرابع من حيوانه مقطوعة من إحدى أراجيزه ، وربما كانت هى الأخرى من الأرجوزة السالفة ، وكذلك ما روى فى الجزء السادس من تفضيله لعلى بن أبى طالب على الخوارج ، إذ يقول :

ما كان فى أسلافهم أبو الحَسنْ ولا ابنُ عبَّاسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ
غُرٌّ مصابيحُ الدُّجى مَناجِبُ أولئك الأَعلام لا الأَعاربُ
كمثل حُرْقوص ومنْ حرقوصُ فقعةُ قاعٍ حولها قَصِيصُ(١)
ليس من الحَنْظل يُشْتار العَسلْ ولا من البحور يُصْطاد الوَرَل(٢)
هيهات ما سافلةٌ كعالِيَهْ ما معدنُ الحكمة أهلُ الباديه

وروى له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين قدم لهما بقوله : « أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر فإن له فى هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبَّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة . . وإذا قسمنا ما عندنا فى هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنَّفا فيصير حينئذ آنق فى الأسماع وأشدَّ فى الحفظ » . وبشر يستهل القصيدة الأولى بحديثه عن طباع الإنسان وما ركب فيه من الطمع الذى يدفع الناس إلى أن يتواثبوا بعضهم على بعض تواثب الذئاب ، ويفيض فى وصف الحيوان والحشرات وبعض الطير وبيان طباعها وعجائب خلقها ، حتى إذا بلغ ما أراد من ذلك تحول إلى إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ممن يؤمنون بكتاب الجفر ، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم فيه كل أصناف العلم وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وسلك مع الرافضة

---

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لعهد على . القصيص : شجر تنبت فى أصله الكمأة وهى الفقع . والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.

(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة صحراوية كالضب .

والإباضية الحشويَّة ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه فى القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئًا من المخلوقات ، وفى ذلك يقول :

لستُ إباضِيًّا غَبِيًّا ولا كرافضيٍّ غَرَّه الجَفْرُ
كما يغرُّ الآلُ فى سَبْسَبٍ سَفْرًا فأَوْدَى عنده السَّفْرُ[1]
لسنا من الحَشْو الجفاة الأولى عابوا الذى عابوا ولم يدروا
لا تَنجع الحكمةُ فيهمْ كما يَنْبُو عن الجَرْوَلة القَطْر[2]
أُولئك الدَّاءُ العُضَال الذى أَعيا لديه الصَّابُ والمَقْرُ[3]

وفى هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السادس، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو فى القصيدة الثانية يتحدث أيضًا عن غرائب الخلق فى أوابد الوحش والحشرات والطير السابح فى الهواء، مستنبطًا كثيراً من العظات ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذى نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض فى أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمَر التقليدُ أَحْلامهم فناصبوا القيَّاس ذا السَّبْرِ

فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى السديد الذى به تقاس الأشياء ويُسْبَر ويُعْرَفُ غورها ومقدار ما فيها من الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولا فى شعره التعليمى بالرد على خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتى وافاه القدر فى سنة عشر ومائتين .

---

(١) الآل : السراب . السبسب : الفلاة . السفر : جماعة المسافرين .
(٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل ويسقط .
(٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

**النظام**[١]

هو إبراهم بن سيار بن هانىء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز فى سوقها لأول حياته فلُقِّب بالنظَّام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوى أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذى ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام فى مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عُنِى به وبتثقيفه عناية كبيرة ، وهى عناية صادفت فيه عقلا خصبًا وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا فى المناظرة وقطع الخصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا فى ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة فى عصره ، وطارت شهرته فى هذا الباب ، لإفحامه دائمًا لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ فى حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

---

(١) انظر فى النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمالى المرتضى ١ / ١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٦ / ٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعرى ولسان الميزان ١ / ٦٧ وروضات الجنات للخوانسارى ص ٤٢ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٨٧ وسرح العيون لابن نباتة ( طبعة دار الفكر العربى ) ص ٢٢٦ . وضحى الإسلام ٣ / ١٠٦ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٥٩ .

وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[1] » . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالى الذى نُسب إليه ، فتبعه - كما يقول ابن تغرى بردى - خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع فى العامة ويدور على كل لسان . ومرّت بنا فى الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهى نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وقد مزج فى قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال فى آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلح لعباده ، وقوله بنفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزّأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتًا وحيوانا وإنسانا ، غير أن الله أكمن بعضها فى بعض ، فآدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعْلى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذى أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشى فى الأخير إلى نقص الأصل الذى يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات فى أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور فى كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذا إلى أغوار المعانى ، متصرفًا فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملائما بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه فى ذلك حِسٌّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظَّرْفِ يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .

رقَّ فلو بُزَّتْ سرابيلُهُ    عُلِّقه الجَوُّ من اللُّطْفِ(١)
يجرحه اللَّحْظُ بتكرارِهِ    ويشتكى الإيماءَ بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف فى الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذى يحتويه . وفى البيت الأخير مبالغة واضحة يستتم بها مبالغة البيت الذى يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

توهَّمه طَرْفى فآلم خَدَّهُ    فكان مكان الوهم من نظرى أَثْرُ
وصافحه قلبى فآلَمَ كفَّه    فمن صَفْح قلبى فى أنامله عَقْرُ(٢)
ومرَّ بقلبى خاطرًا فَجَرَحْتُهُ    ولم أرَ خَلْقًا قطُّ يجرحه الفكْرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطُّفٍ    يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع فى عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون فى تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذى كان يؤمن بأن الأعراض كامنة فى الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة فى نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب فى الأبيات . ويستلهم رأيه فى أن النور سمائى عُلْوِى ، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شىء عليه ، فيقول :

أُفرِغَ من نور سمائىٍّ    مصوَّرٌ فى جسم إنْسِىٍّ
وافتقر الحسنُ إلى حُسْنه    فجلَّ عن تحديد كيْفىٍّ
أَبدعه الخالقُ واختارَهُ    من مازج الأَنوار عُلْوِىٍّ
فكلُّ من أَغرق فى وصفه    أَصبح منسوباً إلى العِىِّ

وتختلط فى الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديده

(١) بزت : نضيت وخلعت .
(٢) العقر : الجرح .

أو بعبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف فى الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدِّنان :

ما زلت آخذ روح الزِّقِّ فى لُطُفٍ وأستبيح دَمًا من غير مجروح
حتّى انثنيتُ ولى روحان فى جسدى والزِّقُّ مُطّرَحٌ جسمٌ بلا روح

وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالى وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابك للبدن بأجزائه تشابك المائية للورد ، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيئة . وله فى تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذى كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًّا بود :

حبى لعمرو جوهرٌ ثابتٌ وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ
به جهاتى الستُّ مشغولةٌ وهْو إلى غيرى بها مائِلُ

وواضح تشبثه بلغة المتكلمين وآرائهم فى الجوهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويُدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذى يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله يمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رأت العيون نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ
وفضلُك لا يُحَدُّ ولا يجارَى ولا تَحْوِى حيازَته الظنونُ
خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشىءٍ فأنت الفَوْقُ والثقلان دون
كأَن الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالمُلْك الأَمين

وهى مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبّتوا مثل هذه المبالغة فى المديح ، وهى مبالغة نفذت إليه من إغراقه فى الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء فى السنة التى توفى فيها ، فقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة .

٥

## شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسى كان يصدر فى جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا فى مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال فى الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التى تتطلبها الأمة والتى رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا فى جوانب من هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة فى صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر فى وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التى ينبغى أن يتطهر منها المجتمع ، سواء فى الأفراد العاديين أو فى الحكام ، ولعل ذلك هو الذى كان يشيعه على جميع الألسنة . وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيهامن زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما فى المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور فى شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفى الأغانى خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين فى دجلة كانوا يتغنون فى نزهة للرشيد بقطعة زاهدة لأبى العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها فى غير هذا الموضع وفيها يقول[1] :

---

(١) أغانى ٤/١٠٣ وما بعدها .

سيصيرُ المرءُ يومًا جَسَدًا ما فيه روحُ
كلنا فى غَفْلَةٍ وال موتُ يغدو ويَرو حُ
لتموتنَّ وإن عُمِّ رْتَ ما عُمِّر نُوحُ

ومرت بنا فى ترجمة أبى العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعًا غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيهما يعيشون فى الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَنْ حولهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُثْرى بعض التجار ثراء فاحشًا . وتجثم فى البؤس والمسغبة كثرة الشعب التى كانت لاتجد يدًا تمتد إليها وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسق الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدباتية التى كانت تنبثُ عندنا لأواخر القرن الماضى فى المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسى ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده فى الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره[1] :

ليس إغلاقى لبابى أنَّ لى فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أُغلقه كى لا يرى سوءَ حالى مَن يجوب الطُّرُقا
منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سُرِقا

ومن الشعراء الذين عاشوا فى ضنك وحرمان أبو المخفَّف وكان فى أيام المأمون ، وكان يدور فى بغداد يسأل الناس رغيفًا أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة فى وصف الرغيف وكيف كان كلَّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكِسَرِ اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله[2] :

---

(١) ابن المعتز ص ٣٧٧ .

(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

دَعْ عنك رَسْمَ الدِّيارِ ودَعْ صِفات القِفارِ
وعَدٍّ عن ذكر قومٍ قد أكثروا فى العُقــارِ[١]
ودع صفات الزنانيـ ـر فى خصور العذارى[٢]
وصِفْ رغيفاً سَرِيًّا حكتْه شمسُ النهارِ
أو صورةُ البدر لما اشـ ـتتمَّ فى الاستدارِ
فليس تَحْسن إلا فى وصفه أشعارى
وذاك أنى قديمــاً خلعت فيه عِذارى

فهو إنما يتدلّه فى الرغيف ويمتلىء به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغى أن نقف عنده قليلا .

## أبو الشمقمق[٣]

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله خبث لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح فى وجهه يُغْلَقُ من دونه ، فعاش فقيراً محروما إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء ، فى الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد فى أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ماجعله يهجو الفضل بن يحيى

(١) العقار : الخمر .

(٢) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كانت تلفه الجوارى على أوساطهن .

(٣) انظر فى كتاب أبى الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦ وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد وكتاب الورقة ص٦٣ والعقد الفريد ٣/٣٥ ، ٦/٢١٥ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست) وكتاب البغال للجاحظ والأغانى فى ترجمة بشار بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . وممن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد المشهور ممدوح مسلم بن الوليد ، ومالك بن على الخزاعى أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتّى العسكر ، ولعلهم خشوا معرة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أرّجان ، فيلقاه لقاء سيئًا ، ويتولاه بهجاء مرير ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه، فيصب عليه شواظا من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً، فلا يجد من يقبل عليه حتّى من الشعراء رفاقه، ويسلقهم بلسانه، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيعا ، ويزيده ضياعا أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا، وكانت فيه خشونة وجفوة، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتّى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خلقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتّى فى المديح ، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضًا فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفو الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة، حتّى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة ، حتّى ليرتّب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تمّم بشطور مقذعة حتّى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعنّ هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوْزاتٍ وتِينـه فتحـوا باب المدينه

إن بشار بن بُرْدٍ     تَيْسٌ أعمى فى سفينه

حتى رمى له بشار بالدراهم . وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبى الشمقمق وأنه كان يشتق شعره من ألفاظ العامة ، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان . ومن طريف هجائه قوله فى بخيل :

كفَّاه قُفْلٌ ضاع مفتاحُهُ     قد يئِسَ الحدَّادُ من فَتْحِهِ

وقوله فى بعض الثقلاء :

أسمجُ الناسِ جميعاً كلِّهم     كذُبابٍ ساقطٍ فى مَرَقَهْ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشعاره التى صوَّر فيها فقره وبؤسه ، ويُرْوَى أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه ، فقال له أبْشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوِى فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً : إن كان والله ما تقول حقا لأكونن بزَّازًا يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله     ربِّى أىَّ حالِ
ليس لى شئٌ إذا قيل     لمن ذا ؟ قلت : ذا لى
ولقد أُهزِلْتُ حتى     مَحت الشمسُ خيالى
ولقد أفلستُ حتى     حَلَّ أكلى لعيالى

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسو به السرير الذى ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئا إلا حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة ، يقول :

لو قد رأيت سريرى كنت ترحمنى     اللهُ يعلم مالى فيه تَلْبيسُ (١)
والله يعلم مالى فيه شابكةٌ     إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس (٢)

---

(١) يريد بالتلبيس مايكسى به السرير من الحشية والملاءة .

(٢) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض . الديس : هو المعروف فى مصر باسم السمار .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئا ، بل يقعد به العُدْم الذى تعوّده ويقعد به سوء البخت الذى يلازمه فى حِلّه وترحاله ، حتى ليجفّ البحر الذى يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر فى يده حصى وزجاجًا والماء العذب ملحا لا يسوغ شرابه ، وفى ذلك يقول :

لو ركبتُ البحارَ صارتْ فِجاجا     لا نرى فى متونها أمواجا
ولو آنى وضعتُ ياقوتةً حَمْ     راءَ فى راحتى لصارتْ زُجاجا
ولو آنى وردتُ عَذْباً فُرَاتاً     عاد لا شك فيه مِلْحاً أُجاجا

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو فى الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة فى بغداد التى كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هى فى الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعًا ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ     أنفعَ فى البيت من الخُبْز
والخُبْزُ باللَّحْم إذا نلته     فأنت فى أَمْنٍ من التَّرْزِ (١)
وقد دنا الفِطْر وصبيانُنا     ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أُرْزِ
كانت لهم عنزٌ فأُودِى بها     وأجدبوا من لبن العَنْز (٢)
فلو رأوا خُبْزًا على شَاهِق     لأسرعوا للخبز بِالجَمْزِ (٣)
ولو أطاقوا القَفْز ما فاتهم     وكيف للجائع بالقَفْزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه فى البيت سوى السنور أو الهِرّ ، وإنه ليبكى

(١) الترز : الهلاك .
(٢) أودى بها : هلكت .
(٣) الجمز : القفز .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعوّد أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أَجْحرنِى البَرْ دُ كما تُجْحِرُ الكلابُ ثُعالَهْ[١]
فى بُيَيْتٍ من النضارة قَفْرٍ ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخاله[٢]
فارقته الجُرْذان من قِلَّة الخَيـ ـر وطار الذبابُ نحو زُباله[٣]
هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ حين لم يرتجين منه بُلاله[٤]
وأقام السِّنَّوْرُ فيه بِشَرٍّ يسأل الله ذا العُلا والجَلاله
أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ناكساً رأسه لطول الملاله
قلت صَبْرا يا نازُ رأسَ السَّنا نير وعَلَّلْته بحُسن مقالَه[٥]
قال : لا صَبْر لى وكيف مقامى فى قفارٍ كمثل بِيدِ تَبَالَه[٦]
ثم ولّى كأنه شَيْخُ سوءٍ أخرجـوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما ينى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لحق عصر المأمون منحول عليه .

---

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثعالة : الثعلب .
(٢) بييت : تصغير بيت . النضارة : النعيم .
(٣) زبالة : موضع فى صحراء الكوفة .
(٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .
(٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .
(٦) بيد : جمع بيداء وهى الفلاة . وتبالة : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .

# الفصل الثامن

## تطور النثر وفنونه

### ١

**تطور النثر**

كان العصر العباسى الأول عصراً خطيراً حقاً فى تطور النثر العربى ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التى أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخَّل جميع ذلك فى تركيبه وائتلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلْوَ جديد .

وتم هذا التحول — كما مرَّ بنا فى الفصل الثالث — عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنِى به الخلفاء العباسيون — ووزراؤهم وخاصة البرامكة — إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثان لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضًا بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم فى المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية فى تلك الأقاليم التى دانت بالإسلام ، وهى مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربى بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية فى المحيط العربى الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعًا ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومُلئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربى مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لا يكاد يُحَدُّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيًّا ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّا فى قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانًا بتعدد شُعَب النثر العربى وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمى والنثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضًا النثر التاريخى ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، وحتى النثر الأدبى الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقَصص كليلة ودمنة الهندى الأصل ونَقْله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم فى السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تُعْنَى بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعًا فى طائفة من الصحف.

ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعْلها لغة علمية محدَّدة الألفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسما دقيقًا . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضًا لا فى مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضًا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية فى المجال العلمى أثمرت فى المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مَدُّوا مباحثهم فى العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يُدْلوا فى جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصِّل ذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه فى الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر.

وكل ذلك كان له آثار بعيدة فى النثر العربى ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضًا من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلىّ والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بما لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصَى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفًا للعربية ، غير أنه قُيِّض لها من نابهى المتكلمين والكُتَّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضَيْم عليها من شأنه أن يمحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورَسْمها رسما محدداً دقيقًا ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامعَ بعذوبة منطقه ، بل بحيث يَلَذُّ الآذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تَنْبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان[١] ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمَّراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندى فى عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته فى البلاغة ، فيعطيه فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويَتَلَقَّى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان[٢] والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تَفِى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويَقْطَعه عن الكلام قَطْعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عُبَيْد ، فيسأله عن البلاغة وقُطْبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[١] » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العَتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له[٢] :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استغاثة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَنَاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمعْ منى ، واستمعْ إلىّ ، وافهمْ عنى ، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِىٌّ وفساد »

وواضح أن العتَّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعىّ ، ودون استعانة بحشو يُؤْذى الذوق الحضرىَّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرَى كأنه الحق الذى لا حق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[٣] هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئاً تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين (طبعة الحلبى) ص ١٣٤ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصّرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدى دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاما يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفى الوقت نفسه تُلْقَى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفّوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذى يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمة ثانية هى إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التى يفهمونها فهماً حسناً ، والتى قد يجدون فيها شيئًا من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْركهم فى ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

(١) البيان والتبيين ١/١١٥.

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السِّماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكنْ فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التى ذكرتَ أنها حقُّ ذلك ؟ قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شىء لا ينال » .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيز الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب فى غير خطل ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون فى صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعدُ ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هى أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم رَدّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب فى الكلام مقامه ، وأنه ينبغى دائما أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التى عرضنا لها فى الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجِّهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولا بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظهر كفاءته فيما طُلبَ إليه من بعض الرسائل رُفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحْسن ما طلب إليه رَدّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصْبح الكلام بليغاً وما العيوب التى تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضارى المترف فى أدق صوره فدقّقوا فى كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبَّروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حس بالغة، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قَطّ أمثل فى طريقة البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً وحشيًّا ولا ساقطا سوقيًّا[1] » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة فى هذا العصر لكى ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى فى المجال الأدبى ، إذ أخذت تَغْذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبيةوكل ما اتصل بها من الفكر اليونانى ، ومضى يتفاعل مع ذلك كله محتفظًا بمقوماته وطوابعه العربية الأصيلة ، بحيث لم يحدث أىُّ ازدواج فى اللغة يعرِّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة فى شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوَّن فيها أزهار ذاكية الشَّذَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغنوها ونمَّوْها حتى فى مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغى الذى يغذِّى العقول ويَشْفِى القلوب والأفئدة .

## ٢

### الخطب والوعظ والقَصَص

نشطت الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها فى بيان حق العباسيين فى الحكم ، وكانوا يحسُّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية وهم الذين قوَّضوا حكمهم وحطَموه حَطْما ، وقد انهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح فى خطبة[2] أبى العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحِمِهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تاليًا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل ( إنما يريد

(١) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

(٢) انظر الخطبة فى الطبرى ٦/٨١ وما بعدها .

اللهُ ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلا : « وزعمت السبئية الضُلَّال أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبِرّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة . وخطب عمه داود بن على بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهى تمضى على هذا النمط :

« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصراً ، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرْخِىَ له فى ذِمامه ، حتى عثر فى فَضْل خِطامه . فالآن عاد الأمر فى نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزَعة[٢] ، ورجع الحق إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة » .

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن فى العباسيين أبينُ منه ولا أخطب ، وفى عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا فى الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه فى الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لسناً وفصاحة ، ومن قوله فى بعض خطبه[٣] :

« إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيَّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً[٤] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .
(٢) النزعة : الرماة .
(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٢١ .
(٤) بدداً : متفرقين .

ــ كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ــ يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عوّدوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ ــ كما قدمنا ــ حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُمِّمت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكْفَل للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، أما فى هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم فى سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقا عادت الخطابة السياسية إلى الظهور فى فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة فى العصر الأموى وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التى كنا نعهدها فى عصر بنى أمية لسبب طبيعى ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَلْتَقى وفودها ولا خطباءها المفوَّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أبيه المنصور (١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزيّة » .

وكان يُعْقَدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجالِ الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيبا بين يدى الخليفة الجديد منوِّهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فى خطبته بين يدى الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله[١] :

« إن الله بمنّه ولطفه مَنّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عَضُدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظَّلَمَة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدّمَ الحرام والآكلين الفَيْء[٢] والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئاً نادراً يقال فى الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارُها فى هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة[٣] ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول[٤] :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا ولن تُتْركوا سُدًى ، حَصِّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْرٌ[٥] مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة

(١) تاريخ الطبرى ٦/٤٤٢ .
(٢) الفيء : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ٤/١٠١ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٠٢ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين » .

على أننا نجد الرشيد يستنُّ سُنَّةً كانت سبباً فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعى أن يعدَّ لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة[1] ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدى وابن أخيه أحمد أن يُعِدَّا خطبة مماثلة يخطب بها المأمون[2] ، وبذلك سنَّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، وكان المأمون معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة[3] ، وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب[4] : أولاها فى يوم جمعة وثانيتها فى يوم الأضحى وثالثتها فى عيد الفطر وفيها يقول :

« اتَّقوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَثْرة ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه ، ولا شىء بعده إلا فوقه .. ولا يعين على القبر وظُلْمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلَّتْ عند الموت قدمه فقد ظَهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْية ما لا يُقْبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد ينتدبون من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسى والى البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيِّرها ، وهى خطبة قصيرة[5] .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت فى بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/ ٢٠ .
(٢) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٨/ ٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٩١ ، ١١٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢/ ٢٥٣ وما بعدها .
(٥) انظرها فى البيان والتبيين ٢/ ١٢٩ .

بما يوقعون فى نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم فى تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصى والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدى الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلى الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدى وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُرْوَى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوما فقال له : عِظْنى ، فقال[1] :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخَّض عن يوم لا ليلة بعده . فوجَم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع[2] : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صَحِبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحداً ، وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك[3] ، فاكْفِنى . قال عمرو : ادْعُنا بعَدْلك تَسْخُ أنفسنا بعونك . ببابك آلف مظلمة ارْدُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق » .

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكا مفوَّها ، وكان يلمُّ بمجالس المهدى ويعظه ، ويطيل فى وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويُرْوَى أنه دخل عليه يوما فسأله أن يأذن له فى الكلام ، فقال له تكلَّمْ ، ومن بعض كلامه حينئذ[4] :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجَب الله عنه العلم عذَّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابا مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومَنْ أهدى الله إليه علما فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصَّر بها ، فاقْبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيقٍ وعملٍ لا قبولَ سُمْعةٍ ورياء فإنه لا يَعْدمك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطَّن الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه السلام على نزولها تعزيةً عما فات وتحصيناً من التمادى ودلالة على المَخْرج فقال : ( وإما يَنْزَغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ

(١) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ .
(٢) حاجب المنصور .
(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .
(٤) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ .

فاستَعِذْ بالله )فأطْلع الله على قلبك بما يُنَوِّره من إيثار الحق ومنابذة الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظًا مؤثراً ، رَوَى عنه أحمد بن حنبل وغيره، وله كلام ومواقف بين يدى الرشيد تدور فى كتب التاريخ والأدب ، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يومًا ، فقال له الرشيد : عِظْنى ، فقال[1] :

« يا أمير المؤمنين : اتّقِ الله وحده لا شريك له ، واعلمْ أنك واقفٌ غدًا بين يدى الله ربك ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار. فبكى هرون حتى اخضلّتْ لحيته[2] » .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائمًا من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال أصحابه ومَنْ سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى ، ودائمًا تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما فى أيدى الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعّاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن؛ وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص الوعاظ فى عصر بنى أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلا[3] طريفا فى كتابه البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قُصّاص العصر العباسى الأول :

« ومن القُصّاص موسى بن سيار الأُسْوارى وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضَّيْم على صاحبتها إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأُسْوارى . ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محرابٍ من موسى بن سَيّار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ثم يونس النحوى ثم المعلّى . ثم

(١) تاريخ الطبرى ٦/٥٣٨ .
(٢) اخضلت : بللتها الدموع .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها.

قصّ فى مسجده أبو على الأسوارىّ وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسّر آية واحدة فى عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصُّ فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدْرَك فى القُصّاص مثله . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المُرِّى فكان يُكْنَى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب ( أحد كبار المحدثين ) فقال ليس هذا قاصًّا ، هذا نذير » .

ووقف الجاحظ فى بيانه مراراً عند صالح المُرِّى حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردِّده من شعر فى قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرى القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنْشد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت الذى أنشدناه فى غير هذا الموضع :

فبات يُروِّى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَّجُلْ »[١]

ومن ذلك ما يُذْكَرُ من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة . فعزّاه صالح المرى ، فقال : « إن كانت مصيبتك فى ابنك أحدثتْ لك عظة فى نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثتْ لك عظة فى نفسك فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك[٢] » . وعزّى رجلا فى أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثتْ لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئس المصيبة مصيبتك[٣] » . ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد فى مجلسه : « أعوذ بك من الخَسْف والمَسْخ والرَّجْفَة والزلْزلة والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جَهْد البلاء ومن شماتة الأعداء » . وكان يقول : أعوذ بك من التَّعب والتعذر والخَيْبة وسوء المنقلب . اللهم من أرادنى بخير فيَسِّرْ لى خيره ، ومَنْ أرادنى بشر فاكْفِنى شرّه . اللهم إنى

( ١ ) البيان والتبيين ١ / ١١٩ .
( ٢ ) البيان والتبيين ٢ / ٨٢ .
( ٣ ) البيان والتبيين ٣ / ١٧١ .

أسألك خِصْب الرَّحْل(١) ، وصلاح الأهل(٢) » . وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتابه الحيوان قوله : « تَغْدو الطير خِماصًا وتروح شِباعًا ، واثقةً بأن لها فى كل غدوة رزقا لا يفوتها . والذى نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحتم وبطونكم أبْطَن من بطون الحوامل(٣) » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المُرِّىّ وغيره من القُصَّاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعَّبوا وفرَّعوا فى تلك المعانى طويلا ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التى تمسُّ القلوب والعقول. وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة فى اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدَّاهم ذلك فى بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجَّاعا فى قصصه(٤) ، وكان من أخطب الناس وكان متكلمًا قاصًّا مجيداً(٥) ، ويروى من وعظه : « سَلِ الأرض فقل من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك ، فإن لم تُجِبْك حواراً ، أجابتك اعتبارا(٦) » ويقول الجاحظ : « كان يتلو الآية التى فيها ذكر الجنة والنار والموت والحشر(٧) » ثم يفيض فى الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصًّا مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب(٨) ، وقيل له : « لِمَ تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى ( أى روىّ الأسجاع ) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع المشاهد لقلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت(٩) » .

---

(١) الرحل هنا : المسكن والبيت .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .
(٣) الحيوان ٧/٦٢ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

## ٣

### المناظرات

قلما عُنى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عن المناظرات التى احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد فى المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون فى المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون فى بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم فى أصولهم الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتنقون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالا عنيفاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمانوية ، ومن أشهرهم فى الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى فى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب[١] البغدادى والمرتضى[٢] فى أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته فى حداثته ليهودى وَرَد البصرة ، وتعرَّض لمتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدَّعونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودى : أتعترف بأن موسى نبىٌّ صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشَّر بنبيِّى

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدّقه فهو نبى صادق ، وإن كان غير من وصفتُ فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه . ولم يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبيي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها . فبهُت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسيًّا فسأله ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قَصّ أجنحتها وحَطّها إلى الأرض يُحْرَثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل فما الجوع والعطش ؟ قال : فَقْر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَوْها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلحوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعذّل بن غيلان يوماً إن فى نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حُرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبَيِّن لى ما يُذهب الريب عنى ، فقال له : خبِّرْنى عن قول الله تعالى : ( وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ) هل يخلو من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال ( إنهم لكاذبون ) أى هم يستطيعون الخروج وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : ( إنهم لكاذبون ) أى إن أعطيتهم الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون . وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب الجبر وتعطيل إرادة الإنسان وحريته من بعض آيه التى لا تعطيهم الدلالة البينة الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ؛ تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة فى الملل والنحل للشهرستانى وفى مقالات الإسلاميين للأشعرى.

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة فى الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِر الحَنَفِىَّ المرجئ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار فى الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموماً مغموماً وكان ذلك سبب علته التى مات فيها[1] . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمانوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا فى ترجمتنا له بين الشعراء : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم ( النظام ) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتَق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[2] » . وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنَّانية والدَّيْصانية ، وفى الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة ، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هى نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسَّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس . ويبحث مباحث واسعة فى النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض فى ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الخياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه مَنْ الكاذبُ ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبتُ ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم : إن زعمتم أن النور هو

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقدكان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هَدْم قولكم بقدم الاثنين[١] » أى الخير والشر وإلهيهما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المنانية وَيقْطعهم كان يناظر الدهرية القائلين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تتناهى ، ويفحمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرّض لهم يوما يجادلهم فيما يزعمون من عدم التناهى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطعُ بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعا ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه[٢] » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعلو عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتلُّ عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغتَ واعتللت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[٣] » . ومر بنا فى غير هذا الموضع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً . ونراه يحوِّل كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفلسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٣ / ٦٠ .

العباسي . وهي وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله في خَلْقه وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا في بحث عجائب الكون في الحيوان فقط بل في بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلةُ هذا الجدالَ العقلي على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد[1] .

وفي الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرةٍ العقلَ العربيَّ إلى أبعد غاية ، فقد أمدُّوه بسيول من دقائق المعاني وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دُررَها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصحِّحونها ويسددونها ، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار في كل شيء . ومن طريف ما يصوِّر ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصًا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطواويس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله في ذلك على هذا النمط[2] :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمدُ من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه[3] إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن مُوقه[4] وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ونذالة مَرْآته . وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجليه خُفًّا . وكان يقول : وإنما يُفْخَر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النَّبطي وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القَدّ والخَرْط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب في العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسْن الطاووس

---

(١) حيوان ١/٢١٦ .
(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .
(٣) التقلع : التحدر في المشي .
(٤) الموق : الحمق .

فى عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الذم . . والعامة لا تبصر الجمال ، ولفرسٌ رائع كريم أحسن من كل طاووس فى الأرض ،وكذلك الرجل والمرأة . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن البازى وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهيئة والرأس والوجه الذى فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن فى الطاووس إلا حسنه فى ألوانه ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويَشْغل عنهُ ذكر وتبين وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة فى الجمال » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة فى الجدل وفى تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة،ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمَّى باسم الجَهْجاه « فى تحسين الكذب فى مواضع وفى تقبيح الصدق فى مواضع وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق وفى حطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه وتذكُّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكُّر منافعه وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدَّلوا بين خصالهما لما فرَّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمَّى باسم صَحْصح « فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة وأن عيش البهائم أحسن موقعا فى النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غَباء وغفلة لكان الشحم إلى البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تَقْنو شحما فى الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقِّع البلاء فى البلاء وإن سلم منه ، والغافل فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرف

فى الأدب الفهلوى القديم ، وأن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب ، ونحن لا ننفى ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسى ، وبحيث عمَّ فى كل شيء ، مما هيأ فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوى . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضًا فى مناظراتهم بما كان فى التراث الفلسفى اليونانى من جدال وحوار ، وبخاصة فى المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَفَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف فى رسالته أو كتابه الذى سماه المأدبة وفيه جلبَ سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاوروا فى عاطفة الحب ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن يحيى البرمكى دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه فى المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثًا طويلا تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُنْقَلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقل بعض ما تحدَّث به مَنْ شاركوا فى هذه المحاورة البديعة ، نَقَله المسعودى فى كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة[1] :

« قال على بن ميثم ( المتكلم الشيعى ) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صَيِّب المزن فى خَلَل الرَّمْل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلى : العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة مرتعه فى الأجساد ومسرعة فى الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة

(١) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

توجد فى الشمائل وصاحبه جواد لا يَصْغو ( يميل ) إلى داعية المنع ولا يسنح به ( يصرفه ) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلى : العشق أرق من الشراب ، وأدبّ من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُجنت فى إناء من الحلى ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صِلاً قاتلا ، وفساداً معضلا ، لا يُطْمَعُ فى إصلاحه. له سحابة غزيرة على القلوب ، فتُعْشب شغفاً وتُثْمر كلفا . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفَّس طويل الفكر إذا جَنَّه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صَوْمُهُ البَلْوَى ، وإفطارُه الشكوى.

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مرّ دليل عليه ».

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن اورثنا عن العباسيين مأدبة فى العشق تقابل مأدبة أفلاطون . والذى لا شك فيه — كما أسلفنا — أن هذه المأدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم فى العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أُثر عن الفلاسفة والأطباء فى العشق، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مأدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة فى الحب والهوى .

وواضح ما فى هذا الحوار عن العشق من دقة فى المعانى ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعا ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعا فى مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها عهد وفى أساليبه وما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء.

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر فى هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفى مقدمتهم المعتزلة يبحثون فى بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم فى هذا الاتجاه على نحو ما صوّرنا ذلك فى غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

## ٤

## الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا فى الفصل الأول عن تعقد الدواوين فى هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقيّ الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمَّى ديوان الزمام الذى ينظر فى ضبط كل ديوان على حدة . وبجانب هذه الدواوين العامة فى بغداددواوينُ فى الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء وللوزراء وكبار القواد ، ومَنْ لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتبٌ يكتب عنه وينظر فى تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذْنَ الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة فى هذا العصر نشاطًا واسعًا ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدرُّه عليهم من أرزاق واسعة . وكان مَنْ يُظْهِر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقْبِل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يَلْتَقَى الإكبار

والإعجاب فى كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسّ فى نفسه قدرة عليها ، حتى يَحْظَى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رَغَد ونعيم، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم، فيُمْتَحَنُونَ امتحانًا عسيراً ، تُبْحَثُ فيه مهاراتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساءالدواوين بملازمتهم، ثم ضموهم إلىدواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التى يستحقونها، وربما ألحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف فى بعض الأعمال أو فى بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشىء هينا ، فقد كان لا بُدّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتقان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفنى ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالبًا إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيثالجمال الفنى فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد، ولا بد أن يروعهم ببيانه وبلاغته ، وقد توقّفَ الجاحظ مراراً فى كتاباته يُشيد ببراعتهم فى القول وعذوبة آدائهم وطلاوةصياغاتهم من مثلقوله : «إنهم لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعانى[1] » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفى مقدمتها علوم اللسان العربى وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضروريًّا لهم، لأنهم كانوا يكتبون فى شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ،فقد مضى يقرأ كل ما تُرْجم من الحكمة اليونانية ومأثور

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

ما تبادله الإسكندر المقدونى وأرسطو من رسـائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقَصَص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرَّ بنا مدى إعجاب يحيي البرمكى بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرا ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم فى الملك وتدبيرهم فى السياسة والحكم وأن مما نقله « خُداى نامه » فى سير ملوكهم و « آيين نامه » فى أنظمتهم و « التاج » فى سيرة كسرى أنوشروان و « الأدب الكبير » و « اليتيمة » و « الصحابة » . وأكبَّ الكاتب العباسى على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له فى الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خرَد » فى الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات فى رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى هذا العصر إذ اتّسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة فى كتابات الكاتب العباسى ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عَرَض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثًا فى ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبسًا فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعَرَض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفى ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسى نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس فى وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل مايتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورصفه ، ويستشهد به فى رسـائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحيانًا ، وأحياناً يحاول مجاراة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والتئام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومَنْ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخْذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلا فى التحميدات التى تُصَدَّر بها الرسائل ، وتُنْسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[١] . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتابًا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام[٢] .

ونحن نقف عند طائفة من الكتاب النابهين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدى خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة[٣] ، وكان المهدى يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتْيه من عمارة ، وتُرْوَى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس ، وهى رسالة كانت تُكتَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضًا برسالة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢ / ١٦٤ وانظر فى ترجمته الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٥ / ٢٤٢ والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى متفرقة ، راجع الفهرس .

لُقِّبت باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كي يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة(١) :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ولا يُنْكِرُ جَرْيَ المقادير بغَيْب ذلك عن العباد واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغَدْر ، يُظْهر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مؤامرته ( مشاورته ) ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها النَّدم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تَرَيَنَّ أمراً رَشَداً فتبيَّن ثم ارْعَوِ أو أقْدِمْ وأحْكِم. والحقُّ ما أمر الله عزَّ وجَلَّ به من التَّبَيُّن وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجَلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جَلَّ شأنه : ( يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنَبَأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ) .

ومن كُتَّاب المنصور مَسْعدة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولا لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب المورياني وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوِى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدر مسعدة فكتب(٢) :

(١) انظر الرسالة بأكلها فى جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ١٢٧/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٢٨/١٦ .

« الحمد لله الذى عظَّم الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعَزَّه وأنافه ( أعلاه ) وشرَّفه ، وأكمله ، وتمَّمه ، وفضَّله ، وأعزَّه ، ورفعه ، وجعله دينه الذى أحبَّه واجْتَباه ( اختاره ) واستخلصه وارتضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جَلّ من قائل : ( إن الدين عند الله الإسلام ) وقال جَلّ وعلا : ( ومن يَبْتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه ) وقال : ( ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل ) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جَنَّته ، وبه تحرَّزوا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته » .

فقال المنصور : حَسْبُكَ يا مسعدة ، اجْعَلْ هذا صدرَ الكتاب إلى أهل الجزيرة بالإعذار والإنذار . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء.

ومن كُتَّاب المنصور أيضا يوسف[1] بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته لجأ يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مأثور ما يُرْوَى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزيه عن ابن له على هذا النمط[2] :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كان إماما لخلق الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعَزَّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجعْ فى وَعْدِ الله جَلَّ وعز من الصابرين إلى علمك » .

ومن الكتَّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجمًا وكان من معدودى البلغاء والبرعاء[3] » وقد

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى ( أخبار الشعراء ) ص ١٤٦ والجهشيارى ١٣١ ، ١٧٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٩ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

احتفظ له ابن طيفور فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله، منها رسالة كتب بها إلى المهدى يعزيه عن أبيه ويهنئه بالخلافة، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول[1]:

« أعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نزلتْ، وأعظم بالنعمة نعمةً حدثتْ، وإن أحق من انتصح لله فى قضائه واعترف بوجود حُسْن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرتْ به سُنَنَ الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعزّ أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظَّم الله على الحادث النازل أجره، وأحسن على الخلافة عَوْنه، ثم لا وكله الله فى شىء من الأمور إلى نفسه، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحقّ به » .

ومن الكتّاب أيضا لعصر المنصور غسّان بن عبد الحميد كاتب[2] عمه سليمان بن على واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة، وفى الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول: « كان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى[3] » واحتفظ له أيضًا ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله، وأكثرها يدور فى التعزية، ويظهر أنه كان يتقنها إتقانًا بعيداً على نحو ما نرى فى هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدىّ عن أبيه[4]:

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علما ثابتاً عنده وكتابًا سابقا منه، فجرت عليه ومضت به الأمور فى قدرته، والعباد فى قبضته . وليس عَبْدٌ من عبيده إلا وقد كان عمره فى الدنيا موظوفا قبل خلقه، وكان ما يصيبه منها مكتوبًا عليه قبل أن ينزل به، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة فى السعادة وأهل فضائل متظاهرة فى الكرامة، فاصطفى منهم أنبياءه، وانتجب منهم خلفاءه، وألزمهم على ذلك الموت الذى لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده، فكانت وفاة من توفّى منهم له سعادةً فيما يصيّرهم إليه وحياةَ مَنْ أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقى منهم مصطنعا فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٤٨ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٠ .
(٣) الفهرست ص ١٨٣ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/١٤٩ .

والماضى مفقود مستخلَف منه ، والباقى محمود مرضىّ به ، وأمر الرعية قائم معدول فيـــه » .

وننتقل إلى عصر المهدى فنلتقى بأبى عبيد الله معاوية[١] بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمّه إليه حين أنفذه إلى الرىّ ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولى الخلافة استوزره وفوّض إليه الدواوين ، حتى إذا كانت ســنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه المهدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً فى القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذل الفقر قاهرٌ لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة[٢] » . وكان أهل الخراج يعذّبون بصنوف من العذاب : من السباع والزنانير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته فى التحميدات التى كانت تصدّر بها الرسائل والكتب من مثل قوله[٣] :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومنّة ظاهَرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقدمةً بالوعد وإنذارا إليهم عواقب سخطه فى المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سُبل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبى فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

(١) الجهشيارى ص ١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدى ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى ص ١٣٤ .
(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

سبيلا غير سبيله ، فعظَّم حُرْمته ووسّع حَوْزته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوْمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة »

ومن البلغاء المجيدين الذين كتبوا له في دواوينه إسماعيل بن صَبيح ومطرّف[1] ابن أبي مطرف العَبْدى الذى كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فمما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إعذار وإنذار على هذه الشاكلة[2] :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعْبة من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آناء الليل ساجداً وقائمًا ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سِرًّا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذبُّ عن حريمهم ويقاتل مِنْ دونهم وفاءً بعهد الله وتسليما لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسمائه مُلْحفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حُرَم النساء ، ولظلمك اليتامى وافترائك على ذوى القُرْبى وتعريضك إياهم في فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتّابك مما كتبتْ أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردتْ كتبك — بحمد الله — من أمير المؤمنين — على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفّه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : ( أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما ) وقوله : ( الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية ) وقوله : ( ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

---

(١) انظر في أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف في معجم الأدباء ١٦/٧٢ والجهشيارى ص ١٦٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٢١٣ .

الله وتثبيتاً من أنفسهم . . ) وقوله : ( ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ) ( ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ) وقوله : ( ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ) وقوله جل ذكره : ( فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ) . وقد توفى مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر [١] تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة فى عصر المهدى ، وربما لحقته هذه الشهرة فى عصر المنصور محمد[٢] بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام ، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتبًا له ، ولعله تعرف عليه فى أثناء نهوضه بقيادة الجيوش فى غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدى حين جعل ابنه الرشيد ولى عهده بعد أخيه الهادى سنة ١٦٣ وفيها يوثّق البيعة لولى العهد الجديد على هذا النمط[٣] :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها ، فتبادرتْها أكفُّنا ، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيَّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفَقت[٤] عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتَحُ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة فى الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نُصْحَ الجُيوب[٥] باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب » .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، ويلقانا يحيى[٦] البرمكى ، أحد من جمع جمعًا رائعًا بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وكان قلده المهدى الكتابةَ لابنه ، منذ جعله ولىَّ عهده ، والقيامَ على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التى كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحَسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولى الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

---

(١) انظر ترجمته فى ياقوت ١٦/٧١ والفهرست ص ١٨٤ .
(٢) انظر ترجمته فى الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .
(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .
(٥) ناصح الجيب : ناصح القلب والصدر .
(٦) انظر فى ترجمة يحيى كتب التاريخ فى خلافة الرشيد من مثل الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وراجع الفخرى والجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ وفى أيام الرشيد ، وراجع فى بلاغته وبلاغة أبنائه العقد الفريد ٥/٥٨ .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله فى الفصل الأول من فصول هذا الجزء، ومضى ما نهض به البرامكة فى الشئون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا فى الحبس .

وكان يحيى سَيوسًا حصيفا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحوّل مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية فى البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا ليروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كلَّ قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بنى انْتَقِ من كل علم شيئًا فإنه من جهل شيئا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشيء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحداً تكبّر فى إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول[1] :

« من شخص أسلمتْه ذنوبه وأوثقتْه عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحِدْثان[2] ، فحلَّ فى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدَّعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود[3] ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفَوْت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

(١) العقد الفريد ٥/٦٨ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ( طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ) ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/٢٢١ .

(٢) الحدثان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

وفى هذه العبارات المحبوكة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحَوْكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقا أنه لا يطرد دائمًا فى كتاباتهم ، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كُتّابهم ومَنْ كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر[1] لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ،وكان مثقفًا بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلّمه وفقّهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبدالله العلوىّ من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضْرَبُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة[2] » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله[3] :

« عندنا الاغتفار لما اقترفت ، وتصديقُ كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاءً لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُممتَ ، وإيثارًا للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرساله مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه[4] .

وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة الرشيد والجهشيارى ( انظر الفهرس ) .

(٢) البيان والتبيين ١/١٠٦ . وانظر وصف سهل بن هارون لبلاغته فى زهر الآداب ٢/٦٩ والعقد الفريد ٥/٥٨ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

إسماعيل[١] بن صبيح وكان يكتب فى أول حياته لأبى عبيد الله معاوية بن عبيدالله ابن يسار وزير المهدى ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدى يحيى البرمكى بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولى الهادى توسط له عند وزيره إبراهيم الحرانى فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى فى عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظلّ على هذا الديوان مدة فى عصر الأمين . ومما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد فى بيت الله الحرام ، وفيها يقول[٢] :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوامّ المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمَّلت الأمة ومدَّتْ إليه أعناقها . وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دَهْمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزِمَّتهم وأعطوهما بيعتهم وصَفَقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلَّظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مَرَدٌّ ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صَرْفٍ له عن محبته ومشيئته ، وما سبق فى علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكُتَّاب البلغاء الذين اتصل عملهم فى الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفا ، وفى الجهشيارى أن يحيى البرمكى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد[٣] ، وفى الأوراق للصولى رسالة له عن الفضل بن يحيى فى حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهى تجرى على هذه الشاكلة[٤] .

---

(١) انظر فى اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ وفى مواضع متفرقة .

(٢) الطبرى ٦ / ٤٨١ وما بعدها .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .

(٤) الأوراق للصولى ( قسم الشعراء ) ص ١٥٨ .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة المصطنَع وسيلة إلى مصطنعِه سيَّما عند من يحسن الصنيعة ويستتمها ، مستثبتا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله » .

ومن الكتاب المفوَّهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتبًا فقيها متكلما بارعا[1] » . ومن أروع ما أُثر عنه رسالته[2] التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهى تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعوه الرشيد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث فى وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طُوِى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض فى وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحابَ الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضًا ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا فى ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوِّحا بما سينزله الرشيد فى ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعمَّ مساكينهم وزُرَّاعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون فى أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخطَّ ، فكتب إليه رسالة بديعة فى الخط والقلم على هذا النمط[3] :

« أما بعد فليكن قلمك بحريًّا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقْب ، وابْرِه بَرْيًا مستويا كمنقار الحمامة ، واعطِفْ بطنه ورَقِّقْ شفتيه ، وليكن مدادُك فارسيًّا خفيفا إذا وزنته ، وانقعْه ليلة ، ثم صَفِّه فى

---

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) انظر فى هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب ٣/٢٥٢ .

(٣) العقد الفريد ٤/١٩٥ .

الدَّواة ، وليكن قرطاسك رقيقا مستوىَ النَّسْج ، تخرج السَّحاة(١) مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طرف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقله فى الوسط ، ولا تَمُطّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحاً ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجاً . ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخْطُطْه بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَل برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة ، والسلام » .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام فى القراطيس جريان الماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتب بقسطاس. ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة ، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنّ القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن فى مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدى محمد بن الليث وغيره من الكتاب فى العصر العباسى تطوّر الخط العربى وارتقت صناعته رقيا بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْىٌ خالص ، وَشْىٌ فى العين ، ووَشْىٌ فى السمع ، ووَشْىٌ فى العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحى البرمكى أنس بن أبى شيخ ، وقد سلكه ابن النديم فى البلغاء العشرة الأُوَل فى العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكيا فَهِماً نقى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة(٢) » وعدّه الرشيد شريك جعفر

---

(١) السحاة : القطعة من القرطاس . (٢) الجهشيارى ص ٢٣٩ .

فى إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلبه . ويؤثر من تحميداته قوله[١] :

« الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حجته ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفّى له ، ومبلّغاً فأدّى عنه ، فحجّ به المنكر ، وتألّف به المدبر ، وثبّت به المستبصر ، إلى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح فى هذا التحميد ، ولعل فى ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا فى كتّاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطّرد فى جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع فى كتاباتهم ، وقد عمل فى دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا فى عهد الرشيد قمامة بن أبى يزيد، وكان يكتب أولاً لصالح[٢] بن على ، ثم أصبح كاتباً للقاسم[٣] بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لسناً فصيحا بليغاً، ومما أثر له قوله من رسالة وجهها — فيما يبدو — عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد[٤] :

« كل ما قبلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها فى صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عوّد الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما تقدمة عرّفنى فيها رأيه فأنا ألزمها ولا أعدل عنها، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا — بحول الله — قوتى ومعتمدى ، قد كفى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخير والمنّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

وممن عُرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٩١ .
(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٨ .

الرشيد جعل ابنه الأمين فى حِجْره ثم جعله فى حجر الفضل[١] بن يحيى البرمكى ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة[٢] ، ولعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكى ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها[٣] :

« شكرى لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذرى فى تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسى جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتّاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب[٤] الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْل بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا[٥] فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدَّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدَّوا خراجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد[٦] :

« إنى دعوت بفلان وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى[٧] ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فآليت أن لا يؤديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىَّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه الفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القولُ ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

---

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/٧٢ .
(٣) كتاب الصناعتين لأبى هلال (طبعة الحلبى) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/٧٨ وما بعدها .
(٥) إلطاطاً : جحوداً ومماطلة .
(٦) طبرى ٦/٤٥٩ .
(٧) لوانى : مطلنى . استنظرنى : استمهلنى وأجلنى .

الأمين فليكتبْ بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية(١) :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، أما بعد فإن أمير المؤمنين روَّى(٢) فى أمرك والموضع الذى أنت فيه من ثَغْرك وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمكانفة(٣) على ما حمَّله الله وقلَّده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إقرارك على ما تصيَّر إليك منها . ورَجَا أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه وَكَفٌ(٤) فى دينه ، ولا نكث فى يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور ، وأصلح للجنود ، وآكد للفَيْء ، وأردُّ على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعًا عن أهل بيتك ، متغيبًا عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . . فاقْدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ،واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمته ، والسلام .

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به فى كتابته من إجادة القول وإتقانه ، وهى إجادة تُرَدُّ إلى دقته فى اختيار الألفاظ والصياغات بحيث تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى ، وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتَّاب البلغاء الذين عملوا فى دواوين الأمين موسى(٥) بن عيسى بن يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم الحج وسلامته وَدعته ، وهى تجرى على هذا النمط(٦) .

« أما بعد فإن الله بحمده ومَنِّه هو ولىّ أمير المؤمنين وولىّ النعمة عليه فيما حمَّله واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

---

(١) الطبرى ٧/ ١١ .
(٢) روى : فكر .
(٣) المكانفة : المساعدة .
(٤) وكف : عيب وفساد .
(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .
(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٥٠ .

والمرجوُّ لإتمام ذلك بمنّه ورحمته . وإنى كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر الأول ، وقد قضى الله مناسكنا ، وتمّم حَجّنا ، وأرانا فى مواقفنا وإفاضتنا ومَنْ حضر الحج معنا من رعيّة أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبْلى[١] الله أمير المؤمنين ويعوِّده ويُبْلى الرعية فى خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود. ولم أر موسما كان أعمّ عافية وسلامة ، وأحسن هَدْياً ودعة ، وأكثر داعيا لأمير المؤمنين وولىّ عهده بطول البقاء من موسم الناس فى عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفتى بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليُسَرَّ به ، ويحمدَ الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين » .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفى عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفنى والتدقيق فى المعانى أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون ، وكان سهل مجوسيًّا وأسلم على يد يحيى البرمكى وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنيه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل[٢] ، ولم يلبث جعفر أن ضَمّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيوش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصريف لشئون المأمون فى ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارتْ له الخلافة . وقد عقد له المأمون فى سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضًا ولقّبه ذا الرياستين : رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

---

(١) يبلى هنا : ينعم ويحسن .

(٢) انظر فى ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص٢٢٩ وفى مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ٢/ ١٤ .

دفع المأمون فى سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوى كان يعظمه المأمون ويبجله ويتخذه رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آل العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفى طريقه إليها قُتل الفضل بسَرَخْس ، وفتك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفِّى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتُرْوَى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، ومما رُوى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجَّه بها مع جائزة منحها لبعض خاصَّته ، وفيها يقول(١) :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثراً ، ولا أقلِّلها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء » .

أما الحسن(٢) أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج فى سنة ١٩٦ للهجرة ، وفى سنة ١٩٩ جعله نائبه فى بغداد ، فقدم إليها وفرق عُمَّاله على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحُرْمة حتى توفى بِسَرَخْس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقلّ عن أخيه لَسَنًا وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سَماعة قاضى بغداد فى اختيار شخص يتولَّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التى ينبغى أن يشتمل عليها ، وهى تجرى فى هذه الصورة(٣) :

« أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ذى عفّة ونزاهة طُعْمَة(٤) ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مهمًّا من الأمور أجزأ(٥) فيه ، له سِنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعده الرزانة ، ويسكِّنُه الحلم ، قد فُرَّ(٦) عن ذكاء وفطنة ، وعَضَّ على قارحة(٧) من الكمال ، تكفيه

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٣٤٢ .
(٢) انظر فى الحسن كتب التاريخ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشيارى ص ٢٣٠ وفى مواضع متفرقة وزهر الآداب ٤/٢٥ .
(٣) الأمالى للقالى ١/٢٥٣ .
(٤) طعمة : مكسب .
(٥) أجزأ : أغنى وكفى .
(٦) فر : اختبر وجرب .
(٧) قارحة هنا : تجربة ناضجة .

اللحظة ، وتُرْشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام فى أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء، وصولةالأمراء ، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا[١] بما استنْهض ، مستقلا[٢] بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتِّيك » .

وتلك الخصال فى الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولَّون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهى ترينا ما كان يُطْلَبُ فى الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب فى الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولباقة فى الخطاب وبلاغة فى الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسترق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتَّاب الذين طارت شهرتهم فى دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وسنتحدث عنهما فى الفصل التالى ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما فى الشهرة ، منهم محمد بن يَزْداذ « وكان بليغا مترسلا شاعراً » وله رسائل مجموعة[٣] ، ومنهم محمد[٤] بن سعيد ، ومنهم على بن عبيدة الريحانى الكاتب وكان أديباً فصيحا بليغا صنَّف الكتب فى الحكم والأمثال واختص بالمأمون[٥] .

وفى مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة فى عصر المأمون طاهر[٦] بن الحسين ، وهو الذى قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله فى سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفى سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرَّقة سنة ٢٠٦ وهى أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم فى دينه وخلقه وما يجب عليه فى

---

(١) مضطلعاً : ناهضاً .

(٢) مستقلا : محتملا فى قوة .

(٣) الفهرست ص ١٧٩ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

(٥) النجوم الزاهرة ٢٣١/٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ١٢٢/٢ .

(٦) انظر فى طاهر كتب التاريخ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٥/١ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغى على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد فى أموره وعدم الريبة فى عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمَرَه بالحِياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر فى استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معايشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط فى تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغى أن يكونوا عليه من العون فى سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله فى تضاعيفها[1] :

« اعلمْ أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيًا ، وإنما سُمِّى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدهم ، فاستعملْ عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسِّع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنَّك عنه شاغل ، ولا يصرفنَّك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربك وحُسْن الأحدوثة فى عملك واحترزتَ النَّصَحة من رعيتك وأعنتَ على الصلاح فدرَّت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كُوَرِك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويتَ بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنت محمود السياسة مرضىّ العدل . . واستعمل الحزم فى كل ما أردتَ ، وباشرْ بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك فى جميع أمورك وافْرُغْ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثرْ مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلمْ أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمرُ يومين ، فشغَلك ذلك حتى تُعرض عنه ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٦٠ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبَدنك وأحكمت أمور سلطانك »

وشاعت هذه الوصية فى الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ، فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقى طاهر شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسَل إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكان ابنه عبد الله[1] بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عُنى بتأديبه فى صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلَّى فيها ، وكان أول ما قلَّده الجزيرة والرقة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين فلمَّ ما كان بها من شعث ومهَّدها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها غادرها سنة اثنتى عشرة ومائتين مستخلفا عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظلت له ولايتها حتى توفى سنة ٢٣٠ . وكان بحرا فياضًا ، كما كان كاتبا بارعا ، وله أمان طريف[2] كتبه فى ولايته على الجزيرة لنصر بن شبث حين ضَيَّق عليه وعاذ بالأمان وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون[3]

« اعتصامك بالقِلال[4] ، قيَّد عزمك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس ينجيك من المَنون ، ولستَ بمفلت من أمير المؤمنين فإما فارس مطاعن أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حَصِره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنا صاغراً ، فوجَّه به إلى بغداد .

ونمضى إلى عصر المعتصم والواثق ، وفيه يتألق فى الكتابة البليغة اسم ابن

(١) انظر فى ترجمة عبد الله كتب التاريخ والنجوم الزاهرة ٢/١٩١ وما بعدها ووفيات الأعيان ١/٣٢٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧/١٧٣ .

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٦ .

(٤) القلال : أعالى الجبل .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى ، وممن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولى ، وقد عمل فى دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل، وتولى الأهواز حينا من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجَّه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسى الثانى ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهانى ويروى صاحب[1] الأغانى أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواليه على أرمينية خالد ابن يزيد بن مزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك فى غير فَحْم، ويخاطب امرءًا غير ذى فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزِّق كأنه حدّاد . وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنُقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة[2] ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهانى من محمد ، وحقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن[3] بن وهب ، وهو من بيت قديم فى الكتابة إذ خدم أجداده فى دواوين الأمويين، جدًّا بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون فى دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب فى دواوين الفضل بن سهل

---

(١) انظر الأغانى ٢٠/٤٩ .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .

(٣) انظر فى أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمته أخيه سليمان فى ابن خلكان والأغانى ٢٠/٦٧ .

وأخيه الحسن وتوفِّى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان فى دواوين المأمون . ولا نشك فى أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل فى تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه فى الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلا فصيحا وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً فى العصر العباسى الثانى ، ولكنه أُبْعد عن الديوان مَنذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابى إنما كان فى وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والواثق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادله مع ابن الزيات فى المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل فى التعزية ، ونحن نسوق له رسالة فى الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهى تجرى على هذا النمط [١] :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة [٢] أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهى إليه ، ومَدًى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قَدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددتَ عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنَّى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهى عبارات موجزة بليغة ، تعودَّ ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقِّعوا بها على ما يقدَّم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم ، وحاكاهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع ، وكانت تشيع فى الناس ويكتبها الكتَّاب ويتحفظونها ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكى وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت فى الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أُثرت لكل خليفة عباسى وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح فى كتاب جماعة من

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣ . (٢) الحشاشة : بقية الروح .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة[١]»، وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم «كما تكونون يؤمَّر عليكم[٢] » وتوقيع المهدى لشاعر : « أسرفت فى مديحك فقصَّرنا فى حِبائك[٣] » وتوقيع الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داوِ جرحك لا يتسع[٤] » وتوقيع المأمون على قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة[٥] » .

ولعل وزيراً لم يبرع فى التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى « وكان إذا وقَّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم فوقَّع فى ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعُرضت على العمال والقضاة والكُتَّاب وكتَّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف الحق[٦]» وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[٧] » ومما رواه له الجهشيارى من توقيعاته[٨] توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه : «العدوان أَوْبَقه ، والتوبة تُطْلقه» وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : « حُبِّب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبُغِّض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غَدَراتها ووقعاتها عِياناً وإخبارا» . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة المحكمة ، فمن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصرا[٩]» وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جَرْيُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ الشك فحُمِد السابق وذُمَّ الساقط[١٠] » . وكثيرًا ما كانوا يوقعون بآية من الذكر الحكيم أو ببيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

---

(١) العقد الفريد ٤/٢١١ .
(٢) العقد الفريد ٤/٢١٢ .
(٣) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٥) العقد الفريد ٤/٢١٥ .
(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧ .

٥

## الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، ونقصد الرسائل التى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى فى العصر الأموى بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما فى هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولا ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب فى الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم وتجويده وحَشْد كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفا . والأمر الثانى مرونة النثر ويُسْر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوَّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرَّنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر فى التعبير عن العواطف التى طالما عبَّر عنها ، بل لقد أظهر فى ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العتَّابىّ وأبى العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً فى التعبير وفسحة لعرض بعض المعانى التى يلمون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه.

وتدور فى كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبَّجه كتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأنق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبثُّ فيها من مهارته الفنية . وممن كان يُعْنَى بها عناية واسعة فى أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرد له بعض الصحف فى الفصل التالى ، ومنهم محمد بن زياد الحارثى ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثى رفيق مطيع بن إياس وجيله ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مترسل بليغ [١] » وله فى الشكر [٢] :

« قد يجب على من يتقلب فى ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويُخْبر عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك [٣] ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبليت وأوليت من جميل رأيك ، وحُسْن أثرك ، بعطفك وتحنُّنك ، واستخلاصك إياه مِقَةً وأنسا ... فى أياد من أياديك عظمت فلا تُجْحَد ، ونعم من نعمك شُهرت فلا تنكر ، ولا يُحْصَى عددها وإن اجتهدنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها ، وإنْ دأبْنَا فى بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منّةً علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقى الخَلَفُ منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء فى كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتّاب كى يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهى تجرى على هذا النمط [٤] :

« اعلم أنى إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاءُ والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبة . . . إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مودة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضَعُ منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

---

(١) الفهرست ص ١٧١ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٧٩ .

(٣) البلاء هنا : الإحسان .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٦ .

وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لك ، أليس ما سرَّنا سرَّك، والله يوفقنا وإياك » .

وواضح أنه يتسع فى تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودِّدين الملحفين فى الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمَّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعةَ الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين الممقوتين، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعتل بشغل عنه بخاصة نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصُّ ما ينبغى له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شىء سواه .

ومما أكثروا فيه التعازى ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغى عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لذم الدنيا وأنها دائمًا تكدر الصفاء وتنغص السرور ، ويُرْوَى أن المهدى جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى بهذه الرسالة الموجزة[١] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظَّم حق الله عليه فيما أبقى له . واعلم أن الماضى قَبْلك هو الباقى لك ، وأن الباقى بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافَوْن منه » .

وكثيراً ما تعاتبوا عتابا رقيقًا ، وقد يَعْنفون فى عتابهم ،ولكن عنف المتحضر المهذب الذى قد يمسّ ولكنه لا يَخْدش ، ومن رسائلهم الطريفة فى العتاب التى تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثى ، وفيها يقول[٢] :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك — أكرمك الله — فى خَرْجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك ، وإبلاغنا خبرك ،وقطعتنا قطعَ ذى السَّلْوة أو أخى المَلة[٣] ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٧٤ .
(٢) الأوراق للصولى و (قسم الشعراء) ص١٥٢ .
(٣) الملة : الملال .

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البعد منا تـوّاقا ، فوقع بُعْدك بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّيناه قاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . . وما أدرى ما أقول فى اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائى الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أنى أردت ، إعناتك بإعتابى ، ولأن أزْرى عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فمشكور ، وإن قطعت فمعذور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقه ودقته فى التعبير واضح فى تلك الرسالة ، وقد تفنَّن الكتاب طويلا حينئذ فى صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث فى اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية[1] :

« كيف يسعك أن تأخذنى بظن او كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب واسعة لك فى حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبت على حال ، إلا ربّما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عنى ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسى دقيق ، وهو أن الخواطر التى تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان يتنقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر فى هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم[2] بن سَيابة الشاعر التى استعطف بها يحيى بن خالد البرمكى ، وكان قد أنكر منه شيئًا ، فكتب إليه يترضاه على هذه الشاكلة[3] .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٨٥ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٨٨ وانظر البيان والتبيين ١/٤٠٥ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .

« للأصيد(١) الجواد ، الوارى الزناد(٢) ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم(٣) الباذل ، اللُّباب الحُلاحِل(٤) ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير فإنى أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد فاغْنَمْ واسلم ، واعلمْ إن كنت تعلَمُ ، أنه من يَرْحم يُرْحم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدم(٥) ، وقد سبق إلىّ ، تغضُّبك علىّ ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم ، له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحىّ صحيح ، ولا بميت مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناختْ بمُذْنبٍ ذى رجاء(٦)

راغبٍ راهبٍ إليك يُرَجّى ... منك عفوًا عنه وفضلَ عطاء

ولعمرى ما مَنْ أصرّ ومن تا ... بَ مُقِرًّا بذنبه بِسَواء

فإن — رأيت — أراك الله ما تحبّ ، وأبقاك فى خير — أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعى ، وتخشُّعى ، وتذللى ، وتضعُّفى ، فإن ذلك ليس منى بنَحيزة(٧) ، ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيّد تصنُّع ، وتخدُّع(٨) ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع من غير ضارع(٩) ولا مَهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عِزٌّ ورفعةٌ وشرف »

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجابًا ببلاغتها ، وهى بلاغة تُرَدُّ إلى ما أجرى فيها ابن سَيابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على أن العبارات كانت طيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

---

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشمما.
(٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .
(٣) الأشم : المملوء أنفة .
(٤) الحلاحل : السيد الشجاع ذو المروءة .
(٥) لايعدم : يريد لايعدم مكافأته .
(٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة أناخت : بركت وأقامت .
(٧) نحيزة : طبيعة .
(٨) تخدع : خداع .
(٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم فى الشعر والكتابة الإخوانية العتّابى ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابهين وكانت قدرته فى الكتابة لا تقل عن قدرته فى الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعًا إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، ومما يصوّر ذلك فى كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه فى أيام شحيحة مجدبة ، على هذه الشاكلة[1] .

« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة[2] استماما لزَهْرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندى قطعة من سِنِى يوسف ، اشتدَّ علينا كَلَبُها[3] ، وغابتْ قِطَّتُها[4] ، وكذبتْنا غيومها ، وأخلفتْنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتُك[5] ، وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد[6] ، وأنك تُغَطِّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة[7] الأهل . واعلمْ أن الكريم إذا استحيى من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعْرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول فى ذلك :

إذا تكرَّهتَ من بذل القليل ولم ... تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعْك قِلَّتُهُ ... فكلُّ ما سَدَّ فقرًا فهو محمودُ »

ويقال إنه بلغ من تأثيره فى صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد فى أشعاره إلى المعانى الدقيقة الطريفة يصوغها فى مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

---

(١) الأمالى ٢/١٣٧ .
(٢) النجعة : الاستمناح ، وأصلها طلب الكلأ .
(٣) كلبها : سوءها وقحطها .
(٤) كناية عن الجدب ، فالقطة لاتجد ماتأكل.
(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعروفك .
(٦) الرائد : الذى يتقدم القوم فى طلب العشب .
(٧) حومة : موضع.

كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالبًا فى عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة ، ولكنها مع قلتها حماء من المعانى والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية ، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان[١] .

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت ، فليكن وَبْلُها[٢] سالما من علل المَطْل ، والسلام » .

وهى صورة طريفة عرف كيف يستتمها وكيف يرسمها فى عبارات موجزة رسماً يبهر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها . ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة[٣] :

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوِّك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم أتجشّم مرارة تماديك ، ولكن استخفّتنا صَبابتُنا ، فاحتملنا قسوتك ، لعظيم قدر مودّتك ، وأنت أحق من اقتصّ لصلتنا من جفائه ، واشوقنا من إبطائه » .

واتسع استخدام الكتّاب للنثر فى كل فنون الشعر ، حتى فن الهجاء ، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحيانا على الشعر كما رأينا عند العتّابى وابن سَيابة ، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحيانًا بعض أبيات الشعر من نَظْمهم أو نظم سواهم ، وقد ينثرون معناها قبلها ، على نحو ما مرّ بنا آنفًا فى رسالة العتّابى . ومن خير ما يصور ذلك رسالةٌ لأبى العتاهية فى هجاء الفضل بن معن بن زائدة ، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره ، فردّه ردًّا غير جميل ، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة[٤] :

« أما بعد فإنى توسلت إليك فى طلب نائلك[٥] بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددتُ بهما بُعْدًا مما فيه تقربتُ ، وقربًا مما فيه تبعّدتُ . وقد قسمت اللائمة[٦] بينى وبينك ، لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى ، أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونُهيتَ عن مَنْع أهل الرغبة ، فمنعتهم ، وفى ذلك أقول :

---

(١) العقد الفريد ١/٢٥٠ .
(٢) الوبل : المطر الغزير .
(٣) زهر الآداب ٤/١٢٢ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢٣٦ .
(٥) النائل : الرفد والعطاء .
(٦) اللائمة : اللوم .

فررتُ من الفقر الذى هو مُدْركى ... إلى بُخْل محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ
فـأَعقبنى الحِرْمانَ غِبٌّ مطامِعى ... كذلك من تلقاه غير قنوعِ
وغيرُ بديعٍ مَنْعُ ذى البخل مالَه ... كما بَذْلُ أَهلِ الفضل غيرُ بديع
إذا أَنت كشَّفْتَ الرجالَ وجدتَهم ... لأَعراضهم من حافظٍ ومذيع »

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعانى العاطفية التى يستطيع النثر أداءها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعًا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزاوج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتَّاب من دقائق المعانى ، واللذةُ الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتّاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كى يصطبح[(١)] معه فى يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر[(٢)] :

« أما ترى تكافُؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولُ كثيِّر :

وإنى وتَهْيامى بعزَّة بعدما ... تخلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتِ
لكالمُرْتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوَّأَ منها للمَقِيل اضمحلَّت[(٣)]

---

(١) يصطبح : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .
(٢) زهر الآداب ٢/١٤٦ .
(٣) المقيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

وما أصبحتْ أمنيتى إلا فى لقائك، فليت حجابَ النأى هُتك بينى وبينك، ورقعتى هذه وقد دارتْ زُجاجات أوقعتْ بعقلى ولم تتحيَّفه، وبعثتْ نشاط حركتى للكتاب، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارٍّ خبرك، إذ حُرِمت السرور بمطر هذا اليوم موفقا إن شاء الله » .

وعلى نحو ما أكثروا فى طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضًا مع الهدايا التى كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض الأولاد، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكى عزم على ختان أحد أولاده، فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته، وتظرَّف بعض من كانوا من أسبابه، للدلالة على قصور همته، فملأ وعاء من أدَمٍ مِلْحًا مطيبا ووعاء ثانيا سُعْدًا[١] معطَّرا وكتب معهما هذه الرقعة[٢]:

« لو تمت الإرادة، لأسعفت العادة، ولو ساعدت القدرة، على بلوغ النعمة، لتقدمتُ السابقين إلى خدمتك، وأتعبت المجتهدين فى كرامتك، لكن قعدت بى القدرة، عن مساواة أهل النعمة، وقصَّرت بى الجِدَةُ[٣] عن مباهاة أهل المُكْنَة[٤]، وخشيت أن تُطْوَى صحيفة البِرِّ، وليس لى فيها ذكر، فأنفذت المُفْتَتَح بيُمْنه وبركته وهو المِلْحُ، والمُخْتَتَم بطيبه ونظافته وهو السُّعْد، باسطا يد المعذرة، صابراً على ألم التقصير، متجرعا غُصَصَ الاقتصار على اليسير، والقائمُ بعذرى فى ذلك: ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ ) . والمُهْدى ضارع فى الامتنان عليه بقبول معذرته، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته » .

وعُرضت الهدية على يحيى، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفْرغ الإناءان ويملأ أحدهما دنانير والآخر دراهم، إعجابا بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه. وكانت أكثر هداياهم طيبًا وعطراً وتحفًا ثمينة، وربما أهدوا السيوف والخيل، ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه[٥]:

---

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ٤٤٨ .
(٣) الجدة : الغنى .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ٢/ ١٧ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب فى الصَّعْداء(١)، ويجاور الظِّباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحُدور(٢) جَرْى الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وفْدَ الريحِ من حيث يَنْتحى بِمُنْخرقٍ من شَدِّهِ المتداركِ(٣) »

وأكثروا من التهانى مع كل مناسبة ، فهم يهنئون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنئون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهنئون بالزواج وعقد القران ، وهم يهنئون بإنجاب الأولاد ، وهم يهنئون بحكم الولايات ، وهم يهنئون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهنئون بالظفر على الأعداء ، ولإبراهيم بن المهدى من رسالة هنأ فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية(٤) :

« الحمد لله الذى تمَّم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَفَى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأوْبَةَ سالما غانما . . . ولْيَهْنِئْهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لِيَقفه به موقفا يرضاه ، فإنه عزَّ وجَلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون ، وَعْداً عليه حَقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَنْ أوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْد بَرًّا وبَحْراً ، ووقاه وَصَبَ السفر سهلا ووعراً ، وحاطه بحراسته كالئا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة » .

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهروا القارىء على براعتهم وتفننهم فى الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

(١) الصعداء : الصعود الشاق .
(٢) الحدور : الجرى السريع .
(٣) وفد الريح : جماعاته ، ينتحى : يقصد . بمنخرق : بمتسع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٨ .

الطبيعة أحيانًا ، وللجبل بن يزيد رسالة جيدة فى وصف الأمطار عقب سنة مجدبة أهلكت الحرْث والضرع حتى استيأس الناس ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[١] :

« عادتْ لنا من الله عائدةُ رحمةٍ بِوَلِيّ[٢] مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر ، وابلا جَوْدًا[٣] ، لا يَفْتُر غزيره ، ولا يَرْعوى جَوْده إلا إلى دِيمة[٤] عن دِيمة ، يتراخى إليها يسيراً ريثما تعود ، فأقامتْ علينا سماؤه مستهلَّةً[٥] بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القُرّ[٦] وفضلٍ من الله عظيمٍ ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوثق[٧] بحمد الله معارف الخِصْب . والله محمود على آلائه[٨] ، مشكور على بلائه[٩] ، وما أنزل من سُقْياه ورحمته بعد الذى أقبلت به السَّنَةُ البَرِيَّة[١٠] ، والقحطُ وعدم الإمطار ، وشدةِ ما بلغ الناسُ من القنوط[١١] وسوء الظنون » .

ومرّ بنا فى حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحيانًا يصفون روعة شعرهم وقدرتهم على استنباط الدرر واللآلىء الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذى كان يخصُّه أحيانا ببعض منظوماته مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات فى وصفه لقلمه المشهور ، وكأن الحسن بن وهب رأى أن يجاريه فى هذا المضمار نثراً لا شعراً ، فكتب إليه هذه الرسالة[١٢] :

« أنت — حفظك الله — تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثل ما يُقْصد بَحْرٌ من الدرر فى الأفهام ، والفضل لك — أعزك الله — إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتَحُلّ متعقَّده ،

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٧ .
(٢) ولى المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة .
(٣) الجود : المطر الغزير .
(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .
(٥) مستهلة : منصبة .
(٦) القر : البرد .
(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .
(٨) الآلاء : النعم .
(٩) البلاء هنا : الإحسان .
(١٠) البرية : المجدبة .
(١١) القنوط : اليأس .
(١٢) زهر الآداب ٣/٢٤٨ .

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصِّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده . ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيُلْبس ، ولا متعقَّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة » .

وهذه الرسائل الإخوانية التى كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم فى بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التى ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة[١] :

« أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البُعْدة ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نِسْبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه فى نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البِرّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدة والصدق والحياء والنَّجابة والزَّكانة[٢] وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامد. ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعُدْنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصالُ كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع فى صواب التروِّى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله ، واستوجب — إذ كان جماع المحامد — أن نتخيَّر له محامله التى يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستَحْلوا عاجل المحبة ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٦٧ . (٢) الزكانة : صدق الحس .

ولهوا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعْذِرون[1] إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعذر عند المحاجّة ».

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثا عامًّا عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرّدة وما ينبغى أن يَكْفُلَ له من الوفاء . ويراه يقوم على البِر ، ويتغلغل فى بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمُّ كيانه بدونها وفى مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفُّ صاحبه عن التطاول وسوء الأدب وسَوْرة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكانة أو صدق الحسِّ الذى يَكْفُلُ لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنّى فى اختيار أخيه وأن يتحبّس حتى لا يتورط فى الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومَنْ حوله مِنَ الناس صنفان : صنف يَعْذرونه لأنهم ممن يرون رأيه فى تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم وتَنْدَوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتْ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى تتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد فى العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة[2] :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطوارا فى صُورهم وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودّة يتعاطونها ، وأخوّة يتداولونها تُرْعَى

(١) المعذر : من له عذر.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/١١٣ .

بوفاء ، وتؤدّى بأمانة ، وتضيّع بتقصير ، وتُنْتَقَص بخيانة ، ليس مَنْ أُدّيتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيّعها فيما يُدْخِلُ من التقصير عليه ، فإن من أخطأه الوفاء من أخيه فإنما يدخل عليه تقصير غيره ، ومن ضَيَّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النَّقْصَ فى خاصّة نفسه ، والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلا ، ولا يجد عن نفسه إذا قصّرتْ به متحوّلا ، وليس نقصٌ يستبدل به كنقصٍ لا يستطيع مُزايلته » .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرَمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذى يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التى تمنع الخيانة بين الإخوان وتحول بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطين النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان فى تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يؤدى حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدى إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذى يغمّه تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيِّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخل لغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانه عوضًا فى أخ آخر صادق ، أما الثانى فإنه لا يخسر شخصاً ولا أخاً ، إنما يخسر نفسه التى بين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيها ، الخسارة لا يمكن مزايلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلا ولا منصرفا . ويمضى غسان ليفصل القول فى خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التى أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجيعة لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا واختار واختاروا فوقع رأيه عليهم ، ووقع رأيهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحمّلوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبّت الله بينهم وبينه ما كان داعيا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صَنيع معيب ، وأمرٍ مريب ، فأىٌّ

نَقْص أكثر وأىّ دناءة أبين من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقة قد حُفظت منه حُرْمة، واعتُقدت بها عليه أمانة، فوجبت منه مصافاةٌ، وانتُظِرت منه صلةٌ، ثم ينكشف عن خيانة وغدر وقطيعة وفجيعة ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيعة فيمن اؤتمن فخان وعاهد فغدر ، وأى غدر؟ إنه غدر بالحرمة التى قامت بينه وبين إخوانه ، حرمة الوداد الصادق الذى لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وتثبت ، فإذا مَن وثقتَ فيه وملّكته زمام نفسك قدنكث كل عهوده ، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التى ليس منها برء ولا إقالة . وأطال غسان فى تصوير وقيعة واش به لصديقه ومايراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع فى واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتّاب ينمّون الرسائل الإخوانية حتى غدَت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع — كما أسلفنا — قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التى تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر فى الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدبير الحكم ، وأيضًا فإنه ترجم قصص كليلة ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابى من أن له رسالة فى فنون الحكم ورسالة أخرى فى الآداب[١] ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليحيى البرمكى كتابا فى الأدب[٢] ، وأن لسعيد بن هرون أحد خزنة دار الحكمة للمأمون رسالة فى الحكمة ومنافعها[٣] ، وأن للعتبى المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتابا فى الأخلاق[٤] ، ومر بنا أن على ابن عبيدة الريحانى الكاتب فى دواوين المأمون صنف كتبا مختلفة فى الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يُرَادُ بها أن ترشد الناس فى حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصّل من الحكم . وأخذ بعض الكتّاب يُعْنَوْنَ بالكتابة فى السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبى دلف[٥] العجلىْ وسهل[٦] بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلة

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) الفهرست ص ١٧٥ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .
(٤) الفهرست ص ١٧٦ .
(٥) الفهرست ص ١٦٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

ودمنة فى كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثًا مستقلا فى الفصل التالى . ويقول ابن النديم عن على بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء، وكان يَسْلُكُ فى تصنيفاته طريقة سهل بن هر ون، وله من الكتب كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظِّراف[1] » . وفى اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتّاب عرفوا فى هذا العصر الرسائل الأدبية التى يقصد بها إلى التفكهة والترويح عن النفس .

---

(١) الفهرست ص ١٧٤ .

# الفصل التاسع

## أعلام الكتّاب

### ١

**ابن[١] المقفع**

فارسى الأصل، اسمه رُوزْبِه بن داذُوِيه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسيا مانويا، غير أنه استعرب سريعا، لاختلاطه بمواليه آل الأهتم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل فى دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة فى أموال الدولة، فضربه الحجاج ضربًا مبرِّحا تقفَّعتْ (يبست) منه يده، فسمِّى من حينئذ المقفَّع، ولم يُسْلِم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عُنِى عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسَّب بصناعة أبيه، فاشتغل، فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد فى ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثانى داود فى ولايته على كِرْمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن على عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن على والى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبى محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣، ١٠٩ وفى مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ والبيان والتبيين ٢/١١٥ وفى مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١/٧٦، ٦/٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب ١/١٨١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادى ٣/٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦.

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه فى حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية المجوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلامَ يعمل فى دواوينه .

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففرَّ إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمرا ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدَّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملأه موجدة ، إذ طلب إليه أن يكتب فى أسفل الأمان هذا التوقيع[1] :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحدمنهم ضرراً سرًّا أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحِيَل ، فأنا نَفِيٌّ من محمد بن على ابن عبد الله ، ومولود لغير رِشْدة ، وقد حَلَّ لجميع أمة محمد خَلْعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الحَوْل والقوة ، ومدَّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرَّم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرِّقّ والمِلْك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطِّى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن على عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتَنُّور ، فمُلِئ وقوداً

(١) الجهشيارى ص ١٠٤ .

حتى إذا حميتْ ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء فى التنّور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعّب فى صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتهن فيه كرامته ووطئها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فنساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابّه محرمة عليه والمسلمون فى حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضًا فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعيًّا أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن على بالمنصور ، ففُطن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن على سوى صيغة هذا الأمان المشئوم ، واختلف الرواة فى السنة التى قُتل فيها ، فقيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقى فى قتل ابن المقفع أننا ننفى عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدى يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »[1] ويقول المسعودى: « أمعن المهدى فى قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب مانى وابن دَيْصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرْجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[2] ويُقال إنه مرَّ ببيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحسّ بحنين شديد إلى دينه المانوى القديم ، وأنشد بيتى الأحوص[3] :

يا بيْتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ ... حذَرَ العِدا وبك الفؤادُ موكَّلُ

إنى لأَمنحك الصدود وإننى ... قَسماً إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوى القديم فهو يظهر الإسلام ويضمر مانويته، وقد مضى ينقل ديانات فومه المجوسية ومذاهب الملحدين

---

(١) أمالى المرتضى ١/ ١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٤٢ .

(٣) أمالى المرتضى ١/ ١٣٥ .

مثل ابن ديصان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النَّقْل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلانى فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهى كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة.. والآخر فى شيء من الديانات[1] » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً فى نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر فى أوائله أن ابن المقفع وضع كتابًا عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين[2] ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين فى هذا الكتاب الذى نسبه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان — مع زندقته — نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدَّنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سَرِيًّا سَخِيًّا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجْرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر » . وتُرْوَى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبارٌ تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن على دعاه يوما للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار[3] . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدَّبك ؟ فقال : نفسى ! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته ، وإن رأيت قبيحًا أبيته » . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه فى الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكيًّا ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

---

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨ .

(٣) أمالى المرتضى ١ / ١٣٦ .

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»[١] . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب. ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرْجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنو شروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع كتاباً فى تعاليم مزدك وكتاب «خداى نامه» وهو فى سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسى فى نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج فى سيرة أنوشروان . ونقل عنها فى أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب « آيين نامه » ورسالة « تنسر » وفى عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان فى الفهلوية أدب أخلاقى كثير نما فى بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحِكم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة فى الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر فى لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرْجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو فى المقولات والقياس المنطقى .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم فى الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلا عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة[٢] فى نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .

(٢) انظر الأدب الصغير فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

الوصايا الخلقية والاجتماعية التى ترشد الناس إلى صلاح معاشهم فى أنفسهم وفى علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، ونراه يقول فى أوائلها : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله فى تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ فى الرأى والزَّلل فى العلم والإغفال فى الأمور . إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هى ثُلَمٌ(١) يَثْلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة(٢) المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يمنعنَّك صغَر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريما ، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تُهان لهوان غائصها الذى استخرجها . أعدلُ السِّير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يُؤْتَى إليك . حقٌّ على العاقل أن يتخذ مِرْآتين فينظر من إحداهما فى مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى فى محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوًى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبه عليه فإنه من خفى عَيْبُه عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها أبداً . لا يتمّ حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداوَ به لم يُغْنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذى يهاب وإن كان عَقِيراً(٣) ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكَلْب الذى يهون على الناس وإن طُوِّقَ وخُلْخِلَ »(٤) .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَر وقلما يطَّرد فيها

---

(١) ثلم : جمع ثلمة وهى الخلل .
(٢) مقارفة : ارتكاب .
(٣) عقيراً : جريحاً .
(٤) خلخل : وضع فى رجله خلخال .

السياق . أما الأدب[١] الكبير فرسالةٌ أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح . ونراه يصرح فى تقديمه لهذه الرسالة بما صرَّح به فى أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد فى وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسنُ ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمِّن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نَقْلٌ عن القدماء ممَّا قرأه فى الأدب الساسانى السياسى والأخلاقى ، وإما استنباطات وَصَلَ إليها على هَدْيهم . وهو يستهلُ رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى ، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئاً من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يُرْضى ربه ومَنْ فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلتمسْ رضا الناس جميعاً ، لأن ذلك شيءٌ لا يُدْرَك ، إذ بينهم مَنْ رِضاه الجَوْرُ ومَنْ رِضاه الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تتركنَّ مباشرة جسيم أمرك ، فيعودَ شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرِّغْه للمهم . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة فأحسنْ قسمتهما[٢] بين دعتك وعملك ، واعلمْ أنك ما شغلت من رأيك فى غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك فى الحاجة . واعلْم أن من

---

(١) انظره فى رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها.

(٢) قسمتهما : أى قسمة الليل والنهار.

الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكُلُوح[١] والتقطيب فى غير مَنْ أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهمّ بعقوبته ، وشدّة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرّع بالأمر ذى الخطر[٢] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذرْ هذا الباب الحذر كله » .

ويسترسل ابن المقفع فى مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصداقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يَدَ العَوْن فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، ومما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوَطّنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَفْوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قِبَله غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقربٌ لك كلّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئنّ على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجّتك إذا وضحت. وتعلّمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

---

(١) الكلوح والتقطيب : العبوس .

(٢) الخطر : الشرف .

الرأى كله غـَرَرٌ(١) ، لأن أمور الدنيا ليس شىء منها بثقة ، ولأنه ليس شىء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعْيَى الحَزمة(٢) ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعلْ ذلك عليه لوما وعَذْلا بأن تقول : أنت فعلت هذا بى ، وأنت أمرتنى ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك فى شىء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدَا صوابك فلا تمنَّنَّ ولا تكثرنَّ ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تَلُمْه عليه إن كان استبان فى تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكُّب الأمور ما يسمى حَذَراً ، ومنه ما يسمى خَوَراً فإن استطعت أن يكون تجنُّبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعلْ ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قَعْره » .

وردَّد محمد كرد على فى نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلانى عن اليتيمة الذى سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم فى الحكم المنقولة ، وقسم فى شىء من الديانات ، وليس فى الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصداقة . ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هى الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد فى الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألوا ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، والٍ وموَلًّى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسُدُ المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

---

(١) غرر : خداع .

(٢) الحزمة : جمع حازم .

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعا ، وفي الأول يقول[١] :

« خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية ، فكان الإمام مؤدّياً إلى الرعية حقهم : في الرد عنهم والغيظ على عدوهم ، والجهاد من وراء بَيْضتهم[٢] والاختيار لحكّامهم ، وتولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم في معايشهم ، وإفاضة الأمن فيهم ، والمتابعة في الحق لهم ، والعدل في القسمة بينهم ، والتقويم لأَوَدهم[٣] والأخذ لهم بحقوق الله عز وجلّ عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وتَرْك المنازعة في أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين[٤] عليه أحدا . فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمُّ الصالحات »

ويظهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تخوض في السياسة ، وتلتها أسئلة كانت تخوض في شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن ، وكأن الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة[٥] فهي في صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلّها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بني أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ في تصوير الدستور الذى يريد من المنصور اتباعه في حكمه ، واصفًا حسن سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حوله قلوب الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم ، ومن ثَمّ أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يُدْرَك مثلهم في الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يَدٍ للولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٩ .

(٢) البيضة : حوزة كل شيء وساحة ، القوم والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) لابسين هنا : مقدمين ، وأصل لبس القوم التملي بهم زمناً .

(٥) انظر في هذه الرسالة رسائل البلغاء ص ١١٧ وجمهرة رسائل العرب ٣/٢٥ .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح فى دقة واجباتهم وما ينبغى أن يفعلوه وما ينبغى أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغى أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه ، كما يطيعون الخليفة فى الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . ومما يُنْظَرُ فيه لصلاح الجند أن لا يولَّى أحد منهم على شيء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير . ولفت المنصورَ إلى أن من عليهم من هم خير من قادتهم . ولذلك ينبغى أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فيردّ بعضهم عن القيادة ويوليها الكفء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يُعنَى بتعليمهم القرآن والتفقه فى السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف فى المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتقصَّى أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئاً . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم فى الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور فى دولته ، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه . وأوصاه — كما أوصاه فى الجند — أن يتتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويردّ عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختيروا دون تثبت وفحص كاف . وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحْكَمُ فى القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا فى البلاد المتباعدة بل فى البلد الواحد ، واقترح لدَرْءِ هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاة على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدِّمون الرأى ويعتدُّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدُّون بها ، ويَسْخر من الأخيرين ، إذ تمادوا فى الأخذ عن التابعين وخلفاء بنى أمية مسمِّين ذلك سُنَّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع فى الأقضية ، يقول :

« ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين ( البصرة والكوفة ) وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها

أمراً عظيماً فى الدماء والفروج والأموال ، فيُستَحَل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرّمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيُستَحَل فى ناحية منها ما يحرّم فى ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحُرَمهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجّ بهم العجب مما فى أيديهم والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يتبيّغ(١) بها من سمعها من ذوى الألباب . أما من يدّعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنّة سنّة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حُجّة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول : هُريق(٢) فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أىُّ دم سُفك على هذه السنة التى تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبدالملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وربما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا ، لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مقرٌّ بأنه رأىٌ منه ، لا يحتجّ بكتاب ولا سُنّة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فتُرفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنّة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يُلهمه الله ، ويعزم عليه عزماً ، وينْهَى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطةَ الصواب بالخطأ حكماً واحداً صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السُّنَن قرينةً لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخرَ الدهر ، إن شاء الله » .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس فى حد ذاته ،

---

(١) يتبيغ : يهيج . (٢) هريق : لغة فى أريق .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أُخِذَ به وإن قاد إلى قبيح تُرِكَ ، إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجَمْع السنن والأحكام والأقضية ووَضْع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلّف فى الفقه كتابه « الموطّأ » وقد قال له : إنى أريد أن تُرْسل لى به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس فى الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين فى كل بلد رووا من السنة النبوية ما دانوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية فى الحجاز ، وفى كثير من الأمصار وخاصة فى مصر والمغرب والأندلس . ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكنّونه للدولة من عداوة ، لِسَلْبِها السلطانَ منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم فى محبة الدولة غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة فى الاتساع . ويطلب إليه أن يردّ عليهم فَيْئهم ، حتى يذعنوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غَناء ، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرِّف أمور الدولة ومن يعمل فى دواوينها . وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ، والعدالة وجودة الرأى وأن لا يقرِّب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسناً ، أو عُرِف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه ، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً فى عمله لا يتعداه . وتصحه بأن يستخدم أهل بيته ويُسْنِد إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الأراضى والضياع فى الدولة ، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياعهم وأراضيهم ، كما دعاه إلى تخير عُمَّال الخراج وتفقُّدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومَنْ وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يُجْبَى منهم ، وكأنه نظر فى ذلك إلى فقر بلادهم وجَدْبها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودعاه إلى أن يولى عليهم الخيار من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين فى الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابهين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البِدَع والفتن ، وبذلك رشَّح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب فى الدولة العباسية ، وكان يُعْهَدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ فى البيع والشراء أو نقص فى المكاييل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر فى هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستنيان الرومانى ولكن من المحقق أنه صَدَرَ فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية فى عصره وما حذقه من شئون السياسة التى استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائماً لا نستطيع أن نُخْلِيه فى كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها فى عصره ، وكان ذهنه من الخصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعى والسياسى . ولعل هذا الإصلاح الذى كان ينشده للدولة العباسية هو الذى دفعه إلى ترجمة القصص الخيالى الهندى ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت فى عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بَنْشَجَ تانترا » ومثل « هتو بادشا » ووجدوا منها بعض أصول فى « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يثبته إثباتا قاطعاً[١] . ورجَّح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد فى الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض مَنْ جاء بعده ، إذ تُرْجم الكتاب مرارا ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذى وضعه بين يدى القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيرونى قديماً أنه زاد أيضا باب برزويه « قاصدا تشكيك ضعفى العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل[٢] »

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً فى الأصل الفارسى ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلُّوا الكتاب قبل نَقْله إلى العربية فى الدعوة لمذهبهم المانوى .

ومَثَلُ ابن المقفع فى ترجمة هذا الكتاب مَثَلُهُ فى ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصبُّ فى دقة المعنى الذى يترجمه فى القوالب العربية التى تلائمه وتلائم الذوق العربى ، بحيث خُيِّل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق فى الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقًّا حمل عليه الجاحظ فى ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ فى ألفاظه قصوراً أحيانا عن أداء المعانى المنطقية[1] ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعانى لأول مرة فى العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق فى نقل المنطق الأرسطاليسى فإنه لم يفته فى بقية ترجماته ، وأمامنا كليلة ودمنة التى لا تُعتَدُّ آية من آيات بلاغته فحسب ، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق. وفى رأينا أن غَضّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذى دفع طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك فى مقدرته على أداء المعانى الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ فى العربية وبنوع خاص فى الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »[2] ويبلغ من إزرائه عليه أن يقول إنه « كان مستشرقا كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهما ، وربما أعياه الأداء فيها» ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحِظُ عليها اضطرابٌ فى بعض الضمائر ، وكأنه نسى أن الرسالتين تداولتهما أيدى النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف فى إزرائه عليه وفى عده مستشرقا كالمستشرقين الغربيين فى عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون فى بيئات عربية كبيئة البصرة التى نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

(١) الحيوان ١/٧٦ .

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

الفارسية ، ثم هم لم يوظَّفوا فى الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتَّابا يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظِّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربى ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية فى البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سمَّوْهم فى هذا العصر[١] ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول فى بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلقحوا عقولهم وألسنتهم بخير لقاح[٢] .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أوانى العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدِث فيها انحرافًا من شأنه أن يجرَّ ضرباً من الازدواج اللغوى ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة فى التعبير ، ولها أيضا صُوَرُها وأخيلتها التى قد تستعصى على الأداء فى لغة أخرى . وشىء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية فى ترجماته بمقوماتها الأصيلة ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسُّ عنده نُبُوًّا ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السابقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية فى البلاغة وجزالة القول ورصانته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتتبع لوحشىِّ الكلام طمعًا فى نَيْل البلاغة فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظنَّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهى أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبَّتوا الأسلوب الكتابىَّ العباسىَّ المولَّد ، وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفَّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشىٍّ ومبتذل

---

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ .

عامى . ولم يقْصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه فى ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيد ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أساوب النثر العام فى العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً فى أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعانى لا تنقص ولا تزيد ، والمعانى تؤدّى أداء فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيرى من سجع أو ترادف صوتى . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً فى جوانب كتاباته حتى فى القصص الحيوانى قصص كليلة ودمنة ، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية فى تحميداته التى كان يفتتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتى كان يعظّم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى فى هذا التحميد[١] :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يُعْجزه شىْءٌ ولا يمتنع منه ، ولا يُدْفَعُ قضاؤه ولا أمره : ( إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُنْ فيكون ) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ومِلْكَةِ[٢] منه لها ( لا معقب لحكمه ) ولا شريك له فى شىء من الأمور ( يخلق ما يشاء ويختار ) وما كان للناس الخِيرَة فى شىء من أمورهم ( سبحان الله وتعالى عما يشركون ) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقرّبون ، يعظّمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون آلاءه لا يَسْتحسرون[٣] عن عبادته ولا يستكبرون ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه يطيعون أمره ويذبُّون عن محارمه ، ويصدِّقون بوعده ، ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوّه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه[٤] حُجَّتهم وإعزازه دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

( ١ ) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٣ .
( ٢ ) ملكة : ملك .
( ٣ ) يستحسر بالشىء : يعيا به .
( ٤ ) إفلاجه : نصره .

فيما مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى ( ليُتمَّ نوره ولو كره الكافرون ) و(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ) . والحمد لله الذى لايقضى فى الأمور ولا يدبِّرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليُّها ومنتهاها ، وولىّ الخيرَة فيها والإمضاء لما أحبَّ أن يمضى منها ( يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عما يشركون ) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى المَنّ والطَّوْل[١] والقدرة والحَوْل[٢] ، الذى لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء، ويُحكم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ومِنّه ابتداؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه » .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبَدَا عنده هنا شىءٌ من السجع الذى يأتى عفواً سمحًا ، وكأنما ابتغى هنا التنميق بأكثر مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا ما كان يبذل فيها من جهد فنى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه على هذا النمط[٣] :

« بارك الله لكم فى الابنة المستفادة، وجعلها زَيْنًا ، وأجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرهـْها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعمَّات والخالات، ومنهن ( الباقيات الصالحات ) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرَّتهم ، وربَّ جارية فرَّحتْ أهلها بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة ( الباقيات الصالحات ) وعُنى بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، ومما كَتَب به فى التعزية عن ولد[٤] :

« إنما يستوجب على الله وعده مَن صبر لله بحقّه، فلا تجمعنَّ إلى ما فُجعت به من ولدك الفجيعةَ بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئَتَيْنِ[٥] لك، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب».

---

(١) الطول : الإنعام .
(٢) الحول : القوة .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/٥٧ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٥٨ .
(٥) المرزءتين : المصيبتين .

والدقة المنطقية واضحة فى هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيعة لا تقل عن فجيعة فقده ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّفَ فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة[١] :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عملَ لا لهم ، والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرعٌ لا بد لزارعه من حصاده أو لِعَقِبِه من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أولُ ما فيها معروف ، تستوجب به الشكر علينا ، وتدّخرُ به الأيادى قِبَلنـــا » .

ودقةُ التفكير واضحة فى الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس ممَّا يؤديه إليه ، وإنما يؤديه إلى نفسه ، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدَّث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس ، فيقول إن المعروف غَرْسٌ لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون . ومرت بنا فى الفصل السالف رسائل إخوانية تحوَّل بها بعض الكتَّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصداقة من حيث هما مفصَّلةً صفاتِهما وشرائطهما ، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة فى وصف أحد إخوانه ، وفى رأينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[٢] :

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظمَ الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظّمه عندى صِغَرُ الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يَكْثِر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه ريبةً ، ولا يستخفّ له رأياً ولا بدنا ، وكان لا يَأْشَرُ[٣] عند نعمة ، ولا يستكين عند

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٦٠ .
(٢) انظر هذا الوصف فى آخر الأدب الكبير ، وفى زهر الآداب ١/١٧٩ وفى جمهرة رسائل العرب ٣/٥٦ .
(٣) يأشر : يبطر .

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى[1] فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بَذّ القائلين . وكان يُرَى ضعيفاً مُستَضْعفاً ، فإذا جَدّ الجِدُّ فهو اللَّيْثُ عادياً . وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدْلى بحجة ، حتى يَرَى قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولا . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُذْر فى مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرَّم ، ولا يتسخَّط ، ولا يتشكَّى ، ولا يتشهَّى . وكان لا ينقم على الولىّ ولا يغفل عن العدو ، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنّ أخْذَ القليل خَيْرٌ من تَرْكِ الجميع » .

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعَدّ درة ثمينة من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التى أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر فى أساليبه وتضطرب لغته ، ويعييه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه فى البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

## ٢

### سهل بن[2] هرون

هو سهل بن هرون بن راهبونى كما جاء فى البيان والتبيين ، وفى كتاب البخلاء

(١) يمارى : يجادل .

(٢) انظر فى ترجمة سهل وأخباره البيان والتبيين ٥٢/١ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤٦ ، ٢٩/٣ والحيوان ٣٧٤/٢ ، ٦٦/٣ و٤٦٦ ، ٦٠٣/٥ ، ٢٠٢/٧ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢٥٧/٢ — ٢٥٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٢٥/٣ ، ١٣٨ ، ١١٢/٤ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥٨/٥ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ١٨١/١ وسرح العيون فى شرح رسالة =

« راهبون » وفى الفهرست « رامنوى » وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » . وهو فارسى الأصل، وعلى نحو ما اختلف الرواة فى اسم جده اختلفوا فى مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتميسان ، وهى كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل مَيْسان قرية بتلك الكورة، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التى كانت منبثّةً بها، وخاصة علم الكلام وما نُقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك فى ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملا أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقرّبه يحيى البرمكى وزير الرشيد منه ، فيُلْحقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُين بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسى إلى العربية .

وفى أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه ، فقدّمه إلى المأمون، فأُعْجب ببلاغته وصحة منطقه وذكائه ، حتى إذا تحوّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة ، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة، جعله قيِّماً على خزائن كتب الفلسفة التى جُلبت من قبرص ، ليشرف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون فى مجالسه وندواته التى كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفى سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل فى زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزُرُجْمهر الإسلام ، إشارة إلى أنه يحل فى العربية محل بزرجمهر فى الفارسية وما أثرعنه من حكم وأمثال كثيرة، ووصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلاً فى نفسه عتيقَ الوجه[١] ، حسن الشارة ، بعيداً من الفَدامة[٢] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

---

= ابن زيدون لابن نباتة ( نشر دار الفكر العربى ) ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميرى ١/٥١٣ وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤ .

(١) عتيق الوجه : جميل .
(٢) الفدامة : العى .

وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبْل قبل التكشف [١] » ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال : « وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حمَّلتها حملت ، وكالماء طَهورٌ للتمسه وناقع لغُلَّة مَنْ حَرَّ [٢] إليه ، وكالهواء الذى تُقْتَطَفُ منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المَقْرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة ورسائل فى البخل » وكأنه أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً ركِّب فيه، ورُويت عنه فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن شخصًا لقيه، فقال له : هَبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى، قال : درهم ، فقال سهل: لقد هوَّنت الدرهم ، وهو طائع الله فى أرضه لا يَعْصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هَوَّنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة فى البخل ما حكاه دِعْبل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلنا القعود ولم نَبْرح ، حتى كاد يموت جوعاً ، فلما اضطررناه قال: يا غلام ويلك غَدِّنا، فأتاه بصَحْفة فيها مَرَقٌ ، تحته ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطَّلع فى الصحفة وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعةَ خبز يابس، فقلَّب جميع ما فى القصعة، حتى فقد الرأس من الديك . فبقى مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رَميتَ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال: ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا للطِّيرة ( التشاؤم ) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرَّك به، وعينه التى يُضْرَب بها المثل ، يقال شراب

---

( ١ ) البيان والتبيين ١ / ٨٩ .

( ٢ ) حر : عطش ، والصفة حران .

كعين الديك فى الصفاء ، ودماغه عجيب لوجع الكُلْية ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال سهل : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، واللهُ حسيبك » .

ولعل فى هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قصُّوا عنه أنه حدَّث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعنى أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله . وطلب إليه أبو الهذيل العلَّاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبَّى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب فى الضحك ، إذ وجد سهلا ينهاه عن أن يمدَّ لأبى الهذيل العَوْنَ بأبيات تتحيَّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهلَّها بقوله :

إن الضميرَ – إذا سألتُك حاجةً  لأبى الهُذَيْل – خِلافُ ما أُبْدى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له  حَبْلَ الرَّجاء بِمُخْلِفِ الوَعْدِ
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ  وعَنائه فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبى الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُرَى أين عَزَب عنك الفهم ، أما سمعتَ قولى : « إن الضمير خلاف ما أبدى ، فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا . وهى مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية فى الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّير الحسان المدَّونة والأخبار المولَّدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء فى معارضة كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل

وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك من الكتب» . وذكر ابن النديم من كتبه أيضًا « كتاب النَّمِر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان فى القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له فى سيرة المأمون .

ويظهر أنه عُنى فى كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه فى ذلك كتاباه : « ثعلة وعفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودى بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصِّل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليلة ودمنة ، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدَّماً قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظاهِرٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويَّة ، ومضر بالتدبير ومخِلٌ بالاختيار ، وليس فى نفع تُحْمَدُ به عوضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحُصْرى بعد ذكره لهذه النصيحة : إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيرى حديثًا على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة فى العدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هى الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقًا ، فالثعلب كان يعيش مع زوجه فى واد غبر عليه زمان فيه وهو حسن الحال رخىّ البال ، ومرّ به ثعلب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجه ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السَّيْل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حَسيساً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرُّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالظباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش لملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبّر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فزعاً مرتعباً خشية أن يرانا ، فلننصرف ، ولنلتق غداً فى مكان خفىّ ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش، وما يزال يشجّعه حتى يلقاه . ويُعجبه حديثه وما عرض عليه، فيعيّنه والياً على مناهل الظباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القصص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة :

« انصرف الثعلب حزيناً مغتماً لما حزره من عداوة النمور وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعْرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلى قوة على صيد الظباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [ على ] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئبَ فيه والتقيا هنالك عن رِقْبة ( تحفظ ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا الفرّاء كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبثثتنى من حديثك وألقيتَ إلىّ من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتنى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : ائتِ النمرَ ، فسَلْهُ أن يوليك ولاية تردُّ عليك نفعاً وتردّ لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه، وإنه لكما قال القائل: سواء هو والعدم، قال الثعلب: فأعلمْه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بشطره فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصلاحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب ، وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبٍ حَثيثٍ ولكن أَلْقِ دلْوك فى الدِّلاء

تجئك بملئها طورًا وطورًا تجيء بحمْأة وقليل ماء[١]

قال الذئب : يا أبا الصبّاح إنه كان يقال : اتقوا مقارفة[٢] الحريص الغادر ، فإنه إن رآك فى القوة رأى منك أخبث حالاتك . وإن رآك فى الفضول[٣] لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير خامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه فى ضيق وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السمّ على التجربة . قال الثعلب : قد يُبلَغُ الخَضْمُ بالقَضْم[٤] ، ويركب الصعْبَ من لا ذَلول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيُلْقى عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغى للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح فى الماء الجارى ، وقال المتمثل : أرْضَى من المركب بالتعلق . قال الذئب : السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذى يحول بين الحازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة فى القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهر المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدْم فقصّر عنه . قال الذئب : إنّ للسلطان سكرات ، فنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عمن يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَجّجَ فى البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوَقّاه فليس ينال

(١) الحمأة : الطين الأسود .
(٢) مقارفة : مخالطة .
(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .
(٤) مثل معناه أن الغاية البعيدة قد تدرك بالرفق . وأصل الخضم الأكل بجميع الفم ، والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

جسيماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئبَ كلامُه ، فأتى النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إني لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحي الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رحب الفِناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مئونته ويكفيه المهم من عمله ندبتُ نفسي للذى رأيتني أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التي أتولاها وردّ المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبَرَرْتَ ، وأنا مستكفيك ومقلّدك ، فأنظرُ كيف يكون ضبطك وكفايتك وغناؤك ووفاؤك بما شرطتَ على نفسك . اكتبْ له يا غلام عهدَه على مناهل الظباء ، واجمعْ له أعمال ما هنالك ، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير الكاتب » .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره ، حتى إذا دانت له رعيته واستتبّ أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكّره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً في غيِّه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال ، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك — أمتع الله به — وصل إليّ بما حذّر فيه وأنذر ، وقدّم وأخّر ، وفهمته ، وقد كان الملك — حفظه الله — أسند إليّ أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدوّ به ، وانقطاع من سُبُله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرَأبْتُ[1] صدْع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة ، وكشفت دُجْيَةَ[2] الفتنة وأسغت الريق بعد الشّجا[3] ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقّاً كان معلمه[4] متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(١) رأبت : أصلحت.
(٢) الدجية : الظلمة .
(٣) الشجا : الغصة وما يعترض فى الحلق .
(٤) معلمه : مفرد معالمه .

مسلوكاً ، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباء، ولم أجد منه شيئًا مشكوراً ، وما يُقَعْقَعُ لمثلى بالشّنان[1] وإنى لألْوَى بعيد المُسْتَمَرِّ[2] فإن يستتم الملك صنيعته ويَرُبّ[3] نعمته فأنا بين العصا ولحائها[4] ، وإلا فسيجدنى جِذْلَ حِكاك[5] إذا نكأت[6] قُرْحَةً أدميتها ، أحمر[7] ، ضراباً بالسيف ، والسلام » .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه ، وكانوا ثلاثة ، فاستشارهم فى أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه فى إيجاز لتَتَبَيَّن دخيلة أمره وحقيقة موقفه إنْ سِلْمًا فسِلْمٌ وإن حَرْباً فحرب ، وأشار الثانى بالصفح عن زلَّته ، فإن الحرب سجال ، وهى حتى على الظافر خسارة فى الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نُسْختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، أما بعد فإنى رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت فى كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سِلْمًا فأقْبِلْ وإلا فَأذَنْ بحربٍ ، والسلام » .

ولجَّ الذئب فى عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ومدبر أموره ، وكاد أن يُقْتَل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره ، مما جعله يَعِدُه أن يُبْقِى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يُلْقَى عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة فى الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفى مكانة العقل من العلم وأثره فى سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا فى هذه الإجابات طرافة تفكير سَهْل

---

(١) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس . وقعقع : ضرب . وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلا لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تخويف .

(٢) ألوى : عسر ، يلتوى على خصمه . بعيد المستمر : قوى فى الخصومة .

(٣) يرب : ينمى ويزيد .

(٤) لحاء العصا : قشرها . والكناية واضحة .

(٥) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب لمن يستشفى برأيه .

(٦) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ .

(٧) كنى بالحمرة عن البأس الشديد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم فى درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطلق عليهم جميعاً اسم واحد، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومنتهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرْنى عن العقل أهو شىء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس فى نَيْله مستوون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون . قال : فكيف دُعى ذو الحظ اليسير منه باسم ذى الحظ الكبير ، فقيل لهما عاقلان وهما فى العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتّى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتّى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يُدْعَى كل ذى درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلِّفت اللغة ذلك لطال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك فى اللغة ما يُدْعَى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم فى تلك الصناعة متباينون فى التفاوت ، إذ يقال : بُناة ونجّارون وتجار وخياطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص فى العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظًّا منه . قال : كيف مُدَّت هذه الغاية ومُنع ذوو العقل بلوغها ؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوى الخالق والمخلوق فى صفته ، تعالى الله عن ذلك » .

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة ، مستخلصًا فى ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التى ابتغاها واضع كليلة ودمنة من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجرى على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودمنة ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفى أسماء كتب سهل التى ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « المخزومى والهذلية » واسم كتابه الثانى : « الوامق والعذراء » .

واحتفظ الجاحظ فى أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره على الكرم ، ومرَّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعوبيةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك» . ونراه فى فاتحتها يتوجَّه بالحديث فيها إلى بنى عمه ، وظن القدماء أنه يريد بنى عمه الحقيقيين من آل راهبون ، وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه ، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية و بما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط فى الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلا عن الرسول الكريم الذى حَضَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما فى اليد ، كما حَضَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب ، بلى على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون ، وصوَّر المثل الأعلى فى ذلك فقال جَلَّ شأنه : ( ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختار من أقوال الرسول صلى الله عليه والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم فى الدنيا وصغر متاعها فى أعينهم حتى بَعُدَ إقبالها عليهم ، وفَرْقٌ بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته فى الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتمونى حين ختمت على سَدٍّ[1] عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة

(١) السد : السلة .

ومن رُطَبة[١] غريبة على عبد نَهِم[٢] وصبي جَشِع وأمَة لَكْعاء[٣] وزوجة خَرْقاء[٤] . وليس من أصل الأدب ولا فى ترتيب الحكَم ولا فى عادات القادة ولا فى تدبير السادة أن يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابعُ والمتبوع والسيد والمسود كما لاتستوى مواضعهم فى المجالس ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يُستقبلون به من التحيات . . وعبتمونى بِخَصْف[٥] النعال وبتصْدير[٦] القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ[٧] وأقوى وأنفَى للكِبْر وأشبه بالنُّسْك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ، ويَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذِراعٍ لأكلت ، ولو دُعيت إلى كُراع [٨] لأجبت » ولقد لَفقت[٩] سُعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة[١٠] وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان فى ثوب عمر رِقاع أدَمٍ وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤونته وقلَّ كِبْره ، وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخَلَق[١١] .. فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . وعبتمونى حين قلت : لا يغترَّنَّ أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمه ووهن قوته وأن يرى أُكْرومته[١٢] فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمَّراً وهو لا يدرى ، وممدوداً له فى السنّ وهو لا يشعر ، ولعله أن يُرْزَق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبَّآت الدهور ، مما لا يَخْطُر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعفَ ما كان عن

---

(١) الرطبة : التمر المرطب .
(٢) نهم : شره .
(٣) لكعاء : لئيمة .
(٤) خرقاء : حمقاء .
(٥) خصف النعال : ترقيعها وإصلاحها .
(٦) تصدير القميص : ترقيع صدره .
(٧) أوطأ : ألين .
(٨) الكراع : مستدق الساق .
(٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر وخاطتهما .
(١٠) هو طلحة بن عبيد الله كان غيثا مدراراً فى الكرم فلقب بالفياض .
(١١) الخلق : البالى .
(١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكسب ، فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص : اعْمَل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .. وعبتمونى حين زعمت أنى أقدّم المال على العلم ، لأن المال به يُقاد العلم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإنا بالكفاية نستبين وبالخَلّة[1] نَعْمَى[2] . وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدّم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى وبجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرَى حاجة الجميع إليه وشىء يَغْنَى بعضهم فيه عن بعض . . وعبتمونى حين قلت إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار ، إن احتيج إليها استُعملت ، وإن استُغْنِى عنها كانت عُدّة . . وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذلٌّ فى قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . ولسنا نَدَع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء » .

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهى حجج يستمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده فى تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضًا قدرته المنطقية التى تتضح فى إيراد الأقسام المتقابلة إيراداً مستقصياً ، كما تتضح فى استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً دقيقًا ، وفى تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ، كما يتضح إلحاحه على المعانى حتى لكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ، وتأملْ فى رده على من يَسْتَحِثُّ الهَرِمَ على إنفاق ماله على الناس وفى الملذات ، وفى الوجوه التى وضعها تحت عينه مخوِّفاً له ومحذراً من تضييع ماله ، فستراه يجمع هذه الوجوه فى استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمَّر ، وقد يرزق الولد ، وقد

---

(١) الخلة : الحاجة والفقر.

(٢) نعمى : نضل .

تنزل به بعض الكوارث ، وحينئذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويُرَدَّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قلته ولكن لن يرحموه، وفى الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيّق سَهْلٌ الأبوابَ على من يتسع فى العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يَفْضُلُ العلم، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم والفرع ، ولا يستوى فرع وأصل. وسهلٌ فى ذلك كله يرينا تطور العقل فى العصر العباسى ومدى ما أصابه من رقى ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلا ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرّت فى نفس سهل بتأثير المتناظرين من المتكلمين فى عصره وكثرة مناظراتهم فى كل شىء ، فى العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبون بالظافر المنتصر على خصمه، وخاصة حين يدافع عن رأى ضعيف، فينصره نصراً مؤزراً ، على نحو ما نصر البخل على الكرم، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه رُبَّما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته فى صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى فى نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظّام يذم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثى يطنب فى وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سَرْح العيون، وهى تمضى على هذا النمط :

« الزجاج مجلوٌّ نورى ، والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثْقِل اليد ، ولا يرتفع فى

السَّوْم(١) واسم الذهب يُتَطَيَّر منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فائك(٢) لمن صانه، وهو أيضًا من مصايد إبليس، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران(٣). والزجاج لا يحمل الوَضَر(٤)، ولا يداخله الغَمَر(٥) ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب»

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى فى الرسالة التالية(٦)، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض :

« بلغنى خبرُ الفَتْرة(٧) فى إلمامها وانحسارها، والشَّكاة فى حلولها وارتحالها، فكاد يَشْغل القلقُ بأوله، عن السكون لآخره، وتُذْهل الحيرةُ فى ابتدائه، عن المسرة فى انتهائه. وكان تعيرى فى الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى وارتياحاً للأخرى » .

وواضح ما فى هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعانى، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثانى، وكيف أذهلته الحيرة وكَرْبها أولا عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير فى الحالين يقاس بارتياعه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو فى جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق فى معانيه، وجاء السجع على لسانه فى أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجيء عنده أحيانًا عفواً. وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات، إذ يعنى ببسط عباراته، حتى يجرى فيها ضروباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلذ أسماعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

---

(١) السوم : المساومة فى البيع.

(٢) فائك : غالب.

(٣) الأحمران : الذهب وطيب الزعفران.

(٤) الوضر : الوسخ.

(٥) الغمر : الدسم.

(٦) انظرها فى سرح العيون ص ٢٤٥.

(٧) الفترة : الوعكة والضعف.

## ٣

### أحمد[١] بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفى مولى بنى عجل ، وقد ألممنا بأبيه فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يكتب فى دواوين الكوفة لولاة بنى أمية ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن على ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب فى دواوين المهدى والهادى ، ولمع نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكى على الدواوين فى قصره وقصر الرشيد . ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثانى للهجرة ، ويظهر أنه عُنى بتأديبه عناية واسعة ، كى يَصْلح للعمل فى الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصَوْغه ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضًا بثقافة رياضية واسعة تعينه فى الخراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بآداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضًا قد أخذه بآداب اللياقة حتى يُحْسن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويُرْوَى أن قائلا قال له يوماً : ما أدرى ممّ أعجب ، مما وليه الله من حسن خَلْقك أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه فى دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضلَ بن سهل مدبر شئون المأمون نجابتُه ، فالتقطه وحثّه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرق الدولة كى يكتب فى

---

(١) انظر فى ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره كتاب الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفور فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥/٢١٦ والأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٥٦ وزهر الآداب ٢/١٣٠ والفخرى ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٥/١٦١ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩ وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والعقد الفريد ٢/١٤٥ .

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل فى الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين فى سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين ، فلما رآها تأثر ، وقال للفضل ابن سهل : ينبغى أن تأمر الكتّاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرنى فيها بهذا الخبر ، مع الاحتيال للاعتذار منه ، لتُقْرَأ على الناس ، فكتب الكتّاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطالها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة فى شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجّع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفُرُش وكُسًى وآلات . وقال له : إذا كان الغدُ فاقعُدْ فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتبْ بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكأنّ أخاه الفضل آثره به ، ليُعينه فى عمله ، ويكتب له فى دواوينه . ويَتَقدم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه ، لظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم فى الفُرُش وأوانى الطعام وألوانه . وشارك فى متاع عصره من الشراب والسماع للقيان ، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته. ولما توفى أحمد بن أبى خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقاع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس ، وقال :

ما أطيبَ العيشَ لولا موتُ صاحبِهِ ... ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائبهِ

وسرعان ما التقمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتفجع فيه تفجعاً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أَن مَيْتًا هابه الموتُ قبله لما جاءه المِقْدارُ وهو هيوبُ
ولو أَن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى إذنْ لم يكن للأَرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ فى الذروة من كُتَّاب الدواوين فى العصر العباسى الأول، لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتيه فى الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية، وأولُ ما نقف عنده رسالته التى أشرنا إليها آنفًا، والتى كتبها للناس على لسان طاهر بن الحسين، وهى تجرى على هذه الصورة[1]:

«أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة (القرابة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسُّنَّة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما اقتصَّ علينا من نَبَأ نوح وابنه: (يا نوحُ إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح) ولا صلة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه[2] رداء نَكْثِه، وأحصَد[3] لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده، فالأرض بأكنافها[4] أوطأ مهاد لطاعته، وأتبعُ شىء لمشيئته... والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهدَه ونكث عقده، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع به الأمةَ بعد شتاتها، وأحيَا به أعلامَ الدين بعد دروسها[5]، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ودقة التعبير واضحة فى الرسالة، وكذلك المهارة فى تصوير عصيان الأمين والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوَّة أبيه وقرابته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة، فقد خرج من أهله، وهو إنما تولى الخلافة ميراثاً منهم، وقد نكث عهده فى الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده، هذا العهد الذى كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة، حتى لا يستطيع الخروج منه، وقد نال جزاء خيانته، وعادت الأمور إلى نصابها، فاجتمعت كلمة الأمة

(١) زهر الآداب ١٣٠/٢ ومعجم الأدباء ١٦٧/٥ والجهشيارى ص ٣٠٤.
(٢) ردَّاه: ألبسه.
(٣) أحصد: قوى وأحكم.
(٤) أكنافها: نواحيها.
(٥) دروسها: امحائها.

بعد فرقتها وردّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف فى هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس ، وهى الرسالة التى كان يوجهها خلفاء العصر العباسى الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادّة جيوشهم وغيرهم يبسطون فيها حقّهم فى الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغى على أهل خراسان من الولاء له . وأحكم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » وقد استهلّها بتحميد طويل طريف على هذا النمط [١] :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر [٢] السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمنّ والطَّوْل [٣] على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب [٤] ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أقيموا على موارد الاختبار ، وتعقّبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومتقَن صنعته ، وحاجة مُتَزايل [٥] خَلْقه ومتواصله إلى القوم [٦] بما يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أن له بارئاً [٧] هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسّر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يَظْهرون [٨] عليه من العجز عن التأتّى [٩] لما تكاملت

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٧ .
(٢) فاطر : خالق .
(٣) الطول : الإنعام .
(٤) الألباب : العقول .
(٥) متزايل : متفرق .
(٦) القوم : القيام .
(٧) بارئاً : خالقاً .
(٨) يظهرون : يطلعون .
(٩) التأتى : الترفق .

به قواهم، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عزّ وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلْقة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطّفٌ يتيمّمونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : ( يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدَلك فى أى صورة ما شاء رَكّبَك ) . ثم ما يتفكّرون فيه من خلق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل وإحياء الأرض ولِقاحُ النبات والأشجار ،وتعاور[1] الليل والنهار ، ومرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقْف[2] المرفوع ، والمهاد[3] الموضوع ، باتساق أجزائه والتئامها ، وخَرْق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عزّ وجلّ به من إنشائه الخلق حدوثُه بعد أن لم يكن ،مترقياً فى النماء ، وثباته إلى أجله فى البقاء،ثم مَحاره[4] منقضياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَتَح عدد، ولا منقطع أمَد ، ما ازداد بنشوء ولا تحيّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقِوام كل شىء منه بما يُسّر له فى بدء استمداده ، إلى منتهى نفاده ، كما احتج الله عَزّ وجَلّ على خلقه، فقال : ( أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ) وقال عَزّ وجَلّ : ( كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام ) . وكل ما تقدّم من الإخبار عن آيات الله عَزّ وجَلّ ودلالاته فى سمواته التى بَنَى ، وأطباق الأرض التى دَحا[5] ، وآثار صُنْعه فيما برأ ، وذَرَأ[6] ، ثابتٌ فى فِطَر العقول حتى يَسْتجرّ أولى الزَّيْغ ما يدخلون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جَلّ عما يشركون . ولولا توحّده بالتدبير ، عن كل مُعين وظهير ،لكان الشركاء جُدَرَاء أن تختلف بهم إراداتهم فى الخلق،ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذرأه وبرَأه، جَلّ البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

---

(١) تعاور : تداول .
(٢) السقف المرفوع : السماء .
(٣) المهاد الموضوع : الأرض .
(٤) محاره : رجوعه .
(٥) دحا : بسط .
(٦) برأ وذرأ : خلق .

علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : ( ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهَب كلُّ إلهٍ بما خلق ولعَلا بعضهم على بعض سبحانَ الله عما يصفون ) » .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوَّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق الإنسان فى صورة مقدورة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم ، أحكم تصاريفَ الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صَنْعة الكون فى عالم السماء وعالم الأرض بما مهد فيه من سهول وخطَّ من أنهار وأرسى من جبال . ويتعمق فى الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يترقَّوْن فى النمو حتى تمتد لهم يد الفناء ، فلا بد من محدث لهم ، وفرقٌ واضحٌ بينه وبين الحادث ، فالحادث له أول وله آخر ، أو كما يقول : « مفتتح عدد ، ومنقطع أمد » أما المحدِث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود وقوامه ، وهو مدبِّره ومصرِّفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت فى فِطَر العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كمجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكغيرهم ممن جعلوا له نِدَّيْن أو أكثر ، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة ، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأه عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف فى رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . ونلاحظ أيضاً فى هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التنميق وجَرَّه ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطَّرد فى كل صياغات التحميد ولا فى بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحسُّ كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده فى سبيل دعوته ورسالته حتى أعزّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين فى الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض فى تأييد الدعوة العباسية . وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلا فيما ينبغى على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض فى وعظهم وما ينبغى عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذى يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذى ينتوى جزاءهم بالحسنى وحَمْلهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكو المأمون فيها على صُنْعه جَبْرًا لمصابه ، فكتب رسالة ضافية[1] ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطنب فى الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره عليًّا الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له فى رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حُمَّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامة . ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنىّ الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصّ به الفضل فى حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصّه فى وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصّته وقُوّاده وعمّاله وكتّابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض فى التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والعفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها فى جمهرة رسائل العرب ٣/٤١١ .

عليه وسلم وحفظه لعِتْرته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفّر من رواتبهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يُرْأبَ الصدع وترتق الفتوق به وينكّل فى أعدائه .

ولأحمد بن يوسف رسالة فى تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيدالله ابن السَّرِىّ بمصر وأخرى فى تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنهما لا تبلغان من التنميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحى فى الاستكثار من القناديل بالمساجد فى شهر رمضان ، وقد جاء فيها(١) :

« فإن فى ذلك عمارة للمساجد ، وإضاءة للمتهجدين(٢) ، وأنسًا للسَّابلة(٣) ، ونفياً لمكامن الرِّيب ، وتنزيهاً لبيوت الله عزّ وجلّ عن وحشة الظُّلَم » .

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون فى بعض الشئون ، فيتلطف غاية التلطف ، ومما يُرْوَى له من ذلك أن طُلاَّب الصِّلات كثروا بباب المأمون ، وتأخرت صلاتهم ، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه(٤) :

« إن داعى نَدَاك ، ومنادى جَدْوَاك(٥) ، جمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك(٦) المعهود ، فمنهم من يَمُتّ بِحُرْمة ، ومنهم من يُدْلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المُقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعشهم بِسَيْبه(٧) ، ويحقق حسن ظنهم بِطَوْله(٨) ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون فى كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغانٍ(٩) لطالبى الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء مَنْ بالباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

---

(١) الصناعتين للعسكرى ص ٢٣ وزهر الآداب ٢/١٣٢ .
(٢) المتهجدين : من التهجد وهو الصلاة فى جوف الليل .
(٣) السابلة : السائرون فى السبل ولا مأوى لهم .
(٤) زهر الآداب ٢/١٣١ ومعجم الأدباء ٥/١٦٩ .
(٥) الجدوى : العطية والنوال .
(٦) النائل : النوال والعطاء .
(٧) السيب : العطاء .
(٨) الطول : الإنعام .
(٩) مغان : منازل ومواطن .

وكان كثيراً ما يُهْدى إلى المأمون هدايا فى أيام النيروز[١] ، ويُرْفقها برسالة رقيقة ، تحمل سطراً أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فمن ذلك أنْ أهداه مرة — فيما يقول الرواة — سَفَطَ ذهب فيه قطعة عودٍ هندىّ فى طوله وعرضه ، وكتبَ معه[٢] :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف الناسِ السادةَ ، وقد قلت :

على المرءِ حقٌّ وهْو لاشك فاعلُهْ ... وإن عَظُم المولى وجلَّتْ فَواضِلُهْ[٣]
ألم ترنا نُهدى إلى الله مالَهُ ... وإن كان عنه ذاغِنًى فهْو قابله
ولو كان يُهدَى للجليل بقدرِه ... لقصَّر عنه البَحْرُ يومًا وساحله
ولكننا نُهْدِى إلى من نُجِلُّهُ ... وإن لم يكن فى وُسْعنا ما يشاكلُهْ »

وروتْ كتبُ الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يتروَّى ويتأنق فى اختيار لفظه ، مع حسن البيان ورصانة القول ، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له[٤] :

« بارك الله فى مولودك الذى أتاك وهنَّأك نعمته بعطيته ، وملاّك[٥] كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، ميمونًا مباركاً زكيًّا ، ممدودًا له فى البقاء مبلغًا غاية الأمل مشدوداً به عَضُدك ، مكثَرًا به ولدك ، مُداماً به سرورك ، مدفوعًا به الآفات عنك ، مشفوعًا بأكثر العدد ، من طيِّب الولد».

وهو دائمًا فى التهنئة بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة ، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه ، وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله بارًّا بأبويه ، تقيًّا زكيًّا ميموناً سعيداً ، وأن يشدَّ به أزْر الوالد ويكثر من أحفاده : أولاد هذا الولد الصالح. وله من تهنئة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه[٦] :

« قد أذهب الله وَصَبَ العلة ونَصَبها[٧] ، ووفَّر أجرها وثوابها ،

---

(١) النيروز : من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم فى السنة .
(٢) صبح الأعشى ٢ / ٤٢٠ .
(٣) الفواضل : النعم .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٣٨ .
(٥) ملاك : متعك .
(٦) العقد الفريد ٤ / ٢٣٩ .
(٧) النصب : التعب الشديد ، والوصب : الوجع .

وجعل فيها إرغام العدو بعُقْباها[١] ، أضعاف ما كان عنده من السرور بقُبْح أُولاها » .

وتأنقه فى العبارة واضح لا بما يُجْرى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر أيضًا فى أوائلها من ترادف النصَب مع الوَصَب والثواب مع الأجر ، ليستتمّ الجمال الصوتى . ومن رسائله فى الشكر[٢] :

« من اتسع فى الأفضال[٣] ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نصفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألْسُننا ، مما يتقرّب به ذو الرغبة ، ويَتضرّع به ذو الرَّهْبة ، لاستنزال مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فنَكْبُتُ شَغَبَ الكائد ، ونُطيل نفس الحاسد » .

وسجعه المطرد فى هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنَى كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ، على نحو ما نرى فى هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مثن » بكلمة «مادح مطر» وهى بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوتى والتعادل الموسيقى ، وهو ما كان يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تتردد أساليبه بينه و بين السجع على شاكلة قوله فى المديح[٤] :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذِرْوته ، وبلَّغك من الفضل أبعد غايته ، فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُثْنَى[٥] الخناصر ، وتُسْتَفْتح أغلاق المطالب ، ولا يستريث[٦] النُّجْحَ مَنْ رجاك ، ولا تعروه النوائبُ فى ذَرَاك[٧] » .

وعلى نحو ما كان يتفنن فى المدح والثناء كان يتفنن فى الذم والهجاء ، وكان أحياناً يَخِزُ فيه وخز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، من ذلك ما كتب به إلى آل سعيد بن سلم[٨] :

---

(١) عقباها : عاقبتها .

(٢) الأوراق للصولى ( قسم الشعراء ) ص ٢٣٣ .

(٣) الأفضال : النعم والأيادى .

(٤) الصولى ص ٢٣٢ .

(٥) تثنى الخناصر : كناية عن أن الآمال تعقد به .

(٦) يستريث : يستبطىء .

(٧) الذرا : الكنف والظل .

(٨) زهر الآداب ٢/١٣٢ .

« لولا أن الله عزّ وجلّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتبه بالقرآن لبعث لكم نبيّ نِقْمة ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عسيتُ أن أقول فى قوم : محاسنهم مساوى السِّفلة ، ومساويهم فضائح الأمم ، وألسنتهم معقولة بالعِىّ ، وأيديهم معقودة بالبخل ، وأعراضهم أغراض للذم ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثرون وإن طالتْ حياتُهُمُ ... ولا تَبيد مخازيهم وإن بادوا »

وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف فى الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف فى الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبقة ، حتى يستلّ من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه[1] :

« أتيتك وافداً بذنوبى على عفْوك ، واثقاً لعقوقى ببِرّك ، لا مستظهراً عليك بشفيعٍ قدّمته ، خلا تطوُّلك[2] بالعفْوِ عن الإخوان ، وتفضلك عليهم بالإحسان ، فإن تُعاقب فقد حكمت بالمعدلة[3] بعقوبتك على نفسى ، وإن تجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء لدالّة الحرمة ، والاستعطاف بماتّة[4] الخدمة ، فهو مما يُعَدُّ فى الحسنات ، لا السيئات » .

وتدور فى كتب الأدب له توقيعات طريفة كان يوقّع بها على رقاع الشكوى . وكتبٍ بعض العمال ورسائل الاسماحة وبَذْل المعروف ، فمن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلا غصب آخرَ ضيعةً فى أثناء غيابه واستغلّها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضيعته ، فاشتكاه قائلاً : الضيعةُ لى وفى يدى ، واطّلع ابن يوسف على الشكوى ، فوقّع عليها بقوله[5] :

« الحق لا تَخْلُقُ جِدّته ، وإن تطاولتْ بالباطل مُدّته ، فإن أنطقتَ حُجّتك بإفصاح ، وأزلتَ مشكلها بإيضاح — غير . «لى وفى يدى» فكثيراً ما أراها ذريعةَ الغاصِب ، وحجّةَ المغالب — وُفِّر حقك عليك ، وسِيقَ بلا كدٍّ إليك ، وإن ركنتَ من البيان إليها ، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبيّنة

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٥٢ .
(٢) تطولك : تفضلك .
(٣) بالمعدلة : بالعدل .
(٤) ماتة : صلة .
(٥) جمهرة رسائل العرب ٤/٤٥٨ .

أعلى ، وكان بما يدّعيه أولى ، إن شاء الله » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة فى الفكر وبراعة فى الأداء وهى براعة يتقدم بها مَنْ سبقوه من كتّاب الدواوين فى القرن الثانى الهجرى تقدماً واسعاً وخاصة فى الرسائل السياسية، إذ تأنق فى ألفاظها وعباراتها تأنقًا جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تخلّلها بالازدواج والترادف الصوتى ، وبذلك أسبغ عليها ضروباً من الجمال الموسيقى لم تكن مألوفة قبله إلا فى بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السابق عند ابن سَيابة وجعفر بن يحيى البرمكى . ولا ننسى سهل بن هرون ، فقد كان يُعْنَى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذى أعدّ هذا الأسلوب وما طُوى فيه من سجع ليشيع فى الكتابات الديوانية.

٤

**عمرو (١) بن مسعدة**

كان جده الأعلى صول أحد ملوك جرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس ، وقد اعتنق الإسلام فى زمن بنى أمية ، ودخل ابنه سعيد فى الدعوة العباسية ، فلما نجحت صارت له منزلة فى الدولة إذ كان من دُعاتها النابهين ، ولم يلبث خالد البرمكى أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه فى وزارته للسفاح والمنصور ، وظل يعمل فى دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب الموريانى رياسة ديوان الرسائل ، ويولَدُ له ابنه عمرو ، فيُعْنَى بتأديبه حتى يَصْلح للكتابة فى دواوين الدولة . ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة ، حتى غدا لَسِنًا فصيحاً ، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر ، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يَثْقفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم فى السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ، وربما وقف أيضًا على شىء من

(١) انظر فى ترجمة عمرو بن مسعدة معجم الأدباء ١٦/١٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٩٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٢٠٣ وزهر الآداب ٣/٢٤٩.

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكى يعمل فى الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى فى المراتب السنية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتّى نجد جعفر بن يحيى البرمكى يستخلص عمرًا لنفسه ، ويتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدَّث عن نفسه قائلا : « كنت أوقِّع بين يدى جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أىُّ وزير فى جِلْدك ! » . وأفاده عمله مع جعفر فى التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعْنَى — كما قدمنا — بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبِع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلا بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وبايع الناس المأمون بالخلافة ، وظلاّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحاها قاصدين إلى بغداد ، وقُتل الفضل فى الطريق ، كما أسلفنا . وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل فى دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها فى مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف ، وكأن الفضل أعجب به ، فأدناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد ، فعمل فى دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل فى دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون موقعًا حَسَنًا فعَهِدَ إليه أحيانًا تفتيش الولايات ، وما زال يعجب به وببلاغته ، حتى إذا رَفَع أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل ، وكان يأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ فى غزو الروم كان يستصحبه فى غزواته . ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استوزره ، وذكر ذلك فى بعض مديحه له ، إذ يقول :

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ ابن مَسْعَدَهْ وبَثَّ له فى الناس شُكْرًا ومحْمده

وكان جواداً ممدَّحاً ، كما كان فاضلا نبيلا حميد العشرة محبباً إلى معاصريه، وما تُوفى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلَبِّى نداء ربه بأذَنَة فى غزوة مع المأمون . ويُرْوى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلَّف ثمانين ألف ألف درهم، فوقَّع فى ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالتْ خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلَّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهى تُعَدُّ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضْرَبُ به المثل فيه ، كما كان يُضْرَبُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتَّاب : إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنما استقر ذلك فى نفس عمرو فإذا هو يُحيل كتبه فى مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً فى القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصى به الكُتَّاب من حوله ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى وَصْفُ ثُمامة بن أشرس المعتزلى لبلاغته ومدى ما كان يَجْرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويُرْوَى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه[1] ». وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حَدُّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأنق فى اختيار لفظه ، حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق ، فحاكاه عمرو فى تنميقه وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً فى كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التى تروق فى السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلَّفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفو الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

---

(١) الصناعتين ص ٦١ .

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً فى استقطار المعانى ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالةُ الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأداءه أداء يخلب الألباب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشفُّ منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستتم صنائعه عنده[1] :

« أما بعد فإنك ممن إذا غَرس سَقَى ، وإذا أسَّس بَنَى ، ليستتم تشييدأسُسه ، ويجتنى ثمار غَرْسه ، وبناؤك عندى قد شارف الدُّروس[2] ، وغَرْسُك مُشْفٍ[3] على اليبوس ، فتدارَكْ بناءَ ماأسست ، وسَقْيَ ما غَرَسْتَ ، إن شاء الله » .

وواضح تأنقه فى الكتاب وتنميقه ، حتى ليبنيه على السجع ، وواضح أيضًا تدقيقه فى اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب ، إنما يعمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما فى نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع فى الجو وتقوم أركانه ، أو هى تشبه غرسًا ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتى ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولا . أرأيت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نُضْطَرُّ إلى شىء من البَسْط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائى المركزة التى يُثْقِلها ما تحمل من معانٍ كثيرة فى عبارات مسرفة فى الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معانى غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها فى النطق .

وقال أحمد[4] بن يوسف : « دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعِّد فيه بصره ويصوِّبه ، فالتفت إلىَّ وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه منى ! قلت : نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ،

(١) معجم الأدباء ١٦ / ١٣٠ .
(٢) الدروس : الإمحاء .
(٣) مشف : مشرف .
(٤) انظر وفيات الأعيان ١ / ٤٩٤ وقارن بزهر الآداب ٣ / ٢٤٩ والعقد الفريد ٢ / ٢٧٢ .

فإنى سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورمى به إلىّ وقرأته ، فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَنْ قِبَلِى من قُوَّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جُنْد تأخَّرتْ أرزاقهم ، وانقياد كُفاة تراخت أعطياتهم ، واختلَّتْ لذلك أحوالهم ، والتاثتْ[1] معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قِبَله بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلَّ محله فى صناعته . وفى رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله دَرُّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار » .

ولا ريب فى أن عَمْرًا تعب طويلا فى كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التى تؤدى إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخُّر رواتبهم ، وقد أخذ يحتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولا أنهم مذلَّلون له منقادون ، وأنهم مستمسكون بعُرى طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم — مع طاعتهم وانقيادهم — حرى أن يُسَدَّ اختلالهم وأن يُرْعَى لهم وفاؤهم ، فتُعَجَّل رواتبهم وأرزاقهم . وكان للكتاب أثر بالغ فى نفس المأمون إذ أمر أن تُصْرَفَ للجند والقادة فى الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تلطفه فى إيرادها وتصويرها .

ويَرْوِى صاحب[2] زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدَة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

(١) التاثت : اضطربت .

(٢) زهر الآداب ٤ / ١٥٨ .

إيصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتبْ بما شئت ، فإنى موصله . فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فَضْلان ، فكتب عمرو :

« إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدته من رِبْقة[1] المَطْل بقضاء حاجة عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفَّقاً » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تنى دناءة المَطْل » .

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسنها أيضاً للصورة المبثوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعْنَى بالتصوير فى كتابته على نحو ما مرَّ بنا فى رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوَّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها فى التعبير عن المعنى الذى يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقة فى الشعور ، هى رقة الكاتب المتحضر الذى أرهف ذوقه ، والذى عوَّدته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويَرْوى صاحب المثل السائر[2] أن رجلا من بنى ضَبَّة ضَرَعَ إليه أن يشفع له عند المأمون فى الزيادة لمنزلته وراتبه المقدَّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين — لتطوُّلك[3] علىَّ — فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدِّى طاعته ، والسلام » .

وأُعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها فى معرض التعريض ، تلطفاً ، وإشارةً من طرف خفى إلى حرمته منه ، وما يختصه بالعطف والحظوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(١) ربقة : عروة .
(٢) المثل السائر ص ٣٩١ .
(٣) تطولك : تفضلك .

المأمون يوقّع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووافقناك عليهما » .

وكان إيجازه المفرط مع دقته فى أداء المعانى يروع المأمون روعة شديدة ، ويُرْوَى أنه أحبَّ يوماً أن يرى مدى مقدرته فى هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال فى العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطراً واحداً ، فكتب[1] :

« كتابى إليك كتاب واثق بمن كُتب إليه، مَعْنِىٍّ بمن كُتب له، ولن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ، والسلام » .

ولا ريب فى أن هذا الكتاب القصير — بل المفرط فى القصر — يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف فى جمع المعانى الكثيرة وتركيزها فى معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بديعة ، وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطّر من الكلام شذًى فائحاً شديد التأثير فى قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحوّلت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك فى أنه تأثر فى هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التى تُرْجمت فى عصره ، على نحو ما نرى فى الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتّاب والأدباء . وروَى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهمّه وأحزنه زواج أمه، لينفّس عنه ، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن . وشكّ ابن خلكان فى الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق فى شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذى لا نألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة .

---

(١) وفيات الأعيان ١ /٤٩٣ .

٥

## ابن[١] الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من مواطنه إلى بغداد متجراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبى بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجَدَّ فيها حتى صار من تجار الكَرْخ[٢] المياسير ، ووُلد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة فى عصره ، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ فى النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصدُّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلازم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفىٌّ ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلَمنَّ أينا ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه» . ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مَثَلَ بين يديه ، وأنشده :

لم أمتدحك رجاءَ المال أَطْلبُهُ ... لكن لتُلْبسنى التَّحْجيلَ والغُرَرا[٣]

وليس ذلك إلا أننى رجــلٌ ... لا أَطلب الوِرْدَ حتى أَعرفَ الصَّدَرا[٤]

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيَّنه الحسن بن سهل ، فحقَّق له أملاً طالما كان يراوده .

(١) انظر فى ترجمة ابن الزيات الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٤٦ والفهرست ص١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٣٤٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٤/٣٩ والطبرى ٧/٣٤٣ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٤٢، ٤١٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٧٠ .

(٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد.

(٣) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس . الغرر : جمع غرة ، بياض فى وجهه . والاستعارة واضحة.

(٤) الورد : ورود الماء . الصدر : الصدور والرجوع عنه .

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزوّد منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازنى حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا فى مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب — يعنى ابن الزيات — واسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازنى ، فيرى أنه الصواب الذى يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، ومرّت بنا فى حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه ، وهى من روائع المراثى ، وله وراءها مراث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديواناً نُشر فى القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مذللا له فى المواقف المختلفة التى قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعةَ بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعْرَفُ موضعه ، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التى كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم والأمر الآن إلى غيرى ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكثه ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدى ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلا : خذ منى الآن بعضَ المال ، واجعل الباقى أقساطاً ، ولا تظهر القصيدة ، ووَفَى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل فى الدواوين حتى وَلِىَ مقاليدَ الخلافة المعتصمُ ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القَباء[1] على

(١) القباء : ثوب فارسى قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدُّرَّاعة[١] ويتقلَّد عليها سيفاً بحمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحسُّ بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجْزل لهم فى العطاء ، ومن أهم مُدَّاحه كما مرَّ بنا أبو تمام، وأنشدنا فى غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التى وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله فى الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولى الوزارة قلَّده ديوان الرسائل ، وربما كان الجاحظ أهم أديب توثقت به صلته فى وزارته .

وتوفِّى المعتصم ووَلِىَ ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده فى وزارته لهما جميعًا يعادى أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضى القضاة واتخذه كما اتخذه ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً ، ودبَّ التنافس بينه وبين ابن الزيات ، حتى انقلب إلى عداوة وتهاجٍ بالشعر ، وكان ابن أبى دؤاد يحرِّض الشعراء على هجائه ويصلهم ،ويقال إنَّ بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبى دؤاد ، فقال :

أَحسنُ من سبعين بيتاً سُدًى ... جمعك إياهن فى بَيْتِ

ما أحوج الناسَ إلى مَطْرةٍ ... تُذْهِبُ عنهم وَضَرَ الزيتِ

وكان ابن الزيات لبراعته فى الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطرمت العداوة بينهما اضطراماً . وكانت فى ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤْلَفُ فى أمثاله من الأدباء الذين رُزقوا دقة فى الحس ، ورهافة فى الشعور ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الرحمة خَوَر فى الطبيعة وضعف فى المُنَّة[٢] ، ما رحمت شيئًا قط » . وبلغ من قسوته أن اتخذ تَنُّوراً من حديد ، وجعل فيه مسامير ، ليعذِّب به المطالَبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان فى وزارته للواثق ، يتجهم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبى دؤاد للمتوكل ، فلما ولى الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يومًا ليطمئن، وظل ابن أبى دؤاد يغريه به لينكبه، حتى أصاخ له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التَّنُّور الذى صنعه ، وقيَّده فيه بخمسة عشر رطلا من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذَّب عذاباً شديداً ،

---

(١) الدراعة : جبة فارسية .

(٢) المنة : القوة .

حتى مات ، وكان موته فى آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تَدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة فى كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وَكَلَ فى وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذى احتفظت به تلك الكتب العهدُ للواثق على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة[1] :

« أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلّدك مكة وزمزم، تُراث أبيك[2] الأقدم، وجدّك[3] الأكرم ، وركضةَ جبريل ، وسُقيا إسماعيل وحَفْر عبد المطلب ، وسِقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » .

وابن الزيات يشير فى هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجه الثانية سارة ، واضطرته أن يُنْزلهما منزلا بعيداً عنها، فأنزلهما بوادى مكة الجدب ، وذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله جلّ شأنه على لسان إبراهيم : ( ربنا إنى أسكنت من ذريتى بِوادٍ غير ذى زَرْع عند بيتك المحرَّم ) . وأعياهما أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راكضاً علىَ موضع ، لا تلبث بئر أن تتفجّر منه ، هى بئر زمزم، فتستقى منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلْقَى فى رَوْع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسِقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات فى عهد الواثق، وكأننا نلتقى عنده بأسلوب ابن مسعدة المبنى على الإيجاز والاقتصاد فى القول من جهة ، وعلى التأنق فى التعبير من جهة ثانية، تأنقاً يجره إلى السجع

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائما ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة فى التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهى تجرى على هذا النمط[4] :

---

(١) زهر الآداب ٤/١٦٠ .
(٢) يريد بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام .
(٣) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .
(٤) العقد الفريد ٤/٢٤١ .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ( كذا ) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة[١] : إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة [٢] لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرِّيَب ، وأيَّة هاتين كانت منك مُحلَّةٌ النُّكْرَ بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة[٣] والأخذ بالحجة والتقدم فى الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلْتَ[٤] من عظيم العَثْرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

والقصد إلى الإيجاز واضح فى الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقيعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد فى التعبير ، مع الاتساع فى المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور فى نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته ، ومع الدقة فى انتخابه واختياره ، دون تكلف لجمال صوتى يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذى كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضرابهما من الكتَّاب ، ومما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله[٥] :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدَّى كلٌّ إلى كلٍّ حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة » .

فالفكرة تؤدَّى فى عبارة موجزة تُلِمُّ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله فى فصل آخر[٦] :

« إن أعظم الحق حقُّ الدين ، وأوجبَ الحُرْمة حرمةُ المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يُرَاعى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحْفَظ له حسب ما حفظ الله على يديه » .

---

( ١ ) اللائمة : اللوم .
( ٢ ) مظاهرة : مساعدة .
( ٣ ) النظرة : التأجيل .
( ٤ ) أقلت : نهضت
( ٥ ) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .
( ٦ ) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

والرغبة فى الإيجاز والاقتصاد فى القول واضحة فى هذا الفصل وخاصة فى كلماته الأخيرة . ولم تُؤْثَرْ لابن الزيات رسائل شخصية نثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر فى هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه، إذ تَرْوِى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويُرْوَى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرّف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متنصلا من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطوُّل بعفوه ، على هذه الشاكلة[1] :

دَفعَ اللهُ عنك نائبةَ الدَّهْـ ـرِ ، وحاشاك أن تكون عليلا
أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا لـ ـك من العُذْر جائزًا مقبولا
ولعمرى أن لو علمت فلا زَمْـ ـتُك حَوْلاً لكان عندى قليلا
فاجعلنْ لى إلى التعلق بالعُذْ رِ سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقديماً ما جاد بالصفح والعَفْـ ـو وما سامح الخليلُ الخليلا

ويقول صاحب الأغانى إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تُدْنينى إليك ، فإنى مظلوم ، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزنى الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ . قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتى ، قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبذولاً ؟ قال الرجل : يحجبنى عنك هيبتى لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : ففيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضَيْعتى الفلانية أخذها وكيلك غَصْباً بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدّيته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها ، فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلّتَها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضى القصة فتذكر أن ابن الزيات ردّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصرى ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٥٥ .

# خـاتمـة

تحدثتُ فى هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامرّاء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوابع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرًّا وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفًا شديداً . ويُعَدّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس ، ويخلفه المهدى فيقضى على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه فى غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادى لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقًا . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً ، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمى ، ويدق أعناق البيزنطيين دقًّا فى عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق ، وبه يُخْتَمُ العصر العباسى الأول .

وكانت بغداد وسامرّاء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء ، وصبّت سيول منه فى حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لنهضة واسعة فى الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف فى الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والجوارى وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظَّرْف وتورط كثيرون فى الخمر والمجون . وكان انتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى فى الثورة العباسية سبباً فى أن تبرز موجة حادة من الشعوبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدى ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكمتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهْتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالت أصوات الوعّاظ والقُصّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربى والشعوب المستعربة ، إذ امتزجت به فى السكنى والتزاوج وفى الأخلاق والعادات ، واتخذت لغته لساناً لها تُتَرْجِمُ به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التى كانت مبثوثة فى هذا المحيط الجديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم فى الكتاتيب والمساجد وكثُر العلماء فى كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وتُرْجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هى دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكيًّا ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض ووُضِعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . ونمت المصنفات التاريخية . وصُنِّفت فى الحديث النبوى كتبٌ جامعة . وكثُرت المصنفات فى تفسير القرآن الكريم . ووُضعت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا فى المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالى لغته ، واستوعبوا مقوِّماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولَّد جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يموج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعذوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوابع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم فى الاستدلال وتوليدات المعانى وتفريعاتها المتشعبة . وظل الشعراء ينظمون فى موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملكاتهم العقلية . وتطور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامّة . وتحولوا بالفخر القبلى إلى فخر شعوبى محتدم . واتسعوا بالرثاء . فرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفننوا فى الغزل بنوعيه الإباحى والعفيف . وتبذلوا فى شعر المجون والخمر . ونظموا كثيراً فى الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقده أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغَيْرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمى ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخبب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوع لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثة . وعرفوا وزناً شعبيًّا هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعًا فى القوافى ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات ، ونظموا صورة تُعَدّ أمًّا للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسى الأب رومى الأم ، وكان أكمه ، ووُلد على الرِّقّ ، ونشأ فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع فى الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوبية آثمة . وهو يُعَدُّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم، وأَثَّر فَقْدُه لبصره واضحٌ فى غزله فهو فى أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزْرِى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمًّا شديداً . وأكثر أيضًا من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتل على الزندقة . وكان أبو نواس فارسى الأب والأم ، ونشأ مثل بشار فى البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غَيِّه ومجونه

وإنما هو والبة ، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصّاص والمحدّثين وعبّ من الثقافات الأجنبية عبًّا . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين . وشعره يجرى فى اتجاهين : اتجاه تقليدى فى المديح والرثاء واتجاه تجديدى فى الهجاء والغزل والمجون والطّرْديات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه . ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماده على عفو الله ومغفرته ، وهو — غير منازَعٍ — شاعر الخمرية على توالى العصور العربية بما ابتكر فى صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتاهية فكان نبطيًّا ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سيئ السيرة فى صباه إذ انتظم فى سلك المخنَّثين ، وعمل مع أخ له فى بيع الجِرار وصنعها ، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع فى الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدى وتعلق بجارية من جوارى قصره تسمى عُتْبة ونظم فيها غزلا كثيراً ، ومدح ابنيه الهادى والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب فى حياته ، فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلا بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه . وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو فى جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن فى المراثى ، وتشيع فى أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضًا ينتظم فى عِداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة ، وأكبّ على الشعر القديم وشعر بشارٍ خاصة ، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمّالها وولاّه بأخرةٍ الفضلُ بن سهل وزير المأمون بريدَ جرجان فظلّ بها حتى وفاته . واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق فى معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائى خاتمة هؤلاء الأعلام ، وقد ولد بجاسم ، وهى قرية من قرى دمشق ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص ، ثم إلى الفسطاط ، وعاد إلى الشام وتردّد بينها وبين الرّقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان ، ثم عاد إليها ، وتحوّل عنها مع المعتصم إلى « سُرّ من رأى » ولزم بابه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب ، وولاّه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق فى المعانى والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضى إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً .

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر اللذان وجها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردّاً عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين فى الخلافة ، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويُخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميرى وكان كيسانى العقيدة لا يرى بأساً فى مديح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفى حبه للعلويين ،وأكثرَ من تغنيه بمناقب على بن أبى طالب وذَمِّ قاتلى الحسين وثَلْبهم. ومِثْلُه منصور النمرى الشيعى الإمامى ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهدرة فى الخلافة . ومثلهما دعبل ، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً ، وتشكك أبو العلاء المعرى فى صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشيعه . وكان ديك الجن مخلصاً فى تشيعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعى قليل . وكان البرامكة بحوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح ، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحقى مترجم كليلة ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السُّلَمى ، وله قصائد طنانة فيهم وفى انتصارات الرشيد على نقفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجْزِلون العطاء للشعراء ، فدبَّجوا مدائح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبى الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعى والى الرَّقّة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التَّيْمى شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبى دلف العِجْلى قائد

المأمون ، والخريمى شاعر عثمان بن خُرَيْم المُرِّىّ والى أرمينية . وبرع فى الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبى عيينة المهلبى وكان يُكْثر فى هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعذَّل وكان هَجاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقى العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير مَنْ يصور النوعَ الأول العباس بن الأحنف الذى عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر . أما النوع الثانى فخير من يصوره ربيعة الرَّقى وغزله يسيل عذوبة . وكان شعراء المجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقالات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد ، وكان يخلط مجونه بزندقة أُشْربتها روحه . ومنهم مطيع ابن إياس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلا مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه ، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد فى سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلا برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم فى الموت والفناء . وشارك المعتزلة فى الشعر وفنونه ، وكان منهم من ينظم فى نفس الأغراض التى ينظم فيها الشعراء من حوله مثل العَتَّابى الذى يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النظَّام الذى يصبغ أشعاره فى الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم فى حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثر من الحديث عن عجائب الله فى خلقه . وصوَّر نفر من الشعراء فى أشعارهم النزعات الشعبية صادرين عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم فى شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماله البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك فى صورة فكهة .

وتطور النثر فى هذا العصر وتنوَّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معتزلة وغير معتزلة يبحثون فى الأسس التى تقوم عليها براعة القول وبلاغته ، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعُنى كتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقًّا ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وَقصص وقُصّاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة فى بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنِّحَل فى المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يُحْصَى من دقائق المعانى وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً — بقصد إظهار المهارة الجدلية — إلى تقبيح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيأ لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبِّجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكتّاب يحرصون فى هذا النثر الديوانى الرسمى على بلاغة القول والتفنن فى الأفكار والمعانى ، ويلقانا فى عصر كل خليفة كُتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التى كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يحبِّرون فيها رسائل شخصية مفتنِّين فى أساليبها البيانية وما يصوِّرون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكتّاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانى والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب فى العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسى الأصل ونشأ بالبصرة

فى ولاء آل الأهتم ، وهم بيت فصاحة وخطابة ، فحذق العربية ، وعمل فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية ، ثم فى دواوين سليمان بن على وعيسى بن على عمى المنصور ، وكان لا يزال مجوسيًّا فأسلم على يد الأخير . وأغْرَى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسى وكتاب كليلة ودمنة الهندى الأصل وبعض منطق أرسطاليس . وكان آية فى البلاغة وحسن الأداء وفصاحته ، على نحو ما يتضح فى الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة ، وهى جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية . وتُعَد ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل إخوانية رأدبية بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسى الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية ، وشارك فى الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية ، وكان فيه ميل إلى التندر ، ووظّفه الرشيد بخزانة الحكمة التى أنشأها ، وقرّبه المأمون وجعله خازناً لبعضِ أقسامها . وكان من أفراد عصره فى البلاغة والبيان وصحة المنطق ، وعُنى بتأليف قَصَصٍ حيوانى على شاكلة كليلة ودمنة ، وهو يملؤه بالتربية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » . ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته فى الاحتجاج للبخل . ورسالته الأخرى فى نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتى لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم فى دواوين القرن الثانى ، وقد عُنى بتأديب ابنه وإعداده للعمل فى الدواوين . وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون ، فجعله على ديوان الرسائل ، ثم اختاره وزيراً له ، وظل على وزارته حتى توفى . وكان واحد زمانه فى الكتابة الديوانية ، ومن أروع رسائله السياسية رسالة الخميس التى كتبها فى تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة فى تحميدها إذ تحول به إلى مايشبه مبحثاً كلاميًّا فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح فى رسائله الديوانية من تأنق التعبير . حتى ليمكن أن يقال إنه هو الذى أعدّ فى قوة لأن يشيع فى النثر الديوانى الرسمى أسلوبُ الازدواج والترادف الصوتى وما يجرى فيه أحياناً من السجع . وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة ،

إذ كان أبوه مسعدة يلي ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وتثقيفه ، وتلقفه جعفر بن يحيي البرمكي ، فاتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه شغَفه بالإيجاز والتأنق فى التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه. والتحق بدواوين المأمون ، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل يليه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاقتصاد المسرف حتى كان يُضْرَبُ به المثل فى الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلا شديداً إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محبًّا للأدب ، فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية ، حتى برع فى الشعر والكتابة جميعاً ، وسرعان ما التحق بدواوين المأمون ، وما زال نجمه فى صعود ، حتى استوزره المعتصم ، وظل وزيراً فى عهد ابنيه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير نكبته المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر فى بلاغته ولسنه عن تكلف ، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والنَّصَاعة .

# فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

# كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

## فى الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
- الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة
- معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة

## فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة
- العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٨٠ صفحة
- العصر العباسى الثانى
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة
- عصر الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

## فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثالثة عشرة ٥٢٨ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٨ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣١٢ صفحة
- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى :
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

- في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

## في الدراسات النقدية

- في النقد الأدبي

الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة

- فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

- في الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

## في الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة الحادية عشرة ٣٨٠ صفحة

- المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

- تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

- تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

- تيسيرات لغوية

الطبعة الثانية ٢٠٠ صفحة

- **تحريفات العامية للفصحى**

**الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة**

## في مجموعة نوابغ الفكر العربي

- ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

## في مجموعة فنون الأدب العربي

- الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

- المقامة

الطبعة السابعة ١٠٦ صفحات

- النقد

الطبعة الخامسة ١٣٦ صفحة

- الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

- الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

## في التراث المحقق

- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثاني – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

- كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

- الدرر في في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

## السيرة النبوية

- محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

## في سلسلة اقــرأ

- مع العقاد

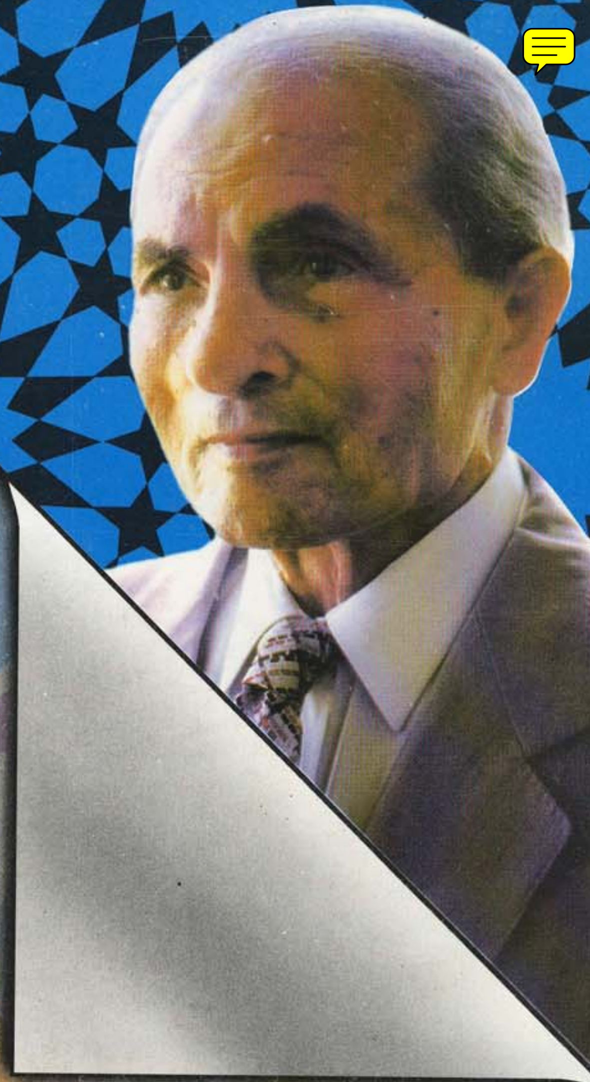
الطبعة الخامسة

- البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

- الفكاهة في مصر — الطبعة الثالثة
- معي (١) — الطبعة الثانية
- معي (٢) — الطبعة الأولى
- القسم في القرآن الكريم — الطبعة الأولى





دكتور شوقي ضيف

تاريخ الأدب العربي

# العصر العباسي الثاني

فاضل



دار المعارف

# العصر العبّاسىّ الثانى

تاريخ
الأدب العربى
٤

# العصر العبّاسى الثانى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى خاصٌ بالعصر العباسى الثانى ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوُّل مقاليد الحكم من أيدى الفُرْس إلى أيدى التُّرْك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغْرق فى الترف والنعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش فى الضَّنْك والبُؤْس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل — وما كان يُنْقَلُ — من الثقافات الأجنبية . مما هيَّأ لظهور فلاسفة عِظام وعلماء بارعين فى جميع العلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوَّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثَّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّدون فى الموضوعات القديمة والأخرى المُسْتحْدثة فى العصر العباسى الأول صُوَراً مختلفة من التجديد ، تَحفِلُ بما لا يكاد يُحصَى أو يُسْتَقْصَى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبْتَدعة . وظلوا ينَمُّونَ الشعر التعليمى وينْظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثتُ بحثًا تحليليًّا تاريخيًّا أعلام الشعراء فى العصر ، وهم على بن الجَهْم والبُحتُرىّ وابن الرومى وابن المُعتز والصَّنَوْبَرِىّ ، أما ابن الجَهْمَ فكان داعيةً للمتوكل يصيح مهللا مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه حين ادلهمَّت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحْتُرِىُّ الشاعرَ الرسمىَّ فى بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التى سادت حينئذ فى الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سُخِّر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقي الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته في وصف المعارك البَحْرية ومظاهر الحضارة والعُمْران . وكان يقابله ابن الرومى ممثل النزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترفة ومأساة أبيه وجده في أشعاره ، وهي تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبرى يُعْنَى بصنعته الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعَدّ أول ناظم للثلجيات في العربية .

وعرضتُ لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزّعتهم على طوائفَ متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراء هجاء عاديّ أو مرير ، وشعراء غزل عفيف أو ماديّ صريح ، وشعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ، وشعراء شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثّلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحامَ الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوّراً كيف تعاونتْ بيئاتٌ مختلفة في وَضْع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطًا واسعًا ، وتحوّل من مواعظ زُهْدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفيّ شَعْبِيّ يعتمد على القَصّ والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامّة . وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجْمَعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القَدْح والمَدْح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كُتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيقُ رُقْعَتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتّاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصُّولىّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حُمَيْد ، وأبو العباس بن ثَوابة . وكان الصولى أول رئيس

لديوان الرسائل فى العصر، وعنه كانت تَصْدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسْن جَرْسها فى الأداء. والجاحظ أكبر كتَّاب العصر غير منازع، وكتاباته مرآة صافية لعصره بجميع طبقاته، مع ما يَسْرى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النَّثْرى، هى المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقَصص، والنوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبى بعده، وهو يمزج فى كتابه: «عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتًا أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها فى كتابه ثقافة عربية، وقلما ارتفع بعده صوت للشعوبية. ويتشبَّه ابن قتيبة كثيراً بالجاحظ فى تمسكه بالواقع ومَزْج الهزل بالجِد وفى استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حُمَيْد يرْقَى فى الدواوين، حتى أُسْنِد له ديوان الرسائل، وكان يُعْنَى بالتدقيق فى ألفاظه ومعانيه، نافذاً من خلال حيَل عناية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تُضْفِى على أسلوبه جمالا. ويَلْمَعُ اسم أبى العباس بن ثَوابة، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف فى كتابته، مما جعله يَسْتخدم فيها أحياناً السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعيار بيانى دقيق. والله وَلِىُّ الهُدَى والتَّوْفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٧٣م.

شوقى ضيف

# الفصل الأول

## الحياة السياسية

### ١

**استيلاء الترك على مقاليد الحكم**

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف هيَّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريَّة لإمام هاشمى يخلِّص الموالى فُرْسًا وغير فرس من حكم بنى أمية الجائر، محققًا لهم المساواة المشروعة – بحكم الإسلام – بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرمًا. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوى سرًّا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فى حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم والسلطان وتمادوا فى حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجَّاب، أما الشعب فلم يزد فى رأيهم عن أن يكون أدواتٍ مسخرةً لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول. وحقًّا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل. ونشب من جرَّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأموى والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقًا، مما أعدَّ

لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلّ عنه عُنْفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة فى شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك الخُرَّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا والتى كلفت الدولة كثيراً من الجيوش إلى أن سَحَقَها المعتصم وقواده سَحْقًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد ، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح ، مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبراً ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفَرْغانة وأشْروسنة إلى أن بلغت عدَّته ثمانية عشر ألفًا[١] ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدواً جُفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء[٢] شمالى بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولا خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثّوهما فى الحياة العربية ، وأعدّوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدواً لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقًا فى رسالته التى

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٣٣ .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تاليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد .

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: «الترك أصحاب عَمَد (خيام) وسكان فيافٍ وأرباب مواشٍ، وهم أعراب العجم . . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرسٌ ولا بنيانٌ ولا شقُّ أنهار ولا جباية غلّات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيْد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعانى والأسباب مسخَّرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسْره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتَهم وتجارتهم ولذَّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات... وكآل ساسانَ فى الملك والرياسة».

وهؤلاء البدو الموغلون فى البداوة الذين لم يُعْرَفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرِفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتصم هو الذى هيَّأ لهم ذلك لا بجعلهم جُنْدَ الخلافة العباسية فحسب، بل أيضًا باتخاذه لهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدولة، فأتاح لهم الفرصة كى يُخَلَّى بينهم فى المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخَّرين بأيديهم يصرِّفونهم كما يشاءون. وليس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم «إشناس» مصر وجعل له الحق فى أن يولِّى عليها ولاة من قِبَله، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر[1]. وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كى يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية. وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ ولَّى إشناس من بابه فى بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولِّى عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر[2]. وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولَّى على الجانب الشرقى للدولة من كُوَر دجلة حتى خراسان والسند «إيتاخ»[3] حتى إذا توفِّى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مرتبته وأكثر أعماله[4]. ولم يقف تجنِّى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأً خطيراً فى حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولى عهد بعده للخلافة، وسرعان

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٢٩ .

(٢) اليعقوبى (طبعة النجف) ٣/٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٢ .

(٣) اليعقوبى ٣/٢٠٥ .

(٤) اليعقوبى ٣/٢٠٦ .

ما استغلَّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصةَ حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعما قليل سيصبح عزلهم — كما سنرى — بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسى الثانى .

ويبدو أن المتوكل تنبَّه — منذ استيلائه على الحكم — إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لكأنما أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد فى الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفاً التركى [1]. وهى سياسة سيتَّبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض. وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدِّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف فى الحجابة . وتتوالى السنوات وهو ضَيِّقٌ بقادة الترك ويفكر فى التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره فى سنة ٢٤٣ أن يترك سامرَّاء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشرورهم ، ويَشْخَصُ إليها فى ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت فى الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويلة [2] :

أظنُّ الشام تَشْمت بالعراقِ     إذا عزم الإمامُ على انطلاقِ
فإن تَدَعِ العراقَ وساكنيها     فقد تُبْلَى المليحةُ بالطلاقِ

ودخل المتوكل دمشق فى صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُبْنَى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

---

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف) ١٦٧/٩ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلا ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين[١] . وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر فى انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسماها « الجعفرية » ، وبنى لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « اللؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب[٢] ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمّموا على مبادرته ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده : فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدّوا لذلك نفراً من أصاغر الترك . منهم بُغا الشرابى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمّة[٣] . ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدولة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »[٤] .

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضّوه على خلْع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثأراً لأبيه ، وتمّ خلْعهما . وتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على مَنْ سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنيّة على

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ( طبعة دار الأندلس ) ٤/٣٢ والطبرى ٩/٢١٠ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ( طبعة أوربا ) ص ٣٦١ .

(٣) طبرى ٩/٢٢٥ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ( طبع المطبعة الرحمانية بمصر ) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس . وتُوفِّى بُغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول فى شئون الدولة ، وأخذ يختزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين ، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة ، ووصيف وبُغا الشرابى الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره(١) . واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شرُّه قد تعاظم فى قصر الخلافة فقتلوه بدوره . وسئم المستعين حركات الترك ودسائسهم ، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها ، وجزعوا اصنيعه ، فأرسلوا إليه وفداً يسترضيه سنة ٢٥١ ، ولكنه رفض العودة إلى سامراء ، فخلعوه ، وبايعوا المعتز بالله ولى العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر ، فكان هناك خليفة مولًّى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين ، ونشبت الحرب بينهم وبينه ، وحاصروا بغداد ، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى « واسط » وهناك تم تدبير قتله(٢) . وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفراً من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولى الخلافة وعزله ، فسجنه ثم فتك به . وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة ، وفتك بوصيف وبُغا الشرابى الصغير قاتل أبيه ، يقول المسعودى : « ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة فى إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبِّخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال ( رواتبهم ) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك(٣) . وأرسلوا توًّا إلى بغداد فى طلب محمد بن الواثق ، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم ، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدى ، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعًا . وحاول المهتدى أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز فى العدل ورفع المظالم والاقتصاد فى النفقات ، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكُسرت وضُربت دنانير ودراهم ، وقرَّب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرَّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة . وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

(١) طبرى ٢٦٣/٩ .

(٢) طبرى ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

وفى مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم ، فقتلوه فى رجب[١] سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، يبايعه الترك ثم تبايعه العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت فى عصر المهتدى ، وعبثاً استطاع قواد الترك أن يُجْهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشُغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخَلْعهم وسَفْك دمائهم . ويُتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع مَنْ ثاروا بإيران ويُكْتَبُ له الظفر والقضاء على الزنج قضاء مبرماً ، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويَحْنى الترك رءوسهم لها ولا نعود نسمع بفتنة حُجَّاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلغ وبكتمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابنُ أخيه الموفقِ أبو العباس أحمد ولُقِّب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه فى حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهابه الترك وقوادهم ، ونراه فى سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكتمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له[٢] ، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتفى الذى ولى الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبى ولياً للعهد من بعده ، وكان حرياً به أن يجعل ولاية العهد فى شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حدّ من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفى سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاة والعدول ، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأُخذ عنوةً وقُتل ، وتفجّع عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستتر مدة ثم انكشف أمره ،

---

(١) طبرى ٤٥٦/٩ ومروج الذهب ٩٦/٤ . (٢) طبرى ٤٠/١٠ .

وقُتل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر[١] ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهى أم ولد رومية شركت مؤنساً فى تصريف شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسْنَدُ إلى شخص فى عام حتى ينحَّى عنها فى عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما فى سنة ٣١٧ ويُعْزَلُ الخليفة ويولَّى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقُ الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيده إلى الخلافة ويجدِّد له البيعة [٢] . وما تلبث السماء أن تكفهرّ ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقْتَل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولِّى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحمق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرَّم على الناس الخمر والسماع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد[٣] ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعوه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه[٤] ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩ ، وفى عهده تغلَّب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت فى زمنه فتن وحروب كثيرة بين الجند ونُهبت دار الخلافة ، وقُبض عليه لسنة ٣٣٣ وخُلع وسُملت عيناه[٥] . وتولاها بعده المستكفى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام فى خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى بغداد ، فلقَّبه المستكفى بأمير الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخُلع من الخلافة ونُهبت داره وسُملت عيناه [٦] ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

---

(١) طبرى ١٠/١٤٠ — ١٤١ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمدانى ص ٧٨ .

(٤) مروج الذهب ٤/٢٢١ والفخرى ص ٢٠٥ والهمدانى ص ٨٠ .

(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٤/٢٤٧ والهمدانى ص ١٤٣ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٧٦ والفخرى ص ٢١٢ والهمدانى ص ١٤٩ .

## ٢

### تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل فى السنوات الثمان التى تلته ، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولُّونهم و يعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصوَّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين ( ٢٤٨ – ٢٥٢ هـ ) ، فقال [١] :

خليفةٌ فى قَفَصٍ  بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له  كما يقول البَبَّغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببَّغاء فى قفص يردِّد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه ، وولَّيا بعده المعتز بالله ( ٢٥٢ – ٢٥٥ هـ ) ويُرْوَى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابُه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال :أنا أعْرَفُ من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق فى المجلس أحد إلا غلبه الضحك [٢] . ولم يمكث المعتز فى دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، وولوا بعده المهتدى ( ٢٥٥ – ٢٥٦ هـ ) وكان حسن السيرة ورعًا تقيًّا اطرح الملاهى وحرَّم الشراب والغناء ، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، وولوا المعتمد ( ٢٥٦ – ٢٧٩ هـ ) ، وكان منهمكًا فى اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبَّت الخلافة إلى أبعد حد ، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجِدِّه هيبتها ومكانتها المهدرة ، وقد ترك

---

( ١ ) مروج الذهب ٤/٦١ .    ( ٢ ) الفخرى ص ١٨١ .

أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة فى البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقى ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصوّر ذلك بنفسه قائلا [١] :

أليس من العجائب أنَّ مثلى    يرى ما قلَّ ممتنعاً علَيْهِ
وتُؤْخَذُ باسمه الدنيا جميعاً    وما من ذاك شىءٌ فى يَدْيهِ

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان وليًّا للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد ( ٢٧٩ — ٢٨٩ ) ، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك فى عهده صوت ، وكان اسمه — كما مرَّ بنا — أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان المعتضد شجاعًا مهيبًا أسمر نحيفًا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بنى العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده فى إدبار » [٢] . وخلفه ابنه المكتفى ( ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ ) وكان قصير النظر فاتخذ ولى عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيًّا ، فولى بعده الخلافة ( ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه فى لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا سَمْلَ الأعين .

وإذا كان المكتفى أخطأ فى أواخر العصر بتولِّى أخيه المقتدر للعهد وهو صبى فإن المتوكل اقترف بدوره خطأً عظيمًا فى أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه [٣] ، وكان حريًّا به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرَّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، فكان حريًّا بالمتوكل ألا يعرّض أبناءه

( ١ ) الديارات للشابشتى ( الطبعة الثانية — مطبعة المعارف ببغداد ) ص١٠١ .

( ٢ ) النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ — ١٢٨ .

( ٣ ) طبرى ١٧٥/٩ ومروج الذهب ٥/٤ والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٢

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم فى الولاية ، ويليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكأن المتوكل هو الذى هيأ للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يولّون ويعزلون ويَسْجنون ويقتلون ، وتمادوا فى ذلك حتى ردّ الموفق إلى الخلافة مهابتها ، وتبعه فى صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حالق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادى من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، ونراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصراً واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالا طائلة ، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى فى سنة ٢٤٦ بالماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالا قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللؤلؤة ، كلفته ملايين الدنانير (١) . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك (٢) ، وهو سَفَهٌ وخُرْق ، فالخليفة لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته ، وكأن ليس هناك جيوش تُعَدُّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملأها بالجوارى من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتدون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتهما قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزماً لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا فى النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ (٣) . ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبى ، ويقال إنه كان فى قصره أحد عشر

(١) معجم البلدان فى سامراء والطبرى ٩/٢١٢ ومروج الذهب ٤/٤٠ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠.

(٢) مروج الذهب ٤/١٤٧ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٤٥ .

ألف غلام خصىّ من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضًا إنه أتلف من الأموال ثمانين مليونًا من الدنانير [١] غير ما بدّده من الجواهر الثمينة التى كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين .

وطبيعى أن يقضى هذا السفه على هيبة الخلافة وأن يستذلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعًا كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسى الأول فى زمن الواثق إذ صادر فى سنة ٢٢٩ للهجرة كتَّاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليونى دينار[٢] ، وكلما تقدمنا فى العصر العباسى الثانى اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رَتْقُه ، والمذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتَّاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّخَّجِىّ ، ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفًا[٣] ، ونكب كاتبًا ثانيًا استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتى ألف دينار[٤] ، ونكب كاتبًا ثالثًا من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار[٥] ، ونكب القاضى أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار[٦] ، ونكب يحيى بن أكثم قاضى قضاته واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار[٧] . وأثرى قواد الترك فى السنوات التى تلته ثراء فاحشًا وأثرى كثير من الوزراء . ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار [٨] .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتَّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير فى الدولة لا يقترف

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
(٢) طبرى ٩/١٢٥ .
(٣) طبرى ٩/١٥٨ ومروج الذهب ٤/١٩ .
(٤) الفخرى ص ١٧٧ .
(٥) طبرى ٩/٢١٥ .
(٦) مروج الذهب ٤/١٤ .
(٧) طبرى ٩/١٩٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٣/٤٠ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا فى ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحيانًا مائتى ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا[١] ، وحتى رجال الحِسْبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، فى أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء فى الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى الفيلسوف ، إذ خان الأمانة فى ولايته الحسبةَ ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار[٢] . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط فى هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفى الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعذّبون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسَّحب على الوجوه والرسف فى القيود وصَبٍّ الزيت على رءوسهم أو النفط وتعليقهم فى الجُدرِ من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعتز فى أرجوزته[٣] التى أرَّخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة مبينًا كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله فى قسوة بل فى عنف بل فى أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فكَمْ وكم من رجلٍ نبيلِ ذى هَيْبَةٍ ومَرْكَبٍ جليلِ
رأيتُه يُعْتَلُ بالأعوانِ إلى الحبُوسِ وإلى الديوان
وجعلوا فى يده حِبالا من قِنَّبٍ يقطِّع الأوصالا
وعلَّقــوه فى عُرَى الجدارِ كأنه بَرَّادةٌ فى الدارِ
وصفَّقوا قفاه صَفْقَ الطَّبْلِ نَصْباً بعينِ شامتٍ وخِلٍّ
وصَبَّ سَجَّانٌ عليه الزَّيْتا فصار بعد بِزَّةٍ كُمَيْتا

ويمضى ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعذّبون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كى يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام . وبعد لأىٍ يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

---

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٧٠ .

(٣) انظر الديوان ( طبعة دار صادر ببيروت ) ص ٤٨١ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صَكًّا بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود، إن كان حقًّا قَمَعه أو استطاع قَمْعه. ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدَّعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفنَّنون فى تعذيبه :

حتى إذا مَلَّ الحياةَ وضَجِرْ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرْ
أعطاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشىَ ويَمْشِى العَنَقا

والعَنَقُ مشية سريعة . وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيرانًا . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثًا ضخمًا ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لَكْمِهِ ودفعِهِ وانطلقتْ أكفُّهم فى صَفْعِهِ
ولم يزل فى أضيق الحُبوسِ حتى رمى إليهمُ بالكيسِ

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثنى عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث ، أولهم ابن الفرات ، ويروى أنه حاسَب كتَّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار [١] ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير [٢] ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وُجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين [٣] . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .
(٢) عريب ص ٢٦ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢١٢ .

الخاقانى ، وكان سيئ السيرة ، فأخذ يبيع الولايات غير مراعٍ للأمة عهداً ولا ذمة ، ويقال إنه ولّى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر والياً آخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر ، وفيه يقول بعض معاصريه[١] :

وزيرٌ لا يملُّ من الرَّقاعَهْ    يولِّى ثم يعزل بعد ساعَهْ
إذا أهلُ الرُّشا صاروا إليهِ    فأَحْظى القوم أوفرهم بِضاعه

ونعجب أن تُدِرّ إقطاعات الوزير فى عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً[٢] ، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين . وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل فى سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة[٣] ألف دينار ، مؤملا أن يستردها فى أسرع وقت . ويُرْوَى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية[٤] . واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية ، فاستخلص منه مليوناً وثلثمائة ألف ، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتى دينار[٥] ، فى حين كان المستكفى ينفق بأخرة من العصر على مائدته كل يوم خمسين ألف درهم[٦] . وكان الولاة يستنّون سنة الوزراء فى نهب الأموال واختلاسها[٧] .

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُخْتَلَسُ وتُنْهَبُ ، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء ، ينعمون ويترفون ، والشعب يتمرّغ فى البؤس والحرمان والشقاء ، وكأنما تعطلت أداة الحكم ، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد . وكان مما زاد فى هذا الفساد غلبة النساء على الحكم ، فكنّ كثيراً ما يصرّفنه بحسب أهوائهن ، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة ، حتى يقال إن المستعين مات وفى خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار ، على حين كان فى خزائن أمه مليون دينار كاملة[٨] ، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً ، ويقال إن

---

(١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص٢٩—٣٠ .
(٢) الهمدانى ص ٥١ .
(٣) الفخرى ص ٢٠٢ .
(٤) الهمدانى ص ٢٢ .
(٥) الهمدانى ص ٣٦ .
(٦) الهمدانى ص ١٤٨ .
(٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمدانى ص ١٣ .
(٨) طبرى ٢٨٤/٩ .

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها فى خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يَفْدى نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخُلع ابنها وقُتل بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملأه العجب حين وجد فى خزانة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قُدّرت قيمتها بمليونى دينار . ولما رأى وصيف ذلك قال : قبّحها الله ، عرّضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله فى خزانة واحدة من خزائنها [١] . وثالثة الدواهى الطامة شغب أم المقتدر ، وهى أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهى فى الدولة ،وكانت تستعين بقهرمانتها « ثمل » وأقعدتها فى الرُّصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة [٢] . وأثْرتْ « شغب » حتى كان دخلها فى العام من غلات ضياعها مليون دينار [٣] ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثَمل منها مليوناً من الدنانير [٤] ، كأن مليون دينار فى أيدى نساء القصر وجواريه شىء عادى تتملكه أى وصيفة . وكان المقتدر متلافاً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة — التى ظل آباؤه يحتفظون بها حقباً طوالا — لبعض حظاياه ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبْحَةَ جوهر لم يُرَ مثلها ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فَصّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار [٥] وكأن كل ذلك وقع فى يد معتوه ، فهو ينثره يميناً وشمالا . واستولى قواد الترك لعهده على كثير من الإقطاعات والضياع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلّ له سنوياً ثلاثين ألف دينار [٦] . وكانت قهرمانة شريرة هى علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفى [٧] .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشئوم، فقد أصبح

---

( ١ ) طبرى ٩/٣٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .
( ٢ ) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .
( ٣ ) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٩ .
( ٤ ) الهمدانى ص ٣١ .
( ٥ ) الهمدانى ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
( ٦ ) عريب ص ٨٠ .
( ٧ ) الهمدانى ص ١٤٣ .

الترك والنساء والجند هم الذين يصرّفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقى يؤمّن لصّاً فاتكاً هو حمدى ، ويشترط عليه أن يدفع له شهريًّا خمسة عشر ألف دينار ، فى حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذى سُمِّى عند العامة فى سالف الأعصار أحمد الدنف ، وقصته فى ألف ليلة وليلة مشهورة[1] .

وهيّأ ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسرة طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم لنفسها فى خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدولة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفى سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية فى إقليم بلوخستان شرقى إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين فى خراسان . وتوفى يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث فى سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بايكباك حاجبه مصر فولّى عليها أحمد بن طولون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزواجُ ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطولونية فى أبناء أحمد بن طولون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت فى عهد المكتفى إلى حظيرة الدولة ، فولّى عليها عيسى النوشرى ، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغْج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التى ظلت تلى شئون مصر حتى تسلّمها منها المعز الفاطمى سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين فى خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالى سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٨١ .

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتولونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء فى أن تُذكَرَ أسماؤهم معهم فى خطبة الجمعة وأن يضربوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنِّيِّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرَّىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطَبَرِسْتان وجُرْجان فى يد الديلم ، وكِرْمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر فى أيدى بنى حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريدى ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر الجَنَّابى القرمطى ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية فى يد القائم بأمر الله ابن المهدى الفاطمى المتلقب بأمير المؤمنين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى . ولم يبق فى يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه — كما أسلفنا — البويهيون وخلعوه ، وولَّوا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمى وأن يُدْعَى له على المنابر ، وخفِّضت نفقاته ، وقُرِّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرمًا ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازلون الدولة وينزلون بها خسائر فادحة فى الرجال والأموال ، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

## ٣

### ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تَضَعْ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذى

أعدّ لها وأشعلها رجل فارسي من وَرْزَنِين: قرية من قرى الرّىّ بإيران ، زعم فى أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجرى ، فتبعه نفر قليل . وأحسّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالى فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتى إذا استدار العام عاد بفكرة جديدة هى أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرّهم كبار الملاك الإقطاعيين فى هذا الكسح وفى زرع أرضهم لقاء أجر زهيد لايسدّ ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكامًا لدعوته أن يُسْبِغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحَى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جَوْر الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، حتى يثبت حقه الشرعى فى الثورة ضد الخلافة العباسية[1] ، وهو نسب مكذوب إذ هو فارسى كما قدمنا ، وحقًّا نجد ابن المعتز ينعته فى الأرجوزة التى تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوى إذ يقول عنه :

والعلوىّ قائدُ الفُسَّاقِ  وبائعُ الأحرارِ فى الأسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارِ هذا الرجل الذى لم يكن يَرْعَى فى الأمة إلاًّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا فى إثم الخمر والمجون والمعاصى ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يُرَدَّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتانًا .

وكان الزنج يبلغون ألوفًا ، وكلهم يعملون فى كَسْح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجْلَبُون من شرقى إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتفَّ معهم كثير من عَبيد الفرات بحيث غَدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبّت

---

(١) طبرى ٤١٠/٩ ومروج الذهب ١٠٨/٤ والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣ ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدورى (طبع بغداد) ص ٧٩ .

ذلك فى نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهى دعوة كريمة ، غير أنه لم يمض فيها إلى النهاية ، إذ استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جِديّاً فى إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علويّاً ما رواه المسعودى عنه من أنه «كان ينادى فى عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتُباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادَى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه، فقال لها : هو مولاكِ وأولى بكِ من غيره»(١). ولو كان علويّاً ما استباح استرقاق العلويات، ولو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزنوج وردّها على الأحرار، بل كان يُبقى لهم حريتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويُصْلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حوّل ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاّك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة، فالدولة يجب أن تقاوَم ويقاوَم معها الخلفاء وولاتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتنق آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ،وكان يرى رأيهم فى أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغى قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية، ويحاول المسعودى أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التى رددوها حين ثاروا فى وجه على بن أبى طالب : «ألا لا حكمَ إلا لله» ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضى إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا — مثل الخوارج الأولين — على أبى بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعليّاً غضباً عليهما ولعنوا جبابرة الأمويين والعباسيين (٢) . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبى طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

---

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ . وراجع النجوم الزاهره ٤٨/٣ .
(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سَبِخة بمآخير أنهار البصرة تسمى سبخة أبي قرّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثّ الزنج والسود يُغير بهم على القرى وينهب الأموال والدوابّ[١] ، ثم تحوَّل إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب واتخذ عليه مدينة[٢] سماها « المختارة » بَنَى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكثرت إغاراته على البصرة وقُراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى ، فأرسل إليهم فى سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبُلَّة مما يلى نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويُشْعل بها ناراً تأتى على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنيةً من خشب الساج ، ويُعْمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عَبَّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبُلَّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمئونة . وولَّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة[٣] .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه فى سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استتروا منه بالقنوات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر بجيش ثان لم يصنع شيئاً[٤] . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد فى الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خوطب فى أمرها ، فقيل له : إنما البصرة خُبْزَةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد فى أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملا فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

---

(١) طبرى ٤٣٧/٩ .
(٢) طبرى ٤٧٠/٩ .
(٣) انظر الطبرى ٤٧٠/٩ مما بعدها .
(٤) طبرى ٤٧٨/٩ .

النار[١] ، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودى : « واختفى الناس ذعراً فى الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنانير ، وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شىء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »[٢] وتسامع الناس والشعراء فى بغداد وسامراء بهذه النكبة المروّعة التى حلّت بالبصرة ، فبكوها بدموع غزار ، وفى مقدمتهم ابن الرومى ، وقصيدته :

ذادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ　　　شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التى لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسَبْيهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالا ورماداً ، وكيف ملئوا شوارعها بالرءوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو فى تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّياد عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكاً لا يُبْقى ولا يَذَرُ .

وكأنما استجابت الدولة لصرخة ابن الرومى ، فجهّزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلا لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استتروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفّة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهير يسمى نهير معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحرانى وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبح وأحرق[٣] . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلّف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتل فيها كثير من الجانبين[٤] . وولّى المعتمد فى سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها[٥] .

(١) طبرى ٤٨١/٩ .
(٢) مروج الذهب ١١٩/٤ .
(٣) طبرى ٤٩١/٩ .
(٤) طبرى ٥٠٤/٩ .
(٥) طبرى ٥١٣/٩ .

وتُشْغَلُ الدولة وقائدها الموفق بيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان، وأقبل بجموعه فى سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكد يلمّ بدير العاقول على بعد اثنى عشر ميلا منها حتى تصدَّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصفّار بعد الزَّنْجِ فطار إلا أنه فى سَرْجِ
وفَرَّ من قُدَّامه فِرارًا وكان قِدْماً بطلا كرّارًا

وظل الموفق مشغولا به بعد هزيمته إلى أن توفى سنة ٢٦٥ . وفى هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغير على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودَسْت ميسان . وكانت أنباؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانياً ، وجهَّز لحربه جيشاً جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبى العباس .(الذى ولى الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقَّب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأى الصائب مثل أبيه . فخفَّ إليه فى ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزَّق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة[1]، ودخل مدينة واسط وردَّها على أهلها، وعسكر بجيشه فى جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمَّى بالسُّمَيْرِيَّات ، لكل منها أربعون مجدافاً والملاَّحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والترس، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنْزِل بهم هزيمة نكراء ، استولى فى أثنائها على أكثر سُمَيْرِيَّاتهم[2]، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدُّ جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه: سليمان بن جامع وعلى بن أبان، فأعدَّ جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالى فى البطيحة الذى سموه باسم « المدينة المنيعة » وأوقعا بقائد لهم يسمى الشعرانى وبجنده وقعة ماحقة . واتخذ

---

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها . (٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عمن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون[١]. واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذى سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تاماً عن كل من يستسلم راضياً ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قويمة إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق[٢]. ومضى إلى الأهواز والقرى التى بينها وبين فارس ، وفَرَّ عنها سريعاً قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركَيْن وراءهما عتاداً ضخماً من الميرة احتواه الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمّنهم وسلكهم فى جيشه ، واستأمن قائد اسمه « منتاب » وكثير من المقاتاين فى سميريات الزنج وسفنهم[٣]. وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة «المختارة» حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول ، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها «الموفقية» شيّد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدّد فى حصار المختارة ، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ،ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزّته الميرة والمؤن ، وفى ذلك يقول ابن الرومى للموفق من قصيدة طويلة[٤] :

حَصَرْتَ عميدَ الزَّنْج حتى تخاذلتْ قُواه وأَوْدَى زادُه المتزوَّدُ
فظلَّ ولم تقتله يلفظ نفسه وظلَّ ولم تأْسره وهْو مقيَّد
تُفرِّق عنه بالمكايد جُنْدَهُ وتزدادهم جندًا ، وجُنْدك مُحْصَدُ[٥]

وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يَشُنّ عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

---

(١) طبرى ٥٦٦/٩ وما بعدها .
(٢) طبرى ٥٧١/٩ وما بعدها .
(٣) طبرى ٥٧٥/٩ وما بعدها .
(٤) زهر الآداب للحصرى ١٩٤/٣ .
(٥) محصد : مجتمع محكم .

الموفق فى هذه الأثناء بجيش له فى غربى نهر أبى الخصيب فمزّقه شر ممزق، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفى مقدمتهم الشعرانى وشبل[١] بن سالم وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة «المختارة» ومضايق طرقها وحصونها كى يمحضوه النصيحة فى الوصول إلى صاحبها، ودلّوه راضين، فاستولى على قصره فى صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة، ووافاه البشير بقتله، فخرّ لله ساجداً على ما أولاه، وأمر بصلب قائديه سليمان بن جامع وعلى[٢] بن أبان المهلبى. وكان الموفق قد جُرح جرحاً بليغاً فى صدره فى أثناء المعارك الأخيرة، ولم يثنه ذلك عن الحرب حتى كُتب له فيها النصر المبين، ولذلك يقول ابن المعتز فى تهنئته بهذا النصر من قصيدة صوّر فيها بطولته[٣]:

شَقَّ الصفوف بسيفهِ وشَفَى حزازاتِ الإِحَنْ
دامى الجراحِ كأنها وَرْدٌ تفتّح فى غُصُنْ

وبذلك انتهت ثورة الزنج، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف، وأمر الموفق بالنداء فى أهل البصرة والأبُلَّة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله[٤].

٤

### ثورة القرامطة

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشيعة كانوا فرقاً، وظلت هذه الفرق نشطة فى العصر العباسى الثانى، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح دائماً فى وجوه العباسيين، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سرًّا ضد العباسيين، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت فى اثنى عشر إماماً، آخرهم محمد المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان قد توفى قبل أبيه، فقالوا إن

---

(١) طبرى ٩/٦٤٣.
(٢) طبرى ٩/٦٥٤ وما بعدها.
(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧.
(٤) طبرى ٩ / ٦٦٣.

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات في عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة(١) الإسماعيلية، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ فى سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ،ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك فى كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة. وبدأ بدعوته فى موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازى ، وأحسّ بمطاردة والى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى « سَلَمْيَة » بقرب اللاذقية فى الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّاً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا فى قوة إلى فكرة التأويل فى الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التى ترمز إليها من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرّون ، وأئمة بجانبهم مستودَعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودَعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك فى نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التى حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهى سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبه لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجُعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

---

(١) انظر فى الحركة الإسماعيلية والقرامطة كتاب عبد العزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازى إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى فى السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان ، كان أهل قريته يلقبونه — فيما زعم الطبرى — لقباً نبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم[١]، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى[٢]. وكأنما وجد الأهوازى فى هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له فى حماسة بالغة ، وأحسّ الأهوازى بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجَدّ فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القرامطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ فى تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدى إليه خمسَ ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هيّأ لظهور نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحلّ لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوّا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه[٣] . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكوفة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبرَ معاونيه فى حركته صهره عبدان ، ويُذْكَرُ له كتاب صوّر فيه طريق التابع ومراتبه السبع آنفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستتر وممثليه من الأئمة المستودَعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقتير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

---

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

جميعًا بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكى ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الحنيف وفروضه حتى ليقول البغدادى إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنَّصَب فى الصلاة والصيام والحج والجهاد [١] ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم »[٢]. ومضى حمدان يتخذ لهم أعلامًا بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : ( ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهروا فيها بدعوته وأحدثوا شغبًا كثيراً ، ونزل « كلواذى » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعاته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بَهْرام الجَنَّابىّ ، وجَنَّابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبى إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفًا على إدارة أموالهم . غير أن ولاة العباسيين تنبهوا لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء فى منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ فى تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهى المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفى السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء[٣]. وفى السنة التالية هددت جنوده البصرة[٤]. وأحسّ حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدّى لهم بدر غلام الطائى ، وأوقع بهم على غرة بنواحى روذميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة[٥]. ويعودون إلى الانتشار فى سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائى ويقع فى أسره قائدهم المعروف بابن أبى قوس[٦]، فيرسل به إلى المعتضد ،

---

( ١ ) الفرق بين الفرق للبغدادى ( طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .
( ٢ ) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .
( ٣ ) طبرى ١٠ / ٧١ .
( ٤ ) طبرى ١٠ / ٧٥ .
( ٥ ) طبرى ١٠ / ٨٢ .
( ٦ ) فى الطبرى : فوارس .

فيضرب عنقه ، ويصلبه على الجسر فى جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر ، مندداً بالدعوة القرمطية ، قائلا :

ابنُ أبى قَوْسٍ لهمْ نبيُّ إمامُ عَدْلٍ لهمُ مَرْضِيُّ
خَفَّفَ عنهم من صلاة الفَرْضِ وقال : ناب بعضها عن بعضِ
فاذهبْ إلى الجِسْر تجده فارسا على طِمِرٍّ (١) لأَسيرٍ جالسا
وتلك عقبى الغَىِّ والضلالِ والكُفْر بالرحمن ذى الجلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبى قوس نبى ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم فى الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التى اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً

ومنذ هذا التاريخ الذى قُتل فيه ابن أبى قوس يختفى من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجأ بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زَكْرويه(٢) . ويبدو أنهما أحسَّا بتغير فى المبادئ التى (٣) كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمْيَة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح توفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذى يدعون إليه وعن حُجَّته ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحى إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القدَّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعًا للناس وتمويهًا عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة فى الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا فى الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

---

(١) طمر : : فرس .

(٢) كان أحد دعاة قرمط المهمين . الطبرى ١٠ / ٩٤ .

(٣) الدورى ص ١٦٥ .

القداحين عملوا على اغتيالهما ، واتُّخذ زكْرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .

وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة فى سواد الكوفة والعراق إلى زكْرويه الدنّدانى ، وكان أعظم نشاطًا من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غَنَاء عندهم سعى فى استغواء البدو من أسد وطيْ وتميم وغيرهم ، وتابعته منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبى العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العُلَيْص ، إذ بايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقبـًا لهم بالشيخ وزاعمـًا انه أبو عبد الله على بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم لهم فيما زعم أن أباه — ودعاه أبا محمود — يدعو له ، وأنه يتبعه فى السواد بالعراق وفى المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضًا زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى لقاء عدوّ نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهّن لهم أو ادعى فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته[١] . ومضى فى سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً فى المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة الطولونية ، وكانت تعانى من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طُغْجـًا الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشـًا سرعان ما هُزم وقُتل قائده[٢] . وقصد ابن زكرويه الرقة فى جمع كثير يَقْتُلُ وينهب ، وواقع هناك جيشـًا للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها صمدت لحصاره ، وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثَّم ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمِّى بصاحب الشامة ، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل جعفر الصادق ولقّبه المدّثّر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر[٣] ! وأجابه كثير

---

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .
(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .
(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدّم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخُطب له على منابرها باسم المهدى المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سَلَمْيَة ، وبدأ بقتل مَنْ بها من بنى هاشم ثم قتَل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتاتيب ، ولم يُبْق بها عيناً تطرف[1] . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودَعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقّاً ، حتى يصفو الجو له ولإمامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبرى يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذابّ عن حُرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسند سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »[2] .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودَعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه . ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدى وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية ، ومضى فى فراره حتى شمالىّ إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفى أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة فى المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً ، ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادى ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأُسروا هناك جميعاً ، وصُلبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جىء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه[3] . ويذكر الطبرى أن أخاً لصاحب الشامة — لعله الأخ الثانى

---

(١) طبرى ١٠/١٠٠ .
(٢) طبرى ١٠/١٠٥ .
(٣) طبرى ١٠ / ١٠٨ .

المسمى محمداً ــ عاث ببعض الأعراب فى نواحى دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية[١] . وأرسل زَكْرويه فى السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفّ حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادى مثل بُصْرَى وأذرعات ، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقَتَل أبا غانم أحدُ أتباعه[٢] فقُضِى على تلك الثورة . وبذلك تنتهى حركة زكرويه فى بوادى الشام ، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا فى الوقت نفسه على الدولة الطولونية التى كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزَكْرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومَنْ كان به من أتباع زَكْرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة ، واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج فى أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبأ بغداد ، فندب له الخليفة المكتفى وصيف بن صوارتكين فى جيش جرار ، فلقيه فى الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة ، وخلص بعض الجند إلى زَكْرويه فضربه بالسيف وهو فارٌّ ضربة اتصلت برأسه ، فاستسلم ، وأخذه أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامرأته ، وحُمِل وهو جريح فتوفى فى الطريق إلى بغداد من أثر الضربة[٣] . وبذلك قُضِى على حركة زكرويه فى سواد الكوفة وبوادى الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت فى هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد فى منطقة الأحساء والبحرين على يد أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابى الذى مرَّ ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

---

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨ .

(٢) طبرى ١٠ / ١٢٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ١٢٤ وعريب ص ١١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٩ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود فى دولة أبى سعيد الروح الاشتراكية التى بثَّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفى أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتتل الطرفان قتالا شديداً[١] . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلبى فى سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده[٢] ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنَّابىّ ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم[٣] ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها[٤] . ودخلها لسنة ٣١١ فى ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف فى أهلها ، وقتلوا واليها سبكًا المفلحى ، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يومًا يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع[٥] . وفى السنة التالية رصد الحاجّ فى مقدمهم من مكة لشهر المحرَّم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النَّوْح والبكاء وخرج النساء منشَّرات الشعور مسوَّدات الوجوه يلطمن ويندبن[٦] . وفى سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء فى ألف فارس ، فلقيهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجحت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوبٍ وشيٍ وثلثمائة راوية زيت[٧] . وفى سنة ٣١٥ خرج فى ألف فارس وخمسة آلاف راجلٍ متجهًا إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهَّز لحربه يوسف بن أبى الساج فى عشرين ألفًا ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وأسر جريحًا ، وقتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراعه الخبر ، وندب مؤنسًا لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار فى أربعين ألفًا ، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته فى أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

---

(١) طبرى ١٠ / ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .
(٢) طبرى ١٠ / ١٤٨ والهمدانى ص ١٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ .
(٣) الهمدانى ص ١٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٧ .
(٥) الهمدانى ص٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٧ .
(٦) الهمدانى ص٤٣ والنجوم الزاهرة٣/ ٢١١ .
(٧) الهمدانى ص٤٨ والنجوم الزاهرة٣/ ٢١٣ .

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة فى جنوب العراق سالبًا ناهبًا سافكًا للدماء[١]. وفى السنة التالية دخل الرحبة جنوبى قَرْقِيسْياء شمالى العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسْياء يطلبون الأمان فأمّنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه[٢]. حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجَّ يوم التَّرْوية ، وهم يُهِلُّون ويلبُّون ، وقتل الحجاج قتلا ذريعًا فى فِجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرِح كثير منهم فى بئر زمزم ، وعَرَّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه فى عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التى زيَّن بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصْرَعون حوله فى المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لله وبالله أنا يَخْلق الخلقَ وأُفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقًا لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدى بإفريقيا[٣]. ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفًا من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شرَّه لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠ ، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُدَرى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العِبَر . وخلفه أخوه سعيد[٤] بن الحسن الجنَّابى ، وهو الذى ردَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونَبْذ عقيدتهم القرمطية .

---

(١) الهمدانى ص٥٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .

(٣) الهمدانى ص٦٢ عريب ص٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٤ .

(٤) الهمدانى ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

## ٥

### أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل فى أوائل خلافته وَقْفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلة الفقهاء السنيين وفى مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفضوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت — كما مرّ فى كتابنا العصر العباسى الأول — منذ عصر المأمون سنة ٢١٢، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُيِّد وأُرْسل إلى بغداد لمحاكمته وحبسه. وتظل المحنة قائمة فى عهد المعتصم، وإن خفّت حدّتها كثيراً، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق. حتى إذا ولى المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض فى ذلك ويهتموا بالحديث والسنة[١]. وبذلك هيأ لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان لذلك أثر بعيد فى الحياة العقلية والفنية، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر، وتألق نجم أهل السنة المحافظين، وأخذ الذوق المحافظ يسود فى كل شىء فى الشعر وفى الغناء، وحتى فى الدراسات الدينية، إذ ظهر مذهب داود الظاهرى الذى يرفض القياس.

وثار فى أذربيجان لسنة ٢٣٤، محمد بن البعيث وقُضى على ثورته.

وتدخل سنة ٢٣٦، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحْرَثَ ويبذر ويُسْقَى موضع قبره ويُمْنَعَ الناس من إتيانه، فحُرِث الموضع وزُرع ما حواليه حتى يزول أثره، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبى طالب وشيعتهم. ويقول المسعودى إنه حين انتهى الفَعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها[٢]. ويقول الطبرى: نُودى فى

(١) مروج الذهب ٤/٣ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٥. (٢) مروج الذهب ٤/ ٥١.

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون ، فامتنع الناس من المصير إليه[١] . وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، و بالمثل لم يتحرك الخوارج لا فى الموصل ولا فى خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين — ويسمونها الصائفة — قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون فى سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه[٢] . ويحاولون الإغارة على سُمَيْساط وبعض الثغور فى شمالى الشام والموصل ، ويُنْزِل بهم على بن يحيى الأرمنى فى سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة[٣] ، ويدور العام ، فينكل بهم فى غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغانمه ، ويغزوهم الفضل بن قارن فى عشرين مركباً ويفتتح حصن أنطالية[٤] . وما يزال غزو صقلية مستمراً فى عهد المتوكل منذ نزول العرب بها فى عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً[٥] . وفى ديوان البحترى غزوة بحرية دمَّر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون[٦] .

ويولِّى المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد فى العراق ونيابته فى بغداد ، وهى وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده فى بيته طويلا . وفى سنة ٢٤١ ثارت البجة فى شمالى السودان على والى مصر وامتنعت من دفع الخراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى فى سلسلة من المعارك توالت فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج[٧] . وفى سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين[٨] . ويقول المسعودى : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »[٩] .

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم لفازيلييف ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ص ١٨٧ .
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .
(٦) ديوان البحترى ( طبع دار المعارف ) ٩٨٠/٢ .
(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .
(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .
(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

وخلفه ابنه المنتصر فى شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجَّه جيشًا كثيفًا بقيادة وصيف لغزو الصائفة[١] . ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبى طالب ، وأمر بردّ أرض فَدَك فى الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعًا وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه[٢] . وخرج لعهده محمد بن عمرو الشارى بناحية الموصل ، وتجمع حوله كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشًا بقيادة سيما التركى ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامرَّاء ، فقُتلوا وصُلبوا جميعًا[٣] . وفى عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته فى سجستان وتحرك إلى هراة[٤] .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفى عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبى حفيد زيد بن على زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضى على ثورته ويُقْتَلُ ويُحْمَلُ رأسه إلى بغداد ويُصْلَبُ ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه[٥] ، وجيمية ابن الرومى فى رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ     عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ[٦]

وفى سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد ، وهو من حفدة زيد بن على زين العابدين ابن على بن أبى طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها[٧] ، ويظل ثابتًا لجيوش الدولة العباسية حتى يلبى نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد[٨] . ويخرج على المستعين علويون مختلفون

(١) طبرى ٩/٢٤٠ والعرب والروم ص٢١٧ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .
(٣) طبرى ٩/٢٥٥ ومروج الذهب ٤/٥٣ .
(٤) طبرى ٩/٢٥٥ .
(٥) طبرى ٩/٢٦٦ ومروج الذهب ٤/٦٣ والفخرى ص ٢٤٠ .
(٦) سجسج : معتدل لا حار ولا شديد البرد .
(٧) طبرى ٩/٢٧١ ومروج الذهب ٤/٦٨ .
(٨) طبرى ٩/٦٦٦ ومروج الذهب ٤/٦٨ : ١٧٧ .

بالرّى وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعًا[١]. ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه [٢]. وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين فى جبهة الروم إذ استشهد فى سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة فى الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة فى جمع من أهل مَلَطْية فلقيه إمبراطور بيزنطة فى جيش جرار بلغ خمسين ألفًا ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر فى الجموع القليلة التى كانت معه استبسالا رائعًا ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد فى ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا فى المعركة بلاءً عظيمًا . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالى العراق ، وجاءه نعىّ عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه فى أربعمائة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً[٣]

وبويع بالخلافة المعتز فى المحرم من سنة ٢٥٢ وفى عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبى دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء[٤]، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوى وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه[٥]. وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس [٦]. وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهتدى فى سنة ٢٥٥ ومكث فى الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحًا تقيًّا عادلا طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسماع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر فى المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس فى المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم

(١) مروج الذهب ٤/٦٩ .
(٢) طبرى ٩/٣٠٨ .
(٣) طبرى ٩/٢٦١ ومروج الذهب ٤/١٢٥ والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .
(٤) طبرى ٩/٣٧٣ .
(٥) طبرى ٩/٣٨٢ .
(٦) طبرى ٩/٣٨٢ وما بعدها .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام[١] ، فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفى عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد فى رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهى غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبى أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأمور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتدبيرها ، وأصبح المعتمد معه كالمحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردّت فى هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الخوارج فى الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتهم جميعاً[٢] . وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم فى الصوائف وفى مقدمتهم البطل يازمان الذى نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم فى البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب[٣] .

وولى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوّخوا القواد قائداً تلو قائد . وفى أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأديل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، وممن ظفر بهم هرون الشارى الذى خرج بالموصل[٤] وثار عليه بأصبهان والجبل فى سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبى دلف العجلى الشيبانى فوجه إليه عيسى النوشرى ففرّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور فى سنة ٢٨٤ ، وقُضى على ثورته . ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوى أخا الحسن الذى مر ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها[٥] لسنة ٢٨٧ . ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامرأته خاتون ونحواً من

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٩٧ ، ١٠٣ .
(٢) طبرى ٩ / ٥١٢ ، ٥٣٢ .
(٣) طبرى ١٠ / ١٣ وما بعدها .
(٤) طبرى ١٠ / ٤٣ .
(٥) طبرى ١٠ /٨١ ومروج الذهب ١٧٧/٤ .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة[١]، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة ، وغزاهم قائده راغب فى البحر لسنة ٢٨٥ ، واستولى منهم على مراكب كثيرة ، غير ما أغرقه ، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم[٢]. ويغادر أبو عبد الله الشيعى فى عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين الذى كان قد فرّ من الحسين بن زكرويه ، على نحو ما أسلفنا فى حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية[٣]. ويحدث لعهد المعتضد حادث مفجع إذ يوغر دميانة أحد قواده فى الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان فى نفسه منهم . ويشير عليه أن يحرق سفنهم التى كانوا يغزون فيها الروم . والعجب العجاب أن يُصيخ له المعتضد المعروف بكياسته ، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه ، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية ، يقول الطبرى : « وكانت خمسين مركباً قد أُنفقت عليها أموال جليلة فأضرّ ذلك بالمسلمين وكسر فى أعضادهم وقَوِىَ به الروم وأمنوا أن يُغْزَوْا فى البحر أو تُدَمَّر سفنهم وأساطيلهم فيه »[٤].

ويتولى الخلافة المكتفى سنة ٢٨٩ ، وكان يتوخى العدل والإنصاف فى حكمه ، فردّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية . وفى عهده تَمّ القضاء على زَكْرويه القرمطى ومن بقى من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطاكية على ساحل البحر المتوسط عنوة ، وقتل من أهلها خمسة آلاف ، وأسر مثلهم ، واستولى على ستين مركباً للروم حمّلها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة[٥]. ويذكر آدم ميتز أنه فى السنة نفسها ، وهى سنة ٢٩٣ ، استولى المسلمون على مدينة سالونيقى ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[٦]. وفى السنة التالية غزت جنود المكتفى سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلهما مقتلة كبيرة[٧]. وفى السنة نفسها ظهر السفيانى بالشام ، ودعا إلى نفسه ، وتبعه نفر ، فحُملوا جميعاً مقيَّدين إلى باب المكتفى[٨].

---

(١) طبرى ١٠ / ٣٤ .
(٢) طبرى ١٠ / ٦٨ .
(٣) انظر النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٤ .
(٤) طبرى ١٠ / ٨٠ .
(٥) طبرى ١٠ / ١١٧ .
(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة الدكتور أبى ريدة (الطبعة الأولى) ١ / ٥ .
(٧) طبرى ١٠ / ١٣٠ .
(٨) طبرى ١٠ / ١٣٥ .

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافى شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويُجْمِعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع . فيُقْتَل وتُرَدّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة فى أيدى الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليونًا من الدنانير بدّدها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجْبَى من أطراف الدولة الواسعة. وتحكمت أمه «شغب» ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار . كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألممنا به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سببًا فى كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطْروش العلوى وهو الحسن بن على الحسنى ، ولقّب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يُدْخل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبنى لهم المساجد ، وكان حصيفًا فاضلا أصلح الله الديلم به[1] . وأغار الروم على اللاذقية بحرًا وسبَوْا منها خلقًا كثيرًا ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيرًا من الحصون وحرق وسَبَى كثيرين[2] . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطْيَة وفتح حصونًا كثيرة[3] ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَطْيَة بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أيامًا[4] . وفى سنة ٣١٣ فُتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعًا بالشراب والغناء ، وكان سفاكًا للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفرًا فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

---

(١) طبرى ١٠/١٤٩ ومروج الذهب ٤/٢١٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢١٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥ .

صولته ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات[١] ، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخُلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهى عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصَّه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدوَّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء[٢] . وفى عهده قُتل ابن مُقْلة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً . وعَظُم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده[٣] . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شنّ سيف الدولة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد[٤] ، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر ، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جليساً غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدى ، وخلَع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه علىّ ولقّبه بسيف الدولة[١] . ولم تهدأ الأمور فى بغداد فقد تفاقم أمر العيّارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُطلت المساجد والأسواق وأغْلقت الحمامات . وكأنما كُتب على المتقى أن يعيش سنى خلافته بائساً تعيساً . حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنما كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم[٢] . وفى سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميّافارقين ونَصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرُّها منديلا من كنيستها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكوتب الخليفة المتقى فى ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا فى الرأى ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب ، فأُرسل المنديل إلى الروم وأطلقت الأسارى ، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله فى موكب كبير[٣] . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونُهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركى للمتقى أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة ، وتولت الجارية الشيرازية «حُسْن» سمل عينيه بيد غلام لها سندى . وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة[٤] ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفى سنة ٣٣٣ بعد أن تآمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهنأ بأيامه فى الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدر عليه عام فى خلافته حتى دخل بنو بويه بغداد وصارت

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٤ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٠

(٣) الهمدانى ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٨ ومتز ١/٥ .

(٤) الهمدانى ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٢ ومتز ١/١٦ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فنزل على مشيئتهم ، غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعضائه ، وكان المطيع أخو المتقي هو الذى خلفه فأمر بأن تُسْمل عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التى استولى فيها الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

# الفصل الثانى

## الحياة الاجتماعية

### ١

**طبقات المجتمع**

كان يتوزَّع مجتمعَ العصر العباسى الثانى ثلاثُ طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزرَّاع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجْبَى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقّى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومَنْ بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونًا من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفًا من الدنانير[١] . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونًا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونًا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفًا وثمانمائة وأربعين دينارًا[٢] .

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ١٠ وما بعدها .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى ص ٢١ .

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُنْفَقُ سنويًا ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولى المعتضد ( ٢٧٩ — ٢٨٩ ﻫ ) ادّخر من كل سنة من سني خلافته مليونَ دينار ، وبلغ ما ادخره تسعة ملايين (١) ، وخلفه ابنه المكتفى ( ٢٨٩ — ٢٩٥ ﻫ ) ، فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليونًا (٢) . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويًا ومما كانت تُغله الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدّد — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — ثمانين مليونًا من الدنانير . ويورد الصابى فى كتابيه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتًا (٣) بما كان يُنْفَقُ على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر ( ٢٩٥ — ٣٢٠ ﻫ ) ، وهى تصور عِظَم هذه النفقات . فقد كان يُنْفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريًا وكان يُنْفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريًا ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفًا ، غير ما يُنْفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُنْفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاّحين فى السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويًا . ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحُجْرية ( المقيمين فى الحُجَر ) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة (٤) . ويروى المؤرخون أن الراضى ( ٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ ) ، عمل على القَصْد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

---

( ١ ) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .

( ٢ ) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .

( ٣ ) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى فى الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لعهد المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .

( ٤ ) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم فى عهد المتوكل كانوا سبعمائة . انظر الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار (١) يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره ، وخاصة فى بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجْعَلُ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان فى الرواق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحتَاج إليه من الشراب (٢) . وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار ( دار الهناءة ) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم (٣) . وكان البرج من أجملها زينة إذ جُعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جُعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر ، وسُميت طُوبى ( من أشجار الجنة ) . واتُّخِذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرجٌ عليه صور السباع والنسور . وأُلْبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار (٤) . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل فى بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً (٥) ، وبنى المعتمد ( ٢٥٦ — ٢٧٩ ﻫ ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة (٦) ، وبنى المعتضد قصر الثُّرَيَّا ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياه ، وفيه يقول ابن المعتز (٧) :

وبُنْيان قَصْرٍ قد علتْ شُرفاتُه     كصفٍّ نساءٍ قد تربَّعْنَ فى الأُزْرِ

---

( ١ ) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .
( ٢ ) مروج الذهب ٤/٤ .
( ٣ ) الديارات للشابشتى ( الطبعة الثانية ) ص ١٥٩ .
( ٤ ) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤/٤٠ .
( ٥ ) انظر ياقوت فى التاج وديوان البحترى ( طبع دار المعارف ) ٣/١٤٨٣ .
( ٦ ) ديوان البحترى ٣/١٤٦٧ .
( ٧ ) ديوان ابن المعتز ( طبعة دار صادر ببيروت ) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان فى الثريا .

ولعل فى كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلـَّف المعتضد – كما قدمنا فى الفصل الماضى – أربعمائة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرَّ بنا آنفاً عدد من كان بها فى عصر المكتفى والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعـَدُّون بالآلاف ، فطبيعى أن يكون بها فلاحون وأكرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعمائة[1] . وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون فى هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرُّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجْرِى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار فى كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف[2] . ولكى نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفى أن نعرف أن المعتمد ( ٢٥٦ – ٢٧٩ ) استخلص – كما مر بنا فى الفصل الماضى – من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحْصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات فى خاصة نفسه دون ما وُجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته فى سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف[3] . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك – كما ذكرنا فى غير هذا الموضع – من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المخرَّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع[4] . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين[5] ، ويقال إنه

---

( ١ ) رسوم دار الخلافة ص ٨ .
( ٢ ) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .
( ٣ ) مروج الذهب ٤/١٢١ .
( ٤ ) مسكويه ٥/٤١٠ .
( ٥ ) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُين وزيراً زاد ثمن الشمع فى يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة ، وسُقى فى داره فى ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً [١] .

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والحواشى بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة ، وكان يَغْدو إليه الكتّاب ، فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه ، ثم يروحون إليه بما عملوا ، وفى أثناء ذلك تُعْرَض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات [٢] ، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌ فى مكانه ومعه دواته .

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدون بالعشرات [٣] وكان مجلسه يَغَصّ بغلمان مسلّحين ، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه ، ولكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه ، ويَرْوى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة فى داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال ، بل كانت أربعين ، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلا ، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبوارد وحلوى مما لذ وطاب [٤] . وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب . واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق ، وعمل كثير منهم فى الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب ، أما الوزارة فتولاها منهم فى هذا العصر أربعة ، كان فى مقدمتهم سليمان بن وهب الذى مرّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله ، ثم ابن عبيد الله القاسم ، ويقال إن المكتفى زوّج ابنه أبا أحمد من ابنته ، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة ، أما الصداق فكان مائة ألف دينار [٥] ، وأنفق على

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .
(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .
(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم الزاهراء ة ٢٠٨/٣ والهمدانى ص ٢٠ ، ٣٧.
(٥) النجوم ١٣١/٣ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار[١].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون فى هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقْطعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالا وفيرة ، ولعل خليفة لم يكثر من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى فى عهده كانت تغلّ سنوياً ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر[٢] ، ولما قدم بغداد فى عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه[٣] ، وهو ما لم تجر به عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدّمون على الوزراء . وكان لهم حجّابهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاة الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذى مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كوّن ثروته الواسعة . ويُرْوَى أن خمارويه صاحب مصر حين زوّج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسى حمل معها من الجهاز ما لم يُرَ مثله ولا سُمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهرى البغدادى القائمَ على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقى بينى وبينك من الحساب شىء ؟ فأجابه كَسْرٌ ( باق ) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار[٤] ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب[٥]. وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان إلى المكتفى سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون[٦]. وكأنما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاة ينفقونها فى بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبى وكان متوليا من حدود واسط فى العراق إلى جُنْديسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلّف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

( ١ ) عريب ص ٥٣ .
( ٢ ) النجوم ٢٠٣/٣ .
( ٣ ) الوزراء ص ٥٠ .
( ٤ ) النجوم ٦٢/٣ .
( ٥ ) مروج الذهب ١٤٨/٤ .
( ٦ ) النجوم ١٥٦/٣ .

ومن الخزّ ألف ثوب ، وخلّف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً ( مصنع ثياب ) تُنْسج فيها الثياب التى لملبوسه[١] وملبوس حرَمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسى يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب مهمة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس فى كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يُقطعون المقرَّبين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التى كانوا يترثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن على بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق فى كل سنة — على شُحِّه — أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[٢] وكان المعتضد يُجْرِى على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياًّ ، وكان يُجْرِى على أولاد الواثق والمهتدى والمستعين خمسمائة دينار فى الشهر[٣] .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة فى الدعة والنعيم ، وفى مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار فى الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة[٤] ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضى منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير[٥] ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شىء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً موسَّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضى بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودى أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تُسْتَريًّا وقصباً ( حريراً ) وأشباه ذلك من الثياب فى يوم واحد وخلّف أموالا عظيمة »[٦] .

---

( ١ ) النجوم الزاهرة ٣/١٨٣ .

( ٢ ) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

( ٣ ) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

( ٤ ) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص ٢٠ ، ٣١٤ .

( ٥ ) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٧ ، ٤٢١ .

( ٦ ) مروج الذهب ٤/١٧٤ .

وكان يدخل فى هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برءوس أموال ضخمة فى مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان فى مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجلبون الرقيق والجوارى من أطراف الأرض ، وتجار الطرَف النفيسة التى كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفى أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهرى البغدادى الذى أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيأ لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباها مئات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عُدّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليونًا من الدنانير ، ويقول المسعودى: « الذى صَحّ مما قُبض من ماله من العين ( الذهب ) والوَرِق ( الفضة ) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار »[١]. وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون ( تجار الأقمشة ) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين ( تجار الحرير ) والجوهريين والصيادلة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبيمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التى صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد فى عينيه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار[٢]. وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من علية القوم مثل على بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفى مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

---

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم ١٨٥/٣ . (٢) حكماء الإسلام للبيهقى ص ٢١ .

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفانـًا من الخبز أحيانـًا ، وكانت هذه الرغفان تختلف باختلاف أسر الصبيان فى الغنى والفقر ، ولذلك ضُربت الأمثال فى الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها فى الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدَّر له راتب شهرى معلوم .

ويدخل فى عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقـًا ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصـًّا بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا فى بذخ وترف شديد ، أما عامتهم فيُسْلَكون فى الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب فى الدواوين ينتظمون فى الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون فى الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة فى دواوين الخراج ودواوين الجيش وفى أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفى البريد ودواوين الأخبار وفى المكوس والضرائب الجمركية . ويُضَمّ إلى كتَّاب الدواوين وعمَّالها رؤساء الجند ممن يَلُون القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقـًا حسنـًا .

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل فى الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والنمارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم فى أسواقهم أو فى دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا فى المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجَرُ وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين فى تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصناع ، ونجد من كبارهم من كان يربح فى صفقة واحدة ألوف الدنانير[1] ، أما أوساطهم

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ( طبعة الحلبى ) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم فى تجاراتهم على ثلاثة آلاف دينار[١]، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة فى الأرباح. ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة فى بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد[٢]. وفى الفرج بعد الشدة للتنوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه، إذ يُرْوَى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار، فبنى لنفسه داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجوارى ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وأعطى تاجراً ألفى دينار ليتَّجر له فيها، وخزن عشرة آلاف للشدائد، واشترى بالباقى ضيعة تُغِلُّ له فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٣]. وقد لا يصوِّر ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة، وكان يُعَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون فى الطبقة الوسطى من الأمة.

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله فى الزراعة وفى الصناعات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور، فهى التى تعمل فى الإقطاعات والضياع، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أوخادمة تارة ثانية. فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدى هذه الطبقة العامة، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء. ومرَّت بنا فى الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرّون الدولة تدميراً، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة، وماكادت تخمد حتى هبَّت ثورة القرامطة، وعنفت بالدولة هى الأخرى عنفاً شديداً، وشاعت معها فكرة المهدى المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس فى الأرض، ولو أن دعوة القرامطة وُجهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التى

---

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٠١.

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩.

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/ ١٧.

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعى ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ووسائل شتى كانت تُبْتَزُّ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون فى الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم ، وإنْ سدَّه كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفَعَلة والفرَّاشون والبوَّابون وكل من يُؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلَّغون به إلا نادراً وحين يعملون فى الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومى . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التى كانت تُفْرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشتَرى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجأر بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة فى عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينتهم من غلاء فاحش آملين أن يمدَّ الخليفة لهم يد المساعدة[1]

وكانت هذه الطبقة تعمل فى كل المهن الحقيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحِرْفيين أو المهْنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جوَّدت الثقب وانظرْ أى نجَّار يدق فيها « الرُّزَّة[2] » وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب فى أن ذلك هو الذى أدَّى إلى أن تنشأ فى العالم العربى من قديم فكرة النقابات للحِرْفيين والصناع وإن كانت حينئذ

---

(١) مروج الذهب ١٤٩/٤ .

(٢) الحيوان ٢٧٦/٣ — ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرّادين وأصحاب الملاهى الصغيرة الطَّوّافين والحوّائين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضًا كثير من رَاضَةِ الخيل والسوّاس وأصحاب القنْص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْدِين ، وكانوا حينئذ خليطًا من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقًى أو رُقْية ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثُر بها اللصوص ، حتى غدوا فى أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم فى كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية[1] .

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصانون ويُحْرَسُون ويُحْرَسُ نساؤهم وأسَرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون : للنصارى مثلا الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم . تسامح لم يَعْرفه دين ولم تَعْرفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هى الجزية التى لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا بُرْءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين فى كل ملة فلا يؤدون شيئًا ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدّى ثلاثة دنانير لأصحاب

---

(١) انظر قصة خالد بن يزيد فى مطالع كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم وديناران لمتوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسبًا لا يضيرهم معه دفعه . وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثنى عشر درهمًا ، وهذا كل ما يدفعونه فى العام المتطاول ، وهو فى حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم . ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد فى أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتى ألف [1] ، مما يدل على أن دافعى الجزية فى تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفًا ، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفًا تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقلّ عن نحو ستين ألفًا . وكانوا جميعًا يشدُّون إلى أوساطهم زنانير أشبه بأحزمة .

وكان أهل بغداد وغير بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة ، فكانوا يوسعون لهم فى كل عمل معهم ، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم ، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود ، كما يقول الجاحظ فى رسالته الرد [2] على النصارى ، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم فى الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة ، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعِلْيَة القوم وأطباءُ البيمارستانات ، حتّى استقر فى أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيًّا . أما اليهود فكانوا يعملون فى أحقر المهن ، حتى ليقول الجاحظ فى الرسالة آنفة الذكر : « لا تجد اليهودى إلا صباغًا أودبّاغا أو قصّابًا ( جزاراً ) أو شعّابًا ( مصلح جرار وأحذية ) » ؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فِناء [3] . وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالجة ، وحتّى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ .

ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥ ، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

---

( ١ ) كتاب الخراج لقدامة ( طبع ليدن ) ص ٢٥١ وابن خرداذبة ص ١٢٠ .

( ٢ ) انظرها فى ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل .

( ٣ ) أدب الكاتب لابن قتيبة ( طبعة ليدن ) ص ٦٦ .

ويشدوا فى أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج بركب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومَنْ لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرّين ، وأمر أيضًا أن يجعلوا رُقْعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعتين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسليًّا ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسليًّا وأمر بهدم بيَعِهِم وكنائسهم المحدثة وألا يُستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة ، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين[١] .

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دُليل بن يعقوب النصرانى كاتب بُغا[٢] . وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم[٣] .

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى أمور المسلمين فأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم[٤] ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يوميًّا إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعًا[٥] .

وواضح من هذا كله مايدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحيانًا بالتشديد عليهم لم تكن تنفّذ ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون فى نعيم غَدَقٍ لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

---

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .
(٢) طبرى ٢٧٢/٩ .
(٣) طبرى ٩/١٠ .
(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .
(٥) كتاب الوزراء ص٢٤٥ وانظر ص٩٥ .

## ٢

### الحضارة والترف والملاهى

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور ، حتى ليشبه بعضها مدنًا صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ، مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر .

وقد افتُتِحَ العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حفله الذى أقامه بمناسبة إعذار ( ختان ) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطًا لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار ، وأن يكون فى طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطًا مذهبًا مبطنًا ، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار . وبُسط فى الإيوان ووُضع للمتوكل فى صدره سرير ، مُدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع ( كرسى ) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور . ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحْضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأجْلسوا على مراتبهم ، وجىء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صُبّتْ فيها حتى ارتفعت . ووزّع الغلمان الشراب ، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملتْ يداه من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان . وخُلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان فى صحن الدار بين يدى الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجه قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا فى جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبعثر بدون حساب ، وكأنما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء فى مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء فى مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين فى مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكى وعَثْعَث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزُنام الزامر ، وكثير من المغنيات فى مقدمتهن عَريب وبدعة جاريتها وشارية وجواريها . ويُقال إنه أنْفِقَ على هذا الإعذار أو الختان وثمانون مليوناً من الدراهم[1] . سفه ما بعده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تُنْفَقُ بدون حساب وبدون أى رقابة فى حفلات القصر ، وهى حفلات أمدّت القَصَص فى كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع فى الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلا من أن توجّه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش فى حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدّد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرّع غُصَص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شماء تُبْنَى ويُنْفق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هى تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنْثَر حمول الذهب والفضة . ويُرْوَى أن المتوكل شرب يوماً فى القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالا بالورود

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٠ وما بعدها .

أو كما نطقه بالفارسية : « شاذكلاه » ، فقالوا له : لا يكون الشاذكلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : ادعوا لى عبيد الله بن يحيى — وكان أحد وزرائه — فحضر ، فقال له : اضرب لى دراهم ، فى كل درهم حبتان من الفضة ، فسأله : كم المقدار يا أمير المؤمنين ، فأجابه خمسة ملايين درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ، فضُربت . وأنبأ المتوكل بضربها ، فقال له : اصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، واترك طائفة على حالها . فصنع عبيد الله ما أمره به ؛ ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه — وكانوا سبعمائة — فأمرهم أن يُعِدّ كل منهم قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا . ثم تحيّن يوماً فيه ريح ، فأمر أن تُنْصَبَ قُبَّة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها والندماء حوله ، وعلى الخدم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ، فنُثرت تباعاً ، وكانت الريح تحملها لخفتها ، فتتطاير فى الهواء كما يتطاير الورد [1] .

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس . وطبقات من ورائهم قُتِّر عليها فى الرزق ، فهى تعيش فى ضَنْك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجرى فى القصر من تحكّم الأتراك فى الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم فى شىء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كأن يسمعوا بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاهى ، فقدموا له بعض المساخر والملاعب المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم [2] . وبحقّ يقول المسعودى إن النفقات لم تبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغته فى أيام المتوكل [3] . وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب فى قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب [4] . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ، ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المقتدر لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فُرشت قصوره بأجمل الفرش ومُلئت دار الخلافة

---

(١) الديارات ص ١٦٠ .

(٢) طبرى ٩/٢١٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٣٩ .

(٤) مروج الذهب ٤/٩٤ .

ودهاليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشمَّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عَدَدُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبِزَّة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان فى دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبَّارات والزلالات والسُّمَيريَّات ( سفن شتى ) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلو إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبيقى المطرز ، ثم أدخلوا قصر الشجرة ، وهى شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أُدْخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوَّم ، وفى الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة(١) ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسى مرتفع فى عرش أرمنى من الحرير أو من الخزِّ وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم ( الحرير ) وعلى رأسه معممة سوداء ، ويتقلَّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خُفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُرْدَة النبى صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم الطَّبَرْزينات والدَّبابيس ( من أسلحة الحروب ) . وكان يقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالبة يذبّون عن الخليفة بالمذابّ المقمَّعة بالذهب والفضة ، وتُمَدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرْفهم مُدَّت . ورُتب فى الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قِسِيّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوِّت مصوِّت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور ! . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسى الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالسة

---

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة[١] . ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصًا ومبطَّنة وخفًّا .[٢] وكان السواد هو اللباس الرسمى العام ، وكانوا يلبسون فى أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير . وفى يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القَباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة ، وأمامه الحجاب ونُوّابهم ، ويجلس فى الدهليز من وراء الستر ، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش ، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة ، فإذا أذن الإذنَ العام دخل وحده حتى يقف فى الصحن ويقبل الأرض ، ثم يؤذن له بتقديم الناس ، فيخرج ويدعو ولىّ العهد إن وُجد ، وكذلك أولاد الخليفة ، إن كان له أولاد ، ثم يدخل الوزير ، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش ، فإذا قرب تأخروا عنه ، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف فى يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه ، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش ، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب ، ثم القوّاد ونوّاب الحاجب على مراتبهم ، ويقفون يمينًا وشمالا على رسومهم ، ثم ينادَى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين ، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفّين . وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون فى الحكم ولا يشاطرون فيه ، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام . وكان للوزراء بالمثل مواكبهم ، وكذلك كان للقواد ، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى فى موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل[٣] .

وكان يرافق هذه الأبهة أبَّهَةٌ فى المسكن والملبس والمطعم ، فكانت الستور الجميلة تعلّق دائمًا على حيطان المسكن ، وكانت تُفْرَش أرض غرفه وممرّاته وصحونه بالبسط والسجاجيد ، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنمارق ، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظًا شديداً ، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَّجِىّ أحد كبار موظفى الدولة ، وصادر أمواله ،

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠ .
(٢) كتاب الوزراء للصابى ص ٣٢٥ .
(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠ .

حملت فُرُشٌ وأمتعة من داره على خمسين بعيراً[١]، فما بالنا بما كان فى قصور الوزراء، فضلا عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصناع يتفنَّنون فى صنعها من الخزِّ والديباج والحرير. ويَرْوِى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يومًا فى أحَدِ قصوره على عرش من الذهب وعليه ثيابُ وَشْى مُثْقلة، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا فى ثياب وشْى مثله[٢]، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حمراء مورَّدة[٣]. ويقال إن المستعين هو الذى أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغَّر القلانس وكانت طويلة كأقباع القضاة[٤]. وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرفيعة التى كانت تُصْنع بمصر والثياب الحريرية التى كانت تصنع بمدينة تُسْتَر وغيرها من المدن الفارسية[٥]. ويُرْوَى أن إسحق بن إبراهيم المصعبى حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغنى العصر عشرة أثواب خَزّ أقلها قيمة بمائة دينار[٦]، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنَّق فى ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوَشْى قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٧]، ومرَّ بنا أن الراسبى والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الخز والوَشْى والثياب الحريرية[٨]. وكانوا يلبسون فى الشتاء الفراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب باسم الِمـمْطر كان يُصْنَعُ من القماش المشمع للوقاية من المطر، ونرى البحترى يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوبًا منه[٩]. ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والحريرية والأحذية الحمراء[١٠]. ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون فى اقتناء الحجارة الكريمة، إذ نرى نفراً منهم حين تصادرُ أمواله تصادَرُ بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير[١١]. وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

---

(١) طبرى ٩/ ١٦١ .

(٢) الديارات ص ١٦١ .

(٣) الديارات ص ٥٧ .

(٤) مروج الذهب ٤/ ٩٤ .

(٥) مروج الذهب ٤ ١٦٨ .

(٦) الديارات ص ٤٤ .

(٧) الديارات ص ١٢٣ .

(٨) البيان والتبين ٣ / ١١٥ .

(٩) ديوان البحترى ( طبع دار المعارف ) ٢ / ٨٩٢ .

(١٠) تاريخ بغداد ١١ / ١٦٦ والأغانى ٨٥/٦ .

(١١) طبرى ١٦١/٩ .

ويُذْكَرُ أنه كان عند المستعين فَصٌّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار[١]، ويُرْوَى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن ، فاختار منها مائة حبة ، ونظمها سُبْحَةً يسبح بها وعُرضت على تجار الجواهر فقوَّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد[٢].

وكان النساء حرائر وجوارى يبالغن فى أناقتهن وزينتهن ، فكن يَلْبَسْنَ ثياب السندس والإستبرق والوَشْى النفيس من كل لون وكن يتحلين بالجواهر من كل صنف : من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ ، وكنَّ يتخذن منها تيجانًا وعقوداً وأقراطًا وخلاخيل ، وكنَّ يَضَعْنَهَا بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن . ويُرْوَى أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط : سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتًا وسفط مملوء دُرًّا كبيراً ، وقُوِّمت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير . وكان النساء يتخذن أمشاطًا من الصدف والصندل[٣] . وكن يتفنن فى أوضاع شعورهن على رءوسهن وجباههن ، وقد يلوينها على أصداغهن فى هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز[٤] :

لَوَى صُدْغه كالنون من تحت طُرَّةٍ مُمَسَّكَةٍ تُزْهَى بعاجٍ جَبِينِ

ويقول أيضًا[٥] :

رِيمٌ يَتِيه بحسن صورتِهِ عَبَثَ الفُتورُ بلحظِ مُقْلتِهِ
وكأن عَقْرَبَ صُدْغِهِ وقفتْ لما دنتْ من نارِ وَجْنتِهِ

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز فى البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر . ويقال إن عَرِيب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سِنٍّ عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه فى كل غَسْلَة بستين مثقالا من المسك والعنبر[٦] . ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهيِّئ ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتغمرها

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٨٣ .
(٢) طبرى ٩/ ٣٩٥ .
(٣) نساء الخلفاء لابن الساعى ( طبع دار المعارف ) ص ١٠٦ .
(٤) ديوان ابن المعتز ( نشر دار صادر ببيروت ) ص ٤٤٠ .
(٥) الديوان ص ١٠٠ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى ) ١٨/ ٨٧ .

بالطيب العبق[١] . وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التى ألفت حينئذ فى فن الطبيخ للحارث بن بُسْخُنَّر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم ولجحظة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست[٢] ، وكان الخلفاء يأكلون فى آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدَّم على مائدته عشرة ألوان فى كل يوم سوى صنوف الحلواء[٣] ، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدَّر بثلاثين دينارًا[٤] ، ويقال إن ثمن المسك الذى كان يُنْفَق يوميًّا فى مطبخه عشرة دنانير[٥] فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون فى الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرَّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها فى كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى فى كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يوميًّا تسعون رأسًا من الغنم وثلاثون جديًا غير المئات من الدجاج ، وكان الخبَّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من أصفيائه الكتَّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدَّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء ، ثم يُجْعَلُ فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ، ومعه طستُ زجاج يُرْمَى فيه بالثُّفْل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقُدِّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشَّاة بدبيقى فوق مكبَّة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) أدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

---

(١) البخلاء (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية للمكتبة التجارية بمصر) ص ٤٥٤ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٩١ .

(٤) عريب ص ١٨٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المكبَّة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وابن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ وتُرْفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقيَّة ورطليَّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[1] وكأن العباسيين لم يتركوا للمدنية الحديثة شيئًا .

وكان فى بيوت الكبراء شرابى يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[2]، وكان بجانبه الشوّاء والطبّاخ والخبّاز والحبّاص وهو الذى يصنع الحلوى ، وفى كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السِّكباج ، وهو لحم يُطْبَخُ بخلّ ويضاف إليه شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمَضيرة وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهى لحم وماء وسميذ إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويُرَشُّ بماء الورد ، ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخُشْكنان وهو كعك يُحْشَى بالجوز والسكر . ثم الأشربة ومنها الجُلاَّب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام المشهيات ويسمونها النُّقْل ، وكانت تتألف — كما فى عصرنا — من أشياء حِرّيفة . وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منثوراً فى كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف عن زى الظرفاء فى الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائمًا نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١١ .

النوادر والفكاهات ومَنْ يعرفون كيف يرضونه فى ساعات صَفْوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلات السنية على نحو ما يُرْوَى عن على بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهى من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة فى عصر المهدى ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله فى مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل[١] . ونجد فى بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنبس الصيمرى الذى قلد أمامه البحترى فى إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفى مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »[٢] ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد فى كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره[٣] . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع فى مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون »[٤] . وكان للوزراء ندماؤهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين فى الدولة ، ويكفى أن نعرف مثلا أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم[٥] ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هى التى دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

---

(١) معجم الأدباء ( طبع القاهرة ) ٢/٢١٧ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٣٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٧/ ٣٨٠ .

(٤) مروج الذهب ٤/ ٢٤٤ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

التأليف فى المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات [١] .

وكانوا يُشْغَفُونَ — وفى مقدمتهم الخلفاء — بضروب كثيرة من الملاهى ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل [٢] ، وممن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى ، الذين كانوا يقلدون الناس فى حركاتهم وأصواتهم [٣] . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرّجون على نطاح الكباش والديكة [٤] وتواثب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمعه غناء شارية وزَمْرَ زُنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمى من نحاس يُرْسل فيها الماء فيُسْمع لها زمْر السرْناى ( آلة من آلات الطرب ) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان [٥] . ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تُفْتَحُ له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبى القاسم التوَّزِىّ الشطرنجىّ ، ومثل محمد بن يحيى الصولى ، ويقال إن المكتفى استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردى ، ولكن الصولى قهره وغلبه [٦] . ويحدثنا المسعودى بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يُلْعَبُ على رُقْعة أدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هيئاتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدوّرة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودى إنه استُحدثت فى زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سَمَّوْا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويراهنون فى لعبة الشطرنج ، وكذلك فى لعبة النَّرْد ( الطاولة ) وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

---

( ١ ) الفهرست ص ٤٤٩ .

( ٢ ) مروج الذهب ٤/٤ .

( ٣ ) الديارات ص ٣٩ .

( ٤ ) مروج الذهب ٤ /١٠٣ .

( ٥ ) الديارات ص ١١٠ ومعروف أنه كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان تسمى حير الحيوان . انظر الأغانى ( طبعة الساسى ) ١٠/١٣٠ .

( ٦ ) مروج الذهب ٤ /٢٣٢ .

بها أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصَّين يجرى بهما اللعب كما هو معروف فى عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوفاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً(١) .

ولعل ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الخيَّالة والفرسان ، وكانت فى دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة(٢) ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويُرْوَى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميدانًا فى داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً(٣) . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خِلْسَةً من تحت مِخْزَم الدابَّة تلقاء لبَّتها ، وعليه أن يحسن كفَّ الدابَّة فى شدة جريانها متوقياً من الصَّرْعة والصَّدْمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقَنَص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم فى أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء فى محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفكُّ من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسْد ، فيخيِّم عليها حتى لا يبقى منها باقية »(٤) وكان ابنه المكتفى مشغوفاً مثله بالصيد «وكان أكثر ما يُدْمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سَبُعا الضوارى والجوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه لشدة الشغف به

(١) كتاب الديارات ص ١١ .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/ ٣٨ .
(٤) المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

والارتياح إليه »[١]. ومنذ أبي نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاجم آلاته عرضًا مفصلا فى كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطَّرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة[٢].

وكانت العامة تجد تسليتها المحبَّبة عند قُصَّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر[٣]. وكان اللعب بخيال الظل معروفًا حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك[٤]. وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعًا ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير[٥]. ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخبارًا ونوادر ومضاحك ، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نَجْدِى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سِنْدى إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه[٦].

---

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٢) الحيوان ٧/ ٦٢ .

(٣) طبرى ١٠/٨، ٤٥ والنجوم الزاهرة ٣ /٨٠ .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٦٩ .

(٦) مروج الذهب ٤/ ١٦٣ .

## ٣

### الرقيق والجوارى والغناء

كان الرقيق منتشراً فى كل مكان ، فى القصور وفى الأكواخ وفى الصناعات وفى الزراعة ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، فمنه السندى ومنه الإفريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلبى ، ومنه الصينى والخراسانى والأرمنى والبربرى ، وكأنما كانت تجمتع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ فى الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجَلْبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركوهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق فى ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى ابْتُنِىَ لها فى كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمَّى قيِّم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامرَّاء فى القرن الثالث الهجرى كانت مربَّعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الحجر والغرف والحوانيت[١] .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأً وأخفها مثل الحنث فى اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدَّخره من العمل ، حتى إذا وفَّاه رُدَّتْ إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحرَّرين أن يصلوا إلى أعظم المناصب فى الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء مَنْ يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامَلُ معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة فى البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مرَّ بنا — ثورة عارمة . ولا ريب فى أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضًا من حيث أخذهم بالعنف والعَسْف والظلم ، فقد دعا القرآن

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبر بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا فى آية سورة النساء: ( وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب مَنْ كان مختالا فخوراً ) ، وفى الحديث النبوى : « شر الناس مَنْ أكل وحده ومنع رِفْدَه ( عطاءه ) وضرب عبده » ، وفيه أيضاً : « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفى مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعتقهم بعد موتهم ، ويُرْوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به فى المدن الخدمة ، ويقول المسعودى إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين [١] . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الخصيان ، ومع أن الإسلام حرَّم الخصاء تحريماً باتاً نجد الخصيان منتشرين فى العالم الإسلامى انتشاراً واسعاً . وكانوا يُخْصَون خارج حدود الدولة الإسلامية : فى بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجْلَبُون ويباعون فى أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردَّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . « وكان انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّيْن بالغُلاميات ملابسهم ، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زُبَيْدة أم الأمين حين رأته يستكثر من الخصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمَّمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرَر والأصداغ والأقفية ( صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهاً بالفتيان ) وألبستهنَّ الأقْبية والقراطق والمناطق ( ملابس الفتيان ) فماست قدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس» [٢] فقلَّده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

---

( ١ ) مروج الذهب ١٥٨/٤ .

( ٢ ) مروج الذهب ٢٢٦/٤ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى فى قصره جوارى يلبسن القراطق والأقبية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة[١].

وكثرة الخصيان هى التى هيَّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفى أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان فى قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصىّ[٢]. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصىّ الخادم والأستاذ[٣]. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق[٤]. ويروى المسعودى أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم فى الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صُبّ ماء واطرح دقيق يا غاق ( صوت الغراب ) يا طويل الساق»[٥]. وكان المضحكون الهزليون فى الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم[٦].

وكانت الإماء والجوارى فى الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يتملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائى يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرَّضة لهم فى دور النخَّاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها فى أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضطرّون لاتخاذ دلاَّلات يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكنّ يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبُّوا عليه إكباباً .

---

(١) مروج الذهب ٢٢٧/٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .
(٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، ١٨٠ .
(٤) طبرى ٥٣/١٠ .
(٥) مروج الذهب ١٧١/٤ .
(٦) مروج الذهب ١٦٣/٤ ، ١٦٤ .

وكان إمامهم فى ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية [١]، وهى رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان فى الهدية محبوبة [٢]. وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويُرْوَى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفى حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية [٣]. ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء فى العصر كُنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن فى شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم فى المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهده فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومى المسمى غريباً فى النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بنى هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن تقعد فى الرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرَّجون على الوافدات الجديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رءوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخَّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار [٤]، ويذكر أبو الفرج الأصبهانى عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوار لهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٠ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٣٢/١٩ ونساء الخلفاء لابن الساعى ص ٩٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/ ٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٤٢٦ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكَّى أبو عميرٍ قليلاً لأَتيناه من طريق العِيادهْ
فقضينـــا من العيادة حقًّا ونظرنا فى مُقْلتى عبـــادهْ

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر فى مقلتى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنَّ لى المرض لتعودنى[١] . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريهم ، مما كان يكلفهم أموالا كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس «أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يُقْصَدُ بها الخلفاء والعظماء فيُزار ولا يكلَّف الزيارة ، ويوصَل ولا يُحْمَل على الصلة ، ويُهْدَى إليه ولا تُقْضَى منه الهدية »[٢] . ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسَّت أنه وقع فى الشَّرَك أوهمته أنها تعلَّقت به وأنه شَجَوْها فى فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه ، ثم جمَّشته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزوَّدته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يَسْعَرْنَ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثًا عن جوارى نخَّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن[٣] :

أَوانِسُ ما فيهنَّ للضيف حِشْمَةٌ ولا رَبُّهن بالمهيبِ المُبَجَّـــلِ

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٤٣ .
(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .
(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ٥٢ .

يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حَياؤه ... ويَغْفل عنه وهْو غيرُ مغفَّلِ
ولا يدفع الأَيدى السفيهةَ غيرةً ... إذا نال حظًّا من لبوسٍ ومأْكلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جمَّةً ... ودُمْتَ مليًّا بالشراب المعسَّل

وكأن دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رُوَّاده . وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنَّ نظم الشعر مثل فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسي يُعْنَى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر فى الفن الموسيقى على نحو ما يتضح فى أوائل ترجمة إسحق الموصلى فى كتاب الأغانى وكذلك ما ساقه منها كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية فى هذا التأليف منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا التأليف فى القرن الثالث ، وخاصة فى بيئة المتفلسفة مثل الكندى وله فى الموسيقى كتب مختلفة[١] ، وكذلك لتلميذه[٢] أبى الطيب السرخسى والقسطا[٣] بن لوقا البعلبكى ، فلكل هؤلاء مؤلفات فى الموسيقى أحصاها ابن النديم فى فهرسته . وخلف من بعدهم الفارابى بأخرة من العصر فأربى على كل سالف وخالف من اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح فى مصنَّفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق ابن النديم كتب المتفلسفة فى الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفى الغناء والمغنين والمغنيات ، ولإسحق الموصلى فى ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه فى القرن الثالث على التأليف فى هذا الفن بَذْل[٤] ، وكان لها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد فى الأغانى مشهور[٥] ، وممن ذكرهم ابن النديم النَّصْبى وله كتاب فى الأغانى ألفه

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .
(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٨ .
(٥) الأغانى ( ساسى) ١٦ / ١٣١ .

على حروف المعجم للمتوكل[١].

ومنهم جحظة وله كتاب فى الطَّنْبوريين[٢]، ويذكر أبو الفرج أن لعمرو بن بانة كتابًا فى الأغانى يُعَدّ من الأصول المهمة فيها[٣]، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكى كتاب سماه المجرد فى الأغانى كان يحتوى على أربعة عشر ألف صوت[٤]، وكان لمحمد بن على بن أمية المعروف باسم أبى حشيشة كتاب فى أخبار الطنبوريين[٥]. وعمل فى هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرْسًا وغير فرس، بل إن منهم مَن اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر، فقد اخترع نايًا نُسب إليه، فقيل ناى زُنامىّ[٦]. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك فى وضع أصواته مثل المنتصر[٧] والمعتز[٨] والمعتمد[٩] وابن المعتز[١٠] وعبيد[١١] الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحانًا كثيرة فى صوت واحد، وكانت له كتب فى النغم وعلل الأغانى.

وكانت تتقابل فى الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلى، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفنى فى الغناء أصواتًا وأنغامًا وألحانًا ويمثلها إبراهيم بن المهدى، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان فى مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلا أولا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا ثانيًا وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلا ثانيًا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا أولا وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما فى تنازعهما فيهما، حتى كان يمضى لهما

---

(١) الفهرست ص ٢١٤.
(٢) الفهرست ص ٢١٤.
(٣) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩.
(٤) أغانى ١٦/ ٣١١.
(٥) الفهرست ص ٢١٤.
(٦) تاج العروس للزبيدى ٨/ ٣٣٠.
(٧) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٠٩ وانظر فى أصوات أخيه أبى عيسى الأغانى ١٠/٢٠١.
(٨) أغانى ٩/٢٠٥.
(٩) أغانى ٩/٣٢٣.
(١٠) أغانى ١٠/٢٧٧.
(١١) أغانى ٩/٤٠ وما بعدها.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما فى قسمة وتجزئة صوت واحد[١]» .
وقد توزّعا المغنين والمغنيات فى القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومَنْ رأى التجديد والتغيير فى الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدى . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فممن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين فى هذا العصر أحمد بن يحيى المكى ، وله ترجمة[٢] فى كتاب الأغانى وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . وممن كان ينهج منهج إسحق بُنان ، وكان أخصّ الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضًا عبد الله[٣] بن أبى العلاء ، وقد عُمِّر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوَّم دابّته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . وممن كان على نهج إسحق أيضًا القاسم بن زُرْزور وولده وجوارى آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومَنْ جرى مجراهم ممن تمسَّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه[٤] . وممن كان على مثاله أيضًا الزُّبير بن دَحْمان ، وكان متعصبًا لإسحق ، فى حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدى ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره ، يقول أبو الفرج : «فعلا الزبير بتقديم إسحق له» لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه[٥] ، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئًا خاصًّا بالغناء ، بل كان عامًّا فيه وفى الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعًا يستمسكون بالتقاليد الموروثة . وممن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدى ورغباته فى التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيسًا به ، ونال منه جوائز كثيرة «وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدى فى الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصبًا شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدى عليه»[٦] ، ويقول أبو الفرج إنه علَّم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه فى مذهبه محمد بن الحارث بن بسخنَّر ،

---

(١) أغانى ١٠/٩٦ وما بعدها .
(٢) أغانى ١٦/٣١١ .
(٣) أغانى ساسى ٢٠/١١٤ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٠/٧٠ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/١٤٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدى ومن بحره استقى» ، وكان يُغَنِّى على المعزفة فنقله ابن المهدى إلى العود وواظب عليه حتى حذقه[١] ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكبًا ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللائى برعن فى الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبين : حزبًا يتبع إسحق الموصلى وحزبًا يتبع إبراهيم بن المهدى كذلك كانت المغنيات ، وممن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواريها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ،وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها[٢] ذكر فى صدرها أنها كانت نهاية فى الجمال والظَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عامًا ونظمها فى جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته ، وظلت تغنّى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذى صنعته فأخذ منها دفاترها وصُحفها التى كانت سجَّلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريتها بدعة [٣]بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب فى شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفًا ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعًا وعقارات . أما اللائى كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدى فعلى رأسهن شارية[٤] جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذ اخرَّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضَنًّا بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتمد ، وكان يأبى أن يلحّن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتًا بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريها اللائى

(١) أغانى (ساسى) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغانى ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٢٥/١٩ وعريب ٣٨ والطبرى ١٥٠/١٠ والهمدانى ص ١٥ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٣/١٦ وما بعدها .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدى : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار

وممن كنّ يحسنّ الغناء فريدة[١] زوجة المتوكل وجاريته محبوبة[٢] وقلم[٣] الصالحية وشاجى[٤] جارية عبيدالله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور فى مقدمتها أبو حشيشة[٥] الطنبورى الذى عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان[٦] بن القصار الطنبورى ، وكان المعتز أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضُرب لخزانته ، وجحظة البرمكى وله ترجمة طويلة فى معجم الأدباء ، وعمر[٧] الميدانى ولم يكن فى الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة[٨] الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعاً هى العود والجنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور[٩] . وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفى مروج الذهب للمسعودى فصل[١٠] طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ، وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج ، بالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجوارى فى هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير فى شيوع الظّرف والرقة واللطف ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التى تملأ قلوبهم ليناً وبرّاً وعطفاً ووداً ، وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذى يصب فى القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

(١) أغانى ٤/ ١١٤ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/ ١٣٢ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٤٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ٨/٤٢ ونشوار المحاضرة ١/٦٣ والديارات ص ١١١ وما بعدها .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣/٥٧ والفهرست ص ٢١٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/١١٢ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢٠/٦٦ .
(٨) أغانى ١٩/١٣٤ .
(٩) التنوخى على المستطرف ٢/١٤٤ .
(١٠) مروج الذهب ٤/١٣٧ .

العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادى كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطونى نقى كثير الحجُب : حُجبِ الطُّهْر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعانى الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة فى الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلا خاصًّا فى كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل فى فنون الظرف التى أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهارُ الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة بابًا مهمًّا من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء فى الأزهار معانى السلوى فى الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر فى معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص فى البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعانى ، كما كان يحيِّى بها بعضهم بعضًا ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتًا أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز [1] :

وآثار وصلٍ فى هواكِ حفظتها … تحيَّات ريحانٍ وعضَّات تُفَّاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلانس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة [2] ، ويُرْوَى أن عريب كانت تلبس قميصًا موشحًا بالذهب ، كُتب فى وشاحه :

وإنى لأَهواه مسيئاً ومحسناً … وأَقضى على قلبى له بالذى يقضى
فحتَّى متى روحُ الرِّضا لا ينالنى … وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

---

(١) الديوان ص ١٣٩ . ( طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/ ٤٢٥
(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد وما بعدها .

وكن يتنافسن فى التهادى بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعملن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

٤

### المجون والشعوبية والزندقة

رأينا فى كتابنا العصر العباسى الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُمْعنون فى شرب الخمر واحتساء كئوسها ، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرَّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجىء ذلك بنص القران ، وما كان محرَّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبُرّ وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

أباح العراقىُّ النبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حَرامان : المُدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازىُّ : الشرابان واحدٌ ... فحلَّ لنا من بين قَوْليهما الخَمْرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومى يريد بالحجازى الشافعى وبالعراقى أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (اختيار وتصنيف كامل كيلانى) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورود والرياحين [١] وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب [٢] ، وكان يشرب فى قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب فى البساتين [٣] . وفرغ المعتمد — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودى : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى [٤] ، وديوان ابن المعتز ملىء بالخمر ودنانها وكئوسها وغَبوقها وصَبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر [٥] كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبَّها وحده [٦] ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفَّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء فى العصر المستكفى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولى الخلافة دعا به توًّا وعاد إلى شربه [٧]

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة فى عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحى مما نرى من العيدان المعلَّقة والشراب وقد جاوز التسعين » [٨] . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس فى المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

---

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر فى صبوح المنتصر أغانى (ساسى) ١٧/ ١٣٠ .
(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .
(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .
(٤) مروج الذهب ١٣١/٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ٢٤٥/٣ .
(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٢٠٤/٨ .
(٧) مروج الذهب ٢٦٧/٤ .
(٨) النجوم الزاهرة ٢٤١/٣ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والجوارى وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزينون رءوسهم أحيانًا بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبثين أيضًا فى سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الجوارى الظريفات الأديبات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبّون من كئوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجوارى والقيان .

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملّى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى (١) :

اشربْ على زهر الرياض يَشُوبه ... زَهْرُ الخدود وزهرةُ الصَّهْباء
من قهوةٍ تُنْسِى الهمومَ وتبعث الـ ... شَّوْقَ الذى قد ضَلَّ فى الأَحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذميًّا وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مختوم العنق »(٢) وتختلط فى النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الجوارى فكن من القيان الأجنبيات غالبًا ، وكانت تعجّ بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعرن بشىء من الكرامة أو يستشعرن شيئًا من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخلّان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

---

(١) الديوان ١ / ٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٩٢ .

كثير من الفجر والمجون ، وكل شيء من حولهن يُغْريهن على هذا السلوك الآثم ، وصوَّر ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يُسْمَع منه كلمة جِدّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتَرْوِى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت ( أغنية ) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعددُ ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة »(١) . وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيِّن هداياهم النفيسة ، وكن بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرَّجن ، ودائمًا يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة فى هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهيأ لها ذلك أنها كانت تقدّم لروّادها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتُؤَلَّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشتى وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متنزهات سامرّاء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته(٢) :

---

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ وما بعدها .

(٢) الديارات ص١٤٩ .

يالياليَّ بالمَطيرة والكَرْ خ ودير السُّوسيَّ بالله عودى
كنتِ عندى أُنموذجاتٍ من الجَنَّ ةِ لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصَّاص والحكَّائين وأصحاب المساخر الهزليين ، أما أعياد الإسلام فهى أعياد رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة[١]، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحترى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره[٢]:

لا تَخِلُ من عيشٍ يكرُّ سرورُه أبدًا ونَيْروزٍ عليك معادِ

وكانو يكثرون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء[٣]. وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحترى[٤]:

وكأَن الأَيام أُوثر بالحُسْ نِ عليها ذو المهرجان الكبيرِ

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه[٥]،وكان للفرس عيد يسمى عيد السَّذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان فى هذ العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر[٦] .

(١) انظر ديوان البحترى ١٠٧١/٢ ، ١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .
(٢) ديوان البحترى ٧٣٤/٢ .
(٣) الديارات ص ٥٧ .
(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .
(٥) ديوان ابن الرومى ( نشر كيلانى ) ص ٨٢ .
(٦) مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨ .

أمَّا أعياد النصارى فكان تقريبًا لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران[1] ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع فى يوم الأحد الذى يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى فى الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سمالو شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمى[2] :

وَلَرُبَّ يومٍ فى سمالو تَمَّ لى ... فيه السرور وغُيِّبَتْ أحزانُهُ
فتلاعبتْ بعقولنا نشواتُه ... وتوقَّدتْ بخدودنا نيرانُه
حتى حسبتُ لنا البِساطَ سفينَةً ... والدَّيْرَ ترقُصُ حولنا حيطانُه .

وكان يقام فى أكتوبر عيد للقديسة أشمونى فى قُطْرَبُّل ، وهى قرية فى شمالى بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضًا والسفن فى دجلة بحراً ، متنافسين فيما يُظْهِرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون فى شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون فى عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة[3] :

ديرٌ تدور به الأَقداحُ مترَعةً ... من كفِّ ساقٍ مريضِ الطَّرْفِ وَسْنانِ
والعــودُ يتبعه نایٌ يوافقه ... والشَّدْوُ يُحْكِمه غُصْنٌ من البَانِ

ولا شك فى أن كل ما قدمنا أعدَّ لانتشار المجون والخلاعة فى سامراء وبغداد ،

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٢ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ .
(٢) الديارات ص ١٤ .
(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

إذ كانت الخمر فى كل مكان ومعها القيان والجوارى المتبذلات ، فكان طبيعيًّا أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط فى إباحيته وفى التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما فى المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقى كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا فى آفة مزرية ، هى آفة الشغف بالغلمان المرد ، وهى آفة ورثوها عن العصر العباسى الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدران المادة ، وجعلوه غزلا أفلاطونيًّا نقيًّا ، وسنفصل القول فى ذلك فى أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهانى وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلانى . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشدّدون النكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، وبتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدى أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقى ، ولكنه لقى سريعًا المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه فى عام ٣٢٣ للهجرة دبَّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرَّموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان(١) .

وظلت مستعرة فى هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة فى العصر العباسى الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفى مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعًا بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدثوا صدْعًا لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجُّوا فى

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٩ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون — وعرب البوادى لعصرهم — من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا — ولا يزال كثيرون منهم — بدواً رُعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب فى إفاضة عن مثالب القبائل فى القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ،وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضاً .

وتصدّى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة وردّا عليها ردّاً عنيفاً ،أما الجاحظ فعقد فى كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلا سماه « كتاب العصا » صوّر فيه طعن الشعوبية على العرب فى خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكئون على القِسِىّ ، مما يصرف — فى رأى الشعوبيين — الخاطر ويشغل الذهن فى أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هى فى جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا — فيما زعموا — أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم فى صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً فى أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عُرفا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرّادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ فى عنف شديد ، ولكى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين» ردّاً مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة فى صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما فى هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فألف فى الرد عليهم مبحثاً سماه [1] « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو فى مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتّاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك فى باب فسيح من الدعوى

(١) انظر هذا الكتاب فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزْرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجَّحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم فى هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية فى الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة فى كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنُصَوِّر ذلك فى الفصول التالية .

ومن أهم الكتَّاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البَخْتكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله فى الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها [١] . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف فى الشعوبية وانتصر لها . وقد أشرنا فى كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل فى هؤلاء الشعوبيين مَنْ يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوّا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا فى الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد فى الأمة عرباً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضُلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء فى الذكر الحكيم : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هى نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمة فى الإسلام ميزة تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٨٥

الخطأ أن نَحْمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعوبية، إنما الشعوبيون هم الذين يُعْلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربى ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . وممن كان يذهب هذا المذهب فى الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلى الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة[١] :

أَنا ابنُ الأَكارم من نَسْل جَمّْ ... وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمْ
وطالبُ أَوتارهم جَهْـرةً ... فمن نام عن حقِّهم لم أَنَمْ
فقُلْ لبنى هاشمٍ أَجمعين ... هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدمْ
وعـودوا إلى أَرضكم بالحجاز ... لأَكل الضِّباب وَرَعْيِ الغَنَمْ
فإنى سأَعلو سريرَ الملوك ... بحدِّ الحُسام وحَرْف القَلَمْ

وواضح أن قلب المتوكلى يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتّى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسىّ القديم وأنه قد وُكل إليه أخذ الثأر أو الأثآر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بنى هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلى فى الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسى أن بنى هاشم من قريش سكان مكة فى القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعوبية العمياء الرَّعْناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزندقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام ، ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك

(١) ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ١/٦٥ .

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وهى السلف والقدوة »[١] . ومَرَّ بنا فى العصر العباسى الأول أن الزندقة إنما كان يُوصَمُ بها أولا من يتابعون مانى فى عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكار هم الذين كانوا يحاكمون زمن المهدى وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقى والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقًا وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضًا فى العصر العباسى الأول كيف أن المتكلمين — وفى مقدمتهم المعتزلة — تجردوا لجدالهم ونَقْض أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفْحمونهم فيها إفحامًا شديداً ، على نحو ما صوَّر ذلك الجاحظ عن النظَّام فى كتابه الحيوان ، وألَّفوا أيضًا الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة فى هذا العصر التالى ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك فى النبوات عامة ، وكان من أشدهم نَفَرٌ بدءوا حياتهم فى صفوف المعتزلة ، وما زالوا يُبْطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفى طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة[٢] وكان فى أول أمره معتزليًّا ، وأحسَّ المعتزلة فيه إلحاده فطردوه عنهم ، فتحول شيعيًّا رافضيًّا ، وينعته الخياط بأنه كان مانويًّا يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم[٣] ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له فى ذلك بعض الرسائل[٤] . وقد أثر تأثيراً واسعًا فى تلميذه أبى الحسين أحمد بن إسحق الرَّاوَنْدى[٥] المولود فيما بين سنتى ٢٠٥ و ٢١٥

---

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٣ .

(٣) كتاب الانتصار ( طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ١٥٢ .

(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف فى الإسلام لماسينيون ( طبع باريس ١٩٢٩ ) ص ٨٢ .

(٥) انظر فى ابن الراوندى وأستاذه أبى عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام لعبد الرحمن بدوى ( نشر مكتبة النهضة المصرية ) وانظر فى ترجمة ابن الراوندى ووفاته مروج الذهب ٤/٢٣ وابن خلكان ومعاهد التنصيص ( طبعة بولاق ) ١/٧٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٤٤ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ٣/١٧٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٣٥ ومقدمة نيبرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبى الفدا فى عام ٢٩٣ .

وكان يعتنق فى أول الأمر الاعتزال وصنَّفَ عدداً من الكتب فى مناصرته ونَشْره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبى عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى، بل لقد تمادى فى ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف فى ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفْريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرْمَى به فى غياهب السجون فاختبأ فى منزل أبى عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ، وله صنَّف بعض كفرياته ، وما زال مختبئاً بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى فى نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يُكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى الملحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى فى العصور التالية من أيدى الزمن ، فلم يصلنا منها شىء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات فى كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات[١] من كتابه «الزمردة فى دفع النبوات» وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضليلا حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسل ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغْنِى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية . ويردد نفى المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله فى غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضى فى لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل فى كتابه المنتظم شذرات[٢] أخرى من مصنفه الزمردة ،

---

(١) انظر فى هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ٧٥-١٨٨ .

(٢) راجعها فى كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من ( إنا أعطيناك الكوثر ) و ( قل أعوذ برب الفلق ) وإن الأنبياء وقعوا ( اهتدوا إلى ) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية ( كان مع على بن أبى طالب فى صفين وقتله جيش معاوية ) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : «كان ابن الراوندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يترامیان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن[1]» . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدامغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يُؤْويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى ، ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتاناً وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوّبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلّف الورّاقين لسنة ٢٧٩ ألاّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[2]، فقد كان من المتفلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد [3] والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كفرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط ، وقد نشر له المستشرق نيبرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عُنى بالرد عليه معاصره أبو على[4] محمد بن عبد الوهاب

---

( ١ ) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١٣ .

( ٢ ) طبرى ١٠/٢٨ وابن تغرى بردى ٣/٨٠.

( ٣ ) الفهرست ص ٤٨٧ .

( ٤ ) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة كتب له فى مقدمتها الزمردة والدامغ . انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢ ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل وإسهاب .

الجُبَّائى . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندى إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد[1] بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيمائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالا بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندى وأشباهه ينكر النبوات وألف فى ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازى أورد فى كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردّ عليها ونقضها نَقضاً ، وقد حلّلها الدكتور بدوى تحليلا[2] جيداً ، وأظهر أنه يتابع فى حججه وأدلته ابن الراوندى ، فالعقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نفراً ( يريد الأنبياء ) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون فى الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلا بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التى استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل فى هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة فى العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

## الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون فى العصر العباسى الثانى أنه كان عصراً مُلحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

---

( ١ ) انظر فى ترجمته الفهرست ص ٥١٨ وابن أبى أصيبعة والقفطى ص ٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

( ٢ ) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٩٨ .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع فى طبقات خاصة ، أما المجون فكان يشيع فى الطبقة المترفة ، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد فى الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت فى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها فى ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعبّاد والنسّاك وكانوا أكثر كثرة من المجّان وأهل الفساد . وكان فى كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم . واختلط الوعظ بقصص دينى كثير على نحو ما صوّرنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول ، وكثر حينئذ النساك والزهاد فى متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة ، واقرأ فى تراجم الفقهاء والمحدّثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يُعَدّون فى العالم الإسلامى بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجرّدوا للجهاد فى سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذى لا يزول . ويكفى أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم[1] بن إسحق الحربى ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته فى الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع فى الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة فى الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

---

(١) راجع فى ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ ومعجم الأدباء ١١٢/١ والأنساب للسمعانى ١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب ١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال : كان يقاس بابن حنبل فى علمه وزهده .

فى إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُرْوَى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردَّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها فى جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوَّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمساً وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفاً واحداً فى اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعاً ظامئاً إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة فى الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع فى هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى صاحب اليد الطولى فى مبدأ التوكل وإشاعته[1] بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة[2] ، ويعرض القشيرى فى رسالته أقوالا مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرَّفَه والتنعم ، أو هى من الصَّفَاء أو هى من الصُّفَّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يُدْلى القشيرى برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة[3] . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد فى القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعْنَى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت فى نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٢ .

(٢) فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة أبى العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥ .

(٣) ما للهند من مقولة للبيرونى ( الطبعة الأوروبية ) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحى وعنصر بوذى هندى ، ويتضح العنصر الثانى — عنده — فى فكرة وحدة الوجود التى تمثلها ، كما يقول ، الحلاج فى أواخر القرن الثالث[١] الهجرى . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لا هو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث. وممن شدد على التأثير الأجنبى جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية[٢] الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبى ماسينيون فى بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر فى الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التى كانت منتشرة فى الشرق منذ ميلاد المسيح[٣] . وبالمثل خفَّف من حدة القول بالتأثير الأجنبى نيكلسون ، وإن لاحظه مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره فى رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة فى عصره ، وأيضًا كما هو الشأن عند أبى يزيد البسطامى وتأثره فى رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى فى بحوثه يُعْلى من شأن التأثير الإسلامى فى نشأة التصوف ، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبى يزيد البسطامى والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التى وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هى وليدة الزهد والتصوف اللذين نشآ فى الإسلام وكانا إسلاميين فى الصميم[٤] .

وإذن فالتصوف إسلامى فى جوهره وفى نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف فى دقة فى أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته فى نفوس العصور التالية ،

---

(١) انظر نيكلسون فى مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفى .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص١٣٦ وما بعدها.

(٣) راجع مقدمة عفيفى لكتاب نيكلسون السالف .

(٤) انظر مقدمة عفيفى وكتاب فى التصوف الإسلامى فى مواضع مختلفة .

وأولهم الحارث[١] بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهى تدل بوضوح على أنه جدّ فى ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة ، وكان يعتنق مذهب الشافعى ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يُروَى أنه لما مات أبوه وكان هو فى عوز وإملاق فى حين خلّف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهماً ، لأن أباه كان رافضياً ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا فى قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه فى ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التى لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات[٢] ، ورفض أن يفضى التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعى فى الأرض سعياً ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون[٣] المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقى لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغرى بردى — أول من تكلم فى مصر فى الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم فى التصوف بل أستاذ المشارقة أيضاً ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما مشتركاً بين عامة المسلمين ، وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء ، وقسماً خاصاً بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فصل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

---

(١) نشأ فى البصرة ثم انتقل فى شبابه إلى بغداد ، انظر فى ترجمته تاريخ بغداد ٨/٢١١ والأنساب للسمعانى ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ٢/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمى (طبع باريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا فى الرسالة القشيرية .

(٣) راجع فى ترجمة ذى النون وآرائه الفهرست ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمى ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٧١ ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٤٩ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ والطبقات الكبرى للشعرانى ١/٥٩ وأخبار الحكماء للقفطى ١٨٥ وشذرات الذهب ٢/١٠٧ ورسالة القشيرى فى ص ٩ وفى مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربَّه ؟ فقال : « عرفتُ ربِّى بربى ولولا ربِّى لما عرفت ربِّى » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن ، وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدَّعياً » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق» وكان يقول إن العارف ( الصوفى ) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّرِىّ[1] السَّقَطى المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

---

(١) راجع فى ترجمة السقطى طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧١/٥ وطبقات الشعرانى ٦٣/١ .

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله»[١] ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لم يَبِتْ والحبُّ حَشْوُ فؤادِهِ لم يَدْرِ كيف تفتُّت الأَكْبادِ

ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعةَ نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور[٢] بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحيت رسومه وفنيت هُوِيَّته بهُوِيَّة غيره ، وغُيِّبتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فىَّ : يا مَنْ أنت أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله » . وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » وقوله : « خرجتُ من بايزيديَّتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » . ويمكن أن يُرَدَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضًا قصة معراجه إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ رُوى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجُبَّة إلا الله » و : « ما النار ؟! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٦/٧٨ ونيكلسون ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمى ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيرى فى مواضع مختلفة وطبقات الشعرانى ١/ ٦٥ وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٣٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٥ ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

اجعلني لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلدته بسطام — فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر — أنه زعم أن له معراجًا إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام » . ولعل فى ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية فى تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدّت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، تلك الفكرة التى أخذت مكانًا مهمًّا فى التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل فى التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، وفى الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »[١]، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها [٢].

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفًا ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس[٣]، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع فى الكلام عن الفناء[٤]. ويظهر حينئذ حمدون[٥] القصّار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دعا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

( ١ ) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر شذرات الذهب ١٤٣/٢ .

( ٢ ) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبى : ما أحلى قوله : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهى وحفظ حدود الشريعة .

( ٣ ) النجوم الزاهرة ٤٦/٣ .

( ٤ ) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

( ٥ ) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى .

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ، إذ يُبْدون فى مظهر المذنبين دائما ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما فى هذا العصر فنجد المتصوفة دائمًا يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »[١] وفى رسالة القشيرى أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفى ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد[٢] المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنْعت بالقواريرى الخزّاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هويبيع الخزّ ، وأصله من نهاوَنْد بالقرب من همذان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السرىّ السقطى وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السَّرِىُّ بدوره عن معروف الكرخى . وكان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة ، وفى طبقات الصوفية للسُّلمى أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » ، ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقْتَدى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسى الثانى نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، فللإمام الصوفى طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها فى موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامى . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصَبَغها بصبغة جماهيرية شعبية ، وإن كان قد رشّح لأن يكون الارتباط فى الطريقة بالإمام الصوفى نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

---

(١) السلمى ص ٢٠٣ .

(٢) انظر فى ترجمة الجنيد تاريخ بغداد ٢٤١/٧ والرسالة القشيرية فى مواضع مختلفة وابن خلكان والسلمى ص ١٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٦٠/٢ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٣ وشذرات الذهب ٢٢٨/٢ .

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأتمرون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوبًا مليئًا بالمبالغات فى الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء ، وأخذ عنه تلاميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له فى أقواله وأشعاره ، وهو اسلوب كثرت فيه الشطحات، ولاحظ ذلك القدماء على الجنيد إذ نرى السراج فى كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحاته ويفسرها تفسيرًا بينًا. وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث فى غير هذا الموضع.

ومن أهم الصوفيين المتأخرين فى العصر الحكيم[1] الترمذى محمد بن على بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق فى دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتبًا كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية فى البيئات الصوفية وكل ما جرَّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته فى خلقه ، وقد ألف فيها كتابًا سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتمًا كما أن للأنبياء خاتمًا وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام: « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر فى الكتاب المذكور أن عيسى يعود فى آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلدته « ترمذ » ففرَّ إلى نيسابور وبها توفِّى . وقال السبكى : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعد فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعتدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة فى بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم فى أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبى الحسين النورى

(١) انظر فى ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٤٥ وطبقات الشعرانى ١ / ١٠٦ ورسالة القشيرى فى مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٢١٨ .

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم فى الحب آملين فى الشهود مستعطفين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقًا ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ والشبْلى دُلَف بن جحدر المتوفَّى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسى الثانى لم يكد ينتهى حتّى تأصلت فى التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسنرى فى موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التى يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق فى حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

# الفصل الثالث

## الحياة العقلية

### ١

**الحركة العلمية**

دعا الإسلام أمته فى قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراقَ وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التى كانت منبثة فى هذه البلدان ، وأسعفهم فى ذلك أنهم عرّبوا شعوبها وأخذتْ بنفسها تعرّب لهم كل مدّخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرّد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التى كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينقضى القرن الثانى الهجرى حتى تكون قد دخلت العربية سيولٌ ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحوّلوا سريعًا إلى أمة علمية تُعْنَى بكل جوانب العلم الذى كان معروفًا عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادّة خصبة ، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطًا واسعًا فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد،وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويَنْشُدون بعض الأشعار والأمثال، ويدرسون شيئًا من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعُنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله فى كتاب العصر العباسى الأول نقلا عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصُّهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، وفيها يصوّر نوادرهم وحماقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكُتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفعْ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّم الصِّبيان صَبَّوْا عَقْلَـهُ     حتى بنى الخلفاءِ والخلفاءِ[1]

وصَبَّوا عقله : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقًا وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيهم من آبائهم[2] ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفُّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كُتّاب ، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياته[3] البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة[4] . ويخيَّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعًا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة) ١١٢/١٨ .

(٢) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ٣٩/٤ .

(٣) معجم الأدباء ٦٥/٣ ، ٨١ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٣/١٤ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحيانًا أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالا ومعاشًا من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا وقسَّامًا فَرْضيًّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهمًا ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »[١] وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة ، فمثلا يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ،معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتبًا شهريًّا خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفًا ، واتخذه المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء[٢] . ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يوميًّا خبزاً فاخراً ولحمًا كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريًّا . وقالوا إنه حين مات خلَّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار[٣] ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أولم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكُتَّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكُتَّاب يحلُّ محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضًا دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

(١) البيان والتبين ١/٤٠٣ .
(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٧٣ .
(٣) إنباه الرواة للقفطى ( طبعة دار الكتب المصرية ) ١/١٤٧ وما بعدها ومعجم الأدباء ٥/١٢٥ .

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُسْتَمْلٍ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذى اختاره منذ نهض بالتدريس ، ويُرْوَى أن نَفْطَوَيْه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه فى اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها[١] . وكانت أكثر الحلقات طلابًا حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجرى بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحِسْبة والشرطة والقضاء والولاية أحيانًا. وكان الطلاب يمسكون فى أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرهم ، وكانوا يُعَدُّون بالمئات فى بعض الحلقات ، ويُرْوَى أن الطبرى حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤْبَهُ له رموه بمحابرهم وكانت ألوفًا[٢] .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوى أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى . ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففى أخبار الزجاج أنه رغب فى تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شىء صناعتك ؟ فأجابه : أخرط الزجاج وكَسْبى فى كل يوم درهم ونصف ، وأريد أن تهتم بتعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهمًا ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعُنى بتخريجه ، وطلبت منه أسرة معلمًا شابًّا يعلم أولادهم النحو فسمَّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد فى كل شهر ثلاثين درهمًا ويزيده بما يقدر عليه[٣] . ويبدو أن المبرد كان شحيحًا بعلمه ، إذ فى تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له فى العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتبًا

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .
(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

شهريًّا ، ويتوفّى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهمًا كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعًا كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدّثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسْلَكُ فى جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كالزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتبًا فى الفقهاء وراتبًا فى العلماء وراتبًا فى الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهريًّا[١]. وكان الموفق يُجْرى على ثعلب راتبًا سنيًّا[٢]. وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً فى كل شهر[٣]. وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنويًّا عشرين ألف درهم[٤]. وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة، حتّى لَيُثْرى بعضهم من راتبه ثراء طائلا، على نحو مامرّ بنا فى الفصل الماضى عن إبراهيم بن جابر القاضى بحلب.

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزراؤهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم فى ذلك حكام الولايات ، وفى مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البُوشَنْجىّ شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحوّل عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتبًا مجزيًا[٥]، وقد بعثوا فى إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويُرْوَى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد السامانى كان يصل محمد بن نصر المروزى إمام المحدثين فى دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند[٦].

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباه الرواة ١ / ١٦١.
(٢) معجم الأدباء ٥ / ١٤١ وإنباه الرواة ١ / ١٤٢ .
(٣) انظر ترجمته فى ابن خلكان .
(٤) كتاب الوزراء للصابى ص ٢٠١ .
(٥) طبقات الشافعية للسبكى ٢ / ١٩٢ .
(٦) السبكى ٢ / ٢٤٨ .

ولم يكن حكام الولايات يُنْفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك أن الرحلة فى طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزى آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الرُّويانى المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدقّ عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقيل له هو هذا فأخرج صُرَّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الرويانى ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفدت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم[١] . على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدُّون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحثًّا على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرعة قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى فى الفقه الشافعى مائة دينار[٢] . وكان ابن ماسى يُنْفذ إلى أبى عمر اللغوى المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته[٣] ، وسنرى فى حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نَفَراً من الفقهاء والمحدِّثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بنا فى الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربى ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، وممن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسَّراة ، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بنَ عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

(١) السبكى ٢ / ٢٥١ .

(٢) السبكى ٣ / ١٩٧ .

(٣) السبكى ٣ / ١٩٠ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطاه أيضًا خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : « الزرع والنخيل » إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته فى فضائل الترك فأجرى عليه راتبًا شهريًّا من خزانة الدولة[١] . وأمثال الجاحظ كثيرون فى كل فن وفى كل علم كانوا ينالون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم فى المحاضرات للطلاب وفى تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل فى نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفى شرفه وفضله يقول الجاحظ [٢] :

يطيب العيشُ إذ تَلْقَى لَبيبـاً ... غَذَاه العلمُ والرَّأْىُ المصيبُ
فيكشف عنك حيرةَ كل جَهْلٍ ... وفَضْلُ العلم يعرفه الأَريبُ
سقام الحِرْصِ ليس له دواءٌ ... وداءُ الجهل ليس له طبيبُ

وكانت الطريقة الشائعة فى المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدّثين واللغويين هى الإملاء ، ويعرض السيوطى لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : « أملى ثعلب مجالس عديدة فى مجلد ضخم ، وأملى ابن دُرَيْد مجالس كثيرة ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنبارى وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقهم فى الإملاء كطريقة المحدّثين سواء ، يكتب المستملى أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُمْلِى بأسناده كلامًا عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسّره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى له أمال كثيرة فى مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩[٣] » . وبلغ من عناية العلماء المملين حينئذ أن كانوا — وخاصة أهل الحديث — يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمَّى ذلك

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩ ، ٩٩ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٩٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ١ / ٥٨ .

(٣) المزهر (طبعة الحلبى) ٢ / ٣١٣ .

عند المحدِّثين باسم الإجازة ، وهى شهادة قيمة على صحة الرواية[١]. وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحيانـًا يملى عملا له فى بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويمليه مضيفـًا إليه أو مهذبـًا ، وكانوا ينصُّون على ذلك ، مثل معجم الجمهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن النديم أصح النسخ نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[٢]. وتلك هى أعلى مرتبة فى تحقيقنا العلمي الحديث للكتب، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلا صحيحـًا غاية الصحة ، وقد اهتدوا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمى سديد . وكان كثير من العلماء حين يُملى كتابـًا ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرُّ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبى عمرو المطرز ، فإنه أملى فى سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت فى اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأملاه على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣١ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة[٣].

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى الكلام وفى الفقه وفى اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف فى المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قَرْع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحيانـًا ،وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت فى أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق فى مجلس المنتصر[٤] وأنواع اللهو والملاهى فى مجلس المعتمد[٥].

---

(١) انظر فى أقدم هذه الإجازات كتابنا البحث الأدبى ص ١٥٧

(٢) الفهرست ص ٩٧

(٣) الفهرست ص ١١٩

(٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥

(٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

وكان استخدام الورق فى الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملا مهماً فى ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى وكانوا يكتبون فى ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد فى عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الورّاقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيِّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيوخ والعلماء فى المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذى يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً . فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحَرَى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[1] . ولرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد ورّاقين يقيِّدون إملاءاتهم ويذيعونها فى الناس ، ويذكر ابن النديم ورّاقَى المبرد إسماعيل بن أحمد الزجاجى وإبراهيم بن محمد الساسى[2] ، ويذكر ياقوت من وراقى الجاحظ زكريا[3] بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين فى تراجم العلماء وأخبارهم .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٨٧ .
(٢) الفهرست ص ٩٥ .
(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التى كانت تحلّ حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب فى كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل[١] ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول خزانة الحكمة التى شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ،وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علميًّا كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخمًا ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة فى العصر ، منها ما كان عامًّا ، ومنها ما كان خاصًّا ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، وقلّدهم فى ذلك السَّراة . وعُنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ،ومن أشهرها حينئذ مكتبة على بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديبًا مثقفًا ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصراً جليلا جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبذولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال على بن يحيى ، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئًا ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضًا[٢] ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الشافعى — من أدباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملأها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهى مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسرٌ أو بائس فقير صُرِف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفْتَح فى كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس فى بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها مُمليًا عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به[٣] . ولا يكاد يكون

(١) الفهرست ص ٣٤٨
(٢) معجم الأدباء ١٥ / ١٥٧
(٣) معجم الأدباء ٧ / ١٩١

هناك عالم أو أريب نابه أو سَرِيّ إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها[١] ويتفننون فى العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدى الاهتمام بزخرفة كتبهم [٢] يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ فى كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر [٣] ، وكانت لابن حنبل مكتبة قُدّرت كتبها باثنى عشر حملا وعدلا[٤] ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحى المنجم لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة [٥] ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوّم خيران الورّاق ما يساوى عشرة دنانير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار [٦] ، وكذلك كانت لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً[٧] . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضى أبى عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدها من كلام العرب واستشهد فى تضاعيفها ببيتين غريبين جداً ، فعرضهما القاضى أبو عمر على ابن دُرَيْد وابن الأنبارى وابن مِقْسم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضى ما قال ابن دريد . فطلب من القاضى أن يحضر له ما فى داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدها ، ثم قال للقاضى : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما فى دفترك فطلب القاضى دفتره ، فإذا هما فيه[٨] وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

---

(١) رسائل الجاحظ ( طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٧٤ .

(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .

(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .

(٤) السبكى ٢ /٢٧ .

(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .

(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .

(٨) السبكى ٣ / ١٩١ .

عنها ، فما بالنا بمكتبات المؤلفين العظام فى العصر ، وكثير منهم ألـّف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفى أن نذكر مثلا الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . ومما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوى المصنفات التى جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبرى ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألـّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة ،وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة[١] .

ويحس ُكل من يتعقب الحركة العلمية فى العصر كأن سباقًا نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدّون فى طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعًا متصلا يريدون أن يذللوه ويقهروه فى جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفـّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل فى غير كلل ولا ملل ، بل فى حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقًا لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : «لم أر قط ولا سمعت من أحبَّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا من كمه أو خُفـِّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى حين عَوْده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضى فإنى ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتبًا أو ينْفضها[٢]» .

وهذا الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ،مهما تجشموا فى ذلك من مشاق ،فكان اللغويون يرحلون إلى البوادى محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته فى سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبى زيد البَلْخى أحمد

---

(١) السبكى ٣ / ١٢٢ وما بعدها

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥

ابن سهل من أن نفسه دعته وهو فى عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بَلْخ ويدخل أرض العراق ويجثو بين أيدى العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجَّه إليها راحلا مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوَّف البلاد المتاخمة لها ، وأتى الكبار والأعيان وتتلمذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحصَّل من عنده علوماً جمَّة ، وتعمَّق فى علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرَّز فى علوم الطب والطبائع وبحث فى أصول الدين[1]» . وأكبر من شُغفوا بالرحلة فى العصر المحدِّثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا فى أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان فى كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحُفَّاظه فى طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث فى العالم الإسلامى . وسنرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنراها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنراها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظًّا مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحاً فى المساجد مباحاً للجميع ، وكذلك فى المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدَّاد والخزَّاز والقَوَاريرى والتمَّار والقوَّاس والنبَّال والقلاَّل والعطار والمطرِّز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ فى رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحدين والزنادقة فى آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد »، وكأن كل

(١) معجم الأدباء ٣ / ٧٢

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظًا أوحظوظًا من مناهج المتكلمين فى جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفْنَ إلى حلقات المتكلمين [١] والفقهاء وغيرهم ،ويبدو أنه برَّزت حينئذ فى الثقافة الدينية غير امرأة حتى انبرى — كما مر بنا — قهرمانة لأم المقتدر، هى ثـمـل ، تجلس فى سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبرى [٢]، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها [٣] :

ما للنساءِ وللكِتا بةِ والعِمالة والخطابَهْ

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ مَـنْ كنَّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل فى الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة فى المحافل العظام .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة فى العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هى محاولة أن يصبح العلم شعبيًّا بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » . ومرَّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردَّ على الشعوبية رداً مفحمًا ببيان ما تحمل الثقافة العربية فى الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها فى أسلوب عصرى يقرّبها من أفهام العامة بحيث تُسيغها بدون أى عسر أومشقة . وبَـوْنٌ بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وعرضها عند الجاحظ فى البيان والتبيين ، فهى عند الأولين جافة جفافًا شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة ، أما فى البيان والتبيين فمهذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط ، بل أيضًا للطبقة الشعبية الدنيا . وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشعرى فى ابن خلكان .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ .

(٣) صبح الأعشى ( طبعة دار الكتب المصرية ) ٦٤/١ .

لهذه الثقافة فى كتابه الثانى « الحيوان » فهو يقرّب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعًا، وهو يمزج بينها وبين ما عُرف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان ، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريبًا ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً فى أشعارهم . وهو لا يقرّب هذا العلم من العامة وحده، بل يقرّب أيضًا علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام ، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة ، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقليًّا فى مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل . وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض فى مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضًا بسيطًا سهلا ، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة ، وحتى لا يظنوا — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — أن بينها تعارضاً ، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم فى السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب فى القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية فى الزهد، وتلك أحكام وقواعد فى الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان . وكل ذلك يسوّى منه الكتاب فى لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح ، بحيث تتيح له أن يتغلغل فى طبقة الشعب، وبحيث يتبين فى وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية . وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صوّر هذه الآداب من كتب أخرى ، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يكسُوَها بأساليبه البديعة ثوبًا عربيًّا ناصعًا ، بحيث أصبحت فى ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم .

## ٢

### علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا فى كتاب العصر العباسى الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند فى مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التى تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون فى هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة فى التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمى ينشئ عصراً جديداً فى التاريخ العالمى للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذى عُرف به فى العالم كله . والدولة هى التى هيأت لذلك كله منذ أبى جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل ، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط فى النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا فى حديثنا عن الترجمة فى العصر العباسى الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت فى الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التى عُنى النقلة بترجمتها كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لإقليدس فى الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية فى العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة ، وترجموا فى الطب مصنفات جالينوس وبقراط . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا فى هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطونى الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة ، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة ، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث فى النفس والإنسان تُمْزَجُ بقصص كثيرة وبقواعد فى السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة فى علم المنطق والطبيعيات ، أما فى الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وإقليدس .

ويذهب العصر العباسى الأول ، ونمضى فى العصر العباسى الثانى فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التى تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر فى أننا نجد كثيراً فى ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمى العصر العباسى الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذى أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التى كان يُغْدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفى أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلع والإقطاعات[١] . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالا كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألفوه على هدى ما قرءوه فى اللغتين اليونانية والسريانية ، وفى أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[٢] . وفى أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[٣] . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة دار الحياة ببيروت) ص ٢٧٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله ألّف مقالة فى الهندسة.[١] وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبى أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن»[٢] . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون فى هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبى أصيبعة طائفة[٣] ، منها على[٤] بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . وممن نوّه بهم القدماء طويلا فى هذا الجانب بنو موسى[٥] بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثانى يُشْغَفان بالهندسة فى حين شُغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغْدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ فى الشهر خمسمائة دينار[٦] . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها فى العصر العباسى الثانى فقد أكبَّ المترجمون على المأثورات الإغريقية فى كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبى أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما ألّفوه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين[٧] بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ .
(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٤ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٣ .
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٣٢ .
(٥) راجع فى بنى موسى ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لألدومييلى (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .
(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازى ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .
(٧) انظره فى الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبى أصيبعة ص ٢٥٧ وألدومييلى ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

مسيحياً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق[١] وابن أخته حبيش[٢] أكثر المترجمين فى العصر إنتاجاً ، وكانوا يعملون معاً ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء فى ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتاباً نحارير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفى مقدمتهم أصطفن بن بسيل[٣] » ، ويبدو من اسمه أنه يونانى الأصل . وكان حنين يُشْغف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرات إلى العربية والسريانية، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين. ويصور لنا فى مقدمة بعض الكتب التى ترجمها مدى دقته العلمية فى الترجمة إذ كان لايزال يجمع للكتاب الذى يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة[٤]. وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكمية والفلسفية، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس. أما حبيش فعُنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية. واشتهر أصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقوريدس فى النبات وكتاب أوريباسيوس فى الأدوية المفردة[٥].

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت[٦] بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لإقليدس ، ويقول ألدوميلى إن النص العربى يصلح النص الإغريقى فى

---

( ١ ) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى ص ٨٠ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

( ٢ ) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى ص ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٦ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

( ٣ ) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى ص ١٧١ .

( ٤ ) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجسترا سر ( طبع مطبعة دار الكتب المصرية ) ص ٩٤ .

( ٥ ) القفطى ص ٧٤ وألدوميلى ص ١٤٢ .

( ٦ ) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٢٩٥ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو فى النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون فى نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير فى لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدومييلى ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة فى الطب ألفه لابنه سنان . ومن أنبه المترجمين حينئذ قسطا[١] بن لوقا البعلبكى المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحياً من أصل يونانى ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسى وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعى وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور فى ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين . وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع فى الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة فى الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى[٢] بن يونس ، وكان من أصل يونانى ، وقد عُنى بترجمة جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور — كما هو معروف — حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها ، ولذلك يكون لمتى عذره فى اضطراب ترجمته لهذا الكتاب[٣] . وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين فى عصره ، وله مناظرة فى المنطق والنحو مع السيرافى سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت فى معجمه[٤] .

وبمتى بن يونس ينتهى عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب فى علوم الأوائل التى ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمى وابتكاره لعلم الجبر الذى أشرنا إليه فى غير هذا

---

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدومييلى ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ وألدومييلى ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودى بورص ٣٩ .

(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد الرحمن بدوى فى كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ( طبع دار المعارف ) ص ٧٦ .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

الموضع والذى ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب إقليدس فى الهندسة وكتاب بطليموس فى الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربى جغرافى سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهانى وأبو زيد البلخى ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمّى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علميًّا اليعقوبى أحمد بن يعقوب العباسى ، إذ نراه فى كتابه الذى سماه أيضًا باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفًا لها وصف المشاهد المتثبت من الأخبار. وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ فى كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمى ، ومن تلاميذه فى مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابهى الفلكيين فى أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغانى وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس [١] ، وله كتب مختلفة فى الإسطرلاب . ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع فى العرب ومسيحيي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية [٢] . ومن الفلكيين النابهين فى العصر الفضل [٣] بن حاتم النيريزى المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدمًا فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول إقليدس ترجمها جيرار دى كريمونا ونشرها كورتزه فى ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضًا على كتاب بطليموس فى الفلك وزيج على مذهب

(١) ألدوميلى ص ١٦٧ وانظر فى ترجمة الفرغانى الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٦٩ وراجع ترجمته فى الفهرست ص ٤٠٠ والقفطى ص ١٥٢ .

(٣) انظر فيه ألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٢ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

الهند وكتابها « السند هند » وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتّانى(١) محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعلَم أحد فى الإسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد فى الرَّقّة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمَّنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما فى كتاب المجسطى لبطليموس ، وتُرجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه فى دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسى الأول أكبر كيميائى فى تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألممنا به فى كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرْجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألّف الجاحظ كتابه « الحيوان » فى هذا العلم ، وحلّل بلاسيوس هذا الكتاب فى مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيِّناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيماثية وعلم الحيوان وعلم الإنسان(٢) . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرَّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع(٣) ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثْرة ثرائه أنْ كان يضاهى الخليفة المتوكل فى الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء فى بعض وعكاته فأمر له بثلثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور(٤) بن سهل المسيحى صاحب بيمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له فى الصيدلة كان يقع فى ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيادلة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميذ فى القرن السادس.

---

(١) انظر فيه ألدومييل ص ١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) ألدومييل ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٢٠١ وفى القفطى أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر فى سابور الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٣٠ وألدومييل ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

ومن كبار الأطباء فى العصر سنان[١] بن ثابت بن قرة الذى أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبنى فى سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتى دينار فى كل شهر، والثانى لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثالثاً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً ، مائتى دينار ، وبنى لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربى لدجلة وزوّده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يُرْوَى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعيا حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضاً بإرسال متطببين إلى الفلاحين فى سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون فى كل جانب منه المدة التى تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطببين كثروا فى العصر ، حتى ليذكر ابن أبى أصيبعة أن عددهم فى جانبى بغداد وحدها بلغ فى سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان فى خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع فى العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد[٢] بن زكريا الرازى المتوفى حوالى سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالرى ، وسبق أن عرضنا له فى حديثنا عن الزندقة وألممنا بكتابه « مخاريق الأنبياء » وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل فى بيمارستان موطنه وبيمارستانات بغداد وتنقل فى مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وتُرْجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعْنَوْن به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر فى باريس سنة ١٩٣٣

---

(١) راجع سنان بن ثابت فى الفهرست ص ٢٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٩٣ ، ٢٧٩ .

(٢) انظر فى ترجمته المراجع المذكورة فى حديثنا عنه بين الزنادقة فى الفصل السابق ، وراجع دى بور ص ١٤٧ والدوميلى ص ١٧١ – ١٧٨ .

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف فى الطب ٥٦ كتاباً وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣. وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها . ويلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهداه إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبى رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعْنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسى ، إذ ألف كتاباً فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكْبر من شأن العقل عارضاً النقائص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيناً أن المصاب بها إذا حكّم معياره العقلى موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقته إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهيولى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعياً وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سبباً فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى[1] يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

(١) انظر فى الكندى الفهرست ص ٣٧١ والقفطى ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام=

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ فى نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل. ولا تُعْرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث. وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهى تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما ثتين وثلاثين وعند ابن أبى أصيبعة نحو مائتين وثمانين ،وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثَّر فى شعوبها تأثيراً عميقًا ، ويقول ألدوميلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر تأثيراً ملحوظًا فى روجر بيكون. وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبى أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيباتٌ لكثير مما تُرجم ، وله أيضًا شروح وتعليقات. ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتبًا فى التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالى ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامى بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل فى إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعًا قويًّا ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو فى زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنها صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهى تتصل بالجسد ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقته التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر فى الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية فى الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هى نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

---

= ١٩٣٣ ودى بور ص ١٧٦ وألدوميلى ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لرسائل الكندى الفلسفية . طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى لعبد الرحمن بدوى (طبع دار الآداب ببيروت) .

بالقوة يكمن فى داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدْرِك الجزئيات والصور المادية فى حين أن العقل يُدْرِك الكليَّات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهى الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًا من الكيمياء شاع فى عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافه وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتُتِح بفيلسوف هو الكندى فإنه اختُتِم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية هو الفارابى [١] أبو نصر محمد بن محمد ابن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسى ، وُلد فى فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن فى نشأته ما كان فى خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها فى بغداد ، وأكبَّ على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذى أكبره الكندى من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية فى صورتها المبكرة ، بحيث عُدَّ فيلسوف المسلمين غير مدافع . ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات ، فهو لا يعنى بالطبيعيات ، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل فى اهتمامه بالمنطق وما يؤدى إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعْنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظَنّ متفاوتة ، ويتعمق فى بحث الكليات . وفى كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلى المنطقى ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هى أنه

---

(١) راجع فى الفارابى الفهرست ص ٣٨٢ والقفطى ص ٢٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الجزء السابع من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ودى بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصى لرسائله (طبعة ليدن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت فى حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

الموجود الواجب الوجود فى حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حَدُّه ، إذ هو لا يتحيز فى مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى فى قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعاً . ويقبس من الفلسفة قبساً يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرّك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقولُ التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبتهم فى الوجود مرتبة ثانية ، وفى المرتبة الثالثة العقل الفعّال فى الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفى المرتبة الرابعة النفس الكلية ، ومنها ومن العقل تتكاثر أفراد الإنسان . وفى المرتبة الخامسة الصورة . وفى السادسة المادة . والمراتب الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجساماً ، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام . وواضحٌ الأثرُ الإسلامى فى هذا التفلسف ، فقد ذُكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث فى السعادة مبحثاً تأثر فيه أيضاً بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرّح فى قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطْلَبُ لغاية وراءها وإنما تُطْلَبُ لذاتها ، وأداتها فى رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة ، وهى لا تُدْرَكُ إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرّح فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغى أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنباً اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلا كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شرّيراً فاسقاً انهارت المدنية وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان فى العلم والعمل ، وهو يضعها — كى يوضحها — فى مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية الخالصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابى ، وهى فلسفة إسلامية عقلية استمدّت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعًا ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

## ٣

### علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى التنافس الذى نشب بين علماء البصرة والكوفة فى جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادى ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدوّنوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقدمضى كثيرون من علماء البلدتين وتلاميذهما ببغداد فى هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشافهة الأعراب والسماع منهم لما يجرى على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعى والمفضل الضبى وأبى زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكوّن فى هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوى مثل الأشناندى أبى عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوّزى أبى محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبى نصر أحمد ابن حاتم الباهلى عن الأصمعى . ومعروف أن علم الأصمعى حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادى أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشى العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧. وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شىء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم فى قراءة النصوص. ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحيانًا عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحّف فيما قرأ ،واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتبا مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث فى تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة فى ذلك أشد تحرجًا من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم فى تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف، ويُؤْثَرُ عن ابن الأنبارى

الكوفى المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر[١] » . وكانوا يجمعون فيما يُملونه أشتاتًا من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفى المتوفى سنة ٢٩١ . وأحيانًا كانوا يؤلفون الكتاب فى أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل صنيع ثعلب فى مجالسه ، وأحيانًا يجمعون كلمات فى موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفى المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى البصرى المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعيًّا أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاء دقيقًا دالة على معانيها ، وتداول الورّاقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوى الكبير : الجمهرة فى اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نفطويه الكوفى معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملا باهرًا . ودفعتْهم فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيرًا من الألفاظ والعبارات الغريبة فى طائفة من الموضوعات والمعانى ويؤلفوا فيها كتابًا مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوى كثيرًا من أبيات الرجز المسرفة فى الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرون من رواية الغريب المهجور فى مصنفاتهم . وعُنوا فى هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جَمْعًا علميًّا ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعَدُّ متممًا لما نهض به فى العصر الماضى المفضل الضبى والأصمعى وابن الأعرابى ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالبًا شروحًا للتوضيح ، ويشتهر فى هذا المجال محمد ابن حبيب البصرى وثعلب الكوفى والسكرى أبو سعيد الحسن بن الحسين البصرى تلميذ الرياشى وأصغر تلاميذ الأصمعى المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى يجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفًا وثمانين ، لم يُبْقِ الزمن منها إلا قطعًا من ديوان هذيل

---

(١) المزهر (طبعة الحلبى) ١ / ١١٤ .

نُشرت فى خمس مجموعات أربع منها فى أوربا وواحدة طُبعت فى دار الكتب المصرية ، ودائمًا نراه يذكر ما اختلف فه أئمة البصريين والكوفيين فى رواية الأبيات وألفاظها المختلفة. وصنفوا كثيرًا من المختارات الشعرية، وكان مما صنفوه فى العصر الماضى المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، أما فى هذا العصر فمن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا تُعْلَمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط فى مقدمته لكتابه بينه وبين علماء القرن الثانى جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومختاراته تضم تسعًا وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتمتاز بالقصائد الطويلة . ويُعْنَى ابن الأنبارى بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيه الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعُنِى حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكأن اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعمُّ فى جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرِّب بهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلَّلها ويسَّرها لشُداة الأدب واللغة . وكأنما أحسَّ الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ، لأن فكرة التعليم اللغوى من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبة عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية، مازجًا بينها مزجًا يثير رغبة الناشئة والشباب فى قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب» ليضرم فى قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لابسها أويكاد يلابسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وأُلِّفت فى العصر كتب كثيرة[١] تصوِّر ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذى مر ذكره أو لأبى حاتم السجستانى أو للمازنى أبى عثمان بكر بن محمد البصرى المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلمة

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥ .

الكوفى المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى، وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه « الفصيح » جامعًا فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة ، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧[1] مصنَّفه « الألفاظ الكتابية » وهى عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحيوية دافقة : وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ فى كتابه « جواهر الألفاظ » وبذلك بثَّ اللغويون فى نفوس كثيرين مشاركتهم فى تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة . ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها ، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب ، مدمجين فيها بعض ألفاظ غريبة كى يسهل على الناشئة حفظها ، وممن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة — كان يسمى كلا منها حديثًا —[2] لغرض التعليم اللغوى وتبسيطه وتيسيره ، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغيًا بها الوجهة التعليمية نفسها .

ومن يرجع إلى كتابنا «المدارس النحوية» يطلع فى وضوح على نشاط النحاة فى العصر ، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين ، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر . وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل فى إقامة صرح النحو العربى بكل ما يتصل به من قواعد ، لا فى هذا العصر بل فى العصر السابق له ، وخاصة منذ الخليل بن أحمد ، فهو الذى صاغه فى صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم . وأتمّ سيبويه صنيعه فى مصنفه « الكتاب » الذى عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة . وخلفه الأخفش الأوسط ، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجًّا لها ومدافعًا دفاعًا سديداً . وفى هذه الأثناء استطاع الكسائى وتلميذه الفرّاء أن يشيدا فى الكوفة مدرسة نحوية ، تعتمد على صورة النحو البصرى العامة وتستقل بطوابع تميزها ، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع فى الرواية ومن

---

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة بيروت سنة ١٨٨٥) .

(٢) زهر الآداب للحصرى ١ / ٣٠٧

حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات ، وعُنى الفرَّاء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ،حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميَّزتا تميزاً تامًّا ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر[1] بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفَّى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لَسِناً قوى الحجة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحمهم فيها بأدلته القاطعة ، وعاش يدرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيبويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيبويه والديباج فى جوامعه ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعُنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ،ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة ( الأبنية ) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سُئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بَنَتْ فابْنِ مثل ما بنتْ . . . وسأصنع لك من كل شىء من هذا الباب رسمًا تقيس عليه ما كان مثله[2] » . وهو يُعَدّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة[3] . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يردّ — على هدى الفرَّاء — بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه[4] . وأنبه تلاميذه المبرد محمد[5] ابن يزيد الأزدى إمام نحاة البصرة لزمنه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

---

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد ٧/ ٩٣ ، وإنباه الرواة ١/ ٢٤٦ ومعجم الأدباء ٧/ ١٠٧ .

(٢) راجع المنصف على التصريف ١/ ٩٥ .

(٣) انظر المنصف ١/ ١٧٣ وما بعدها .

(٤) المدارس النحوية ( طبع دار المعارف ) ص ١١٩ .

(٥) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد ٣/ ٣٨٠ وإنباه الرواة ٣/ ٢٤١ ومعجم الأدباء ١٩/ ١١١ .

وفيه يقول ابن جنى : «كان يُعَدُّ جيلا فى العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذى نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها[١]» وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازنى وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل فى اللغة والأدب الذى أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب فى النحو المطبوع فى القاهرة بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، وهو كتاب نفيس ، وطُبع له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته فى تاريخ النحو البصرى إنما ترجع — كما لاحظ ابن جنى- إلى أنه حرَّر مسائل هذا النحو وقواعده، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعًا كثيرة ،وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التى لم يُسْبَقْ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة فى العوامل المحذوفة والمضمرة والملفوظة ، وبالمثل فى المعمولات ومواقعها فى الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبى دقيق فى التذوق اللغوى . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج إبراهيم بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له فى عنايته بكتاب سيبويه وفى تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفى محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهمين ابن السراج أبو بكر محمد بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتّى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفى مقدمتهم السيرافى وأبو على الفارسى ، وله كتاب الأصول عُنِى فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثَّر دراسته للمنطق واضحة فيه وفى تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إمامًا مشهوراً فى هذا العصر هو ثعلب[٢] أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاكلة أستاذيه الكسائى والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوى . وذكر

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ / ١٣٠.

(٢) انظر فى ثعلب تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ وإنباه الرواة ١ / ١٣٨ ومعجم الأدباء ٥ / ١٠٢

مترجموه له مصنفات كثيرة فى النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع والذى ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس » وهو إملاءات لمختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغريبة والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المنثورة . وصَنَعَ طائفة كبيرة من الدواوين القديمة. ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر فى كتب النحاة له من آراء يجده يطبق تطبيقًا دقيقًا آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعًا الكسائى وكل ما أصَّلاه لمدرستهما الكوفية من أصول فى النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع فى الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له فى حديثنا عن البلاغة والنقد . وله — مثل المبرد منافسه — تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى — كما مر بنا — سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة فى غريب الحديث وعلوم القرآن وفى اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضًا فى النحو . وعُنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو ملىء بمعارفه الواسعة فى اللغة والأشعار والأخبار . وكان — فيما يظهر — مثقفًا ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفى بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبتكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كَيْسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجى . ولكى تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلا عند ابن كيسان والزجاجى . أما ابن كيسان[1] فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهَّله ذلك لكى ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان فى أول أمره كوفيًّا ، فعُنى ببسط

---

(١) انظر فى ابن كيسان تاريخ بغداد ١/ ٣٣٥ وإنباه الرواة ٣/ ٥٧ ومعجم الأدباء ١٧/ ١٣٧ .

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسْعِفه فى ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد ألف فيها وفى المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » وله وراءه كتب فى النحو والتصريف ، وكتاب مهم فى علل النحو قال القدماء إنه كان يقع فى ثلاثة مجلدات ، ولعله هو الذى عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتابنا المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التى كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجى[1] هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصرى ، وله مصنفات كثيرة ، طُبع منها كتاب الجمل وهو مختصر فى النحو كانت له شهرة مدوّية فى العصور الوسطى وشُرح شروحًا لا تكاد تحصى ، وطُبع أيضًا له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطى ، ومجالس العلماء وهى مناظرات بينهم فى مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح فى علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظًا أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفى أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهًا من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعًا . وهو بالمثل فى النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجى على العكس تتضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيرا ما يقف مع البصريين مناضلا مدافعًا ، وكأنه كان إرهاصًا لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية فى المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبى على الفارسى وابن جنى .

ونشطت فى العصر الأنظار البلاغية ، وفى كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها فى العصر العباسى الأول ونموها فى هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ٢ / ١٦٠ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٢ ونزهة الألباء (طبعة الحلبى) ص ٣٠٦ .

ملاحظات بلاغية على ما يُكسِبُ الكلام حسناً وجمالا حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهباً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنٍ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة في هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن في الكلام ، وألف الأصمعي كتاباً في التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، في حين عُنِي أبو عبيدة معاصره — وخاصة في كتابه « مجاز القرآن — ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون — وخاصة المعتزلة — يعنون بالبحث في وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام ، ونثر ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد في كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصَّل القول فيهما تفصيلا جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلي المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلا عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع في الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التي لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتباس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلا بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فناً جديداً منها هو المذهب الكلامي . وبذلك كان يُعَدّ المؤسس الحقيقي لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر بيئات (١) ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولا متميزاً ، وهي بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المجددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

---

(١) انظر في هذه البيئات كتاب البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها .

أن تفرض المثال العربى القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكى ، وكل ما سواه غَثٌّ سقيم ، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزبانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد ، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولا فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفراً وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شىء وكان طبيعيا أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون — وفى مقدمتهم المعتزلة — يقفون موقفاً معتدلا بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرءون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونه إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخْضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حريا بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحْتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعوبية ، فهى التى أمدّتهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصام والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدّعون أن كل ما شُغف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُثْبت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة ، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى ، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها ، وهو إكثار جعلهم — كما يقول — يحسنون فيها تارة ، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فنا بَسَطَها بَسْطاً ، وهى الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط فى الصفة أو المبالغة وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى أو ما سُمى فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات. ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث المفصل فى البديع وفنونه مبحثًا لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ فى كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلا القول فى أنواعه تفصيلا دقيقًا .

ولم تقف البيئة الفلسفية مكتوفة الأيدى أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرَّد منهم كثيرون لنقل كتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نَقْلُ مَتَّى بن يونس لأولهما ونَقْل إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذى اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربى مستضيئًا من حين إلى حين بما كتبه أرسطو فى كتابه الشعر ، وسَمَّى صنيعه « نقد الشعر » . ولن نعرض الآن لما فى الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدِّل ويعدل فى بعض المصطلحات التى وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألَّف كتابه محادَّةً لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسنًا جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئة المتفلسفة هو كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتى لنراه يضيف إلى انتفاعه بكتابى أرسطو السالفين كتابيه فى المنطق والجدل ، مازجًا ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته فى كثير من الأحوال أن يُحْسن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذيوع كما كُتب لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سببًا فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطرون ببحوثهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة فى سبيل تحولها إلى علم فى هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه، أولاهما أن أكثر الكتب التى عرضنا لها فى البلاغة عرضت له ، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفلسفية التى تحدثنا عنها فى البلاغة هى نفسها التى حاولت أن تشرّع النقد وأن تضع له معاييره ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها فى غير موضع من كتاباته[1] ، ولعله كان يأخذ عليها إهتمامها بالغريب فى الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضاً أنها هى التى نقدت الشعر القديم لأول العهد به ، وهى التى ميزت وثيقه من منحوله ، مع كثير من الأحكام واللفتات النقدية الجديدة ، ولعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خير ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال فى الشعر القديم عرضاً علمياً رائعاً، موضحاً عبث القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء فى طبقات حسب جودتهم الفنية ، راوياً لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة فى العصر الجاهلى . ونمضى إلى العصر العباسى الثانى فنلتقى بثعلب وكتابه « قواعد الشعر » وهو كتيِّب مدرسى جافّ وزّع فيه الشعر توزيعاً نحوياً على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس فى الكتاب نظرية نقدية ، إنما هى لمحات سريعة ، وقد سمى الطباق الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه فى التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربى شيئاً ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفى الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف فى مجال النقد ، على نحو ما تخلفت فى مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائرة كأن نجد عند المبرد فى كتابه « الكامل » كلمة هنا أو هناك

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٢٤

عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلاقها أو ضرورة الشعر والموسيقى ، وشركه فى مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتبا فى أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبى تمام فى الألفاظ والمعانى لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر فى نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكوّن نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل فى نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومرَّ بنا فى الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تُعلى الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربى وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحَظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فنراه فى الصحيفة التى دوَّنها له الجاحظ فى البيان [1] يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى كانت شائعة عند اليونان فى أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعانى والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر فى الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هى أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكلٌّ فى موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو فى قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله فى لغة وسطى بين لغة البدو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسفَّة المبتذلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعا ، فينادى بأن مدار الجمال فى القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذى تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمدُّ فى قوة ملاحظة بِشْر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحداثة ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامية ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، وللإيجاز موضع وللإطناب موضع

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا فى الألفاظ وحدها، بل أيضًا فى الأساليب ،ويلاحظ أن للأديب شاعراً أو ناثراً معجمه اللغوى الخاص، وهى ملاحظة دقيقة ، وعَرَضَ طويلا للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده فى الكلام حتى لكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التى يسلك فيها . وأنكر الترادف ذاهبًا إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذى يفترق قليلا أو كثيراً عن معنى أو معانى مرادفها ، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح . وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلا من المعانى وقيمتها ، وكأنما كان يريد أن يُسقط إلى الأبد ما تقوله الشعوبية عن كثرة المعانى فى الآداب الأعجمية ؛ وكذلك ما تقوله البيئة المتفلسفة عن المعانى الفلسفية اليونانية ، إذ هى تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم . ومع إعجابه بالشعر العربى القديم كان يعجب بالشعر الحديث ، حتى ليفضّل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء[1]. وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربى واليونانى ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربى عباسى حديث .

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة ، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة ، ولكنه اشترك معه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع فى الرد العنيف على الشعوبية ، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمنها كثيراً من آرائه النقدية ، وتارة يوافق الجاحظ فى بعض آرائه وتارة يخالفه ، فما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة فى الحكم على الشعراء فلا يُنْظَرُ إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار ، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة . ووافقه فى فكرة الطبع والتكلف ، واستعار قبسًا من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به فى بيان الدوافع النفسية التى تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب ، كما استعار قبسًا من فكرة

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٧ وانظر فى تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا « النقد» (طبع دار المعارف ) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السرقات ، وهو أول من فتح بابها على مصراعيه للنقاد ، وقد أخذوا فى أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت ابن المزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسرقات البحترى لأحمد بن أبى طاهر المتوفى سنة ٢٨٠ .

بشر بن المعتمر عن الأديب ألا يُقْبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملا ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التى يستحبُّ فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ فى قَصْر الجمال الفنى على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معًا وقد يقبحان معًا ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يرتد إلى الوراء وخاصة أنه سَوَّى بين القدم والحداثة فى الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين فى نظام القصيد . ونلتقى فى أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ فى كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة فى رده الجمال الفنى إلى اللفظ والمعنى معًا ، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه فى مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعانى وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد فى وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكمًا بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحسَّ ما يردده النقاد فى هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة بحيث يطرد فيها التناسق والالتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد[١] .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة فى النقد، ولعل خير من يمثلها قدامة فى كتابه «نقد الشعر» وهو فى مطالعه يصرّح ولا يجمجم بأنه إنما سيُعْنَى بعلم جيِّد الشعر ورديئه وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم فى العربية . ويجعل الكتاب فى ثلاثة فصول ، يخص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثانى بنعوت الجودة فى الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وقفة منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو فى المحاكاة وأن المعوَّل فى الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معانى الكتاب فى الأصل طُمست طمسًا ، وهو ما جعل قدامة يضطرب فى الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

---

(١) راجع فى تحليل عيار الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣ .

ويقول إن نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر فى هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التى شُغف بها أرسطو فى حديثه عن الأخلاق ، ويفيض فى الفصل الثانى فى الحديث عن نعوت الجودة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو فى هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، وخانه التوفيق فى كثير من الأحيان ، ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسى النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أى التفات [١] .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذى كان مسيطراً على النقد والشعر جميعا كان ذوقًا محافظًا ، وكان طبيعيًّا أن يُرْفَضَ نقد المتفلسفة المفرطين فى التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولا ورسومًا واضحة ،وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة .

ونشطت فى العصر الكتابات التاريخية نشاطًا عظيمًا فمن كتابة فى تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة فى الأحداث الإسلامية والأمم والدول ، وكتابة فى المدن، وكتابة فى التراجم والطبقات ، ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدى ومحمد بن سعد فى كتابه الطبقات وكذلك المدائنى أبو الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤، وله كتب ورسائل كثيرة فى السيرة النبوية وفى تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفًا . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية فى العصر أبو زرعة [٢] عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام فى وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفى مكتبة

---

(١) انظر فى تحليل نقد الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

(٢) انظر فى أبى زرعة تاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

الفاتح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون فى الأحداث الإسلامية وفى تاريخ الأمم والدول منهم اليعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه فى ثلاثة أجزاء طُبع بأوربا وبالنجف فى العراق ، ومنهم البلاذرى [١] أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن فى القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف فى التراجم والتاريخ طُبعت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملا فى دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة [٢] الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولا بليدن ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، ونراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صِفّين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز فى الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس فى العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد [٣] بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، ونراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج فى الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدّثين ، فكل خبر وكل حادثة تُرْوَى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة فى ليدن وفى مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين فى العصر المسعودى [٤] أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

---

(١) انظر معجم الأدباء ٥ / ٨٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .

(٢) راجعه فى الفهرست ص ١٢٢ ومعجم الأدباء ٣/٢٦ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٢/١٦٢ ومعجم الأدباء ١٨ / ٤٠ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦ وطبقات الشافعية ٣ / ١٢٠ .

(٤) راجع ترجمته فى الفهرست ص ٢٢٥ ومعجم الأدباء ١٣/٩٠ وتذكرة الحفاظ٣/٧٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥ .

كتب تاريخية مختلفة ، وهى تتدفق بحيوية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف فى البلدان الإسلامية فى الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندى والهادى إلى الصين فى رفقة التجار ، فاتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طُبع فى باريس ثم فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتى المطيع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخى ، وطُبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهانى المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعاً تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى اهتمام مؤرخى العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنبارى يعنى فى شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخم فى نسب قريش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وأُلفت فى العصر كتب كثيرة فى رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف فى الرجال إلى التأليف فى الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن على بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع فى أخبار الشعراء المولدين والباهر فى أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبى حفصة . وأُلفت كتب فى الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونَشَر منه أيضًا أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتابًا فى سيرة عمر بن عبد العزيز طُبع بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتابًا فى سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف فى التاريخ لهذا العصر نشاطًا واسعًا ، فمن تأليف فى السير إلى تأليف فى الطبقات وتأليف فى الأمم والدول وتأليف فى المدن ، وكادوا لا يتركون فى التاريخ جانبًا إلا رصدوه وسجلوه ودوّنوه .

٤

## علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهة ، واشتهر بتلاوته قُرَّاء مشهورون منذ الصدر الأول فى مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين فى كل بلد إسلامى ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أُثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدُّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفى الوقت نفسه أخذ قُرَّاء مُوثَّقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن على بن أبى طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثرت القراءات ، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتابًا يحتوى على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسى الثانى ، فتستمر القراءات فى كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيع وتنتشر فى العالم الإسلامى ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القُرَّاء كان لا يجد حرجًا فى القراءة بشواذ منها متناهية فى الشذوذ[١] ، وحينئذ تجرَّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد[٢] ابن موسى بن مجاهد التميمى إمام القُرَّاء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعًا هى قراءات نافع فى المدينة وعبد الله بن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، اتخذها إمامًا للناس ، وألف فى ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذى أدَّاه عن علماء القراءات فى عصره ، فكل إمام من السبعة تُذْكَرُ الطرق التى روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص فى الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلا عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو على الفارسى لكتابة شرحٍ على هذا المصنف : « السبعة » يحتج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهًا وجهًا ، سماه كتاب الحجة . وألف ابن مجاهد كتابًا ثانيًا فى شواذ القراءات ، عُنى ابن جنى بشرحه على نحو ما عُنى أستاذه أبو على الفارسى بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة .

ونما تفسير القرآن الكريم فى هذا العصر نموًا واسعًا ، واتضحت فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته فى العصور التالية ، هى اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالى ، والتفسير الشيعى ، والتفسير الصوفى ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوَّة التى كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبرى ، إذ استطاع أن يجمع فى تفسيره عن طريق الروايات المسندة كلَّ ما أثر

(١) انظر فى ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفًا تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفًا تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثمانى ومعروف أنه لم يكن منقوطًا ، فكان يصحِّف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهًا ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعه بحضرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر فى ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزرى ١ / ١٣٨ وطبقات الشافعية ٣/٥٧ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٥٨ .

عن التابعين والصحابة فى تفسير الآى القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستَخلَص منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عُرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . ومما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع فى حَمْل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة فى التفاصيل التى لا يضر الجهل بها ، كمسألة المائدة التى أنزلت على عيسى فى سورة المائدة فى الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمراً من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته ( بثمن بَخْس دراهم معدودة ) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أواثنين وعشرين أوأربعين ، فأضرب عن ذلك قائلا إنه « ليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين . . . والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفضّل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التى أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم فى بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم فى الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما فى الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذى لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معانى التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثانى يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكّمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفى الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعياً ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء فى تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبى بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبى على الجُبَّائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو بيد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولابد أنه يمتلئ بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزمخشرى انتفع به فى تفسيره انتفاعاً كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتمسين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظاً بعينه يُقْصَدُ به علىّ أو غيره من أئمتهم وأن لفظاً آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم ، فقال إن منهم من يزعم أن الجبْت والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص[١] . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية . وتفسيراتهم من هذه الناحية تُطْبَعُ بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بُعْدَ التفسير الشيعى ، إذ كان كل مـأربه أن يوضّح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التُّسْتَرِىّ المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : ( الله نور السموات والأرض — إلى قوله : والله بكل شىء عليم ) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساساً للآية . وكأن سهلا سبق الحلاج فى فكرة النور المحمدى الأزلى .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالباً ، وأن خير ما يصور هذه الطريقة

---

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزّع فيها الأحاديث على رواتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلا التى رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابى لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدّثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبى عبد الله محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعًا طريقة ثانية هى امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المسانيد يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث ، لراوٍ من الصحابة فى مسألة من مسائل الفقه ، من قراءة كل ما له من أحاديث ، وكانت دراسات الفقه نمت حينئذ واحتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعًا على بعض الأحاديث للاحتجاج بها فى كتبهم وضد مجادليهم ، وأول مصنَّف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبى شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ ، ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة ، وهى الجامع الصحيح للبخارى المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبى داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النَّسائى المتوفى سنة ٣٠٣ وتُعَدّ أصح كتب الحديث المؤلفة لا فى هذا العصر وحده بل فى جميع العصور . ولم يكن الاعتماد فى هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدّثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخارى فى تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدّث الكبير يعتمد على حافظته فى إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلداً ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كى يعرفوا مدى حفظهم ، ويُحكى عن البخارى أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدها بأن جعلوا الإسناد مع غير متنه ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخارى ، فأنكرها حديثًا حديثًا ، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها رادًّا كل متن إلى إسناده ، وله فى

ذلك حكايات أخرى عجيبة[١]. ومن طريف ما يروى فى هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسألوه أن يحدّثهم ، فقال لهم : ليس معى أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبى داود وأصول ! وأثاروه ، فأملى عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدّثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التى أملاها ، فكُتبت وجىء بها ، وعُرضت على الحفاظ ، فخطّأوه فى ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدّث بها كما سمعها، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ فى كل عشرة آلاف حديث إلا فى حديث واحد[٢].

ولا بد أن نقف قليلا عند البخارى ومسلم لنرى مبلغ دقتهما فى رواية الحديث ورفضهما لضعيفه ، أما البخارى[٣] محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات فى مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابى راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذى لا يرْقَى إليه شك ، يفحص المتون ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظة وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، ولذلك كان طبيعيًّا أن يؤلف تاريخه الكبير فى الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة » وكان عفّ اللسان لا يشتد فى تجريح المتهمين من الرواة، بل يكتفى بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع فى صحيحه — كما يقول ابن حجر فى مقدمته لشرحه عليه — ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التى استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتى ألف حديث محكّماً فى انتخابه شروطاً غاية فى الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة ، وأول شروطه

---

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .

(٢) السبكى ٣ / ٣٠٨ .

(٣) انظر فى ترجمته تهذيب التهذيب ٩ / ٤٧ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات الحنابلة بن أبى يعلى ( طبع القاهرة ) ١/ ٢٧١ وكتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ( طبع حيدر آباد ) ق ٢ ج٣ ص١٩١ ووفيات الأعيان لابن خلكان ( طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ) ٣ / ٣٢٩ .

أن يكون الإسناد متصلا ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفًا بالصدق ، وعدم التدليس والتخليط ، عدلا ، ضابطًا ، حافظًا ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون فى درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه فى السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة ، واشترط فى رواة أسانيده أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط فى الراوى المشافهة والملازمة . وقد يقال إن فى الصحيح أحاديث لايتصل فيها الرواة يريدون التى ذكرت — كما قدمنا — للاستئناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر فى عده لأحاديث الكتاب كما مرَّ آنفًا وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحى والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويقحم عليها أبوابًا أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ومناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازى والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتابًا تشتمل على ٣٤٥٠ بابًا وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شيء تحته ، وكأنه كان ينوى أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحاديث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع فى صورته النهائية . وهو يُعَدّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرَّى البخارى فى جمعه تحرِّياً ليس له سابقة ولا لاحقة فى تاريخ مصنفات الحديث ، باذلا جهداً عنيفًا تنقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم[1] بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخارى فى الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخارى ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيده ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخارى ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . ونراه فى مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يَرْقَى إليه الشك ، وقسم رواه المستورون المتوسطون فى الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

---

(١) انظر فى مسلم تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/ ١٦٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٧٤ ومقدمة النووى بشرحه عليه .

وقسم رواه الضعفاء والمتروكون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثانى ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرّج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثانى جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه فى منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبى زرعة[١] الرازى . على أن هناك من قدما على صحيح البخارى [٢] لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضله من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط فى الرواة الملازمة فى السفر والحضر لمن يروون عنهم ، فى حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . ومما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدّ فى الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليذكر الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارَى فى معرفة رجال الحديث الموثَّقين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظّاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التى سميناها آنفاً والتى يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهى سنن أبى عبد الله محمدبن يوسف بن ماجه[٣] القزوينى وقد اشتهر برحلاته الكثيرة فى ديار الإسلام ، وتُعَدُّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع فى سلك الكتب الستة إلامنذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانىسنن أبى داود سليمان[٤] بن الجارود بن الأشعث الأزدى السجستانى ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد[٥] ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُنى فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب. ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جُلَّى مَنْ يُعْنَوْنَ

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٤

(٢) طبقات الشافعية ٣/٢٧٦ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى ٢ / ٢٠٩

(٤) انظر فى ترجمة أبى داود تاريخ بغداد ٩ / ٥٥ وتذكرة الحفاظ ٢ / ١٦٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٨٩ وطبقات الشافعية ٢ / ٢٩٣ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٢/ /١٨٧ والتهذيب لابن حجر ٩ / ٣٨٧ وميزان الاعتدال ٣/ /١١٧ والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٦ .

بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبي عبد الرحمن أحمد[1] بن شعيب ابن علي النَّسائي، وقد عني فيه بصيغ ونصوص في المعاملات، كما عني برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التي تقال في الصلاة. وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة في العصر، كما ألفت كتب مختلفة في الرجال أي رواة الحديث، من أهمها تاريخ البخاري الذي أشرنا إليه، ويلحقه في الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبي بكر أحمد ابن أبي خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم. وعُنيت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ في الاهتمام بالحديث، ومن أهم الكتب التي صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين: جعفر الصادق وموسى الكاظم، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميري القمي في أواخر القرن الثالث الهجري. وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذي نهض به المحدثون في تأليف كتب الحديث لهذا العصر، ويكفي أنه أُلفت فيه كتب الصحاح الستة التي شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية.

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسي الأول في نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائيًّا، وظل الاجتهاد نشيطًا، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التآليف والمصنفات، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكْتَبُ لها البقاء، سوى مذهب داود الظاهري، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهي حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها. وكان طبيعيا أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه في العالم الإسلامي، ومن أهمهم في المذهب الحنفي أبو بكر أحمد[2] بن عمر الشيباني الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج في الفقه، وهو منشور في هانوفر والقاهرة. ولا يقل عنه أهمية في هذا المذهب أبو جعفر

(١) انظره في تذكرة الحفاظ ٢ / ٢٧٦ والتهذيب لابن حجر ١ / ٣٦ ومرآة الجنان لليافعي ٢ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٢ / ٢٣٩ والسبكي ٣ / ١٤

(٢) انظر في الخصاف الجواهر المضية لابن أبي الوفاء ١ / ٨٧ والفوائد البهية الكنوى ١٧ .

أحمد[١] بن محمد بن سلامة الحَجْرى الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رياسة أصحاب أبى حنيفة ، وهو الذى نشر بها المذهب وعمل على إذاعته، وله معانى الآثار ، وهو منشور فى جزأين بمدينة لكنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بحيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكى عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون فى مصر والمغرب والأندلس ولمع من فقهاء المذهب فى هذا العصر عبد السلام[٢] بن سعيد بن حبيب التنوخى المشهور باسم سحنون القيروانى المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذى نشر المذهب فى المغرب ودفعه إلى أن يشيع فى جميع أرجائها ، وله فيه مصنفه الذى ظل اسمه يدوّى هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التى لا تزال تتّخذ المرجع الأساسى بتلك الديار لتعليم الفقه المالكى وتدريسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعى وعمل على نشر مذهبه وعُنى بالتصنيف فيه كثيرون فى مقدمتهم تلاميذه المصريون : البويطى والربيع المرادى ، وأهم منهما المزَنى[٣] أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكى ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجرى الذى انتشر منه فى أكثر الآفاق[٤] :

لَصِيقُ فؤادى منذ عشرين حجَّةً ... وصَيْقَلُ ذهنى والمفرِّج عن هَمِّى
جَموعٌ لأَصناف العلوم بـأَسْرها ... فـأَخلقْ به أَنْ لا يفارقه كُمِّى

وطُبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعى . وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعى ثم استقل بمذهب فقهى خاص اعتمد فيه على الحديث النبوى ، وبذلك عُدَّ مذهبه ممثلا لأهل السنة ، ومن أهم أتباعه فى هذا العصر

(١) راجعه فى الجواهر المضية ١ / ١٠٢ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣ / ٢٩ والأنساب للسمعانى ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢ / ٥٤٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) انظره فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥١ .

(٣) انظره فى وفيات الأعيان وشذرات الذهب ٢ / ١٤٨ والأنساب للسمعانى ٥٢٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٧٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/ ٩٣.

(٤) السبكى ٣/ ٣١ .

أبو القاسم عمر[١] بن الحسين بن عبد الله الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤ ، وله فى الفقه الحنبلى كتاب المختصر فى الفقه ، طُبع فى القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلى فى القرن السابع الهجرى .

وهيأ الاجتهاد الفقهى الواسع فى هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى، برز منها خاصة المذهب الظاهرى نسبة إلى أبى سليمان[٢] داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع فى أول أمره مذهب الشافعى ويتعصب له ، ثم أسس له مذهبا عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس فى الدين ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ، ويكفى لبيان الأحكام ما فى القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التى تنبثق عنه . وفى رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدُّ إشارة واضحة فى العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية فى دراسات الفقه وفى الأدب والشعر، وقد كُتب له أن يذيع فى الأندلس والمغرب فيما بعد، وأن يتحمَّس له فقهاء نابهون مثل ابن حزم، بل أحياناً دول مثل دولة الموحدين فى الأندلس والمغرب.

## ٥

### الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعرى

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال فى المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب الملل والنِّحل الأخرى فحسب، بل أيضًا إلى المجبرة والمرجئة والشيعة الغالية، ونازلوا الدهريين

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وتاريخ بغداد ٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨٩ .

(٢) انظره فى تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ والسبكى ٢ / ٢٨٤ واليافعى ٢ / ١٨٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٤٧ وشذرات الذهب ١٥٨/٢

والمانويين الثَّنَوْيين نزالا عنيفًا . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يومًا ، والناس يتجمعون حولهم فى المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كوَّنوا لأنفسهم مذهبًا ضخمًا تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون فى مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أئمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة فى البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكوّن له فلسفة مستقلة ، فتلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموى ، وهذه فلسفة بِشْرِية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثُمامية نسبة إلى ثُمامة بن أشرس أو هُذَيْلية نسبة إلى أبى الهذيل أو نظَّامية نسبة إلى النظَّام . وعلى هذا النحو لم يتكوَّن للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكوَّن له هؤلاء الفلاسفة فى العصر العباسى الأول ، وهو العصر الذى بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم فى عهود المأمون والمعتصم والواثق ، فإذا أئمته يحملون علماء الدين كرهًا على القول بخلق القرآن ، وتنشب المحنة المعروفة ، ويُمْتَحَنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدِّثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسى الثانى ، إذ ولى المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدِّثين إلى سامرَّاء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدِّثون ، وأخذ كثير منهم يجرِّحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر فى نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا فى العصر العباسى الثانى ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته فى البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد فى العصر استطاعوا أن يكوّنوا لهم فلسفة أو كما اصطلح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفى مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالا عنيفاً ، وله فى ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى فى كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أُغْرِىَ بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة [١] » والمراد الرد على الرافضة من الشيعة وبيان ما فى اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعرى قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة[٢] » ويزيد الشهرستانى ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعـاً » .[٣] ويقول البغدادى فى الفَرْق بين الفِرَق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهى مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثمامة ابن الأشرس فى أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعـاً وأنها وجبت بإرادتهم [٤] » . ولعل فى ذلك كله ما يوضح رأيه فى أن المعارف ضروريةٌ طباعٌ ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته ، فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشئ عنها ، ويقول الشهرستانى إنه : « كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى » ، ويقول أحمد أمين : « وهى عبارة

---

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ( طبع بيروت ) ص ٦٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ( طبع مؤسسة الحلبى ) ١ / ٧٥ .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعًا ومرة معدنًا ومرة خشبًا، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ،وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التى تتكون منها المواد[1]» . وذكر الشهرستانى تكملة لنظرية الجاحظ فى الطباع أنه كان يقول فى أهل النار « إنهم لا يخلدون فيها عذابًا بل يصيرون إلى طبيعتها » ، وأنه كان يقول : النار فى الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهى التى تدخلهم نفسها وتخلّدهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبه إليه ابن الراوندى الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضًا فى نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها [2]. ولعل فى ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط فى التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة فى البصرة وبغداد ، وهم يكوّنون فى هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحّام من أصحاب أبى الهذيل ، وإليه انتهت رياسة المعتزلة فى البصرة فى وقته[3]، وكان يعاصره فى بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنّف كتبًا كثيرة فى الفقه ، وأن له كتابًا فى الردّ على أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة[4] .

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذى عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

(١) ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة النهضة — الطبعة السابعة) ٣ / ١٣٥ .

(٢) الانتصار للخياط ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

(٤) الانتصار ص ٨١ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدّثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة فى الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيّفها وبيّن بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى فى الفرق بين الفرق والشهرستانى فى الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلا وما جاء فى كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعدوم يُعَدّ شيئاً ، محتجا بأن الشىء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عَدّ الجوهر جوهراً فى العدم والعرض عرضاً فى العدم ، وأطلق على المعدوم لفظ الثبوت[١] .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على[٢] محمد بن عبد الوهاب الجُبّائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تُعْلَم أشياء قبل كَوْنها وتسمى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات[٣] . وكأنه فى موقفه إزاء الأشياء يلتقى بالخياط فى رأيه الذى مرّ بنا آنفاً ، وقد حاول بعض خصومهما أن يلزمهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تتمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتناب الكبائر ، وأن الكبائر تُحْبِط الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر[٤] . وكان يقول إن الله خير بما

---

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبى على الجبائى وآرائه طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات الإسلاميين للأشعرى فى مواضع مختلفة والشهرستانى ١ / ٧٨ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ فى الحقيقة وإنما هى شر فى المجاز ، وكذلك كان قوله فى جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ فى الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة ، والشر هو العبث والفساد وعذاب جهنم ليس بصلاح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة ، ولكنه عدل وحكمة[١] . وكان يرى أن معنى قوله تعالى : ( الله نور السموات والأرض ) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار[٢] . وكان يُجلُّ العقل إجلالا شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى ليمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى فى الشوط إلى نهايته « فأثبت — وتابعه ابنه أبو هاشم — شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدّرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التى لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر[٣] » . ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة ، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم[٤] الجُبَّائى عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبى على الجُبَّائى شهرة ، بل إنه يتقدمه فى الشهرة وذيوع الاسم ، بل لقد تحول المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره فى الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذه الذى خرّجه فى المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه فى كثير من آرائه ، وينفرد عنه فى آراء كثيرة أيضًا ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبوع فى دقيق الفروع بمستنكر » ، وفى ذلك يقول أبو الحسن الكرخى :

يقولون بين أبى هاشمٍ وبين أبيه خلافٌ كثيرُ
فقلتُ وهل ذاك من ضائرٍ وهل كان ذلك مما يَضيرُ

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢ .
(٣) الشهرستانى ١/ ٨١ .
(٤) انظر فى ترجمة أبى هاشم تاريخ بغداد ١١ / ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤ والفهرست ص ٢٦١ والملل والنحل للشهرستانى ١/ ٧٨ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى ( طبعة محيى الدين عبد الحميد ) ص ١٨٤ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ١/ ٣٣٠.

فخَلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا لبحرٍ تضايقُ عنه البحورُ
وإن أبا هاشمٍ تِلْوُهُ إلى حيث دار أبوه يدورُ
ولكنْ جَرى من لطيف الكلامِ كلامٌ خفيٌّ وعامٌ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه فى آراء كثيرة ، واستقل عنه فى أخرى استقلالا ، لا يضيره ، فحبُّه أباه وتقديره شيء ، وحبه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شيء آخر . وأدرك الشهرستانى ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما فى فصل واحد ، عارضًا فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هى نظرية الأحوال ، وهى نظرية تتصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هى عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علمه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو على الجبائى إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جرًّا ، وتنبَّه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته[1]. فحاول النفوذ إلى رأى دقيق وهداه عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للمعانى الكلية ، ويوضح ذلك الشهرستانى قائلا : «عند أبى هاشم هو عالم لذاته أى ذو حالة هى صفة معلومة وراء كونه ذاتًا موجوداً إنما تُعْلَمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالا هى صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هى على حيالها لا تُعْرَفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقًا ضروريًا بين معرفة الشيء مطلقًا وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالمًا ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلا للعرض[2]» . وهى نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظَنّ من نفى المعتزلة : أبى الهذيل العلاّف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة فى الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها فى حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرَكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هى نفسها عين الذات ، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفى الوقت

---

(١) أصول الدين للبغدادى ( طبعة إستانبول ) ص ٩٢ .

(٢) الشهرستانى ١/٨٢ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعرى كما سيلى عما قليل فى فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبى هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخروى إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون فى مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبَّحات ، ويرغبنا فى الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلَّف مُغْرًى بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى [١] » . وكأنَّه تنبَّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التربيةُ وأن يَحْذر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى ينتهى عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعاً وعقلا ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعاً ، لأن التوبة — فى رأيه — إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر فى الصغيرة فلا التوبة تجب عنها [٢] . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصحّ ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحا [٣] .

وتلميذ ثان لأبى على الجُبَّائى انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب، بل يعارض به المعتزلة جميعا ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة، حتى لقد عُدَّ هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصد أبا الحسن [٤] على بن إسماعيل ، سليل أبى موسى الأشعرى الصحابى الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبى على الجبائى ، ثم تاب من القول بالعدل وخلْق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلقى محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التى رجعنا إليها مراراً ،

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٦٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢

(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤

(٤) انظر فى ترجمة الأشعرى تاريخ بغداد ١١/٣٤٦ والفهرست ص ٢٧١ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ١ / ٣٥٣ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكى ٣/٣٤٧ والنجوم الزاهرة ٣/٢٥٩ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ٤٨٧/١ .

ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللمع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً ، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذْكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلا لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذى ساقه الشهرستانى إذ يقول : قال الأشعرى : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتدأ ، وكيف دار فى أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة ، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال — عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، إذ لا يُتَصَوَّرُ صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان فى الخلقة[١]» ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحوله من نطفة إلى علقة فمضغة فعظام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلا لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : ( ليس كمثله شىء ) . وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعرى مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبى المعتزلة والمحدّثين ، وقد تابع الأولين فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدّثين فى أن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلا على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » إيضاحاً تاما وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللمع » . وتوسط بين المعتزلة والجبرية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبرية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعرى فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهى للإنسان كسباً وإرادة فهو يريدها والله يخلقها فيه[٢] . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها[٣] . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدّثين من أمثال ابن حنبل أى بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

---

( ١ ) الشهرستانى ١ / ٩٤.
( ٢ ) اللمع ص ٤٥ وما بعدها.
( ٣ ) الشهرستانى ١ / ٩٥

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلى[1]» ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذى بين أيدينا والذى نزل به الوحى فى زمن من الأزمان فحادث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة فى الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشئونه الإلهية ليس سبيلها ولا أداتها العقل ، بل الوحى والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئًا ولا يقتضى تحسينًا ولا تقبيحًا ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد تُحصَّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع[2] .

(١) الشهرستانى ١ /٩٦

(٢) الشهرستانى ١ /١٠١

## الفصل الرابع

# نشاط الشعر

## ١

### علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يلاحظ تَوًّا كثرة ما أدوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية واللغوية جمعاً مستقصيا صوَّروه فى مباحث مفردة كمبحث عن الإبل أو الشجر أو الكلأ أو النخل و الكَرْم أو خَلْق الإنسان أو الميسر والقداح أو الأنواء ، وكمبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دوَّنوا فيها الرسائل القصيرة والطويلة . ثم ألَّفوا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثانى للهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربي وضعاً نهائيًّا وبالمثل قواعد الصرف والتصريف ، وأيضًا قواعد الأوزان الشعرية والقوافى ، بحيث أصبح الشعر العربى ولغته جميعاً مذلَّلين منقادين للناشئة ، وفى أثناء ذلك وُضعت القواعد لوضع المعجم العربى ، بحيث يضم بين دِفَّتَيْه كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وألَّف على غراره بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعدها النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ مطالع العصر العباسى يجمعون لهم عيون الشعر العربى فى مجاميع كثيرة ، غير ما جمعوه

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر العباسى للشعراء النابهين، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين حتى تفقهه الناشئة فقهاً حسناً، وشاركهم الشعراء فى هذا الصنيع على نحو ما مر بنا فى الفصل السالف مما صورناه عند أبى تمام والبحترى، وقد يكون مما دفعهما إلى هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون فى كثير من الأمر بالشعر الغريب، ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا فى كتابات ابن السكيت وثعلب، فأرادا أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث، وكان كثير من اللغويين قد عُنى بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين، فانبرى بعض الشعراء والأدباء يترجم للشعراء العباسيين فى كتب يفردها لهم، كما يلقانا فى كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح، وجمع ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين فى كتابه «الشعر والشعراء». وكانت قد سبقت ذلك كله كتب فى تراجمهم للأصمعى وأبى عبيدة ودعبل، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام مشهور.

وكل ذلك مكّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعْنَى منذ القرن الثانى الهجرى بتلقين الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وإذا هذه القواعد تتفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتمر وأمثاله، وإذا الجاحظ يؤلف فى ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه «البيان والتبيين» مصوراً فيه كثيراً من أسرار البيان العربى تصويراً يتيح للشباب أن يقفوا فى غير مشقة على خصائص العربية وأن يتذوقوا هذه الخصائص تذوقاً دقيقاً. وشارك الجاحظ فى هذا المجال كثير من اللغويين، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السالف أمثال أبى عبيدة والمبرد، ولم يلبث أن انبرى شاعر نابه هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعرى الرائع فى كتابه «البديع» واستطاع أن يضع لها المصطلحات التى كانت تجمعها فى عصره، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوى أو شاعر من قبله، باثا فى ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة فى الفن الشعرى وجماله المتنوع الذى لا ينضب معينه.

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وُضعت تحت أعين الناشئة فى القرن الثالث الهجرى وضعاً علمياً دقيقاً حتى أصبح فى ميسور كل ناشئ أن يُتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها فى غير عناء ويفهمها فى غير مشقة ويتذوقها فى غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلا دقيقاً . على أنه يحسن أن نعترف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على ألسنة العامة بجانب العربية الفصحى ،وكانت تتداولها الطبقات الدنيا وقد يشركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر فى العراق على ألسنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسى من أيدى الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدى الترك، وكانوا لا يعرفون أى حضارة ولم يكن يعنيهم أن يحسنوا العربية، فاستخدموا اللغة الدارجة فى أحاديثهم ، وكان ذلك عاملا مساعداً فى إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم فى الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامية ، وعمَّم ذلك بعض الباحثين فى الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلا قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنيتها، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة فى الصيغة، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التى شنَّها ابن قتيبة على الكتَّاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هى تشمل أفراداً منهم، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتَّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعممها فى الكتَّاب فضلا عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالمرصاد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شنَّعوا عليه وسقطوا به من حالق سَقْطَةً لا إقالة له منها أبداً، إذ كانوا يَعُدُّون أنفسهم حُماة الفصحى، وأن من نوَّهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزْرَوْا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة فى أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو الشبْل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول : « لما عرض لى الشعر أتيت جاراً لى نحويا هو المازنى وأنا يومئذ حديث السنّ ، فقلت له إن رجلا لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشىء من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرنى عليه وذمّه[1] » ، ومنذ بشار بن برد فى العصر العباسى الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء فى أساليبهم ، فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادّة الفصحى أعلنوا النكير عليه ، حتى لو كان فى انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنيتهم أو على بعض أبنية العرب المسموعة ، ومما يصوّر ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل فَعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقاس على هذه الصيغة وَجَلَى من الوَجَل قائلا :

والآن أَقصَر عن سُمَيَّة باطلى ... وأَشار بالوَجَلَى علىَّ مشيرُ

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئًا له[2] ، وبشار محق ، لأن من حقه القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس فى شئون الدين ، كما قرّر ذلك الفقهاء المعاصرون له من أمثال أبى حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء فى أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية . وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحيانًا لضرورات الأوزان وأنغامها التى يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض المحافظين المسرفين فى محافظتهم كانوا يَعُدُّون الضرورات عيوبًا ، وكانوا لا يزالون يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل ذلك دأبهم فى هذا العصر كما كان دأبهم فى العصر العباسى الأول حين كانوا يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزبانى بطائفة كبيرة من مراجعاتهم لمعاصريهم ، من ذلك قول على بن الجهم :

ونحن أناسٌ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ ... يصحُّ لكم إسرارُها وعِلانُها

---

(١) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٦ .

(٢) أغانى ٣ /٢٠٩ .

فقد ذكروا أنه أخطأ فى قوله : « علانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العلن عالنه كما قالوا أعلنه واشتق منها : عالنه عِلانًا . وسمعه المبرد يقول فى بعض حديثه : « أظننى مأزوراً فى قعودى» ، فقال : لقد نقص فى عينى حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور[١] ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصبْ فى اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها فى البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو على بن محمد العلوى الكوفى المعروف بالحِمَّانى فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًّا وخطأ اشتقاقيًّا صرفيًّا ، فأما الخطأ النحوى ففى قوله :

وجْهٌ هو البدر إلا أن بينهما ... فضلاً تلألُأ فى حافاته النُّورُ
فى وجه ذاك أخاطيطٌ مسوَّدةٌ ... وفى مضاحكِ هذا الدرُّ منثورُ

فقد قالوا إن حق كلمة « منثور » فى آخر البيت الثانى النصب ، لأنها فى موقع الحال ، والطريف أن المرزبانى حاول إخراج الحمانى من هذا الخطأ وردَّه عنه ، فقال إن رفع منثور جائز بمعنى هو منثور[٢] ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحمانى تبادر إليه أن كلمة منثور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « فى مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ فى ذلك . وأما الخطأ الاشتقاقى الذى عابوه على الحِمَّانى ففى قوله :

أَرقتُ وماليلُ المُضَام بنائمٍ ... وقد ترقُد العينان والقلبُ ساهرُ

فقد قالوا إن الصواب مَضيم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضمته وإنما يقال ضمته[٣] فهى فى غير حاجة إلى التعدية بالهمزة . وربما سمع الحمانى من العرب من يقول أضام أو ربما قرأ ذلك فى بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

---

(١) انظر الموشح للمرزبانى ( طبعة دار نهضة مصر ) ص ٥٢٨ .

(٢) الموشح ص ٥٢٠ .

(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته البارعة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليثبتوا عليه الخطأ فى هذا الموضع أو ذاك، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا عليًّا بَلْ يا أبا الحسن الما  لكَ رِقَّ الظريفةِ الحسناء

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم[1] ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يَشْدون شيئًا من النحو ، وغريب أن يخطئْ فيها البحترى، وهو فعلا لم يخطئْ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوَّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مِادحَ الفَتْح ويا آملَهُ  لستَ امرأً خابَ ولا مُثْنٍ كذَبْ

فقد قالوا إن كلة « مثن» فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنيًا ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريده . وأخذوا عليه أيضًا قوله :

ولو أنصفَ الحسَّادُ يوماً تـأَمَّلوا  مساعيك هل كانتْ بغيرك أَلْيَقَا

فإنه سكَّن كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعـَيك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دَاثِرُهْ  وعادتْ صروف الدهر جَيْشاً تغاوره[2]

وقالوا المرويّ : دَثِـرٌ مُخْلِقَـة ، ولا يقال : « أخلق داثره » لأن الداثر لا بقية له فتخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العـَرب يقولون أطلال داثرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تـُمْحَى محواً نهائيـًّا .

---

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه مما أخذوه على البحترى الموشح ص٥١١ وما بعدها .

(٢) المحل هنا : قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسامراء .

ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيَه » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها فى قوله[١] :

أبو غالبٍ بالجودِ يذكر واجبى إذا ما غَبِىٌّ الباخلين نَسيه

وكأن ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحترى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التى تنتهى بها قصيدة البيت ، وأيضًا فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطيئ قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رَضىَ » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . ومما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحترى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يَرْوى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام فى كلمة « طَلْحاته » من قوله مادحًا :

عدلتم بِطَلْحَةَ عن حَقِّه ونكَّبتمُ عن مــوالاتهِ
وكيف يجوز لكم جَحْدُهُ وَطلْحتكم بعضُ طَلْحاته

قالوا كيف يسوّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة[٢] ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحيانًا ، فما بالنا بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفى الحق أن كل ما أنكروه على البحترى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهى صورة من التزمّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . ومما يدخل فى هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومى يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التى مرت بنا فى غير هذا الموضع ، فيقول فى بعض مديحه مخاطبًا الموفق :

ثناك له مقدارُه فكأنَّما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصِنْدَدُ[٣]

فيعترض على نطقه : « صِنْدَدَ » بفتح الدال الأولى قائلا إنها « صِندِدٌ » بكسرها[٤] . وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لنّدل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

---

(١) الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد ( طبعة القاهرة ) ص ٩ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/٣٩٤ .

(٣) ثهلان وصندد : جبلان .

(٤) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ( طبعة بغداد ) ٢/ ٥٦ .

أن يتعلقوا فى هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهرية فى اللغة أو فى التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعدوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية فى الكلمات وأبنيتها كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومى فى كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزبانى وسجله عن علماء اللغة فى هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التى وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل الصاحب بن عباد وأبى هلال العسكرى ، فإنهم لم يتجاوزا فى الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة فى العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقًّا كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول فى الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة فى كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أساتذتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها فى حياتهم اليومية العاملة، وكان ذلك يرفع منهم فى أعين الناس، حتى ليقول إسحق[1] بن خلف الطَّنْبُورِىّ :

النحو يبسط من لسان الأَلْكن ... والمرء تُعْظمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها ... فأَجلُّها عندى مقيمُ الأَلْسُنِ

وإذا كان الإعراب فى رأى بعض المغنين أو الضاربين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة، فأولى أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفى الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية فى المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف، بحيث نجد شاعرًا ضخمًا مثل البحترى أو ابن الرومى لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشىء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخُبْزأرزىّ ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه فى دكان متكسبًا به، والناس يزدحمون عليه لسماع شعره كان لا يعدو الفصحى فى نظمه .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٥٧ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكنّتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية، بحيث نفوا عن أساليبهم كل الشوائب التى كان من المفروض أن تسيل من العامية المتداولة إلى الفصحى، ولم ينفوها فحسب، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة بدون أن يدخل عليها نبوٌ أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص فى الأداء. ويكفى أن يكون همٌّ جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحترى فيعوزهم المثال، فيلجئون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها، ومعروف أن شاعراً لم يكثر فى هذا العصر كما أكثر ابن الرومى، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص فى أشعاره إلا أن يسجلوا فى بناء عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك. فإذا قلنا إن الشعراء فى هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تَمثل وأروعه لم نكن مغالين ولا مُبْعدين، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلا بارعًا، وهو تمثل جعل الشعراء يُعْنَوْنَ عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة فى الجرس، بل بين الحروف نفسها، حتى يلذ الشعر الألسنة التى تنطق به والآذان التى تستمع له والأفئدة التى تصغى إليه، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام، حتى استطاع البحترى أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربى منذُ وُجد امرؤ القيس حتى عصره، فإذا شعره يستحيل أنغامًا وألحانًا خالصة.

والبحترى إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية، بل التمثل لها بحيث تجرى فى نفس الشاعر سليقة الشعر العربى بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهًا تامًّا دقيقًا، بما أتيح له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصفى المتحضر ومن الشعور المرهف الرقيق. وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأتم ما تكون النصاعة والرصانة، وحينًا تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لخفتها ورشاقتها عن الأفواه طيرانًا. ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر فى العصر ظل لها رونقها وبهاؤها، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقًا ، بفضل تمثل الشعراء الفريد فى العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقًا جعلهم يُستَوُّون منها جواهر ولآلئ كثيرة . وإذن فمن واجبنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فك فى كتابه « العربية » عن اتساع الضيم الذى دخل فى العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضيم الذى ساقه حين يُبْحَث لا يعدو ما لاحظناه آنفًا عند البحترى ومعاصريه من أشياء تُعَدُّ على الأصابع ، وهى تدخل جملة فى الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضيم الذى خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضيم حدث فى الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقًا .

## ٢

### ذخائر عقلية خصبة

مرَّ بنا نشاط الترجمة فى العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها فى غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تموج بالمحاضرين فى مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق فى أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة فى تاريخ الفكر الإنسانى ؛ فإذا علماء وفلاسفة عظام يأخذون فى الظهور بينهم ، ويكفى أن نذكر الخوارزمى العالم

الرياضي النابه واضع علم الجبر ، والكندى الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما مُعْلمان كبيران فى العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربى وازدهاره حينئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره فى الفصل الماضى . وحدث فى أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طوابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلى ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسى فى القرن الثانى الهجرى على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكوّنوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه فى كتابنا العصر العباسى الأول ، ونفذ الجاحظ فى العصر كما قلنا آنفاً إلى الوصل فى كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدتْ كتبه تغذّى العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقى بالفكر والعلم التقاء خصباً مثمراً ، على نحو ما نجد فى كتابه «الحيوان». وخطا ابن قتيبة فى هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فمزج فى كتابه « عيون الأخبار » بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجاً قويا ، مزاوجاً بين طائفة كبيرة من الآداب فى الثقافة الأولى والآداب السياسية فى الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التى جلبها من كتاب كليلة ودمنة المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعيًّا لذلك كله أن تنمحى الأبعاد والفوارق بين الفكر العربى الخالص والفكر الأجنبى ، فإذا هما يمتزجان فى بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقًّا ظلت طائفة لا تُعْنَى بهذا التعمق على نحو مامر بنا فى الفصل الماضى عند البحترى وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحترى نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبى ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومى تعمقوا فى هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتهمونه التهاماً ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضاً ، وكأنما لا يريدون أن يبقوا منه بقية. على أنهم لم يفنوا فى هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربى بشخصيته ومقوماته الأساسية . فهم لا يذيبونه فى الفكر الأجنبى ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كى يتعمقوا فى تصوير المشاعر

والأفكار التى طالما عرض لها الشعر العربى ، مضيفين إليها معانى وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب فى أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يغرق فى التثقف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر فى هذا الإلمام فإنه يحتفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر فى نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولا بماضيه ، وحقاً حاول الشعوبيون أن يشككوهم فى هذا الماضى وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصيخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربى فى نفوسهم أقوى من أن تزعزعها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعوبيين المارقين ، فلم يزايلوها ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول، وأنها تتسع لفنون البديع الجديد التى سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته فى صدورها من قديم ، بل لقد وجدوا فى مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكرى الجديد على اختلاف ألوانها، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافى الأجنبى من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسى ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلا دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَلُ إليها من الفكر الأجنبى عربى اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسى يصبح ذهناً عميقاً يتغلغل فى حقائق المعانى نافذ إلى دخائلها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقا أن هذا العمق فى ذهن الشاعر العباسى يلاحظ منذ بشار ومن تلاه فى القرن الثانى ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً فى بواطن المعانى المستقرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فمن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندى الفيلسوف :

وفى أَربعٍ منى حَلَتْ منك أَربعٌ    فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى

أوجهُك فى عينى أم الطعم فى فمى ... أم النطقُ فى سمعى أم الحب فى قلبى

فقال له الكندى : والله لقد قَسَّمتها تقسيمًا فلسفيًّا[١]، وتكثر مثل هذه التقسيمات بين الشعراء إذ كانت تُعَدُّ من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة ، ومنها قول ابن المعتز فى جمال الذوائب[٢] :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيهٍ بشعرها ... شبيهةَ خَدَّيها بغير رقيبِ
فأمسيتُ فى ليلين بالشعر والدُّجَى ... وخَمْرين من راحٍ وخَدٍّ حبيبِ

وهو تقسيم طريف لليل والخمر جميعاً . وعلى نحو ما كانوا يغربون فى التقسيم كانوا يغربون فى الأخيلة ، وقد نقلوا منها ما أعجبهم فى آداب العجم ، من مثل قول على بن الجهم فى وصف الورد :

أما ترى شجراتِ الورد مظهـرةً ... لنا بدائعَ قد رُكِّبْنَ فى قُضُبِ
كأنهنَّ يواقيتٌ يُطيف بهـا ... زَبَرْجَدٌ وسْطَها شَذْرٌ من الذَّهَبِ

والصورة من قول أرديشير : « الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كراسى زبرجد يتوسطه شذور ذهب»[٣] . ولا تكاد تُحْصَى صور الشعراء الطريفة ، بل إن صور شاعر واحد أكثر من أن تحصى ، غير أنه مما يلاحظ أنهم عُنوا كثيراً بأن يغرقوا فى الوهم والتجريد على شاكلة قول العطوى أحد متكلمى المعتزلة الحذاق[٤] :

فوحقِّ البيـــان يعضده البر ... هان فى مأْقِطٍ أَلَدِّ الخصامِ
هى تجرى مَجْرى الأَصالة فى الرَّأْ ... يِ ومجرى الأَرواح فى الأجسامِ

وواضح مدى إغرابه فى الصورة إذ مثل صاحبته بجمال الأصالة فى الرأى ، وهى صورة فريدة ، وتوضح إحساس العطوى بما كان ينفذ إليه المعتزلة لعصره من تفكير أصيل منتهى الأصالة ، وهو تفكير كثيراً ما كان يدفعهم إلى صور غير

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٧ .
(٢) زهر الآداب للحصرى ٣/١٦ .
(٣) ديوان المعانى للعسكرى ٢/٢٣ وانظر الديوان (طبعة المجمع العلمى بدمشق) ص١١١ .
(٤) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى بالقاهرة) ص ٣٧٧ .

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قبساً حين قال فى بعض غزله[١] :

إن من لا أرى وليس يرانى   نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأمانى
بأبى مَنْ ضميرُه وضميرى   أبدًا بالمغيب يَنْتَجِيَانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا   ن إذا ما اختبرتَ يمتزجانِ
فإذا ما هممتُ بالأمر أوهم   مَّ بشىءٍ بدأته وبَدانى
كان وَفْقًا ما كان منه ومنى   فكأنى حكيتُه وحكانى
خطراتُ الجفون منا سواءٌ   وسواءٌ تَحركُ الأبدان

وهو يعبر عن اتحاد بالمحبوب وفناء فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بديا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد فى الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو أنَّ الدمع لم يُطْفِ حرَّها   تولَّد منهـا بينهن حريقُ

فلولا الدموع لاحترق العاشقان ، حرقتهما الشكوى الممضة التى لا يخمد أوارها ، وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد فى الخيال والإغراق فى الوهم كقول أبى العباس الناشئ المعتزلى فى وصف سحاب يهطل ولا يكفّ عن سقوطه[٢] :

خليلىَّ هل للمُزْنِ مقلةُ عاشقٍ   أم النارُ فى أحشائه وهْى لا تدرى
سحابٌ حكتْ ثكلى أُصيبتْ بواحدٍ   فعاجتْ له نحو الرياض على قبر

فالمزن أو السحاب مقلة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقه إلا نار العشق الملتهبة فى الأحشاء ، بل لكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهى تبكى عليه بكاء مرًّا لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة فى الإشادة بأصحابه من المتكلمين

---

(١) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٧/ ١٨٧ .   (٢) زهر الآداب ١/ ١٧٧ .

وكيف أنهم ينيرون دياجى المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة فى العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم ، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحجاجهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفائن المعانى بردودهم ومناقضاتهم لخصومهم ، مما نرى آثاره عند الشعراء ، ومعروف أن الشاعر العربى من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلماً لا آخر لظلامه، ويلم ابن بسام بهذا المعنى ، فينفى هذا الظلم عن الليل قائلا[١] :

لا أَظلم الليل ولا أَدَّعى أَن نجوم الليل ليستْ تَغُورْ
ليلى كما شاءتْ فإن لم تَزُرْ طال وإن زارتْ فليلى قصيرْ

فالطول والقصر نسبيان ، وهما معلقان بصاحبته إن هى زارت قَصُرَ الليل وإن لم تزر طال ، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً ، منصفاً لليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلموه. وقد يُقال : وأين شعر المعتزلة الذى استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية ، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير فى هذا الباب سقط من يد الزمن ، فالمرزبانى فى معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد ، غير أنه لا ينشد منها شيئاً[٢] .

وليست الأشعار الاعتزالية فى نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبى اليونانى وغير اليونانى، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر فى العقل العربى من خصب ، ليس هو وحده مورده الوحيد ، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبى كانت أكثر خصباً ، إذ استطاع أن يستوعبها ويتمثلها ، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا، وهى مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة فى كثرة التوليدات العقلية . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر فى هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدونى إسماعيل بن إبراهيم ، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (كساءً فارسيًّا)

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧ .

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تجاوز بها الخمسين من مثل قوله[١] :

طَيْلَسانٌ لابن حرب جاءنى ... قد قضى التمزيق منه وَطَره
فهْو قد أَدرك نوحاً فعسى ... عنده من علم نوحٍ خبره
أَبدًا يقرأ من أَبصرَهُ : ... (أَئِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةْ)

ولا شك فى أن هذه قدرة بارعة ، والحمدونى لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعًا مثل طيلسان ابن حرب وأنه خَلَقٌ بالٍ يستطيع أن يعرضه فى صور متعددة لا تبلغ فى العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر فى العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاكًا ولا خلاصًا. ونضرب مثلا بالبحترى الذى حمل فى بعض شعره حملة شعواء على من يكلِّفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرته ، حتى لنراه يشيد بالعلم والمعرفة فى بعض ممدوحيه ، إذ يقول له[٢] :

عرف العالمون فضلك بالعلـ ... ـم وقال الجهّال بالتقليدِ

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضًا التقليد وكأنه يدعو للاجتهاد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراءه جهل ، وحرىٌّ بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما فى الأمر أنه لم يكن يسرف فى ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش فى شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

(١) زهر الآداب ٢ /٢٣٥ .
(٢) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ١ / ٦٣٨ .

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم فى العصر الشاعر الذى لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحترى فى شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافاً من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الخصبة ، وتثقفه بأشعار أستاذه أبى تمام ذائع مشهور ، وهى نفسها تحبب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصوَّر بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذى يحملها فى قوله لبعض ممدوحيه (١) :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجْمِعَتْ　　يَفْنَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمِ
مثلَ الكلامَ تفرَّقَتْ أنــواعُهُ　　فِرَقاً وتَجْمَعُها حروفُ المُعْجَم

وحقاً لم يكن البحترى صاحب تعمق فى معانى الشعر مثل أبى تمام أو مثل معاصره ابن الرومى ، ولكن كانت ملكته خصبة ، وكانت ما تزال تمده بخواطر لا تنفد ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى سينيته التى وصف فيها إيوان كسرى وصفاً لم يُسْبَقْ إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه فى تنوع اعتذاراته للفتح بن خاقان تنوعاً خلب معاصريه ، كما خلبهم عنده إبداعه فى وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به فى رُؤاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلى ، ولكن الجديد عند البحترى أنه استطاع بملكته العباسية الخصبة التى تقتدر على التوليد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله (٢) :

سَقَى الغَيْثُ أَجْرَاعاً عهدتُ بجوِّها　　غزالا تُراعيه الجآذرُ أَغْيَدَا (٣)
إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خيالَهُ　　شفى قربهُ التَّبْرِيحَ أو نَقَعَ الصَّدا (٤)
ولم أرَ مثْلَيْنَا ولا مثل شأْننا　　نُعَذَّبُ أيقاظاً ونَنْعَمُ هُجَّدا (٥)

---

(١) الديوان ٤/٢٦٦٦ .
(٢) الديوان ٢//٦٧٠ .
(٣) الأجراع : الرمال الطيبة . الجو : منخفض الأرض . الجآذر : بقر الوحش .
(٤) نقع الصدا : سكن الظمأ .
(٥) هجدا : نائمين .

وقوله [١] :

أَلمَّتْ بنا بعد الهدوِّ فسامحتْ بوصلٍ متى نطْلبه فى الجِدِّ تَمْنَعِ [٢]
وما بَرِحَتْ حتى مضى الليل وانْقَضَى وأعْجلها داعى الصباح الملمَّعِ [٣]
فولَّت كأَن البَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَها أوانَ تولَّتْ من حَشَاىَ وأَضلعى [٤]

وواضح ما فى الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفتة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولَّت وكأنها تُنْتَزَع من حشاه وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحترى كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعانى ، فقد سمع أو حفظ قول القائل فى وصف أحاديث بعض النسوة وما يُذعن فيه من جمال وسحر :

إذا هن ساقَطْنَ الأَحاديث بالضُّحَى سِقاطَ حَصَى المرجان من كَفِّ ناظمِ

فما زال يدير البيت فى نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله فى وصف لقائه بمن خلبت لُبَّه [٥] :

ولما التقينا والنَّقَا مَوْعِدٌ لنــا تَبَيَّن رامى الدُّرِّ منا ولاقِطُه [٦]
فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه

ولعل أكبر شاعر فى العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ فى الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومى ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التى عاصرته ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلا نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعًا اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفى

---

(١) الديوان ٢/١٢٣٧ .
(٢) الهدو : شطر من الليل .
(٣) الملمع : الممزوج سواده ببياضه إشارة إلى أوائل الصباح .
(٤) يخلج : ينتزع .
(٥) ديوان المعانى ١ / ٢٣٨ وانظر الديوان ٢/١٢٣٨ .
(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله[1] :

أأرفض الإعتزال رأياً كلا لأنى به ضنين

فهو يؤمن به ويعتنقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلا ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنينًا به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحس بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتنقون هذا المذهب الذى كان معروفًا حينئذ بمبدئين يجادل فيهما أصحابه طويلا ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما ينطوى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير فى بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلا له[2] :

إن لا يكن بيننا قُرْبَى فآصِرَةٌ للدين يقطع فيها الوالدُ الولدا
مقالةُ «العدل والتوحيد» تجمعنا دون المضاهين : مَنْ ثَنَّى ومن جحدا

وواضح أنه يجعل لُحْمة الاعتزال فوق لحمة القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائجَ وأواصرَ . ولا يهمنا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمنا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضًا ، وكانت أهم ثقافة أكبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبَّ معهم كثير من الشعراء — وخاصة من كانوا يعتنقون الاعتزال — على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة فى مطالع حياته ويُنْفق فى ذلك أوقاتًا طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صبغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

---

(١) ديوان ابن الرومى ( نشر كامل كيلانى ) ص ٩٢ .

(٢) ابن الرومى : حياته من شعره ( طبع المكتبة التجارية ) ص ٢٢٣ .

الطبيعة فى الربيع ، ونقصد استقصاءه للمعانى ، فهو إذا ألمَّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم فى قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطاً لا يُعْرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطاً يجعل البيت لا يُفْهَمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكاملا متناسقاً ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب، بل أيضاً الوحدة العضوية ، إذ تصبح كُلا واحداً مؤلفاً من أجزاء ولكل جزء أو بيت مكانه ، بحيث لو نُزِع منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الجديد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هى الأفكار والمعانى ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمةَ القرابة ، بل لحمة الأعضاء فى الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومى خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الخصب الذى لا حد له ، فقد أصبح العقل العربى يتعمق المعانى حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلئ كانت خافية عن الأنظار، بل إن الشاعر يغوص فى مسارب المعانى فيطّلع على شُعَب لاتكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشعيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذى يستهدون به فى مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التى صقلها الفكر الفلسفى . وكأنما تحولت المعانى الشعرية عند ابن الرومى إلى صورة من صور حوارهم ، فهى تتفرع إلى أقصى حد ، وهى تتضح أيضاً إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طولا مسرفاً لا يُعْرَفُ لشاعر عربى من قبله ولا من بعده ، لأن المعانى تُذْكَرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذى يُشْغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن فى أن شعر ابن الرومى يصور تعمقه فى دراسة المنطق وليس

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعلله يستحيل عنده شعراً وفنًّا ، فإذا بنا نتنقل فى طرائف لا تحصى من المعانى ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يُتَـصَوَّر بدونها ، وإلا يكون شيئًا غثًّا لا قيمة له ، وصوَّر ذلك ابن الرومى نفسه فى بعض حواره مع شاعر أنشده شعراً سليمًا من العيوب مطبوعًا عاريًا من دقائق المعانى ، فقال له : « نحن — أعزَّك الله — نطلب مع السلامة الغنيمة »(١) . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنًى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله(٢) :

عدوُّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنَّ من الصِّحـــابِ
فإن الداء أكثرُ ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وهذا التحذير من الصديق يدور فى كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومى هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحيانًا داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمنه ، ومن تعليلاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول(٣) :

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُ مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا
فقد ألفتْه النفسُ حتى كأنه لها جسدٌ إن بان غودر هالكا

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة فى ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومى ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التى لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتى طالما ألفتها النفس وأنِستْ لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح فى الهالكين . وتكثر فى شعر ابن الرومى كثرة مفرطة التعليلات والأدلة والأقيسة كقوله فى بعض غزله(٤) :

---

(١) ذيل زهر الآداب (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٩٠ .
(٢) الديوان ص ١٣٩ .
(٣) الديوان ص ١٣ وزهر الآداب ٣/ ٩٩ .
(٤) زهر الآداب ١ /١٢ .

لا تكثرنَّ ملامةَ العُشَّاقِ فكفاهمُ بالوجد والأشواقِ
إن البلاءَ يُطاق غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعف كان غير مُطاقِ
لا تطفئنَّ جَوًى بلومٍ إنَّه كالريح تُغْرِى النار بالإحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذى لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بديع ، فالهوى نار مشتعلة فى الصدور ، واللوم ريح عاصفة تفرقها يميناً وشمالا ، حتى تأتى على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تلظياً وإحراقاً واشتعالا . وبجانب هذه القدرة لدى ابن الرومى على الأقيسة والعلل، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق، وكأنه معتزلى كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدلته ، أو قل إنه يُدلى بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهى براهين وحجج شعرية ، فيهافن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إيثار الورد على النرجس ، فيرد عليهم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول[1] :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ خَجَــلاً توردُّها عليهِ شاهدُ
أَين العيونُ من الخدود نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذى طالما شبَّهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدرون الجمال له على النرجس الذى يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالا ، وهو بون بعيد لا يخطئُ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . ومما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعمد إلى ذم شىء ذماً طبيعياً ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعمد بعد ذلك إلى مدحه ، بياناً لقدرته فى الحجاج والجدل . ويُنْسَب إلى الجاحظ كتاب فى المحاسن والأضداد بعامة ، وهو منحول عليه ، ولكنا نجد معاصراً لابن الرومى هو إبراهيم بن محمد البيهقى يؤلف كتاب المحاسن والمساوى وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا فى العصر — يقودهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشىء وذمه ، وعلى

---

(١) الديوان ص ٣٨٩ .

قبس من هذا الصنيع عمد ابن الرومى إلى ذم الحقد البغيض ، فقال[١] :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له يَرِى الصدورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا[٢]
فاستَشْفِ منه بصفحٍ أو معاتبةٍ فإنما يبرئُ المصدورَ ما نفثَا[٣]

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جَمْره متقداً فى الصدور ولا يمكن إطفاؤه ، ويحاول ابن الرومى أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد ينفسان عنه بعض الشيء ، ولكن أى تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذى قد ينفس عنه لحظة ما ينفثه ، وسرعان ما ينطوى صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذى يشوى صدر صاحبه شيًّا . وابن الرومى فى ذلك كله متفق مع الناس جميعاً فى ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقه أن يُغرب عليهم كما يغرب أحياناً المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدد فى الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحيله شيئاً مستحبًّا لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول[٤] :

وما الحِقْدُ إلا تَوْأَمُ الشكر فى الفتى وبعضُ السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعضِ
فحيث تَرى حِقْدًا على ذى إساءةٍ فثَمَّ ترى شكرًا على حَسَن القَرْضِ
ولولا الحقودُ المستكنَّاتُ لم يكن لينقضَ وِتْرًا آخر الدهر ذو نَقْضِ

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وحرى بنا إذا تأملنا فى حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يُسْتَحَبّ إزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر إزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومى إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فلولاه لضاع الوتر أو الثأر ولم يأخذ موتور حقه من واتر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميم فى صورة حسنة محمودة ، بفضل مهارته فى الحوار والجدل ، وكأنه معتزلى كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراءه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

(١) الديوان ص ١٣٧ .
(٢) يرى : يشعل .
(٣) المصدور : المريض بذات الصدر أو الرئة .
(٤) الديوان ص ١٦٣ .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الخصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعانى والأخيلة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل للشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حيًّا على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يذوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحوّل عن أصوله ، مهما غذّته الثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبّر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائمًا بقديمه ، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالا يمكّن لها فى التاريخ وفى الخلود . وحقًّا تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تُحْدِثُ تعديلا فى جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغذون به من الثقافات وما كان يداخلهم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديحُ ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضًا مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمة خلقية ودينية لتربية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربيه . وكل ذلك اضطرم اضطرامًا فى المدحة عند

شعراء العصر العباسى الأول ، مع محاولاتهم الجادة فى التطور بمعانى المديح عمقًا وسعة وتنوعًا ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم فى هذه الإضافة تزداد خصبًا فى هذا العصر ، وهم فى ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو واليًا أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضًا العدل الذى يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائمًا على ألسنة الشعراء من مثل قول البحترى فى المتوكل ، وكان اسمه جعفراً[1] :

خَلَقَ اللهُ جَعْفَرًا قَيِّم الدُّنْ ... يَا سَدَادًا وقيِّم الدين رُشْدَا
أظهر العدلَ فاستنارتْ به الأَرْ ... ضُ وَعَمَّ البلادَ غَوْرًا ونَجْدا

وقد مضى الشعراء يُضْفون هذه المثالية على الخلفاء فى الحكم وفى التقوى وأيضًا فى الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغى أن يكون عليه الخليفة فى خلقه وفى دينه وفى سيرته وفى حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة فى حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التى تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذى يعمل بكل ما فى وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا فى الانتفاع بالحياة تساوياً تامًا . وكان هناك من يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قدسية ، وهى صفات خلعها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بنى أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم فى المتوكل[2] :

إمامُ هُدًى جَلَّى عن الدين بعد ما ... تعادتْ على أشياعه شِيَعُ الكُفْرِ

وقوله[3] :

له المِنَّةُ العُظْمَى على كل مسلمٍ ... وطاعتُه فرضٌ من الله مُنْزَلُ

---

(١) الديوان ٢ /٧١٢ .
(٢) الديوان ص ٢٢٢ .
(٣) الديوان ص ١٦٤ .

فهو الهادى المهدى الذى تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون فى بيان ذلك مبالغات شتى ، مما سنعرض له فى غير هذا الموضع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى فى عصور الخلفاء ولنأخذ مثلا المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة فى دواوين الشعراء وفى كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده فى الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم فى أشعاره[١] ، ومن ذلك عقده البيعة لبنيه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، فقد تغنى شعراؤه بهذا الصنيع طويلا[٢] .

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوَّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره. وليس هناك حادثة جُلَّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بَخْتَيْشُوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغَى شمالا وشرقًا ، وهى ليست تاريخًا يُسْرَدُ كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن ، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقًا ، وفيه وفى انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحترى[٣] :

هو الملكُ المرجوُّ للدين والعُــلا ... فللّه تَقْواه وللمجد سائرُهْ
له البـأْسُ يُخْشَى والسماحة تُرْتَجَى ... فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشِرُهْ[٤]
كَسَرْتَهُمُ كَسْرَ الزُّجاجةِ حِــدَّةً ... ومن يجبر الوَهْيَ الذى أنت كاسرُه
حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجَحْفَلٌ ... شِدادٌ قُوَاهُ مُحْصَدَاتٌ مَرَائِرُه[٥]

(١) الديوان ص ١٩٢ .
(٢) الطبرى ٩ /١٨١ .
(٣) الديوان ٢ /٨٧٧ .
(٤) عاشره : يبلغ معشاره .
(٥) محصدات : محكمات . مرائره : قواه، وأصلها طاقات الحبال .

وليست هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودوّن الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدوّيا ، ونرى الطبرى يسجل فى تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدوّن أغانى وأناشيد أخرى فى حروب القرامطة ، وكأنما استقر فى نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنّى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحاً للبطولات وتمجيداً فحسب ، بل هو أيضاً تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغلّ هذا التاريخ الشعرى فى كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيراً ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث مالا نجده مصوراً فى كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغى على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرءون فى كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث المبثوث فى دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعاً مضبوطاً دقيقاً .

وظل شعراء المديح فى كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين فى الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية ، وفى رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع فى كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية فى العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ ، وإنما كان لإحساس الشاعر إحساساً عميقاً بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحى من حياة الإنسان إلى غير مآب ، سواء فى ذلك حبه وغير حبه ، فدائماً لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مآب فى الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصوّر الأطلال نوازع الفناء التى تطبق مخالبها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تُطبِقُ هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثراً بعد عين ، وهو لذلك يقف بالأطلال باكياً بدموع غزار ، متمنياً لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة ، ولذلك قد يستسقى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدبّ فيها الحياة ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف داراً وأطلالا[١] :

(١) الديوان (طبعة دار صادر بيروت) ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنْزلة الدُّوَيْرَةِ منزلٌ ... يا دارُ جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بُؤْساً لدهرٍ غَيَّرَتْكِ صُرُوفُهُ ... لم يَمْحُ من قلبى الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعدكِ منظرٌ ... ذُمَّ المنازلُ كلُّهن سواكِ
أَيُّ المعاهد منك أندبُ طيبَه ... مُمْساكِ بالآصال أم مَغْداكِ
أم بَرْدُ ظِلِّك ذى الغصون وذى الجَنَا ... أم أرضك المَيْثاءُ أم رَيَّاك(١)
وكأنما سَطَعَتْ مجامرُ عَنْبَرٍ ... أوفُتَّ فَأْرُ المِسْكِ فوق ثَرَاكِ
وكأنما حَصْباءُ أرضك جــوهرٌ ... وكأَن ماءَ الورد دمعُ نَدَاكِ
وكأنما أيدى الربيع ضُحَيَّةً ... نشرتْ ثيابَ الوَشْيِ فوق رُبَاكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويراها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيّرتها صروف الزمان حتى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلا فى قلبه ، وهو يدعو لها الغيث أن يجُودَها حتى تستعيد حُلّتها الداثرة . وتتراءى له من خلال ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر وعلى الآصال فى المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثمار ، وتفوح الأرض برائحتها الساطعة ، وكأنما تفوح مجامر عنبر ، أو كأنما تفوح فأرة مسك ، وحتى الحصى كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ، والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حنينًا ووجداً لا نهاية لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو فى هذه الصورة الفاتنة المحفورة فى ذهن ابن المعتز حفراً لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى والشباب الداثرة ، مفضيًا إلى وصف رحلة له فى الصحراء ، يتحدث فيها عن طول سُراه وعن الفلوات وحيوانها الأليف والوحشى ومَدَى ضَنَا بعيره فى رحلته

---

(١) الجنا : الثمر . الميثاء : السهلة . الريا : الرائحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذبًا من أفكار الفناء ويتغلغل فى نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسى مستبقيًا على كل هذه العناصر فى قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهى متناثرة فى دواوين الشعراء من مثل قول على بن الجهم[١] :

كم قد تجهَّمنى السُّرَى وأزالنى ليـــلٌ ينوءُ بصدره متطاولُ
وهززتُ أَعناقَ المطىِّ أسومُها قصدًا ويحجبها السوادُ الشامل
حتّى تولَّى الليلُ ثانىَ عِطْفِـــهِ وكأَن آخره خِضَابٌ ناصِلُ
ورأيت أَغْباش الدُّجَىٰ وكأَنها حِزَق النَّعام ذُعِرْنَ فهْى جوافلُ[٢]

وهو يصور سُراه فى ليل متطاول يجثم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتى نَصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقاياه وكأنها نعام مذعور ، فهى تفر فراراً من الضوء الذى أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول إبلهم وضناها كناية عن طول سُراها ومدى ما عانته من نصب فى وعثاء السفر الطويل الذى لا يكاد ينتهى . وألمّ شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحترى فى وصف إبله[٣] :

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب وقد خُضْـ نَ غِمارًا من السَّراب الجارى
كالقِسِىِّ المعطَّفات بل الأَسـ ـهمِ مبريَّةً بل الأَوتارِ[٤]

فهى لا تكاد تبين نحولا وهزالا حتى لكأنها أصبحت سرابًا ، وإنها لتشبه القسىّ المنحنية ، بل هى أكثر نحولا فهى كالأسهم ، بل هى أيضًا أكثر ضنًا وهُزَالا حتى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا فى أثناء ذلك يعرضون لوصف حُمُرِ الوحش وأُتُنها التى يصادفونها فى الفلاة ، وكذلك لوصف الظباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز[٥] :

---

(١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) أغباش : بقايا . حزق : جماعات . جوافل : منزعجة .
(٣) الديوان ٢ /٩٨٧ .
(٤) المعطفات : المنحنيات .
(٥) الديوان ص ١٥٩ .

وجَرَتْ لنا سُنُحاً جآذرُ رَمْلَةٍ تتلو المهَا كاللؤلؤ المتبدِّدِ[1]
قد أطلعتْ إبَرَ القرون كأنها أخذُ المراود من سَحيق الإثْمِدِ[2]

وكان ابن المعتز قد سُبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدبَّبة بالمراود المغموسة فى الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتى قال يصف ثوراً وحشياً يقود إجْلا أو قطيعاً من بقر الوحش[3] :

كأنى على طاوٍ من الوحش ناهضٍ تخالُ قرون الإجْل من خلفه غابا

فقرون البقر تتكاثر حتى ليخالها ابن المعتز غابة نبتت فى الفلاة فجأة .

وكان الشعراء يعرضون أحياناً مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهنئة بعيد النيروز وبيوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهنئون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملاهيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومى فى قصيدة يوم المهرجان التى مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، ونراه يصور تصويراً رائعاً ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول[4] :

وقيانٍ كأنها أُمهــاتٌ عاطفاتٌ على بَنِيها حَوانِ
مُطْفِلاتٌ وما حملْنَ جَنِيناً مرضعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبانِ[5]
كلُّ طفلٍ يُدْعَى بأسماء شَتَّى بين عودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَانِ[6]
أمُّه دهرَها تترجم عنه وهْو بادى الغِنى عن الترجمـــان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزامٍ من أمه واحتضانِ[7]

---

(١) سنحا : عرضاً أو مارة من اليمين . الجآذر : جمع جؤذر وهوولد البقرة . المها : بقرالوحش .
(٢) الإثمد : الكحل .
(٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جائع .
(٤) الديوان ص ٨٤ .
(٥) لبان : لبن .
(٦) الكران والمزهر من آلات الطرب الوترية .
(٧) التزام : اعتناق .

وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال لهن، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها، ولكن لابلبن وإنما بألحان شجية تشفى المحزون من دائه، ولكل منهن جمالها وسحرها وفتنتها وصوتها الذى يدلع الحزن والفرح جميعاً ، صوت تمده وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذاتُ صوتٍ تهزّه كيف شاءتْ مثلما هزّتِ الصَّبا غُصْنَ بانِ

وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلا فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائماً يلائمون بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلا عرضوا لسياسته وتفننه فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائعه وأمجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالماً أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنياً أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضياً ولاعالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلا ، وأدّاهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . واقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحترى مثلا، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يَسْلقه بلسانه طويلا بمثل قوله[1] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرَى بإفْـكه المُرْدِى وإبطاله
كاد أمينَ الله فى نفسهِ وفى مواليـه وفى ماله
والرأىُ كلُّ الرأى فى قتلـه بالسيف واستصفاء أمواله

وله قصائد كثيرة يمجد فيها المستعين وعهده ، حتّى إذا خُلع وولّى الترك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحترى حاذقاً فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

(١) الديوان ٣ /١٦٣٧ .

ابن بسام ، وكان يتعرض فى هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقلما سلم أحد من لسانه ومن قوله فى العباس بن الحسن وزير المكتفى[١] :

وزارة العباس من نَحْسها تستقلع الدولةَ من أُسِّها
شبَّهته لما بدا مقبــلا فى حُلَلٍ يُخْجَلُ من لبسها
جاريةً رَعْناءَ قد قدَّرتْ ثيابَ مولاها على نفسها[٢]

وكان أكثر ما يعتمدون عليه فى الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير وما إلى ذلك من طعنات مصمية نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس فى صديق تنكر له وجحد معروفه[٣] :

ولما رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهدِ
وليس عــدوّك بالمتقى وليس صديقك بالحامدِ
أتيتُ بك السوقَ سوقَ الرقيقِ فناديت هل فيك من زائد
على رجلٍ غــادرٍ بالصديقِ كفــورٍ لنعمائه جاحدِ
فما جاءنى رجلٌ واحدٌ يزيد على درهمٍ واحــدِ
سوى رجلٍ حارَ منه الشَّقا وحلَّتْ به دعوةُ الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهد مخافة أُدْرَكُ بالشاهد
وأُبْتُ إلى منزلى سالماً وحَلَّ البلاءُ على الناقد[٤]

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخًا ، حتى لتجعله حيًّا كميت وموجوداً كمعدوم ، فلا هو من أهل المجون ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمده صديق، إنه كنودٌ مهين، ولذلك ذهب يبيعه الصولى فى سوق الرقيق الكبيرة، معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفُّون عن شرائه إلا

(١) زهر الآداب ٣ /٨٨.
(٢) قدرت : فصّلت وقطّعت .
(٣) ديوان المعانى ١ /١٨٣ .
(٤) الناقد : المشترى .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيئ الحظ كأنما استجيبت فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلّ به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إيذاء شديداً أن يوصفوا بالقذارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعطور ، وكأن من يوصف بنتن الرائحة يتلطخ بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلا له[١] :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا ... وأَبْرِقْ يميناً وأَرْعِدْ شِمالا
نجابك لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبابِ ... حمته مقاذيره أن يُنالا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف أن ابن الرومى هو أكبر شعراء الهجاء فى العصر وأكثرهم سهامًا لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعة ، كقوله المشهور فى وصف بخيل[٢] :

يقتِّر عيسى على نَفْسِهِ ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفَّس من مَنْخِرٍ واحدِ

ففتحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقًّا كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصًا وبخلا وشُحًّا جُبل عليه . وكانت لابن الرومى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الرومى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحيانًا شكل حيوانات مجترة وغير مجترة ، كقوله فى بعض مهجويه[٣] :

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى ... كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقينِ

---

(١) الديوان فى مجموعة « الطرائف الأدبية » ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة العاشرة بدار المعارف ) ص ٢١٤ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه القبيح يوماً، فتراءى له فى صورة بغلٍ لطحَّان ما يزال يحرك فكيه فى أكل طعامه من الفول وغيره ، أو كما يقول(١) :

وتحسب العين فكيْه إذا اختلفا عند التنغم فَكَّىْ بَغْلِ طحَّانِ

وهو جانب طريف عند ابن الرومى سنعرض له ثانية فى ترجمته ، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء فى هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده .

وظل الفخر نشطاً فى العصر ، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً فى هذا العصر لضعف الشعور بالعصبية القبلية ، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين ، ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً ، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيٍّ قبيلته ، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قائلا(٢) :

أَبتْ لى قُرومٌ أَنْجَبَتْنى أن أَرَى وإن جَلَّ خطبٌ خاشعاً أتضجَّرُ

أُولئك آل الله فِهْرُ بن مالكٍ بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسيرُ ويُكْسَرُ

همُ المنكِبُ العالى على كل مَنْكِبِ سيوفُهم تُفْنى وتُغْنى وتُفْقِرُ

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز ، إذ نراه يفخَر طويلا على بنى عمومته العلويين ، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين ، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه ، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء ، ومن طريف فخره قوله(٣) :

لا أشرب الماء إلا وهْو منجــردٌ من القَذَى ولغيرى الشَّوْبُ والرَّنَقُ(٤)

عزمى حسامٌ وقلبى لا يخالفه إذا تخاصم عَزْمُ المرء والفَرَقُ(٥)

---

(١) الديوان ص ٣٦١ .

(٢) الديوان ص ١٣٢ .

(٣) الديوان ص ٣٣٠ .

(٤) الشوب : الماء المخلوط . الرنق : الكدر .

(٥) الفرق : الخوف .

مَيْتُ السَّرائر ضَحَّاكٌ على حَنَق ما دام يَعْجِز عن أعدائِىَ الحَنَقُ

فهو يشرب الماء صفواً وغيره يشرب به كدراً وشوبـًا وطينـًا ، وهو قوى العزيمة ، يكتم سره ونيته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة . وقد تغنى الشعراء معه طويلا بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التى ظلت لا تبرح ذاكرة العرب على مر العصور .

واحتدم الرثاء فى العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت فى سجنه ، وكان من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقـًا ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حارًّا ، ومما يصور ذلك مقتل المتوكل الذى مرَّ بنا الحديث عنه ، وكان البحترى حاضراً مقتله فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته[1] :

مَحَلٌّ على القاطول أخلق دَاثِرُهْ وعادتْ صروف الدهر جيشاً تغاوِرُهْ

ويقال إنه نظمها حين ولى ابنه المعتز الخلافة وهى ليست رثاء ولا تأبينـًا فحسب ، بل هى أيضـًا ثورة على الجناة وفى مقدمتهم ولى العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى ما يشبه بركانـًا لا يزال يقذف بالحُمَم الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمـًا بدم ، ويعجب أن ابنه وولى عهده يشترك فى دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بتراثه ، يقول :

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدك أو أرى دماً بدمٍ يجرى على الأرض مائرُه[2]

أكان ولىُّ العهد أضمر غَدْرَةً فمن عجب أنْ وُلِّىَ العَهْدَ غادِرُهْ

فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مضى ولا حملتْ ذاك الدعاءَ منابره[3]

وكان ابن المعتز صديقـًا حميمـًا للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارَى فى شجاعته وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن المعتز جزعـًا شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المراثى الحارة، منها مرثيته[4] :

(١) الديوان ٢ /١٠٤٥ .

(٢) مائره : سائله .

(٣) ملى : متع .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ /١٢٧ .

يا دهرُ وَيْحك ما أبقيتَ لى أحدا　　وأنت والدُ سوءٍ تأكل الولدا

وقد مضى فيها يندب سكناه فى دار موحشة ، وقد خلّف من ورائه الجيوش والكنوز التى لم تكن تُحْصَى عدداً ، والسرير أو العرش الذى كان يملؤه مهابة وسؤدداً ، ويذكر سحقه للأعادى سحقاً لا يبقى ولا يذر ، والجياد والرماح تغدو عليهم وتروح ، كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيه وأمجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أثَرٌ　　حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا

وعلى نحو ماتفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا فى حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن يحيى المنجم فى ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبغون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعاً على هذا النمط(١) :

قد زرتُ قبرك يا علىُّ مسلِّماً　　ولك الزيارةُ من أقلِّ الواجبِ

ولو استطعت حملتُ عنك ترابه　　فلطالما عنى حملتَ نوائبى

ودمى فلو أنى علمت بأنه　　يَرْوى ثَراك سقاه صَوْبُ الصائب

لسكبته أسفاً عليك وحسرةً　　وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكبِ

فلئن ذهبت بملء قبرك سُؤْدُداً　　لجميلُ ما أبقيت ليس بذاهب

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتمنى ابن بسام أن لو فَداه بروحه ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه لسكبه عليه ولم يسكب دموعه المنهلة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صُنْع لن يذهب سُدًى ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزون الآباء فى البنات وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الرومى

(١) زهر الآداب ٣/٨٨ وانظر معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور فى ابنة له على هذه الشاكلة[١] :

لا تبعدنَّ كريمةٌ أودعتَها صِهْرًا من الأصهار لا يُخْزيكا
إنى لأَرجو أَن يكون صَداقُها من جَنَّة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأَسنَّ لها فقد زوَّجتَها كُفُؤًا وضمَّنْتَ الصداق مَلِيكا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فنحن دائمًا مشدودون إلى الموت، وكل لحظة تمضى تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه، بل لكأن الأيام خُلقت لكى تنزل الكوارث على الناس، أما ما قد تجلبه لهم من نعم فهى إنما تجلبه عن غير عمد، وفى ذلك يقول ابن المعتز فى بعض مراثيه[٢] :

أَلستَ ترى موت العُلا والمحامِد وكيف دفنَّا الخلق فى قَبْرٍ واحدِ
وللدَّهر أَيامٌ يُسِئْنَ عوامدًا ويحسنَّ إن أَحسنَّ غيرَ عوامِد

وسَعَرَ موتُ الأبناء وذوى الرحم قلوب الشعراء، فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنينًا حارًّا من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة، ومضوا يتأوهون وجدوات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لذعًا، ويشتهر فى هذا الجانب ابن الرومى برثائه لابنه الأوسط وقد مات منزوفًا وهو لم يزل فى المهد صبيًّا، وأحس كأن القدر اختطف منه فلذة كبيرة من كبده، فامتلأت نفسه حزنًا وشقاء، وقعهما على قيثارته ودموعه تنحدر على خديه، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة، علَّها تنفس عنه شيئًا من محنته فى ابنه، يقول[٣] :

بكاؤكما يَشْفِى وإن كان لا يُجْدِى فجودا فقد أَوْدَى نَظِيرُكما عِنْدِى[٤]
أَرَيحانةَ العينين والأَنف والحَشَا أَلاليت شعرى هل تغيَّرتَ عن عهدى
كأَنِّىَ ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ فى ملعبٍ لك أَو مَهْدِ
وأَنت وإن أُفردتَ فى دار وحشةٍ فإنى بدار الأُنس فى وحشة الفرد

---

(١) زهر الآداب ٢ /١٧٣ .
(٢) الديوان ص ١٨٧ .
(٣) الديوان ص ٢٩ .
(٤) يجدى : يفيد . أودى : هلك .

والقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى لكأنما أصبحت الدنيا كلها فى عين ابن الرومى قبراً موحشًا كبيراً ، قبراً يصب عليه حزنًا ثقيلا . وممن رُزِئَ بابنين له وبكاهما طويلا إبراهيم بن العباس الصولى ، وكان الموت قد فجأه فى أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه فى الثانى ، فقال[1] :

كلَّ لسانى عن وصف ما أجدُ ... وذُقْتُ ثُكْلاً ما ذاقه أَحَدُ
ما عالج الحزن والحرارة فى الأ ... حشاء مَنْ لم يمت له ولد
فُجِعْتُ بابنىَّ ليس بينهما ... إلا ليالٍ ما بينها عَدَدُ
وكلُّ حُزْنٍ يَبْلَى على قدم الـ ... دَّهْر وحُزْنى يُجِدُّهُ الكَمَدُ

وشاعرية الصولى كانت دون شاعرية ابن الرومى ، ولذلك لم يبلغ فى تصوير حزنه وأساه على فلذتى كبده ما بلغه ابن الرومى من تصوير كارثته فى ابنه وفاجعته فيه .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين أصابتها كوارث النهب والتحريق فى حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر العربى لأول مرة رثاء المدن ، ونجد فى هذا العصر الجديد بقية لهذا الرثاء حين هجم صاحب الزنج بجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا ، حتى قيل إنه قتل منهم فى هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا هناك إلى مراثى الشعراء لتلك المدينة وفى مقدمتها مرثية ابن الرومى :

ذَادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ ... شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب الذل والهوان والخسف والعسف ما ملأ نفسه ألمًا وهولا وحسرة ولوعة ، حتى إنه ليبكى بكاء مرًّا طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

---

(١) الديوان فى « مجموعة الطرائف الأدبية» ص ١٧٥ .

لهفته عليها لتدلع لهبًا فى قلبه كلهب النار التى حرقتها ، وإنه ليندب مجدها وأمنها ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر فى أخيه ولا الأب فى بنيه ، فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ، أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخرّت المدينة الكبيرة عند أقدام الزنج تترنّح إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالا ، وأصبح الناس أشلاء مبعثرة فى كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قَفْراً من عبّاده ونسّاكه . ويتحول ابن الرومى من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد الدينى ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم قعدوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردّوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم فى حماسة بالغة لرد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن الرومى المرثية ببيان فضل المجاهدين وما أُعِدّ لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهى بذلك تُعَدُّ مرثية من جهة واستصراخًا واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو استنفار يكتظ بالغيظ والحنق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التى استَحْدَثَتْ فى العصر العباسى الماضى رثاء المدلل من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم فى هذا الباب ، ومن أروع ما نظموه فيه مرثية الحسن بن على بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاّف الضرير النهروانى ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ، وكان له هِر يأنس به تعوّد أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فرثاه رثاء حاراً وكأنه يرثى صديقًا عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفًا على نفسه من المقتدر الذى نكبهما إن هو صرّح بالاسم الحقيقى ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولا ثالثًا ، هو أنه كانت لعلى بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلامًا لابن العلاف ، ففُطن بهما فقُتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . وفى رأينا أن روعة هذه المرثية هى التى جعلت القدماء يظنون بها هذه الظنون ، وهى خمسة وستون بيْتًا ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول[١] :

يا هِرُّ فارقْتَنا ولم تَعُدِ     وكنتَ مِنّا بمَنْزِلِ الولدِ
فكيف ننفكُّ عن هواك وقد     كنت لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطردُ عنا الأذى وتحرسنا     بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَد[٢]
وتُخْرِجُ الفأْر من مكامنها     ما بين مفتوحها إلى السُّدَدِ
حتّى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا     ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمتَ حول الرَّدى بظلمهمِ     ومن يَحُمْ حول حَوْضه يَرِدِ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا     منك وزادوا ومَنْ يَصِدْ يُصَدِ
ما كان أغناك عن تصعُّدك الـ     ـبُرْجَ ولو كان جنة الخلْدِ

والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد الهرّ مع التأمل فى الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات فى العصر رثاء أبى الشبل البُرْجُمِيّ التميمى لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه[٣] وكذلك بكاؤه قرطاساً سُرق منه خلسة[٤] .

وأكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين الأصدقاء ، وقد تفننوا فى ذلك على صور شتّى تسعفهم ملكاتهم العقلية الخصبة بمعان وخواطر لم تفد على سابقيهم ، أو لعلها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ، تسعفهم فى ذلك مشاعرهم المرهفة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة ومهارتهم فى الإتيان بالمعانى التى تروق وتروع العقول والقلوب جميعاً ، وربما كان من أجمل ما صاغوه فى العتاب قول سعيد بن حُمَيد[٥] :

أَقْلِلْ عتابك فالبقاءُ قليلُ     والدهرُ يعـدل تارةً ويميلُ

---

(١) انظر فى القصيدة وترجمة ابن العلاف ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ٢٤٥/١ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٣٥٩ وتاريخ بغداد ٣٧٩/٧ ونكت الهميان ص ١٣٩ .

(٢) الجرد : الفأر .

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠٤/١٤ .

(٤) الأغانى ٢٠٩/١٤ .

(٥) زهر الآداب ٢٤٦/٢ .

لم أبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفه ... إلا بكيت عليه حين يزولُ
ولعل أحداث المنيَّة والرَّدَى ... يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكينَّ بحسرةٍ ... وليكثرنَّ علىَّ منك عَويل
ولتفجعنَّ بمخلصٍ لك وامقٍ ... حَبْلُ الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتَ—ولاسبقتَ—ليمضينْ ... من لا يشاكله لدىَّ خليل
وأراك تكْلف بالعتاب وودُّنا ... صافٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قليلةٌ ... فعلام يكثر عَتْبُنا ويطول

إنها حماقة أن يتمادى الأصدقاء فى العتاب، والحياة من شأنها ألا تجرى سويّةً، وكل ما نبكى منه يومًا نبكى عليه فى يوم تال، فأولى بنا ألا نفضى إلى التشاؤم، إذ سرعان ما يُطْوَى بساط الحياة، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يَعْفُوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر. ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذى لا بد منه فراق الموت وكيف سيملأ صديقه عليه الفزعُ ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه، وفيم العتاب وصداقتهما كلها صفاء وبرٌّ، وحرى بهما أن ينعما بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقًا لا لقاء بعده. ولابن الرومى فى العتاب كثير من المعانى البارعة، من مثل قوله فى آل وهب[1]:

تخذتكمُ دِرْعاً وتِرْساً لتدفعوا ... نِبالَ العِدَا عنى فكنتم نِصَالَها
وقد كنت أرجو منكمُ خير ناصرٍ ... على حين خِذلان اليمين شِمالَها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودَّتى ... ذِماماً فكونوا لا عليها ولا لها

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعًا وتروسا، فإذا هم عون للأعداء، وإذا هم يخذلونه خذلانًا مروعًا، خذلان اليمين للشمال، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمته أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم، فيكونوا

---

(١) الديوان ص ٨٨.

لا عليه ولاله . ولعل أشهر شعراء العصر فى الاعتذار وأكثرهم تفننًا فيه البحترى ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها (١) .

عَذِيرى من الأَيام رَنَّقْنَ مَشْرَبِى ... ولقَّيننى نَحْساً من الطير أَشْأَمَا (٢)

وأكسبْنَنى سُخْطَ امرئٍ بتُّ مَوْهِناً ... أرى سُخْطَه ليلاً مع الليل مظلما (٣)

وقد كان سهْلاً واضحاً فَتوعَّرتْ ... رُباه وطَلْقاً ضاحكاً فتجهَّما (٤)

أُعيذك أَن أَخشاك من غير حادثٍ ... تبيَّن أَو جُرْمٍ إليك تقدَّما

ولو كان ما خُبِّرْتَه أو ظَنَنْتَه ... لما كان غَرْوًا أَن أَلُوم وتكرُما (٥)

أُقِــرُّ بما لم أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً ... إليك على أَنى إخالُك أَلْوما (٦)

لِىَ الذنبُ معروفاً ، وإن كنت جاهلاً ... به فلك العُتْبى علىّ وأَنْعما (٧)

ومثلُك إن أبدى الفَعال أَعاده ... وإن صنع المعروفَ زاد وتمما (٨)

ولم ننقل الاعتذار كله فى القصيدة لطوله ، وجميعه يجرى على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية ، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ، مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرمًا لا يغتفر ، جرمًا لم يجنه ، كدَّر ورْدَه ، وأحال أيام سعده نحسًا لا يطاق ، إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا فى عينه ، ومثلُ الفتح حرىٌّ بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالنا ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلِّم البحترى بذنبه رقة وتلطفًا ، منوهًا بالفتح وَفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه ، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

---

(١) الديوان ٣ /١٩٨٢ .

(٢) رنقن : كدرن . الطير : التطير .

(٣) الموهن : نحو منتصف الليل .

(٤) التجهم : عبوس الوجه .

(٥) غروا : عجباً . ألوم : ألوم .

(٦) ألوما : أكثر لوماً .

(٧) وأنعم هنا : وزيادة على ذلك .

(٨) الفعال بفتح الفاء : الصنع الجميل .

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التى كانت توقّع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء فى أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهن من يتقن نظم الشعر ، ومنهن من كن يُطارِحْنَ الشعراء فى أغانى الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعاً فى دفع المجتمع العباسى نحو الصبابة والعشق ، وكان منهن من ينحرفن عن الطريق السوىّ ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون ديناً ولا خلقاً ولا عرفاً . وكان ذلك سبباً فى أن يكثر الغزل الإباحى ، الذى لا يحتشم فيه الشاعر ، بل الذى يعبر فيه أحياناً عن جوعه الجسدى وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذى شاع فى العصر العباسى الأول ، وكأنما ظلت لتلك الموجة حِدَّتها ، وكانت دور القيان كما قلنا آنفاً من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جواريها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُبَعْنَ ويُشْتَرَين ولم يكن يشعرن بشىء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلعاء والمجّان وبين كثيرين ممن لا يعرفون ديناً ولا صيانة مروءة ولا يفكرون فى عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون فى المتاع المادى وغرائزهم النوعية ومآربهم الرخيصة ، وطبيعى لذلك أن يشيع الغزل الإباحى المكشوف الذى لا يعرف للمرأة كرامة ولا للرجل مروءة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماجن الخليع شائعاً فى هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذى يُزرى بكرامة الرجال. وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة فى مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر فى إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظنّاً أنه فات مؤرخى الأدب العباسى أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجرى على بعض الألسنة فى عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتّاً الغزل المكشوف وأخاه الشاذ فى العصر العباسى الأول والثانى ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنع للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عمن أرخوا للأدب العباسى ، وتاريخهم لذلك فى حاجة إلى غير قليل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفه دائماً وتتخلله معانى الغزل العربى العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تُشْعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقال ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها . وأيضاً لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيًّا لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفاً ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدْران الحِسِّ وأعراضه ، وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهانى صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارَى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين[1] .

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها ، وهل بعد العناق تدانِ
وألثم فاها كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمانِ[2]
كأن فؤادى ليس يَشْفِى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تلظياً واشتعالا ، ويحسُّ أن عذابه بحب صاحبته لن يخلصه منها إلا أن تمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيقى . وكثيراً ما يلم بالعناق وكثيراً ما يودع فيه صوراً طريفة ، كقوله[3] :

طالما التفَّتْ إلى الصُّبْـ ... ـح لنا ساقٌ بساقِ
فى قناعٍ من لثامٍ ... وإزارٍ من عناق

(١) الديوان ص ٢٧ .

(٢) الهيمان : العشق الشديد

(٣) ديوان المعانى ١ /٢٤٤ .

فقد كانا مكسوَّين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائمًا عنده بطفرات الفكر العبقرى وأخيلته كأن نراه يقول فى الصدور (١) :

صدورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عاجٍ ... وحَلْيٌ زانه حُسْنُ اتِّساقِ

يقول الناظرون إذا رأوها ... أهذا الحَلْىُ من هذِى الحِقاق

وهى صورة لا تفد بحق فى ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومى الذى كان يشبه متحفًا كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة، من مثل قوله فى جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها فى العشاق (٢) :

نظرتْ فأَقصدتِ الفؤادَ بسهمها ... ثم انثنتْ عنه فكاد يَهيمُ

ويلاه إنْ نظرتْ وإن هىَ أعرضتْ ... وَقْــعُ السهام ونَزْعهنّ أليم

وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة تخلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بديعة ، ولا يهم أن يكون أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالمهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ، من مثل قول ابن المعتز (٣) :

يا غُصُناً إن هزَّه مَشْيه ... خشيتُ أن يسقط رُمَّــانُهُ

وقول أبى العباس الناشئ فى بكاء إحدى صواحبه وقد أحسَّت أن فراقه لها سيطول أمده ، فقال وهو محزون الفؤاد (٤) :

كأَن الدموع على خَدِّها ... بقيَّة طَلٍّ على جُلنّارْ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبى فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبته تتورد وجنتها خجلا ، فتقتص منه فى قلبه بما تصيبه به من سهام عينيها المصمية ، يقول (٥) :

أدميتُ باللحظــات وَجْنَتَها ... فاقتصَّ ناظرُها من القَلْبِ

---

(١) ديوان المعانى ١ /٢٥٣ .
(٢) ديوان المعانى ١ /٢٣٦ .
(٣) الديوان ص ٤٢٢ .
(٤) زهر الآداب ٢ /٢١٦ .
(٥) تاريخ بغداد ٤ /٢٠٢ .

ومرّ بنا فى فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظلت على تفاقمها وحدتها فى هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقة ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ فى بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكئوسها الديارات . وكان سُقاتها أخلاطًا من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبُّها المجّان والفسّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عليها جميعًا ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابشتى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب فى الأديرة وغير الأديرة ، وممن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لكى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم فى أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكئوسها ودنانها وسقاتها مضيفين إلى ذلك غزلا مسعوراً بالجوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردّى فى حمأة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه فى أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز [١] :

شِربْنا بالكبير وبالصغيرِ ... ولم نَحفْل بأَحداث الدهورِ

وقد ركضتْ بنا خَيْلُ الملاهى ... وقد طِرْنا بأَجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التى شربوها بالقداح الكبيرة والصغيرة ، فلأتهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتباط على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطيرون طيرانًا ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى فى بيان ما تفسح الخمر من آمال السكران حتى ليتمنى المستحيلات ، يقول [٢] :

ومدامةٍ كحشاشة النَّفْسِ ... لطفتْ عن الإدراك والحِسِّ

لنسيمها فى قلب شاربها ... رَوْحُ الرجاء وراحةُ النفس

وتمدُّ فى أمل ابنِ نشوتها ... حتى يؤمِّل مرجع الأَمسِ

وكأنها وكأن شاربها ... قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمس

(١) الديوان ص ٢٣٨ .

(٢) الديوان ص ١٠٧ .

وقد صور ابن الرومى فى البيتين الأولين رقة المدامة وخفتها حتى لتكاد تدق عن الحس، كما صور أثرها فى قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب ، بل إنها لتمد فى أمله،حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة .

وينبغى أن نؤمن بأن حركة المجون فى العصر لم تكن تعم الناس جميعاً ، إنما كانت تعم فى بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء ، أما عامة الشعب فكانت تربض فى مسغبة شديدة وقلما عرفت شيئاً من الترف أو من الفراغ والثراء .

وكان الموضوع الذى يتصل بالعامة حقاً هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف ، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمونها إلى المساجد ، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعُبَّاد والنسَّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا ، وعكفوا على عبادة الله . وكان بينهم كثيرون من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء ، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم ، وهم فى أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفانى والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقى ، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هى رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره ، وسرعان ما يختطفهم الموت ، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم ، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة . ويكثر الشعر الزاهد فى العصر حتى ليتخذ أحياناً مقدمة للمديح من مثل قول على بن الجهم [١] :

وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ ... وأفضلُ أخلاقِ الرجال التفضُّلُ

وما المالُ إلا حسرةٌ إن تركته ... وغُنْمٌ إذا قدَّمتَه متعجَّلُ

وللخيرِ أهلٌ يسعدون بفعلِهِ ... وللناس أحوالٌ بهم تتنقَّلُ

ولله فينا علمُ غَيْبٍ وإنما ... يوفِّق منا من يشاءُ ويَخْذُلُ

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

---

(١) الديوان ص ١٦٣ .

دواوينهم بالحديث عن الخمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحيانًا قصائد طويلة ، ولابن الرومى فيه قصائد ، بل مواعظ بديعة ، من مثل قوله[1] :

نَبْلُ الرَّدَى يَقْصِدْنِ قَصْدَكْ ... فأَجِدَّ قبل الموت جِدَّكْ[2]
ودَع البطــالة والغَوا ... يَةَ جانباً وعليك رُشْدَكْ
فــكأَننى بك قد نُعِيـ ... تَ وقد بكى البــاكون فَقْدَكْ
وتركت منزلك المَشِـ ... يدَ معطَّلاً وسكنتَ لَحْدَكْ
وخلوتَ فى بيت البِلَىَ ... وخلا بك الملكان وحدَكْ
وسلاكَ أهلُك كلهم ... ونسوا على الأَيام عهدك
يتمتَّعــون بما جمعـ ... تَ ولا يرون عليه حَمْدَكْ
متنعِّمين وأنت تحْـ ... تَ الرَّمْسِ يَرْعَى الدودُ جِلْدَكْ

وهو يرفع الموت نُصْب أعين الناس ، وكأنه مطبق عايهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغَىّ ، فعمّا قريب سينزل بهم ، وسيرتفع الصياح والضجيج عليهم ، وسيتركون القصور المشيدة وينزلون اللحود المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسلوهم الأهل وينسونهم كأن لم يكونوا شيئًا مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التى جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جثثهم وجلودهم ، فحرى بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهنيئًا لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغده . وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربى هو التصوف وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

---

(١) الديوان ص ١٢٧ .
(٢) أجد جدك : اجتهد فى الإخلاص لله والتوبة إليه .

٤

## نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث فى الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعانى أو من حيث التصاوير، أخذت الموضوعات الجديدة التى عرضنا لها فى كتاب العصر العباسى الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نموًّا واسعًا حتى لتصبح موضوعات جديدة جدة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهانى الذى تحول إليه شعر المديح فى بعض جوانبه، وخاصة التهانى بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفًا، وكان أول من افتتح التهانى أحمد بن يوسف للمأمون[١]، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع، فأكثروا من التهنئة بالمواليد، وأيضًا فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب، وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سِلال رُطَب من ضيعته[٢]:

أَذنَ الأَميرُ بفضله وبجــوده وبنَيْلهِ
لوليِّـــه فى برِّهِ بِجَنَـــاهُ سُكَّرَ نَخْلِهِ
فبعثتُ منه بِسَلَّةٍ تحكى حلاوة عَدْلِهِ

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين فى أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون مايهدونه تظرفًا كقول ابن الرومى فى قدح أهداه إلى على بن يحيى المنجم[٣]:

وبديع من البدائع يَسْبِى كلَّ عقل ويطَّبِى كل طَرْفِ
كفم الحبِّ فى الملاحة بل أَشْـ ـهَى وإن كان لا يناجَى بِحَرْفِ
وسط القَدر لم يكبَّر لجرْعٍ متوالٍ ولم يصغَّر لرَشْفِ

(١) ديوان المعانى ١ /٩٥.
(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/ ٧١.
(٣) الديوان ص ٣٣.

وظل الشعراء يقدمون لمدائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، ونفذ البحترى من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة فى إيوان كسرى على نحو ما هو معروف فى قصيدته السينية التى تُعَدّ من روائع الشعر العباسى ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التى لا تزال ماثلة جنوبى بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودولة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التى أدال منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصولجان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة ، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلاًّ ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس فى العصر العباسى الأول وتشييدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة فى عهد الترك . وهو لا يكاد يتماسك حزناً وحسرة ولوعة فى مستهل قصيدته لنبوّ ابن عمه عنه ، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر فى مؤامرة قتله ، ويشتد بنفسه تأثير المحنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها فى الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاهة العيش التى كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملأ نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّل بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسى « الجرماز[١] » :

فكأَن الجِرْمازَ من عَدم الإنْ … سِ وإخلاقه بَنِيَّةُ رَمْسِ[٢]
لو تراه علمتَ أنَّ الليــالى … جعلتْ فيه مَأْتماً بعد عُرْسِ
وإذا ما رأيتَ صورة أَنْطا … كيَّةَ ارتعتَ بين رومٍ وفُرْسِ
والمنايا مواثلٌ وأنوشر … وانَ يُزْجِى الصفوف تحت الدِّرَفْسِ[٣]
وعِراكُ الرجال بين يَدَيْهِ … فى خفوتٍ منهم وإغماض جَرْسِ[٤]

---

(١) الديوان ٢/١١٥٥ .
(٢) رمس : قبر . الإخلاق : البلى .
(٣) يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .
(٤) خفوت : صمت . جرس : صوت خفى .

من مُشيحٍ يَهْوى بعامل رُمْح ومُليحٍ من السِّنان بتُرْس(١)
تصف العَين أنهم جِدُّ أحيا ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْس
يَغْتلى فيهمُ ارتيابىَ حتّى تتقرَّاهمُ يداىَ بِلَمْس(٢)

والبحترى لا يُبارى فى تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بحذافيره ، لالنبصره فحسب ، بل أيضًا لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يكتظ بالترف والنعيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان فيه من أعراس إلى مآتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ، وكسرى هاجمٌ بجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم تمزيقًا ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت فى المعركة ولا جلبة . إنما هو تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد فى نفس البحترى ، حتى ليندفع إلى الصورة ، يلمسها بيده ارتياعًا وانبهاراً . ويمضى فى الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتى لكأنما قُدَّ أو نُحت فى جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو أليف غاب عنه أنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأطلت عليه كواكب النحس المقيم ، حتى ما كان يرفل فيه منْ بُسط الديباج وستور الحرير نُزِع عنه نزعًا ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شامخة شموخ جبال المدينة والقدس تختال فى ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا الإيوان التليد ، فالوفود مزدحمة بأبوابه والجوارى من كل صنف تغص بها المقاصير والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفراق ، وصارت الرباع التى كانت مكتظة بالسرور ومتاعه منازل للعزاء والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديمًا من عون للعرب فى حروبهم من الأحباش وما كان لهم حديثًا من عون فى تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

---

(١) مشيح : مقبل . عامل الرمح : صدره . مليح : خائف حذر .

(٢) يغتلى : يتجاوز الحد ويعظم . تتقرام : تتبعهم .

ويبكى من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدى الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصولجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحترى بهذا الموضوع الجديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التى كانوا يشيدونها ويطيلون فى وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوّارات وبرك على شاكلة قول على بن الجهم فى وصف أحد القصور الكثيرة التى كان يسكنها المتوكل بضواحى سامراء ووصف فوارتها أو نافوراتها[١] :

صحونٌ تسافر فيها العيونُ ... وتَحْسِرُ عن بُعْدِ أقطارهـا
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأَن النجو ... م تُفْضِى إليها بأَسرارها
لها شُرُفاتٌ كأَن الربيع ... كساها الرياضَ بأَنوارها
نَظَمْنَ الفُسَيْفِسَ نَظْمَ الحلىِّ ... لعُون النِّساء وأَبْكارها[٢]
فَهُنَّ كمُصْطَبِحاتٍ بَرَزْنَ ... بفِصْح النصارى وإفطارها[٣]
فمنهنَّ عاقِصةٌ شَعْرَها ... ومصلحةٌ عَقْدَ زُنَّارها[٤]
وفوارةٍ ثأرها فى السَّماءِ ... فليستْ تقصِّر عن ثارها
تردُّ على المُزْنِ ما أنزلتْ ... على الأَرض من صَوْب مدرارها

وواضح أنه صوّر سعة أفنية هذا القصر وعظم قُبَّته وصعودها فى السماء حتى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه ، كما صوّر شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلى على جيد النساء وأعناقهن ، وتنوعت أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع فى عيد الفصح

---

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف والشرفات . العون : جمع عوان ، وهى السيدة النصف .

(٣) مصطبحات هنا : من أصبح أى أسرج ، يريد حاملات الشموع . برزن : خرجن . فصح النصارى : عيد ذكرى القيامة .

(٤) تعقص شعرها : تشده على جيدها من خلف أو من وراء . والزنار : حزام يشد وسط الثوب على الخصر .

وذكرى قيامة المسيح، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّه وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنّار مختالة ، وفوارة ماتنى ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، و كأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء فى العصر العباسى الأول أكثروا من تصويرها فى مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة فى إيجاز وتارة فى إطناب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله، وكثيراً ما وصفوا فى هذه المقدمات الغيث والسحب والبروق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد فى زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حائية ابن المعتز فى مديح المعتضد ، وقد استهلها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله[١] :

مَنْ رأى بَرْقاً يُضِىءُ التِمَاحــا ثَقَبَ الليلَ سناه فلاحا[٢]

وكأن البرق مصحَفُ قارٍ فانطباقًا مرةً وانفتاحا

فى رُكامٍ ضاق بالماء ذَرْعاً حيثما مالتْ به الريحُ ساحا[٣]

لم يَدَعْ أرضاً من المَحْلِ إلا جادَ أو مَدَّ عليها جَناحا[٤]

وسَقَىْ أطلالَ هندٍ فأضحتْ يمرح القَطْرُ عليها مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البروق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفىء مصاحف بأيدى قُرَّائها تَنفتح وتنطبق ، وسيول المطر تتدافع من كل صوب نافثة لعابها من جدب إلى جدب ومن حوض إلى حوض ، والسحب تمد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح فى نباتاتها ورياحينها و بطاحها الخضراء .

ومرّ بنا أنهم كانوا يكثرون من وصف الربيع فى تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصبح فنًّا قائمًا بنفسه ، له قصائده وأشعاره، وهى تُعْنَى بوصف جميع الأنوار فى الربيع، ولا يبارى ابن المعتز

(١) الديوان ص ١٤١ .

(٢) التماحا : التماعاً .

(٣) ركام : سحاب مركوم : متراكم بعضه فوق بعض .

(٤) المحل : الجدب .

فى هذا الاتجاه ، إذ يحاول فى كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له مخيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهى ماتنى تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئًا ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتتحها على هذا النمط [١] :

أَما ترى البُسْتانَ كيف نَوَّرَا ... ونَشَر المنثورُ زهرًا أَصفرا
وضحكَ الورد إلى الشقائق ... واعتنق القَطْرَ اعتناق وامقِ
فى روضةٍ كحُلَلِ العروسِ ... وخُرَّمٍ كهامةِ الطاووسِ [٢]

ومضى يذكر الياسمين والخشخاش والسوسن والبهار والجلنار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التى تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول [٣] :

لم يضحك الوردُ إلا حين أَعجبه ... حُسْنُ الرياضِ وصوتُ الطائر الغَرِدِ
بدا فأَبدتْ لنا الدنيا محاسِنها ... وراحتِ الرَّاحُ فى أثوابها الجُدُدِ
ما عاينتْ قضُبُ الريحان طَلْعَته ... إلا تبيَّن فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ
وقابلتْه يَدُ المشتاق تُسْنده ... إلى التَّرائب والأَحشاء والكبدِ
كأَن فيه شفاءً من صبابتِه ... أو مانعاً جَفْنَ عينيه من السُّهُد
بين النديمين والخِلَّين مَضْجعه ... وَسَيْرُهُ من يَدٍ موصولةٍ بيدِ
قامتْ بحجَّته ريحٌ معطَّرةٌ ... تَشْفى القلوب من الأَوصاب والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصبابة الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونه إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يطفئوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباباتهم

(١) الديوان ص ٤٧٣ .
(٢) الخرم : زهر بنفسجى اللون .
(٣) الديوان ص ٨٩ .

وسهادهم الطويل، وإنه ليتراءى دائمًا يتهاداه الأحبة وقد اتخذ مضجعه بينهم، وهم يتبادلون كئوس الحب الصافية، وأريجه ينتشر شذاه فى كل ما حولهم بلسماً يشفى القلوب الكليمة. ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة فى العصر تعلق ابن الرومى والصنوبرى، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اليانعة والمياه الجارية، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافى وأزهارها ونباتاتها[١]، ولم يقف هذا التحول الجديد عند مجرد التخفف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة بجمال الرياض والبساتين، فتنة خلبت ألباب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم، وخير من يصور ذلك ابن الرومى، إذ نحس فى وضوح شغفه بالطبيعة شغفاً يفوق كل وصف، شغف العاشق بمعشوقته، حتى ليحس كأنما الدنيا فى الربيع تتبرج له ولكل ناظر، إذ يقول[٢]:

تبرَّجتْ بعد حياءٍ وخَفَرْ تبرُّج الأُنثى تصدَّتْ للذكر

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد، فهو ما ينى يقدم لها قرابينه وأدعيته وابتهالاته مصوراً جمالها المنبث فى كل أجزائها وما يجرى فيها من حياة، وبدون ريب يتقدم ابن الرومى شعراء العربية عامة فى الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها، حتى ليشبه فى هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون فى الطبيعة، ويحسون امتلاءها بالحياة، فكل ما فيها حى متحرك ناطق، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصويره لمشهد الغروب، يقول[٣]:

لقد رنَّقَتْ شمسُ الأَصيلِ ونَفَّضَتْ على الأُفق الغربيِّ وَرْسًا مُذَعْذَعَا[٤]
وودَّعتِ الدُّنْيا لتقضىَ نَحْبَها وَشَوَّلَ باقى عُمْرِها فتَشَعْشَعَا[٥]

---

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف ١٩٦٦) ص ٧٦.
(٢) الديوان ص ٨٩.
(٣) الديوان ص ٣٠٠.
(٤) رنقت: ضعفت. الورس: نبات أصفر. مذعذعا: متفرقاً.
(٥) شول: ذهب. تشعشع: بقى أقله.

ولاحظتِ النُّوَّارَ وهْيَ مريضةٌ ... وقد وضعتْ خدًّا إلى الأرض أضرَعَا(١)
كما لاحظتْ عُوَّادَهُ عَيْنُ مُدْنَفٍ ... توجّع من أوصابه ما توجعا(٢)
وبيَّن إغضاءُ الفراق عليهما ... كأنهما خِلاَّ صفاءٍ تودعَا(٣)
وظلت عيونُ النَّوْرِ تخضَلُّ بالندَى ... كما اغرَوْرَقَت عَيْنُ الشجيِّ لتَدْمَعَا(٤)
وأزكى نسيمَ الروض ريعانُ ظِلِّهِ ... وغَنى مغنِّى الطيْرِ فيه فسجَّعا(٥)
وكانت أَرانينُ الذُّباب هناكمُ ... على شَدَوات الطيْر ضرباً موقَّعا(٦)

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأحمر الشبيه بنبات الورس وزهره ، وأشعتها تتبدَّد إلا بقايا قليلة ، فهى توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها النزع الأخير فهى تذل وتستكين وتضع خدها على الأرض إيذاناً بالفراق وإعلاناً لما ألم بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التى تترقرق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقرق بالدموع عيون المحبين المحزونين ، على حين كان النسيم العليل يزكو وينمو والطير يشدو مرجعاً ومردداً ، وحتى الذباب لا ينساه ابن الرومى فقد كان رنينه يخالط شَدْوَ الطير وغناءه . ولم يكن الصنوبرى يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها فى العصر بعد ابن الرومى ، إذ عاش مشغوفاً برياض بلدته حلب شمالى الشام وحدائقها وأزهارها ، وأشعاره لا تصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وإنما تصور براعة فى الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الحسية .

والطريف عند الصنوبرى وابن الرومى جميعاً أنهما يعنيان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، ومما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر فى العصر أن نجد حينئذ فصولاً تفرد لها فى بعض الكتب مثل كتاب

---

(١) أضرع : ذليل .
(٢) مدنف : مريض سقيم .
(٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .
(٤) تخضل : تترقرق وتندى . اغرورقت العين بالدموع : جالت بها .
(٥) أزكى : نمّى .
(٦) أرانين : جمع إرنان أى رنين .

الموشّى ، فإن به فصلا خاصًّا لما نظم فى وصف الورود، بل قد نجد كتبًا فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على النرجس لابن أبى طاهر أحد شعراء العصر النابهين .

ويدخل فى وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحترى يسوق مبارزة الفتح بن خاقان للأسد فى بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد فى طريقه ، فنازله ، وقتله ، وصور ذلك البحترى فى مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثًا مفصلا عن حياة الأسد فى الغابات والرياض وبطون الأودية وأعاليها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباله ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خرّ السبع يتضرج فى دمائه ، يقول[1] :

فلم أرَ ضِرْغامَيْنِ أصدقَ منكما ... عِراكاً إذا الهيابَةُ النِّكْسُ كَذَّبا[2]

فأَحجمَ لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مَهْرَبَا

فلم يُغْنِه أن كرَّ نحوك مُقبلاً ... ولم يُنجه أن حادَ عنك مُنكِّبا

حملت عليه السيفَ لا عزمُك انثنى ... ولا يَدُك ارتدَّتْ ولا حدُّه نبَا

ولا يكتفى البحترى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب فى بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض فى تصوير هذا الذئب مستمدًّا من ملكته البارعة فى تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما يصفه تجسيداً قويًّا ؛ على شاكلة قوله[3] :

وأَطلَسَ ملءِ العيْن يَحْملُ زَوْرَهُ ... وأضلاعَه ، من جانبيه شَوًى نَهْدُ[4]

له ذَنَبٌ مثل الرِّشاء يجــرُّهُ ... ومَتْنٌ كمتن القوس أعوجُ منأَدُّ[5]

طواه الطَّوَى حتى استمرَّ مَرِيرُهُ ... فما فيه إلا العظمُ والروح والجِلدُ[6]

---

(١) الديوان ٢٠٠/١ .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان الضعيف .

(٣) الديوان ٧٤٣/٢ .

(٤) أطلس : مغبر إلى سواد. الزور : الصدر . الشوى : اليدان والرجلان . نهد : بارز .

(٥) الرشاء : الحبل . منأد : معوج .

(٦) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر مريره : قوى واشتد .

يقَضْقِضُ عُصْلًا فى أَسِرَّتِها الرَّدَى كقضقضة المقرور أرغده البَرْدُ[١]
سَمَا لى وبى من شدة الجوع مابه ببَيْداءَ لم تُعْرَف بها عيشة رَغْدُ[٢]
كلانا بها ذئبٌ يحدِّثُ نَفسَهُ بصاحبه والجَدُّ يُتْعِسه الجَدّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضاءه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومتنه الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوّت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرور تصطلك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا فى فلاة موحشة، كأنما استحال البحترى فيها لجوعه بدوره ذئبًا مفترسًا. ويحدثنا البحترى عقب ذلك عن استثارته للذئب ونزاله وطعناته فيه حتى خرّ صريعًا. ويشتهر البحترى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله فى وصف فرس[٣]:

يَهْوِى كما تَهْوِى العُقابُ وقد رأت صَيْدًا وينتصبُ انتصابَ الأَجْدَلِ[٤]
وتراه يَسْطَعُ فى الغبار لهيبُه لوناً وشَدًّا كالحَرِيق المُشْعَلِ[٥]
هَزِجُ الصهيل كأنَّ فى نغماته نبراتِ معبدَ فى الثقيل الأولِ[٦]
مَلَكَ العيونَ فإن بَدَا أَعْطَيْنَهُ نظرَ المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقضّ على فريسة، ويقف منتصبًا انتصابًا تامًّا كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى فى الغبار المتكاثف شعلة نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصهيله لرنينا جميلا جمال أنغام معبد المغنى المشهور فى العصر الأموى، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت عنه يمينًا ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهرّ، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

(١) يقضقض عصلا: يصوت بأنياب معوجة: أسرّتها: خطوطها. الردى: الهلاك. المقرور: الذى يحس البرد بشدة.
(٢) رغد: ناعمة.
(٣) الديوان ١٧٤٥/٣.
(٤) العقاب: من الجوارح ومثلها الأجدل وهو الصقر.
(٥) الشد: ارتفاع النار.
(٦) معبد: أشهر مغن فى العصر الأموى. الثقيل الأول لحن كان يودع فيه أكثر أغانيه.

وكان الشعراء منذ العصر العباسى الأول يلمون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونراهم فى هذا العصر يكثرون من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروى المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكفى جعله لإنشاد جلسائه وندمائه ما نظمه الشعراء فى أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك فى أن ابن الرومى يُعَدّ أكبر من عُنى بوصفها ، وكان منهوماً بالطعام ، فكاد لا يترك لوناً من ألوانه دون أن يخصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله فى دجاجة مشوية وما قُدّم معها من الثريد والمرقات والقطائف(١) :

وسميطةٍ صفراء دينـــاريّةٍ ثمناً ولوْناً زفّها لك حَزْوَرُ(٢)
عظمتْ فكادت أن تكون إوزّةً وثَوَتْ فكاد إهابُها يتفطّرُ(٣)
ظِلْنا نُقَشِّرُ جِلْدَها عن لحمها وكأن تِبْرًا عن لُجَيْنٍ يُقْشَرُ
وتقَدَّمَتْها قبل ذاك ثرائِدٌ مثل الرياض بمثلهن يُصَدَّرُ
ومرقّقـــاتٌ كلهن مزخرف بالبَيْض منها مُلْبَسٌ ومدثَّرُ(٤)
وأتت قطائفُ بعد ذاك لطائفٌ ترضى اللهاةُ بها ويرضى الحَنْجَرُ

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعاماً إلا وصفه وصوّره مبدعاً فى تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف فى الأطعمة ، وأيضاً فإن أشعاره تدل على شدة نهمه بالأطعمة وحدة شراهته ، وكأن السببين جميعا جعلاه يولع بالحديث عن المآكل والمشارب ، ومن طريف قوله فى الرءوس والأرغفة(٥) :

رُؤُس وأرغفةٌ ضخامٌ فخمةٌ قد أُخرِجت من جاحمٍ فوارِ
كوجوه أهل الجنة ابتسمتْ لنا مقرونةً بوجوه أهل النـــار

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب ص ٢٣٦ .
(٢) حزور : غلام فيه فتوة . دينارية : نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسموطة .
(٣) إهابها : جلدها . يتفطر : يتشقق .
(٤) ملبس ومدثر : مغطى .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

ويحدثنا فى بعض شعره عن تخمته وبشَمه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائمًا لكل ما على الموائد ولهفته عليه كقوله فى قطائف قُدِّمَتْ إليه[١] :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ باللَّوْزِ والسكَّر الماذىّ حَشْو المَوْز[٢]
تَسْبح فى آذِىٍّ دُهْن الجَوْزِ سررتُ لما وقعتْ فى حَوْزى[٣]
سرورَ عباسٍ بقرب فَوْزِ

فهو يغرم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذى اشتهر بعشقه لفوز عشقًا ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ، ولم يكن ابن الرومى يعشق القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعشق معها أيضًا الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، ومما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقى ، وفيه يقول[٤] :

ورازقىٍّ مُخْطَفِ الخصُورِ كأنه مخــازنُ البَلُّورِ[٥]
وفى الأَعالى ماءُ وردٍ جُورى لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرور[٦]
إلا ضياءً فى ظروف نورِ لو أنه يبقَى على الدهور
قرَّط آذانَ الحسان الحورِ له مــذاقُ العسل المَشُورِ
ونكهة المِسْكِ مع الكافورِ

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الملاهى أنه كان من أهم ملاهيهم لعبتا النَّرْد والشطرنج ، ويسوق المسعودى فى « مروجه » طائفة من الأشعار التى نُظمت حينئذ فى اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما فى أشعار كثيرة ، ومما اختاره منها فى الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول على بن الجهم[٧] :

---

(١) الديوان ص ٤٧٧ .
(٢) الماذى : شديد الحلاوة .
(٣) آذى : موج .
(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٢/ ٩ .
(٥) مخطف : ضامر .
(٦) الورد الجورى : ورد شديد الحمرة .
(٧) مروج الذهب ٤/ ٢٣٥ والديوان (طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق) ص١٧٩ .

أَرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أَدَمٍ ما بين إلفين مَوْصُوفَيْن بالكرمِ
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَهًا من غير أن يَأْثَمَا فيها بسفك دمِ
هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يغير وعَيْنُ الحرب لم تنَمِ
فانظرْ إلى الخيل قد جَاشَتْ بمعركةٍ فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

ويبدو أنهم بلغوا حينئذ مبلغاً بعيداً من المهارة فى لعب الشطرنج ، وكانوا يعقدون له مجالس يتفرجون فيها على لاعبيه وحذقهم فيه، وكانوا يملئونها بفنون النوادر، وممن اشتهر حينذاك بالبراعة فى لعبه وإحسانه إحسانًا يفوق كل وصف أبو القاسم التوّزى الشطرنجى . ووصفَ ابن الرومى مهارته فى قصيدة طويلة وصفاً رائعاً ، استهله ببيان نفاذ فكره وبصيرته فى تلك اللعبة، وكيف أنه كان يهزم كل من يلاعبه ويعصف به وبجنوده ورخاخه بتدبيره اللطيف الخفى ، حتى ليوشك أن يكون أخفى من السر فى ضمير محب أدّبته عقوبة الإفشاء ، وما يلبث أن يخاطبه بقوله[1] :

غَلِطَ الناس لست تلعب بالشطـــرنج لكن بأَنفس اللُّعَباء
لك مكرٌ يدبُّ فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأَعضـــاء
أَو دبيب الملال فى مستهامَيْـ ن إلى غايةٍ من البغضـــاء
أَو مسير القضاء فى ظُلَمِ الغيْـ ب إلى من يريده بالتواء
تقتل الشاه حيث شئت من الرُّقْـ عة طَبًّا بالقِتْلة النكراء
غير ما ناظرٍ بعينيك فى الدَّسْـ ت ولا مقبل على الرُّسَـلاء
بل تراها وأَنت مستدبرُ الظهـ ر بقلبٍ مصوَّرٍ من ذكاء
ما رأَينا سواك قِرْناً يولِّى وهْو يُرْدِى فوارسَ الهيجاء

وأبو القاسم — فى رأى ابن الرومى — لا يلعب بالشطرنج ولكن يلعب بأنفس لاعبيه بدهاء أشد خفاء من سريان الغذاء فى الجسم، بل سريان الملال فى متحابين حتى ينتهى بهما إلى حافة البغضاء ، بل مسير القضاء فى حجب الغيب إلى من

(١) الديوان ص ٣٩ .

يُرْديه ، ويصوره قاتلا للشاه فى كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضًا يقتله وهو مدبر عن الدست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحيانًا فى مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل فى العصر السالف فردية ، أما فى هذا العصر العباسى الثانى فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التى وصفناها فى غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعايات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضيع وتعظم المحنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل فى الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنّكْر غاية ينتهيان إليها أوحد يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة يأسًا متصلا ، لذلك كان طبيعيا أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندى الفيلسوف[1] :

أَنافَ الذُّنابى على الأَرؤسِ  فغمِّض جُفونك أَونكِّسِ[2]
وضائلْ سوادك واقبضْ يديك  وفى قَعْر بيتك فاسْتجلس
وعند مليكِك فابْغ ِالعلوَّ  وبالوحدة اليوم فاستأْنسِ
فإن الغِنى فى قلوب الرجالِ  وإن التعـــزُّزَ بالأَنفسِ
وكائنْ ترى من أَخى عُسْرَةٍ  غنيٍّ وذى ثروةٍ مفلسِ
ومن قائـمٍ شخصه ميّتٌ  على أنه بعدُ لم يُرْمَسِ[3]

والكندى متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضيع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذى يصطلى الناس ناره ، ولا تؤمل فى أن ينقشع هذا

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٨ .
(٢) أناف : أشرف : نكس : طأطئْ الرأس ذلا .
(٣) يرمس : يقبر .

الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات بِرّه . ويزدرى الكندى ما فى أيدى أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو فى حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو فى حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حيًّا ، ميت لم يُقْبَر ولم يوضع فى رمسه . وإذا كان الكندى قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم فى بيوت الترف والدعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر فى ديوانه من مثل قوله(١) :

لم يبق فى العيش غيرُ البؤْسِ والنَّكَدِ      فاهربْ إلى الموت من همٌّ ومن نَكَدِ
ملأْت يا دهرُ عينى من مكارههـا      يا دهرُ حسبك قد أسرفتَ فاقتصِدِ

وكان طبيعيًّا أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومى الذى لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء فى مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه فى كثير من الأحوال بالحرمان والنكران ، وكان يعرف فى دقة عبقريته الشعرية ، فضاق بالناس وضاق بالحياة ، وكانت كما أسلفنا شرًّا ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصًا ، ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ، فكان طبيعيًّا أن يتحول متشائمًا وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعًا فى بكاء الطفل حين ولادته ، يقول(٢) :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها      لأفْسَحُ مما كان فيه وأرْغَـدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه      بما سوف يلقى من أذاها مهدَّد
وللنفس أحوالٌ تظلُّ كأنها      تشاهد فيها كل غيبٍ سَيُشْهَدُ

فالدنيا آلام ثقال وأهوال طوال ، والطفل يشعر بذلك ساعة ولادته فيبكى بكاء مراً ، وكان من الواجب أن يفرح لا أن يبكى ؛ لأنه أخذ حظًّا من الحرية

---

(١) الديوان ص ١٨٦ .      (٢) الديوان ص ٣٩٣ .

بالقياس إلى المكان الذى كان فيه ، وكأنما رأى بعينيه ما يتهدده فى دنياه من الأذى الممض الذى سيملأ نفسه شقاء وعناء .

وصوّر الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ، وحللوا كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة[1] :

يا مَنْ يناجى ضِغْنَهُ فى نفسهِ ... وَيدِبُّ تحتى بالأفاعى اللُّدَّغِ
ويبيتُ تَنْهَضُ زفرةٌ فى صدرهِ ... حَسَدًا وإن دميتْ جراحى يُولغ[2]
ما زال يبغى لى بكل قـــرارةٍ ... حُمَةَ الأذَى ويشير إن لم يلدغ[3]
نَغِلَتْ ضمائرُ صدرِه من دائِهِ ... نَغَلَ الإهاب معطَّناً لم يُدْبَغِ[4]
لا تبتغى منى التى لا أبتغى ... إن كنتَ مشغولا بشأنى فافرغِ

وابن المعتز يصور حسُوده فى صورة كريهة ، فهو ما يزال يدب من تحته بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد فى صدره وما يزال يلتمس جرحًا له ليولغ فمه فى دمائه ، وما يزال يريد به الطامة الكبرى ، كعقرب إن لم تلدغ بحُمَتِها أشارت تريد نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن الرومى لا يبارى فى تحليل مثل هذه المعانى وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحْمَدُ حين لا تكون لها ضرورة فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجُنَّة والدرع الواقى . ويدفع ما يقال من أن من الناس من خُلق جزعًا هلوعًا ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند الشدائد ، يقول[5] .

وقد يتظنَّى الناسُ أنَّ أساهمُ ... وصبرهمُ فيهم طباعٌ مركَّبُ

---

(١) الديوان ص ٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٦٨ .

(٢) ولغه : شربه بطرف اللسان ، أو حرك لسانه فيه .

(٣) الحمة : السم أو إبرة العقرب التى يلدغ بها .

(٤) نغل : فسد .

(٥) الديوان ص ٣١٥ .

وأنهما ليسا كشيءٍ مصرَّفٍ يصرِّفه ذو نكبة حين يُنْكَبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما لكل لبيبٍ مستطاعٌ مسبَّبُ
يصرِّفه المختار منا فتارةً يُراد فيأْتى أو يذاد فيذهب

فالصبر الجميل والجزع الذميم مكتسَبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملهما صابراً جَلْداً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالا تامًّا ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهى ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة فى التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء فى الذات العلية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلع فى قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفاؤها ، لوعة حب قوى حار ، استأثر بكل ما فى قلوبهم من عواطف ومشاعر ، وشغلهم عن كل شيء ، إذ شُغفوا بمحبوبهم شغفاً عظيماً ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقديسه وعبادته ، آملين منه فى الوصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أنى يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلا ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النورى إذ يقول[1] :

كم حسرةٍ لى وقد غَصَّتْ مرارتها جعلتُ قلبى لها وقفاً لبلواك
وحقٍّ ما منك يُبْلينى ويُتْلفنى لأَبكينَّك أو أَحْظَى بلقياك

وواضح أن النورى يتجرَّع غُصَصَ الحسرات المرة ، بل إنه لينتظر البِلَى والتلف فى سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة فى هذا

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٥٣ .

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظامئ وناره التى لا تخمد أبداً ، حتى ليقول[1] :

إن كنت للسقم أهــلا فأنت بالشكر أَوْلَى
عَذِّبْ فلم تُبْقِ قلباً يقول للسُّقم مَهْــلَا

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعـًا لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطلب عذابه لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعيـًّا أن ينمو فى العصر الشعر الذى يصور حياة الشعب وما كان يجرى فيها من بؤس وإقلال ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب جحظة البرمكى ، إذ نراه يكثر من بيان الشقاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل قوله[2] :

إنى رضيت من الرحيق بشراب تَمْرٍ كالعقيقِ
ورضيت من أكل السَّميـ ـذ بـأكل مسودٍّ الدقيق
ورضيت من سَعة الصحـ ـون بمنزلٍ ضَنْكٍ وضيقِ

وكان يذهب مذهبه فى الكدية واحتراف التصعلك والشحاذة الأدبية غير شاعر ، وكان لهذه الطائفة مقدمات فى العصر العباسى السالف ، ولكنها اتسعت فى هذا العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أموال الناس .

وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعْنَى بالفكاهات والنوادر المستملحة ، وأشاع ذلك روحـًا هزلية فى كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ، كأن نجد شخصـًا يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة هزيلة ، فينظم فى وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزالها وتارة يصور جوعها وحرمانها وبؤسها فى أبيات كلها دعابة وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله[3] :

(١) السلمى ص ١٥٦ .
(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .
(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

لسعيــد شُوَيْهَــةٌ سلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرتْ رجــلا حاملا عَلَفْ
بأَبي من بكفِّه بُرْءُ ما بى من الدَّنَفْ
فأَتاهــــا مطمِّعاً وأتتــــه لتعتلفْ
فتــولى فأَقبلتْ تتغنى من الأَسف
ليتــه لم يكن وقَفْ عــذَّب القلب وانصرف

فهى ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذى أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يوماً رجلا يحمل علفاً توسلت إليه وتضرعت أن يبرئها من سقمها ، وأطمعها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركاً لها الحسرة واللوعة ، وهى تتمنى لو أنه يقف ، فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التى تندروا بها كثيراً فى العصر وصف الثقلاء والأكلة وموائد البخلاء وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومى فى ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره فى الهجاء لوناً جديداً من التصوير الهزلى وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحدب وأصحاب اللحى الطويلة ، فعرضهم عرضاً هزلياً مضحكاً فى كل رسومه وصوره .

٥

## نمو الشعر التعليمى

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمى وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كليلة ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وسيرتى أرْدشير وأنوشروان كما نظم قصيدة فى مبدأ الخلق ضمنها شيئاً من المنطق . وظل هذا الفن قائماً بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم على بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة فى التاريخ تقع فى أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها فى جزءين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء ، وربما تأثر فى الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتى قال الرواة عنها إنها كانت فى بدء الخلق ، أما الجزء الثانى وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقًا فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا فى نظم هذا التاريخ، ونراه حريصًا فى مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائلى عن ابتداء الخلقِ مسألةَ القاصدِ قَصْدَ الحقِّ
أخبرنى قومٌ من الثِّقاتِ أولو علومٍ وأولو هيئات
تفرَّغوا فى طلب الآثارِ وعرفوا موارد الأخبارِ
ودرسوا التوراة والإنجيلا وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذى يفعل ما يشاءُ ومَنْ له القدرة والبقاءُ
أنشأَ خلق آدمٍ إنشاءَ وقَدَّ منه زوجه حَوَّاءَ

ويستمر فى قصة حواء وآدم ووسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض، وواضح أنه عُنى بذكر مآخذه لهذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابنى آدم قاين ( قابيل ) وهابيل ، ويأخذ فى عرض تاريخ الرسل تباعًا ، بادئًا بنوح وقصة الطوفان وخالفيه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجتيه : هاجَر وسارة وسُكْنى هاجر فى البلد الأمين مع ابنها إسماعيل فى جوار القبيلة القديمة جُرْهم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بنى إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع بختنصّر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الأرجوزة . ويأخذ فى التقديم للجزء الثانى فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

وبجيء الإسلام وما ساد من شرك وإثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمةَ الضياءُ وعاودتْ جِدَّتَها الأَشياءُ
أَتاهمُ المنتَجب الأَوَّاه محمدٌ صلى عليه اللهُ

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبي بكر من بعده محدداها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التى وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال فى عهده ، يقول:

وقام من بعد أَبى بكر عُمَرْ فبرزتْ أَيامه تلك الغُرَرْ
تضعضعتْ منه ملوك فارسِ وخرَّت الرومُ على المعاطس[1]

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبى طالب ، ثم ينتقل إلى بنى أمية متعقبًا لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث فى عهودهم ، ويُنْحى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين فى عهده ، ولا يكاد يثنى على سيرة خليفة أموى إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصَّه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللا لخلافتهم وتحوُّل صولجان الملك إليهم ، منوهاً بهم ، حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغنة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايع الناسُ الإمامَ جعفرا خليفةَ الله الأَغرَّ الأَزهرا
قد سكَّن الله به الأَطرافا فما ترى فى ملكه خلافا
ثم تولَّى قتله الفَرَاغِنَهْ وساعدتْهم عُصْبةٌ فراعنه
لأَربعٍ خَلَوْنَ من شَوَّالِ فأَصبح الملك أَخا اختلالِ

---

(١) خرت على المعاطس : ذلت . والمعاطس : الآناف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذى تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفى لعهده سنة ٢٤٩ وكأنه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسج مع سهولة فى الصياغة ونصاعة فى العبارة .

ونرى ابن المعتز يُعْنَى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسى معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولى عهد المعتمد ، وقد أعادا معًا للخلافة العباسية هيبتها على نحوما مر بنا فى غير هذا الموضع فقضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخمدا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية ، وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار ، وكان لذلك وقع بعيد فى نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم فى سيرته أرجوزة[1] تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عمّ البلاد من العدل فى عهده ، مقارنًا بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمنه ، وهى فى نحو أربعمائة بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ فى تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة ، فالترك يخلعون الخلفاء ويقتلونهم وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذاك حتى أفقروا الخِلافه وعوّدوها الرعبَ والمخافه

وارتُكبت عظائم الآثام ، وهبّ الثوار فى كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين هزمهم ، حتى تصدّى له الموفق وابنه المعتضد ، وكان الموفق صورة للبأس الذى ليس بعده بأس والحزم الذى ليس بعده حزم ، وبعد جهاد وصراع شديدين قضى الله له بالنصر المبين — وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج ، فهزمه هزيمة ساحقة — ويذكر تنكيله بالوزير أبى الصقر إسماعيل بن بابل لتفاقم طغيانه وماأذاق عمالُه وجنودُه الشعبَ من ظلم لايطاق ، حتى كان الوارث لايرث أباه الموسر إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغْتَصَبُ منه أمواله قسراً ، مع مجونه وإيمانه بالتعطيل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشيًا قبل المعتضد حتى إذا ولى شئون الرعية نشر فيها العدل الذى لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

---

(١) انظر فيها الديوان ص ٤٨١ .

بالإذعان خوفاً من بطشه وانتقامه، وهربَ اللصوص . وقبضَ الجند على أصحاب النهب والسلب وكبلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفاً وأدّى أموالا جليلة ، واستنزل حمدان من حصنه فى ماردين . وأسرهرون صاحب الشراة الخوارج ، ويطيل فى ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل فى ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وماكان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخر المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد ، وكان ذلك صنعاً جميلا بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصوّر فى ثنايا ذلك صنوف التعذيب التى كانت تُصَبُّ على الناس صبًّا لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك فى حديثنا عن الحياة السياسية ، إذ كانوا لايزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لاتبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل مايملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشامخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وينوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبيد الله وزيره ، ويصور كيف فتك بعض قواده بصالح بن مدرك الذى كان يعيث فى الأرض فساداً قاطعاً الطريق على الحجاج سافكاً للدماء ومنتهكاً للحرمات وناهباً للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان على عمرو بن الليث الصفا الذى طالما تمادى فى غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة فى الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم فى عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والفداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض فى ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التى نبتت منها — فى رأيه — فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديثَ الكوفه    مدينـــةٌ بعينها معروفه
كثيرة الأديان والأئمّه    وهمُّهـــا تشتيتُ أمر الأمه

ويتحدث عن خذلان أهلها لعلى بن أبى طالب وقتله وقعودهم عن نصرة الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحوا    جهلا كذاك يفعل التمساحُ

ويبالغ فى ذمهم حتى ليجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضًا من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائى على القرامطة فى سواد الكوفة وأسره لقائدهم ابن أبى قوس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهى السنة التى توفى فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا فى هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولاريب فى أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التى تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسج ، وهى تتفوق فى هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعا ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تخفق بحيوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب فى عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وبون بعيد بينها وبين كتب التاريخ مثل الطبرى من هذه الناحية ، ففى تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما فى تلك الأرجوزة فالشعب ماثل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويُزَجّ به فى السجون ظلمًا وعدوانًا وأمواله تُسْلَب منه بغيًا وطغيانًا .

وأما ابن دريد فكان عالمًا لغويًّا كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عُنى بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف ، وأشهر ماله فى هذا الباب مقصورته[1] التى مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وابنه إسماعيل ، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها فى نحو مائتين وخمسين بيتًا ، ويقال إنه ضمنّها ثلث المقصور فى اللغة[2] ، وقد استهلها بالنسيب على طريقة

---

(١) انظر المقصورة فى الديوان ، وهى مطبوعة بشرح الخطيب التبريزى فى دمشق .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ١٠٥ .

الشعراء القدماء مفتتحًا لها بقوله :

يا ظبية أشبه شيء بالمهَا ترعى الخُزامى بين أشجار النَّقَا(١)

وقد مضى يشكو من شيبه وحبه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم ، حتى لقد ذوى غصنه الرطيب وأصبحت حياته كلها غُصَصًا لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذى يصب عليه المحن بالخطاب قائلا :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فاتَّئِدْ فإن إرْوادك والعتبى سَوَا(٢)

لا تحسبَنْ يا دهر أنى جازعٌ لنكبة تَعْرِقُنى عَرْق المُدَى(٣)

مارسْت من لو هوتِ الأَفلاك من جوانب الجوِّ عليه ماشكا

لكنها نفثةُ مصدورٍ إذا جاش لغامٌ من نواحيها عَمَا(٤)

وهو يُبْدى أمام محن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خرَّت عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب ، واستطرد يتحدث عن بعض ذوى الهمم الشامخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند ، وكأنما سرت فى روحه شجاعتهم فإذا هو فى عُدَّة الحرب رفيقاه السيف والفرس، ويفيض فى وصفهما وخاصة فى أوصاف الفرس، وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستقلة . ويصف رحلته إلى الأهواز بفارس ، ثم يأخذ فى مديح الأميرين ، حتى إذا فرغ منه وصف فتاة ساحرة خلبت لبه، ويُعْقب ذلك بطائفة من الحكم يحشدها حشداً من مثل قوله :

وإنما المَرْءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى

---

(١) المها : بقر الوحش . الخزامى : نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .

(٢) اتئد : تأن . الإرواد : الترفق .

(٣) تعرق : تفصل اللحم عن العظم . المدى : السكاكين .

(٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له فى الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه فى السُّرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر ، وكان منهوماً بها ، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه ، بل إنه يتسع فى تصريحه بأنه عبٌّ من كل ما كان يشتهيه. والطريف أن هذه الأرجوزة التى قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة فى اللغة لا تتعمق فى الإغراب اللفظى ، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها فى أساليب سهلة يسيرة ، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق فى الإغراب ، مما يدل على مقدرته الشعرية البارعة .

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية ، من ذلك قصيدته[1] فى المقصور والممدود ، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها ، وقد بدأها بما يفتح أوله فيُقْصَرُ ويُمَدّ والمعنى مختلف من مثل قوله :

لا تركننَّ إلى الهَوَى ... واحذرْ مفارقة الهواء
يوماً تصير إلى الثَّرَى ... ويفوز غيرك بالثراء

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف من مثل : اللِّوَى[2] واللواء . ثم ما يكسر أوله فيقصر ، ويُفْتح فيمد ، والمعنى واحد مثل : سِوَى وسواء . ثم ما يضم أوله فيقصر ، ويكسر فيمد والمعنى واحد ، مثل : لُقًا ولِقاء . ثم ما يفتح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى واحد مثل : الغَدَا والغِذاء . ثم ما يفتَح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : السَّحا والسحاء[3]. ثم ما يُضَمّ أوله فيقصر ، ويفتح فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : ضُحًى وضَحاء[4]. وفى ديوانه قصيدة[5] ملأها بالغريب ، نظمها تحدياً لبعض علماء اللغة موردا عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة ، وهى لذلك تُضَمّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين ،

---

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة ص ٢٩ .

(٢) اللوى: منقطع الرمل .

(٣) السحا : القرطاس : السحاء : ضرب من الشجر .

(٤) الضحى : وقت ارتفاع الشمس . الضحاء : النهار .

(٥) الديوان ص ٨٨ .

فغايتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضًا فى الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات [1] أودع فى أولاها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث ، وفى ثانيتها ما يؤنث ولا يذكّر ، وفى ثالثتها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث . وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

---

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

# الفصل الخامس

## أعلام للشعراء

### ١

### على بن الجهم (١)

يرجع نسب على بن الجهم إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرْو بخراسان واستوطن هذا البلد النائى مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم فى إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا (٢) :

مذهبى واضحٌ وأصلى خُراسا نُ وعِزِّى بعِزِّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشَغْل بعض الوظائف فى الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه، ويولّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى فى عهد الواثق شرطة بغداد (٣) وفى ديوان أبى تمام أشعار فى أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعْرَفُ بالضبط السنة التى أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه؛ ونراه فى نعومة أظفاره يختلف من داره فى شارع دُجَيْل

---

(١) انظر فى على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ /٢٠٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان فى على وتاريخ بغداد ١١ /٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة فى سنة ٢٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه فى المجمع العلمى العربى بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ /٢٤٠ .

إلى كُتَّاب بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثًا مجتمعين ، ولفتته ذات يوم بُنَيَّة صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها فى بعض الألواح (١) :

ماذا تقولين فيمن شفَّه سَهَرٌ      من جَهْد حبك حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البُنَيَّة فى نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محبًّا قد أَضرَّ بهِ      جَهْدُ الصبابة أَو ليناه إحسانا

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكأن هذه البُنَيَّة هى التى ألهمته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغبًا وعبثًا ولعبًا ، فسأل معلمه فى الكُتَّاب أن يحبسه تأديبًا له ، وأجابه المعلم إلى حبسه، فاغتاظ على من أبيه غيظًا شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقِّ لَوْح مستغيثًا (٢) :

يا أُمَّتا أَفديكِ من أُمِّ      أَشكو إليكِ فظاظةَ الجَهْمِ

قد سُرِّح الصبيان كلهمُ      وبقيتُ محصورًا بلا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاصًا بما سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيما بعد نارها . والحادثتان كلتاهما تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكد ينهى دروسه فى الكتَّاب حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر . وكانوا يتعلمون فى الكتَّاب شيئًا من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية . ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شىء من علوم الأوائل صنيعَ لداته فى عصره . وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف إليها وكثيراً ما اجتذبته ، ونقصد حلقة الشعراء إذ «كانوا يجتمعون كل جمعة فى القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة» . وفى هذه الحلقة تعرف

(١) الديوان ص ١٨٤ .      (٢) الديوان ص ١٨٠ والجرم : الذنب .

على كثير من شعراء عصره وفى مقدمتهم أبو تمام الذى أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً فى شعره بمثل قوله[١] :

إنْ يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤُنا     عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أَو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بَيْنَنَا     أَدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له فى الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعْجَبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق[٢] . ويفد على الواثق يمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُّ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه[٣] . وفى هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسياً فى ذلك بصديقه أبى تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزّى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حارًّا .

وتُقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذه جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظيَّاته من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً وبيده دُرَّتان نفيستان يقلِّبهما تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُّرَّتَيْن ، وكانت فى يمينه ، والأخرى لا تزال فى يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بِسُرَّ مَنْ رَا إمامُ عَدْلٍ     تغْرِف من بحره البحارُ
المُلكُ فيه وفى بَنيـهِ     ما اختلف الليل والنهارُ
يُرْجَى ويُخْشَى لكل أَمرٍ     كأَنه جَنَّةٌ ونـارُ

---

(١) ديوان أبى تمام ١ / ٤٠٧.
(٢) أغانى ١٠ / ٢١٠ .
(٣) الديوان ص ١١٨ .

يداه في الجود ضَرَّتانِ عليه كلتاهما تَغارُ
لم تأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أتت مثلَه اليسارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية[١]. وقد يكون فى منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر . ونراه يتحول منذ اليوم الأول فى خلافته داعية كبيراً من دعاته ، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام ، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعو له إن احتاج إلى دعوة ، بل إنه ليبالغ فى الدعوة له مبالغة مفرطة . وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به فى أشعاره ويشيد إشادة بعيدة ، وحتّى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيناه يَسْقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد . وكان أول عمل عامّ نهض به المتوكل وقفه محنةَ القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة ، وعَنُفوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً ، حتّى إذا ولى المتوكل وقف هذه المحنة التى أوشكت أن تؤدى إلى فتنة خطيرة ، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغْرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة . ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع ، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدى إلى شر خطير ، ونراه فى أثناء ذلك يكيل هجاء ذميماً للمعتزلة ، حتّى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله[٢] :

قام وأهلُ الأرض فى رَجْفةٍ يَخْبِطُ فيها المقبلَ المدبرُ
فى فتنة عمياءَ لا نارُها تخبو ولا مُوقدها يفْتُرُ
فقال والألسنُ مقبوضةٌ ليُبْلغِ الغائبَ من يَحْضُرُ
إنِّى توكلتُ على الله لا أُشركُ بالله ولا أَكْفُرُ
لا أَدَّعى القدرةَ من دونهِ بالله حَوْلِى وبهِ أَقْدِرُ

---

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر العقد الفريد ( طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ١/ ٣٢١ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .

وابن الجهم يزعم فى الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدى بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفى عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرّف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سنىٌّ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شىء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه فى نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى فى الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زللٌ منه ، وكان حريا به ألا يرسل لسانه فى المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصمات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط فى مبالغته أكثر مما ينبغى .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن على بن أبى طالب وآله ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر فى سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحرَثَ موضع القبر ويُزْرَع ما حواليه ، ونرى ابن الجهم منذ ولى المتوكل الخلافة يُبْدئ ويعيد فى أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقاً بدأ ذلك عنده فى مدائحه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغماً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبَيْته أحق من البيت العلوى بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذى عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له[1] :

أَنتَ ميثاقنا الذى أَخذ اللـ ... ـهُ علينا وعهدُه المسئولُ

بكَ تَزْكو الصلاةُ والصومُ والحـ ... ـجُّ ويزكو التسبيحُ والتهليلُ

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زيّن عمله للرعية ،

---

(١) الديوان ص ٣٥ .

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه فى سجنه حتى مات، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَّجِيّ وكان من عِلْية الكتاب ومشاهيرهم، وينوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية، إذ كان ابن الزيات — فى رأيه — ظالمًا جائرا يُزْرِى على سنن النبى، وكان الرخجى يجور فى أحكامه وتصرفاته[(١)]. ويعقد المتوكل البيعة فى سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبى عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهداً إليهم بولاية العهد على التوالى، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين[(٢)]. وأمر المتوكل كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطيالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدّوا فى أوساطهم الزنانير وكتب بذلك إلى عماله فى الآفاق، فقال ابن الجهم[(٣)]:

العَسَلِيَّاتُ التى فَرَّقَتْ بين ذوى الرِّشْدَةِ والغَىّ
وما على العاقل أنْ يَكثروا فإنه أكْثَرُ لِلْفَىّ

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعًا، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما، فقد أوغر أيضًا صدور النصارى وأهل الذمة. ولم يَقِفْ إيغارُه الصدور عند هذه البيئات الثلاث، فقد أوغر أيضًا صدور حاشية المتوكل جميعًا شعراء وغير شعراء، وكان منهم مروان بن أبى الجنوب والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العَيْناء وابن حمدون وعَزّون وبَخْتيشُوع الطبيب النصرانى وعبادة المضحك، وساءهم جميعًا أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبى الجنوب يهجوانه. وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل، فتارة يقولون له إنه يجمّش غلمانك ويلاعبهم، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك. وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسمهم، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصرانى ومن يودلو انتقم منه شر انتقام، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظًا وحنقًا عليه، فأمر بحبسه لسنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

---

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها.

(٢) الديوان ص ١٢٥.

(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى فى البيت الثانى: الفيء وهو الغنيمة.

أحداً منهم لم يحام عنه فى بلائه ، بل لقد خذلوه جميعًا ، وما يلبث أن يقول [١] :

تضافرتِ الرَّوافِضُ والنَّصَارَى   وأَهلُ الإعتزال على هجائى

وكأنه كان يعرف فى وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به فى غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشى الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم فى هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عَنَى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل»[٢] . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — واليًا لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرَّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبى دؤاد رأسًا من رءوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له فى مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعه ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات فى بيتيه السابقين وكان يكنُّ له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم فى محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، منددا بخصومه بل هاجيًا لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقّ له المتوكل فردّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبروا لابن الجهم مكيدة لا تُقْبَلُ فيها التعلاّت والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوَّلت له أن يهجوه هجاء قبيحًا ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصْلَبَ يومًا إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحى نيسابور تسمى الشَّاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أُخْرِج من محبسه وصُلب يومًا إلى الليل مجرَّداً ثم أنزل[٣] ، وكأن طاهراً رأى فى ذلك فرصة

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

(٣) أغانى ١٠ /٢٠٨ .

أن يقتصّ من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته فى أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل فى سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومَثَل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهرُ إنى عن خراسانَ راحِلُ ومستخبَرٌ عنها فما أنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإنى لا أفعل بك إلا ما تحبّ ، ووصله وحمله وكساه [١] ، وأخذ يبتغى إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم فى جواره مدة يَسْمُر فيها عنده ويلزمه فى غدوه ورواحه إلى الصيد [٢] . وكان طبيعيًّا أن تترك هذه المحنة التى طالت سنواتها والتى شقى بها فى بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاًّ كئيبًا على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حريته إليه يطيل المكث فى القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه [٣] :

يشتاق كلُّ غريبٍ عند غربتهِ ويذكر الأهلَ والجيران والوطنا

وليس لى وطنٌ أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارتْ لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامرّاء ؛ فقد ازورّ عنه المتوكل وأُغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغيّر عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعًا ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفىّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزنًا شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يُغْرق أساه فى كئوس اللهو علّها تنسيه كارثته ، ولازم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيّن ( نخّاس ) بالكرخ يسمى المفضّل ، كان منزله مكتظًّا بالجوارى العابثات اللائى يتفنّنّ فى جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا فى الفصل الثانى أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يَعْبَثْن بقلوب الفتيان ويَسْعَرْن أفئدتهم ناراً [٤] . ويُنْعَى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حارًّا . وماتوافى سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

---

( ١ ) أغانى ١٠/٢٠٩ وما بعدها.
( ٢ ) أغانى ١٠/٢٢٧.
( ٣ ) أغانى ١٠/٢٢٤.
( ٤ ) الديوان ص ٥٢ :

العربى المأساة التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الأول ، وهى مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى فى حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب فى كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد فى سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج فى قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور[١] ، ويعترضه أعراب من بنى كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته[٢] .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجُلُّ مدائحه فى المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلا لغيره ، ومرَّ بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن ، بمثل قوله[٣] :

بهِ سَلم الإسلامُ من كل ملحدٍ وحَلَّ بأهل الزَّيْغِ قاصمةُ الظَّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول[٤] :

لنا فى بنى العباس أكرمُ أُسوةٍ فهم خيرُ خلق اللهُ طُرًّا وأَفْضَلُ

ويقول للمتوكل[٥] :

ولن يُقْبَلَ الإيمانُ إلا بحبِّكم وهل يقبل الله الصلاةَ بلا طُهْرِ

وكان لا ينى يمدح المتوكل بحب الخيِّر والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذى يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذى لا تصلح الحياة بدونه ، يقول[٦] :

---

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩.

(٢) الأغانى ١٠/ /٢٣٣ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٢٢ .

(٤) الديوان ص ٧٠.

(٥) الديوان ص ١٤٨.

(٦) الديوان ص ٣٥ .

ملكٌ باسطُ اليَدَيْن إلى الخَيْـ ر صفوحٌ عن الذنوب غفورُ
أَمَّن الناس واستفاض به العدْ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

وله فى المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق فى فاتحتها دعوة للصبوح بالخمر من أيدى الخُرَّد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ فى مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن فى صراحة صريحة أنه خراسانى من شيعة بنى العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق السود ، يقول[1] :

نحن أبناءُ هذه الخرقِ السُّو دِ وأهل التشيُّع المحمودِ

وأروع من هذه التهنئة تهنئة المتوكل بقضاء قائده بُغا قضاء مبرمًا على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهى أرجوزة أنشدها ارتجالا ، وفيها يصور بأس الجيش العباسى فى تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تَخلل الاقتباس منها أبياته[2] ، وهى تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَبْع غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، ونراه فى ميمية قدَّمها إليه يذكر سِنَّه التى أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفًا[3] :

أما وأميرِ المؤمنين لقد رمى الـ ـعدوَّ فلا نِكْساً ولا متهضِّما
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لِخُطَّة خَسْفٍ سامنيها محتِّما

فخطة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه ، ولكنها لم تنقشع ، فعاد إلى

---

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٦ .
(٣) الديوان ص ٢١ .

استعطافه فى لامية له استهلَّها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل فى مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعدلهم وأشدهم توخيًا للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول(١) :

يعاقب تأديباً ويعفو تطوُّلا ويَجْزى على الحُسْنى ويعطى ويُجْزِلُ
ولا يُتْبع المعروف مَنًّا ولا أذًى ولا البُخْلُ من عاداته حين يُسْأَل
رعاك الذى استرعاك أمرَ عبادهِ وكافاك عنا المنعم المتفضِّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زَلّ زَلّته التى تحدثنا عنها حين أحسّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فسماهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يَطير بهم طيرةً بطيئًا سقوطها ، وظل طاهر يسرّها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه فى الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله(٢) :

إن كان لى ذنبٌ فلى حُرْمَةٌ والحقّ لا يدفعه الباطلُ
وحُرْمتى أَعظمُ من زلَّتى لو نالنى من عدلكم نائل

ولكن الزلة فى رأى طاهر كانت أكبر من الحـُرْمة ، فلم يأبه باستعطافه ، حتى أمره المتوكل برد حريته إليه . حينئذ خشى معرَّة لسانه ، فقرّبه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة فى مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركنًا من أركان الإسلام انقضّ انقضاضًا ، فى يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول فى مطلعها(٣) :

أَى ركنٍ وَهَى من الإسلامِ أى يومٍ أَخْنَى على الأَيامِ

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغانى ١٠/ ٢١٨.
(٣) الديوان ص ١٨٢.

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحى أبى تمام ، وهى أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدتْ عليها الأيام ، حتّى إن الشعر ليبكيه بكاء مرًّا ، فقد هلك مثقفه ومروِّض قوافيه وجفَّ غدير روضته ، وجفت بدائع فطنته ، يقول[١] :

غاضَتْ بدائعُ فطنةِ الأَوهامِ وعــدتْ عليها نكبةُ الأَيَّامِ
وغدا القريضُ ضئيلَ شخصٍ باكياً يشكو رزيَّته إلى الأَقلامِ
وتأَوَّهت غُرَرُ القوافى بعده ورمى الزمانُ صحيحها بسقامِ
أَودى مثقِّفها ورائضُ صعبها وغديرُ روضتها أبو تمام

ومرَّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارًّا حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلَّت العراق وملأته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة هوجاء نَحَّتْها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعًا مريراً ، مزريًا على جنوده أن لم ينصروه . منددًا بمن قتلوه تنديداً شديداً[٢] .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَخِزُ فيه وخز الإبر ، وأحيانًا يطعن طعنات دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَّاء يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول المسعودى : « كان فى لسانه فضل قَلَّ مَنْ سلم معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أوذى أو وقعت عليه إهانة ، وممن تعرَّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتّى إذا نكبه المتوكل شمت به هو وابنه أبى الوليد ، وسلَّ عليهما لسانه بمثل قوله[٣] :

يا أَحمدُ بنَ أَبى دُؤادٍ دعوةً بعثتْ إِليك جنادلا وحديدا
ما هذه البِدَعُ التى سميتها بالجهل منك العدلَ والتوحيدا
أَفسدت أَمرَ الدين حين وليتَه ورميته بأَبى الوليد وليدا

(١) الديوان ص ١٨١ .
(٢) الديوان ص ٥٦ .
(٣) الديوان ص ١٢٥ .

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامرّاء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدأين أساسيين فى الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبى الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه ،ويقال إنه هجاه يوماً فى مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المُصْمِيَيْن (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ   عداوةُ غير ذى حسبٍ ودينِ
يُبيحك منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ   ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مصونِ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه فى مقدمات قصائده ، مذيباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب فى فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التى طارت على كل لسان قوله فى فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسْرِ   جَلَبْنَ الهَوَى من حيث أدْرِى ولا أدْرِى
أعَدْنَ لىَ الشَّوْقَ القديم ولم أكن   سلوتُ ولكنْ زِدْنَ جَمْراً إلى جَمْرِ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التى تفد من كل مكان مكشوف وخبىء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لايدرى، وقد أعدْنَ له جذوة الحب القديم التى لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضِئْنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال ،

(١) الديوان ص ١٨٧ . (٢) الديوان ص ٢٢٠ .

وقد التهبت منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأى فى وصله وصَدِّه ، ومن طريف ما له فى الغزل قوله(١) :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنَا بعد فُرْقة ... وأدنى فوادًا من فؤادٍ معذَّبِ
فبِتْنَا جميعاً لو تُرَاقُ زُجاجةٌ ... من الرَّاح فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وكأنهما أصبحا روحين فى بدن .

والفخر كثير فى أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التى أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل فى فترات من حياته ، وصوَّر حين حُبس وصُلب عريانًا صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى فى عمق حين يفتتح إحدى قصائده التى استعطف بها المتوكل بقوله(٢) :

هى النفس ما حمَّلتها تتحمَّل ... وللدهر أيامٌ تجور وتعدلُ
ولا عار إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ... ولكنَّ عارًا أن يزول التجمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحبه(٣) :

فلا تجزعى إمَّا رأيتِ قيودَه ... فإن خلاخيلَ الرجالِ قيودُها

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هى حَلْىٌ الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلَّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادتها صلابة فوق صلابة ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب

(١) الديوان ص ٩٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢١ .
(٣) الديوان ص ٥١ .

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حداً يفوق كل وصف حين يقول لصاحبته[١] :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى حَبْسى وأَىُّ مهنَّدٍ لا يُغْمَدُ[٢]
أو ما رأيتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ كِبْرًا وأوباشُ السِّباعِ تردَّدُ[٣]
والشمسُ لولا أنها محجوبَةٌ عن ناظريك لما أضاءَ الفرْقَدُ
والبَدْرُ يُدْركه السِّرارُ فتَنْجَلى أَيَّامُهُ وكأَنَّهُ متجــدِّدُ[٤]
والغَيْثُ يَحْصُرُهُ الغمامُ فما يُرَى إلا وريِّقُهُ يَراحُ ويَرْعُدُ[٥]
والنارُ فى أَحجارها مخبوءَةٌ لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأَزْنُد
والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيم كعوبَهـــا إلا الثِّقافُ وجذْوَةٌ تتوقَّدُ[٦]

وهو يمثل نفسه لصاحبته سيفاً مسلولا وُضع فى غمده ، بل كأنه أسد فى أجَمته وشمسٌ فى حجابها وبدرٌ فى سِراره ، بل لكأنه غيث مضمر فى غمامه ونار مكنونة فى زندها ورمح يَصْقله مثقفه . وهى صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ . ويُنْفَى إلى خراسان ويُسْجَن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزأر منشداً[٧] :

ما عابه أَن بُزَّ عنه لِباسُهُ فالسيفُ أَهولُ ما يُرَى مسلولا

فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّد من غمده ويصوَّب إلى الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة فى وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفى وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا فى الفصل الماضى قطعة له بديعة

---

(١) الديوان ص ٤١ والأغانى ٢١٣/١٠ .
(٢) المهند : السيف .
(٣) الغيل : أجمة الأسد .
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .
(٥) ريق الغمام : أوله . يراح : تكثر معه الرياح والعواصف الممطرة .
(٦) الزاعبية : ضرب من الرماح المصمية .
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

فى وصف الورد وتهَاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة فى وصف اللهو والملاهى ، ومن قوله فى وصف مجلس أنس[١] :

الوَرْدُ يضحكُ والأَوتارُ تَصْطَخِبُ     والنَّاىُ يندبُ أَشْجَاناً ويَنْتَحِبُ
والرَّاحُ تُعْرَضُ فى نَوْر الربيع كما     تُجْلَى العروسُ عليها الدرُّ والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا فى الفصل الماضى قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للُعْبة الشطرنج وله قصيدة جيدة فى وصف سفينة[٢] .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً فى أشعاره من مثل قوله[٣] :

ومَنْ طلب المعروفَ من غير أَهلهِ     أطال عناءً أَو أَطال تندُّما
ومَنْ سامح الأَيام يَرْضَ حياته     ومَنْ مَنَّ بالمعروف عاد مذمَّما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون فى أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيرًا ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء .

## ٢

### البحترى[٤]

هو أبو عبادة الوليد بن عُبَيْد ، طائىُّ الأب شَيْبانىُّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بُحتُر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بِمَنْبج إلى

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .

(٢) الديوان ص ١١٤ .

(٣) الديوان ص ٢٠ .

(٤) انظر فى البحترى وشعره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ /١٦٧، والموشح للمرزبانى والموازنة بين الطائيين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشى على مقامات الحريرى ١/ ٤٠ وعبث الوليد لأبى العلاء ، وأخبار البحترى للصولى ( طبع المجمع العلمى العربى بدمشق ) =

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقرية تجاورها تسمَّى « زَرْدفنة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرِّر كثيراً فى شعره « مَنْبج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيئ ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِىَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتَّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرَّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبًّا ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرَّف أيضاً على صديق يسمى الذفافى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله[1] :

نُبِّئْتُها زُوِّجَتْ أخا خَنَثٍ      أَغَنَّ رَطْبَ الأَطراف لَيِّنَها

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى» . وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

= وتاريخ بغداد ١٣ /٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ /٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافعى ٢/٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣/ ٩٩ ، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدوى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة العاشرة — طبع دار المعارف ) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته ( طبع دار المعارف ) .

(١) الديوان ٤ /٢٣٢٥ .

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك ، فشكا إليه خَلَّة ، فكتَب إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته " سوء حاله " شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسناً ووظَّفوا له أربعة آلاف درهم[١] . وفى رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمديحه فيمدحهم ، مثل آل حميد الطوسى فى الموصل ، وخالد بن يزيد الشيبانى والى أرمينية والثغور ، وأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى الذى ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبى تمام . وتُخْرِج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أَأَفاق صَبٌّ من هَوًى فأُفِيقا　　　أم خان عهدًا أم أطاع شَفيقا

فردَّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرَّفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحترى[٢] . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فمعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبى سعيد الثغرى ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خَرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحترى معترفًا بجميل أستاذه إذ يقول[٣] :

«كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفْرٌ من الغموم . واعلمْ أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذتْ حظها من الراحة ، وقسطها من

---

(١) أخبار البحترى ص ٥٦ ، والأغانى ١٨/١٦٩ .

(٢) أخبار البحترى ص ٦٣ ، والأغانى ١٨/١٦٩ .

(٣) زهر الآداب للحصرى ١/١٠١ .

النوم ، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقًا والمعنى رشيقًا ، وأكثرْ فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهرْ مناقبه ، وأظهرْ مناسبه ، وأبنْ معالمه ، وشرّفْ مقامه ونَضِّد[١] المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشـين شعرك بالألفاظ الزريَّة . وكن كأنك خيَّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرِح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعةَ إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبْه ترشدْ إن شاء الله تعالى » .

وكأنما وضع أبو تمام نُصْبَ عينى البحترى دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعًا ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظنًّا أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب ، بل أيضًا على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديمًا وحروب الروم حديثًا أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنّى طويلا بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظنًّا أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته[٢] التى يعزيه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامرّاء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

---

(١) نضد المعانى : ضَمَّ بعضها إلى بعض فى اتساق.
(٢) الديوان ٢/٨٨٢.

هى التى فتحت له سريعًا تلك الأبواب ، وإذا هو يَمْثُلُ بين أيديهم جميعًا مادحًا ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحترى بعيداً خوفًا على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرِّفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزليًا ، فأجابه : «كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! »[١] . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سيئ فى البحترى إذ كان متقلبًا مسرفًا فى التقلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلا . على كل حال أحسّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل مُوصَدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذيمدح بعض خاصّته وخاصّة وزيرهِ الفتحِ بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما ، ووعده علىّ أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره[٢] ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه[٣] وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يفى بوعده فى غير قصيدة من مثل قوله[٤] :

وعدتَ فأوشكْ نُجْحَ وعدك إنه ... من المجد إعجالُ المواعيد بالنُّجْحِ
وأنت ترى نُصْحَ الإمام فريضةً ... وإخبارُه عنى سبيلٌ من النُّصْح

(١) أخبار البحترى للصولى ص ١٢٣ .

(٢) الديوان ٢ /١١٣٢ .

(٣) فى أخبار البحترى للصولى ص ٨٣ أن أول قصيدة مدح بها البحترى الفتح بن خاقان لسنة ٢٣٣ هى :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدى الجواب الربع عما تسائله

انظر الديوان ٣/ ١٦١٠ .

(٤) الديوان ١ /٤٤٦ .

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثانى للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكد يترك أحداً من معاونى الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه فى دواوين الخراج وكان نصرانيًّا ، وكأن نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلا ، حتّى بعد خروج أحمد للعمل فى دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولَفْحه ، يقول[1] :

نَصَبٌ إلى طيبِ العراق وحُسْنِها ... ويمنع منها قَيْظُها وحَرُورها
هى الأَرضُ نهواها إذا طاب فَصْلُها ... ونهرُب منها حين يَحْمَى هَجيرُها

وكان لا يترك وجيها ولا وليًّا ولا صاحب خراج فى طريقه من سامرّاء إلى منبج إلا ويقدّم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه، من مثل بنى حميد الطوسى الطائى وأبى سعيد الثغرى وابنه يوسف صاحبى أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمى ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته فى الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبى مسلم الكجّى ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبى ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذى حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله فى الأسرة شعر كثير . وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله فى الفتح بن خاقان تسع

(١) الديوان ٢ /٩٤٣ .

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُلَيل بن يعقوب النصرانى [١] . وتحوَّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث فى عصره إلى ما يشبه آلة راصدة ، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد قائلا [٢] :

قُدَّامهم نورُ النبيِّ وخَلْفهم هَدْىُ الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدوّنه ، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم ، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون ، ونوَّه البحترى بهذا الانتصار طويلا . وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة : تغلب وشيبان وغيرهما ، واستطاع الفتح بن خاقان أن يَحْقِنَ الدماء بينها وأن يردَّها إلى الطاعة ، ومن الغريب أن لا تُعْنَى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة ، بينما نرى البحترى يسجلها ، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البِرِّ والعطف ، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء ، يقول [٣] :

وفُرْسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها بأَحْقَادها حتى تَضيق دُرُوعُها
تقتِّل من وِتْرٍ أعزَّ نفوسها عليها بأَيد ما تكادُ تطيعُها
إذا احتربتْ يوماً ففاضَتْ دماؤها تذكَّرتِ القُرْبَىَ ففاضَتْ دموعُها
شواجرُ أَرماحٍ تقطِّع بَيْنَهم شواجرَ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطوعُها [٤]

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه ، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام . وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم ، فأُغمدت السيوف وقرَّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهَّدة . ويثب أهل حمص بعاملهم [٥] لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل

---

(١) الديوان ٣ /١٦٨٩ .
(٢) الديوان ٢ /٧٠١ .
(٣) الديون ٢ /١٢٩٩ .
(٤) الشواجر : المتشابكة المتداخلة .
(٥) تاريخ الطبرى ٩/١٩٧ وما بعدها .

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوّهًا بعفوه قائلا[١] :

تداركتَ بالإحسان حمصَ وأَهلَها    وقد قارفوا فعل الإساءة والخُرْقِ[٢]

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد فى حفل كبير يصفه البحترى ، ويطيل فى وصف السماط الذى مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسيماهم من ذهول وحيرة[٣]. وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ فى أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومَنْ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها فى سنة ٢٤٣ وتنبَّهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطرَّ أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدومه منها فى غير قصيدة[٤]. ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ فى وصف قصوره التى سميت باسم المتوكلية والتى بلغت — كما مر بنا فى الفصل الثانى — نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذى عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً فى مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز[٥] ، وما يزال ينوه بها مباهيًا الأمم والشعوب . وفى قصر الجعفرى لقى المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعمًا أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر — كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى — اشتراكه فى المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلا[٦] :

أَكان ولىُّ العهد أَضمر غَدْرَةً    فمن عجبٍ أَنْ وُلِّىَ العهد غادرُهْ

وحرىٌّ بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

(١) الديوان ٣/١٥٤٦ .
(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحمق .
(٣) الديوان ٣/١٦٠٢ .
(٤) الديوان ٢/٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ، ٣/١٥١٤ .
(٥) انظر الديوان ٢/١٠٤١ ، ٣/٢٠٠٤ .
(٦) الديوان ٢/١٠٤٨ .

سينيته مودعًا فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعًا وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخصيب متوسلا إليه بكاتبه الحسن بن مخلد حتى يقرّبه منه ويسترضيه له ، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشدًا[١] :

وآلُ أبي طالبٍ بعد مـا أُذيع بسِربهم فابْذَعَــرّ
ونالتْ أَدانيَهم جفــوةٌ تكاد السماءُ لها تَنْفَطِــرْ
وصَلْتَ شوابكَ أَرحامهم وقد أَوشكَ الحَبْلُ أن يَنْبَتِر

ويتوفَّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتُستَصْفَى أمواله ويُنْفَى إلى جزيرة إقريطش ( كريت ) وحينئذ نجد البحترى يتنكّر له ، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحثهم –كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى– على قتله قائلا[٢] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرى بإفْكهِ المُرْدِى وإبطــالهِ

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه – كما مرَّ فى غير هذا الموضع– إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنَّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبًا من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعًا بمثل قوله[٣] :

---

( ١ ) الديوان ٢ /٨٥٠ . ابذعر : تفرق .
( ٢ ) الديوان ٣ /١٦٣٧ .
( ٣ ) الديوان ١ /٢١٥ .

بكى المِنْبَرُ الشرقىُّ إذ خارَ فوقَه ... على الناس ثَوْرٌ قد تدلّتْ غَباغِبُه[١]

فكيف رأيت الحقَّ قَرَّ قراره ... وكيف رأيت الظلم آلتْ عواقبه

وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، ومما سجله من الأحداث لعهده وعهد المستعين قتل القائد التركى أتامش وكاتبه شجاع[٢] لسنة ٢٤٩ وقتل بُغا الشرابى[٣] قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركى وصيفاً[٤] الكبير وابنه صالحاً[٥] ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً فى الإلمام به . ويُكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبى صالح محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويَضْطر قواد الترك المعتزَّ إلى خلع نفسه فى سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدى بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهى ومتاع الحياة الزائل ونشره للعدل فى ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحترى ، وكان الخليفة الحقيقى لعهده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بإيران هزيمة ساحقة . ويصور البحترى فى مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببنائه وسماه المعشوق ونوّه به ، وله قصيدة رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقوله[٦] :

أخذتَ بوِتْرِ الدين مَثْنَى وظُفِّرَتْ ... يداك فلم يُفْلِتْ عدوٌّ تطالِبُه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فلزمه البحترى ، وفكّر فى أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛ فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته[٧] :

(١) خار : صاح . الغباغب : ماتغضن من الجلد فى منبت العثنون أو اللحية حول الذقن .
(٢) الديوان ١/٥٢٤ .
(٣) الديوان ٣/٢٠١٩ .
(٤) الديوان ٣/١٤٠٣ .
(٥) الديوان ٣/٢١٧٤ .
(٦) الديوان ١/٢٢٤ .
(٧) الديوان ١/٤٩٣ .

أمرتجَعٌ منى حباءُ خلائفٍ ... توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفَّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارعاً ، فيجعل أمره إلى كاتبه السِّيبى ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته[١] :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ ... والنَّيْل يَسْلُسُ للرَّاجى ويَنْسَرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه[١] . ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحترى مدائحه ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويُكثر البحترى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى إسرائيل ، ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله[٢] :

وأعتقتَ الرِّقاب فمُرْ بِعتقى ... إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحترى يُكْثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم[٣] . ومن كبار الكتَّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتَّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيما الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

---

(١) الديوان ١ /٤٣٨ وأخبار البحترى ص ١١٠ .
(٢) الديوان ٢ /٩١٦ .
(٣) الديوان ٢ /١٢٦٨ .

وكتّاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه[١] . وممن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ،وعُنِى بمديح كثيرين من آل طاهر حكّامها كما مرَّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطربّلى والمبرّد النحوى ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافى صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحترى ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة فى خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلا[٢] :

أَخْشَى الخراجَ وقد دعوتُ لعُظْمه ملكَ الملوك ورافــد الرُّفَّادِ

ومضى عمال الخراج يُثْقلون عليه ، وهو كل يوم يَمْثُلُ بين أيديهم شاكيًا ملحًّا فى أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يبتغى منهم ، فيفكر فى مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح فى مديحه له بما فى نفسه قائلا[٣] :

فأصبحتُ فى بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العَيْش غَضٌّ فى غَضارته رطْبُ
أَ أمدح عُمَّال الطَّساسيجِ راغباً إليهم ولى بالشام مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ[٤]

وكل شيء يؤكد أن البحترى كان قد أثرى ثراء فاحشًا منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالا جمة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفى مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين فى دواوين الخراج والضياع ، ويقول الصولى إنه كان يوجب على إبراهيم فى كل سنة أن يُسْقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استماحه مرة لشراء ضيعة فلاحه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

---

(١) الديوان ٣ /١٨٥٦ .
(٢) الديوان ٢ /٧٣٤ .
(٣) الديوان ١ /١٢٣ .
(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضياع ، ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجا . رغب : متسع .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها[١] :

وما زالتِ العِيسُ المراسيلُ تَنْبَرِى ... فيُقْضَى لدى آل المدبِّر حَاجُها[٢]
ولمْ لا أغالى بالضِّياع وقد دَنَا ... علىَّ مَدَاها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى ترْبِيعُها واغْتــلالُها ... وكان عليك عُشْرُها وخراجها[٣]

فأمر له بالمال الذى يشترى تلك الضيعة به[٤] . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياع وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلحُّ عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُهْديه إليه[٥] . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعًا جاوره البحترى فى بعضه، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفَّع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافَعٍ ... كرماً وأحسنَهم نَدًى وصَنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلا له : اقْضِ حاجة البحترى ، فوهبها له[٦] . وتظل عنده شهوة تملك الضياع والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعًا[٧] ومن ابنه أبى صالح ضيعة[٨] ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً[٩] . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً[١٠] وسيوفاً[١١]

---

(١) الديوان ١ / ٤٢٧ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق السهلة السير .

(٣) التربيع : الإنماء . والعشر : عشر الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالديين نشر سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣/٩٧ ، وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمى . انظر الديوان ٣ /١٥٣٦ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان ٢ /١٣٠٩ .

(٧) الديوان ٣ /١٥٢٤ .

(٨) الديوان ٢ /١٠٠٨ .

(٩) الديوان ٣ /٢٠٤١ .

(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣/ ١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠ .

(١١) الديوان ٣ /١٧٤١ .

وشرابـًا[١] وثيابـًا[٢] وغلمانـًا[٣] . وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحـّه وما يقال من أنه كان يمشي فى موكب من غلمانه[٤] ، فقد كانوا جميعـًا هبات من ممدوحيه ، وخَص نسيمـًا من بينهم بغزل كثير ، وكان قد أهداه إليه محمد[٥] بن عيسى القمى كاتب أبى سعيد الثغرى ، وفى الأغانى « أن البحترى جعله بابـًا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيـّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يـَنْفقُ عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبـّب به وتشوّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكـُفى الناس أمره »[٦] . وقد يكون أبو الفرج مبالغـًا فى ذلك ، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه، فرده عليه[٧] ، ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر ، وقد ظلّ يـُلـْحِفُ فى سؤال العطاء والضياع فكان طبيعيـًّا أن يلفت إليه أنظار معاصريه ، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينى يحتال فى التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر . ويفكر فى الإفادة من أحمد بن طولون ـ كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ـ فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عناص ويونس بن بغـُا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابى . ويـُتـَوَفّى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ ونرى البحترى فى بعض قصيده[٨] يجمع بين مديحه ومديح أبى الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد . وفى سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبى عيسى العلاء وأبى صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أموالهم وأسبابهم[٩] ، ويتوفّى أبو عيسى العلاء فى الحبس بعد ثلاثة عشر يومـًا ويكتئب البحترى ، ويرثيه بقصيدة يقول فيها[١٠] :

---

(١) الديوان ١/٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، ٥٥٩ ، والأغانى ١٨ /١٧١ .

(٢) الديوان ٢/ ٨٣٧ ، ٨٩٢ وأخبار البحترى ص ١١٥ .

(٣) انظر مثلا ٢/٩٨٦ ، ١٠٦٧ ، ١٤٨٥/٣ .

(٤) راجع الأغانى ١٨/ ١٧٠ وقابل بالعمدة لابن رشيق ٢/ ١٥٠ .

(٥) الديوان ١/ ٥٢٧ .

(٦) الأغانى ١٨/ ١٧١ .

(٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٨) الديوان ٢/ ٩٠٩ .

(٩) تاريخ الطبرى ١٠/ ١٠ .

(١٠) الديوان ٣/ ١٥٥٣ .

ولم أرَ كالدنيا حَليلةَ وامق محبٍّ متى تحْسُنْ بعينيه تَطْلُقِ
تراها عِياناً وهْى صنعةُ واحدٍ فتحسبها صُنْعَىْ لطيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيتين شَنَّعوا عليه بأنه ثَنَوِىّ يؤمن بإلهى النور والظلمة ، وشاع ذلك فى عامة بغداد وكانت غالبة عليها حينئذ ، فخافهم البحترى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد فى مسجده ببغداد . ونظن ظنًّا أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سببًا فى أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولَّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه[١]، ويبدو أنه كان يلقاه فى رحلاته بالشام ، ثم مدَّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت علته كَبْرة فلم يقم بمصر طويلا وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبَّى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل[٢] :

خُلُقٌ أَتيتَ بفضله وسَنائه طبعاً فجاءَ كأَنه مصنوعُ
وحديثُ مجدٍ عنك أفرط حُسْنُهُ حتى ظنَنَّا أنه موضـــوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوى وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقًا ، فكان لا بد له أن يتزوَّد من اللغة ومن

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٩٧ .
(٢) الديوان ٢/ ١٣١٦ .

النحو ومن التاريخ العربى الإسلامى ، ونراه فى بعض شعره يعرض لعالم لغوى فى عصره هو الفضل بن محمد اليزيدى ، رآه يزرى على جميل وكثيِّر ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق فى الفاعل والمفعول(١) .

وكان لا يبارَى فى ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلةً ومشابهةً لأستاذه أبى تمام فى حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً فى معانى الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف فى تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحترى كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقًّا له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملمًّا بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلمّ من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضَّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن فى النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهى بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهى بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أُثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تَزِنُها موازين دقيقة ، وهى بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

---

(١) الديوان ٣ /١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشن حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحترى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحترى وفى مقدمتهم ابن الرومى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عَزْله عن وظيفته ، وسارع البحترى فلمَّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردَّ عليه عبيد الله يمدُّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة ، ويبدو أنهما ندَّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا ، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها(١) :

كلَّفتمونا حدودَ مَنْطقكم والشعرُ يغنى عن صدقه كَذِبُهْ
ولم يكن ذو القُرُوحِ يَلْهَجُ بالـ مَنْطق ما نَوْعُهُ وما سَبَبُهْ
والشِّعْرُ لمْحٌ تكفى إشارتُه وليس بالهَذْر طُوِّلَتْ خُطَبُه

وحقًّا لم يكن امرؤ القيس الملقَّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقًا لا لأنه صَدَّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحترى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الرومى وأضرابه وغذَّى بهما شاعريته غذاء رفيعًا . وهو يلمِّح فى الشطر الأخير إلى ابن الرومى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفَّة البحترى المحافظ كفَّة ابن الرومى المجدد ، وأن يقف فى صَفِّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثْرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الرومى يعيش لعصره فيما يشبه عُزْلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقًا واضحًا بملكاته الشعرية الخصبة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحترى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثْرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

---

(١) الديوان ١/٢٠٩ .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبى تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبى نواس وبشار ، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلا بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفى ذلك يقول ابن الرومى لأبى عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن فى ربوع بغداد[١] :

أيسرق البحترىُّ الناسَ شعرهمُ  جَهْرًا وأنت نكَال اللِّصِّ ذى الرِّيَبِ

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبى تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث ، وكان أول من عُنى بذلك عنده معاصره أحمد بن أبى طاهر ؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبى تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه فى رَأى ابن أبى طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبى تمام ، وعليه اعتمد الآمدى فى الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفى رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يَصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقًّا أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبى تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره فى ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع فى الشعر[٢] ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع فى شعره للمنطق على نحو ما صرّح بذلك آنفًا . وظاهرة ثانية هى أنه جارى أستاذه فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٣٥ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١/١٥٩ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها فى أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلا يجنح إلى استخدام نوافر الأضداد فى أشعاره كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلا ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضًا فى حديثنا عنه فى العصر العباسى الأول، ولم يكن البحترى يتعمق هذا اللون تعمقًا من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى[1]، يريدون محافظته على أصوله الموروثة، ومن تتمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام، ولا كان يستطيع أن يتغلغل فى دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب فى أشعاره، ولذلك كان يشيع فى أشعاره الغموض، مما جعل القدماء يختلفون فى فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها، لكثرة ما توحى به من معان، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء، بل إنك تجد فى أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة فى أشعاره، وهى أقواس بهيجة، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد.

ولكن إذا كان البحترى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلا لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها فى الجرس، بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروَّقًا ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلا عند هذا الجانب فى الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلته بين أصوات الألفاظ والقوافى فى بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

---

(١) الموازنة للآمدى ( طبعة الجوائب ) ص ٢ .

مدى التوافق الصوتى عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية(١) . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صَفَّين : صَفٌّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سُئل عنه وعن أبى تمام قال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه ، وهو يريد بجيد أبى تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التى لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يحلق فى آفاقها ، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التى يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعْنَى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرَّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وولاتهم وقوادهم وكتَّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعَدُّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصوهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل(٢) :

شَرَفاً بنى العباس إن أَباكمُ ... عَمُّ النبىِّ وعِيصُه المتفرِّعُ
إن الفضيلة للذى استَسْقَى بهِ ... عُمَرٌ وشُفِّع إذ غَدَا يَسْتَشْفِعُ
وأَرى الخلافة وهْى أعظم رتبة ... حَقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزَعُ
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم ... واللهُ يُعْطى مَنْ يشاءُ ويَمْنَعُ

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العِيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة العاشرة — نشر دار المعارف ) ص٧٧ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢ /١٣١١ .

فضله بأن عمر استسقى به فى عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بابن أبى طالب ، ويشير إلى حكم الميراث فى الإسلام وما فرضه من حَجْب العم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء على وحفدته أى حق فى منازعتهم . ويكرر البحترى فى مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعدلهم الذى ينشرونه فى ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرَّارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فمن ذلك قصيدته فى وصف موكب المتوكل فى أثناء خروجه لأداء الصلاة فى عيد الفطر ، وقد صوَّر فى فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة فى جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول[١] :

افتنَّ فيك الناظرون فإِصْبَعٌ ... يُومَى إليك بها وعَيْنٌ تَنْظُرُ
يجدون رويتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ
ذكروا بِطَلْعتك النبىَّ فهلَّلوا ... لما طلعتَ من الصفوف وكبَّروا
حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو انَّ مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المِنْبُر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور ، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعْد غَوْره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحَطْمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلَّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى . ومديحه

---

(١) الديوان ٢ / ١٠٧٢ .

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودًّا وحبًّا وإخلاصًا ، وكان ما ينى يتغنّى بمديحه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيبته[١] :

إذا ما مَشَى بين الصفوف تقاصرتْ رءوسُ الرِّجال عن طُوالٍ سَمَيْدَعِ[٢]

وإن سار كُفَّ اللحظُ عن كل منظرٍ سواه وغُضَّ الصوت عن كل مَسْمَع

فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخصٍ إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصْبَع[٣]

ومرّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمديحه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبى تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعًا ، مجسمًا بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، إنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رَحَاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيدشجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله[٤] :

لقد كان ذاك الجَأْشُ جَأْش مسالمٍ على أَن ذاكَ الزِّيَّ زِيُّ محاربِ

تسرَّع حتى قال من شهد الوَغَى لقاءُ أعادٍ أَم لقاء حبائبِ

وصاعقةٍ فى كفه يَنْكفِى بها على أَرْؤُسِ الأَقران خمسُ سحائب

فجأشُهُ مطمئنٌّ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سِلْم وأمن ودعة مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على حمى معشوقته هانئًا مغتبطًا ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتنى ترسل عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد سجّل بطولته فى معركة بحرية دمّر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعًا ، ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

---

(١) الديوان ٢ /١٢٣٩ .
(٢) السميدع : السيد الكريم الشجاع .
(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .
(٤) الديوان ١ /١٧٨ .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقاً (١) :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإنما غدا المَرْكَبُ الميمونُ تحت المظفَّرِ
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا كئوسَ الردَى من دارعين وحُسَّرِ (٢)
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العَثَانين دونهم ضرابٌ كإيقاد اللَّظَى المتسعِّرِ (٣)
يسوقون أسطولا كأَن سَفينه سحائبُ صَيْفٍ من جَهامٍ ومُمْطرِ (٤)
فما رِمْتَ حتى أَجْلَت الحربُ عن طُلًى مقطَّعةٍ فيهم وهامٍ مطيَّرِ (٥)

وكل شىء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد (٦) . وقد يكون فى ذلك مبالغة ، على أننا نجد فى الديوان رائية مرددة بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها (٧) . ويدخل فى هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً (٨) ، وقد عرضنا لذلك فى غير هذا الموضع ، ولا شك فى أن فى العدد مبالغة .

وفى ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة . وإما إلى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

---

(١) الديوان ٢/ ٩٨٢ .

(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس الدرع . الحاسر : عكس الدارع .

(٣) صهب العثانين : شقر اللحى ، ويريد بهم الروم .

(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .

(٥) رام يريم عن المكان : زال عنه وفارقه . الطلى : الأعناق . الهام : الرءوس .

(٦) الموشح ص ٣٣٦ .

(٧) الديوان ٢/ ٨٧٠ وما بعدها .

(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُرْوَى عن ابنه أبى الغوث أن السبب فى ذلك أن أباه أحرق هجاءه فى الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه(١).

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقًّا يفخر فى بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيئ ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر فى ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبيته القبلية ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا فى الفصل السالف قصيدته فى إيوان كسرى وبكاؤه لأمجاد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأمجاد العربية فى مقابل الأمجاد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل فى إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا فى مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلا(٢) :

إن للمِهْرَجان حقًّا على كـ     ـل كبيرٍ من فارسٍ وصغيرِ
عيدُ آبائكَ الملوكِ ذوى التِّيـ     ـجانِ أَهل النُّهَى وأَهل الخِيرِ(٣)

ويعدّد طائفة من هؤلاء الملوك فى مقدمتهم يَزْدَجِرْد ، وكسرى ، وأَرْدَشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير. وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

وذكرنا فى الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذى ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتل به الخليفة وما حلّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه مأتم كبير ،

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٧ .
(٢) الديوان ٢/ ٨٨٦ .
(٣) الخير : الكرم والشرف .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته ثم يصف القتل والقتلة وصفًا مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثى بها طائفة من بنى حميد الطوسى خرُّوا صَرْعَى فى ميادين الثغور دفاعًا عن العَرِين العربى ، وفيهم يقول[١] :

قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنَّما مواقعُهم منها مواقعُ أنجمِ
مضوا يستلذّون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدِّم
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُـــه أميرًا على تدبير جيشٍ عَرَمْرَمِ[٢]
مساعٍ عظامٌ ليس يَبْلَى جديدها وإن بَلِيَتْ منهم رمائمُ أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء لوطنهم ودينهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كئوس الموت دهاقًا.

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ فى شبابه عَلْوة الحلبية وظلت ذكراها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته وداً بود ، ثم تزوجها الذفافى كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسل عنها ، وفى ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ، وإن كنا نظن ظنًّا أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها فى سامرَّاء وبغداد كما ارتحل عنها ، فهو لاينى يذكرها بمثل قوله فى مقدمة مدحة للمعتز[٣] :

كم ليلةٍ فيكِ بتُّ أَسْهَرُها ولوعة فى هواكِ أُضمرها
وحرقةٍ والدموعُ تُطْفئها ثم يعود الجَــوى فيُسْعِرها
يا عَلْوُ عَلَّ الزمانَ يُعْقبنا أيام وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التى مضت بين حبه لها فى شبابه ومديحه للمعتز وهو فى نحو الخمسين من عمره لم تطفىء لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

(١) الديوان ٣/١٩٤٥ .
(٢) عرمرم : كثيف .
(٣) الديوان ٢/١٠٧٤ .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله[١] :

وخلافُ الجميل قولُك للذّا كر عهدَ الأَحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلُمْه على مواصلة الدَّم ع ِ فلوْمٌ لَوْمُ الخليل الخليلا
علَّ ماءَ الدموع يُخمد نارًا من جَوَى الحبِّ أَو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهبًا ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرَّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى ، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول[٢] :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائل[٣]
رُفعتْ لمنْخَرِقِ الرِّياح سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايلِ[٤]
وكأَن حِيطان الزجاج بجَوِّهِ لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنوب سواحل
لبستْ من الذهب الصقيل سُقوفُه نورًا يضىء على الظلام الحافل[٥]

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبا الحانى . وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها يقول البحترى[٦] :

يا مَنْ رَأَى البِرْكةَ الحسناءَ رُؤْيَتُها والآنساتِ إذا لاحتْ مغانيها[٧]
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً كالخيل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها

(١) الديوان ١٧٦٧/٣
(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .
(٣) المزلة : المزلق .
(٤) منخرق الرياح : مهبها . سموكه : أعاليه .
(٥) الحافل : الكثير .
(٦) الديوان ٤ /٢٤١٦ .
(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت منازلهن تحفّ بالبركة .

كأنما الفضةُ البيضاءُ سائلةً من السبائك تَجْرى فى مجاريها
فرونقُ الشمس أحياناً يضاحكها ورَيِّق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها لَيْلًا حسبتَ سماءً رُكِّبَتْ فيها

ويتحدث عن السمك المحصور فى البركة والصحن الممتد فى أسفلها والبهو الممتد فى أعاليها وتمثال الدُّلْفَين الذى كان مقامًا عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحترى الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبة القصور فى ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

### ابن الرومى

هو على[1] بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسى . وكان يونانى الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحيانًا من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجًى ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

(١) انظر ترجمته وأشعاره فى مروج الذهب ١٨٢/٤ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزبانى ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٩٦/٣ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٨٨/٢ ، ومرآة الجنان لليافعى ١٩٨/٢ وابن داود فى كتابه الزهرة وديوان المعانى للعسكرى فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومى (حياته من شعره) للعقاد وحصاد الهشيم للمازنى ، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلانى من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومى ولايزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومى وشعره ترجمة حسين نصار .

وقوله فى مواليه العباسيين :

مولاهمُ وغَذِىُّ نعمتهم والرُّوم – حين تنصُّنى – أَصْلى

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيَّة يدَّعونها ، ومن فخره بنسبه العريق – فى رأيه – من قِبَل أبيه وأمه قوله :

كيف أُغْضى على الدنيّة والفُرْ سُ خُئولى والرومُ هم أَعْمامى

وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوا ضئيلا نحيلا دميم الوجه تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَنْعَى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرّح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذى كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً ، وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله[١] :

شُغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورعِ

كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجدَ الجمعِ

ويبدو أن أباه كان على شىء من اليسار ، وحقًّا توفى فى مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل فى الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومى فى نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومى أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئًا من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبى ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التى عُنى

(١) الديوان ( مختارات الكيلانى ) ص ١ .

بها الرشيد والمأمون مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضًا يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادراً[١] . وتكثر فى أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسنرى أثر ذلك فى أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجيًا لهم ، ويذكر معاصروه أيضًا أن من كان يلقاه يراه كالمتوجِّس المذعور ، وكأنما كان فى أعصابه شىء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذى أعدَّه لأن يصبح أكبر شاعر متطيِّر فى عصره . وكان إذا روجع فى كثرة تطيُّره احتج بقوله إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرَة ، أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطيَّر من ضده ، ويقول إن عليًّا لم يكن يغزو غزاةً والقمر فى برج العقرب ، وكان يزعم أن الطِّيَرَةَ موجودة فى الطباع قائمة فيها[٢] . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فيرى جاراً له أحدب كان نازلا بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب[٣] . وافتقده فى مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلامًا يسمى إقبالا ليتفاءل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكد يعزم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوسًا هكذا : لا بقاء، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما فى نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلامًا له يسمى حسنًا ، وكان حسن الوجه ، طالبًا إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تَمْر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

---

(١) أشار أبو العلاء فى رسالة الغفران إلى تفلسف ابن الرومى قائلا إنه كان يتعاطى الفلسفة . انظر طبعة كيلانى ٢/ ٧٤ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ٢ /١٧٢ .

(٣) زهر الآداب ٢ /١٧٧ .

أن « لا تمرّ » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام[١] . ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختُلق عليه اختلاقًا . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوابة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته فى سامرّاء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله[٢] :

لقيتُ من البَرِّ التباريحَ بعد ما　　لقيت من البحر ابْيضاضَ الذوائبِ

وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك فى باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفى تطيره ، إنما ننفى المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومى يتطير حقًّا ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لنرى الأخفش على بن سليمان النحوى ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب فى الصباح ، فإذا قال من القارع ؟ أجابه بمثل مُرَّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التى تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه فى بيته ، ولا يخرج يومه أجمع[٣] .

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثًا فى الكتَّاب ، إذ تُرْوَى له أبيات حينئذ فى هجاء غلام عباسى يسمى جعفراً كان زميلا له ، وكأن ذلك كان إرهاصًا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر — كلداته — حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عِلْية أهل بغداد ، وكان طبيعيًّا أن يعرضه على كبار رجال الدولة وفى مقدمتهم أبو العباس محمد بن عبدالله بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذى قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميرًا لخراسان وخلَفَه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومى الزلفى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع فى ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومى ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر فى هذه الأخبار زهر الآداب وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيق ١/٤٠ ومعاهد التنصيص ١/١٤٣ .

(٢) انظر القصيدة فى الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد التنصيص ١/٤٣ .

الرومى يوجه إليه مثل قوله(١) :

مدحت أبا العباس أطلب رِفْده　　　فخيَّبنى من رفده وهَجَا شعرى

ويبدو أنه كان بخيلا ، وأن بخله كان السبب الحقيقى فى انصرافه عن الشاعر ، متعللا بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الرومى يصبّ عليه سياطًا حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعًا من مثل قوله(٢) :

إذا حسنتْ أخلاق قومٍ فبئسما　　　خلقتم به أسلافكم آلَ طاهرِ
جنوا لكمُ أن تُمْدَحوا وجنيتمُ　　　لموتاكمُ أن يُشْتَموا فى المقابر

وترنو عينه إلى سامرَّاء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام ، ويقْدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره ، ويعود سريعًا إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقى فى ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيُّع فيه كان يضمره فى نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة فى الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشًا كثيفًا لحرب العباسيين ، ويلتقى به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل فى ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومى غضبًا شديداً ، ويرثيه بجيمية(٣) طويلة ، يندبه فيها ندبًا حارًّا ، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ　　　عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ(٤)
ويا أسفى أن لا يردَّ تحيَّةً　　　سوى أَرَجٍ من طيب نَشْرك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما　　　ثويتَ وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكى العلويين جميعًا منذ شهيدهم الحسين المقتول فى كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه فى علِيّين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(١) الديوان ص ٤٣٨ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ .
(٣) الديوان ص ٢٢٤ .
(٤) سجسج : معتدل بين الحر والبرد.

دائمًا قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُرَدّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطمًا . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنيًا أن تزول دولته ودولة آله فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعًا ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمْحَق محقًا فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحًا ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتَبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام[١] . ونمضى مع ابن الرومى بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر ، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه — ومعه أهل بغداد — وبين المعتز الذى بايعه الترك والجند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله[٢] :

إن المنيَّة لا تُبقى على أحَـدِ ولا تَهاب أخا عزٍّ ولا حَشَدِ

وفيها يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفًا حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

---

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوَّنة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالا كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرَّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلا للذوق الجديد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحسانًا ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرَّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوابة كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرَّت بنا إشارة إلى مدحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة برًّا وبحراً ، آملا أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوابة إلى نهاية الطريق[1] . وهكذا هو دائمًا سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيَّل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقطائى كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه[2] . وأهم من ابن ثوابة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعْزَل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولَّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أُعْطى بغدادَ مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعْزَل ويولَّى مكانه هارب ، وكأنما يُجْزَى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ . (٢) الديوان ص ٢١٧ .

الخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام فى الحروب ، ويسخر منه فى مقطوعات مختلفة من مثل قوله[١] :

هو الأَسدُ الوَرْدُ فى قَصْرِه ولكنه ثَعْلَبُ المَعْرَكة

ويحدث أن يُجْمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبايعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومى فى فى ذلك نكثًا من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلا[٢] :

جاء سليمان بنى طــاهرٍ فاجتاح معتزٌّ بنى المعتصمْ

كأَن بغداد لَدُنْ أَبصرتْ طلعتَه نائحةٌ تَلْتدم

مستقبَلٌ منه ومستدبَرٌ وَجْه بخيلٍ وقفا منهزم

وتتطور الظروف ، ويجيب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحْبَس ويقتل فى محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومى يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حُبس من أن يعاوده التفكير فى الخلافة ، وينظم فى ذلك قصيدة بائية يقول فيها[٣] :

دَعِ الخلافة يا معتزُّ من كَثَبٍ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبا

ويتغيَّر تبعًا لذلك موقف ابن الرومى من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ماكراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبى كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، فيَسْتعدى عليه سليمان[٤] بن عبد الله بكافية طريفة سبق أن أنشدنا منها فى الفصل الماضى تعليله المشهور فيها لمحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصراً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطَنٌ آليتُ أن لا أَبيعَهُ وأَنْ لا يُرَى غيرى له الدهرَ مالكا

(١) الديوان ص ٣٤١. والورد: الجرىء.
(٢) الديوان ص ٢٨ .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .
(٤) انظر زهر الآداب ٩٩/٣ .

ولوَّح لسليمان بأنه يريد منه عونـًا ماليـًّا يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطـًا شديداً وعاد إلى هجائه بالجبن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شِمالان حاز إرْثَهما عن ذى اليمينين شدَّ ما اختلفا

ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدّ الحاكم الحقيقى حينئذ ، إذ قلَّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرمـًا وهزم يعقوب الصفار هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين ، وكان يتخذ صاعد بن مخلد كاتبـًا له ، ورفعه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يُمْنه حينذاك إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد وواليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعـًا للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ . وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز والمهرجان ومع عيدى الفطر والأضحى . وفى ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما دالية[1] طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن فى ابن صاعدٍ ولا فى أبيه صاعدٍ فَهْوَ حابِطُ

وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحترى تمتدّ ، وانقسم الأدباء قسمين : قسمـًا هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحترى ، وقسمـًا مقابلا هو أنصار ابن الرومى وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة[2] يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال البحترى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شىء فكله إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمَّن الطرق من اللصوص قائلا :

(١) الديوان ص ٣٩٠ .

(٢) الديوان ص ٣٤ .

أيسرقُ البحترىُّ الناسَ شعرهمُ جهرًا وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيب
يعيبُ شعرى وما زالت بصيرتُه عمياءَ عن كل نور ساطع اللَّهَبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحترى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحترى أشعاراً حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى الذى لا يُلْحَقُ شأوه ، والذى تَعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحترى كما أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربُّلىّ ، فتصافيا وتوادَّا واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبْقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ، فقد كان يكفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقلل منها ، فإذا هو خصم لَدُودٌ ، وإذا هو يَسُلّ لسانه عليه ويَبْرِى شعره سهامًا مُدْمية . وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضباً ، وأخذ ينزل عليهما شُواظ هجائه من مثل قوله(١) :

لِيَهْنِكُمُ أنْ ليس يوجد منكمُ لبوسُ ثياب المجد لكن خَلُوعها

وظل يتشفّى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ . وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحترى فكانوا يردُّونه ردًّا قبيحًا ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدّم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحترى وصديقه الذى ولى ديوان الرسائل حينًا وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن البحترى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ، وأصابته شَجّة فى وجهه ، وأُسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى يشمت به ، ويسجل عليه جبنه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول(٢) :

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ص ٦٦ .

قل لى بـأَية حيلة أَعملتَها هتفوا بـأَنك ـ لاحُفظتَ ـ جوادُ

لقد استفاض لك الثناءُ بحيلةٍ صعبُ الأُمور بمثلها ينقادُ

ومرَّ بنا أنه تعرف على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع فى سامرَّاء ، وظل منذ هذا الحين موصولاً به ، وكان الموفق قرَّبه منه واتخذه كاتبًا له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون فى سامرَّاء ، أو مع الموفق فى واسط فى أثناء معاركه مع الزنج . ورفعه الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكَّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومى بما ناله ، فدبَّج فيه قصيدة طويلة[١] ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما فى الحدائق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك فى مديح أبى الصقر مدحا رائعًا ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ

ظن أنه يعرِّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيًّا حقيقة فقال : هجانى ، وراجعه بعض الحاضرين قائلاً له : إن هذا من أحسن المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أَبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما علتْ برسول الله عدنانُ

فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بى ، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومى ، فقيل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أُقَصِّر بشَيْبانَ التى بلغتْ بها المبالغَ أَعراقٌ وأَغصانُ

لله شيبانُ قومٌ لا يشوبهمُ رَوعٌ إذا الرَّوع شابتْ منه وِلْدان

فاستمر فى غَيِّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر[٢] . وواضح أن أبا الصقر لم يفهم معانى القصيدة ولامراد ابن الرومى فى البيت الأول وغيره من

---

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

الأبيات ، فكان طبيعيًّا أن يحرمه الجائزة ، وكأنه أيضًا لم يفهم قوله فى القصيدة مادحًا له :

فَرْدٌ جميعٌ يراه كلُّ ذى بصرٍ كأَنه الناسُ طُرًّا وهْو إنسانُ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومى بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجوه ابن الرومى هجاء مرًّا ساخراً من ادعائه أنه شيبانى حقيقة ، مثبتًا عليه أنه دعىٌّ فى شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخراً هازئًا به[1] :

تَشَيْبَنَ حين همَّ بأَن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً ؟

ومضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمى نبطى ، وينعى كيمياء الحظوظ التى أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجوه حتى يزج به المعتضد فى السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت فى سجنه ، وابن الرومى فى أثناء هذه النكبة التى حلَّت به يهجوه أهاجى كثيرة من مثل قوله[2] :

فلئن نُكبتَ لطالما نُكبتْ بك همةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِكْ
يا نعمةً ولَّتْ غضارتُها ما كان أَقبحَ حُسْنها بيدكْ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها — كما مرَّ بنا — فى سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة فى ظلاله . وكانت العلاقة بينهما — كما أسلفنا مراراً — وثيقة ، ووظَّف له أخوه محمد فى بعض فترات حكمه لبغداد . ومات وهو فى خدمته وماتت قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعيًّا أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى ، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة فى دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتَمْثُلُ فى ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهى تشتهر من قديم بثقافة

(١) الديوان ص ٤٨ .

(٢) زهر الآداب ١/٢٤٤ وما بعدها .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهمُّ شخص يُكْثر من مدحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن على ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الاثنى عشرية ، وفى صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إمامياً يعتنق مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التى أكثر من مدحها أسرة بنى حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضى إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه فى قصيدة بائية محاولا أن يبرئ نفسه من تهمته بالزندقة التى نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضى يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبَّروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبَّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمى دارك بالحصى والحجارة ، يقول[1] :

حملوا حملةً على الدين تَحْكى ... حملة الروم رافعين الصَّليبـا
وأرادوا بك العظيمة لكنْ ... أوسع الله سعيهم تخييبا
وكأَن الغوغاءَ لما تَغاووا ... فرموا داركم قضوا تحصيبا[2]
زعموا أَن ذاك غزوٌ وحجٌّ ... تبَّب اللهُ أمرهم تَتْبِيبَـا

ولم تَرْوِ كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضى ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن الشعر فى هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها فى كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرَّ بنا عند البحترى وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطى وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد فى الديوان أسماء أصدقاء كثيرين فى مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المـَرْثدى وكان كاتباً فى ديوان الموفق وابن عمار[3] ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر فى عصره . وأكثر قصائده التى وجه بها إلى المرثدى يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

---

(١) الديوان ص ٣٠٩ .

(٢) التحصيب هنا : رمى الجمار بمنى .

(٣) انظر توصيته لأبى سهل بن نوبخت به فى الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها[١] :

ما لحيتاننا جَفَتْنا وأنّى أخلفَ الزائرون منتظريهم
قد سَبَتْنَا وما أتَتْنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً ونديمًا رفيعًا للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد، ولا يُعْرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه[٢] :

لِتَهْنَأْ رجالٌ لا تزال تجودهم سحائبُ من كلتا يديك مواطرُ
عُنيت بهم حتى كأنك والدٌ لهم وهم — دونى — بنوك الأصاغر

وممن تدور أسماؤهم فى ديوانه جَحْظة ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتّخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق، وابن أبى طاهر وابن الخبازة وخالد القحطبى ، فقد كان يُشِبُّ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائمًا هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحترى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، وممن كان يعيب شعره نفطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظِلُّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

---

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ . (٢) الديوان ص ٣٤٢ .

هو السبب الأهم فى أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورُّون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومى يتعرض فى أشعاره له لبسالته فى حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — وكان عملا جليلا . ويذكر بسالته فى صيد الأسد ، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول فى هذه المناسبة[١] :

يا سيد العُرْب الذى زُفَّتْ له ... باليُمْن والبركات سيدة العجَمْ
اسْعَدْ بها كسُعودها بك إنهـا ... ظفرتْ بما فوق المطالب والهمم
ظفرتْ بِمِلْئَىْ ناظريها بهجةً ... وضميرها نبلا وكفَّيها كرم
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدُّجَى ... فتكشَّفت بهما عن الدنيا الظُّلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب ، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك ، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكان كاتبًا مجيداً ، ومدبراً لشئون الدولة حصيفًا ، وكان له أخ يسمى وهبًا مدحه ابن الرومى فى غير قصيدة كما مدح ابنيه الحسن والقاسم ، وهو يهلل طويلا لمجىء دولتهم ، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب ، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة ، ومن قوله فى مديح عبيد الله[٢] :

إذا أَبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنـا ... لم يُحْمد الأَجودان : البحر والمطَرُ
وإن مضى رأْيه أَو حَدَّ عزمتهُ ... تأَخر الماضيان : السيفُ والقدر
وإن أَضاءَتْ لنا أَضواءُ غُـرَّتـهِ ... تضاءَل النيرِّان : الشمسُ والقمر
ينال بالظن ما يَعْيَى العِيانُ بهِ ... والشاهدان عليه : العَيْن والأَثَرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه ، ولذلك

(١) مروج الذهب للمسعودى ١٨٢/٤ .
(٢) ابن الرومى للعقاد (نشر المكتبة التجارية) ص ٢٦٥ .

أخذ يوليه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومى قبل تولى أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجرى عليه راتبًا ، حتّى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزْل له فى العطاء ، مما جعل ابن الرومى يُصْفيه مديحًا رائعًا . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومى طبيعته، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشَعَر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر — فيما يبدو — سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحيانًا ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثًا يناديهم ألا يضنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب[1] حينئذ يفزع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهامًا مصمية من مثل قوله[2] :

تسميتمُ فينا ملوكاً وأنتمُ ... عبيدٌ لما تَحْوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أضحتْ بضيق صدوركم ... مبرَّأةً من كلِّ مُثْنٍ وحامد
فإن هى زالت عنكمُ فزوالها ... يجدِّد إنعاماً على كل ماجد

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رَأْبُهُ .

وتتردد فى الديوان بأخرة من حياة ابن الرومى شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم فى عهد المقتدر ، كما تتردَّد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثقى صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذى نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحى للقاسم يسمى عَمْراً ، وله فيه أهاج تقطر سمًّا زعافًا ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغويًّا .

---

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ — ٣٩٧ وانظر مقطوعة فى كتاب ابن الرومى لروفون جيست ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشييد الكنائس وهدم المساجد .

ويغـَص ّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار وبدعة وشاجى ودُريرة وغنَّاء ووحيد ومظلومة وظلوم، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن، مثل شُنْطف، وفيها يقول[1] :

وإن سكوتها عنـدى لبُشْرى ... وإن غناءها عنـدى لمَنْعَى

فقرِّطْهـا بعقرب شَـهْر زُورٍ ... إذا غنَّت وطوِّقهـا بأَفْعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً فى الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر فى أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصف الأشربة. ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم فى خشكنانجة، فلما ازْدَرَدَها أحسّ بالسم فى بطنه فقام مسرعاً؛ فقال له القاسم إلى أين؟ فأجابه إلى حيث أرسلتنى. فقال له : سَلِّم على والدى عبيد الله، فأجابه : ما طريقى على النار. والصحيح أنه توفى عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه، وهى على كل حال سن عالية.

ولابن الرومى ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف سليم جزءين، ونشر منه كامل كيلانى مختارات باسم ديوان ابن الرومى، وهو الذى نرجع إليه غالباً. ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ تواً أنه يختلف عن دواوين الشعر العربى التى عاصرته وسبقته، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة، وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطَّرد والقَنص وعن المسرات والآلام، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية. ومع ذلك سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى، مع ملاحظة ما يمتاز به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة. ومرّ بنا فى الفصل الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

---

(١) الديوان ص ١٠٥.

يتمثل جميع الثقافات فى عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعانى استقصاء نادراً حتى لايكاد يترك فى معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل فى الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو فى أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير فى سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية فى العصر ، على حين كان البحترى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولا مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمدائحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوّع فيها ، فقد يختار النسيب مثلا ، ولكنه يتحوَّل به كما فى قصيدته النونية[١] التى مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان فى المرأة ، حتى سَمَّى بعض معاصريه — كما أسلفنا — القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف[٢] الطبيعة والربيع ويُبْدع فى وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الواهين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج فى القصيدة وصف[٣] مجلس سماع ؛ فيصور آلات الطرب ومن يَحْمِلْنَها من القيان فى صور بديعة على نحو ما يلقانا فى نونيته التى مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتى يفتتحها بقوله[٣] :

وقيــانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بَنيها حَوانِ

وقد أنشدنا منها قطعة فى الفصل الماضى . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخَمر . وقد يختار بكاء الشباب الذى طالما تغنَّى به الشاعر العربى ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى فى مقدمة قصيدته البائية[٤] التى مدح بها على بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كثيباً

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل كيلانى المقدمة وحدها دون المديح .

(٣) الديوان ص ٨٤ .

(٤) الديوان ص ١٧٧ .

على الشباب من شأنه أن يبكى صاحبه بدموع غزّار ، ثم أخذ يصوّر سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات — وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائة بيت — ويتفنن بعد ذلك فى المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون فى مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ، مسبّة لا تمحى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : ( والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تر أنّهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ) ويستوحى ابن الرومى الآيات قائلا[1] :

يقولون مالا يفعلون مسبّةٌ  من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة  يقولون مالا يفعل الأُمراءُ

فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل الأمراء ، كذباً وبُهتاناً . وكأن ابن الرومى أحسّ فى قوة ما كان يحمله المديح لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع فى مقدمات المديح فإننا نلاحظ أنه حاول التنويع فى المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعانى المطروقة ، ويوضح ذلك مديحه لعلى بن يحيى المنجم فى بائيته التى أشرنا إليها آنفاً ، فإنه مضى فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوْذَعِىّ له فـؤادٌ ذكىٌّ  ماله فى ذكائه من ضَريبِ
أَلمعىّ يرى بـأَول ظَنٍّ  آخرَ الأَمر من وراء المغيب
لا يروِّى ولا يقلِّب كفاً  وأَكفُّ الرجال فى تقليب
حازمُ الرأى ليس عن طول تجريـ  ـبٍ لبيبٌ وليس عن تلبيب[2]
يتغـابى لهم وليس لموقٍ  بل للبٍّ يفوق لُبَّ اللبيب
ليِّنٌ عِطْفه فإن رِيم منه  مَكْسر العود كان جِدَّ صليب

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

---

(١) الديوان ص ٣٧٦ .    (٢) تلبيب : تكلف اللبابة عن غير طبع وفطرة.

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء فى الرأى أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدو ليّن الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب فى مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعانى واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضًا على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله فى حُسَّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد(١) :

وضدٍّ لكم لا زال يسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعَّد
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ ... لأطفأَ نارًا فى الحشا تتوقَّد
وآنق من عِقْد العَقيلةِ جيدُها ... وأحسن من سرْبالها المتجرِّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته فى مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيما فوق ما مُنح من مجد الوزارة الذى أُسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد فى الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفَى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق فى بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة(٢) :

كلُّ الخصال التى فيكم محاسنكم ... تشابهتْ منكم الأَخلاق والخِلَقُ
كأَنكم شجر الأترجّ طاب معاً ... حمْلاً ونَوْرًا وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة فى مديحه كقوله فى بعض ممدوحيه :

أوفى بأَعلى رتبةٍ وتواضعتْ ... آلاؤه فأَحطْن بالأَعنــاقِ
كالشمس فى كبد السماء محلُّها ... وشعاعُها فى سائر الآفاقِ

والهجاء فنُّه الذى لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لونًا قاتمًا كله إقذاع وسب وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولونًا زاهيًا ينحو

(١) زهر الآداب ١ / ١٨٣ وانظر المختار من شعر بشار للتجيبى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ٤/ ١٤٦ .

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم فى هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نمّاه إلى أبعد حد تُسْعفه فى ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية فى مهجوّيه ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكاً فى كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومى هَجّاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرّ بنا فى الفصل الماضى تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتى أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجويه بحيوانات مجترة ، ولم يعجبه بعض المغنين فصوّره فى تحرك فكّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكيه لأكل طعامه . ومرّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه(١) :

قَصُرتْ أَخادعُه وغاب قَذَالُهُ فكأنَّه متربِّصٌ أَنْ يُصْفعا
وكأَنما صُفِعتْ قفــاه مرَّةً وأَحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

فجعله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صَفْعه بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحى حين تخرج عن مقدارها الطبيعى فيهجوها ويهجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله فى لحية بعض مهجوّيه(٢) :

إن تَطُلْ لحيةٌ عليك وتَعْرُضْ فالمخالى معروفةٌ للحميرِ
علَّق اللهُ فى عِذاريْك مِخْــلا ةً ولكنها بغير شعير
أَرْعِ منها الموُسَى فإنك منها يشهد الله فى أَثام ٍكبير
ما تَلَقَّاك كَوْسجٌ قَطُّ إلا جوَّر الله أَيما تجوير
لحيَةٌ أُهملتْ فطالتْ وفاضتْ فإليها تشير كفُّ المشير

(١) الديوان ص١٤٦ .

(٢) ديوان المعانى للعسكرى ١ / ٢١٠ .

ما رأتْها عينُ امرئٍ ما رأتْها    قَطُّ إلا أهلَّ بالتكبيرِ
روعةٌ تستخفُّه لم يُرَعْهَا    من رأى وَجْهَ مُنْكرٍ ونكير
فاتَّقِ اللهَ ذا الجلال وغيِّر    مُنْكَرًا فيك ممكن التغيير
أو فقصِّرْ منها فحسبك منها    نِصْفُ شِبْرٍ علامة التذكير
لو رأى مثلها النبيُّ لأجرى    فى لِحىَ الناس سُنَّةَ التقصير
واستحبَّ الإحفاءَ فيهنَّ والحلـ    ـقَ مكان الإعفـــاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومى المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخلاة حمار ولكن بدون شعير ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثمًا كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم فى قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتّى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التى تأخذهم ، وإنها لأكثر هولا من وجه ملكى القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتّقى الله ويغير هذا المنكر الذى يحمله على وجهه فى ذهابه وإيابه ، أو ليُقَصِّرْهَا ، فنصفُ شبر منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنّة فلم يجعلها تطويل اللحى بل جعلها تقصيرَها ، بل لعله كان يجعل السنّة قصّها ومحوها محواً . وهو يشير فى البيت الأخير إلى الحديث النبوى : « احفوا الشوارب واعفُوا اللِّحَى » . وكان كاتبٌ مسيحى للقاسم بن عبيد الله يسمى عمْراً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه[1] . وكان لا يزال يلمح العيوب الجسدية فى مهجويه ، عابثًا بهم عبثًا كله سخرية وفكاهة وتندير .

وكان ابن الرومى يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وأيضًا فإنه كان يستشعر فى أعماقه حزنًا ممضًا ، لأنه لا يأخذ حقوقه فى عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقًا واضحًا ، فكان شعوره

(١) الديوان ص ٢٤٠ .

بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومآتم ، وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء، فبكاهم بكاء حارًّا ، ومرّ بنا فى الفصل الماضى بكاؤه على ابنه الأوسط الذى مات منزوفاً وهو لا يزال فى المهد طفلا صبياً ، وقد نصب بقصيدته له مأتماً كبيراً صوّر فيه موته ونزيفه تصويراً محزناً ، ثم بكاه بكاء مُرًّا . ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث (١) :

أَبُنَىَّ إنك والعزاء معاً ... بالأمس لُفَّ عليكما كَفَنُ
ما فى النهار – وقد فقدتك – من ... أنس ولا فى الليل لى سكن
ماأصبحتْ دنيايَ لى وطناً ... بل حيث دارك عندىَ الوطن

ومرَّ بنا أن له مرثية فى أمه وأخرى فى أخيه محمد، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين إلى حين، وأسلفنا فى الفصل الماضى عزاءه فى ابنة على بن يحيى المنجم، وله عزاء مشابه للمسيبّى الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحدًا لن يخلد فى الدنيا، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته، يقول(٢) :

أُصبتَ وما للعبد عن حكم ربه ... محيصٌ وأمرُ الله أعلى وأَقْهَرُ
تعزَّيتَ عمن أثمرتْك حياتُهُ ... ووَشْكُ التعزى عن ثمارك أجدرُ
فلا تَهلكنْ حزناً على ابنه جنَّةٍ ... غدتْ وهْى عند الله تحيا وتُحْبَرُ

وكان ما يَنِى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى فى الموت ،ولعله أول من حبَّب الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصًا من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه ، مما جعله يقول(٣) :

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأَكثروا ... للموت ألف فضيلةٍ لا تُعْرَفُ
فيهِ أمانُ لقائه بلقائه ... وفراقُ كل معاشرٍ لا يُنْصِف

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروِّع بلقائه من أدق ما يمكن ، وهو لا يبارَى فى النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا فى

---

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ١٠٤ وتحبر: تلبس الوَشْى والزينة.
(٣) ديوان المعانى ١٧٢/٣ .

الفصل الماضي مرثيته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .

ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي ، وقصيدته في عتاب أبي القاسم التوزي الشطرنجي مشهورة ، ومرّ بنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف لعب أبي القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه في لعبه ، غير أنا نقف الآن عند عتابه ، وقد عرضه عرضًا طويلا طريفًا، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتي هنواتٍ    غُطِّيَتْ برهةً بحسن اللقاءِ
تركَتْني ولم أكن سَيِّئَ الظَّـ    ـنِّ أُسِيءُ الظنون بالأَصدقاء
قلت لما بدتْ لعينيَّ شُنْعاً    رُبَّ شوهاءَ في حَشَا حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتني لم أهتك سِتْرَكُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسنًا ، إذ لو لم تفعل ذلك لظللت في ظُلَمِ الشك من صاحبك ضالا حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطبّ لها طبًّا يداويها دواء يشفي الصديق ، ويعتب على أبي القاسم أنه لم يُنِلْهُ نوالا ولا رَدًّا كريمًا ، ويظل يستعطفه طويلا . وقد أسلفنا في الفصل الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب .

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلا تارة ، وتارة في مقدمات قصائده ، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى مثل البحتري ، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله(١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبِّل مَمْـ    ـشاكِ إذا اختال مسبلا غُدَرَهْ(٢)
أَقبل كالليل من مفارقه    منحدرًا لا يذمّ مُنْحَدَره
حتى تناهى إلى مواطئه    يلثم من كل موطئٍ عَفَرَه(٣)
كأَنه عاشقٌ دنا شغفاً    حتى قضى من حَبيبهِ وَطَره

---

(١) زهر الآداب ٣ /١٦ .
(٢) الغدر : ذوائب الشعر وقطعه .
(٣) العفر : ظاهر التراب .

وهى صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء فى وصف المحسوسات، وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة فى غزله ، وكأنما تحول عقله إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالدرر ، فهو لا ينى يُطْرِف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَث أو خيال مبتكر من مثل قوله(١) :

لا شىء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منه طارفةٌ كأنما أُخرياتُهــا الأولُ

فكل شىء وكل عضو فى صاحبته فتنة من الفتن حسناً وجمالا ، فالعين ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت فكرة الأُوَلِ وأعقابها ، فكل شىء من الأوَلِ ، وكل شىء لا يكاد النظر يفرغ منه حتى يعود إلى التملىِّ به . وله قافية نظمها فى جارية سوداء لممدوح له من البيت العباسى هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللا علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حَبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عَبَثْنَ به وغَدَرْنه فى حبه ومَكَرْنَ مكراً خبيثاً ، ولذلك نراه فى نونيته المسماة بدار البطيخ يُصْدِر أحكاماً قاسية على النساء عامة ، من مثل قوله(٢) :

ومن عجائب ما يُمْنَى الرجــال به مستضعفاتٌ لهم منهن أقرانُ
مناضلاتٌ بنَبْلٍ لا تقوم له كتائبُ التُّرْك يُزْجيهنَّ خاقانُ
ولا يدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدِ أنَّى وهن — كما شُبِّهْنَ — بستانُ
يميل طوراً بحمل ثم يُعْدَمه ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيِّنه للغاويات وللغــاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومى إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة فى عصره شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

---

(١) ديوان المعانى للعسكرى ٢٣٢/١ . (٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكْلَفُ بها كَلَفًا شديداً ، بل لقد تَحَوَّل عاشقًا لها عشقًا لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهًا فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغرْيه بالنظر واللمس والشم ، حتى لنحس كأنما يفنى فى الطبيعة فناءَ أصحابِ المنزع الرومانسى الغربى ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها فى كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا فى الفصل الماضى منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفى هنا بأن نسوق مثلا لتصويره الربيع ، يقول[1] :

| | |
|---|---|
| ورياضٍ تخايَلُ الأَرض فيها | خُيَلَاءَ الفتاة فى الأَبْرادِ |
| ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ | لبقاتٌ بحَوْكه وغوادى[2] |
| فهى تثنى على السماء ثناء | طيِّبَ النَّشْر شائعاً فى البلادِ |
| من نسيمٍ كأَن مسراه فى الأَر | واح مسرى الأَرواح فى الأَجسادِ |
| منظرٌ معجبٌ تحيَّةُ أَنْفٍ | ريحُها ريح طيِّب الأَولادِ |
| تتداعى بها حمائمُ شَتَّى | كالبواكى وكالقِيان الشوادى |
| تتغنَّى القِرانُ منهن فى الأَيْـ | ـكِ وتبكى الفِرادُ شَجْوَ الفراد |

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال فى برود الربيع البهيجة . ووشيها الذى نسجته السحب نسجًا بديعًا ، وهى تُثْنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى فى الأرواح سريان الأرواح فى الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعه من عطر للطبيعة يملأ النفس حنانًا وعطفًا كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن ، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أُغْرِم بالطبيعة وملأت قلبه برًّا وحنانًا ومودة . ولفت هذا الجانب

---

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت فى نسجه . السوارى والغوادى : السحب .

عند ابن الرومى العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية ، ولكن اليونان لمْ يُعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وأوربا نفسها فى عصرها الكلاسيكى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين كانت تحاكى الآثار اليونانية ، لم يُعْرَفْ عندها هذا النوع من الشعر ، إنما عُرف فى العصر الرومانسى فى أثناء القرن التاسع عشر ، حين انفكّت من محاكاة الآثار اليونانية[١] . على كل حال كان ابن الرومى يُشْغَفُ بالطبيعة ويَكْلَفُ بها كَلَفًا لم يعرف لشاعر قديم .

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يَبْرع فى وصف مجالس الأنس وما يجرى فيها من خمر وسماع . وهو لا يتورط فى المجون والإثم تورط أبى نواس وأمثاله ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر ، فقد كان شربها شائعًا فى عصره ، ومرّت بنا فى غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التى يقول فيها إن أبا حنيفة أحلّ النبيذ . ودعا الخمر فى بعض شعره رِيق الدنيا ، يقول :

فتًى هجر الدنيا وحرَّم رِيقَها     وهل رِيقُها إلا الرَّحيقُ المبرَّدُ

وقد أكثر من وصف مجالس السماع ، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حادًّا ، فإذا لم يقع المغنى أو المغنية من أذنه موقعًا حسنًا صبّ عليهما شواظًا من هجائه، على نحو ما مرّ بنا فى هجائه لشنطف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وَحيد ، وكانت فتنة صوتًا وحسنًا ، وفيها يقول[٢] :

تتغنَّى كأنهـــا لا تُغَنِّى     من سكون الأَوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عَيْنٌ     لك منها ولا يَدُرُّ وَرِيدُ[٣]
من هدوٍّ وليس فيه انقطاع     وسُجُوٌّ وما به تبليد[٤]
مَدَّ فى شَأْوِ صوتها نَفَسٌ كا     فٍ كأَنفاس عاشقيها مديد

(١) انظر فى مناقشة هذه المسألة كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٩٨

(٣) يدر : ينتفخ ويتوتر . الوريد : عرق فى العنق .

(٤) الهدو : انخفاض الصوت . السجو : مده . التبليد : التقطع .

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له فى الفصل الماضى قطعاً مختلفة فى وصف دجاج مشوىّ ومرققات وقطائف وعنب رازقى ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهى أثر من آثار نهمه فى الطعام ، وأيضاً من آثار براعته فى وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة فى وصف الرُّقاق وأخرى فى وصف قالى الزلابية يقول فيها [١] :

كأنما زَيْتُه المقلىُّ حين بدا ... كالكيمياء التى قالوا ولم تصبِ

يُلْقِى العجين لُجَيْنًا من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب [٢]

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبياً ، ومن تتمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمَّالين والشوَّائين، كما يصف الثياب البالية. وكان قد تعلق بوصف الطيلسان البالى - كما مرَّ بنا - الشاعر المعروف باسم الحمدونى، فنزع منزعه فى هذا الجانب بمثل قوله [٣] :

معمَّرٌ قال نوحٌ حين أبصره ... إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّللُ

أميل فى الطُّرْقِ خوفاً من مزاحمةٍ ... تهدُّه فكأنى شاربٌ ثَمِلُ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبى هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس فى حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة فى الفصل الماضى ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب فى وعظه وتصويره للزهاد . وحقّاً أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شىء والزهد شىء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهى نقمة صُبّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق، فمضى فى كثير من جوانب شعره يصور الحياة سوداء حالكة، ويتخذها هى والناس وشرورهم وطباعهم موضوعاً لفنه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

---

(١) الديوان ص ٣٧١ .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) انظر مقطوعات أخرى فى الديوان ص ٣١٨ .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر[١] والأكول[٢] والثقيل[٣]، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد، وقد مثلنا فى الفصل الماضى لهما بقطعة من شعره.

وكان ابن الرومى لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً. فكان طبيعياً أن يكون فى أشعاره ما يهبط درجات عما حوله، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبى عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسوَّدتها؟. فأجابه: هى هذه، فقال له الناجم: ما فيها حرف مصلح، فقال: قد استوت بديهتى وفكرتى فما أعمل شيئاً فأكاد أصْلحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد فى أشعاره غثّ كثير، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره وخاصة الجناس، وكانت له أذن موسيقية رائعة. وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً بارعاً، بل لا شك فى أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلا به وبأشعاره.

## ٤

### ابن المعتز[٤]

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامرَّاء قبل مقتل جده المتوكل فى سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصرع الخطير،

---

(١) الديوان ص ٩٥.

(٢) الديوان ص ١٧٥.

(٣) الديوان ص ٧٣.

(٤) انظر فى ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق: أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠/٢٧٤ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ ومروج الذهب ٤/٢٠٣ والطبرى ١٠/١٤٠ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان =

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فَسَحَ لهم فى الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمَّة . وسرعان ما يتوفّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة فى أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونه ، ويولّون المعتز ( ٢٥٢ — ٢٥٥ ﻫ ) وكان لا يزال فى نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفّى . وكان يعكف على اللهو والصيد ، فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَريب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفى مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء فى قصره وفى بعض الأديرة (١) ، ونطلع على جانب من ترفه فى قصريه « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ومَرّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان (٢) .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضًا رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيَّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمسًا فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال فى التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا (٣) :

أَبا العباسِ بَرَّزْتَ على قَــوْمــ ... ـك آداباً وأَخلاقاً وتبريزا

فأَما حَلْبَةُ الشعر فتستولى ... على السبق بها فَرْضاً وتمييزا

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان لليافعى ٢ /٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ /٢٢١ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وفى مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز الكفراوى ( طبع مكتبة نهضة مصر ) بالقاهرة وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين فى إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢/ ١١١٩ .

وقد يكون فى ذلك مبالغة على عادة الشعراء فى المديح، لكن على كل حال فى البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ فى نفسه فى هذه السنّ الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجبًا به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى فى مدحة [1] طويلة له ، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة ، ثم يقول :

وأَبهجنا ضَرْبُ الدنانير باسمِه     وتقليده من أمرنا ما تقلَّدا

وفى الشطر الثانى ما يصور إرهاص البحترى للمعتز بأن يولىّ عبد الله العهد، ومضى يصرّح بذلك ويطالب به ويهتف فى وضوح . ونراه فى قصيدة[2] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفى ذلك يقول فى قصيدة رابعة[3] :

ومُلِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَمَاحَهُ     هو القَطْرُ فى إسْباله وأَخو القَطْرِ
شفعتُ إليه بالإمام وإنمـا     تَشَفَّعْتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه فى السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفًا ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه فى بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابنى عميه قُصَىّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أثّرتا فى نفس الصبى آثاراً بعيدة : محنته التى امتُحن بها فى أبيه الذى منحه الحياة والذى كان يغمره بِبرّه وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفى وعذابه ونكاله وعنائه ، وما مرّ به فى أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صَلِىَ به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد فى نفسه ، وهو أثر يتراءى بوضوح فى أشعاره ، إذ يُطالعنا

---

(١) الديوان ٢ / ٦٧٠ .
(٢) الديوان ، ٢ /١٣٠٩ .
(٣) الديوان ٢ /١٠٠٧ .

فيها دائمًا الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبَّرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حفَّت بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفَّ بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيمًا ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز باكيًا صباه بدموع غزار [1] :

لَهْفِى على دهر الصِّبا القصيرِ ... وغُصْنه ذى الورَقِ النَّضيرِ
وسُكْرِهِ وذَنْبه المغفورِ ... ومرَح القلوب فى الصُّدُورِ
وطول حَبْل الأَمَلِ المجرورِ ... فى ظِلِّ عَيْشٍ غافلٍ غريرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل فى طلبه وطلب جدته وابنى عمه وردَّهم إلى سامرَّاء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهى والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بنى العباس وأشجعهم وأنبغهم فى إدارة السياسة والحرب وهو الذى قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّاريين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع . فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلمين فى الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزى الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يلقى المبرد وثعلبًا فى أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفى المختار من شعر بشار أن ثعلبًا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتًا ، فكتب إليه من قصيدة طريفة [2] :

يا فاتحاً لكل علم مُغْلَقِ ... وصَيْرَفِيًّا عالمـاً بالمنطقِ
إنا على البعاد والتفرُّقِ ... لنلتقى بالذكر إن لم نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم [3] . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقى المحدّث الإخبارى ، ويُرْوَى أن البلاذرى المؤرخ سعى عند جدته كى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

---

(١) ديوان المعانى ٢/١٥٣ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عامًا ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتًا يترضاه بها ، وهى تصور ثقافته تصويراً دقيقًا ، إذ يخاطبه بقوله[١] :

أَصبحتَ يابن سعيدٍ حُزْتَ مكرمةً … عنها يقصِّر مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْ بَلْتَنِى حكمةً قد هذّبتْ شِيمَى … وأَجَّجَتْ غَرْبَ ذهْنى فهْوَ مُشْتَعِلُ
أَكون إن شئتُ قُسًّا فى خطابتهِ … أو حارثاً وهْوَ يوم الفَخْرِ مُرْتَجِلُ
وإن أَشَأْ فكزَيْدٍ فى فَرائضِهِ … أَو مثل نعمانَ ما ضاقتْ بِىَ الحِيَلُ
أَو الخليل عروضيًّا أَخا فِطَنٍ … أَو الكسائىِّ نحويًّا له عِلَلُ
عُقْباك شكرٌ طويلٌ لا نفادَ لهُ … تَبْقَى مَعَالِمُهُ ما أَطَّتِ الإِبلُ[٢]

وهو يقول إن ابن سعيد خرّجه خطيبًا فصيحًا لا يقل عن قُسّ فى خطابته التى اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حلزة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقًا ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففى أشعاره إشارات لهما[٣]، وإن كنا نظن ظنًّا أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول[٤] :

ولا تفزعنْ من كل شىءٍ مفزِّعٍ … فما كل تربيع النجوم بضائرِ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس. ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ،وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

---

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .
(٢) أطت : أنّت تعباً أو حنينا .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة السابعة ) ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

الفراغَ للحياة الأدبية ، وأنفق فى ذلك أعوامـًا كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللا ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنِّف كتابه « البديع » محاولا أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعـًا علميـا دقيقـًا ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة فى الأدب العربى وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهى منثورة فى القرآن الكريم والحديث النبوى وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتبـًا أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل فى الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسى الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقـًا مهذبـًا صافيـًا . وكان يُعْنَى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفى ذلك يقول أبو الفرج الأصبهانى : «كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرتْ بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[1] » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل فى الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل فى وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجـًا ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللائى كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء فى شعره زرياب وبنت الكُرَاعة وخزامى ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج فى ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة[2] ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هىْ حياة القصور المترفة التى تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء فى بعض الأيام وبعض الليالى يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميرى ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدى

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهانى الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[١] وجَحْظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَغاثاً لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلا من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول[٢] :

أهلا وسهلا بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهى ، فكان طبيعياً أن يتصل الودّ بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيماً فى محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

---

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله [١] :

ولما طغى أَمْرُ الدعىِّ رميتَهُ بعَزْمٍ يردُّ السيفَ وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقَنَا وكيف تروَّى البيض وهْى مُحول [٢]

ويتوفى الموفق فى سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزماً عنه وكان عونه وظهيره فى حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا فى عهد أبيه خانعين . وتتحول الخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من مثل قوله [٣] :

لعمرى لئن أمسى الإمامُ ببلدةٍ وأنت بأُخرى شائقُ القلب نازعُ
وما أنا فى الدنيا بشىءٍ أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد ، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء ، ويُكْثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتَرْوِى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات فى الشعر والشعراء [٤] . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتُقْبِل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلا [٥] :

فرحتُ بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هَبَّ من نومه الدَّهْرُ
فترجعَ فينـــا دولةٌ طاهريَّةٌ كما بدأتْ والأَمر من بعده الأَمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

---

(١) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٩٣ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .
(٢) البيض : السيوف - محول : مجدبة .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٤ .
(٥) أغانى ١٠ / ٢٨٦

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوّهًا بتلك الأسرة[١] :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروف لدىَّ مُقدَّمَا
همُ علَّموا الأَيام كيف تبرُّنى وهم غسلوا عن ثوب والدىَ الدّما

ويتوفَّى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائبًا ، ويُضْطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويَسْلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يَرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيُكْثِر ابن المعتز من مدحه ، معترفًا له بصنيعه من مثل قوله[٢] :

أَصلح بينى وبين دهرى وقام بينى وبين حَتْفِى

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهِ القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفَّى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحُلُمَ ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه. وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافى شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى[٣] ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان ص ٣١٩ .
(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم فى المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبَّ مؤنس الخادم فى جند كثيرين فنقضها وجدَّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد فى الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراه أن يبتعد عنها ، متعظًا بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التى كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربى عباسى يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد فى القصر العباسى وفى كل ما انبثّ فيه من لَهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون فى ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذ كان هذا الوصف هو الذى يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذى يعيش فى النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديماً أشار ابن الرومى إلى تأثير بيئته المترفة فى شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقى بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدْنى شيئًا من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انْظُرْ إليه كَزْوَرقٍ من فِضَّةٍ  قد أَثقلتْه حمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال ابن الرومى له : زِدْنى ، فأنشده :

كأَن آذَرْيُونَهــا  والشمسُ فيه كاليَهْ (١)
مداهنٌ من ذهب  فيها بقايا غاليَهْ (٢)

وصاح ابن الرومى : واغَوْثاه ! لا يُكَلِّف الله نفسًا إلا وُسْعها ، ذلك إنما

---

(١) الآذريون : زهر أصفر فى وسطه حمل أسود.

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود.

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة وأهجو هذا كرّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[1] . وابن الرومى يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك فى تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد فى عصره إلى مجددين مسرفين فى التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها فى الشعر العربى من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين فى رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ،ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية فى المقاييس الأجنبية من أمثال أبى تمام وابن الرومى وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفسه ، ويصرّح بذلك فى كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثًا فى حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة فى الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخصّ أبا تمام برسالة احتفظ بها فى ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كوّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين فى فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخّرها كما يتضح فى كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشىء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسيًّا أثر فيه وفى شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ .

إذ يجلل شعره أسًى عميق، وحقًّا كان يُكِبُّ كثيراً على اللهو يُغْرِق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحى من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفًا على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هى مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً ، وتدلهمّ من حوله الخطوب ، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنما كُتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية ، فدائمًا أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غَزِل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى ، فقد رُوِىَ عنه أنه قال : كان مما حبّب الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنْشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدّد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتمَ ياقوتٍ ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودِّىَ لو يَهْوَى العَذولُ ويَعْشَقُ  فيعلم أَسباب الهوى كيف تَعْلَقُ [1]

والبحترى يستهل القصيدة بغزل ملىء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولهفته على لقائها ، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خدودهما حين يلتقيان ، حتى ليقول :

فلو فهم الناسُ التّلاقى وحُسْنَهُ  لحُبِّبَ من أَجْـل التلاقى التفرُّقُ

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتمًا . ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

---

(١) أخبار البحترى ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامى الدهان ص ٧٣ وانظر الديوان ٣ / ١٥٣٤

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها فى هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما فى الشعر من جمال . ومرّ بنا وصف البحترى له فى حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه فى مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعًا ، ولو قُدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته فى اللهو والمجون والصيد ، وينظم فى ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه . وبذلك كان له فى أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع فى متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقًا كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين فى عصره و بعد عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوّحًا فى وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رقّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفًا لصَبوح فى مجلس شكِلٍ ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْرِ والبَنَفْسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبْط ( السهل ) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووَحْشِيِّه وإلى وصف البِيد والمهامه والظَّبْى والظَّليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىءٌ ، ولا أن يُغْمَط حقّه كلّه إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصّر فى اليسير ويُنْسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطىِّ المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلٌّ أحد بمن تقدّم لوجد مَسَاغًا[١] » . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، فهو فى أكثر شعره محسن ، وهو فى بعضه متوسط الإجادة ، وفى اليسير

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٤

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان فى أثناء سمره أو فى أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته فى الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التى تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائمًا بأنه لا يهمل الأسماع فى شعره ، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية فى أشعاره هى عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهى ظاهرة طبيعية ، إذ كتب فى هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط فى الجناس والطباق إفراطًا بعيداً ، وقد عاب أباتمام بذلك فى كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرِفون فيه مثل أبى تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة فى مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه فى غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفى غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذى جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديمًا وجليسًا وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث فى مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التى يستهلّها بقوله[1] :

سلمتَ — أمير المومنين — على الدَّهْر ... ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْر
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ ... فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بَنَى النّاسُ مشبهٌ ... ولا ما بناه الجنُّ فى سالف الدَّهْرِ

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا فى غير

(١) الديوان ص ٢١٥ .

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعًا ، إذ يقول فى نفس القصيدة :

وأنهارُ ماءٍ كالسلاسل فُجِّرَتْ　　لتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر
جِنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها　　فأوْرَقْنَ بالأثمار والورق الخُضْرِ
تَرى الطير فى أغصانهنَّ هواتفاً　　تَنَقَّلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذى يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحْش أو ذبيحًا من البشر ، والذى ما يزال يُفْزِع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويَقْضِمه قضمًا . وكان المعتضد حقًّا شجاعًا شجاعة خارقة ، ويُصور ابن المعتز ما بسط فى البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله فى القصيدة :

حكمتَ بعَدْلٍ لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ　　وداويتَ بالرِّفق الجُمُوحَ وبالقهر

وليس فى أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعًا ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ،وهو على كل حال لا يبالغ فى إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هى أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله (١) :

أَيا موصل النُّعْمَى على كل حالةٍ　　إلىَّ قريباً كنتَ أو نازحَ الدَّارِ
كما يلحق الغيثُ البلاد بِسَيْلِهِ　　وإن جاد فى أَرضٍ سواها بأَمطارِ
لقـد عمر الله الوزارةَ باسمه　　وردَّ إليها أَهلها بعد إقْفارِ
وكانتْ زماناً لا يَقِرُّ قرارُها　　فلاقتْ نصابا ثابتًا غير خَوَّارِ

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفى ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه فى ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزنًا شديداً ، إذ أحسّ كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحسّ أن أيام أنسه عادت ظلامًا ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعًا ، واسودّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله فى حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقًا[١] :

يا ساكنَ القبر فى غَبْراءَ مظلمةٍ ... بالطاهريَّة مُقْصَى الدَّار منفردا[٢]

أَين الجيوش التى قد كنت تَسْحَبُها ... أَين الكنوز التى لم تُحْصِها عَدَدَا

أَين السرير الذى قد كنت تملؤه ... مهابةً ، مَنْ رأَتْه عينُه ارتَعَدَا

أَين الرِّماح التى غَذَّيْتَها مُهَجًا ... مُذْ مِتَّ ما وردتْ قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً ، ولا أثر ولاعين ، كأنما لم يكن به المعتضد يومًا . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتًا قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية فى الحكم والتدبير من مثل قوله[٣] :

هذا أَبو القاسم فى نَعْشِهِ ... قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ

يا ناصر الملك بآرائِهِ ... بعدك للمُلْك ليالٍ طِوَالْ

وطبيعى ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذى يستحيل فى أيدى الشعراء سهامًا يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجَّاء عصره[٤] :

يا قَذًى فى العيون يا حرقةً بيـ ... ـنَ التراقى حزازةً فى الفؤادِ

يا طلوع العذول ما بين إلفٍ ... يا غريماً وافى على ميعادِ

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التى دفن بها المعتضد غربى بغداد .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

يا ركودًا فى يوم غيم وصيفٍ　　يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خَلِّ عنا فإنما أَنتْ فينا　　واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز فى شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه فى الحروب وفروسيته ، وهو يحاكى فى ذلك القدماء فى حماستهم، فهو فخر مصطنع متكلَّف فى جمهوره ، ويفخر طويلا بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه فى موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، وفى ذلك يقول[١] :

إنا لننتاب العُداة وإن نـأَوا　　ونَهُزُّ أَحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أَسرَّةٍ ومنابرٍ　　عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أَعدائهم　　جَرُّوا الحديد أَزِجَّةً ودروعا
وكأَن أَيدينا تنفِّر عنهمُ　　طيرًا على الأَبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلا لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهى شكوى مردُّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته فى مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ بنا آنفًا، فقد خلَّفت هذه المحنة فى نفسه ضيقًا شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحيانًا .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبينًا أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذى استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[٢]، ويحاول فى مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلَّ البغض والإحَن من نفوسهم على شاكلة قوله[٣] :

بنى عَمِّنا عودوا نَعُدْ لمودَّةٍ　　فإنَّا إلى الحسنى سِراعُ التعطُّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ　　مبالغَه من قبلُ فى آل يوسف

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

فهم فى رأيه بيت واحد وإخوة وينبغى أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيَّارة بثمن بَخْس دراهمَ معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبى طالب، فنظم قصيدة طويلة فى مديحه والثناء عليه ، يقول فى مطالعها[1] :

أآكل لحمى وأَحْسُو دمى ... فيا قوم للعجب الأَعجب[2]
علىٌّ يظنّون بى بُغْضَهُ ... فهَلاَّ سوى الكفر ظَنّوه بى

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادَّة الدين باسم التشيع لعلى وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوّته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجَّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتوى بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالبًا عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجده إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشِرَّة على سبيل الدعابة من مثل قوله[3] :

(١) الديوان ص ٦٧ .
(٢) أحسو : أشرب .
(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغانى ١٠ — ٢٧٨ .

وابلائى من محضر ومغيبِ وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهه العينُ إلا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيبِ

وقوله(١) :

زاحم كُمِّى كُمَّهُ فالْتَوَيَا وافق قلبى قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألمًا من ناره المحرقة ، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة ، وختم البيت الرابع بقوله : « ويا » كما يقول الناس : يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح . وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء . واقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب ، إنما تقف على دعابات وصور وفَنٍّ من مثل قوله(٢) :

تقول العاذلات تعزَّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُوِّ
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاساً أَلذُّ من الشماتة بالعدوِّ

وقوله(٣) :

إذا اجتنى وَرْدَةً من خَدِّها فمهُ تكوَّنتْ تحتها أخرى من الخَجلِ

وكان — كما أسلفنا — يُنْفق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته فى اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسُقَاتها وأديرتها ، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضًا فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون ، وهو يصرّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول(٤) :

وليس للهمِّ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنهــا دمعةٌ من عين مهجور

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣ .
(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥ .
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلى ويتعزّى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ، فهو لا يتعبّد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبّح بآلائها مقدّماً إليها قرابينه من الشعر ، إنما هو يتسلّى بها ويتسلّى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح الصبوح (١) :

اسْقِنِى الراحَ فى شباب النهارِ وانْفِ هَمِّى بالخَنْدَرِيس العُقَارِ(٢)
قد تولَّتْ زُهْرُ النجوم وقد بَشْـ ـشَرَ بالصُّبْح طائرُ الأسحارِ
مـا ترى نعمةَ السماء على الأَرْ ضِ وشكرَ الرياض للأمطارِ
وغنـاء الطيور كلَّ صباحٍ وانفتـاقَ الأشجار بالأنوارِ
فكـأنَّ الربيع يجلو عروساً وكأنا من قَطْرِه فى نِثارِ(٣)

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى الربيع ، ولكنها لا تصور حباً ولا تهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويُظْهر مقدرته على النظم فى الخمر ، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة(٤) فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول :

فأىُّ فَضْل للصَّبُوح يُعْرَفُ على الغَبوق والظلامُ مُسْدِفُ(٥)

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذماً قبيحاً ، كأن يعرّض المصطبحين للبرد القارس شتاء والحر اللافح صيفاً. وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشىء ومساوئه ، كما مرَّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثاً عقلياً ، وقد

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠ .
(٢) الخندريس العقار : الخمر.
(٣) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية .
(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١ .
(٥) مسدف : مرخى الستور.

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان فى مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ فى ذُرَى الأَغصانِ  منتظمٌ كقطَعِ العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قضب الزبرجدِ  قد استمَدَّ العَيْش من تُرْبٍ نَدِى
على رياضٍ وثَرًى ثَرِيٍّ  وَجَدْولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِيِّ
وجُلَّنارٌ كاحمرار الخــدِّ  أَو مثل أَعراف ديوكِ الهندِ

ويستمر فى رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة فى اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومى آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهى تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشى أسود والصباح يفترّ عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشى فى الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله(١) :

كمنْجَلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ  يَحْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرْجِسَا

وتكثر فى الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقدكان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهانى لم يرد فى دفاعه عنه الذى مرّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره فى الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم فى الصحراء إذ له أشعار مختلفة فى وصفها ، وقد مرت بنا فى غير هذا الموضع أبيات طريفة له فى وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى فى وصف ثور الوحش وبقره ، ومن طريف ماله فى وصف الإبل قليلة اللبن وهى تُحْلَبُ قوله(٢) :

رأيت انهمار الدرِّ بين فروجها  كما عصرتْ أيدى الغواسل أثوابا

---

(١) الديوان ص ٢٧٨ .  (٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله فى أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئًا ضالا منها[١] :

فكأَنّ أَيديَهُنَّ دائبةً يَفْحَصْنَ ليلتهن عن صُبْح

وله فى الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعى أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفًا بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرَدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعته بها قوله فى مقدمة إحدى طردياته يصف فرسًا له[٢] :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ فى أفقٍ مثل مداك الطيبِ[٣]
بقارحٍ مسوَّمٍ يَعْبُوب ذى أُذن كخُوصة العَسِيب[٤]
أَو آسة أَوفتْ على قضيب يسبق شَأْوَ النظرِ الرحيب[٥]
أَسرعُ من ماءٍ إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته فى تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته فى تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعنها مسيلا لدمائها مزهقًا لأرواحها ، يقول :

وأَجدلٍ أُحْكم بالتأْديبِ سَوْطِ عذاب واقعٍ مجلوبِ[٦]
يَهْوى هُوِىَّ الماء فى القَلِيب ما طار إلا لدمٍ مصبوب[٧]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة فى طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرعة ، ومن طريف ماله فى تصوير عين باز قوله[٨] :

ومقلة تَصْدُقه إذا رَمَقْ كأَنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .
(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .
(٣) المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب .
(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .
(٥) أوفت : أشرفت .
(٦) أجدل : صقر .
(٧) القليب : البئر .
(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .

وله فى الكلاب طرديات كثيرة يأتسى فيها بأبى نواس ، بل هو فى طردياته جميعًا يأتسى به ويحاكيه حتى فى ألفاظه التى يفتتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى فى إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدَّة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله فى إحدى طردياته (١) :

ومُخطَفٍ موثَّق الأَعضاءِ ذى أذنٍ ساقطةِ الأرجاءِ (٢)
كوردة السَّوْسَنَة الشَّهْلاء وبُرْثُنٍ كمِثْقَبِ الحذَّاءِ (٣)
ومقلةٍ قليلةِ الأَقذاءِ صافيةٍ كقطرةٍ من ماء
تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حَيَّةٍ رَقطاءِ (٤)

وله طرديات أخرى فى الفهد ، وفى قوس البندق ، ويُكثر فيها جميعًا من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعًا فى تصوير أى شىء يلم به من كوكب فى السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار فى الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال فى الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحيَّة وصفه لها فى قوله (٥) :

كأَنَّنى ساورتنى يوم بَيْنِهمُ رقشاءُ مجدولةٌ فى لونهـا بَلَقُ
كأَنها حين تبدو من مكامنها غُصْنٌ تفتَّح فيه النوْرُ والوَرَقُ
ينسلّ منها لسانٌ تستغيث به كما تعوَّذ بالسَّبَّابة الغَـرِقِ

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهى تكثر كثرة تجعلنا نظن ظنًّا أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات فى الشعر العربى ، وهو فى طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر فى شعره — كما قدمنا — من التفكير فى الموت ومصير الحياة

---

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٧ .
(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء : شديدة السمع .
(٣) السوسنة : الزنبقة. برثن : مخلب.
(٤) رقطاء : رقشاء أى بها نقط سود و بيض .
(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفاً بأنها طوابع طبعتها فى نفسه نكبته بأبيه ونفيه إلى مكة فى صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقى من بعوضها ونقيق ضفادعها (١) .

وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمى ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوَّر فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

## ٥

### الصنوبرى (٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصَّنَوْبرىّ ، وفى بعض المصادر أن اسمه محمد(٣) ، وهو خطأ ، إذ ذُكر اسمه فى ديوانه غير مرة باسم أحمد ، من مثل قوله معزيّاً نفسه فى بعض الظروف :

ارْضَ حكم الزمان يا أحمد ارْضَهُ ... إن تَذُقْ ضَيْمَهُ فقد ذُقْتَ مَحْضَهُ (٤)

وصُحِّف لقبه « الضبى » نسبة إلى قبيلة ضَبَّة فى فوات الوفيات ، فصار « الصينى » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثانى « الصنوبرى » فزعم هو نفسه أن جَدَّه كان يعمل فى دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك فى مناظرة بين يديه وأعْجب به فقال له : إنك لصنوبرى الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمْته وصورته وأن وجهه على

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر فى ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٦ وفوات الوفيات (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ١ / ١١١ والوافى بالوفيات للصفدى ٧ / ٣٧٩ وشذرات الذهب ٣٣٥/٣ ومعجم البلدان لياقوت فى ( حلب ) وديوانه بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة ببيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضيم : الممزوج بالشوائب . والمحض : الخالص غير المشوب

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبرى بهذا اللقب لأسرته قائلا[١] :

إذا عُزِينا إلى الصَّنَوْبر لم نُعْزَ إلى خاملٍ من الخشبِ
لا بل إلى باسق الفروع عَلَا مناسباً فى أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية ، ولكن منشأه ومَرْباه فى حلب ، ولا ندرى كيف تحوَّل أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويُكِبُّ على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى فى العالم العربى تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان . وفى ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء فى اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوى وإلى بعض المتطببين ، ونراه يذكر أرسطاليس وبقراط فى بعض أشعاره[٢] . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى فى ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفا ، على الأقل ملمًّا بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إلمامًا عميقًا ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته فى حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك واليًا على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمديحه لِذَكَا[٣] بن عبد الله الأعور والى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحتفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبرى بقصيدة فى مديح ابنه المظفر[٤] يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبرانى أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالى يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبرى فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالى على حلب أحمد بن كَيَغْلَغ القائد المشهور فى العصر ويظل

---

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر فى هذا الوالى ومن بعده كتاب زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور سامى الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها فى سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونه فى حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفى عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية ، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراسانى الذى حكم حلب بعد ولاية ابن كَيَغْلَغ الأولى عليها وظل يحكمها حتّى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريفاً السبكرى حتّى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابى سنة ٣٢٤ وجّه إليه مدائحه . وتدخل حلب فى حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه فى حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبرى مهنئاً له بشهر رمضان ، وسرعان ما يستولى يانس المؤنسى من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبرى بمثل قوله[١] :

هو الفارسُ المُرْوِى من الدم سَيْفَهُ إذا لم يُطِق رىَّ السيوف الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدى من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصومه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد فى سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيئان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو فى أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح . ومنذ قَرْع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبرى يقدّم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذه أميناً لمكتبته[٢] . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد فى ديوانه مديحاً لأخيه ناصر الدولة وآبائهما فى الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ فى التألق منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبرى نفسه شيعياً ، غير أنه ظل منحرفاً عنها ، حتّى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال فى بغداد واشتراك هذه الأسرة فى الفتن التى كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للغزولى ٢ / ١٧٦ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، ولعل هذه الفتن نفسها هى التى جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصَّها بمديحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلىء بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعًا حقًّا ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله [1] :

حبَاه بالوصيَّـــة إذ حَباه وهْو ذو دَنفِ

ويبدو أنه لم يكن غاليًا فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثنى عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجَّه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الذيوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بسَلَمْيَةَ فى الشام [2] ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة [3] الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلا ذريعًا ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقة [4] ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة [5] . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة [6] ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتًا مثنيًا عليه أو مادحًا . ونجده

---

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من سلمية هو أبو إسحق السلمانى ، ولكن ليس فى مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الديوان ص ٩٦ . .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفراً الطيار كما يمدح العباس[1] جد العباسيين. وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة على بن أبى طالب ، ولكنه أيضًا يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبى العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول[2] :

أأبناءَ الخلافةِ من قريشٍ وساسةَ أمرِ عالمنا المسُوسِ
أَلَنتُمْ من حُزون الدهر حتى توهمتُ الحزونَ من الوعوس[3]

وفى ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يتَرْحَلُ من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتُعَدّ كأنما كانت موطنه الثانى وخاصة فى أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخَلْعه للعذار . وكان لا يزال يؤمّ فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّى لجمال متنزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برًّا وبحراً . وكثيراً ما كان يلمّ بمدينة الرّها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل فى كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حاميًا من حماة الأدب فى تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحه ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلاّبى من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك فى طرابلس وعلى بن سهل بن روح فى حمص ، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوى مثل الحسن بن أحمد السبيعى وله كتاب « التبصرة فى فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضى أبى عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل على بن محمد بن حمزة العباسى الهاشمى وكان له قصر منيف وبساتين فى موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبى عبد الله الكرخى صاحب الخراج . وكثيرٌ هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمى وابنه أبى بكر وحفيده أبى عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط فى كل البلدان التى ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

---

(١) انظر الديوان ص ٣٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

نفسه المعوج الرقى ويقال إنه أستاذه ، وقد توفى سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها[١] :

يا سماءَ الشعر التى لى عليها  كلَّ يوم سماءُ دَمْعٍ تفيضُ

كيف تجنى الأَفهامُ زهرَ المعانى  بعد ماجفَّ رَوْضُهنَّ الأَريضُ

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقةُ التى انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظنًّا أنها بدأت فى الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنًّا من الصنوبرى ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده فى الشعر ، فنسج على منواله ، فى وصف الرياض وفى الخمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعابثات واستعطافات كثيرة ، وكأن الأستاذ دائمًا كان حريصًا على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يومًا او أصهر إلى أستاذه فى ابنة[٢] له ، ولعل عالمًا لغويًّا لم يحظ بصداقة الصنوبرى كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ موليًا وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفى هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمَّها الشباب للتثقف ، وكان بينهم الصنوبرى ، فملك الأخفش عليه لبَّه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصوِّر فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله[٣] :

كَرَعْنا منه فى أَبْحُـ  ـرِ علمٍ غير مَنْزوفه

وطالعْنا رياضَ العِلْـ  ـم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقًا كما يقول ، واصفًا فراقه لهذا الفردوس العلمى ، متمنيًا او فاءت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عامًا يقضى معظمها فى اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه فى نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد فى الدنيا ومتاعها الزائل

(١) الديوان ص ٢٦٢ .

(٢) ديوان كشاجم ( طبعة بيروت ) ص٧٩ .

(٣) الديوان ص ٣٧٧ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وآن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول (١) :

ألقتْ رداءَ اللهو عن عاتقى خمسٌ وخمسون مضَتْ واثنتانْ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت (٢) ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر فى يسر دائماً ، إذ نراه يذكر – كما يذكر ذلك كشاجم – أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين (٣) . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده (٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعُنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضى أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسى (٤) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبَّه على حروف الهجاء فى مائتى ورقة (٥) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر ( ٣٥٠ – ٣٦٦ هـ ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ (٦) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبيلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها فى فهرسته (٧) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف ، أما الجزء الذى يسبقه والآخر الذى يلحقه فمفقودان ، وحقَّق الجزء الباقى تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلا ص ١٥٥ فى الديوان .

(٤) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ص ٤٠٨ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهارسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تـوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحيانًا يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحيانًا لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال[١] :

ما حَلَّ بى منك وقتَ مُنْصَرفى ؟ ما كنت إلا فريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمــه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتْ رجلى عن الخطو شدةُ الكلف
فكان جسمى فى زِىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حوله، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تنمّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلِّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عُنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحًا . فهو يقدّمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعديهم ، وكثيراً ما يصرّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيَـغْلَغ ، وفيه يقول[٢] :

(١) الديوان ص ٣٨٨ .
(٢) الديوان ص ١٦٠ .

وكيَغْلَغيٌّ المجد يُلْفَى مجدُه ثَبْتَ الدعائم محصدَ الأَمْراسِ[١]
فَرْدُ الكيان فكفّه من رحمةٍ تَسَعُ الأَنام وقلبه من باسِ
أَعْدَى على صَرْف الليالى المعتدى وألان من طبع الزمان القاسى
يوماه ذا عيدٌ وذا عُرْسٌ وإن جَلاَّ عن الأَعياد والأَعراسِ
يـأْبى الحجابَ وليس يحجب بشره عن أعين الندماء والجُلاَّسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ فى أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفى الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس. وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبى تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه فى اقتناص المقابلات والجناسات، فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه فى الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمى عباسى أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمى، وكانت له — كما مرَّ بنا — ضياع يتوسطها قصر فى مكان يسمى فارث، وكان الصنوبرى كثيراً ماينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلا بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً[٢] :

ابْقُوا بنى العباسِ مابقىَ الحصَا لنَدًى يُؤَمَّلُ أو لخَرْقٍ يُرْقَعُ[٣]

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب، ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصفَّى وسراج الدنيا، ومن خير مدائحه فى الهاشميين مدائحه لأبى إسحق السلمانى، ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسططاليس وبقراط، قائلا[٤] :

وأدقَّ من رَسْطالسٍ نظَرًا إذا ناظرْتَه وأَشفَّ من بُقْرَاطِ

(١) محصد : قوى متين .
(٢) الديوان ص ٣٢٧ .
(٣) يريد بالخرق : الفتنة .
(٤) الديوان ص ٢٧٩ .

فِكَرٌ غَدَتْ أقفالَ فكرٍ كلُّها  لكنهنَّ مفاتحُ استنباط

والرثاء كثير فى الديوان بصوره الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه(١) بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديمًا عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزّى ابن حمزة الهاشمى العباسى صديقه عن زوجته(٢) وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد فى دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلا على صديقه أبى إسحق السلمانى حين وافاه القدر ، فأبّنه كثيراً واصفًا علمه وباكيًا عليه بمثل قوله(٣) :

غاب أبو إسحقَ فى الأَرض بل  غابَ سِراجُ الأَرض فى الأَرضِ
بكتْه عيناىَ وفوق البكا  حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مراثيه ندبه للنبى عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن على واصفًا مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له فى غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبّه فى نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصّه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه فى بعضها(٤) يصوّر سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم فى مقتله ، كما يصور سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله فى كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلعق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْوِل أم كلثوم ومن كان فى ركبه من النساء عويلا مُرًّا ، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئنُّ لمصرع الحسين وهتك حُرمه بمثل قوله(٥) :

يومَ الحُسَيْن على الد  ين كنت يوماً عسيرا
ملأْتِ والله كَرْباً  يا كربــلاءُ الصدورا

---

(١) الديوان ص ١٠٦ .
(٢) الديوان ص ٣٤١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .
(٥) الديوان ص ٩٥ .

والفاطميون تَفْرِي بهم السيوفُ الطيورا
والفــاطميات يَنْحَرْ ن بالدموع النُّحُورَا

ونراه فى جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت ، تشيعًا لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم. ويلتقى فى الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلى وحيدته كما يقول ، ويندبها فى كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضًّا وامتلأ قلبه حسرات ولوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشيًا بعد وشي وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها فى رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحوَّل العيد بعدها لغيابها عنه مأتمًا ، ويبكيها فى قصيدة ضادية ، ويبكى معها أختها التى ماتت منه فى الرقة ، وفى ذلك يقول(١) :

لنا فى الرَّقَّتين مضيضُ حزنٍ وفى حَلَبَ المضيضُ على المضيضِ

وظل جرُحه فى ليلى لا يرقأ ، وكانت عروسًا ، فانقلبت الفرحة حزنًا بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقًا يصطلى الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله(٢) :

يا ربة القبر المضيء الذى يضيء ضوءَ الكوكب السَّارِى
أشتاق رؤياكِ فآتى فلا أرى سوى تُرْبٍ وأَحجارِ
قومى إلى دارك قد أنكــرتْ صبركِ عنها أَىَّ إنْكارِ
استوحشتْ دارُكِ من أهلها واستوحش الأَهــلُ من الدارِ

ومن أروع مراثيه مرثيته فى أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

(١) الديوان ص ٢٦٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٠ .

أقدمهم ، وهو فى رثائه لها يصور شعوراً عميقًا بالحزن ، وقد استهله بقوله: [١]

قد صَوَّحَتَ روضتىَ المونقه وانتُزعتْ دوحتىَ المورقه

ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أنينًا متصلا . وله مرثية طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزته بل أثَّرت فى نفسه تأثيراً عميقًا فاجعة الحرم المكى الكبرى لسنة ٣١٧ حين هجم القرامطة على الحجاج، وهم يُهلون ويُلَبّون يوم التَّروية فأعملوا فيهم السيوف فى طرق مكة وفى البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبرى يبكيهم بكاء حارًّا ، هاتفًا [٢] :

دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشيةً وأرواحهم تجرى على البيض والسُّمْر
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُنِّطوا إلا من التُّرْب لا العِطْرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً ولا وضوءاً ولا صومًا ولا حَجًّا ولا شيئًا من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة فى الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل المضرية عامة وبضبة قبيلته، وأيضًا كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه فى قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بنى العباس ، إذ يقول فى عَدِّ قومه لمناقبهم ومفاخرهم [٣] :

عَدُّوا النبىَّ الهاشمىَّ ورهطــه ووزيرَهُ الصِّدِّيق والفــاروقا
ولهم خلائفُ من بنى العباس قد أعيــوا جميع العالمين لحُوقا

وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غاليًا فى تشيعه ، إذ يرتضى خلافة الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجِّدها ويشيد بها فى قوة . وله أهاج كثيرة يملؤها بالفحش، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليلى التى رثاها طويلا ، ويبدو

(١) الديوان ص ٤٤٢
(٢) الديوان ص ٩٧
(٣) الديوان ص ٤٠٤

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغيض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله (١) :

أَلا يابنَ الجُنَيْد اسمع وما أَنت بذى سَمْعِ
على التَّفريق إمْلاكُ لكَ هَذَا لاعلى الجَمْعِ (٢)
على التَّعْس عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
علىَّ تحــرُّقُ القلبِ علىَّ تحدُّرُ الدمْعِ

وله قصيدة (٣) فى هجاء بعض الشمامسة ، يصفه فيها بالشره فى الأكل وببعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى فى ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازى البوم فى شؤمه ، ومن قوله فى ثقيل (٤) :

لو مَرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْن والحاجبِ

وفى ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه فى استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة فى جسدين أو جسد واحد فى ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودّداً مستعطفاً (٥) :

أَخٌ لى عاد من بعد اجتنابِهْ وفَرَّق بين قلبى واكتئابِهْ
وخاطبنى فخلتُ بأَن زهر الـ ـرُّبَى الموشىَّ يُجْنَى من خطَابِهْ
فقرَّب بين أجفانى وغُمْضِى وباعد بين دَمْعِى وانسكابِهْ
أَتانى أَرْىُ منطقه فعَفَّى على ما ذُقْتُه من طَعْم صَابِهْ (٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها فى الغلمان ، وحاولنا — فى غير هذا الموضع — أن نخفف من حدّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبرى وغيره ، فقلنا إن

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) الإملاك : الزواج .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .
(٥) الديوان ص ٤٥٧ .
(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل . والصاب : العلقم .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جُلُّه ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير فى أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل فى فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة قوله[١] :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحَدَّا     وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جِدَّا
وقد كنت جَلْدًا ثم أوهننى الهَوَى     وهذا الهوى ما زال يستوهن الجَلْدَا
فلا تعجبى من غُلْبِ ضَعفك قوّتى     فكم من ظباءٍ فى الهوى غلبتْ أُسْدَا
جَرَى حبُّكم مجرى حياتى ففقدكم     كفقد حياتى لا رأيتُ لكم فقْدَا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوّل الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهنًا بعد أن كان جلداً ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتى بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية[٢] :

لا النومُ أدرِى بهِ ولا الأَرَقُ     يَدْرِى بِهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعى من طول ما اسْتَبَقَتْ     كلَّتَ فما تستطيع تستبق
ولى مليكٌ لم تَبْدُ صورته     مُذْ كان إلا صَلَّت له الحَدَق
نويتُ تقبيلَ نارِ وَجْنَتِهِ     وخفت أدْنو منها فأَحترق

والقطعة مع ما يترقرق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثانى وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته لمليكه بصلاة الحدق فيه أيضًا غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول فى البيت الأخير مجلوب اجتلابًا ليهيِّئ مكانًا للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها فى فتاة مسيحية ، تمضى على هذا النمط[٣] :

لا ومكان الصَّليب فى النَّحْرِ     منكِ ومجرى الزنّارِ فى الخَصْرِ
والحلقِ المستديرِ من سَبَجٍ     على الجبين المصوغ من دُرٍّ[٤]

(١) الديوان ص ٤٧٢ .
(٢) الديوان ص ٤٣٦ .
(٣) الديوان ص ٦٣ .
(٤) السبج : قطع الشعر المرسلة على الجبين .

وسُكْرُ أجفانك التي حلف الـ ـفتورُ ألا تُفيق من سُكْرِ
وأقحوانٍ بفيك مُنْتَظِمٍ على شبيه الغدير من خَمْرِ
ما صبرَ المشوقُ لى فأصبرَ يا منْ حُسْنُهُ فيه قِلَّةُ الصَّبر

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كئوسها وسقاتها ونداماها ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر فى مقدمة بعض مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالى الأنس وما كان فى مجالسها من غناء وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور فى رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ، ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره فى الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله [١] :

ذَهِّبْ كئوسَك يا غُلا مُ فإنَّ ذا يومٌ مُفَضَّضْ
الجوُّ يُجْلَى فى البَيَا ضِ وفى حلىٍّ الدُّرِّ يُعْرَضْ
أظننتَ ذا ثلجاً وذا وردٌ على الأغصان يُنْفَضْ
وَرْدُ الربيع ملوَّنٌ والورد فى كانونَ أبْيَضْ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تُجْلَى فيها ، فهو يوم من أيام عُرْسها ، وهو يعبّ فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما قطَعُهُ فى عينه ورودٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، وورود بيضاء ، تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمره ولهوه ولذاته فى الرقة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البليخ والهنىّ والمرىّ . وله رائية [٢] يصور فيها نزهة فى بساتين تلك الجداول وفى دير زكّى الذى كان يجاوزها ، ذاكراً قُرَاها التى كان يتنقّل بينها من مثل هرقلة والصالحية

(١) الديوان ص ٢٥٥ .
(٢) الديوان ص ٥٤ .

وبِطْياس والرافقة وما كان يمتد فى المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف عكوفه على الخمر وسُقاتَـها من الغلمان والجوارى ، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالجوارح من الصقور والبُزَاة للطير من مختلف الألوان ، ويصوِّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله وراء ذلك أشعار كثيرة فى دير زَكىّ ونُزَهه فى بساتينه وخَلْعه مع بعض رفاقه للعذار فيه ولهوهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدّثنا فى قوله (١) :

لو على الدَّير عجتَ يوماً لألهتْ ... ـك فنونٌ وأطربتك فنـــونُ

كم غزالٍ فى كفِّه الوردُ مبذو ... لٌ وفى الخدِّ منه وردٌ مصونُ

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السنّ بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر فى ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها فى سن البراعم الغضة ، ولعل ذلك ما جعله يعلن أنه كفّ عن النبيذ فى حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول (٢) :

كنت أُحبّ النبيذ جِدًّا ... فصــار حُبِّى النبيذ بُغْضَا

فلست أرضاه لى شراباً ... والحمد لله لست أَرْضَى

وينظم بعض أشعار فى الزهد ، وله فيه قصيدة (٣) طويلة ، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الآثام أن يرعوى ويكف عن السير فى طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية فى الحياة ، وهو الباب الذى يسمَّى فى الشعر وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ، من مثل قوله فى إحدى قصائده التى خصَّها بهذا الباب (٤) :

أَضاع الحَزْمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعاً ... طوالَ الدهر ذا حَزْمٍ مضاعِ

وأَكثرْ ما استطعت الحلم إنى ... رأيت الحلم من كرم الطباعِ

ولا تَتْبَعْ أخا سَفِه ودَعْــهُ ... وكُنْ للحُرِّ ــ دهرَك ــ ذا اتباعِ

---

(١) الديوان ص ٤٩٥ .

(٢) الديوان ص ٢٥٨ .

(٣) الديوان ص ٣٩٣ .

(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسى فى شعره ، وهو وصف الطبيعة التى عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع فى العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله ومَن خلفهم فى العصور التالية لا فى المشرق وحده، بل أيضًا فى المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه ، حتى ضُرب المثل بروضياته . وحقًّا كان ابن الرومى مشغوفًا بالطبيعة ووصف الرياض فى الربيع ، ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبرى ولا اتخذ له بستانًا يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبرى . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفًا لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكْده من حياته ، وقديمًا عاش تلك المعيشة أبو نواس، ولكن فى الصهباء وكئوسها ودنانها ، مما جعله يُعْلى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية، وبالمثل نجد الصنوبرى يُعْلى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، فى مثل قوله [1] :

وَصْفُ الرياض كفانى أن أقيم على ... وصف الطلول فهل فى ذاك من باسِ
يا واصف الروض مشغولا بذلك عن ... منازلٍ أَوْحَشَتْ من بعد إيناسِ
قُلْ للذى لام فيه هل تَرَى كَلِفاً ... بأَملح الروض إلا أَملحَ الناسِ

فهو يُعْلِى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلاّبة . ورأيناه فى غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع فى الكون عن كل شىء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفى كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك فى قصيدة الأبيات السالفة قائلا عن رفاق له فى أحد البساتين :

ما كدتُ أَكتمهم وَجْدى بِنرْجِسِهِ ... إلا استدلُّوا على وَجْدى بأَنفاسِى

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد فى الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنّى

(١) الديوان ص ١٨١ .

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض فى عينيه إلى أعياد وأعراس ،حتى ليقول[١] :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا أتى الربيع أتاك النَّوْرُ والنُّور[٢]
فالأَرض ياقوتة والجو لؤلؤةٌ والنبت فيروزَجٌ والماءُ بلُّورُ[٣]
تظلُّ تنثر فيه السُّحْبُ لُؤْلُؤَهـا فالأَرض ضاحكةٌ والطير مسرورُ
حيث التفتَّ فقُمْرِىٌّ وفاختةٌ يغنِّيانِ وشِفنِينٌ وزُرْزورُ[٤]
إذا الهزارانِ فيه صَوَّتَا فهما السُّـ ـرْ ناىُ والنَّاىْ بل عودٌ وطُنْبورُ[٥]

فالربيع كأنه دكانٌ ملىء بالجواهر ، والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغنى ويشدو عندليبان بصوتهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم فى الربيع ليروا مفاتنه ويهتف بصواحبه من النساء أن يتأملنَ فى جماله الذى يملأ القلوب غبطة وابتهاجًا ، يقول[٦] :

يا ريمُ قومى الآن ويحك فانظـرى ما للرُّبَى قد أَظهرت أعجابها[٧]
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردٌ بدا يحكى الخدودَ ونَرْجِسٌ يحكى العيون إذا رأتْ أحبابها
وكأَن خُرَّمَهُ البديعَ وقد بدا روسُ الطَّواوس إذ تدير رقابها[٨]
والسَّرْوُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شَمَّرتْ عن سوقها أثوابها[٩]

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها وعيونها الرانية ورءوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) النوْر : الزهر .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون .

(٤) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفنين اليمام ، والزرزور : من العصافير .

(٥) السرناى والناى : من آلات الطرب .

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٨) الخرم : زهر بنفسجى زاه .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

تريد الرقص فى هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبَّه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار فى الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلا على نحو ما نرى فى قوله[1] :

أرأيتَ أحسنَ من عيون النَّرْجِسِ ... أم من تلاحظهن وَسْطَ المجلسِ
دُرٌّ تشقَّق عن يواقيتٍ على ... قُضُبِ الزمرُّدِ فوق بُسْطِ السُّنْدسِ
أجفانُ كافورٍ حُبِينَ بأَعْيُنٍ ... من زعفرانٍ ناعمات الملمسِ

وهو فى كثير من وصفه للنرجس يستهدى بابن الرومى ، إذ كان معجبًا به مثله ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن الرومى أدار مناظرةً فى شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكدُ فضله على الورد وأنه يفوقه حسنًا وجمالا ، وكأنما أراد الصنوبرى أن يعارضه فنظم مقطوعة[2] نصر فيها الورد، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول[3] :

خَجِلَ الورد حين لاحظه النرْ ... جِسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ[4]
فعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا ... حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقْحُوَانُ يضحك عجباً ... عن ثنايا لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ[5]
عندها أبرز الشَّقيق خدودًا ... صار فيها من لَطْمه آثارُ[6]
وأضرَّ السَّقامُ بالياسمين الـ ... غَضِّ حتى أذابه الإضرارُ

ويمضى الصنوبرى على هذا النمط واصفًا القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة. وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله فى دمشق والرقة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته فى موطنه حلب ، وهى أربعة أبيات ومئة استهلَّها

---

(١) الديوان ص ١٨٠ .
(٢) الديوان ص ٤٩٨ .
(٣) الديوان ص ٧٨ .
(٤) البهار : نبت أصفر .
(٥) الأقحوان : زهر أبيض فى وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .
(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

بالتشبيب ، ثم أخذ فى وصف متنزهاتها وقراها ونهرها قويق و بركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول(١) :

حبذا جامعها الجا معُ للنفس تُقاها
ومـراقى مِنْبَـرٍ أعْ ظمُ شيءٍ مُرْتقاها
وذُرَى مِئْـذنةٍ طـا لتْ ذُرَى النَّجم ذُراها
قُبـةٌ أَبْدَع بانيـ ـها بنـاءً إذ بناهـا
لو رآهـا مبتنى قُبَّـ ـةِ كسرى مابناهـا

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصَفَ الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفًا رائعًا ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحًا بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعيًّا أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول(٢) :

زبرجدةٌ ملفوفة فى حريرةٍ مضمَّنةٌ دُرًّا مُغَشًّى بياقوتِ

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء، ولذلك كان يُحْسِن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، ومما اشتهر به وعُرِف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرّفاق معه لخمر الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحيانًا ، أما هو فخصَّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول (٣) :

مغرِّدُ الليل ما يألُوكَ تَغْريدا ملَّ الكرَى فهْو يدعو الصُّبْحَ مجهودا(٤)
لما تطرَّب هزَّ العِطْفَ من طربٍ ومدَّ للصوت — لما مدَّه — الجِيدا
كلابسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانبه تضاحك البيض من أطرافه السودا(٥)
رانٍ بِفَصَّىْ عقيقٍ يدركان له من حِدَّةٍ فيهما ما ليس محدودا
حالى المقلَّد لو قيستْ قلادتُه بالورد قصَّر عنها الورد توريدا

(١) الديوان ص ٥٠٦ .
(٢) الديوان ص ٤٦٤ .
(٣) الديوان ص ٤٧٣ .
(٤) الكرى : النوم .
(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقَنص، وخاصة فى الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ،وكل ذلك نجد وصفه فى أشعاره، وله طائية[١] يصف فيها جواده الذى يركبه للصيد وقد جُنَّ جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقد على الفضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذى سيطلقه على بَطِّ الماء أو طَيْره ، وفيه يقول :

كأنما مِخْلَبُهُ لأُذُن الطَّيْر قُرُطْ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سَهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتى بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوّراً سرعتها هى الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

موكَّلات بالفَلا يَطْوينها طَىَّ البُسُطْ

كأنما آذانُهُ نَّ سَوْسَنٌ لم يُجْنَ قَطّْ

كأنما أجفانُها عن قِطَع الجمر تُعَطّْ .[٢]

وساعدته حاستة التصويرية على أن يصور كل ما حواله وكل ما يقع عليه نظره، من ذلك تصويره للجُرْذان والهِرِّ[٣] ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس ، والجرذان دقيقة الخراطيم والآذان والأذناب حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شىء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهِرُّ لها بالمرصاد ، يقول :

ناصبٌ طَرْفَهُ إزاءَ الزَّوايا وإزاءَ السقوف والأَبوابِ

يسحب الصَّيْدَ فى أقل من اللَّمْـ ـح ولو كان صَيْدُه فى السحاب

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطًا وقلادة ، وخضبه بالحنَّاء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشى بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) تعط : تشق .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .

فرحٌ بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرمًا . ومن تصاويره قوله فى شمعة(١) :

مَجْدُولَة فى قَدِّهــا تَحْكى لنا قَدَّ الأَسَلْ
كأنهــا عُمْرُ الفَتَى والنــارُ فيها كالأَجَلْ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى وأنه كان خيالا خالقًا ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجابًا ، وكان إلى ذلك شغوفًا بالرياض والطبيعة شغفًا ملك عليه حواسّه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

(١) الديوان ص ٤٨٥. والأسل: الرماح.

# الفصل السادس

## شعراء السياسة والمديح والهجاء

### ١

### شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن حزب الخوارج الذى كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أُوارُه ، ولم تَبْقَ منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا فى هذا العصر العباسى الثانى كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعُدْ من يُعْلن أنه خارجى أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكوّنوا حزبًا أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هى أفكار قد تَعِنّ لشخص ، وقد يتبنّاها ، ولكن دون أن يَحْمل من أجلها السلاح ودون أن يتغنّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج فى دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغى استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسبًا نفسه إلى فاطمة الزهراء كذبًا وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذى جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوى .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد فى هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالا ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين فى الحجاز وفى طبرستان وشرقى الدولة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمى بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفى أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيْلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مُدَّاحهم ودُعاتهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهرون غير ما يُبْطنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسى أو ذاك لقاء ما يُنْثَرُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذى لا يَحْمل على البيت العلوى ولا يضْطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرَّ بنا أمره بِحَرْث قبر الحسين ومَحْو أرضه ومَنْع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه فى النجف ، وغدا آل أبى طالب فى محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرَّب إليه غير شاعر من مثل على بن الجهم بِشَتْم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصًّا وإما تعريضًا كقول الجمَّاز أحد ندمائه[1] :

ليس لى ذنبٌ إلى الشـ ـيعـة إلا خَلَّتين
حبُّ عثمانَ بن عفَّا ن وحبُّ العُمَرَيْن

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحًا بأنه من أهل السنَّة ، وأنه على مذهب المتوكل فى التَّسَنُّن ومَقْت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كى يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقًّا للخلافة ، مُلوِّحين فى وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه يتقدمُهم ابن الجهم ومروان بن أبى الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فَجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشِّبْل البُرْجُمِيّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتًا استهلَّها بقوله[2] :

أَقْبِلِي فالخَيْرُ مقبلْ واتركى قولَ المعلِّلْ
وثِقى بالنُّجْح إذْ أَبْـ صرتِ وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٧٥ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ .

درهم . وكان يَغْدو ويَرُوح وفى ركابه البحترى يمدحه فى كل مناسبة مشيداً بآبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته وعهده وعدله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له فى كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شابًّا يعمل فى دواوينه ، فمرض المتوكل ثم عوفى ، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكد يقف بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللا مبتهجًا مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول(١) :

اليوم عادَ الدِّينُ غـ ـضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَضِـيرِ
يا رحمـةً للعالمِيـ ـنَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجـةَ اللهِ التى ظهرتْ له بِهُدًى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً فى المذهب الإسماعيلى الفاطمى . وكان طبيعيًّا أن يَطْرَب المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملا جليلا ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكتَّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولى ، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاة العهود أبنائه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمؤيد ، وصنع لذلك موكبًا ضخمًا ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذى سمَّاه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولى بين الصَّفَّيْن ، واستأذن فى الإنشاد فأذن له فقال(٢) :

أَضْحَتْ عُرَى الإسلام وَهْىَ منوطةٌ بالنَّصْر والإعزاز والتـأْييدِ
بخليفـةٍ من هاشمٍ وثـلاثة كَنَفُـوا الخلافة من وُلاة عهودِ

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١١٤ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٦٤ وانظر الطبرى ٩ / ١٨١ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١ .

قمرٌ توافَتْ حوله أقمــارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْـلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُم الآباء واكتنفت بهم فَسَعَوْا بأَكْرَمِ أَنْفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاة العهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنَّى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد[1] بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن يحيى البلاذرى [2] :

ولو أنَّ بُردَ المصطفى إذ لبِسْتَهُ يظنُّ لظنَّ البُرْدُ أنك صاحبُهْ
وقال وقد أعْطيته ولبِسَتهُ نعم هذه أعطافه ومناكِبُهْ

ويتولَّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ، ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنئًا أبو على البصير قائلا [3] :

آبَ أمرُ الإسلام خير مآبهْ وغدا الملك ثابتاً فى نِصابِهْ
مستقرًّا قــراره مطمئنًّا آهلا بعد نَأْيِهِ واغترابِهْ

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عامًا أو تزيد سنوات ،وكان فيه لهو وانغماس فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفَّها أخوه وولىّ عهده الموفق أشد بنى العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء مبرمًا . فكان طبيعيًّا أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية فى وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفَّار من جهة ثانية ، وقد صورنا هذه

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .
(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

الوقائع فى غير هذا الموضع ، وفى وقائعه مع الصفار يقول ابن فَيَنْد الطائى مصوراً انتصاره[١] :

وولِيُّ عهد المسلمين موفَّقٌ    بالله أمضى من شهابٍ ثاقبِ

يافارسَ العُرْب الذى ما مثله    فى الناس يُعْرَفُ آخَرٌ لنوائبِ

وتولَّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزماً ، ومرَّ بنا أنه كان من مدَّاحه ابن الرومى فهو يهنئه فى الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللا ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرَّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التى صوَّر فيها عهده تصويراً بارعاً ، وفيها أصْلَى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتى الزنج والقرامطة ، وكأنما جرَّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه فى الخلافة ، ومرَّ بنا ذلك فى حديثنا عنه . ويتولَّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسْبغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسْبِغُها أبو بكر الصولى وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة فى الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بَسَّام[٢] وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى .

## مروان بن أبى الجنوب أبو السمط[٣]

حفيد مروان بن أبى حفصة شاعر الخليفة المهدى ، أصل موطنهم اليمامة ، وقد سلك مسلك جدِّه فى الطعن على آل على بن أبى طالب ، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حَنَقه على أبناء عمه العلويين

---

(١) طبرى ٩ / ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الراضى والمتقى فى كتاب الأوراق للصولى .

(٣) راجع فى أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤ / ٥٢ ، ٨٣ والطبرى ٩ / ٢٣٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٩ / ٣٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٥٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب البغدادى ١ / ٤٤٧

ما صوَّرناه فى غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعْجَبُ به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة ، فلما ولى الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبى دُؤَاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًّا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذَّبه فى تَنّور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لىَ الزَّيَّاتُ لاقى حِمَامَهُ ... فقلتُ أتانى الله بالفتح والنَّصْرِ
لقد حفر الزيات بالغدر حُفْرَةً ... فأُلْقِىَ فيها بالخيانة والغَدْرِ

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التنُّور ، وعذَّب به نفراً . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبى دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودَّته لأمير المؤمنين ، وعليه دَيْنٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطاها . فأعطيت له ، وجىء به إلى سامرَّاء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتْ خلافة جعفرٍ كنبوَّةٍ ... جاءت بلا طلبٍ ولا بتنحُّلِ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مِثْلَمَا ... وهبَ النبوة للنبىِّ المرسلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نَثْراً ، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح ، والمتوكل يُسْبغ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته التالية التى أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أمــلاكٍ فأما محمدٌ ... فنورُ هُدًى يهدى به اللهُ مَنْ يَهْدِى
وأمــا أبو عبد الإله فإنه ... شبيهك فى التقوى ويُجْدِى كما تُجْدِى
وذو الفضل إبراهيمُ للناس عصمةٌ ... تَقِىٌّ وَفِىٌّ بالوعيد وبالوَعْدِ
فأولهم نــورٌ وثانيهمُ هُدًى ... وثالثهم رُشْدٌ وكلهم مَهْدِى

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوبًا وببغلة وفرس وحمار ، فما برح حتى قال فى شكره :

تخيَّر رَبُّ الناسِ للناس جعفرًا  فملَّكه أمــرَ العباد تَخَيُّرا

حينئذ رَدَّ عليه ضياعه التى كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتبًا فى الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة فى جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين فى الخلافة مؤتسيًا فى ذلك بجدّه مروان بن أبى حفصة ، وائتَسَى به أيضًا فى الرد على العلويين ونَقْض ما يدَّعونه من وراثة الرسول فى الخلافة ، إذ هم أبناءُ السيدة فاطمة الزهراء والعمُّ مقدم على أولاد البنت فى الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التى تمضى على هذا النمط :

مُلْكُ الخليفــة جعْفَرٍ  للدين والدنيا سلامَهْ
لكم تراثُ محمَّدٍ  وبِعَدْلكم تُنْفَى الظُّلامَهْ
يرجو التراث بنو البنا  تِ وما لهم فيها قُلامَه
والصِّهْرُ ليس بوارثٍ  والبنتُ لا تَرِثُ الإمامَهْ
أخذ الوراثَةَ أَهْلُها  فعلامَ لَوْمُكُمُ علامه

وهو يشير بوضوح فى الأبيات إلى أن مصاهرة على بن أبى طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة ، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنتٌ ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة فى ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجًا ، وقلَّده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولى عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُثِرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخىّ يلتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئًا إكرامًا له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً ، ومن طريف ماله فيه قوله :

تخشى الإله فما تنام عنايَةً  بالمسلمين وكلهم بك نائمُ
لو كان ليس لهاشم فيما مضى  سلفٌ سواك لقُدِّمَتْ بك هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتى ألف دينار من وَرِقٍ ( فضة )

وذهب وكُسْوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل على بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يَصْمت بل كان يبادر أحيانًا إلى الهجاء ، ويُرْوَى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

اللهُ أكبرُ والنبىُّ محمَّدٌ والحق أَبْلَجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكد يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابنُ جَهْمٍ أن يقول قصيدةً بمدح أمير المومنين فأَذَّنا
فقلتُ له لا تعجلنْ بإقامةٍ فلستُ على طُهْرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدّم لمدائحه بنسيب رقيق يحيِّى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشباب علىَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغرب إن الدهر ذو غِيَرِ
إذا الشبابُ مضَتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صِرْنا إلى الحُفَر
لنا من الشوق أكبادٌ مصدَّعــةٌ وأَعيُنٌ كُحِلَتْ بالدَّمْعِ والسَّهَر
سَقْياً ورَعْيًا لأَظعانٍ مُوَلِّيَةٍ فيها خَرائدُ كالغزلان والبقر
ودَّعتهنَ وداعاً زادنى كَمَدًا ما كان إلا كورْدِ الطائر الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنامن أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جدّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

## علی (١) بن يحيى المنجم

من أصل فارسى أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخُصَّ به ، ويقال إن جَدّ يحيى أبرسام البُزُرْج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما بِرُّه ، وأخذ نجم الأسرة فى التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين على ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبى ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصَفه له وقدَّمه إليه ، وأعْجب به المتوكل وقرَّبه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده فى ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده ، ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جلسائه ، وقلّده أعمال الحضرة ، وأقرَّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتمد ، فَحَظِىَ فى عهده حُظْوة كبيرة ، ووصله صلات سَنِيَّة ، وقلّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظَرْفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبَّة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات ، حتى

---

(١) انظر فى حياة على بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٥ / ١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغانى ( طبعة الساسى ) ٩/ ٢٢ وتاريخ بغداد ١٢/ ١٢١ ومروج الذهب ٤/ ١٩١ والنجوم الزاهرة ٣/ ٧٣ .

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يُعَدّ من رعاة الأدب فى عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغلّ الأموال الكثيرة التى كانت تُنْثَرُ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء فى إقامة مكتبة ضخمة ، مرّ بنا حديث عنها فى غير هذا الموضع ، وكان طلاّب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبذولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب فى عصره ، بل لعله كان أكبر رُعاتهما ، ولا شك فى أن ما عُرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذى جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صُنْعَ مكتبة له يباهى بها معاصريه . ومن تتمة ثقافته أن يُذْكَرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلى وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوُّق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت فى ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء فى سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعْنا بوضوح على أشعاره فى الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه فى رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت فى ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة فى المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله فى المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لابساً بُرْدَ النبىِّ محمدٍ ... بأَحسنَ مما أَقبل البدرُ طالعا
سَمِىُّ النبىِّ وابن وارثه الذى ... به استشفعوا أكرمْ بذلك شافعا
وكل عزيزٍ خشيةً منه خاشعٌ ... وأَنت تراه خشية الله خاشعا

وهو شعر متوسط ، شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ فى

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادرهم وفكاهاتهم . وهكذا دائمًا شعرهم ، فهو إنما يُعْجب فى لحظة قوله ، ولذلك كان يُرْوَى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز نفسه قصيدته فى الفتح بن خاقان التى أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء ذلك أشعار يصوّر بها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهرى إذ تنكَّر أننى ... صبورٌ على نكرانه غير جازعِ
وأنى أسوس النفس فى حال عُسْرها ... سياسةَ راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت فى حال اليسار أسوسها ... سياسة عَفٍّ فى الغنى متواضع
وأمنعها الوِرْدَ الذى لا يليق بى ... وإن كنت ظمآناً بعيد الشَّرائع

فهو يصوّر نفسه صابرة لا تجزع مهما ادلهمَّت الخطوب ، كما يصور نفسه لا تهون فى حال عسر أو شدة ، بل تتقبَّلها راضية قانعة كما تقبَّلت اليسر قَبْلاً مزدرية مغرياته فى تواضع غير مسفّ دون أى إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه الإلمام بأى وِرْد دنىّ مهما كان ظمآنَ ، كاظمًا لظمئه ، محتملا لحرارة عطشه . وله فى الطيف :

بأَبى واللهِ مَنْ طَرَقا ... كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤيتــه ... وحَشَا قلبى به حُرَقا
زارنى طَيْفُ الحبيب فما ... زاد أَن أغرى بِىَ الأَرَقا

وكأنما أراد أن يحاكى البحترى فى كثرة أشعاره التى نظمها فى الطيف . ولا شك أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به فى الأفق الذى يحلق فيه البحترى . ومرَّت بنا آنفًا رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبى هفان :

لربيع الزمان فى الحَوْل وقتٌ ... وابنُ يحيى فى كل وقت ربيعُ
رجل عنده المكارم سوقٌ ... يشترى دهره ونحن نبيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفى مقلمتهم ابن بسَّام ، وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع مرثيته له ، وهى مرثية جيدة .

## أبو بكر الصولى[1]

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولى من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب فى دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب فى بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار معه عليهم محارباً فى صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين فى ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره فى بغداد : أبى داود السجستانى وثعلب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحْسن لُعْبة الشِّطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها فى زمنه . وأكبَّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظير ، وجعله هذا الإكباب يُعْنَى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوَّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صفّ من الكتب لوناً ، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته فى لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحه ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدة . وكلَّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرَّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِناً ، حتى إذا ولى الخلافة اتّخذه نديمه ومستشاره . ويزورّ عنه الخليفة المتقى بعده فيترك بغداد إلى

---

(١) انظر فى أخبار أبى بكر الصولى وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٣١ وديوان المعانى للعسكرى ( انظر الفهرس ) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦ وله فى كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

بجكم التركى حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفّى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فيتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبّى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفى عرف تشيعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفرّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولى دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين فى مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومى وابن المعتز ، وصنّف كتباً جليلة فى أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل فى ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف فى دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر ولامَ من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه فى آفاق الشعر العليا التى تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولى شاعراً ناقداً عالمًا ، وكان متقّفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة فى عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التى كان يُنْشدها الراضى فى حفلات القصر وفى المناسبات المختلفة دوّنها بنفسه فى أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه فى المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها فى قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ المؤمنين المعتضدْ بحرُ جودٍ ليس يَعْدوه أَحدْ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلا قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتفى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلٌّ عليه ظَلِيلُ
ولولا بنو العباس عمِّ محمَّدٍ لأصبح نور الحق فيه خُمول
لكم جبلا الله اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوَّته ثم الخـلافةُ بعدها وما لهما حتى اللِّقاء حَوِيلُ(١)

وكلُّ ما فى القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولى كان يتكلف هذا المديح تكلفاً . حقّاً هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية ، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية ، وبالمثل ما رواه له عريب فى ذيل الطبرى من مديح للمقتدر ، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد فى مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف . وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة ، وقد تطول طولا مسرفاً ، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مردويج الثائر بأصبهان :

آنَسَ الله بالخليفة مُلْكاً مُوحِشَ الرَّبْعِ واهنَ التأسيسِ
يا نسيمَ الحياة أضحكت دهرًا كان لولاك دائمَ التَّعْبِيسِ
مرْدويجٌ بسيف حَظِّك مقتو لٌ فأَهْوِنْ بذاك من مَرْموس(٢)
قَصَفَتْهُ رياحُ أيامك الغُ رِّ فأَخْمَدْنَ منه نار المجوسِ
وتولَّتْ بمأتم الدَّهر أيا مٌ أتتنا تجرُّ ذيل العروسِ

والتكلف واضح فى الأبيات ، والصور لا تقع فى مكانها ، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة ، والخليفة نسيم الحياة ، نسيم أضحك دهراً كان عبوساً قمطريراً ومردويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء ، وخلعت الأيام سواد الحزن ، وجاءت تجر ذيول الفرح . كلام متلاصق ، وليس شعراً حيّاً نابضاً بروح ، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

---

(١) حويل : تحول .

(٢) مرموس : من الرمس وهو القبر .

خليفةٌ أُكْمِلَتْ فضائلُهُ ... ففَرْعُهُ طيِّبٌ ومَحْتِدُهُ
تعبَّـــد المجد فهو يَمْلكه ... طـــارفُه عنده ومُتْلَدُهُ
قد رضى الراضىَ الإلهُ لإصـ ... ـلاح زمان سِواه مفسدهُ
فهو بتفويضه الأُمور إلى اللـ ... ـهِ بحسن التوفيق يعضدهُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذلَّه ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نابية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستهلُّه على هذا النمط :

تَعَزَّ يا خير الوَرَى عن أَخٍ ... لم يَشُبِ الإخلاص باللَّبْسِ
كان صديقاً وافرًا ودُّهُ ... صداقةَ الأَنفس والجِنْسِ
تعزَّ عنه بنبيٍّ الهُدَى ... محمَّدٍ إذْ حَلَّ فى الرَّمْسِ

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزّى والتَّسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبوًّا شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودّ ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضًا فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس ، والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حَلّ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعًا أنه كان مواليًا للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلات ثَرَّة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبنى العباس ونظرنا فيما رُوى له من غزل لقيْتنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ من أجله مَنْ كان يشبهه    وكلُّ شِيء من المعشوق معشوقُ
حتى حكيتُ بجسمى ما بمقلتِه    كأن سقمىَ من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع فى ساعة الوداع ، وهى تسقط بيضاء سقوطاً متتابعاً على خدود حمراء حمرة الورد فى الربيع :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا    وهنَّ يطفئن لوعة الوَجْدِ
لم تر إلا الدموع جاريةً    تسقط من مقلة على خَدِّ
كأن تلك الدموع قطر نَدًى    يقطر من نَرْجس على وَرْدِ

وكان ينفذ فى أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التى تنبىء عن شاعرية جيدة من مثل قوله فى بيان إعجابه بغناء إحدى القيان :

وغناءٍ أرق من دمعة الصَّـ    ـبِّ وشكوى المتيم المهجورِ

وله فى وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعلة غريبة لا تقع إلا فى عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجاباً شديداً إذ يقول :

يكسر لى طرفاً به حمرةٌ    قد خلط النرجس فى وردِهِ
ما احمرت العين ولكنه    يكحلها من وَرْدَتَىْ خَدِّهِ

وكأن هذه الأبيات وما وراءها من أبيات فى الخمر لم نَرْوِها كانت تصدر عن نفسه ، مما جعل صياغتها سَوِيَّةً وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة فى بعض الأحيان . وله بجانب ذلك حِكَمٌ يصوِّر فيها عِبَرَ الدهر ومواعظه من مثل قوله :

يابانياً والدهرُ فى نقضه    يا راكضاً يسرع فى رَكْضه
يلهو وأيدى الموت أَخَّاذةٌ    من طوله طوراً ومن عرضه

فالإنسان يَبْنِى ، ولا يعرف أن داره ستنقضُ بعد أيام ، بل هو نفسه سينقضُه الدهر ويحيله ضعفاً من بعد قوة ، يوهن عظمه وينحل جسمه ، ويَحْنِى

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضًا خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولى فى كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

## ٢

### شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسى الأول ، وعمّ هذا الخمود فى هذا العصر التالى بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقيًّا للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة فى أحدّ صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويُعْلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم فى وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوَارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضًا شعراءه على النَّيْل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — بحبس الطالبيين فى سامرّاء[1] وأخذ يُنْزِل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم فى الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل فى حديثنا عن محمد بن صالح العلوى .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التى عرفناها فى العصر العباسى الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثنى عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة فى ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغى أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هى أن المذهب الشيعى الذى غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلا من أصوله ، فكان يعمل سرًّا وقلَّما عمل جهراً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيَّة ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلبًا لما فى أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحَنَقًا ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هى أنه قيل شعر شيعى كثير فى العصر ، وهو موزَّع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَنْشُدون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوى الآنف ذكره والحِمَّانى وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد[1] بن على بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن على بن أبى طالب ، وكان فى أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردِّد فى أشعاره نظرية بيته العلوى فى الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده على حين نزل بغَدير خُمّ إذ قال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدِّى وزيرُ المصطفى وابن عمِّه ... علىٌّ شهابُ الحرب فى كل ملْحَمِ
وأول من صَلَّى ووحَّد ربَّه ... وأفضل زوَّار الحطيم وزمزمِ
وصاحب يومِ الدَّوح إذ قام أحمدٌ ... فنادى برفع الصوت لا بِتَهمْهُمِ
جعلتك منى يا علىُّ بمنزلٍ ... كهرون من موسى النجىِّ المكلَّمِ

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ فى عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة فى الكوفة يحيى بن عمر الطالبى ، وكان قد تورَّع عن أخذ أموال الناس ظلمًا وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعًا زاهداً ناسكًا ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزَّقت جموعه ، وخَرَّ قتيلا ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضَجَّ الناس لمقتله وصَلْب رأسه ، ويُرْوَى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنَّأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حيًّا لعُزِّى به ، فلم يجبه

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجًا ، وهو يقول[١] :

إن وِترًا يكون طالبَه اللـ ـه لِوترٌ نجاحُه بالحرىّ

ونصب له الشيعة مأتمًا كبيرا ناح فيه الشعراء وبكو اطويلا ، ومرت بنا فى غير هذا الموضع مرثية ابن الرومى له ، وهى صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولا ذميمًا ، واصفًا لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبى طاهر[٢] :

سلامٌ على الإسلام فهْو مودِّعٌ إذا ما مضى آلُ النبىِّ فودَّعوا
فقدنا العُلا والمجد عند افتقادهم وأضحتْ عروش المكرمات تَضَعْضَعُ
لقد أقفرتْ دارُ النبى محمَّدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلْقَعُ
وقُتِّل آلُ المصطفى فى خلالها وبُدِّد شَمْلٌ منهم ليس يُجْمَعُ

وسرعان ما يثور فى نفس السَّنَة بطبرستان الحسن بن زيد العلوى سَليل الحسن بن على بن أبى طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعى أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه فى المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله[٣] :

قد رأينا مجالساً عطراتٍ هُيِّئَتْ عندنا لفَصْدِ الإمامِ
إنما غيَّب الطبيبُ شَبا المِبْ ضَع عندى فى مهجة الإسلام
سُرَّتِ الأرض حين صُبَّ عليها دمُ خَيرِ الوَرَى وأعلى الأَنام

والنزعة الشيعية واضحة فى الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستّر تشيعه ماكراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشىء إلا لأنهم

(١) الطبرى ٩/ ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .
(٢) مروج الذهب ٤/ ٦٤ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

يخاصمون آل على ، وربما اتخذ لذلك وسائل ماكرة ، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيق الكوفى ، إذ قال الرواة إنه استنفد شعره فى هجاء رجال الجيش العباسى ، يرميهم بالأبنة ، وصنع فى قُوَّادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيَّة ، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلحٌ القائد التركى فى طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلَّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرَّفض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خلَف الحسنَ بن زيد على طبرستان حين توفى أخوه محمدٌ ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الدَّيْلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهَّز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُثْخِنَ بالجروح ، وتوفى ، فدُفن بباب جُرْجان ، يقول المسعودى : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبىِّ القائل فيه[1] :

إن ابن زيدٍ كلَّ يوم زائدٌ     علا علوًّا لا يساويه أَحَدْ
لو صال بالطود إذن أذلَّه     أو زجر البحر إذن صار زَبَدْ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلْوانى ، نراه يغلو فى مديحه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول[2] :

لا تقل بُشْرَى وقُلْ لى بُشْرَيَانِ     غُرَّة الداعى ويوم المهرجان
ابن زَيْدٍ مالكٌ رِقَّ الزمانِ     بالعطايا والمنايا والأمانى
خُلِقَتْ كفَّاه مَوْتاً وحياةً     وحوتْ أخلاقُه كُنْهَ الجنانِ
مختفٍ فكرتُه فى كل شىء     فَهْوَ فى كل مَحَلٍّ ومكان

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتناءى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف فى الأذهان دان
كافرٌ بالله جَهْرًا والمثانى كلُّ من قال : له فى الخلق ثانِ

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا فى الدعوة الشيعية خطوات فسمّى نفسه الداعى ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسْبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر فى العيان ، وهو مختف فى كل مكان ، وهو لا تحدّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثانى السبع أو القرآن من يقول له فى الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى .

## محمد بن صالح العلوى (١)

من فتيان البيت العلوى وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُوَيْقَة فى بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسنيين أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حَجَّ بالناس فى نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيّته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيّدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نَخْلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامرّاء ، فحُبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتًا جيدة يعزّى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمّل بالصبر قائلا :

(١) انظر فى محمد بن صالح الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٦/٣٦١ ومقاتل الطالبيين للأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

طَرِبَ الفؤادُ وعاودَتْ أحزانُه ... وتشعَّبَتْ شُعَباً به أشجانُهُ
وبَدا له من بعد ما اندمل الهَوَى ... بَرْقٌ تألَّق مَوْهِناً لمعانُهُ
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ ... نظرًا إليه وردَّه سَجَّانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه ... والمـــاء ما سحَّتْ به أجفانُه
ثم استعاذ من القبيح وردَّه ... نحو العَزاء عن الصِّبا إيقانُه
وبَدَا له أن الذى قد ناله ... ما كان قدَّره له دَيَّانُه

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبثُّ فى أواثله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه، وينظر إلى البرق متطلعًا لليوم الذى تُرَدُّ إليه فيه حريته، فيعنف به السجَّان، ويحس كأن نار الوجد اندلعت فى ضلوعه ظَمَئًا إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل ّلا تجفّ ،ويرده إيمانه ويقينه، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيَّه . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتًا يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله ، فيُذْكَرُ له،ويكلمه الفتح فى أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفى يده وألا يبرح سامرَّاء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة. وتُرَدّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويُغْدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر. ونراه يبالغ فى التقية من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بِهَدْيهمْ ... ظهر الوفاء وبانَ غَدْرُ الغادرِ
وابنَ الذين حَوَوْا تُراثَ محمَّدٍ ... دون الأَقارب بالنصيب الوافر
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدِّقاً ... ومضَتْ به سُنَنُ النبيِّ الطاهر

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره فى سورة الأنفال : ( وأولوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ فى كتاب الله ) يريد أن العباسيين مقدَّمون فى وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام، لأن العم يتقدمهم فى الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام فى القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورَّط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجوارى والإماء ، فقد كان يَكْلَفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحتلُّ قلبه بجمالها ، ويُشْغَفُ بها شغفًا شديداً وفيها يقول :

لعمرُ حمدونةَ إنى بهـا  لمُغْرَمُ القلب طويلُ السَّقَامِ
مجاوزٌ للقدر فى حبها  مباينٌ فيها لأهل الملام
جَشَّمنى ذلك وجدى بها  وفَضْلُها بين النساءِ الوِسام
زَيَّنها الله وما شانهـا  وأُعطيتْ مُنْيَتَها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشمائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، فى مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتَّاب الديوان المجيدين وممَّنْ كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه وُدًّا حقيقيًّا وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمَّتَ أنثنى  إليك أبا عثمانَ عطشانَ صادِيا
وكنا إذا جِئْناك لم نَبْغِ مشرباً  سواك وروَّينا العظام الصَّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد فى الدواوين يُوليه فضلا كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمْضيان كثيراً من الليالى والأيام معًا لا يفترقان ، وله رائية طويلة فى مديحه ، وفيها يقول :

أَخٌ واساك فى كَلَبِ الليالى  وقد خَذَل الأَقاربُ والنَّصِيرُ
فإن تشكر فقد أولى جَمِيلاً  وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن فى العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رأيت بسامرًّا صبيحةَ جُمْعَةٍ عيوناً يروق الناظرين فتُورُها
تزور العظامَ الباليات لدى الثَّرَى تجاوزَ عن تلك العظام غَفُورُها
فلولا قضاءُ الله أن تَعْمُرَ الثَّرَى إلى أن ينادَى يوم يُنْفَخُ صُورُها
لقلتُ عساها أن تعيش وأنها ستُنْشَرُ من جَرَّا عيونٍ تزورها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصوّر شاعرية محمد بن صالح العلوى الفذّة ، ويُظِلّه عصر المنتصر فيصيبه فيه جُدَرِيٌّ ويلبى نداء ربه ،" ويرثيه غير صديق باكيًا خِصالَه الحميدة .

## الحِمّانى العَلَوِىّ

سُمى الحِمّانى نسبة إلى حى بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو على بن محمد بن جعفر العلوىّ ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة فى المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل إلى بغداد ، ونُفى منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك فى حَمْله حتى نزوله فى لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مجفوّة منذ مائتى سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه على ، وعُنيت الأم والأسرة بتثقيفه ، فلم يُحْسِن صنع الشعر فحسب، بل أحسن صنوفًا من الآداب وعلوم الشريعة ، مما جعل العلويين فى تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرّسهم ولسانهم ، كما يقول المسعودى . ونُمى إلى المتوكل أن فى داره سلاحًا وأن الشيعة يجتمعون عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجَّه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة ، فوجدوه يتعبَّد ربه فى غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطًا من الصوف ،

---

ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالديين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعانى ١ / ١٠٩ ، ٢ / ٦٥٨

(١) انظر فى الحمانى وأشعاره مروج الذهب ٤ / ٢٩ ، ٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات

ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنمًا بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقّ له ، وسأله : ما يقول آل بيتك فى العباس بن عبد المطلب ( جد العباسيين ) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتى يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُرِدِ الحِمّانى فى إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح فى الشطر الثانى من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرّ بنا أن الشعراء أكثروا فى عصر المتوكل من ذَمّ العلويين إرضاء له ، وكان من أكثرهم قَدْحًا فى على وآله على بن الجَهْم وكان ينتسب إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب فى أشعاره ، وكان طبيعيًّا أن لا يسكت الحِمّانى على هذا القَدْح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن على بن الجَهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح فى خلقه وعِرْضه على عادة الشعراء فى عصره ، وإنما بالقدح فى نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالى ليس قرشيًّا ولا فيه من القرشية شىء يقول :

وسامةُ مِنّا فأَمّا بنوه فأَمرهمُ عندنا مظلمُ
أناسٌ أتونا بأَنسابهم خــرافةَ مضطجعٍ يَحْلُمُ

وعرف على بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحِمّانى حزنًا شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعيًا لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذى نَكّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدّداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذى تَخلّف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجَلَداً وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتك أَسْتلينك فى الكلامِ
وعزَّ علىَّ أن ألقــاك إلا وفيما بيننـــا حَدُّ الحِسَامِ

وهو موقف كريم إذلم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما فى نفسه دون خوف أو وجل . وله مراث كثيرة فى يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتًا كريمًا ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه فى قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا فى عينيه ، حتى لتهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السُّقْيا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهْو كريم
وما مات حتى قال طلاَّب روحه سقى اللهُ يحيى إنه لصميم

ويصوّر فى مراثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراده دائمًا بين قتيل وجريح . وللحِمَّانى مراث كثيرة — بجانب مراثيه لابن عمه يحيى — فى أهله ، وفى أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضًا يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجَّع عليه تفجعًا شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عديل الروح فى جسدى شَقَّ الزمانُ به قَلْبى إلى كبدى
مَنْ لى بمثلك يا روحَ الحياة ويا يمنى يدىَّ التى شُلَّتْ من العَضُدِ
قد ذُقْتُ أنواعَ ثُكْلٍ أنت أبلغها على القلوب وأخناها على الجَلِدِ
فاليوم لم يبق شىء أستريح له إلا تفتَّت أحشائى من الكمد
قل للرَّدى لا يغادرْ بعده أحدًا وللمنيَّة مَنْ أحْبَبْتِ فاعتمدى
إن السرور تقضَّى ، بعد فُرْقتهِ وآذن العيشُ بالتكدير والنَّكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع . وللحِمَّانى

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهى تنُم على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

متى أرتجى يوماً شفاءً من الضَّنَا إذا كان جانيه علىَّ طبيبى

وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ، كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قلبى نظير الجبل الصعبِ وهمتى أكبر من قلبى
فاستخرِ اللهَ وخُذْ مُرْهفاً وافتك بأَهل الشرق والغرب
ولا تمتْ إن حضرت ميتةٌ حتى تميتَ السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوَّر ذلك فى أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب ويكره مفارقته لأنها تعنى فقده للحياة ، وكأنه — على بغضه له — يود أن لا يفارقه ، يقول :

بكى للشيب ثم بكى عليهِ فكان أعزَّ فقدًا من شبابِ
فقل للشيب لا تَبْرَحْ حميدًا إذا نادى شبابُك بالذهاب

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغانيات فقد ضل ذلك منه، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لقد كنت تملك أَلْحاظَهُنَّ فصِرْنَ يُعِرْنَك لحْظاً مُعارا
وأَصْبحْنَ أَعْقَبْنَ بعد الودادِ بِعادًا وبعد السكون النِّفارا

وله وصف كثير فى سُرَى الليل وفى اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات فى كتب الشعر ، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أى حركة قوله :

كأَّن نجوم الليل سارت نهــارَها ووافَتْ عِشاء وهْى أَنضاءُ أَسفارِ
فخَيَّمْن حتى تستريحَ رِكابها فلا فلكٌ جارٍ ولا كوكبٌ سارِ

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قصرى الخورنق والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترفّ فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله فى تلك القصيدة :

كم وقفةٍ لك بالخوَرْ نقِ لا توازَى بالمواقف
بين الغدير إلى السَّديـ ـر إلى ديارات الأساقف
دِمَنٌ كأن رياضَها يُكْسَيْنَ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلَها أوا خرُها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التى وقفنا عندها للحمانى أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قَرْنه . وقد توفى سنة ٢٦٠ للهجرة .

## المفجّع البصرى[١]

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبى فى اليتيمة أنه حين توفى ابن دريد العالم اللغوى الإخبارى المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه فى التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان فى الشعر ومعانيه . وفى كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعى وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجرى مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله[٢] ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

---

(١) انظر فى المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة للثعالبى ( طبعة محيى الدين عبد الحميد ) ٢/ ٣٦٣ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٧ / ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافى بالوفيات ( طبعة إستانبول ) ١/ ١٢٩ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ ( طبعة فان فلوتن ) ص ٩

ويبدو أن المفجع كان شيعيًّا إماميًّا ، فقد شاع مذهب الإمامية فى العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان — على ما يظهر — يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبى الهاشمى البصرى وفيه يقول :

للزينبىِّ — إلى جلالة قدره — خلقٌ كطعم الماء غير مزنَّدِ
وشهامةٌ تَقِصُ الليوث إذا سطا ونَدًى يفرِّق كل بحر مزبدِ[1]
يحتلُّ بيتاً فى ذؤابة هاشمٍ طالت دعائمه محل الفرقدِ
بضياءِ سنَّته المكارمُ تقتدى وبجـــود راحته السحائب تهتدى

وله قصيدة طويلة يمدح فيها عليًّا — رضى الله عنه — سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مسند إلى أبى هريرة ذُكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو فى محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ونوح فى همه وإبراهيم فى خلقه وموسى فى مناجاته وعيسى فى سِنِّه ومحمد فى هَدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل . فتطاول الناس فإذا هو على بن أبى طالب» . وعلى هُدَى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب على وهى تطَّرد على هذا النمط :

أيها اللَّائمى لحبِّى عَلِيًّا قُمْ ذميماً إلى الجحيم خَزِيًّا
أشبه الأنبيـــاء كهلا وزَوْلا وفطيماً وراضعاً وغَذِيًّا[2]
كان فى علمه كآدم إذ عُلِّـ م شَرح الأسماء والمكنيًّا
وكنوح نَجَّى من الهُلْكِ مَنْ سَـ يَّر فى الفُلْك إذ علا الجُودِيًّا[3]
وجَفَا فى رضا الإله أباهُ واجتواه وعَـــدَّه أجنبيًّا
كاعتزال الخليل آزَرَ فى اللـ ـه وهجرانه أباه مَلِيًّا[4]
ولو انَّ الوصىَّ حاول مَسَّ النَّـ ـجْم بالكف لم يجده قَصِيًّا

---

(١) تقص : تدق وتحطم .
(٢) الزول : الفتى .
(٣) الجودى : جبل بشمالى العراق .
(٤) آزر : أبو إبراهيم .

وطبيعى أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمى أقرب منها إلى الشعر الغنائى وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة فى مديح الزينبى أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضاً فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبى إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراتٌ تعتادنى عند ذكرا ... ك وذكراك ما تريم فؤادى
وسرورى قد غاب عنىَ مذ غب ... تِ فهل كنتما على ميعادِ
ليس لى مَفْزَعٌ سوى عبرات ... من جفونٍ مكحولة بالسُّهادِ
وبحسبى من المصائب أنى ... فى بلاد وأنتمُ فى بلادِ

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً فى أن يُقْبل أحياناً على الشراب ، إذا صح ما رُوى عنه من احتساء الخمر ، ونراه يصف مجلساً من مجالسها فى ليلة من ليالى الأنس بها ، يقول :

أداروها ولِلَّيْل اعتكارُ ... فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبى والليل داجٍ ... ألاحَ الصُّبْحُ أم بَدَتِ العُقارُ
فقال : هى العُقار تداولوها ... مُشَعْشَعةً يطير لها شَرارُ
ولولا أننى أمتاح منها ... حلفتُ بأنها فى الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات فى بعض الغلمان ، ومرَّ بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك ، ولذلك كان ينبغى ألا نصنع صنيع المستشرقين فى تضخيمهم لهذه السَّوْءة سواء عند المفجع البصرى أو عند غيره . ورآه « متز » ينظم قصيدة فى الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلا :

ألا يا جامع البَصْر ... ةِ لا خَرَّبك اللهُ
وسقَّ صحنَك المُزْنُ ... من الغيث فـروَّاه

فكم ظبي من الإنسِ مليح فيك مَرْعاه
نَصَبْنا الفَخَّ بالعلم له فيك فصِدْناه
وكم من طالبٍ للشِّعْرِ بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وَصْمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغْوى الصبيان فى الجامع المذكور ويستنزل العاصى الصعب منهم[1] . والدليل على أنه لم يكن خالص النية فى حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأَمر دِكذْبٌ ما ذكرناهُ
فلا يَغْرُرْك ما قلنا فما بالجِدِّ قُلناه

فالمفجَّع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها فى مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ فى المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المَقام فى مكان أستاذه ابن دريد يُمْلى ويحاضر الطلاب ، فما هى إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبَّى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

## ٣

### شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هى التى أقضَّت مضاجع الخلفاء فى هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيف لنفسه شعاراً علويًّا حتى يجمع العامة فى صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . ويهمنا الوقوف

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢ / ١٣١

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يـُعينهم أحيانـًا بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهي دائمـًا تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تـُعْنَى أي عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له في موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشْعِل فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعمـًا لها ، وفصّلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوّخت الدولة العباسية وعرّضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطـًا هائلاً على كبار الملاّك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم في كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أي رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمّع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لَجِبٍ اجتاح جنوبيّ العراق وكاد يجتاح العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم وازعيمهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وكان بطلا مغواراً لا يُشَقّ غباره ، وكانت الجيوش توالت في حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شر ممزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أي نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئـًا ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي ، ولكن زعيمها لم يمض بها في السعي إلى هذه الغايات كما كان يَعِدُ في أول ثورته ، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى ردّه الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاقَ على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترقّ طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحـًا لثورته أن يُضْفِي عليها مسحة دينية ، كما مر بنا في الفصل الأول ، فأشاع في الناس أن اسمه علي بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعي في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادى بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عامًا من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذى ظلت ثورته أربعة عشر عامًا أو تزيد ، والذى كان يُسْرِف فى القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل فى البصرة فى يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُنْهِب أصحابه الأموال ويَحْرِق الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائمًا يخطب فى أنصاره[1] . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره[2] . يقول المرزبانى : « تُرْوى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُنْكرها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ فى أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدى الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرْزَنِين بإيران ، وكأنه تلقَّن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعًا ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنِى عَمِّنا لا توقدوا نارَ فتنةٍ ... بَطِىءٍ على مَرِّ الليالى خمودُها
بنى عمنا إنا وأنتم أنامــلٌ ... تضمُّنها من رَاحَتَيْها عقودُها
بنى عمنا ولَّيْتُم التُّرْك أمرنا ... بديئاً وأعقاباً ونحن شهودُها
فأُقسم لا أُذُقْتُ القَراحَ — وإنْ أَذُقْ ... فبُلْغَةُ عَيْش — أو يُبارَ عميدُها[3]

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقًّا ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغى أن يستسلموا له فليسوا جميعًا إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدهم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجرى فى قصورهم من خمر ومجون ينبغى أن تبرأ منه

---

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها .

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة العيش : أقل ما يكفى . يبار : يهلك .

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لاقصور إثم وعصيان ، وفى ذلك يقول :

لَهْفَ نَفْسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حوتْه من كلِّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابن الفواطم الزُّهر إن لم أُقْحِم الخيلَ بين تلك العِراصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب . ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر فى جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتًا فى جهاده مخلصًا له فى أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلَّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ خرجنا وخَلَّفناه غير ذميمِ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف فى الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونشبت ثورة القرامطة ، وكان دعاتها يَصِلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا فى الفصل الأول . وكان غير ثائر من هؤلاء الدعاة يصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفًا لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسبًا يصله بزيد بن على زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى فى سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ فى تنظيم حركته القرمطية واضعًا لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغير بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفى فى ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زِكْرَوَيْه الدَّندانى ، ويرى — كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذى زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتسمَّى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهَّن لهم مدعيا أنه يُوحَى إليه ، وكشف لهم عن عَضُد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته ، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها فى لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه فى سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويَعيثُ فى الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، ودَحَرَ جيشًا للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبانى فى معجمه[1] . ونراه فى بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةِ ذا العالَم

وطئتُ الشامَ برغم الأَنامِ كوَطءِ الحِمام بنى آدم

وهى نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعًا لهم ، إنما كان متشيعًا لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرَّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية ، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيُّوق وسعد الذابحين ملوِّحًا للعامة التى تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه فى الموصل ومدينة الرَّحْبة التى بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة ، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما فى قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أَمرٌ قرانٌ قد دَنا منه النذيرُ

فمرِّيخُ الذبائح مستهلٌّ قَوِىٌّ ما لِوَقْدَتِهِ فتورُ

وعَيُّوقُ الحروب له احمرارٌ وسَعْدُ الذابحين له بدورُ

فبَشِّرْ رَحْبَتَىْ طَوْقٍ بيومٍ من الأيام ليس له نظيرُ

ورافقةُ الضلالةِ ليس يُغْنى إذا ما جئتها بابٌ وسورُ

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٣ .

وبغدادُ فليس بها اعتياصٌ على أمرى وليس لها نكيرُ
أُصبِّحها فأتركها هَشيماً وأَحْوِى ما حوته بها القصُور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجَنَّابى صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرْمط، وكلفه بنشر الدعوة فى جنوبى إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة فى سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلبى فى سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مرَّ بنا فى الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه فى شرقى الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قرمطى قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى الإسماعيلى، وكان شأنه قد أخذ يعظم فى إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذه ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة بالأموال، فكان طبيعيًّا أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل إلى أن يستولى على العالم الإسلامى كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظلّ حيًّا حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفى ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١):

فمَنْ مبلغٌ أهلَ العراق رسالةً بأَنى أنا المرهوبُ فى البَدْوِ والحضَرْ
فيا ويلهم من وقعةٍ بعد وقعـــةٍ يُساقون سَوْقَ الشَّاء للذَّبْحِ والبقَرْ
سأَصرفُ خيلى نحو مصرَ وبَرْقةٍ إلى قَيْرَوانِ التُّرْكِ والرُّومِ والخزَرْ
أَكيلُهمُ بالسيف حتى أُبيدَهم فلا أُبْقِ منهم نَسْلَ أُنْثَى ولا ذَكَرْ
أَعمَّر حتى يأْتِ عيسى بن مريم فيحمدَ آثارى وأَرضى بما أَمَرْ

وعزم فى سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها فى ألف فارس وخمسة

(١) النجوم الزاهرة ص ٣/٢٢٥

آلاف راجل ، فجهَّز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبى السَّاج ، والتقى الجيشان ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وجيشه ، وأُخذ أسيراً ، وأسرع مؤنس بجيش كثيف فى نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل ، والتقى بأبى طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقعه مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشى على نفسه مغبَّة الحرب، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخراً منه سخرية شديدة [1] :

قُولُوا لمُؤْنسكم بالرَّاح كُنْ أَنِساً ... واستتبع الراحَ سُرْنايأً ومزمارا

وقد تمثلتُ عن شوقٍ تقاذف بى ... بيتاً من الشعر للماضين قد سارا

نزوركمْ لم نؤاخذكم بجفوتكم ... إن الكريم إذا لم يُسْتَزَرْ زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التى عُرِف بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرْناى وغير السرناى ، ويستمر فى هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطْغى أبا طاهر الجنَّابى انتصاراتُه على جند الخلافة ، ويَغُرُّه بالله الغرور ، ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافى شهر ذى الحجة فى سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّرْوية، وهم يهللون لربهم ويُلَبُّون ، وهو وأنصاره يَنْحرون فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ للذبح، دون أى شفقة أو رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم فى فجاج مكة، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخُرقه أن أمر بطرح القتلى فى بئر زمزم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخَشْية من بأسه وبأس البويهيين . وجرَّد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٥٥ .

أهداها الخلفاء على مرِّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان فى أثناء هذا العمل الوحشى الفظيع يترنَّم بأشعار له مبتهجًا ؛ وكأنما كان يشفى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنْشده من هذه الأشعار التى يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله[1] :

ولو كان هذا البَيْتُ بيتاً لربِّنا  لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَبَّا
لأَنا حَجَجْنا حِجَّةً جاهليَّــةً  محلَّلةً لم تبق شرقاً ولا غرْبا
ولكنَّ ربَّ العرش جَلَّ جلالُه  ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْبَا

وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحًا غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت الله ، التى تُعَدّ ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفا فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه يتقدمهما خطوات فى الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحًا حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرمات بيت الله المقدس انتهاكًا ليس له سابقة ولا لاحقة فى التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول قليلا فى شاعرين ثارا على الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف .

### محمد[2] بن البعيث

من فتيان بنى أسد نزلت عشيرته فى أذْرَبيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من الفُتَّاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك فى تلك الديار قلعتين : قَلعة تسمى شاهى وأخرى تسمى بكدُر ، وكانت شاهى أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً . واشتهر أمره فى عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سَرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو فى أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسى وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٦٢ .

(٢) انظر فى ثورة محمد بن البعيث وأخباره الطبرى ٩/ ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤/ ٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجًا دون أن يُقْحم نفسه فى تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به فى غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرج عنه ، على ألا يبرح سامرّاء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرَنْد ، فجمع فيه عُدَده وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان فى داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجّه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجّه إليه بُغا الشرابي ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حواله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويئس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أمورًا كان أهملها غيرى وقد أخذ الإِبْلاسُ بالكَظَم[1]
لا تعذلينىَ فيما ليس ينفعنى إليكِ عنى جَرَى المقدارُ بالقَلَم
سأتلف المال فى عُسْرٍ وفى يُسُرٍ إن الجواد الذى يعطى على العدمِ

وتبعه نَفَرٌ من الجيش العباسي ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفًا يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحًى ليستخفى فى الرّحى ، وأخذوه أسيراً ذليلا ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأتِىَ بابنِ البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السّيّافون فلوّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقًا غاضبًا : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشقْوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإنّ لى فيك لظنّين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أَبَى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلى إمامَ الهدى والصَّفْحُ بالحُرِّ أَجْمَلُ
وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئةٍ وعفوُك من نور النبوة يُجْبلُ[2]
تضاءل ذنبي عند عفوك قِلّةً فَمُنَّ بعَفْوٍ منك والعَفْو أفضلُ
فإنك خير السابقين إلى العُلا ولا شك أَنْ خَيْرُ الفَعالين تَفْعَلُ

(١) الكظم : مخرج النفس من الحلق . الإبلاس : انقطاع الحجة .

(٢) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمُنُّ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفَّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفى الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدَّحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم فى عطائه ، وممن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى [1] بن أحمد من أهل مدينة الرَّحْبة فى الموصل ، وفيه يقول : «كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحاً كثيراً» منه قصيدة أولها :

لا زال محسودًا على أَفعـــالهِ ... وحَسوده فى الناس غيرُ محسَّدِ
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ ... أو عائدٍ متفضِّلٍ أو مُبْتَدِى
شَفْعاً ووِتْرًا كلّ ذاك فَعاله ... كالدهر إلا أنه لا يعتدِى
فالناسُ تحت لوائه من راغبٍ ... أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغْتدِى

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً ، وتارة يعفو عفواً رحيماً ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى أَلْقَ منْ آل البَعِيث محمَّدًا ... أَحلَّ رياضاً للعُلا بمحمَّدِ
وتضحك أم البِشْرِ عنى بنَيْلِهِ ... فأَرجـــع محسودًا بِنَيْلٍ محسَّدِ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطْع والسَّياف شاهر سيفه يريد أن ينقضَّ عليه وأن يحزّ رأسه ويزْهق روحه ، وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينى المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

---

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضبَ من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغًا خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرمًا . وهى قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية .

## بكر [1] بن عبد العزيز بن أبى دلف

حفيد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى الشيبانى البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولاَّه — وهو حَدَث السنّ — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوُفِّى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعراً وله مقطوعات تتردَّد فى كتب الأدب ، وهو ممدوح أبى تمام وعلى بن جَبَلة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أَبو دُلَفٍ بين باديه ومحتَضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّت الدنيا على أَثَره

وقد تولَّى إقليم الجبل ابنه عبد[2] العزيز وكان شاعراً، وشجاعًا باسلا، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا، فثارت ثائرة عبد العزيز وفَرَّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرْج بين همذان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَجْبى همذان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولَّى فى سنة ٢٨٣ عيسى النُّوشَرِىّ على أصبهان، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولَّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلُّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتَتَبَّعه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعَرَبِه .

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشر فى

---

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

دهلى باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراً غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الأَحِبَّةُ بالعراقِ عِصِيَّهُمْ ... وبقيت نُصْبَ حوادث الأيامِ
وتشعَّب العرب الذين تصدَّعوا ... فذببتُ عن أَحسابهم بحُسامى
فلأَقرعَنَّ صَفَاة دَهْرٍ نابَهم ... قَرْعًا يهدُّ رواسىَ الأَعلامِ
ولأَتركنَّ الواردين حياضَهم ... بقرارةٍ لمواطئ الأَقدامِ
يا بَدْرُ إنك لو شهدتَ مواقفى ... والموت يلحظ والصِّفاحُ دوامى
لذممتَ رأيك فى إضاعة حُرْمَتِى ... ولضاقَ ذَرْعُك فى اطِّراح ذِمامى
حرَّكْتَنى بعد السكون وإنمـا ... حَرَّكتَ من حِضْنِى جبالَ تِهام

وواضح من حديثه فى مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب فى عصره ، فقد تشعَّبوا وتَفرَّقوا شِيَعًا وطرائق شتى ، فعضَّهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يَرِدُها الأعاجم وغير الأعاجم، وها هو وحده يقف للدفاع عن عَرينهم ، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة . وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حِمىَ العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطئًا للأقدام، ويتحول إلى بدر المعتضدى واصفًا له مواقفه البطولية حين تُسَلّ السيوف وتسدَّد الرماح ويلتقم الموت الأبطال ، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها . ويبدو أن بدراً رأى أن يَكِلَ أمره إلى غيره ، فكلَّف عيسى النُّوشَرِىّ بمهاجمته ، وصَدَع لتكليفه ، ولكنه لم ينجح سريعًا فى مهمته ، واضطر فى بعض المواقف أن ينسحب بجيشه ، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه ، ويتهدد بدراً صاحبه ، من قصيدة طويلة :

ليس كالسيف مؤنسٌ حين يَعْرُو ... حـادثٌ معضلٌ وَيَفْدح أَمْرُ
أَوقدوا الحرب بيننا فَاصْطَلَوْهَـا ... ثم حاصوا فأَين منها المَفَرّ(١)
وبَغَوْا شَرَّنا فهذا أَوانٌ ... قد بدا شَرُّه ويتلوه شَرُّ

(١) حاصوا : حادوا .

قد رأى النُّوشَرِىُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاء فى قَسْطَلٍ لُهامٍ فَصُلْنَا صَوْلةً دونها الكماةُ تَهِرّ
غرَّ بَدْرًا حلمى وفَضْلُ أَناتى واحتمالى وذاك مما يَغُـرُّ

على أنه سرعان ما اضطُرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشرى فى حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت فى نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهاً إلى محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرَّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسموماً فى طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

**شعراء الوزراء والولاة والقواد**

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلباً للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَثْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسانٌ سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالى والقائد حين يُطْريه شاعر ويثنى عليه يطير اسمه فى الناس ، ولذلك كان كثيرون يَسْتَجْمِعُون الشعراء من حولهم ، لكى يعدّدوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان فى مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله(١) ، وهو من ممدوحي البحترى كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور(٢) :

ليس يُسْتَحْسَنُ فى شَرْعِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبى فنن الشاعر فى تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

ومثله من وزراء المتوكل فى كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضاً ، من ممدوحى البحترى ، ومن مادحيه [١] محمد بن غالب الأصبهانى والقنبرىّ [٢] ، وفيه يقول أبو هِفَّان يوم النَّيْروز وفيه تقدَّم هدايا كثيرة [٣] :

إذا نحن مدحناك رَعَيْنا حُرْمة المجدِ
وما استطرفتُ للإهدا ء إلا طُرَفَ الحَمْدِ

وكان يَزِرُ للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلبا للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه [٤] :

سَمَّوْهُ أحمد فالإسلامُ يحمدُه والدهر كاسم أبيه ممرعٌ خَصِبُ
فلا فضائل إلا منه أوَّلُها ولا مواهبَ إلا دون ما يَهبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّد البحترى فى ديوانه مديحه ، وتلقانا مدائح فى وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخانشاه وجعفر بن محمود الإسكافى . ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتَّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحْسن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وفى كتاب الأغانى ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قُدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسى [٥] :

أسفرَ الشَّرْقُ منك والغرب عن ضو ء من العَدْل فاق ضوءَ البدورِ
أنشر الناسَ غيثُكُم بعدما كا نوا رُفَاتاً من قبل يوم النُّشورِ [٦]

ووزر للمعتمد الحسن بن مَخْلد ، وكان ماهراً فى الكتابة ، وهو أيضاً من ممدوحى البحترى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٦٧ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤ .
(٦) أنشر : أحيى .

من ممدوحى البحترى ، ومدائح ابن الرومى وأهاجيه فيه مشهورة . ويُكثر البحترى وابن الرومى معًا من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفى ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتدور أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفى ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف[1] :

يتلقَّى النَّدَى بوجهٍ حَيِيٍّ وصدورَ القَنَا بوجهٍ وَقَاحِ
هكذا هكذا تكون المعالى طُرُقُ الجِدِّ غير طُرْق المِزَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدائح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحًا مستقلا من مثل قوله فى أبى عبد الله البَرِيدىّ وزير الخليفة المتقى[2] :

ما رأى الناسُ بالوزير البريد ىٍّ كذا اليومِ منه حُسْناً وفخرا
الذى يعشَق المكارم والمج دَ ويَشْرِى بالمال حمدًا وشكرا

ولعل أكثر الولاة مديحًا فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحترى وابن الرومى فيهم ، وممن كان منقطعًا إليهم أبو الأشعث المروزى[3] . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة[4] :

حَمَى طاهرٌ شرقَ البلاد بيُمْنِهِ وشعثُ النواصى لا تجفُّ لبودها[5]
يُنيخ بها أرض العدو ويبتنى مــآثر مَجْدٍ كان قِدْماً يَشيدها

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤ .
(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى ص ٢٠٢ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .
(٥) شعث النواصى : الخيل .

وممن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبى فَنَن ، وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلحّ عليه فى طلب عُشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من قصيدة طويلة(١) :

أبنى حُسَينٍ إننى أَصبحتُ فى كنف الأَميرِ
ولنا معاشٌ فى قطيـ ـعتهِ على الماءِ النَّميرِ
لولا تردُّد عـــاملٍ كالكلب فى يومٍ مطيرِ
فهل الأَميرُ بجوده من قبْح طلعته مجيرى

فلما قرأ محمد القصيدة وقَّع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك — وكان فى كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف عليه أن يقبلها . قال ابن أبى فنن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه فى كل عام بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة ، وهو من ممدوحى البحترى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى ولى الدواوين فى سامرَّاء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحترى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمديحه وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول(٢) :

إنما لذَّتاك فى المال شَتَّى صَوْنُك العِرْضَ وابتذال المالِ
ما نبالى إذا بقيتَ سليماً من تولَّتْ به صُرُوفُ الليالى

ومرَّ بنا فى حديثنا عن البحترى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وسيما الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرىِّ ، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظم فى مديح القواد ، إذ تشير

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥ .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠ /٣٦ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصوّر بطولة قواد العصر إلا ما نُظم فى الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد فى عصره وخاصة فى مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد فى عصر الراضى ، وكان يتحكم فى شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة [1] . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا فى الدواوين أولا — وممن كان ممدَّحًا منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتمد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبَّجُوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبى هِفان [2] :

الثوابىّ فتىً ليس له ... فى سوى السؤددِ والمجد وَطَرْ

وقوله [3] :

نفسى فداءُ أبى العباس من رجلٍ ... لم يَنْسنى قَطُّ فى نَأْىٍ ولا كَثَبِ

يقرى وبالرَّقة البيضاء منزلُه ... من بالعراقين من عُجْمٍ ومن عربِ

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم فى أضواء أكثر وضوحًا ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبى طاهر وابن دُرَيْد .

### أبو على [4] البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت فى حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريراً

(١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.

(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥.

(٤) انظر فى أخبار أبى على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣ /٩٥ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤

ولُقِّب البصير على العادة فى التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعىَّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيَّة ، ولذلك لم ير بأسًا فى أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامرَّاء . ونزل الأخيرة فى خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفى الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودى : « كان من أطبع الناس فى زمانه لا يزال يأتى بالبيت النادر والمثل السائر الذى لا يأتى به غيره ، وله فى الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع – ما نخشى – بهِ      وبه – نُصْلح منا ما فَسَدْ

ينجز الناس إذا ما وعــدوا      وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة فى البيت الثانى ، فالفضل لا يزال يُؤدى وعوده وكلما أدَّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فَيْضه ، ومن طريف ماله فى الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها      إذا عضَّ مَتْنيه الثِّقافُ تأوَّدا

سوى ما رأينا لامرىء القيس إننا      نراه متى لم يشعر الفَتْحُ أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً      ونحسبه إن رام أكْدَى وأصْلدا(١)

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه      وسار فأضحى قد أغار وأنْجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبى الشعر العربى كله . وصوَّره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الرائى أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع فى طول البلاد وعرضها وفى حَزْنها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له فى ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان فى مدح آل البيت .

(١) أكدى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظنًّا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ، وفيها يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ   غلاماً فأبهجنى ما ذكَرْ
فعمَّرك اللهُ حتى ترا   ه قد قارب الخَطْو منه الكِبَرْ
وحتى ترى حوله من بَنيه   وإخوته وبَنيهم زُمَــرْ
وأوزعك الله شكرَ العطاء   فإن المزيدَ لعبدٍ شكر
وصَلَّى على السَّلف الصَّالحـ   ـين منكم وبارك فيمن غبَرْ

وكان يؤذى نفسه إيذاء شديداً أن يقدّم شعره أحيانًا لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزَّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعــاً   فما منكم على شكرى حريصُ
وأرخصتُ الثناءَ فعِفْتموه   وربَّتما غلا الشَّئُ الرخيص
فعفتُ نوالكم ورغبتُ عنه   وشَرُّ الزاد ما عاف الخَصِيصُ[1]

ولعل شخصًا لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلَّى بن أيوب أحد قواد الجيش ، ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمان مُصْميان ، إذ يقول فيه :

لعمُر أبيك ، ما نُسب المعلَّى   إلى كرمٍ وفى الدنيا كريـمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرَّتْ   وصَوَّح نَبْتُها رُعِىَ الهَشيم[2]

وكان يحسّ فقده لبصره إحساسًا عميقًا ، ولكن ذلك لم يكسر نفسه ولا أصابه بهوان ، إذ نراه يُدل بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب المخلّدة ، أما علمه فدفتره القلب وحِبْرُه السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئًا إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخصيص : من الخصاصة ؛ وهى الفقر والاحتياج .

(٢) اقشعرت : أجدبت . وصوّح : يبس .

لئن كان يهديني الغلام لِوجْهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القومُ بى فى أمورهم ويخبو ضياءُ العين والرَّأىُ ثاقب

وهو كثير السخرية فى أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبى العيناء الضرير ويُرْوَى أنه قال له: إنى وُلدت وقت طلوع الشمس، فقال له توًّا: لذلك خرجت مُكَدِّيًا ( شحاذاً ) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

ألمّتْ بنا يومَ الرَّحيل اختلاسَةً فأَضْرَم نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ[1]
تأَبَّتْ قليلا وهْىَ تُرْعَدُ خِيفةً كما تتأَبَّى حين تعتدل الشَّمْسُ
فخاطبها صَمْتى بما أنا مضمرٌ وأنبسْتُ حتى ليس يُسْمَعُ لى حِسُّ[2]
وولَّتْ كما وَلَّى الشبابُ لِطيَّةٍ طوت-دونها كَشْحاً على نفسها-النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوبة التفكير ، وكأن البصير روى لنا قصة لامجرد خطرات فى الحب والوجد. وكان يشارك أحيانًا فى الخمر والمجون واللهو، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج، صوَّر فيها نفسه ألمَّ بالكوفة والأديرة القائمة حولها فى الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب فى أحد الأديرة ويتزوَّد من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أثقالنا ، وسار الناس وأقاما ، يقول :

خرجنا نبتغى مكـ ـة حُجَّاجاً وزُوَّارا
فلما شارف الحِيرَ ةَ حَادِى جَملى حارا
فقلت : احْطُطْ بها رَحْلِى ولا تحفِلْ بمن سارا
فقضَّينا لُبَانَاتٍ لنا كانَتْ وأوطارا
وما ظنك بالحَلْفا ء إنْ أَشْعَلْتها نارا

(١) الخلس : المختلس .
(٢) أنبس : همس بكلامه .

ويقال إنه تغيّر عقل أبى على البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ، فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفى ذلك يقول :

خَبَا مصباحُ عقلِ أبى علىٍّ    وكانتْ تستضيىء به العقولُ
إذا الإنسان مات الفهم منه    فإن المـوت بالباقى قليل

ولعل فى كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقًّا وأنه كان خِصْب الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجابًا وبشعره استحسانًا .

## أحمد [1] بن أبى طاهر

اسم أبى طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به فى بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل الأسرة من مَرْو ، ويقال إنها من سُلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم فى بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما تحوَّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد فى أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى فى تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخى للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذى يشتمل على أبرع الرسائل المدوَّنة فى العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردًّا على ابن الرومى وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيَّع ، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعىّ سوى القصيدة التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع والتى رثى بها يحيى بن عمر الطالبى المقتول بالكوفة فى زمن المستعين . ويبدو أنه كان إماميًّا يأخذ بالتقيَّة ، ولا يجد بأسًا فى مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

(١) انظر فى أخبار أحمد بن أبى طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٤ / ٢١١ ومعجم الأدباء ٣ / ٨٧ وكتاب الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان المعانى ١ / ٤٨ ، ٩٤ والموشح للمرزبانى ص ٣٥١ .

وفتحوا له جميعًا أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب فى فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذى أرَّخ فيه للدولة وخلفائها . وفتَح لهكتاب المنثور والمنظوم أبواب الأدباء لا فى بغداد وحدها ، بل أيضًا فى سامرَّاء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة. وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعًا ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مُؤدِّبَ كُتَّابٍ عاميًّا ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى ببغداد ، وليس فيمن شُهر بمثل ما شُهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفًا منه ولا أبلد علمًا ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدنى شعراً يعرضه علىّ فى إسحق بن أيوب لحنَ فى بضعة عشر موضعًا منه وكذا قال لى البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبى طاهر — كما فى كتاب الموشح للمرزبانى — يصف البحترى باللحن فى شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس فى شعره الذى بين أيدينا ما يصوّر هذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادى — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسْبغون عليه جوائزهم من مثل قوله فى أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أَبا الصَّقْرِ لا زالتْ من اللهِ نعمةٌ ... تجدِّدها الأَيامُ عندك والدَّهرْ
ولا زالتِ الأَعيادُ تمضى وتنقضى ... وتَبْقَى لنا أَيامُك الغُرَرُ الزُّهْرُ
فإِنك للدنيا جمالٌ وزِينَــةٌ ... وإِنك للأَحرار ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ
رأَيت الهدايا كلها دون قدركم ... وليس بشىءٍ عند مقداركم قَدْر
فأَهديتُ من حَلْىِ المديح جواهرًا ... مفصَّلةً يُزْهَى بها النظم والنَّثر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم فى أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبى طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يَدَ شاعر صَنَاع هى التى كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة قصيدته فى أبى أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد فى حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهى تلتقى بقصيدة تُرْوَى لابن الرومى سبق أن أنشدنا منها فى ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا فى أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبى طاهر فى مديح أبى أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لم يكن حَذِرًا من حَدِّ صَوْلَتِه ... لم يدر ما المزعجان : الخوف والحَذَر
حُلْوٌ إذا أنتَ لم تبعثْ مرارته ... فإن أَمرَّ فحُلْوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائق إلا أنه خَشِنٌ ... لَيْنُ المهزَّة إلا أنه حَجَرُ
إذا الرجال دَجَتْ آراوهم وعَمُوا ... بالأمر رُدَّ إليه الرَّأْىُ والنظر
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتياب بهِ ... إذْ جودُ كلِّ جوادٍ عنده خَبَرُ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استُعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهى أبيات — إن صَحَّ أنها لابن أبى طاهر — تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة فى سرقات البحترى تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربى على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكم فى القصيدة التقسيم كما فى الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعانى والألفاظ على نحو ما يتضح فى الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكم — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذى يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله فى أبى العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّـا نخاف من الزمـا ... ن عليك إذ عمِىَ البَصَرْ
لم نَدْرِ أَنك بالعَمَى ... تَغْنَى ويَفْتَقِرُ البَشَرْ

وكان يتعرض أحيانًا للمبرِّد ، فيخشى معرَّة لسانه ، ويقال إنه استقبله فى

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ فى إكرامه ، فأطعمه غذاء طيبًا ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه فى الحديث ، مؤملا أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويومٍ كحرِّ الشَّوْقِ فى صَدْرِ عاشقٍ ‏ ‏ على أنه منهُ أَحرُّ وأَرْمَدُ
ظللت به عند المبرِّد قائلا ‏ ‏ فما زلتُ فى أَلفاظه أَتبرَّد[١]

فقال له المبرّد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تذم، ومالك عندى جزاء إلا أن تَغْرُبَ عن عينى . فتركه وهو يضحك من أثر دعابته فى نفس المبرد شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل قوله :

حبيبي حبيبٌ يكتم الناسَ أنه ‏ ‏ لنا - حين ترمينا العيونُ - حبيبُ
يباعدنى فى الملتقى وفــؤادُه ‏ ‏ - وإن هو أَبدى لى البعادَ - قريبُ
ويُعرض عنى والهوى منه مقبلٌ ‏ ‏ إذا خاف عَيْناً أَو أَشار رَقيبُ
فتخرَسُ منا أَلسنٌ حين نلتقى ‏ ‏ وتنطق منا أَعْيُنٌ وقلوبُ

فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكَلَفِ والوَلَع ، يتجرع غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما فى ضميره ، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوشاةُ بمجلسٍ ‏ ‏ فليس لنا رُسْلٌ سوى الطَّرْف بالطَّرْفِ
فإن غَفَلَ الواشون فُزْتُ بنظرةٍ ‏ ‏ وإن نظروا نَحْوى نظرتُ إلى السَّقف

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة فى الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرّط فيه ، بل شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجرى بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

---

(١) قائلا : مستريحا وقت القيلولة ؛ وهى نصف النهار .

عن عذابهما فى الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ، يقول :

عرفتْ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقيبِ  وأشارتْ بلحظِ طَرْفٍ مُرِيبِ
وشكتْ لوعةَ النَّـوَى بجفونٍ  أعربتْ عن ضمير قَلبٍ كئيب
رُبَّ طَرْفٍ يكون أفصحَ من لَفْـ  ـظٍ وأبْدَى لمُضمَراتِ القلوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النَّوَى وحرقة الحب بعيونها ، واصلة نظرها الشَّزْرَ إلى الرقيب بنظرها اللَّين إليه مُعْرِبة عن ضميرها وما يخفى فى صدرها من الحب له والكلَف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ، يقول :

ألاحظُها خوفَ المراقب لحظةً  فأشكو بطَرْفى ما بقلبى من الوَجْدِ
فتفْهَمُهُ عن لَحْظِ عينى بقلبها  فتومى بِطرْفِ العين أنى على العَهْدِ

فهما دائمًا يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة ، يقول :

كتبتُ إلى الحبيب بكسر عينى  كتاباً ليس يَقْرَؤُهُ سِـوَاهُ
فأخبرنى تورُّدُ وَجْنَتَيْهِ  وكَسْرُ جفونه أن قد قَرَاهُ

ولعل فى كثرة رسوم ابن أبى طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسِّه من طرف وثراء خواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفى كثير من هذه الرسوم براعة فى التصوير كما نرى فى البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله فى إحدى المحجَّبات اللائى شُغف بهن :

حجابٌ فإن تبدو فللدَّمع جـولةٌ  يكون له من دون رؤْيتها سِتْرَا

فهو دائماً منها فى حجابين، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائماً ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلا عن أحد الرواة أنه كان يلمّ ببعض الأديرة أحياناً فى طريقه إلى سامرّاء أو بعد رجوعه منها ، ويُنْشد له خمرية ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا فى بعض أحوال عارضة . وما زال يُعْنَى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفى سنة ٢٨٠ للهجرة .

## ابن [(١)] دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار، وقد استوطن أبوه البصرة، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين فى عصره . وقد أكبّ على محاضرات الرّياشى وأبى عثمان الأشْنَانْدانِىّ وأبى حاتم السجِستانى وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلا شديداً فرّ مع عمه الحسين إلى عُمان وطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثنى عشر عاماً إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائيًّا ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل وتثقيفه . ويلبّى الدعوة ، ويرحب به الوالى ترحيباً عظيماً ، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم فى الوالى وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التى عرضنا لها فى حديثنا عن الشعر التعليمى وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطْبَعُ فى عصرنا بشرح التبريزى وبشروح

(١) انظر فى ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨/ ١٢٧ ونزهة الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٩ ولسان الميزان ٥/ ١٣٢ وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٧٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٢ / ٣٣٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٤٠ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه فى القاهرة .

أخرى وتكثر تخميساتها على مرّ القرون . وفى أثناء عمله عند ابن ميكال ألّف الجمهرة لابنه إسماعيل ، وهي معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائى ثم بالثلاثى ثم بالرباعى ثم بملحقه ثم بالخماسى والسداسي وملحقاتهما ، وجمعَ النوادر فى باب منفرد . أملاها أولا فى فارس ، ثم أملاها فى البصرة ثم فى بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل، كى يحسن العربية ،كتاب الأربعين حديثًا ، قصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالبًا كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هى التى ألهمت بديع الزمان مقاماته[١] . ويبدو أنه ألّف عند ابنى ميكال كثيراً من مصنفاته ، ومما نُشر له منها فى عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش فى رحاب ابنى ميكال حتى عُزلا عن فارس، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه، فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفى سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عامًا . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التى ذكرناها آنفًا ، وقد حلّلناها فى حديثنا عن الشعر التعليمى ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبى العباس إسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العَيْشَ الذى رَنَّقَــهُ ... صَرْفُ الزمان فاستساغ وصَفَا[٢]

وأجــريا ماء الحَيَا لى رغَــدًا ... فاهتزَّ غُصْنِى بعد ما كان ذَوَى[٣]

إن ابن ميكال الأميرَ انتاشنى ... من بعد ما قد كنت كالشىء اللَّقَا[٤]

ومَدَّ ضَبْعَىَّ أبو العباسِ من ... بعد انقباض الذَّرْعِ والباعِ الوَزَى[٥]

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف — الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدره .

(٣) الحيا : الغيث والخصب .

(٤) انتاشنى : تناولنى . واللقا : المرمىّ فى عرض الطريق لا يعبأ به .

(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه : بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى عَلا فوق العُلا
لو كان يَرْقَى أحدٌ بجودِهِ ومجده إلى السَّماء لا رْتَقَى
ما إن أتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أُوارى عَلَم إلا ارْتَوَى[1]
نَفْسِى الفِداءُ لأَميرىَّ ، ومَنْ تحتَ السماء لأَميرى الفِدا

وطبيعى أن يُعْنَى ابن دريد فى هذا المديح بإدماج شىء فيه من الألفاظ الغريبة ، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متناً لغوياً ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ، فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك ، فهى لا تتعمق فى الإغراب ، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها فى الغريب وألفاظه من مثل قوله فى أبى أحمد حُجْر الجويمىّ أحد رجالات فارس النابهين :

حُجْرُ بن أحمد فارعُ الشرف الذى خضعتْ لعزَّته طُلَى الأَعناقِ[2]
انظرْ أَنامله فلسنَ أَناملاً لكنهن مفاتحُ الأَرْزَاقِ
وانظرْ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبَعْ بِريْن محاقِ[3]

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة فى عمه الحسين بن دريد الذى تعهد تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية فى محمد بن جرير الطبرى عَلَم الدراسات الدينية والكتابات التاريخية فى عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلف به رجلا بل أَتلفتْ علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو شاربُه والآن أصبح بالتَّكدير مَقْطوبا[4]
كلا وأَيامِه الغُرِّ التى جُعلتْ للعلم نوراً وللتقوى محاريبا

---

(١) الندى : الكرم . المعتفى : طالب النوال والأوارى : النار . العلم : الجبل .
(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .
(٣) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .
(٤) مقطوباً : ممزوجاً .

وتُنْسب له قصيدة فى ذكرى الرسول عليه السلام نشك فى نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت فى عصر متأخر . وله قصيدة طويلة فى رثاء الإمام الشافعى ، أو بعبارة أدق فى بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأيِ ابنِ إدريسَ ابن عمٍّ محمَّدٍ ضياءٌ - إذا ما أظلم الخطبُ - صادعُ
إذا المعضلاتُ المشكلات تشابهتْ سما منه نور فى دُجَاهُنَّ ساطع
أَبَى اللهُ إلا رَفْعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهى قصيدة بديعة . وبحقٍّ يقول المسعودى إنه كان يذهب فى الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرقّ ، وطوراً يصبح بدويًّا متعمقًا فى الفلوات وفى وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضريًّا يصف الرياض والزهور ، ومن قوله فى النرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُّقَادُ ولا يمحو محاسنَها السُّهادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المصفَّى صياغةَ مَنْ يدين له العباد
وأجْفانٌ من الدُّرِّ استفادتْ ضياءً مثلُه لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضارى عنده أن نجده يتغزل أحيانًا غزلا رقيقًا ، من مثل قوله واصفًا مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعًا شركاء له فى الحب وضَنَاه :

أُعاد من أَجلك لا من ضَنًى وسائر العُوَّاد أَشراكى
ولست أَشكوك إلى عـائدٍ أخـاف أَن أَشكو إلى شاكى

فالناس يزورونه من ضَنَاه فى حب صاحبته لا من ضَنا مرضٍ أَلمَّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه فى حبها ولا من وصَبَه فيه ، لأنه يراهم جميعًا مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط فى الخمر وإثمها ، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه فى شيخوخته إنه كان يستحى مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمراء قبل المَزْج صفراء بعــده أَتتْ بين ثَوْبَىْ نَرْجِسٍ وشقائقِ
حكتْ وجْنَةَ المعشوق صِرْفاً فَسَلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتستْ لونَ عاشِقِ

ويقال إنه عرض له فى أواخر عمره فالج (شلل) وسُقى الدرياق فبرئ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته. ثم مرض به ثانية، وظل سنتين توفِّى فى نهايتهما، وتصادف أن كانت وفاته فى نفس اليوم الذى توفى فيه أبو هاشم الجُبَّائى المتكلم المعتزلى المشهور، ودُفنا معًا ببغداد فى مقبرة الخيزران.

٥

## شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائض، وحل محله شعر شعوبى أحيانًا، ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاءً شخصيًّا يتعرض للأعراض مزريا بالمهجوِّين محقرًّا لهم ومهوِّنًا. ونستطيع أن نطرد هذا الحكم فى العصر العباسى الثانى، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت ناره بدوره. ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل، فلما ضعف شأنهم فى العصر وحل الترك محلهم فى السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفَّت حدَّة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً، وحتى هذا النادر لم تحتفظ به المصادر إلا قليلا جداً، لأنه لم يكن لشعراء نابهين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عُنِى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم[1]، ولم يبق من افتخاره شىء. وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام فى العصر، وسبق أن لاحظنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراءه أكثروا فى هجائهم من القول الفاحش المقذع فى الأمهات والأخوات وظل ذلك فى هذا العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة، لن نقف عندها، إنما نقف عند الهجاء غير البذىء، وكانت نيرانه مضطرمة طوال العصر، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩.

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصَّر فى عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجرُّهم المنافسة إلى الدخول فى معارك هجاء حامية الوطيس . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء[١] . وإذا صح هذا عن البحترى الذى كانت تُفْتَحُ له الأبواب الموصَدة ، وكان يمشي — بفضل جوائزه الكثيرة — فى موكب من عبيده فضلا عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا فى الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومرَّ فى حديثنا عن ابن الرومى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبرٌ فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الرومى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يُسْهمون في هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصُّون به الوزراء حين يَحْرمونهم الجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدَّحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلِّط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دَنْدن فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد[٢] :

وإن ابن يَزْداد لأحولُ حُوَّلٌ ... ولكنه يَقرَا (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ)
فقُلْ لعبيد الله أحييتَ دولتىْ ... مكاسير زَمْنَى (عُطِّلت) فتحيَّرتْ
وأنت — إذا مُيِّزْت — أبلُّا منهمُ ... فصوتكمُ : حَىَّ المنازلَ أقفرتْ

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عُطلت) الواردتين فى سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة فى وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم[٣] :

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٣٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

إن زماناً أنت مستوزرٌ فيه زمانٌ عَسِرٌ أنْكَدُ
يذمّك الناسُ جميعاً فما يلقاك منهم أحدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة فى عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد فى الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثًا ، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير (١) :

للدواوين – مذ وليتَ – عويلُ ولمال الخراجِ سقمٌ طويلُ
يتلقى الخطوبَ حين ألمَّتْ منك رأىٌ غَثٌّ وعقلٌ ضئيلُ
إن سمنتم من الخيانة والجَوْ رِ فللإرتفاع جسمٌ نحيلُ

وكان الخاقانى معروفًا بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيهم الأعمال ، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل ، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقُطّاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى من قصيدة طويلة (٢) :

يا سماءُ اسْقُطى ويا أرضُ ميدى قد تولّى الوزارةَ ابنُ البَرِيدى
هُدَّ ركنُ الإسلام وانهتك المل ك ومَحَّتْ (٣) آثاره فهْو مُودى
فاستهلّى ياعينُ بالدمع سَحًّا وقليلٌ أن تَذْرفى وتجودى

ومرَّ بنا آنفًا أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى ، وممن تعرَّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبى الجنوب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصّه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

(١) الفخرى ص ١٩٨ .
(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .
(٣) محت : درست .

الجهم ، وكان أكثر توقراً منه فى هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُّ فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبى نعامة الدقيق ، ويكويه بمثل قوله فى نعت شعره (١) :

رأينــــا البَرْدَ مشتَدًّا فساءلْنا عن القصَّه
فقالوا مُنْشِدٌ يُنشد ه شعرَ ابن أبى حَفْصَه

وكان أبو نعامة كما مَرَّ بنا شيعيًّا وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة فى أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجــمّــاز فى الجاحظ (٢) :

يا فتى نفسُــه إلى مِلَّة الكُفْر تائِقَــهْ
لك فى الفضل والتزه دِ والنُّسْك سابِقه
فدَعِ الكفرَ جانباً يا دَعِيًّ الزنادقه

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام فى عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتانًا . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر فى محمد بن يزيد المبرّد العالم النحوى المشهور (٣) :

سألنا عن ثُمالةَ كلَّ حَيٍّ فقال القائلون ومَنْ ثُمالَهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهمُ جَهَالَهْ

وثمالة هى عشيرة المبرد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهوينا بعيداً للمبرد وأنه خامل الذكر ، وكان قد طبَّق آفاق البلاد العربية شهرة فى عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره فى كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة فى رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة فى الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة فى الهجاء من

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .
(٣) ديوان المعانى ١٧٨/١ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف فى أبى الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعنةً له فى الصميم(١) :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى من نعجةٍ تكنى أبا الشِّبْلِ
لما اكتنيْتَ لنا أبا الشِّبْل ووصفتَ ذا النقصان بالفضل
كادتْ تميد الأَرضُ من جَزَعٍ وترى السماء تذوب كالمُهْلِ

وهى تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعًا ، وكأن يوم القيامة حل موعده ، فالسماء تذوب كالمُهْل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين فى العصرهم الصَّيْمرى والحَمْدونى وابن بَسَّام .

## الصيمرىّ (٢)

هو أبو العَنْبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصَّيْمُرة فنُسب إليها ، وهى نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامرَّاء فى عصر المتوكل فقرَّبه منه واتخذه نديمًا له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتنديد ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم فى الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله فى إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين ، فى سامرَّاء وبغداد :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر فى الصيمرى وأخباره وأشعاره كتاب الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٧٣ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ٢٣٨ ومروج الذهب ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والوافى بالوفيات ٢ / ١٩١ .

أَسَلُ الذى عطَف المــوا كبَ بالأَعنَّة نحو بابكْ
وأذلّ مــوقفىَ العزيـ زَ على وقوفى فى رِحابكْ
وأراك نفسَك مالــكا مالم يكن لك فى حسابك
ألاّ يُطيل تجرُّعى غُصَص المنيَّة من حجابك

وله خبر طويل مع البحترى هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدَّث الرواة أنه كان من عادة البحترى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة متقدمًا ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومَنْ فى مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك ، فأقبل على الصيمرى والبحترى ينشده مدحته فيه :

عن أىِّ ثغرٍ تبتسمْ وبأَى طَرْفٍ تحتكمْ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بلَى ، فمُرْنى فيه بما أحببت ، فقال: اهْجُه على هذا الرَّوِىِّ ، فحضرتْه على البديهة قصيدةُ هجاءٍ طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يا بُحْتُرِىُّ حذار وَيْـ لك من قُضاقضة ضَغِمْ [1]
فبِأَىِّ عِرْضٍ تعتصم وبهتكه جَفَّ القَلَمْ
ولقد أسلتَ بوالديـ ك من الهِجا سَيْلَ العَرِمْ
يا بن الثقيلة والثَّقيـ ل على قلوب ذَوى النِّعم

ومضى يُفْحش فى القصيدة ويُقْذع فيها إقذاعًا قبيحًا . ولا ريب فى أن نَظْمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظل خفيفًا على قلوب الخلفاء . يسلكونه فى ندمائهم حتى عصر المعتمد ، أو بعبارة أخرى حتى توفى فى عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبَّاخه المسمى صالحًا :

(١) القضاقضة : الأسد . ضغم : مفترس .

يا طيبَ أيامى بمعشوقِ ونحن فى بُعْدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارسٍ ينفخ لى صالحُ بالبُوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين ، ومما احتفظت له المصادر به قطعة فى مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهى تطرد على هذا النمط :

زارنى بدرٌ على غُصُنٍ قابلا وَصْلى يقبِّلْنى
خلتــه لما أتى حُلُماً وهْو روحى رُدَّ فى بدنى
إن لى عن مثله شُغُلا بمقال الشعر فى الحَسنِ
وأبيه مخلَدٍ فَبــهِ قد لبسنا سابغ المِنَنِ
كاتبٌ قَــلَّ النَّظيرُ له فاضلٌ فى العلم واللَّسَنِ

وشعره يسيل غذوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالا ، فلا تكلف فيه ولا تعمُّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة فى النسيج ، إنما نجد المتانة التى تجعله سائغاً فى الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأْسٍ بعد مــوت الطبيب والعُوَّادِ
قد يُصاد القَطَا فينجو سليماً ويحــلُّ القضاءُ بالصيَّادِ

وهى فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميئوس من شفائه المبكىّ عليه من محبيه وأودّائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُرَدّ له حريته ويعود إلى رفرفته فى الهواء طليقاً .

**الحمدونى** (١)

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى ، جَدُّه حَمْدَوَيْه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذى كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبناءه وأحفاده فى أواخر العصر العباسى الأول وفى هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو اسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديمًا للمتوكل ثم للمستعين. ولا نشك فى أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شىء فيه كان يُعِدُّه لهذه المنادمة ، إذ كان فكهًا خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أى هجاء ؟ الهجاء الذى يَلْسَعُ لَسْعَ الإبَر من مثل قوله فى سعيد بن حميد حين ولى رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما     عاش ذا طِمْرين لا نَوْبَةَ لَهْ
إن لله لآيـاتٍ وذا     آيةٌ لِله فينا مُنْزَلَـهْ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزِيِّها والسيف الذى كان يتقلده مَنْ يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله فى بَغيض :

سأَلتك بالله إلا صدقتَ     وعلمى بأَنك لا تصـدقُ
أَتُبْغِض نفسَك من بُغضها     وإلا فأَنت إذنْ أَحْمَقُ

---

(١) انظر فى الحمدونى وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ١ / ٢٤ والأغانى ١٢ / ٦١ وترجمة أخيه أحمد فى معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ الطبرى ٩ / ٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢ /٢٩٨ و٣/ ٢٤ ، و٥ / ٣٤٣ و٧ / ٢٨٧ وديوان المعانى ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب ٢٣٣ م وما بعدها

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه فى بغض نفسه ، وكأنما أصبح تمثالا للبغض الكريه ، لا عند الناس فحسب ، بل أهم من ذلك عند نفسه . ويا ويل من كان يسلِّط عليه سهام هجائه ، فإنه كان ما ينِي يُرْسلها عليه . وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبي الذى طالما دبَّج فيه مدائحه وهب له طَيْلَسَانًا أخضر لم يرضه ، فمضى ينظم فى طيلسانه مقطوعات ، وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس فى عصره كل مطار منها :

يا بنَ حَرْبٍ كسوتنى طَيْلساناً ... مَلَّ من صحبة الزمان وَصَدَّا
إن تنفَّسْتُ فيه ينشقُّ شَقًّا ... أو تَنَحْنَحْتُ فيه ينقدُّ قَدًّا
طال تَرْداده إلى الرَّفْوِ حتى ... لو بعثناه وحده لتهَدَّى

وألذع الأبيات البيت الأخير ، بل كلها لاذعة . فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب ، حتى لكأنما مَلَّ صحبة الدهر ، فقد آن له أن يَبْلَى ويستريح ، وإن أى حركة فيه لتمزّقه إرَبًا ، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرَّفاء ، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه . وتنوَّع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالى ، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله :

طيلسانٌ لابن حربٍ جاءنى ... خلعةً فى يوم نَحْسٍ مستمرّْ
فإذا ما الريحُ هَبَّتْ نحوه ... طيَّرتْه كالجراد المنتشر

وقوله :

فيما كسانيه ابنُ حربٍ مُعْتبَرْ ... فانظر إليه فإنه إحدى الكُبَرْ
قد كان أبيض ثم ما زلنا بهِ ... نرفوه حتى اسودَّ من صَدَإِ الإبَرْ

وتتوالى ألفاظ القرآن فى الأبيات كما هو واضح فى ألفاظ :( فى يوم نحس مستمر ) و ( كالجراد المنتشر ) و ( إحدى الكبر ) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية فى مكانها السوىّ . وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طَيْلَساناً ... يزيد المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضاعا
ولست أشكُّ أنْ قد كان قِدْماً ... لنـــوحٍ فى سفينته شِرَاعا
وقد غَنَّيْتُ إذ أَبصرت منه ... جـــوانبه على بدنى تَداعَى
« قِفِى قبل التفرُّق يا ضُباعا ... ولا يكُ موقفٌ منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعًا لسفينة نوح فى أعتق الأزمنة ، وصوّر نفسه ملتاعًا إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامى التى اشتعلت فى صدره عند فراقه لصاحبته « ضُباعة » . وقطع كثيرة كان يتغنى فى نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامى تصور أساه ، ودائمًا يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين فى شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمدُ بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة فى تلك الشاة مصوراً هُزالها وبؤسها ، صانعًا نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة فى الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَـــرَّتْ على عَلَفٍ فقامتْ لم تَسِرْ ... عنه وغَنَّتْ والمدامعُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... متـــأَخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ »

والبيت الثانى من قطعة فى الغزل مشهورة لأبى الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجابًا شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفّره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه فى الرزق ، وله يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسّع له فى الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كان فى الدنيـــا له شارةٌ     فنحن من نَظّارة الدُّنْيَـــا
نَرْمقهـــا من كَثَبٍ حَسْرَةً     كأننـــا لفظٌ بلا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه فى العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله :

هو سيفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ     يَنْتضيـــه الحزمُ حين يُسَلُّ
لا يشك السمع حين يراه     أنه بالبِيد سِمْعٌ أَزلُّ (١)

وألفاظه فى القصيدة وقوافيه تلتقى مع قوافى تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله فى الغزل قطع تصور حبه ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله فى وصف طروق طيف الخيال فى المنام قطعة جيدة يقول فى تضاعيفها :

وصلَ الحلمُ بيننا بعد هَجْرٍ     فاجتمعنا ونحن مفترقـــانِ
وكأن الأَرواح خافتْ رَقِيباً     فطــوتْ سِرَّها عن الأَبدانِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك القطع الكثيرة التى أنشدها فى هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

---

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين ذئب وضبع

## ابن بسام (١)

هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمَّة فى أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبى تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحترى . ويقول المسعودى إنه كان مترفاً حسن الزىّ ظاهر المروءة مشغوفاً بالبناء ، ويُرْوَى عن بعض معاصريه ما يصوّر بذخه فى بناء داره وفى ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بنى حمدون فى المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عُنى بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لخاله الحمد ونى أثر فى ذلك . وكان شيعيا ، وربما كان لتشيعه أثر فى ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزَّجّ بهم فى السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان موالياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر فى كثرة أهاجيه له ، حتى عُدَّ فى العققة الذين لا يبرّون آباءهم بل يجحدون فضلهم ، وله فى أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أبو جعفرٍ دارًا فشيَّدها ... ومثلُه لخيار الدُّور بَنَّاءُ
فالجوع داخلَها والذلُّ خارجَها ... وفى جوانبهـــا بُؤْسٌ وضَرَّاءُ

وكانت قصراً عظيماً يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى فى هجائه له حتى ليقول فيه وفى داره أيضاً :

---

(١) انظر فى ابن بسام وأخباره وأشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٣٠٦ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعانى ٢ / ٢٣ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩

شِدْتَ دارًا خِلْتَها مكرُمَةً     سلَّط الله عليهـا الغَرقا
وأرانيك صريعـاً وَسْطها     وأرانيهـا صَعِيدًا زَلَقا(١)

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه دَيْناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جَنَى عليه جناية لا تغتفر، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبُّها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتَّاب وكبار رجال الدولة غير هيَّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عمن ينتقم منه ويطير به طيرة بطيئًا سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم فى حروب الزنج والصفار ، ونراه ينظم فيه وفى ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلُّها بقوله :

أيرجو الموفَّقُ نصرَ الإلٰهِ     وأمـرُ العبادِ إلى دَانِيَـهْ

ويأخذ فى هجاء ولاته من مثل الطائى أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانيًّا وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فخلِّ الزمـانَ لأوغادِهِ     إلى لعنة الله والهـاويه

ويُظلُّه عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحفَر له حَفيرة ويُلْقَى فيها وتُطَمّ عليه ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه ، إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله فى احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من ختانٍ     يَرْعـون من جُوعهم خُزامى(٢)
فقلت لا تعجبوا لهذا     فهكـذا تُخْتَنُ اليتامى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائسًا ، حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالا عظيمًا بختانهم .

---

(١) صعيداً زلقا : أرضا ملساء .     (٢) الخزامى : من أزهار البادية

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجـــاءَ دُنْيا حَوَتْها دوننا أيدى القرودِ

فما نالت أناملُنا لشيءٍ عملناه سوى ذل السجودِ

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخطل الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحًا للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظًا وحنقًا إذ يقول :

قُلْ لأَبى القاسم المرجىَّ قابلك الدهرُ بالعجائبْ

مات لك ابنٌ وكان زَيْناً وعاش ذو الشَّيْن والمعايب

حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه فى عمل وأن يبرَّه ويصله حتى يكفَّ عن هجائه ، فولاَّه بريد الصَّيْمُرَة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَّسْرين والعواصم ، وبقى فى عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرَّ بنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمَّل أوزارَ البريَّةِ كلَّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهِرُ

واتخذ من شعره سياطًا يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقانى وزيرى المقتدر وله فى الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وماكان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة فى كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفًا ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قَذاةً فى شرابٍ  دخلتَ من الدناءة كلَّ بابِ
وأثقل ــ حين تبدو ــ من رقيبٍ  وأكذب ــ حين تنطق ــ من سَرابِ
وأغدر للصديق من الليالى  وأنْكَى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً ، وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الخلقة تقتحمه العيون ، وصوَّر ذلك ابن بسام عابثًا به وبقبحه ، إذ يشكره على إقباله عليه بدابَّته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظةَ المحسنِ عندى يَدٌ  أشكرهــا منه إلى المحشَرِ
لما أرانى وجه بِرْذَونه  وصــانى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مُقْلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البَطالة والصِّبــا  لمــا علانى للمَشِيب قِناعُ
لِله أيامُ الشــباب ولهــوِهِ  لو أن أيام الشبــاب تُبَاع
فدَعِ الصِّبا يا قلبُ واسْلُ عن الهَوَى  ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظرْ إلى الدنيا بعين مودِّعٍ  فلقد دنا سَفَرٌ وحان وداع
والحادثاتُ موكَّلاتٌ بالفَتَى  والنــاسُ بعد الحادثات سماعُ

والأبيات تصوِّره قد وخَطَهُ الشيب وأخذ يفكر فى غَده ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قاتمة ، اختلَّت فيها الموازين والقيم اختلالا شديداً .

# الفصل السابع

## طوائف من الشعراء

### ١

**شعراء الغزل وشاعراته**

ظل تيار الغزل حادًّا فى العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينْطق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعانى ، ويخيَّل إلى الإنسان كأن كل من شدا بالشعر نظم فيه ، مصوراً ألوانًا من هذا الحب الذى كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كلَّ شىء . وكانوا ينظمونه فى نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما فى العصر العباسى الأول ، ونقصد اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإماء ودور النخاسين التى كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات وروميات . ويصور الجاحظ فى رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنَّ يُشِعْن فى جوّ بغداد من التحلل الخلقى ، فكان طبيعيًّا أن تَنْفُقَ سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كن يُكْثرن من التغنىَ به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسَحَرْن قلوب الشعراء شبانًا وكهولا ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردُّوا أنفسهم إلى شىء من القَصْد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور فى نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حُرًّا ، بل حارًّا له حرارة الحُمَّى .

وظل اتجاه الغزل العفيف النقى الطاهر حيًّا بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمده أسراب كثيرة من غزل العُذْريين فى العصر الأموى ومن غزل مَنْ ساروا فى دروبهم من شعراء العصر العباسى الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حُمَّاه ولكن بثوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمَّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرَّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرُّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَتَحَيَّى معه هذه الحياة التى تضيف إليه خصبًا فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائمًا من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعانى التى تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين ، فقد مرت من ذلك لمحة ، إنما يكفى أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعًا من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة — هو ابن المعتز ، ومرَّ بنا حديث مفصَّل عنه ، وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة فى الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب ، وفى مقدمتهم مغنيه بنان ، ومما غنّاه به قوله[1] :

رأيتك فى المنام أقلَّ بُخْلاً وأَطوعَ منك فى غير المنامِ
ولو أن النعاسَ يُباع بَيْعاً لأَغليتُ النعاسَ على الأَنامِ

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولى فى كتابه : «أخبار الراضى بالله والمتقى بالله» طائفة كبيرة من أشعاره ، وله قطعة تداولتها الكتب فى ترجمته وهى فى وصف جارية مغنية كان يُفْتَنُ بها ، وتجرى على هذا النمط[2] :

قد أفصحتْ بالوتَر الأَعْجَمِ وأَفهمتْ مَنْ كان لم يَفْهَمِ
جاريةٌ تحبُّ من لُطْفِها مخاطَباً ينطق لا من فَمِ
جَسَّتْ من العود مجارى الهوى جَسَّ الأَطباءِ مجارى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتارون من صفوة كتّاب الدواوين ، وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبِّر به عن عواطفه

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٨ .
(٢) معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات الوفيات ٢/ ٣٧٦ .

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعي أن يوقد الحب فى نفوسهم الجذوة التى طالما أوقدها فى نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعًا من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل(١) :

أَيها العاشقُ المعذَّب صَبْرًا فخطايا أَخى الهوى مغفورَهْ
زفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ من غزاةٍ وحِجَّةٍ مَبْرُورَه

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدى يحسن الشعر ونظمه ، وله فى الأغانى ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً، وروى له المرزبانى مقطوعات متعددة فى الحب من مثل قوله(٢) :

كئيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمْع هامِلُهْ تخوَّنه من آجلِ البَيْن عاجِلُهْ
جريحُ صدودٍ قد أَضرَّ به الهَوَى ورقَّ له عُوَّادُه وعَوَاذِلُه

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتلّ أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفى مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم — كما مرَّ بنا — ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التى كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عَرِيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته لكل منهما(٣) ، كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها(٤) :

زعموا أَنى أُحب عَرِيبَا صدقوا والله حُبًّا عجيبا
حلَّ من قلبي هواها محلاًّ لم تَدَعْ فيه لخلقٍ نصيبا
هى شمسٌ والنساءُ نجومٌ فإذا لاحتْ أَفَلْنَ غيوبا

وهو فى هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية فى حبه وهيامه ، ولكن

---

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١٧٥ ، ١٩ / ١١٤ .
(٤) أغانى ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن وما يزرعن فى القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ، وفيها يقول[١] :

نَبْتٌ إذا سكتتْ كان السكوتُ لها زَيْناً وإن نطقت فالدرُّ ينتثرُ
وإنما أقصدتْ قلبى بمقلتها ما كان سهمٌ ولا قوسٌ ولا وتَرُ

وكان سعيد بن حُمَيْد يعمل فى الدواوين ، وأسندت إليه رياسة ديوان الإنشاء فى عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض فى ترجمتها لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله يشكو السهاد وطول الليل[٢] :

يا ليل بل يا أبَدُ أنائمٌ عنك غَدُ
يا ليل لو تلقى الذى ألقى بها أو تَجِدُ
قصَّر من طولك أو ضُعِّفَ منك الجلَدُ
أشكو إلى ظالمةٍ تشكو الذى لا تجد
وَقْفٌ عليها ناظرى وَقْفٌ عليه السُّهُدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجى شَغَفت قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها بحبه وعطفه وحنانه ويكْلف بها كلفًا شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفى شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله[٣] :

زرعتُ وشاجى بيننا فى شبيبتى غِراسَ الهوى فاعتمَّ بالثمر العَذْبِ

وماتت قبله ، فظل يبكيها بكاء مرًّا ، جازعًا عليها جزعًا لم يُرَ مثله ، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله[٤] :

---

(١) أغانى ١٩ / ١١٧ وأقصدت : جرحت .
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .
(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .
(٤) الأغانى ( طبعة الساسى ) ٨ / ٤٣

يميناً بأنى لو بُليتُ بفقْــدها     وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياة وللنكْسِ
لأَوشكتُ قتلَ النفسِ عند فراقها     ولكنها ماتتْ وقد ذهبتْ نفسى

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمه ، وكُن — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — يكتبن أبياتًا منه على طُررهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرد لمجموعة منهن صحفًا فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب وفضلا الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللائى كن يحسنّ الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أُدّبت وثُقفت، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته، وكانت تلحّنه وتغنى به على العود . وكانت تحلُّ من قلب المتوكل محلا رفيعًا ، ويُروَى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنّى على ضرْبها مصورّة لوعتها من خصامه ومغاضبته و أنها لا تطيق الصبرعن لقائه(١) :

أدور فى القصر لا أرى أحدا     أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصيةً     ليس لها توبةٌ تخلّصنى
فمَنْ شفيعٌ لنا إلى ملكٍ     قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عادلنا     عــاد إلى هجره وقاطعنى

فصفّق المتوكل طربًا ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويُروَى أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه: « جعفراً » ، فأعجبه ذلك وتمنى لو صوّر ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت(٢) :

وكاتبةٍ فى الخدِّ بالمسك جعفرًا     بنفسى محطُّ المسك من حيث أثّرا

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٣ والأغانى ( طبعة الساسى ) ١٩ / ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤٢ .

لئن أودعتْ خطًّا من المسك خدَّها لقد أودعتْ قلبي من الوجد أسْطُرا
فيا من لمملوكٍ يظلُّ مليكــه مطيعاً له فيما أسرَّ وأظهرا

وهى من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب فى أنهن عملن على أن يعبر الشعراء فى الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل فى العصر ، وهم خالد ابن يزيد الكاتب، ومحمد بن داود، وفضل .

خالد[1] بن يزيد الكاتب

كان أحد كتَّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات فى الجيش الذى خرج بقيادة على بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية وفى الطريق بلغ علياً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذه فى ندمائه . ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قرَّبه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم فى بناء سامرَّا بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفى المدينة أشعاراً أخرى ويغنىّ المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريبًا منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً فى مديح الخلفاء فى العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد، إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه، ولا يُعْنَى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل فى بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه فانصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

---

(١) انظر فى ترجمة خالد وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ والديارات (انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ١١ / ٤٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٦ وله ديوان مخطوط بالمكتبة العمومية بدمشق

فى أواخر حياته . ويـُجْمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز فى الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وضَع الدموعَ مواضعَ الحُزْنِ حَيٌّ السهاد وميِّتَ الجَفْنِ
عَبَراتُه نُطُقٌ بما ضَمِنَتْ أحشـاؤُه ولسانُه يَكْنى
فى كل جارحةٍ له مُقَلٌ تبكى على قلبٍ له رَهْنِ
لم يَدْرِ إلا حين أسلمه قَدَرٌ للحظة واحدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة فى التفكير وفيها خيال بعيد، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ومثله فى الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكى على قلبه الذى رهنته منه صاحبته ، وأيضًا تعبيره عن صاحبته بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتى بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كيف خانتْ عينُ الرقيب الرقيبا أَخطــأَتنى لما رأَيتُ الحبيبا
رحمتْنى فساعــدتنى فقبَّلْـ ـتُ بعينى مع الحبيب الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلبَ الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائمًا طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رقدتَ ولم تَرْثِ للسَّاهرِ وليلُ المحب بــلا آخرِ
ولم تَدْرِ بعد ذهاب الرقا دِ ما صنع الدمعُ بالناظــر

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهى ، وصاحبته بجانبه ولا تدرى ما يعانى من عذاب الحب المبرّح ، وهو يتجرع غصصه حبه محتملا مقاومًا ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجههِ والغصُنُ الناعمُ من قَــدِّهِ
وقد تعاتبنـــا بأَبصـــارنا فيما جناه الخُلْف من وعدهِ
حتى تجارحنا بتكرارنا للَّحْظ فى قلبى وفى خدِّهِ
فأَدرك الثأْر وأدركتــه وسرَّنى بالصَّدِّ عن صَدِّه

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتابًا رقيقًا ، ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدّ صاحبته ويترك فيه أثراً من طول تكراره ، أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التى تجرحه فى الصميم . وكأنما كل منهما ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثأرين : ثأر يجرح الخدود وثأر يجرح القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدّت عن الصد وانصرفت عن الهجر . وكان يلمّ أحيانًا ببعض الأديرة أو يفضى إلى تعاطى بعض كئوس الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث بغزله على عادته ، فالغزل دائمًا مبتغاه من شعره على نحو ما نرى فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرين كما رأت من البدر والشمس المضيئة بالأَرضِ
عشيَّة حيَّانى بوردٍ كأَنَّه خدودٌ أُضيفتْ بعضُهن إلى بَعْضِ
وناولنى كأْساً كأَنَّ رُضَابَها دموعىَ لما صَدَّ عن مقلتى غُمْضى
وولَّى وفعلُ السُّكْر فى حركاتهِ من الراح فعلُ الرِّيح بالغصُن الغَضِّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ، نَوَّه به القدماء طويلا ، وهذه الكأس التى ناولها صاحبته كأْس المحبين التى طالما شربوا منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التى لا تجف والتى ماتنى تسقط فتمتلئ منها كئوسهم التى لا يعرف الناس أتمتلئ شرابًا أم ناراً . وله :

إذا كنت فى كُلِّى بكُلِّك مُفْرَغاً فأَىُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فمِنِّى إذا ما غِبْتَ فى كل مَفْصِلٍ من الشوق داعٍ كلما غِبْتَ يهتف

فهما روحان فى جسد ، وهو يحس فراغًا لا حدّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو مايني يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهو يتبعه ،ويتبعه قلبه من ورائه؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ،ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شفَّها غليلُ التَّصابي بين عَتْبٍ وسَخْطَةٍ وعَذابِ
كلَّ يوم تَدْمَى بجرحٍ من الشو ق ونوعٍ مجدَّدٍ من عذاب
ياسقيمَ الجفون أسقمتَ جسمي فاشْفِني كيف شئت ،لابك مابي

فهو يَصْلَى نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا فى جفونه وإنما فى جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضَنًا . ومن أرق الدعاء قوله فى آخر الأبيات : « لا بك ما بى » . وتدور له فى كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرْجَى لذاذة الإغماضِ لمريضٍ من العيون المراضِ

وقوله :

ليت ما أصبح من رقَّـ ـة خدَّيك بقلبك

وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمتى فبكائى لبُكا العاذلِ

ولعل فى كل ما أسلفنا مايدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية فى رقة الغزل . وجعله ذلك مألفًا لكثير من معاصريه أمثال على بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائمًا أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلا أحب جارية فى مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئًا إلى هذا اللقاء حتى مماته .

## محمد(١) بن داود الظاهرى

أبوه داود بن على بن خلف الأصفهانى مؤسس المذهب الظاهرى فى الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعى ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له فى الفقه مذهباً مستقلا عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة ، ولذلك سُمى مذهبه باسم المذهب الظاهرى . وعُنى بتربية ابنه محمد ، وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآنَ ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، وهو يروى فى كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثّل مذهبه ولما توفى سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعى فى عصره ، وكانت حلقة تدريسه تغصّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة فى المذهب الظاهرى . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذى عُنى نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول ، والكتاب كله مائة باب جعلها فى جزءين خصّص الأول منهما بالحب العذرى العفيف ، وهو يتضمن خمسين باباً فى كل باب مائة بيت من الشعر ، وبالمثل أبواب الجزء الثانى الخمسون ، فكل منها يشتمل على مائة بيت ، وأهمها ما دار فى تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمه وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمنا فى حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو فى الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتلوها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً مثل « مَنْ كثُرتْ لحظاته دامت حسراته » و « ليس بلبيب مَنْ لم يصف ما به لطبيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب» . وهى عناوين غير مضبوطة ،

---

(١) انظر فى حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٥/ ٢٥٦ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٠٥ وابن خلكان والوافى بالوفيات للصفدى ٣ / ٥٨ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة ابن سريج ٣/ ٢٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطُرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتًا أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلي حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حدَثًا . وفي ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكُتَّاب ونظر في أكثره » . وكان فطنًا ذكيًّا نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويُرْوَى أن شخصًا سأله في حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم . وفي هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفًا . ويُرْوَى أيضًا أن رجلا جاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية ، وقلبها وكتب في ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور ، وإذا في الرقعة مكتوب :

يا بنَ داودَ يا فقيهَ العراقِ ... أَفْتِنــا في قواتلِ الأَحـداقِ
هل عليهن في الجروح قصاصٌ ... أَم مباحٌ لها دمُ العشاقِ

وإذا الجواب :

كيف يفتيكمُ قتيلٌ صريعٌ ... بسهام الفراق والإشتيـاقِ
وقتيلُ التـلاق أَحسنُ حالا ... عند داودَ من قتيلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه . فهو إن صح كان هوى نقيًّا ، أو قل إنه كان تعلقًا أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هَوًى . وكان ترجمانًا للهوى العذري في عصره كما كان مؤلفًا فيه، إذ صنَّف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا ، وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي ، من مثل قوله :

عن كبدي من خيفة البَيْنِ لوعةٌ ... يكاد لها قلبي أَسىً يتصدَّعُ
يخاف وقوعَ البَيْن والشملُ جامعٌ ... فيبكي بعينٍ دمعُها متسرِّع

فلو كان مسرورًا بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقَّع
لكان سواءً بُرْءُهُ وسَقَامُهُ ولكنَّ وشْكَ البَيْن أدْهَى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التى تكاد تمزّق قلبه حسرات . وهو يخاف البين قبل وقوعه، فيبكى بدموع غزار، فما باله والبين يوشك أن يقع ؟ إنه يُمْعِن فى البكاء ويمعن فى الالتياع ويمعن فى الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتَّعْ من حبيبك بالوَداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فِكم جربتُ من وَصْلٍ وهَجْرٍ ومن حال ارتفاعٍ واتِّضاع
وكم كأْسٍ أمرَّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عَنْها ذِراعى
ولم أرَ فى الذى لاقيتُ شَيْئاً أمرَّ من الفــراق بلا وداعِ
تعالىْ اللهُ كلّ مواصــلاتٍ وإن طالتْ تؤول إلى انْقطــاعِ

وهويدعو إلى ألايشكوالمحب من الفراق ولحظة الوداع التى طالماعصرت قلوب المحبين ، ويقول إنها ليست آخر لحظة يلتى فيها الحبيب ، فستأتى بعدها لحظات لقاء ، وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب كئوسًا مرة أمر من الموت ، فتحمَّلها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم. ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شىء الزوال والفناء . ومن تتمة ذلك عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول فى بعض غزله :

أُفوِّض أَسبابى إلى الله كلِّها وأَقنعُ بالمقدور فيها وأَرتضى

فهو دائمًا يسلِّم — فى عذابه بالحب وآلامه فيه وما يَصْلَى من هجر وبعد وفراق — بما أرادته له المقادير. وتشيع فى شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقى طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ، يقول :

لا تُلزمنِّىَ فى رَعْىِ الهَوَى سَرَفاً  وما أُوفِّيه إلا دون ما يجبُ
فى عِفَّةٍ نتحامى أن يُلم بها  سُوءُ الظنون وأن تغتالها الرِّيَبُ

ويُكثر فى غزله من ذكر المنازل والديار والفيافى والقيعان والرُّكْبان والمطايا ، وهو يتساءل والمنازل لا تجيب ، فقد رحل الأحبة وخلفوا له وَجْداً ما مثله وجد ، وعبثًا يخفيه فكل ما حوله يبصره ، يقول :

يُخْفِى هواه وما يَخْفَى على أَحدٍ  حتى على العِيس والرُّكْبان والحادى

ويَذيع شعره فى بغداد ويغنِّى فيه المغنون والمغنيات ، وهو لا يدرى من أمره شيئًا فقد كان منكبًا دائمًا على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف . ويساير ذات يوم القاضى محمد بن يوسف فَيسمع جارية تغنِّى بقوله :

أشكو غليلَ فؤادٍ أنت متلفُه  شكوى عليلٍ إلى إلْفٍ يعلِّلُهُ
سقمى تزيد على الأَيام كثرتُه  وأَنت فى عُظم ما أَلقى تقلِّله
اللهُ حَرَّم قتلى فى الهوى سلفاً  وأَنت يا قاتلى ظلماً تحلِّله

ويلتفت إلى صاحبه قائلا : كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذى تلوكه أفواه المغنين والمغنيات ، فيوئسه من ردِّه قائلا ؛ هيهات سارت به الركبان . ومن طريف ما يُرْوَى له :

فلا تُطْفِ نارَ الشوق بالشوق طالباً  سُلُوًّا فإن الجَمْر يُسْعَر بالجَمْرِ

ولم تمتد حياته طويلا ، فقد توفى سنة ٢٩٧ وهو فى الثانية والأربعين من عمره ، ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفًا فى مجلسه وبكى وجلس على التراب ، وقال : ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود . وحزن عليه تلاميذه حزنًا شديداً . ويقال إن نفطويه جزع عليه جزعًا عظيمًا ، ولم يجلس فى حلقته للناس يحاضرهم سنة كاملة .

فضل [١]

كانت أمها من مولَّدات اليمامة ، وكانت هى من مولَّدات البصرة ، نشأت فى دار رجل من قبيلة عبد القيس أدَّبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخَّاسين فى الكرخ ببغداد يقال له حَسْنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجى ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى فى زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت فى نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعنى واشترانى ، فضحك ، وقال لها : أنشدينا شيئًا من شعرك ، فأنشدته تمدحه :

استقبل المَلْكُ إمامُ الهُدَى ... عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى ... أن تملك الناس ثمانينا
لا قدَّس اللهُ امرءًا لم يَقُلْ ... عند دعائى لك آمينا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عَريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طربًا شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلْقونها عليها ، فتجيزها فى سرعة شديدة، وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحيانًا بعض الأبيات فتُسْرع فى إجازتها ببديهتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أَسبابَ الرِّضا خوفَ عَتْبها ... وعلَّمها حُبِّى لها كيف تغضبُ

ولم يكد يلفظ بالبيت حتّى قالت :

تصدُّ وأدنو بالمودَّة جاهدًا ... وتبعد عنى بالوصال وأقربُ

(١) انظر فى فضل وأخبارها وأشعارها الأغانى ( طبعة الساسى ) ٢١ / ١١٤ ، ٢/١٧ وفوات الوفيات للكتبى وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر الآداب للحصرى ٤ / ١٦٥

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصَّت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور أشعارها كان فى الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلَم الجمال تركتنى فى الحب أشهرَ من علَمْ
ونصبتَنى يا مُنْيَتى غرضَ المظنة والتُّهم
فارقتنى بعد الدنوِّ فصرت عندى كالحلم
ما كان ضَرَّك لو وصلتَ فخففَّ عن قلبى الألم

وهى تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه المنزلة المخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ، وهى تود لوظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرّحة . وأكثر غزلها فى معشوقها سعيد بن حُمَيْد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة ، من ذلك أنه عتب عليها يومًا أنها لا تُقْبل عليه فى مجلسها ولا تذكره باسمه فى غزلها ، فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك فى الهوى لأَقْصَرْت عن أشياءَ فى الهزل والجِدِّ
ولكننى أُبْدِى لهذا مودتى وذاك وأخلو فيك بالبثِّ والوجد

فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأَنْهَى جفونى أن تبثَّكِ ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلتِه بنا فانظرى ماذا على قاتل العَمْدِ

وكان لا يقلُّ عنها كلَفًا ولا غرامًا ، وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لا تنى الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، ومما كتبته له فى إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أَشكوك أم أَشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريًّا بصاحب الأغانى أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التى اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسى . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتونًا ، فكتبت إليه غاضبة ساخطة :

يا عالىَ السنِّ سَيِّئَ الأَدبِ شِبْتَ وأنت الغلامُ فى الأَدبِ
وَيْحَكَ إن القِيانَ كالشَّرَكِ الـ منصوب بين الغرور والعَطَبِ
لا يتصدَّيْنَ للفقير ولا يَتْبَعْنَ إلا مواضعَ الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير فى تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت فى الغاية والنهاية من التشيع ، فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان بِذَحْلٍ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهانا[1]
مالى وللدهر قد أَصبحتُ هِمَّته مالى وللدهر ، ما للدهر ، لا كانا

والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعرى غزير ، واختُلف فى زمن وفاتها ، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائلى المدوَّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلَّةً لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

## ٢

### شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون فى اللهو والمجون كما انغمس أسلافهم فى العصر الماضى ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل فى الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال فى الموازين

(١) ذحل : ثأر

وفساد فى القيم شاعا فى حياة الدولة وفى حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكرْخ مليئًا بالحانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكنّ يعرفنَ حشمة ولا وقاراً إنما كنّ يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوبًا والموصل شمالا ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائمًا لا فى الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أيامًا متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحابُ الخلاعة والمجون فى أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلا شاذًّا بالغلمان ، وَصْمَةٌ ظلت فى هذا العصر كما كانت فى العصر الماضى ، وكثير من هذا الغزل كان يُنْظَمُ فى أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصوّر الفساد الخلقى فى أبشع صوره . وحقًّا لا نجد خليفة تورط فى حب غلام ، ولكن أيضًا كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهى والملذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان فى صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجّانا محترفين . وفى كل مكان نلتقى بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة فى الديارات وتارة فى دور النخاسين أو فى الحانات أو فى بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبى هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيْناء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر فى الظرف والمجون[١] ، ومنهم جماعة أبى السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا فى صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا[٢] . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها فى ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، ومما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفًا لسنًا سريع الجواب ، واتخذه

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ . (٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل فى ندمائه ، وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبقى فيها أيامًا لا يفيق من سكره ، وله فى دير باشَهْرا ، وكان بين سامرَّاء وبغداد ، قوله (١) :

نزلنـــا دِيرَ با شَهْرَا على قِسِّيسِهِ ظُهْرَا
وسقَّانا وروَّانـــا من الصَّافية العَــذْرا
وطاب الوقتُ فى الدَّيْرِ فرابطْنــا به عَشْرا
ونِلْنا كلَّ ما نهــوا ه من لذَّاتنا جَهْرَا

ومن كبار الشياطين فى العصر مصعب الوراق ،وكان من أشد المجان تهتكًا وأكثرهم خلاعة وتطرحًا فى الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول(٢) :

عمرتُ بقبــاعَ دَيْرِ الزَّعفرانِ بفتيــانٍ غطارفةٍ هِجانِ(٣)
بكل فَتًى يحنّ إلى التصابى ويَهْوَى شُرْبَ عاتقةِ الدِّنان
بكل فتى يميل إلى الملاهى وأصواتِ المثالثِ والمثانى (٤)
ظَلِلْنا نُعمل الكاساتِ فيه على روضٍ كنقش الخُسْروانى
وأغصانٍ تميل بها ثمارٌ قريباتٌ من الجــانى دوانى

وممن كانوا يتورطون حينئذ فى الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومى ، إذ ر وى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعانى الدقيقة فى الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول(٥) :

مشمولةٌ كشعاع الشمس فى قَدَحٍ مثل السَّراب يُرَى من رِقَّةٍ شَبحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطُفٍ راحاً بلا قدحٍ عاطتْك أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلمّ بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالى سامرَّاء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصْف ومواطن اللهو ،

---

(١) الديارات للشابشتى ص ٨٠ .
(٢) الديارات ص ١٩٢ .
(٣) غطارفة هجان : سادة كرام .
(٤) المثالث والمثانى : من أوتار العود .
(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر الديارات ص ٩٣ .

وذكره كثيراً فى أشعاره . ومثله دير العذارى وكان قريبًا من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه ، وله مقطوعة يصوّر فيها ما امتد حول الدَّيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله[1] :

ورياضٍ كأنهن بُرودُ كلّ يوم لهن صِبْغٌ جديدُ
وكأَن الشَّقيقَ فيها عشيقٌ وكأَن البَهار صَبٌّ عَميد[2]
وكأَن الثمار والورقَ الخُضْـ ـرَ ثيابٌ من تحتهن نهودُ
فاسقنيها راحًا تريح من الهـ ـمِّ وتُبْدى سرورنا وتُعيد
وانتهز فرصة اللذاذات فى دَيْـ ـر العَـذارى فعلَّها لا تعود

وكان كثيرون لا يَغْلون فى المجون ولا يغرقون فى اللذات ، وإنما يلمون بالخمر من حين إلى حين ، وقد يكون فى حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شىء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحيانًا أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها مجاراة للشعراء فى عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبى العباس الناشئ إذ يقول[3] :

ومُدَامة يَخفَى النهـارُ لنورها وتَذِلّ أَكنافُ الدُّجَى لضيائها
صُبّتْ فأَحْدق نورُها بزجاجها فكأَنها جُعِلَتْ إناءَ إنائِها
وتكاد إن مزِجَتْ لرقّة لونهـا تمتـاز عند مِزاجها من مائها
صفراء تَضْحَى الشمسُ إن قِيستْ بها فى ضوئها كالليل فى أَضـوائها
وإذا تصفحتَ الهواء رأيتـه كَدِر الأَديـة عند حُسْن صفاها
لا شىءَ أَعجبُ من تولُّد بُرْئها من سُقْمها ودوائهـا من دائهـا

---

(١) الديارات ص ١٠٩ .
(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار : زهر أصفر ، والكناية واضحة.
(٣) زهر الآداب ٢/١٤٩ .

وهي خمرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الخمر ، فهي تارة تحيل الشمس ظلاماً ،وتارة تُرَى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجي . وهي متناهية فى الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُمْزَجُ بها ، وهي أيضاً متناهية فى الصفاء حتى ليُرَى الجو الصافى كدراً بالقياس إليها ، وهي داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون فى العصر ، وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البُرْجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

### الحسين [1] بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهراً طويلا ، وكان ظريفاً . فاتخذه الأمين نديماً له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعاً شديداً حين توفى الأمين ، ورثاه مراثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكياً متفجعاً .

هلا بقيتَ لسَدِّ فاقتنا فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفٌ فاليوم أعْوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده فى حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكى بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف ، فلما ذُكر له فى الشعراء قال : لا حاجة لى به ولا يرى وجهى إلا على قارعة الطريق أى فى مواكبه العامة . وظل لا يقْرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقرَّبه منه ، فمضى يمدحه وينال جوائزه ، وقد أقطعه كما أقطع رجال

---

(١) انظر فى ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٨ / ٥٤ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ١٤٣/٧ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومرآة الجنان ٢ / ١٥٦ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣ وأشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج ( طبع دار الثقافة ببيروت ) .

حاشيته داراً فى سامرَّاء ، واتخذه الواثق نديمًا له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه فى ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله فى تهنئته له بالخلافة :

هَنَتْكَ أَميرَ المؤمنين خلافةٌ جمعتَ بها أهواءَ أمةِ أَحْمد

وأُعْجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن فى بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفى سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ باسم الخليع لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر ، حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبى نواس أكبر ماجن فى العصر السابق ، وهو مثله فارسى الأصل ، وكان يصحبه فى شبابه ، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلا نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون ، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبى نواس ، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه فى بعض أشعاره ، والصحيح أن الحسين هو الذى كان يحاكى أستاذه وأستاذ الخمر والمجون فى العربية عامة . ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبى نواس شعراً وأقل تخليطًا منه ، وهى ملاحظة صحيحة غاية الصحة ، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادى من المجَّان وغيرهم فى الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفى الأديرة ، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم ، بل كان يدنو منهم دنوًّا شديداً . وكان ينظم كثيراً من خمرياته فى أثناء سكره ، فبدا فى أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز ، فهو تارة يرتفع حين ينظم فى مجلس الأمين أو فى مجلس بعض الوزراء والنا بهين ، وتارة يُسِفّ حين ينظم فى مجالس العامة ، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطًا من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة . أما الحسين فكان فى جمهور حياته يعيش فى قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يُعْنَى أشد العناية بلغته وألفاظه ، ولا يكتفى فيها بالفصاحة بل يطلب أيضًا الرصانة والجزالة حينًا ، وحينًا العذوبة والنعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة فى المجتمع ، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز ، بل كاد ينعدم انعدامًا ، ولذلك أيضًا شاع فى أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائمًا أن تلذ الأسماع والأفئدة . وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر فى عصره هى شىء من الحشمة المصطنعة فى مجونه ، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه

أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش فى أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئًا من الحشمة ولا كان يخفى شيئًا من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبى نواس مجونًا وشغفًا بالخمر ، فقد كان مثله مفتونًا بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمه فى دَيْر سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعــواتقٍ باشرتُ بين حدائقٍ ... ففَضَضْتُهُنَّ وقد حَسُنَّ صِحَاحَا[1]
أتبعت وَخْزَةَ تلك وَخْزة هذه ... حتى شربتُ دماءهن جِرَاحَا
أبرزتهنَّ من الخدور حَواسِرًا ... وتركت صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحا

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر الممتلئة التى لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكت الطبيعة فى دير سابر من حوله ، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرطالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله فى دير سَرْجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أخوىَّ حَىَّ على الصَّبوح صَباحا ... هُبَّا ولا تَعِدا النديم رَواحا
مهما أقام على الصَّبوح مساعدٌ ... وعلى الغَبُوق فلن أريد بَراحا[2]
عُودَا لعادتنا صبيحةَ أَمْسِنا ... فالعَوْدُ أحمدُ مُغْتَدىً ومَرَاحا
هل تَعْذِران بِدَيْر سَرْجِسَ صاحباً ... بالصَّحْو أو تريانِ ذاك جُناحا
إنى أعيذكما بألفة بَيْننــا ... أَنْ تشربا بقرى الفُرات قَراحا[3]
عَجَّتْ قَواقِزُنَا وقَدَّس قَسُّنا ... هَزَجاً وأصخبنا الدَّجاج صِياحا[4]

وهو يتلطف إلى صاحبيه فى آخر الليل ويدعوهما أن يتناولا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويَعْذراه ولا يريا فى ذلك جُناحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

---

(١) العواتق : زقاق الخمر.

(٢) الصبوح : شرب الصباح ، والغبوق : شرب المساء .

(٣) الماء القراح : الماء الصافى .

(٤) القواقز : القداح . وقدس القس : رتل بعض التراتيل .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النمير ، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرا » إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً » إلى العبث به ، وكان وضيء الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يُراد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبى عيسى . وله فى الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتى     خلتُ أنى – وما أراك – أراكا
وإذا ما تنفَّس النَّرْجِسُ الغَ     ضُّ توهَّمته نسيمَ شَذَاكا
خُدَعٌ للمنى تعلِّلنى فيــ     ـك بإشراق ذا وبهجةِ ذاكا
لأدومنَّ يا حبيبى علـى الو     دِّ لهذا وذاك إذ حَكَيَاكا

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهى عذوبة تشيع فى كثير من أشعاره الغزلية والخمرية ، وهى طبيعية لشاعر كان يعيش فى قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع فى كل ليلة أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية تُرْهَفُ إرهافاً شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً خالصة على شاكلة قوله :

عالمٌ بِحبِّـهِ     مُطْرِقٌ من التِّيـهِ
يوسفُ الجمالِ وفر     عونُ فى تعدِّيه
وهْو غيرُ مكترثٍ     للذى أُلاقيـه
لا وحقِّ ما أنا من     عَطْفـه أُرَجِّيـه
ما الحياة نافعةٌ     لى على تأبِّيـه
النعيمُ يشغله     والجمـالُ يُطغيه

والقطعة من وزن عباسى حديث هو وزن المقتضب ، وهى تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره فى شعره عند الملاءمة بين

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفزع إلى مجزوءاتها كثيراً إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات فى شعره الفُرَص كى يجهروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

## أبو الشبل(١) البرْجُمِىّ

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتأدّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج : «قدم إلى سامرّاء فى أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَبًّا نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخُصّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً خفيف الروح ، ويقصّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكه المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه فى المجون ويتهالك على اللذات ، ويطلبها فى الحانات وفى الديارات ، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفا على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرّح فى الديارات والحانات ومواطن اللهو ، لا يُغِبّها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً فى حانة أو فى دَيْر أو فى بستان أو متنزّه وقد شرب وأغرق فى الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشمونى بقرية قُطْرَبُّل شمالىّ بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمجون . وكان عيد هذا الدير فى اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ، ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون فى أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم ، وكلٌّ قد أعدّ ما استطاع لقَصْفه ولهوه ، والقيان تعزف عليهم ، وآلات الطرب تُسْمَع فى كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعى أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

---

(١) انظر فى أبى الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص١٢٣ والديارات للشابشتى ص ٥٠ وما بعدها .

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شهِدْتُ مواطِنَ اللَّذَّاتِ طُرًّا وجُبْتُ بِقاعَها بَحْرًا وبَرًّا
فلم أَر مثلَ أَشمونى مَحَــلاًّ أَلَذَّ لحاضريه ولا أَسَرًّا
به جيشان من خَيْلٍ وسُفْنٍ أَناخا فى ذُراه واستقــرًّا
كأَنهما زحوفٌ وَغىً ولكنْ إلى اللذات ماكرًّا وفــرًّا
سلاحُهما القَواقزُ والقَنانى وأَكواسٌ تدور هلمَّ جَــرًّا(١)
وضَرْبُهما المثالثُ والمثانى إذا ما الضربُ فى الحرب استحرًّا

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحيانًا ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفًّا فى شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعًا فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلا آخر لا يسفّ فيه هذا الإسفاف ، بل يُبْقى فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأَبى ريمٌ رمى قَلْ بى بأَلحاظٍ مِرَاضِ(٢)
وحَمَى عينىَ أَن تَلْ تَذَّ طيبَ الإغماضِ
كلما رُمت انبساطاً كفَّ بَسْطِى بانقباض
أَو تعالَى أَملى فيـ ـه رمــاه بانخفاضِ
فمتى ينتصف المظ لومُ والظالمُ قاضى

والأبيات خفيفة ،ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحاك فى عذوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لسانًا إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عُمِّر عمراً طويلا حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا وبلغ من الكبر عِتِيًّا . وكان طبيعيًّا أن ينصرف عنه حينئذ الجوارى ، وفى ذلك يقول :

عذيرى من جــوارى الحَــىِّ إذ يرغَبْن عن وَصْلِى

(١) القواقز : القداح كما مر . والأكواس : الكئوس .
(٢) الريم : الظبى خالص البياض .

رأين الشيب قد ألبـ سنى أُبَّهَةَ الكَهْـلِ
فأعـرضْنَ وقد كُنَّ إذا قيل أبو شِبْلِ
تساعَيْنَ فرقَّعن الـ كُوَى بالأَعْيُنِ النُّجْلِ(١)

ومرَّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافًا شديداً ، وهو فى هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشًا لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمِّنه ، وأفلت يومًا منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصبَّ الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة فى رثاء قنديله يقول فيها :

يا عَيْنُ بَكِّى لفقد مَسْرَجةٍ كانتْ عمودَ الضياء والنورِ
صينيَّةِ الصين حين أَبْدعها مصوِّرُ الحسن بالتصـاوير
مَسْرَجتى كم كشفتِ من ظُلَم جَلَّيتِ ظلماءَها بِتَنْوِيرِ
إن كان أَوْدَى بك الزمانُ فقد أبقيتِ منك الحديثَ فى الدُّورِ

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وأتى به فى القدور وكيف أن السَّنانير والحِدأة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عُرسًا لها جميعًا بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغى ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعبث به ، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكَرٌ تَعْتَرِى وحُزْنٌ طويلُ وسقيمٌ أَنْحَى عليهِ النُّحولُ
ليس يَبْكِى رسماً ولاطللامَـ خَّ كما تُنْدَبُ الرُّبى والطُّلولُ(٢)
إنما حزنه على ثُلُثٍ كا ن لحَاجاتهِ فغالتْه غولُ(٣)

---

(١) الكوى : الخروق فى الأبواب والنوافذ.
(٢) مح : عفا ودرس.
(٣) غالته : أهلكته .

كان للسرِّ والأمانة والكِتْـ ـمان إنْ باحَ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلا ، واعترف له بأخذه ، وردّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف فى الخلاعة والمجون ، بل فى الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

## عبد الله(١) بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئ فى الحلية والترف والنعيم ، وقد عُنى أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرْسلا نفسه على سجيتها ، لا يتكلف فيه ولا يتعمّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمّته رقّية كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَاليج ، شغفت قلبه حبًّا ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنّه من الأصوات والأدوار ، حتى أقررن له بالحذق . وصار يلازم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلى ، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخنّر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترتفع شهرته فى إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه اسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنّاه فيها فملأه طرباً ، من ذلك ما يُرْوَى من أن الواثق عوفى من مرض ألمّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً ببيتين قالهما فى طريقه إليه على هذا النمط :

---

(١) انظر فى عبد الله وحياته وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد ١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

اسلمْ وعمَّرك الإلهُ لأُمةٍ بك أصبحتْ قهرتْ ذوى الإلحادِ
لو تستطيع وَقَتْكَ كلَّ أَذِيَّةٍ بالنفس والأَموال والأَولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقصُّ صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضًا مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طربًا ، وفيه يقول :

أكرمَ اللهُ الإمامَ المرتضى وأطال اللهُ فينا عُمُرَهْ
سَرَّه اللهُ وأبقاه لنا ألفَ عامٍ وكفانا الفَجَره

وكان يغنى الخليفتين والمنتصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللائى فتنَّ قلبه وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقيِّن وكانت تغنى فى كثير من شعره . وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هيامًا شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بِيَعَ النصارى فى أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تتثنَّى بحسنِ جيدِ غزالٍ وصليبٍ مفضَّضٍ آبنوسِ
كم رأَيتُ الصليبَ فى الجِيد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموسِ

وتردَّد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سَرْجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أيامًا مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويَمْجنون ، وله يصوّر ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صَحْبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطا لقد هيجتَ لى طربًا أزاح عن قلبىَ الأَحزانَ والكُرَبا
كم ليلةٍ فيك واصلتُ السرور بها لما وصلتُ لها الأَدوار والنُّخَبا
فى فتيةٍ بذلوا فى القَصْف ما ملكوا وأَنفقوا فى التَّصابى المالَ والنَّشَبا(١)

(١) النشب : المال والعقار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبته النصرانية وعن جوارى البِيَع والأديرة ، وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى لو استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ، أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله فى إحدى جوارى الدير السالف :

وشادنٍ ما رأتْ عينى له شَبها فى الناس لا عَجَماً منهم ولا عَربا
إذا بدا مقبلا ناديتُ واطَرَبا وإن مضى مُعْرضاً ناديتُ : واحَرَبا

ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة ، لما كان يخامره فيها من سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قُراهن تسمى كركين وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحى الذى يقع فى يوم الأحد قبل عيد الفِصْح :

ألا اصْبحانى يومَ الشَّعانينِ من قهوةٍ عُتِّقت بِكَرْكينِ
عند أُنَاسٍ قلبى بهم كَلِفٌ وإن تولَّوا دِيناً سوى دينى

ومن الحق أنه لم يكن يُبْقِى لنفسه شيئاً من الحشمة فى مجونه، وهو من هذ الناحية شبيه بأبى الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر الخلفاء والأمراء ، وكأن هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً ، وهو نفسه كان حفيد وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُوح كل يوم من دهره ما عدا أيام الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسفّ ويهبط إلى الدنيّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشتى يقول عنه : «كان صاحب غزل ومجون كثير التطرح فى الديارات والحانات والاتّباع لأهل اللهو والخلاعة » . ومع ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويُرْوَى أن ابن الزيات وزير الواثق وكان أديباً بارعاً فى الشعر والنثر قال له : أنشدنى شيئاً من شعرك ، فقال إنما أعبث ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَـ ـرَّ فى الشعانين قَتْلى
تقول لى كيف أَصْبَحْـ ـت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولو لم تقل غير البيت الأخير لكفاك ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغانى أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعسااليج ومصابيح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواثق طرباً شديداً حين غنَّاه بها قوله :

بأَبى زَوْرٌ أتَانى بالغَلَسْ قمت إجلالاً له حتى جَلَسْ
فَتعانقنا جميعاً ساعةً كادت الأَرواحُ فيها تُخْتَلَسْ
قلتُ يا سُؤْلى ويا بَدْرَ الدُّجَى فى ظلام الليل ما خفتَ العَسَسْ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذٌ بالروح منى والنَّفَسْ
زارنى يَخْطِر فى مِشْيته حوله من نور خَدَّيْه قَبَسْ

والقطعة بديعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله الساحر الوضىء، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها .وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ، وهو شىء طبيعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقىّ ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى لفظ بل لا عوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعمّ الانسجام والإحكام . وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

# ٣

## شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التى أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلا من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس فى الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ فى المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوِّى فى آذانهم كلمات الوعاظ والنسَّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير فى مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب فى الآخرة. وكان هؤلاء النساك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات فى المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفى كل مكان نجد بينهم قُصَّاصاً يقصُّون على الناس من سير الأنبياء والأمم الداثرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملا أو منصباً رفضه فى إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس اللِّين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا فى جانب ما أمَّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش فى الثغور واعظاً وقاصًّا ومذكراً بما أعدَّ الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبى العباس الطبرى المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قصَّ، ويُرْوَى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرَّ مغشيًّا عليه من الموت[1].

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣/٥٩.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعًا كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لا فى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضًا فى الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظًا يقف بين يدى هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعيًا إلى الإقبال على ما عند الله ونَبْذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفًا منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم. وطبيعى — والزهد قوت العامة فى حين كان المجون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبى نواس فى العصر الماضى فقد كان الشعرَ الذى تتطلبه العامة والذى تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئًا غلبهم التأثر حتى لو كانوا فى مجلس شراب على نحو ما يُرْوَى عن المتوكل فإن الحِمَّانى نقيب العلويين فى الكوفة الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى دخل عليه وهو فى مجلس شراب ، فأنشده[1] :

باتوا على قُلَلِ الأَجْبال تحرسهم غُلْبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُلَلُ
واستُنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم فأُودِعُوا حُفَرًا يابئسَ مانزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا أين الأَسرَّة والتِّيجان والحُلَلُ
وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدودُ يَقْتتل
قد طالما عَمروا دورًا لتُحصنهم ففارقوا الدور والأَهلين وانتقلوا

ومضى فى موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلا حتى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . وممن كان يكثر فى العصر من الوعظ فى شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة ، ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثَّنَوِيَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعًا وولى القضاء برهة ، ويَرْوى له موعظة حائية يستهلها بقوله[2] :

---

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

أراعك شَيْبٌ فى السوادِ يلوحُ يبثٌّ بأسباب البِلا وينوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت ، وقد بدأ يدق بقوة ، فعما قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزبانى شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحضّ فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين فى الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً[1] كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفًا إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا فى الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفى ديوان ابن المعتز والصنوبرى وابن الرومى زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى هذا العصر كما رسمها ابن الرومى فى قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفى منها بالأبيات التالية[2] :

بات يَدْعو الواحد الصمدا فى ظلام اللَّيْل منفــردا
فى حَشَــاه من مَخافتِهِ حُرُقاتٌ تَلْذع الكبدا
كلمــا مَرَّ الوعيد بهِ سَحَّ دَمْعُ العَيْن فاطَّردا
قائلٌ : يا منتهى أَمــلى نَجِّنى مما أخاف غَدا
وخطيئاتى التى سَلَفَتْ لستُ أُحصى بعضها عددا
وَيْحَ عينى ساءَ ما نظرتْ وَيْحَ قلبى ساءَ ما اعتقدا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقى بها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا فى الفصل الثانى حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلا خالصًا . ونمضى فى العصر ويلقانا ذو النون المصرى الذى يُعَدّ الأب الحقيقى للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقًا بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التى تقوم على

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨ ص ٧٩ وانظر ٤٩ .

(٢) ديوان ابن الرومى ( نشر كامل كيلانى )

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهى معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدْسى ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه(١) :

أموتُ وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صِدْق حُبِّك أوْطارى
تحمَّل قلبى فيك ما لا أبثُّه وإن طال سقمى فيك أوطال إضرارى

ويخلفه أبو يزيد البسطامى فيذيع فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقَمْعها لشهواتها وانمحاء إرادتها فى الإرادة الإلهية . ونمضى حتّى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبِّر عن فنائه فى الذات الربانية بمثل قوله(٢) :

أفْنَيْتَنِى عن جَمِيعى فكيف أرْعَى المحلاَّ

وهو الذى عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة فى مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النورى ، وكان شاعراً ، ويكثر فى أشعاره من التعبير عن الحب الإلهى وفكرة الفناء فى الذات العلية بمثل قوله(٣) :

تأمَّلْ بعين الحق إن كنت ناظرًا إلى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطرِ
ولاتُعْطِ حظَّ النفس منها لما بها وكُنْ ناظرًا بالحق قدرةَ قادر

ويلقانا أبو الحسين سَحْنون الخَوَّاص ، وله شعر كثير فى المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك فى فكرة الفناء المطلق فى الله بحيث لا يصبح فى المتصوف أى فضل لإحساس أى شىء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هى رغبة الانمحاء فى الذات الربانية التى تملك عليه كل شىء من أمره ، يقول(٤) :

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .
(٢) السلمى ص ١٥٦
(٣) السلمى ص ١٥٥
(٤) السلمى ص ١٨٩

وكان فؤادى خالياً قبل حبِّكم　　وكان بذكر الخلقِ يلهو ويمزحُ
فلما دعا قلبى هــواكَ أجابه　　فلست أراه عن فِنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً　　وإن كنتُ فى الدنيا بغيرك أفرح
وإنْ كل شيء فى البلاد بأسْرها　　إذا غبتَ عن عَيْنى بعينىَ يَمْلُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو على الرُّوذْبارى ، وكان يقول : المريد الذى لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذى تفنى إرادته فى الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئاً فى الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره فى فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسٍ أى شىء من أشياء الكون(١) :

روحى إليك بكلِّها قد أجمعتْ　　لو أنَّ فيها هُلْكها ما أقلعتْ
تبكى عليك بكلِّها عن كلِّها　　حتى يُقال من البكاء تقطَّعتْ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التى تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تتداخلان فى التصوف ، فالمحبة التى تنكر الذات تنتهى إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان فى الذات العلية . ونعرض لاثنين من كبار المتصوفة بشىء من التفصيل وهما الحلاَّج والشِّبْلى .

## الحلاج (٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاَّج ويقال إن أباه هو الذى كان حلاَّجاً يحلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسياً أسلم ودخل فى الدين الحنيف ، وقد نشأ فى مدينة تُسْتَر ، فلزم سهلا التسترى

(١) السلمى ص ٣٦٧

(٢) راجع فى ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره السلمى ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١ / ٧٦ والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨ / ١١٢ والطبرى ١٠ / ١٤٧ وابن الأثير وتكملة تاريخ الطبرى ص ٢٣ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٠٢ وشذرات الذهب ٢ / ٢٥٣ وكتاب أخبار الحلاج ( طبع باريس ) وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس وكتاب ماسينيون عنه .

الصوفى ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين ، وكأن الله يتجلّى فيهم منذ البدء. وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوّداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافًا شديداً ، ووقع فى نفسه أنه أعلى من الجنيد فى عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التى طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقه متجهًا إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف فى البلدان وتعرّف فى طوافه على أبى بكر الرازى أشهر أطباء العصر وتخرج عليه فى الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق فى طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات . وفى عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه فى أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يضنى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التى يبتغيها إذ يتمثّل فى نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سوّاها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد فى هذه الفكرة طويلا ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يُكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلى قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق. ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيمائية التى تعلمها على الرازى والنيرنجيات التى تعلمها فى الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسْمَح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاةَ المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها شرعًا . ولعل هذه التهمة هى التى دفعت الفقهاء إلى الفتوى بصَلْبِه ، فقد أنكر ركنًا أساسيًّا من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِلُّ المتصوف الذى بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعًا عنه التكليف إذ أصبح مساويًا للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سرًّا للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب فى سجنه وصلبه . وقد نُفِّذ الحكم عليه فى الثانى عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمل إلى خراسان فطِيف به هناك ، أما جثته فأُحرقت وألقى برمادها فى دجلة . وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يُحيْون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مَرّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس فى عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته فى الخالق وخَلْقه فقد كان يظهر أنه يؤمن فى الخالق بتنزيهه كما يبدو ذلك فى كلمات كثيرة له مثل: «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصوَّر فى الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنْعت بالشرح والوصف» وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت فى نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شىء ، وهذا هو معنى قوله: أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم: «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذى جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلَّى فيه ، كما يتجلَّى فى خلقه ومن هنا أُثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدها أيضًا من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى ، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول فى الطَّواسين :

سُبْحانَ من أَظهرَ ناسوتَه سِرَّ سَنَا لاهوتِه الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهـرًا فى صورة الآكل والشاربِ
حتى لقد عايَنه خَلْقُهُ كلَحْظـةِ الحاجب بالحاجبِ

وهو يشير فى البيت الأول إلى آدم وفى البيتين الثانى والثالث إلى ذريته ، فهم جميعاً ناسوت يُظْهر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك فى عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان فى مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك ، وقيامُك بحقى يخالف قيامى بحقك ، فإن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية » ، وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجتان امتزاجاً تامًّا ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ روحُك فى روحى كما  تُمْزَجَ الخمرةُ بالماء الزُّلالْ
فإذا مسَّك شىء مَسَّنى  فإذا أنت أنا فى كلِّ حال

وكأنه يشاهد الله فى ذاته ، أو كأنما حَلَّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون فى المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشعّ أنواره فى كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حويتِ بكُلِّى كلَّ كلِّك ياقُدْسِى  تكاشفنى حتى كأَنك فى نفسى

وقوله :

أَنت بين الشِّغاف والقلب تجرى  مثل جَرْيِ الدموع من أَجفانى
وتَحُلُّ الضميرَ جوفَ فؤادى  كحلول الأَرواح فى الأَبدانِ

وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيِّنة واستقر فى نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهَد جهاداً عنيفاً فى الاتصال بربه ومحبته محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس فى قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أنا مَنْ أهوى ، ومَنْ أهوى أنا  نحن روحان حَلَلْنَا بدَنَا
فإذا أَبْصَرْتنى أَبْصَــرْتَهُ  وإذا أَبْصَرْتَــهُ أَبْصَرْتَنَــا

وقد رفع الرسولَ صلى الله عليه وسلم مراتبَ فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعدّ لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذى تَفجّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونَبْعُه الفيّاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبه المشتعل فى القلب والسكر ونشوته التى تفقده وَعْيه والفناء الذى تفنى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفى ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى ... وغاب عن المذكور فى سطوة الذكرِ
فشَاهَدَ حَقًّا حين يشهده الهوى ... بأَن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفى عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرّين فى حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذى أعدّ للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى . ويُبْدئ ويُعيد فى تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله فى بعض مناجاته للذات العلية : « أنت تَعْلم ولا تُعْلَمُ ، وتَرَى ولا تُرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبِّك وعواطر قربك أستحقر الراسيات ، وأستخفّ الأرضين والسموات ، وبحقك لو بِعتَ منى الجنَّة بلمحة من وقتى أو بطرفة من أحرّ أنفاسى لما اشتريتها ، ولو عرضتَ علىّ النارَ بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عنى » . ومن قوله فى وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغرير واعجَبا ... ممن يريد النَّجا فى المسلك الخَطِرِ
كأَننى بين أمواجٍ تقلِّبنى ... مقلَّبٌ بين إصعادٍ ومنحدَر

الحزنُ فى مهجتى والنارُ فى كبدى والدَّمْعُ يشهد لى فاستشهدوا بَصَرِى

ولعلنا لا نُبْعد إذا قلنا إنه هو الذى وضع فى التصوف الإسلامى فكرة أن الأديان جميعًا تؤدّى إلى الله ، وفقط تختلف شعائرها ، ولكنها تتحد فى الغاية . وبذلك تخطّى حدود الإسلام إلى حدود الديانات جميعًا ، مما جعله يقول :

ألا أبلغْ أحبَّائى بأنّى ركبتُ البحر وانكسرَ السَّفينه

ففى دِين الصَّليبِ يكون موتى ولا البَطْحَا أريد ولا المدينه

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت فى بطحاء مكة ولا فى المدينة المقدسة ، إنما يريد أن يقول إنه يرى الله فى المسجد وفى الدّير وفى كل معبد من معابد الديانات . فالديانات جميعًا عنده سواء . وفى الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإيهام والغموض حتى لتصبح أحيانًا — كما فى كتابه الطواسين — ألغازاً خالصة .

الشبلى*(١)

كنيته أبو بكر ، واسمه دُلَف بن جَحْدر ، وقيل : جعفر بن يونس ، وقيل جعفر بن دلف ، وقيل غير ذلك ، وأصل أهله من أشْروسنة جنوبى طَشْقَنْد الحالية ، فهو تركى العِرْق . رقى أبوه فى قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحجّاب ، وكان خاله يلى إمرة الإسكندرية بمصر ، ويبدو أنه استعان به فى عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصريًّا وأنه ورد بغداد من مصر . وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما . إذ نراه يعتنق مذهب

(١) انظر فى الشبلى وحياته وأشعاره السلمى ص ٣٤٠ وتاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخى ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة ٢/ ١٦١ والأنساب للسمعانى الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ٢/ ١٢٧ وحلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٣٦٧ وتلبيس إبليس لابن الجوزى ٣٤٧ وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٨ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمى العراقى) بتحقيق كامل مصطفى الشيبى وما ذكر فيه وفى تقديمه من مراجع

المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرّبه منه الموفّق – ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه فى خلافته – واتخذه حاجبًا له ، ثم ولاّه دُنْباوند بالقرب من الرَّىّ ويَحدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النسّاج تلميذ السَّرِىّ السقطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأناب . ولم يلبث أن لحق بالجُنُيْد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربّانى ، فإما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألقِ بنفسك غير هيّاب فى عُبابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلّك – إن صبرت – أن تظفر بها » . ومضى الشبلى يجاهد ويَضْنَى فى جهاده ويَشْقَى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوّرناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متابعًا أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًّا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكى المذهب ، وهو بذلك يُسْلَك مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتل الحلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتَحن ، وأُدْخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العليّة حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلي في تصوفه دائمًا سُنيًا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئل مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك؟ فقال : أعظمُهم لحرمات الله وألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرةً في مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثرهم تعظيمًا لما عظَّم من حرمة عباده . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين في صُنْعه مفقود عند الناظرين في ذاته ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فمَنْ كان في طول الهوَى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنِّيَ من لَيْلَى لها غَيْرُ ذائقِ

وأكثَرُ شيء نلتُه مِنْ نَوَالها ... أمانيُّ لم تَصْدُقْ كلَمْحَةِ بارقِ

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله في عبيده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شيء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شيء آخر ، وهو يخاطَبُ ولكن لا يُرَى ولا يشاهد ، يقول :

وخاطبتُ موجودًا بغير تكلُّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يَجْر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبْدئ ويعيد في الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أُدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرة ، وأُسْقِيت الدواء كذا وكذا مرة ، فلم أزده إلا جُنونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جرى حبّك في قلبي ... كجَرْى الماءِ في العودِ

وقوله :

هذه دارهم وأنت محبٌّ ... ما بقاءُ الدموعِ في الآماقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى في العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِدّون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُفْضى إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكأنما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قبورُ الورَى تحت الترابِ وللهوى رجالٌ لهم تحت الثيابِ قبورُ
وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها لفاضتْ بحورٌ بعدهن بحورُ

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائمًا تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب ، وإن بدا فى كلامه أحيانًا أن فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحلّ الإحساس » ، وذُكر عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئل عن ليلى يقول: أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيّبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاّج ، إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسَرْمَدَ وقتى فيك فهو مُسَرْمَدٌ وأَفْنَيْتَنى عنى فعُدْتُ مُحَدَّدا
وكُلِّى بكلِّ الكلِّ وَصْلٌ محقَّقٌ حقائقُ حَقٍّ فى دوامٍ تخلَّدا

وقوله :

تَغَنَّى العودُ فاشْتَقْنَا إلى الأَحباب إذ غَنَّى
وكُنَّا حيثما كانُوا وكانوا حيثما كُنَّا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوذات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد اللهَ أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانىّ وحُسْبان .

---

( ١ ) السرمد : الدائم ، وتسرمد : خلد

٤

## شعراء الطرد والصيد

مَرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الخلفاء والوزراء وعِلْية القوم شُغفوا بالصيد والطَّرَد حينذاك وأن الشعراء وفى مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرَدِيَّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبى نواس نحو خمسين طَرَدِيَّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس فى هذا العصر يُولَعون بالصيد، وممن كان يولع به من الخلفاء وَلَعًا شديداً المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة فى العصر لم يُشْغَفْ بالصيد كما شُغف المعتضد ومَرَّ بنا فى الفصل الثانى أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها وحده، وفى ذلك يقول له بعض معاصريه[1]:

يا صائد الأُسْد إن صَيْدَكها لجامعٌ خَلَّتين من رَشَدِ
فَلذَّة تُجْتَنَى ومنفعةٌ للسالكين السَّبيلَ والقَعَد[2]

ويذكر الصابى أنه كان يُنْفق يوميًّا سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهَّادين والكلاَّبين[3]. وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد فى مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعًا، مما أهَّل لازدهار شعر الطرد فى العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرَدِيَّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها فى بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكًا بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنْظَمُ فى أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضاريًا من ضوارى الصيد إلا وصفوه ولا جارحًا من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

---

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣.
(٢) القعد: جمع قاعد.
(٣) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

والفهود والبُزاة والشواهين والصُّقور والعقْبان ، ونعتوا الصيد من حُمر الوحش وأتُنه وثيرانه وبقره وظبائه ونَعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير والإوزّ ، وألموا بآلاته من النبْل والسهام والنشّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوْهاق التى تُجْعَلُ فى أطرافهَا أنشوطة وتُرْمىَ على الحيوان فتمسك بعنقه ، والجلَاهق وهو بندق مدوّر من طين يرُمى به. وكان لهذا النشاط الواسع فى الصيد وما يتصل به من الشعر أثر فى أن أخذت تؤلَّف كتب مختلفة فى البَيْزرة وفى المصايد والمطارد ، تفصِّل القول فى الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظمت حينئذ طرديات كثيرة ، لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراءها لكثرتهم المفرطة ، ونكتفى بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ، وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق لهما فى مَرْج للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش ، فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة والصقور والشواهين والكلاب ، وفى ذلك يقول[1] :

وَطِئْنا رياضَ الزَّعْفَران وأَمسكتْ ... علينا البُزَاةُ البِيضُ حُمْرَ الدَّرَارجِ[2]

ولم تَحْمِها الأَدْغالُ منا وإنَّما ... أَبَحْنَا حِمَاها بالكلاب النَّوَابِج[3]

بمُسْتَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأَرض أمثال السهام الزَّوَالج[4]

ومستشرفاتٍ بالهوادى كأَنها ... وما عَقَفَتْ منها رُءُوس الصوالج[5]

ومن دالعاتٍ أَلْسُنًا فكأَنها ... لِحىً من رجالٍ خاضعين كَوَاسج[6]

فَلَيْنَا بها الغِيطانَ فَلْيًا كأَنها ... أَناملُ إِحدى الغانيات الحوالج[7]

قَرَنَّا بُزَاةً بالصقور وحوَّمتْ ... شواهِيُننا من بعد صيد الزَّمامج[8]

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فمنقار الصقر كأنه صَوْلجان،

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .

(٢) الدرارج : جمع دراج وهو طير ملون الريش .

(٣) النوابج : النوابح .

(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد . سابحات : مسرعات . الزوالج : التى تنزلق بسرعة .

(٥) الهوادى : الأعناق . عقفت : تعوجت . الصوالج : جمع صولجان .

(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللاتى يخلصن البذور من القطن .

(٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح أصغر من العقاب

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحىً مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُزاة والكلاب فحصًا دقيقًا حتى لكأنها أنامل دقيقة لسيدة تفلى القطن وتخلِّص الحبَّ منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرَّ بنا فى الفصل الرابع تصوير البحترى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه فى فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان .

ولابن الرومى غير قصيدة فى الطَّرَدِ والصيد ، ونكتفى من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صحابه للطير ، وقد تقلَّدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُنْدق الذى يُرْمَى به ، وأشرعوا أقواسهم مسدِّدين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول[1] :

وجَدَّتْ قِسِىُّ القَوْمِ فى الطير جِدَّها ... فظلَّتْ سجودًا للرُّماة ورُكَّعَا
طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ نَوَاصِعٍ ... تخال أديمَ الأرض منهن أَبْقَعَا[2]
فكم ظاعنٍ منهن مُزْمعِ رِحْلَةٍ ... قَصَرْنا نَواه دون ما كانَ أَزْمعا[3]
وكم قادمٍ منهنّ مُرْتادِ منزلٍ ... أَناخَ به منا مُنِيخٌ فجَعْجَعَا[4]
هنالك تَغْدو الطيرُ ترتَادُ مَصْرَعاً ... وحُسْبانُها المكذوبُ ترتاد مَرْتَعَا
مباحٌ لراميها الرَّمايا كأنما ... دعاها له داعى المنايا فأسمعا
لها عَوْلَةٌ أَوْلَى بها ما تُصيبه ... وأجدرُ بالإعوال مَنْ كان موجَعــاً
وما ذاك إلا زَجْرُها لبناتهـــا ... مخافةَ أَنْ يذهبن فى الجوِّ ضُيَّعَا
وظلَّ صِحابى ناعمين ببؤسها ... وظلَّتْ على حَوْضِ المنيَّة شُرَّعا[5]

ويبثُّ ابن الرومى فى وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُثَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطاً ،

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال . مزمع : عازم .

(٤) الجعجعة : صوت البعير ورغاؤه عند إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هو يجد المصرع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصمَى ، والطير تُعْوِل غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، بؤس ما بعده بؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنَّف كتابًا فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جارح يفْلت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتّى تصيدها وقلما أفلتت منها ، ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد[1] :

قد أغتَدِى والليلُ كالغُرابِ ... دَاجِى القِناع حالكِ الخِضابِ
بكلبةٍ تاهتْ على الكلابِ ... تفوت سبقاً لَحْظة المرتابِ
تنساب مثل الأرقم المنسابِ ... كأنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيّاهة على الكلاب بسرعتها حتّى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبه ، وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لمّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائمًا تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزَاته[2] :

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ . والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٠٩ .

ذو مقلةٍ تَهْتِكُ أستار الحُجُبْ كأنها فى الرأس مسمارُ ذَهَبْ
يعلو الشمالَ كالأمير المنْتَصِبْ أمكنه الجودُ فأعطى ووَهَبْ
ذو مِنْسَرٍ مثل السِّنان المُخْتَضِبْ وذَنَبٍ كالذيل رَيَّانَ القَصَبْ(١)
كأَن فوق ساقهِ إذا انتصَبْ من حُلَل الكَتَّانِ رَاناً ذا هُدُبْ(٢)

وتشبيه مقلة البازى الصفراء بمسمار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرّق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهى بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه . وله فى باز آخر(٣) :

فارسُ كفٍّ ماثلٌ كالإِسْوَارْ ذو جُؤْجُؤٍ مثل الرخام المَرْمارْ(٤)
أو مصحفٍ مُنَمْنَمٍ ذى أَسْطارْ ومقلةٍ صفراءَ مثل الدينارْ
ترفع جفناً مثل حرف الزُّنَّار ومخلبٍ كمثل عطف المسمارْ

وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنّار الذى يضعه النصارى فى أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة(٥) :

ولا صَيْدَ إلا بوثَّابةٍ تطيرُ على أَربعٍ كالعَذَبْ(٦)
فإن أُطْلِقَتْ من قِلاداتها وطـار الغبارُ وجَدَّ الطَّلَبْ
فزوبعـةٌ من بناتِ الرياحِ تُريك على الأَرض شيئاً عَجَبْ
تضمُّ الطَّريدَ إلى نَحْرِها كضَمِّ المحبة من لا يحبُّ

فأرجلها كالخيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجدُّ طلبها لطرائدها

(١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .
(٢) رانا : ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعانى ٢/ ١٤٠ .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . المرمار : الناعم . الإسوار : الحاذق فى الرمى .
(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين.

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ، مما يملؤك عجباً ، وإذا هى قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرها وصدرها لا ضمّ حنان ولكن ضم عُدْوان ، كضم المحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبرى طرديات مختلفة ، منها قوله فى باز(١) :

ذو مِنْسَرٍ أقْنَى ورُسْغٍ كَزِّ ومِخْلَبٍ لم يَعْدُ إشْفَا(٢) الخَرْزِ
مُسَرْبَلٌ مثل حَبِيكِ القَزِّ أو مثل جَزْعِ اليمن الأَرُزِّى(٣)
لما لَزَزْنا الطير بعد اللّزِّ بأسفل القاع وأعلى النَّشْز(٤)
آبَ لنا بالقَبْجِ والإوَزِّ من جَبَلٍ صَلْدٍ ومَرْجٍ نَزِّ(٥)

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التى يَنْقَض بها على الطير انقضاضاً فلا تستطيع منه خلاصاً، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أوكأنها الجزْع أو الحرز اليمانى الذى تغنّى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة فى القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله فى الطَّرَدِ ووصف كلابه وما صادت من الوحش(٦) :

يا روضةً من حُلَلٍ ما خاطَها خَيَّاطُ
الوحشُ فى أرجائها قبائلٌ أخْلاطُ
غادَيْتُها ولم يُقِمْ أعلامها الغَطَاطُ(٧)
بأكلبٍ لو لم تَطِرْ أطارَها النشاطُ
فجئْنَ والطَّلُّ على آذانها أقراط
انبسطتْ كالشُّهْبِ لا يُعْجِزها انبساط

(١) ديوان الصنوبرى ص ١٣٣ .
(٢) إشفا: مخرز .
(٣) حبيك : محبوك . القز : الحرير. والجزع اليمانى : خرز . أرزى : أبيض كالأرز .
(٤) النشز : المرتفعات .
(٥) القبج : الحجل . نز : به بعض المياه .
(٦) الديوان ص ٢٨٧ .
(٧) الغطاط : القطا .

وطفقتْ والوحشُ فى مجالهـا بسـاطُ
صَرْعَى تُشَقُّ قُمْصُها عنهـا ولا تُخَـاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلَل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القَطَا وغيره من الطير مُرْسلا عليها كلابه المسرعة التى تكاد تطير طيرانًا ، غير آبهة ببرودة الطَّقْس وما قرَّط به آذانها من النَّدَى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزّقه تمزيقًا لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البَرّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفى ذلك يقول[1] :

أَفضَلُ ما أعددتُهُ من العُدَدْ وما حَوَى صَحْبِى به غِنَى الأَبَدْ
بناتُ قَيْنٍ حاز فى الحذق الأَمَـدْ على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَدْ[2]
لها رءوسٌ فى أعاليها أَوَدْ كمثل أنياب الأَفاعى وأَحَدّ[3]
عُجْنَا بها من حيث ما عاج أحد فى ظل صَفْصاف علينا قد بَرَدْ[4]
شاطئَ نَهْرٍ لابسٍ دِرْعَ زَبَدْ ولم تزل تُرْسَلُ طورًا وتُمَدّْ
ثم بعثنا ألف عَيْنٍ فى جَسَدْ فجئننا بمثلهنَّ فى العَـدَدْ
أَلفٍ من الحِيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صَوَّر الصنانير والصيد ثم الشبكة وماصوَّر أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفى بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طَرَدِيَّاته فى العصر هو أبو العباس الناشئ فقد كان مولعًا بالطَّرَد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

---

(١) الديوان ص ٤٧٥ .

(٢) القين : الحداد صانعها . الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح .

(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .

(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

## أبو العباس [١] الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلا ، وفيها تلقَّن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم، وكان ذكيًّا ذكاء حادًّا، وصرف ذكاءه فى مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجى ، إذ ألف كتابًا ينقض به منطق أرسطو وكتابًا ثانيًا ينقض به آراء الخليل ابن أحمد فى العروض ومثَّل لقواعده بغير أمثلته . وحاول أن ينقض علل النحويين. ونظم قصيدة طويلة فى فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت فى روىّ واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التى أنشدها الحصرى له فى موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعيًّا ، وربما شيعيته هى التى جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفَّى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب فى تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالمًا فقط بل كان أيضًا ناقداً ، ولعل هذا الكتاب هو الذى جُعل أبا حيان التوحيدى يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قُدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان فى تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعى الشعر وبواعثه، وهو يجرى على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو إعذاراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تنصلا من زلَّة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على طويَّة أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

---

(١) انظر فى الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/١٥٨ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبى حيان ٢/ ١١٧، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١ / ١٧٧، ٣ / ٥٠، والمصايد والمطارد لكشاجم ( انظر الفهرس ) والعمدة لابن رشيق ١ / ٧ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعانى ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨.

ضربًا لأمثال سائرة ، أو قَرْعًا لقوارع زاجرة ، أو نظمًا لحكم بالغة ، أو تزهيداً فى حقير عاجل ، أو ترغيبًا فى جليل آجل ، أو حفظًا لقديم نَسب أو تدوينًا لبارع أدب » . والقطعة تلمّ فى دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصرى قطعة فى وصفه لشعره يقول فيها :

يتحيَّر الشعراءُ إن سمعوا به ... فى حُسْن صَنْعتِهِ وفى تأليفهِ
شَجَرٌ بدا للعين حُسْنُ نباتهِ ... ونَأَى عن الأَيْدِى جَنَا مَقْطُوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعًا غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان فى طبقة ابن الرومى والبحترى ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم فى موضوعات شتّى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالعُ الحق ما من شُبْهةٍ غَسَقَتْ ... إلا ومنهم لديها كوكبٌ يَقِدُ (١)

ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصبَّ أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومَصيداته وآلاته . ويكفى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركنًا أساسيًّا صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طَرَدياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده فى هذا الكتاب طردية له فى صيد أحد الكلاب يستهلُّها على هذا النمط :

قد أَغْتدى والفَجْرُ فى حِجابهِ ... لم يَحْلُلِ العُقْدةَ من نِقابهِ
بِأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عذابهِ ... من صَوْلةٍ بظُفْره ونابه (٢)
يَرَاح أن يُدْعَى ليُغْتَدى بهِ ... روحةَ ذى النَّشْوة من شرابهِ (٣)
يَخُطُّ بالبُرْثُن فى ترابه ... خطَّ يد الكاتب فى كتابهِ (٤)

والطريف فى هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحًا لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضًا فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتعل .
(٢) أغضف : مسترخى الأذن .
(٣) يراح : يجد خفة ونشاطا .
(٤) البرثن : المخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْق أو صحيفة وهو يخطّ فيها ببراثنه ، ويُتْبع كشاجم هذه الطَّرْدِية بطردية أخرى تطَّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبٍ ربُّه فى رزقِهِ     يَرَى حقوقَ النفسِ دون حَقِّهِ
متَّبعاً بِخُلْقه لِخُلْقِهِ     كأنما يملك عَقْدَ رِقِّه
يَصُونُه بجُلِّهِ ودِقِّهِ     كآملٍ من مالكٍ لعِتْقِهِ[1]
تراه فى تَسْريحهِ ورَبْقِهِ     كعاشقٍ أضناه طولُ عشقهِ[2]
أَصفر يُلْهِى العينَ حسنُ خَلْقِه     كذهبٍ أبرزتَه من حُقِّهِ
ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لفَرْقِهِ     وذو حُجولٍ بَيَّنَتْ عن سَبْقِهِ[3]

وقد جعل الناشئ رَبَّ هذا الكلب وصاحبه يقدّمه على نفسه فى غذائه ، ويتأسى به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذى يملك رقه ، وإنه ليرعاه فى كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد ، فيجعله حين يكون فى ربقته وحبله كعاشق طال عليه البَيْنُ والهجران ، حتى أصابه ضَنًى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغُرَّته فى جبهته وحجوله فى سيقانه ، وبياضها يلمع فى أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله فى البازى طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ، وفيه يقول :

أَلبسه الخالقُ من ديباجِهِ     ثوباً كفى الصانعَ من نِسَاجِه
حالٍ من السَّاق إلى أوداجِهِ     وَشْياً يحار الطَّرْف فى اندراجه[4]
فى نَسَقٍ منه وفى انعراجِهِ     وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِهِ[5]
بزينةٍ كفتهُ عزَّ تاجِهِ     وظُفْرُهُ يخبر عن علاجِه
لو استضاء المرء فى إدلاجه     بعينه كفته عن سراجه

فالخالق جَلَّ شأنه كساه ثوبًا من الديباج يملأ النفس إعجابًا بوشيه وخطوطه

(١) الجل والدق : الكثير والقليل .
(٢) الربق : من الربقة وهى حبل يشد منه الكلب.
(٣) الحجول : بياض فى سيقان الكلب .
(٤) الأوداج : عروق فى العنق .
(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حـَلاَّه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضيئة ضياء السراج فى الليالى الداجية . وينظم فى الصقر غير طردية ، وفى إحداها يقول :

سَباه مَنْ كان به خليقا فَرْخاً صغيرًا ما أَقلَّ موقا
زيَّنه برأيه شفيقـــا كما يصون العاشق المعشوقا
حتى انتهى وحملَ الحقوقا ونفَع الصاحبَ والصديقا

وهو يصوِّر تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربَّاه صغيراً وما زال يرعاه محبًّا له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدرِّبه على الصيد ، حتى مهر فيه ، وحتى أصبح يَجْلب من الإوزِّ وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبَّاءه . ومن قوله فى وصف شاهين :

يَظَـلُّ من جناحه المَزِينِ فى قُرْطُقٍ من خَزِّه الثَّمينِ(١)
يشبه فى طرازه المصونِ بُرْد أَنُو شِرْوانَ أو شِيرِينِ
ذو مِنْسَرٍ محدَّدٍ مَسْنُونِ وافٍ كشطر الحاجب المقرون
منعطفٍ مثل انعطاف النونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التى تجعله يلبس قرطقـًا أو قباء مفوفًا من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحنى كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة فى وصف صيد الطير بالجلاهق أو البندق ، تحدَّث فيها عن صيد الكراكى . وهى طير طويل المنقار والرجلين ، مفرده كركىّ ، ويسمَّى الغرنيق وجمعه غرانق ، ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

ومَوْرِدٍ يُجْذِلُ قلبَ الوامقِ منظَّم بالغُـرِّ والغَرانقِ(٢)

(١) القرطق : قباء ذو طابق واحد . الغر : طير الغرانق : الكراكى .
(٢) يجذل : يسر . الوامق : مديم النظر .

وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعقِ  مكتهلٍ وبالـغٍ ولاحقِ
مَوْشيَّةِ الصدور والعواتقِ  بكل وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ[1]
تختال فى أجنحةٍ خوافقِ  كأنمـا تختال فى قَراطِقِ
يَرْفُلْنَ فى قُمْصٍ وفى يَلامقِ  كأنهن زَهَرُ الحـدائقِ[2]
حُمْرِ الحِداق كُحُلِ الحَمالقِ  كأنما يَجُلْنَ فى مَخانقِ[3]

وهو يصوّر مورداً عذبًا يسر قلب الناظر إليه رُصّع بالطير والكراكى من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشِّيت فى صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل فى كُسْوَة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق مختلفُ الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوّق أعناقها القلائدُ الباهرة. وفى كتاب المصايد والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان فى صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره فى إحداهما بهذه الصورة الفذة :

رُبَّ ذِى شِبْلَيْنِ قَسْوَرَةٍ  قد أَحمَّ الحَيْنُ فى أَجَمِهْ[4]
لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به  لا ، ولا يَدْنو إلى حَـرَمِهْ
كَمِجَنٍّ الحرب هامَتُهُ  وكَغَوْرِ الغارِ رَحْبُ فَمِهْ[5]
وكأَن البرق ما قدحتْ  عَيْنُـه باللَّحْظِ من ضَرَمِهْ
وكأَن الموتَ مُعْتَرِضٌ  بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَشَمِهْ

وهو يقول إن هذا الأسد القَسْورة هبط به القضاء فى عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمّون بحـَرمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفزع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تـُرْس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار

---

(١) العواتق : الكواهل .
(٢) اليلامق : جمع يلمق وهو نوع من القباء .
(٣) الحمالق : جمع حملاق ، وهو باطن جفن العين . المخانق : القلائد .
(٤) أحم : نزل . الحين : الموت . الأجم : بيت الأسد
(٥) المجن : الترس .

يسقط فيه كل ما يقضمه، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف، وكأن الموت كان يجثم على فمه بين لحييه وملتثمه .

وللناشئ وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقًّا كان صاحب شاعرية خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التى أعدته ليحاور ويداور أرسطو والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب فى أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة فى عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئًا من هذا القول ، إنما أوردوا له هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما فى الفصل الرابع وهما فى وصف سحاب هاطل .

وفى الحق أنه كان يعرف كيف يولِّد الصور وكيف يستخرجها من مكامنها وكيف ينظمها شعراً عذبًا ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجابًا به على شاكلة قوله :

متعاشقان مُكاتمان هواهمـا  قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحْظَ من جَفْنَيْهما  فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله :

يلوح فى خدِّه وَرْدٌ على زهرٍ  يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفا

والزهر فى البيت طبعًا هو زهر النرجس الذى تشبه به العيون ، وعبَّر عن القبلة بأنها اقتطاف لورد الخدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً إلى أول مُجْتَناها وباكورته . وله :

ليس شىء أَحرُّ فى مُهْجة العا  شق من هذه العيون المراضِ
والخدودِ المضرَّجات اللــواتى  شِيب جِرْيالُها بِحُسْن البياضِ
وطروقِ الحبيبِ والليلُ داجٍ  حين هَمَّ السُّمَّار بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تَدْلَع فى قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلع فيه نفس القطع الخدودُ المشربة بالحمرة، ويشعله إشعالا، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى فى بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب فى بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت، وما زالت تغنيهم حتّى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيلِ ... فإن كنت تهوينني فارْحَلى

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت فى قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيبة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهاً حديثه إلى تلك الرقيبة :

فديتكِ لو أنهم أنصفوكِ ... لردّوا النواظرَ عن ناظريكِ

تردّين أعْيُنَنَا عن سِواكِ ... وهل تنظر العينُ إلا إليكِ

وهم جعلوكِ رقيباً علينا ... فمن ذا يكون رقيباً عليكِ

ألم يقرءوا - ويْحهم - ما يَروْ ... نَ من وَحْيِ حُسْنك فى وَجْنَتَيْكِ

ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهى ملكة استطاع أن يَغْذُوَها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هى تُصْقَلُ وإذا هى تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرِف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

٥

### شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربى دائماً كان موصولا بالشعب ، اتصل به فى العصر الجاهلى ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلتْ له هذه الصلة

فى العصر الأموى، وإن تحولت أحيانًا من الشعور القبلى إلى الشعور الجماعى، أما منذ العصر العباسى الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جدًّا بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حيًّا مشتعلا. وكان من أهم العوامل فى ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى مَنْ عاش مِنْ هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفى قصورهم ظلّ موصولا بروح الشعب، فهو يتغنَّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التى لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبِّرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة المجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسُّها الشعب وتعيشها على الأقل فى تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقَى على العامة وكان من وَحْى حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبى الذى نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعًا خاصًّا، هو النوع الذى يصوّر ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومَنْ لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون فى النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أى جهد ودون أن يحتملوا أى عناء، على حين تَرْزَحُ عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضَّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما فى فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعيًّا أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرَّعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان فى البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سُجِّل من هذا الشعر لم يسجَّل معه اسم صاحبه إلا نادرًا[1].

---

(١) انظر المحاسن والمساوى للبيهقى (طبعة مكتبة نهضة مصر) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٤٤٨ وما بعدها.

وقد هيّأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعْرَف بالمُكْدِين ، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ فى مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحِيَلَهم فى اقتناص الدراهم من الناس ويصوّر البيهقى أعمالهم ونوادرهم[1] ، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يكوّنون فى العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

وخير من يصوّر طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العِبَر[2] العباسى الذى عاش فى هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عامًا يَحْيَا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدّ وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن فى عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبْز . وفى بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداثَ الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرِف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لى : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يَلْفت المتوكل إليه فقلب زِيّه إذ جعل فى رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حِذاء) وجعل سراويله قميصًا وقميصه سراويل . فلما لمحه المتوكل قال علىّ بهذا المُثْلة ودخل عليه فقال له : أنت شارب إنى أضع الأدهم (القيد) فى رجليك وأنفيك إلى فارس ، فقال توًّا : ضَعْ فى رجلى الأشهب وانفنى إلى راجل ، فقال المتوكل أترانى فى قتلك مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أى شاعر بالجِدّ ، وقد اتخذه فى مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به فى البركة التى وصفها البحترى فى بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأْمــر بى ذا الملكْ     فيطــرحنى فى البِرَكْ
ويصطادنى بالشَّبكْ     كأَنِّىَ بعضُ السَّمك

---

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣

(٢) انظر فى أبى العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٣٢٣ والأغانى (طبع الساسى) ٢٠/ ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣ والوافى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١ .

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الظَّبْىُ معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشويًّا على المائدة فمعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يَجْلس الغلمان « الأدباتية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنِّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُرْوَى أن غلامًا سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمْأة ( ثمرة صحراوية أرضية ) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْدِين من الأدباتية وغير المكدين ، وسُئل عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أىُّ شىء أصلها ؟ فقال : إننى أبكِّر فأجلس على الجِسْرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى والملاحين والمُكارين حتى أملأ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضًا وألصقه مخالفًا فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه . وكان ما يزال يُغْرب فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزمًا للغة العامَّة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى  فوَاوَيْلى إذا فَرَّخْ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أنا أنا أنت أنا  أيا أبـو العبرنَّهْ
أنا الفتى الحمقوقو  أنا أخـو المجنَّه
أنا أحـرّر شعرى  وقد يجى بَرْدَنَّـهْ

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلا وطلبًا لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذه الشعراء « الأدباتية » الذين خلفوه إمامًا لهم فى مثل هذا الهزل وماكان يَسْلكه فى أشعاره من ألفاظ العامَّة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُدية الذين ذهبوا مذهب أبى العبر فى التحامق والهزل أبو العجل[١] وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درّتْ عليه خيراً كثيراً وأموالا وبغالا وغلمانًا ، يقول :

أيا عاذلى فى الحُمْق دَعْنى من العَذْلِ     فإنى رَخِيٌّ البالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرْنى بِما أَحببتَ آتِ خلافَه     فإن جئتَنى بالجِدِّ جئتُك بالهزلِ
وإن قلتَ لى : لِمْ كان ذاك؟ جوابه     لأَنى قد استكثرت من قلَّة العقل
فأَصبحتُ فى الحَمْقَى أميرًا مؤمَّرًا     وما أَحدٌ فى الناس يمكنه عَزْلِى
وصيَّر لى حُمْقِى بِغَالاً وغِلْمَةً     وكنت زمانَ العقل ممتطياً رِجْلى

فلا داعى للعذل واللوم فإن حرفة الكُدْية جعلته سيداً مطاعًا وأثرته ثَرَاءً واسعًا ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحّبون به فى كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون فى بلدان العراق وغير العراق ، جوّالين مكثرين من الأسفار فى الاحتيال لجلب الأموال ، وفى ذلك يقول أبو العجل لبعض من عذلوه على كُدْيته وحرفته :

أَعَلَى الحماقة لُمْتَنِى     قد كنت مثلَك أولا
فدخلت مصرَ وأَرضها     والشامَ ثم المَوْصلا
وقُرَى الجزيرة لم أَدَعْ     فيها لِحَىٌّ منزلا
إلا حَلَلْتُ فِنَــاءَهُ     بالعقل كى أتمــوّلا

ومن اتخذ الكُدْية حرفةً فى العصر أبو عبد الله اليعقوبى وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزبانى أشعاراً[٢] تدخل فى الزهد . ونقف قليلا عند جحظة والخبز أرزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

---

(١) انظر فيه وفى أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

**جحظة** (١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطُّنْبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبيخ والنجوم ، وله فى الطُّنْبُوريين كتاب غير كتب أخرى فى عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومنادمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذى لقبه بجحظة لقبه الذى اشتهر به إذ كان فى عينيه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

وارَحْمَتــا لمنادميه تحمَّلوا ... أَلَمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان الخليفة المعتمد يقرِّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تُفْتَحْ له بعده ، وفُتِحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفى وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقى على شىء يتَّصله من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعته الطنبورية لعاش معدمًا . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعسة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورُّون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضًا لما قيل من أنه كان دائمًا وسخ الثياب ، وكان شيعيًّا ، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم فى وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعًا للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور فى بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدَّث هو نفسه ، قال : كنت يومًا عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِى فلم أجده ، فجعلت أقول :

يا قومُ مَنْ لِى بنَعْلى ... أَو فى مصحَّف نَعْلِ

يقصد بَغْلا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضًا ، وكثير منها يحكى قصة بؤسه من مثل قوله :

---

(١) راجع فى جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

أنا الذى دينُه إسعافُ سائلهِ والضُّرُّ يعرفه والبؤسُ والعَدمُ
أنا الذى حُبٌّ أَهلِ البيتِ أفقرَه فالْعَدل مستعْبِرٌ والجَوْرُ مُبْتَسِمُ

وهو يعلِّل لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أنْ يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ الله لم أَقلْ قطُّ يا بَدْ رُ ويا مُنْصفاً ويا كافورُ
لا ، ولا قلت أَين أَين الشواهِـــينُ ووزَّانُنا وأَين البذور[1]
لا ، ولا قيل : قد أَتاك من الضَّيْ عة بُرٌّ موفَّرٌ وشَعير
أنا خلوٌ من المماليك والأَمْ لاك جَلْدٌ على البَلا وصَبُور
ليس إلا كُسَيْرةٌ وقُدَيْحٌ وخُلَيْقٌ أَتتْ عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بَدْر ومُنْصف وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزَّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يَجْنون من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك ولا مماليك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما يَقُوته من كِسْرة وقدح ماء وثوب خَلَقٍ أكل الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلىء حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبْ ولا على باب منزلى حاجبْ
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قِيلَ جحظةٌ راكبْ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَميصىَ الذاهب
وأجرةُ البيتِ فهْى مُقرِحةٌ أجفانَ عينى بالوابل الساكب

---

(١) الشاهين هنا : عمود الميزان .

إن زارني صاحبٌ عزمتُ على بَيْعِ كتابٍ لشَبْعةِ الصاحبْ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلاحمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كُسِيَ كسوة حسنة ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه ، بل يُبْكيانه ، حتى لقد تقرّحت أجفانه الكثرة بكائه ، ولا من رحيم يرقّ قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشترى له به بعض ما يقيم أوَدَه . فيا للبؤس ويا للظلم الصارخ الذى جعل أبناء الشعب يكْدَحون ويَضْنون والحكام يَجْنُونَ ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُبْقون لهم منها إلا الذلّ والهوان . وينتابُه مراراً الشك فى حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبي ضَجِرْتُ من الأَدَبْ ورأيتــه سببَ العَطَبْ
وهجرتُ إعرابَ الكلا مِ وما حفظت من الخُطَبْ
ورهنتُ ديوان النَّقــا ئضِ واسترحتُ من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفة الأدب التى لم يجن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فمع نفاسته رَهَنه ليَسُدّ به رَمَقه ، وكأنما أحسّ فيه وفى غيره من كتب الأدب التى صمَّم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تَبْهظ كتفيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعيًّا أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية فى عصر المقتدر وأن يصبّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد فى النعيم ، ولا ضَيْرَ من أن يعيش الشعب فى الجحيم ، لذلك كان طبيعيًّا أن يتمنى للوزراء أن تَحيق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه فى عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنَّى ؟ فقال تَوًّا : لم يبق لى مُنًى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكب ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أَحسنُ من قهوة معتقة تخالها فى إنائهــا ذهبا

من كفٍ مَقْدودةٍ منعَّمةٍ تَقْسمُ فينا ألحاظُها الوَصَبا[1]
نعمةُ قومٍ أزالها قَدرٌ لم يَحْظَ حُرٌّ فيها بما طلبا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمر نشوة لا تَعْدِلها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئًا مما كان فيه من نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلمًا وشرًّا ونُكْراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التى حرمت الأحرار كل برٍّ وكل خير . وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ، وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء فى قالب فكه من مثل قوله فى صديق :

دعانى صديقٌ لى لأكل القطائفِ فأمعنتُ فيها آمناً غير خائفِ
فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَك مَهْلاً فهْىَ إحدى المتالفِ
فقلت له : ما إن سمعنا بهالكٍ ينادَى عليه : يا قتيلَ القَطَائفِ

وكانت القطائف صادفت منه مسغبة وجوعًا شديداً ، فأكل منها أكل النَّهِم وصديقه ينظر إليه شزْراً ، فقال له : إنى أخاف عليك التخمة ، بل التلف والهلاك ، فردَّ عليه هذا الرد الظريف . وله فى قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورةَ المائِدَه

وتُرْوَى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على الرغم من قبح وجهه ورثاثة ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجَّاب وغير الحجاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع شعره على ألسنة الصبيان فى الشوارع والأزقة . ومن قوله فى ثقيل :

يا لفظةَ النَّعْيِ بموت الخليلْ يا وَقْفَةَ التَّوْدِيع بين الحُمولْ

---

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب : التعب

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلا أقفرَ من بعد الأَنيسِ الحلولْ
يا نِعمةً قد آذنتْ بالرَّحيلْ ونكسةً من بعد بُرْءِ العَلِيل

ويستمر طويلا فى وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التى تجعله تمثالا لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة فى أسوأ صورها ، لكى يَـصمه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور فى أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشتى له بعض أشعار فى الخمر كان يغنيها على طُنْبُوره من مثل قوله فى دَيْر أُشْمونى ولهوه فيه :

سَقْياً لأُشمونى ولذَّاتهـــا والعيشِ فيما بين جَنَّاتهـــا
سَقْياً لأَيامٍ مضتْ لى بها ما بين شَطَّيْها وحاناتها

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلا لقلة أشعاره فيها ، وربما كان الذى أقعده عنها بؤسه الذى كثيراً ما كان يرافقه . وله فى الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ علىَّ يَقْظَى فجُـــودِى فى المنام لمستهامِ
فقالتْ لى : وصرتَ تنام أَيضاً وتطمـــع أَن أَزورك فى المنام

وقد توفى سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الخصبة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهى أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامة فى بغداد .

## الخُبْزُ أُرْزِيّ(١)

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَخْبِزُ خُبْزَ الأرزِ فى دُكّانه بِمِرْبَد البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفى أثناء عمله كان يُنْشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والشبابُ والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجّبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع فى الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعُنى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دُكّانه بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديوانًا ، وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجوّدين فى البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضًا : « أكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره » . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان فى بلدته والشباب والصِّبْية ينشدونه فى كل مكان والمغنون يغنُّون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسنًا لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبى فى اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وطَىِّ أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمِّن كتابه « اليتيمة » لُمَعًا من شعره علقت بحفظه ، وفى الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقى شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من مُلَحه . وبذلك فوّت على نفسه عملا أدبيًّا ونقديًّا جليلا كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعْرَض كاملة ، حتى يُرَى مدى ما حدث من تطور فى اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء فى جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرَى أيضًا مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

---

(١) انظر فى الخبز أرزى وحياته وأشعاره اليتيمة ٢/٢٦٧ ومروج الذهب ٤/٢٥٩ وابن خلكان فى نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٦ وديوان المعانى ١/٢٧٢ ، ٢٩٧ وزهر الآداب ٢/١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مُلَحه التى رواها له قوله :

خليليَّ هل أبصرتما أو سمعتُما بأكرم من مولًى تمشَّى إلى عَبْدِ
أتى زائرًا من غير وَعْدٍ وقال لى أصونُك عن تعليق قلبك بالوَعْدِ
فما زال كأْسُ الوصل بينى وبينه يدورُ بأفلاك السعادة والسَّعْدِ
فطورًا على تقبيل نَرْجِسِ ناظرٍ وطورًا على تَعْضيض تفاحة الخَدِّ

وفى كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقَّتَه وأنه يَخْشَى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان فى التصوير . ومما روى له الثعالبى أيضًا من مُلَحه قوله :

كم أناسٍ وَفَوْا لنا حين غابوا وأناسٍ جَفَوْا وهم حُضَّارُ
عرَّضوا ثم أعرضوا واستمالوا ثم مالوا وجَاوَرُوا ثم جاروا
لا تَلُمْهم على التجنِّى فلو لم يتجنَّوا لم يَحْسن الإعتذارُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يَفْقَهُ صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيهافقها حسنًا. فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَّار» وبين كل كلمتين متعاقبتين فى البيت الثانى جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح فى البيت الأخير . والكلمات عذبة حُلْوة خفيفة . ومن مُلحه قوله :

رأيت الهلالَ ووجهَ الحبيبِ فكانا هلالين عند النَّظَرْ
فلم أَدْرِ من حَيْرتى فيهما هلالَ الدُّجَى من هلال البشَر
ولولا التورُّد فى الوَجْنَتَيْنِ وما راعنى من سواد الشَّعَرْ
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ وكنت أظن الحبيبَ القَمَرْ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقا بتلك الحيرة التى انتابته ، فلم يَدْرِ أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

توردُ الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقًا فى حيرته . ومن مُلَحه :

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ فاليوم لو شئتُ تمنطقتُ بِهْ
وذُبْتُ حتى صِرْتُ لو زُجَّ بى فى مُقْلة النائم لم ينْتَبِهْ

وهى مبالغة واضحة فيما أصابه من ضَنًا بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التى كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده ، وكأنه توفَّر على الشعر فى عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثَّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهًا مما جعله محبوبًا عند أهل البصرة فى حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قولُه فى قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمرى كان الخِوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِــوانِ
وجِفانٍ مثل الجَوابى ولكنْ ليس فيهن ما يُرَى بالعِيانِ[1]
فإذا ما أدرتُ فيها بَنــانى لم أجدْ ما أمسُّه ببَنانِ
إننى ما ضغٌ على غَيْر شىءٍ غير صَكِّ الأسنان بالأسنانِ
ترجع الكفّ وهْى أفرغ منها عند مَدِّى لها فَدأْبى وَشانى

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصرى خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقًا شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التى كان ينشدها فى خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلَّها بقوله :

بات الحبيبُ منــادمى والسُّكْرُ يَصْبِغُ وَجْنَتَيهِ

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبى بالمعنى الدقيق ، فقد نظمه صانع من صناع الشعب، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

(١) الجوابى : أحواض الماء

به وعَرْضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدّم أشعاره للجمهور ، متبغياً إرضاءه بتصويره لأحاسيسه فى الغزل ، وباتخاذه لُغَتَه السهلة التى لا تجد فى فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبَّى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول المسعودى أُشيع أن الوزير البريدى غَرَّقه لأنه كان هجاه ، وقيل : بل فَرَّ من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفى هناك ، ومهما يكن فقد حزنت البصرة وشبابها لوفاته ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلا .

# الفصل الثامن

## نشاط النثر

### ١

**تطور النثر**

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن النثر العربى تطوَّر تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمْلاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان فى اللغة العربية طاقات مستكنَّة لكى تحمل فى يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبَّى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفى مقدمتهم ابن المقفع. ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس فى الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمَّى العصر العباسى الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر فى كثير مما تُرْجم فى العصر الماضى ، وكانت عامةُ الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر فى كتاب تُتَرْجَمُ حرفيًّا ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشىء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب فى التعبير . وكان ذلك دافعًا للمترجمين أن يعيدوا النظر فى كثير مما تُرْجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعانى لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم فى ذهنه دون التقيد الحرفى حتىَ يطَّرد نسق الكلام ولا يظهر فيه شىء من الاختلال الذى كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية. وحقًّا من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذًّا وعُدَّ فى الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافًا من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النسَّاخ على مر العصور فى كتاباته، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جدًّا، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتَدُلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعَد شخصية نادرة بين مترجمى العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسّ المترجمون فى العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف فى التعبير ، وتنبَّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسْبًا للنثر العربى فإن الضَّيْمَ الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها. واتبع حنين بن إسحاق — أكبر مترجمى العصر — منهجًا فى ترجمته أن يجمع للكِتاب المترجَم كلَّ ما يمكنه من مخطوطاته، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلا بين عباراتها، محاولا أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة فى العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَلُ بين يديه كثير من الشباب فى مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصْلح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتابُ الخطابة لأرسطاليس ، ترجمه إسحق بن حنين ويَنص ابن النديم فى الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلا آخر ، ولا يعيِّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة فى هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَتْ فى أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد فى ترجمة متَّى بن يونس لكتاب أرسطاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما فى ذهن متَّى رسما بيِّنًا ، إذ كان السريان — مثل العرب — لا يعرفون شيئًا عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متَّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والتعثر موجودين فى الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة فى هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعانى التى ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذى لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم، إذ ذللها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة فى بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، فطبيعى أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسى الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء ، بل أخذ يجرى فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية فى التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازناً دقيقين بين الألفاظ والمعانى التى تؤديها ، بل إن منهم من شارك فى الشعر والنثر مثل الكندى أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب، فقدُ أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة، سنعرض لها فى موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفَقِهَ أسرارها وخصائصها فقهاً جيداً ، ونضرب لذلك مثلا من أسلوبه الفلسفى ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده، يقول[1] :

« إن فى الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضحَ الدلالة على تدبير مدبِّر أول ، أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوِّناً لكل مكوَّن ، وأولا لكل أولا ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدانَ الحق وخواصه [معرفة] الحق وغرضه الإسنادَ للحق واستنباطَه والحكمَ عليه . والمزكّى عنده — فى كل أمر شَجَر بينه وبين نفسه — العقل . فإن مَنْ كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوفُ[2] سُدَفِ الجهل ، وعافت نفسه مشارب عَكَر العُجْب ، وأنِفَتْ من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشتْ من تولُّج[3] ظُلَمِ الشبهات ، وخرجت من الرَّيْب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

---

(١) رسائل الكندى الفلسفية تحقيق الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر) ص ٢١٤ .

(٢) سجوف : أستار . سدف : ظلمات.

(٣) تولج : دخول .

اقتناء ما لا تجد، وتضييع ما تجد، فلم تضاد ذاتهـا ولم تتعصب لأضدادها. فكُنْ كذلك، كان الله لك ظهيراً، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح لك أن الله، جلّ ثناؤه، وهو الإنيّة (الموجود) الحقّ التي لم تكن ليْساً أبداً، لم يزَلْ – ولا يزال – أيْسٌ أبداً، وأنه هو الحي الذي لا يتكثَّر بتّةً، وأنه هو العلة الأولى التي لا علة لها، الفاعلة التي لا فاعل لها، المتممة، التي لا متمم لها . . . وإن فى نظْم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير».

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية، وما المعنى الذى يريد أن يوضحه الكندى؟ إنه يريد أن يقول إنما يبصره الإنسان من ظواهر الكون ويحسه من مشاهده ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون، وضع له قوانينه، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب، كما يشهد بذلك نظامه الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية مُطْنَبة، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى فى قوله: «أعنى مدبراً لكل مدبر، وفاعلا لكل فاعل، ومكوّناً لكل مكوّن، وأولا لكل أول، وعلة لكل علة»، فقد عبَّر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية، ليقوّى المعنى، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحَظ فى التكرار الصوتى. وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى تخلب ألباب السامعين، على نحو ما نقرأ فى قوله: «فإن من كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوف سُدَف الجهل، وعافَت نفسه مشارب عَكَر العُجْب، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو، واستوحشت من تولُّج ظُلَم الشبهات»، والصور متلاحقة فى هذه العبارات، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب فلسفى. وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما، فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية. وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنيّة) بمعنى

( الموجود ) واصطلاح ( ليس ) بمعنى المعدوم و ( أيْس ) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات فى الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندى كما قلنا آنفًا على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقًّا لم يكن مَنْ وراء الكندى من المتفلسفين يبلغون مبلغه فى العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعًا عُنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدرما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البيانى فى النثر . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق : ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التفَّ حولهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر فى علم النجوم وفى المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائمًا عن الكَوْن والفساد ، وسَمْع الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه فى الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوقَ المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقٌ كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خَطَل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربى له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفَّاة . وينبغى ألا نعدل عن معاييره الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوقَ علماء اللغة المحافظون ومن سار فى فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين فى رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين فى رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفًا وسطًا بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتدّ بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر فى المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربى . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحَظ فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يَعْرِض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربى إلا ويسجِّلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التى استطاع الحصول عليها — فى البلاغة دون أن يُعْلى فريقًا على فريق أو ينصر فريقًا ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخريين فى وضع قواعد البلاغة النثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسى الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة فى الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم فى حِجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحيانًا فيما بين أفرادها ، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يَقْرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضًا . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغى فى ألفاظ العبارات أحيانًا من رشاقة وعذوبة وأحيانًا أخرى من جزالة ورصانة ، وما ينبغى للمعانى من وضوح مهما دقَّت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هى التى فرَقت بين الحقيقة والمجاز وأعدَّت لمباحث البيان العربى المعروفة[١] . ويلقانا فى هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذى ذكرناه آنفًا ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التى أوصى بها المتكلمون الأدباء، حتى يحوزوا لأنفسهم بيانًا ناصعًا رائعًا . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ،لأنه هو الذى عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه، ومن أهم ما ردَّده طويلا فكرة مطابقة الكلام للسامعين ،فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماءالكلام بكلام الأعراب المتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام أو فى مخاطبة أهله . . أو فى حديثه إذا حدث أو فى خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام فى صناعة الكلام، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل[٢] » . ولا يمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح، وألا يوجز كاتب ولا عالم فى كلامه حتى يصبح ألغازاً، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ،يقول : « متى شاكل – أبقاك الله – اللفظُ معناه ، وأعرب عن فَحْواه ، وكان لتلك الحال وَفْقًا، ولذلك القدر

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤.

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

لِفَتْقًا ،وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع »[١] . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها فى مكان وسوئه فى مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ،والناس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى مواضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يَفْصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»[٢] . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرَّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره فى نفوس السامعين[٣] ، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال[٤] صوتى ، وكأنه هو الذى أعدَّ لهذين الأسلوبين كى يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ،وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً فى أسلوبه ، واستخدم السجع قليلا ، وتردَّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل . وبذلك هيأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسِّنات محسِّنا عقليًّا هو « المذهب الكلامى» ويريد به الجاحظ دقة حِيَلِ المتكلمين فى الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ فى البيان والتبيين وكذلك فى الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدَّمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ فى الغرابة مبلغ نماذج ثعلب فى

(١) البيان والتبيين ٢ /٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ /٢٠ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤،٢٩٧،٤٠٨ .

(٤) البيان والتبيين٢/١١٦ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء فى عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزّعها على ثلاثة أنواع ، فهى إما للتعمية وإما لتحاشى اللفظ الخسيس وإما للتفخيم[١]، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد[٢]. والكتاب يمثل ذوقًا محافظًا ، فليس فيه أى شىء يتصل بآراء الأجانب فى البيان والبلاغة ، وليس فيه أىُّ استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرف فى موضع آخر أنه كان مثقفًا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، يجنح فى ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة فى كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرّف الكُتَّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرب يذهب الناس إلى أنه فى الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفَّةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع[٣] ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا فى مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن فى الخير والشر ، والجمع مآتم ، والصواب أن يقولوا كنا فى مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء[٤]. ويظل يفتح نحو خمسين بابًا لتعليم الكُتَّاب ألفاظًا يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعْرَفُ واحده ويُشْكِل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصًّا فيها على ما يسبِّبه السماع للعامة من الوقوع فى الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحًا وهم يكسرونه إلى جمّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفى أثناء ذلك يعقد بابًا طريفًا[٥] لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمى ، سواء

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .
(٢) الكامل ص ٥٠٦ .
(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٢٢ .
(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .
(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

أكان أصله روميًّا أم نبطيًّا أم فارسيًّا أم سريانيًّا . والذوق العام فى الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

ونلتقى بكاتب بغدادى تخرّج على يد كتّاب بغداد العظام ورحل إلى قرطبة ثم إلى القيروان والتحق بدواوين الدولة الأغلبية ورأس ديوان الإنشاء بها هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى المتوفى سنة ٢٩٨ وقد صنّف على ضوء الذوقين اللذين وصفناهما للبيئتين السالفتين رسالة[1] بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يُشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حِذْقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرْس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وأبو اليسر بذلك كله يلتقى بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقى بعلماء اللغة والتصريف ، فهو يستضىء بهم جميعًا . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر فى نَزْع آى القرآن الكريم ووضعها فى مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تُسْتَحَبُّ فى مخاطبة الخلفاء ، وهو فى هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[2] وقد استمد منه كثيراً فى رسالته . والمهم أنه يشيد فى تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنبًا إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقًا . ويتحدث عن زِىِّ الكاتب وحسن هندامه ، ويطالب — فى إلحاح — كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش

(١) فى الطبعات السابقة من هذا الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى نسبت هذه الرسالة إلى الكاتب إبراهيم بن المدبر متابعة للأستاذ محمد كرد على الذى نشرها فى كتابه : « رسائل البلغاء » ونسبها إليه ، وتبين لى أخيراً أن نسبتها إليه مخطئة وأن الرسالة من صنع أبى اليسر الشيبانى المذكور ، بشهادة نصوص منها اقتبسها القلقشندى فى صبح الأعشى ٢ / ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٣ / ٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظَّرْف . ولابد - كما قال الجاحظ مرارًا وتكرارًا - من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعانى ، حتّى توضع الألفاظ فى مواضعها وتنزل مواطنها . ثم يتوقف — مهتديًا بابن قتيبة — إزاء أبنية ينبغى تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلا » ليس مُسْتَحَبًّا ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لافرق فى المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزنًا وأنبه قدرًا .

ولابد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلًا لذلك أن شخصًا كتب إلى داود بن خلف الأصبهانى معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : «وإن قال كذا فقد خرج عن المِلَّة ، والحمد لله » وردّ عليه داود متعجبًا عن وضع الحمد فى هذا المكان قائلا : «تحمد الله على أن تُخْرِج امرءاً مسلمًا من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال فى المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويَطْلُبُ أبو اليسر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصًا ، والشكر لله واجبًا » . ويمضى فى إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز فى الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجرى فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسّ ثقلها فى مثل « كلمت إياك » . ويُبْدِئ ويُعيد — على ضوء الجاحظ — فى أن الألفاظ ينبغى أن توضع فى مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال فى مقدمات الرسائل بحيث تشير فى صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات فى الكتابة ، ويقول إنها ينبغى ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفيض فى أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بَرْيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويَلْفت إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلةً مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قال : لكذا ليلةً بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطَيِّها . ويشير — على هدى ابن قتيبة — إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ فى أماكنها ، ويَنْهَى – كما نهى المتكلمون من قبل – مَنْ ليست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام فى هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتَّابى ، رأيه فى اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعَرْض ما يكتبه فى باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . ويَنْهى – على هدى الجاحظ – عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتَّاب إذ قال: « ما رأيت قومًا أمثل طريقة فى البلاغة من الكُتَّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية ، وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله فى النِّصْبة التى تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضًا عنه حَدَّه للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبيِّن أهمية الكتب المحبَّرة تحبيراً جيداً فى استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللَّجبة . ثم يسوق صفحات جلَبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضًا الصحيفة التى دوَّنها الجاحظ عن الهنود فى البلاغة ، ويتلوها بما دوَّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن أبا اليُسْر وضع نُصْبَ عينه فى كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثراً .

وحتى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذى نُشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبيَّن فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل فى دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدى والمعتمد ، وتوفى سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه فى مستهل كتابه يُزْرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعى لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التى كانت تعارض المتكلمين فى مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا فى رأيه كتابات أرسطو فى المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث فى العقل تدل على أنه شيعى إمامى ، ويعقد فصلا للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جُعل عماداً وعياراً على العقل كما جُعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض فى مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير فى كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالا له أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنثور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذى حذّر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وإقليدس كانا شديدى الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلا فى نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع فى تشريعه للنثر العربى ووضْعه لمعاييره فى الأخذ عن كتابى أرسطو فى المنطق والجدل . وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربى ، ولذلك لم يَلْقَ هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره فى أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً فى كتاباتهم عن الخطابة والنثر ، إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء فى العصر ، وظل ذلك حقباً متطاولة ، وهى كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوّماتها حيّةً ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يَجْنِى على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبى العام ، وكان لذلك أثره فى أن ازدهر النثر العربى وأخذت موضوعاته تتنوّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهارَ الجاحظُ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعْنَى بتصوير الطبقات فى مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويَفْسَحُ

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكَدِّين وحيلهم والقيان والمرأة . وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمَر التى كانت تُقرَأ فى كل مكان . وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية قائمًا ، وكان أهم ما تُرجم فى هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفهَم من كلام المسعودى عنه أن حكايات السنْدباد لم تكن جزءاً منه فى عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم هندى يسمى السندباد ، وهى تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ، وامرأة الملك . ويذكر المسعودى أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرْجمت عن الرومية[١] . ومما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألَّفه أحد معاصريه وقدَّمه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وهو يصور نُظُمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم . ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدمًا فى هذا العصر ، ولكن أخذت الشخصية العربية تُثْبت وجودها فى قوة ، فبمجرد أن تُرْجم كتاب ألف ليلة وليلة ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابًا على نسقه به ألفُ حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت فى العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التى تصوِّر أحوال الحمقى وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التى تصور أخلاق العامة مثل كتابات مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغتام للصَّيْمَرى .

وكثرت كتب الأدب التهذيبى ، وممن أكثر منها ابن أبى الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ وقد نُشر فى القاهرة مختصر صنعه السيوطى لكتابه الفرج بعد الشدة ، وكانت له كتب مختلفة فى مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

---

(١) انظر فى ذلك كله مروج الذهب ١/٩٧ ، ٢/٢٥١ .

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان فى الأخبار وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ومثلهما أبو بكر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها[1] . ويبدو أنه اعتمد فى وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ فى جوانب من كلامه على نحو مالاحظ المسعودى إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدرى كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . إنما كان ينقل من كتب الورّاقين[2] » . وملاحظة المسعودى صحيحة ، ولكنها لا تغض من أهمية هذا الكتاب الذى فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقبت بعد ذلك الكتب فى هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار فى كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها فى السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبى البارع .

## ٢

### الخطابة والمواعظ والنثر الصوفى

ضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

---

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجرى (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

التي حكاها الطبرى عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه[١] بحيث لا نكاد نتبينها فى وضوح . وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة فى المساجد وفى خطب الجمع والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الورِع الذى ظل فى الحكم نحو عام ، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامرَّاء فى كل جمعة ويخطب الناس ويؤمّهم[٢] ، ويُرْوَى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب فى بعض الأعياد ، فأُرتِجَ عليه ولم تُسْمَعْ خطبته[٣] ، ولم يخطب خليفة بعده فى العصر سوى الراضى ، ولم تُؤْثَرْ خطبه .

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطًا عظيمًا فى المساجد فقد كانت تُعْقَدُ حلقات للوعاظ والقُصَّاص وكان الناس يتحلَّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد ، وكان منهم الرسميون الذين تعيِّنهم الدولة للخطابة فى أيام الجمع ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر . وكانوا يستمدُّون فى وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوى وقصص الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره ، وكانوا يُعْنَوْنَ بعَوْن الضعفاء والمَساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين فى ذلك بأعمال البِرّ . وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ فى الحرب وبَثّ روح الحماسة الدينية فى نفوس المجاهدين من مثل أبى العباس الطبرى الذى مَرَّ ذكره والذى كان يعظ ويقصّ على المجاهدين فى طَرَسُوسَ . ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاصّ بعد الصلاة . وكانت العامة تشغف بهم شغفًا شديداً ، حتى ليُحكى عن الطبرى أنه تعرَّض لقاصّ ببغداد يُنْكر عليه بعض ما يقوله ، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة . ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قُصَّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان فى الطرقات ببغداد ويقصُّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية ، وكانوا يُسْلَكون فى المشعوذين ، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصَّاص الوُعَّاظ ،

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٩٦ .
(٣) طبرى ١٠ / ٣١ .

ولا صلة بين الطرفين إلا فى الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحيانًا كما مَرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، أما قُصَّاص المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بنى أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسْنَد إليهم القصص فى المساجد يُسْنَدُ إليهم القضاء[1] . أما الوعَّاظ فكان منهم دائمًا خطباء المساجد فى الجمع والأعياد وأئمتها فى الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَحَاءَ بُلغَاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكْبِرين لهم إكباراً عظيمًا .

وكانت المساجد دائمًا مفتوحة ليلا ونهاراً ، ودائمًا يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعاظ الذين شهدتهم بغداد فى العصر أبو الحسن على بن محمد الواعظ المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمَّون بالمذكِّرين ، ويسمَّى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممتلئين صلاحًا وتقوى وورعًا ، وكانوا يعظون الناس فى المساجد وفى الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آى القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التى تَأْسِرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم فى العصر يحيى بن معاذ الرازى المتوفَّى عام ٢٥٨ ويُرْوَى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظُ الواعظِ لَنْ تُقْبَلاَ حتى يَعِيها قَلْبُهُ أوَّلاَ

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهيالا . ومن أكبر وُعَّاظهم فى العصر أبو حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مَرَّ بنا فى الفصل الثانى — أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد خالطًا مواعظه باصطلاحات

(١) الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمّ والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعّاظ يَجْذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورَفْض كل متاع .

وتكوّنت حول هؤلاء الوعّاظ من المتصوفة سريعًا حكاياتٌ كثيرة تصوّر جهادهم العنيف فى قَمْع شهوات النفس ولذاتها وكيف كان الصوفىُّ يَفْرض على نفسه عَناءً شاقًّا مُضْنِيًا لا يُطيقه إلا أولو العَزْم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفى إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالا ثقالا ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن بشر الحافى المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يُفْطر إلا فى كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردّدون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يُبْكيك ؟ فقال : إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يومًا ولم أفْطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفًا منه سبحانه[1] وكرمًا . ويُحْكى عن السَّرِىّ السَّقطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد ( لحم مقدّد ) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التى تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام[2] ! . ويَرْوِى ابن أخته الجُنَيْد أنه دخل عليه يومًا ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يُبْكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية ، فقالت : يا أبَتِ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إنى نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلتْ من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرّد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته[3] . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السَّرِىُّ نفسه من الشظف فى العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُوَيْم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعًا ، أنه اجتاز فى بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

---

(١) رسالة القشيرى ( طبعة سنة ١٣٤٦هـ بمصر ) ص ٢٠ .

(٢) القشيرى ص ١٠ .

(٣) القشيرى ص ١١ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذه منها وشرب ، فاستدارتْ له قائلة : صوفيّ يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[١] .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكوّن ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالا ونساء وشيباً وشبّاناً ، وكأن التصوف كان عاملا قويًّا فى ظهور تلك الآداب وَطبْعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التى أخذت تُؤْثَرُ عن كرامات المتصوفة ، ومرَّ بنا فى الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف فى تلك الكرامات كتابًا سمَّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله فى أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة. وممن تكثر إضافة الكرامات إليه فى هذا العصر بُنان الحمَّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطْرَحَ بين يدى سَبُع ، فطُرِح وبقى ليلته، وجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسَّبعُ بين يديه. وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه[٢]. وحُكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح ( حلوانى ) فاشتر رطل حلواء وائتنى به ، أدعو لك ، ففعل الرجل، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلْواء ، ففتحها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خُذْها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُّ المتصوفة ، وهو ما يعنينا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على ألسنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملا قويًّا فى العصر على ذيوع لون شعبى جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنَّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدى. ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم فى العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتًّا، فيُحكَى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلانًا يمشى فى ليلة إلى مكة، فقال :

(١) القشيرى ص ٢١ .

(٢) انظر فى هذه الحكاية وتاليتها النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢١ .

الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله . وقيل له : فلان يمشى على الماء ويطير فى الهواء ، فقال : الطير يطير فى الهواء والسمك يمر على الماء[١]. وجاء رجل إلى سهل التسْتَرى المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء ، فقال له : سَلْ مؤذّن المحلّة ، فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فى بعض الأيام ليتطهر ، فوقع فى الماء ، فلو لم أكن أنا لبقى فيه[٢] . ويُرْوَى عن بعض الصوفية أنه قال : كان فى نفسى شىء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزّتِك لئن لم تخرج لى سمكة قدرها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى ، قال : فخرجت لى سمكة قدرها ثلاثة أرطال ، فبلغ كلامه الجُنَيْد ، فقال : كان حقه أن تخرج له أفعى تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فيما جرى على أيديهم من الكرامات أدبًا شعبيًّا قصصيًّا كان يدور بين الناس . ولون ثالث من هذه الحكايات كان يقص أخبار المتصوفة لعل خير ما يصوره كتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحكايات عنه بألسنة تلاميذه ، تحمل أحواله وآراءه ومُعتقده ، فمن ذلك ما رواه تلميذه إبراهيم الحلوانى ، قال[٣] :

« دخلت على الحلاج بين المغرب والعشاء ، فوجدته يصلى فجلست فى زاوية البيت ، كأنه لم يحسّ بى لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلّم سَجَد وتكلّم بأشياء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فى الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه ، ثم قال : يا إله الآلهة ويا ربَّ الأرباب ويا من ( لا تأخذه سنة ولا نوم ) رُدَّ إلىَّ نفسى لئلا يفتتن بى عبادك . يا هو أنا ، وأنا هو ، لا فرق بين إنّيّتى ( وجودى ) وهُويّتك إلا الحدوث والقِدَمُ . ثم رفع رأسه ونظر إلىَّ وضحك فى وجهى ضحكات ، ثم قال : يا أبا إسحق أما ترى أن ربى ضرب قِدمه فى حدوثى حتى استهلك حدوثى فى قِدمه ، فلم

(١) القشيرى ص ١٦٣ .
(٢) القشيرى ص ١٦٤ .
(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

يبق لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطـْق فى تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون علىّ ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى . وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون » .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه بتحمله للآلام الثقال أصبح — كما يزعم — فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرّق بين نفسه وربه ، فقد امتزج الحدث أو الحداثة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس ، فهم جميعاً يستشعرون الحدوث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو — كما يزعم — والقديم شىء واحد ! . وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخلوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبينجانى قال[1] :

سمعت الحلاج يقول : ألزم ( اللهُ ) الكلَّ الحدوث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرضُ يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قُواها تُمْسكه . والذى يؤلفه وقت يفرّقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسُّه . والذى الوهمُ يظفر به التصويرُ يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أيْنٌ . ومن كان له جنس طالبه كَيْفٌ . إنه تعالى لا يظلّه فَوْقٌ ولا يقلّه ( يحمله ) تَحْتٌ . ولا يقابله حَدٌّ ولا يزاحمه عِنْدٌ ، ولا يأخذه خَلْفٌ ولا يحدُّه أمامٌ . ولا يظهره قَبْلٌ ولا يُفنيه بَعْدٌ . ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس ( عدم ) . وَصْفُه لا صفة له . وفِعْلُه لا علّة له . وكونه لا أمَدَ له . تنزّه عن أحوال خلقه . ليس له من خَلْقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم » .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ،فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كلٌّ واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ،لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحدّه حَدّ ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

( ١ ) أخبار الحلاج ص ٣١ .

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسْأل عما يفعل ، أزلىّ أبدىّ ، ليس كمثله شىء ، قديم والخلق جميعًا حادثون . ومر بنا أنه ربما كان أول صوفى دعا للانفصام بين الحقيقة ( التصوف ) والشريعة ، وفى أخباره أنه قال فى رسالة له أرسل بها إلى بعض تلامذته(١) :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ، فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هَوَسًا ، فبقى بلاعين ولا أثر ، إن استعمل الشريعة استعملها رسمًا ، وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يُسْقطون الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ، بل إن المتصوف إذا ظل راقيًا فى مراقى الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ، بل كل شىء حتى التوحيد ! . ولعل فى الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع من ألوان النثر الصوفى ، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم فى مصنفات خاصة ، على نحو ما يلقانا فى كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة تصوّر كتابته الصوفية ، ولتكن القطعة التى كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهى تجرى على هذا النمط(٢) :

« طس سراج من نور الغيب بَدَا وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى من بين الأقمار ، بُرْجُه فى فلك الأسرار ، سمَّاه الحق أميًّا لجمع همته ، وحَرَميًّا لعظم نعمته ، ومكيًّا لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة . . . ( الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همتّه سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذى اسمه أحمد ، ونَعْته أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .
(٢) الطواسين ص ٩ — ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جلا الصدأ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحدَث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غمامة برقت ، وتحته برقة لمعت وأشرقت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلها غَرْفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة » .

و«طس»تبتدئ بهاسور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسمًا لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلا فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره المحمدى أول شىء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهومبدأ الوجود وروحه ، وهومنبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله ، فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبى نوره ، بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديمًا بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاءم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولا أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة ، فقدّمها إلى الطبقة الخاصة مُودِعًا فيها من السجع والشعر ما يَفْسَحُ للرمز والتأويل .

# ٣

## المناظرات

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيّأ لظهور كثير من كبار المناظرين فى شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعانى ومدّها بذخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعمق فى مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط فى هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وفسح لآراء أهل السنة ، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة فى بلاط المعتصم والواثق من قبله ، ونقصد أحمد بن أبى دؤاد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم ، ولكنهم لم يتراجعوا عن الوظيفة التى ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل ، فكانوا بالمرصاد للملاحدة ، ومرّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلى الذى ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندى الملحد . وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ،على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ فى كتاباته وخاصة فى كتابه « فضيلة المعتزلة » وتلاه فى رياسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشحّام ، وكان يعاصره فى بغداد جعفر بن حرب المعتزلى ، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السكّاك الرافضى فى علم الله جلّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه[1] ، وفى موضع آخر يحكى المناظرات التى انعقدت بين هذا الرافضى وأبى جعفر الإسكافى المعتزلى قائلا : « وهذه مجالسة مع أبى جعفر الإسكافى معروفة يعلم قارئها والناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين[2] » . وكانت تدور فى مجالس أبى على الجُبّائى المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ ، وكانت ترجح كفّة الأشعرى غالباً . من ذلك مناظرتهما فى الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو على الجُبّائى يوجبون على الله فعل الأصلح ، وقد سأله الأشعرى فى أثناء احتدام

---

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ .　　(٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبى ماتوا جميعًا ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبى من أهل النجاة . وأخذ الأشعرى يراجعه إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمتَ حال الصبى وأنه لو بقى لعَصَى وعوقب فراعيتَ مصلحته ، وعلمتَ حالى مثله ، فهلاّ راعيتَ مصلحتى . حينئذ انقطع الجُبَّائى وألزمه الأشعرى أن الله يخصُّ من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلَّلة[1] .

وكان الخلاف واسعًا بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفى طبقات الشافعية للسبكى أطراف من هذه المناظرات ، ومما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضى رئيس الشافعية ببغداد كان مشغوفًا بمناظرة داود الظاهرى ، حتى إذا توفى داود مضى يناظر ابنه محمداً فى المذهب الظاهرى ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، وَيُحْكى أن ابن داود قال لابن سريج يومًا : أبلعْنى ريقى ، فقال له : أبلعتك نهر دِجْلة ، وقال له يومًا : أمهلنى ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة[2] . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعةٌ معروفةٌ مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد فى مسائل اللغة والنحو[3] . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحيانًا للمبرد فى محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينتزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته[4] .

ومن المناظرات التى اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافى ومَتَّى بن يونس المترجم المتفلسف فى مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافى من علماء النحو النابهين ، وله كتاب كبير فى شرح كتاب سيبويه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعًا فى معرفة صحيح الكلام من سقيمه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدى ونقلها عنه ياقوت فى معجمه[5] ، والطريف أنه يذكر فى فاتحتها من كان فى المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣ / ٣٥٦ وما بعدها .
(٢) السبكى ٣ / ٢٣ .
(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباه الرواة ١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .
(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .
(٥) معجم الأدباء ٨/ ١٩٠ .

أنهم كتبوا المناظرة فى ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافى لمتّى بن يونس عن المنطق ما يَعْنى به ، حتى يكون كلامه معه فى قبول صوابه ورَدّ خطئه على سَنَن مرضيّ وطريقة معروفة ، ويجيبه متى : أعْنِي به أنه آلة من الآلات يُعْرَفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعْرَفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافى :

« أخطأتَ لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن مَنْ لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه ( نحاس ) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عَدُّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شىء ههنا ، ليس كل ما فى الدنيا يُوزَنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرع ( يقاس بالذراع ) وفيها ما يُمْسح ، وفيها ما يُحزْر . وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك فى المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودَعْ هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكره رفضوه . قال متَّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعانى المُدْرَكة ويتصفَّح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافى :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة فى أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحصر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موهتَ بهذا المثال ، ولكم عادة فى مثل هذا التمويه ، ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى لا يوصَلُ إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ » .

ويناقش السيرافى مَتَّى فى ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْفٌ على المنطق فى أثناء هذا الطريق الطويل الذى سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وضعوه . ويقول مَتَّى إنهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغى . ويَحْتَدُّ الجدال ، ويسأله السيرافى عن حرف واحد من الحروف التى يهتمّ بها النحو يدور فى كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة ، ويقول له استنبطْها من ناحية منطق أرسطاليس الذى تُدِلّ به وتباهى بتفخيمه وعرِّفْنا ما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . ويُبْهَتُ مَتَّى ، ويقول : هذا نحوٌ ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقى إلى النحو ، أما النحوى فمحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرّ المنطقى باللفظ فبالعَرَض ، وإن عبَر النحوىّ بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيرافى قوله ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعانى ويسأله عن معانى الواو وكيف أنه يجهلها ، وهى حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معانى جميع الحروف ، ويصوّر له معانيها وأن المنطق الذى يُزْهى به مَتَّى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيجوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع مَتَّى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح فى الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، ويُقْحِمه فى متشابكات نحوية وعبارات موهمة لا يَحُلُّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به . وفى الحق أن لَسَنَ السيرافى وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذى أتاح له الظفر بخصمه فى تلك المناظرة الطويلة التى امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات فى العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة .

وحتّى الكتب المؤلفة فى العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتّى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَنْوَن بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلَّف ردًّا أو نقضًا لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك الجاحظ فى بعض كتبه ورسائله ، فقد بُنيت فى جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبْنَى على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية . وقد يمدح الشىء فى رسالة ثم يذمــه فى أخرى ، وكأنه يكتب منــاظرة فى رسالتين مثــل رسالته فى مدح النبيذ ورسالته فى ذم النبيذ ومثل رسالته فى مدح الكتّاب ورسالته فى ذم الكتّاب ، ومثل رسالته فى مدح الورّاق ( بائع الكتب ) ورسالته فى ذم الوراق. وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبّهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب. ومن رسائله التى أدارها على المناظرة رسالته« فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التربيع والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائمًا مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضوع علمى أو فلسفى أو أدبى ، والمناظر ينتصر تارة، وتارة ينهزم فى تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلّون ولا يملُّون ولا يتوقفون فدائمًا جدل وحوار وتشعيب لدقائق المعانى وغَوْصٌ على خفيّاتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار فى يوم ثان أو اقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر فى المجلس الواحد مراراً ، وفى هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومى مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لذوى الجِدال إذا غَدَوْا لجِدالهم ... حُجَجٌ تَضِلُّ عن الهدى وتجورُ

وهمُ كآنيةِ الزجاجِ تصادمتْ ... فهوَتْ وكلٌّ كاسِرٌ مكسورُ

ويبدو ابن الرومى نفسه فى شعره مناظراً كبيراً ، إذ تُطْبَعُ جوانب من شعره — كما أسلفنا — بطوابع الجدال وما يُطْوَى فيه من قدرة وبراعة على نَسْج الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى . ومرَّ بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة فى قصيدته « النرجس والورد » وهى مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح فى قصص وحكايات وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتَح بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه فى فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة فى كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه فى بعض فصوله نقولا مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطَّرد فى كتبه يعرف تَوّاً أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر فى مستهله عن الجاحظ قوله فى بعض رسائله : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم بالحسد المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحطّ والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بى . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسَلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعتَّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكمَ من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيِّرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة . ويأتمّ بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم يُنْسَبْ إلى تأليفى » . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكى الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره ، فنسبه إليه ، ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . ومما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز[١] ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشمائل ، فكل خلق أو كل شىء تُعْرَضُ محاسنه ثم تعرض معايبه ، وتصوِّر المعايب والمحاسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم[٢] والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية[٣] ، وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعمْ على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شُكرتْ ولا إقامة لها إذا كُفِرتْ . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغِيَرَ »[٤] وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال[٥] ، والأشعار وهى أكثر من أن ندلّ عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصوَّرة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكَّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بنى أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعى .

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة العرفان ببيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .
(٣) انظر مثلا ص ٣٢ .
(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .
(٥) انظر مثلا ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق »[١] ، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كلّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله ، فقال أنساني أولَ كلامك طولُ عهده وفارق آخرَه فهمي لتفاوته ، ولما قُدّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تُقْتَلُ ظلماً قال : وكنت تحبين أن أُقْتَل مظلوماً أو أقتل ظالماً»[٢] . وللملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، ومما جاء فيه[٣] :

« رُوِي عن نافع قال : لقي يحيي بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إليّ كل مؤمن بخيل وأبغضهم إليّ كل منافق سَخِيّ قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خُلقُ الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخيّ قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخي أحب إلى الله عزّ وجل من عابد بخيل ، وأدوأ الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالتْ أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ماسلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة ( عبداً ) وتحمل على فرس مجاهداً في سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة ... وقال الموبذان لأبرويز ( ملك فارس ) : أكنتم تَمُنُّون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصّدون عليه المكافأة ؟قال : ولا نستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .
(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

نرى ذلك وفى كتاب ديننا ( كتاب زرادشت : الأفستا ) من فعل معروفاً خفياً وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره فى الأتقياء والصالحين . وسُئل الإسكندر : ما أكبر ما شيّدت به ملكك ؟ قال : ابتدارى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسطاليس فى رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتى على كل شىء فتُخلقه ( فتبليه ) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ فى قلوب الناس ، فأودِعْ قلوبهم محبةً بأثرك تُبقى بها حُسْنَ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قُدّم بزرجمهر ( وزير فارسى ) إلى القتل قيل له : إنك فى آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُذْكَرُ به ، فقال : أى شىء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسَناً فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابى فى الضيافة فقال الأعرابى : نحن أقرى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حلّ به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمى : فنحن أحسن مذهباً فى القِرَى ( الضيافة ) منكم ، قال : وما ذاك ، قال : نحن نسمى الضيف : مِهْمان ، ومعناه أنه أكبر مَنْ فى المنزل وأملكناله . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية ( قاضى البصرة المشهور فى العصر الأموى ) كثرة مايهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل : أغلقْ هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحْه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقتَ البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القِرَى فنحر ناقة الضيف وعشّاه وغدّاه ، وقال له : إنك أقرضتنى ناقتك فاحتكمْ علىّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أرضيتَ ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل فى المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادى ، وبلغ من جوده أنه خرج فى ركْب فيهم رجل من بنى النَّمِر فى شهر قيْظ ، فضلوا وتصافنوا ( تقاسموا بالحصص ) ماءهم ، فجعل النمرى يشرب نصيبه ويُظْهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساقى : آثِر أخاك النَّمَرِىّ حتى أضرّ به العطش فلما رأى ذلك استحثّ راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْد ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فمات . . .
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتَّق الله سائِلُهْ »

وإنما سُقْنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسطاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعْلي ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدّم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قَصَصٍ . ودائمًا نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميتْ عن قوسٍ واحد ، قال كسرى : أنا على رَدّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتْني وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول(١) . وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فمما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُتْبي على هذا النمط(٢) :

« قال العتبي : كنت كثير التزوج فمررتُ بامرأة فأعجبتْني ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرّفتها موضعي فقالت : حَسْبُكَ قد عرفناك ، فقلت لها : زوّجيني نفسك ، قالت نعم :

(١) المحاسن والأضداد ص ٢١ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض فى مفرق رأسى . قال : فانصرفت ، فصاحت بى ارجعْ ، فرجعت إليها ، فأسْفَرَتْ عن رأسها . فنظرتُ إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ، ما كرهت منا ، وأنشدتْ :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوانى بموضع شَيْبِهنَّ من الرجالِ »

وهى قصة طريفة ، وفى الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة[١] فأُعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمر لى بمثل ما أمر به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فأتنى بذكرها ، قال : عمَّر الله الملك إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمر أن يُكْتَبَ فى ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغُرْم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء غريزية تنبو عن الأذواق[٢] على نحو ما يجرى فى بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وكانت قد تُرْجمت ، فربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف فى ذلك بالشعر المفحش الكثير الذى كان موجوداً فى العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص دينى عن بعض الزهاد ، وقد نلتقى بحكايات صوفية ، بل قد نلتقى بما يصور كرامات المتصوفة التى سبق أن تحدثنا عنها التى كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١ .

(٢) انظر مثلا القصة فى ص١٩٣ و ص٢١٤ .

قال[١] : « عن أبى مسلم الخولانى قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقًا ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقى ، فأتى درب النجّارين ، فملأ جرابه أو مِزْوده من نشارة الخشب ، لتنتفع بها امرأته فى إيقاد التنُّور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هاربًا من زوجته . وأخذتْه فإذا هو دقيق أبيض حُوَّارَى ( فاخر ) لم تر مثله ، فعجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذى جئتنا به » ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثورى لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل فى نقل هذا القصص الكثير الذى يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل فى الأدب الشعبى العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِض ليجسّم وجهين متقابلين فى كل خُلق وكل خصلة ، فمثلا الصدق له محاسنه ، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معايبه ، ولهذه المعايب أقاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أقاصيصها ولمعايبه أقاصيص تقابلها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب فى موضوعاته وأكثر مادّته كتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقى ، وقد أغفلتِ الحديثَ عنه كتبُ التراجم ، غير أنه يُفْهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر فى آخر حديثه[٢] عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه فى زمنه . وهو يستهلّ كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووَصْف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويماثله أيضًا فى النقل كثيرا عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد فى الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

( ١ ) المحاسن والأضداد ص ١٤١ .

( ٢ ) انظر المحاسن والمساوى ( نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ) ٢ / ٢٣٨ .

وفضائله ومساوئ المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوىء مَنْ عادى على بن أبى طالب ومحاسن ابنيه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن على وعبد الله بن العباس وفضائل بنى هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتابين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوىء كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد ، وكأن البيهقى ألَّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش فى القصص ، ثم رأى أن يخرجه إخراجًا جديدًا وينسبه إلى نفسه ، مُتَنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آنفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبْرِزْها بقوة خوفًا على نفسه من المقتدر وحواشيه . وهو فى هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز[1] على نحو ذكره له فى النسخة القديمة أو بعبارة أخرى فى المحاسن والأضداد .

وطبيعى أن تكون مصادر هذا الكتاب هى نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدَّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافى فى المحاسن والأضداد ينطبق بحذافيره على هذا الكتاب ، ففيه بعض آى القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله[2] :

« إن ابن آدم خُلق فى الدنيا فى أربع منازل ، هو فى ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو فى الرابعة سَيِّىء الظن ، يخاف خذْلان الله عزَّ وجَلَّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خُلق فى بطن أمه خَلْقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرَّحِم وظلمة المَشيمة ، يُنْزِل الله جَلَّ وعزَّ عليه رزقه فى جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع فى اللبن لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوى ص ٢٧٦/١ ، ٤٤/٢ ، ٤٥ .

(٢) المحاسن والمساوى ١ / ٤٥٩ .

ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويُكْرَه عليه إكراهًا ، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع فى المنزلة الثالثة فى الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شىء عطف عليه الناس ، هذا يُطْعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤْوِيه . فإذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتدّ واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرْزَق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثرهم على ( يغصبهم ) أموالهم مخافة خذلان الله عزَّ وجلَّ إياه » .

والنص موجود فى المحاسن والأضداد[١] ، ولكن العبارة هنا نُقحت وهُذِّبت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائمًا هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هى التى كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسوَّدة واتخذ الثانى شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُفِّيت وأخْليت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التى تلقانا فى الحديث عن محاسن الولايات ، وهى تمضى على هذا النمط[٢] :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وخلفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلى عملا من أعمال السَّواد ( الأرض المزروعة ) فى العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعْفِنِى من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لى عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعفى من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعْفيه . فأعفاه ، حتى خرَج من كل عمل فى يده فى أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما فى يده شىء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجى : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحْصِ من بقى معه — وكان المأمون قد رآه من مستشرَف له حين أقبل — فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية[٣] . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

( ١ ) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .
( ٢ ) المحاسن والمساوى ١ / ٢٧٣ .
( ٣ ) غاشية : غطاء .

او تجمَّلوا له رَيْثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :

ومَنْ يجعلِ المعروف فى غَيْرِ أهلهِ  يلاقِ الذى لاقى مجيرُ أمِّ عامِرِ [١]

ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنيعة إلا عند ذى حَسَبٍ أو دين » .

ويُفيض هذا الكتاب كما تفيض مسوَّدته : « المحاسن والأضداد » بكثير من أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ،وخاصة العصر العباسى ، ونرى البيهقى يفتح فيه — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — فصلا طويلا عن أصناف[٢] المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم فى مصنَّفه البخلاء ، وقد عرض فيه حِيَلهم وتَجْوالهم فى البلدان ونوادرهم ، فمن ذلك[٣] :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها : يا أمةَ الله بالله أنْ تصدَّقى علىَّ بشىء ، قالت : أى شىء تريد ؟ قال : درهمًا ، قالت : ليس عندى ، قال : فدانقًا ( جزءاً من درهم ) ، قالت : ليس عندى ، قال : ففَلْسًا ( جزءاً من دانق ) ، قالت : ليس عندى ، قال : فكُسوة ، قالت : ليس عندى ، قال : فكفًّا من دقيق ، قالت : ليس عندى ، قال : فزيتًا . . . حتى عدَّ كل شىء يكون فى البيوت ، وهى تقول ليس عندى ، فقال لها : فما يُجْلسك عندك ، مُرِّى ، اسألى معى » .

وواضح أننا لا نعثر فى المادة الأدبية التى يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شىء من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأى زخرف أو تنميق ، فهى مادة سهلة ، ليس فيها أى حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أى صعوبات لغوية ، وهى لذلك تُعَدُّ مادة شعبية ، أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب الشعبى فى العصر ، وضعهما أديب ممتاز فى شكل مناظرات ومحاورات ، حتى يشوِّق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل فى الأخبار والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة الكتابين .

(١) أم عامر : الضبع .
(٢) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣ .
(٣) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٧ .

٤

## الرسائل الديوانية

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرقىّ الدولة وغربيِّها ، ولكل ولاية ديوان وأحيانًا دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذى يُشْرِف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين فى سامرَّاء و بغداد كانت تقابلها دواوين أخرى فى حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان لهن دواوين يقوم عليها كُتَّاب ينظرون فى الدَّخْل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملا قويًّا فى نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب فى دواوين الدولة إذا أظهر نبوغًا ارتقى سريعًا ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبِّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح واليًا لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولى — فيما ولى — البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُتْقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمى بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين فى سامرَّاء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يَفِدُ عليها الشباب ، ويُخْتَبَرون اختباراً دقيقًا ، فمن نجح فى الاختبار وُظِّفَ فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبّج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالة حُظْوَةً من رئيس الديوان تمّ له سَعْده . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب فى أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألّف لهم فى ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه فى شئون الخراج ، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكِبُّون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظنُّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم فى علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفَّروا على ما تُرْجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوّدون به ، حتى يستمدوا منه فى معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجَّه إلى العامة ولا بد أن تَفْهَم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التنميق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة لخليفة أو خَلْع أو دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاقبة بعض الجناة . وتفنَّنوا فى المقدمات وخاصة فى التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التى كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتَّبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور فى الكتابة الديوانية وأساليبها فى العصر . ومعروف أن أول كاتب نابه يلقانا فى العصر هو إبراهيم بن العباس الصولى الذى حرَّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل فى الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى . ومن كتَّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألفَ سَوْط لِمَا صَحّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبى بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجى الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق[١] .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمدَ بن الخصيب ، وكان كاتبًا أديبًا ، مما جعله يَعْهد إليه بكتابة الكتب التى تَصْدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب فى الجهاد كتبه لسبع ليال خَلَوْن من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتَّجه وصيف إلى الغزو فى أرض الروم ، وفيه يقول[٢] :

« قال عزَّ وجلَّ آمراً بالجهاد مفترضًا له : ( انْفِرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ) . وليست تمضى بالمجاهد فى سبيل الله حالٌ لا يكابد فى الله نَصَبًا ولا أذًى ، ولا يُنْفق نفقة ولا يقارع عدوًّا ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضًا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجْر مأمول ، قال الله عزَّ وجلَّ : ( ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ[٣] فى سبيل الله ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتب لهم به عَمَلٌ صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنْفقون نفقة صغيرةً ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون ) . . وليس من شىء يتقرَّب به المؤمنون إلى الله عزَّ وجلَّ من أعمالهم ، ويَسْعَون به فى حَطِّ أوزارهم وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهادُ عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وسمحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبَيْضَتهم ووَقَمُوا ( قمعوا ) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة فى التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الخصيب بأنه كان كاتبًا مجيداً . واحتفظ الطبرى له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد[٤] ، نحا فيه منحى الكتاب السابق فى الصياغة .

ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحدَ الكتاب البلغاء على

---

(١) طبرى ٩ / ٢٠٠ .
(٢) طبرى ٩ / ٢٤١ .
(٣) مخمصة : جوع شديد .
(٤) طبرى ٩ / ٢٤٧ .

ديوان رسائله ، وسنخصه بحديث مستقل فى الفصل التالى . وسرعان ما يتولّى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحُذّاق الأذكياء[١] . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديبًا بارعًا ، وفى الطبرى رسالة له وجّه بها إلى عمّال النواحى حين أعطاهم المعتز الحق فى التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإن زَيْغَ الهوى صَدَفَ بكم عن حَزْم الرأى ، فأقحمكم حبائلَ الخطأ ، ولو ملّكتم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البَصيرة ونَفَى غَيَابة[٣] الحَيْرة ، والآن فإن تَجنْحوا للسَّلْم تَحْقنوا دماءكم وتُرْغدوا عيشكم ويَصْفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم[٤] ، ويُسْبِغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غُلَوائكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله بعد نَبْذ المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شُنّت الغارات وشُبّ ضِرام[٥] الحرب ، ودارتْ رحاها على قُطْبها وحَسَمت[٦] الصوارمُ أوصال حماتها ، واستجرّت[٧] العوالى من نَهمها ، ودُعيتْ نَزال[٨] ، والتحم الأبطال ، وكَلَحت[٩] الحرب عن أنيابها أشداقَها ، وألقتْ للتجرُّد عنها قناعها . واختلفت أعناقُ الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البَغْى لتعلمُنّ أىُّ الفريقين أسمحُ بالموت نفسًا ، وأشدّ عند اللقاء بطشًا ، ولات حينَ معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر ( وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون ) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : ( فإن تجنحوا للسلم ) ومثل : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) و(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ،) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية ، وقد استخدم كلمة :

---

(١) الفخرى ص ١٨٢ .

(٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .

(٣) غيابة : غشاوة .

(٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم .

(٥) ضرام : وقود .

(٦) حسمت : قطعت .

(٧) استجرت : اجترت .

(٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب .

(٩) كلحت : كشرت .

« واستجرت» بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته فى القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزالِ » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أنذر» . وشيء أهم من ذلك كله واضح فى الرسالة وضوحاً بيِّناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرّت العوالى من نَهمها . . . وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حمله وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب فى الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل فى دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك[1] ، وله كتاب فى التنويه بخليفة وخطابته فى عيد الفطر . ولا نرتاب فى أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حَصَرٍ حينما حاول الخطابة فى أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول[2] :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالتْ فى كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وَليِّهُ الله به فى مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وفّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلل فى طاعته والاجتهاد فى شكره والمناصحة فى مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . مَنّاً من الله خصّ به

---

(١) الفهرست ص ١٨٨ . صفوت ٤ / ٣٠٠ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى

خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنَّصَفة ، والبر والمرحمه ، والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن عند سعيد بن عبد الملك ، وحقاً أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية منذ القرن الثانى كما صور ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكتب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحياناً الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل ، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدىَ المعتمدُ ، ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمانُ بن وهب ، ويقول الفخرى[1] عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدباً وكتابة وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويُرْوَى عنه أنه كان يكتب ، فى أول عهده بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف فى الليل إلى داره ناب عنه فى دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه يعرض فى الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه فى إحدى الليالى إذ طلبنى المأمون ، فقال لى : اعملْ نسخة فى المعنى الفلانى ، ووسِّعْ بين سطورها وأحضرْها لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجتُ سريعاً وكتبت الكتاب وبيَّضته وأحضرته إليه ، فلما رآنى قال : كتبت مسوَّدة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بيَّضته ؟ قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلىّ كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ، وقال : يا صبىّ لا أدرى من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من حُسْن خطِّك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل فى الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته فى الأغانى ، وإلا فقرة نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو[2] :

---

(١) الفخرى ص ١٨٣ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٢١ .

« أنا مقرٌّ معترف ، فما تُراك صانعاً بمن أعلقك زمامَه ، وأمكنك من قِياده ، وحكّمك فى أمره ، معاقباً له أو متفضّلا عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خلا فى جنْبها ، فالأيامُ بما تحبُّ أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوِّر صياغةً جزلة رصينة ، كما تصوِّر ذوقاً مهذباً فى الاعتذار والاستعطاف ، حتى ليجعل زِمامه وقياده بيد صديقه ويحكِّمه فى أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتمد أبو العباس أحمد بن ثوابة ، وهو من أعلام الكتّاب فى العصر ، وسنخصه فى الفصل التالى بحديث مستقل .

وكان يلى وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى (١) : « من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً فى صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلا ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك — يا أمير المؤمنين — تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عِوَضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكأن الشاعر عَنَاك بقوله :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أَحدٍ ... لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها فى لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلا (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذى يعلم أسرار الصدور وضمائر القلوب لا تَخْفَى عليه خافية ، ولا يَعْزب عنه مثقال ذَرّة فى السموات العُلا ، ولا فى الأرضين السُّفْلَى ، قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وضرب لكل شىء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذى برَأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفته ، على سابق علمه فى

(١) الفخرى ص ١٨٩ .

(٢) طبرى ١٠ / ٥٥ .

طاعة مطيعهم ، وماضي أمره فى عصيان عاصيهم ، فبيَّن لهم ما يأتون وما يتَّقون ، ونهَج لهم سبلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالك الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدَّم إليهم المعذرة ، واختار لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به ، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوته أولياءه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته ( ليَهلِكَ مَنْ هلك عن بَيِّنَة ويَحيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنة وإن الله لسميع عليم ) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريَّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذَّن له بالنصر والتمكين ، وأيَّده بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذ به مَن استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَنْ ( أدبر وتولَّى ) حتى أظهر الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسله ، وقبضه مؤدِّياً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأمته ، مرضيًّا مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلبين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلَّى الله عليه أفضل صلاة وأتمَّها ، وأجلَّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين » .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شيء طبيعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقًّا لم يطَّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرَّة وسَفْكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجتراءً على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونَصْبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بِنَا هداكم الله ، ونحن المستحفَظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله فى هدايتكم لرشدكم وفى حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مُستَحقين طاعته مُستَحقبين ( حاملين ) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم على بن أبى طالب من بلاء عظيم فى إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يدٍ وهم صاغرون . وفى الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع فى جوانب من كتابته فى الحين بعد الحين ، وخاصة فى توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكِّره بأمره وأنه من زرعه وغَرْس يده ، فوقَّع فى رقعته[1] :

« أنا — أسعدك الله — على الحال التى عهدتَ ، ومَيْلى إليك كما علمتَ ، وليس من أنسيناه أهملناه ، ولا من أخَّرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكِّرنا بنفسك ، وتُعْلِمَنا أمرك ، وقد وقَّعت لك برزق ( راتب ) شهرين لتُزيح علتك وتعرِّفنى مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقىَ أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع — كما هو واضح — سجع خالص . وسنرى عما قليل أن سريان السجع فى الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجرى كان أقوى منه فى الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر ( ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ ) أخذ السجع يعم فى جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب فى الدواوين إلا وهو يتأنق فى كتابته ويبالغ فى تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

---

( ١ ) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشَّى بالسجع[١]، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفى مقدمتهم ابن الفرات . وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة . ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقانى ، فقد كان شغوفاً بالسجع شغفاً شديداً ، وتُرْوَى له فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار فى العراق تأخر فى حمل غَلَّة إليه ، فكتب إليه هذه العبارات : « احمل الغلَّة ، وأزِح العِلَّة ، ولا تجلس متودّعاً فى الكِلَّة ( الستر ) » ولاحظ أنه قد حشر الكلة فى الكلام لاستكمال السجع ، فالتفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بَق يحتاج إلى كلل ؟ فقال له الكاتب مداجياً مرائياً : إى والله وأى بَق ، ومن أجله يلزم الناس الكِلل ليلا ونهاراً[٢] . ووقّع فى رسالة وجّه بها إلى بعض عمّاله : « الزمْ — وفّقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدّجاج ، إن شاء الله » ، وكان أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً ، فقال : هذا دجاج وفّرته بركة السجع[٣] . وكان الولاة يقلدون الوزراء فى هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الوالى على كُوَر الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه ، فكتب إليه وقد صمّم على عزله : « عوّلتَ بنا على كلام ألّفته ، وخطاب سجّعته أوجب صرْفك عما توليته[٤] » .

وكان كتّاب الدواوين على شاكلة الوزراء يَسْجعون فى كتاباتهم ، وفى مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢ ، وكان فى باكورة حياته يكتب بين يدى عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد ، فقال فى الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها :

« وأما الوديعة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عنايةً بها ، وحياطةً عليها ، ورعايةً لمودتك فيها » ، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات ،

---

( ١ ) تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ٣٣٧ وما بعدها .

( ٢ ) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

( ٣ ) نفس المصدر والصفحة .

( ٤ ) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

فأخذ ينقدها له قائلا : « تفاءلتَ لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردَّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حَسُنَ موقعها منا ، وجَلَّ خطرها عندنا ، وهى وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقُّدنا لها ، وأُنْسنا بها ، واسرورها بما ورَدت عليه واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن »[1] .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بنْ سليمان إلى الشاب فى مطالع عمله بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب فى دواوينه ، وحتى يُعْهَد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع فى كل ما يَصْدر عنه ، على نحو ما يصوّر ذلك منشورٌ وجّهه باسم الخليفة المقتدر إلى العمَّال فى البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات فى وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول[2] :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنىً عنه ، ولا للملك بُدًّا منه ، وكان كتَّاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مذعنين بأنه الحُوَّل القُلَّب ، المحنَّك المجرَّب ، العالم بِدِرَّة المال كيف تُحْلَب ، ووجوهه كيف تُطْلَب ، انتضاه[3] من غمده ، فعاود ما عُرِف من حَدّه ، فنفَّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودَبَّر الأمور كأن لم يَخْلُ منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائمًا ففي الحين بعد الحين ، وكان كاتبًا بليغًا ، وفيه يقول الصولى : « ما رأيت وزيراً منذ توفِّى القاسم بن عبيد الله

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر الآداب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٩٧ وانظر رسالة أخرى له مسجوعة فى الهمدانى ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سله .

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفى) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطًّا ، ولا أكثر حفظًا ، ولا أسلط قلمًا ، ولا أقصد بلاغة ولا آخَذَ بقلوب الخلفاء من ابن مُقْلة »(١) وهو صاحب الخطّ الذى تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفى إلى الوضع الذى شاع فى العالم العربى ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة فى وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعَرُضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة، تجرى على هذا النمط(٢) :

« أمسكتُ — أطال الله بقاء الوزير — عن الشكوى ، حتى تناهت البَلْوَى ، فى النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحَيْرة والتبلّد ، وعيالى إلى الهُتْكة والتشرد . وما أبداه الوزير — أيّده الله — فى أمرى إلا بحقٍّ واجب ، وظنٍّ غير كاذب . وعلى كل حال فلى ذِمامٌ وحُرْمَةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعايةَ الوزير ، أيّده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى — أطال الله بقاءه — أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنْعِم بإحياء مهجته ، وتخليصها من العذاب الشديد ، والجَهْد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيبًا ، ومن البلوى فرجا قريبًا » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب فى أن أحمد مضى فى إثر أبيه يسجع فى رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله فى وصف فتح(٣) :

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨ .
(٣) الهمدانى : تكلمة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

« فلم يُسْفر العَجاج[1] إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجَّل ، أو جريح معطَّل ، أو أسير مكبَّل ، أو مستأمَنٍ محصَّل ، أو حقيبة ملأها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نَصَب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه . إذ غدا المثلَ الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام .

٥

## الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم فى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهانى والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح . وبذلك نافس النثر الشعر فى مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتَّاب فى ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة فى الفن الكتابى ، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدْلَوْا بدِلائهم فى تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير فى نفوس من تُوَجَّه إليهم . وبذلك توفَّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتَّاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا فى النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قوماً إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضَّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودى عن أبى العباس المكى نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة فى سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، فقال له : أيكون ذلك منثوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منثوراً[2]. فالنثر أصبح له القِدْح المعلَّى على

(١) العجاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٧٠ .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا فى الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر فى التأثير فى وجدان القارىء ، بما وفّر له كتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها ومن حسن تلاؤمها فى الجَرْس . فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حَرْف وحرف ، حتى يتأسر العقول والألباب . وكان أكثرَ من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسْر تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه فى بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتحمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهال ، يقول[1] :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك فى إقبال الزمان ، وبَسَط بيُمْنِ خلافتك الآمال ، وخصّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدّ بك أزْرَ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُغْدِقِ ( كثير المياه ) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهايةُ ضارب المثل ، وعمّر ببلائك الإسلام ، وفسح لك فى القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسَرْبلك ( ألبسك ) العافية ، وردّاك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفى رأينا أنه لم يعش طويلا فى عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً فى العصر العباسى الأول أن يتهادوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر فى هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندى الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه[2] :

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

« الحمد لله الذى خصَّك بمنافع ما أُهدِىَ إليك ، فجعلك تهتزُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم ( السيف ) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور ( المتألِّق اللامع ) وتصون عِرْضَك بالإرْفاد ( الإعطاء ) كما تُصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خدِّك المشُوف ( المجلو ) كما يَشِفّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْقل شرفك بالعطيّات ، كما تُصْقَلُ مُتون المشْرَفيَّات ( السيوف ) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتباً رِسالِيًّا ( صاحب رسائل ) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتَّابى ( وكان شاعراً كاتبا ) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتَّاب ضعيف جدًّا ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين »[1] . وقد أُثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحًا له معدِّدا فضائله ، وفيها يقول[2] :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائْتَمَنَكَ على رعيَّته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصْدَرَ عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشريفًا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زِدْتَ نفسك عن الدنيا عُزُوفًا وتنزيها ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفةً وعليها حدَبًا ، لا يُخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناةُ كبار الأمور عن تفقد صغارها . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافَّة الرعية — إلا من غمط ( بَطِر ) منهم النعمة — مُثْنون عليك بحسن السيرة ، ويُمْن النقيبة » .

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقدكان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفًا حسنًا ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يَجرْ فى هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق فى مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معانى سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حَدِبٌ عليه ، وحقُّ كل فَرْدٍ فوق حق الخليفة نفسه، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، فى تواضع لا يسفُّ به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقا وإن كان عدوًّا ، ولا يَسُرُّ مبطلا وإن كان صديقًا . والرعية جميعها تحبه وتُثْنى عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل فى العتاب أو بعبارة أدق فى الهجاء كتب بها إلى أبى العيناء منافسه فى منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول[1] :

« من أبى على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبلغ فى التحذير ، المُعْذِرِ فى النكير ، إلى أبى العَيْناء الضَّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالتعيير ، سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خَلْقه ، على ما هدانى من دينه ، وعرَّفنى من حقه، وامتنَّ علىَّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حَسَبُه ، الرَّدىء مذهبه ، الدَّنىءُ مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذىء لسانه ، المُبْتَلَى به إخوانه . . . قد صَيَّرْتَ القِحة ( الوقاحة ) جُنَّة ( وقاية ) وشَتْم الأعراض سُنَّة . . . صديقُك على وَجَلٍ منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهقه عند الفاقة ( الفقر ) فإن اعتذر إليك لم تُعْذره ، وإن استنظرك لم تُنْظره ( تمهله ) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السنُّ إلا نقصًا ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصًا . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك فى ماله حَرَبْتَه ( سلبته ) ، ومن منعك بعذر واضح سَبَبْتَهُ . . . ومن أكرمك أهنته وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولِنْتَ فى يديه . . . إرْثُك عن أبيك السعاية ، ونقلُ الأخبار والوشاية » .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١٥٩/٤ .

والرسالة كلها — على هذا النحو — هجاء وإقذاع فى الهجاء ، وقد استهلها لمـّحـًا إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجًا له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه فى حسبه وفى مذهبه ومكسبه واصفًا له بالخسـّة والدناءة ، وأنه لا يحترم صديقًا مهما أكرمه ، مع الشـّحّ والتعرض للناس بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له فى نهاية رسالته : « قد مـِلـْتُ إلى السجع على علمى بخساسة حظه وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تـَلـْوِى به لسانك ، وتـَثـْنِى إليه عِنانك ، قطعًا لحجتك ، وإزاحة لعلتك ». وكان أبو العيناء على شاكلة أبى على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد فى رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرسًا غير فاره ، وفيها يقول[1] :

« أعلم الوزير — أيده الله — أن أبا على محمداً أراد أن يبرّنى فعقـّنى ، وأن يـُرْكبنى فأرجلنى ، أمر لى بفرس كالقضيب اليابس عـَجـَفـًا ( هزالا ) وكالعاشق المهجور دَنـَفـًا ( سقمـًا ). قد أذكر الرواةَ عـُرْوة العـُذْرِىَّ، والمجنون العامرى ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار . . . وإنما أتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخـْبـَثَ وأنـْزَر ( قـَلـَّلَ ) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتـّاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر فى بعض الرسائل ، فإن لأبى العيناء نفسه رسائل أخرى فى الاستمناح[2] وطلب النوال وفى الشكر[3] ، يكتفى فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبى العيناء وأبى على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »[4] ، وتدور له فى الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة فى الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة[5] :

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .

(٤) الفهرست ص ١٨٥ .

(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر الآداب ٣ / ٣٨٢ .

« نَبَتْ بى عنك غِرَّة ( غفلة ) الحَداثة ، فردَّتنى إليك التجربة ، وباعدتْنى عنك الثقة بالأيام ، فأدنتنى إليك الضرورة ثقةً بإسراعك إلىَّ ، وإن أبطأتُ عنك ، وبقبولك لعذرى وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانت ذنوبى قد سَدَّت مسالك الصَّفح عنى ، فراجع فىَّ مجدك وسؤددك . وإنى لا أعرف موقفًا أذلَّ من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رضاك » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صَبَّتها فى قالبها يَدٌ صَناع وحقًّا لم يُحَلِّ الرسالة بالسجع ، ولكن العبارات كلها كأنها حلى مختارة ، سواء فى اصطفاء الألفاظ ، أو فى توشيتها بألوان البديع ، فالغرة أمام التجربة ، والبعد أمام الدنو ، والسرعة أمام البطء . ثم تتعاقب الاستعارات والصور ، فالذنوب قد سَدَّت بحجاب غليظ دروبَ الصفح ومسالكه ، وهو يتوسل أن يراجع فيه مجده وسؤدده . ثم يأتى التلطف وقبول الذل وكأنه يقبله من حبيب . وله رسالة جيدة فى تعزية سليمان بن وهب عن أخيه الحسن حين لبَّى نداء ربه ، ونكتفى منها بهذه الفقرة[1] :

« إن الرَّمَضَ (حرقة الغيظ) والهلع إنما يكونان للمصيبة الخاصة التى لا تَعْدُو صاحبها ، ولا يجد مُسْعداً ( معينًا ) عليها ، ولا شريكًا فيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشِج ( المشتبك ) رَحِمًا بك والبعيد نسبًا منك ، وجمع فى ثِقْلِ مَحْملها وألم فَجْعها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبال وحشة ، ومنطوٍ على دخيل حزن ، وناظرٌ من أعقابها فى منظر وَعْر ، فجميعهم فيها مشترك ، وأنت بالتعزّى حقيقٌ قَمِينٌ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، ألفاظها محكمة ، ويجرى فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرَّصْف الدقيق للعبارات ، فالنسج متين ، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان . ومن الكتَّاب البلغاء أحمد بن سليمان بن وهب ، وهو من بيت كتابة ، كان أبوه وعمه الحسن من البلغاء المفوهين ، وله فى الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه ، وفيها يقول[2] :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك فى الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للواثق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَثٌ حَداك إلى أخيك الأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفق ، والصديق الوَصول ، والمشارك فى المكروه والمحبوب ، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرّفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتى علىّ إلا وثقتى بك تزداد استحكامًا ، واعتمادى عليك يزداد تأكداً والتئامًا ... وأعيذك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزه الذى لا يُرام ، وكَنَفه الذى لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنّ والإنعام » .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعًا متكلفًا ، مما يدل على أنه حذق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلا طبيعيًّا ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستو متناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا فى كتابة النثر والشعر أحمد بن أبى طاهر طيفور ، ومرّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة فى شكر على بن يحيى المنجم على بِرٍّ واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو[1] :

« إن أحقّ معروف بأن يُشْكَر ، ويَد بارَّة بأن لا تُكْفَر ، وأحق واجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبِرٍّ بأن يُجازَى معروفك — أعزَّك الله — عندى ، ويدك قِبَلى ، وحقك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكره ونَشْره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئًا ، وتشفع ما تقدّم معقبًا ، وتُحْسن رَبَّ ما أسْديته متفضلا ، لا أخلاك الله من بِرٍّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال » .

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

كثير الهجاء للكُتَّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، ومن هجاهم وأقذع في هجائهم ابن ثوابة وابن مكرم ، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي على البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه[1] :

« المَقْليّ المذمَّم ، المهين ابن مكرَّم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضيع في خلائقه ، العاتي على خالقه . . . عدوُّه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَن استخفَّ به أكرمه . ومَنْ وصله صَرَمه ( قطعه ) . . . يحلف ليحنث ، ويعهد لينكث ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته في ذم الصالحين ، وطُرَفُهُ قَذْف المُحْصَنات ، وسَعْيه في كسب السيئات » .

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفراق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقلُّ السجع في رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى في الرسالة التالية ، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد[2] :

« أخرتْني العلة عن الوزير — أعزَّه الله — فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوب عني ، ويَعْمُرَ ما أخلته العوائق مني ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ما توسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه في مسرَّة نَقْصًا ، ولا يقطع عنه مَزيداً ، ويجعلني من كل سوءٍ فداءه ، ويصرف عيون الغِيَرَ ( حوادث الدهر ) عنه وعن حَظِّي منه » .

والرسالة أدْعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه : « إني لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكلِّ لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسَقْيًا لدهر كان موسومًا

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٥٠ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ .

بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جمع الله شمل سروري بك ، وعمَّر بقائي بالنظر إليك »[1] . ومن ذلك فصل فى شفاعة : « موصل كتابي فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِها ( تهزلها ) بِمَطْلِكَ ، وأسرعْ ردَّها بسابق إنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »[2] ، ولا ريب فى أنه كان يسجع أحياناً فى بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »[3] وفى فصل آخر : « تولَّى الله عنى مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصحب بقاءك عزًّا يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة ( حراسة ) تذبُّ عن ودائع مِنَنه عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمتْ ، وبلَّغك آمالك وإن انفسحتْ »[4] . وله فى وصف الكتاب والقلم[5] :

« الكتاب والج الأبواب ، جرىء على الحجَّاب ، مُفْهِم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَصُ ( يحضر ) المشتاق ، ومنه يُدَاوَى الفراق . والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبِّل بساط سلطان ، أو يفتح نُوَّار بُسْتان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخَّص الكتاب وجسَّمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بديعة :

وكان الكتَّاب يكثرون من الدعوة للزيارة ولقضاء بعض الوقت فى اللهو واسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعْنَى به ، وهى عناية جعلته يعمُّ فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبى على

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٩٢ .

(٢) الصولى ص ٢٩٠ .

(٣) الصولى ص ٢٩١ .

(٤) الصولى ص ٢٩٤ .

(٥) الصولى ص ٢٩٢ وزهر الآداب ٣٢/٢ .

البصير وأبى العيناء فى بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا فى بعض رسائل ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً، مما هيَّأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التى ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذى وقفنا عنده فى موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج فى الكتابة : فى التهانى والتعازى والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً فى كتابة الرسائل الديوانية ، ففى كل ذلك درر من السجع والصور تُحفَظ وتصبح مادة للكتَّاب ، تُعينهم فى كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمذانى نذيراً بجمود النثر العربى وأن يصبح صيغاً برَّاقة ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع فى الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تَلَوْه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه ، على نحو ما تصوِّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامرَّاء ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين : العاصمة القديمة سامرَّاء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهى تمضى على هذه الصورة[١] :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض[٢] الدهر سُكَّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحَبْل الرَّجاء فيها يَقْصر ، فكأن عُمْرانها يُطْوَى وكأن خرابها يُنْشَر ، وقد وُكِّلَتْ إلى الهجر نواحيها ، واستُحثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزَّقتْ بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقٌّ جوار ، فالظَّاعن منها ممحوُّ الأثر ، والمقيم بها على طَرَف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالُها تصف

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٣ .

(٢) أنهض هنا : بعث على الرحيل .

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنّة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارُها ، عليهم أرْدِيَةُ السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زَبَد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْع (الغبار) سُرَادقها ، قد نُشِرَتْ فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف البرق ، وأمسكها تَحْجيل كأنه أسورة اللجَيْن ، وقُرِّطَتْ عُذُراً[1] كالشنوف ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صُبَّ عليه وقار الصبر ، وهَبَّت له روائح النصر ، يصرِّفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب جلالا ... قبل أن تَخُبَّ (تعدو) مطايا الغِيَر ، وتُسْفِر وجوه الحذر ، وما زال الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقًا بالعجائب ، يُؤْمِنُ يومه ، ويَغْدِر غَدُه . على أنها — وإن جُفِيَتْ — معشوقة السكنى ، حبيبة المَثْوَى (المنزل) كوكبها يقظان ، وجَوُّها عُرْيان (صحو) وحَصْباؤها جَوْهر ، ونسيمها معطَّر ، وترابها مِسْكٌ أذْفر (ذكىّ) ويومها غداةٌ (لطيف الطقس) وليلها سَحَرٌ ، وطعامها هَنِىءٌ ، وشرابها مَرِىءٌ ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك (غير محتاج) لا كبغدادكم الوسِخَة السماء ، الوَمِدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خَبَار (لينة) وحيطانها نزوز (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تَمُّوز (يوليه) فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرِق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحَلّ خِناقه (كيسه) وحيطانهم خِصاص (أكواخ) وبيوتهم أقفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم » .

والسجع زاخر فى الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع فى عصره أسلوب دُرَر السجع ولآلئه التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتى كانت تروقهم إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

---

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سال على خد الفرس. الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجي للمعانى لا بالبريق الداخلى . وعمَّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر ( ٣٢٠ – ٣٢٢ هـ ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصْفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيِّب عنى شيئاً ، ولا تحسِّن القصة ولا تسجع فيها »[١] ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجور اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطَّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَوًّا الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والخراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطىّ ، والباقى يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتَّحْجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط فى آذانها ، والحصباء جوهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الرَّكْب ، ركب العناية بالوشى . ويُطيلُ القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما ينْطوِى فيه من زخارف البديع .

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٢٢ .

# الفصل التاسع

# أعلام الكتاب

## ١

### إبراهيم[١] بن العباس بن محمد الصولى

كان جده صول حاكمًا لجرجان مع أخيه فَيْرُوز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبَّهان بالفرس ، ودخل صُول الإسلام على يد يزيد بن المهلب والى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصَّته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى مطالع القرن الثانى الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه فى موقعة العَقْر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاتها ، ونشأ له ابنه العباس فى ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنًّا من أخيه. وقد وُلد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدَّبا عليه فى باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور فى عصر المأمون. ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة لِداته — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة فى دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان فى مَرْو وقبل تحول المأمون

(١) انظر فى ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ٤٣ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ٦ / ١١٧ ومعجم الأدباء لياقوت ١ / ١٦٤ ومروج الذهب ٤ / ٢٣ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان فى إبراهيم وتاريخ الطبرى فى ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى فى كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى على بن موسى الرِّضا . ويمدح إبراهيم ولى العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضُربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بَعْدُ وجِهَازه إلى قبره(١) . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلّ يعمل فى الدواوين إلى أن توفى سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : «كان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء »(٢) .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرَّت عليه بلاء عظيما ، ذلك أن ابن الزيات الوزير — وكان صديقًا له — ولاّه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكَّر له ، فوجّه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملا شديداً ، وقال إن أموالا كثيرة لم تُؤَدّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله فى ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يَبْلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بَلاَ فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَبَتْ له منهم جماعة ظهر المِجَنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذى كان يُوغر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد فى صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل فى ذلك قال : « ما مَثَلُ الإخوان إلا كمثل النار قليلُها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة فى الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض فى النكاية به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة(٣) :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدْية المَحَزّ ، وعَدَت الأيام بك علىّ بعد عَدْوِى بك عليها ، وكان أسوأُ ظنى وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ،

(١) الأغانى ١٠ / ٥٢ .
(٢) الفهرست ص ١٨٢ .
(٣) الأغانى ١٠/ ٥٦ ومعجم الأدباء ١/ ١٧٠ :

وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ عليّ أضرَّ منها ، وكفَّ الصديق عن نصرتي وبادر إليّ العدوُّ تقرُّبًا إليك . وكتب تحت ذلك :

أخٌ بيني وبين الدَّهـ ـرِ صاحبَ أيّنا غَلَبا
صديقي ما استقام فإنْ نَبَا دَهْرٌ عليَّ نَبَا
وَثَبْتُ على الزمان بهِ فعاد به وقد وَثَبَا
ولو عاد الزمانُ لنا لعاد بهِ أخاً حَدِبَا »

والرسالة توضّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودي : «كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً ، لا يُعْلَم فيمن تقدم وتأخر من الكتّاب أشعر منه»[1]. ويقول ابن الجرّاح في كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتّاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »[2] ويقول أبو الفرج الأصبهاني : «كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسْقط رَذْله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سُبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتًا أو بيتين » [3]. وشعرُه مقطوعاتٌ حقًّا ، ولكنها مقطوعات تَرْقَى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة ، مَثَلُها مَثَلُ هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها لابن الزيات راجيًا أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبي مصفًّى ، وكل عبارة قد أحْكمت ، أحكمتها يد صَنَاع ، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هي تقهره به ، وما أدق قوله له في رسالة أخرى [4] :

وكنت أعدُّك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانْ

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق في الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٣ .
(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .
(٣) الأغاني ١٠ / ٤٣ .
(٤) الأغاني ١٠ /٥٧ ومعجم الأدباء ١ /١٧١ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات برد حربته إليه وانتظامه فى حاشيته وبلاطه مصوناً ، فبسط لسانه فى غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذاماً هاجياً . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقربه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه فى تنور ملىء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظياً عند المتوكل ، فقلده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهوداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازىَ باسم الخليفة ، وأحياناً ينص الطبرى أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحياناً لا ينص . ومن أوائل ما كتب له المنشورُ الموجه إلى عُمَّاله فى الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطَّيالِسَةِ والزَّنانير ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعِزَّته التى لا تحاوَل وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرَضِيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسُلَه ، وأيَّد به أولياءه ، وكنفه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرَّأً من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبوّاً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرمَ أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرَّم عليهم من حرامه ، وبيَّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سَعَة جزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به ونَهَى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكَّرون) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يَرِدُ على ذهنه عَفْواً ،

---

(١) طبرى ٩ / ١٧٢ .

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدْثا بينها ضروبًا من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطَّعًا ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذى يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعًا وتنميقًا خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل فى شمالىّ أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيراً ، فضُربت عنقه وصُلبت جثته وحُمل رأسه إلى سامرَّاء . ولإبراهيم بن العباس رسالة فى هذا الفتح نوَّه بها القدماء ، وفيها يقول (١) :

« قسَّم الله عدوَّه أقسامًا ثلاثة : روحًا معجَّلة إلى عذاب الله ، وجُثَّة منصوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من معْقل إلى عقال ( أغلال ) وبدَّلوه آجالا من آمال ، وقديمًا غذَّت المعصية أبناءها ، فحلبتْ عليهم من دَرّها ( لبنها ) مرْضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت بهم مخاطرها موضِعَةً ( مسرعة ) حتّى إذا وثقوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رَضاع وآن فِطام ، سقتهم سُمًّا ، ففُجِّرت مجارى ألبانها منها دمًا ، وأعقبتهم من حُلْو غذائها مُرًّا ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فرحة إلى ترْحة ، ومن مسرَّة إلى حسْرَة ، قتْلاً وأسْراً ، وغلبة وقسْراً ، وقلَّ مَنْ أوْضع ( أسرع ) فى الفتنة مرْهِجًا ( مثيراً ) واقتحم لهبَها مؤجِّجًا ، إلا استلْحمته ( تبعته ) آخذة بمخنَّقه ( بحلقه ) وموهنةً بالحق كيده حتّى جعلته لعاجله جزَرًا ، ولآجله حطبًا ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، أولئك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أكبر ، وما ربك بظلاَّم للعبيد » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعْنَى بكلامه محمِّلا له معانى غزيرة ، ومُطْرفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٥ .

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم فى الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرها . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انقضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعمّ حتى لتأخذ بمخنّق كل شخص ، وحتى تجعله فى دنياه جـَزَراً وقطعـًا من اللحم تنوشها السباع ، أما فى الآخرة فتجعله حطبًا ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بآى من القرآن . والطباق اللون البديعى العقلى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكفى أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرناناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمضى فيه على هذا النحو[1] :

« الحمد لله معزّ الحق ومُديله ( ناصره ) وقامع الباطل ومـُزيله ، الطالب فلا يفوته مـَن طلب ، والغالب فلا يعجزه مـَنْ غلب ، مؤيدِ خليفته وعبده ، وناصِر أوليائه وحـِزْبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقـّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبـَّله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقبِ نـَصْرِه ، وسوابغ نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يـَلـَذّ كلامه الأسماع والآذان ، كما يـَلـَذّ العقول والأذهان ، بملاءماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٤ .

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التى كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذى وضعه فى صَدْرها على هذا النحو[١] :

« أما بعد فالحمد لله الذى جَلَّت نعمه ، وتظاهرت مِنَنُه ، وتتابعت أياديه ، وعَمَّ إحسانه ، إلهِ كل شىء وخالِقه ، وبارئه ومصوِّره ، والكائن قبله ، والباقى بعده ، كما قال فى كتابه : ( كلُّ شىء هالكٌ إلا وَجْهَه له الحكمُ وإليه تُرْجَعون ) العالى فى مشيئته والقاهر فوق عباده المتعالى عن شبه خَلْقه : ( ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيلَ إلى معرفته ، بما نَصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصرَّفهم فيه من صنعه ، كما قال جَلَّ جلاله : ( الذى أحسن َكلَّ شىء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْله من سُلالةٍ من ماءٍ مهين ، ثم سَوَّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلا ما تشكرون ) . وذلك كله مِنْ خلقه إياهم بتمثيله ما مثَّل لهم من الدلائل التى نصبها لهم والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسَّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئة التى هيَّأها لهم ، ليقع الأمر والنَّهى عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشمهم ما يَقْصُر عنه وُسْعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقّوا به رحمته ورضوانه والخلودَ فى النعيم المقيم والظلِّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : ( إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك ولذلك خلقهم ) . وكان من نَظَره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداه ، ويوضّحون لهم سبيله ، ويَهْدونهم إلى رحمته ، ويَعدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذّرونهم سخطه ، ويبينون لهم سُنَنه وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ( ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميعٌ عليم ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البيِّنَة ، والشواهد الناطقة التى أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٢ .

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عملَ سواهم ليكون أدْعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكد للحجة على مَنْ أبَى ذلك منهم » .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب فى الهدى والرشاد ، ونعمه أيضًا وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه فى مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزه عن التحيز فى جوهر وعرَض ، لا يدركه حِسٌ ولا يحيط به خيال ، منزه عن كل شبه بالآدميين فى خَلْقهم وصفاتهم . وليس من الضرورى أن يكون من المعتزلة ، فيكفى أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله فى صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل فى النظام الكونى وما بَثَّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوِّر القرآن كما فى آيات خلق الإنسان التى اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاء بديعًا وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكمالاتهم ، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر فى نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبثّ الصولى هذه الفكرة فى الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التى طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثًا ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتَّبعوا هداه ، وليقع الأمر والنهى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهُدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم فى الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التى تكفل لهم السعادة فى الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب إلا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعانى فى ألفاظ جزلة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصوتى الذى ذكرناه آنفًا ، وإن لم يبلغ مداه فى الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التى شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولا هنا عن السجع بالمعانى التى أثارها فى تحميده والتى جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ما جاء فى النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته فى أحد الفتوح [1] :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العزّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلاً ( هزيماً ) منكوباً ، ودَحيضاً ( باطلا ) هوقاً إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرّقةً ماجُمِع ، ومبتَرةً ( مستأصلة ) ما أُعِدّ ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالبَ الأعزَّ والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياء الحق الأعلَيْن يداً وأيْداً (قوة ) وأشياعُ الضلال الأخسَرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفئة المنصورة أن تَعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكِّن لها فى الأرض كما مكَّن للذين من قبلها ، وفى الفِئَة الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتكونَ كلمتُها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات فى هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فَلاً منكوبا ودَحيضا زهوقا » ، حتى يتجسّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياءُ الحق الأعلَيْن يداً وأيْداً ، وأشياع الضلال الأخسَرين أعمالا وكيداً » وكأن العبارات توضع فى صفوف لا فى سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا فى مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمْسك بيد أختها فى العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى فى العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يداً وكلمة الأخسرين أعمالا . فالكلمات فى العبارات تتجاذب تجاذباً شديداً ، فى الصوت والجرس والأداء وفى المعانى المتقابلة المتناقضة ، فقد عمّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعاً من صلة القُرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يداً »

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٦ .

بجانب كلمة «أيْداً» طلباً للتلاؤم فى الجَرس الذى قد يخفى أحيانًا ، وأحيانًا يتضح وضوح الشمس فى كبد السماء . وفى ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والجنان . ويُنْهى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه المونقة كقوله فى هذا التحميد : «الأخسرين أعمالا» . ودائمًا نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْنبة والأخرى المجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفًا . ومن خير ما يصوّر ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط (١) :

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوَّم به من أوَد (عِوَجٍ) وعَدَّل به من زَيْغٍ ، ولمّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ ، يقدّم بعضهن على بعض ، أولاهنّ ما يتقدَّم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع حَسْمُ الداء بغيرها :

أناةٌ فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وعيدًا فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عَزَائِمهْ»

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فملأت نفسه إعجابًا ، وأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك ، وذخيرة ذَخَرها على دولتك . ويقال إن البيت فى هذه الرسالة أول شعر نفذ فى كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدَّى الغرض الذى كانت تُكْتَبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغًا متعاقبة فى رسالة ، وإنما نقرأ حكمًا وأمثالا ، لدقة المعانى ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضروبًا من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح فى أوائلها ، ولم يلبث أن أضاف فيها سجعة طريفة ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبَّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

(١) معجم الأدباء ١ / ١٨٧ .

يصور مراناً طويلا على استخدام الكلام ووَضْعه فى مواضعه ، بل قل إنه يصوّر خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصَراً كتب بها فى شفاعة إلى أحد أصدقائه يزكّى رجلا يستحق العناية به[١] :

« فلانٌ ممن يزكو ( ينمو ) شكره ، ويحسن ذكره ، ويَعْنيني أمره ، والصنيعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأُتيه ذو الدِّين والحِجَى إصابَةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أجْرُ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّى الغرض منها أداء واضحًا ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه فى المعنى أن أخرج البيت الذى ضَمَّنه الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتَّاب الرسائل يكتبون فى عيدى الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكّروهم واجبهم ، من ذلك قوله فى رسالة[٢] :

« أمابعد فإن لكل فرع أصلا ، عنه مَوْرِدُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مَرْجعه ومَوْئِلُه ، ومتى رُجع من أصول الأمور إلى تأثلها ( تأصُّلها ) وتمكُّنها ، رُجِع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها . وأفضل ماتدبَّره أمورُ دين الله وخلافته ، وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه ( نماؤه ) ما جمع بإذن الله سكون الدَّهْماء ( العامة ) وصلاح البَيْضَة ( الولاية ) وأمْن السِّرْب ( الجماعة ) وتظاهُر النِّعم فيما قَرُبَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافْعَلْ ذاك مُعَانًا على أمرك » .

والترادف والازدواج واضحان فى السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأثلها يليها تمكنها ، واستتبابها يليها استقامتها . وفى ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفى كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفًا ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره فى أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية فى شئونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغانى ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ /١٧٨ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك فى الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أرضى الله فى نعمته بشكره وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ ما فى شكر النعم من استدعاء تمامها ، وما فى التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحالتين جميعًا محل المتقدم بنيَّته ومعرفته . والله يُمْتِع أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارىَ على من بقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّىَ الفناءُ الذى لا بقاء معه إلى البقاء الذى لا فناء بعده . وأمير المؤمنين يعظك بالله ، وهو أحق مَن وعظ به ، ويُرْشدك من إيثار الله لما نَدَبك له منه . . . فقدِّمْ حق الله عليك بطاعتك له فيما أمرك به ، واتَّق الله فى مواقع أقداره بك ، تَقْتَضِ بذلك من ثواب الله أفضلَ عِوَض الصالحين » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعانى ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذى لا بقاء معه ، والذى ينتقل به إلى البقاء الذى لا فناء بعده . ويقول له : قَدِّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرَّبين . وفى كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحيانًا فى جوانب من رسائله مُسْهِبًا فيه ، على نحو ما نرى فى القطعة التالية التى احتفظ بها ياقوت فى معجم الأدباء إذ يقول :

« ووجَد أعداءُ الله زُخرُفَ باطلهم ، وتمويهَ كذبهم سَرَابًا بِقِيعَةٍ ( يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ) وكوَميض بَرْقٍ عرَض فأسرع ، ولمع فأطمع ، حتى إذا انحسرت ( انكشفت ) مغاربه ، وتشعَّبت موليَّةً مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، أنْ لا مَلاذ ولا وَزَر ، ولا مَوْرِدَ ولا صَدَر ( صدور ) ولا من الحرب مفرّ ، هنالك ظهرت عواقبُ الحق منجيةً ، وخواتم الباطل مُرْدِيةً ،

(١) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .

(٢) معجم الأدباء ١/ ١٩٠ .

سنَّةُ الله فيما أزاله وأداله ( هزمه ) ( ولن تجد لسنَّة الله تبديلا ) ولا عن قضائه تحويلا » .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجرى فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل» ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلح ويُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وله توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصًا ويمدح آخر ، فوقَّع فى الرسالة[1] :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنعه ، وللمسىء من النكال ما يَقْمعه ؛ بذل المحسن الواجبَ على رَغْبة ، وانقاد المسىءُ للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى : « ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت» . ويَرْوِى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »[2] . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتبًا بليغًا بلاغة رائعة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٦١ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٦ .

# ٢

## الجاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حدقتيه وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جدّه فزارة كان عبداً أسود جمّالا لعمرو بن قلع الكنانى . واختُلف فى السنة التى وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد فى العقد السادس من القرن الثانى للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويُروَى عنه أنه قال فى أواخر حياته يشكو من الفالج ( الشلل ) والنقرس ( الروماتزم ) : « أنا فى هذه العلل المتناقضة التى يتخوَّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »(٢) . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفى مطالع الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصِّبْية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئًا من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون فى كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق. وكان يختلف إلى المِرْبد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة بعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقًا تجارية وأدبية كبيرة منذ

---

(١) انظر فى الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤/ ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان فى عمرو ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ ولسان الميزان ٤/ ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٣/ ٢٤٧ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٣٨٦ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥٤ والجاحظ لطه الحاجرى (طبع دار المعارف ) والجاحظ لشارل بلات ( طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٢١٩ ومعجم الأدباء ١٦/ ١١٣ .

العصر الأموى . وفى أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيْحان(١) أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان فى حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويُرْوَى أن أمه ضاقت بانهماكه فى الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملىء بكراريس أوْدَعها البيت ، وقالت له : ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدَّثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمَّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قدَّمْتِها إلىَّ (٢) . وكأن مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمِرْبَد وما كان يأخذه عن جِلَّة العلماء أمثال الأصمعى وأبى زيد والأخفش وأبى عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس والنظَّام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدِّثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلَّف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الورَّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التى حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر فى الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرَّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا فى بغداد(٣) بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره فى دكاكين

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .
(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .
(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفى مواضع متفرقة .

الوراقين ،ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب فى اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[١] . ويقول أبو هِفّان : « لم أرقط ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »[٢] . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم فى ذهنه ، ويظل فى ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدّمة الطويلة التى وضعها بين يدى كتابه الحيوان ، وهى نحو مائة صفحة فى تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التى صنَّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئًا بأبى الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أهم من لزمهم النظام[٣] ، وكان لا يبارَى فى المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقّن ذلك عنه ، وسنراه يطبقه فى كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم ( النظام ) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »[٤] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذى دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه فى كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات فى عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوّنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلا[٥] . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر فى آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

ويبدو أنه كان يَلْقَى كثيراً من الإهمال فى أول أمره ، حتى كان يُضْطر حين يؤلف كتابًا أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتَّابىّ أو سَلْم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته[1] عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس ، حتى إذا شُغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرْو إلى بغداد أشار عليه ثُمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة فى هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجابًا لا حَدّ له بما كتب[2] ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتبًا رسميًّا للدولة ، ونظن ظنًّا أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[3] ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفيا — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامرَّاء فى عهد المعتصم ، ويتحوَّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامرَّاء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرَّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبى العَيْناء والجَمَّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفَّى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه فى تَنُّور محمىّ بالنار حتى يموت. ويقرّب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد، ويُرْسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيَّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

« خفِّض عليك – أيدك الله – فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيءَ وتحسن أحسَنُ من أن أحسن فتسيءَ ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ من الانتقام منى » . وعفا عنه ابن أبى دؤاد[1] . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفًا به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة فى الرد على النصارى[2] ، ويغلب أن يكون هذا التكليف فى سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتبًا رسميًّا للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدى الوزراء والقوَّاد وكبار الكتَّاب بعض كتبه يُهْدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدَّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان، وهذا كل ماهناك . ويظهر أن مرض الفالج ( الشلل ) ألمَّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعده عن الحركة ولا عن الكتابة، فقد ألَّف كتاب الحيوان الذى قدَّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[3] ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقْرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظًا بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعَر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه» . ووجَّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصًا يحمله إليه، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئٍ ليس بطائل ، ذى شِقٍّ مائل ، ولُعاب سائل ، وعقل حائل[4] ؟ ! » .

---

( ١ ) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩

( ٢ ) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها وتراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى معلوم كان يجرى على الجاحظ .

( ٣ ) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

( ٤ ) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

ويُعَدّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامى فى كتاباته[١] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لايزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسْعِفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعانى وما يثيره من دقائق الفكر فى الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذى عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدِين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهــل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ،وكأنك تدور فى كتاباته بمتحف لاتزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية فى البصرة أو فى بغداد أو فى سامراء ، ومرة يطوف بك فى ردهات الفكر العميق أو فى بعض آى القرآن ، ومرة يطوف بك فى شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو فى هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق فى البحث وفى الوصف وفى الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما فى مدن العراق الكبيرة من صور الحياة فى أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شىء حتى

(١) كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

العورات أحيانًا ، ويعلن ذلك فى صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر ( العورات ) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ،ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .[١]»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى: «كتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور ( يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودى متشيعًا ) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملال القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[٢] ويصور ذلك الجاحظ نفسه فيقول : « وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحْمَل أصحابها على الجد الصِّرْف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعانى الصعبة التى تستكد النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشَّحاً ببعض الهزل »[٣]. وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور « البخلاء » وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء فى عصره . وبَنَى رسالة له فى هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة التربيع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئًا ، فجعل يصفه فى رسالته وصفا مضحكًا ، ثم حوَّله إلى دراسة واسعة فى الجمال ، وهل يكون فى القصر أو يكون فى الطول أو يكون فى النحافة أو يكون فى الامتلاء أو يكون فى التربيع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعًا عن المزاح : « ولو استعمل الناس الرصانة فى كل حال والجد فى كل مقال . . . لكان السفه الصُّراح خيراً لهم ، والباطل محضًا أردّ عليهم . . . ولكن لكل شىء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه »[٤] .

---

( ١ ) الحيوان ٣ / ٤٥ .

( ٢ ) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .

( ٣ ) رسالة فى النساء مجموعة رسائل الجاحظ. نشر السندوبى ص ٢٦٦ .

( ٤ ) رسالة التربيع والتدوير ( طبعة شارل بلات بدمشق ) ص ٥٣ .

وجرَّتْ رغبةُ الجاحظ فى أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطْرِف القارئ رغبةً مماثلة فى أن يورد فى تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع فى رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهباً فى كتابته ، حتى لا يملّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً فى كتبه ، كقوله فى كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفِّق — أنى أوشِّح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »(١) . ويقول فى موضع آخر : « ومتى خرج ( القارئ ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ... حتى يُفْضى إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »(٢) .

ودائماً يُعْنَى الجاحظ بصياغته ، بادئاً بموادّها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح فى البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤمَ التلاؤمَ ومطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسامعيه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وَحْشِياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس ، كما يفهم السوقىُّ رطانة السُّوقِيّ »(٣) . ودائماً يُبْدِئ ويُعيد فى أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تَلَذّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . . . صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »(٤) . وأكثر من

---

( ١ ) الحيوان ( طبعة الحلبى ) ٣ / ٧ .
( ٢ ) الحيوان ١ / ٩٣ .
( ٣ ) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .
( ٤ ) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

الحديث فى البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحقٍّ الذى أعدَّ فى قوة لشيوع أسلوب جديد فى الكتابة ، هو أسلوب الازدواج ، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق فى صفوف متقابلة ، دون أن تتَّحد نهاياتها على نحو ما هو معروف فى السجع . هى تتقابل وتتعادل صوتيًّا ، ولكن دون أن تحقق التوازن الصوتى المألوف فى السجع ، ومع ذلك تحقق ضروبًا من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتعادل ، وكأن كل كلمة فى عبارة تقابلها كلمة فى العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قرينًا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أخفَّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرةً ، ولا أقرب مُجْتَنًى ، ولا أسرع إدْراكًا ، ولا أوْجَدَ فى كل إبَّان من كتاب ، ولا أعلم نِتاجًا فى حداثة سِنه ، وقرب ميلاده ، ورُخْص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب »[1] . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذى يحفُّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنِّف الكتبَ الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبَّى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة فى لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفَّافة يَشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفَّى الذى يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائمًا تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ، إذ يُعْنَى دائمًا بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرّائها ، كما يُعْنَى بِسَرَيان روح الدُّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سِمَة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحْصَى من المعارف

---

(١) الحيوان ١ / ٤٢ .

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدبًا واقعيًا يصوّر مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائمًا تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعانى والأفكار خائضًا بك فى أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو فى المعرفة أو فى الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل فى كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام فى الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلا عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومرّ بنا أنه طَبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار فى مدح الشيء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومَعْبد فى الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك ، يقول : « إنما نتنظّر ( نجادل ) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صُنْعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكّر فيهما ويُعْتَبر بهما ويسبّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك فى جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله النظام ومعبد فى ذمه ومَدْحه ، ولخّص ذلك يقول[1] :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايبها ومثالبها من لؤمها وجُبْنها ، وضعفها وشرَهها ، وغَدْرها وبَذائها ، وجهلها وتسرعها ، ونَتْنها وقَذَرها ، وما جاء فى الآثار من النّهْى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطَرْدها ، ومن كثرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثرة أذاها ، وتقذُّر المسلمين

(١) الحيوان ١ / ٢٢٢ .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخَلْق المركب ، والحيوان الملفق : كالبغل فى الدوابّ وكالراعبىّ فى الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسية ولا جنّية ، وأنها من الجِنّ دون الجِنّ ، وأنها مطايا الجِنّ ونوع من المسْخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعتريها الكَلَبُ من أكل لحوم الناس . فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر كَسْبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التى فيها ، وما أودِعتْ من المعرفة الصحيحة ، والفِطَن العجيبة ، والحِسّ اللطيف ، والأدب المحمود . وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها ، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها اللئام ، وذكر صبرها على الجَفَاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعْد أصواتها ، وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّدها فى أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لغتها وحكايتها ، وجودة ثقافتها ومَهْنها وخِدْمتها ، وجِدّها ولِعْبها فى جميع أمورها ، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جِرائها ، ومدة حملها وعن سِماتها وشياتها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتى لا تَلْقَنُ منها ، وعن أعراقها والخارجىّ منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها » .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمُّ بها الكلاب، فيذكرها على لسان صاحب الديك وينقضها على لسان صاحب الكلب، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات صاحب الديك فى نقضها، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائماً إلى التجربة. وهو فى تضاعيف ذلك سيستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضًا من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَبَّى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[1] ، فدائمًا الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجِّن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردِّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة[2] :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كِسْرَةَ خُبْزٍ خلَّاه ، ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كله على نفس الجادَّة ( الطريق ) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سَهِرَ الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجيء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئتْه دابة فأسوأ الخلق جزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حالِ متوقعٍ للبليَّة ، ومتوقعُ البليَّة فى بليَّة . فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسْوَأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ /٢٨٢ وما بعدها .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعِبْتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتَّاب من رَضّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق لقلّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرَّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مراراً ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرّ اللصّ أحدث من عهده ببِرّ أهله لم يكلَّف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البيَاتِ غَيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطىَ . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضَّرْب والإجاعة ، وبالسبّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارىّ والدَّباسِىّ وأصناف الشفانين ( ضرب من العصافير ) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تذم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ . . . وربما كان من الناس — بل كثيراً ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلِمَ تَخُصُّون الكلب بشىء عامةُ الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عُواؤه من وَطْءِ الدابة وسوءُ جزَعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَذَبة ( طرف ) السوط أسوأ من جزعه » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلبَ الكلب مثالب مختلفة فى وفائه لأصحابه وفى غلظ صوته وفى نومه بالنهار على الطرق وفى الأسواق ، وفى كثرة نباحه وعُوائه حين تطؤه دابَّة . ويَنْقُضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفى الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد فى الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعى لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يفى لأصحابه حين يُلْقى له لِصٌّ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجاء ليأخذ أو جاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمج صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته فى القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابِّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التى وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها فى يده شىء . وهى براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ، وهى توضع فى صورة أدبية بديعة ، هى صورة الأسلوب المزدوج الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكمًا . وتمتد المناظرة فى الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ فى الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة فى مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثانى . ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل فى الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذى يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه فى الأسحار ، يقول[1] :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم فى الصباح وفى ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهباً غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شىء يتوافى معاً ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغى للديك أن يقضى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه فى يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لايدلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه صاحب الكلب نقضا، وبالمثل ينقض صاحب الديك محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرين، ونصبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لاتلبث حين تقوم أن تنقضّ. وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرُها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية، وكان يتعصب للعروبة فى أعماقه، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامّه ومثالبه ويُضْفى عليه كثيرًا من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة.

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطُرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلوّن له وتنكّر فترةً إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية [1] :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة ( الحلم ) فقد خفتُ — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزَق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امْرأً أمْسَى وأَصبح سالماً من الناسِ إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّــوه بالحق وبالباطلِ

---

(١) زهر الآداب ١٠٨/٢ .

فإن كنتُ اجترأت عليك – أصلحك الله – فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤْمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى – أيدك الله – لحرْمة ، فهبْه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلاّ تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصِرِّ ، حتى إذا صرتَ إلى مَنْ هفوته بِكْرٌ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الإنعام إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم – أيدك الله – أن شَيْن غضبك علىَّ كزَيْن صَفْحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبِى منك ، كحياة ذكرى مع اتصالى سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام » .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال تغافله عن الجاحظ ويشبِّه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ، ويسوق دليلا ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفوَّ عنه آمناً من المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما لمنزلة حرمته منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النقمة ، برهاناً ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدوثة ، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطَّف له قائلا إنه أول ذنب لى وليس ذنبى إلا النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببى» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببى». وتكاملُ مثل هذا التوازن فى أسلوبه يتيح له وفرة فى النغم، مع ما يتَّسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة .

ولون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية ، وهى تُعَدُّ بالعشرات ، ويكفى أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل فى حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخَلْق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة ، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفى بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[1] فى فخر السودان على البيضان ، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة فى شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذى قتله الحجاج وبلال الحبشى والمقداد الصحابى الجليل أول مَن عَدَا به فرسه فى الإسلام ، ومثل مكحول الفقيه والحَيْقطان الشاعر الذى يفتخر بقومه ، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب ، ويشرح أبياتها ، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويَرْوى قصيدته فى الفخر بالزنج ، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس . ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير ، ويذكر مشاركتهم فى بعض الأحداث والحركات السياسية فى العصرين الأموى والعباسى ، ثم يقول :

«الناس مجمعون على أنه ليس فى الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم . وليس فى الأرض أحسن حُلُوقاً منهم ، وليس فى الأرض أخف على اللسان من لغتهم ، ولا فى الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة ، ولا أقل تمطيطاً منهم . . . والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، فلا يستعين بلَفْتة ولا بسَكْتة حتى يفرغ من كلامه . وليس فى الأرض أمة فى شدة الأبدان وقوة الأسْر أعم منهم فيهما ، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه

---

(١) انظر الرسالة فى مجموعة رسائل الجاحظ .
(نشر مكتبة الخانجى) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦ .

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف . والزنجى مع حسن الخُلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنِّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعْرَفُ من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشى الذى أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ فى الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . . ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السودَ أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحُمُرَ ( ج حمار ) السودَ أثمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشّاءِ أدْسَمُ ألباناً وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شىء ، وليس من التمر شىء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : ( ومن دونهما جنّتان ) ثم قال لما وصفهما وشوّق إليهما : ( مُدْهامّتان ) قال ابن عباس : خضراوان من الريّ سوداوان ، وليس فى الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخَطُّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثْمِد ، وهو أسود . . . وأنفع ما فى الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهى سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقاً مواقعه فى الطبيعة وفى الحيوان وفى الجماد وفى الثمار والأشجار وفى الزروع والأعواد والأخشاب وفى الإنسان وفى الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تَشْويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سُليم بن منصور وكل من نزل الحَرَّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحَرَّة (حَرَّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامَّها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صَحَّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شىء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع .

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارَى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصوِّر هذه النزعةَ القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن « القاضى والذباب » وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة [١] :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً [٢] ولا رَكِيناً [٣] ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلّى الغَداة [٤] فى منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .
(٢) زميتا : وقوراً .
(٣) ركينا : رزينا .
(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيَحتبي ، ولا يتكئ ، فلا يزال مُنْتصباً ، لا يتحرَّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبْوته[١] ، ولا يحوِّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْه ، حتى كأنه بناء مبنيٌّ أو صَخْرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قِصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السماطين[٢] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْثَ ، ثم تحول إلى مُؤْق[٣] عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عَضِّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرْنَبَته[٤] أو يغضِّن وجهه أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفْنه الأعلى على جَفْنه الأسفل ، فلم ينهض ( الذباب ) فدعاه ذلك إلى أن والَى بين الإطباق والفتح ، فتنحيَّ ريثما سَكَنَ جفنه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشد من مَرَّته الأولى ، فغَمس خُرْطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى . فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدّاً من أن يذبَّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطَرَف كُمِّه ، ثم ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضره من أمَنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألَحّ من الخُنْفُساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أنى عند الناس من أزْمت

---

(١) يحتبى : من الحبوة ، وهى أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماطين ؛ مثنَّى سماط وهو الصف .

(٣) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : ( وإنْ يَسْلُبْهم الذُّبابُ شيئًا لا يَستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضى عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التى لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهى سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحتبيًا غير متكئ فى المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يَسْرة ، ولا يغيِّر وضعًا له فى جلسته ، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا فى يوم من أيام السنة ، بل فى جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشىء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له فى سماطين وعظهم وعظًا بليغاً . وهذا هو الجزء الأول فى القصة أو الأقصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل فى العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه فى الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضى إلى مؤقه ، والقاضى يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيمًا على عَضِّ الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يُغْمض طرفه أو يغضّن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه ، حتى إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل فى إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحىّ الذباب قليلا ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتماله له أضعف ، فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضى حتى نفد صبره ، فذبّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه. حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بدًّا أن يذبّ عن عينيه بطرف كمه . وعاوده مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . وننتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصوّر تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة . ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الجاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلا واعياً ، أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شىء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الجاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صوّر ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغيّر ولا تبدّل صورتها اللفظية ، سواء جرَتْ على ألسنة البَدْوِ أو ألسنة العامّة ، يقول[1] :

« ومَتى سمعتَ — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيًّا ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدتْ له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحَهم لها » .

وطبّق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُرْوَى بألفاظها كما نَدّت من ألسنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدّلت مُسخت وأصبحت مشوّهة الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثيراً من تقاليده ومطاعمه وملابسه ، فكل مافى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقا بكل شياته وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة التى صوّر فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصِّبْية ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألَّفت كتاباً فى نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلَّمت عليه فردَّ علىَّ أحسن رَدّ ، ورحَّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوِّى عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلىَّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدك . فدخلتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظَّم الله أجرك ( لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسنة ) ، ( كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ، فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت مَنْ لم ترَ ؟ فقال : اعلمْ أنى كنت جالساً فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ( النافذة ) إذ رأيت رجلا عليه بُرْدٌ ( ثوب ) وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاك اللهُ مكرُمةً  رُدِّى علىَّ فؤادى أينما كانا
لا تأْخذين فؤادى تَلْعبين به  فكيف يَلْعَبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مَرَّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو  فلا رجَعتْ ولا رَجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا : إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوَّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله » .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمتاً جاداً ، يزينه فى أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألّفه فى نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة، ويلاحظ أنه أغلق كُتّابه فيزوره فى داره، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطلّ حمقه على الجاحظ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها، وتتوالى غفلته فى هذا الحب الأحمق الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا فى مسرح هزلى نفضى فيه إلى الضحك، وكلما مضينا فى النادرة أغربنا فيه، لا نتوقف، وكأنما اختلّ توازننا ، أو كأنما نندفع فى انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يُطْوَى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شىء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويُرْوَى عنه أنه قال : « ما أخجلنى إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعملْ مثل هذا ، فبقيتُ مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوّره ، فأتت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية فى كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت فى الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسّدها فيه من طوابع عقلية ومن جِدّ وهزل ومن نقل لكل صور الحياة فى مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُّرَف والنوادر ومن أسلوب مليء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذى يروع القارئ بجَرْسِه ، إذ يُمْتِع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصْغِى إليه ، كما يُمْتِع بمضامينه العقول والأفئدة .

# ٣

## ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسى أو تركى من مرو بخراسان ، ومن ثم نُسب إليها ، فقيل المروزى ، اختْـلَـفَ فى صباه إلى الكتّاب ، فحفظ شيئًا من القرآن الكريم والحديث النبوى والأشعار وشدا شيئًا من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكد يشبّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرْجم عن الفارسية ، ولمع اسمه فى بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدينَوَر ، ولذلك يقال له الدّينورى . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكبّ على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفى نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزليًّا كما مرّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنّيًّا ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة فى الثانى يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب فى الفقه وكتاب فى دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة فى مختلف الميادين سقطت من يد الزمن. ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقْب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء فى كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميْسر والقِداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف فى اللفظ والرد على الجَهْمية والمشبّهة وهو منشور أيضًا بالقاهرة ونُشر

---

(١) انظر فى ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١ والأنساب للسمعانى الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠ وإنباه الرواة للقفطى ١٤٣/٢ ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر ) ص ٢٠٩ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب ٢ / ١٦٩ ومرآة الجنان اليافعى ٢ / ١٩١ .

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحولٌ عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ،وهو منشور مراراً . وله كتاب معانى الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتَّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمد الكاتب فيه بكنوز الثقافات التى تُسْعفه فى مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ،وهو سنى محافظ ولذلك يكون من المنطق أن تتضح محافظته فى آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدِّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك فى مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قوماً دون قوم . وهى نظرة مُنْصِفة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيَّد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يَرِدَ على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشِّيح والحَنْوة(1) والعَرَارة» وهى لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السُّنِّى فى العصر الذى حل محل جَوِّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقى مع النظرة السابقة التى لا تضع فى موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثانى اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنَّفه : «كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك فى نفس الموضوع كتب مختلفة .

---

(1) الحنوة والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحَّد منها جميعاً، بحيث لا يُشْغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذى طال عليه الأمد منذ عهد المهدى حتى عصره. وحقًّا حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شىء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة»(١) وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرَفِ الفلسفة» . ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية فى العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون عَلَمها ويبذلون قصارى جهدهم فى الدعوة لها مشيرين دائمًا إلى كتب الآداب الفارسية . فكان لا بد كى يُقْضَى على هذه النزعة الحادَّة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها فى مجرى النهر العربى الإسلامى بحيث تتلاشى فيه نهائيًّا، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة .

وهو ما نهض به ابن قتيبة فى أروع صورة، إذ مضى ينسِّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألَّفت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجَّاب والكتَّاب، ويبدؤه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية فى الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: وقرأت فى كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُنْفَقُ منه، وشَرُّ الإخوان الخاذل، وشَرُّ السلطان من خافه البرىء، وشَر البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن . . . وخير سلطان مَنْ أشبه النَّسْر

---

(١) الحيوان ٢ / ١٤٣ .      (٢) الحيوان ١ / ١١ .

حوله الجيفُ لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسورُ » ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلا من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصوّر من الأدب الأخلاقى فى عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت فى التاج ( وهو فى سيرة أنوشروان ) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شىء يَجِلّ ، وألباب السُّوقِ مشغولة بأيسر الشىء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأتُ فى بعض كتب العجم كتاباً لأرْدَشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسطاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعيةَ بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك، هو أدوم بقاءً منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطَّها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرتْ أن تقول قدرتْ على أن تفعل ، فاجْهَدْ ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويتْلو ذلك بقوله : « وقرأت فى كتاب الآيين ( فى أنظمة الملك والدولة الساسانية ) أن بعض ملوك العجم قال فى خطبة له : « إنى إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج فى رعيته ، ثم يقول : « وقرأت فى كتاب التاج : قال أبرَويز لابنه شِيرويه وهو فى حبسه : « لا توسعنّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيِّقنّ عليهم فيضجّوا منك ، أعْطِهِم عطاء قَصْدا ، وامنعْهم منعًا جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا توسِّع عليهم فى العطاء » . ويَرْوِى عن عمر بن الخطاب « إن للناس نَفْرَةً عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقِمِ الحدود ولو ساعةً من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثِرْ نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرَّت بواد خِصْب فلم يكن لها همٌّ إلا السِّمن ، وإنما حتفها فى السِّمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير فى الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفى كتاب من كتب العجم أن أرْدَشير قال لابنه : « يا بُنَىَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسٌّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون فى السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت فى كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبّ الرجل فأقصاه واطّرحه مخافة ضرّه ، فِعْلَ الذى تلسع الحية إصبعه ، فيقطعها لئلا ينتشر سُمُّها فى جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت فى كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخِطار ، وإنما تُشَبَّه بالجبل الوَعْر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاءُ إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير فى الشىء الذى فى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحةُ والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعّاظ وعن بعض كتبه التى كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبْرويز فى بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامى وبشار وغيرهما ، ويعرض لخيانات العُمّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبْرويز قال لصاحب بيت المال : « إنى لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتَعْمُرُ به أمانتك ، فإنك إن خُنْتَ قليلا خنت كثيراً » . ويُكثر فى فصل القضاء المعقود فى هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وهو دستور عظيم فى عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يُكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود فى الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثانى كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحِيَلها وعُدَدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وببعض وصايا أبى بكر وعمر للجيوش وقُوّادها عند عقد الألوية ، ويَذكُر بعض ما قرأ فى كتب العجم والهند ، ومما قرأه فى الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه فى كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة فى

غيره من المال ». ويذكر بعض حِيَل الفرس والعرب فى الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفيض فى الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسى .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط فى الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفْرِد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت فى كتاب للهند : « قلما يُمْتَنَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثّر فيه ، وقد تُقْطَعُ الشجرة بالفئوس فَتَنْبُتُ ، ويُقْطَعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب فى الجوف فتُنْزَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَع ، ولكل حريق مطفئ : للنار الماءُ ، وللسم الدواءُ ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرْقة ، ونار الحِقْد لا تخبو » . ويذكر أن واشياً وَشَى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلتَ فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكُفَّ عن الشرِّ يكفَّ عنك الشر » ، وينقل فى هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقبه الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهله بحديث عن الرسول ويقول : فى كتاب للهند : العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التى يعيش بها حيث توجّه ، ويذكر عن بُزُرْجِمْهر أنه قيل له : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ من العلم ؟ فقال ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن فى قول لا أعلم سبباً لأنى أعلم لقلت إنى أعلم » . ويَرْوى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصولا للقرآن الكريم والحديث الشريف والفِرَق والأهواء فى الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواعظ كبار النسَّاك والوعَّاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت فى الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم فى الأرض حيث يُفْسِدُها السوسُ والدود وحيث يَنْقُب السرَّاق ولكن اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلا من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لى أن أدفن أبى ؟ فقال له : دع الموتى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلا حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلا ودعاء ليوسف ، ويَرْوِى عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داء ؛ قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد فى البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغى أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك فى السَّرَّاء والضَّرَّاء . وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين .

والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بُزُرْجِمِهْر : « إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب فى مآكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأوانى الأكل والحِمْية وشرب الدواء والتُّخَمَة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرّح بأنه ينقل فى هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر فى الحِمْية عن الطبيب اليونانى جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضى من

الطعام أن آكل لأحْيَا وغرض غيرى من الطعام أن يَحْيَا ليأكل. وبالمثل يَنْقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ،وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يُقْبَلُ منهن وما يُكْرَهُ والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجوارى والقيان ومساوئ النساء، ويحكى هنا قصة حصار أرْدشير لمدينة الحَضْر الأسطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات، وكيف أن فتاة ملك الحضر رأته فعشقته ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعدها الاقتران بها ، ووعدها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرؤها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خَفَتَ صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحولتْ إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لُبِّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صُبَّت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لا تضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلا شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لا نعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيده الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دوّن الفردوسى فى الشاهنامة من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى. وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجرى، مصوّرين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب فى أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوبَ ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التى نسَّقها سبكها فى أسلوب أدبى رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحيانًا ؛ وأحيانًا يسترسل دون محاولة الازدواج، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة فى يده ، وكان لا يتأبَّى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنَّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب فى قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعًا لا ينفد ، واقرأ سطوره الأولى فى المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفةَ الواصفين ، وتفوت آلاؤه عددَ العادّين، وتسع رحمته ذنوبَ المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحْجب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طِلْبة ، ولا يضل عنده سَعْى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر، وغفر بِعَقْد الندم كبير الذنوب، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هاديًا إلى رضاه وداعيًا إلى محبَّته ، ودالاًّ على سبيل جنَّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله فى كل نعمة أنْعَمَ بها حقًّا ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، فزكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بَذْله ، وزكاة العلم نَشْرُه ، وخير العلوم أنفعها، وأنفعها أحمدها مَغَبَّةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ما تُعلِّم وعُلِّم لله وأريد به وجه الله تعالى » .

وهذه القطعة فى مستهلّ الكتاب تصور ضربًا من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه فى غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التى ردّد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقَّبَ فيها الكلمة الأخيرة وردّدها

كما فى كلمة « أنفعها » و « أحمدها » هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكأن ابن قتيبة تمثَّل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه فى المقدمة ، فنراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغْفِل التأدُّب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسائس الناس ومَسوسهم مؤدّبًا ، وللملوك مُسْتَرَاحًا ، وصنَّفْتها أبوابًا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظُها ، وعلى الناشد طَلَبُها ، وهى لِقَاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وزُبْدة المَخْض ، وحِلْيَةُ الأدب ، وثمار طول النظر ، والمتخيَّر من كلام البلغاء ، وفِطن الشعراء ، وسِيَرُ الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذى كتب هذا الكلام ، وسُئلنا عن صاحبه لأجبنا توًّا الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فَصَلَ من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات فى صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بمثيلتها فى العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهى على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يُحْدث تماسكًا شديداً فى أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحيانًا من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التى يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتَّبة مبوَّبة فى أدقّ نَسَق . ويكفى أن ننظر فى فهرس عيون الأخبار فسنرى الكتاب من كتبه العشرة يُفْتَتَحُ ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات فى سلسلة متتابعة وليس فى داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل لكأنما الكتاب خيط ممتَدٌ أحكمت فصوله ونُسِّقت مواده تنسيقًا دقيقًا . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبى من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأى فصل داخلى فى كتاب فضلا عن الكتاب نفسه بأى استطراد يُخلْخل الكلام أو يُفْقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نَسَق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه فى وَصْله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صوّرنا من صنيعه فى هذا الجانب . وحقًّا نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يَحْك أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصرهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتبًا واقعيًّا على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحيانًا أن يقتفى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شيء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوْرات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلا : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مَرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرة أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعِّر خَدَّك ، وتُعْرِض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤْثِم ، وإنما المَأْثَمُ فى شَتْم الأعراض وقول الزور والكذب وأكْل لحوم الناس بالغَيْب » .

ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمِّتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول :

« ولم أُخْله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة .. لأروِّح بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمْضة ، والمَزْح إذا كان حقًّا أو مقاربًا ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبته مُشاكلا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا توًّا أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتسامًا ، وما يثير الابتسام قليل جدًّا ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدَّمًا أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يَنْدر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبىِّ ( من علماء الكوفة ) لتُعْرَفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه فى البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده فى مرض ، ونظر من حواله إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعْرَف فى منزلك أنك لست من أهل القَرْيتين ( مكة والطائف ) عظيما » .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التى رويناها آنفًا ، والتى مثَّل فيها الجاحظ حُمْقه تمثيلا هزليًّا مضحكًا ؟ . ولا ريب فى أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحك وتستغرق فى الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستّرد نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجد ، وكأنه إذا هَزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبّه عنده فى باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم فى تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ فى هذا الموضوع وأنه ينبغى أن تظل النادرة العامية بصيغتها ولحْنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدَّلتْ صورتها الفكهة ، ويقول ابن قتيبة محتجًّا لذلك : « اللَّحْنُ إن مرَّ بك فى حديث من النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلَب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمُزَبَّد المدينى ( المضحك ) — وقد أكل طعامًا كظَّه ( أتخمه ) — قِى ( قِىءْ ) فقال : ما أقى ، أقى نَقَا ( مخًّا ) ولحم جَدْى ! مَرَتى طالق لو وجدت هذا قيًّا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التى تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ — هى وما سبقها بوضوح — على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ فى الواقع قمة بعيدة المنال فى الأدب العربى كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً فى عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفى ابن قتيبة مجداً أدبيا أسلوبه الواضح الناصع الذى وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوّى للعربية فى عيون الأخبار من هذا الأدب العربى الرفيع الذى وَسِعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

٤

## سعيد بن حميد (١)

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسى الأصل ، كان من أهل النباهة فى بغداد ووَجْهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحْسن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنى به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكُتَّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات فى العقد الثانى من عمره دفعه إلى حلقات الدرس فى المساجد، ويُرْوى أنه عُنى خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابى المتوفَّى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة فى نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوى الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكِبًّا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدَّم فيها من غذاء أدبى وفكرى ، مما جعل المسعودى يقول عنه : «كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفًا فى فنون العلم ، مُمْتِعًا إذا حدَّث ، مُفيداً إذا جولس» . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن فضل . وكان قد ملأه الطموح بالنجاح فى سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب فى أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرئب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا على البصير وأبا العَيْناء نديمى المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

---

(١) انظر فى ترجمة سعيد ورسائله الفهرست ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٢ ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس أحمد السامرائى (طبع بغداد) وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت .

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى ما اشتهر به من تعصبه على آل على بن أبى طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصْباً ( عداء ) لعلى وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام»[1] ويقول المسعودى : «كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين فى كربلاء وانحرافه عن على وآله، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن فى هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل فى ظله، وأنه استحال بوقاً من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويُعْرَفُ بالتَّسْوِيَةِ ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن فى كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعْرَفُ بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا فى هذا الكتاب وكتاب العصر العباسى الأول لا تدخل فى العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفى أشعاره ما يدل على أنه كان معتزليًّا مثل أبيه على نحو ما نرى فى قوله[2] :

قد قلتُ بالعدل ولكننى عدلتُ فى الحبِّ عن العَدْلِ
فقلتُ بالإجبار مستغفراً لله من قولى ومن فعـلى

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتى تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شىء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل فى ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهيَّأ له ذلك أن يصبح من كتَّاب الدواوين

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ .

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٤١ .

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها تَرْمُقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعةَ للمنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الخصيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البَيْعة . وهو كتاب طويل استهلّه بقوله(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طَوْع واعتقاد ورضًا ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نيّاتكم لا مُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولَمّ الشَّعَث ، وسكون الدَّهماء ، وأمْن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمْع الملحدين . . . لا تشكّون ولا تُدْهنون ( تمالئون ) ولا تميلون ، ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصْرة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح فى هذه السطور القليلة ، فهو يُعْنَى أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضًا » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولَمّ الشعث ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعز الأولياء ، وقمع الملحدين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقا ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولى الخلافة بعده المستعينُ لسنة ٢٤٨ عزل ابنَ الخصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجرائى ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد(٢) ، وبذلك أصبح الكاتبَ الأول فى الدولة الذى تَصْدر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالةٌ خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبرى ٩ / ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) طبرى ٩ / ٢٦٤ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْداً عن سامرَّاء مدينة الترك وبَغْيهم ، فبايعوا المعتز ، ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الوقعة حتى تُقرَأ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، وهى رسالة طويلة طولا شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام ( بغداد ) معلنين للبَغْى والاقتدار ، مظهرين للغىِّ والإصرار ، فتأنَّاهم أمير المؤمنين ( المستعين ) وفسح لهم فى النَّظِرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبيِّن لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسْنَى المواهب ، وأرفع الرَّغائب ، والاختصاص بِسَنىِّ المراتب ، والتقدم فى المحافل ، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً ، وتمسكاً بالغَىِّ وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار فى الباطل . . . وصَدَقَتْهُمْ أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر ) فى لقائهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلمٍ بأن الله لا يُخْلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولةً ، وعاودتْ كرَّةً بعد كرَّة ، طعناً بالرماح ، وضرباً بالسيوف ، ورَشْقاً بالسهام ، فلما مسَّهم ألم جراحها وكَلَمَتْهم (جرحتهم ) الحرب بأنيابها ، ودارتْ عليهم رَحَاها ، وصمد لهم أبناؤها ظَمَأً إلى دمائهم ، ولَّوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصَّنوا من عقابه بإنابة . . . فمن قتيلٍ غُودرتْ جثته بمصرعه ، ونُقلت هامته إلى مصير فيه معتبَرٌ لغيره ، ومن لاجىء من السيف إلى الغَرَق لم يجرْه الله من حذاره ، ومن أَسير مصفود ( موثق بالأغلال ) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بِحُشاشة نفسه . . . فِرَقاً أربعاً تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عِظةً ومعتبراً لأولى الأبصار » .

وواضحٌ تقطيع العبارات وتقابل الكلم فى الرسالة ، وكأننا بإزاء حائك ، يقيس ثياباً متماثلة مقدَّرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعاً متكلَّفاً ، فليس مردُّه إلى محاولة صَنْعة ، وإنما مرده إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعات متوالية . وما نزال نتنقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذى دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، **فمن ذلك** تحميد كتب به فى فتح نهض به القائد التركى وصيف ، يستهله بقوله (١) :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعَّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبَّره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرّف عباده فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقع الأبصار على شىء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صُنْعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بحجَّته ، وتطولا بنعمته ، وهداية إلى حقِّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهَّار ، الملك الجبَّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهَّره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجَّة أهله على مَنْ شاقَّهم ( خالفهم ) ووسيلتهم إلى النصر على مَنْ عَنَدَ ( مال ) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمّ بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخلق وتساعده ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرَّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النَّيْروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٥ .

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعرف طائفة منها بادئين بتهنئاته فى عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبى صالح بن يزداد وزير المستعين[١] :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهْدى لك فى هذا اليوم ، وهو يوم سَهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سُنَّته فنكون من المقصِّرين، أو نَدَّعى أن فى وسعنا ما يَفِى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقتصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البِرّ ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتَ أيها الأمير دائم السرور والغبطة فى أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخْلِقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكَّر لطيبه وحلاوته ، والسَّفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حُلْوَ المذاق على أوليائك، مُرًّا على أعدائك ، متقدِّمًا عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم ( ساحاتهم ) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوبَ سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعانى المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطًا طبيعيًّا ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحِسّ ورهافة الذوق ، على نحو ما يتضح فى المعانى التى تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير فى عِزّه . ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال[٢] :

« أيها السيد الشريف ! عشتَ أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة ، حتى تجدَّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصِّراً عما بعده ، موُفياً على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسى بهم فى الإهداء ، وإنى إن

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعانى ١ / ٩٥ .

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٣٩ ، والعقد الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعانى ١ / ٩٤ .

اهديت نفسي فهي ملك لك، لا حظٌّ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفي إلى كرائم مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيت إن أنا جعلتها هديتى لم أجدّد لهذا اليوم الجديد بِـرًّا ولا لَطَفًا ( هدية ) ولم أقِسْ منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدةً على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بِـرًّا أتوصَّل به » .

والرسالة تحمل فى جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة فى الدعاء وفى التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قدَّمهما من قبل ، ولم يبق فى طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذى لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات فى الرسالة ويظهر السجع أحيانًا فى خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عُزِل عن عمله ، مسليًا له[1] :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى بِصَرْفك أكثرُ من سرور أهل عملك بما خُصُّوا به من ولايتك . وقد كنت ـ أعزَّك الله ـ فيما يُرْبِأ بك عنه بما أنت عليه فى قدرك واستئهالك ، ولكنا رجونا أن يكون سببًا لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نَفْسًا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلَّمك منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشَفْع ( قَرْن ) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصَّك الله بجميل الصُّنْع ، وبلَّغك غاية المؤملين . إن من سعادة الوالى ـ حفظك الله ـ وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامةَ من بوائق ( دواهى ) الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصَّك الله منها ـ بِمَنِّه وطَوْله ( إنعامه ) ما نرجو أن يكون سببًا لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك ( إلهامك ) شكر ما مَنَّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ عكس سعيدٌ العزاءَ عن العمل، وجعله تهنئة

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٧ .

خليقةً بأن تُنْصب لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفسًا ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التى كانت تدور فى المجالس ، والتى كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسنًا وينقلب سيئًا ، وقد يكون سيئًا وينقلب حسنًا ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التى حازها لنفسه العصر العباسى . وله من رسالة تعزية[1] :

« إذا استوى المعزَّى والمعزِّى فى النائبة استُغنى عن الإكثار فى الوصف لموقع الرزيَّة . . . وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافًا بالمرجع إليه ، وتسليما لقضائه ، ورضًا بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتُها ، وأن يُوَفقك لما يُرْضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكمِل لك ثواب الصابر المحتسب وجزاءَ المطيع المتنجزِ للوعد ، ويَرْحم فلاناً ويُحِله أعلى منازل أوليائه الذين رضى سَعْيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه ولىٌّ قدير » .

والحيلة أيضًا فى هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزَّى ، فهو أيضًا حرى بأن يُعَزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يحتال على أن يَسْلُوَ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافًا بأن كل من عليها فان ، ورضا بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه فى الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية[2] :

« أنا أهنئ بك العمل الذى وَليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويُصدره مصادر الحجَّة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قَرَنَ الله لك كل نعمة بشكرها ،

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

وأوجب لك بِطَوْله المزيد منها،وأوْزَعَكَ ( ألهمك ) من المعرفة بها مايصونها من الفتن ويحوطها من النقص » .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسى الخصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهى أن العمل هو الذى يهنأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنأ به ، إمعانًا فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعو له بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المنتقى والأسلوب المصفّى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه[1] :

« رجلٌ يَعْنُفُ بالنعم عُنْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافَ من لا يخفّ عليه محملها ، ويقصِّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُمْهله ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلّ وعزّ إلى سلطان غيره فيعاجله » .

وهذه الكلمات على قصرها من ألذع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافَ مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطّرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء ، وهو لا يدرى أنه مع طغيانه وبَغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُمْهله ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله فى الدعوة إلى يوم أُنْس من رسالة[2] :

« لا عُذْر فى التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت سامحت على العُذر قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كل خير دليلا ، وإليه داعيًا ، وبه آمراً ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْراً ( دموعاً منهمرة) وهاج شوقًا ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظًّا من محادثتك والأنس بك » .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ٩ / ٢١٩ . (٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١ .

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبَّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْراً . ودائماً لا تفوته الكلمة الموجزة المعبِّرة أدق تعبير وأقواه. ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعثَّرَتْ فى حِبال غيره(١) :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل فى غرور ، أخادع نفسى بتكذيب العِيان ، وأمنِّيها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالى إليها — بعد ماقد لاح من تغيُّرها — لذلٌّ ، وإن عدولى عنها — وفى أمرها شُبْهة — لعجز ، وإن تصبُّرى عنها لمن دواعى التلف » .

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيُّر فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاًّ له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً فى أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدَّى به إلى التلف والهلاك . ودائماً نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور فى كتب الأدب من مثل قوله فى رسالة لصديق مصوِّراً مودته(٢) :

« إنى أهديت مودتى إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرقٍّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظرْ تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائماً تُرَدُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها ردًّا ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَّهُ فى يديك وحريته طوع مشيئتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه فى أخوته وصداقته . وهو يصوِّر نفسه، وقد قدَّم الهدية وتخيَّر جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعْرَف بالضبط السنة التى توفى فيها سعيد، وأكبر

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٩ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد ( ٢٥٦– ٢٧٨ هـ ) . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية فى الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعْنَى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهى التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعْنَى بمعانيه وجَلْب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

### أبو العباس بن ثوابة (١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحى ، عملتْ فى دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل فى دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وكان ابنه جعفر يتولَّى ديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع فى رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رياسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدى هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره فى الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبى العباس بن ثوابة ، ولكن لا بد أن أباه وكان يشتغل فى الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتّاب ، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء فى المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدى (٢) (٢٥٥–٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه فى صعود حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لا تُعْقَدُ إلا لمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه و بين سعيد

---

(١) انظر فى أبى العباس بن ثوابة الفهرست ص ١٩٣ ومعجم الأدباء ٤ / ١٤٤ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الأغانى ( طبعة الساسى ) ٢٠ / ٦٩.

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومى فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحترى ويُرْوَى له توقيع وقّع به فى قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضيّة ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — ما شئتَ منبسطًا ، وثِقْ بما أنا عليه لك مغتبطًا ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتّى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : ( لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) ، فقال له ابن بلبل : ( لا تثريب عليكم ) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضاعف — وزاد — فى الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتّى وفاته .

وأبو العباس أحد كتاب العصر وبلغائه ، وفى أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلا بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يومًا وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغسِل فمى من كلام الحاجم . وأُثِرَ له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولى عهد المعتمد، ومرّ بنا أنه كان الخليفة الحقيقى طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدئ على هذا النمط [1] :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاّه الصلاة بأهل كورة الرَّىِّ ودُنْباوَنْد ونواحيها ، والحربَ والأحداثَ فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، فى سِرِّه وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاء عما نَهَى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتّق الله يَقِهِ ، ومَنْ يعتصم به يَهْدِه ، ومَنْ يُطِعْه يتولّه ويَكْفه ( إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إمامًا ، وسُنّةَ نبيه صلى الله عليه وسلم مثالا ، فإن فيهما دلالةً وتبيانًا ، وضياءً ونورًا وشفاءً لما فى الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٣٤ .

ما يُعْنَى به ويقدّمه، ويراعيه ويؤثره، إقامةَ الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداءِ فَرْض الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضلَ ما تقرّب به المؤمنون ، وكان مَنْ أضاعها وقصّر فى واجبها ، أشدّ تضييعاً لما سواها من حقوق الله عزّ وجلّ وفرائضه ودينه وشرائعه (وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين) . وأمره أن يُلْهم نفسه فى كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضِىَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزّ وجلّ فيه، واستقصائه فى ذلك بالذى هوله أرضى ، وعنده أزكى، فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور خَيْرُها عاقبةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون » .

وقد استهلّ أبو العباس بن ثوابة العهد — كما يلاحظ القارئ — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتفياً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التى تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهى كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يمْضى فى العهد ، فيأمر الوالى بحسن سياسته لأهل عمله وأخْذه لهم بالعدل والنَّصَفة وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه فى إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدّم أهل الفضل والصلاح والمشايعين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعاً لما جاء فى محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصّ عليه الفقهاء، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ماقد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شيء قدراً، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التى تقابل الأعداء فيسدّ خللها ويرتق فَتْقها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زاداً ولا عَتَاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يَدِرّ الخراج ويكثر حِلابه ، كما يأمره أن يتفقّد مَنْ فى السجون ، ويُكثر عَرْضهم والنظر فى أمورهم والأسباب التى حُبسوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما فى العهد أن نراه يأمر الوالى بالأمانة فى

ولايته ، وألا يأخذ أي ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأي حجة أخرى . ومرَّ بنا في الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصًا وقُطَّاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أي رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالي إنه :

« أمره ألا يَقْسِم على أهل عمله قسمةً بسبب نُزُل ( ضيافة ) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظِّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنَّب الطُّعَمَ (وجوه المكاسب ) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشيء منها ، أو يطلقه لأحد من كُفاته ( معاونيه ) فيَرِد عليه من النكير ما هو حريٌّ بتوقيه والتصوُّن عنه » .

ويعرض في العهد لوظيفة الحِسْبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار في الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضي معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشريعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفي ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن يتخيَّر للحِسْبَة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات ( السلع ) في عمله مَنْ يُعْرَف بالقصد في مذهبه ، والسَّتْر في نفسه ، والعفاف في طُعمته ( وجه مكسبه ) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويُسْتكفَى القيامَ به ، ويتقدَّم إليه في أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التي يقع عمله في الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورَفْع الغِشِّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرَّة على المسلمين أو تحيُّف ( تنقص ) لهم ، وتعيير ( قياس ) المكاييل والموازين في سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وخَتْمها بالرصاص ، وحَمْل المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسُمه ، ويتقدم بامتثاله في سائر وجوه الحسبة ، حتى لا يخالَفَ شيء منه إلى غيره ، ومعاقبة مَنْ عَسَى أن يُقدم على مخالفته فيه ، بردْعه ، ويعظ مَن سواه ، فإن الله عزَّ وجَلَّ يقول : ( أوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرين وَزِنوا بالقِسْطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ) » .

وهي قطعة طريفة في العهد ، إذ تصوِّر أعمال رجال الحسبة في العصر وما كان

يُشْتَرَطُ فيهم من معرفة بالشريعة وحدودها وأن يكونوا من الثقاة أهل السَّتْر والعفاف حتى لا يتحولوا إلى ذئاب فى الأسواق فارضين على التجار وأصحاب الصناعات هدايا ورشاوى ، من شأنها أن تفسد الذمم فساداً لا حَدَّ له ، وبالتالى تفسد الأسعار والبيع والشراء . ويصوّر مهمة المحتسب بأنها تصحيح المعاملات بين الناس ورفع الغش والخداع والمراجعة الدائمة لعيار المكاييل والموازين وختم الدقيق منها ختماً يدل على صلاحه ، بحيث لا يستعمل سوى الموازين والمكاييل المختومة التى أقرّها المحتسب ، وكلّ من حدثته نفسه بمخالفة ذلك ينبغى أن يُنْزل به المحتسب عقاباً رادعاً . وقد كُتب العهد بدون سجع ، وكان ابن ثوابة يفزع إلى السجع كثيراً ، ولعله لاحظ أنه موجّه للرعية كما جاء فى نهايته ، وأنه ينبغى لذلك أن يكون فى لغة واضحة لا يحجُبُ السجعُ بعض معانيها ، ولا يحول بين العوام وتبين مافيها .

وأثرت له رسائل إخوانية كتب ببعضها إلى نفر من الوزراء ، وهو فيها تارة يُكثر من السجع وتارة يتخفّف منه بل قد يُهْمله تماماً على نحو ما نجد فى الرسالة التالية التى كتب بها إلى الوزير إسماعيل بن بُلْبل يهنئه بمصاهرة الموفق ولىّ عهد المعتمد وفيها يقول[1] :

« بلغنى للوزير — أيّده الله — نعمةٌ زاد شكرُها على مقادير الشكر ، كما أرْبَى مقدارُها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس الصولى :

بنوك — غدًا — آلُ النبيِّ ووارثو ال     خلافة والحاوون كِسْرَى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها موهبة ترتبط ما قبلها ، وتنتظم ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير — أعزّه الله — على سادة الوزراء موفياً ، وبجميل العادة مستحقاً ، وبمحمود العاقبة مُسْتوجباً ، وأن يُلْبس أولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكراً باقياً وشرفاً مخلَّداً » .

والرسالة تخلو من السجع ، ولكنها تحوى الكثير من المهارة الفنية ، وخاصة فى تقطيع الجمل وتقابلها واستيفاء معانيها ، على نحو ما يتضح فى العبارتين الأوليين

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٥٧ .

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقّبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمُّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تتماسك الكلمات وكأنها فى بناء متراص . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّهها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعلتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر ( الجيش ) وعوامّهم أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صدر أبو العباس بن ثوابة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعلتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكد يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول[1] :

« الله يعلم — وكفى به عليماً — لقد أردت مُكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عَيْباً أن أفْديَك بنفسٍ لا بد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَنْ أظهر لك شيئاً يُضْمر خلافه فقد غَشّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملكٌ لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطَب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوابة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسِّ والشعور والرقّة والدماثة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىَّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الحاجم ، وكأن سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

(١) زهر الآداب ٣ / ١٦ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدماثة والحسّ المفرط والشعور الحاد . وله من فَصْل فى رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه(١) :

« لم يُؤْتَ الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوتَ من عدم وسيلة ، وغُلّةُ ( حرارة ) الصّادى ( العطشان ) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعْجِل عن تأمل ما بين الغَدِير والوادى ، ولم أزل أترقّب أن يُخْطِرنى بباله ، ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن بَرِح ( انكشف ) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشَمِتَ الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدّم المقصّرين لآيةً للمتوسّمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصًا فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يُؤْتَ من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصىّ والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة فى صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعْجِله عن النظر فيما بين الغدير والوادى من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفلّتت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتابًا رفيقًا وهو يختمه بقوله إنه أصبح فى عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت فى رحاب الوزير كثرةٌ من المقصّرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن فى ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحْمَدُ فى مكروه سواه . والعبارات فى الفصل متسقة اتساقًا وثيقًا ، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسّ انسجامًا بين الكلمات منذ العبارتين الأولين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعتين . ويضيف إلى ذلك فى العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سوّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معًا . وبذلك يَبْلُغ أبو العباس بن ثوابة صاحب الدماثة المفرطة والرقة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق فى التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وَشْىِ السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية(٢) :

---

( ١ ) معجم الأدباء ١٤٧/٤ .

( ٢ ) جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣ .

« وصل كتابك بالتعزية عن أخى ، وقد جَلَّتْ مصيبتى به وعظمت ، فنكأت (جرحت) القلب ، وهدَّت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغَّصت العيش ، وأزْرَتْ بالأمل . فعند الله أحتسبه ، وإياه أسأل تفضلا عليه ، وصفحاً عنه ، وتغمداً (غفراناً) لذنوبه ، وصبْراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهباً له ، فإنه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، ومورِدٌ لا مَحيص عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صوَّر حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك فى أنه بذل جهداً عنيفاً فى اجتلابها ووضْعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطًّا إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضاً : الصبر على حادث القضاء، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها فى عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوابة فى قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضّاه بهدية نفيسة فردَّها وقال لحاملها قُلْ لأبى العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنات يُذْهِبْن السيئات ، وما يأسو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته علىَّ ، وأضعفته ، فإن تلافيت ما فرَط منك أثبْنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احتملْنا وصبرنا » .

فقَبِلَ البحترىُّ ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه. والكلمات التى كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هى تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعذوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة فى القرن الثالث الهجرى لشيوع السجع وانتشاره .

# خاتمة

هذا الجزء خاصٌّ بتاريخ الأدب العربي فى العصر العباسى الثانى ، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بدواً رُحَّلاً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم فى أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثًا حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون فى الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعى أن تتدهور الخلافة ، وزاد فى تدهورها انغماس الخلفاء فى اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين فى خزائن الدولة ولا فيما ينبغى أن تُنْفَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادى والحربى . وفسد الحكم فساداً لا حدَّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادَرُون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج فى البصرة وتظل أربعة عشر عامًا ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقْضَى عليها فى العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة فى البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آيبة ، وتكاثرت ثورات العلويين فى الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون فى سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذانًا بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركى معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصولجان .

وكان المجتمع العباسى يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهى طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفى الدولة وأصحاب الإقطاعات ورءوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهى طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهى الطبقة العامة من الزرّاع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُنْفَقُ حينئذ فى قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُنْفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً . أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً . والقصور الباذخة تشيَّد. والشعب يكدح ويتصبَّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذى يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَزُّ منها الأموال بكل الطرق ، واضْطُرَّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قَرَّادين وحوّائين ومتسوّلين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعامَلُون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون فى البيمارستانات أطباء وفى الدواوين كُتَّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون فى الأناقة : الأناقة فى الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد كما تفننوا فى الحلواء وفى الشراب . وعُنوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهى . وكان الرقيق — وخاصة رقيق الجوارى — يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها فى الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعْنَ المجتمع العباسى بفن كما عُنى بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثَّر الجوارى حينئذ آثاراً كبيرة فى شيوع الظرف والرقة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادّة فى العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلىء بحانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون فى أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس . وكانت نار الشعوبية لا تزال متّقدة ، وصبّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهًا كادت تطفئها إلا قليلا ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد والزندقة ، ومن رءوس الزنادقة الملحدين فى العصر ابن الرّاوْنديّ ومحمد بن زكريا الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القويّ فى الأمة ، إنما كان الصوت القوى هو الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع لوعّاظه والالتفاف حول عبّاده ونسّاكه ، وهيأ ذلك لاتساع حركة التصوف ، وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثانى الهجرى ولكنها تأخذ حقًّا فى الازدهار بهذا العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطًا واسعًا ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ، والطلاب يفدون عليها من كل صوب متحولين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين التى كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان عامًّا مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصًّا لبعض الأفراد . وتُرْوَى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم فى سبيله وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدمًا ، ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب المترجمة ناصعة شديدة النصوع . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندى فى أوائل العصر والفارابى فى أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشْرَحُ النصوص القديمة شروحًا موسّعة ، وتوضَعُ بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين البصرية والكوفية فى النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

فى بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويُصْدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية فى السيرة النبوية وفى تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القرّاءَ السبعة المشهورين على العالم العربى الذى ارتضى ما أدّى فى ذلك من جهد علمى خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهرى الذى كُتب له الذيوع فى الأندلس والمغرب وخاصة فى عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو على الجُبَّائى وابنه أبو هاشم ، وتفرّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعرى الذى يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذى كُتب له الانتشار فى العالم الإسلامى .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعَمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربى . وأخذت تنشأ عربية مولَّدة ولكنها لم تَجرُ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضَّيْم ، إذ كانوا يتمثَّلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد فى الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذى اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربى يمسُّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومى وافراً ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشىء وذمه . وظل الشعراء يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجَّلوا فى مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا فى وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها. ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومى إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطاً ، واحتدم الرثاء ، وتفجّعوا على أبنائهم تفجعاً مريراً ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العلّاف مرثية فى هِرّ تُعَدُّ من عيون الرثاء ودُرَره . وصوّروا فى عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودماثتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادىّ الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعانى والأخيلة ، ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً . وأكثروا من التهانى والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحترى وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة فى وصف قصور الخلفاء وبذخهم فى البناء ؛ وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهى ، وفسحوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمى على نحو ما يلاحَظ عند ابن الجهم وابن المعتز فى نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيد فى نظمه للمعارف اللغوية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر على بن الجَهْم والبُحْترى وابن الرومى وابن المعتز والصَّنَوْبَرىّ ، فأما ابن الجهم فقرشى الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والواثق ويتخذه المتوكل جليساً ونديماً بينما يدّبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل فى الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً ، ثم نفاه إلى خراسان. وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك فى نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وليالى الأنس بالكَرْخ ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلِيَ نار النَّفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والمحن أنْ تمسّ نفسه .

وكان البحترى عربيًّا شاميًّا من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفى حلب تعرّف بفتاة تسمّى عَلْوة ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقى فى حمص أبا تمام حامل لواء الشعر فى عصره غير مدافَعٍ ، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ ،

فشجّعه ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد فى شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامرّاء وأصبح شاعر البلاط الرسمى من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفاً كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة فى عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقى فى الشعر العربى ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره فى المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صوّر معركة بحرية بقيادته دُمِّر فيها الأسطول البيزنطى . ولم يكن بارعاً فى الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقرق فيه الوجد كما يترقرق الماء فى الغصن ، وكان ماهراً فى وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومى يونانى الأصل وُلد ونشأ ببغـــداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الخصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتُروَى عنه فيه أقاصيص كثيرة . وكان يتشيَّع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورُّون عنه ، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تُغْلَقُ دونه ، ووَيْلٌ لمن كان يهجوه . وتردَّد فى ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد فى الهجاء كما أسلفنا ، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبى القاسم التَّوَّزِىّ وحواره مع هنّاته من أطرف ما نظمه شعراء العربية ، وله فى الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشْغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكْثِر من وصف مجالس الأنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة فى الزهد .

وكلٌ الشعراء السالفين من أبنـــاء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل فى الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة، وأعادهما المعتمد إلى سامرّاء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة فى عميه المعتمد والموفق وفى المعتضد وابنه المكتفى . وكانت مأساته فى أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير فى الخلافة ، ولكن حدث أن تولاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجْمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خَلْعه والبيعة لابن المعتز ، ويكون فى ذلك حَتْفه . وآثار بيئته المترفة واضحة فى أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه فى ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوِّح من حين إلى حين فى وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة. وله أشعار كثيرة فى الغزل واللهو والخمر وذم الصَّبوح ، وتكثر فى شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبرى من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى فى حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردَّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعيًّا ، وهو لا يَغْلو فى تشيعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذى ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفى أشعاره عناية واضحة بصناعتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلى ، وله غزل فى فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار فى الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضُرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدّ فاتح هذا الباب فى العربية ، وله أشعار بديعة فى وصف الديك والصيد والهِرِّ والجُرْذان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء فى العصر ، وفى مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدَّاحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته فى ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى ، أما مروان فكان يسير سيرة جَدّه مروان بن أبى حفصة فى الطعن على البيت العلوى ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعْنَى مثل جَدّه بصقل أشعاره . وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسى ، وهو مثال للنديم المثقَّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير فى مديح الخلفاء والوزراء وفى تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولى التركى الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته فى لُعْبة الشَّطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه فى الخليفة الراضى ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوى يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

فى العصر محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزَجّ به المتوكل فى غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش فى سامرّاء يمدحه ، وله أشعار طريفة فى زوجه وفى بعض أصدقائه . وكان الحِمّانى نقيب العلويين فى الكوفة وله مراث كثيرة ليحيى بن عمر العلوى يبكيه فيها بكاء حارًّا . وكان المفجّع شيعيًّا إماميًّا ، وكان يُكْثر من مديح على وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية فى العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور فى كتب التاريخ والأدب، ومثله يحيى بن زَكْرَوَيْه القرمطى الثائر بالشام وأبو طاهر الجنّابى صاحب الأحساء والبحرين. وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلف، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبى دلف فثار بأعمال الجبل بين همذان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم — إن هاجموه — إنذارات خطيرة . ويَكْثُر كثرة مفرطة شعراءُ الوزراء والولاة والقواد ، وفى مقدمتهم أبو على البصير وابن أبى طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة فى الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة فى الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبى طاهر مدائح كثيرة فى الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال والى الأهواز ، وخاصة بمقصورته فيه وقد شُرحت مراراً وتكراراً . وخمد فى العصر الهجاء القبلى ، وظل الهجاء الشخصى محتدمًا ، ومن أكبر الهجّائين فى العصر الصَّيْمرى ، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور . وأشد إيلامًا ووَخْزاً منه فى الهجاء الحمدونى ، وقد دارت على كل لسان فى عصره أهاجيه فى طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهَجّاء العصر غير منازَع ابن بَسّام ، وله فى أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً فى عصره دون أن يَكْوِيَه بميسم هجائه .

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حيًّا حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى فى العصر كن يَنْظِمْنَهُ ويتقنّ نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهرى وفضل الشاعرة وكان خالد كاتبًا فى الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصوّر فيها حبًّا ظامئًا لا يَرْوَى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهًا ظاهريًّا وغزله أفلاطونى نقى طاهر ، وكانت فضل من مولَّدات البصرة ، وهى أشعر الجوارى فى عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس فى اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون فى الديارات وفى الحانات وفى دور النخَّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجونًا الحسين بن الضحاك وأبو الشِّبْل البُرْجمِىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسى الأصل ، وتَشيعُ فى غزلياته وخمرياته عذوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشبْل فى تلك العذوبة ولا فى خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرف فى الخلاعة والمجون ، وله أشعار فى نصرانية هام بها هيامًا شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراءُ الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التى كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربَّها وتتقيه فى السر والعلن ، ويتغنَّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم فى المحبة الإلهية والفناء فى الذات العلية . ويظهر الحلاج الذى تمثل فى نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى على نحو ما يصوِّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدَّ لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعًا تؤدِّى إلى الله جلَّ جلاله . وكان الشبْلىّ الصوفى لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنيًّا ، مما جعله ينحىّ عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء فى الذات الإلهية . ويلقانا فى العصر شعراء كثيرون ينظمون فى الطرد والصيد ، وكان لهواً ومتاعًا للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه فى مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يتركون ضاريًا من ضوارى الصيد ولا جارحًا من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأتنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّبْل والسهام والفِخاخ والشباك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقَنَص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالمًا وناقداً كما كان شاعراً بارعًا ، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره فى صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه فى الطَّرَدِ والصيد ، وله أشعار

بديعة فى وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضًا فى وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلا بصيده . ويكثر فى العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوَّروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من ضَنْك شديد ، وصوَّر كثيرون التحامق فى صور هزلية . ولا يبارَى جَحْظة البرمكي — الضارب على الطُّنْبور — فى تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صبَّ سياطه على الحكام الفاسدين . ويمثل الخُبْز أرْزِيّ هذه الطبقة فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه فى البصرة يشغفون بأشعاره شغفًا شديداً .

وازدهر فى العصر النثر ازدهاراً عظيمًا ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرْجم من آثار ، وظهر الكندى أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثَّل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلا بارعًا . وأخذت بيئات مختلفة تتجادل فى معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثَّلها اللغويون ، وبيئة تفرط فى التجديد مثَّلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثَّلها المتكلمون ، وهى التى كُتب لها السَّداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وَضَع للبلاغة والبيان العربى من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسنًا فى تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة فى كتابه « أدب الكاتب » الذى وضعه نبراسًا للكتَّاب يهتدون به . ويصنِّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعًا لمقاييس البلاغة العربية فى النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب فى ذلك ابن وهب كتابه : «البرهان فى وجوه البيان» ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضًا إلى كتابيه فى المنطق والجدل . غير أن الأدباء فى عصره وبعد عصره ازوروا عن كتابه ومنهجه ، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبى العام الذى مثَّله الجاحظ فى كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة فى العصر ، ولكن المواعظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطرامًا على أيدى المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم فى قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضربًا من ضروب الأدب الشعبي حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم . وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب فى تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحَظُ فى كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات فى العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهـــاء ، ومناظرةُ الحسن بن عبد الله السيرافى ومتّى بن يونس فى النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليُعَنْوَنُ كثير من الكتب باسم الردّ أو النَّقْض ، وشاعت هذه الروح فى قصص وأخبار جُمِعت ونُسِّقت فى كتابى المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعى أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة فى العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة فى كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهين لعهد المهتدى سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة فى عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتّاب . ويشيع السجع فى الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وَشْيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبى على البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العَيْناء يسجع فى رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يُشيع السجع فى رسائله ،ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء فى اصطفاء اللفظ أو فيما يوشّيها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع فى رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبى طاهر ، ومثله ابن المعتز. وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز فى رسالة طريفة يمدح فيها سامرّاء ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاصاً بأن السجع سيعمّ مع أواخر القرن فى جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتّاب فى العصر إبراهيم بن العباس الصولى والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حُمَيْد وأبو العباس بن ثوابة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل فى دواوين الدولة وولاياتها حتّى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يصوّر عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحيانًا اجتلاب بعض الأسجاع . وفى تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة فى الصوت والجرس والأداء، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه، حتّى تروق كتاباته اللسان والجنان، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعًا خالصًا .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربيه قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمّى الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارَى فى وضوح كتاباته وقدرته على التوليد فى المعانى، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صوّر فى أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعْنَى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج، وحقًّا نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه فى جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتّى لا يمله القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها فى أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف، وهى لا شك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه. واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته فى استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللونان الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصّاصًا ممتازاً كما كان بارعًا فى سرد النوادر .

وأكبر مؤلّف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظًا فى بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التى ألهب بها ظهور الشعوبيين ، وأهم أسلحته الحربية التى اتخذها ضدهم فى رأينا أنه حاول فى كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجًا أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيًّا مستقلا أو هنديًّا أو يونانيًّا أو إسلاميًّا أو عربيًّا ، بل هى ثقافة واحدة ، وهى ثقافة تشمل أيضًا ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التى صاغها ابن قتيبة ، بحيث خفَتَ صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك فى أسلوب أدبى ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحيانًا والاسترسال أحيانًا أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحيانًا فى نقل الواقع وفى خلط الجد بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسى ، عُنى أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيسًا لديوان الرسائل فى عصر المستعين ، وينصُّ الطبرى على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعًا ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذى وصفناه ، ونحس عنده دائمًا رغبة قوية فى النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضربًا من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوابة من أسرة أصلها مسيحى ، عملت فى دواوين الدولة العباسية ، وتميَّز هو من بين أفرادها فى منتصف القرن الثالث الهجرى إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد فى مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفًا إليه مادة تصويرية بديعة .

# فهرس الموضوعات

صفحة

# كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

## فى الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم

الطبعة الثانية ١٠٥٢ صفحة

- سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

- عالمية الإسلام

الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة

- الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة

الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

## فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى

الطبعة الحادية والعشرون ٤٣٦ صفحة

- العصر الإسلامى

الطبعة الثامنة عشرة ٤٦١ صفحة

- العصر العباسى الأول

الطبعة الخامسة عشرة ٥٧٦ صفحة

- العصر العباسى الثانى

الطبعة الحادية عشرة ٦٥٧ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران

الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الشام

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات
مصر

الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الأندلس

الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة

- عصر الدول والإمارات
ليبيا – تونس – صقلية

الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات

الجزائر– المغرب الأقصى– موريتانيا – السودان

الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

## فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى

الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

- الفن ومذاهبه فى النثر العربى

الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

- التطور والتجديد فى الشعر الأموى

الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

- دراسات فى الشعر العربى المعاصر

الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

- شوقى شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

- الأدب العربى المعاصر فى مصر

الطبعة الثانية عشرة ٣٠٨ صفحة

- البارودى رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحة

- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية

الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

- البحث الأدبى:
طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره

الطبعة الثامنة ٢٧٨ صفحة

- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

- فى التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

• فى الشعر والفكاهة فى مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

## فى الدراسات النقدية

• فى النقد الأدبى

الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

• فصول فى الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

• فى الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

## فى الدراسات البلاغية واللغوية

• البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة

• المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

• تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

• تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

• تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

• تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

## فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

• ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

## فى مجموعة فنون الأدب العربى

• الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• المقامة

الطبعة السابعة ١٠٨ صفحات

• النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

## فى التراث المحقق

• المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

• كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

• الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

## السيرة النبوية

• محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

## فى سلسلة اقـرأ

• **العقـاد** الطبعة الخامسة

• **البطولة فى الشعر العربى** الطبعة الثانية

• **الفكاهة فى مصر** الطبعة الثانية

• **معى ( ١ )** الطبعة الثانية

• **معى ( ٢ )** الطبعة الأولى

• **القسم فى القرآن الكريم** الطبعة الأولى